إسعاف السؤول
في
شرح ثلاثة الأصول

تأليفُ:
الشَّيخ صَادِقِ بِن عَبدِ اللهِ السُّودانِي

نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية

إسْعَافُ السَّـؤُول

بشـرح

ثلاثـةِ الأصُـول

لأبي عبد الله صادق بن عبد الله

المجلد الأول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

أخي المسلم أختي المسلمة / السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد

فإن الاهتمام بعلم المعتقد، والحِرْصَ على صِحَّتِه، وتَصْحِيحِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، يُعَدُّ اهتماما بقضية الإنسان العظمى، والتفاتا لتحقيق كرامته والمحافظة عليها، كيف لا والله تبارك وتعالى يقول في محكم التنزيل:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]، ولنعلم أنه مهما حاول الإنسان أن يحافظ على مكانته في هذا العالم بعيدا عن قضيته التي لأجلها خلقه الله تعالى؛ فإنما يحاول عبثا ويجري وراء سراب، وسيتحول بهذا العبث من محل الكرامة إلى المهانة التي كتبها الله تبارك وتعالى على كل من اتخذ دينه لهوا ولعبا، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{١٧} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ** إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ{١٨} هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ{١٩} يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ{٢٠} وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ{٢١} كُلَّمَا أَرَادُوا أَن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ{٢٢} إِنَّ اللهَّ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٢٣} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{٢٤} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[الحج:١٧-٢٥]، فتأمل في سياق هذه الآيات، لترى أن الله تبارك وتعالى ذكر جملة من الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وغرتهم الأماني واتبعوا أهواءهم، وبين تبارك وتعالى أنه سيفصل بينهم يوم القيامة، ثم بين الحالة التي ينبغي أن يكون عليها العالم كله برمته علويه وسفليه، أن يكون ذليلا منقادا لأمر الله رب العالمين، فمن فعل كان مكرما شاكرا، ومن أبي كان لئيما مهانا، وستحق عليه كلمة العذاب.

بل وسيعيش الضنك الذي قضى به الله جل جلاله على كل من تنكب صراط الله المستقيم، كما قال تعالى:{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى{١٢٧} أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} [طه:١٢٣-١٢٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبئس الحال، لمن عَمَدَ إلى التحول، من الكرامة إلى المهانة، ومن ولاية الرحمن، إلى ولاية الشيطان، قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً{٧٠} يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{٧١} وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [الإسراء:٧٠-٧٢]، وقال سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}[الكهف:٥٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبب اختيار هذا الكتاب

إن المتأمل في أحوال التعليم والتَّعلُّم ؛ يجد أن من أعظم الأمور التي تكون بعد توفيق الله وسداده، عونا على جودة التحصيل، والثراء المعرفي لدى الطالب والمعلم، كثرة الشروحات المتاحة للمادة العلمية المراد طرحها وتناولها بالشرح، مما يزيد المعلومة نضجا ووضوحا في الذهن، وتكسب التحقق بالرسوخ فيها.

كما أن الشيوع والذيوع لتلك المادة - عند أهل العلم المعتنين بصفاء المعتقد والتحقق بهدي النبي المصطفى r - دال على أهميتها، ودرجة تلقيها بالقبول لدى العلماء الربانيين، مما يجعلها مرمى أنظار كثير من أهل العلم، وهذا لا شك أنه يكسب المادة قوة ووضوحا وانتشارا.

كما أن تداول مثل هذا الكتاب بهذه المواصفات، يجعل النفوس تطمئن إليه، وتعتد بالخبرة السابقة للجمهرة التي تناولته تعليما وتعلما، إذ ما جُرِّب دربُه وعظم نفعه، أوقع في النفس قبولا، وأخصر للطالب من كثرة التنقيب والعناء، بحثا عما يوصل إلى المطلوب بأقرب سبيل وأيسره مع الأمانة والعافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا انضاف إلى ذلك ما عرف به صاحب كتاب:(ثلاثة الأصول) والذي هو مَادَتُنَا – **شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى**- من الإمامة والديانة وسلامة المعتقد، مع التدقيق والتحقيق والرسوخ، وما قدمه من الجهاد العظيم في سبيل إقامة حق الله تبارك وتعالى على وجهه الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب، مع صبر وحلم عظيمين، وحرص على بث العلم رحمة للأمة، وإقامة للحجة، بشارة وإعذارا وإنذارا، عظم الانتفاع به، إذ أن أثر العلم الذي يُعمل به ليس كالنظري الذي لا حظ له من الجهاد العملي بالبيان والبرهان، والحجة والسنان.

ولأجل هذا وغيره من الأسباب المتفرعة عما تقدم؛ وقع الاختيار على هذا الكتاب، بغية شرحه وتفجير كنوزه، إسهاما في نشر العلم الشرعي، لاسيما علم المعتقد، الذي يُعَدُّ آكد الرَّكائز التي ينبني عليها قبول العمل عند الله عزَّ وجل، كيف وقد تناول الكتاب الركيزة الأخرى العظمى، ألا وهي تحقيق الاتباع للرسول r ، التي لا يمكن أن تنفك عن الأولى بحال، فلا قوام للعروة الوثقى إلا بهما، وهي تحقيق قول: **(لا إله إلا الله محمد سول الله)**، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مميزات الكتاب

إن من سَبَرَ غور هذا الكتاب، وعرف بعد نظرة مؤلفه، وما يرمي إليه من المعاني الكبار والمقامات الرفيعة العالية، وما يطمح إليه المؤلف من الجمع بين ما يكون به عز الدنيا وأمن الآخرة؛ يجد أنه بين يدي جملة من المزايا التي اجتمعت في هذا المُؤَلَّف، ومن باب الإسهام في ذلك رُمت ذكر شيء من ذلك، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسأسردها تباعا بلا تعليق:

١- كونه متعلق بسلامة المعتقد وتصحيحه.

٢- قلة جمله مع تضمينها المعاني والأصول الكبار.

٣- الترتيب الفائق للأفكار والجمل.

٤- استعمال أساليب بيانية وبلاغية رائعة أكسبت الكتاب جمالا وإشرقا.

٥- سهولة حفظها.

٦- البداءة بالأهم ثم المهم.

٧- سهولة الألفاظ وبعدها عن التعقيدات اللغوية.

٨- التركيز على القضايا الأظهر والأخطر مع عدم إهمال غيرها.

٩- الإكثار من الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم.

١٠- كونها مادة خصبة للتعليم والنشر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١١- تيسر مادتها فهما وإدراكا للعامة والخاصة.

١٢- التكرار غير الممل لترسيخ المعلومة الأخطر والأعظم.

١٣- التدريب على طريقة استنباط الأحكام والمعاني من نصوص الكتاب والسنة.

١٤- التودد للقارئ، وإظهار الحرص والإشفاق عليه والرحمة له.

١٥- إظهار أهمية الدعاء بالهداية والرشد للنفس والغير.

١٦- اطلاع المؤلف رحمه الله تعالى على مكمن الداء مما يسهل العلاج.

١٧- ربط القارئ بالسلف والعلماء الربانيين.

١٨- التذكير بضرورة عدم الاستنكاف في العلم، وأهمية المذل والتواضع، والاستفادة من علم الآخرين من أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبب تأليف الكتاب على هذا النمط من السعة

لما كانت هذه الأصول الثلاثة، تمثل الأصول الكبار التي يصح بها إسلام العبد، ويتحقق معها إيمانه بالله تعالى، أردت أن أتكلم على هذه الأصول بشيء من السَّعَةِ والتفصيل، حتى إذا أتم العبد حفظ الأصول الثلاثة، ثم قرأ هذا الشرح؛ حصل على جملة طيبة، وجرعة مناسبة في علم المعتقد عموما، فكانت بمنزلة السلاح الذي يتسلح به العبد، في مواجهة الفتن والشبه والضلالات والانحرافات العقدية، كما أنني اجتهدت، أن أذكر فيه أكثر الأمراض، والشبه والفتن العقدية المعاصرة، مع عدم إهمال، لما وقع من قَبْل من انحراف وضلال، وحرصت على أن أصوغه بحظ وافر من الوضوح والبيان، مع بساطة العبارة، وسَعَة المعلومة، قَدْرَ المُستطاع؛ ليتسنى قراءته على الأهل في المنزل، فيحصل بذلك جرعة وقائية للأهل في المنزل، وكذلك إذا قُرِأ عند الأقارب، وفي الاجتماعات العامة أو الخاصة، كما أن المتأمل يجد أن هناك قَدْرا مُقَدَّرا مُعتبرا من الشروحات المختصرة، والنافعة جدا، والمفيدة لهذا الكتاب، فأردت أن يكون هناك شرح لهذا الكتاب فيه شيء من السعة والبسط؛ ليكون مرجعا للمبتدئ، ومنطلقا للمجتهد، فما كان فيه من نفع وصواب فمن الله وحده وفضله ومَنِّهِ وكرمه، وحده لا شريك له، وما كان فيه من نقص وتقصير، فإنما هو جهد البشر غير المعصوم، وأنت أخي المسلم التمس لأخيك العذر، وحسبي أني اجتهدت أن أقدم ما أستطيع بصورة واضحة، ومعلومة دقيقة، والله المستعان، وهو من وراء القصد، والله الموفق. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(بسم الله الرحمن الرحيم).

الشرح

هذا اقتداء منه بالكتاب العزيز حيث وضعت البسملة في أول كل سورة منه، كما هو في المصحف العثماني، الذي هو محل إجماع من الصحابة **y**، فقد أجمعوا على كتابتها في أول كل سورة، إلا ما كان من سورة براءة، قيل لتنزلها بالسيف، وقيل لإعلان البراءة فيها من الكفر والكافرين، جملة وتفصيلا، وقيل غير ذلك، وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ الله **r** ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ". فَقَرَأَ:"بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}". ثُمَّ قَالَ:"أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ". فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ"[١].

---

١ - صحيح مسلم:[باب حُجَّةِ مَنْ قَالَ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَى بَرَاءَةَ].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الاستفتاح بالبسملة هو هدي النبي r ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستفتح كتبه ورسائله بالبسملة، كما جاء ذلك مصرحا به في الحديث الذي أخرجه البخاري من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قصة الكتاب الذي بعثه النبي r مع دحية الكلبي t إلى هرقل وفيه:بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ....الحديث[١].

وما أخرجه البخاري من طريق الزهري قال:أخبري عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا:خرج رسول الله r زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق _ فذكر خبر الحديبية إلى أن قال _ قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي r الكاتب، فقال النبي r : (بسم الله الرحمن الرحيم). قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي r : (اكتب باسمك اللهم)... الحديث[٢]. ورواه مسلم بمعناه من طرق عن البراء وأنس رضي الله عنهما.

---

١ - صحيح البخاري:[باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله r].

٢ - صحيح البخاري[باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الله تبارك وتعالى ذكر ذلك في كتابه العزيز من هدي الأنبياء والمرسلين من قبل، كما في ذكر كتاب سليمان عليه السلام الذي بعثه إلى بلقيس، كما قال الله تعالى: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}[النمل:٣٠].

وبهذا يتبين أن هذه هي السنة، في جميع الكتب والمراسلات، أن تستفتح بالبسملة دون الحمدلة، بخلاف الخطب والمواعظ الارتجالية، فالسنة استفتاح ذلك كله بالحمدلة، كما جاء ذلك في صحيح الإمام مسلم من طريق جعفر بن محمد عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ الله r يَخْطُبُ النـاسَ.يَحْمَـدُ اللهّ وَيُثْنِـي عَلَيْـهِ بِـمَا هُـوَ أَهْلُـهُ. ثُـمّ يَقُولُ:"مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَخَيْرُ الْحَـدِيثِ كِتَـابُ اللهّ. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَىَ مُحَمّدٍ. وَشَرّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ". ثُمّ يَقُولُ:"أَنَا أَوْلَىَ بِكُلّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ. وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضِيَاعاً فَإِلَيّ وَعَلَيّ"[١].

وعند مسلم أيضا من طريق عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أَنّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكّةَ. وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ. وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرّيحِ. فَسَـمِعَ سُـفَهَاءَ مِـنْ أَهْلِ مَكّةَ يَقُولُونَ: إِنّ مُحَمّداً مَجْنُونٌ. فَقَالَ: لَوْ أَنّي رَأَيْتُ هَذَا الرّجُلَ لَعَلّ الله يَشْفِيهِ عَـلَى يَدَيّ. قَالَ فَلَقِيَهُ. فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ إِنّي أَرْقِي مِنْ هذِهِ الرّيحِ. وَإِنّ اللهّ يَشْفِي عَلَىَ يَـدِي مَـنْ شَاءَ. فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"إِنّ الْحَمْدَ للهّ. نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ. مَنْ يَهْـدِهِ الله فَـلاَ

١- صحيح مسلم:[باب تخفيف الصلاة والخطبة]، والجملة الأخيرة منه من قوله r :"أنا أولى...الحديث" هو مخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُضِلّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمّا بَعْدُ". قَالَ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ. فَأَعَادَهُنّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله r . ثَلاَثَ مَرّاتٍ. قَالَ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السّحَرَةِ وَقَوْلَ الشّعَرَاءِ. فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ. وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ. قَالَ فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ. قَالَ فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله r : "وَعَلَىَ قَوْمِكَ" قَالَ: وَعَلَىَ قَوْمِي. قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ الله r سَرِيّةً فَمَرّوا بِقَوْمِهِ. فَقَالَ صَاحِبُ السّرِيّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدّوهَا. فَإِنّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ[1].

وما أخرجه الترمذي وصححه في ذكر خطبة الحاجة من طريق عبثر بن القاسم عن الأعْمَشِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عنْ أبي الأحْوَصِ، عنْ عَبْدِ الله قالَ: عَلّمَنَا رَسُولُ الله r التّشَهّدَ فِي الصّلاَةِ والتّشَهّدَ فِي الْحَاجَةِ. قالَ "التّشَهّدُ فِي الصّلاَةِ: التّحِيّاتُ لله والصّلَوَاتُ والطّيّبَاتُ. السّلاَمُ عَلَيْكَ أَيّهَا النبيّ وَرَحْمَةُ الله وبَرَكَاتُهُ. السّلاَمُ عَلَيْنَا وعَلَى عِبَادِ الله الصّالِحِينَ. أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله وأَشْهَدُ أَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ. والتّشَهّدُ فِي الْحَاجَةِ، إنّ الْحَمْدَ لله نَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ. ونَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيّئَات أَعْمَالِنَا، فمَنْ يَهْدِه أَيْ الله فَلاَ مُضلّ لَهُ. ومِنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلهَ إلاّ الله. وأَشْهَدُ أنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ" وَيَقْرَأُ ثَلاَثَ آيَاتٍ. قَالَ عَبْثَرُ: فَفَسّرَهَ لنا سُفْيَانُ

١ - صحيح مسلم:[باب تخفيف الصلاة والخطبة].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثّوْرِيّ: اتّقُوا الله حَقّ تقَاتِه ولاَ تَمُوتُنّ إلاّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. و{اتّقُوا الله الّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}. {اتّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}[1].

وهذه السنة مما خفيت على كثير من الناس؛ ولهذا ترى كثيرا من الشراح يعتذرون عن بعض السلف أنهم لم يستفتحوا مصنفاتهم بالحمدلة ببعض الأعذار ظنا منهم أن هذا خلاف الأولى، وكأنهم أخطئوا وحاشاهم في هذا المقام، بل قد أصابوا؛ لأنهم اتبعوا ما علموه من سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، وهذه الفائدة مما نبه عليها فضيلة شيخنا العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان، حفظه الله ورعاه، وسدد على الخير خطاه.

أما الأحاديث الدالة على أن الأفضل، هو تضمين الحمدلة عند البداءة بجميع الأمور فكلها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة[2]. والله أعلم.

---

١ - سنن الترمذي:[باب ما جاء في خطبة النكاح].

٢ - كالحديث الذي في مسند الإمام أحمد بن حنبل من طريق يحيى بن آدم ثنا بن مبارك عن الأوزاعي عن قرة بن عبد الرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله r :"كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر أو قال اقطع". وهذا إسناد ضعيف لحال قرة حيث يكاد يطبق الحفاظ على ضعفه ونكارة حديثه.

وله علة أخرى بينها الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي في سننه الكبرى وإليك نص كلامه:[أخبرنا محمود بن خالد حدثنا الوليد قال قال أبو عمرو وأخبرني قرة عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي r قال:"كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع".

أخبرني محمود بن خالد حدثنا الوليد حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن الزهري رفعه:مثله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي البسملة مباحث نذكر أهمها وأشهرها وهي سبع مباحث:

أولا: بعد أن اتفق العلماء على أنها آية من القرآن في سورة النمل، اختلفوا في حكم تعلقها بالسور على أقوال:

(الأول): ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها من السور، وهو قول مالك وأبي حنيفة.

(الثاني): أنها آية من كل سورة، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين، قال ابن كثير في تفسيره:[وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن

أخبرنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب:مرسل.

أخبرنا علي بن حجر حدثنا الحسن يعني بن عمر عن الزهري قال قال رسول r :"كل كلام لا يبدأ في أوله بذكر الله فهو أبتر".ا.هـ. فأنت كما ترى قد أرسل هذا الخبر عن الزهري أحد أوثق الناس فيه ألا وهو عقيل وتابعه الحسن بن عمر وهو ثقة، ومخالفة سعيد بن عبد العزيز لهما لا تؤثر، فعقيل أضبط لحديث الزهري منه؛ فتبين بهذا أن الخبر لا يصح إلا مرسلا من رواية الزهري.

وأخرجه عبد الرزاق في موضعين في [باب القول عند النكاح] وفي [تشقيق الكلام] عن معمر قال حدثني رجل من الأنصار رفع الحديث قال:"كل كلام ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر". وهذا حديث مرسل كما ترى لا تقوم بمثله حجة.

وجا هذا الخبر بلفظ:"كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) فهو أبتر". وفي لفظ:"فهو أقطع". رواه الخطيب والحافظ عبد القادر الرهاويوالسبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" ومداره على أحمد بن محمد بن عمران، و ابن عمران هذا هو ابن الجندي ترجمه الخطيب"في تاريخه". وابن الجندي متهم بالوضع، فهذا إسناد تالف، ورواه السبكي من طريق خارجة بن مصعب عن الأوزاعي به بلفظ:"لا يبدأ فيه بحمد الله". قلت:وخارجة بن مصعب متروك الحديث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن رَاهوَيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله].ا.هـ.

(الثالث): أنها آية في الفاتحة فقط وهذا مروي عن الشافعي.

(الرابع): أنها بعض آية من أول كل سورة، وهذا مروي أيضا عن الشافعي، قال ابن كثير في تفسيره:[وقال الشافعي في قولٍ، في بعض طرق مذهبه:هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان]ا.هـ.

(الخامس): أنها آية مستقلة في أول كل سورة، قال ابن كثير في تفسيره:[وقال داود:هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله]ا.هـ.

واحتجوا بحديث أبي هريرة في صحيح مسلم من طريق الْعَلاَءِ بن عبد الرحمن، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ: قَالَ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ. وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:{الْحَمْدُ لله رَبّ الْعَالَمِينَ} قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:{الرّحْمَنِ الرّحِيمِ}. قَالَ الله تَعَالَى:أَثْنَى عَلَيّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:{مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ} قَالَ:مَجّدَنِي عَبْدِي (وَقَالَ مَرّةً: فَوّضَ إِلَيّ عَبْدِي) فَإِذَا قَالَ:{إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ}. قَالَ:هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ:{اهْدِنَا الصّرَاطَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضّالّينَ}. قَالَ:هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ"[1]. فلم تُذكر البسملة في هذا الخبر.

وهذه المسألة مما لا يسوغ فيها التثريب على المخالف ولا التشنيع عليه،وقد أشار القرطبي إلى هذا المعنى حيث قال في تفسيره:[وهذا يدل على أن المسألة مسألة اجتهادية لا قطعية، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله]ا.هـ. (ذكر ذلك في تفسيره لسورة الفاتحة عند القول في البسملة).

أما الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال:«كان رسولُ الله r لا يعرف فَصْل السورة حتى ينزل عليه:{بسم الله الرحمن الرحيم}، فطريقه عند أبي داود:حدثنا قتيبة بن سعيد، قال:حدثنا سفيان عن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.فذكره.

بينما بين أبو داود أن الرفع مما تفرد به قتيبة عن الباقين حيث قال:حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيُّ وَابْنُ السَّرْحِ قَالُوا حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ - قَالَ قُتَيْبَةُ فِيهِ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r لاَ يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْهِ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). وَهَذَا لَفْظُ ابْنِ السَّرْحِ.ا.هـ.

---

١ - صحيح مسلم :[باب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ وَلاَ أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبين ذلك أيضا الحميدي في مسنده حيث قال ثنا سفيان قال عمرو عن سعيد بن جبير ولم يذكر فيه عن ابن عباس قال: كان النبي r إذا نزل عليه القرآن يعجل به يريد أن يحفظ فأنزل الله لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه الآية قال وكان رسول الله r لا يعلم ختم السورة حتى ينزل عليه: {بسم الله الرحمن الرحيم}. قلت: وهذا دال على أن هذا الخبر لا يصح إلا مرسلا.

ثانيا: التفريق بين التسمية والبسملة[1]، وأن البسملة لغة هي قولك:(بسم الله)، والتسمية هي قولك:(بسم الله الرحمن الرحيم)، وفي الاستعمال الفقهي تطلق التسمية ويراد بها الاقتصار على (بسم الله) كذلك، كالتسمية في أول الطعام والجماع والوضوء على خلاف في الأخير - إذ الراجح تركها عند الوضوء لعدم انتهاض الأدلة الواردة للاحتجاج، مع تظافر الأدلة الصحاح على عدم إيرادها في صفات الوضوء الثابتة -.

١ -جاء في لسان العرب:[وروي عن الفراء أنه قال لم نسمع بأَسماءٍ بنيت من أَفعال إِلاَّ هذه الأَحرف البسملة والسبحلة والهيللة والحوقلة أَراد أَنه يقال بسمل إِذا قال بسم الله وحوقل إِذا قال لا حول ولا قوَّة إِلا بالله وحمدل إِذا قال الحمد لله وجَعْفَلَ جَعْفَلَةً من جُعِلْتُ فداءك والحَيْعَلَةُ من حيّ على الصلاة]ا.هـ.وفي كتاب الصحاح في اللغة:[بسمل:قال ابن السكيت: بَسْمَلَ الرجل، إذا قال بِسْمِ الله. يقال: قد أكثرت من البَسْمَلَةِ، أي من قول بِسْمِ الله]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتظهر ثمرة الخلاف في هذا التفريق، بأن قول (بسم الله)هو ذكر وليس بقرآن بالاتفاق، بخلاف قول (بسم الله الرحمن الرحيم) فإنها بالاتفاق آية من سورة النمل، وفيما عداها فعلى الخلاف المتقدم تقريره، ويتفرع عن ذلك مسائل فقهية أخرى[١].

وبما أن كلا من التسمية والبسملة، هي ألفاظ شرعية، فإن الراجح التَّقَيُّد بِمَوارِد الشرع واستعمالاته لكل منها، فالقول بأن كل فعل صالح من قول أو عمل يشرع الاستفتاح فيه بالبسملة أو التسمية، هو قول فيه نظر، كما أن القياس هنا الراجح أنه غير معمول به، إذ الشأن في الأذكار أنها توقيفية، هذا هو الأصل[٢]، ونسبة شيء إلى الشرع يحتاج إلى دليل خاص، والقياس يحتاج أن يكون مُعَلَّلاً بِعِلَّةٍ مُنْضَبطة، أو أن ينص عليها الشارع، وليس شيء من ذلك حاصلا في التسمية أو البسملة، وعليه فالراجح أن ما

---

١ - كمسألة هل يقولها الجنب والحائض أم لا، على أن الراجح جواز ذلك، وليس هذا محل بسطه، فقد بينته في شرح العمدة وبلوغ المرام، ومسألة هل يجوز مس ما كتبت فيه باعتبار أنها من القرآن على الخلاف المحفوظ في ذلك.

٢ - لما جاء في الصحيحين عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ r :"إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لاَ مَلْجَأَ، وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" قَالَ فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ r فَلَمَّا بَلَغْتُ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ قُلْتُ:**وَرَسُولِكَ**، قَالَ:"لا**وَنَبِيِّكَ** الَّذِي أَرْسَلْتَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورد في الشرع بلفظ التسمية أو البسملة وجب المصير إليه، فمثلا في أول الطعام نقول (بسم الله)، وكذلك عند الجماع، ولكن عند تلاوة القرآن نقول:(بسم الله الرحمن الرحيم)، وكذلك في المكاتبات والرسائل، وهكذا حيث ورد فنتقيد بالوارد من ذلك.

وإذا كان البعض يقيس الوضوء على الجماع والطعام بقياس الأولى، فنقول أليست العلة هنا طلب البركة بالاستفتاح باسم الله تعالى؟، فالجواب بلى، فنقول أليست هذه العلة مطلوبة في جميع الأعمال الصالحة، وعليه فيلزم من ذلك طرد هذا القياس في كل عمل صالح، كالأذان والإقامة والقيام إلى الصلاة وعند الإحرام وأداء المناسك إلى غير ذلك، وهذا لاشك أنه من أبعد ما يكون، وبهذا نعلم أن العلة غير معلومة هنا، بل هو التعبد لله تعالى بما شرع في هذا الموطن أو ذاك، فحيث وردت عملنا[1]، وحيث لم ترد أمسكنا، والله أعلم.

---

١ - ولتمام الفائدة نذكر جملة من ذلك، فمنها ما في صحيح مسلم عَنْ أَبِى سَعِيدٍ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِىَّ r فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ فَقَالَ:"نَعَمْ"، قَالَ:"بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ". وفي صحيح مسلم أيضا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِى الْعَاصِ الثَّقَفِىِّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ r وَجَعًا يَجِدُهُ فِى جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ r :"ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِى تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ . ثَلاَثًا. وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"، ومنها في النحر كما في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ ضَحَّى النَّبِيُّ r بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ وَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا، ومنها عند دخول المنزل على خلاف في معنى قوله r :"إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ تَعالى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعامِهِ قالَ الشَّيْطانُ: لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلا عَشاءَ؛ وَإِذا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعالى عِنْدَ دُخُولِه، قالَ الشَّيْطانُ: أَدْرَكْتُمُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المَبِيتَ؛ وَإذا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعالى عِنْدَ طَعامِهِ قالَ: أدْرَكْتُمُ المَبِيتَ والعَشَاء" رواه مسلم عن جابر t ، فمن حمله على التسمية فظاهر، ومن قال المراد مطلق الذكر فلا يكون حجة على هذا، ومنها عند الخروج من المنزل كما في قوله عليه الصلاة والسلام عن أنس t قال: قال رسول اللهّ r :"مَنْ قالَ ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسْمِ الله، تَوَكَّلْتُ على الله، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله، يُقالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَهُدِيتَ، وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطانُ" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وقال الله تعالى:"فكلوا مما ذكر اسم الله عليه". [الأنعام:١١٨]. وقوله:"وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها" [هود:٤١]. وقال رسول الله r :"أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله" متفق عليه من حديث جابر t ، وقال r :"لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً" متفق عليه من حديث ابن عباس t ، وقال لعمر بن أبي سلمة:"يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" متفق عليه. وقال r :"إن الشيطان يستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه" رواه مسلم عن حذيفة t ، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:قَالَ رسول الله r :"إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ الله تَعَالَى، فإنْ نَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ الله تَعَالَى في أوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بسم الله أوَّلَهُ وَآخِرَهُ". رواه أبو داود والترمذي، وقال:حديث حسن صحيح، ومنها قوله عليه السلام:"من لم يذبح فليذبح باسم الله" متفق عليه من حديث جندب t ، إلى غير ذلك من الأدلة الواردة في هذا الصدد، وبما أن التلفظ بالبسملة عبادة لله تعالى؛ فالظاهر أنه يجب فيها ما يجب في سائر العبادات أن تكون خالصة لله تعالى وتابعة للدليل؛ وعليه فلا تشرع التسمية إلا في المواطن التي صح فيها الدليل، وما عدا ذلك فلا يمكن القول بسنية ذكرها في أول كل فعل من الأفعال، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا: هل تقرأ البسملة عند القراءة من غير أوائل السور أم لا؟، في ذلك خلاف بين أهل العلم والظاهر أنه إن كان التالي للقرآن في بداية قراءته، أي في أول شروعه في التلاوة من أواسط السُّوَر، يريد بذلك البركة، بذكر البسملة جاز له ذلك، وقيل: إن طَلَب البركة أمر تعبدي، وهذا يحتاج إلى دليل؛ فالأولى المنع من ذلك، والاكتفاء بما ورد من الاستعاذة، أما إن كان يقرأ من أواسط سورة ما ثم أراد أن يقرأ من أوسط سورة أخرى فإنه يكتفي بالاستعاذة.

وجاء في كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح:[فَصْلٌ:(فِي التَّعَوُّذِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ وَالْبَسْمَلَةِ لِكُلِّ سُورَةٍ).وَيُسَنُّ التَّعَوُّذُ فِي الْقِرَاءَةِ، فَإِنْ قَطَعَهَا قَطْعَ تَرْكٍ وَإِهْمَالٍ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعُودُ إلَيْهَا أَعَادَ التَّعَوُّذَ إذَا رَجَعَ إلَيْهَا، وَإِنْ قَطَعَهَا بِعُذْرٍ عَازِمًا عَلَى إتْمَامِهَا إذَا زَالَ عُذْرُهُ كَفَاهُ التَّعَوُّذُ الْأَوَّلُ، وَإِنْ تَرَكَهَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ فَيَتَوَجَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا ثُمَّ يَقْرَأُ؛ لِأَنَّ وَقْتَهَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ لِلاسْتِحْبَابِ فَلَا يَسْقُطُ بِتَرْكِهَا إذَنْ؛ وَلِأَنَّ الْمَعْنَى يَقْتَضِي ذَلِكَ، أَمَّا لَوْ تَرَكَهَا حَتَّى فَرَغَ سَقَطَتْ لِعَدَمِ الْقِرَاءَةِ. وَتُسْتَحَبُّ قِرَاءَةُ الْبَسْمَلَةِ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا نَصَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ:لَا يَدَعَهَا، قِيلَ لَهُ:فَإِنْ قَرَأَ مِنْ بَعْضِ سُورَةٍ يَقْرَؤُهَا؟، قَالَ:لَا بَأْسَ، فَإِنْ قَرَأَ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ فَإِنْ شَاءَ جَهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَجْهَرْ نَصَّ عَلَيْهِ فِي رِوَايَتِهِ أَبِي دَاوُد وَمُهَنَّا قَالَ الْقَاضِي : مَحْصُولُ الْمَذْهَبِ أَنَّهُ بِالْخِيَارِ وَالْإِسْرَارِ كَمَا كَانَ مُخَيَّرًا فِي أَصْلِ الْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ.وَكَالِاسْتِعَاذَةِ وَعَنْهُ يَجْهَرُ بِهَا مَعَ الْقِرَاءَةِ وَعَنْهُ لَا يَعْتَدُّ بِتِلْكَ قُرْبَةً، فَلَا يَجُوزُ. وَقَالَ صَالِحٌ فِي مَسَائِلِهِ عَنْ أَبِيهِ وَسَأَلْتُهُ عَنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَسُورَةِ التَّوْبَةِ هَلْ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَهُمَا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ أَبِي:يَنْتَهِي فِي الْقُرْآنِ إلَى مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ r لَا يُزَادُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ. وَهَذَا مَعْنَى مَا نَقَلَ الْفَضْلُ وَأَبُو الْحَارِثِ].ا.هـ.والله أعلم.

رابعا: كتابتها في أول الشعر:قال القرطبي:[اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروى مجالد[1] عن

---

١ - قلت: هذا الأثر جاء في كتابالجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي فأنا أبو نعيم الحافظ نا عبد الله بن جعفر بن أحمد بن فارس نا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود نا عبد الله النفيلي نا جنادة بن سلم من ولد جابر بن سمرة أنا مجالد عن الشعبي قال:«أجمعوا أن لا يكتبوا أمام الشعر» {بسم الله الرحمن الرحيم}. قلت: ومجالد هذا هو ابن سعيد وهو ضعيف عند جمهور المحدثين، وأما ما جاء أيضا في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي:[أنا محمد بن عبد العزيز البرذعي أنا أحمد بن محمد بن عروة نا عمر بن الحسن بن علي بن مالك نا محمد بن القاسم بن خلاد نا يعقوب بن محمد الزهري نا عبد العزيز بن عمران الزهري عن ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال:«مضت السنة ألا يكتب في الشعر» {بسم الله الرحمن الرحيم} «وممن ذهب إلى رسم التسمية في أول كتاب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين، وهو الذي نختاره ونستحبه].ا.هـ. قلت:هذا أثر شديد الضعف، فإن عبد العزيز بن عمران الزهري متروك الحديث، ويعقوب بن محمد الزهري وابن أخي ابن شهاب فيهما لين.

وجاء في كتاب الأمر بالمعروف للخلال:[أخبرني عبد الله بن محمد بن عبد الحميد، قال:حدثنا بكر بن محمد عن أبيه عن أبي عبد الله أنه سئل عن الرجل يكتب {بسم الله الرحمن الرحيم} أمام الشعر فكأنه لم يعجبه وقال:حدثنا حفص عن مجالد عن الشعبي قال:«كانوا يكتبون أمام الشعر {بسم الله الرحمن الرحيم}، وقال:{بسم الله الرحمن الرحيم} هي آية من القرآن، فما بال القرآن يكتب مع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشعبي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر"بسم الله الرحمن الرحيم". وقال الزهري: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر "بسم الله الرحمن الرحيم". وذهب إلى رسم التسمية في أول كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذي نختاره ونستحبه]ا.هـ.

ويمكن القول بالتفصيل أنه إذا كان الشعر خبيثاً ماجناً، أو غزلياً ساقطاً مُنع من وضع البسملة في أوله؛ لأن هذا لا يليق، بل قد يعد من الامتهان لاسم الله تبارك وتعالى، وهذا عظيم جدا، وأما إذا كان الشعر مباحاً، أو كان في نصرة الحق، أو تضمن معنىً حسناً، من رثاءٍ أو مدحٍ أو هجاء محمودٍ؛ فلا بأس من وضع البسملة في أوله، ويشهد لهذا القول ذلك التفصيل الوارد في كتاب الله تعالى في أصناف الشعراء، والتفريق بينهم بناء على حالهم وما يتعاطونه من شعر، حيث قال تبارك وتعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

الشعر؟ وقال:هذا حديث أنس:أن النبي r قال:"أنزلت علي سورة وقرأ:{بسم الله الرحمن الرحيم}.وهو حجة ألا يكتب أمام الشعر]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خامسا: في معنى البسملة واشتقاقها: أما قوله "بسم الله" فمعناه على الراجح أي بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ واختلفوا في معنى دخول الباء عليها، هل دخلت على معنى الأمر، فيكون التقدير: ابْدَأْ باسم الله. أم على معنى الخبر، فيكون التقدير: ابتدأت باسم الله؛ قولان، وقيل: التقدير ابتدائي ببسم الله موجود أو ثابت. واختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقيل: هو مشتق من السُّمو وهو العلو والرفعة، وقيل:إنما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمي الكلمة:الحرف والفعل؛ وقيل: إنه مشتق من السمة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له، وقيل غير ذلك.

قوله:**"الله"** هذا الاسم عَلَمٌ على ذات الله تبارك وتعالى، وقيل هو أعظم أسمائه سبحانه وتعالى وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يثن ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلي قوله تعالى: "هل تعلم له سميا" [مريم:٦٥]، أي تسمى باسمه الذي هو "الله". فالله اسم للإله المعبود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بنعوت جلاله وصفات كماله، لا إله إلا هو سبحانه وحده الذي يستحق أن يعبد.

وهذا الاسم **(الله)** قد اشتمل على أنواع التوحيد كلها، بأنواع الدلالات الثلاث، إما مطابقة أو تضمنا أو التزاما، فهو دال على توحيد الألوهية بالمطابقة، لأنه دال بلفظه مطابقة على معاني التأله والتعبد، وهو دال على توحيد الربوبية بالالتزام، فمن لوازم الإله الحق أن يكون رابا متصرفا في خلقه قائما قيوما، كما قال تعالى:{لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي}، وهو دال على توحيد الأسماء والصفات بالتضمن، إذ الإله الحق هو الذي له الأسماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحسنى وصفات الجمال ونعوت الجلال، له جميع الكمالات والصفات العلا، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى:١١]. والله أعلم.

واختلفوا في هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَمٌ؟. والراجح أنه مشتق كما رجح ذلك سيبويه واختاره ابن القيم رحمه الله تعالى، وهو مشتق من أَلَه يَأْلَهُ أَلَاهَةً فهو مَأْلُوه، أي المعبود المحبوب المنعوت بصفات الكمال ونعوت الجمال والجلال، الذي تأله الخلائق حبا وعبودية، وشوقا وطلبا لمعونته ورحمته وإنما سمي "الله" إلها، لأن الخلق يتألهون إليه في حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم، فهو المعبود الحق لا إله حق سواه، ولا رب للعالمين غيره؛ ولهذا يقال: أله الرجل إذا تعبد، وتأله إذا تنسك؛ ومن ذلك قوله تعالى:{ويذرك وإلاهتك} [الأعراف:١٢٧]، على هذه القراءة؛ فان ابن عباس وغيره قالوا: وعبادتك.

فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه المقصود المستحق للعبادة، ومنه قول الموحدين: لا إله إلا الله، ومعناها لا معبود بحق إلا الله تعالى.

وقيل: إنه مشتق من الارتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهاً، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس:لاهت.

وقيل: إنه مشتق من "وَلَهَ" إذا تحير؛ والوَلَهُ: ذَهَابُ العقل. يقال: رجل وَالِهٌ وامرأة وَالِهَةٌ وَوَالِه، ومَاءٌ مُوَلَّهٌ: أرسل في الصحاري. فالله سبحانه وتعالى تتحير الألباب في معرفة كنهه أي كيف هو، وتعجز العقول عن معرفة حقائق صفاته ويتوقف الفكر عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معرفة كماله وجلاله وجماله، كما قال تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:١٠٣]، وقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:١١]، وقال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، وهو سبحانه وتعالى من صفاته العلو، فله جميع معاني العلو وأنواعه، علو القدر والقهر والذات، جل الله في علاه.

سادسا: واختلفوا أيضاً في اشتقاق اسم الله(الرحمن)، فقال بعضهم: لا اشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، والراجح أنه مشتق، كما رجح هذا ابن كثير وغيره، وقال القرطبي في تفسيره:[وذهب الجمهور من الناس إلى أن "الرحمن" مشتق من الرحمة مبني على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى "الرحيم" ويجمع.

قال ابن الحصار: ومما يدل على الاشتقاق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله r : يقول:"قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته". وهذا نص من الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له]ا.هـ.

سابعا: واختلفوا في معنى (الرحمن الرحيم) هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟، فقيل: هما بمعنى واحد؛ والراجح أنهما بمعنيين وبينهما عموم وخصوص فـ "الرحمن"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاص الاسم عام الفعل. و"الرحيم" عام الاسم خاص الفعل. وأنهما اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و{الرحمن} أشد مبالغة من {الرحيم} . قال أبو علي الفارسي: "الرحمن" اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله. "والرحيم" إنما هو في وجهة المؤمنين؛ كما قال تعالى: "وكان بالمؤمنين رحيما" [الأحزاب:٤٣]. وقال العرزمي: "الرحمن" بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة، "والرحيم" بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطيف بهم. وقال ابن المبارك: "الرحمن" إذا سئل أعطي، و"الرحيم" إذا لم يسأل غضب. وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة.

قال ابن كثير في تفسيره:[قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي،حدثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزَميّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان:٥٩]، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه:٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]، فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}، ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكروه، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠]. وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة:١٢٨]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[الإنسان:٢].ا.هـ.

قلت: وأكثر العلماء على هذا أن "الرحمن" مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به غيره؛ ولهذا قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأسماء تنقسم من حيث إطلاقها إلى ثلاثة أقسام فمنها المختص بالله تعالى وحده دونما سواه ومنها المشترك ومنها المختص بالمخلوق على ما سيأتي تقريره وتفصيله فيما سيأتي بإذن الله تعالى .وعليه فإن قولك بسم الله الرحمن الرحيم دال على الذات والصفات.

قال ابن كثير في تفسيره:[والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولا إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله r لعَلي: "اكتب {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}"، فقالوا:لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}[الفرقان:٦٠]. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال:

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها ... ألا قَضَبَ الرحمنُ رَبى يمينها

وقال سلامة بن جندب الطهوي:

عَجِلتم علينا عَجْلَتينَا عليكُمُ ... وما يَشَأ الرّحْمَنُ يَعْقِد ويُطْلِقِ

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن:الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال:{الرحمن الرحيم} [الفاتحة:٣] الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مَسْعَدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى]ا.هـ.

قلت: وهناك مباحث أخرى ولكن متعلقها بموضوع الكتاب فيها شيء من البعد فأعرضت عنها. وبالله التوفيق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَع مَسَائِلَ:

الشرح

قوله:(اعلم رحمك الله): هذا الأسلوب، أعني أسلوب إلقاء العلم عن طريق الأمر، هي طريقة واضحة المعالم في الكتاب والسنة، وهي طريقة تربوية رفيعة، ذلك لأن إيقاع التعليم بصيغة الأمر على ذهن السامع أبلغ وأنفع، فإن فيه شحذا للهمم ولفتا للانتباه، ألا ترى أنك إذا قلت للإنسان: اسمع أو اعلم أو نحو ذلك من الألفاظ، حصل منه انتباه إليك وأقبل بكليته عليك، لشعوره أنك تريد أن تحدثه عن أمر بالغ الأهمية، هذا ما يتبادر إلى خَلَدِه ورَوعِه. وعليه فإن هذا الأسلوب هو أسلوب دعوي جميل ينبغي أن يستعمله المسلم في دعوته، فالمؤلف إذن عَمَدَ إلى هذا الأسلوب وغَلَّفَه بالدعاء بالرحمة حبا منه لإيصال الخير إليك؛ وليكون أبلغ في سماعه والامتثال له، ومن هذا يتعلم طالب العلم أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله تعالى.والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(يجب): الوجوب لغة السقوط اللازم لمكانه، ومنه قوله تعالى:{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الحج: ٣٦] ، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى:قوله:{فإذا وجبت جنوبها} يقول: فإذا سقطت فوقعت جنوبها إلى الأرض بعد النحر، {فكلوا منها} وهو من قولهم: قد وجبت الشمس: إذا غابت فسقطت للتغيب، ومنه قول أوس بن حجر:

ألم تكسف الشمس والبدر والكواكب للجبل الواجب

يعني بالواجب: الواقع. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل].انتهى.

وشرعا: اللازم بدليل يتضمن الأمر بالفعل، وهو الذي يثاب فاعله، ويعاقب تاركه، وفي التفريق بينه وبين الفرض أقاويل مختلفة بين أهل العلم، والراجح أنهما مترادفان إلا إن دل دليل على المغايرة، أو دل السياق على التباين، فيتعين المصير إليه.والله أعلم.

وفي قوله:(يجب)، تذكير بأهمية البُداءة بالأهم ثم المهم، وعلى هذا رتب الشارع الكريم المأمورات، في جميع شؤون الشريعة ومسائلها، فلا تُخْطِئَنَّ السبيل، فإن فقه الفاضل والمفضول، والمهم والأهم، أمر ضروري لتحقيق العبادة على الوجه الذي يريده الله تبارك وتعالى ويحبه، وإلا وقعنا في مزالق الشيطان والهوى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الأدلة على ذلك، قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥١-١٥٣]، وتسمى هذه الآيات بآيات الحقوق العشرة، وأنت ترى أن الله تبارك وتعالى بدأ فيها بحقه قبل حقوق المخلوقين، وبالتوحيد قبل باقي شرائع الدين.

ومنها قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢١٧]، فبين تبارك وتعالى أن القتال في الأشهر الحرم عظيم، ولكن أعظم منه وأقبح وآكد أن يجتنب ويتقى، الصد عن سبيل الله والعمل بالكفر به، والإلحاد في المسجد الحرام، وطرد عُمَّارِهِ الحقيقيين، الذين يعمرونه بالتوحيد، ثم بين تبارك وتعالى أن أعظم من ذلك كله الشرك بالله تعالى، وهي الفتنة المذكورة في هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآية. وكما في قوله تعالى، قبل ذلك، في نفس السورة:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩١]، وقوله:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣].

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t ، قَالَ:سَأَلْتُ النَّبِيَّ r أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله قَالَ:"أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ قَالَ:"وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ"، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ:"أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَّ قَالَ:{مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ}".

ونحو ذلك من النصوص الدالة على هذا المعنى، فتفطن له؛ فإنه أصل عظيم. وهذا كما ترى عام في باب المأمورات والمنهيات، وإن كانت المنهيات هي أصالة من المأمورات، حيث أمر الشارع بتركها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه(مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين):[فصل النظر الرابع نظره إلى الآمر له بالمعصية المزين له فعلها الحاض له عليها وهو شيطانه الموكل به؛ فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذه عدوا وكمال الاحتراز منه والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات بعضها أصعب من بعض لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها:

العقبة الأولى:عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان؛ طلبه على

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئا والبدعتان في الغالب متلازمتان قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى كما قال بعضهم تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة؛ فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة، فإن قَطَعَ هذه العقبة وخَلُصَ منها بنور السُّنَّةِ واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهيهات أن تسمح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل وبَغَوْهُ الغَوَائِل، وقالوا مبتدع محدث، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة؛ طلبه على

العقبة الثالثة:وهي عقبة الكبائر فإن ظفر به فيها زينها له وحسنها في عينه وسوف به وفتح له باب الإرجاء وقال له الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله لا يضر مع التوحيد ذنب كما لا ينفع مع الشرك حسنة والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين ودفعها لما بعث الله به رسوله وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها بل يدعو الخلق إليها ولتضمنها القول على الله بلا علم ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها والاجتهاد على إطفاء نور السنة وتولية من عزله الله ورسوله وعزل من ولاه الله ورسوله واعتبار ماردده الله ورسوله ورد ما اعتبره وموالاة من عاداه ومعاداة من والاه وإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل وقلب الحقائق بجعل الحق باطلا والباطل حقا والإلحاد في دين الله وتعمية الحق على القلوب وطلب العوج لصراط الله المستقيم وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر والعميان ضالون في ظلمة العمى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح تنجيه منها؛ طلبه على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر فكال له منها بالقفزان وقال ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه فالإصرار على الذنب أقبح منه ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال:"إياكم ومحقرات الذنوب"[1] ثم ضرب لذلك مثلا بقوم

---

١ - هذا الخبر رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق أَنَسِ بْنِ عِيَاضٍ حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ لاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ". قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:[رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة]ا.هـ. قلت:وظاهره الصحة لولا قول أبي حازم:(لاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ).

ويشهد له ما جاء في صحيح البخاري. في (باب مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ). ثم ساق حديث أَنَسٍ t ، قَالَ:"إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ r الْمُوبِقَاتِ".قَالَ أَبُو عَبْدِ الله يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ.

وفي مصنف ابن أبي شيبة وسنن النسائي الكبرى وسنن الدارمي وغيرهم من طريق عوف بن الحارث عن عائشة قالت قال لي رسول الله r :"ياعائشة إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبا" قال في الزوائد:إسناده صحيح.رجاله ثقات.ا.هـ.قلت: عوف بن الحارث ليس بذاك الكبير ولم يوثقه كبير أحد وإن كان البخاري قد أخرج له، ولكن هذا لا يعني تقويته خارج الصحيح،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب فجعل هذا يجيء بعود وهذا بعود حتى جمعوا

فالبخاري إنما ينتقي من أحاديث الرجال المتكلم فيهم ما ضبطوه وصح مخرجه. والخبر أخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري:[وصححه بن حبان].

وفي مصنف عبد الرزاق من طريق معمر عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال:"مثل محقرات الذنوب كمثل قوم سفر نزلوا بأرض قفر معهم طعام لا يصلحهم إلا النار فتفرقوا فجعل هذا يجيء بالروثة ويجيء هذا بالعظم ويجيء هذا بالعود حتى جمعوا من ذلك ما أصلحوا به طعامهم فكذلك صاحب المحقرات يكذب الكذبة ويذنب الذنب ويجمع من ذلك ما لعله أن يكبه الله به على وجهه في نار جهنم". قلت: وهذا إسناد صحيح وقد روي مرفوعا ولا يصح كما في شعب الإيمان للبيهقي.

وفي شعب الإيمان للبيهقي بإسناد ظاهره الصحة قال أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ، أَنَا أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ الْخَضِرِ الشَّافِعِيُّنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ نا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ الْمَرْوَزِيُّ نا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ نا أَبُو حَمْزَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ قَالَا:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ رَاضٍ مِنْكُمْ بِمَا تَحْتَقِرُونَ".

وفي شعب الإيمان أيضا أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ نا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَمْدَانَ الصَّيْرَفِيُّ نا أَبُو الْأَحْوَصِ مُحَمَّدُ بْنُ الْهَيْثَمِ الْقَاضِي حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ نا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ عَنْ يُونُسَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:"أُحَذِّرُكُمْ مُحَقَّرَاتِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، وَإِنَّهَا تُحْصَى عَلَيْكُمْ، وَتُرَدُّ عَلَيْكُمْ".هَكَذَا جَاءَ مَوْقُوفًا.ا.هـ. قلت:وهذا إسناد فيه لين لحال:إسماعيل بن أبي أويس.

ثم روى حديث عن أَبَي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِي يَقُولُ:"إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ، يَتَّكِلُ عَلَيْهَا، وَيَعْمَلُ الْمُحَقَّرَاتِ حَتَّى يَأْتِيَ اللهَ وَقَدْ أَحْطَرَتْهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَيَفْرَقُ مِنْهَا حَتَّى يَأْتِيَ اللهَ آمِنًا". قلت: إسناد فيه ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حطبا كثيرا فأوقدوا نارا وأنضجوا خبزتهم فكذلك فإن محقرات الـذنوب تجتمـع عـلى العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه، فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السيئة الحسنة؛ طلبه على

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التـي لا حـرج عـلى فاعلهـا فشـغله بهـا عـن الاستكثار من الطاعات وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ثم طمع فيه أن يستدرجه منهـا إلى ترك السنن ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات وأقل ما ينال منـه تفويتـه الأربـاح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية ولو عرف السـعر لمـا فـوت عـلى نفسـه شـيئا مـن القربات ولكنه جاهل بالسعر، فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هـاد ومعرفـة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء وخطر التجارة وكـرم المشـتري وقدر ما يعوض به التجار فبخل بأوقاته وضن بأنفاسه أن تذهب في غـير ربـح طلبـه؛ العدو على

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضـولة مـن الطاعـات فـأمره بهـا وحسنها في عينه وزينها له وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عـما هـو أفضـل منها وأعظم كسبا وربحا لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسـيره كمالـه وفضله ودرجاتـه العاليـة فشـغله بالمفضـول عـن الفاضـل وبـالمرجوح عـن الـراجح وبالمحبوب لله عن الأحب إليه وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة فهم الأفراد في العـالم والأكثـرون قـد ظفـر بهـم في العقبات الأول، فإن نجا منها بفقه في الأعـمال ومراتبهـا عنـد الله ومنازلهـا في الفضـل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومعرفة مقاديرها والتمييز بين عاليها وسافلها ومفضولها وفاضلها ورئيسها ومرؤوسها وسيدها ومسودها فإن في الأعمال والأقوال سيدا ومسودا ورئيسا ومرؤوسا وذروة وما دونها كما في الحديث الصحيح :"سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت..... الحديث"[١]، وفي الحديث الآخر:"الجهاد ذروة سنام الأمر"[٢]، وفي الأثر الآخر:إن الأعمال تفاخرت فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم السائرين على جادة التوفيق قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه، فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته في الخير فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله وظاهر عليه بجنده وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره جد العدو في إغراء السفهاء به فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى عبودية المراغمة ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه]ا.هـ.

---

١ - أخرجه البخاري من حديث شدادا بن أوس.

٢ - سيأتي بإذن الله تعالى تخريجه في محله من آخر الكتاب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فما أنفس هذا الكلام، وما أبلغ هذه الموعظة، فاللهم اهد قلوبنا، وسدد أعمالنا وتولنا، فإنك أنت نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بك.

كما أن في قوله:(**يجب**) تذكيرا بمراتب العلوم، وأن منها ما هو واجب ومنها ما دون ذلك، والمعنى أنه يتعين علينا البداءة بالواجب قبل المستحب، بالأهم قبل المهم، وبالفاضل قبل المفضول، فكيف بمن يعكس ذلك، بل كيف بمن يبدأ بالعلوم المحرمة ويشتغل بها عما شرعه الله. كما سيأتي بيانه عند الحديث عن العلم ومراتبه وأنواعه.

قوله:(علينا) هذا أسلوب تربوي بديع آخر من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، حيث يدخل المتحدث نفسه في خطابه مع الآخرين؛ ليكسر الحاجز بينه وبين السامعين؛ وليبين أهمية الأمر، وأن الجميع بحاجة ماسة إليه، السامع والمتحدث، وشواهد ذلك كثير جدا في الكتاب العزيز، فمنها قوله تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨]، وقوله تعالى:{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام:١٥]، وقوله:{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٩]، وغير ذلك من الأدلة.

قوله:(تَعَلُّمُ)، فاعل مرفوع، وهذا تأكيد من المؤلف رحمه الله تعالى، على أهمية العلم وطلبه، إذ لم يبدأ بشيء قبله، لأنه مِفْتَاحُ العمل، وصِحَّتُهُ وقَبُولُهُ،فيلزم جميع العباد أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يسعوا في تحصيله، وأن يُفرغوا من أوقاتهم لطلبه والعمل به ليعبدوا الله تعالى على بصيرة، كيف لا وقد أكد الله تبارك وتعالى على ذلك وبين فضله في كثير من آيات القرآن العظيم، كقوله تعالى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران:١٨]، وقوله تعالى: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة:١١]، وقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة:٢٦٩]، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤].

وفي الباب أحاديث كثيرة جدا، فنذكر منها على سبيل المثل لا الحصر ما جاء في الصحيحين من طريق ابْنِ شِهَابٍ أَخْبَرَنِي حُمَيْدٌ بن عبد الرحمن قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللهُ".

وفي صحيح مسلم من طريق الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ الله r :"مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ **وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنّةِ.** وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِّ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَحَفّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ أَبطأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ[1]".

وقد علق البخاري في صحيحه قوله:وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

قال ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر:**[ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه.**

ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم. وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك.

فقلت له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف.

وما طالت طريق أدت إلى صديق:

---

١ - جاء في علل الحديث:ابن أبي حاتم-تحقيق:سعد الحميد.موافق للمطبوع (٥/٢٧٥):[١٩٧٩- وَسَأَلْتُ أَبا زُرعَةَ عَن حَدِيثٍ رَواهُ جَماعَةٌ عَنِ الأَعمَشِ عَن أَبِي صالِحٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r :"مَن نَفَّسَ عَن مُؤمِنٍ كُربَةً". قالَ أَبُو زُرعَةَ: مِنهُم مَن يقولُ:الأَعمَشُ عَن رَجُلٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r ، والصَّحِيحُ:عَن رَجُلٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r]ا.هـ. قلت: وأنت كما ترى أن مسلما اعتمد هذا الخبر، وذكره في الأصول، وخالف أبا حاتم، وقد أورد مسلم بعده طرقا تبين أن هذا الخبر محفوظ؛ ولهذا فالظاهر قول الإمام مسلم. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جزى اللهّ المسير إليه خيراً ... وإن ترك المطايا كالمزاد

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء.

فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم.

فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث الرسول r وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه وتابعيهم، فصرت في معرفة طريقه كابن أجود.

وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدري بالعلم، حتى أنني أذكر في زمان الصبوة، ووقت الغلمة والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله عز وجل.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر، لقد كنت أخاف على نفسي من العجب.

غير أنه عز وجل صانني، وعلمني، وأطلعني من أسرار العلم معرفته، وإيثار الخلوة به، حتى أنه لو حضر معي معروف وبشر لرأيتها رحمة.

ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيراً مني.

وتارة يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته، وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني.

ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل، وإما إلى اليأس عند البطالة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه.

وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه، لأني رأيت أنه قد رباني منذ كنت طفلاً، فإن أبي مات وأنا لا أعقل، والأم لم تلتفت إلي. فركز في طبعي حب العلم.

وما زال يوقعني على المهم فالمهم، ويحملني إلى من يحملني على الأصوب، حتى قوم أمري.

وكم قد قصدني عدو فصده عني. وإذ رأيته قد نصرني وبصرني ودافع عني ووهب لي، قوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي.

ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه. أو دمعت عينه. فقلت لنفسي: كيف بك إن نجوا وهلكت: فصحت بلسان وجدي: إلهي وسيدي إن قضيت علي بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا عذب من دل عليه.

إلهي قد قيل لنبيك r اقتل ابن أبي المنافق فقال:"لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"؛ إلهي فاحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي.

لا تَبْرِ عُـوداً أنْـتَ رَيَّشْـتَهُ ... حَاشَا لِبَانِي الجُودِ أن يَنْقُضَا

لا تُعْطِش الزَّرْعَ الذي نَبَّتَهُ ... بِصَوْبِ إنْعَامِك قَد رَوَّضَا] انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وهذا أمَلِي فيك يا سيدي، ويا ولي نعمتي.

قال ابن القيم في كتابه:(مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلـم والإرادة):[ولـو لم يكن في العلم إلا القُرْبُ من رب العـالمين، والالتحـاق بعـالم الملائكـة، وصـحبة المـلأ الأعلى؛ لكفى به فضلا وشرفا، فكيف وعز الـدنيا والآخـرة، مَنُـوطٌ بـه، ومَشْـرُوطٌ بحصوله]ا.هـ.

العلم الذي جاء الثناء عليه في الأدلة:

ولنعلم أن كل علم جاء الثناء عليه في الكتاب والسنة فهو أصالة علم الشريعة، وقد قسم النبي **r** الناس إلى ثلاثة أقسام بناء على موقفهم من هذا العلم الشـريف المبـارك، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ **r** قَالَ:"مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِـهِ مِـنَ الْهُـدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَـا نَقِيَّـةٌ قَبِلَـتِ الْمَـاءَ فَأَنْبَتَـتِ الْكَـلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَـرِبُوا وَسَـقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَـذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًـا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا قال الزهري رحمه الله تعالى:(ما عبد الله تعالى بشيء كالعلم).وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى:(الناس بحاجة إلى العلم أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب)، وقال الحسن:(الناس بدون علماء كالبهائم)، وقد أورد الإمام ابن عبد البر في كتابه النفيس [جامع العلم وفضلة] جملة من الآيات والأحاديث والآثار الدالة على شرف هذا العلم وعلو منزلته وأهميته في حياة العباد، وأن فلاحهم منوط به في دنياهم وأخراهم، كما أبدع الإمام ابن القيم في بيان ذلك،وأسهب فيه، وفجر كنوزا ودررا على ذلك، في كتابه الرائع البديع [مفتاح دار السعادة] فحري بنا أن نقرأه ونقف على عجائبه، وفرائد فوائده.

وقد كان الصحابةُ يجلسون لهذا العلم ويجتهدون في تحصيله، ومنهم من تفرغ له، وكانوا يتحسرون على ما فاتهم منه، ولهذا سادوا وعزوا، إذ تعلموا علم الكتاب والسنة، وسَاسُوا الدنيا بالدين، لا بالأهواء والضلالات، والآراء، وإليك جملة من الأحاديث الدالة على ذلك:

ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا ثُمَّ يَتْلُو:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} إِلَى قَوْلِهِ {الرَّحِيمُ} إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ r بِشِبَعِ بَطْنِهِ وَيَحْضُرُ مَا لاَ يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيهما أيضا من طريق عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ t ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَكَأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولاً فَرَجَعَ أَبُو مُوسَى فَفَرَغَ عُمَرُ فَقَالَ أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ائْذَنُوا لَهُ قِيلَ قَدْ رَجَعَ فَدَعَاهُ فَقَالَ كُنَّا نُؤْمَرُ بِذَلِكَ فَقَالَ تَأْتِينِي عَلَى ذَلِكَ بِالْبَيِّنَةِ فَانْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِ الأَنْصَارِ فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا لاَ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا إِلاَّ أَصْغَرُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَذَهَبَ بِأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فَقَالَ عُمَرُ أَخَفِيَ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ r أَلْهَانِي الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ يَعْنِي الْخُرُوجَ إِلَى تِجَارَةٍ.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ.

قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ r أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ r خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:"مَا أَجْلَسَكُمْ". قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ:"آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ". قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ:"أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ".

وفي سنن أبي عيسى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان أَخَوَانِ على عهد النبي r فكان أحدهما، يأتي النبي r ، والآخر يَحْتَرِف؛ فشكى المُحْتَرِفُ، أخاه إلى النبي r ، فقال :"**لعلك تُرْزَقُ بِه**". قال أبو عيسى:هذا حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيا سبحان الله!!، النبي r يحث على التفرغ لهذا العلم، والإنفاق على أهله، ويجعل الفضل بعد الله لهم، فيما يجريه الله تعالى من الأرزاق على من أنفق عليهم، ليعلم الناس كل الناس أنه لا شيء يعدل العلم ولا يعلوه.

فأين الذين يخادعون الناس وأنفسهم، أن علوم الحياة الدنيا أهم، وأن الأمة إنما تنتصر بالعلوم الحياتية وإن ضعفت في العلم الشرعي، وأين الذين يرمون المتفرغين للعلم الشرعي بالعطالة والبطالة، وأنهم أعضاء غير فاعلين في المجتمع، بل هم عِبْؤٌ عليه، فحسبنا الله نعم الوكيل، {فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء:٧٨].

والعجيب أنهم يحثون الأمة ويقلقونها أفراداً وجماعات إلى التفرغ للعلوم الحياتية، وتكريس الجهد لأجل ذلك، ويُثْنُّونَ الآباء والمحسنين على بذل الأموال لهم، في حين أنهم لا يكادون يفعلون شيئا من ذلك لمن أراد أن يتفرغ لعلم محمد r . بل يرمونه بالعظائم عياذا بالله من فساد التصور ومن الخذلان.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل نال مَالِكُ، أَمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ مَا نَالَ، من المكانة العالية السامية الرفيعة في الأمة، إلا بالتفرغ لهذا العلم، والجد والاجتهاد فيه، وكم حاجة الأمة للإمام مالك في زمانه وبعد زمانه، وقارن ذلك بحاجتها لما سوى ذلك؛ لتعرف الفرق وعظيم الأثر، والنفع الذي يحصل للأمة بالعلماء الْمُتَفَرِّغِين، لهذا العلم الجليل الشريف، وقل مثل ذلك في الإمام الشافعي المطلبي والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة، الذين انتفعت بهم الأمة، وانتصرت بهم، أعظم من انتفاعها بالأطباء وغيرهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الإمام الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء):[وعن وكيع قال: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب، فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا، فلا تتعن].ا.هـ.

وليس هذا قدحا في العلوم الحياتية من كل وجه، وإنما هو من باب بيان الخلل، الذي وقع فيه كثير من أفراد هذه الأمة، في عُصُورِهَا المتأخرة، لا أقول على مستوى العامة، بل وكثير من الخاصة، وهذا التذكير مهم من باب تصحيح النظرة الفاسدة، والعمل على اعتدال الميزان الذي اختل. وأما العلوم الحياتية فسيأتي الحديث عندها إن شاء الله تعالى.

ولهذا كان السلف رحمهم الله تعالى يتلذذون به، ويحثون الناس على الصبر عليه، ويتفرغون له، ويَسْعَونَ في تفريغ من يَتَوَسَّمُون فيه قُدْرَةً على جمعه والتَّوَسُّع فيه؛لتنتفع به الأمة، وكانوا يُنْشِدُونَ في ذلك الأشعار، فمن ذلك ما نقل عن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب t :

النَّاسُ من جِهَةِ التَّمْثِيلِ أكْفَاءُ .... أبُوهُم آدم والأم حواءُ
نفس كنفس وأعضاء مُشَاكِلَةٌ .... وأَعْظُمٌ رُكِّبَتْ فيهم وأعضاءُ
فإن يكن لهم في أصلهم شرف .... يُفاخرون به فالطين والماءُ
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا ...على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه .... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
وإن أتيت بجود في ذوي نسب .... فإن نِسْبَتَنَا جُودٌ وعَلْيَاءُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَفُزْ بعلم تعش حَيّاً به أبـداً .... الناس موتى وأهـل العلم أحياءُ

ومما حفظ عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قوله:

سـهري لتنقيح العلوم ألَذُّ لي...مِنْ وصْــلِ غَـانِيَةٍ وطِيبِ عِنَـاقِ

وألَــذُّ مـن نَقْـرِ الفتاة لدفها... نَقْـرِي لألقي الــرمل عن أوراقي

وتمايلي طـربـا لحَـلِّ عَوِيصَةٍ...في الدرس أشهى من مدامة ساقي

أأبيت سهران الدجى وتبيته ...نـوما وتبغـي بعـد ذاك لحـاقـي

ومن جميل ما قال أيضا:

اصـبر على مُـرِّ الجَــفَا مـن مُعَلِّمٍ ... فإن رُسُوبَ العلم في نَفَـرَاتِه

ومـن لم يـذق مر التعـلـم سـاعة ... تجـرع ذل الجهل طول حياته

ومـن فـاته التعليـم وقـت شبابه ... فـكَـبِّر عليـه أربعــا لِـوَفَاتِه

وذات الفتى والله بالعـلـم والتقى ... إذا لم يـكـونا لا اعتبار لذاته

ومن جميل ما قال أيضا:

العلمُ من فضلهِ، لمن خدمهُ ... أن يجعـلَ النَّاسَ كلَّهم خَدَمَهْ

فَـوَاجِبٌ صَـوْنُهُ عَلَيْهِ كَـمَا ... يَصُونُ فِي النَّاسِ عِرْضَهُ وَدَمَهُ

فَمَنْ حَوَى العِلْمَ ثُمَّ أَوْدَعَهُ ... بـجَهْـلِهِ غـيرَ أهـلِـهِ ظـلَـمه

ولما سئل الإمام ابن حزم عن أمنيته في الدنيا ارتجل قائلا:

مُنَـايَ من الـدنـيـا عـلـوم أبُـثُّها...وأنشـرها في كـل بَـادٍ وحَاضِـر

دعـاء إلى القــرآن والسـنن التي...تناسى رجال ذكرها في المحاضر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأَلْـزَمُ أطْـرَافَ الثُّغُـور مُـرَابـطا...إذا هَيْـعَـةٌ ثَـارَت فـأول نـافـر
لألقـى حِمَـامِي مُقْبِلا غيـر مُـدْبِـرٍ ...بسمر العـوالي والرقاق البواتر
كفاحا مع الكفار في حومة الوغى...وأشرف موت للفتى قتل كافر
فيـارب لا تجـعل حِـمامي بغيرها...ولا تَـجْعَلَنِّي مـن قطـين المقابر

وقال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما ... بـدا طـمـع صـيرتـه لي سـلـماً
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ...لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأغــرسـه عـزاً وأجـنـيـه ذلــة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أسـلما
فـإن قلـت جـد العلم كـاب فإنما ... كبا حين لم يحرس حماه وأسلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أذلـوه فـهـان ودنـســوا ... مُـحَيَّاهُ بالأطـماع حتى تجـهما

ومن ديوان أبي إسحاق الإلبيري وهو يتكلم عن العلم والجهل وحَامِلِيه:

والتي مطلعها:

تَـفُـتُّ فــؤادك الأيـام فَـتَّـا . وتنحت جسمك الساعات نحتا
وتـدعوك المنون دعاء صدق ... ألا يـا صـاح أنـت أريـد أنـتا
أراك تـحـب عـرسا ذات غدر ... أَبَتَّ طـلاقـها الأكـيـاس بتا
تنـام الـدهـر ويحك في غطيط ... بهـا حـتى إذا مُتَّ انـتـبـهتا
فكـم ذا أنت مخـدوع وحـتى ... مـتى لا تَـرْعَوي عنها وحتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى أن قال:

وإن أوتيت فيه طويل باع ... وقال الناس إنك قد سبقتا
فلا تأمن سؤال الله عنه ... بتوبيخ عَلِمْتَ فهل عَمِلْتَا
فرأس العلم تقوى الله حقا ... وليس بأن يقال لقد رأستا
وضافي ثوبك الإحسان لا أن ... ترى ثوب الإساءة قد لبستا
إذا ما لم يفدك العلم خيرا ... فخير منه أن لو قد جهلتا
وإن ألقاك فهمك في مهاو ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا
ستجنى من ثمار العجز جهلا ... وتصغر في العيون إذا كبرنا
وتُفقَد إن جهلت وأنت باق ... وتوجد إن علمت وقد فُقِدتا
وتذكر قولتي لك بعد حين ... وتغبطها إذا عنها شغلتا
لسوف تعض من ندم عليها ... وما تغني الندامة إن ندمتا
إذا أبصرت صحبك في سماء ... قد ارتفعوا عليك وقد سفلتا
فراجعها ودع عنك الهوينى ... فما بالبطء تدرك ما طلبتا
ولا تحفل بمالك والْـَه عنه ... فليس المال إلا ما علمتا
وليس لجاهل في الناس معنى ... ولو مُلْكُ العراقِ له تَأَتَّى
سينطق عنك علمك في ندي ... ويُكتب عنك يوما إن كتبتا
وما يغنيك تشييد المباني ... إذا بالجهل نفسك قد هدمتا
جعلت المال فوق العلم جهلا ...لعمرك في القضية ما عدلتا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبينهما بنص الوحي بون ... ستعلمه إذا طه قرأتا
لئن رفع الغنى لواء مال ... لأنت لواء عِلْمِك قَد رَفَعْتا
وإن جلس الغنى على الحشايا..لأنت على الكواكب قد جلستا
وإن ركب الجِيَاد مُسَوَّمَاتٍ ... لأنت مِنْاهِجَ التَّقوى ركبتا
ومهما افْتَضَّ أبكار الغواني ... فكم بِكْراً من الحكم افْتَضَضْتَا
وليس يضرك الإقتار شيئا ... إذا ما أنت ربك قد عرفتا
فماذا عنده لك من جميل ... إذا بفناء طاعته أنختا
فقابل بالقبول صحيح نصحي فإن أعرضت عنه فقد خسرتا
وإن راعيته قولا وفعلا ... وتَاجَرْتَ الإلَه بِه رَبِحتا
فليست هذه الدنيا بشيء ... تسؤوك حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا
وغايتها إذا فكرت فيها ... كَفَيْئِكَ أو كَحلْمِكَ إن حلمتا
سُجِنْتَ بها وأنت لها محب ... فكيف تحب ما فيه سُجِنْتَا
وتُطْعِمُكَ الطَّعامَ وعن قريب سَتَطْعَمُ مِنْك مَا مِنها طَعِمْتَا
وتَعْرَى إن لَبِسْتَ لها ثِيابا ... وتُكْسَى إن مَلابِسَها خَلَعْتَا
وتشهد كل يوم دفن خِلٍّ ... كأنك لا تُراد بما شَهِدتا

وقال النووي في (المجموع شرح المهذب):[قال الخطيب البغدادي: أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم نصف النهار ثم الغداة وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع: قال وأجود أماكن الحفظ الغرف وكل موضع بعد عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملهيات قال وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار: وقوارع الطرق لأنها تمنع غالبا خلو القلب: وينبغي أن يصبر على جفوة شيخه وسوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ويتأول لا فعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق: وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار وأظهر أن الذنب له والعتب عليه فذلك أنفع له دينا ودنيا وأبقى لقلب شيخه: وقد قالوا من لم يصبر على ذل التعلم بقى عمره في عماية الجهالة ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما ذلت طالبا فعززت مطلوبا]ا.هـ.

ومن القصص الجميلة المؤثرة، التي طالما كان يكررها شيخنا العلامة سليمان بن ناصر العلون - حفظه الله ورعاه، وجزاه عنا خير الجزاء، فقد كان نعم المعلم والمربي-؛ ليشد أزرنا، ويبعث هممنا على طلب العلم، والصبر عليه، قصة هشام ابن عمار التي ذكرها الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء):[قال أبو بكر محمد بن سليمان الربعي: حدثنا محمد بن الفيض الغساني، سمعت هشام بن عمار، يقول: باع أبي بيتا له بعشرين دينارا، وجهزني للحج. فلما صرت إلى المدينة، أتيت مجلس مالك، ومعي مسائل أريد أن أسأله عنها.فأتيته، وهو جالس في هيئة الملوك، وغلمان قيام، والناس يسألونه، وهو يجيبهم. فلما انقضى المجلس، قال لي بعض أصحاب الحديث: سل عن ما معك؟، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما تقول في كذا وكذا؟، فقال: حصلنا على الصبيان، يا غلام، احمله. فحملني كما يحمل الصبي، وأنا يومئذ غلام مدرك، فضربني بدرة مثل درة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعلمين سبع عشرة درة، فوقفت أبكي، فقال لي: ما يبكيك؟، أوجعتك هذه الدرة؟، قلت: إن أبي باع منزله، ووجه بي أتشرف بك، وبالسماع منك، فضربتني؟، فقال: اكتب، قال: فحدثني سبعة عشر حديثا، وسألته عما كان معي من المسائل فأجابني.

قال يعقوب بن إسحاق الهروي، عن صالح بن محمد الحافظ: سمعت هشام بن عمار، يقول: دخلت على مالك، فقلت له: حدثني، فقال:اقرأ، فقلت:لا. بل حدثني، فقال: اقرأ، فلما أكثرت عليه، قال: يا غلام، تعال اذهب بهذا، فاضربه خمسة عشر، فذهب بي فضربني خمس عشرة درة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضربته، فقلت له: لم ظلمتني؟، ضربتني خمس عشرة درة بغير جرم، لاأجعلك في حل، فقال مالك: فما كفارته؟، قلت: كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثا.قال: فحدثني بخمسة عشر حديثا.فقلت له: زد من الضرب، وزد في الحديث، فضحك مالك، وقال: اذهب]ا.هـ.

فهذه أمة معلمة مرحومة، إن أقبلت على هذا العلم النافع لتعمل بالعمل الصالح، فبهذا العلم رفع الله أبانا آدم عليه السلام، وأسجد له الملائكة، بعد أن ظهر فضلُه بما معه من العلم الذي علمه الله تبارك وتعالى، فسجدت الملائكة له، وحسده إبليس وأبغضه، فطرد الله إبليس اللعين من رحمته، واجتبى آدم واصطفاه، وانطلق الثقلان بين مُحب للعلم كالملائكة وآدم عليهم السلام، ومبغض للعلم وأهله، ساع في حربه وحربهم، وتنفير الناس عنهم، وعن العلم النافع، كإبليس عياذا بالله من الخذلان.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٣٠-٣٤].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين):[فصل قال: الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوين البلية بعد أيادي المنن وبذكر سوالف النعم، هذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء:

إحداها: ملاحظة حسن الجزاء وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة فالنفس موكلة بحب العاجل وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب ومطالعة الغايات، **وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من رافق الراحة فارق الراحة وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة فإن قدر التعب تكون الراحة:**

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكريم الكرائم
ويكبر في عين الصغير صغيرها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك، والثاني: انتظار روح الفرج يعني راحته ونسيمه ولذته فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة ولا سيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ما هو من خفي الألطاف وما هو فرج معجل وبه وبغيره يفهم معنى اسمه اللطيف.

والثالث: تهوين البلية بأمرين أحدهما: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده فإذا عجز عن عدها وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه فهذا يتعلق بالماضي وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال وملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل وأحدهما في الدنيا والثاني يوم الجزاء]ا.هـ.

قوله:(أربع مسائل): هذا يسمى عند أهل البلاغة بأسلوب اللَّف ثم النَّشر، ومعناه أن يعمد المؤلف أو المتكلم إلى ذكر جملة من الأشياء، ثم يعود ليفصل القول فيها، ومن فوائده أن يحمس السامع أو القارئ ويحرضه على التطلع إلى تفاصيل الأمر المراد طرحه وبيانه.

وقد استعمل المؤلف رحمه الله تعالى ذلك في هذا المؤلف في مواضع، حيث أنه يجمل ثم يعود بعد ذلك إلى تفصيل ما أجمله، ومنها في هذا المقام في ذكره لهذه المسائل الأربع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واللّف والنَّشر منه نوعان: لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب، ولف ونشر غير مرتب، وكل من هذين النوعين هو أسلوب مستعمل في القرآن العظيم، فهو من أفصح ما يكون، كيف وهو كلام الله تبارك وتعالى، فمن اللف والنشر المرتب قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْس إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ {١٠٥} فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ {١٠٦} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيد {١٠٧} وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود:١٠٥-١٠٨]. فأجمل بذكر الشقي والسعيد وهذا هو اللف في هذا المقام، ثم عاد ففصل القول في كل منهما على نسق الترتيب في اللف المتقدم في السياق، وهذا هو النشر في هذا المقام.

ومن ذلك أيضا قوله تبارك وتعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(١٨)أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون} [السجدة:١٨-٢٠].

ومن اللف والنشر غير المرتب قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَد وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {١٠٦} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّت وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ الله هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١٠٧} تِلْكَ آيَات الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} [آل عمران:١٠٦-١٠٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه المسائل الأربع تعد أعظم مقومات وعُدَّة الداعية إلى الله تعالى، فهي تبين ما يجب أن يتسلح به الداعية، عند أداء هذه المهمة العظيمة، التي هي مهمة الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام وورثتهم من عباد الله الصالحين.

وفي قوله:(**أربع**) أسلوب شيق آخر، فعندما يذُكْرُ العدد ابتداء، ويجد السامع أو القارئ قلة العدد، ومع ذلك فهو بالغ الأهمية، احتفزت نفسه وعزمت على المضي قُدُماً، بقلب حاضر وسمع شاهد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

الشرح

قوله:(المسألة الأولى): وهنا أسلوب آخر، فإن تقسيم المعلومات إلى مسائل وأبواب وفصول أسلوب تربوي رفيع، يستشعر من خلاله السامع أو القارئ، أهمية المعلومة، ويسهل عليه تلقيها،فكل مسألة توضع في قالبها وتقتل بيانا وبحثا، حتى تكون واضحة المعالم، ثم ينشط المتعلم إلى المزيد، فكلما فرغ من مسألة وثب إلى الأخرى، كما أنه يشعر الطالب أنه قد قام بإنجاز شيء من العلم فيتطلع إلى غيره. فيجتمع في هذا المقام التشويق والتسهيل والتقريب إلى الأفهام. وقد استعمل ذلك جمع من السلف والخلف.

قوله : (العلم): الألف واللام هنا للعهد الذهني، والمراد به العلم الشرعي.

والعلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه حقيقة، كما أنه مصحوب بتصور الأشياء على حقائقها.

والعلم من حيث جنسه في الجملة ينقسم إلى قسمين:

١ - العلم الضروري . ٢ - العلم النظري التجريبي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما العلم الضروري: فهو الذي لا يحتاج إلى استدلال، ولا إثبات، فهو من حيث هو كاف في بيان الشيء وحقيقته، ويكون مستنده الحِس، كالعلم بأن النار حارة، والشمس طالعة، والجو بارد وهكذا.ولهذا قال قائلهم وهو منسوب إلى المتنبي:

وليس يَصِحُّ في الأفهامِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

ولهذا كان أعظم المعلوم ضرورة هو العلم بوجود الخالق تبارك وتعالى، ولهذا قال تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [إبراهيم:١٠]، وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٦٤]، وقوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩٠-١٩١].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره:[قوله:"وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا".وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟.

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعرًا وروثا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٧ - ٢٨]، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدًا].ا.هـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالى:{وفي أنفسكم أفلا تبصرون} فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها وتنادي عليها وتدل عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترى شيئا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلا وحسا وفطرة ونظرا واعتبارا]ا.هـ.

وبهذه المقدمة احتج الله تبارك وتعالى على عبادة، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، كما قال تعالى:{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد:١٤-١٦]، والمعنى: أي هل كانت المشكلة عندكم أيها المشركون، أنكم وجدتم من يخلق كخلق الله تعالى، فاختلط عليكم الأمر واشتبه؛ فأصبحتم لا تميزون بين ما خلقه الله وما خلقه غيره، أم أنكم تقرون أنه وحده الخالق، إذن فاعلموا أنه هو وحده المعبود بحق جل الله في علاه.

وبهذه الطريقة احتج إبراهيم الخليل على قومه، إذ ناظر جميع المشركين – عباد الأصنام والكواكب والبشر (النمرود) - بهذه المقدمة، فاستدل على وحدانية الله تعالى بأفول الكواكب، والذي يَأْفُلُ لابد له من مُأَفِّل، فهو إذن ضعيف، مسير، مقهور، مربوب لا رب، فكيف يستحق أن يعبد، وبَيَّن لعباد الأصنام عجزها، وضعفها، وفقرها، وعالتها، وفضح النمرود إذ طالبه أن يطرد أصله، إذ زعم أنه يفعل كفعل الله، فأمره الخليل عليه السلام وطالبه أن يأتي بالشمس من المغرب، فإن الإله الحق يأتي بها من المشرق، فَأْتِ بها من المغرب، {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}.

والله تعالى سيأتي بها من المغرب، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ يَوْمًا:"أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ"، قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا". فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ذَاكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا".

وأما العلم النظري التجريبي: فهو ما يحتاج إلى استدلال ونظر، مثل العلم بعدد الصلوات وشروطها وأركانها ومواقيتها وكيفياتها وسننها وراتبها ونحو ذلك، والعلم بأحكام الصيام والزكاة والحج وما أشبه ذلك .

ويمكن تقسيم هذا العلم من جهة العموم إلى قسمين:

١ - **العلم الضار**: وهو ما جاء عن طريق التعلم بالتجربة والنظر، ولكنه وبال على أصحابه وعلى كل من تعاطاه، كالغناء والسينما والأفلام والمسلسلات، كما قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ {٦} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان:٦-٧].

مبحث في الغناء:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن هذا الآية لا خلاف بين السلف، في أن مِن أظهر ما فُسِّرَت بـه، أن المُـرَادَ بلهو الحديث هنا هو الغناء، وإنما قلت هذا؛ لأن البعض يحـاول جاهـدا، أن يطعـن في الأحاديث الدالة على تحريم المعازف والغناء، وينسى أو يتناسى، أنه لا خلاف بين أهل العلم، في أن هذه الآية المـراد بهـا ذلـك، وهـذا كالشـأن مـثلا في آيـة التوبـة:{اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} [التوبة:٣١]، فإن حديث عـدي t الـوارد في ذلك ضعيف، ولكن لا خلاف بين السـلف، في أن المـراد بهـذه الآيـة، هـو مـا ورد في حديث عدي t ، من تحليل الحرام، وتحريم الحلال. فتنبه.

أخرج ابن جرير من طريق عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس:{ومن الناس من يشتري لهو الحديث}، قال:الغناء. وأخرج مـن طريـق سـعيد بـن جبـير، عـن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية {ومـن النـاس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم}، فقال عبد الله: الغناء، والـذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات.ا.هـ.

وقال ابن جرير:[حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:{ومـن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم}، والله لعله أن لا ينفق فيه مالا، ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل عـلى حديث الحق، وما يضر على ما ينفع]ا.هـ.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية:[وروى شعبة وسـفيان عـن الحكـم وحمـاد عـن إبراهيم قال :قال عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ وقاله مجاهد، وزاد:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل. وقال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال: قال الله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال}، أفحق هو؟!].ا.هـ.

ومن السنة ما أخرجه البخاري من طريق عطية بن قيس الكلابي: حدثنا عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: حدثني أبو عامر - أو أبو مالك - الأشعري، والله ما كَذَبَني: سمع النبي r يقول:"ليكونَنَّ من أمتي أقوام، يستحلُّون الحِرَ والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلنَّ أقوام إلى جنب عَلَم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً، فيُبيِّتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة".

ومنها ما أخرجه النسائي حيث قال:ثنا محمد بن بشار، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان، عن عليّ بن بذيمة، قال: حدثني قيس بن حَبْتر النهشلي، عن ابن عباس أن وفد عبد القيس قالوا: يا رسول اللهّ فيم نشرب؟ قال: "لا تشربوا في الدباء، ولا في المزفت، ولا في النقير، وانتبذوا في الأسقية" قالوا: يارسول اللهّ، فإن اشتد في الأسقية؟ قال: "فصبُّوا عليه الماء" قالوا: يارسول اللهّ، فقال لهم في الثالثة أو الرابعة "أهريقوه" ثم قال: "إن اللهّ حرم علي، أو حرم الخمر والميسر والكوبة" قال: "وكل مسكرٍ حرامٌ" قال سفيان: فسألت عليّ بن بذيمة عن الكوبة قال:الطبل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مسند أحمد بن حنبل بسند جيد من طريق سفيان عن على بن بذيمة حدثني قيس بن حبتر قال: سألت بن عباس عن الجر الأبيض، والجر الأخضر والجر الأحمر فقال : إن أول من سأل النبي r وفد عبد القيس فقالوا: إنا نصيب من الثفل، فأي الأسقية فقال:" لا تشربوا في الدباء والمزفت والنقير والحنتم واشربوا في الأسقية" ثم قال:"إ الله حرم علي أو حرم الخمر والميسر والكوبة وكل مسكر حرام". قال سفيان قلت لعلي بن بذيمة ما الكوبة قال: الطبل.

ومن الآثار ما أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر الأموي عمر بن عبد الله قال: كتب عمر بن عبد العزيز t إلى مؤدب ولده: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاه. أما بعد: فإني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي، وصرفتهم إليك عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي، فخذهم بالجفاء فهو أمكن لأقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وكثرة الضحك فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف، واستماع الأغاني، واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب، ولعمري ولتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذوي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء ينتفع به.

وقال النسائي : أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدّثَنَا مَحْبُوبٌ يَعْنِي ابْنَ مُوسَى قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ وَهُوَ الْفَزَارِيّ عَنِ الأَوْزَاعِيّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عُمَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بْنِ الْوَلِيدِ كِتَابا فِيه: وَقَسْمُ أَبِيكَ لَكَ الْخُمُسُ كُلّهُ وَإِنّمَا سَهْمُ أَبِيكَ كَسَهْمِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَفِيهِ حَقّ اللهّ وَحَقّ الرّسُولِ وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السّبِيلِ فَمَا أَكْثَرَ خُصَمَاءَ أَبِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَكَيْفَ يَنْجُو مَنْ كَثُرَتْ خُصَمَاؤهُ وَإِظْهَارُكَ الْمَعَازِفَ وَالْمِزْمَارَ بِدْعَةٌ فِي الإسلام وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ مَنْ يَجُزّ جُمّتَكَ جُمّةَ السّوءِ.

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:[كَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ الله يَسْتَقْبِلُونَ الْجَوَارِيَ فِي الأَزِقَّةِ مَعَهُنَّ الدُّفُوفَ فَيَشُقُّونَهَا]. قلت:وعبد الله هنا هو ابن مسعود t .

وفي الحديث:"نهى عن كسب الزمارة". أخرجه البيهقي، والبغوي في شرح السنة، وأخرجه أبو عبيد في (غريب الحديث) قال : حدثنيه حجاج عن حماد بن سلمة عن هشام بن حسان ، وحبيب بن الشهيد عن ابن سيرين عن أبي هريرة به. قلت:وإسناده قوي.

وفي الحديث أيضا: قال رسول الله r :"إنيِّ لم أنه عن البكاء، ولكنيّ نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نعمة لهو، ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، لطم وجوه، وشق جيوب، ورنّة شيطان" أخرجه الطيالسي في مسنده والحاكم والبيهقي، وأبي أبي الدنيا في (ذم الملاهي) والبغويّ في(شرح السنة).

قال ابن تيمية في كتابه (الاستقامة) :[ثم ذكر أبو القاسم حديث ابن عاصم عن شبيب بن بشر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله r :"صوتان ملعونان صوت ويل عند مصيبة وصوت مزمار عند نعمة" مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا في غير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الأحوال وإلا لبطل التخصيص. قلت: هذا الحديث من أجود ما يحتج به على تحريم الغناء كما في اللفظ المشهور عن جابر بن عبد الله t عن النبي r أنه قال:"إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ودعوى بدعوى الجاهلية"، فنهى عن الصوت الذي يفعل عند النعمة كما نهى عن الصوت الذي يفعل عند المصيبة والصوت الذي عند النعمة هو صوت الغناء]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَصْلٌ:حَدِيثُ النَّبِيِّ r :"أَمَرَهُمْ بِشَقِّ ظُرُوفِ الْخَمْرِ وَكَسْرِ دِنَانِهَا"دَلِيلٌ عَلَى إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ فِي جَوَازِ إتْلَافِ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِنْكَارِ وَأَنَّ الظَّرْفَ يَتْبَعُ الْمَظْرُوفَ. وَمِثْلُهُ مَا ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:أَنَّهُمَا أَمَرَا بِتَحْرِيقِ الْمَكَانِ الَّذِي يُبَاعُ فِيهِ الْخَمْرُ وَقَدْ نَصَّ أَحْمَد عَلَى ذَلِكَ. وَمِثْلُهُ إتْلَافُ الْآلَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا صُورَةُ التَّأْلِيفِ الْمُحَرَّمِ وَهِيَ آلَاتُ اللَّهْوِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ الْمَالِيَّةَ ثَابِتَةٌ بِالسُّنَّةِ وَسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ . وَمَنْ قَالَ : إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ فَمَا مَعَهُ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ]ا.هـ.

وجاء في الشرح الكبير لابن قدامة:[مسألة:ولا يقطع بسرقة آلة لهو ولا محرم كالخمر، لا يقطع بسرقة آلة لهو كالطنبور والمزمار والشبابة وإن بلغت قيمته مفصلا نصابا .....إلى أن قال، **ولنا أنه آلة للمعصية بالإجماع**[1] .....]ا.هـ.

---

١ - قال الشيخ الطريفي في بحث نفيس له في هذه المسألة:[لا يزال العلماء على مرِّ العصور ينقلون إجماع السلف والخلف على تحريم الغناء وآلات اللهو والطرب، فمن نظر إلى العلماء في كل قرن وجد أنهم يتتابعون على نقل الإجماع مقرين له، ولا أعلم قرناً من القرون خلا من عالمٍ ينقل إجماع العلماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على تحريم الغناء والمعازف.ولذلك قد نقله زكريا بن يحي الساجي في كتابه "اختلاف العلماء" في القرن الثالث إذ جل حياته فيه.ونقله الآجري رحمه الله في القرن الرابع. ونقله أبوالطيب الطبري وابن عبد البر في القرن الخامس. ونقله ابن قدامة وأبو القاسم الدولعي الشامي الشافعي في القرن السادس.ونقله ابن الصلاح والقرطبي والعز بن عبد السلام في القرن السابع .ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية والسبكي وابن رجب وابن القيم وابن مفلح وغيرهم في القرن الثامن. ونقله العراقي والبزازي الحنفي في القرن التاسع. ونقله ابن حجر الهيتمي في القرن العاشر. ونقله الآلوسي وأحمد الطحطاوي في القرن الثالث عشر. ونقله الغماري في القرن الرابع عشر. ولا يزال العلماء على شتى مذاهبهم؛ من المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة مطبقين على تحريم الغناء والمعازف. ولذلك فمن نظر إلى من حكى الإجماع وجد اختلاف بلدانهم، وتباين مذاهبهم. فمن المالكية: ابن عبد البر في "التمهيد"، والقرطبي في "تفسيره"، وابن القطان الفاسي في كتابه "الإقناع في مسائل الإجماع". ومن الشافعية: جماعة وخلق كثير كابن الصلاح، والعز بن عبد السلام، وابن حجر الهيتمي، والعراقي، والطرطوسي وغيرهم. ومن الحنابلة": ابن قدامة، وابن رجب، وابن تيمية، وابن القيم، وابن مفلح،وغيرهم.ومن الحنفية :الفقيه الحنفي محمد البزازي في "المناقب"، وزين الدين الكرماني، وشيخ الحنفية أحمد الطحطاوي في مصر في "حاشيته على مراقي الفلاح."وكذلك أئمة المذاهب بأنفسهم: قد نصوا عليالتحريم، وحكى الإجماع من أهل المذاهب على اختلاف بلدانهم.فابن عبد البر والقرطبي في الأندلس، وابن القطان الفاسي والغماري في المغرب، وابن قدامة وابن الحنبلي وابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن رجب وابن القيم في الشام، وابن حجرالهيثمي والطحطاوي الحنفي في مصر، والعراقي والآلوسي في العراق، وفي بلاد الترك والبلغار: الفقيه الحنفي محمد البزازي الكردي، في "الفتاوى البزازية" . وغيرهم خلق كثير على اختلاف بلدانهم. ومن حكى خلافاً في هذه المسألة فقد غلب عليه هواه، يقول ابن حجر الهيتمي: في كتابه "كف الرعاع":[ومن حكى خلافاً في الغناء فإنه قد وهِمَ وغَلِط، وغلب عليه هواه حتى أصمّه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعماه]ا.هـ. ومن نظر إلى الأئمة الأربعة وجد نصوصهم متضافرة على تحريم الغناء بالنص، فالإمام مالك: قد روى الإمام أحمد في كتاب "العلل: والخلال في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" من حديث إسحاق بن عيسى الطبّاع، قال:[سألت مالكاً عن سماع الغناء؟ فقال:إنما يفعل ذلك عندنا الفسّاق] وأما الإمام أحمد: فقدنقل عنه ابنه عبد الله في كتابه "المسائل" قال:(سألت أبي عن الغناء؟ فقال:ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني)، ثم نقل قول الإمام مالك رحمه الله:إنما يفعل ذلك عندنا الفسّاق. قال أبو حنيفة رحمه الله: وأما الغناء فهو محرّم عند سائرالأديان. ورد شهادة المغنّي الأئمةُ من أتباع مذهبِهِ. أما الإمام الشافعي - رحمه الله - فقال: الغناء لهوٌ مكروه، ويشبه الباطل والمحال، وقد نص في كتابه "أدب القضاء" وكذلك في كتابه "الأم" على أن المغنّي ترد شهادته. وأعْجَبُ مِنْ قول من يقول: إن رد الشافعي لشهادة المغني مع قوله:(لهو مكروه يشبه الباطل) ليس بصريح في التحريم. وإن قول الإمام مالك:(إنما يفعل ذلك عندنا الفسّاق) ليس بصريح في التحريم. وإن قول الإمام أحمد:(ينبت النفاق في القلب) ليس بصريح بالتحريم!! فأي تحريم يثبت في الشرع عنهم حينئذٍ إن لم يكن هذا القولصريحاً بالتحريم؟؟، وإنكنا نعلم بل نتيقن أن أقوال الأئمة من الأئمة الأربعة وغيرهم ليست نصوصاً من الوحي،وأن كلامهم ليس بحجه، وأنه بحاجة إلى أن يحتج له لا أن يحتج به، ولكن تساق أقوال الأئمة - رحمهم الله - ليُعْلم الإجماع والإطباق، فإن الإجماع معتبر، ولا يكون إلا على نص، ونقل تكفير من أباح الغناء عن أئمة من ثلاثة مذاهب متبوعة، قال بعض أصحاب أبي حنيفة:(سماع الغناء فسق، والتلذذ به كفر)، والتصريح بكفر مستحل الغناء قال به من الحنفية: حافظ الدين الفقيه محمد البزازي في "الفتاوى البزازية"، وزين الدين الكرماني. قال البزازي في "فتاويه":(ولما عُلِمَ أنّ حرمَتَهُ بالإجماع؛ لزم أن يكفّر مُسْتَحِلَّه)، وقال به القاضي عياض المالكي، بل حكى الإجماع على كفر مستحله وحكاه ابن الحنبلي، كما نقله ابن رجب - رحمه الله - في كتابه "ذيل طبقات الحنابلة" عن ابن قدامه، وإن كان هذا القول ليس على الصواب، بل أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٤٩):[وَمِنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ اسْتِمَاعُ الْعَبْدِ مَزَامِيرَ الشَّيْطَانِ وَالْمُغَنِّي هُوَ مُؤَذِّنُهُ الَّذِي يَدْعُو إلَى طَاعَتِهِ فَإِنَّ الْغِنَاءَ رُقْيَةُ الزِّنَا]ا.هـ.

تنبيه: لابد من التفريق بين الغناء الذي هو أشعار تنشد وتلحن بالصوت المجرد عن آلات اللهو، وبين الغناء الذي تصحبه آلات اللهو، فأما الأول، فليس هو مما يُتَعَبَّدُ به، ومن جعل ذلك قربة وعبادة لله فقد أعظم الفرية وضل سواء السبيل، وإنما غايته الترويح عن النفس عند الحاجة إلى ذلك[1]، هذا مع اشتراط أن يكون الكلام المُنْشَد في أقل أحواله مباحا، وأما إن تضمن تَشْبِيباً بالنساء أو المردان، وذكرا للفواحش وتهيجا عليها؛ فلا شك في حرمته.

فيه تشدداً، وذلك أن الكفر بعيد، وإنما هو هوى وجرمٌ وذنبٌ، وقد عدّه غيرواحد من الأئمة من كبائر الذنوب كابن النحّاس في كتابه "تنبيه الغافلين"، وابن حجر الهيتمي في كتابه "الزواجر"عدّوا سماع الغناء من الكبائر]ا.هـ. **قلت: وطالما أن التحريم مستقر ظاهر، فمن استحل المحرم كَفر، ولا يكون في ذلك غلو ولا تشدد، وهذا من جهة الكلام على النوع، وإلا فتنزيل ذلك على أعيان أهل القبلة فمتوقف على توفر الشرط وانتفاء الموانع، وهو إقامة الحجة ونفي الشبهة.**

١ -كما في الصحيحين من طريق أَبِي قِلابَةَ عَنْ أَنَسٍ **t** أَنَّ النَّبِيَّ **r** كَانَ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ غُلامٌ يَحْدُو بِهِنَّ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ فَقَالَ النَّبِيُّ **r** :"رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ".قَالَ أَبُو قِلابَةَ يَعْنِي النِّسَاءَ. وفيهما أيضا من طريق قَتَادَة حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ كَانَ لِلنَّبِيِّ **r** حَادٍ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ **r** :"رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ لاَ تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ".قَالَ قَتَادَةُ يَعْنِي ضَعَفَةَ النِّسَاءِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يروى عن بعض أهل العلم من أنه كان يجيز السماع، وربما تعاطاه بعضهم، فمن الضرب المباح، فإنما هو الشعر الطيب، وكثير منه ما يُهَيِّجُ على مكارم الأخلاق، فليس فيه محرمات، لا قوليه ولا عملية، لا من جهة المَقُول، ولا من جهة آلات اللهو.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١ / ٥٣٤-٥٣٥):[وَأَمَّا الِاسْتِمَاعُ إلَى الْقَصَائِدِ الْمُلَحَّنَةِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَيْهَا. فَأَكَابِرُ الشُّيُوخِ لَمْ يَحْضُرُوا هَذَا السَّمَاعَ كالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالسَّرِيِّ السقطي وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ: كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخِ عَدِيِّ بْنِ مُسَافِرٍ وَالشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخِ: فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَحْضُرُونَ هَذَا السَّمَاعَ وَقَدْ حَضَرَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الشُّيُوخِ وَأَكَابِرِهِمْ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ وَرَجَعُوا عَنْهُ. وَكَانَ الْجُنَيْد - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - لَا يَحْضُرُهُ فِي آخِرِ عُمْرِهِ. وَيَقُولُ:مَنْ تَكَلَّفَ السَّمَاعَ فُتِنَ بِهِ وَمَنْ صَادَفَهُ السَّمَاعَ اسْتَرَاحَ بِهِ أَيْ مَنْ قَصَدَ السَّمَاعَ صَارَ مَفْتُونًا وَأَمَّا مَنْ سَمِعَ بَيْتًا يُنَاسِبُ حَالَهُ بِلَا اقْتِصَادٍ فَهَذَا يَسْتَرِيحُ بِهِ. وَالَّذِينَ حَضَرُوا السَّمَاعَ الْمُحْدَثَ الَّذِي جَعَلَهُ الشَّافِعِيُّ مِنْ إحْدَاثِ الزَّنَادِقَةِ لَمْ يَكُونُوا يَجْتَمِعُونَ مَعَ مردان ونسوان وَلَا مَعَ مصلصلات وَشَبَّابَاتٍ وَكَانَتْ أَشْعَارُهُمْ مُزَهَّدَاتٍ مُرَقَّقَاتٍ.

فَأَمَّا "السَّمَاعُ" الْمُشْتَمِلُ عَلَى مُنْكَرَاتِ الدِّينِ فَمَنْ عَدَّهُ مِنْ الْقُرُبَاتِ اُسْتُتِيبَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. وَإِنْ كَانَ مُتَأَوِّلًا جَاهِلًا بَيَّنَ لَهُ خَطَأَ تَأْوِيلِهِ وَبَيَّنَ لَهُ الْعِلْمَ الَّذِي يُزِيلُ الْجَهْلَ. هَذَا مِنْ كَوْنِهِ طَرِيقًا إلَى الله. وَأَمَّا كَوْنُهُ مُحَرَّمًا عَلَى مَنْ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ إلَى الله فَهَذَا فِيهِ تَفْصِيلٌ فَأَمَّا الْمُشْتَمِلُ عَلَى الشَّبَّابَاتِ وَالدُّفُوفِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصلصلة فَمَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ تَحْرِيمُهُ. وَذَكَرَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ فِيهِ خِلَافٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ فَإِنَّ الْخِلَافَ إِنَّمَا حُكِيَ فِي الْيَرَاعِ الْمُجَرَّدِ مَعَ أَنَّ الْعِرَاقِيِّينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ لَمْ يَذْكُرُوا فِي ذَلِكَ نِزَاعًا وَلَا مُتَقَدِّمَةُ الْخُرَاسَانِيِّين وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ مُتَأَخِّرُوا الْخُرَاسَانِيِّين. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ r ذَكَرَ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ لَهُمْ وَأَنَّ اللهَ مُعَاقِبُهُمْ. فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى تَحْرِيمِ الْمَعَازِفِ.وَالْمَعَازِفُ هِيَ آلَاتُ اللَّهْوِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ وَهَذَا اسْمٌ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْآلَاتِ كُلَّهَا]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (١١ / ٥٧٦ -٥٧٨):[وَلِهَذَا كَانَ الْمُكَاءُ وَالتَّصْدِيَةُ يَدْعُو إلَى الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَيَصُدُّ عَنْ حَقِيقَةِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ كَمَا يَفْعَلُ الْخَمْرُ وَالسَّلَفُ يُسَمُّونَهُ تَغْبِيرًا ؛ لِأَنَّ التَّغْبِيرَ هُوَ الضَّرْبُ بِالْقَضِيبِ عَلَى جِلْدٍ مِنْ الْجُلُودِ وَهُوَ مَا يُغَبِّرُ صَوْتَ الْإِنْسَانِ عَلَى التَّلْحِينِ فَقَدْ يُضَمُّ إلَى صَوْتِ الْإِنْسَانِ . إمَّا التَّصْفِيقُ بِأَحَدِ الْيَدَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى وَإِمَّا الضَّرْبُ بِقَضِيبٍ عَلَى فَخِذٍ وَجِلْدٍ وَإِمَّا الضَّرْبُ بِالْيَدِ عَلَى أُخْتِهَا أَوْ غَيْرِهَا عَلَى دُفٍّ أَوْ طَبْلٍ كَنَاقُوسِ النَّصَارَى وَالنَّفْخِ فِي صَفَّارَةٍ كَبُوقِ الْيَهُودِ، فَمَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْمَلَاهِي عَلَى وَجْهِ الدِّيَانَةِ وَالتَّقَرُّبِ فَلَا رَيْبَ فِي ضَلَالَتِهِ وَجَهَالَتِهِ . وَأَمَّا إذَا فَعَلَهَا عَلَى وَجْهِ التَّمَتُّعِ وَالتَّلَعُّبِ فَذَهَبَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ : أَنَّ آلَاتِ اللَّهْوِ كُلَّهَا حَرَامٌ فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ r أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ يَسْتَحِلُّ الْحَرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يُمْسَخُونَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ. و"الْمَعَازِفُ" هِيَ الْمَلَاهِي كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ اللُّغَةِ. جَمْعُ مِعْزَفَةٍ وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يُعْزَفُ بِهَا:أَيْ يُصَوَّتُ بِهَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ فِي آلَاتِ اللَّهْوِ نِزَاعًا. إلَّا أَنَّ بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ ذَكَرَ فِي الْيَرَاعِ وَجْهَيْنِ بِخِلَافِ الْأَوْتَارِ وَنَحْوِهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فِيهَا نِزَاعًا. وَأَمَّا الْعِرَاقِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ بِمَذْهَبِهِ وَأَتْبَعُ لَهُ فَلَمْ يَذْكُرُوا نِزَاعًا لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا بَلْ صَنَّفَ أَفْضَلُهُمْ فِي وَقْتِهِ أَبُو الطَّيِّبِ الطبري شَيْخُ أَبِي إسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ فِي ذَلِكَ مُصَنَّفًا مَعْرُوفًا. وَلَكِنْ تَكَلَّمُوا فِي الْغَنَاءِ الْمُجَرَّدِ عَنْ آلَاتِ اللَّهْوِ: هَلْ هُوَ حَرَامٌ؟ أَوْ مَكْرُوهٌ؟ أَوْ مُبَاحٌ؟ وَذَكَرَ أَصْحَابُ أَحْمَدَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ وَذَكَرُوا عَنْ الشَّافِعِيِّ قَوْلَيْنِ وَلَمْ يَذْكُرُوا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ فِي ذَلِكَ نِزَاعًا. وَذَكَرَ زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى الساجي - وَهُوَ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمَائِلِينَ إلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ - أَنَّهُ لَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ إلَّا إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَمَا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي وَأَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِي وَغَيْرُهُمَا: عَنْ مَالِكٌ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي ذَلِكَ فَغَلِطَ. وَإِنَّمَا وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِيهِ لِأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانَ يَحْضُرُ السَّمَاعَ إلَّا أَنَّ هَذَا لَيْسَ قَوْلَ أَئِمَّتِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ؛ بَلْ قَالَ إسْحَاقُ بْنُ عِيسَى الطِّبَاعُ:سَأَلْت مَالِكًا عَمَّا يَتَرَخَّصُ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ الْغِنَاءِ فَقَالَ: إنَّمَا يَفْعَلُهُ عِنْدَنَا الْفُسَّاقُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي كُتَّابِ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَذْهَبِهِ وَمَذْهَبِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ طَائِفَةٍ فِي الْمَشْرِقِ لَا عِلْمَ لَهَا بِمَذْهَبِ الْفُقَهَاءِ وَمَنْ ذَكَرَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ ضَرَبَ بِعُودٍ فَقَدْ افْتَرَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا نَبَّهْت عَلَى هَذَا ؛ لِأَنَّ فِيمَا جَمَعَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي وَمُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ المقدسي فِي ذَلِكَ حِكَايَاتٌ وَآثَارٌ يَظُنُّ مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِالْعِلْمِ وَأَحْوَالِ السَّلَفِ أَنَّهَا صِدْقٌ. وَكَانَ " الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ " - رَحِمَهُ اللهُ - فِيهِ مِنْ الْخَيْرِ وَالزُّهْدِ وَالدِّينِ وَالتَّصَوُّفِ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ مِنْ كَلَامِ الشُّيُوخِ وَالْآثَارِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الَّتِي تُوَافِقُ مَقْصُودَهُ كُلَّ مَا يَجِدُهُ؛ فَلِهَذَا يُوجَدُ فِي كُتُبِهِ مِنْ الْآثَارِ الصَّحِيحَةِ وَالْكَلَامِ الْمَنْقُولِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الدِّينِ. وَيُوجَدُ فِيهَا مِنْ الْآثَارِ السَّقِيمَةِ وَالْكَلَامِ الْمَرْدُودِ مَا يَضُرُّ مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ. وَبَعْضُ النَّاسِ تَوَقَّفَ فِي رِوَايَتِهِ. حَتَّى أَنَّ البيهقي كَانَ إذَا رَوَى عَنْهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَصْلِ سَمَاعِهِ. وَأَكْثَرُ الْحِكَايَاتِ الَّتِي يَرْوِيهَا أَبُو الْقَاسِم القشيري صَاحِبُ الرِّسَالَةِ عَنْهُ فَإِنَّهُ كَانَ أَجْمَعَ شُيُوخِهِ لِكَلَامِ الصُّوفِيَّةِ. و"مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ" لَهُ فَضِيلَةٌ جَيِّدَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَرِجَالِهِ وَهُوَ مِنْ حُفَّاظِ وَقْتِهِ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ:أَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ الزُّهْدِ وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَغَيْرِهِمْ إذَا صَنَّفُوا فِي بَابٍ ذَكَرُوا مَا رُوِيَ فِيهِ مِنْ غَثٍّ وَسَمِينٍ وَلَمْ يُمَيِّزُوا ذَلِكَ كَمَا يُوجَدُ مِمَّنْ يُصَنِّفُ فِي الْأَبْوَابِ مِثْلَ الْمُصَنِّفِينَ: فِي فَضَائِلِ الشُّهُورِ وَالْأَوْقَاتِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ وَفَضَائِلِ الْأَشْخَاصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ]ا.هـ.

وللإمام ابن رجب الحنبلي رسالة في السماع، وهي رسالة قوية ونافعة جدا ومفيدة في بابها.

كن على حذر من فتنة النساء:

ولا نذهل عن التذكير بفتنة النساء، التي غالبا ما تقترن بفتنة الغناء، والعياذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي **r** قال:"مَا تَرَكْتُ فِتْنَةً بَعْدِيْ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري t عن النبي r قال:"إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُم فِيهَا، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، واتَّقُوا النِّسَاء، فَإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسْرَائِيْلَ كَانَت في النِّسَاء".

قال ابن كثير في كتابه:(البداية والنهاية) وهو يذكر سليمان بن عبد الملك:[وسمع سليمان ليلة صوت غناء في معسكره، فلم يزل يفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إن الفرس لَيَصْهَل فَتَسْتَودِقُ له الرَّمْكَة، وإن الجمل لَيَهْدِر فَتَضْبَع له النَّاقَة، وإن التَّيْسَ لَيَنِب فَتَسْتَخْذِي له العَنْز، وإن الرَّجُل ليتغنى فَتَشْتَاقُ له المرأة، ثم أمر بهم فقال: اخصوهم، فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال: يا أمير المؤمنين إنها مثلة، ولكن انفهم، فنفاهم.

وفي رواية أنه خصى أحدهم، ثم سأل عن أصل الغناء فقيل إنه بالمدينة، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن حزم يأمره أن يخصي من عنده من المغنين المخنثين]ا.هـ. وذكر أصلها ابن عساكر في تاريخ دمشق.

خطورة علم تصوير ذوات الأرواح

ومن العلوم الضارة أيضا علم التصوير، فقد وردت في بيان تحريمه كثير من الأحاديث الصحاح، فمنها حيث ابن عباس رَضيَ اللهُ عَنْهُما قال سمعت رَسُول الله r يقول:"كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه في جهنم" قال ابن عباس: فإن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه.مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وعنه t قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سمعت رَسُول الله r يقول:"من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي الهَيّاج حيان بن حصين قال، قال لي عليّ t : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رَسُول الله r : أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: وعد رَسُول الله r جبريل أن يأتيه فراث عليه حتى اشتد على رَسُول الله r ، فخرج فلقيه جبريل فشكا إليه، فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وعن ابن مسعود t قال سمعت رَسُول الله r يقول:"إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي هريرة t قال سمعت رَسُول الله r يقول:"قال اللهَّ تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي! فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ولا فرق في ذلك بين الفوتوغرافي منها، أو ذوات الظل، أو النحت أو الرسم، فالكل تصوير وسيأتي مزيد تنبيه على هذه المسألة في الكلام على حديث جبريل المشهور بإذن الله تعالى.

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي بسند جيد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ". قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التصوير نشر الشرك بالأمس، واليوم هو ينشر الشرك والفواحش:

والتصوير كان أحد أهم العوامل التي ساعدت في نشر الشرك بالله تعالى، كما في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وُدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَا وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لآلِ ذِي الْكَلاَعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

وليت شعري لو كان عندهم مثل هذه الآلات الموجودة اليوم؛ لكانوا أرغب فيها، لأنهم إنما أرادوا بتصويرهم أنصابا فعل أقرب ما يكون شبها بهم، فكيف لو وجدوا ما يصورنهم به مطابقة؛ إذن لبادروا إلى ذلك.

وهو كذلك إلى يومنا هذا، فإن أكثر الشبهات والفواحش اليوم تنتشر عن طريق التصوير، عبر التلفاز والدجتلات، والقنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية، حتى صار الشر مستطيرا في كل مكان إلا ما رحم ربي،؛ فظهر الفساد في البر والبحر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل هذا الخبر العجيب الذي كأنه يصور حالنا اليوم، ففي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عَنْ حُذَيْفَةَ t ، قَالَ:لَيُوشِكَنَّ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْكُمَ الشَّرُّ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَبْلُغَ الْفَيَافِيَ، قَالَ:قِيلَ:وَمَا الْفَيَافِيُ يَا أَبَا عَبْدِ الله، قَالَ:الأَرْضُ الْقَفْرُ.

وقد صدق، فهذا الخبث لا تكاد تخلوا منه بقعة، ولا منزل إلا من رحم الله وقليل ما هم. فاللهم عفوك ورضاك، وغوثك والنجاة والعافية والسلامة نسألك.

وللأسف الشديد فقد تسارع في ذلك أقوام من أهل العلم بدعوى مزاحمة الباطل، وما شَعُرُوا أنهم ربما كانوا فتنة لغيرهم، وسببا لنشر هذه الأجهزة المدمرة، أجهزة الدمار الشامل، التي تدمر الدين والحياء[1]. ولو اعتزلوها لكان خيرا لهم وللأمة، ولبقي الباطل واضحاً بَيِّنا، لا لبس فيه ولا غَبَش.

والشارع الحكيم إذا نهى عن شيء، فلعلمه بمضاره وأخطاره الآنية والمستقبلية، ولكن كثيرا من الناس يتسارعون، ويعللون لأنفسهم، ويبررون مواقفهم، ثم ما يلبث أصحاب البصيرة النافذة أن يروا مواقع الخبث، وعلة النهي من الشارع الحكيم، جل الله في علاه، ولهذا قال تعالى:{وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}[النور:٥٤]، وقال سبحانه:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[الحشر:٧]. نسأل الله العافية ونعوذ به من الضلال والخذلان.

---

١ - راجع غير مأمور كتابي [أجهزة الدمار الشامل] لمزيد من الحقائق، والبحوث، والتقارير، المتعلقة بهذا الخطر الجسيم، الذي غفل عنه أكثر الناس إلا من رحم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل ذلك محرم، بل وبعض هذه العلوم كفر بالله العظيم، كالسحر والكهانة والعرافة لا سيما ما كان فيه استعانة بالجن، كما قال تعالى:{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاس السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوت وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُر فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَتَعَلَّمُون مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاه مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِه أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٠٢] ،وقوله تعالى:{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[طه:٦٩].

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم من طريق عُبَيْدِ الله ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ صَفِيَّةَ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ r ، عَنِ النَّبِيِّ r . قَالَ: "مَنْ أَتَىَ عَرّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً". وفي رواية عند الإمام أحمد من طريق عوف بن أبي جميلة الأعرابي قال حدثنا خلاس بن عمرو البصري عن أبي هريرة عن النبي r قال:"من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد r "، قلت: وفيه انقطاع وسيأتي تخريجه.

٢ - العلم النافع: وهو ينقسم إلى قسمين:

أ- العلم الديني الأخروي. **ب- العلم الدنيوي.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلوم الدنيوية:

أما العلم الدنيوي: فينفع إذا اتصل بالله جل وعلا وبشرعه تبارك وتعالى، وإلا عاد وبالا على العباد.

مثال ذلك علم الإحياء والكيمياء والجيولوجيا مثلا تعلمها مباح، وهي علوم نافعة في أصلها، ولكنها إذا انفصلت عن الله تعالى، واتصلت بالطبيعة والإلحاد أصبحت علوما ضارة، بل داعية إلى الكفر والضلال والزندقة والإلحاد والعياذ بالله من ذلك.

علوم مقطوعة الصلة بالله تعالى:

ومن العجائب والعجائب جمة في هذا الزمان أن ترى هذه العلوم تدرس في مدارس المسلمين وجامعاتهم، على أنها علوم جافة بحتة، تكاد تكون مقطوعة الصلة بالله جل وعلا، بل وتجد في طيات ما يدرس ما هو مصادم للكتاب والسنة، بل وما هو كفر بواح وإلحاد صراح، كنظرية التطور أو المعروفة اليوم بالدارونية، وكنظرية دوران الأرض حول الشمس التي زعموا أنها ثابتة،وغير ذلك كثير. عياذا بالله من ذلك كله. ومن تتبع المناهج عرف حجم الخبث المبثوث في طياتها عبر المراحل التعليمية المختلفة.

ومما يجب التنبه له في هذا المجال تَذَكُّرُ كيفية انتقال هذه العلوم من بلاد الإلحاد والضلال إلى بلدان المسلمين، حيث أن الغرب الكافر قد عاش فترة من الجهل المتقع والضلال العظيم، والتخلف في شتى مجالات الحياة، في عصور سمها أهل التأريخ (العصور المظلمة أو عصور الظلام)؛ لأن الكنيسة كانت تحارب العلوم بشتى أنواعها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتساير الكبراء على حساب الضعفاء، فظهرت الفتوى والتشريعات الظالمة الجائرة؛ فثار الناس على الكنيسة ومن فيها، وأبغضوا كل ما هو متصل بها، وأبغضوا الدين تبعا لذلك، إذ هو يمثل دين الأحبار والرهبان الذين قال الله تعالى في وصفهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة:٣٤-٣٥].

الثورة الفرنسية الإلحادية:

وانطلق ما يعرف بالثورة الفرنسية، والتي جاءت داعية فصل الدين عن الحياة، وعن العلوم؛ فجاءت العلوم معزولة تماما عن الدين، فقامت حضارتهم الماثلة اليوم على الزندقة والإلحاد على مبدأ (لا إله والحياة مادة) عياذا بالله منهم ومن مبادئهم.

ولما أراد المسلمون أن يتعلموا منهم، ويأخذوا عنهم هذه الحضارة المزعومة،قاموا وللأسف الشديد بنقلها برمتها وعلى علاتها، بما فيها من ضلال وانحراف وزندقة وإلحاد، ونقلت إلى بلاد المسلمين على أيدي من يُسَمَّون بالمثقفين، وهي طبقة من الناس ذهبت إلى بلاد الغرب الكافر وجاءت مفتونة بهم، مشبعة بمبادئهم المنحرفة، وخبثهم وضلالهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعم هم أقوام من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم عياذا بالله منهم، ومن كيدهم وشرهم ومكرهم،واستمع إلى وصفه لهم{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:٤]؛ نعم هكذا فتن الناس بهم، وبمعسول كلامهم، وتشدقهم بالحضارة والمدنية، في محاولة جادة لإغراء المسلمين، بالغرب الكافر وحضارته الإلحادية.

وقد حق عليه وصف نبينا r كما في الصحيحين من طريق أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله r عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:"نَعَمْ"، قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ، قَالَ:"نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ"، قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟قَالَ:"قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:"**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**"، قُلْتُ:يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ:"**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**"، قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:"تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ:"فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ".

يَكُونُ وفي رواية أخرى لمسلم:"بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي **وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكانت النتيجة ما نرى من الغثائية المنقطعة النظير، في حين أننا من أكثر الأمم شهادات علمية أكاديمية في شتى العلوم، فما من تخصص إلا وعند المسلمين من حملته المئات بل الآلاف من العباد، بل لربما في بعضها الملايين، ولكنهم غثاء كغثاء السيل.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[جواز ترك التداوي وأن علاج الأرواح بالتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء:وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوي وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء وأن تأثيره وفعله وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها وقد جربنا هذا مرارا نحن وغيرنا وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم]ا.هـ.

متى تصبح العلوم المباحة محرمة:

وإذا كانت العلوم المفضولة إذا أشغلت عن العلوم الفاضلة حرمت، فكيف إذا صادمتها وحاربتها، بل كيف إذا قامت على نقض الأصلين، اللذين قام عليهما دين الله جل وعلا، الكتاب والسنة، لا شك أن الخطب أعظم والجرم أشنع وأفظع.والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولهذا كان النبي r يستعيذ بالله من علم لا ينفع، كما جاء في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لاَ أَقُولُ لَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلاّ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ:"اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللّهُمّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا. وَزَكّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكّاهَا. أَنْتَ وَلِيّهَا وَمَوْلاَهَا. اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا".

قضية الإنسان مع العلم قديمة:

واعلم رحمك الله، أن علاقتك بهذا العلم متصلة من لَدُن أبِينَا آدم عليه الصلاة والسلام، إلى أن تُدْرَجَ في قَبْرِك، فأما آدم عليه السلام، فكان إظهار فضله بالعلم الذي علمه الله تبارك وتعالى، كما تقدم، وأما في القبر ففي حديث البراء بن عازب y r الطويل الذي أخرجه الإمام أحمد وغيره قال النبي r :"فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الْإِسْلَامُ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ الله r فَيَقُولاَنِ لَهُ وَمَا عِلْمُك فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ....الحديث". إلى أن قال r في حق الكافر أو الفاجر:" وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ....الحديث".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الله تبارك وتعالى بين في قصة خلق آدم عليه السلام العلاقة الوثيقة بين فشو العلم وحصول الرحمة والبركة والرضوان منه تبارك وتعالى، وبين كذلك العلاقة الوطيدة بين حصول الخوف وانتشار الفساد في الأرض عند فشو الجهل بدين الله تبارك وتعالى، وتأمل قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، مع قول النبي r كما في حديث أبي سعيد t يرويه عن معاوية t في صحيح مسلم قال t : وَإِنَّ رَسُولَ الله r خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:"مَا أَجْلَسَكُمْ". قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ:"آلله مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ". قَالُوا وَالله مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ:"أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ".

لعله أن يظهر لنا شيء من معاني هذه المباهاة، أن هناك من بني آدم من ليسوا كما ذكرت الملائكة، بل هم يتعلمون العلم النافع ويعملون العمل الصالح، وبهذا تعمر الأرض وتصلح، وبضد ذلك تفسد وتخرب.

خطورة الزهد أوالإعراض عن علم محمد r :

والناس اليوم إلا من رحم الله انصرفوا إلى هذه العلوم الحياتية، وانقطعوا إليها، وَوُلِعُوا بها، وعَوَّلُوا عليها في معايشهم وأرزاقهم، وظنوا بها النصر والتمكين، ورموا علم الشريعة وراء ظهورهم، وزهدوا فيه، إلا ثقافة يأخذها من هنا أو هناك يتعلل بها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن احتاج إلى ذلك، فانتشر الجهل بدين الله تعالى، وظهرت الفتن، وعاشت الأمة ذلا كتبه الله على من تنكب صراطه المستقيم وابتغى العزة من عند غيره تبارك وتعالى.

إذن هذه العلوم، الأصل أن الله تعالى علمها عباده ليزدادوا إيمانا به وتعلقا به، وتوكلا عليه، لا أن يطغوا بها على حق الله تبارك وتعالى، ويستظهروا بها على دينه وشريعته، والأمر كما قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} [فصلت:٥٣-٥٤]. وقال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر:٨٣-٨٥].

هكذا الأمة إذا أخذت هذه العلوم بهذه الهدايات الربانية؛ كانت عونا لها على قضيتها التي لأجلها خلقت، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات:٥٦-٥٨].

وإن انشغلوا بها وكانت هِمَّتَهم؛ انقطعوا بها عن الله، فَوُكِلُوا إلى أنفسهم، وفرحوا بما عندهم من علم، فضلوا وأضلوا، وحقت عليه كلمة العذاب، والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة:[فصل: حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها إلا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة وأما أهل البدو كلهم وأهل الكُفُور كلهم وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب وهم أصح أبدانا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ولعل أعمارهم متقاربة وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء حتى أن كثيرا من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فمبناها على الوحي المحض والحاجة إلى التنفس فضلا عن الطعام والشراب لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبدان وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول r والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم]ا.هـ.

ومن آثار هذا التنكر للعلم الشرعي، صرنا نرى في من ترفع إليهم الأبصار، من أطباء ومهندسين، وأصحاب درجات علمية متنوعة، من لا يحسن أن يقيم تلاوة قصار السور، ناهيك عن تلاوة القرآن، وتجد من بينهم من لا يحسن يصلي،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يعرف كيفية غسل الجنابة، بل لو سألت كثيرا منهم عن معاني بعض قصار السور، كقوله تعالى:{ومن شر غاسق إذا وقب}، لم يحر جوابا، ولضرب الأخماس بالأسداس، في إفلاس واضح مشين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

في حين أنه يحسن عدة لغات، ويقرأ كثيرا من الكتب والجرائد والمجلات، ويعرف كثيرا من أخبار العالم، السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، إلا أنه لا يعرف كثيرا من حدود ما أنزل الله تعالى على نبيه r . والله المستعان.

الرد على دعوى أن تعلم الطب من فروض الكفايات:

ومن الأوابد والطوام التي طغت على كثير من الناس في هذا العصر، وتبنى ذلك فئام من أهل العلم، القول بوجوب التطبب، ووجوب الهندسة، ووجوب كذا وكذا، وهذه والله ثالثة الأثافي، أما علم هؤلاء أن الوجوب حكم شرعي، لا يجوز الاجتراء عليه، إلا مع وجود الدليل الصحيح الصريح، كيف وقد قامت الأدلة على خلاف ما قالوا، أما علم هؤلاء أن هذا يدخل في القول على الله بغير علم، وأنه من شغل الذمم بالإثم،من دون موجب شرعي، فيا سبحان الله!!.

اعلم أيها المسلم، أن لم يأت نص واحد صحيح صريح بوجوب التطبب، وإنما خصصته بالذكر لأنه أشرف العلوم الحياتية، واعلم أنه لم يقل أحد من السلف لا في زمان الصحابة، ولا فيمن بعدهم في القرون الثلاثة المفضلة، بهذا الوجوب المزعوم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما نشأ فيمن بعدهم، حتى أصبح دينا اليوم، والعياذ بالله، فمن تركه كان آثما عند هؤلاء، بل وجعلوه فرض كفاية على الأمة، بل وقدموه على علوم الشريعة، واعتقدوا أن أعظم أسباب النصر اليوم التعمق والطلب لهذه العلوم الحياتية، وأن سبب تخلفنا، هو إعراضنا عنها، وبهذا سرت الركبان، فاللهم غفرا من هذا التخبط.

سبحان الله!!، كيف اجترأ هؤلاء على القول بالوجوب؟!!، وهو قول مبتدع، مختلق، محدث، ولكنه التقليد الأعمى، والرضوخ لضغط الواقع، والتجاوب مع الآراء، والمصالح والمفاسد المختلقة، والتسارع مع العواطف، وليت شعري أين السلف عن أمثال هؤلاء؟!!.

حكم التطبب عند السلف:

واعلم يقينا، بارك الله فيك، أن التطبب كان يدور في زمان السلف، على ثلاثة أحكام لا رابع لها، وهي الإباحة و الكراهة والسُّنِّيَّة، واعلم أن أدلة القائلين بالكراهة، لا تقل قوة عن القائلين بالإباحة، وأما القول بالسنية فهو قول قوي، ولكن أدلته أقل.

أما الوجوب فلا محل له من الأدلة، ولا محل له من كلام الصحابة، ولا محل من كلام أئمة الهدى، في القرون الثلاثة المفضلة. فتنبه. ولا تغتر بملإ الأوراق، وتسويد الصفحات، فالمسألة غاية في الوضوح، فإنما نأخذ أحكام الشريعة كلها، من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك بعض النقولات عن الأئمة المحققين، الذين اعتنوا بمسائل الخلاف وتحريرها، وبيان الراجح من المرجوح؛ لتعلم عظيم الانحراف الذي وقع في هذا الباب اليوم، لا أقول على مستوى العامة، بل حتى على مستوى الخاصة:

قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر في كتابه (التمهيد):[حديث خامس وأربعون لزيد بن أسلم مرسل مالك عن زيد بن أسلم أن رجلا في زمان رسول الله r أصابه جرح فاحتقن الجرح الدم وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظرا إليه فزعم زيد أن رسول الله r قال لهما أيكما أطب فقالا أو في الطب خير يا رسول الله فزعم زيد أن رسول الله r قال أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء هكذا هذا الحديث في الموطأ منقطعا عن زيد بن أسلم عند جماعة رواته فيما علمت وقد روى عاصم بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي r قوله (أيكما أطب) وأما (أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء) فقد روي عن النبي r في هذا المعنى بغير هذا اللفظ آثار مسندة صحاح سنذكرها في آخر هذا الباب إن شاء الله وفي هذا الحديث إباحة التعالج؛ لأن رسول الله r لم ينكر ذلك عليهم وفيه إتيان المتطبب إلى صاحب العلة وفيه بيان أن الله عز و جل هو الممرض والشافي وأنه لا يكون في ملكه إلا ما شاء وأنه أنزل الداء والدواء وقدره وقضى به وكذلك ثبت عن النبي r أنه كان يرقي ويقول:"اشف أنت الشافي يا رب لا شفاء إلا شفاؤك اشف شفاء لا يغادر سقما" وهذا يصحح لك أن المعالجة إنما هي لتطيب نفس العليل ويأنس بالعلاج ورجاء أن يكون من أسباب الشفاء كالتسبب لطلب الرزق الذي قد فرغ منه وفي قوله r أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء دليل على أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البرء ليس في وسع مخلوق أن يعجله قبل أن ينزل ويقدر وقته وحينه وقد رأينا المنتسبين إلى علم الطب يعالج أحدهم رجلين وهو يزعم أن علتهما واحدة في زمن واحد وسن واحد وبلد واحد وربما كانا أخوين توأمين غذاؤهما واحد فعالجهما بعلاج واحد فيفيق أحدهما ويموت الآخر أو تطول علته ثم يفيق عند الأمد المقدور له.

واختلف العلماء في هذا الباب فذهبت منهم طائفة إلى كراهية الرقى والمعالجة قالوا الواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله تعالى وتوكلا عليه وثقة به وانقطاعا إليه وعلما بأن الرقية لا تنفعه وأن تركها لا يضره إذ قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة فلا تزيد هذه بالرقي والعلاجات ولا تنقص تلك بترك السعي والاحتيالات لكل صنف من ذلك زمن قد علمه الله ووقت قد قدره قبل أن يخلق الخلق فلو حرص الخلق على تقليل أيام المرض وزمن الداء أو على تكثير أيام الصحة ما قدروا على ذلك قال الله عز و جل ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها واحتجوا بما حدثنا سعيد بن نصر قال حدثنا قاسم ابن أصبغ حدثنا محمد بن وضاح قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله r :"عرضت علي الأمم" فذكر الحديث وفيه ويدخل الجنة أيضا من أمتك سبعون ألفا بغير حساب ثم دخل رسول الله r ولم يبين لهم فأفاض القوم فقالوا نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم وأولادنا الذين ولدوا في الإسلام فسمع ذلك رسول الله r فقال:"هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون"، وبه عن أبي بكر قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدثنا الحسن بن موسى قال حدثنا شيبان عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين عن ابن مسعود قال تحدثنا عند رسول الله r ذات ليلة فقال النبي r :"سبعون ألفا يدخلون الجنة لا حساب عليهم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون"، واحتجوا (أيضا) بحديث سعيد بن أبي سعيد مولى المهري عن أبي هريرة قال قال رسول الله r :"دخلت أمة بقضها وقضيضها الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون".....إلى أن قال"فلهذه الفضيلة ذهب بعض أهل العلم إلى كراهية الرقى والاكتواء، والآثار بهذا كثيرة ثابتة عن النبي r وممن ذهب إلى هذا داود بن علي وجماعة من أهل الفقه والأثر .....إلى أن قال:

وذهب آخرون من العلماء إلى إباحة الاسترقاء والمعالجة والتداوي وقالوا إن من سنة المسلمين التي يجب عليهم لزومها لروايتهم لها عن نبيهم r الفزع إلى الله عند الأمر يعرض لهم وعند نزول البلاء بهم في التعوذ بالله من كل شر وإلى الاسترقاء وقراءة القرآن والذكر والدعاء واحتجوا بالآثار المروية عن النبي r في إباحة التداوي والاسترقاء منها.....إلى أن قال:

وقال إبراهيم النخعي كانوا لا يرون بالاستشفاء بأسا وإنما كرهوا منه ما كرهوا مخافة أن يضعفهم وقال عطاء لا بأس أن يستشفي المجذوم وغير المجذوم وقد سئل رسول الله r فقيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها أترد من قدر الله فقال هي من قدر الله وقال في عجوة العالية شفاء إذا بكره على الريق وقال من تصبح سبع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمرات من عجوة من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر وكوى رسول الله r أسعد بن زرارة وروى أنه قطع من أبي بن كعب عرقا وكواه وهو حديث غريب رواه أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر وذكر الأثرم قال سألت أحمد بن حنبل عن قطع العرق فقال لا بأس بذلك عمران بن حصين قطع عرقا وأسيد بن حضير قطع عرق النساء وأبي بن كعب قطع عرقا فيما قال أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر.....إلى أن قال:

فمن زعم أنه لا معنى للرقى والاستعاذة ومنع من التداوي والمعالجة ونحو ذلك مما يلتمس به العافية من الله فقد خرج من عرف المسلمين وخالف طريقهم قالوا ولو كان الأمر كما ذهب إليه من كره التداوي والرقي ما قطع الناس أيديهم وأرجلهم وغير ذلك من أعضائهم للعلاج وما افتصدوا ولا احتجموا وهذا عروة بن الزبير قد قطع ساقه قالوا وقد يحتمل أن يكون قول النبي r أنهم :"لا يسترقون ولا يكتوون" أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه منهي عنه أو يكون قصد إلى الرقى بما ليس في كتاب الله ولا من ذكره وقد جاء عن أبي بكر الصديق كراهية الرقية بغير كتاب الله وعلى ذلك العلماء وأباح لليهودية أن ترقى عائشة بكتاب الله قال أبو عمر هذا كله قد نزع به أو ببعضه من قصد إلى الرد على القول الأول.

والذي أقول به أنه قد كان من خيار هذه الأمة وسلفها وعلمائها قوم يصبرون على الأمراض حتى يكشفها الله ومعهم الأطباء فلم يعابوا بترك المعالجة ولو كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعالجة سنة من السنن الواجبة لكان الذم قد لحق من ترك الاسترقاء والتداوي وهذا لا نعلم أحدا قاله.

ولكان أهل البادية والمواضع النائية عن الأطباء قد دخل عليهم النقص في دينهم لتركهم ذلك وإنما التداوي والله أعلم إباحة على ما قدمنا لميل النفوس إليه وسكونها نحوه و {لكل أجل كتاب} لا أنه سنة ولا أنه واجب ولا أن العلم بذلك علم موثوق به لا يخالف بل هو خطر وتجربة موقوفة على القدر والله نسأله العصمة والتوفيق وعلى إباحة التداوي والاسترقاء جمهور العلماء .....إلى أن قال:**وقد رخصوا أن يداوي الرجال عند الاضطرار النساء على سبيل السترة والاحتياط** أخبرنا عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الحميد بن أحمد قال حدثنا الخضر بن داود قال حدثنا أبو بكر الأثرم قال سألت أحمد بن حنبل أو سئل وأنا أسمع عن المرأة يداويها الرجل في مثل الكسر وشبهه قال نعم قد رخص في ذلك عدة من التابعين قال أبو بكر حدثنا قبيصة قال حدثنا سفيان عن عبد الله بن عثمان بن خثيم قال سألت عطاء بن أبي رباح عن امرأة منا في رأسها سلعة لا يستطيع النساء أن يداوينها قال يخرق في خمارها قدر السلعة ثم يداويها الرجال قال وحدثنا أبو جعفر النفيلي قال حدثنا مسكين بن بكر عن شعبة عن يونس بن عبيد عن هشام بن عروة قال خرج في عنق أختي خراج فدعا عروة الطبيب فأمره أن يقور الموضع ثم يعالجها قال وحدثنا حفص بن عمر قال حدثنا همام قال حدثنا ثابت بن ذروة قال سألت جابر بن زيد عن المرأة ينكسر منها العضو أجبره قال نعم قال وحدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا هشام قال حدثنا قتادة عن جابر بن زيد في المرأة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينكسر فخذها فلا يجدون امرأة تجبرها فقال يجبرها رجل ويسترها قال وأخبرنا حفص بن عمر قال حدثنا هشام عن قتادة عن سعيد بن المسيب في الرجل يؤخر عن امرأته فيلتمس من يداويه قال إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع....]ا.هـ.

وقال العلامة ابن القيم في (مفتاح دار السعادة :[النوع الرابع علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس في أسباب العلم الواجب وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقته للحق في نفسه والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمرا وإباحة والواجب في الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك في طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان،**وأما فرض الكفاية** فلا أعلم فيه ضابطا صحيحا فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضا فيدخل بعض الناس في ذلك **علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة**، وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخياطة ونحوها، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق، وربما جعله فرض عين، وبناه على عدم صحة إيمان المقلد.

وكل هذا هَوَسٌ وخَبْطٌ فلا فَرْضَ إلا مَا فَرَضَهُ الله ورَسُولُه

فيا سبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيبا حجاما حاسبا مهندسا أو حائكا أو فلاحا أو نجارا أو خياطا فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم فإنه ليس واحد منها فرضا على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسبا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحا لأن فرض الكفاية يجب على العموم]ا.هـ.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم:[باب لكل داء دواء واستحباب التداوي: قوله r :"لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء بريء بإذن الله" الدواء بفتح الدال ممدود وحكى جماعات منهم الجوهري فيه لغة بكسر الدال قال القاضي هي لغة الكلابيين وهو شاذ وفى هذا الحديث إشارة إلى استحباب الدواء وهو مذهب أصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف قال القاضي في هذه الأحاديث جمل من علوم الدين والدنيا وصحة علم الطب وجواز التطيب في الجملة واستحبابه بالأمور المذكورة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن الوزير في (إيثار الحق على الخلق):[فصل : ينبغي من كل مكلف أن يطرح العصبية ويصحح النية ويستعمل النظر بالفطرة التي فطر الله الناس عليها ولا يقدم عليها ما لقنه أهل مذهبه فإنه إذا نظر كذلك في كل أمرين متضادين فيما يحتاج إليه يجد ترجيح الحق منهما على الباطل بينا لا يدفع مكشوفا لا يتقنع، فَاقْسِمِ الأمور أولا إلى قسمين:**قسم لا يحتاج إلى معرفته في الدين الذي تسأل عنه في الآخرة كعلم الفلك ودقائقه وعلم الطبائع وعلم الطب** وعلم الفراسة الدالة على الأخلاق الباطنة وعلم النجوم وعلم السحر وعلم الطلسمات وعلم السيمياء وعلم الكيمياء وعلم الرياضة وعلم الفلاحة وعلم الهندسة وعلم المرايا المحرقة وعلم المساحة وعلم الهيئة وعلم الأرصاد وعلم الحساب وعلم الشعر وعلم العروض وعلم تجويد الكتابة وقوانينها وعلم اللطيف وعلم الزيجات من الفلك والتقاويم إلى سائر ما ذكر من علوم الأذكياء وأهل الرياضات وقد صنفت كتب في ذكر أعداد العلوم وأسمائها فبلغت مبلغا كثيرا ومن أحسن من صنف في ذلك الشيخ محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري فانه صنف في ذلك كتابا مفيدا سماه إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد وذكر من هذه الفنون التي لم يرد الشرع بوجوب معرفتها ولا ندب إليها قدر أربعين فنا أو تزيد من هذه العلوم وإنما أشرت إليها ونبهتك عليها لتعرف سهولة ما بقي عليك بعد تركها وتيقن صدق قول الله عز و جل يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وتحمد الحمد تعالى على ذلك وأنفعها علم الطب وعلم اللطيف أما علم الطب فنفعه بين لكن التوكل أفضل منه بالنص المتفق على صحته والأجر في الألم لمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صبر عظيم وأعظم مصائب الدنيا الموت والطب لا يمنع منه وهو مهون لما دونه كما قيل في ذلك المعنى شعرا:

سَلِّي عن العَيْشِ أنا لا نَدُومُ له ... وهَوَّنَ الموتُ ما نَلْقَى مِن العِلَلِ

لكن الصبر قليل فنسأل الله العافية ولا بأس بتعلم الجلي من الطب، وأما علم اللطيف فهو أساس علم الكلام وتحقيق بعض فوائده يكشف عوار كثير من البدع كما تأتي إليه الإشارة.

والقسم الثاني من العلم ما يحتاج إليه في الدين وهو قسمان قسم لم يختلف في حسنه مثل النصوص في الحديث والإجماع من تفسير الإسلام والإيمان الواجب على الجميع دون ما عداه وعلم الزهد بما اشتملت عليه كتبه مما أجمع عليه دون ما اختلف فيه ومن أنفس كتبه رياض الصالحين للنووي لاقتصاره على الحديث القوي وأنفس منه الترهيب والترغيب للمنذري ونحوهما من الكتب الخالية من البدع فهذا القسم الأول لا نتعرض لذكره في هذا المختصر لعدم الإشكال فيه وإنما نتعرض لإيضاح ما فيه إشكال بأقرب الطرق أو أبعدها من الشبه ومن هذا القسم كتب الفروع التي كل مجتهد فيها مصيب أو مأجور وكتب العربية ونحو ذلك إذ لا يمكن رفع الاختلاف فيما اختلف في مثله موسى والخضر وسليمان وداود واختصم في مثله الملأ الأعلى لأنه مراد الله بالإجماع والقسم الثاني المختلف فيه اختلافا تخاف مضرته في الآخرة فما كان لا يجب شرعا الخوض فيه مع عظم الخطر في الخوض فيه فاضرب عنه وطالب من دعاك إليه بالدليل الواضح على الوجوب وأعرض ما أورد عليك فيه من الأدلة على النصحاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأذكياء من العلماء حتى تعرف الوجوب يقينا من غير تقليد ثم حرر النية الصحيحة بعد ذلك في معرفة الحق وما أوجب الله معرفته طاعة لله لا لمباهاة ولا مراآة ولا مماراة ثم استعن بالله واستغث به وانظر في الخلوات خالطا للنظر بالدعاء والتضرع والاستعاذة من الفتن فإنك ترى بذلك من العون والسهولة ما وعد الله به الداعين له الراجعين إليه فإن الله تعالى إذا أوجب أمرا أعان عليه من أراد الأدلة بنية صحيحة كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإنه قال لو صبروا عليها لطوقوها فلما نقص من تكليفهم نقص من صبرهم رواه البخاري وله شواهد والعقل يشهد لذلك أيضا]ا.هـ.

أزكى العلوم وأعلاها وأعظمها نفعا:

أما العلم الديني الشرعي الأخروي (أزكى العلوم وأعلاها وأشرفها وآكدها): فينقسم أيضا إلى قسمين:

١ - **فرض عين:** وهو ما لا يسع العبد الجهل به، أو هو ما يلزم كل مكلف من أهله أن يتعلمه، وقلنا من أهله؛ لأن من العلم ما يكون فرض عين في حق قوم دون آخرين، فإذا صاروا من أهله كان فرض عين عليهم كذلك، مثل الصلاة والزكاة والحج والصيام والوضوء.

ومما هو فرض عين على جميع العباد أن يتعلموه الفقه الأكبر والعلم الأعظم، ألا وهو علم التوحيد وما يضاده، وما يجب اعتقاده في الله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - **فرض كفاية**: وهو ما إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وأما إن تواطأ العباد على ترك تعلمه؛ فإن الإثم يلحقهم جميعا، إلا من كان ساعيا في تحصيل الكفاية وإيجادها.

وبهذا الاعتبار يكون فرض الكفاية أشد من فرض العين، وذلك من جهة لحوق الإثم بالأمة جمعاء، كعلم الفتوى والقضاء وما يتعلق به وعلم المواريث وما يتبعه،وتحصيل العلم الشرعي لإيجاد العلماء الربانيين الراسخين في دين الله تعالى؛ ليعلموا الأمة ويفقهوها في دين الله تبارك وتعالى،كما قال تعالى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢].

وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعموم قوله تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٤-١٠٥].

على خلاف بين أهل العلم فيه هل هو من فروض الأعيان أم من فروض الكفايات، لعموم قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلاَ حَرَجَ،وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتحقيق أن منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية وكل بحسبه. وسيأتي مزيد بيان وتفصيل في ذلك. إن شاء الله تعالى.

السلف والحرص على العلم الموصل إلى النجاة:

ولما كان العلم منه النافع والضار، ومنه المهم والأهم، كان من دعاء النبي r المأثور عنه أنه كان يستعيذ بالله من علم لا ينفع، كما في صحيح مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ كَانَ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ** وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا".

وأنت إذا تأملت في هذا الدعاء النبوي الجامع العظيم، وجدت أن مرد ذلك كله إلى العلم الذي ينتفع به العبد، فإن العلم يهجم بك على حقائق الأمور، فتراها على وجهها الصحيح، فتهتدي بتوفيق الله تعالى، وما آتاك من العلم النافع، إلى ترك الخصال الذميمة، والعِلْم يدعوك إلى تحصيل مكارم الأخلاق، فيحصل للنفس تزكيتها، والنجاة، والبعد عن أسباب تَدْسِيَتِهَا، فإذا بك تنآى بنفسك عن سبيل المفسدين والذين لا يعلمون، فتكون قد حققت أسباب خشوع القلب وإجابة الدعاء، فعاد جماع الخير في العلم النافع، الذي يورث العمل الصالح، فنسأل الله تبارك وتعالى لي ولكم علما نافعا وعملا متقبلا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان دأب الصالحين السعي في تحصيل العلم النافع، بل أمر الله تبارك وتعالى نبيه أن يسأله المزيد من العلم النافع، كما قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤]، فكان r يسأل الله تعالى المزيد من العلم؛فدل ذلك على أن العبد لم ولن يزال بحاجة إلى مزيد من العلم النافع والعمل الصالح، فمن ظن أنه قد علم واكتفى فقد جهل،فما أوتي العباد من العلم إلا نزرا يسيرا، فهم يتنافسون في هذا اليسير، كما قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٨٥].

وفي الصحيحين من طريق سفيان بن عيينة : حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله: حدثني أبي بن كعب: أنه سمع رسول الله r يقول:"إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، .... الحديث إلى أن قال: وقال رسول الله r : وكانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر،..... الحديث".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقيل للإمام أحمد وقد رُئِي حاملا الإداوة والقلم، فقيل له إلى متى؟!!، فقال من المحبرة إلى المقبرة.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله:

كلُّ العُلُومِ سِوى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاَّ الحَديث وَعِلْمِ الفِقْهِ في الدِّينِ

العلمُ ما كانَ فيه قالَ حدثنا ... وَمَا سِوى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

وقال أيضا:

لن يبلُغَ العلمَ جميعاً أحدٌ ... لا ولَوْ حاوَلَهُ ألفَ سنَهْ

إنما العلْمُ عَمِيقٌ بحرُهُ ... فخذوا من كل شيءٍ أحسنه

والمراد بالعلم في هذه الأصول الثلاثة هو العلم المتعلق بالله جل وعلا ومعرفته ومعرفة دينه وشرعه ورسله. كما سيبينه المؤلف رحمه الله تعالى.

قوله:(وهو معرفة الله): شرع المؤلف رحمه الله تعالى، في بيان هذا العلم الذي قدم له من قبل، وبَيَّنَ أنه واجب علينا جميعا أن نتعلمه،والمعرفة هنا مرادفة لمعنى العلم، وإن كانت في بعض السياقات قد يحصل نوع تباين، ويكون بينهما عموم وخصوص؛ ولأجل هذا فرق بعضهم بين العلم والمعرفة[1]، والراجح أن هذه الألفاظ تَتَحَدَّدُ معانيها

---

١ - قال ابن القيم في كتابه مدارج السالكين:[فصل والفرق بين العلم والمعرفة لفظا ومعنى أما اللفظ ففعل المعرفةيقع على مفعول واحد تقول عرفت الدار وعرفت زيدا قال تعالى:{فعرفهم وهم له منكرون}، وقال:{يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}، وفعل العلم يقتضي مفعولين كقوله تعالى فإن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علمتموهن مؤمنات وإن وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وأما الفرق المعنوي فمن وجوه:

أحدها: أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحواله فنقول عرفت أباك وعلمته صالحا عالما ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله وقوله اعلموا أن الله شديد العقاب وقوله فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، فالمعرفة حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه فالمعرفة تشبه التصور والعلم يشبه التصديق.

الثاني:أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل عرفه أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل عرفه قال الله تعالى ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى وجاء أخوه يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون وقال الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لما كانت صفاته معلومة عندهم فرأوه عرفوه بتلك الصفات وفي الحديث الصحيح إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا أتعرف الزمان الذي كنت فيه فيقول نعم فيقول تمن فيتمنى على ربه وقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فالمعرفة تشبه الذكر للشيء وهو حضور ما كان غائبا عن الذكر ولهذا كان ضد المعرفة الإنكار وضد العلم الجهل قال تعالى:{يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها} ويقال عرف الحق فأقر به وعرفه فأنكره.

الوجه الثالث:من الفرق أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره وهذا الفرق غير الأول فإن ذاك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها وتخليص صفاتها من صفات غيرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بحسب السياق الذي وردت فيه. كما هو هنا في ظاهر صنيع المؤلف حيث فسر العلم بالمعرفة، فصارا مترادفين.

وهذه المعرفة لا تتم إلا بالتعرف على أنواع التوحيد وحقائقه ولوازمه ومقتضياته، والتحقق بذلك، وما يتبع ذلك من معرفة نواقضه واجتنابها، وهذا كما تقدم هو من فروض الأعيان، ولهذا كان لزاما على المكلفين السعي الجاد في تحصيل هذا العلم، ولهذا حذر الله تبارك وتعالى عباده من الغفلة في مواضع من الذكر الحكيم.

قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩].

وفي بُدَاءَةِ المؤلف رحمه الله تعالى بهذا العلم، تذكير بما تقدم تقريره، من تباين العلوم، درجة ومعنى، وأن آكد العلوم على الإطلاق، العلم المختص بمعرفة حق الله تبارك وتعالى، وما يتبع ذلك مما سيأتي عليه المؤلف في سياق كلامه رحمه الله تعالى.

الفرق الرابع:أنك إذا قلت علمت زيدا لم يفد المخاطب شيئا لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أي حال علمته فإذا قلت كريما أو شجاعا حصلت له الفائدة وإذا قلت عرفت زيدا استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره ولم يبق منتظرا لشيء آخر وهذا الفرق في التحقيق إيضاح للفرق الذي قبله.

الفرق الخامس:وهو فرق العسكري في فروقه وفروق غيره أن المعرفة علم بعين الشيء مفصلا عما سواه بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعلم يتفاوت في درجة أهميته، فهناك مهم وأهم، وليس في علم الشريعة ما يهمل، وأس العلوم وأعظمها وأجلها، ما كان به إقامة حق الله تعالى، وما دَلَّ عليه وهدى إليه، ولا شك أن رأس ذلك كله التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد.

أنواع التوحيد وتقسيماته:

وقد اختلفت عبارات أهل العلم في أنواع التوحيد وتقسيماته، وهذا كله من اختلاف التنوع لا التضاد، فإن جماع الأمر ومرده يعود، إلى إفراد الله تعالى بحقه،وما يختص به جل الله في علاه، وحقه منه ما هو متعلق بذاته كالأسماء والصفات، ومنها ما هو متعلق بأفعاله وهو مقتضى ربوبيته، ومنها ما هو متعلق بما يلزم العباد أن يتوجهوا به إليه، وحده لا شريك له جل الله في علاه، وهذا مقتضى ألوهيته.

ومما تلزم الإشارة إليه أن هذه التقسيمات، ليست تعبدية من جهة حرفها، ولكنها كذلك من جهة مقتضياتها ومعانيها ومدلولاتها، إذ لا خلاف بين السلف بأن معاني هذه التقسيمات هي لله تبارك وتعالى، وأنها مبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله r .

وهي تقسيمات اصطلاحية، دأب أهل العلم على استعمالها في مثل هذه المقامات وغيرها، تقريبا للأفهام، وتيسيرا للعلم، ولهذا كانوا يقولون: لا مشاحة في الاصطلاح إذا عرف المعنى وتحدد الهدف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما قلت هذا؛لِأُذَكِّر بما وقع من التَّحْجِير والتَّمْييع في هـذه المسـألة، أعنـى تقسـيم التوحيد إلى أقسام، وذلك لأن بعض الناس سلك فيها مسلك الجفاء، فَمِنْ مُفْرِطٍ ومِنْ مُفَرِّط.

فتسمع من بعضهم من يقول: من أين هذه التقسيمات وتلك التسميات؟!، ويـزعم أنه لا أصل لها، وأن هذا ليس بـلازم، ونحـو ذلـك مـن الأقـوال، في ذهـول تـام عـن مدلولات ومعاني هذه التقسيمات والتسميات، التي كما تقدم جاءت واضحة المعـالم في الكتاب والسنة.

ومن آخرين يُحَجِّرُون واسعا، فيزعمون أن مـن تجـاوز هـذه التقسـيمات -بعضـهم يقول من جهة عددها، وبعضهم من جهة تسمياتها، و ربما الإثنين معا– فقـد ابتـدع في الدين وتكلف ما لا علم له به، في نسيان تام، أو تناسي، بأن هذه التقسـيمات مـن جهـة عددها وتسمياتها، إنما جاءت بسـبيل الاسـتقراء لنصـوص الكتـاب والسـنة وتعامـل الأئمة، فهي توقيفية المعـاني والـدلالات لا الحـروف والتقسـيمات، إذ لا يوجـد نـص صريح صحيح بتحديد العدد والتسمية.

وقد أقام بعضهم الأرض ولم يُقْعِدْها، عندما قال بعض أهـل العلـم: ومـن أقسـام التوحيد، توحيد الحاكمية والتشريع.

فَبَادَرُوا إلى رميهم بالبدعة ومفارقـة السـبيل، عيـاذا بـالله مـن الجـور في الأحكـام، والفجور في الخصومة، أليس الله تبارك وتعالى يقول في كتابـه العزيـز:{أَمْ لَهُـمْ شُرَكَـاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُـمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَذَابٌ أَلِيمٌ}[الشورى:٢١]، وقال:{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام:٥٧]، وقال:{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠] وغير ذلك من الأدلة.

أوليست هذه الآيات دالة على أن من صميم التوحيد إفراد الله تعالى بالتشريع والحكم، جل الله في علاه، كيف لا وهو القائل:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]. فيا سبحان الله!!.

أليس في هذه التسميات في حدودها ومدلولاتها ومعانيها، ما اقتضى أن ذلك حق لله تعالى يجب إفراده به، وأن من صرفها لغير الله تعالى فإنه مشرك بالله كافر.

وبمثل هذه السبيل جاءت التسميات الأخرى، التي اشتهرت بين الناس وذاعت، فلماذا ننكر المسميات الحقة ذات المعاني الصحيحة والمدلولات الواضحة؟!!، ألِأن فلانا أو فلانا هو المتكلم بها، أم لمعطيات سياسية وسلطانية، رضخ الناس لها؟. فيا لله العجب!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن من أشهر التقسيمات للتوحيد، التي سرت بها الركبان، وتلقاها أهل العلم بالقبول والتسليم، أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام،فمن حققها فقد أدى ما عليه من المعرفة الواجبة والعلم بالله تبارك وتعالى.

وهذا التقسيم على النحو التالي:

أنواع التوحيد ثلاثة:

١ - **توحيد الربوبية:** وهو إفراد الله تعالى بأفعاله جل وعلا، مثل الخلق والرَّزق، والإحياء والإماتة، وعلم الغيب وتدبير الأمور، ورزق الولد وتفريج الكرب وإغاثة العباد وإجابة المضطر، وإنزال المطر ودَرِّ الضرع وإنبات الزرع، وإيتاء الملك ونزعه، ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من أفعاله تبارك وتعالى، المختصة به لا ينازعه فيها أحد، إلا أفاك أثيم، كذاب أشر.

والمعنى أنه يجب على العبد أن يعتقد اعتقادا جازما أن الله سبحانه وتعالى لا شريك له في أفعاله تبارك وتعالى، وأنه ليس هناك من يدبر هذا الكون كله إلا الذي خلقه، ألا وهو الله رب العالمين، خلافا لما تعتقده بعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، من اعتقادهم أن في الكون أقطابا وأغواثا يعلمون الغيب المطلق، ويدبرون الكون مع الله رب العالمين، تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن زعم ذلك لنفسه، فهو كفرعون وهامان وقارون، سواء بسواء مثلا بمثل، فإن فرعون زعم لنفسه الربوبية وتابعه على ذلك هامان، وقارون زعم أنه رازقُ نَفْسِه والمُنْعِمُ عليها، عياذا بالله من الكفر والخذلان.

ويدخل في ذلك دخولا أوليا كل من نصب نفسه مشرعا للعباد، يجوز ويمنع، أو يحلل ويحرم، في مقابلة حكم الله تبارك وتعالى وتشريعه، سواء من الرؤساء والسلاطين، أو من رؤساء العشائر والقبائل، أو من كُبَرَاء أصحاب الطرق الصوفية والعقلانية، والأحزاب العلمانية ومن شابهها، ومن فعل مثل فعلهم من غير هؤلاء، إذ كلهم منازعون لله تعالى في أخص خصائص الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

٢- **توحيد الألوهية**: هو إفراد الله تعالى بأفعال العبادة والعباد. بحيث لا يصرف العباد شيئا من العبادات بجميع أنواعها، الظاهرة أو الباطنة.والفعلية القولية منها العملية لأحد سوى الله رب العالمين، الذي خلقهم وصورهم فسواهم فعدلهم ورزقهم وأوجدهم من العدم كما قال تعالى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الروم:٤٠]، وقوله تعالى:{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار} [الرعد:١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسيأتي مزيد بيان وإيضاح شاف لهذين النوعين من التوحيد فيما يأتي من الشرح، ذلك لأن المؤلف رحمه الله تعالى قد أفرد لهما كلاما مستقلا سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، لا سيما النوع الثاني من أنواع التوحيد ألا وهو توحيد الألوهية، فهو الذي وقعت فيه أكثر الخصومة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والقرآن مليء بذكر سياقات متنوعة دالة على هذه الخصومة،التي وقعت بين الرسل والمشركين المعاندين المحاربين لحق رب العالمين ، ولأجله وأنواع التوحيد الأخر يشرع الجهاد في سبيل الله تعالى، جهاد البيان بالحجة والبرهان وجهاد السنان بالقتال في سبيل لله، وجهاد المال نصرة للحق وأهله، ولأجله ولأجل أنواع التوحيد الأخرى أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، وقامت سوق الجنة والنار على مقتضى تحقيق التوحيد لله رب العالمين وحده لا شريك له.

٣- **توحيد الأسماء والصفات**: وهو إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته جل وعلا. بحيث لا يصرف العباد شيئا من أسماء الله تعالى ولا صفاته لأحد سوى الله رب العالمين. كائنا من كان لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا وليا صالحا.

لأنه سبحانه وتعالى لا سَمِيَّ له ولا نِدَّ له ولا كُفْأَ له جل الله في علاه، كما قال تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى: ٩- ١٣].

وتأمل كيف ذكر الله تبارك وتعالى قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، في سياق آيات قرر فيها سبحانه وتعالى أسماءً وصفاتٍ وأفعالاً من أفعاله جل الله في علاه، وبَيَّنَ أنه هو الذي يَشْرَع لعباده، والعباد لا يشرعون، بل يتبعون ويتعبدون بذلك لله رب العالمين، فبين تبارك وتعالى التباين التام بين الخالق والمخلوق، وأنه لا يليق للمخلوق أن ينازع الخالق في شيء من ذلك، وهي دالة بالتبع على باقي أسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى، ولهذا عمم فقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

الرد على الملحدين في أسماء الله وصفاته:

وفي هذه الآية، كما قرر أهل العلم، رد على طائفتين ضالتين، وهما من أكثر الطوائف فتنة للعباد وشيوعا في البلاد عياذا بالله منهم، ألا وهما طائفة المعتزلة، الذين انبثق عنهم الجهمية المعطلة، ومن نحى نحوهم من الأشاعرة وأفراخهم، ممن ألحدوا في أسماء الله وصفاته، إما بالتعطيل التام، أو بالتأويلات الفاسدة،وأما الطائفة الثانية فهم المشبهة، الذين شبهوا الخالق العظيم تبارك وتعالى بالمخلوق الضعيف الفقير، والعكس، ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يلزم أن يكون التشبيه في كل شيء، بل ولو في بعض ذلك، وهذا كثير في المتصوفة، وأرباب التشريعات الجاهلية.

فقوله تعالى: {ليس كمثله شيء}، رَدٌّ على الممثلة بكل أشكالهم ومللهم ونحلهم، حيث نفى الله تبارك وتعالى أن يكون له مثيل بحال من الأحوال، كما قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم:٦٥]، وقوله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الصمد]، فهو جل وعلا أحد في جميع أسمائه وصفاته وأفعاله وتشريعاته وأحكامه وقضائه، كما قال تعالى: {وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر:٢٠].

وفي قوله تعالى: {وهو السميع البصير} رد على المعتزلة والمعطلة والأشاعرة ومن نحى نحوهم. فإن الله تبارك وتعالى أثبت لنفسه السمع والبصر، وبين أنه جل وعلا يسمع ويبصر كما قال تعالى: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

وقد أبدع ابن القيم حيث رد على هاتين الطائفتين الضالتين في أبيات له من النونية حيث قال رحمه الله تعالى:

لَسْنَا نُشَبِّهُ ربنا بصفاتنا * إن المُشَبِّه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه * إن المُعَطِّل عابد البُهتان
من شَبَّه الله العظيم بخلقه * فهو الشَّبِيهُ بمشرك نصراني
أو عَطَّلَ الرحمن عن أوصافه * فهو الكَفُور وليس ذَا إيمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما المعطلة فهم الذين عطلوا الرحمن جل جلاله عن أوصاف كماله ونعوت جلاله وجماله، وأصل التعطيل الإخلاء، فيقال جِيْدٌ عَطِلٌ أي خال. فقالوا عن الله تبارك وتعالى سميع بلا سمع وبصير بلا بصر تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ومن أجل هذا التعطيل الشنيع الذي يصفون فيه الله تعالى - بما لا يرتضونه لأنفسهم ولا لبهائمهم،عليهم لعنة الله - لم يتوقف جملة من العلماء في تكفيرهم، كما قال ابن القيم عنهم في نونيته:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في * خمس من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم * بل قد حكاه قبله الطبراني

وقال في موطن آخر :

وكذلك النعمان قال وبعده ... يعقوب والألفاظ للنعمان

من لم يقر بعرشه سبحانه ... فوق السماء وفوق كل مكان

ويقر أن الله فوق العرش لا ... تخفى عليه هواجس الأذهان

فهو الذي لا شك في تكفيره ... لله درك مِنْ إمام زمان

ولا تَقِلُّ الممثلة عن المعطلة في الكفر والضلال والزندقة الإلحاد، فقد انبثق عنهم الحلولية والاتحادية؛ ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الجواب الصحيح:[فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات؛ كان معطلا، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين؛ كان ممثلا، والمعطل يعبد عدما، والممثل يعبد صنما]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في مجموع الفتاوى:[وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الخزاعي:مَنْ شَبَّهَ اللهَّ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُّ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُّ بِهِ نَفْسَهُ وَرَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَمَذْهَبُ السَّلَفِ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ وَهُدًى بَيْنَ ضلالتين:إثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَقَوْلُهُ تبارك وتَعَالَى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، رَدٌّ عَلَى أَهْلِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ. وَقَوْلُهُ:{وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} - رَدٌّ عَلَى أَهْلِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ، **فَالْمُمَثِّلُ أَعْشَى وَالْمُعَطِّلُ أَعْمَى: الْمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنَمًا وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا.** وَقَدْ اتَّفَقَ جَمِيعُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ عَلَى أَنَّ اللهَّ حَيٌّ حَقِيقَةً عَلِيمٌ حَقِيقَةً قَدِيرٌ حَقِيقَةً سَمِيعٌ حَقِيقَةً بَصِيرٌ حَقِيقَةً مُرِيدٌ حَقِيقَةً مُتَكَلِّمٌ حَقِيقَةً].ا.هـ.

وأما الأشاعرة فهم وإن كانوا قد انبثقوا من الجهمية إلا أنهم لم يجرؤوا على القول بقول الجهمية من النفي والتعطيل التام، ولكنهم قالوا بنفي سائر الصفات ولم يثبتوا منها إلا سبعة، على المشهور من قولهم، وهم مختلفون حتى في هذه السبعة، أما باقي الأسماء والصفات فأولوها تأويلات باطلة لا تمت للحق بصلة لا من قريب ولا من بعيد، ولهم تفريعات ليس هذا محل بسطها، وهم في ذلك على خلاف كبير لا يكاد يجتمع لهم قولهم، وهذا حال كل من تكلف لوي النصوص وتأويلها بما يخالف الحق، فهم كما قال عنهم الإمام أحمد بن حنبل:[هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب].

تحذلق المفوضة وضلالهم:

ثم ظهرت طائفة المُفَوِّضَة فأرادوا أن يأتوا بقول وسط بين أهل الضلال؛ فأتوا بما هو أشنع من قول المشبهة والمعطلة والأشاعرة، وهذا حال جميع أهل الضلال والابتداع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنهم لا يهتدون إلى الحق إلا إذا رجعوا إليه من قريب، ووسعهم ما وسع الصحابة y، فقد كانوا أبر الناس قلوبا، وأقلهم تكلفا، وأعرف للحق، وأبصر فيه واصبر عليه، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

وأصل قول المُفَوِّضَة ألا نثبت لأسماء الله تبارك وتعالى المعاني التي دلت عليها، فصار الكلام عندهم بهذا الاعتبار لا معاني له، بل وإياك أن تفهم من كتاب الله تعالى ما يتبادر إلى الذهن من المعنى الظاهر للأسماء والصفات، فعطلوا أسماء الله تعالى عن المعاني، فصارت كلمات جامدة لا معاني فيها، وليس لنا أن نفهم منها شيئا؛ فصار كتاب الله تعالى لا يهدي إلى مراد الله تبارك وتعالى، بل صار أعجمي المعنى عندهم، وعلى أتباعهم أن يتكلفوا رد المعاني المتبادرة من ظاهر الأسماء والصفات، بما يليق بالله تعالى على حد زعمهم، وكل هذا ضلال وانحراف عن قول الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

والأصل في هذا الباب الخطير العظيم، الذي ضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، أن أسماء الله وصفاته تبارك وتعالى، لا سبيل إلى معرفتها والوقوف عليها، إلا من جهة النقل والخبر، إذ لا سبيل إلى معرفة ذلك، لا بالعقل ولا بالخرص، ولا بالاستقراء والتأمل والتفكر، ولا بالقياس؛ ولهذا أجمع أهل السنة والجماعة[1]، على أن باب الأسماء

١ - ولابد من التنبه إلى أن الأشاعرة إذا نسبوا قولا ما إلى أهل السنة والجماعة في كتبهم فإنهم يريدون بذلك من وافق مذهبهم الفاسد، أما نحن فإننا نعني بأهل السنة والجماعة هو ما كان عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصفات باب توقيفي؛ فلا يجوز إثبات صفة من صفات الله تعالى ولا اسم من أسمائه جل وعلا إلا بعد ورود النص الصريح الصحيح من الكتاب أو السنة، ولما كان الأمر كذلك؛ وجب التسليم والاستسلام لما جاءت به النصوص الصريحة الصحيحة في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة، ولزم الإيمان بها كما جاءت؛ لأنها أخبار عن الله تعالى، وهو أعرف بنفسه جل جلاله، وقد قرأها علينا ونقلها إلينا أصدق خلقه وأعلمهم به، ألا وهو نبينا محمد r ؛ فوجب المصير إلى قوله r دون أي تكلف ولا تردد ولا رد عياذا بالله من الإلحاد في أسمائه وصفاته جل وعلا، ومن شك أو توقف، قلنا له أمامك أحد أمرين، إما أن تقول أن النقل غير صحيح، أو أن الناقل غير مؤتمن، وكل منهما كفر وزندقة وإلحاد والعياذ بالله من ذلك كله؛ فوجب التسليم لما جاء على لسان الصادق المصدوق r ، فيما سمى أو وصف الله جل وعلا به نفسه، وإلا كان رَدُّ ذلك تكذيباً بالخبر ورداً على النبي r ما جاء به من عند الله جل وعلا.

قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم:١-١٠].

النبي r وصحابته الكرام في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه بما في ذلك باب الأسماء والصفات وأسماء الدين والإيمان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منشؤ الضلال وسببه:

وإنما أُتِيَ القوم من جهتين مَنْ فَهِمَهُما؛ أدرك حقيقة السبب الذي أدى بهؤلاء إلى سلوك هذه الطريقة المبتدعة في أسماء الله وصفاته:

الجهة الأولى: أنهم أرادوا أن ينزهوا الله تبارك وتعالى عما وصف به نفسه، وما أخبر به عنه نبيه r . وهذا لا شك أنه ضلال مبين، وانحراف عظيم، حيث يعمدون إلى ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات، وأوحى بها إلى نبيه فأخبر بها نبيه r ، وخاطب الناس بها، يعمدون إلى نفيها، والتنكر لها، والإنكار على من يخالفهم في ذلك، بل يرمونهم بالعظائم، فيسمون أهل السنة الذين قالوا بما قال به الصحابة y ، مما تلقوه عن رسوله r ، يسمونهم حشوية، ومجسمة، ويرمونهم بالبدعة والضلال، بل الكفر بالله تعالى. عياذا بالله. زعما منهم أنهم بذلك ينزهون الله تبارك وتعالى عما لا يليق به، وهذا لا شك تكذيب ورد على الله تعالى فيما أخبر به عن نفسه جل وعلا. وغيرة كاذبة إذ أرادوا أن يغاروا على حق الله تعالى أكثر من الله تعالى، ومن رسوله r وأصحابه y .

أخرج ابن بطة في كتابه الإبانة:[حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد القافلائي قال ثنا محمد بن إسحاق الصاغاني قال ثنا سلم بن قادم قال ثنا موسى بن داود قال ثنا عباد بن العوام قدم علينا شريك بن عبد الله منذ نحو من خمسين سنة قال فقلت يا أبا عبد الله إن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث فحدثني بنحو من عشرة أحاديث في هذا وقال:(**أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين وأخذ التابعون عن أصحاب رسول الله فهم عمن أخذوا؟**)].ا.هـ. ورواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في كتاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السنة، والدارقطني في الصفات، والذهبي في العلو والبيهقي في الأسماء والصفات، وإسناده جيد.

وجاء في كتاب الصفات للدارقطني بإسناده عن شريك بن عبد الله النخعي:[هؤلاء أبناء المهاجرين يحدثون أن الله عز وجل يُرَى في الآخرة، حتى جاءنا ابن يهودي صباغ فزعم أن الله لا يُرى. يعني بشرًا المريسي].ا.هـ. وفيه بإسناده عن مالك، عن الزهري قال:[سَلِّمُوا للسنة ولا تعارضوها]ا.هـ.

الجهة الثانية: أنهم خشوا من إثبات تلك الأسماء والصفات، أن يشبهوا الخالق بالمخلوق؛ فوقعوا في عين ما فروا منه. حيث أنك لو سألتهم مثلا، لماذا لا تثبتون لله تعالى صفة العلو، أو صفة الاستواء، أو صفة الضحك، أو صفة اليدين، والعينين، والساق، وصفة النزول والمجيء، إلى غير ذلك من أوصافه جل وعلا، سواء الذاتية أو الفعلية؛ لقالوا حتى لا نشبه الخالق جل وعلا بالمخلوق، فهم إذاً عندما نفوا وعطلوا، كانوا قد شبهوا، وقاسوا أسماء الله وصفاته على صفات خلقه؛ فأحدث ذلك عندهم لازما فاسدا، أنهم إن أثبتوا لله جل وعلا تلك الصفات؛ لزم من ذلك عندهم أن تكون تلك الصفات مشابهة للمخلوق، فتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. فشبهوا أولا ثم عادوا فنفوا وعطلوا، نسأل الله العافية والسلامة.

ومما ساعد في توسعهم في هذا الإلحاد في أسماء الله وصفاته، أنهم ابتدعوا ألفاظا، موهمة تحتمل الحق والباطل في طياتها، وتركوا طريقة النبي r وأصحابه y، حيث كانوا لا يتكلمون إلا بالواضحات البينات، على ما جاء في كلام الشارع، فإنها كلمات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تثبت الحق وتنفي الباطل، بل وجاءت النصوص تنهى عن استعمال الموهم من الكلام، وذلك لأن الكلام المُوهم المحتمل، إن نفيته بكليته ربما نفيت شيئا من المعاني الحَقَّة التي يتضمنها الكلام، والعكس كذلك إن أثبتها أثبت المعاني الباطلة التي تضمنتها هذه الألفاظ.

ثم إن هؤلاء الذين ألحدوا في أسماء الله تعالى وصفاته يستنكرون بعض أسماء الله تعالى وصفاته، تحكما بعقولهم الفاسدة وفهومهم السقيمة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، عياذا بالله من الخذلان، كصفة الوجه والكلام واليد، والقَدَم والصُّورة والضحك، والغضب والسخط والمَقْت، وَوَضْعُ الجَبَّارِ جل جلاله رِجْلَهُ سبحانه وتعالى في النار، وكَشْفُ سَاقِهِ سبحانه وتعالى يوم القيامة، وغير ذلك من الصفات التي جاءت الأدلة الصحيحة الصريحة بها، ونقول لهؤلاء هل تكلم رسول الله r ، وأصحابه y ، بما تقولونه في أسماء الله تعالى وصفاته، أم أمسكوا عن ذلك؟!.

وهل يلزم من إثبات ما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه وتسمى به أن ينتفي عنه غِنَاه سبحانه، وكماله جل جلاله؟!.

وهل أنتم أغير على حق الله تعالى مِن الله ورسوله r والصحابة y ؟!.

وهل كل ما لا تدركه عقولكم؛ يجب نفيه عن الله تعالى، وإن أثبته الله تعالى لنفسه؟!.

إذن انظروا ما هي مَرَاجِعُكُم، وأيُّ رسول تُصدقون وتَتَّبِعُون وأيُّ إله تعبدون؟!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى:[فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ الجوهر و العرض والجسم وغير ذلك بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ على معاني مجملة في النفي والإثبات كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع فقال:[هم مخالفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة أهل الكتاب يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويلبسون على جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه]، فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو الحق بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا في الوسائل والمسائل من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو الصراط المستقيم وهذا من مثارات الشبهة فإنه لا يوجد في كلام النبي r ولا أحد من الصحابة والتابعين ولا أحد من الأئمة المتبوعين أنه علق بمسمى لفظ الجوهر والجسم والتحيز والعرض ونحو ذلك شيئا من أصول الدين لا الدلائل والمسائل، والمتكلمون بهذه العبارات يختلف مرادهم لها تارة لاختلاف الوضع وتارة لاختلافهم في المعنى الذي هو مدلول اللفظ]ا.هـ.

وقال ابن القيم في زاد المعاد:[ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزا بعيدة وأشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به وصرح دائما بالتشبيه والتمثيل والباطل وأراد من خلقه أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه وتأويله على غير تأويله ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان فقد ظن به ظن السوء فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه فقد ظن بقدرته العجز وإن قال إنه قادر ولم يبين وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحة دون الله ورسوله وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتهوكين ظن السوء ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية. ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات ولا عدد السماوات والأرض ولا النجوم ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم ولا يعلم شيئا من الموجودات في الأعيان فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه لا سمع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له ولا بصر ولا علم له ولا إرادة ولا كلام يقول به وأنه لم يكلم أحدا من الخلق ولا يتكلم أبدا ولا قال ولا يقول ولا له أمر ولا نهي يقوم به فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها وأنه أسفل كما أنه أعلى فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه . ومن ظن به أنه ليس يحب الكفر والفسوق والعصيان ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا يسخط ولا يوالي أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين أو يفرق بين المتساويين من كل وجه أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه فقد ظن به ظن السوء . وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ووصفته به رسله فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أن له ولدا أو شريكا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ويتوسلون بهم إليه ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويحبونهم كحبه ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه . ومن ظن به أنه ينال ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنده بمعصيته ومخالفته كما يناله بطاعته والتقرب إليه فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء]ا.هـ.

الصفات الذاتية والاختيارية:

وصفات الله جل وعلا منها الذاتية، ومنها الفعلية الاختيارية، التي مُتَعَلَّقُها المشيئة، فمن الصفات الذاتية مثلا، صفة الوجه، واليدين، والقدمين، والعينين، والساق، والعلم، والسمع، والبصر، وغير ذلك، مما ثبت لله تبارك وتعالى من صفاته الذاتية في الكتاب أو السنة الصحيحة. وهو سبحانه لم يزل كذلك جل وعلا، وكل هذه الصفات صريحة جاءت في الكتاب العزيز والسنة المطهرة الصحيحة.

ومن الصفات الفعلية الاختيارية المتعلقة بالمشيئة، صفة الاستواء، والحب، والبغض، والنزول، والأخذ، والمجيء، والإتيان، والضحك، ومكره بمن يستحق المكر، وكيده بمن يستحق الكيد، وغير ذلك من الصفات الفعلية الاختيارية وقد ألف أهل السنة والجماعة كتبا تشرح ذلك وتبينه، أشفى وأكمل وأوضح بيان، معتمدين في ذلك على الوحيين الكتاب والسنة الصحيحة على فهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فَكُتِبَت في ذلك المطولات والمختصرات، ووردت في ذلك جملة كبيرة من الآثار، وألفت في ذلك الأشعار والمنظومات؛ فجزاهم الله عنا خير الجزاء، فقد تَصَدَوا لشبه أهل البدع والضلال، وفَنَّدُوها، ورموهم بقوس قوية، وسهم صائب، عن قدم ثابتة راسخة، لا تزعزعها رياح الباطل، مهما هبت وعَلَتْ، ولا تَثْنِيها أعاصير البدع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأمواجها وشبهها المتلاطمة من هنا وهناك، فلله دَرُّهُم، ونشهد الله تعالى على حبهم، وحب من يحبهم، وعلى بغض أعدائهم، وبغض من يبغضهم.

كيف لا وهم القوم قالوا فصدقوا، وعملوا فسبقوا، فنسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ومن أنفع الكتب المختصرة في ذلك متن العقيدة الواسطية، ومتن الفتوى الحموية، والتدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مع مطالعة شروحها، فهي على اختصارها إلا أنها نافعة وجامعة، وهي من أحسن ما ألف في هذا الباب المهم العظيم.

ومن أراد المزيد فعليه بالكتب المطولة ككتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، والإبانة لابن بطة، والشريعة للآجري، والتوحيد لابن خزيمة، والتوحيد لابن مندة، وكتاب الصفات للدارقطني، والعلو للذهبي، وكتاب البيهقي في الأسماء والصفات،ولكل من شيخ الإسلام وتلميذه العلامة ابن القيم كتبا قيمة في ذلك، ككتاب درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية وكتاب النونية وكتاب الصواعق المرسلة لتلميذه العلامة ابن القيم، وغيرها من كتبهم النافعة المحققة فعلى الجميع رحمة الله تعالى، وجزاهم الله خيرا عن الإسلام والمسلمين.

ولابد في هذا الشأن العظيم الذي يتعلق بأسماء وصفات العلي العظيم الكبير الجليل جل جلاله وتقدست أسماؤه، أن نعلم أن من أهم الواجبات وآكد المهمات أن نتعرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على أسماء الله جل وعلا وصفاته؛ لكي نعامله بها، ومن لم يفعل ذلك وقع في التخبط والآثام، وقطعا لن يكون ممن قدر الله حق قدره؛ ولهذا ما من خلل يقع في حياة العباد إلى وهو من جراء جهلهم بالله جل وعلا، وبأسمائه وصفاته؛ ولهذا قال تعالى:{وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر:٦٧]، وقال تعالى:{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا} [نوح:١٣].

ولهذا حث النبي r أمته على أن يتعلموا أسماء الله وصفاته، وأن يضبطوها حفظا ومعنى، وقولا وعملا، كما في الصحيحين من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رواية، قال::"لله تسعة وتسعون اسماً، مائة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر".وفي رواية أخرى:"من أحصاها دخل الجنة".وقد جاء ذكر جملة كبيرة من أسماء الله وصفاته فيما رواه الترمذي من طريق صَفْوَانُ بنُ صَالِح أخبرنا الوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، أخبرنا شُعَيْبُ بنُ أبي حَمْزَةَ عَن أبي الزّنَادِ عَن الأَعْرَجِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إنّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً غيرَ وَاحِدَةٍ مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنّةَ. هُوَ الله الّذِي لا إلَهَ إلاّ هُوَ الرّحمنُ الرّحيمُ المَلِك القُدّوسُ السّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبّارُ المُتَكَبّر الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوّرُ الغَفّارُ القَهّارُ الوَهّابُ الرّزّاقُ الفتّاحُ العَلِيمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخافضُ الرّافِعُ المعزّ المذِل السّمِيعُ البَصِيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللّطِيفُ الخَبِيرُ الحَلِيمُ العَظِيمُ الغَفُورُ الشّكُورُ العَلِيّ الكَبِيرُ الحَفِيظُ المُقِيتُ الحَسِيبُ الجَلِيلُ الكَرِيمُ الرّقِيبُ المُجِيبُ الْوَاسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشّهِيدُ الحَق الوَكِيلُ القَوِيّ المَتِينُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوَلِيّ الحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِيءُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الحَيّ القَيّومُ الوَاجِدُ المَاجِدُ الوَاحِدُ الصّمَدُ القَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدّمُ الْمُؤَخّرُ الأوّلُ الآخِرُ الظّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِي الْمُتَعَالِي البَرّ التّوّابُ المنتقم العَفُوّ الرّؤُوف مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الجَلاَلِ وَالإكْرَامِ الْمُقْسِطُ الجَامِعُ الغَنِيّ الْمُغْنِي المَانِعُ الضّارّ النّافِعُ النّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرّشِيدُ الصّبُور".

قال أبو عيسى: هَذا حديثٌ غَرِيبٌ حَدّثَنا بِهِ غَيْرُ واحِدٍ عَنْ صَفْوَانَ بنِ صَالِحٍ وَلاَ نَعْرِفُهُ إلاّ مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بنِ صَالِحٍ وهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الحدِيثِ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَن النبيّ r وَلا نَعْلَمُ في كَبِيرِ شَيْءٍ مِنَ الرّوَايَاتِ له إسناد صحيح ذكر إلا ذِكْرَ الأسْمَاءِ إلاّ في هَذَا الحَدِيثِ، وَقَدْ رَوَى آدَمُ بنُ أبي إيَاسٍ هَذَا الحدِيثَ بإِسْنَادٍ غَيْرِ هَذَا عَن أبي هُرَيْرَةَ عَن النبيّ r وذَكَرَ فِيهِ الأسْمَاءَ وَلَيْسَ لَهُ إسْنَادٌ صحيحٌ.ا.هـ.

وعليه فلا يصح هذا الحديث بوجه من الوجوه، وبالتالي فلا يمكن إثبات اسم المنتقم، ولا اسم الرشيد، لله جل وعلا، ولا غيرهما من الأسماء التي وردت في هذا الخبر؛ لضعفه، ولكن نأخذها مما ثبت، مما جاء في القرآن، أو السنة الصحيحة الصريحة عن النبي r .

مسألة: هل أسماء الله تعالى لها عدد معين ثابت في الكتاب أو السنة؟، وهل أسماء الله تعالى هي فقط التي ثبتت في الكتاب والسنة؟.

الجواب:لا يمكن القول بأن الأسماء الثابتة لله تعالى في الكتاب والسنة، هي كل أسماء الله تعالى فقط، بل قد دلت الأحاديث والأخبار، على أن أسماء الله تعالى لا يعلم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عددها إلا الله تبارك وتعالى كما جاء في مسند الإمام أحمد من طريق أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال: قال رسول الله r :"ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزن اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا قالا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات قال: أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن".قال الحافظ في الفتح أخرجه أحمد وصححه ابن حبان. قلت: وضعفه بعض أهل الحديث.

ولكن هناك ما جاء في الصحيحين من طُرُق عن قتادة عن أنس t واللفظ للبخاري في ذكر حديث الشفاعة الطويل.

وفيه قول النبي r : فيأتونني فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها، ثم أشفع، فيحدُّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، **فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها ربي**، ثم أشفع فيحدُّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها،.... الحديث،

وفي لفظ في صحيح مسلم:"فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ"، وفي رواية فيه أيضا:"فَآتِى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي".

فعُلِم من هذا الحديث أن لله تعالى أسماءً استأثر الله تعالى بعلمها، ومنها أسماء سيخص الله تعالى بها نبيه r ، يوم القيامة.

علم الأسماء والصفات محكم غير متشابه:

واعلم رحمك الله تعالى، أن النبي r كان يخاطب الأمة جمعاء بأسماء الله وصفاته، ويَذْكُرها لهم، ويسألهم عنها، من الذكور والإناث، والصغار والكبار، حتى الجواري، فصارت الأسماء والصفات من الواضحات البينات، ثم جاء بعض الخلف فَنَهَوا عن ذلك، وقالوا لا تحدثوا الناس بها؛ لأنهم لن يفهموها، ويحتجون بالأثر الوارد، حدثوا الناس بما يعرفون، إلى غير ذلك، فأضلوا الأمة، حيث ابتَعَدَت عن هدي النبي r وأصحابه y ، وصارت لا تعلم كثيرا عن أسماء الله وصفاته، وفي المقابل تغلغلت الأشعرية، بل والجهمية في الأمة، فوقع بذلك فساد عريض، فنسأل الله العافية والسلامة، وإليك الأدلة الدالة على أن هذا الباب هو من آكد ما يُخَاطَبُ الناس به، وأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمل كان على ذلك في حياة النبي r وأصحابه y، وثم دَرَبَتْ على ذلك الأمة في قرونها المفضلة:

أولا: جميع آيات الصفات دالة على ذلك، فقد أنزلها الله تعالى على نبيه، وأمره أن يقرأها على الناس، وكان الصحابة يتلون القرآن كل بحسب ما حفظ منه.

ثانيا: أما من السنة فهنا أحاديث، فمنها:

ففي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ r بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ r فَقَالَ:"سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ" فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ r :"أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"احْشِدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ". فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ الله r فَقَرَأَ:"{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}"، ثُمَّ دَخَلَ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ. ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ الله r فَقَالَ:"إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ أَلاَ إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ".

وعن أبي سعيد الخدري t أن رسول الله r قال في قل هو الله أحد:"والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" وفي رواية : أن رسول الله r قال لأصحابه:"أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة" فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال:"قل هو الله أحد الله الصمد ثلث القرآن" رواه البخاري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ في الحديث الطويل وفيه:" قَالَ وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله r فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ:"ائْتِنِي بِهَا". فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا:"أَيْنَ اللهُ". قَالَتْ فِي السَّمَاءِ.قَالَ:"مَنْ أَنَا". قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله. قَالَ:"أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ".

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية حظا من ذلك في العقيدة الواسطية حيث قال:[(فَصْلٌ): فِي سُنَّةِ رَسُولِ الله r فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ؛ وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ r بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ. مِثْلُ قَوْلِهِ r :"يَنْزِلُ رَبُّنَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ r :"للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ....الْحَدِيثُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ r :"يَضْحَكُ اللهُ إلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ".مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. .....إلى أن قال: وَقَوْلُهُ"لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ:عَلَيْهَا قَدَمَهُ - فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ:قَطُّ قَطُّ"مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ r :"يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:يَا آدَمَ فَيَقُولُ:لَبَّيْكَ وسعديك. فَيُنَادِي بِصَوْتِ:إنَّ اللهَ يَأْمُرُك أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إلَى النَّارِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ:"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ"،.....إلى أن قال: وَقَوْلُهُ:"إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ اللهَّ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ:"اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ؛ أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شَيْءٌ؛ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ"رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَقَوْلُهُ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ:"أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ r :"إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تضامون فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا:فَافْعَلُوا". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ الله r عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ. فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ - أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُّ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ؛ بَلْ هُمْ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ. فَهُمْ وَسَطٌ فِي (بَابِ صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الجهمية؛ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ). وَهُمْ وَسَطٌ فِي (بَابِ أَفْعَالِ الله تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ)، وَفِي بَابِ (وَعِيدِ الله بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والوعيدية:مِنْ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ)، وَفِي (بَابِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الحرورية وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والجهمية)، وَفِي(أَصْحَابِ رَسُولِ الله r بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ)]ا.هـ.

فَلْنَسْعَ جَادِّينَ جَاهِدِين في رَدِّ الأمة إلى ما كان عليه النبي r وأصحابه y في هذا الباب، وفي غيره من أبواب الدين، حتى يعود غَضّاً نَدِيّاً كما أُنْزِل، وإن وعد الله حق.

تقسيم آخر لأنواع التوحيد:

ثم إن بعض أهل العلم قسم التوحيد إلى قسمين فقط، وهما:

١ - توحيد القصد والطلب. ٢ - توحيد المعرفة والإثبات.

وقد قال بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وليس هناك فرق كبير بين هذا التقسيم والذي تقدم، فالأمر في ذلك واسع وقريب، فهذه التقسيمات والتسميات كما تقدم، ليست وحيا يجب المصير إليه، ولا يجوز المحيد عنه، وإنما وضعها أهل العلم عن طريق استقرائهم للكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح؛ لتقريب المعلومات إلى الأفهام، وترتيب الأفكار في الأذهان، لا سيما بعد أن هجم أهل البدع على العلوم الشرعية؛ فأقحموا فيها ما ليس منها، ظلما وعدوانا، ولا مشاحة في الاصطلاح، فالمهم أن يعرف العباد ربهم ويعبدوه حق عبادته، كما يحب ربنا ويرضى،فهذه التقسيمات هي من باب الوسائل التي يتوصل بها إلى أعظم غاية وأهم مطلوب، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولمزيد من الإيضاح فإن توحيد المعرفة والإثبات يدخل فيه توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وأما توحيد القصد والطلب فهو توحيد الألوهية.

ونعود إلى الملبسين على الأمة، المنازعين في حق الله تعالى، في الحكم والتشريع، والمعذرين عن طواغيت الحكم الجاهلي؛ لنقول لهم: هل كان ابن تيمية الحراني، وابن القيم رحمهما الله مبتدعة، إذ قَسَّما التوحيد إلى قسمين، في حين أن المشهور عندكم، أنه ثلاثة أقسام؟!!.

هذه التقسيمات لنا فيها سلف:

وهذه بعض النقولات الدالة على استعمال السلف والخلف لهذا التقسيم، حتى لا يتوهم البعض أن هذا مما تكلم به بعض الخلف من عندهم، وأنهم لا سلف لهم فيه:قال ابن جرير الطبري في تفسيره:[وتأويل الكلام: يا معشرَ أهل الكتاب {أفغيرَ دين الله تبغون}، يقول:أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون،{وله أسلم من في السماوات والأرض}، يقول:وله خَشع من في السموات والأرض، فخضع له بالعبودة، وأقرّ له بإفراد الربوبية، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية {طوْعًا وكرهًا}، يقول أسلم لله طائعًا من كان إسلامه منهم له طائعًا، وذلك كالملائكة والأنبياء والمرسلين،فإنهم أسلموا لله طائعين {وكرهًا}، من كان منهم كارهًا]ا.هـ.

وقال أيضا:[القول في تأويل قوله جل ذكره:{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}. قال أبو جعفر:يعني بذلك جل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثناؤه: وذِلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة، بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكًا تعظمونه تعظيمكم إياه]ا.هـ.

وقال أيضاَ:[القول في تأويل قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحي إليّ أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ} يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته {فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا} يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[{أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزآئن ربك أم هم المسيطرون أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين أم له البنات ولكم البنون أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون}.

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} أي أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية في العقيدة السلفية:[فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ ، أَعْنِي تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ.فإن التَّوْحِيدَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:أَحَدُهَا: الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ. وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَبَيَانُ أَنَّ اللهَّ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ. وَالثَّالِثُ:تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]ا.هـ.

وقال الإمام المفسر الشنقيطي في سِفْرِه البَدِيع أضواء البيان:[وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:الأول ـ توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُّ...} [٤٣/٨٧]، وقال:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُّ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ} [١٠/٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله:{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٢٦/٢٣]، تجاهل من عارف أنه عبد مربوب. بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} [١٧/١٠٢]، وقوله:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [٢٧/١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله. كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ}، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني توحيده جلَّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلاَّ الله» وهي متركبة من نفي وإثبات. فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [٣٨/٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...} [٤٧/١٩]، وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [١٦/٣٦]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [٢١/٢٥]، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [٤٣/٤٥]، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [٢١/١٠٨]، فقد أمَر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد. لشمول كلمة «لا إله إلاَّ الله» لجميع ما جاء في الكُتب. لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتْبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث:توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيدِ ينبني على أصلين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول: تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [٤٢/ ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسول الله r ، على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه،كما قال جل وعلا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [٤٢/ ١١]، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} [٢٠/ ١١٠]، وقد قدمنا هذا المبحث مستوفًى موضحاً بالآيات القرآنية «في سورة الأعراف»].ا.هـ.

قوله:(ومعرفة نبيه): سيأتي تفصيل ذلك فيما يأتي من الشرح بإذن الله تعالى .

وإنما قدم المؤلف رحمه الله تعالى ذكر ذلك هنا ومباشرة بعد معرفة الله تعالى؛ لأنه لا يمكن بحال معرفة الله تعالى، وأسمائه وصفاته، وحقه الواجب على العباد، إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين؛ ولهذا كان لزاما على كل أمة أن تعرف نبيها، وتصدقه وتتبعه، كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}[المؤمنون:٦٨-٦٩].

وقد رحم الله تبارك وتعالى هذه الأمة، إذ بعث فيها خير رسله، وأفضل خلقه على الإطلاق نبينا محمد r ، وجعل شريعته ناسخة لسائر الشرائع، والكتاب الذي أنزله عليه مهيمنا على سائر الكتب، وناسخا لها، وأَعْلَمَ أن اتباعه واجب على العباد كلهم، جِنِّهم وإنْسِهم، فما من أحد لا يهودي ولا نصراني، ولا صاحب أي ملة من الملل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يسمع به ثم لا يتبعه؛ إلا كان من أهل النار.وسيأتي بحول الله تعالى مزيد بيان وإيضاح لهذه المسألة العظيمة بأدلتها من الكتاب والسنة.

قوله:(ومعرفة دين الإسلام بالأدلة): ثَلَّثَ المؤلف رحمه الله تعالى بذكر دين الإسلام، لأنه هو الدين الذي لا يقبل الله تعالى من العباد سواه، كما قال تعالى:{قُلْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٤-٨٥]، وقوله تعالى:{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران:١٨-١٩].

وهو الدين الذي امتن الله تعالى به على عباده، وتفضل به عليهم، كما قال تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣] ، وقوله:{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات:١٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظمة هذا الدين وفخامته: ونصوص الكتاب والسنة متكاثرة في بيان عظمة هذه الدين وفخامته، وذلك لأمور:

أولا: لأنه محل لذلك، فهو كلام الله تبارك وتعالى، وشرعه الذي أنزله بعلمه، وهو أحكم الحاكمين، وهو العليم الخبير، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [النساء:١٦٥-١٦٦].

ثانيا: ليعلم العباد عظمته فلا يزهدوا فيه، بل يعتزون به ويفخرون ويفرحون، وينافحون عنه ويذبون، فعزهم مرهون به، وكرامتهم لا تكون بدونه، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} [الرعد:٣٦]، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام:١٦١-١٦٥].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا: لتحصل الرغبة العارمة الشديدة في تعلمه وتعليمه، والعمل بـه وبثـه ونشره، ودعوة الناس إليه.

رابعا: لأنه يوقفنا على حقائق الأمور، بعيدا عن الأهـواء المضـلة، والآراء المنحرفـة، فإذا بنا نعيش في النور، نور الهدى بعيـدا عـن غياهـب الظلـمات، فتنشـرح الصـدور وتتضح الأمور، فتقل الشحناء وتذهب البغضاء، وتأتلف القلوب، فَنَصْدُرَ بِعَطَن، على قلب رجـل واحـد، واعتـبر بحـال الصـحابة y قبـل وبعـد البعثـة، وتأمـل في قولـه تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَـيْنَ قُلُـوبِهِمْ وَلَكِـنَّ اللهَ أَلَّـفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٦٢-٦٣].

خامسا: ليعلم العباد كلهم أنهم مهما تنكروا لهذا الدين رضا بغيره، فـإنما يسـتبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وأنهم ساعون في هلكتهم، وإن زين لهم الشيطان سـوء فعالهم، فإن علمنا ذلك جدنا بالغالي والنفيس في سبيل نصـر هذا الدين، ورفع لوائـه؛ لأنه حق ربنا، ولأننا إذ نفعل إنما نحافظ على كرامتنا وندافع عن عزتنا ومكانتنا.

وهذا هو الأمر الذي فقهه الصحابة y حق الفقه؛ فقـاموا لله تعـالى قومـة رجل صادق، يريد الله والدار الآخرة، فـما كـان شيء عنـدهم، أعـز وأعظـم وأنفس من دين الله تبارك وتعالى، فقاموا بواجب الشـكر باللسـان والأعـمال أكمل القيام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّيْر إلى الله على بصيرة:

وإنما خص المؤلف رحمه الله تعالى معرفة هذا الدين العظيم بالأدلة؛ لأن الله تعالى لا يقبل من عباده أن يعبدوه إلا ببرهان واضح بَيِّن، أما الظن والخرص والتخبط واتباع الهوى والرضوخ لضغط الواقع، أو اتباع الأكثر من العباد، لا لشيء إلا لكثرتهم؛ فمرفوض جملة وتفصيلا، وجاءت النصوص واضحة المعالم في ذلك محذرة ومنفرة.

قال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [الأنعام:١١٤-١١٧]، وقال سبحانه: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٨-١٥٠]، وقال: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس:٣٥-٣٦]، وقال:{أَلَا إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦]، وقال:{ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُّ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم:٢٣]، وقال:{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} [النجم:٢٨-٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(الرد على البكري):[والعلم شيئان إما نقل مصدق وإما بحث محقق وما سوى ذلك فهذيان مسروق].ا.هـ.

وقال في :(مجموع الفتاوى):[وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الْعِلْمَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ نَقْلٍ مُصَدَّقٍ وَنَظَرٍ مُحَقَّقٍ . وَأَمَّا النُّقُولُ الضَّعِيفَةُ لَا سِيَّمَا الْمَكْذُوبَةُ فَلَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا . وَكَذَلِكَ النَّظَرِيَّاتُ الْفَاسِدَةُ وَالْعَقْلِيَّاتُ الجهلية الْبَاطِلَةُ لَا يُحْتَجُّ بِهَا].ا.هـ.

حياة الصحابة وفهمهم هو سبيل المؤمنين:

ولنعلم أن الله تبارك وتعالى أخرج جيل الصحابة حجة على من بعدهم، فطبقوا دين الله تبارك وتعالى، والنبي r بين ظهرانيهم، يعلم جاهلهم، ويصوب خطأهم، ويذكر ناسيهم، وينبه غافلهم، وما قبض الله تبارك وتعالى نبيه r إلى الرفيق الأعلى، حتى أقام به الملة العوجاء، وترك الناس على المحجة البيضاء، ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا هالك مفتون،وأنزل الصحابة y دين الله تبارك وتعالى في دنيا الواقع، على مسمع ومرآى من النبي r ، والله تبارك وتعالى وحْيُهُ يَتَنَزَّلُ بين ظَهْرَانَيْهِم، حتى استقاموا على الطريقة، فرضيهم الله تبارك وتعالى قدوة لهذه الأمة، حيث أعلمنا تبارك وتعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه، فجاءت التزكيات المتكاثرة المتوالية في الكتاب والسنة على ذلك الجيل الفذ الفريد، ثم أمرنا باتباعهم بإحسان، ومعنى الاتباع بإحسان حقيقة هو الاعتداد بفهومهم وعلومهم، والسير على طريقتهم وفي ركابهم، لا نقدم عليهم أحدا في فهم هذا الدين وتحديد معالمه، مهما كانت الظروف والأحوال.

فإنما أمرنا إن أردنا النصر والتمكين، ورغد العيش، والأمن في الدنيا والآخرة، أن نُنَزِّلَ الإسلام في واقعنا كما فعل الصحابة y ، وألا نضرب لله ورسوله الأمثال، اعتذرا عن الانقياد والامتثال.

القوة الكامنة العارمة:

ولنعلم أن لهذا الدين قوة ومنعة وسريانا، وجَرْفاً لِزَخَمِ الباطل، مهما كَثُرَ وتَكَاثَر أهله، ولكن متى ما أنزلناه على وجهه، وطبقناه بحذافيره، بعيدا عن آراء فلان وفلان، وبعيدا عن الاستجابة لضغط الواقع، وتصورات علية القوم، الذين همتهم مصروفة إلى المحافظة على زخرف الدنيا، ولو بذهاب الدين، كما قال تعالى: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [القصص:٥٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالأمة لن تزال بمأمن وأمان من الانحراف والضلال، والهزيمة والنكال، والعذاب والشنار، مهما أخذوا دينهم من الكتاب والسنة على فهم الصحابة الكرام y ومن تبعهم بإحسان.

فلا يذهبن أحد بنفسه بعيدا، حتى تحدثه أنهم رجال ونحن رجال، بغية أن يأتي بفهم جديد، أو شيء جديد في هذا الدين، فلابد أن نعلم أنه لا جديد في الإسلام.

وهذا هو الذي عمل به الصحابة الكرام y، إذ كانوا يحسنون الظن بالله ورسوله r، فلا يقدمون بين يدي الله ورسوله، لا رأيا ولا ضغط واقع، ولا فعل أكثر الناس، ولا هوى، ولا شيئا من ذلك، بل ما هو إلا النظر فيما أراده الله منهم في هذا المقام؛ فيبادرون إلى التطبيق والإذعان والامتثال، فرضي الله عنهم أجمعين.

فسادوا في الدنيا والآخرة، وعاشوا أئمة أعزة، وماتوا بخير حمد وثناء، وما زالوا نبراسا للهدى، ومنارات له، وعلامات يُهتدى بها، فكانوا هم القدوة أحياء وأمواتا y أجمعين، وما أجمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في العقيدة الواسطية عنهم y، حيث قال:[وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأدلة على وجوب الأخذ بفهم الصحابة وطريقتهم:

وإليك طرفا من هذه الأدلة الدالة على هذا الأصل العظيم، الذي عندما تضيعه الأمة تعيش في تخبط وضلال، وتذوق ألوان الذل وتتجرعه، ويتسلط عليها أعداؤها، إذ هانت على الله جل وعلا، وما نحن فيه هذه الأيام، ضرب مثال واقعي عملي لهذا الذل والهوان، الذي لحق الأمة لَـمَّا تركت سبيل الصحابة الكرام **y**، واعتدت بفهومها وعلومها، ومصالحها مفاسدها التي اختلقتها من عند أنفسها؛ لتبرر وترقق وترقع وتمرر هذا الواقع المُر الخبيث، راضية بذلك عوضا عن طريقة الصحابة وتعاملهم مع مجريات الأحداث، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. هكذا تَذُوقُ الأمة وبال أمرها، {وما ربك بظلام للعبيد}.

قال تعالى مبينا أنه ارتضى لهذه الأمة، في أخطر القضايا وأعظمها - ألا وهي قضية الإيمان بالله – ارتضى لنا إيمان الصحابة **y**، فقال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}[البقرة:١٣٧-١٣٩].

وقال آمرا باتباعهم بإحسان، وناهيا ومحذرا الذين يزعمون اتباعا، ولكنه اتباع بإساءة: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١٠٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في شأن من أراد مشاقة سبيل الصحابة، والذي يتمثل في فهمهم لهذا الدين وعلمهم به:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، إذ هم المؤمنون أصالة.

وقال في تزكيتهم وإحالة الفتوى عليهم، فقد ارتضاهم الله لهذا المقام العظيم، إذ هم رؤوس العلماء وأعلم الناس بعد الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٣، ٤٤].

وهذا من أعظم مظاهر العز للعبد المسلم، المعتز بدينه المطبق لتعاليمه، وسيأتي بحول الله تعالى مزيد بيان وإيضاح لهذه المسألة العظيمة بأدلتها من الكتاب والسنة.

أفلا نرتضي لأنفسنا ما رضيه الله تعالى لنا، ومن رضيهم الله تعالى قدوة لنا؟!!.

فقبح الله الرافضة، ما أضلهم، وما أعظم افترائهم، وضحالة عقولهم.

عدالة الصحابة y:

فقد أجمعت الأمة على عدالة الصحابة **y**، حتى قال الإمام الحافظ أبي زُرْعة الرازي رحمه الله تعالى:[إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله **r**، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول **r** عندنا حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن، والسنن، أصحاب رسول الله **r**، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة]ا.هـ.رواه الخطيب في الكفاية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد روى أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني في كتابه الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة واللالكائي أيضا: عن مالك ابن أنس قال:[كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر، وعمر، كما يعلمون السورة من القرآن]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام في أحكام المرتد:[وبهذا وأمثاله، يتبين أن الرافضة أمة ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصورة، بل هم من أعظم الطوائف كذبًا وجهلًا، ودِينُهم يُدْخِلُ على المسلمين كل زنديق ومرتد، كما دخل فيهم النصيرية، والإسماعيلية وغيرهم، فإنهم يعمدون إلى خيار الأمة يعادونهم، وإلى أعداء اللهّ من اليهود والنصارى والمشركين يوالونهم، ويعمدون إلى الصدق الظاهر المتواتر يدفعونه، وإلى الكذب المختلق الذي يعلم فساده يقيمونه، فهم كما قال فيهم الشعبي- وكان من أعلم الناس بهم:لو كانوا من البهائم لكانوا حُمُرًا، ولو كانوا من الطير لكانوا رَخَمًا. ولهذا كانوا أبْهَت الناس وأشدهم فِريَة، مثل ما يذكرون عن معاوية، فإن معاوية ثبت بالتواتر أنه أمَّره النبي r كما أمَّر غيره، وجاهد معه، وكان أمينًا عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبي r في كتابة الوحي. وولاه عمر بن الخطاب: الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب اللهّ الحق على لسانه وقلبه، ولم يتهمه في ولايته.

وقد ولى رسول اللهّ r أباه أبا سفيان إلى أن مات النبي r وهو على ولايته. فمعاوية خير من أبيه وأحسن إسلامًا من أبيه باتفاق المسلمين، وإذا كان النبي r ولى أباه فلأن تجوز ولايته بطريق الأولى والأحرى، ولم يكن من أهل الردة قط، ولا نسبه أحد من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهل العلم إلى الردة، فالذين ينسبون هؤلاء إلى الردة هم الذين ينسبون أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعامة أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وغيرهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى ما لا يليق بهم. والذين نسبوا هؤلاء إلى الردة يقول بعضهم:إنه مات ووجهه إلى الشرق والصليب على وجهه، وهذا مما يعلم كل عاقل أنه من أعظم الكذب والفرية عليه. ولو قال قائل هذا فيمن هو دون معاوية من ملوك بني أمية وبني العباس؛ كعبد الملك بن مروان وأولاده، وأبى جعفر المنصور وولديه ـ الملقبين بالمهدي، والهادي والرشيد، وأمثالهم من الذين تولوا الخلافة وأمر المؤمنين، فمن نسب واحدًا من هؤلاء إلى الردة، وإلى أنه مات على دين النصارى، لَعَلِم كل عاقل أنه من أعظم الناس فرية، فكيف يقال مثل هذا في معاوية وأمثاله من الصحابة. بل يزيد ابنه، مع ما أحدث من الأحداث، من قال فيه:إنه كافر مرتد، فقد افترى عليه، بل كان ملكًا من ملوك المسلمين كسائر ملوك المسلمين، وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات، وحسناتهم عظيمة، وسيئاتهم عظيمة، فالطاعن في واحد منهم دون نظرائه إما جاهل، وإما ظالم.

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته، ومنهم من قد تاب من سيئاته، ومنهم من كفر اللهّ عنه، ومنهم من قد يدخله الجنة، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته، ومنهم من قد يتقبل اللهّ فيه شفاعة نبي أو غيره من الشفعاء، فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان):[قال بعض أهل العلم إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق وانصبغ بذلك صبغا تاما صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوا خفيا ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرا على الوجه ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة كما قلب الهيئة الباطنة.

ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن فقل أن ترى محتالا مكارا مخادعا ختارا إلا وعلى وجهه مسخة قرد **وقل أن ترى رافضيا إلا وعلى وجهه مسخة خنزير**].ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير على قول الله تعالى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}:

[ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله، - في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحابة في الجنة:

قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد:١٠].

وقال سبحانه:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٩٥-٩٦]

وقال:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩].

وقال:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد:٢-٣].

ثال ابن حزم في كتابه :(المحلى):[مَسْأَلَةٌ: وَهُمْ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ أَزْوَاجُهُمْ ثُمَّ سَائِرُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ e وَجَمِيعُهُمْ فِي الْجَنَّةِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ e أَنَّهُ لَوْ كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِأَحَدِنَا مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ أَعْلاَهُمْ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ، وَلاَ مَنْزِلَةَ أَعْلَى مِنْ دَرَجَةِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، فَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ فِي دَرَجَتِهِمْ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ دُونَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إلاَّ لِنِسَائِهِمْ فَقَطْ. وَقَالَ تَعَالَى: {لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى} وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لاَ يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ} فَجَاءَ النَّصُّ أَنَّ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَدْ وَعَدَهُ اللهُ تَعَالَى الْحُسْنَى. وَقَدْ نَصَّ اللهُ تَعَالَى {إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} . وَصَحَّ بِالنَّصِّ كُلُّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللهِ تَعَالَى الْحُسْنَى، فَإِنَّهُ مُبْعَدٌ، عَنِ النَّارِ لاَ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا، وَهُوَ فِيمَا اشْتَهَى خَالِدٌ لاَ يَحْزُنُهُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ. وَهَذَا نَصُّ مَا قلنا، وَلَيْسَ الْمُنَافِقُونَ، وَلاَ سَائِرُ الْكُفَّارِ، مِنْ أَصْحَابِهِ عليه السلام، وَلاَ مِنْ الْمُضَافِينَ إِلَيْهِ عليه السلام].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ.المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الشرح

قوله:(المسألة الثانية): أي من المسائل الواجب على المسلمين تعلمها والعمل بها، أن يعلموا في قرارة أنفسهم أن الله تبارك وتعالى لا يقبل علما مما افترضه على عباده، حتى يعملوا بمقتضى ذلك العلم، وأن العلم والعمل قرينان، لا ينفك أحدهما عن الآخر من حيث الجملة؛ ولهذا كثيرا ما يذم الله تبارك وتعالى ويوبخ الذين يعلمون ولا يعملون بمقتضى ما يعلمون، كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:٢-٣] ، وقال:{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤٢-٤٤] ، وقال تعالى:{وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤١-٤٤] ، وقوله:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:١٤٦-١٤٨]، وقوله تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:١٨٨] ، وقوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [آل عمران:٧١] ، وقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٢٧-٢٨]،وقوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [المجادلة:١٤-١٦]، ونحو هذا كثير في الذكر الحكيم.

وأخرج مسلم من طريق ابْنُ جُرَيْجٍ. حَدّثَنِي يُونُسُ بْنُ يُوسُفَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: تَفَرّقَ النّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشّامِ: أَيّهَا الشّيْخُ حَدّثْنَا حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ r قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"إنّ أَوّلَ النّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ. فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ:فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ:قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّىَ اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ:كَذَبْتَ. وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ حَتّىَ أُلْقِيَ فِي النّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلّمَ الْعِلْمَ وَعَلّمَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَقَرَأَ الْقُرْآنَ. فَأُتِيَ بِهِ. فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ حَتّىَ أُلْقِيَ فِي النّارِ. وَرَجُلٌ وَسّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلّهِ. فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلاّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ. ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّارِ".

ومما يؤثر عن أمير المؤمنين الخليفة الراشد الرابع علي t وأرضاه أنه قال: **هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.**

ومن جميل ما قيل في ذلك: **وعالم بعلمه لم يَعْمَلن... معذب من قبل عباد الوثن**

قال بان الجوزي في (صيد الخاطر):[ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم. فقل الانتفاع بهم في حياتهم، ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم.

فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تاريخ دمشق:[حكي عن الأوزاعي أنه قال في كتاب لـه: اتقـوا الله مـعشر المسلمين، واقبلوا نصح النّاصحين، وعظة الـواعظين، واعلمـوا أن هـذا العلـم ديـن، فانظروا ما تصنعون، وعن من تأخذون، وبمن تقتدون، ومن على دينكم تأمنون؛ فـإن أهل البدع كلّهم مبطلون، أفّاكون، آثمون، لا يرعوون، ولا ينظرون، ولا يتّقـون، ولا مع ذلك يؤمنون على تحريف ما تسمعون، ويقولون ما لا يعلمون في سرد مـا يـذكرون وتسديد ما يفترون؛ والله محيط بما يعلمون.

فكونوا لهم حذرين، منهم هاربين، رافضين، مجانبين؛ وإنّ علماءكم الأوّلـون، ومـن صلح من الآخـرين كـذلك كـانوا يفعلـون ويـأمرون؛ واحـذروا أن تكونـوا عـلى الله مظاهرين، ولدينه هادمين، ولعراه ناقضين موهنين، بتوقير المبتدعين والمحدثين؛ فإنه قد جاء في توقيرهم ما تعلمون، وأيّ توقير لهم أو تعظيم اشدّ من أن تأخذوا منهم الـدّين، وتكونوا بهم مقتدين، ولهم مصدّقين موادعين، مؤالفين، معينين لهم بما يصـنعون، عـلى استهواء من يستهوون، وتأليف من يتألّفون من ضعفاء المسلمين، لرأيهم الذي يـرون، ودينهم الذي يدينون؛ وكفى بذلك مشاركةً لهم فيما يفعلون]ا.هـ.

وقدم ذكر العلم على العمل؛ لأن العلم إمام، والعمل مأموم، فالعلم قائـد والعمـل تابع له، وإنما يكون صلاح العمل بصلاح العلم، وإن العمل مهما كان حجمه وقـدره، إذا لم يكن على بصيرة من علم وتقى؛ فإنه يذهب أدراج الرياح ولا ينفع صاحبه شـيئا، عياذا بالله. كما قال قائلهم:

إن البِنَاءَ وإنْ تَسَامَقَ واعْتَلَى.... مَـا لم يُشَيَّـد بالتُّقى يَنْهَـارُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القوتان الهامتان:

وذلك لأن للعباد قوتين متعلقتين بتحقيق العبودية لله رب العالمين، ألا وهما القوة العلمية، والقوة العملية، فإذا فسدت إحداهما؛ لم ينتفع العامل بشيء من عمله؛ ولهذا ذم الله تبارك وتعالى اليهود، الذين فسدت قوتهم العملية، فهم يعملون بخلاف ما يعلمون من الحق؛ فحل عليهم غضب الله تعالى، ووصفهم الله تعالى بالمغضوب عليهم، أما النصارى، فقد فسدت قوتهم العلمية، فهم يعبدون الله تعالى على جهل؛ فوصفهم الله تعالى بالضلال، وأمر العباد أن يستعيذوا من سبيلهم وطريقتهم، فقال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦-٧].

فكان اليهود مغضوبا عليهم، والنصارى ضالين، وإن لكل منهما أيضا حظه من الغضب والضلال، بقدر ما معهم من علم لم ينتفعوا به، أو عمل لم يكونوا فيه على بصيرة.

ونهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تَوَلِّيهم، فقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِين} [المائدة: ٥١ - ٥٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [الممتحنة:١٣]، وقال: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران:٢٨]، وسيأتي مزيد بيان وإيضاح عند الكلام عن الولاء والبراء.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري t أن النبي r قال:"لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال:"فمن".

ونهى النبي r عن التشبه بهم، كما في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ r النَّبِيَّ r فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ". فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالاَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَلاَ نُجَامِعُهُنَّ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ r حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا فَخَرَجَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ r فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا.

وأخطر ما نتشبه بهم فيه، أن نتخذ القرآن عضين، وأن نُحرف الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، فنتخذ ديننا لعبا ولهوا، ولهوا ولعبا، كما فعلوا، وهاهي الأمة اليوم تفعل، نسأل الله العافية والسلامة، إلا من رحم الله وقليل ما هم.

العلم وسيلة العمل:

فالعلم إذن هو وسيلة إلى غاية أعظم، وهي العمل بمقتضى ذلك العلم، والعمل وسيلة إلى غاية أكبر وأعظم، ألا وهي تحقيق العبودية الحقة لله رب العالمين.

الفرق بين الغاية والوسلة:

والفرق بين الغاية والوسيلة، أن الوسيلة هي ما يتوصل بها إلى غيرها، بينما الغاية هي التي تكون مُرَادَةً لِذَاتِها، ثم إن الغاية قد تكون وسيلة إلى غاية أعظم منها، فتكون وسيلة بهذا الاعتبار الخاص، كما في حالة العلم مع العمل هنا، إلى أن ينتهي الأمر إلى غاية الغايات، ألا وهي تحقيق العبادة العامة التامة لله رب العالمين، بتوحيده تبارك وتعالى، إذ هي الغاية التي من أجلها خلق الله العباد كلهم، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

مسألة :هل يلزم العمل بكل ما يعلمه الإنسان، بمعنى هل يأثم الإنسان بترك العمل بجميع ما يعلم أم لا؟. وهل لا يكون محققا للغاية إلا من دخل في السلم كافة، أم أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هناك قدرا من العمل لابد من وجوده حتى يتحقق في العبد القدر من العبودية التي بها تكو ن النجاة، وذلك باعتبار أن المعاصي تقدح في التوحيد ولكنها لا تذهبه إلا إن ناقضته، والنوافل تكمل التوحيد ولكن تركها لا ينقضه.

والجواب: أن الإثم لا يلحق العبد إلا بترك الفرائض والواجبات، على القول بالتفريق بينهما، أما إن ترك السنن والمستحبات؛ فإنه لا يأثم بذلك، ولكن الواجب عليه أن يؤدي الفرائض على الوجه الأكمل، وإلا فعليه بالإكثار من المرقعات (النوافل) التي تُتَمَّمُ بها فرائضه.وأما المعاصي والآثام فيجب اجتنابها كلها، فمن وقع في شيء منها كان آثما، وإثمه بحسب معصيته. فمن المعاصي ما ينافي كمال التوحيد الواجب، ومنها ما ينافي أصله، وهي المعروفة بنواقص الإسلام. لما في الصحيحين عن أبي هريرة **t** قال النبي **r** :"فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ".

مسألة: هل يلزم العبد أن لا يأمر إلا بما يعمل، أم أنه يجوز له أن يأمر بشيء لا يقوم هو بفعله؟.

والجواب:أنه يجوز للعبد أن يأمر بما لا يفعله، بل قد يجب أحيانا،ثم قد يلحقه الذم شرعا، وقد لا يلحقه، بحسب درجة الشيء الذي أمر به ولم يعمل به، فإن كان في باب الواجبات، فإنه يأثم بعدم العمل به؛ لأن مجرد عدم العمل بالواجبات، مع تمكن العبد من ذلك إثم، ومن الجهل أن يجمع العبد على نفسه بين إثمين، إثم بترك العمل بالواجب، وإثم بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع تمكنه من ذلك، أما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستحبات، فله أن يأمر بها، وإن لم يكن عاملا بها، ولا إثم عليه بتركها، وهو مأجور بأمره بها، ولكنه ضيع حظا من الكمال والحسنات، ولكن لا شك أن هذا الخُلق سيجده العبد ممجوجا عند العامة من الناس؛ لأن الذي ينبغي ويسوغ أن يأمر العبد بما يعمل ويعلم.

وفي الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ قِيلَ لَهُ أَلاَ تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ فَقَالَ أَتَرَوْنَ أَنِّى لاَ أُكَلِّمُهُ إِلاَّ أُسْمِعُكُمْ وَاللهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ وَلاَ أَقُولُ لأَحَدٍ يَكُونُ عَلَىَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ. بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ".

ولهذا قال قائلهم: لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

فأعود لأقول تأكيدا لهذا المقام: إنه يمكن التفصيل في ذلك، وذلك بالنظر إلى المأمورات، فإن كان المأمور به واجبا أو فرضا من فرائض الدين، وكان الآمر من أهل ذلك الفرض، وجب عليه أن يعمل بما يأمر به. وأما إذا كان الشيء المأمور به من المستحبات أو المباحات؛ جاز له أن يأمر به، وإن كان لا يعمل به، ولكن الأكمل ولا شك هو أن يأمر به، وأن يكون عاملا به، ولكنه إن لم يفعل فلا يدخل في الذم شرعا، ولا يخلوا من الأجر؛ لأن الدال على الخير كفاعله، كمن يأمر الناس بصيام ثلاثة أيام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من كل شهر ويعجز هو عن ذلك، أو يدعه عمدا، مع حثه للناس على ذلك، ويشهد لهذا ما أخرجه مسلم في صحيحه من طريق العَلاَءِ بن عبد الرحمن عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ دَعَا إِلَىَ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً. وَمَنْ دَعَا إِلَىَ ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا". وقل مثل ذلك في سائر المستحبات والمباحات. والله أعلم .

وهكذا كان الصحابة y عامتهم، إن أُمِرُوا بشيء امتثلوه، وإن نُهُو عن شيء تركوه، لا سيما في باب الواجبات والمحرمات، ويشهد لهذا قول الله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:٨٨]، وتأمل في قوله تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t قَالَ:لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله. قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله فَقَالَ عَبْدُ الله: وَمَا لِيَ لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ الله r وَهُوَ فِي كِتَابِ الله، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ. فَقَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ فَإِنِّي أَرَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الآنَ. قَالَ اذْهَبِي فَانْظُرِي. قَالَ فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا. فَقَالَ: **أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكِ لَمْ نُجَامِعْهَا.**

فلم يكن عندهم انفصام بين القول والعمل، بل كانوا أئمة في الدعوة إلى الخير، رؤوسا في العمل به والتسابق إليه، هذا هو الأصل فيهم، وهو الغالب على حالهم، فرضي الله عنهم أجمعين.

قوله رحمه الله:(المسألة الثالثة الدعوة إليه):إن الدعوة إلى الله أمرها عظيم، وإنما عظمت لأنها دعوة إلى الله عز وجل.وهي أشرف المقامات؛ ولهذا اصطفى الله تبارك وتعالى لها خير خلقه، ألا وهم الأنبياء والمرسلون، وقال تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت:٣٣]، ثم هي سبيل من تبعهم في ذلك من المؤمنين الصادقين، كما قال تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف:١٠٨].

والعبد المسلم إذا تعلم العلم وعمل به، وجب عليه الدعوة إليه، فإنه من شكر العبد لله تعالى على نعمة العلم والعمل به.

العبد والعالم الرَّباني:

والعبد العالم العامل لابد أن تكون في قلبه رحمة للآخرين، فإذا ذاق حلاوة العلم والعمل به، شعر بالرحمة والرغبة في دعوة الآخرين، كما هو حال الأنبياء والمرسلين،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالواجب رحمة الخلق ودعوتهم إلى الله عز وجل؛ لأن الذي يعلم ليس كالذي لا يعلم، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر:٩].

فالعالم الحق الرباني هو الذي يسعى في تكميل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وتكميل الآخرين بدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح.

الرَّكْبُ المبارك:

وقد ضرب الله تبارك وتعالى لذلك مثلا بعباد له، ليسوا بأنبياء ولا مرسلين؛ ليعلم المؤمنون أن هذا الأمر ليس خاصا بالأنبياء والمرسلين، بل الأمة جمعاء مطالبة أن يكون فيها قوم يقومون بهذا الدور الريادي، والذي به تكون نجاة الأمة من عذاب الله تعالى، وبها تنال الأمة خَيْرِيَّتَها، كما قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:١٠٨-١١٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك هذه الأمثلة من كتاب الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الكهف:٩-١٥]، فهؤلاء فِتْيَةٌ استعملوا فُتُوَّتَهم في الدعوة إلى الله تعالى، ثم اعتزلوا الباطل ورفضوا أهله.

وقال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس:٢٠-٣٠]، فهذا رجل رأى أن عليه واجبا لابد أن يقدمه دعوة إلى الله، ونصرة للحق والمرسلين، مع أنه قد كان في أمة بعث الله تبارك وتعالى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيهم ثلاثة رسل، ولكنه أبى إلا أن يسير في هذا الركب المبارك، مشاركا في الدعوة إلى الله، واقفا في خندق واحد مع المرسلين، ذَابّاً عن حق الله تعالى، داعيا قومه وهو لهم راحم.

وقال تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [غافر:٢٨-٣٣]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر:٢٨-٤٥]، وهذا مؤمن آل فرعون، لم يلتفت إلى بطش فرعون وجبروته، حين رأى أنه لا يسعه السكوت والكتمان، وفرعون يرجف بالعباد، ويسعى في إطفاء نور الله تعالى، حتى عزم على قتل موسى عليه السلام، فلم يجد بدا من الوقوف وقفة رجل صادق، قائم لله تعالى بالتوحيد الخالص، منافحا ومدافعا عن موسى ودعوته الحقة، التي أرسله الله تبارك وتعالى بها.

هَلَّا همة كالهدهد:

بل وهذا الهدهد، أبى إلا أن يكون داعية من دعاة التوحيد إلى الله جل وعلا، كما قال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل:٢٣-٢٦].

فليت شعري كم نحن بحاجة إلى همم، مثل همة هذا الهدهد، أفَعَجِزْنَا حتى صار الهُدْهُد خيرا منا؟!!، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل كيف كان هذا الهدهد؛ سببا لهداية أمة من الناس، واسأل نفسك كم لك من العمر؟، ثم سل نفسك كم اهتدى على يديك من العباد؟!!.

وتأمل في هذا الحديث المخرج في الصحيحين عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ:"لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ". قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا - قَالَ - فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله r كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ:"أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ". فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ - قَالَ - فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ الله r في عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ يَا رَسُولَ الله أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ:"انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ **فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**".

وتذكر حديث أبي هريرة t أَنَّ رسول الله r ، قَالَ:"مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً". رواه مسلم.

من عزائم الأمور:

ومن الدعوة إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من عزائم الأمور، وتحتاج إلى صبر ومُصَابَرةٍ، كما قال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه وهو يعظه: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان:١٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية:[ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة : صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال عن المنافقين:{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ} الآية]ا.هـ

جاء في تفسير الطبري:[وقوله:{وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ}، يقول تعالى ذكره: ألم يأن لهم أن ولا يكونوا، يعني الذين آمنوا من أمة محمد r {كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ} يعني من بني إسرائيل، ويعني بالكتاب:الذي أوتوه من قبلهم التوراة والإنجيل.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا جرير، عن مُغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم، قال: جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود، فقال: يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال عبد الله: هلك من لم يعرف قلبه معروفا، ولم ينكر قلبه منكرا، إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم اخترعوا كتابا من بين أيديهم وأرجلهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب، فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه، قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين ثندوتيه؛ فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به، ويوميء إلى القرن الذي بين ثندوتيه، ومالي لا أومن بهذا الكتاب، فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن].اهـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي المعجم الكبير للطبراني بسند قوي:[حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : جاء عتريس بن عرقوب الشيباني إلى عبد الله فقال:هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال:(بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر)].ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (أحكام المرتد في مجموع الفتاوى):[وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن .

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعي إليه، وذلك هو الأمر به؛ إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين، وجوب فرض الكفاية، لا وجوب فرض الأعيان، كالصلوات الخمس، بل كوجوب الجهاد.

والقيام بالواجبات، من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها].ا.هـ

وجاء في تفسير القرطبي:[قوله تعالى:{كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه}.

فيه مسئلتان: الأولى: قوله تعالى:{كانوا لا يتناهون} أي لا ينهى بعضهم بعضا:{لبئس ما كانوا يفعلون} ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذم من فعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعلهم. خرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله r :"إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيْلَهُ وشَرِيْبَهُ وقَعِيْدَهُ فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض"، ثم قال:{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} إلى قوله:{فاسقون}، ثم قال:"كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولَتَأْطُرُنَّهُ على الحق ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعنكم كما لعنهم" وخرجه الترمذي أيضا. ومعنى لَتَأْطُرُنَّهُ: لَتَرُدُّنَّهُ.

الثانية: قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه]ا.هـ.

إذن الله مقدم على إذن السلطان:

واعلم رحمك الله، أنه لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذن الأمراء أو السلاطين، إذ أن الله تعالى أذن به وأمر به، وكذلك رسوله r ، ولا شيء فوق أمر الله ورسوله، ومن اشترط ذلك فقد خالف الكتاب والسنة وعمل الصحابة وسلف الأمة، بل هو شرط فاسد باطل لعموم الأدلة، إلا إن كان هناك من يدعو إلى ضرلة فهذا يمنع، ويؤدب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس من شرط الداعية أن يكون معصوما:

واعلم حفظك الله ورعاك، أنه لا يشترط في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكـر، أن يكون خاليا من العيوب والخطايا والآثام، إذ من المعصوم بعد رسول الله r ، وكما قيل:

من ذا الذي تُرْضَى سَجَايَاه كلها ... كفى المرء نُبْلا أن تُعَدَّ مَعَايِبُه

وكما قيل:

ولو لم يَعِظ في الناس من هو مُذْنِبُ... فَمَنْ يَعِظُ العَاصِين بَعْدَ مُحمد

وقال القرطبي رحمه الله:[وَقَالَ الْحَسَنُ لِمُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ الله: عِظْ أَصْحَابَكَ، فَقَـالَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ، قَالَ: يَرْحَمُكَ اللهُ! وَأَيُّنَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ! وَيَوَدُّ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِهَذَا، فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْـدِ الرَّحْمَنِ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حتى لا يكون فيه شي، ما أمر أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. قَالَ مَالِـكٌ: وَصَـدَقَ، مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شيء].ا.هـ.

وقال في تفسيره أيضا:[وقال حذاق أهل العلم: وليس من شرط النـاهي أن يكـون سليما عن معصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضا.

وقال بعض الأصوليين: فرض على الـذين يتعـاطون الكـؤوس أن ينهـى بعضـهم بعضا]ا.هـ.

نعم قد يستهجن الناس إنكار من هو متلبس بالمعصية على غيره ممن يتعاطاها، ولكن هذا ليس بصاد ولا مانع من الدعوة، فقد تكون سببا للهداية، وهي كذلك بحول الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحرك والمهيج على الدعوة:

واعلم رحمك الله، أن مبدأ إنكار المنكر، هو تحرق القلب عند رؤية المنكر، مما يثمر السعي في تغييره، على حسب التدرج الشرعي بمراتبه الثلاث الواردة في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي **r** قال:"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

فهذا الحديث دال على أن هناك قدرا من الإنكار هو من فروض الأعيان، ويتدرج بحسب الاستطاعة، إلى أن يصل إلى القلب، فأدنى مراتب الإنكار أن يكون بالقلب، فإن القلب الذي لا ينكر المنكر عند رؤيته، هو قلبٌ ميت ممسوخ منكوس ليس بمؤمن. نسأل الله العافية والسلامة.

كما في مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق حبيب عن أبي الطفيل قال:قيل لحذيفة:ما ميت الأحياء؟ قال:[من لم يعرف المعروف بقلبه وينكر المنكر بقلبه]. وفيه عن علي **t** قال:[فينكس كما ينكس الجراب فينثر ما فيه].

وفيه بسند صحيح من طريق طارق بن شهاب قال:قال رجل لعبد الله:هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فقال عبد الله:[بل هلك من لم يعرف المعروف بقلبه وينكر المنكر بقلبه].

وفيه بسند جيد من طريق عاصم قال ما سمعت الحسن يتمثل ببيت شعر إلا هذا البيت: ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

ثم قال صدق والله إنه ليكون حيا وهو ميت القلب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ".

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي بكر الصديق t أنه قال:يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:{يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} وإني سمعت رسول الله r يقول:"إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب" قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

وفي صحيح مسلم عن حُذَيْفَة t قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ". والأحاديث في هذا كثيرة جدا.

وأيُّ دِين وأيَّ خَير؟!:

قال ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين):[وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يُترك، وسنة رسول الله r يُرغب عنها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بَلِيَّةُ الدين إلا من هؤلاء، الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورِيَاسَاتُهم؛ فلا مُبَالَاة بما جرى على الدين، وخِيَارُهُم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غضاضة عليه، في جاهه أو ماله، بَذَلَ وتَبَذَّل، وجَدَّ واجْتَهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة، بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومَقْتِ الله لهم؛ قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بَلِيَّةٍ تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرا، أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال:يا رب كيف وفيهم فلان العابد؟، فقال:"به فابدأ، فإنه لم يَتَمَعَّرْ وجْهُه فِيَّ يوما قَط".

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد، أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه، أن قل لفلان الزاهد:أما زهدك في الدنيا؛ فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي؛ فقد اكتسبت به العِز، ولكن ماذا عَمِلت فيما لِي عَليكَ؟، فقال: يا رب، وأي شيء لك علي؟، قال هل واليت فِيَّ وليا، أو عاديت فِيَّ عَدُوا؟]ا.هـ.

أولى الناس بدعوتك:

واعلم سَدَّدَكَ الله وأرشدك، أن أولى الناس بدعوتك، وأمرك ونهيك، هم أهل بيتك وعشيرتك، كما قال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤]، وقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦].

وقد قص الله تبارك وتعالى علينا قصص آباء مشفقين على أهليهم، فنصحوا لهم ابتداء في دينهم، وكان أعظم ما يشغل بالهم تجاههم أن يحافظوا على دينهم، وإليك هذه الآيات التي تبين ذلك وتفصله وتحث عليه، قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة:١٣٠-١٣٣].

وتأمل في وصية لقمان لابنه، بم أوصاه؟، وبم أمره؟، وعلى ماذا حثَّه؟، فإليك سياق ذكر من كتاب الله تبارك وتعالى: {لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان:١٢-١٩]، والله إذ يذكرنا بهذه الآيات، إنما ليحصل الاقتداء بهؤلاء الأنبياء وأولئك الصالحين.

فيجب علينا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على تقديم دين الله تعالى، ومراضي الله سبحانه وتعالى، على جميع معطيات الحياة الدنيا، وتأمل كيف خاطب الخليل إبراهيم رَبَّهُ تبارك وتعالى، إذ ترك ذريته بِوَادٍ من الأرض، حيث ذكر إقام الصلاة، في بيان واضح أن أعظم مهمة لهم هي إقامة الدين، وأنه الأمر الأعظم الذي يشغل بَالَهُ r، كما قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم:٣٧].

وفي أول الكلمات التي تكلم بها عيسى عليه السلام وهو في المهد: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [مريم:٣٠-٣٢].

وفي إسماعيل عليه السلام عظة واعتبار، حيث قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم:٥٤-٥٥]. ومثل هذه المعاني متكاثرة متوالية في الكتاب والسنة.

قال الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء):[رَوَى: الأَعْمَشُ، عَنْ خَيْثَمَةَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:كُنْتُ تَاجِراً قَبْلَ المَبْعَثِ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ، جَمَعْتُ التِّجَارَةَ وَالعِبَادَةَ، فَلَمْ يَجْتَمِعَا، فَتَرَكْتُ التِّجَارَةَ، وَلَزِمْتُ العِبَادَةَ]ا.هـ.

إياك والتفريط فإنك مسئول:

واليوم ترى أكثر المُرَبِّين، إلا من رحم الله وقليل ما هم، يُلْقُون الحبل على الغارب، فيما يتعلق بسلامة دين من تحت يدهم، وأكبر همتهم مصروفة إلى تحقيق مكاسب الحياة الدنيا ولو ضاع الدين، فهاهم الملايين يزجون بأبنائهم في مستنقعات المدارس والجامعات التي امتلأت بالشر والفساد، بل وبعضهم يكره التزام ابنه بالدين، إما بغضا والعياذ بالله للدين، وهذه ردة عن الإسلام، وإما لأنه لا يريد أن يكون الابن عينا ورقيبا عليه في المنزل، فيلاحقه بالأحكام الشرعية، لما يتم تعاطيه من المحرمات منه، أو من أفراد الأسرة، وتلك المحرمات الأخرى القابعة في البيوت، من تِلْفَاز ودِجِتِلات وصور، بل وربما صُور للطواغيت، وغير ذلك من المنكرات.

وبعضهم يتعامل مع أبنائه وكأنهم عبيد له، فيأمرهم بالطاعة له، على كل حال، وإن كان في معصية الله، ونسي أنه هو وهم عبيد لله تعالى، وأن الكل مطالب بالانقياد لشرع الله تبارك وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خطروة المدارس والجامعات على الدين:

وقد نبه ابن الجوزي على خطورة بناء المدارس والدور التعليمية التي تبعد الناس عن الله تعالى، وتعظم الدنيا وتهمش الآخرة، ناهيك عن فساد القدوات والمناهج والبيئة التعليمية، وبين الإنفاق عليها لا ثواب فيه، وذلك في زمانه فكيف لو رآى زمانا؟!.

فقال كما في صيد الخاطر:[رأيت بعض المتقدمين سئل عمن يكتسب حلالاً وحراماً من السلاطين والأمراء، ثم يبنى المساجد والأربطة:هل له فيها ثواب؟. فأفتى بما يوجب طيب قلب المُنْفِق، وأن له في إنفاق ما لا يملكه نوع سمسرة؛ لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيردها.

فقلت:واعجباً! من المتصدين للفتوى الذين لا يعرفون أصول الشريعة[١].

ينبغي أن ينظر في حال المُنفِق أولاً، فإن كان سلطاناً فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه، فكيف يمنع مستحقه **ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط.**

١ - هذا ابن الجوزي رحمه الله تعالى اكتفى بمجرد العجب ممن في زمانه، ولو كان في زماننا لربما مات كمدا، من فتاوى علماء السوء، المبررين والمرقعين والممررين للسلاطين لا أقول في معاصيهم، بل في الكفر بالله جل وعلا. نعوذ بالله من الخذلان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و إن كان المنفق من الأمراء و نواب السلاطين، فإنه يجب أن يرد ما يجب رده إلى بيت المال، و ليس له فيه إلا ما فرض من إيجاب يليق به.

فإن تصرف في غير ذلك كان مصروفاً فيما ليس له، ولو أذن له كان الإذن جائزاً.

وإن كان قد أقطع مالاً يقاوم عمله، كان ما يأخذه فاضلاً من أموال المسلمين لا حق له فيه. وعلى من أطلقه في ذلك إثم أيضاً.

هذا وإذا كان حرماً أو غصباً فكل تصرف فيه حرام، و الواجب رده على من أخذ منه له على ورثتهم.فإن لم يعرف طريق الرد كان في بيت مال المسلمين، يصرف في مصالحهم أو يصرف في الصدقة، و لم يحظ آخذه بغير الإثم.....إلى أن قال:فأما إذا كان الباني تاجراً مكتسباً للحلال، فبنى مسجداً أو وقف و قفاً للمتفقهة، فهذا مما يثاب عليه.

ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار، أو يخرج الزكاة مستقصاة، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء و النفقة.إذ مثل هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة. وأين سلامة النية وخلوص المقصد.

وإن بناء المدارس اليوم مخاطرة، إذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم الجدل، وأعرضوا عن علوم الشريعة، وتركوا التردد إلى المساجد، وقَنِعُوا بالمدارس والألقاب.

و أما بناء الأربطة فليس بشيء أصلاً، لأن جمهور المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل، ثم يدعي مُدَّعِيهِم المحبة والقرب، ويَكْرَهُ التشاغل بالعلم، وقد تركوا سيرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَرِي وعَادَات الجُنَيد، و اقتنعوا بأداء الفرائض، و رضوا بالمرقعات؛ **فلا تحسن إعانتهم على بطالتهم وراحتهم، و لا ثواب في ذلك**]ا.هـ.

وقال المؤرخ حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون):[الإعلام الثالث: في دفع ما يتوهم من الضرر في العلم وسبب كونه مذموما.

اعلم:أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع لأن في كل علم منفعة ما في أمر المعاد أو المعاش أو الكمال الإنساني وإنما يتوهم في بعض العلوم أنه ضار أو غير نافع لعدم اعتبار الشروط التي يجب مراعاتها في العلم والعلماء فإن لكل علم حدا لا يتجاوزه.

فمن الوجوه المغلطة: أن يظن بالعلم فوق غايته، كما يظن بالطب: أنه يبرئ من جميع الأمراض وليس كذلك فإن منها ما لا يبرأ بالمعالجة.

ومنها: أن يظن بالعلم فوق مرتبته في الشرف، كما يظن بالفقه: أنه أشرف العلوم على الإطلاق، وليس كذلك، فإن علم التوحيد أشرف منه قطعا.

ومنها: أن يقصد بالعلم غير غايته،**كمن يتعلم علما للمال أو الجاه، فالعلوم ليس الغرض منها: الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق، وتهذيب الأخلاق، على أنه من تعلم علما للاحتراف لم يأت عالما إنما جاء شبيها بالعلماء.**

ولقد كُوشِفَ علماء ما وراء النهر بهذا الأمر، ونطقوا به، لما بَلَغَهُم **بناء المدارس ببغداد أَقَامُوا مَأْتَم العلم، وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية، والأنفس الزكية، الذين يقصدون العلم؛ لشرفه والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه أجرة؛ تدانى إليه الأخِسَّاء، وأرْبَاب الكسل؛ فيكون سببا لارتفاعه، ومن هـا هنـا هجرت علوم الحكمة، وإن كانت شريفة لذاتها.

ومنها: أن يمتهن العلم بابتذاله إلى غير أهله، كما اتفق في علم الطـب، فإنـه كـان في الزمن القديم حكمة موروثة عن النبوة، فصار مُهَاناً لما تَعَاطَاه اليهود؛ فلم يَشْرُفُوا بـه، بل رَذُلَ العلم بهم]ا.هـ.

الإسلام لا يحارب العلم النافع:

واعلم رحمك الله وأرشدك، أن الإسلام لا يحارب العلـوم النافعـة، ولكنـه يحـارب العلم الضار، ويحارب العلم الذي يشغل العبد عما خلق لـه، وعـن وظيفتـه الحقيقيـة، التي فيها نجاته وسعادته الحقيقية.

الإسلام يحارب الأساليب الضالة والملتويـة، التـي تتضـمن التلبـيس عـلى النـاس، بإلباس الباطل ثياب الحق؛ للتغرير بالجموع الإسلامية.

الإسلام يحارب الوسائل المنحرفة الجائرة، كـما أنـه يحـارب أسـباب الفسـاد كلهـا، ويحارب التَّبَعِيَّةَ والتقليد الأعمى للكفار، والتشبه بهم.

الإسلام يحارب أن يتحول الإنسان المسلم إلى دابـة هِمَّتُهـا جمـع الـدرهم والـدينار، والتنافس على زخرف الحياة الدنيا، على حساب القضية العظمى، ألا وهي تحقيق عبادة الله جل وعلا.

الإسلام يحارب أن يكون الإنسان المسـلم، دابـة تُـدَجَّنُ لأعـدائها، وُتُسَـمَّنُ لِـدُوْدِ القبور، في ذهول وإعراض عن الله والدار الآخرة، التي هي الحيوان الحقيقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيف هجرنا حدود الله واحتفينا بحدود الطاغوت؟!!:

وفي مقابل هذا الاحتفاء العظيم بعلوم الحياة الدنيا، وقع هجر عظيم لكتاب الله تعالى وسنة النبي r، ومعرفة سبيل المؤمنين y، قال تعالى:{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان:٣٠].

وصار الاحتفاء بكتاب الله تعالى موقوفا على حروفه دون حدوده، فالأمة تتلوه في الحِلَق، وفي رمضان، وفي بعض الاجتماعات والمناسبات، بل وربما استفتحت به الإذاعات والقنوات واختتمت به، بل وفي بعض البلدان قنوات خاصة بالقرآن، يتلى فيها على مدار اليوم، بل وهناك الاحتفالات البدعية لتخريج الحفظة لكتاب الله، بل وفوق ذلك وأعجب منه، أن هناك طواغيت نسبوا أنفسهم زورا وبهتانا إليه، وتسموا بـ(خادم القرآن، وخادم السنة، وخادم الحرمين)، كل هذا حروفا لا حدودا، بل هم خائنوا ذلك كله.

أما قانون الطاغوت، ودساتيره، وقضاته ومُحَامُوه، فهم محل الاحتفاء حدودا وحروفا.

وقد نقل ابن القيم عن بعض السلف، كما في (زاد المعاد في هدي خير العباد)، فقال:[كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ الْعَامِلُونَ بِهِ وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إقَامَةَ السَّهْمِ. قَالُوا: وَلِأَنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْإِيمَانَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَفَهْمُ الْقُرْآنِ وَتَدَبّرُهُ هُوَ الّذِي يُثْمِرُ الْإِيمَانَ وَأَمّا مُجَرّدُ التّلَاوَةِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَلَا تَدَبّرٍ فَيَفْعَلُهَا الْبَرّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ كَمَا قَالَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:"وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيّبٌ وَطَعْمُهَا مُرّ"، **وَالنّاسُ فِي هَذَا أَرْبَعُ طَبَقَاتٍ**: أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَهُمْ أَفْضَلُ النّاسِ، **وَالثّانِيَةُ**: مَنْ عَدِمَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ، **الثّالِثَةُ**: مَنْ أُوتِيَ قُرْآنًا وَلَمْ يُؤْتَ إيمَانًا، **الرّابِعَةُ**: مَنْ أُوتِيَ إيمَانًا وَلَمْ يُؤْتَ قُرْآنًا، قَالُوا: فَكَمَا أَنّ مَنْ أُوتِيَ إيمَانًا بِلَا قُرْآنٍ أَفْضَلُ مِمّنْ أُوتِيَ قُرْآنًا بِلَا إيمَانٍ فَكَذَلِكَ مَنْ أُوتِيَ تَدَبّرًا وَفَهْمًا فِي التّلَاوَةِ أَفْضَلُ مِمّنْ أُوتِيَ كَثْرَةَ قِرَاءَةٍ وَسُرْعَتَهَا بِلَا تَدَبّرٍ]ا.هـ.

وقال أيضا في كتابه:(الفوائد):[فائدة هجر القرآن أنواع: **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، **والثاني**: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به، **والثالث**: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، **والرابع**: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله:{وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا}، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض، وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجا من إنزاله، وكونه حقا من عند الله، وتارة يكون من جهة التكلم به، أو كونه مخلوقا من بعض مخلوقاته، أَلْهَمَ غيره أن تكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأَقْيِسَة أو الآراء أو السياسات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مُرَادَة فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أَوْهَمَ أنها مُرَادَة لضرب المصلحة، فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالما فاجرا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا لمعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء].ا.هـ.

فصل: والعباد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مراتب:

١- الذي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، ويسعى في عداء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهؤلاء هم الكفار والمنافقون.

٢- كالأول ولكنه لا يسعى في عداء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فهذا منافق أيضا ولكنه أقل من المرتبة الأولى.

٣- الذين يفعلون المنكر، ولا يأمرون به، ولكنهم لا يجدون حرقة في قلوبهم عند رؤية المنكر، فهذا ضرب من النفاق ولكنه أقل من الأوليّن.

٤- الذي يفعل المنكر ويسعى في إنكاره، فهذا مؤمن عاصٍ، قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

٥- الذي لا يفعل المنكر و لا يسعى في إنكاره أيضاً، وهو مبغض له بقلبه، فهذا مؤمن عاصٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦- من لا يفعل المنكر ويسعى في إنكاره، وهذا هو المؤمن الذي وصفه الرسول r بحقيقة الإيمان، فإن وقع في شيء من ذلك عاد إلى الله من قريب، فاستغفر وتاب.

قرية نَيْنَوَى:

وقد قص الله تبارك وتعالى علينا قصصا في كتابه العزيز، دالة على ضرورة العباد إلى الأمر والنهي، وقد تنوعت السياقات في ذلك، ومن أظهر ذلك أصحاب قرية نينوى، كما قال تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف:١٦٣-١٧٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه أمة من أهل الكتاب انقسمت مع المنكر إلى ثلاثة أقسام، فمنهم من باشر المنكر، ومنهم من أعرض عن الواقعين في المنكر، والقسم الثالث هم الذين قاموا بواجب وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فنجا الله تعالى الفريق الذي قام بهذا الدور الرِّيَادِي العظيم، وسكت عن الفريق الذي لم يقم بهذا الواجب، وعذب الله تعالى الوالغين في المنكر.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِي النَّيْسَابُورِيُّ أَبُو إِسْحَاقَ، ثنا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ، ثنا مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ}، إِلَى قَوْلِهِ:{كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، قَالَ الْحَسَنُ:(وَالْعَمَلُ السَّيِّئُ يُقَدِّمُهُ الْقَوْمُ يُقَيَّضُ لَهُمُ الْبَلاءُ لِيُهْلَكُوا فِيهِ، فَكَانَتْ تَجِيءُ يَوْمَ السَّبْتِ حِيتَانُهُمْ شُرَّعًا عَلَى مَتْنِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا الْمَخَاضُ عِظَمًا وَسَمْنًا، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِ السَّبْتِ لَمْ يُرَ حُوتٌ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، فَطَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهَا يَوْمَ السَّبْتِ نَسْتَوْثِقُ مِنْهَا أَلا تَذْهَبُ، وَنَأْكُلُهَا يَوْمَ الأَحَدِ، فَإِنَّمَا نُهِينَا عَنْ أَكْلِهَا يَوْمَ السَّبْتِ)، قَالَ الْحَسَنُ:(فَأَكَلُوا وَاللهِ أَوخَمَ أَكْلَةً أَكَلَهَا قَوْمٌ قَطُّ أَعْجَلُهَا عُقُوبَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَبْقَاهَا خِزْيًا فِي الآخِرَةِ)]ا.هـ.

ثم بين تبارك وتعالى أن هناك من ورث هذه السبيل الخبيثة في التحايل على شرع الله تبارك وتعالى؛ لِيُوَاقِعُوا المحرمات، بِمُبَرِّرَات مختلقة ينسبونها إلى الشرع، وأَشَادَ الشرع بالمستمسكين بالحق على كل حال، به يهدون ويعدلون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ذلك قوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة:٧٨-٨١].

نحن جميعا في سفينة واحدة (سفينة المجتمع):فالحذر من غَرَقِهَا:

وتأمل أن هؤلاء مَرُّوا بمرحلتين، فأما الأولى منهما فهي مُوَاقَعَةُ المنكر، وأما الثانية وهي أشد وأعظم، اسْتِمْرَاء هذا المنكر، والتَّوَاطُؤ عليه، وتقديم المجاملات على الإنكار على الواقعين في المنكر، فعندها تكون العقوبة جماعية والعياذ بالله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٤-٢٥].

وفي الباب جملة من الأحاديث:

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي r قال:"مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خَرَقْنَا في نصيبنا خَرْقاً ولم نُؤْذِ من فَوْقَنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعا" رواه البخاري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال النووي في رياض الصالحين:["القائم في حدود الله" معناه: المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها. والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه، و"استهموا": اقترعوا]. ا.هـ.

مُصْلِحُون أم صَالِحُون؟:

ولنعلم أننا جميعا في هذه السفينة، والتي هي المجتمع، فإن تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ تسلط أصحاب الباطل والهوى، بالشهوات أو الشبهات، فكثر الخارقون في هذه السفينة، حتى يَتَّسِع الخَرْقُ على الرَّاقِع؛ فتغرق السفينة بمن فيها، وإن كانوا من الصالحين وإن كانوا أكثرية، فتأمل وانتبه واحذر.

فالشأن كل الشأن في وجود المصلحين لا الصالحين.

كما قال تعالى في بيان سبيل النجاة:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود:١١٦-١١٧]، وقوله:{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس:٩٨-١٠٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة رضي الله عنها عن النبي r أنه قال:"إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع"، قالوا : يا رسول الله ألا نقاتلهم؟، قال:"لا ما أقاموا فيكم الصلاة". رواه مسلم.

قال النووي في رياض الصالحين:[معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكار بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم وأدى وظيفته ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي]ا.هـ.

وعن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي r دخل عليها فزعا يقول:"لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد أقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها. فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟، قال:"نعم إذا كثر الخبث". متفق عليه.

واعلم أن ترك المنكر عظيم الأجر، وأعظم منه بُغْضُه، فإنه أنكى وأبلغ.

طريقة السلف في الإنكار:

واعلم رحمك الله تعالى، أن السلف كانوا أشد ما كانوا في الإنكار، عندما تتعلق المنكرات بالعقيدة والتوحيد؛ ولهذا ترى أن إنكارهم في مسائل الفروع والاختلافات الفقهية، هو أقل بكثير من حالهم مع البدع والشبهات والضلالات العقدية، فلنتنبه لهذا المقام، فإن أقواما يخادعون الناس، ويخلطون الأوراق، فيذكرون تَسَمُّح بعض السلف وعدم تشديدهم في بعض مسائل الفروق الفقهية؛ ليبرروا ويمرروا مسائل البدع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والضلالات والشبهات العقدية؛ بغية توسيع الماعون، وإدخال جميع فرق الضلال في أهل السنة والجماعة، بدعوى أنه لا إنكار في مسائل الخلاف، ولا شك أن هذا من التخبط والضياع الذي ورثته الأمة في هذه الأزمنة المتأخرة عن جماعة الإخوان المسلمين، الذين من أصول فكرهم ومذهبهم، البحث عن مبررات لمشاكل وفتن الواقع، والرضوخ للحالة السائدة العامة في المجتمعات الإسلامية، بل والعالمية، ثم البحث الجاد عن التخريجات والترقيعات لهذا الواقع المُر؛ فتربى أتباعهم ومن اغتر بهم، وكثير من أفراد الأمة، على أنه ليس الشأن أن نصيب الحق ونقصده ونُنقب عنه، بل المهم أن نثبت أن في المسألة خلافا ولو شاذا؛ حتى نُصَوِّبَ الجميع، ويسكت الكل، ولا نُحدث فتنة، فالكل إذا عندهم مصيب، والكل له نصيب؛ فحصل التخليط العظيم في دين الله تعالى، في الأصول والفروع، واخْتَلَّت المبادئ، وصارت هذه الجماعة تَنْتَظِمُ في داخلها، طوائف من المبطلين والضالين، كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمرجئة والخوارج، بل حتى المشركين، والبعثيين والمارونيين، والنصارى، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَهِمَّتُهم مَصْرُوفَة إلى تحقيق توحيد الكلمة، لا إلى تحقيق كلمة التوحيد.

واعلم أن من الكفريات التي يتداولها كبراء من منظري هذه الجماعة - وهو يمثل جانبا من واقع الفكر الإخواني العقدي المبني على اتساع الدائرة لتستوعب كل متدين، مهما كان تدينه ودينه - قولهم: إن العدو إنما هو الإلحاد، وأن لكل أهل ملة تدينها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإيمانها، فالكل مؤمن، وإنما الكافر الملحد؛ ولهذا يصرح بعضهم، بل وبلا أدنى حياء أن اليهود والنصارى مؤمنون، ولاشك أن هذه ردة صريحة عن الإسلام باتفاق المسلمين.

واعلم أنه قد اغتر بهم جملة من المسلمين المنتسبين لأهل السنة والجماعة، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات، لاسيما مع الهجمة العالمية الشرسة على الإسلام والمسلمين من الغرب الكافر وأعداء الدين، فلجأ هؤلاء إلى لَبْسَةِ الإخوان المسلمين، فظهر نتاج غريب، بل هو أشد خطرا من الإخوان المسلمين؛ لأن الإخوان المسلمين غالبا ما يؤسسون أقوالهم على التنظير، لا على التأصيل العقدي الفقهي الاستدلالي، بخلاف المنتسبين إلى السلف، فإنهم يعتمدون على الاستدلال، ومن هنا تقع الورطة وتكون الخطورة، عندما يعمد هؤلاء إلى لوي أعناق النصوص وتطويعها لتبرير وتمرير الواقع، فإذا بنا أمام إنسان يلبس عباءة السلف، وبداخله محرك مصنوع في معامل الإخوان المسلمين، فيا ضيعة المسلمين، في بلاد يكون فيها الرموز الذين ترفع إليهم الأبصار، إما إخواني قلبا وقالبا، وإما سلفي بمحرك إخواني، والله المستعان.

ولنعلم أن الإسلام إنما جاء ليجتث الواقع المر؛ ليزرع الحق، ويؤصله، ويدعو إليه، رضي من رضي، وسخط من سخط، وأن الأمة مبتلاة بإصابة الحق والعمل به، وإن خالف مراد وفعل الأكثر، وهذه هي حقيقة دعوة الرسل، واقرأ القرآن لتعتبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والدعوة إلى الله على أقسام:

أ- فرض عين: وهي الدعوة الخاصة، وهو ما لا يسع العبد تركها، إذا كان يعلم،وكل بحسب علمه، فإن تركها وهو يعلم مع الإمكان أثم.

ب- فرض كفاية: وهي الدعوة العامة، وهي التصدي لمسائل العامة، وهذه خاصة بالعلماء وطلبة العلم.

ويمكن أن نحتج للنوع الأول: بحديث الرسول r :"بَلِّغُوا عني ولو آية". أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ونحتج للنوع الثاني: بحديث الرسول r عند ما قال:"لأعطين الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله" وقد تقدم قريبا، فاختار عليا، أي إنه اختار رجلا من أهل العلم، وأيضاً بأن النبي r لما بعث إلى اليمن، بعث عالمين من علماء الصحابة، وهما معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما، وعليه فقد كان النبي r لا يختار للدعوة العامة والخروج بها إلى الناس والآفاق إلا العلماء.

وعليه فإنه لا يجوز أن يتصدى العبد لأمر العامة إلا إذا تمكن من العلم، وليس مقياس العلم كثرة العبادة، أو القدرة على الوعظ والخطابة، فرب رجل كثير العبادة فصيح العبارة وبليغ الخطاب، ولكنه قليل العلم، فيفسد أكثر مما يصلح، ورب رجل كثير العلم قليل العبادة، فهو أحق بهذا المقام العام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودليل ذلك حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ الله r قَالَ:"كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَّ فَاعْبُدِ اللهَّ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ".

الأكثر لا يفرق بين العابد والعالم:

فلاحظ أنه عندما سأل عن أعلم أهل الأرض دُل على رجل كثير العبادة ولكنه قليل العلم؛ فَجَنَى هذا الجاهل على نفسه وكاد أن يُهْلِكَ سائله، وعندما سأل في المرة الأخرى عن أعلم أهل الأرض دُل على رجل كثير العلم، وإن لم يكن مشهورا بالعبادة كالأول، بل والسياق دال على أن الشهرة كانت للعابد وأنه هو العالم والعالم الحقيق مغمور لا يكاد يعرف،فلما سأله الرجل وجد عنده الشفاء، وسلك به العالم سبيل النجاة، فالعلم صلاح ونجاة وخلاص لصاحبه وللأمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل فقه هذا التائب، إذ لم يحدث العالم عما جرى معه في مسألته الأولى، وأنه قتل من أجابه، وهذا دال على صدق توبته، فهو لا يريد إجابة تفرضها معطيات معينة، أو مؤثرات خارجية، بل يريد الحق من بابه ليعمل به.

وتأمل كيف أن أكثر الناس لا يميزون بين العالم وغيره، وهذا إلى يومنا هذا، فكم من العلماء لا يعرفهم الناس، وكم من حُطَّاب الليل، من القصاص والوُعَّاظ يجوبون الأمصار، وسرت بأخبارهم الركبان، واشتهروا وطَارَ الناس بهم كل مَطَار، وهذا لاشك أنه منقصة على الأمة، وسبب لانتشار الضلال فيها، مما يباعدها عن الله، فتقع البلايا وتحصل الكوارث والنكبات.

والإعلام الجائر يلمع المداهنين، إمعانا في تضليل الأمة، وفرضا لأجندة الطاغوت، مستعملا المدلسين والملبسين، والمتلونين في الدين، نسأل الله العافية والسلامة.

المنهجية والبصيرة في الدعوة إلى الله:

وأما المنهجية في الدعوة إلى الله جل وعلا فتكون بأمور:

١- العلم.

٢- العمل به.

٣- معرفة حال المدعو.

٤- الاستعداد لما يلقى من الشبة.

٥- اتباع الحكمة في الدعوة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦- التدرج من الأهم إلى المهم.

٧- التحقق بالرفق حال الدعوة.

٨- ولا بد في الأمر المعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، من اعتبار المفاسد والمصالح، بالضوابط الشرعية، نصرة للدين، كما قال تعالى: { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٠٨].

وفي الصحيحين عن جابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ r فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ.فَقَالَ:"دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ". فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ قَدْ فَعَلُوهَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ:"دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ".

وفي الصحيحين عن عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ".

٩- الجمع بين نَظْرَتَي الرَّحمة للخلق، والغيرة على حق الرب، تبارك وتعالى.

وهذه الأمور، نأخذها من حديث معاذ المخرج في الصحيحين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ r قَالَ:"إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَـأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْـتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَـأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْـتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَـرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ".

فالواجب على الداعي إلى الله، أن يكون عالماً بما يدعو إليه، فلا يدعو عن جهل، بـل يجب عليه أن يتسلح بسلاح العلم، وأن يكون عاملا بعلمه؛ حتى يُقْتَدَى به ويُؤْخَذَ عنه ويقبل منه، كذلك معرفة حال المدعو، ليحسن اختيار المدخل الصحيح على المـدعوين، وأيضاً لكي يستعد لما سوف يُلقى عليه من الشبه حال الدعوة، فيكون مستعدا بالعلم، وسُرْعَة البديهة، حاضر الذهن، متوقد الفهم، لا سـيما في مواقـف المنـاظرة والتحـدي، التي تكون من المبطلين والمستكبرين والمعاندين.

وكذلك لابد من اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله، بالتدرج مـن الأعـلى إلى الأدنـى، لأن العبد إن دعوته إلى ما يراه هو أهون من أمر أعظم هو يقترفه، سـتكون الاسـتجابة ضعيفة، وذلك لأن الشيطان يدعوه إلى عدم المُبَالاة بذلك؛ لكونه واقع فيما هـو أخطـر وأقبح.

ولهذا كانت دعوة الرسل دائما البُداءة بالأهم قبل المهم، ولا أهم من التوحيد، إيمانـا بالله وكفرا بالطاغوت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَزَالقُ الشيطان:

واعلم عافانا الله وإياك، أن الشيطان، يربط المعاصي، بعضها، بالبعض الآخر، وبالطاعات كذلك، وذلك على النحو التالي:

١- أن يرقق المعصية الأدنى بالأعلى منها؛ ليقع العبد في كليهما.

٢- ترقيق المعاصي عموما، بدعوى أنها غير مؤثرة، إذ أنها سَتَنْغَمِرُ في بُحُورِ الطاعات، ورصيد الحسنات الكثيرة، التي يمتلكها هذا العبد أو ذاك.

٣- ترقيق بعض الطاعات ببعضها، بدعوى عدم حاجة العبد إليها، فهو يمتلك من الطاعات ما توصله إلى طريق النجاة، وتَخْلُصُ به إلى سبيل الخلاص.

٤- أن يهون من شأن اللَّمم، ويقول افعلها ولا حرج ما اجتنبت الكبائر؛ فتكون منه خطوات نحو الكبائر، بعد أن يرغب العبد في الإصرار على الصغائر وأنها لا تضره.

فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عائذين بالله من الشيطان الرجيم وأعوانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[لَكِنَّ النِّيَّةَ الْمَحْمُودَةَ الَّتِي يَتَقَبَّلُهَا اللهُ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا: أَنْ يُرَادَ اللهُ بِذَلِكَ الْعَمَلِ. وَالْعَمَلُ الْمَحْمُودُ: الصَّالِحُ؛ وَهُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا.

وَإِذَا كَانَ هَذَا حَدُّ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ: فَالْآمِرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنْ الْمُنْكَرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَلَا يَكُونُ عَمَلُهُ صَالِحًا إنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِ وَفِقْهٍ وَكَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَنْ عَبَدَ اللهَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ. وَكَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ { الْعِلْمُ إمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ }.

وَهَذَا ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْقَصْدَ وَالْعَمَلَ إنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمٍ كَانَ جَهْلًا وَضَلَالًا وَاتِّبَاعًا لِلْهَوَى كَمَا تَقَدَّمَ وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ. فَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا. وَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِحَالِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ . وَمِنْ الصَّلَاحِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ إلَى حُصُولِ الْمَقْصُودِ. وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنْ الرِّفْقِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ r :"مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إلَّا زَانَهُ؛ وَلَا كَانَ الْعُنْفُ فِي شَيْءٍ إلَّا شَانَهُ"، وَقَالَ:"إنَّ اللهَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ". وَلَا بُدَّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا صَبُورًا عَلَى الْأَذَى؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ أَذًى؛ فَإِنْ لَمْ يَحْلُمْ وَيَصْبِرْ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ. كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:{وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُّ الرُّسُلَ - وَهُمْ أَئِمَّةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ - بِالصَّبْرِ كَقَوْلِهِ لِخَاتَمِ الرُّسُلِ ؛ بَلْ ذَلِكَ مَقْرُونٌ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ . فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا أُرْسِلَ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ . اقْرَأْ الَّتِي بِهَا نُبِّئَ فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} {قُمْ فَأَنْذِرْ} {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} {وَثِيَابَكَ فَطَهِّر} {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} فَافْتَتَحَ آيَاتِ الْإِرْسَالِ إلَى الْخَلْقِ بِالْأَمْرِ بِالنِّذَارَةِ وَخَتَمَهَا بِالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَنَفْسُ الْإِنْذَارِ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَعُلِمَ أَنَّهُ يَجِبُ بَعْدَ ذَلِكَ الصَّبْرُ وَقَالَ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} وَقَالَ تَعَالَى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ} {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}. فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: الْعِلْمُ؛ وَالرِّفْقُ؛ وَالصَّبْرُ؛ الْعِلْمُ قَبْلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيُ؛ وَالرِّفْقُ مَعَهُ وَالصَّبْرُ بَعْدَهُ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْ الثَّلَاثَةِ مُسْتَصْحِبًا فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ؛ وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ وَرَوَوْهُ مَرْفُوعًا؛ ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي الْمُعْتَمَدِ:"لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ إِلَّا مَنْ كَانَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ؛ فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ؛ رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ؛ رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ؛ حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ". وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الْخِصَالِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ مِمَّا يُوجِبُ صُعُوبَةً عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النُّفُوسِ؛ فَيَظُنُّ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَسْقُطُ عَنْهُ فَيَدَعُهُ؛ وَذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَضُرُّهُ الْأَمْرُ بِدُونِ هَذِهِ الْخِصَالِ أَوْ أَقَلَّ: فَإِنَّ تَرْكَ الْأَمْرِ الْوَاجِبِ مَعْصِيَةٌ: فَالْمُنْتَقِلُ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ أَكْبَرَ مِنْهَا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنْ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ وَالْمُنْتَقِلُ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ كَالْمُنْتَقِلِ مِنْ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى دِينٍ بَاطِلٍ؛ وَقَدْ يَكُونُ الثَّانِي شَرًّا مِنْ الْأَوَّلِ: وَقَدْ يَكُونُ دُونَهُ؛ وَقَدْ يَكُونَانِ سَوَاءً ؛ فَهَكَذَا تَجِدُ الْمُقَصِّرَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمُعْتَدِيَ فِيهِ قَدْ يَكُونُ ذَنْبُ هَذَا أَعْظَمُ : وَقَدْ يَكُونُ ذَنْبُ هَذَا أَعْظَمُ ؛ وَقَدْ يَكُونَانِ سَوَاءً]ا.هـ.

وقال ابن القيم في (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي):[فَصْلٌ: الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَى عَفْوِ اللهِ فَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَا يُرَدُّ بِأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.....إلى أن قال: وَقِيلَ لِلْحَسَنِ : نَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ ، فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي. وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ قَوْمًا أَهَمَّتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: لِأَنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي ، وَكَذَبَ ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ. وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ]ا.هـ.

الرِّفْقُ يَكُونُ شِدَّةً ويَكُونُ لِينًا:

مسألة: هل الحكمة في الدعوة تعني اللين دائما؟.

الجواب: ليس شرطاً، فقد تكون شدة، وقد تكون ليناً،وهذا هو الرفق في الدعوة إلى الله تعالى، فإن معناه أن تفعل ما الأرفق، وهو الأصلح، ناظرا إلى حال المدعو ومن حوله وما حوله.

كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله r فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ". قَالَتْ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ:"قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعظم ما يبين حقيقة الحكمة - وهي الرفق بين الشدة واللين - هو تدبر حال الرسول r في تعامله حال دعوته إلى الله تعالى، وإنكاره للمنكرات، فنسلك سبيله فنقع على الحكمة من بابها، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

فقد استخدم النبي r اللِّين مع الأعرابي الذي بال في المسجد؛ لأن الحكمة تقتضي اللين هنا، رفقا بالأعرابي، من ناحية سلامة دينه، وسلامة بدنه، وسلامة المسجد من تشتت النجاسة فيه.

كما في الصحيحين عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله r إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله r مَهْ مَهْ. قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لاَ تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ". فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله r دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ:"إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ". أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله r . قَالَ فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ.

واستخدم r الشدة مع الرجل الذي رآى في يده خاتما من ذهب، فأخذه الرسول r بشدة فرمى به، كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله r رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ:"يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ". فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله r خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. قَالَ لاَ وَالله لاَ آخُذُهُ أَبَدًا، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالنبي r هنا التفت إلى حالة الأمة العامة، وإلى من حوله، فلو ترك الأمر إلى وقت آخر، لظن البعض أن التحريم قد نسخ، ولو تساهل معه في التعامل لظن البعض أن في الأمر سعة، فاستلزم المقام الشدة؛ فباشرها عليه الصلاة والسلام.

وكذلك في قصة أهل بَرِيرَةَ مع عائشة رضي الله عنها، كما الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ دَخَلَتْ عَلَيَّ بَرِيرَةُ فَقَالَتْ إِنَّ أَهْلِي كَاتَبُونِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي تِسْعِ سِنِينَ فِي كُلِّ سَنَةٍ أُوقِيَّةٌ. فَأَعِينِينِي. فَقُلْتُ لَهَا إِنْ شَاءَ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ عَدَّةً وَاحِدَةً وَأُعْتِقَكِ وَيَكُونَ الْوَلاَءُ لِي فَعَلْتُ. فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لأَهْلِهَا فَأَبَوْا إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الْوَلاَءُ لَهُمْ فَأَتَتْنِي فَذَكَرَتْ ذَلِكَ قَالَتْ فَانْتَهَرْتُهَا فَقَالَتْ لاَهَا الله إِذَا قَالَتْ. فَسَمِعَ رَسُولُ الله r فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ:"اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلاَءَ فَإِنَّ الْوَلاَءَ لِمَنْ أَعْتَقَ". فَفَعَلْتُ - قَالَتْ - ثُمَّ خَطَبَ رَسُولُ الله r عَشِيَّةً فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ كِتَابُ الله أَحَقُّ وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ مَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ أَعْتِقْ فُلاَنًا وَالْوَلاَءُ لِي إِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ".

وهكذا كانت دعوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين يستعملون الشدة واللين بحسب المقام والحال، فهذا موسى يقول الله تعالى في شأنه:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه:٤٣-٤٤]، فلما تعنت فرعون تغير الخطاب، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هَـؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَـائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّـكَ يَـا فِرْعَـوْنُ مَثْبُـورًا} [الإسراء:١٠١-١٠٢]، وقال:{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [القصص:٣٦-٣٧].

وكذلك لوط عليه الصلاة السلام، تلاحظ اختلاف الخطاب في السياقين هنا، قال تعالى:{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود:٧٨]، وقال:{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [العنكبوت:٢٨-٣٠].

وكذلك شعيب عليه السلام، قال تعالى{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:٨٧-٨٨] إلى أن قال لهم:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} [هود:٩٢-٩٣].

ونحو ذلك، ما كان من نوح عليه السلام، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون:٢٣-٢٦]، ومثل هذا كثير في قصص الأنبياء والمرسلين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

المسألة الرَّابِعَةُ:الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم:{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:بَابٌ:العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ:(قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ).

الشرح

قوله:(المسألة الرابعة الصبر على الأذى فيه): لما كان طريق الدعوة إلى الله عز وجل ليس مفروشاً بالرياحين، وليس أمراً يسيراً، بل لربما أن يكون محفوفا ببعض المخاطر والصعاب، فالابتلاء قد كتبه الله على الخلائق؛ أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يذكرنا بأن من سلك هذا الطريق لابد له من أن يستعد لتحمل الأذى في سبيل هذه الغاية العظيمة الجليلة، ولأصحابها العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، كما هو حال الأنبياء والرُسل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأن نعلم أن هذه السُّنَّةُ ماضية لا تحابي أحدا، وعلى المضطلعين بهذا الدور الريادي في الأمة، أن يتذكروا سنة الابتلاء، وأن يتفهموا ذلك تماما، سائلين الله تعالى الإعانة والسداد، والعافية والسلامة، كما قال تعالى:{الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:١-٦].

تعريف الصبر:

والصبر لغة: الحبس والمنع ، ومنه قوله تعالى:{ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} [مريم:٢٦]، أي نذرت أن أحبس نفسي عن الكلام وأمنعها.

وشرعاً: حبس النفس على طاعة الله، وعن معصية الله وعلى الرضا، بأقدار الله.

وجاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: (الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله).

وفي تفسير ابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ t ، قَالَ:"الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، واليقين الإِيمَانُ كُلُّهُ"، قَالَ: فذكرت هَذَا الحَدِيث للعلاء بن يَزِيد t ، فقال: أوليس هَذَا في القرآن"{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُوقِنِينَ}.ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت: ورواه وكيع في الزهد بسند صحيح أيضا، وجاء عند غيرهم، وقد روي مرفوعا ولا يصح رفعه.

أقسام الصَّبر: والصبر من حيث الجملة ينقسم إلى قسمين:

أ- الصبر المحمود. **ب- الصبر المذموم.**

أما الصبر المذموم: فهو الصبر على المعاصي والضلال، وأخطره وأخْبَثُهُ، الصبر على الشرك والكفر والنفاق، وهذا صبر أهل الجاهلية، وسيورثهم ما لا صبر لهم عليه، وما لا قبل لهم به، الحجاب عن رؤية الله تبارك وتعالى، ثم نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى، مع عظيم الحسرة والندامة، والخلود الأبدي، في النار، عياذا بالله من الخذلان.

كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [المطففين:٧-١٧].

كما أن العاصي يتجرع ألوانا من غصص المعاصي ولَأْوَائِها، فضيق الصدر، وقلة البركة، وقلة الرزق،وضنك العيش، مع الهم والغم،والأدواء والأسقام، وفساد الأحوال، وتسلط الأهل والعشيرة والجيران، وتسلط الأعداء، وغير ذلك كثير، كله بسبب المعصية لله تعالى؛ ومع ذلك يتصبرون على المعصية، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١].

وقد تنوعت السياقات في القرآن العظيم في هذا الصدد، تحذيرا للعباد، وتنفيرا لهم، وترغيبا في البعد عن المعاصي، والإقلاع عنها، وترغيبا في التوبة النصوح، وسلوك السراط المستقيم، وأنه لا سواء بين أصحاب المعاصي المُصِرِّين عليها، الصابرين عليها، وبين أهل الطاعة والتقى، الرَّجَّاعون إلى الله تعالى من قريب بالتوبة النصوح، فليس عندهم إصرار، ولا عزيمة مستقرة على العصيان، ولكنها عوارض الشيطان وسِهَامُه، التي سرعان ما يَتَخَفَّفُونَ منها بالتوبة النصوح، والرجوع السريع إلى جادة الصواب، وإلا فإن المتقي ليس معصوما، ولكنه يتميز عن غيره، بمجاهدة النفس ألا تقع في العصيان، فإن زَلَّت قدمه، بَادَرَ إلى ربه، فاستغفره وتاب إليه، وأتبع سيئاته بالحسنات، بخلاف الفساق أصحاب المعاصي، فإنهم يأخذون المَدَدَ من إخوانهم من شياطين الإنس أو الجن؛ ليزدادوا فجورا وتعنتا وعصيانا، كما قال تعالى مبينا حال الفريقين: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ}[الأعراف:٢٠١-٢٠٢].

وهكذا كان آدم عليه السلام لما وقع في المعصية، لم يكن ذا عزيمة وإصرار، وإنما هو غرور الشيطان وخداعه، الذي سرعان ما تنبه إليه؛ فثاب إلى ربه من قريب، فاصطفاه واجتباه، وتاب عليه وهداه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {(١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } [طه:١١٥-١٢٥].

هبوطان فانتبه:

وعليه فلْنعلم أنها هما هُبُوطَان، في قوله تعالى:{قَالَ اهْبِطُوا}{قَالَ اهْبِطَا}، فَهُبُوطٌ باستكبار وإصرار، كإبليس اللعين، وهُبُوطٌ بتوبة واعتراف واستغفار، كآدم وحواء عليهما السلام، فكان حظ آدم وحواء عليهما السلام، التواضع والنَّدَم على ما بَدَر، والحرص على نشر الخير، والأمر بالتوبة النصوح، وطاعة الله تعالى؛ فتداركهما الله تعالى برحمته؛ فاجتباهما وغفر لهما، وذلك بخلاف الشيطان، الذي أَصَرَّ على معصيته، واستكبر وكان من العالين، وهبط بِنِيَّةٍ مَاكِرَةٍ، وطَوِيَّةٍ غادرة حاسدة فاجرة كافرة، قد أفصح عن إرادة الإفساد في الأرض، وإضلال العباد، ولِكُلٍّ من آدم عليه السلام، وإبليس اللعين، ورَثَةٌ يَرِثُونَ طريقتهم، فترى أفواج التائبين الطائعين المخبتين، وترى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفواج المُصِرِّين المستكبرين المفسدين، نسأل الله تعالى لنا ولكم أن نكون من التوابين المتطهرين، إلى أن نلقى الله تبارك وتعالى بقلب سليم.

وعلينا أن نتذكر دائما، أن هذا الهبوط، دال على نزول الرُّتْبَة، أي رتبة العبد عند الله تعالى، فمنهم من يعود إلى ما كان عليه، أو أفضل، بالتوبة النصوح، وإتباع السيئة الحسنة، ومنهم من يتمادى في الغي الضلال؛ حتى يَصِيرَ إلى أُمِّه الهَاوِية، عياذا بالله من الخذلان.

قال تعالى: {وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم:٢١-٢٣].

وإليك جملة من الآيات في هذا الصدد: قال تعالى{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل:٤٥-٤٧]، وقال:{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر:٩]، وقال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١]، وقوله: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود:٧٨]، وقوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس:٢٦-٢٧]، وقوله:

وقال تعالى في صبر المشركين والكافرين، وهو كما تقدم أخبث وأقبح دَرَكَات الصبر المذموم: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان:٤١-٤٣]، وقوله: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [ص:٤-٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النوع الثاني: الصبر المحمود: وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام[١]:

١- الصبر على طاعة الله. ٢- صبر عن معاصي الله. ٣- صبر على أقدار الله.

أما الصبر على طاعة الله: فإن العبد لابد لهمن أن يستقيم على صراط الله، وأن يدخل في السلم كافة، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة:٢٠٨-٢٠٩]، وأن يأخذ بالتي هي أحسن ليهتدي إلى التي هي أقوم، كما قال تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥]

وهو عاجز عن أن يقوم بذلك مع الجزع؛ ولهذا شرع الله لعباده الصبر؛ ترويضا للنفس التي غالبا ما يستهويها الجزع؛ فتنكل عن العمل بطاعة الله عز وجل، والمتأمل في الصبر المحمود يجد أنه لن يستقيم لعبد دينه إلا به.

فمن لم يحبس النفس على طاعة الله ويصبرها؛ سرعان ما ينقلب والعياذ بالله، وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز حال العبد الذي لا يصبر، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

١- وقد قسمها بعض أهل العلم تقسيما غير هذا ولكن المعنى متقارب، كما فعل ابن القيم رحمه الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج:١١] .

وفي الصحيحين وهذه رواية مسلم عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله r :"حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات"، وفي لفظ للبخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله r قال:"حُجِبَت النار بالشهوات، وحُجِبَت الجنة بالمَكَارِه".

أعداء الإنسان الخمسة:

والمكاره هي جملة المأمورات والمنهيات الشرعية التي تكرهها النفوس الأمارة بالسوء ويبغضها الهوى والشيطان، ورفقاء السوء، فهؤلاء أربعة أعداء للمؤمنين يجتهدون في قطع الطريق عليهم إلى الله رب العالمين.

وخامس الأعداء الدنيا، إذا اغتر بها العبد، وركن إلى زخرفها، فأنسته ربه تبارك وتعالى، فعندها تكون شراً على العبد،حتى إذا ما أخذ الإنسان أمره بالجد؛ فجعل من الدنيا مطية للآخرة، وزمنا لتحصيل الأعمال الصالحة،مع الصدق والإخلاص لله تعالى؛ صارت نِعْمَ الدَّار يُتَوَصَّلُ بها إلى رضوان الله تعالى وجنته، وأما من أتبع نفسه هواه، وركن إليها كانت شراً له، ومن أخذ منها خيرا وشرا، وحقا وباطلا؛ فهذا خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهو بحسب طبيعة الشر الذي جمعه، وقوة الخير الذي جاء به.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن كان الشر دون نواقض الإسلام، فهو برجاء ما في هذه الآية، إن تحقق فيه وَصْفُها: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١٠٢]، ولكن الحذر الحذر، فقد دلت النصوص أن هناك من عصاة الموحدين من سيدخل حتما نار الجحيم، ثم مآله إلى الجنة.

قال الناظم:

إني بليت بخمسة يرمينني ... بالنَّبْلِ لا أرجو لهن فكاكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... وأخو الضلالة قصده إغْوَاكا
يا رب ساعدني بفضل ... إنني أصبحت لا أرجو لهن سواكا

وتأمل في قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:١٢٨]، وقوله: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦].

إذن لابد من الصبر على الطاعة، فجميع الأعمال الصالحة تحتاج للقيام بها إلى هذا النوع من الصبر، وإلا كان الجزع والعياذ بالله، فالصلاة مثلاً، ليست بالأمر اليسير، فإنها تحتاج إلى صبر عظيم عليها، وإلا فإن الشياطين بالمرصاد، و تأمل في حال المسلمين اليوم؛ لترى كثيرا ممن غاب عنهم الصبر على هذه الطاعة. والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعاقل حَجِيجُ نفسه، فمن علم أنه لا تقبل منه الأعمال الصالحة إلا بالصلاة والصبر عليها، وأشدها صلاة الفجر؛ وجب عليه الصبر عليها، وكذلك الخشوع في الصلاة أمره شديد يحتاج إلى صبر عظيم، فليس للإنسان من صلاته إلا ما عقل.

وكذلك طالب العلم يحتاج إلى صبر؛ ولذلك طلبة العلم الحقيقيون هم في كل زمان أقل القليل؛ وذلك لأن طلب العلم يحتاج إلى صبر ومصابرة ومرابطة، فعلى العبد أن يجعل هذا الصبر نصب عينيه دائما أثناء طلبه للعلم، وأن يُوَطِّنَ نفسه على ذلك، لاسيما وهو في بداية الطلب؛ فإن الصبر في البداية يورث المصابرة والمرابطة بإذن الله تعالى، فما يلبث أن يصبره الله تعالى، كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري t عن النبي r أنه قال:"ومَن يَتَصَبَّر يُصَبِّره الله ومن يستغن يُغْنَهِ الله ولن تُعْطَوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر". وفي لفظ لمسلم:" ومن يَصْبِر يُصَبِّره الله".

والله تعالى يقول: {وَاتَّقُوا اللهَّ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُّ وَاللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[البقرة:٢٨٢]، ويقول سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَّ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال:٢٩].

فالعلم أمره عظيم؛ ولهذا يحتاج إلى صبر عظيم، فإذا وجد طالب العلم حلاوة العلم، اجتهد في الصبر على هذا العلم، وقد نقل عن بعض السلف:[لا أعلم أمراً يأتي بعد مرتبة النبوة كتعلم العلم وتعليمه][1].

---

١ - هو قول منسوب إلى عبد الله بن المبارك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن عبد البر في الاستذكار:[ومما يشبه هذا ما جَاوَبَ به مَالِكُ بنُ أنس، العُمَرِيَّ العابد وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل، وترك مجالسة الناس في العلم وغيره، فكتب إليه مالك: إن الله تعالى قسم بين عباده الأعمال، كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رَجِلٍ فَتَحَ له في الصلاة، ولم يَفْتَح له في الصوم، وآخر فَتَحَ الله له في الجهاد، ولم يَفْتَحْ له في الصلاة، وآخر فَتَحَ له في الصدقة، ولم يَفْتَح له في الصيام. وقد عَلِمْت أنَّ نَشْرَ العلم وتعليمه من أفضل الأعمال، وقد رَضِيتُ بما فتح الله لي فيه، وقسم لي منه، وما أظن ما أنا فيه بِدُونِ ما أنت فيه من العبادة، وكلانا على خير إن شاء الله].ا.هـ.

وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة:[قوله:{أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز و جل، قال كعب الأحبار: طالب العلم كالغادي الرايح في سبيل الله عز و جل، وجاء عن بعض الصحابة **y**: إذا جاء الموتُ طَالبَ العلم وهو على هذه الحال؛ مات وهو شهيد. وقال سفيان بن عيينة:من طلب العلم؛ فقد بايع الله عز و جل، وقال أبو الدرداء **t** :من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد؛ فقد نقص في عقله ورأيه]ا.هـ.

قال ابن القيم في نونيته:

والعلم يدخل قلب كل موفق ... من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم من حرمانه ... لا تشقنا اللهم بالحرمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك الزكاة والصدقات؛ تحتاج إلى صبر عظيم؛ فإن المال مُزَيَّنٌ محبوب للنفوس، وكثيرا ما تشح به، وتفشل في الامتحانات المالية، كما قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران:١٤]، وقال: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد:٢٠]، وقال: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن:١٥]، وقال: {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ١٨-٢٠].

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ".

ولهذا هددنا الله تبارك وتعالى بقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة:٧٥-٧٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي سعيد t قال النبي r :"وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ هُوَ، لِمَنْ أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ"، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ r "وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وكذلك الصبر على الحج والعمرة، والصبر على الصيام، فهو شهر التقوى والصبر، وكذلك بر الوالدين يحتاج إلى صبر، وخاصة في هذا الزمان، ولذلك جعل الله من شكره شكر الوالدين، كما قال تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء:٢٣-٢٥]

فقرن سبحانه عبادته، التي هي حقه على عباده، مع طاعة الوالدين، فلابد من توطين النفس على الصبر على ذلك، واحتساب الأجر من الله عز وجل، وكذلك الأمر في جميع الطاعات والقُرُبَات المفروضة والنافلة، وتأمل هذا الحديث القدسي، الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال:قال رسول الله r :"إن الله قال:من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّه وما تَرَدَّدت عن شيء أنا فَاعِلُه تَرَددِي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَسَاءَتَه".

وفي الجملة فإن أي عبادة تحتاج إلى صبر، وسِرُّ المسألة أن كل طاعة، هي مخالفة لطريق الشيطان ومراداته؛ وعليه فلابد من أنه سيجتهد كل الاجتهاد، أن يقف حَجَر عَثْرَةٍ في سبيل عدم تحقيقها والقيام بها، كما قال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:١٦-١٧]، ونحن مأمورون بإحراقه بضياء الصبر.

كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا".

ب- **الصبر على ترك معصية الله تبارك وتعالى**: وهي قرينة للأولى، فإن الشيطان لا يَهُمُّهُ ولا يُكْرِثُه، أن يَهْلِكَ ابن آدم في أي باب ما، سواء في الغلو في الدين، أو التقصير فيه، وعدم الصبر عن المعاصي نوع من التقصير والجفاء، واليوم كثير مما حول الإنسان من قريب أو بعيد، يدعوه إلى المعصية ويزينها له، إلا من رحم الله وقليل ما هم، ومِنْ هنا تظهر أهمية اختيار الصاحب والرفيق في الطريق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف:٣٦-٣٩]، وقال: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان:٢٧-٢٩].

وكما قيل :الصَّاحِب سَاحِب.

وقال الناظم: ومن يكن الغراب له دليلا ... يمر به على جيف الكلاب

وقال آخر:

إذا صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأَرْدَى فَتَرْدَى مع الرَّدِي

فأقول: جميع المعاصي تحتاج إلى صبر عنها، وأنت إذا تأملت في العالم اليوم رأيت أن أكثر الناس حبسهم الشيطان وأعوانه في غمرة المعاصي وذلها وعارها، فالأكثر مع الغناء والأفلام والمسلسلات ولعب الكرة وغير ذلك من المحرمات، ناهيك عن الزنا واللواط وشرب الخمور وأكل الربا والعقوق، والغيبة والنميمة وعموم الفواحش، وفوق ذلك كله وقوع كثير من العباد في الشرك والكفر والنفاق - عياذا بالله من الحور بعد الكَوْر، ومن الرِّدَّةِ بعد الإسلام -، مع غفلة شديدة عن دين الله تباك وتعالى، وهذا من جملة ما يعاقب به العبد عند إقباله على الشهوات المحرمة، وإعراضه عن طاعة الله جل وعلا، كما قال تعالى مهددا عباده: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٤٦].

ومن جميل ما نقل عن علي t ، وقيل عن ابن المبارك رحمه الله:

ومن البلاءِ وللبلاءِ عَلامةٌ ... أن لا يرى لك عن هواكَ نُزوغُ

العبدُ عبدُ النفسِ في شهواتِها ... والحُرُّ يشبعُ تارةً ويَجُوعُ

وكفاكَ من غير الحوادثِ أنه ... يبلى الجديدُ ويحصدُ المزروعُ

وإليك هذا الكلام النفيس في آثار الذنوب والمعاصي على العباد في الدنيا والآخرة، نقلته بعد اختصار غير مخل، تكميلا للفائدة في هذا المقام:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم:(الجواب الكافي):[فصل:وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تُطْفِىء ذلك النور ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لايؤتاه عاصي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنها:حرمان الرزق، ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولاسيما أهل الخير منهم. فإنه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن. **ومنها:** تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر الا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا. ويا لله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لايعلم من أين أتى. **ومنها:** ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لايشعر كاعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد قال عبد الله بن عباس ان للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق. **ومنها:** أن المعاصي توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فامر ظاهر بل لايزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه وأما الفاجر فانه وإن كان قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانهم عند أحوج ما كانوا اليها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم. **ومنها:**حرمان الطاعة. **ومنها:**أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فان البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص. **ومنها:**أن المعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها أعملني أيضا فاذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضا حتي تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الارض بما رحبت وأحسن من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتي يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتي يعاودها حتي أن كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية اليها إلا لما يجد من الالم بمفارقتها كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانيء حيث يقول:

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر:وكانت دوائى وهي دائي بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولايزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه اليها ولايزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتي يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزا فالأول قوي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه. **ومنها** وهو من أخوفها على العبد أنها لضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب الى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متي أمكنه وهذا من أعظم الامراض وأقربها إلى الهلاك. **ومنها:**أنه ينسلخ من القلب إستقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة حتي يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها. فيقول ياقلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لايعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب. **ومنها:** أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الامم التي أهلكها الله عز وجل. **ومنها:** أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. **ومنها:**أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم. **ومنها:** أن المعصية تورث الذل ولا بد فان العز كل العزفى طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا أي فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها الا في طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزاني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك قال الحسن البصري انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لا تفارق قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين الا الملوك ... وأحبار سـوء ورهبانها

ومنها:أن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفيء نور العقل ولابد. **ومنها:** أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين. **ومنها:** أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول فانه لعن على معاصى والتي غيرها اكبر منها فهي اولى بدخول فاعلها تحت اللعنة. **ومنها:** حرمان دعوة رسول الله ودعوة الملائكة. **ومن** عقوبات المعاصي: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب t :قال:كان رسولُ الله r مِمَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ لأصحابه:"هل رأَى أحدٌ منكم من رؤيا" فَيَقُصُّ عليه ما شاء الله أن يقصَّ، وإنه قال لنا ذَاتَ غَدَاةٍ:"إنه أتاني اللَّيْلَةَ آتيان، وإنَّهُما ابْتَعَثَانِي، وإنَّهُمَا قالا لي:انطَلِقْ، وإنِّي انطلقتُ معهما، وإنَّا أتَيْنا على رَجُلٍ مُضْطَّجِعٍ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصَخْرةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرةِ لرأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ فَيَتَدَهْدَهُ الحَجرُ ها هنا، فَيَتْبَعُ الحجرَ فيأخُذُهُ، فلا يرجِعُ إليه حتَّى يصِحَّ رأْسُهُ كما كان، ثم يعود عليه، فيفعلُ به مثلَ ما فعلَ المرةَ الأولى، قال:قلتُ لهما:سبحانَ الله! ما هذا، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فأتينا على رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بِكَلُّوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفاهُ، ومِنْخَرَهُ إلى قفاهُ، وَعَيّنَهُ إلى قفاهُ قال:ورُبَّما قال أبُو رجاءٍ: فَيَشُقُّ- قال:ثم يتحَوَّلُ إلى الجانب الآخر، فَيَفْعَلُ به مثل ما فَعَل بالجانب الأول، قال:فما يفْرَغُ من ذلك الجانب حتى يصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعود عليه، فيفعَلُ مثلَ ما فَعَلَ المرّةَ الأولى، قال:قلتُ:سبحان الله!! ما هذا، قال:قالا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلَقنا، فَأَتيْنا على مثل التَّنُّورِ، قال:فَأحْسِبُ أنه كان يقول:فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ، قال:فاطّلَعْنا فيه، فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هُمْ يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أَتاهم ذلك اللَّهبُ ضَوْضَوْا، قال:قلتُ لهما:ما هؤلاء، قال:قالا لي انْطَلِقْ انْطَلِقْ، قال:فانطَلَقنا، فَأتينَا على نَهْرٍ حَسِبْتُ أنَّهُ كان يقول: أحْمَرَ مِثْل الدَّم وإذَا في النَّهْرِ رجُلٌ سابِحٌ يسْبَحُ، وإذا على شط النهر رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عنْدهُ حِجَارَة كَثيرة، وإذا ذلك السابح يسْبَحُ ما سَبَحَ، ثم يأتي ذلك الذي قَد جَمَعَ عنْده الحجارة، فَيَفْغَرُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرا، فيَنْطَلِقُ فيَسْبَحُ، ثم يرجعُ إليه، كُلَّما رَجع إليه فَغَر فَاهُ، فأَلْقَمَهُ حجرا، قال:قلتُ لهما:ما هذا، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلَقْنَا، فَأَتيْنا على رَجُل كَرِيه المَرْآة، أَو كَأكْرَهِ مَا أنت رَاءٍ رجُلا مَرْأى،وإذا عندَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا ويَسْعَى حَوْلَهَا، قال:قلتُ لهما:ما هذا، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلقنا، فَأَتيْنا على رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ مُعْشِبَةٍ، فيها من كل نَوْر الرَّبيع، وإذَا بيْنَ ظَهْرَيْ الرَّوَضةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لا أكادُ أرى رَأْسَهُ طُولا في السَّمَاءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ من أكثر ولْدَانٍ رأيتُهم قَطُّ قال:قلتُ لهما:ما هذا، ما هؤلاء، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلقنا، فَأَتيْنا على دوْحةٍ عَظيَمة، لم أرَ دَوْحَة قطّ أعظَم منها ولا أحْسَن، قال:قالا لي:ارْق فيها، قال:فَارتَقَيْنَا فيها إلى مَدينةٍ مبنيَّة بلبِنٍ ذَهَبٍ ولَبِنٍ فِضَّةٍ، قال:فَأتينا بابَ المدينةِ، فَاستفتحنا، ففُتِحَ لنا، فدخلناهَا، فتَلَقَّانَا رِجالٌ شَطْرٌ من خَلقِهم كأحْسَنِ ما أنتَ رَاءٍ، وشَطْر منهم كأقْبَح ما أنتَ رَاءٍ، قال:قالا لهم: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذلك النهر، قال:وإذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يجري كأنَّ مَاءهُ المْحض في البياض، فَذَهَبَوا، فَوَقَعُوا فيه، ثم رَجعوا إلينا قد ذَهب ذلك السوءُ عنهم، فصارُوا في أحْسَنِ صُورَةٍ، قال:قالا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لي:هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهَذَاك منزلكَ ، قال : فَسَما بَصري صُعُدا ، فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابةِ البيضاء ، قال: قالا لي : هَذاك منزلُك، قال:قلتُ لهما: بارك اللهُ فيكما، فَذَرَانِي فأدْخُلَهُ، قال:أما الآنَ فلا، وأنت دَاخِلُهُ، قال:قلت لهما:فإني رأَيتُ منذُ الليلة عجبا، فما هذا الذي رأيتُ، قال:قالا لي: أمَا إنَّا سَنُخْبِرُك، أمَّا الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يُثْلَغُ رأْسُه بالحجَرِ، فإنَّهُ الرجلُ يأخذ القرآن، فيرفُضُه، وينام عن الصلاة المكتوبة، وأنّ الرجل الذي أتيتَ عليه يُشَرْشَرُ شِدْقُه إلى قفاه، ومِنْخَرُه إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يَغْدُو من بيته، فيكذِبُ الكَذْبة تبلغُ الآفاق، وأما الرِّجال والنساءُ العراةُ الذين هم في مثل بناء التَّنُّور، فإنهم الزُّنَاةُ والزَّواني، وأما الرَّجُلُ الذي أتيتَ عليه يَسبْحُ في النهر، ويُلْقَمُ الحجارةَ، فإنه آكلُ الرِّبا، وأما الرجلُ الكريه المْرآة الذي عند النار يَحُشُّها ويسعى حولها، فإنه مالِكٌ خازنُ جهنم، وأَما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم، وأما الْوِلْدَانُ الذين حَوْلَه، فكل مولود مات على الفِطْرة"، قال: فقال بعضُ المسلمين:يا رسول الله:وأولاد المشركين؟، فقال رسول الله r :"وأولادُ المشركين، وأَما القوم الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ، وشطر منهم قبيحٌ، فإنهم قومٌ خَلَطُوا عملا صالحا وآخر سيئا، تجاوَزَ اللهُ عنهم". **ومن** آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون. **ومن** عقوباتها:أنها تطفي من القلب نار الغيرة التي هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المذمومة كمال يخرج الكير خبث الذهب والفضة. **ومن** عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير. **ومن** عقوباتها: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعيف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبى ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرء على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعي فى عفوه لا ضعف عظمته في قلبي وهذا من مغالطة النفس فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرمانه يحول بينه وبين الذنوب والمتجرؤن على معاصيه ما قدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز و جل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته. **ومن** عقوباتها:أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجي معه نجاة. **ومن** عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين. **ومن** عقوبتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا إلى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التي تسيره فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان. **ومن** عقوبات الذنوب:أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب.....وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فَارْعَها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وَحُطْها بطاعة رب العباد ... فَرَبُّ العباد سريع النِّقَم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوَخَم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر ... من الظلم وهو الذي قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن ... قصور وأخرى عليهم أَطَم
صُلُوا بالجحيم وفات النعم ... وكان الذي نالهم كالحلم

ومن عقوباتها:ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه الا خائفا مرعوبا فإن الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانا ومن عصاه انقلبت مأمنه مخاوف.....وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوى الأُنس والمعصية توجب البعد من الرب وكلما زاد البعد قويت الوحشة. **ومن** عقوباتها:أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضا معلولا لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينتفع بالاغذية التي بها حياته وصلاحه وتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الامراض في الابدان بل الذنوب أمراض القلوب ودائها ولادواء لها الا تركها. **ومن** عقوباتها:أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية. **ومن** عقوباتها:أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما ان الطاعة تنمها وتزكيها وتكبرها قال تعالى:{قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}. **ومن** عقوباتها:أن العاصي دائما في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير أسره أعدى عدوله ولا سجن أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد. **ومن** عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فاذا عصاه وخالف امره سقط من عينه فاسقطه من قلوب عباده. **ومن** عقوباتها:أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمنقي والمطيع والمنيب والولى والورع والمصلح والعابد والخائف والاواب والطيب والرضى ونحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصى والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان وتلك أسماء توجب رضاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرحمان ودخول الجنان. **ومن** عقوباتها:أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص الا وعقل المطيع منهما أو فر وأكمل وفكره أصح ورأيه أمد والصواب قرينه. **ومن** أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر. **ومن** عقوباتها:أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا. **ومن** عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد ان كان مهيئا لأن يكون من العلية فان الله خلق خلقه قسمين علية وسفلة وجعل عليين مستقر العلية وأسفل سافلين مستقر السفلة وجعل أهل طاعته الاعليين في الدنيا والاخرة وأهل معصيته الاسفلين في الدنيا والآخرة. **ومن** عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فأن كل أحد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم.....فاذا وقع مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه فدهمه العدو وظفر به كذلك القلب يصدىء بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئا.....وأدهي وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال شاه رخ غلبتك ثم قضى وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال:يارب قائلة يوما وقد تعبت ... أين الطريق الى حمام منجاب.... ثم قضى وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالغناء ويقول تاتا ننتتا فقال وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية الا ركبتها ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال وما يغني عني وما أعلم اني صليت لله تعالى صلاة ثم قَضَى، ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك، فقال هو كافر بما تقول وقضى، وقيل لآخر ذلك، فقال كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها، وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فلس لله فلس حتى قضى، وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم، وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه من ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوطه قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألَمِ النَّزْعِ، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه؛ لينال منه فرضته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوي ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة، فمن ترى يسلم على ذلك، فهناك:{يثبت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء}.فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا.**ومن** عقوباتها:أنها مَدَدٌ من الإنسان يُمِدُّ به عَدُوَّهُ عليه وجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بِه على حَرْبِه.....ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها وأمد عدوهم أيضا بجند وعساكر يلقاهم به وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها]ا.هـ.

احذر من خبايا النفس ودسائسها:

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم:[وإنَّ خاتمة السُّوءِ تكونُ بسبب دسيسةٍ باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سُوءَ الخاتمة عند الموت ، وكذلك قد يعمل الرجلُ عملَ أهل النَّارِ وفي باطنه خصلةٌ خفيةٌ من خصال الخير ، فتغلب عليه تلكَ الخصلةُ في آخر عمره ، فتوجب له حسنَ الخاتمة. قال عبد العزيز بن أبي روَّاد : حضرت رجلاً عند الموت يُلَقَّنُ لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافرٌ بما تقول، ومات على ذلك، قال: فسألتُ عنه، فإذا هو مدمنُ خمرٍ. فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب، فإنَّها هي التي أوقعته]ا.هـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:{واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير}، أي متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد وعداوتها أضر من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عداوة العدو الخارج فالنصر على هذا العدو أهم والعبد إليه أحوج وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى بعد هذا في حقيقة الاعتصام وأن الإيمان لا يقوم إلا به، ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده واشتدت عليه مفارقته وعلم أن الهلك كل الهلك بعده وهو حقيقة الخذلان فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك وخلى بينك وبين نفسك ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلى بينك وبينها والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وله سبحانه في هذه التخلية بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته حكم وأسرار سنذكر بعضها.

وعلى الاحتمالين فترجع التوبة إلى اعتصامك به وعصمته لك، قوله: (وفرحك عند الظفر به) الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ففرحه بها غطى عليه ذلك كله وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتى خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه ولا يحس القلب بذلك فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ج- **الصبر على أقدار الله**: إن الابتلاء كتبه الله على جميع العباد، فكل شيء ابتلاه الله تعالى، فهي سنة لله تعالى جارية، فالسموات والأرض، ابتلاها الله، بالطاعة، كما قال سبحانه: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[فصلت:١١].

وكذلك ابتلى إبليس بآدم، وابتلى آدم عليه السلام بالشجرة، وابتلى الجن والإنس بقوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

وهناك الابتلاء بالأعداء، والبلايا، والفتن، والأمراض، وفقد الأحبة، ولكل ابتلاء موقف شرعي، بينه الله تبارك وتعالى، فمن صبر، وتعامل مع ما يبتلى به بشرع الله جل وعلا؛ كان له من الله الرضوان، وأخلف الله عليه خيرا، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقال سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد:٣١]، وقال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيب} [البقرة:٢١٤]، وقال: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب:٢٢].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سئل الإمام الشافعي، وكذلك الإمام أحمد:[الرجل يُمكّن أو يبتلى؟، فقال رحمه الله:لا يُمكّن حتى يبتلى].

الله أرحم بنا من أنفسنا وأمهاتنا:

ومن رحمة الله أن هذا الابتلاء، هو بحسب إيمان الشخص، فالأمر كما قال تعالى:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:٢٨٦]، وكما في الحديث الذي أخرجه أحمد والدارمي وابن ماجة والنسائي في الكبرى وعبد بن حميد وأبو يعلى والترمذي وقال حسن صحيح من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد **t** قال:قلت:يا رسول الله، أيُّ الناس أَشَدُّ بلاء؟، قال:"الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسْبِ دِينه، فإن كان دِينُهُ صُلْباً اشتَدَّ بلاؤه، وإن كان في دِينه رِقَّة على حَسبِ دِينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَهُ يَمْشِي على الأرض وما عليه خطيئة".

وعلى العبد ألا يسأل الله البلاء، وألا يعرض نفسه من البلاء ما لا يطيق، فإذا ابتلي استعان بالله، واتقى وصبر؛ فتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى:{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٩٠].

وليسأل العبد ربه العافية دائما، فإنه خير له من سؤال الله البلاء، فإن العبد لا يدري أيصبر أم يجزع، واعتبر، بقول النبي **r** المُخَرَّج في الصحيحين من طريق أَبِي النَّضْرِ عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ **r** يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ **r** كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِيهَا الْعَدُوَّ يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَّ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ".ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ r وَقَالَ:"اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ".

كلام نفيس لسفيان بن عُيَيْنَة رحمه الله:

وجاء في تهذيب الكمال للحافظ المزي:[وقال مشرف بن أبان الواسطي عن عمر بن السكن: كنت عند سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل من أهل بغداد، فقال:يا أبا محمد أخبرني عن قول مطرف: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء: اللهم رضيت لنفسي ما رضيت لي.

قال:فسكت عنه سكتة، ثم قال:قول مطرف أحب إلي، فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟!.

فقال سفيان: إني قرأت القران؛ فوجدت صفة سليمان عليه السلام مع العافية التي كان فيها:{نعم العبد إنه أواب}، ووجدت صفة أيوب عليه السلام مع البلاء الذي كان فيه :{نعم العبد إنه أواب}، فاستوت الصفتان، وهذا معافى، وهذا مبتلى.

فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا؛ كانت العافية مع الشكر، أحب إلي من البلاء مع الصبر]ا.هـ. فلله دره ما أعظم تفكره، وما أجمل استنباطه، وما أحسن تأمله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تَكُن أَخْرَقَا:

ولنعلم أن الابتلاء علامة على إرادة الخير للعبد المؤمن؛ فلا يجزع، بل عليه أن يحتسب ويصبر، ففي الحديث،الذي في صحيح البخاري من طريق سعيد بن يسار أبا الحباب يقول سمعت أبا هريرة يقول:قال رسول الله r :"من يُرِد الله به خيرا يُصِبْ منه".

فالأمراض وآثارها وتبعاتها، والضيق، والهم والغم، والحزن كلها ابتلاءات تحتاج إلى صبر، ومما يعين على ذلك أن يعلم العبد أن هذا الابتلاء هو من عند الله، وأن فيه تكفيرا للسيئات ورفعا للدرجات، ولنعلم أن سنة الابتلاء ماضية، سواء مع وجود الصبر أو مع عدمه، فَمِنَ الخرق والسفه إذا، أن نضيع الأجر بعدم الصبر، فإذا انضاف إلى ذلك أن عدم الصبر لا يُذْهِبُ البلاء، بل يُثْقِلُ العبد بالسيئات؛ علمنا يقينا أنه لا أحسن من الصبر، وما أعظمه إن كان من الصبر الجميل، وهو الذي يقارنه الرضى، وإن كانت هذه درجة عالية، ومقاما عظيما، هي محط أنظار المقربين، والسادات المؤمنين، واعتبر بصبر الأنبياء والمرسلين، وقول نبي الله يعقوب عليه السلام، في بلائه العظيم،{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، في موضعين من سورة يوسف، وتأمل في صبر إسماعيل الذبيح عليه الصلاة والسلام، مع أبيه الخليل عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في قصة الذبح، وتأمل هذا المشهد في كتاب الله تبارك وتعالى:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ٩٩-١١١].

والابتلاء يكون في الأهل والأولاد، بتربيتهم والقيام عليهم بحق الله تعالى، ويكون كذلك بالجوع والخوف... إلخ ، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٥-١٥٧]، أي إنها سنة إلهية على الخلق كلهم، فالرسول r قد ابتلي بالمرض والفتن والأعداء وغيرها من الابتلاءات، وهو أشرف وأطهر وخير خلق الله كلهم، فمن ذا الذي ينجو إذن؟!!، فمن صبر فله الأجر، ومن تسخط فله الإثم، وفي قوله تعالى {ولنبلونكم بشيء} أي ليس بالكثير، بل هو يسير من البلاء، وأنت لو تأملت مدة البلاء مع زمن العافية والعطاء والرخاء، لعلمت أن ذلك نزر يسير، والله أصدق قيلا جل الله في علاه.

وفرق بين الفرح بالمرض وتمنيه، فالتمني لا يجوز، فإذا أصابك المرض، صبرت لله، ولك أن تفرح به، وهذا هو المنقول عن بعض السلف، لماذا؟ لأنه يكفر الله به السيئات ويرفع به الدرجات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهناك جملة كبيرة من الأخبار في هذا الباب أذكر بعضها:

ففي صحيح مسلم عن جَابِر بْن عَبْدِ الله أَنَّ رَسُولَ الله r دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ:"مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ". قَالَتِ الْحُمَّى لاَ بَارَكَ اللهُ فِيهَا. فَقَالَ:"لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُـذْهِبُ خَطَايَـا بَنِـي آدَمَ كَـمَا يُـذْهِبُ الْكِـيرُ خَبَـثَ الْحَدِيدِ".

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان t قال قال رسول الله r :"عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن:إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" رواه مسلم.

وعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله r وحِبُّهُ وابنُ حِبِّـهِ رضي الله عنهما قال:أرسلت بنت النبي r إن ابني قد احتضر فاشـهدنا. فأرسـل يقـرئ السـلام ويقـول:"إن لله مـا أخـذ ولـه مـا أعطـى وكـل شيء عنـده بأجـل مسـمى فلتصـبر ولتحتسب"، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي ابن كعب وزيد بن ثابت ورجـال y فرفـع إلى رسـول الله r الصـبي فأقعـده في حجره ونفسه تقعقع ففاضت عيناه. فقال سعد:يا رسول الله ما هذا؟، فقال:"هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده". وفي رواية:"في قلوب من شاء من عباده وإنما يـرحم الله من عباده الرحماء" متفق عليه.

وعن أنس t قال:مر النبي r على امرأة تبكي عند قبر فقال:"اتقـي الله واصـبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي. ولم تعرفه فقيل لها إنه النبي r . فأتت باب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النبي r فلم تجد عنده بوابين فقالت:لم أعرفك فقال:"إنما الصبر عند الصدمة الأولى"متفق عليه. وفي رواية لمسلم:"تبكي على صبي لها".

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:"يقول الله تعالى:ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة"رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله r عن الطاعون؟ فأخبرها:"أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد" رواه البخاري.

وعن أنس t قال سمعت رسول الله r يقول:"إن الله عز و جل قال:{إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة}" يريد عينيه. رواه البخاري.

وعن عطاء بن أبي رباح قال قال لي ابن عباس t :ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت:بلى. قال:هذه المرأة السوداء أتت النبي r فقالت:إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي. قال:"إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك"، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف؛ فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها. متفق عليه.

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود t قال:كأني أنظر إلى رسول الله r يحكي نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول:"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"متفق عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي r قال:"ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"متفق عليه.

وعن ابن مسعود t قال دَخَلْتُ على النبي r وهو يوعك فقلت:يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا. قال:"أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم"، قلت:ذلك أن لك أجرين. قال:"أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها". متفق عليه.

وعن أنس t قال قال رسول الله r :"لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي" متفق عليه.

وعن أنس t قال:كان ابن لأبي طلحة t يشتكي فخرج أبو طلحة فَقُبِضَ الصبي. فلما رجع أبو طلحة قال:ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان. فقربت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها. فلما فرغ قالت:واروا الصبي. فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله r فأخبره فقال:"أعرستم الليلة؟"، قال:نعم. قال:"اللهم بارك لهما"، فولدت غلاما فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي r وبعث معه بتمرات. فقال:"أمَعَهُ شيء"، قال: نعم تمرات. فأخذها النبي r فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في فِيِّ الصبي ثم حنكه وسماه عبد الله.متفق عليه. وفي رواية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للبخاري قال ابن عيينة:فقال رجل من الأنصار فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن(يعني من أولاد عبد الله المولود).

وفي رواية لمسلم:مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت:يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال:لا. فقالت:فاحتسب ابنك. قال فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله r فأخبره بما كان. فقال رسول الله r :"بارك الله في ليلتكما" قال فحملت. قال وكان رسول الله في سفر وهي معه وكان رسول الله r إذا أتى المدينة من سفر، لا يطرقها طروقا، فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة وانطلق رسول الله r . قال يقول أبو طلحة:إنك لتعلم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله r إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى. تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد انطلق. فاطلقنا وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاما. فقالت لي أمي: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله r فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله r .....الحديث.

والصبر قرين الصلاة للاضطلاع بالأمور وتَيَسُّرِ قضائها، كما قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]، وقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحانه: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٢].

وقد تكاثرت النصوص في الحث عليه، والتأكيد على ضرورة العباد إليه، وبيان شرفه وعظيم منزلته عند الله تعالى، فمنها قوله تعالى: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]، وقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٥]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص:٨٠]، وقوله: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠]، وقوله: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٢-٢٤]، وقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِالله وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٦-١٢٨]، وقوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف:١٣٧]، وقوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود:١٠-١١]، وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤]، وقوله: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا } [الإنسان:١٢]، إلى غير ذلك من المواضع المتكاثرة في الكتاب العزيز.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: في رسالة في التوبة:[ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة وأنه ضد الرضا فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين وليس ذاك عرف الكتاب والسنة فإن الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه في أكثر من تسعين موضعا من كتابه، والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن لا بترك الأحسن وبهذا يعرف قول من قال:(حسنات الأبرار سيئات المقربين) مع أن هذا اللفظ ليس محفوظا عمن قوله حجة لا عن النبي r ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها وإنما هو كلام وله معنى صحيح وقد يحمل على معنى فاسد، أما معناه الصحيح فوجهان: أحدهما أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين فكل من أحب شيئا وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاقتصار عليها، وفرق بين التوبة من فعل الحسن، وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن، الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنا منه، إما واجبا وإما مستحبا؛ لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة، مثال ذلك أن العامي يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم؛ بحسب قوة إدراكه، وإن كان في ذلك تقليد لهم، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه، وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامي؛ لكانوا مسيئين بذلك]ا.هـ.

أَحْسِن الظَّنَّ بالله تعالى:

ولنعلم أن البلاء وإن اشتد فإنه إلى زوال وانفراج، فما علينا إلا أن نحسن الظن بالله تعالى، مع التَّحَقُّقِ بالصبر والتقوى واليقين، ولنعلم أن الله تعالى عند ظن عبده به، كما الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً".

فانظر أي شيء هو ظنك بالله تعالى، فإنما ظن السوء أحق به العبد، ولله تعالى المثل الأعلى، جل الله في علاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الفتح:٦-٨].

وقال تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت:٢٣]، وقال: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل:٦٠].

واعلم أن نصر الله آت لا محالة، وأن فرج الله أبدا قريب، كما تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح:٥-٦]، قال بعض السلف: فلن يغلب عسر يسرين، هذا وعد الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

كما في الموطأ للإمام مالك عن زيد بن أسلم قال كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم فكتب إليه عمر بن الخطاب:[أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة؛ يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}]ا.هـ.

وفي صحيح البخاري:[قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ أَيْ مَعَ ذَلِكَ الْعُسْرِ يُسْرًا آخَرَ كَقَوْلِهِ {هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ]ا.هـ. قلت: وقد روي هذا المعنى مرفوعا ولا يصح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس لِهَوَانِكَ على الله على كُل حَال:

ولنعلم أن نزول البلاء بالعبد المؤمن، لا يعني تخلي الله تعالى عن عبده، ولا هوانه على ربه، فهذا ظن فاسد لابد أن نطرحه، بل دلت النصوص على خلاف ذلك تماما، واستمع إلى قول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف:١٠٩-١١١].

وتأمل هذه الحكم الربانية التي قصها علينا في كتابه الحكيم، حيث ضَيّقَ فرعون على موسى وهارون وقومهما، حتى اضْطُرَّ موسى أن يصلي في بيته هو ومن معه، ثم ماذا كان؟!، أغرق الله فرعون ومن معه، ونَجَّى موسى ومن معه، قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف:١٣٧].

وسُجِن يوسف عليه السلام، بعد ما أصابه من الكرب والبلاء الذي كاده إخوته به، فما مرت الأيام ولا الليالي حتى مكن الله له في الأرض، كما قال تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف:٩٩-١٠٠].

وحُوصِر النبي r ومن معه في شعب أبي طالب، وطرده أهل الطائف، وكذب وأوذي حتى علاه الهم r كما في الصحيحين من طريق عُرْوَة أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ r حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ r : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ:"لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ r بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

ثم طُرِدَ من بلده مكة، من أهله وعشيرته، الذين أرادوا قتله، وتنكر له القريب والبعيد، وكان قد رمي بالحجارة حتى أدموا عَقِبَيهِ، فما لبث أن عاد فاتحا منصورا، يطعن آلهة المشركين، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ t قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ r مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ:"{جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله أكبر دَالَت دولة الشرك، وجاءت دولة التوحيد، قال تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} [الحج:١٥].

قال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠].

هو الحق مهما طغى باطل ... له النصر يوم النِّزال الأخير
ولله سهم سيمضي غدا ... ولو كره المُسْتَبِدُّ الكَفُور
هو الحق يَحْشُدُ أجْنَادهُ ... ويَعْتَدُّ للموقف الفاصل
فَصُفُّوا الجَحَافِل آسَادَهُ ... ودُكُّوا به دولة الباطل

وما أجمل ما قيل:

قيل للحق: أين كنت عندما علا الباطل وانْتَفَش؟!، قال: **كنت تحته اجْتَثُّ جُذُورَه.**

قد يحصد الطغيان بعض ثماره ... لكن عقبى الظالمين دمار
تبقى صروح الحق شامخة وإن ... أرغى وأزبد عندها الإعصار

وهكذا يأتي الفرج من بين طيات الضيق، وإنما هي أسباب تتكامل لاستئصال الطاغوت، وشجرته الخبيثة، حيث يستدرجهم الله تعالى إلى توهم إمكانية القضاء على الحق وأهله، حتى إذا ما سعى الطاغوت في إيقاف سنة المُدَافَعة، أتاهم أمر الله ومكره،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكانوا نسيا منسيا. والله تعالى يقول: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}[الروم:٦٠].

احذر ظن الجاهلية:

قال ابن القيم في زاد المعاد:[(معنى ظن الجاهلية):ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته وخفف عنهم ذلك الغم وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنا منه ورحمة والنعاس في الحرب علامة النصرة والأمن كما أنزله عليهم يوم بدر وأخبر أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه وأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله ويظهره على الدين كله وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول:{ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا}، وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل وظن غير الحق لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ولجنده بأنهم هم الغالبون فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم وأنه لا ينصر دينه وكتابه وأنه يـديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة يضـمحل معهـا التوحيـد والحـق اضمحلالا لا يقوم بعده أبدا فقد ظن بالله ظن السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكمالـه وجلاله وصفاته ونعوته فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيتـه تـأبى ذلـك وتـأبى أن يـذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله وكذلك مـن أنكـر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته وكـذلك مـن أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة صدر عن مشيئة مجردة عـن حكمـة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها وأن تلك الأسـباب المكروهـة المفضـية إليهـا لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى ولا أنشأها عبثا ولا خلقها باطلا {ذلك ظن الـذين كفـروا فويـل للـذين كفـروا مـن النار}، وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعـرف أسـماءه وصـفاته وعـرف موجـب حمـده وحكمته فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء . ومن جوز عليـه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظـن السوء. ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهـي ولا يرسـل إلـيهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هملا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء . ومن ظـن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجـازي المحسـن فيهـا بإحسـانه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمسيء بإساءته ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصا لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة في حصوله بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في أسفل السافلين وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر فقد ظن به ظن السوء]ا.هـ.

وإن من الكتب النافعة فيا يتعلق بالصبر ومسائله وأحواله، كتاب:(عدة الصابرين) للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، فليراجع فإنه نفيس في بابه.

قال المؤلف رحمه الله:(والدليل قوله تعالى:{وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}).

هذا تدليل من المؤلف على ما سبق تقريره من فرضية وأهمية المسائل الأربعة المتقدمة، وفي ذلك تربية بالقدوة العملية، فالمؤلف رحمه الله امتثل ما حث عليه، وذلك أنه بين أن العلم لابد أن يكون مبنيا على الاستدلال الصحيح، فطبق ذلك مباشرة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا ما سيتبعه في جميع هذا الكتاب، بل وفي غير ذلك من كتبه رحمه الله تعالى. وبهذا يكون العبد من الربانيين الراسخين في العلم.

قوله تعالى:{بسم الله الرحمن الرحيم}:قد تقدم التفصيل في شأن البسملة.

قوله تعالى:{والعصر}: الواو واو القسم، وحروف القسم حروف جر، أي تجر ما بعدها من الأسماء.

أما {العصر}:قيل هو الدهر، وقيل هو وقت صلاة العصر، وقيل هو صلاة العصر نفسها، ولله جل وعلا أن يقسم بما شاء من خلقه، إلا أنه سبحانه لا يقسم إلا بالعظيم والشريف من خلقه، فهذا القسم يؤكد عظمة المُقْسَم به وأهميته، وشرفه ومنزلته.

وخُصَّ العصر هنا؛ لأنه دال على الزمن، وهو مدة العمر التي يقضيها العبد في الحياة الدنيا، فهل هو من الخاسرين أم من الناجين، إذن هذا هو متعلق تخصيص العصر بحال الإنسان.

قال ابن القيم في:(الفوائد):[إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها، الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوى غم ساعة، فكيف بغم العمر]ا.هـ.

قوله:{إن الإنسان لفي خسر} هذا هو المقسم عليه، وهو دال على أن هذا هو الغالب من حال بني آدم، والمعنى أن أكثر الإنسان خاسر، والخسران له أنواع فنذكر منها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنواع الخسران:

١ - **خسران في القوة**:وهو التحول من حال القوة إلى الضعف. قال تعالى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم:٥٤].

٢ - **خسران في العقل**: وهو التحول من قوة العقل إلى ضعفه. قال تعالى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت:٦٣].

٣- **خسران في الدين**: وهذا هو أعظم أنواع الخسران، فبعد أن كان مسلماً حنيفاً، أصبح مجرماً فاجراً والعياذ بالله. قال تعالى:{فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر:١٥].

والألف واللام في كلمة (الإنسان) هي للجنس، وهذا يؤكد خطورة المسألة، ولهذا قال بعض أهل العلم:[لا تنظر إلى الهالك كيف هلك ولكن انظر إلى الناجي كيف نجى، فإنما الهلكى كُثُر].

أي أن الخاسرين والهالكين كثر، ولكن الناجي قليل؛ فانظر كيف نجى؛ لتسلك سبيله؛ فتنجو كما نجى.

وفي الحديث الذي في صحيح مسلم من طريق النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ سَمِعْتُ يَعْقُوبَ بْنَ عَاصِمِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو وَجَاءَهُ رَجُلٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَقَالَ مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ تَقُولُ إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ سُبْحَانَ الله - أَوْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَ أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا إِنَّمَا قُلْتُ إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا يُحَرَّقُ الْبَيْتُ وَيَكُونُ وَيَكُونُ ثُمَّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لاَ أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ". قَالَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ فَيَقُولُونَ فَمَا تَأْمُرُنَا فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ - قَالَ - فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ مِنْ كَمْ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ - قَالَ - فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانظر إلى هذا الواحد كيف نجى، واعلم أن هذا التفريق بين الخاسر والناجي لا يأتي إلا لطالب العلم، إذ بالعلم تكتشف حقيقَةَ ما عليه الناس؛ لأن الجاهل لا يكاد يميز، بل يفسد أكثر من ما يصلح، وكلما ازداد طالب العلم علماً؛ ازدادت غربته في الناس، لكثرة مخالفة ما عليه الرسول r وأصحابه.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ".

وفيه أيضا عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا".

وفي الصحيحين عَنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:" لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ".

وفي هذه الأحاديث بشارة لهؤلاء الصادقين الصُّبُر، وتوطين لهم على ما سيلقونه في هذه السبيل.

فأهل الإسلام في أهل الكفر غرباء، وأهل الإيمان في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في أهل الإيمان غرباء، وأهل العمل بالعلم في أهل العلم غرباء، وأهل التقوى والإخلاص في أهل العمل غرباء، وهكذا تستحكم الغربة في طالب العلم التقي المخلص لله تعالى، فاللهم نشهدك على حبهم فألحقنا بهم، يا كريم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى:{إلا الذين آمنوا}: هذا استثناء يتضمن التشريف والإكرام والتنويه بذكر هؤلاء العظماء، وبيانا لسبيل النجاة وترغيبا فيها، فإياك أن تحقر مؤمناً فإن الله أكرمه واختاره واصطفاه، ولو كان أعجمياً، أو عبداً حبشياً، صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً كان أم أنثى، فإنما هو المؤمن.

قوله:{آمنوا}: أي صدقوا، و إنما فسرنا الإيمان بالتصديق؛ لاقترانه بالعمل هنا، ولو جاء وحده لقلنا هو قول وعمل، وهذا ما أجمع عليه السلف في تعريف الإيمان، من أنه قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وهذا التعريف التام والمنضبط للإيمان. وسيأتي الكلام عن الإيمان ومسائلة وخصاله فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:{وعملوا}: أي لا يكفي الإيمان وحده، بل لابد من العمل مع الإيمان. فلا يحصل الإيمان الذي به تكون النجاة من الخسران إلا مع العمل.

وليس ببعيد أن يقال إن هذا من عطف الخاص على العام، أو من عطف أفراد الشيء عليه، لإبرازه، بيانا لأهميته ولفتا للانتباه إليه، وهذا قول قوي ووجيه، وفيه الرد على من أخرج العمل من مسمى الإيمان كما سيأتي بيانه، وهذا العطف مستعمل في الكتاب والسنة، وهو أسلوب فصيح بليغ عند العرب، يعطفون العام على الخاص والعكس، فمن هذا العطف قوله تعالى:{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهَّ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٩٨]، فجبريل وميكال عليهما السلام، هم من جملة الملائكة، وأفردوا عنهم هنا؛ لأن النزاع وقع فيهما من قِبَلِ يهود مع المؤمنين.

ومن عطف العام على بعض أفراده قوله تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:١١٠].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من صميم الإيمان، وأفرد بالسياق هنا تنبيها وتنويها وتشريفا.

الإيمان بالله تعالى يُحَدِّدُ مَعَالِمِه هو سُبحانه:

ولنعلم أنه ليس من حقنا أبدا، أن نزعم إيمانا، نحن نحدد مبادئه ولوازمه، ومقتضياته ومعالمه، بل الله تبارك وتعالى هو الآمر بالإيمان، وهو الذي يحدد معناه ومعالمه، ولن نكون مؤمنين عند الله تعالى ولا من الناجين إلا إذا طبقنا الإيمان الذي أمر الله تبارك وتعالى به وحدد معالمه، وإن نادانا الناس باسم الإيمان، فلنكن على حذر شديد فإن الله تبارك وتعالى، بَيَّنَ أن أقواما يزعمون الإيمان، وهم ليسوا منه في شيء، وإليك شيئا من هذه النصوص الدالة على هذه المسألة الجليلة الخطيرة العظيمة، قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُّ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٠-٦٥]، وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور:٤٧-٥١]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء:٩٧-٩٩].

فالله تعالى هو واضع الاسم، وهو الذي حدد معالمه ومن يستحقه، وأما الدعاوى فلا تغني عن العباد شيئا حتى يصدقوها بصالح العمل، قال تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨]. وقال النبي r :"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ". أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة t .

قوله تعالى:{الصالحات}: قَيَّدَ سبحانه العمل بأن يكون من الصالحات، فخرج بذلك الطالحات، والبدع والغلو والأهواء إلى غيرها من الطالحات.{إِنَّ اللهَّ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس:٨١].

ولا يسمى العمل صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، موافقاً لسنة النبي r لقوله r :"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد". وسيأتي مزيد بيان لهذا إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:{وتواصوا بالحق}: تقييد للتواصي بأن يكون بالحق، فخرج بذلك التواصي بالباطل، الذي كان يتعاطاه المشركون، كما قال تعالى:{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات:٥٢-٥٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا التواصي، دال على أن المؤمنين إذا آتاهم الله تعالى علما نافعا وعملا صالحا؛ فلابد حتى ينجوا من الخسران أن يكونوا داعيين إلى ذلك، فإنه علامة محبتهم لله تعالى، وإشفاقهم على الأمة ورحمتهم بها، وتأكيدا على عظيم اتباعهم للنبي r ، وهي علامة على عدم أَنَانِيَّتِهِم وبُخْلِهم بالحق أنْ يُقدموه للآخرين، كما قال تعالى عن نبيه r :{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}[التكوير:٢٤]، فهكذا أتباعه لابد أن يكونوا.

والتواصي بالحق يدخل فيه جميع فروع الدعوة إلى الله، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا هو التواصي بالحق، وهو دال على حرص المؤمن على نجاة العباد من عذاب الله تعالى، كما هي حال الأنبياء والمرسلين، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله قَالَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله r يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ:"رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ".

واعلم رحمك الله تعالى، أن من أعظم ما يتعين التواصي به، التواصي يطلب العلم الشرعي، والسعي فيه، لا سيما في زمانن حصل فيه زهد كبير في ميراث الأنبياء والمرسلين.

كما أن علينا أن نجتهد في إيجاد طلبة للعلم الشرعي، وأن نحثهم على ذلك، وأن نسعى في تفريغهم لتنتفع الأمة بهم، فمن عجز أن يَبْرَعَ في العلم الشرعي ويتفرغ له، فلا أقل من أن يكرم طلبة العلم ويَدْعَمَهُم، إن كان ذلك في وسعه، ولنتذكر أن الدال على الخير كفاعله، كما في الخبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوصية بطالب العلم:

واعلم أصلحك الله وهداك، أن الوصية بطالب العلم حَاضِرة بكثرة في كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٥٢]، وقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف:٢٨]، وقوله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس:١-١٦].

البيعة على النصيحة للمسلمين:

وكان النبي **r** يوصي أصحابه **y** بالنصيحة خيرا، ويأخذ عليهم البيعة في ذلك، وهذا دال على عظمة الأمر وأهميته، لكل من أراد سبيل النجاة من الخسران، كما في الصحيحين عَنْ جَرِيرٍ قَالَ بَايَعْتُ النَّبِيَّ **r** عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَلَقَّنَنِ:"فِيمَا اسْتَطَعْتَ" وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري عن جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ الله يَقُولُ يَوْمَ مَاتَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَامَ فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمْ الْآنَ ثُمَّ قَالَ اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْعَفْوَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ r قُلْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَشَرَطَ عَلَيَّ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا وَرَبِّ هَذَا الْمَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"الدِّينُ النَّصِيحَةُ" قُلْنَا لِمَنْ قَالَ:"لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ نَهَى رَسُولُ الله r عَنِ الرُّقَى فَجَاءَ آلُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ إِلَى رَسُولِ الله r فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله إِنَّهُ كَانَتْ عِنْدَنَا رُقْيَةٌ نَرْقِي بِهَا مِنَ الْعَقْرَبِ وَإِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى. قَالَ فَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ:"مَا أَرَى بَأْسًا مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ".

وإنما صلاح الدنيا والدين بقيام هذا التواصي، وبه يحصل النصر والتمكين، وهو صمام الأمان في المجتمعات، وبه تتنزل الخيرات والبركات.

قوله تعالى:{وتواصوا بالصبر}: أي على ما تقدم، فهو ليس خاصاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، بل الإخلاص والإيمان يحتاج إلى صبر، والتواصي يحتاج إلى صبر، والعمل الصالح يحتاج إلى صبر،وكل شيء يحتاج إلى صبر، حتى قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض السلف، (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له فلا إيمان له)، ويروى مرفوعا عن النبي r وموقوفا على علي t ولا يصح.

قال المؤلف رحمة الله:(قال الشافعي رحمه الله: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم): الشافعي هنا هو محمد بن إدريس الشافعي المطلبي القرشي[1].

وهذه المقولة من الإمام الشافعي، جاءت بسياقات متنوعة، ولكنها متقاربة جدا، سيأتي ذكرها في طيات المنقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير وابن القيم.

وقوله هذا دال على عظيم فقهه رحمه الله، فإن هذه السورة بينت حقيقة النجاة والخسران، فبينت الإيمان والعمل الصالح والتواصي بذلك والصبر عليه، وضد ذلك هو الخسران، وليس مراده أن هذه السورة تكفي عن القرآن، بل لأنها ذكرت العديد من الأشياء المهمة التي هي أسباب النجاة، وقيل هناك معنى آخر: وهو أنه لو ما أنزل الله على عباده في باب الدعوة إليه إلا هذه السورة لكانت كافية، في بيان طريقة الدعوة، وحثهم على ذلك، والصبر عليه تعلما وتعليما ودعوة، وقيل معنى أخر: أي إنه لو لم

---

١ - أحد علماء الأمة الأفذاذ، وأحد الأئمة الأربعة الذين تدور المذاهب عليهم، وهو من علماء أهل السنة والجماعة، كان إمام تقيا ورعا عابدا حافظا متميزا بالضبط والإتقان، وهو من أوائل من قعد القواعد وألف في الأصول الشرعية وطريقة استنباط الأحكام، وثناء العلماء عليه أشهر من أن يذكر، وأظهر من أن ينكر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينزل الله على عباده في بيان معنى الدين إلا هذه السورة لكفتهم، أي في إقامة الحجة عليهم، وكلها أمور حَقَّةٌ، مُتَقَارِبة المعنى. والله أعلم.

وهناك معنى آخر دقيق، وهي أن هذه السورة تضمنت أسباب الشفاء للأدواء الحسية والمعنوية، وذلك لأن السيئات هي أسباب البلاء واللَّأوَاء، فمن سعى في التخلص منها عاش العافية والسلامة، ونجا من خسران الدنيا والآخرة، ولهذا روي عن ابن عباس أن حامل القرآن بحقه لا يخرف ولا يرد إلى أرذل العمر، وإن تطاول به العمر، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذا المعنى، حيث قال في كتاب (الاستقامة):[ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات، كما يقابل الطبيب المرض بضده، فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه، وذلك بشيئين: بفعل الحسنات، وبترك السيئات، وهذه أربعة أنواع، ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه، قال تعالى:{والعصر *إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}سورة العصر، وروى عن الشافعي t أنه قال:(**لو فَكَّرَ الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم**)، وهو كما قال].اهـ.

وهناك معنى آخر اختاره ابن القيم، وهو أن هذه السورة تضمنت أسباب الكمال البشري، ولهذا كانت كافية لمن أراد أسباب الكمال، فقال كما في (مفتاح دار السعادة):[الوجه السادس والثلاثون: قوله تعالى:{والعصر * إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}، قال الشافعي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

t :(**لو فَكَّرَ النَّاسُ كلهم في هـذه السـورة لكفـتهم**)، وبيـان ذلـك أن المراتـب أربعـة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله،أحداها: معرفة الحق، الثانية:عمله به، الثالثـة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه، فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر، أن كـل أحـد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا بـه فهـذه مرتبـة، وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصـوا بالحق وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا فهذه مرتبة ثالثة، وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبـة رابعـة، وهـذا نهايـة الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغـيره، وكمالـه بإصـلاح قُوَّتَيْهِ العِلْمِية والعَمَلِية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القـوة العمليـة بعمـل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصـبره عليـه، وتَوْصِـيَتِه بالصـبر عـلى العلـم والعمـل، فهـذه السـورة عـلى اختصـارها هـي مـن أجمـع سـور القـرآن للخـير بحذافيره،والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافيا من كل داء، هاديـا إلى كل خير]ا.هـ.

وهناك معنى آخر لطيف، وهو أن المقصود من كـلام الشـافعي رحمـه الله تعـالى، أن القرآن كله معجز، فلو لم ينزل من القرآن إلا هذه السـورة، وهـي مـن قصـار السـور؛ لكفتهم في بيان الإعجاز، وتَحَدِّيهِم أن يأتوا بمثلـه، ولـو كـان بعضـهم لـبعض نصـيرا وظهيرا، قال تعالى:{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ لَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء:٨٨]، وهذا ما جاء في تفسير ابن كثير حيث قال:[والصواب:أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.قال الشافعي، رحمه الله:**لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم**:{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر]. وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال:وما هي؟ فقال:{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليَّ مثلها، فقال:وما هو؟ فقال:يا وبْر يا وبْر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقر، ثم قال:كيف ترى يا عمرو؟، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم إنك تكذب]ا.هـ.

وقال ابن كثير في سياق آخر في تفسيره، معلقا على ما رد به عمرو بن العاص **t** على مسيلمة الكذاب، فقال:[فإذا كان هذا من مشرك[1] في حال شِرْكِه، لم يَشْتَبِه عليه

---

١ - قال محقق تفسير ابن كثير: سامي بن محمد سلامة، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع:[وفي صحة هذه القصة نظر؛ فإن إسلام عمرو بن العاص متقدم على تنبئ مسيلمة، فإن مسيلمة الكذاب تنبأ سنة عشر من الهجرة، وكان قد وفد على النبي **r** مع قومه سنة عشرة من الهجرة، كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٤). وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان على الأصح كما في الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٢). ثم وقفت على ما نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٢٥): أن عمر بن العاص

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَالُ محمد r وصِـدْقِه، وحَـالُ مسـيلمة -لعنـه الله -وكَذِبِـه، فكيـف بِـأُولِي البصـائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحِجَى؟![.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله:(قال البخاري[1] رحمه الله: بـاب العلـم قبـل القـول والعمـل): البخاري هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم، أبو عبـد الله بـن أبى الحسن البخاري الحافظ.

قوله:(بابٌ) بالتنوين رفعاً على الخبرية، أي هذا بابٌ،فتقرأ:(بابٌ: العِلمُ قبل القول والعمل)، ويصح رفعها، بلا تنوين فيقال: (بابُ)، و(العِلمِ) بالخفض، على الإضـافة، فتقرأ:(بابُ العلمِ قبل القول والعمل)، ويمكن بالنصب، فيقال:(بابَ) على تقدير فعل

أرسله رسول الله r إلى البحرين وتوفي رسول الله r وهو هناك وأنه مـر عـلى مسـيلمة وأنـه أعطـاه الأمان ثم قال له: إن محمدا أرسل في جسيم الأمر وأرسلت في المحقرات.. فذكر نحو القصة، وعزاه لابن شاهين في الصحابة، فعلى هذا يكون ما جاء هنـا بعـد إسـلام عمـرو بـن العـاص ولـيس قبـل إسلامه، والله أعلم]ا.هـ.

١ - صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، وهو المعروف بصحيح البخاري، وهـو أحـد أعظـم جبال الحفظ والضبط في هذه الأمة، صاحب مذهب فقهي عرضه في صحيحه، عرضا بديعا تجـلى في تبويبات صحيحه، وما نقل من الآثار والأقوال، وهو أحد أئمة أهل السنة والجماعة. قال عنه الحافظ ابن حجر:[جبل الحفظ وإمام الـدنيا في فقـه الحـديث]ا.هــ.، وقـال عنـه الإمـام الـذهبي:[الإمـام صاحب"الصحيح" وكان إماما حافظا حجة رأسا في الفقه والحديث، مجتهدا، من أفـراد العلـم مـع الدين والورع والتأله]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محذوف تقديره (اقرأ) ونحوه، أو على الإغراء والحض، بتقدير:(هاك) ونحو ذلك، فتقرأ:(بابَ العلمِ قبل القول والعمل).

التربية على الاعتداد بأئمة الهدى من السلف:

وفي ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لهذين الإمامين:(الشافعي والبخاري)، تربية للأمة على أن يحتجوا بِفُهُومِ السلف وعلومهم، وأن يقتدوا بهم، فمهما وجدنا قولا للسلف الصالح، صرنا إليه، وإن خالف بعض أقوال الخلف، وإن كنا نثق بعلمهم ونعترف بفضلهم، ولكن يبقى التقدم والسبق للسلف رحمهم الله تعالى.

والاحتجاج بقوله تعالى:{فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك}، احتجاجٌ بَيِّن ظاهر موفق، فالآية دالة على ما اسْتُدِلَّ بها عليه، حيث بدأ الله تبارك وتعالى بالعلم، ثم عطف بالعمل، وهو الاستغفار في هذا المقام، فأمر بالعلم ثم أمر بالعمل. ولهذا قال المؤلف رحمه الله تعالى نقلا عن البخاري:فبدأ بالعلم قبل القول والعمل[1].

الأصل في الإنسان الجهل:

وهنا تأتي القاعدة العظيمة الجليلة من الدين، التي من فقهها؛ زال عنه كثير من اللبس في مسائل الدين والإيمان، والعذر وإطلاق الأحكام وتنزيلها على الأعيان، ومن

---

١ - الذي في نسخ صحيح البخاري الموجودة الآن هو:[بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى:{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَرَّثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ؛ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يفقهها صارت تصوراته فاسدة في هذا الباب؛ فجاءت أحكامه جائرة عن الحق، بعيدة عن العدل والإنصاف الذي أمر الله تبارك وتعالى به عباده، فلا إفراط ولا تفريط، ولا وكس ولا شطط.

ألا وهي قاعدة: **أن الأصل في الإنسان الجهل**، حتى يُعَلِّمَهُ الله عز وجل، وأن العبد مهما تعبد الله تبارك وتعالى بشيء من عند نفسه وهواه، وتصوراته، بعيدا عن العلم الذي أنزله الله تبارك وتعالى، فإنه ليس على شيء، وكذلك كل علم يتعلمه بغير هذه السبيل، لا يصلح أن يكون حجة على العبد، باعتبار أخذ الله تبارك وتعالى به عباده، حتى يأتي العلم من الله تعالى بذلك، أمرا ونهيا؛ فتقوم الحجة، وتستبين المحجة؛ ولأجل هذا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، وهذه جمله ومعاني، وبسط هذا في غير هذا المقام، وسيأتي شيء من ذلك بإذن الله تعالى، وإليك جملة من النصوص الدالة على هذا المعنى الجليل الخطير، الذي زلت في أقدام وضلت فيه أفهام، حتى رمى المُخَالِفُ في ذلك غيره بالعظائم، وزعم أنه صاحب الغيرة على الدين، وما علم أنه إنما يرمي بذلك السلف أصالة، ويُزْرِي بهم علما وعملا وفقها:

قال الله تعالى: {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل:٧٨]، وقوله: {وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١٦]، وقوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة:١٥١]، وقوله: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء:١١٣]، وقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى:٥٢-٥٣].

وغير ذلك من النصوص الدالة على أنه ما من عبد، إلا وقد امتن الله تبارك وتعالى عليه، بتعليمه الكتاب والإيمان، فلله وحده الحمد والفضل والمنة.

فلا يصح أن يقال:إن هذا من الإيمان، إلا بعد العلم، الذي أرسل الله به الرسل وأنزل الكتب؛ ولهذا كانت البدعة مذمومة، من جهة كون صاحبها يريد أن ينسب ما فعل إلى الشرع، ويعتقده حقا وإيمانا وهدى، فكانت النتيجة أن رد الله تعالى عليه ذلك. كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ".

وهذا عام في فروع الدين وأصوله، وتأمل ما قاله اللالكائي في كتابه الذي نقل فيه ما يعتقده أهل السنة وأجمعوا عليه، حيث في كتابه (اعتقاد أهل السنة):[باب جماع توحيد الله عز و جل وصفاته وأسمائه وأنه حي قادر عالم سميع بصير متكلم مريد باقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سياق ما يدل من كتاب الله عز و جل وما روى عن رسول الله r على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته **بالسمع لا بالعقل:**

قال الله تعالى يخاطب نبيه r بلفظ خاص والمراد به العام: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}، وقال تبارك وتعالى: {اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين}، وقال تبارك وتعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}، **فأخبر الله نبيه r في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد**، وقال تعالى: {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب}.

وقد استدل إبراهيم بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته بطلوع الشمس وغروبها وظهور القمر وغيبته وظهور الكواكب وأفولها، ثم قال: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين}؛**فعلم أن الهداية وقعت بالسمع، وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع.**

قال الله تبارك وتعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}، وقال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}، وقال تبارك وتعالى: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}، وقال تبارك وتعالى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين} {وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى}، **فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله عز و جل وهذا مذهب أهل السنة والجماعة**]ا.هـ.

وقال البغوي في تفسيره:[{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} إقامة للحجة وقطعا للعذر، **وفيه دليل على أن ما وجب وجب بالسمع لا بالعقل**]ا.هـ.

تنبيه مهم ونافع للغاية في باب العذر بالجهل

واعلم أن إعلام الخالق تبارك وتعالى بالشيء، إعلاما محضا مجردا عن الأمر والنهي، لا يلزم به تكليف البتة، إلا إثبات ما ورد ذكره في الإعلام الرباني والإيمان به، أما التكليف فلا يجوز العمل إلا بعد مجيء الأمر والنهي، إذ به نعلم مراد الله تعالى، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

وإليك هذه الأمثلة، إن الله تعالى أعلمنا أنه هو خالقنا جل الله في علاه وهو رازقنا، إلا أن هذا القدر من الإعلام لا يفيدنا ما هو المراد منا، حتى أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، بما أفادنا الأمر بتوحيده والنهي عن الإشراك والكفر به، كما قال تعالى:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦]، وقوله:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

وكذلك أعلمنا الله تبارك وتعالى، أنه أمر إبراهيم الخليل عليه السلام أن يبني الكعبة، فهذا القدر من الإعلام لا يفيدنا أن نقيم مناسك الحج والعمرة، حتى أتانا إعلام آخر من الله تعالى بذلك، فلزم التكليف والعمل، لك من بلغه ذلك.

وكذلك إعلامه إيانا تبارك وتعالى أنه خلق السموات والأرض وخلق الملائكة، لا يفيدنا ما هو الواجب تجاه الملائكة، ولا الأمر بالتفكر والتدبر والاعتبار في ملكوت السموات والأرض، وعلاقة ذلك بالإيمان، والثواب العظيم في ذلك، وخطورة الإعراض، ونحو من المسائل التي ما أخذناها إلا من إعلام آخر جاء من الله تعالى بذلك؛ فلزم به التكليف والعمل لكل من بلغه.

فالخلق والإيجاد لا يعني حصول التكليف للعباد، حتى يأتيهم أمر الله تبارك وتعالى.

ومن هنا نعلم يقينا أن التكليف والمؤاخذة، تابع لحصول العلم به ووصوله إلى العبد، المبتغي للحق الطالب له.

فلا إله إلا الله عُلْمٌ يُتَعَلَّم، فمن أتاه عِلْمَهَا فأباه، أو تمكن من الوصول إلى علمها فأعرض عنه، أو استكبر وعاند؛ فهذا الذي لا تنفعه هذه الكلمة، إن تلبس بناقض من نواقضها، وإن نطق بها الليل والنهار، وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى:أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً،فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً} [المزمل:١٥-١٦].

الشرح

قول المؤلف رحمه الله:(اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث المسائل والعمل بهن): المؤلف رحمه الله بعد أن تكلم عن المسائل الأربع التي تتعلق بطريقة الدعوة إلى الله جل وعلا، وهي العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، عاد ليتكلم عما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في باب الاعتقاد،من أن الإيمان قول وعمل، وأن القول والعمل لا يصحان بدون إخلاص، فبدأ المؤلف يفصل في حقائق العبودية لله جل وعلا، وهي تنبني على ثلاثة أمور، وهي:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - **إفراد الله جل وعلا في العبادة.**

٢ - **إفراد النبي ﷺ بالاتباع.**

٣ - **البراءة مِن كل مَن عاداهما،** (أي من عادى الكتاب والسنة ومن عادى الله ورسوله)، وإثبات كيف تكون العلاقة مع الناس، وأن يجب أن تكون بناء على ذلك ولاء وبراء، حبا في الله وبغضا في الله.

وهذه هي المسائل الثلاث التي سيتكلم عنها المؤلف في جميع الكتاب فيما يأتي، وإنما أفردها هنا، من باب التَّوْطِئَةِ بكلمات موجزة، ليسهل حفظها على الجميع، ويسهل تداولها، وكذلك لعظيم أهميتها مع قلة العناية بها، فإن المرء لن يدخل في الإسلام ولن يثبت عليه إلا بالعمل بهذه المسائل الثلاث.

قوله:المسألة الأولى:(أن تعلم أن الله خلقنا ورزقنا): أي إن من أعظم منن الله جل وعلا على عباده أن خلقهم من العدم، وأسبغ عليهم وافر النعم، ويسر لهم أسباب وسبل معاشهم، وهذا من تقرير العباد بهذه الحقائق لأنه سينبني عليها الخطب العظم، فلابد من إرساء قواعده، والاعتراف به، ليكون قدرا مشتركا، ومقدمة، منها تنطلق اللوازم والتقريرات.

وهنا تذكير بأن الرزق لا يأتي بحذق العبد، ولا بسعة علمه، ولا بحسبه ونسبه، بل قد يُعْطى الجاهل، الوضيع في النسب، القليل في العقل، المال الكثير، ويُمَنعه غيره، ممن فُضِّلوا عليه في كثير من ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما قال تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء:٢٠-٢١]، وقال: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [العنكبوت:٦٢]، ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة.

إذن تكفل الله بالأرزاق لعباده، جنهم وإنسهم، بل ولكل دابة جل الله في علاه، كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦].

والرزق من جهة حكمه ينقسم إلى قسمين:

١ - رزق محمود وهو الكسب الحلال. ٢ - رزق مذموم وهو الكسب الحرام.

فالكل مرزوق، ولكن الشأن أن ترزق بسبيل حلال، فلا يستوي من رُزِقَ بالبيع والشراء الحلال، ومن باع واشترى وتَكَسَّبَ بالحرام، ولا سَواء بين مَن يُرْزَقُ بِمِيرَاث، ومن يُرْزَقُ بالسرقة، والكل مرزوق. فتأمل.

والرزق الحلال من جهة العطاء ينقسم إلى قسمين:

١ - عطاء برضى. ٢ - عطاء بسخط.

فإن الله تعالى يرزق المطيع والعاصي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، وكل ذلك يكون بسبيل حلال، ولكنه يبارك في عطائه للمؤمنين المطيعين الأبرار، ويمحق مال العصاة والفجار والكفار، وهو لهم استدراج والعياذ بالله، فلا تغتر أيها المسلم، إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالرزق الحسن، الذي يكون عطاء برضى، لا عطاء بسخط، وإن كان عندك منه القليل، فإن قليلا منه، خيرٌ من كثير كثير، مما يكون مَمْحُوقاً، والعياذ بالله.

قال ابن القيم في مدارج السالكين:[وأما تمييز النعمة من الفتنة فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر مفتون بثناء الجهال عليه مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغهم من العلم، فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة والمحنة في صورة المنحة فليحذر فإنما هو مستدرج.

ويميز بذلك أيضا بين المنة والحجة فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى، فإن العبد بين منة من الله عليه وحجة منه عليه ولا ينفك عنهما فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته قال الله تعالى:{لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم}، وقال:{بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}، وقال:{فلله الحجة البالغة}.

والحكم الكوني أيضا متضمن لمنته وحجته فإذا حكم له كونا حكما مصحوبا باتصال الحكم الديني به فهو منة عليه وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه، وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني فتوفيقه للقيام به منة منه عليه وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه فالمنة باقتران أحد الحكمين بصاحبه والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منة وإلا فهو حجة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة وإلا فهي حجة وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو منة منه وإلا فهو حجة وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منة من الله عليه وإلا فهو حجة، وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه وإلا فهو حجة، وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منة وإلا فهو حجة، وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهي منة وإلا فهي حجة، وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ويميز بين مواقع المنن والمحن والحجج والنعم فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فصل: الركن الثاني من أركان المحاسبة: وهي أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة واجتناب المعصية وبين ما لك وما عليك فالذي لك هو المباح الشرعي فعليك حق ولك حق فأد ما عليك يؤتك ما لك، ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك وإعطاء كل ذي حق حقه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفضل الرزق وأبركه:

ولهذا كان أفضل الرزق وأجله وأبركه ما كان لأهل التقوى، وتضمن إعانة لهم على طاعة الله جل وعلا، فأهل التقوى وعدهم الله بالرزق الحسن، وأنه جل وعلا سيكون له كافياً ونصيراً، ورازقاً وظهيراً، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:٢-٣]، وقال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٤-٥].

فمن أراد الرزق الحسن والعطاء برضا؛ فعليه بالتقوى، فبقدر تقواك لله، يكن نصيبك من هذا الرزق الحسن.

فليس الشأن في كثرة العرض، ولكن بالتقوى، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٥-٦٦]، وقال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف:٩٦].

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والرزق فيما يتعلق بجسد الإنسان أيضا ينقسم إلى نوعين:

١- **رزق القلوب**: وهذا يكون في تقوى الله وعبادته، وعلى العبد إن يسعى في تحصيله، وأن يسأل الله من فضله، فهو أشرف نوعي الرزق.

ولهذا كان من دعاء النبي r :"اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا"، أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله:عن النبي r أنه كان يقول:"اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى".

٢- **رزق الأبدان**:وهذا يكون فيما سخره الله تعالى من أسباب المعايش لعباده، وهذا لا مزية فيه لعبد دون آخر، فالكل يعطاه ويهدى إليه، ولكن الشأن كل الشأن في رزق القلوب. وسيأتي الحديث إن شاء الله تعالى عن نوعي الهداية.

قال تعالى: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦)وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧)وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ:٣٥-٣٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال:[إن الله يعطي الدنيا مَنْ يُحِبُّ ومَنْ لا يُحِب، ولا يُعْطِي الإيمان إلا من يُحِب، فإذا أحَبَّ الله عبدا أعطاه الإيمان]. فأسأل الله من فضله العظيم.

تحقيق التوحيد هو سر كل بركة ورزق حسن:

واعلم رحمك الله تعالى، أن تحقيق التوحيد هو سر كل بركة ورزق حسن، ومن جميل ما قاله الإمام ابن القيم في بيان العلاقة الوطيدة بين الرزق وتحقيق التوحيد، ما ذكره في كتابه:(الفوائد):[فائدة: قول الله تعالى:{وإن من شيء إلا عندنا خزائنه}، متضمن لكنز من الكنوز وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه وقوله:{وأن إلى ربك المنتهى} متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله في قوله:{وإن من شيء إلا عندنا خزائنه} واجتمع ما يراد له كله في قوله:{وأن إلى ربك المنتهى} فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره وليس المراد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد]ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(ولم يتركنا هملاً): هذا هو اللازم العظيم الذي لم يلتزمه أكثر العباد، بل صاروا إلى قول الله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل:٨٣].

فيقال: فلما كان الله تعالى خالقاً ورازقاً تبارك وتعالى، قيل: أفيكون خالقاً ورازقاً ويأذن أن يعبد غيره؟!، أفيكون خالقاً ورازقاً ونحن نقر بذلك ثم نعبد غيره؟!، أفيكون خالقاً ورازقاً، ويأذن أن يكون غيره مشرعا لعباده، حاكما فيهم آمراً ناهياً؟!، قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤].

أفيكون خالقاً ورازقاً ويكون الخلق قد خُلِقوا عبثاً وتركوا سدى؟!، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنما خلقنا وتكفل لنا بالأرزاق، لنعبده وحده لا شريك له، وقد أعلمنا بهذا الغاية في كتبه التي أنزلها، وعلى لسان رسله الذين أرسلهم.

ولهذا نزه الله نفسه الشريفة عن مثل هذا العبث فقال سبحانه وتعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون:١١٥-١١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} استفهام إنكاري، ينكر الله جل وعلا فيه، على أصحاب العقول والقلوب السقيمة، الذين ظنوا بالله ظن السوء؛ فحسبوا أنهم خلقوا هكذا عبثا وتركوا سَبَهْلَلا، ثم قال بعدها سبحانه {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}، أي يتنزه الرب جل جلاله عن مثل ذلك. والمعنى أي لم أخلقكم عبثاً ولم أترككم سدى.

وقد أنكر الله تبارك وتعالى ذلك على المشركين بسياقات متنوعة في الذكر الحكيم، بنفس هذه السبيل، حيث يقررهم بمسألة الخلق والرزق، ليلزمهم بإفراده بالعبادة، كما في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [يونس: ٣١ - ٣٣]، وقوله: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ:٢٤]، وقوله: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٧٣-٧٤].

وفي آيات سورة النحل، ذكر الله تعالى جملة من نعمه، ثم بين أنه ما فعل ذلك بهم إلا ليحققوا الاستسلام له والانقياد لشرعه والقيام بحقه، ولكن أكثر العباد في غفلة عن ذلك، فيأخذون النعم، ويكفرون بالله عزل وجل، إما استظهارا بها واستعمالا لها في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إطفاء نور الله، أو بنسبتها إلى غير الله، تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا، قال تعالى: {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل:٨٠-٨٣].

وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم:٢٨-٣٠].

وفي الصحيحين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله r صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ:"هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ". قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ.فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ".

قال المؤلف:(بل أرسل ألينا رسولاً):أي من رحمته سبحانه وتعالى، أنه لم يكتفِ بالعهد الأول المذكور في آية الإشهاد في سورة الأعراف في قوله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف:١٧٢-١٧٣]، وهذا من فضله وعدله جل الله في علاه، فإنه ليس هناك أحد من بني آدم يتذكر ذلك العهد، المأخوذ في عالم الذر[1]، بل هو في حكم النسيان، والله تعالى وعد أن لا يؤاخذ عباده بالخطأ والنسيان، كما في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ} قَالَ دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ r :"قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا". قَالَ:"فَأَلْقَى اللهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}(قَالَ:قَدْ فَعَلْت):{رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} (قَالَ:قَدْ فَعَلْتُ){وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا}(قَالَ:قَدْ فَعَلْتُ)". ورواه مسلم من حديث أبي هريرة y أيضا.

---

١ -كما في تفسير ابن أبي حاتم:حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثنا مِنْجَابُ بْنُ الْحَارِثِ، ثنا عَلِيُّ بْنُ مِسْعَرٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، وَحَبِيبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ}، قَالَ:[لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدم أَخَذَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ ظَهْرِهِ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ، ثُمَّ سَمَّاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَقَالَ: هَذَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ يَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا، وَهَذَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ يَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ قَبْضَتَيْنِ، فَقَالَ: هَؤُلاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلاءِ فِي النَّارِ، فَمَضَتْ}. وسنده قوي.

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ" ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ t :{فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين؛ لتقوم الحجة على العباد إعذارا وإنذارا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.فمن رحمته أنه أرسل الرسل ليجددوا العهد، ويذكروننا به.

قال المؤلف:(فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار): هكذا يُذَكِّر المؤلف بالأصل العظيم الذي لأجله يرسل الله الرسل، لتطاع بإذن الله،كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٤-٦٥].

وسيأتي الكلام عن النبي r وبيان صفته، وأنه لا يُعْرِضُ عن اتباعه إلا مجنون أو جاحد ظالم عال أو ناقص عقل، وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة t أن النبي r قال:"كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى"، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى، قَالَ:" مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"

حقيقة الأَبَيَان:

فنأخذ من هذا الحديث أن الأَبَيَان، يكون بالأحوال، كما يكون بالأقوال ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام:"فقد أبي"، ولم يقل:ومن عصاني دخل النار؛ لأن العبد قد يعصي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يدخل النار، فهو تحت المشيئة، إذا كانت معصيته، دون الشرك أو الكفر أو النفاق الأكبر، وهذا من عظمته r ، وكمال معرفته بالله جل وعلا.

وأما المؤلف رحمه الله تعالى، فإنه لما كان حديثه عن أصل الدين، لا عن آحاد الذنوب والمعاصي التي هي دون ذلك؛ جزم بدخول النار على من هذه صفته، أنه يُدْعى إلى التوحيد فيأبى، فهذا قطعا أنه من أصحاب النار. نسأل الله العافية والسلامة.

وهذا ظاهر في قوله تعالى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥].

وفي صحيح البخاري من طريق سَعِيدُ بْنُ مِينَاءَ حَدَّثَنَا أَوْ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ r وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنْ الْمَأْدُبَةِ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلْ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ الْمَأْدُبَةِ فَقَالُوا أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا فَالدَّارُ الْجَنَّةُ وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ r فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا r فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا r فَقَدْ عَصَى اللهَّ وَمُحَمَّدٌ r فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(والدليل قوله تعالى:{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا}): أي أن الرسول r شاهد على أمته، فيحق الحق ويبطل الباطل، بالكتاب والسنة، وفي هذا التحذير الشديد والتهديد الأكيد، فليحذر الإنسان من البدعة ومن الإحداث في الدين، والتبديل؛ فإن في ذلك الهلكة والعياذ بالله.

فإذا لقي عبد النبي r يوم القيامة بعمل مبتدع، وبتبديل للدين شهد عليه لا له؛ ولهذا في الصحيحين من طريق أَبِي حَازِمٍ قَالَ سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ" قَالَ أَبُو حَازِمٍ فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا فَقَالَ هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا فَقُلْتُ نَعَمْ قَالَ وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ:"إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ:"السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا". قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ". فَقَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ:"أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ". قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلاَ لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَوْضِيكَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلاَ هَلُمَّ. فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا".

وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ حَوْضِي لأَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَذُودُ عَنْهُ الرِّجَالَ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ الإِبِلَ الْغَرِيبَةَ عَنْ حَوْضِهِ". قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَتَعْرِفُنَا قَالَ:"نَعَمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ".

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ فَقُلْتُ أَيْنَ قَالَ إِلَى النَّارِ وَالله قُلْتُ وَمَا شَأْنُهُمْ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ قُلْتُ أَيْنَ قَالَ إِلَى النَّارِ وَالله قُلْتُ مَا شَأْنُهُمْ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ".

لأنهم بدلوا سنة النبي r ؛ ولهذا امتدح الله تعالى فريقا من عباده، فوصفهم جل وعلا بقوله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:٢٣]، فنعتهم بأظهر علاماتهم الدالة على عظيم إيمانهم، أنهم لم يبدلوا، فهي علامة الصدق والعمل.

مسألة: والراجح المختار أن نشهد على الكفار الأصليين بالنار على وجه العموم والتعيين، إذ هذا هو الأصل، ولنا ظاهر الحال، فمن عاش كافرا ولم نعلم منه إسلام؛ فنشهد عليه بالكفر والنار، ولا نتردد في ذلك، ولا نقول: إنا لا ندري بم ختم له؟؛ فإن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه المقولة إنما تصلح في أهل القبلة لا في الكفار الأصليين، وكما أننا لا ننتقل عن يقين الإسلام في أعيان المسلمين، إلا بعد توفر الشروط، وانتفاء الموانع، التي تحول دون الشهادة عليه بالكفر، فكذلك الكافر لا ننتقل عن شهادتنا عليه بالكفر إلا بيقين إسلامه، ولما كان هذا منتف هنا؛ تعين أن نبقى على الأصل، ومن المعلوم أن الشهادة عليه بالنار تابعة للشهادة عليه بالكفر، وعلى هذا ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة، كما قال تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٣٩]، وقوله:{بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٨١]، وقوله:{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر:٦]، وقد تكرر هذا اللفظ {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} في نحو من عشرين موضعا من الذكر الحكيم، وأما ما في معنى ذلك فكثيرا جدا.

وأما من السنة، فمن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t ، قَالَ كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ r فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ r يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ :"أَسْلِمْ" فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهْوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ r فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ r وَهْوَ يَقُولُ :"الْحَمْدُ لله الَّذِي **أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله r أَنَّهُ قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ **مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ:"لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله r تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاَثًا ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ:"يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا". فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا". ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ.

وكما أنه لا يشك أحد، في أن أبا جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وابن جدعان، وعقبة بن أبي معيط، وابن خطل، وكعب بن الأشرف؛ أنهم في النار قطعا، فكذلك من عَدَاهُم من أهل الكفر، وإلا فما الفرق؟!!.

فاليقين لا يزول إلا بيقين مثله.

قوله:{كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً}: أي ما أخلى الله تبارك وتعالى أمة من رسول ونذير، كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِير} [فاطر:٢٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأرسل الله إلى الأمم السابقة رسلاً إلى أقوامهم، بل لربما بعث الله في الأمة الواحدة أكثر من رسول، كما قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} [يس:١٣-١٤]، ومنهم موسى عليه السلام فقد أرسل هو وهارون إلى فرعون، كما قال تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه:٤٢-٤٨].

وعليه فيكون قوله تعالى: {كما أرسلنا إلى فرعون رسولا}، إما على الجنس فيعم موسى وهارون، وإما ذكرا لمن أرسل ابتداء وهو موسى، لقوله تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي(٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي(٣١)وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا(٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا(٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا(٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه:٢٤-٣٦].

لماذا فرعون بالذات:

وتخصيص فرعون هذا الطاغية بالذكر هنا؛ لأنه والله أعلم، كان من أعتى الناس كفرا، فقد جمع ألوانا من الكفر بالله تعالى، فقد ادعى الربوبية في أول أمره، كما قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص:٣٨]، ثم لما رأى إفلاسه أمام الحجج الواضحات البينات، تنازل عن ادعاء التفرد، فقال فيما قصه الله تبارك وتعالى: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}[النازعات:٢٤]، وهذا تنازل منه على كِبْرٍ ومَكْر، أي إن ثبت، وسلمت بوجود رب لكم غيري، فأنا ربكم الأعلى، أي فأنا فيهم الأعلى، والمعنى أن السيطرة له، ومن عداه مقهور مربوب، عاجز ضعيف. تعالى الله عما قال علوا كبيرا، والأمر كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف:٥٤].

ثم إنه ادعى الألوهية كذلك، ووضع التشريعات الجاهلية، فنازع في التشريع كذلك، كما قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف:١٢٧].

وقيل إنه كان يعبد عجلا في السر، وكان يسوس مملكته بالسحر والسحرة، فهذه ألوان من المكفرات، لا تكاد تجتمع إلا في هذا الطاغية الجبار العنيد.

وهذا الطاغية ذو مال وجاه وسلطان، فلم يسعفه جاهه ولا ماله ولا سلطانه، في إتباع الحق، بل كان حائلاً دون ذلك، والعياذ بالله، وعلى هذا فليحذر الإنسان أن يكون ماله أو سلطانه أو جاهه حائلاً بينه وبين الهداية. نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن عظيم جبروته وإصراره على الكفر والطغيان، أنه رأى البحر ينفلق أمام عينيه، ورأت الشمس بقعة من الأرض كانت مغيبة بالماء من قبل، وصار الماء جامدا، كل فرق كالطود العظيم، ومع هذا كله لا فائدة مع هذا الطاغية، فلا تعجب من فراعنة العالم اليوم، والعظات والعبر تتوالى عليهم، وهم مستمسكون ببغيهم، وضلالهم. فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:٦١-٦٧].

قوله: {فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا}: أي قابل فرعون الرسالة بالمعصية والنكران، والتعالي والاستكبار، وسعي في لبس الحق بالباطل، رغبة ورهبة، كما قال تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس:٨٣]، ولبس مسوك الضأن في قلوب الذئاب، فادعى الصلح والإصلاح، كما قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} إلى قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٦ - ٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله تعالى:{فأخذناه أخذا وبيلا}، أكد الفعل بالمصدر، لإفادة شدة الأخذ وعظيم البطش. وفي صحيح البخاري معلقا:[قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {وَبِيلًا}:شَدِيدًا]ا.هـ.

فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، فما أهون العبد على الله إن عصاه، مع أن الله تعالى أعطاه الفُرصة تِلْوَ الفرصة وأملى له، فها هي تسع آيات مفصلات، لعله أن يؤمن ولكنه طغى، وقال أنا ربكم الأعلى، ولكن الله يمهل ولا يهمل.

وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى **t** قَالَ **t** قَالَ رَسُولُ الله **r**:"إِنَّ اللهَّ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}". متفق عليه.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الثَّانِيَةُ:أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً} [الجن: ١٨].

الشرح

قال المؤلف:(الثانية: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ): المؤلف رحمه الله تعالى بعد أن بَيَّنَ أن الجنة حكرٌ على من أطاع الرسول r بالتوحيد، وأن طاعة الرسول r هي قرينة الإيمان بالله تعالى، بحيث لا يقبل من المرء إيمانٌ بدون طاعة الرسول r ، والمقصود بالرسول هنا، رسول كل أمة، فردّ المؤلف على كل من يزعم إيماناً مجرداً عن طاعة الرسل، وقرر أنه لا إيمان له، بل هو كحال فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف.

شرع المؤلف رحمه الله يبين أن هذا الرسول الكريم r ، المأمور باتباعه، لا يجوز الغلو فيه، فإن الله تبارك وتعالى كما أنه لا يقبل إيمان بدون اتباع لرسوله، فكذلك لا يرضى أن يشرك معه جل وعلا في العبادة، كائن من كان مهما علا كعبه، أو قَرُبَت منزلته من الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى، لا من حملة العرش المقربين، ولا من الأنبياء والمرسلين، وإن كان هو خيرهم وسيدهم محمدا r ، فضلاً عن الأولياء الصالحين.

فهذه قضية محسومة تماما في نصوص الكتاب والسنة، التي بَيَّنَت أن هذا في غاية الامتناع؛ لأن حق الله تعالى، لا يقبل الله تعالى فيه منازعا أبدا، وإنما قدمنا بذكر الرسول r ؛ ليُعلم أن من عداه من باب أولى.

قوله:(أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ): هذا السياق دال على العموم، وهكذا أراد المؤلف، إذ ساقه بهذه الطريقة، فإن النكرة إذا جاءت في سياق النهي أو النفي؛ أفادت العموم، وهنا كلمة (أحد) نكرة جاءت في سياق النفي، فتفيد العموم المقصود هنا، ألا وهو امتناع أن يرضى الله تبارك وتعالى من أحد كائنا من كان أن يشرك معه آلهة أخرى.

قوله:(لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)، مثل بالأشراف من خلق الله تعالى؛ ليدخل في الخطاب من دونهم من باب أولى؛ ولبيان أن الكل في هذا الباب سواء.

لا للغلو مهما كان:

فإن كثيرا من الذين يعبدون غير الله تعالى، يظنون أن لِمَنْزِلَةِ العبد تَأْثِيراً في استحقاق صرف العبادة إليه، فهم لا يتصورن أن يكون الولي كآحاد العباد في هذا الباب، بل الولي عندهم لابد أن تكون عنده خِصِّيْصَةٌ تميزه عن سائر العباد، وهذه الخصيصة لابد أن تكون من صفات الخالق تبارك وتعالى، وإلا فلا يكون وليا، عياذا بالله من الشرك والتنديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا هو عين ما حذر الله تبارك وتعالى منه عباده، فقد بَيَّنَ تبارك وتعالى أنه لا أحد يستحق ذلك سواه، وأنه لا أحد أصلا يمكن أن يكون كذلك، وإن ادعاه من ادعاه، فإنه ليس بشيء، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج:٦٢]، وقوله: {إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٢-٤٣]، وقوله: {أَلَا إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦].

وبيان هذا الامتناع ذكره الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم، كقوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}[البقرة:٢٥٥]، وقوله: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٢٩]، وقوله: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} [النساء:١٧٢]، وقوله: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة:١١٦-١١٧]، وقوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان:١٧-١٩]، وقوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ:٤٠-٤١]، وقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء:٥٦-٥٧]، وقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:٢٢- ٢٣]، ومثل هذا كثير في الذكر الحكيم، فهذه القضية من أظهر القضايا، وأصرحها في كتاب الله جل وعلا.

قوله:(لا يرضى)، هو دال على سخط الله جعل وعلا على من خالفه في ذلك، فركب ما لا يرضاه الله تعالى، والمنفي هنا هو الشرك، والمعنى أنه لا يرضى الشرك، وهذا دال على أن الواقع في ذلك قد بلغ من الله غاية المقت، والعياذ بالله، قال تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر:٧]، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:"أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَـذَا كُـلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْـدًا حَـلاَلٌ وَإِنِّي خَلَقْـتُ عِبَـادِي حُنَفَـاءَ كُلَّهُـمْ وَإِنَّهُـمْ أَتَـتْهُمُ الشَّـيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْـرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْـزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللهَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَـرَبَهُمْ وَعَجَمَهُـمْ إِلاَّ بَقَايَـا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِي بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْـرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ اللهَّ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُـوا رَأْسِي فَيَـدَعُوهُ خُبْـزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْـكَ وَابْعَـثْ جَيْشًـا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَـالَ وَأَهْـلُ الْجَنَّـةِ ثَلاَثَـةٌ ذُو سُـلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِـيمٌ رَقِيـقُ الْقَلْـبِ لِكُـلِّ ذِي قُرْبَـى وَمُسْـلِمٍ وَعَفِيـفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ - قَالَ - وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ الَّـذِينَ هُـمْ فِـيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً وَالْخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ".

من هم الحنفاء:

والشاهد من هذا الخير قوله r :"فمقتهم عربهم وعجمهم" ثم استثنى فقال:"إلا بقايا من أهل الكتاب"؛ وهم الذين كانوا على دين إبراهيم، أو على أصولٍ صحيحة كُلِّية من دين عيسى، كحال ورقة بن نوفل، وهؤلاء كانوا يُدْعَونَ بالحنفاء، كقس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهم. فدل السياق إذن على أن هذا المَقْتَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنما كان من جراء انتشار الشرك بالله تعالى، وبهذا دمر الله الأمم من قبلنا، واقـرأ كتـاب الله ترى شواهد ذلك، أظهر من أن تذكر، وأشهر من أن تنكر، إلا من معاند مستكبر.

ولنذكر طرفا من حال هؤلاء الحنفاء **y**، ولنضرب مثلا بأحد أشهرهم، فقد جاء في صحيح البخاري:[باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل]:

حدثني محمد بن أبي بكر حدثنا فضيل بن سليمان حدثنا موسى بن عقبة حدثنا سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي **r** لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي **r** الوحي فقدمت إلى النبي **r** سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه. وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله. إنكارا لذلك وإعظاما له.

قال موسى حدثني سالم بن عبد الله ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر: أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وأنى أستطيعه ؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعنة الله قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وأنى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا قال وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم.

وقال الليث كتب إلي هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول يا معاشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها. (انتهى من صحيح البخاري).

ومن الشعر الذي أثر عن أحد الحنفاء ألا وهو زيد بن عمرو بن نفيل:

أَرَبٌّ واحـد أم ألـف رب ... أديـن إذا تقسـمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أديـن ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزُور

ولا غنمـا أديـن وكـان ربـا... لنا في الدهر إذ حلمي يسير

عجبت وفي الليالي معجبات...وفي الأيـام يعرفها البصير

بأن الله قـد أفـنى رجـالا ... كثـيرا كـان شأنهم الفجور

وأبقى آخـرين بـبر قـوم ... فيربـل منهم الطفل الصـغير

وبينا المرء يعثر ثاب يوما ... كمـا يتروح الغصـن النضير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفور

فتقوى الله ربكم احفظوها...متى ما تحفظوها لا تبوروا

ترى الأبرار دارهم جنان ...وللكفار حامية سعير

وخزي في الحياة وإن يموتوا...يلاقوا ما تضيق به الصدور

كما أن في قوله:(لا يرضى) إثباتا لصفة الرضى لله جل وعلا، وهي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، كما قال تعالى:{رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة:١١٩]، في أربعة مواضع من الذكر الحكيم هذا أحدها،وقال:{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزمر:٧].

ومن السنة ما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ" وهذه الصفة نثبتها إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل،كما قال تعالى:{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

فمن اتخذ من دون الله أنداداً، أو وسائط،في عبادته تبارك وتعالى؛ فقد أشرك بالله جل وعلا، وأتى بالأمر الأعظم، والذنب الذي لا يغفر، كما قال تعالى:{إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النساء:٤٨]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [النساء:١١٦-١١٧]، وقوله:{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:١٣]، وهذا هو الحِنْثُ العظيم.

وصاحبه عمله حابط، وهو في الآخرة من الخاسرين، ومن حطب جهنم خالدا فيها أبدا، كما قال تعالى بعد أن ذكر جملة من خيار خلقه، وهم الأنبياء والمرسلون، قال سبحانه:{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:٨٨]، وتأمل في هذه الآيات التي تكلم الله تعالى بها في سورة الإسراء –والقرآن كله كلام الله تعالى حقيقة- حيث ذكر تبارك وتعالى جملة من أوامره فعلا وتركا وأدب عبادة وأوصاهم ووعظهم، وذلك من قوله تعالى:{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} [الإسراء:٢٢]، إلى قوله تعالى:{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء:٣٩]، فتلاحظ أنه تبارك وتعالى استفتحها بحقه، وختمها بحقه، في بيان عام تام أنه لا شيء فوق حقه، ولا شيء يقدم على حقه تبارك وتعالى، وحقه هو التوحيد المتمثل في تحقيق الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت.

ومنه قوله تعالى:{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَّ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر:٦٥-٦٦]، {من الشاكرين}: أي من الموحدين، فإذا كان هذا الخطاب للرسول r ،بأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشـرك محبط للعمل، فما بَالُك بمن دونه r ، وهذا يسمى قياس الأولى، ويسمى بغايـة الامتناع، فإن النبي r معلوم أنه لم يشرك بربه قط، ولن يشرك بربـه قـط، ولكـن هـذا السياق لبيان غاية الامتناع.

أقسام الشرك

والشرك ينقسم إلى قسمين:

١ - **الشرك الأكبر**: وهو مخرج من الملة.

٢ - **الشرك الأصغر**: وهو غير مخرج من الملة، إلا إن اعتراه ما يتحول به إلى الأكـبر، كالاستحلال، أو اعتقاد استحقاق العبد أن يُفْعَلَ به هـذا الشـرك، كـالحلف بغـير الله تعالى، وكيسير الرياء والسمعة التي لا يسترسل معها العبد، وقول ما شاء الله وشـئت، ولولا فلان لما كان كذا وكذا، فإنه إن اعتقد أن هنـاك مـن المخلـوقين مـن يسـتحق أن يُحْلَفَ به تعظيما من دون الله أو مـع الله، أو أن هنـاك مـن يسـتحق أن نرائيـه بـالأعمال الصالحة، أو أن له مشيئة نافذة كمشيئة الله تعالى، أو أن لفلان من دفع البلاء أو رفعه ما لله تعالى، معه أو من دونه، فلا شك أن هذا كله من الشرك الأكـبر، والـذنب الـذي لا يغفر، إلا بالتوبة النصوح.

وتعريف الشـرك الأكبر: هو تسوية غير الله بالله، فيما هو مـن خصـائص الله تعـالى، ودليل هذا التعريف قوله تعالى في اختصام أهل النار: {تَاللهِ إِنْ كُنَّـا لَفِـي ضَـلَالٍ مُبِـينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:٩٧-٩٨]، وقوله: {الْحَمْـدُ لله الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَـلَ الظُّلُـمَاتِ وَالنُّـورَ ثُـمَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِـرَبِّهِمْ يَعْـدِلُونَ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الأنعام:١]، وقوله:{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل:٦٠].

لا يلزم في الشرك التسوية التامة:

واعلم رحمك الله، أن هذه التسوية لا يلزم أن تكون من كل وجه، وعلى كل حال، حتى يتحقق وقوع العبد في الشرك، بل لو سوى المخلوق بالخالق ولو في بعض ذلك، لكان واقعا في الشرك الأكبر، فمن نازع الله تبارك وتعالى في شيء من أسمائه أوصفاته أو أفعاله، فقد أتى الشرك الأكبر.

واعلم أن المشركين الأوائل لم يزعموا أن آلهتهم تفعل كفعل الله، أو أن جميع أسماء الله تعالى وصفاته حَلَّتْ فيهم، بل كانوا يُقِرُّون بأن آلهتهم ليست كذلك، حتى كانوا يقولون في تَلْبِيَتِهم :[لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك]، فهم كانوا مُقِرِّين بافتقار آلهتهم وضعفها، ومع ذلك سماهم الله تبارك وتعالى مشركين وكافرين.

كما في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ - قَالَ - فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ r :"وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ". فَيَقُولُونَ إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال العلامة ابن القيم في(إغاثة اللهفان):[فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن؛ لوحدوه حق توحيده؛ ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا، يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له ويخضع له، ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته قال تعالى:{ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله}، وقال تعالى:{الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}، أي يجعلون له عدلا في العبادة والمحبة والتعظيم، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبني آلهتهم، وعَرَفُوا وَهُم في النار أنها كانت ضلالا وباطلا، فيقولون لألهتهم وهم في النار معهم:{تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين}.

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا : إن آلهتهم خلقت السموات والأرض وأنها تحيي وتميت وإنما سووها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا، بل قد حَرَّمَ الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد، إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع].هـ.

شرك المتأخرين أغلظ وأفظع:

وليس بخاف أن حال المشركين الأوائل، كان أخف حالا من حال بعض مشركي هذا الزمان، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في القواعد الأربع:[القاعدة الرابعة: **أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ومشركوا زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة**، والدليل قوله تعالى:{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (العنكبوت:٦٥)]ا.هـ.

واعلم رعاك الله، أن الأمر قد تطور في هؤلاء المشركين، فصار حالهم إلى ما هو أسوء من ذلك، حيث صار بعضهم ينسب إلى أوليائهم، صفة من صفات الله تبارك وتعالى، لم ينسبها أحد من المشركين على مر العصور والأزمان لآلهتهم، بل ما زالت آيات الذكر الحكيم تقررهم بهذه الصفة ؛ لإلزامهم بأن مستحقها هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ألا وهو صفة الخلق؟!!.

كما قال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [الزخرف:٨٤-٨٧]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}[الزمر:٣٨]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت:٦١]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [لقمان:٢٥]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيم} [الزخرف:٩].

أمثلة من الشرك المعاصر الموروث عن المشركين الأولين:

نعم بعد هذا كله؛ وجد في زماننا هذا من يدعي أن شيخه فلان أو فلان، يرزق الولد، ويخلق ويوجد من العدم، بل ويُغَيِّر حقائق الأمور، فَيَقْلِبُ الحَجَرَ بَشَراً، والعكس، ويقلب الشجرة أنثى، وتعيش معه زمنا، ثم تموت.

وقال أحد شعراء الشرك والضلالة، ممن تتنزل عليهم الشياطين، الذين قال الله تعالى فيهم: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [الشعراء:٢٢١-٢٢٦].

قال وهو يمدح:أحمد الطيب بن البشير أحد زعماء الطريقة السمانية:

كإحيائه ميتا وكالبنت بعد ما ... أتت وهي أنثى للذكورة تقلب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جاءه الأعرابي بالتمر زائرا ... وأنه للقرآن يهوى ويطلب

فعلمه إياه في الوقت فابتدا ... يرتله يا من سمعتم تعجبوا

ومن قال هذا قبر أحمد أولاً ... فصاحبه في القبر ليس يعذب

وقال آخر في قصيدة مشهورة وهي من قصائد محمد بن كنون المكي وهو صاحب أبي العباس أحمد التيجاني زعيم الطريقة وشيخها يقول:

لو شئت أن تحظي بكل مؤمل وتفوز بالإسعاد والإيناس

وتجار من ضيم الزمان وضيقه ومن المعرة والبلاء والبأس

فعليك بالحبر الهمام المنتقي قوس الورى أعني أبا العباس

ذاك التيجاني حاز كل فضيلة بالختم ميزه إله الناس

ويقول:

أصحابه مغفورة زلاتهم سيان في ذي عابد والناس

ويقول:

وأجور طاعة غيرهم تكتب لهم أضعافا وهم في حال نعاس

وإذا تصبك خصاصة فبه استغث مستنجداً ينجيك من إفلاس

واهتف بهم مستعطفاً ومنادياً إني ببابك يا أبا العباس

ويقول:

أنقذ غريقاً من بحار ذنوبه وأمنن عليه بفضلك ميا أس

ثم الصلاة علي النبي وأهله أهل المحبة والتقي والبأس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقول آخر في أحد شيوخ القادرية واسمه إبراهيم:

أنا لِمُرِيدي جامع لِشَتَاتِه وأخرجه من كل شيء وفتنة
تمسك بنا في كل هول وشدة أُغِثْكَ من الشداة طُرّاً بهمتي
مُرِيدِي إذا ما كان شَرْقاً ومَغْرِباً وإذا ما صَارَ فِي أيِّ بَلْدَتِي

ويقول:

أنا كنت مع نوح أشاهد في الورى بحاراً وطوفان على كَفِّ قُدْرَتِي
أنا كنت مع إبراهيم مُلْقي بِنَارِهِ وما بَرد النيران إلا بدعوتِي
أنا كنت مع يعقوب في غَشْوِ عينه وما برأت عيناه إلا بِتَفْلَتِي
أنا كنت مع موسى مناجاة ربه وموسى عصاه من عصاي اسْتَمَدَّتِ

ويقول:

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته أنا القُطب إبراهيمُ شيخُ الطَّرِيقَةِ
وما قلته ذا القول عني وإنما أتى الإذن حتى يعرفون حقيقتي

ويقول محمد عبده البرهاني في كتابه:تبرئة الذمة:[الباب الأول في تنزل روحه القدسية في الحضرات الإلهية على المناظر العلية r : أخبرنا تُرجمان الأزل في مشهد المنن عن العلل أن صفات الله الأسنى وأسماءه الحسنى تقابلت في معاني الكمالات لإظهار حقائق الذات فأظهرت كل صفة ما يخصها من الجمال والجلال وأبرز كل اسم ما يقتضي معناه من الكمال وبقيت الذات الإلهية على ما هي عليه من البطون على حقيقة الكنزية في الكمون فاجتمعت حقائق تلك الأسماء والصفات حيث لا أين في مشهد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معنوي للذات يقول كل منها أنا، وإن أظهرنا هذا الكمال وأبرزنا هذا الجمال والجلال فإنما أخبرنا عن قطرة في بحر وحدثنا عن ذرة في قفر وهيهات هيهات أين منا ما حوته الذات فكيف السبيل إلى ظهور الشؤون الإلهية الذاتية المتعالية عن الحقائق الأسمائية والصفاتية فحينئذ برزت إشارة كنهية بعبارة منهية إني قد اختلست من ذاتي نسخة جامعة لأسمائي وصفاتي بمزيد من حقائق الكنه الذي لا يعبر عنه، أبرز فيه بروزا هو عين الكمون، وأظهر فيه ظهورا، هو عين البطون، متصورا بصورة بديعة، متنزلا في مشاهدي الرفيعة، تكون تلك الصورة مجلى لشأوكم الرفيع، ومظهرا لشأنكم البديع، تستأثر في نفسها بما لها في قدسها، من كنه لا يعرف، وحقيقة لا تدرك ولا توصف؛ فتكون نسبة ذلك المظهر الأكمل، والمجلى الأعز الأفضل، إلى مظاهركم العظيمة، ومجاليكم الكريمة؛ نسبة الذات إلى الصفات، يكمل ثنائي على علائي؛ فشققت من الحمد اسمها، إذ كان ذلك رسمها،**فسميته محمدا وأحمد ومحمودا وجعلته عابدا ومعبودا**.ا.هـ.

التعليق : هذه هي عقيدة الحلول والاتحاد والتي معناها أن الله تعالى قد حل في خلقه واختلط في مائه ودمه فأصبح المخلوق نسخة من الخالق بل هو عينه وأصبح الخالق حالا في المخلوق بل هو عينه، والمخلوق في العبارات المتقدمة هو النبي **ﷺ** ، وهذا كما تلاحظ هي نفس عقيدة النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله وأن الله هو ثالث ثلاثة، أي حَلَّ الخالق في المخلوق، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وهذه العقيدة هي التي كان ينادي بها الزنديق المعروف بمحي الدين بن عربي ـ وهذا الزنديق هو غير ابن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عربي الفقيه المالكي رحمه الله تعالى ـ فأي كفر وردة وضلال أعظم من هذا؟!!، فكيف يصبح النبي r عابدا ومعبودا في آن واحد، مع أن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد}، وقوله تعالى: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون}، مع أن النبي r إنما بعث؛ لينذر ويحذر من الشرك، ويدعو إلى إفراد الله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ربوبيته وملكه، كما قال سبحانه وتعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيد السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِك هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر ٦٢-٦٧]، ولكنه الغُلو الذي حذر منه النبي r أمته في غير ما حديث، فكما وقع النصارى في عبادة الأنبياء كعيسى عليه السلام، ووقعت اليهود في عبادة الأولياء كعزير رحمه الله؛ عبد بعض أفراد هذه الأمة محمدا r ، وهذا ما أخبر به النبي r أن هذه الأمة ستتبع اليهود والنصارى في كل شيء، وقد وقع، فها هو النبي r تعبده أهل هذه الطريقة، ويؤلهونه، ويضفون عليه سائر الصفات الإلهية، فهو محمد وأحمد ومحمود وهو العابد والمعبود. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا إله إلا الله!!، ما هذا الشرك؟!، وما، هذه العقول؟!!، ولكن حقا، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك:١٠-١١].

وهؤلاء يخادعون الناس باسم الكرامات، فيزعمون أن الله تعالى آتاهم إياها؛ لقربهم منه، وعلو منزلتهم عنده، فيوهمون الناس أن الكرامة إنما تعني مشاركة المخلوق خالقه جل وعلا في خصائصه، فيغتر كثير من العامة بما يرونه من أحوال على هؤلاء الشيوخ، فيصدقونهم في ذلك، فيصرفون العبادة لهم، من دون الله أو مع الله.

عقيدة أهل السنة والجماعة فيما يختص بالكرامات

واعلم رحمك الله تعالى، أن أهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات ولكنهم، لا يجعلونها أبدا ذريعة إلى رفع المخلوق إلى منزلة الخالق تبارك وتعالى، كما أنهم يُفَرِّقُون بين كرامات الرحمن التي يَهَبُهَا لأوليائه، وبين ما يلقيه الشيطان على أتباعه؛ ليصد الناس عن التوحيد الخالص، وتسمى بكرامات أو لياء الشيطان، فإنه يخدمهم هو وجنوده؛ ليضلوا الناس، ليحتنك أكبر قدر ممكن من ذرية آدم معه إلى النار والعياذ بالله.

وكان السلف الصالح يعتبرون في ذلك، بحال العبد وقت الكرامة، وبما يدعو إليه بعد الكرامة، فإن اختل شيء من ذلك؛ فاعلموا أنه من إخوان الكهان ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولياء الشياطين، فإن الله تعالى آتى الشيطان إمكانات وقدرات، فتنة للعباد وابتلاء، بعد أن حذر عباده، وأوصاهم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، تبيانا لكل شيء، وأعظم ما بينه تبارك وتعالى، قضية التوحيد والشرك.

وإليك بيان ذلك، فإنها مسألة في غاية الخطورة، فبسبب الجهل بها، هلك أقوام بالشرك بالله تعالى، ووقعوا في شراك الشيطان وحبائله، عافانا الله وإياكم منه، ومن كيده ومكره، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فنقول لابد أن يكون النظر في حالتين:

الحالة الأولى: من جهة حال من تظهر عليه الأحوال الخارقة للعادة:

جاء في كتاب الإمام اللالكائي:(اعتقاد أهل السنة):[أخبرنا علي بن محمد بن عمر أخبرنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال حدثنا أبي قال سمعت يونس بن عبد الأعلى قال قلت للشافعي تدري يا أبا عبد الله ما كان يقول فيه صاحبنا أريد الليث بن سعد أو غيره كان يقول لو رأيته يمشي على الماء لا تثق ولا تعبأ به ولا تكلمه قال الشافعي فإنه والله قد قَصَّر]ا.هـ. قلت:هذا إسناد صحيح.

وجاء في الفتاوى لابن تيمية:[وقال الشافعي لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء فلا تغتروا به]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في الفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر الهيتمي[١]:[قال الشَّافِعِيُّ رضي اللهُ تَعَالَى عنه لو رأيت صَاحِبَ كَبِيرَةٍ يَطِيرُ في الْهَوَاءِ لم أَقْبَلْهُ حتى يَتُوبَ من بِدْعَتِهِ]ا.هـ.

ونحو هذا كثير في كلام الأئمة، وعليه فلابد أن يكون صاحب الحال، قائما بكتاب الله وسنة رسوله، وأن تظهر عليه آثار السنة، قولا وعملا، مع التقى والورع.أما إذا كان مرتكبا للمخالفات الشرعية، معرضا عن هدي النبي r ، قولا وعملا، لا يلتفت إلى الأمر ولا النهي، بل يتبع هواه، فهذا مهما ظهرت عليه من أحوال فإنه لا يلتفت إليه، بل يبقى الحكم على العبد بما هو عليه من الحال مع الأمر والنهي والقيام بالدين.

---

١ - تنبيه: أحمد بن حجر الهيتمي هو من متأخري الشافعية، قد تكلم بعض الأئمة المتأخرين في عقيدته، من جهة بعض النزعات الصوفية والأشعرية، وتشنيعه على بعض أئمة السنة، الذين نافحوا عنها وردوا على المتصوفة والأشاعرة، كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومما أخذ على الهيتمي، أنه جوز التوسل بذات النبي r بعد موته والاستغاثة به بسؤاله في قبره، وسحب ذلك على التوسل بالصالحين من بعده، ومما أخذ عليه تجويزه لبدعة المولد، ولبعض الأوراد الصوفية المبتدعة، وكذلك نفيه لعلو الله تعالى وأنه في السماء، وذهب مذهب التأويلات الباطلة، فهو ليس بمحمود الحال في هذه المسائل العقدية.

وابن حجر الهيتمي هو غير ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري، فهذا آخر، وإن كان ابن حجر العسقلاني أيضا قد أخذ عليه أهل العلم، قضايا عقدية خالف فيها أهل السنة والجماعة، ككلامه في مسألة استواء الله تعالى، وسلوكه مسلك التأويل الفاسد في بعض أسماء الله وصفاته، وتجويزه التبرك بالصالحين ونحو ذلك. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدين لا يُعْرَفُ بالكرامات ، والولاية كذلك، ولكن بالتقوى:

واعلم رحمك الله، أن الربط بين الأحوال التي تظهر على العبد والولاية؛ خطأ فادح، أورث فسادا عريضا، فليس كل من ظهرت عليه خوارق للعادات بالضرورة أن يكون وَلِياً لله، بل قد يكون من أولياء الشيطان. فانتبه.

ولأجل هذا لم يعبأ السلف بهذه الأحوال؛ لأن الولاية إنما تكون باتباع سبيل التقوى وتحقيق الإيمان، كما قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس:٦٢-٦٤].

إذا أولا ننظر في حال صاحب الكرامة فإن كان متقيا فيما يظهر لنا من اتباعه للأمر والنهي، مظهرا للسنة، عندها نقول هذه من كرامات عباد الرحمن، ولكن لابد من تقييد ذلك، بأمر مهم وعظيم وخطير، وهي الحالة الثانية:

الحالة الثانية: مدى استقراره على التقوى، وكيف حاله مع هذه الكرامة التي ظهرت.

وذلك لأن المتقي حقيقة، هو الذي يجتنب أسباب العذاب والسخط الإلاهي، ويحرص على تحقيق الإيمان في حياته، ويستمسك بذلك حتى يلقى الله تعالى به، سائلا الله تعالى الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما إن استعمل العبد تلك الكرامة، ليدعي ما ليس له، وأنه قطب، أو غوث، أو أنه يعلم الغيب، أو يرزق الولد، أو يفرج الكربات ويغيث اللهفات، ونحو ذلك من خصائص المولى تبارك وتعالى؛ فعندها تعلم يقينا أن هذا من رؤوس الزندقة والنفاق، وأنه إما كان مظهرا للتقوى مُتَصَنِّعا بها؛ ليتوصل بذلك إلى مراداته الشيطانية، وإما أنه استهوته الشياطين بعد ذلك فضل وغوى. واعتبر بحال بلعام بن باعوراء، نعوذ بالله.

أما أن يكون باقيا على إيمانه وتقواه، وَلِيّاً لله تعالى، ويفعل هذه الأفعال، ويَدَّعِي هذه الادعاءات، فهيهات هيهات، فإنما هو من إخوان الشياطين والكهان.

واعتبر بحال الدجال، فإنه يأتي ومعه خوارق كثير ومذهلة وعظيمة، كما في صحيح مسلم عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ الله r الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ:"مَا شَأْنُكُمْ". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَقَالَ:"غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً يَا عِبَادَ الله فَاثْبُتُوا". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ:"أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ قَالَ:"لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ:"كَالْغَيْثِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ.

فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ".

فتأمل في هذه الفتن التي يُؤْتَاهَا الدجال، ومع ذلك يبقى هو الدجال، لم يَتَغَيَّر الحكم فيه، لِما ظهر على يديه من الخوارق. فاعتبروا يا أولي الألباب.

ولهذا، إذا قال أحدهم بأنه ولي، أو زعم الناس فيه الولاية، فاختبر هذه المعاني؛ لتعلم المصلح من المفسد، ولا تغتر بظواهر الأحوال دون سَبْرٍ لحقائق الحال.

واعلم أرشدك الله لطاعته، أن الولاية لا تورث، ولا يَهَبُهَا مخلوق لمخلوق، وإنما هي عمل العبد بطاعة الله تعالى، والحرص على تقوى الله عز وجل، مما يوفق الله تعالى إليه العبد، فالولي هو العبد التقي النقي الخفي، الذي يسعى حثيثا جاهدا في إصلاح سريرته وعلانيته، فإن أعطي شكر، وإن أذنب استغفر، وإن ابتلي صبر. نسأل الله تعالى أن يلحقنا بهم، وأن يحشرنا في زمرتهم، وأن يتولانا برحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في :(بدائع الفوائد):[والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله تعالى نوعان عامة وخاصة فالعامة ولاية كل مؤمن فمن كان مؤمنا لله تقيا كان له وليا وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول أنا ولي إن شاء الله كما يقول أنا مؤمن إن شاء الله، والولاية الخاصة إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه مؤثر له على كل ما سواه في جميع حالاته قد صارت مراضي الله ومَحَابُه هي هَمُّهُ ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه وإن سخط الخلق فهذا إذا قال أنا ولي الله كان صادقا].ا.هـ.

دحض شبهة خطيرة:

واعلم رحِمَنا الله وإياك، أن هناك أقواما يتلاعبون بعقول الناس، فيحتجون بأفعال للأنبياء والملائكة، على أن ذلك يمكن أن يكون لهم كذلك، وهذه زندقة أخرى، فإن الله تبارك وتعالى جعل للملائكة وظائف يقومون بها، ولكنهم أبدا لا يَدَّعُونَ لأنفسهم شيئا من أفعال الله تعالى، بل يقفون عند حدود ما أمروا به وينسبون ذلك إلى أمر الله تعالى، والله تعالى أثبت ذلك لهم في القرآن، وكذلك الأنبياء والرسل، فما أثبته الله لهؤلاء الكرام البررة، لا يجوز لأحد أن يدعيه لنفسه، لأمور:

أولا: لأنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، على أن عطاء الله للملائكة والأنبياء والمرسلين وأحوالهم مع الله تعالى، يختلف تماما عن آحاد البشر، فلا يجوز لأحد أن ينازعهم في ذلك، ولا أن يدعي ذلك لنفسه، كما قال تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم:١٠-١١]، ومن ذلك لقاء النبي r للأنبياء عليهم السلام ليلة الإسراء والمعراج، فكل ما كان في تلك الليلة هو من خصائص الأنبياء والمرسلين، لا يشاركهم في أحوال تلك الليلة آحاد البشر أبدا؛ ولهذا لا تجد أحدا من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين ينسب إليه شيئا مما جرى في تلك الليلة، ولا يحتج بما وقع فيها من أحوال على إمكانية وقوع ذلك لآحاد الناس، ولا يُعَمِّمُون إمكانية وقوع ما جرى، أو شيئا منه، لآحاد البشر، كما يفعله الزنادقة والطواغيت الذي، يحتجون بذلك على ما يكون في عالم الأرواح، ونفع الموتى للأحياء، ونحو ذلك من الدجل والهرطقة التي يتلاعبون بها على البسطاء والسذج؛ ليصلوا بذلك إلى تأليه الأولياء والصالحين، عياذا بالله من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

ثانيا: أن الله تبارك وتعالى، بَيَّنَ الضابط فيما يتعلق بهؤلاء الكرام البررة، من أنهم مُنَزَّهُونَ عن أن يَدْعُو أحَدا إلى الغلو فيهم، وأنهم لا يمكن بحال أن يَدَّعُوا شيئا ليس لهم؛ ولهذا لا تجدا أبدا، أن أمة من الأمم، عَبَدَت نبيا أو رسولا أو ملكا؛ بسبب أن أحد هؤلاء الكرام البررة، قد دَعَوْهُم إلى شيء من ذلك أبدا، بل القوم هم الذين يَغْلُونَ فيهم من عند أنفسهم، والأنبياء والمرسلون والملائكة، لا يرضون بذلك البَتَّة، بل ينكرون عليهم ذلك، ويفاصلونهم فيه، بخلاف هؤلاء الدجاجلة، فَما أَنْ يَظْهَرَ عليهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء من الأحوال، والتي غالبا ما تكون أحوالا شيطانية؛ حتى يُبَادِرُوا إلى دعوة الناس إليهم، أَنْ يَدْعُوهُم ويَسْتَغِيثُونَ بهم، ويَدَّعُونَ لأنفسهم علم الغيب، ورزق الولد،وإحياء الموتى، بل حتى الخلق ادعوه لأنفسهم، ويُمَجِّدُون أنفسهم، ويُطْرُونَها، ويَسْمَعُون الأشْعَارَ الشِّرْكِيَّة في الغلو فيهم ويُقِرُّونَها، بل ويُثْنُونَ على قَائِلِيهَا، ويَدْعُونَ الناس إلى ذلك، مَدْحاً ورَقْصاً، وخُطَباً وقَصَصا، حتى تَسْرِيَ بِدَجَلِهِمْ هذا الركبان، ويَتَّخَذَهُم أتْبَاعُهم آلهة من دون الله، فيأكلون أموال الناس بالباطل، بما زعموه لأنفسهم، تشبها تماما بحالة أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [التوبة: ٣٤]، تعالى الله عما يقول المشركون والمبطلون علوا كبيرا.

وإليك النصوص الدالة على حال الملائكة والأنبياء والمرسلين، مع هذا المقام الكبير الخطير، وتأمل الفارق بينهم، وبين إخوان الكهان والدَّجَالِين، الذين يَدَّعُونَ زُوراً وبُهْتَاناً وِلَايَة الله لهم، وإنما وَلِيُّهُم الشيطان الرجيم وأعوانه وأتباعه، عياذا بالله منهم ومن حالهم:

قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٢٦-٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال:{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٧٩-٨٠].

وقال:{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢].

وقال:{وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة:١١٦-١١٩].

وقال:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان:١٧-١٩].

وقال:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سبأ:٤٠-٤٢].

ثالثا: أن هؤلاء الكرام البررة، من الملائكة والأنبياء والمرسلين، إذا آتاهم الله شيئا من المعجزات، إنما ليُعَبِّدُوا بها العباد لله تبارك وتعالى؛ ولهذا تَجِدُ أن الناس في زمان موسى عليه السلام مثلا عَبَدُوا فرعون، ولم يَعْبُد أتباع موسى، موسى عليه السلام، وما ذلك إلا لأن فرعون زعم لنفسه المعجزات؛ لِيُعَبِّدَ الناس له، وأما موسى عليه السلام، فإنما يَدْعُو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، فإنه يعلم أن الله تبارك وتعالى إنما آتاه هذه الآيات؛ لِيَهْدِي العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ولهذا قال النبي r كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

رابعا: أن الله تبارك وتعالى أعلمنا في كتابه، وبوحيه، أنه هو سبحانه وتعالى أجرى على أيدي هؤلاء الكرام البررة، هذه المعجزات تَأْيِيدا لهم؛ ولِيَهْتَدِيَ الناس بذلك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فإن ما يَجْرِي على أيديهم، دَالٌّ على قدرة وعظمة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرسلهم، فيكون هذا أهدى للناس وأقرب إلى تصديق الرسل وطاعتهم، في توحيد الله تعالى.

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم يَنْسِبُون ذلك إلى الله، لا إلى أنفسهم، كما قال تعالى في قصة البقرة مع موسى r :{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة:٧٣]، فالضرب وقع من العبد، وإنما الله هو المُحْي.

وقوله تعالى في شأن إبراهيم الخليل r :{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة:٢٦٠].

وقوله في شأن عيسى r :{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:٤٩]، وقوله:{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [المائدة:١١٠].

فنقول لهؤلاء الأفاكين الدجالين: من أوْحَى إليكم بهذا؟!، ومن أين أخذتموه؟!، وكيف نسبتموه إلى الله تعالى؟!، ثم ادعيتم الولاية!!، أهو وَحْيٌ بعد موت النبي r ، وانقطاع الوحي؟!!.

ولهذا تجد هؤلاء الدجاجلة، يجتهدون في إقناع الناس أنهم يُوحَى إليهم، وأن الله تعالى يُحَدِّثُهم، وهم يُحَدِّثُونَه بقلوبهم، وأن مَنَامَاتِهم وَحْيٌ من الله، بل ويزعم بعضهم أنه دخل على الله، وجلس مع الله، وقَابَل الله، وآخرون يزعمون مثل ذلك مع رسول الله r ، فيما يسمى بالحَضْرَات، عياذا بالله من الزندقة والإلحاد.

والسؤال الذي يطرح نفسه، أهناك وَحْيٌ، بعد موت رسول الله r لآحاد البشر؟!، أم أهناك دِينٌ جَدِيد بعد موت رسول الله r ؟!.

إذن فأين تذهبون من قول الله تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]، وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ t بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله r لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالاَ لَهَا مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ r . فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ r وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ؛ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانقطاع الوَحْي أمر مقرر عند الصحابة y، والأمة مُجْمِعَةٌ على ذلك، {وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[المائدة:١٠٣].

خامسا: أن من المقطوع به أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها، هم الصحابة الكرام y، ويَتَقَدَّمُهُم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي y، ولاشك أنهم هم سادات الأولياء والصالحين، بعد الأنبياء والمرسلين، ومع ذلك لم نسمع أن أحدا منهم، ادعى شيئا من ذلك لنفسه، وحاشاهم أن يفعلوا، فأين هؤلاء الدجاجلة، من أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، حتى يَدَّعُوا لأنْفُسِهم، ما لم يُؤْتَهُ الصحابة الكرام y، ولكنها الزندقة والإلحاد، والتلاعب بدين العباد. نسأل الله العافية والسلامة.

بل وتطاول بعض هؤلاء الزنادقة، فادعى أن مَرْتَبَة الولاية، فوق مَرْتَبَة النُّبُوة، وأن أولياءهم أفضل من الصحابة، بل وأفضل من المرسلين.

ولأجل هذا قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} [الأنعام:١٢٤]، نعم {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}، ولولا ذلك لَقَالَ مَنْ شَاء، ما شَاء، ولادَّعَى ما ادَّعَى من شَاء، فلله الحمد والفضل والمنة، تبارك وتعالى، وإلا لوقعنا في ضلال عظيم، وشر مستطير، وانظر إلى هؤلاء المشركين، لما ذَهلوا عن هذه الحقيقة؛ كيف وقعوا في الورطة العظمى، نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأصل المسألة وسِرُّها، أن هؤلاء يَدِينُون بعقيدة الحُلُولِ والاتِّحَاد، فَيَزْعُمون أن النُّور الذي خُلِق منه محمد r ، انتقل إليهم من النبي r ؛ فَحَلَّ فيهم؛ ولهذا هم يَرَونَ أنْفُسهم، من الله!!، بل صرح بعضهم، أنه هو الله!!، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا!!، وهذه نَفس عقيدة اليهود والنصارى، حيث يقولون حَلَّ اللَّاهُوتُ في النَّاسُوت، أي حل الإله أو صفاته، أو بعضها في الإنسان؛ ولهذا قالت اليهود عزير، ابن الله، وقالت النصارى، عيسى بن الله، وهكذا يَتَوَارَثُ فُجَّارُ هذه الأمة ضَلَالَ اليَهُودَ والنَّصارى، مِصْدَقاً لقول النبي r فيما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟، قَالَ:"فَمَنْ".

ولهذا قال النبي r فيما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَ t يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ".

حديث موضوع (خلق نبينا من نور):

وهم يحتجون على هذا الدجل والخرافة بحديث موضوع، يُسمى بحديث جابر في النور المحمدي، ورأيت بعض الدجالين المعاصرين، نسبه إلى البخاري، فلا أدري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيقصد رجلا من بُخَارَى؟!!، أم أَحَدُ أعْوَانِه من الجِّن اسمه البُخَارِي، إذ ليس لهذا الحديث إسناد أصلا، بل هو حديث باطل موضوع[1].

---

١ - هذا بحث مختصر، في حديث جابر الموضوع، وفيه أن النبي r ، خلق من نور الله، نقلته بتصرف يسير من ملتقى أهل الحديث:

الحديث الأول:أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر – الحديث، قال العجلوني(٨٢٧):رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله بلفظ قال:قلت:يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء، قال:يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك.

قلت:ولم أجده عند عبد الرزاق في المصنف، وأيضاً لم أجده في تفسيره المطبوع. بل وليس له وجود أصلا هذا الخبر لا عند عبد الرزاق ولا عند غيره، فلا يعرف له إسناد اصلا، بل هو من نسج بعض الوضاعين. وكذلك الحديث الثاني ولفظه:كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام. قلت:ولم أجده أيضاً بعد طول البحث.

وإليك هذا كلام حول الحديث لبعض طلاب العلم (الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:فهذه رسالة مختصرة كتبتها لبيان بطلان ما هو متداول بين الصوفية من حديث أولية النور المحمدي أبدؤها بذكر نص الحديث ثم تخريجه ثم الحكم عليه. ورأيت من تمام الفائدة ذكر بعض الشواهد الباطلة التي قد يتوهم بعض من لا علم عنده أنها تشهد لهذا الحديث الباطل المكذوب.

فصل:نص الحديث المكذوب عن جابر t قال:سألت رسول الله r عن أول شي خلقه الله تعالى؟ فقال:هو نور نبيك يا جابر؛ خلقه الله ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه من مقام القرب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام:فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء:فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء:فخلق العقل من جزء، والعلم والحكمة من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة، ثم نظر الله -عز وجل- إليه، فترشح النور عرقاً، فقطر منه مائة ألف أربعة وعشرون ألف قطرة من النور، فخلق الله من كل قطرة روح نبي أو روح رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم الأولياء والشهداء والسعداء والمطيعين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري، والروحانيون والملائكة من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، وملائكة السموات السبع من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والتوفيق من نوري، وأرواح الرسل والأنبياء من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون من نتاج نوري، ثم خلق الله اثني عشر ألف حجاب فأقام الله نوري، وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة ، وهي مقامات العبودية والسكينة والصبر والصدق واليقين، فغمس الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما أخرج الله النور من الحجب ركبه الله في الأرض، فكان يضيء منها ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم، ثم خلق الله آدم من الأرض فركب فيه النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله الله صلب عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى رحم أمي آمنة بنت وهب، ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة للعلمين، وقائد الغر المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر.

هذا اللفظ من النفحات المكية واللمحات الحقية لمحمد عثمان الميرغني(ص/٢٨-٢٩)

فصل : تخريج الحديث المكذوب:لم أقف على من خرجه مسنداً، وعزاه لـ(مصنف عبد الرزاق): السيوطيُّ في الخصائص الكبرى والقسطلاني وابن عربي الصوفي وأحمد رضا البريلوي ومحمد عثمان عبده البرهاني وجماعة آخرون من المتصوفة، وذكره الديار بكري في "الخميس في سيرة أنفس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفيس"، ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث حتى كتب الموضوعات بل مصنف عبد الرزاق العزو إليه إما وَهَم، وإما خلط بحديث آخر، وإما محض كذب وافتراء. والله أعلم. وهو حديث مشهور بين الصوفية ذكره غير واحد منهم. وله ألفاظ عديدة سيأتي ذكر بعضها.

وفي رسالة"صلاة الصفا في نور المصطفى" لأحمد البريلوي(ص/٣٣-مجموعة الرسائل)[كما في كتاب" البريلوية عقائد وتاريخ لإحسان إلهي ظاهير(ص/١٠٢-١٠٣)]، وزعم هذا المتنبيء الأفاك أن الأمة تلقت هذا الحديث بالقبول وهو زعم باطل إلا إن عنى بالأمة: أمتَه الضالة التي آمنت بنبوته، ومن كان على شاكلتهم من الصوفية.

وفي كتب: تبرئة الذمة لمحمد البرهاني(ص/٩). وقال: حديث صحيح!!!!! وعزاه هذا الأفاك الضال إلى كتاب" جنة الخلد" لعبد الرزاق ، ولا يعرف كتاب لعبد الرزاق بهذا الاسم. والله أعلم .

وفي كتاب المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير:تمة تخريج الحديث المكذوب.

ومن ألفاظه المشهورة: ما ماذكره القسطلاني في المواهب اللدنية ومحمد البرهاني في كتابه تبرئة الذمة واللفظ له:يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع إلى أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم نظر إليه فترشح النور عرقاً!! فتقطرت منه مائة ألف قطرة. ثم ذكر نحوه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذكره علي بن محمد الإسماعيلي الباطني في كتابه"تاج العقائد"(ص/٥٤) ولكن بلفظ آخر وهو: ((إن الله تعالى خلقني وعلي نوراً بين يدي العرش نسبح الله ونقدسه قبل أن يخلق آدم بألفي عام فلما خلق آدم أسكننا في صلبه ثم نقلنا من صلب طيب إلى باطن طاهر لا تحتك فينا عاهة حتى أسكننا صلب إبراهيم ، ثم نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأ رحام الزكية لا يمسنا عار الجاهلية حتى أسكننا صلب عبد المطلب ثم افترق النور من عبد المطلب ثلاثاً ثلثان في عبد الله وثلث في أبي طالب فخرجت من ظهر عبد الله وخرج علي من ظهر أبي طالب ثم اجتمع النور مني ومن علي في فاطمة فخرج منها الحسن والحسين فهما نوران من نور رب العالمين.

فصل:الحكم على الحديث المكذوب:

الحديث موضوع لا أصل له في شيء من كتب الحديث وإنما هو مشتهر على ألسنة الصوفية ونحوهم، ورَدَ على السيوطي سؤال صيغته: هل الوارد في الحديث أن الله تعالى خلق نور محمد r فجزأه أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول العرش وخلق من الجزء الثاني القلم وخلق من الثالث اللوح ثم قسم الرابع وجزأه أربعة أجزاء وخلق من الجزء الأول العقل وخلق من الجزء الثاني المعرفة وخلق من الجزء الثالث نور الشمس والقمر وبور الأبصار ونور النهار وجعل الجزء الرابع تحت ساق العرش مدخوراً يقتضي أن نور الشمس غير نور النهار أم لا؟.

فكان مما أجاب: والحديث المذكور في السؤال ليس له إسناد يعتمد عليه.ا.هـ

قال عبد الله بن الصديق الغماري-معلقاً على كلام السيوطي: وهو تساهل قبيح بل الحديث ظاهر الوضع، واضح النكارة، وفيه نفس صوفي...إلى أن قال والعجب أن السيوطي عزاه إلى عبد الرزاق مع أنه لا يوجد في مصنفه ولا تفسيره ولا جامعه وأعجب من هذا أن بعض الشناقطة صدق هذا العزو المخطيء فركب له إسناداً من عبد الرزاق إلى جابر، ويعلم الله أن هذا كله لا أصل له فجابر t بريء من رواية هذا الحديث وعبد الرزاق لم يسمع به.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال أحمد بن الصديق الغماري:مستدركاً على السيوطي-أيضاً-: (وهو حديث موضوع لو ذكره بتمامه لما شك الواقف عليه في وضعه، وبقيته تقع في ورقتين من القطع الكبير؛ مشتملة على ألفاظ ركيكة ، ومعاني منكرة).

وحكم بوضعه الشيخ محمد أحمد عبد القادر الشنقيطي-رحمه الله- في رسالة خاصة سماها:"تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق ."وأقره عليه وقرظ رسالته الشيخ عبد العزيز ابن باز-رحمه الله .-

وما الخطأ الفاحش ما قاله اللكنوي: (قد ثبت من رواية عبد الرزاق أولية النور المحمدي خلقاً، وسَبْقته على المخلوقات سبقاً وقد اشتهر بين القصاص حديث:(أول ما خلق الله نوري) وهو حديث لم يثبت بهذا المبنى وإن ورد غيره موافقاً له في المعنى).

فقوله:(ثَبَتَ) هو قول باطل ومجازفة وتقليد أعمى مردود بما سبق بيانه.

وقوله:(ورد غيره موافقاً له في المعنى) باطل -أيضاً- فليس له مستند لا من الكتاب، ولا من السنة؛ بل هو مردود من وجوه:

الوجه الأول: أنه لم يرد فيما ادعاه نص من كتاب، ولا سنة؛ فهو قول على الله بلا علم.

الوجه الثاني: ما ورد من حديث أبي رزين t أنه قال: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال:"كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء"

فالحديث صريح في أن العرش أو الماء أول المخلوقات، ولو كان النور المحمدي- بزعمهم -مخلوقاً لما أغفله النبي r .

الوجه الثالث:أن المحققين من أهل العلم لم يقل أحد منهم-فيما وقفت عليه- بأن النور المحمدي- بزعمهم- أول مخلوق وإنما هو من دين الصوفية ومن قلدهم الذي فارقوا به جماعة المسمين والله أعلم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجه الرابع:أنه على رواية (أول ما خلق الله نور نبيك من نوره) باطل لمعارضته لبشرية النبي - r - إذ من المقطوع به أن نبينا محمداً - r - من بني آدم وآدم خلق من طين لا من نور، وفي الحديث غير ما سبق ذكره من المخالفات وانظرها في رساله الأخ الصادق محمد إبراهيم الموسومة بـ"خصائص المصطفى بين الغلو والجفا"(ص/٨٣-٨٩).

وكذلك حديث أبي هريرة t عن النبي r :"كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث".فسنده ضعيف، والصحيح أنه عن قتادة مرسلاً.والله أعلم.

وأزيد على مذكرة الشيخ بأنه قد نبه على وضع هذا الحديث، جمع وكتبوا فيه، مع العلم أن في هؤلاء المؤلفين فيهم السلفي والأشعري وفيهم من فيه تجهم! وكلهم اتفقوا على وضعه، ومن هؤلاء عبدالله الصديق الغماري، في رسالة بعنوان: "مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر." وحسن السقاف، وله إرشاد العاثر لوضع حديث أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر. وكذلك هناك رسالة لأبي عمر محمد العطايا، حول هذا الحديث، وهي المنقولة هنا. ومحمد أحمد عبدالقادر الشنقيطي، في تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق. وكذلك رسالة (النور المحمدي) لعداب الحمش.

وهناك من تعرض له في معرض حديثه كالصادق محمد إبراهيم في رسالته " خصائص المصطفى بين الغلو والجفا." علماً بأن واضعه تارة ينسبه لمسند أحمد! وتارة إلى مصنف عبدالرزاق، وتارة إلى كتاب غير موجود ينسبونه لعبد الرزاق.

فائدة:وأما دعوى أن النبي r لا ظل له، فباطل قطعا لاأصل له ولا دليل عليه، بل وقد جاء في مسند أحمد حديث دال على إثبات الظل للنبي r وأنا لا أقصد الاحتجاج على ذلك ولكنه مقرر للأصل، وأنه r في هذه الأمور هو كبني آدم؛ لأنه منهم r ، فإنما هو بشر r كما قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} [فصلت:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا سمعت أحدهم يقول لك بأن أولياءَهم يرزقون الولد، كما أن جبريل عليه السلام، قال لمريم عليها السلام: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم:١٩]، وأنهم يخلقون، ويحيون الموتى، كما فعل ذلك موسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام، كما في الآيات المتقدم ذكرها، فأجبه بالأوجه المتقدمة، تظفر بالحق، وتهدي إلى سواء السبيل. والله تعالى أعلى وأجل وأعلم، وله الحجة البالغة على خلقه.

الولي يبقى عبدا فلا يكون إلها بحال:

واعلم رحمك الله، أن كثيرا من الناس يعتقد أنه لا يكون العبد وليا حتى يكون إلها، بمعنى حتى يكون له من صفات الله تعالى شيء، وهذه نفس الورطة التي وقع فيها المشركون من قبل، وتأمل في هذا الآيات من سورة الإسراء لتعلم سر ذلك، قال تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً{٩٠} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً{٩١} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً{٩٢} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً{٩٣} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً} [الإسراء:٩٠-٩٤].

٦]، وقوله: {لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} [الأنبياء: ٣]، وغير ذلك من الآيات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الشرك الأصغر: فهو ما سُمِّي شركا، ولم يبلغ حد الأكبر، فلا يخرج من الملة، وقد مثل له أهل العلم بالحلف بغير الله تعالى، وكيسير الرياء والسمعة التي لا يسترسل معها العبد، وقول ما شاء الله وشئت، ولولا فلان لما كان كذا وكذا، إلى غير ذلك مما مثل به العلماء. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

ومن الشرك ما يكون مترددا بين الأكبر والأصغر بحسب حاله، ومن ذلك جعل الشيء سببا مما لم يشرعه الله ولم يأذن به، ومن أشهر أمثلته التوسل، فإنه إن كان متوسلا بالاسم متوجها به إلى الله تعالى، ويكون الطلب والسؤال من الله وحده، فهذا عده كثير من العلماء من الأصغر، وهو المعروف بالتوسل بالجاه، ولابد أن نعلم أنه ذريعة إلى الشرك الأكبر كذلك.

وأما إن توجه إلى المخلوق بالسؤال والطلب متوسلا بذلك إلى حاجته، فهذا شرك أكبر، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

التوسل عند أهل السنة والجماعة وأنواعه

والتوسل مأخوذ من التَّوَصُّل إلى الشيء، بجعله سببا وواسطة لحصول الشيء.

والتوسل ينقسم، إلى قسمين:

١ - توسل مشروع. **٢ - توسل ممنوع.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما التوسل المشروع، فينقسم، إلى ثلاثة أقسام:

أ- **التوسل بأسماء الله وصفاته وأفعاله**، وذلك بسؤال الله تبارك وتعالى بها، وهذا أشرف أنواع التوسل، كما قال تعالى:{وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٨٠]، وقوله:{قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء:١١٠]

وفي الحديث في صحيح مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ الله r أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ:"وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ...الحديث".

وفي صحيح مسلم عن ابْن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاَثًا ثُمَّ قَالَ:"سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ اللَّهُمَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ". وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ. وَزَادَ فِيهِنَّ:"آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ".

وفي صحيح مسلم من طريق سُهَيْل قَالَ كَانَ أَبُو صَالِح يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ".وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r .

وفي صحيح البخاري عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ".

وعن ثوبان t قال كان رسول الله r إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال:"اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام". رواه مسلم، ومثل هذا كثير جدا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب- **التوسل بالأعمال الصالحة**، ومن ذلك التوسل بمحبة النبي r ، ومحبة الصحابة الكرام y ، وهم سادات الأولياء بعد الأنبياء والمرسلين، والتوسل بعمل صالح قام به العبد، وصُوْرَتُه أن يتوجه المخلوق إلى الخالق تبارك وتعالى بذلك، طالبا قضاء حاجته، كقولك:اللهم بحبي لنبيك r ولأصحابه، وعباد الله الصالحين، فرج كربي واقض حاجتي، أو كقولك:اللهم أسألك بقيامي اللَّيلَ لك خالصا لوجهك، اشفني واشف أهلي، وأصلحنا يا كريم، ونحو ذلك.

ودليل ذلك ما جاء في الصحيحين عن عَبدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَّ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ قَالَ النَّبِيُّ r وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا قَالَ النَّبِيُّ r وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ الله أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ الله لَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ".

والسؤال الذي يطرح نفسه، ونحن بين يدي فتن كبار، وأحداث عصيبة، وأحوال هائلة مقبلة على هذه الأمة، هل لدينا رصيد من أعمال السِّر بيننا وبين الله تعالى، نحن مستوثقون منها، أنها كانت خالصة لله تعالى تماما، وموافقة لهدي رسول الله r ؛ نُعِدُّهَا لمثل هذا المَقَام؟.

ت- **التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح**، كأن يقع الإنسان في ضيق وشدة فيذهب إلى رجل من المسلمين من أهل الصلاح والتقوى، واتباع السنة، أو أهل الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له الله جل وعلا أن يفرج كربه أو يغيث لهفته ويقضي حاجته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا النوع هو الذي حصل فيه النزاع بين أهل السنة والجماعة، وأهل البدعة والشناعة، ولهذا ضبط سلف هذه الأمة الأخيار هذا النوع من التوسل بضوابط ملزمة واضحة بينة، وهذه الضوابط استخرجوها من استقراءهم لنصوص الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة وعلى رأسهم الصحابة الكرام البررة وإليك هذه الضوابط:

ضوابط التوسل بدعاء الصالحين

أولاً: أن يكون الشافع صالحاً مرضي العمل.

قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}. [طه:١٠٩].

فإن قيل هذا في الدار الآخرة، فالجواب أن المشفوع لديه في الدنيا والآخرة هو الله رب العالمين، ولهذا المتأمل لتعامل السلف الصالح يجد أنهم ما كانوا يطلبون الدعاء من الفَسَقَة والمبتدعة والضالين والمنحرفين، وإنما كانوا يطلبونها ممن يعتقدون صلاحهم بما ظهر لهم من موافقة السنة النبوية، واتباع شريعة رب العالمين، وقد بين النبي r أن دعاء الفَسَقَة والمجرمين بعيد الاستجابة فعن أبي هريرة t قال، قال رَسُول الله r :"أيها الناس إن اللهَّ طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن اللهَّ أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً}. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم}. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومَطْعَمه حَـرَام ومَشْرَبـه حـرام وغُـذِيَ بـالحرام فَـأَنَّى يستجاب لذلك؟"١.

ثانياً: أن يكون الشافع حياً، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُـونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ{٢٠}أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْـعُرُونَ أَيَّـانَ يُبْعَثُـونَ}النحـل[٢٠-٢١]، وقوله تعالى: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}[فاطر:١٤].

ثالثاً: أن يكون الشافع قادراً حاضراً.قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الأعـراف:١٩٤]. والمعنـى أي إنما هم بشر مثلكم؛ فلا تسألوهم ما ليس لهم، مما اختص الله تبارك وتعالى به.

رابعاً : أن يكون موضوع التوسل أمراً مشروعاً أو مباحاً.

كما قال النبي **r** :"اعْرِضُوا عليّ رُقَاكُمْ. لاَ بَـأْسَ بِـالرّقَى مَـا لَمْ يَكُـنْ فِيـهِ شِرْكٌ"٢.

وقوله عليه الصلاة والسلام كما في مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري قال النبي **r** :"مَـا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِـرَةِ وَإِمَّـا أَنْ يَصْـرِفَ عَنْـهُ مِـنْ السُّـوءِ

---

١ - أخرجه مسلم.

٢ - أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك **t** .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِثْلَهَا"، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ:"اللهُ أَكْثَرُ". وجاء أيضا عن حديث عبادة بن الصامت t .١

وعليه فطلب الدعاء من المبتدعة والفساق، أو من الموتى، أو من الأحياء العاجزين، أو من الأحياء الغائبين، كل هذا من الأفعال القبيحة الذميمة، الدالة على نقص عقل فاعلها، وفساد تصوره، وسوء أو عدم فهمه لحقيقة التوحيد، الذي بُعِثت به الرسل كما قال تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} في مواضع متعددة من سورة الأعراف وهود.

وفي الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ". فتأمل كيف قيد r الانتفاع بالدعاء بصلاح الولد.

ودليل جواز التوسل بدعاء الرجل الصالح هو ما جاء بأسانيد صحيحة عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يطلبون من الرسول r أن يدعو الله لهم أن يسقيهم.

كما في الحديث عن أنس بن مالك:"أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله r قائم يخطب، فاستقبل رسول الله r قائما، فقال: يا رسول الله،

---

١ - أخرجه التِّرمِذِيُّ من حديث عبادة بن الصامت t ، وإسناد أحمد أصح، وَقَالَ عن حديث عبادة t : حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا. قال: فرفع رسول الله r يديه فقال:"اللهم اسقينا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا" قال أنس: لا والله، ما نرى في السماء من سحاب، ولا قَزَعَة، ولا شيئا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: والله ما رأينا الشمس سبتا. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله r قائم يخطب، فاستقبله قائما، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها. قال: فرفع رسول الله r يديه،ثم قال:"اللهم حَوالَينَا ولا علينا، اللهم على الآكَام والجبال، والآجَام والظَّرَاب، والأودية ومنابت الشجر" قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس. متفق عليه.

ومنها ما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ النّبِيّ r قَالَ:"يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ" وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ:"اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ" ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ:"سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ"١.

ومنها ما أخرجه البخاري أيضاً عن أنس t من استسقاء عمر t جهراً، والصحابة متوافرون بدعاء عم النبي r العباس t حيث أتى العباس ابن عبد المطلب t ، وطلب منه أن يدعو الله عز وجل أن يسقى الناس فعن أنس t :"أن عمر بن

١ - وهو في الصحيحين بأطول منه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطاب t : كان إذا قَحَطُوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب. فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال فيسقون".

وفي صحيح مسلم عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ نَعَمْ . قَالَ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ قَالَ نَعَمْ.

قَالَ فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ قَالَ نَعَمْ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ". فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ الْكُوفَةَ. قَالَ أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا قَالَ أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ". فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ لَقِيتَ عُمَرَ قَالَ نَعَمْ. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ أُسَيْرٌ وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ مِنْ أَيْنَ لأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسند صحيح أن معاوية بن أبي سفيان t استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فرفع يزيد يديه، ورفع الناس فدعا الله عز وجل.

ومنه ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه أيضا بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس فقال ليزيد بن الأسود قم يا بكاء فدعا الله عز وجل فسقاهم الله جل في علاه.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا أكثر من أن تُحصر، فمنها دعاء النبي r لدوس، ولأم أبي هريرة رضي الله عنهما، ولِلأَمَةِ التي كانت تُصْرَع رضي الله عنها، وغير ذلك كثير كثير، وفيما ذكرناه إشارة وتنبيه على ما سواه. والعلم عند الله.

فهذه الأنواع الثلاثة من التوسل، جِمَاعُ أنواع التوسل المشروع راجِعٌ إليها، ورَحَاها يدور عليها، ولقد فَرَّعَ بعضُ أهل العلم تفريعات منها إلا أنَّ آخِيَّتَها إليها، وما سواها بَاطِل لا يجوز العمل به بإجماع الصحابة كما سنبينه إن شاء الله فيما يأتي؛ ولأنه ليس عليه دليل لا من الكتاب، ولا من السُّنةِ، وكما في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت قال رَسُول الله r :"مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَد"، وفي رواية لمسلم "مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُو رَد".

والمتأمل لهذا الحديث العظيم الذي هو الأصل والضابط الدقيق في كل عبادة قولية كانت أو فعلية ظاهرة أو باطنة يجد أن هناك اختلافا في اللفظ في هذا الخبر، فَمَرَّةً قال عليه الصلاة والسلام:" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرنَا"، وَمَرَّةً قال:" مَنْ عَمِلَ عَمَلاً "،وهذا التباين هو بسبب اختلاف أحوال الناس مع البدع والضلالات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلما كان بعض الناس رأسا في الضلالة والابتداع بحيث يقوم هو بإحداث عبادات لم يشرعها الله تبارك وتعالى ولا رسوله r ويدعو الناس إليها ويُزَيِّنُها بزخرف القول الباطل، وبالاستدلالات الباطلة إما بأدلة ضعيفة أو موضوعة، وإما بأدلة صحيحة أساء فهمها خطأ أو عمدا فخالف فُهُومَ الصَّحَابَة وعُلُومَهُم في هذا الباب العظيم، أَعْنِي باب أصول الدين الكبار ومبانيه العظام، ألا وهو التوحيد الخالص لله رب العالمين؛ جاء الخطاب لهذا الصنف من الناس بقوله عليه الصلاة والسلام:" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا ".

وأما البعض الآخر فإنه قد لا يجرؤ، أو لا يقوى على الإحداث في الدين، ولكنه غِرٌّ سَاذَج، يَغْتَرُّ بِبَهْرَج المبطلين، الذين يَخْتِلُون الناس عن دينهم، بالشبه الباطلة، وتلبيسات الشياطين وأعوانهم، وليس لديه من نور العلم النبوي الصافي الزُّلال، ما ينجو به من هذه الضلالات والمنكرات، ويكشف به زيف هؤلاء المبطلين الْمُلَبِّسِين؛ فيتابعهم على ما أحدثوه من البدع والضلالات، فهؤلاء مخاطبون بقوله عليه الصلاة والسلام:"مَنْ عَمِلَ عَمَلاً ".

والمعنى إذن، أنَّ كُلَّ من أحدث في الدين ما ليس من شريعة رب العالمين، ولا من هدي سيد المرسلين، أو تابع غيره على ما أحدثه في الدين؛ فهو مردود على صاحبه كائنا من كان، التابع والمتبوع سواء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في:(الاستغاثة الكبرى):[فإنه بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعو أحداً من الأموات ولا الصالحين ولا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه]ا.هـ.

وقال أيضا رحمه الله في (الاستغاثة الكبرى):[والاستغاثة بالرسول؛ بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه، لا ينازع فيها مسلم، كما أنه يستغاث بغيره بمعنى أن يطلب منه ما يليق به.

ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به، وإما مخطئ ضال، وأما بالمعنى الذي نفاه الرسول عليه الصلاة و السلام فهي أيضاً مما يجب نفيها.

ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو كافر، إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها].ا.هـ.

ومما ذكره العلماء من أنواع التوسل، التوسل بالعلم الذي وَرَّثَهُ لنا محمدٌ r ، والمعنى أن لا نتخذ وسيلة سواه لمعرفة حدود ما أنزل الله تبارك وتعالى، وهذا خارج عن مسألة التوسل بالدعاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التبرك وضوابطه عند أهل السنة والجماعة

وإن من المهم أن نَذْكُر ما يتعلق بالتبرك بآثار الصالحين، فإن هذه المسألة هي أحد أشد وأغلظ الذرائع التي يتوصل بها المبطلون إلى الإشراك بالمخلوقين، لا سيما أنهم يجدون في كلام بعض المتأخرين ما يُسوغ ذلك، وإن المتأمل في الأدلة الشرعية؛ يجد أن التبرك بآثار النبي r أمر ظاهر وهو معنى مجمع عليه، وعليه فلا إشكال أبدا عند أهل السنة والجماعة في هذه المسألة من جهة أصلها، ولكن وقع خلاف بين الصحابة y في مسألة تتبع منازل ومواقف النبي r ، التي نزلها في حربه وسِلْمِه، وحِلِّه وسَفَرِه، فذهب جماهير الصحابة y إلى المنع من ذلك، إلا ما تبث أن فيه معنى القصد والتعبد بحسب موارد الأدلة، وأما ما جرى بدون قصد من النبي r ؛ فلا يشرع التتبع فيه، وقد نُقِل إنكار أمير المؤمنين عمر r على من يفعل ذلك، ومنهم ابنه عبد الله بن عمر فقد كان ينكر عليه مثل هذا.

وأما التبرك بغير النبي r ، فهذا الذي ما فعله الصحابة y ، لا مع أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، ولا مع أحد من المبشرين بالجنة، ولا مع من شهد أحدا أو بدرا، ولا مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار y ؛ مما يدل دلالة واضحة على أن هذا الأمر كان خاصا بالنبي r ، وليس لأحد من بعده، وليس معنى هذا انتفاء البركة عن هؤلاء الأخيار الأطهار الأبرار y ، وإنما لأن التبرك حكم شرعي؛ فلا يجوز التوسع فيه إلا بدليل، وليس كون الشيء فيه بركة يعني بالضرورة جواز التبرك به،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالمسلم مبارك لا ينجس حيا وميتا، فهل نقول بجواز التبرك بكل مسلم، هذا لا يصح أبدا.

وقد جاءت أدلة في إثبات البركة لبعض الأعيان، كما في قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [المؤمنون:٢٩]، وقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} [ق:٩]، وكالأرض مثلا، كما قال تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت:١٠]، وكما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ قِيلَ وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ قَالَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ فَصَمَتَ النَّبِيُّ r حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ أَيْنَ السَّائِلُ قَالَ أَنَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ قَالَ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرَةِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ".

ثم جاء الدليل الدال على جواز التبرك بماء السماء أثناء نزوله كما في صحيح مسلم عنْ أَنَسٍ قَالَ أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله r مَطَرٌ قَالَ فَحَسَرَ رَسُولُ الله r ثَوْبَهُ حَتَّى أَصَابَهُ مِنَ الْمَطَرِ. فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله لِمَ صَنَعْتَ هَذَا قَالَ:"لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نفس الوقت دلت الأدلة السابقة على بركة الأرض، فهل نقول بجواز التمسح والتبرك بجبالها وسهولها، وهضابها وأحجارها، ونحو ذلك؟!، قطعا هذا معنى باطل.

واستعمل الصحابة y ألفاظا دالة على إثباتهم البركة في أعيان من الأمة، ومع ذلك لم يتبركون بهم ولا بآثارهم، فمن ذلك ما جاء في صحيحين عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r قَالَتْ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله r فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ الله r عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ الله r وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ الله r وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ حَبَسْتِ رَسُولَ الله r وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنْ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ الله r عَلَى فَخِذِي فَقَامَ رَسُولُ الله r حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ.

واعلم رحمك الله تعالى، أن جِمَاعَ هذه المسألة يتمثل في اتباع ما كان عليه النبي r والصحابة y، فما تبركوا به؛ تبركنا به، وما لا فلا، فالشأن في ذلك كغيرها من المسائل الشرعية، التي لا يجوز الإقدام عليها إلا بدليل صحيح وفَهْمٍ على فَهْمِ الصحابة الكرام y.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم):[وما أحسن ما قال مالك لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عُوِّضُوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك وغيره؛ ولهذا كره الأئمة استلام القبر وتقبيله وبنوه بناء منعوا الناس أن يصلوا إليه وكانت حجرة عائشة التي دفنوه فيها ملاصقة لمسجده وكان ما بين منبره وبيته هو الروضة ومضى الأمر على ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم وزيد في المسجد زيادات وغيروا الحجرة عن حالها هي وغيرها من الحجر المطيفة بالمسجد من شرقيه وقبليه حتى بناه الوليد بن عبد الملك وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة فابتاع هذه الحجر وغيرها وهدمهن وأدخلهن في المسجد فمن أهل العلم من كره ذلك كسعيد بن المسيب ومنهم من لم يكرهه، قال أبو بكر الأثرم قلت لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل قبر النبي r يمس ويتمسح به فقال ما أعرف هذا قلت له فالمنبر فقال أما المنبر فنعم قد جاء فيه قال أبو عبد الله شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن ابن عمر أنه مسح على المنبر قال ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة قلت ويروون عن يحيى بن سعيد أنه حين أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه ثم قال لعله عند الضرورة والشيء قيل لأبي عبد الله إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية فيسلمون فقال أبو عبد الله نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ثم قال أبو عبد الله بأبي هو وأمي r فقد رخص أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرمانة التي هي موضع مقعد النبي r ويده ولم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرخصوا في التمسح بقبره وقد حكى بعض أصحابنا رواية في مسح قبره لأن أحمد شيع بعض الموتى فوضع يده على قبره يدعو له والفرق بين الموضعين ظاهر، وكره مالك التمسح بالمنبر كما كرهوا التمسح بالقبر، فأما اليوم فقد احترق المنبر وما بقيت الرمانة وإنما بقي من المنبر خشبة صغيرة فقد زال ما رخص فيه لأن الأثر المنقول عن ابن عمر وغيره إنما هو التمسح بمقعده، وروى الأثرم بإسناده عن العتبي عن مالك عن عبد الله بن دينار قال رأيت ابن عمر يقف على قبر النبي r فيصلي عليه وعلى أبي بكر وعمر، الوجه الثالث في كراهة قصد القبور للدعاء أن السلف y كرهوا ذلك متأولين في ذلك قوله r :"لا تتخذوا قبري عيدا" كما ذكرنا ذلك عن علي بن الحسين والحسن بن الحسن ابن عمه وهما أفضل أهل البيت من التابعين وأعلم بهذا الشأن من غيرهما لمجاورتهما الحجرة النبوية نسبا ومكانا، وقد ذكرنا عن أحمد وغيره أنه أمر من سلم على النبي r وصاحبيه ثم أراد أن يدعو أن ينصرف فيستقبل القبلة وكذلك أنكر ذلك غير واحد من العلماء المتقدمين كمالك وغيره ومن المتأخرين مثل أبي الوفاء بن عقيل وأبي الفرج بن الجوزي، وما أحفظ لا عن صحابي ولا عن تابعي ولا عن إمام معروف أنه استحب قصد شيء من القبور للدعاء عنده ولا روى أحد في ذلك شيئا لا عن النبي r ولا عن أحد من الأئمة المعروفين]ا.هـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٢٧ / ٢٢٣):[وَاتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمَسُّ قَبْرَ النَّبِيِّ r وَلَا يُقَبِّلُهُ، **وَهَذَا كُلُّهُ مُحَافَظَةً عَلَى التَّوْحِيدِ . فَإِنَّ مِنْ أُصُولِ الشِّرْكِ بِاَللهِ اتِّخَاذَ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ** كَمَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} قَالُوا : هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ . وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضَ هَذَا الْمَعْنَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ كَمَا ذَكَرَ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّ هَذِهِ الْأَوْثَانَ صَارَتْ إلَى الْعَرَبِ وَذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطبري وَغَيْرُهُ فِي التَّفْسِيرِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ . وَذَكَرَهُ غَيْرُهُ فِي "قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ" مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ . وَقَدْ بَسَطْت الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ]ا.هـ.

وقال أيضا في (الفتاوى الكبرى):[وأما القبور التي في المشاهد وغيرها فالسنة لمن أن يسلم على الميت ويدعو له بمنزلة الصلاة على الجائز كما كان النبي r يعلم أصحابه أن يقولون إذا زاروا القبور:"السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم"، وأما التمسح بالقبر أو الصلاة عنده أو قصده لأجل الدعاء عنده معتقدا أن الدعاء هناك أفضل من الدعاء في غيره أو النذر له ونحو ذلك فليس هذا من دين المسلمين بل هو مما أحدث من البدع القبيحة التي هي من شعب الشرك والله أعلم وأحكم]ا.هـ.

وقال أيضا في (مجموع الفتاوى):[وَأَمَّا التَّمَسُّحُ بِالْقَبْرِ - أَيَّ قَبْرٍ كَانَ - وَتَقْبِيلُهُ وَتَمْرِيغُ الْخَدِّ عَلَيْهِ فَمَنْهِيٌّ عَنْهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا بَلْ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ قَالَ اللهُ تَعَالَى:{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} وَقَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَقَدَّمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَأَنَّهُمْ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ مُدَّةً ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ. لَا سِيَّمَا إذَا اقْتَرَنَ بِذَلِكَ دُعَاءُ الْمَيِّتِ وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ وَبَيَانُ مَا فِيهِ مِنْ الشِّرْكِ وَبَيَّنَّا الْفَرْقَ بَيْنَ "الزِّيَارَةِ الْبِدْعِيَّةِ" الَّتِي تَشَبَّهَ أَهْلُهَا بِالنَّصَارَى و"الزِّيَارَةِ الشَّرْعِيَّةِ". وَأَمَّا وَضْعُ الرَّأْسِ عِنْدَ الْكُبَرَاءِ مِنْ الشُّيُوخِ وَغَيْرِهِمْ أَوْ تَقْبِيلُ الْأَرْضِ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ فِي النَّهْيِ عَنْهُ بَلْ مُجَرَّدُ الِانْحِنَاءِ بِالظَّهْرِ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْهِيٌّ عَنْهُ]ا.هـ.

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى في كتابه؛(القول المفيد على كتاب التوحيد) في كلامه على (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما، وقول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}. عن أبي واقد الليثي قال:خرجنا مع رسول الله r إلى حنين ونحن حُدَثَاءُ عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ويَنُوطُون بها أسلحتهم يقال لها ذَاتُ أَنْوَاط، فمررنا بسدرة؛ فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذَاتَ أنواط كما لهم ذَاتُ أنواط؛ فقال رسول الله r :"الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} ٢ لتركبن سنن من كان قبلكم". رواه الترمذي وصححه).

:[قوله: "تبرك": تفعل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

١ - الكثرة. **٢ - الثبوت.**

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١. أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم؛ مثل القرآن، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ}. فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمما كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد....، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢. أن يكون بأمر حسي معلوم؛ مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير؛ فيكون هذا بركة لأننا نِلْنَا منه خيرا كثيرا. وقال أسيد بن حضير:(ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر)؛ فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر. وهناك بركات موهومة باطلة؛ مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلانا الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك؛ فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثارا حسية، بحيث إن الشيطان يخدم هذا الشيخ؛ فيكون في ذلك فتنة.

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة؟ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة؛ فإن الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته. أما إن كان مخالفا للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل؛ فإن بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:إن الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه]ا.هـ.

ثم اعلم أن للقوم شبهات[1]، يخادعون بها أتباعهم، ويستدلون عليها بآيات وبعض الأحاديث الصحاح، وبكثير من الضعيف والموضوع، والعامة لا يكادون يميزون، ويَلْوُون أعناقها، محرفين الكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه، فيضلون الناس، ويحرفونهم عن الصراط المستقيم، فَلْنَتَسَلَّحْ بسلاح العلم، لِنُنْقِذ الأمة من بَرَاثِنِ هؤلاء الضالين المضلين، أولياء الشياطين، من أئمة الشرك والضلال، الداعين الناس إلى عبادة غير الله، والذي حملوا على عاتقهم، إحياء ملة عمرو بن لحي الْخُزَاعِي، التي لا تقوم إلا على أنقاض ملة إبراهيم r .

ففي الصحيحين من طريق ابْنِ شِهَابٍ قَالَ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ إِنَّ الْبَحِيرَةَ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلاَ يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا السَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ فَلاَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ. وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ الله r :"رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السُّيُوبَ". قُصْبَهُ: أي أمعاءه.

---

١ - للوقوف على مزيد المعلومات عن التوسل، وعلى أشهر هذه الشبهات وأظهرها، والرد عليها، راجع كتابي التوسل المشروع والممنوع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشِّرْكُ الأَكْبَر

وأما الشرك الأكبر فينقسم إلى أربعة أقسام، وما عداها متفرع منها:

١ - **شرك الدعاء**:وهو التوجه إلى غير الله تعالى بالمسألة، طلبا لتفريج كرب أو رفع ضر، أو قضاء حاجته، أو طلب تحقيق النصر والظفر، أو مجرد نداء لهم مُتَأَلِّها بِذِكْرِ اسمِهِم، راجيا المَدَدَ والبَرَكَة، كما يهتف المسلمون بربهم تبارك وتعالى، كما قال تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٧١].

فبين الله سبحانه وتعالى أن هذه ردة عن الإسلام، فمن كانت هذه حالته انتقض إسلامه، فمن دعا مخلوقاً كان مشركاً الشرك الأكبر.

وهذا من أكثر ما وقع فيه عباد القبور، حتى إن فلانا ليقول:(قَبْرُ فُلان التِّرْيَاق المُجَرَّب) والعياذ بالله، وسواء في ذلك دعوت النبي r ، أو جبريل، أو الولي، أو الحجر، أو غير ذلك، فكلها سواء، والقاعدة في هذا الباب تقول:(كل عبادة ثَبَتَتْ بالكِتَاب أو السُّنَّة فَصَرْفُها لغير الله تعالى شرك أكبر)، وسيأتي مزيد إيضاح وبيان بإذن الله تعالى.

٢ - **شرك النية والإرادة والقصد**: وهو إرادة الدنيا بعمل الآخرة، كما قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود:١٥-١٦].

وهذا دليل على أن شرك النية، ويدخل فيه الرياء والسمعة، منه ما هو شرك أكبر:(كأن يقول حجوا لله ولفلان، أو ينوي بدفع ماله تقرباً إلى الله وإلى فلان، أياً كان ذلك الفلان، وكأن ينوي مثلاً أن يذبح لله ولفلان ... إلى غير ذلك، من أنواع العبادات).

وأما قوله تعالى:{نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}، فقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة، بقوله تعالى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى:٢٠]،قوله:{منها}، (من) هنا تبعيضية، أي تؤته بعض الحظ، مما أراد من حطام الدنيا، فأما قوله تعالى:{نُوَفِّ} فهذا منسوخ، وقال آخرون ليس هناك نسخ لعدم ثبوت ذلك، ولكن تنوع السياق دال على تنوع الحال، فالأمر كله من باب الاستدراج، والاستدراج درجات، فربما أُعْطِيَ شيئاً، كقوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٥]، وربما لم يعط البَتَّة.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٦٤]، وقال: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء:٣٨-٤٢].

وفي قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ١٣٤]، طمأنة للموحدين الذين لا يبتغون بأعمالهم سوى الله والدار الآخرة، فاللهم اجعلنا منهم، واحشرنا معهم، فإنا نشهدك يا ربنا على حبهم، وقد وعدت أن المرء مع من أحب؛ فألحقنا بهم يا أكرم الأكرمين.

أحوال العمل مع الرياء:

ويدخل في ذلك الرياء والسمعة، إذ ليس كل رياء وسمعة شركاً أصغر، بل قد يكون شركا أكبر؛ ولهذا يمكن تقسيمه إلى أقسام:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ- أن يُنْشِأ العمل مما يتقرب به إلى الله تعالى، يريد بذلك عرضاً من الدنيا، وهـذا لا يصدر إلا من منافق خالص، والعياذ بالله، ونسأل الله العافيـة والسـلامة. وهـذا شرك أكبر، وصاحبه منافق في الدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيرا.

وكما قال بعضهم: لا تكن في الخلوات **إبْلِيسَا** وبين الناس **قِدِّيسَا**.

ومن جميل ما نقله ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح:

ذِئْـبٌ تَـرَاهُ مُصَـلِّيـا ... فَـإِذَّا مَـرَرْتَ بـه رَكَـعْ

يَـدْعُـو وَجُلُّ دُعَائِـه ... مَا لِلْفَـرِيسَـةِ لا تَـقَـعْ

وإذا الفَرِيْسَةُ خليت ... ذَهَبَ التَّنَسُّكُ والوَرَعْ

ب- ما طرأ على العبادة، بعد أن كان أصـلها أُرِيـدَ بهـا وجـه الله تعـالى، فهـذا هـو الشـرك الأصغر، فإن رده ودافعه فله حظ وافر من قوله تعالى: {وَأَمَّا مَـنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات:٤٠-٤١].

ت- أن تكون العبادة لله ثم يطرأ عليها الرياء، ويسترسل معـه العبـد، فقيـل يحـبط عمله كله أي هذا وغيره، وهذا من خطورة الأمر. وقيل يحبط ذلك العمل بعينه. وقيل يعامله الله بأصل نيته فضلاً منه وكرماً.

وقيل بالتفصيل، فإن كانت العبادة مما ينبني بعضها على بعـض، مـن ناحيـة مبناهـا وقبولها، كالصلاة مثلا، فأشرك في بعضها؛ حبطت كلها؛ لأنها مبنية على بعضها، وأمـا إن كانت العبادة غير مبنية على بعضها، كالزكاة والصدقة مثلا، وصيام شهر رمضـان، أي قابلة للتبعيض، أي يتصور قبول البعض ورد البعض، فأشرك في بعض مالـه، أو في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض أيام رمضان؛ حبط ما شرك فيه، وقُبل ما أخلص فيه. وهـذا أرجـح الأقـوال في نظري والله أعلم.

جاء في:(ترتيب المدارك وتقريب المسالك) لأبي الفضل القاضي عياض بـن موسـى اليحصبي:[قال ابن وهب كان في كم مالك منديل مطوي على أربع طاقات فإذا سـجد سجد عليه فقيل له في ذلك فقال أفعله لئلا يؤثر الحط على جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل.

قال ابن وهب وكـان أكثـر عبـادة مالـك في السـر بالليـل والنهـار حيـث لا يـراه أحد]ا.هـ.

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من طريق حُصَيْنُ بْنُ عَبْـدِ الـرَّحْمَنِ قَـالَ كُنْـتُ عِنْـدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ قُلْتُ أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاَةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.**

قَالَ فَمَاذَا صَنَعْتَ قُلْتُ اسْتَرْقَيْتُ. قَالَ فَمَا حَمَلَـكَ عَـلَى ذَلِـكَ قُلْـتُ حَـدِيثٌ حَـدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَقَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَـا سَـمِعَ وَلَكِـنْ حَـدَّثَنَا ابْـنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِـيَّ وَمَعَـهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيـلَ لِي هَذَا مُوسَى r وَقَوْمُهُ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيـلَ لِي انْظُـرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ"، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله r . وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله r فَقَالَ:"مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ". فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ:"هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ:"أَنْتَ مِنْهُمْ" ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ:"سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

فتأمل في قول حصين رحمه الله تعالى : **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاَةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.**

وجاء في حلية الأولياء:[وقال عبد الله: اثنتان منجيتان، واثنتان مهلكتان، فالمنجيتان النية والنهي، فالنية أن تنوي أن تطيع الله فيما يستقبل، والنهي أن تنهى نفسك عما حرم الله عز و جل، والمهلكتان العجب والقنوط]ا.هـ.

مكر شيطاني:

وعلينا أن نحذر من تلبيس الشيطان على بعض العباد، حيث يحملهم على ترك العمل الصالح؛ خشية الرياء، فإن هذا منهم رياء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في:(الفتاوى الكبرى:[وَمَنْ كَانَ لَهُ وِرْدٌ مَشْرُوعٌ مِنْ صَلَاةِ الضُّحَى، أَوْ قِيَامِ لَيْلٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيهِ حَيْثُ كَانَ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدَعَ وِرْدَهُ الْمَشْرُوعَ لِأَجْلِ كَوْنِهِ بَيْنَ النَّاسِ، إذَا عَلِمَ اللهَّ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ سِرًّا للهَّ مَعَ اجْتِهَادِهِ فِي سَلَامَتِهِ مِنْ الرِّيَاءِ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمُفْسِدَاتِ الْإِخْلَاصِ، وَلِهَذَا قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: تَرْكُ الْعَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ.

وَفِعْلُهُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَعِيشَتُهُ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللهَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَفْعَلَهُ حَيْثُ تَتَعَطَّلُ مَعِيشَتُهُ، وَيَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ كُلَّمَا كَانَتْ أَجْمَعَ لِلْقَلْبِ وَأَبْعَدَ مِنْ الْوَسْوَاسِ كَانَتْ أَكْمَلَ.

وَمَنْ نَهَى عَنْ أَمْرٍ مَشْرُوعٍ بِمُجَرَّدِ زَعْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ رِيَاءٌ، فَنَهْيُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ لَا يُنْهَى عَنْهَا خَوْفًا مِنْ الرِّيَاءِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِهَا وَبِالْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَنَحْنُ إذَا رَأَيْنَا مَنْ يَفْعَلُهَا أَقْرَرْنَاهُ، وَإِنْ جَزَمْنَا أَنَّهُ يَفْعَلُهَا رِيَاءً، فَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُّ فِيهِمْ: {إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَّ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَّ إلَّا قَلِيلًا}.

فَهَؤُلَاءِ كَانَ النَّبِيُّ r وَالْمُسْلِمُونَ يُقِرُّونَهُمْ عَلَى مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ الدِّينِ، وَإِنْ كَانُوا مُرَائِينَ، وَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْفَسَادَ فِي تَرْكِ إظْهَارِ الْمَشْرُوعِ أَعْظَمُ مِنْ الْفَسَادِ فِي إظْهَارِهِ رِيَاءً، كَمَا أَنَّ فَسَادَ تَرْكِ إظْهَارِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَوَاتِ أَعْظَمُ مِنْ الْفَسَادِ فِي إظْهَارِ ذَلِكَ رِيَاءً ؛ وَلِأَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى الْفَسَادِ فِي إظْهَارِ ذَلِكَ رِئَاءَ النَّاسِ.

الثَّانِي: لِأَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى مَا أَنْكَرَتْهُ الشَّرِيعَةُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله r : {إنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَنْ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ}. وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَجَبْنَاهُ، وَوَالَيْنَاهُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًّا أَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّ سَرِيرَتَهُ صَالِحَةٌ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثَّالِثُ: أَنَّ تَسْوِيغَ مِثْلِ هَذَا يُفْضِي إِلَى أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ يُنْكِرُونَ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ إِذَا رَأَوْا مَنْ يُظْهِرُ أَمْرًا مَشْرُوعًا مَسْنُونًا، قَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، فَيَتْرُكُ أَهْلُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ إِظْهَارَ الْأُمُورِ الْمَشْرُوعَةِ، حَذَرًا مِنْ لَمْزِهِمْ وَذَمِّهِمْ، فَيَتَعَطَّلُ الْخَيْرُ، وَيَبْقَى لِأَهْلِ الشِّرْكِ شَوْكَةٌ يُظْهِرُونَ الشَّرَّ، وَلَا أَحَدَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِنْ شَعَائِرِ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ يَطْعَنُ عَلَى مَنْ يُظْهِرُ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فَإِنَّ النَّبِيَّ r لَمَّا حَضَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ عَامَ تَبُوكَ جَاءَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ يَدُهُ تَعْجِزُ مِنْ حَمْلِهَا، فَقَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، وَجَاءَ بَعْضُهُمْ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: لَقَدْ كَانَ اللهُ غَنِيًّا عَنْ صَاعِ فُلَانٍ، فَلَمَزُوا هَذَا وَهَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ، وَصَارَ عِبْرَةً فِيمَنْ يَلْمِزُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ لله وَرَسُولِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ]ا.هـ.

الفرق بين العُجْب والرياء

كما يجب علينا الحذر من العُجْب؛ فإنه مفسد للعمل:قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى:[وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله: {إياك نعبد} والمعجب لا يحقق قوله: {إياك نستعين} فمن حقق قوله: {إياك نعبد} خرج عن الرياء ومن حقق قوله: {إياك نستعين} خرج عن الإعجاب]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في :(الفوائد):[فصل: ذكر ابن سعد في الطبقات عن عمر بن عبد العزيز أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العُجْب؛ قَطَعَهُ، وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مَزَّقَهُ، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي فيه مرضاة الله مطالعا فيه مِنَّةَ الله عليه به وتوفيقه له فيه وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن فالذي مَنَّ عليه بذلك هو الذي مَنَّ عليه بالقول والفعل فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العُجْب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود مِنَّةِ ربه وتوفيقه وإعانته، فإذا غاب عن تلك الملاحظة؛ وثَبَت النفس وقَامَت في مقام الدَّعْوَى فوقع العُجْب؛ ففسد عليه القول والعمل، فتارة يُحَالُ بينه وبين تمامه، ويقطع عليه، ويكون ذلك رحمة به؛ حتى لا يغيب عن مشاهدة المِنَّةِ والتوفيق، وتارة يتم له، ولكن لا يكون له ثمرة، وإن أثمر؛ أثمر ثمرة ضعيفة، غير محصلة للمقصود، وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويَتَوَلَّدُ له منه مفاسد شَتَّى بحسب غَيْبَتِه عن ملاحظة التوفيق والمِنَّةِ ورؤية نفسه وأن القول والفعل به.

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها، أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها، فلا شيء أفسد للأعمال من العُجْبِ ورؤية النفس، فإذا أراد الله بعده خيرا أشهده مِنَّتَه وتوفيقه وإعانته له في كل ما يقوله ويفعله، فلا يُعْجَبُ به، ثم أَشْهَدَهُ تقصيره فيه، وأنه لا يرضى لربه به؛ فيتوب إليه منه، ويستغفره، ويستحي أن يطلب عليه أجرا، وإذا لم يشهده ذلك وغَيَّبَهُ عنه فرأى نفسه في العمل ورآه بعين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكمال والرضا؛ لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة، فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدا فيه مِنَّتَهُ وفضله وتوفيقه، مُعْتَذِرا منه إليه، مستحييا منه، إذ لم يُوَفِّهِ حَقَّهُ، والجاهل يعمل العمل لِحَظِّهِ وهَوَاه نَاظِرا فيه إلى نفسه، يَمُنُّ به على رَبِّه، راضيا بِعَمَلِه فهذا لَوْنٌ وذَاك لَوْنٌ آخر]ا.هـ.

٣- **شرك المحبة:** وهو أن يحب المخلوقُ مَخْلُوقاً مثله، كحبه لله أو أعظم والعياذ بالله،سواء كان من الأحياء أو من الأموات أو الجمادات وغير ذلك، كما قال تعالى: قال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعَذَاب} [البقرة:١٦٥].

واختلف في هذه الآية في قوله:{يحبونهم كحب الله}، فمنهم من قال أي:إن الكافرين يحبون أندادهم كما يحبون الله تعالى،فكان شركهم من جهة التسوية، وبهذا المعنى يكون قد أثبَتَ لهم محبة لله، وقيل أي:إن الكافرين يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، وبهذا المعنى يكون قد نفى عنهم محبتهم لله. والراجح هو القول الأول؛ فإنما ذُمُوا فقط عندما ساووا محبة المخلوق بمحبة الخالق.

فكيف لو أحب المخلوق مخلوقا أعظم من محبته للخالق تبارك وتعالى، كما هو حال الكثير من عباد القبور والأولياء، فإن أحدهم على استعداد أن يحلف بالله كذباً، ولا يجترئ ولا يرضى أبدا أن يحلف بالولي والغوث كذباً؛ لما قام في قلبه من عظيم المحبة والتعظيم لهذا المخلوق، أعظم من محبته لله، والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أن التعظيم يكون بالجوارح والأعمال الظاهرة كما يكون بالقلب، فمن عَظَّم آلهة المشركين بقلبه، أو بالأعمال الظاهرة؛ كان بذلك واقعا في الشرك الأكبر، عياذا بالله من الخذلان.

ومن ذلك ما يفعله بعض المسلمين الذين يأتون معابد الكفار للسياحة – زعموا- فيفعلون الطقوس التي تكون في هذه الزيارة، من تَبْخِيرٍ للأصنام، ومَسْحٍ لها ونحو ذلك.

ومن المحبة الشركية ما يقع من العشق الشركي لمعشوقيهم، وما أكثر هذا اليوم في الذين يحبون الفنانين، والممثلين، والأندية الرياضية، واللاعبين، حتى إنه يترك الصلوات لأجلهم، وحتى إن بعضهم يبلغ به الحال أن ينتحر لأجلهم، بل وبعضهم يسجد لهم أو يركع من شدة حبه لهم إذا رآهم، ويكون ذلك أيضا في محبة النسوان والمردان. نسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن القيم في (القصيدة النونية):

والله ما سَاوَوْهُمُ بالله في ... خلق ولا رزق ولا إحسان

فالله عندهم هو الخلاق والرزاق مولى الفضل والإحسان

لكنهم سَاوَوْهُمُ بالله في ... حب وتعظيم وفي إيمان

جعلوا محبتهم مع الرحمن ما ... جعلوا المحبة قط للرحمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمحبة من جهة العموم تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: محبة الله تعالى، وهذه عبودية من أجل العبوديات.

القسم الثاني: المحبة الشركية كما تقدم.

القسم الثالث: محبة من يُحِبُ الله. كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين والشهداء والصديقين،وهذه والتي تليها هي عقيدة الولاء والبراء، وستأتي.

القسم الرابع: محبة ما يحبه الله. كمحبة الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وذكر الله تعالى وغير ذلك من الأعمال الصالحة، فإن الله تعالى يحبها ولهذا أمر بها وحث عباده عليها.

وعلينا أن ننظر في الأدلة الشرعية؛ لنتعلم من يحب الله، وما يحبه الله؛ لنحبه، ونواليه، ونعمل به.

وفي المقابل ننظر ما أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه لا يحبه، وما أخبرنا أنه يبغضه؛ لنبغضه ونعتزله ونحاربه ونسعى في إزالته.

كقوله تعالى:{قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠]، وقوله:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]، وقوله:{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة:٢٠٥]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة:٢٢٢]، وقوله:{يَمْحَقُ اللهُّ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة:٢٧٦]، وقوله:{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:٥٧]، وقوله جل وعلا: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:٧٦]، وقوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٦]، وقوله: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩]، وقوله: {إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء:٣٦]، وقوله: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء:١٠٧]، وقوله: {لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٨]، وقوله: {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة:٤٢]،وقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [المائدة:٨٧]، وقوله: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف:٣١]، وقوله: {لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل:٢٣]، ونحو ذلك من الآيات.

القسم الخامس:المحبة الفطرية، وهي، كمحبة الوالدين، والأهل، من زوجة، وولد، والأقارب والأصدقاء ونحو ذلك، والواجب في هذه المحبة ألا تطغينا على حق الله تعالى، فإن وقع ذلك؛ وقعنا في الإثم، ثم هذا الإثم بحسب نوع الطغيان الذي وقع، فربما كان معصية دون الشرك، وربما كان شركا، والعياذ بالله من الضلال كله. وهناك تكون الهلكة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وانظر نفسك عند مَعَاقِدِ الخُصُومات، بين مَنْ تُحب ومَا تُحب، وبين أمر الله تعالى، أيهما تقدم؟؛ تعرف هناك خطورة المسألة، فإياك إياك.

وتأمل في هذه النصوص، الدالة على هذا المعنى: كما قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران:١٤-١٥]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن:١٤-١٥]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٢٧-٢٨]، وقوله: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ:٣٥-٣٧]، وقوله: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٦-٣٨]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون:٩]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:٢٣-٢٤]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الزهد والورع والعبادة :[وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه والذين يبغضونه كأعدائه فالذين يحبونه يجذبونه إليهم فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يَقْطَعُه عن الله والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم وانجذاب قلبه إليهم ولو كان على غير الاستقامة وأوجب مكافأته لهم فيقطعونه عن الله وعبادته خلاص القلب من الفتنة فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز و جل فيكون حبه لله ولما يحبه الله وبغضبه لله ولما يبغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته وإلا فمحبة المخلوق تجذبه وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ثم قد يكون هذا أقوى وقد يكون هذا أقوى فإذا كان هو غالبا لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها لكونه غالبا لهواه ناهيا لنفسه عن الهوى لما في قلبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من خشية الله ومحبته التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته وإلا جذبوه وأخذوه إليهم كحب امرأة العزيز ليوسف فإن قوة يوسف ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها هذا إذا أحب أحدهم صورته مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم فهنا المعصوم من عصمه الله وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم ولهذا قال رسول الله r :"لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان" حال الموالية لغير الله وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك فالفتنة في هذا أعظم إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية وخشية وتوحيد تام فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم إن لم يفعلها وإلا نقص الحب أو حصل نوع بغض وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه فصار مَبْغُوضَا بعد أن كان محبوبا فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم حتى يكون كالعبد لهم وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره وأولئك يطلبون منه انتفاعهم وان كان مضرا له مفسدا لدينه لا يفكون في ذلك وقليل منهم الشكور فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره وإنما يقصدون أغراضهم به فإن لم يكون الإنسان عابدا الله متوكلا عليه مواليا له ومواليا فيه ومعاديا وإلا أكلته الطائفتان وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن قوم يوالون زيدا ويعادون عمروا، وآخرون بالعكس لأجل أغراضهم فإذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبوه من زيد انقلبوا إلى عمرو وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين أصناف الناس وكذلك الرأس من الجانبين يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليك من أولئك فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه إما بقتله أو بأخذ ماله وإما بإزالة منصبه وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم فهم لا يبالون بذلك وأما دين العبد الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه ضرر الموالاة لأجل المصلحة وأما أولياؤه الذين للأغراض فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك]ا.هـ.

ضَابِطُ المحبة الفِطْرِية:

فضابط هذه المحبة الفطرية، مع محبة الله جل وعلا، مبين في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَّ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُّ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣١-٣٢]، وذلك بتقديم أوامر الله تعالى وطاعته، على أوامر وطاعة من سواه، من النفس والمال، والوالد والولد، والجاه والسلطان، وغير ذلك، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة t عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى r قَالَ:"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ"؛ فانظر إلى هذا العبد الذي صار من التعساء، لأن ماله أطغاه عن محبة الله جل وعلا، واتباع الهدى.

لا تعارض بين المحبة الفطرية، وعدم تولي الكفار وبغض دينهم:

ومن المحبة الفطرية، محبة الأب والأم الكافرين، ومحبة الزوج المسلم لزوجته الكتابية، ولكن بشرط أن يبغض دينهم، وألا تطغى هذه المحبة على حق الله تعالى، فإن وقعت هذه المعارضة بينهم وبين حق الله تعالى، تعين تقديم حق الله تعالى، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]، مع أن الله تبارك وتعالى أمر بالإحسان إلى الأبوين في مواضع، ولكن بهذا القيد المعتبر، كما قال تعلى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٥].

وقال في شأن نكاح نساء أهل الكتاب: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٥]، فختم الآية بالتذكير بالشهادة عليهن بالكفر، وحبوط العمل، فإن شك في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك أو صحح مذهبها؛ فقد كفر بالله العظيم، وإن نطق بالشهادتين وصلى وصام وحج كل عام.

وتأمل في هذه الآيات، قال تعالى:{لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٨، ٩].

فلنتنبه لهذا المقام العظيم، فلا نخلط بين المحبة الفطرية المتضمنة حسن المعاشرة بالمعروف، مع البر والإقساط، وبين محبة دين الكافرين، أو ترقيق ذلك، أو تصحيح مذهبهم، أو تَوَلِّيهِم ومُوَالَاتِهم، أو مناصرتهم على المسلمين، أو تقديمهم عليهم، تعظيما وتقديرا، فإن هذا كفر بالله تعالى. عياذا بالله. وأما تهنئتهم بأعيادهم الجاهلية، فمتردد بين الكفر والضلال المبين، بحسب الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أول كتابه، الجليل القدر، العظيم الفائدة:(اقتضاء الصراط المستقيم):[بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا ، وأتم علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام دينا، وأمرنا أن نستهديه صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم غير المغضوب عليهم: اليهود، ولا الضالين: النصارى. وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين القيّم، والملة الحنيفية وجعله على شريعة من الأمر، أمر باتباعها، وأمره بأن يقول: {هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما. وبعد: فإني كنت قد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نهيت : إما مبتدئا أو مجيبا عن التشبه بالكفار في أعيادهم، وأخبرت ببعض ما في ذلك: من الأثر القديم، والدلالة الشرعية، وبيَّنت بعض حكمة الشرع في مجانبة الكفار، من الكتابيين والأميين، وما جاءت به الشريعة من مخالفة أهل الكتاب والأعاجم .

وإن كانت هذه قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، كثيرة الشّعَب، واصطلاحا جامعا من أصولها كثير الفروع، لكني نبهت على ذلك بما يسر الله تعالى وكتبت جوابا في ذلك لم يحضرني الساعة، وحصل بسبب ذلك من الخير ما قدّره الله سبحانه، ثم بلغني بأخرة أن من الناس من استغرب ذلك واستبعده؛ لمخالفة عادة قد نشؤوا عليها، وتمسكوا في ذلك بعمومات وإطلاقات اعتمدوا عليها، فاقتضاني بعض الأصحاب أن أعلق في ذلك ما يكون فيه إشارة إلى أصل هذه المسألة؛ لكثرة فائدتها ، وعموم المنفعة بها، ولما قد عمَّ كثيرا من الناس من الابتلاء بذلك، حتى صاروا في نوع جاهلية، فكتبت ما حضرني الساعة، مع أنه لو استُوفي ما في ذلك من الدلائل، وكلام العلماء، واستُقريت الآثار في ذلك، لوُجد فيه أكثر مما كتبته. ولم أكن أظن أن من خاض في الفقه، ورأى إيماءات الشرع ومقاصده، وعلل الفقهاء ومسائلهم، يشك في ذلك، بل لم أكن أظن أن من وقر الإيمان في قلبه، وخلص إليه حقيقة الإسلام، وأنه دين الله، الذي لا يقبل من أحد سواه - إذا نبَّه على هذه النكتة - إلا كانت حياة قلبه، وصحة إيمانه، توجب استيقاظه بأسرع تنبيه، ولكن نعوذ بالله من رَيْنِ القلوب، وهوى النفوس، اللذَيْن يصدان عن معرفة الحق واتباعه]ا.هـ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى:[فَصْلٌ :وَلَا بُدَّ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى قَاعِدَةِ تَحَرُّكِ الْقُلُوبِ إلَى الله عَزَّ وَجَلَّ فَتَعْتَصِمُ بِهِ فَتَقِلُّ آفَاتُهَا أَوْ تَذْهَبُ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ بِحَوْلِ الله وَقُوَّتِهِ. فَنَقُولُ اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إلَى الله عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ : الْمَحَبَّةُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ . وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ وَهِيَ مَقْصُودَةٌ تُرَادُ لِذَاتِهَا لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِخِلَافِ الْخَوْفِ فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى { أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ الطَّرِيقِ فَالْمَحَبَّةُ تَلْقَى الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إلَى مَحْبُوبِهِ وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إلَيْهِ وَالْخَوْفُ يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوبِ وَالرَّجَاءُ يَقُودُهُ فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله لَا لِغَيْرِهِ].ا.هـ..

٤- **شرك الطاعة**: وهذا النوع هو أعظم وَرَطَات أهل هذا الزمان، وهو طاعة المخلوق في معصية الخالق في تحريم الحلال، وتحليل الحرام.

واعلم، أن أهل الكتاب من قبل قد وقعوا في نفس هذه الورطة، لما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما قال تعالى:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٣١].

وهذه الأمة أخذت مأخذهم، مصداقا لما أخبر به الصادق المصدوق **r**، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ **t** أَنَّ **r** قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ:"فَمَنْ".

وتأمل في قوله تعالى: {أَرْبَابًا} ولم يقل آلهة؛ لأن شرك هؤلاء، متعلق بالربوبية، وهي أفعاله تبارك وتعالى، فهو الذي له الخلق، وله الأمر وله الحكم والتشريع، جل الله في علاه، فشرك هؤلاء، عند جماعات من المحققين، أعظم وأغلظ من شرك أهل الجاهلية في الألوهية؛ وذلك لأن الشرك في الربوبية، أعظم من الشرك في الألوهية، فهؤلاء قد نازعوا الله جل وعلا في ربوبيته، إذ إنه سبحانه وتعالى هو الحكم وإليه الحُكم، كما قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠]، وقال: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥]، وقال: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤].

فمن بدل الشرع المنزل، أو حَكَّمَ الشرع المبدل في رقاب العباد والبلاد، أو سوغ الحكم به، أو أمر به، الكل كفار بالله تعالى، الكفر الأكبر، ولا فرق في مسائل التشريع العام، بين المسألة أو المسألتين، فلو بدل مسألة واحدة، وجعل حكمها بين العباد جارياً متبعاً (سبيلا وسنة)؛ لكان خارجاً عن الإسلام. بل وإن لم يحكم بها، فإنه إذا بدل كفر، حكم أو لم يحكم، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه أنواع الشرك وجماعه، والله تعالى يقول: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة:٧٢].

قوله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً})، هذا تأكيد لما تقدم مرارا، من اعتماد الشيخ طريقة إعطاء المعلومة، ثم التأكيد على صحتها بالاستدلال الصحيح، الدال على صدقها، إذ ليس الشأن أن تستدل، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون استدلالك صحيحا، من حيث ثُبُوتِه أولا، ثم من حيث مطابقته في الدلالة لما تقول به وتذهب إليه ثانيا، وإلا فالكل يستدل، وكما قيل:لن يعدم المبطل استدلالا، ولكن لابد أن تسألك نفسك سؤالين:هل الدليل صحيح ثابت؟، ثم هل فهمك إياه هو موافق لفهم النبي r وأصحابه y والسلف الصالح؟، أم أنك تريد أن تمرر هواك على كل حال، وتريد الانتصار لشيخك أو قولك أو مذهبك، وإن خالفت السلف الصالح، فانتبه رعاك الله، فإنها مَزَلَّةُ أقدام، ومَظَنَّةُ هَلَكَةٍ. وتأمل في قوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة:٢٦]، فالضمير هنا عائد على المثل الذي ضربه الله في القرآن، فهناك من يقرؤه يريد الهدى؛ فيوفق له، وهناك من يقرؤه يريد اتباع الهوى، فيضرب بعضه ببعض، ويتبع المتشابه، ويترك المُحْكَم؛ فيضل والعياذ بالله، وفي الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ تَلَا رَسُولُ الله r هَذِهِ الْآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَـابِ} قَالَـتْ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ r :"فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ".

قوله:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ} تقرير للاختصاص، والمعنى أنها خالصة لله تعالى خاصة به، فلا يجـوز الافتئـات عليهـا، لا بالشـــرك ولا بالبـدع، ولا بالمعـاصي والمنكـرات، ولا بالمحرمات ولا الفواحش، ولا يجوز لأحد أن يتحكم فيها أو يحكم فيها بغير ما يـرضي الله تبارك وتعالى، ولا أن يدخل فيها ما يسخط الله، فإنما هي بيوته جل الله في علاه، كما قال تعالى:{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [النور:٣٦]، ولقد أدخل كثير من الناس في بيوت الله كثيرا من ذلك، إن لم يكـن كلـه، فهناك مساجد حولت إلى مقابر، فدفنوا فيها أولياءهم وصالحيهم، ثم عبدوها من دون الله أو مع الله فدخل الشرك، إلى تلك المساجد، فصارت محرمة الصلاة فيهـا، وبعضـها بني على القبر، وهذه مساجد ضرار لا يجوز دخولها ولا الصلاة فيها، بل حقها أن تهدم، ودخلت البدع والخرافات، من الطبول والأشعار الشـركية، فيما يسمى بالنُوبَات، وهي المدائح الصوفية، التي يضربون فيها الدفوف ويرقصـون، ويغمـرون، ويخـتلط النسـاء بالرجال، في بيوت الله، عياذا بالله.

وآخرون أدخلوا فيها آلات التصـوير، زعمـوا لتصـوير المحـاضرات والصـلوات، ونسوا أن الله تعالى حرم تصاوير ذوات الأرواح، وآخرون زخرفوها كما فعلت اليهـود والنصارى، وجعلوا فيها ألوانا مـن الأصـباغ، وامـتلأت الجـدران بالكتابـات، حتـى صارت في بعض البلدان مزارا للسُّـيَّاح حتـى مـن الكفـار، يأتونهـا للتفـرج والتقـاط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصور، وكل ذلك مَنْهِي عنه مُحَذَّرٌ منه، فالله المستعان، فما أشد غربة الإسلام بين أهله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لَجَانُ المسَاجد بدعة:

وآخرون أسسوا ما يعرف اليوم بـ **(لجنة المسجد)**، وهذه في حد ذاتها بدعة وضلالة، ثم إنها صارت في الغالب سببا لصد الناس عن سبيل الله، فإنما هي فكرة شيطانية أحدثها الطاغوت وأعوانه؛ ليتحكموا في بيوت الله، ليتم توجيهها مع مصالحهم، فكم من درس ودورة شرعية أوقفوها بهذه الدعوى الباطلة، وكم من إمام على السُّنة عزلوه بهذه اللجان الفاسدة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وإذا كان لا يؤذن للعبد أن يفعل ما يشاء في منزله، مما يخالف شرع الله تعالى، بل هو مأمور بعبادة الله وتحقيق الاتباع للرسول r ، حتى في منزله، فكيف ببيوت الله تبارك وتعالى.

قوله: {المساجد}، يراد بها معانٍ وكلها داخلة في عموم الكلمة في هذه الآية:

١ - دور العبادات وهي المساجد والمعروفة.

٢ - أعضاء السجود السبعة، فلا يجوز لأحد أن يسجد لغير الله، فإن هذا من الشرك بالله تعالى، ويدخل في ذلك الانحِنَاء لغير الله، كما يحصل في بعض الألعاب الرياضية، وما يفعله بعض عشاق الغناء مع الفنانين، فلنكن على حذر.

٣- بقع العبادات كلها، لقوله r :"وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ" متفق عليه من حديث جابر t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس تقييد السجود بأن يكون لله، هو خاص بالمساجد فحسب، بل لو سجد في المقبرة مثلاً لأصحاب القبور فقد وقع في الشرك الأكبر، ولو سجد في المسجد لغير الله وقع في الشرك الأكبر، ولو انحنى تعظيماً لغير الله وقع في الشرك الأكبر، وهكذا.

قوله: {فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً}، نفس القاعدة الماضية، أن النكرة إذا جاءت في سياق النفي أو النهي أو الشرط أفادت العموم، فهنا النكرة كلمة {أحداً} جاءت في كلام تضمن نهياً وهو قوله: {فلا تدعوا}، فأفادت العموم، ودخل فيها كل أحد دون الله جل وعلا.

وأما الكلام عن الدعاء وما يتعلق به، فسيأتي بإذن الله تعالى، ولكن المهم أن نعلم أنه طالما أن الله تعالى بَيَّنَ أنَّ الشيء عبادة؛ فصرفه لغير الله تعالى كفر أكبر، فنقول هنا الدعاء عبادة، فمن صرفه لغير الله تعالى؛ فقد كفر أو أشرك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الثَّالِثَةُ:أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله :(الثالثة: أن من أطاع الرسول وحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب): أي المسألة الثالثة المتممة للمسائل الثلاث، التي يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمها ولا يسعه الجهل بها، إذ الجهل بها هو جهل بأصل الدين الذي لا يقبل الله سواه.

فأراد المؤلف أن يبين أن من مستلزمات توحيد الله تعالى وطاعة رسوله r ، البراءة من الشرك وأهله، ومن كل من عادى التوحيد وأهله، أو عادى الله ورسوله r ، فلو أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحداً لم يُعَادِ التوحيد، ولكنه لم يتبع الرسول r لكان من حَصَبِ جهنم، لأن التوحيد لا يقبل التبعيض، فاسم التوحيد ينتظم هذه الأمور الثلاثة؛ ولهذا قال المؤلف رحمه الله (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ).

ولهذا في الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ r أَنَّهُ قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"، وإنما ذكرت بهذا؛ لأن هناك بعض الطوائف في بلاد العجم، يقولون: نحن نؤمن بأن الله تعالى واحد أحد، ولكننا لا نريد اتباع الرسول r ، فنقول لهم ولغيرهم لن تنتفعوا بهذا التوحيد المُشَوَّه المُجْتَزَأ، لأن الله تعالى لا يقبل ذلك، ولأنه لا سبيل إلى عبادة الله إلا بشريعة محمد r ، فمن عبد الله على شريعة غير شريعة محمد r من هذه الأمة، فلن يقبل منه، وهو كافر بالله تعالى، قال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء:٨٠]، وقال: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، وهو r رسول هذه الأمة كافة جِنِّهم وإنْسِهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]. فهؤلاء إنما يعبدون أهوائهم بغير علم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال أبو الوفا بن عقيل رحمه الله:[إذا أردت أن تنظر إلى محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد، ولا إلى ضجيجهم بلبيك، ولكن انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة]ا.هـ.

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله:

ومَن كان ذا حُب لِمَولاه إنما ... يتم بِحُبِّ الدِّينِ دِينِ مُحَمَّدِ
فَعَادِ الذي عادى لِدِين محمد ... وَوَال الذي والاه من كل مهتدي
وأحْبِبْ رسول الله أكْمَلَ مَن دَعا ... إلى الله والتقوى وأكمل مرشدي
وما الدين إلا الحب والبغض والوَلَا ... كَذاك البَرا مِنْ كُلِّ غَاوٍ ومُعْتَدي

ويقول أيضا:

نَعَمْ لو صَدَقْتَ الله فيما زَعَمْتَه...لَعَادَيْتَ من بالله ويْحَكَ يَكْفُرُ
ووالیت أهل الحق سرًّا وجهرة...ولما تُهَاجِيهم ولِلْكُفْرِ تَنْصُرُ
فما كل من قد قال ما قلت مسلم...ولكن بأشْرَاطٍ هَنالِك تُذْكَرُ
مُبَاينَة الكفار في كل موطن...بذا جاءنا النص الصحيح المُقَرَّرُ
وتكفيرهم جهرا وتسفيه رأيهم...وتَضْلِيلُهم فيما أَتَوْهُ وأَظْهَرُوا
وتَصْدَعُ بالتوحيد بين ظهورهم...وتَدْعُوهُموا سِرّاً لِذَاكَ وتَجْهَرُ
فهذا هو الدين الحنيفي والهدى...ومِلَّة إبراهيم لوكُنت تَشْعُرُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمعنى أن هذه الأمور الثلاثة يترتب بعضها على بعض، وينبني بعضها على بعض، فلا يُتَصَوَّرُ في ميزان الشرع أصلا انفكاك أحدها عن الأخرى؛ ولهذا سماها الله تبارك وتعالى في كتابه بالعروة الوثقى، ونعتها بأنها لا انفصام لها، أي غير قابلة للتجزئة أصلا.

المعنى العام للعروة الوثقى:

واعلم أرشدك الله، أن العروة الوثقى وردت في موضعين من الذكر الحكيم، وبمجموعهما نعلم يقينا، أن هذه الثلاث لا يمكن انفكاكها، فمن انْفَصَمَت عنده؛ فليكبر على إيمانه أربعا للوفاة.

قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦]، وقال: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [لقمان:٢٢-٢٣].

ففي الآية الأولى، الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وفي الآية الثانية الاتباع بإحسان، وهو طاعة الرسول r، وقيده بالإحسان في تذكير بأن هناك من يزعم اتباعا ويتنسب إليه ولكنه اتباع بإساءة، وسيأتي الحديث عن هؤلاء، من أصحاب الهوى، والرأي المذموم، وأصحاب المصالح والمفاسد، والراضخين لضغط الواقع، وغيرهم ممن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينتسب إلى هذا الرسول r ، ولكنه لا يتبعه بإحسان، وإنما اتباع شعارات براقة، وزخرف من القول، والعياذ بالله.

جاء في كتاب:(الإبانة الكبرى) لابن بطة، في بيان ما كان عليه الصحابة من الحرص على إقامة الدين بطاعة الله ورسوله، لا بالهوى والرأي في مقابلة النقل، كما يفعله المبطلون:[قال الشيخ:فلله در أقوام دقت فطنهم وصفت أذهانهم، وتعالت بهم الهمم في اتباع نبيهم، وتناهت بهم المحبة، حتى اتبعوه هذا الاتباع، فبمثل هدي هؤلاء العقلاء إخواني فاهتدوا، ولآثارهم فاقتفوا ترشدوا، وتنصروا وتجبروا.

حدثنا أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد، قال:حدثنا الحسن بن علي، قال:حدثنا عمرو الناقد، قال:حدثنا يعقوب بن محمد، قال:حدثني أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أن عائشة، قالت: إن أبا بكر t ، قال:«لست تاركا شيئا كان رسول الله r يعمل به إلا عملت به، وإني لأخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ» قال الشيخ: **هذا يا إخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغ إن هو خالف شيئا من أمر نبيه r ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وبأوامره، ويتباهون بمخالفته، ويسخرون بسنته**، نسأل الله عصمة من الزلل ونجاة من سوء العمل]ا.هـ.

الإقْبَال على البِدَع يُزَهِّدُ في هَدْي النبي r :

وإليك هذا النقل النفيس عن شيخ الإسلام ابن تيمية، يشخص فيه خطورة الإقبال على الأهواء والبدع، وأنها تورث العبد عدم تعظيم الحق وعدم اتباعه، بل ينغلق عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وينطمس عياذا بالله من الخذلان، فقال في اقتضاء الصراط المستقيم:[فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعْتَاضَ من غيره، بخلاف من صَرَفَ نَهْمَتَهُ وهِمَّتَهُ إلى المشروع، فإنه تَعْظُمُ محبته له ومنفعته به، ويتم دينه ويكمل إسلامه.

ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه؛ تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها؛ لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم؛ لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير.]ا.هـ.

قوله:(لا يجوز): أي لا ينبغي أن يقع ذلك، إذ هو مناف تماما للإسلام الذي ينتسب إليه، وهذا دال على أن التلاعب بذلك، ناقض من نواقض الإسلام، وهو كذلك.

فالله جل وعلا جعل توحيده وطاعته، وطاعة رسوله، في تضادٍ تام مع محبة أعداءه وأعداء دينهم ورسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشجعي قال قال النبي r :"مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبين أنه لن يُعصم الدم والمال إلا بتحقيق هذين الأمرين[١]:

١ - الإيمان بالله . **٢ - الكفر بالطاغوت.**

كما قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا}، والعروة الوثقى هي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كما تقدم، ومفهوم الآية و لازمها، أن من زعم الإيمان بالله، ولا يريد أن يكفر بالطاغوت؛ فلم يعرف الإيمان، ولن تنفعه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فائدة: لازم القول ثابت في الكتاب والسنة، وليس بثابت ولا لازم في كلام البشر.

إن استدلال المؤلف بهذه الآية، دال على عمق فهم المؤلف رحمه الله لحقائق التوحيد، فهذه الآية هي من أصرح الآيات في الكتاب العزيز، الدالة على المعنى المراد تقريره هنا، ومعنى الآية: أي لا يمكن بحال من الأحوال أن تجد أقواماً هذه صفتهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وهم في نفس الوقت يوآدون الذين يحاربون الله ورسوله، أي هذان ضدان لا يجتمعان، كما أن الحوت والضب لا يجتمعان في مكان واحد.

وتذكر أن الذي قرر هذه الحقيقة هو الذي قال في كتابه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير} [الملك: ١٤].

---

١ - ويستثنى من ذلك، ثلاثة أصناف، وهم المستأمن، والمعاهد، والذمي، كما دلت على ذلك النصوص، والآثار المنقولة في ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تَتْعَب فَلَن تَجد:

أي لا تبحث ولا تتعب نفسك فإنك لن تجد إيماناً ينفع صاحبه، مع كونه مقيما على عدم الكفر بالطاغوت،وإن زعم أنه مسلم، وإن ناداه الناس بذلك، فإنه في الحقيقة الشرعية والميزان الرباني، ليس بمؤمن، وإن صلى وصام وحج وفعل سائر العبادات والقربات حتى يكفر بالطاغوت، وفي صحيح مسلم قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ الله r مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ:"أَنَا نَبِيٌّ". فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ:"أَرْسَلَنِي اللهُ". فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ:"أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ"...الحديث. فبين له r من أول وهلة حقيقة هذا الدين، وأنه ينبني على أنقاض الجاهلية، فإنما يقوم التوحيد على تحطيم الأصنام والأوثان والقضاء على الطواغيت، في القلوب وفي الواقع، فمن أراد أن يبحث عن قلب فيه إيمان وعدم كفر بالطاغوت، هو كالذي يبحث عن جذوة نار في البحر، كما قال قائلهم:

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وهذه الحقيقة كان يعلمها حتى الكفار، فهذا أبو سفيان t قبل أن يسلم، وفد على هرقل، وجرى بينهما حوار وسؤال عن النبي r ومن معه، فكان مما قال هرقل لأبي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سفيان، كما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس:"وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ".

فإذا عُلم هذا؛ عرفنا ما عليه كثير من الناس من الضلال العظيم، والجهل المبين بأصل الدين.

قوله:{يوادون}:أي يحبون، والمودة تكون في القلب، وتظهر آثارها في الجوارح وهو التَّوَدُّد، وأما الموالاة فتكون في الأعمال والأقوال، والتولي مرتبة أشد وأعظم، فهي المناصرة بالقول أو الفعل أو المال، وكل من التولي والموالاة فيهما حظ من المناصرة والمؤازرة، والمؤمن مطالب باجتناب ذلك كله؛ تحقيقا لعقيدة الولاء والبراء.

من أعظم مقاصد الجهاد:

وما شرع الجهاد في سبيل الله إلا لتقرير هذه المسألة العظيمة، فإن أقواما امتلأت قلوبهم إيماناً بالله واليوم الآخر؛ لابد أن تمتلئ بغضاً لأعداء الله والملة؛ مما يستلزم دعوتهم إلى التوحيد، فإن أبوا فالجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا فالسيف، إلا إن كانوا أهل عهد أو أمان، وكانوا ملتزمين بالشروط العمرية– التي سيأتي ذكرها لاحقا- فهؤلاء لابد من الوفاء لهم، وهذا الكلام كالخيال في هذا الزمان، ولكنه في نهاية المطاف هو دين الله تبارك وتعالى، وهذه هي ثوابت الإسلام وحقائقه، التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، مهما كانت التكاليف، ومهما كان خلاف الواقع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والجهاد المعني في الإسلام هو جهاد الطلب، وجهاد الدفع، وقد أُمِرنا بكليهما، مهما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فلابد أن ندافع الذين أشركوا ونافقوا وكفروا، فإن كان ثمة شوكة ظاهرة، أُمِرْنا أن نطلبهم حيث كانوا؛ حتى يكون الدين كله لله، قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَّ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الأنفال:٣٩-٤٠]، وقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]، وغيرها من الآيات التي تتحدث عن ذلك.

وفي صحيح مسلم من حديث بريدة t قال: كان رسول الله r إذا أراد أن يبعث جيشاً أو سرية أوصاهم بتقوى الله ... إلى أن قال: "فإذا نزلت بساحتهم فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك أمسك عنهم، ادعهم إلى الإسلام ثم ادعهم إلى الجزية عن يد وهم صاغرون فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم".

وإن كان هذا مع الذين أشركوا ونافقوا، فإن هناك قدراً مع الذين ظلموا وفسقوا، باجتنابهم واعتزالهم حال باطلهم، مع دعوتهم، والنصح لهم، مع عدم الركون إليهم، ولابد من تجديد هذه المعاني في القلوب، فإن كثرة الإمْسَاسِ تُفْقِدُ الإحْسَاس، وهذا حقيقة الولاء والبراء، التي قامت على الحب في الله والبغض في الله، وفي الصحيحين من حديث أنس t عن النبي r قال: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"، وتأمل لترى أن مدار هذا الحديث عن الحب في الله والبغض في الله، فكل أجزاء الحديث تدور حول هذا المعنى الجليل، والعقيدة العظيمة.

اجتماع الحب والبغض في المسلم العاصي:

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة، أنه يجتمع في المرء المسلم، حب وبغض، فنحبه على قدر ما فيه من الطاعة، ونبغضه بقدر ما فيه من المعصية التي علمناها عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مُوَالَاتُهُ وَإِنْ ظَلَمَك وَاعْتَدَى عَلَيْك وَالْكَافِرُ تَجِبُ مُعَادَاتُهُ وَإِنْ أَعْطَاك وَأَحْسَنَ إلَيْك ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَيَكُونُ الْحُبُّ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْبُغْضُ لِأَعْدَائِهِ وَالْإِكْرَامُ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْإِهَانَةُ لِأَعْدَائِهِ وَالثَّوَابُ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْعِقَابُ لِأَعْدَائِهِ . وَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ الْوَاحِدِ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَفُجُورٌ وَطَاعَةٌ وَمَعْصِيَةٌ وَسُنَّةٌ وَبِدْعَةٌ : اسْتَحَقَّ مِنْ الْمُوَالَاةِ وَالثَّوَابِ بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ الْخَيْرِ وَاسْتَحَقَّ مِنْ الْمُعَادَاتِ وَالْعِقَابِ بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنْ الشَّرِّ فَيَجْتَمِعُ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ مُوجِبَاتُ الْإِكْرَامِ وَالْإِهَانَةِ فَيَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا كَاللِّصِّ الْفَقِيرِ تُقْطَعُ يَدُهُ لِسَرِقَتِهِ وَيُعْطَى مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَكْفِيهِ لِحَاجَتِهِ . هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَخَالَفَهُمْ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَجْعَلُوا النَّاسَ لَا مُسْتَحِقًّا لِلثَّوَابِ فَقَطْ وَلَا مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ فَقَطْ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنت ترى فيمن حولك، وربما في نفسك خللا ما في تطبيق ذلك، فلنجاهد أنفسنا على ذلك.

الجَوْرُ في الميزان:

وهناك من تجده يبتسم في وجه العصاة ويلين معاشرتهم، في حين أنك تراه مقطب الجبين مُزْورّاً عن أهل الصلاح والخير، وهذا من الضلال والعياذ بالله، فكن على حذر من أن تقدم الفساق على الصالحين، فإن هذا من علامة ضعف الإيمان في القلب، فإذا كان بغضا لدين الصالحين، أو لصلاحهم؛ صار ردة عن الإسلام والعياذ بالله، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٩].

فلابد أن تكون كل محبة تابعة لمحبة الله ورسوله r ، هذا هو الأصل، وبهذا تتحدد العلاقات مع الآخرين، إقبالا وإدبارا، حبا وبغضا، ولاء وبراء.

ولهذا والله أعلم شُرِعَت قراءة سورتي الإخلاص والكافرون في فجر كل يوم في راتبة الفجر، كما في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة t ، أو قراءة الآية من سورة البقرة: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة:١٣٦]، وفي الأخرى الآية من آل عمران[1]: {فَلَمَّا

---

١ - وأما قراءة الآية من آل عمران: {قُلْ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .....الآية} فقد روى ذلك مسلم في صحيحه وأشار إلى شذوذها، وبين ذلك البيهقي في سننه الكبرى، حيث قال: أَخْبَرَنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢]؛ كما في صحيح مسلم من حديث ابن عباس t .

لكي تذكر نفسك كل صباح بهذه الحقيقة العظمى، التي لا يقوم الدين إلا بها، ولذلك شرعت في المجامع، وفي الحج والعمرة خلف المقام، شرع قراءة سورتي (الكافرون والإخلاص) أيضاً، لتذكر نفسك أن هذا الدين قام على هذه الحقيقة إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، وأن هذه هي الآصرة الحقيقية بين المسلمين كلهم، فبقدر ما يحقق العبد من الطاعة والاستقامة على هذين الأمرين بقدر ما يُحَب، وهكذا بالنسبة

عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو الْوَلِيدِ الْفَقِيهُ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالاَ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ حَكِيمٍ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ r كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الأُولَى مِنْهُمَا الآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) الآيَةَ كُلَّهَا وَفِي الآخِرَةِ (آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ قُتَيْبَةَ عَنْ مَرْوَانَ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْمُقْرِئُ أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الأَحْمَرُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ r يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) الآيَةَ وَفِي الثَّانِيَةِ (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ.**وَرَوَاهُ زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَعِيسَى بْنُ يُونُسَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ نُمَيْرٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ بِمَعْنَى رِوَايَةِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْفَزَارِيِّ.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للبغض، ولهذا أمرنا أن نفرغ وسعنا في محاربتنا لأعداء الله، وفي الحديث عن أنس t قال:قال رسول الله r :"جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"وإسناده صحيح على شرط مسلم[١].

فكل من حاد الله ورسوله؛ فهو لنا عدو، لو كان أقرب قريب ، وكل من أطاع الله ورسوله؛ فهو لنا حبيب، ولو كان في الهند والسند، فالقضية ليست قضية أراضي، أو حدود، أو أشكال وألوان، وإنما هو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

إيمانا بالله العظيم، (دخولا في السلم كافة، وكفرا بالطاغوت) كل طاغوت.

ولهذا لما فقه الصحابة y هذه الحقيقة، لم يتورعوا عن قتل الآباء والأبناء، إذا لقوهم في ساحات القتال في خندق الطاغوت، يحاربون دين الله تبارك وتعالى.

وهان عليهم هجران العشيرة والقبيلة، وترك الأزواج والأموال، ابتغاء مرضات الله تعالى؛ فقامت فيهم حقيقة الدين،وتمثل في واقعهم أسمى معاني الكفر بالطاغوت؛ فأعلاهم الله تعالى ورفع شأنهم ورضي الله عنهم.

وتأمل فيما قاله عمر t في قصة الأُسَارَى، كما في حديث ابن عباس في صحيح مسلم:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ الله r لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ:"مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَى". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ الله هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ

١ - أخرجه أحمد وأبوداود وألنسائي والدارمي وأبو يعلى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِدْيَةً فتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ". قُلْتُ لاَ وَالله يَا رَسُولَ الله مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِيَ رَسُولُ الله r مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ الله r وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ". شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ الله r . وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} إِلَى قَوْلِهِ"{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا} فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ".

وأنت مع من تَوَلَّيت:

واعلم رحمك الله تعالى، أن هناك أقواما أمْعَنُوا في تولي الذين كفروا، حتى صاروا منهم، بل ومن أشد الناس حبا لهم، وتوليا إياهم، وسعيا في مراضيهم، وتثبيتا لعروشهم، وهذا ما وقع فيه فئام من حكام الأرض اليوم، من المنافقين المنتسبين إلى الإسلام زورا وبهتانا، وإنما هم الدعاة على أبواب جهنم، حتى فتحوا السجون والمعتقلات لأولياء الله الصالحين، من العلماء الربانيين، والمجاهدين الصُّبُر الصادقين، والمنفقين المتقين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله رب العالمين، فساموهم العذاب الأليم، وشردوهم في الأرض، وملئوا الأرض ضجيجا من حولهم، تشويها وتنفيرا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالزور والبهتان، إرضاء لأوليائهم الأمريكان، ومن جرى في ركابها من الغرب الكافر، بل فعلوا ما لم يكن في خلد أعداء الله تعالى، حتى صار الكفار إذا أرادوا أن يستخلصوا معلومة من أحد هؤلاء المجاهدين الثلاثة، عزَّ عليهم أخذها منه؛ أرسلوا به إلى سجون هؤلاء المنافقين المارقين، وسرعان ما تأتيهم الأخبار والمعلومات المتتابعة، بأدق تفاصيلها، بل وفوق ما كانوا يطلبون ويأملون، فأي إلحاد وتول لأعداء الله تعالى فوق هذا؟!!، والله تعالى يقول:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١].

وتأمل فيما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مع بعض حكام زمانه، وقارنه مع حكام اليوم؛ لترى البون الشاسع، والحكم الصائب، قال في (مجموع الفتاوى):[وَجَعَلَ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ لِي: أَتُخَالِفُ الْمَذَاهِبَ الْأَرْبَعَةَ فَقُلْت: أَنَا مَا قُلْت: إلَّا مَا يُوَافِقُ الْمَذَاهِبَ الْأَرْبَعَةَ، وَلَمْ يَحْكُمْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ الْحُكَّامِ إلَّا ابْنُ مَخْلُوفٍ وَأَنْتَ كُنْت ذَلِكَ الْيَوْمَ حَاضِرًا. وَقُلْت لَهُ أَنْتَ وَحْدَك تَحْكُمُ أَوْ أَنْتَ وَهَؤُلَاءِ. فَقَالَ: بَلْ أَنَا وَحْدِي فَقُلْت لَهُ: أَنْتَ خَصْمِي، فَكَيْفَ تَحْكُمُ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: كَذَا وَمَدَّ صَوْتَهُ وَانْزَوَى إلَى الزَّاوِيَةِ. وَقَالَ: قُمْ، قُمْ. فَأَقَامُونِي وَأَمَرُوا بِي إلَى الْحَبْسِ ثُمَّ جَعَلْت أَقُولُ: أَنَا وَإِخْوَتِي غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنَا أَرْجِعُ وَأُجِيبُ وَإِنْ كُنْت أَنْتَ الْحَاكِمُ وَحْدَك. فَلَمْ يُقْبَلْ ذَلِكَ مِنِّي. فَلَمَّا ذَهَبُوا بِي إلَى الْحَبْسِ حَكَمَ بِمَا حَكَمَ بِهِ وَأَثْبَتَ مَا أَثْبَتَ وَأَمَرَ فِي الْكِتَابِ السُّلْطَانِيِّ بِمَا أَمَرَ بِهِ فَهَلْ يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى دَعْ الْمُسْلِمِينَ إنَّ هَذَا حُبِسَ بِالشَّرْعِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ: شَرْعُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله. وَهَذَا مِمَّا يَعْلَمُ الصِّبْيَانُ الصِّغَارُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِشَرْعِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله. وَهَذَا الْحَاكِمُ هُوَ وَذَوُوه دَائِمًا يَقُولُونَ فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِشَرْعِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله. وَهَذَا الْحُكْمُ مُخَالِفٌ لِشَرْعِ الله - الَّذِي أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ - مِنْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ وَجْهًا. ثُمَّ النَّصَارَى فِي حَبْسٍ حَسَنٍ : يُشْرِكُونَ فِيهِ بِاَلله وَيَتَّخِذُونَ فِيهِ الْكَنَائِسَ فَيَا لَيْتَ حَبْسُنَا كَانَ مِنْ جِنْسِ حَبْسِ النَّصَارَى وَيَا لَيْتَنَا سُوِّينَا بِالْمُشْرِكِينَ وَعُبَّادِ الْأَوْثَانِ بَلْ لِأُولَئِكَ الْكَرَامَةُ وَلَنَا الْهَوَانُ . فَهَلْ يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِهَذَا. وَبِأَيِّ ذَنْبٍ حَبَسَ إِخْوَتِي فِي دِينِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ فُعِلَ بِالشَّرْعِ، فَقَدْ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ]ا.هـ.

قوله:{من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}، هذا بيان من الله تبارك وتعالى، وأمر منه جل وعلا، ألا تكون بيننا وبين من أعلن الحرب على دين الله تبارك وتعالى أي مودة ، بل لابد أن نجاهرهم العداء، فنحن أحق بذلك منهم وأولى.

جاء في تفسير ابن كثير:[وقيل في قوله:{وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ} نزلت في أبي عبيده قتل أباه يوم بدر {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ} في الصديق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، {أَوْ إِخْوَانَهُمْ} في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} في عمر، قتل قريبا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفوق ذلك هجرة الخليلين، إلى الله تعالى، والخليلان هما (إبراهيم ومحمد) عليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد هجرا الديار والأهل وكل شيء ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتغليبا لوشيجة محبة الله على محبة الأهل والأوطان، فقال تعالى في خليله إبراهيم r :{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت:٢٦]، وقال:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات:٩٩]، وقال في خليله محمد r :{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة:٤٠].

الولاء والبراء عند الكفار:

واعلم تولانا الله وإياك، أن للكفار ولاء وبراء في الطاغوت، والآيات واضحة في ذلك، فكيف أنت أيها المؤمن، أين وَلَاؤُكَ وبَرَاؤُكَ في الله جل جلاله؟!.

قال تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦]، وقال:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [سبأ:٣١]، وقال:{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر:٢٥]، وقال:{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر:٤٣-٤٥]، وقال:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال:٣٦]، وقال:{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف:١٢٧]، وقال:{فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [طه:٦٢-٦٤]، وقال:{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص:٤-٧]، وقال:{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٤٨-٤٩].

ومثل هذا كثير في القرآن العظيم، يقص الله تبارك وتعالى علينا، جمهرة الباطل وتحالفهم على إطفاء نور الله ولكن هيهات هيهات، قال تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٢-٣٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأين نحن من ذلك عباد الله؟!، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟!، فلماذا هذا التَّخَاذُل، والمُدَاهَنَة؟!، وتأمل في قول الله تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١١٩]. فهل من معتبر.

أنواع المحادة لله والرسول:

قوله:{من حاد الله ورسوله}: في ذلك عدة معاني:

١- قيل هو من استعمال الحديد، وهو السيف، وهذا أشد ما تكون العداوة، إذ يعمد أعداء الله ورسوله، إلى القتال؛ ليطفئوا نور الله.

٢- وقيل هو مأخوذ من الحَدّ، وذلك أن أعداء الله تعالى يتعصبون لباطلهم، ويتحزبون ويتناصرون، ويعقدون الولاء والبراء في ذلك، حتى يكونوا حَدّاً في مقابلة حَدَّ المؤمنين، وهذا هو المعروف بالمفاصلة، والمباينة.

٣- وقيل هو مأخوذ من التحدي، وهو إظهار العناد والمشاقة، والمجاهرة بالعداوة، والمحاولة الجادة لدحض الحق، والاستعلان بذلك، وإرهاب الفئة المؤمنة، وإسقاطها.

٤- وقيل هو مأخوذ من الاحْتِدَاد، وهو الإغلاظ في القول، ورفع الصوت، مع التَّعَنُّتِ، والصَّلَفِ والكِبْر.

والله تعالى يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة:٥-٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَبَعْدَ هذا أيها المسلم تحبهم، أو تحدث نفسك بذلك؟!، فاتق الله في إيمانك، واعلم أنه لن تقوم له قائمة، وأنت تواد أو توالي من هذه صفته، كُلّاً أو بعضا، فلتتق الله في إسلامنا، فإن الله تبارك وتعالى، وهبنا إياه دون أن نسأله، وحَمَّلَنا مسئولية المحافظة عليه، ثم أوصانا خيرا بأنفسنا، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:١٠٢].

ومن أجمع الأبيات لهذه المعاني قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حَدِّه الحَدُّ بين الجِّد واللَّعب

قوله:{أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه}، أي ثبت الله الإيمان في قلوبهم، وهذا من شكر الله تعالى لعباده، فإن الله تعالى وعد من استمسك بشرعه، وشكر نعمة الله عليه بالمزيد، والنصر والتأييد، كما قال تعالى:{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، وقال:{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، ولا شك أن أعظم ذلك وأظهره أن يحفظ الله تعالى على عبده إيمانه حتى يوافي الله تعالى به، نسأل الله تعالى من فضله العظيم، كما قال تعالى:{يُثَبِّتُ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُّ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُّ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في تفسير ابن كثير:[أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته.وقال السدي:{كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ}، جعل في قلوبهم الإيمان.وقال ابن عباس:{ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}، أي:قواهم]ا.هـ.

وفيه أن الكفر بالطاغوت من أعمال القلوب والجوارح، فالبغض بالقلب وهو جهاده، وهناك جهاد الجوارح كذلك، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو حقيقته، فأعظم منكر ينهى عنه، هو الكفر والشرك والنفاق، ثم يتدرج إلى آحاد الذنوب والمعاصي، وكما أن أعظم ما يؤمر به، هو التوحيد وطاعة الله ورسوله، ثم باقي الطاعات والقربات.

وهؤلاء لهم التأييد والنصر، والتمكين والفرج القريب من الله، في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فلا يخرجون منها أبد الآبدين نسأل الله من فضله، كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر:٥١-٥٢]، وقال:{كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة:٢١]، وقال:{إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج:٣٨]، وقال:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات:١٧١-١٨٢].

وجاء في تفسير السعدي:[ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المَحَاب الجليلة، والمقامات النبيلة]ا.هـ.

وفوق ذلك كله يحل عليهم رضوان الله تبارك وتعالى، فإذا رضي الله عنك؛ فأبشر بكل خير، فليس الشأن أن يرضى عنك الناس، ولكن الشأن أن يرضى عنك رب الناس جل الله في علاه، فما يغنيك رضى الناس، وأنت عند الله وضيع، مغضوب عليك، واعلم أن أعظم رضى الله أن يكشف الحجاب عن وجهه سبحانه، فتراه مع المؤمنين عيانا في جنات النعيم، نسأل الله ألا يحرمنا ذلك بفضله ومنه وكرمه.

أعظم نعيم وأعظم عذاب:

كما أن أعظم عذاب أهل النار من الكفار، حِجَابُهم عن رؤية الله جل جلاله، فكذاك أعظم نعيم أهل الجنة، رؤيتهم الباري تبارك وتعالى، نسأل الله من فضله العظيم.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا".

ثم يعطيهم أعظم من ذلك، كما في صحيح مسلم عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ".

قوله:{أولئك حزب الله}: أي أنصار دينه، الذين تحزبوا، أي تجمعوا وتآزروا وتناصروا وتواثقوا، على القيام بدين الله تعالى، وتقديم الغالي والنفيس في سبيل ذلك، لا يقدمون على حق الله تعالى ونصرة رسوله، لا نفسا ولا مالا ولا تلدا، ولا أهلا ولا عشيرة، ولا شيئا، بل هو الله ورسوله قبل كل شيء.

قوله:{حزب الله}: أضافهم الله تبارك وتعالى إلى نفسه، إضافة التشريف والإكرام.

نَوْعَي الإضَافَة إلى الله تعالى:

واعلم وفقك الله، أن هذه الإضافة، هي من إضافة المخلوق إلى خالقه، لإفادة معنى الرفعة والمكانة، وهناك إضافة الصفة إلى المُتَّصِفِ بها، وقد وقع خلط بين الإضافتين عند بعض الطوائف المنحرفة، فصاروا إلى الحلول والاتحاد، أو التجهم والتعطيل، عياذا بالله من الزندقة، والإلحاد والكفر بالله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في قصيدته النونية:[فصل: في التفريق بين ما يضاف إلى الرب تعالى من الأوصاف والأعيان]:

والله أخبر في الكتاب بأنه مُنْهُ ... ومجرور بِمِنْ نوعان
عين ووصف قائم بالعين كالـ ... أعيان خلق الخالق الرحمن
والوصف بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عرف كل لسان
ونظير ذا أيضا سواء ما ... يضاف إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابتة لمن ... قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابتة له ... ملكا وخلقا ما هما سِيَّان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه ... لما أضيف كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه ... في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لكن نَاقَتَه وبيت إلهنا ... فكعبده أيضا هما ذاتان
فانظر إلى الجهمي لما فاته الـ ... حق المبين الواضح الفرقان
كان الجميع لديه بابا واحدا ... والصُّبح لَاحَ لمن له عينان

والخلاصة، أنه إذا ورد في السياق إضافة إلى الله تبارك وتعالى، فإن كانت من الأعيان فإنها من إضافة المخلوق إلى خالقه، وإن كانت من الأوصاف فهي من إضافة الصفة إلى صاحبها المتصف بها، وهو الله رب العالمين.

كقوله:{ناقة الله}، وقوله:{عبد الله} وقول:{وعباد الرحمن}، ونحو ذلك، فكلها من إضافة المخلوق إلى خالقه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: {أنزله بعلمه}، وقوله: {ويدخلهم في رحمة منه وفضل}، وقوله: {كلام الله}، ونحو ذلك، فهذه كلها صفات لله تبارك وتعالى قائمة به جل الله في علاه.

وفي قوله: {حزب الله}: تذكير بما قضاه تعالى لهم من النصر والتمكين والعاقبة الحميدة، وفيه تَهْيِيجٌ للعباد أن يدخلوا في هذا الحزب، فإن له الغلبة والعلو، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦]، وقال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩].

التَّحَزُّبُ على غَير الحق ضَيَاعٌ وهَلَكَةٌ:

كما أن في **قوله: {حزب الله}**، تذكيرا بوجود أحزاب أخرى، كما قال تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون:٥٣]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام:١٥٩]، وقوله: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة:١٩].

وهذه الأحزاب كلها ليست على شيء، وعاقبتها إلى خبال وبوار، فإنما وليهم الشيطان، والله تعالى يقول: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان:٢٧-٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{المفلحون}: أي الفلاح حاصل متحقق لحزب الله، فمن أراد الفلاح فعليه بطاعة الله ورسوله والبراءة من كل من يُضَاد ذلك.

كما أن في قوله: {المفلحون}، تذكيرا بمفهوم المخالفة، إلى خسران وبوار من عداهم، وقد جمع الله بين الفريقين وميز بينهما تبارك وتعالى في مواضع من الذكر الحكيم، ومن أظهر ذلك قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣٠-٣٢]، وقوله:{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص:١٧].

وقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص:٨٦-٨٨]، وقوله:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم:٣٥-٤٢]، ومثل هذا كثير في آي الذكر الحكيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَحَبَّةُ الله هي المُحَرِّك:

وعلينا أن نتذكر دائما أن قضية الولاء والبراء، ومراغمة الأعداء، هي فرع عن محبة العبد لربه تبارك وتعالى، وتأمل في ما قاله العلامة ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه: أحدها قوله:{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة} سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغما يراغم به عدو الله وعدوه والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته كما قال تعالى:{ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين}.

وقال تعالى في مَثَلِ رسول الله وأتباعه:{ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}.

فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له فموافقته فيها من كمال العبودية وشرع النبي للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال:"إن كانت صلاته تامة كانتا تُرْغِمان أنف الشيطان" وفي رواية:"تَرْغِيَا للشيطان"، وسماها المُرْغِمَتَين.

فمن تعبد الله بِمُرَاغَمَةِ عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بين الأخوة الإيمانية وأخوة النَّسَبِ والقَبيلَة والوَطَن:

فصل: في بيان أن الأخوة الإيمانية مقدمة أبدا على أخوة النسب والوطن والقبيلة والعشيرة، وهذا المقام من آكد ما يتعين بيانه ومعرفته، لاسيما في هذا الزمان، لكثرة الملبسين على المسلمين في ذلك، فلا يخفى أن هناك ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم والمعرفة، يقولون بل وينادون بما يسمى بأخوة الوطن، بل وذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك حيث ادعوا أن اليهود والنصارى إخوة لهم، عياذا بالله من الردة والكفر البواح الصراح، وربما إذا ضُيِّقَ عليهم في المقال وأنكر البعض قولهم الكفري الخبيث، قالوا: إنما أردنا أخوة الوطن والقبيلة، ثم يحتجون بآيات وردت في كتاب الله تعالى في هذا المعنى، كقوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} في موضعين، وقوله: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} في موضعين، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} [النمل:٤٥]، وقوله: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} في ثلاث مواضع، وقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء:١٠٥-١٠٦]، وقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء:١٦٠-١٦١].

وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الشرع إذْ أثبت هذه الأخوة، بَيَّنَ أنها لم تنفع ولم تغن عن أصحابها شيئا لما تنكبوا صراط الله المستقيم، بل دَعَا عليهم أنبياؤهم الذين نعتهم الله تعالى بوصف الأخوة لهم في الآيات المتقدمة، وفي هذا تقرير واضح المعالم أن الأخوة الإيمانية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعلى وأعظم من سائر الأُخُوَّات، وأنها متى عارضت الشرع طُرِحَت، ولم تبق لها قيمة عند تحقيق عقيدة الولاء والبراء.

قال تعالى عن نوح عليه السلام وقومه إذ دعا عليهم لما عارضوا دعوة الحق وثبتوا على الكفر والاستكبار في الأرض: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر:٩-١٦]، وقال: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:١١٦-١٢١]، وقال: {قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون:٢٦]، وقال: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح:٢٦-٢٧].

وقال تعالى عمن جاء من بعد نوح من الأمم: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [المؤمنون:٣١-٤٤].

الوجه الثاني: أن مما ذكرت لأجله هذه الأخوة لبيان أن النبي يبعث في قومه، فهو منهم، وهذا أدعى للقبول لو كانوا يعقلون.

الوجه الثالث: قول الله تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة:١١-١٢].

الوجه الرابع: أن إثبات هذه الأخوة لا يعني أبدا إثبات الولاء لهم، ولا جعل ذلك معيارا لتقييم المواقف من العباد، **ولا يرفع عنهم مسمى الكفر والإشراك، بل لم يزالوا كافرين مشركين بالله تعالى**، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون} [الحجرات:١٣-١٥]، وقال:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال:٥٥]، وقال:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**} [المائدة:٥].

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ:"أَلاَ إِنَّ آلَ أَبِي- يَعْنِي فُلاَنًا - لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ". وفي لفظ للبخاري:"وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا يَعْنِي أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا".

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} دَعَا رَسُولُ الله r قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ:"يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبهذه النصوص الواضحات، وغيرها في الكتاب والسنة؛ انهدم صنم كبير، يسعى في تعظيمه وإحيائه ونشره الطواغيت وأعوانهم، ألا وهو طاغوت المواطنة والوطنية، والتقارب الديني، والتعايش السلمي، القائم على مساواة المسلم بالكافر.

لطيفة واستنباط من قول الله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء:١٧٦-١٧٧].

فإن المتأمل في كتاب الله تعالى؛ يجد أن أخوة شعيب عليه السلام لقومه لم تذكر إلا إذا ذُكرت مدين، بخلاف ما إذا ذُكر أصحاب الأيكة.

وهذا يرجح أن قومه وعشيرته هم أهل مدين خاصة؛ ولهذا ذُكرت أُخوتُه لهم، بخلاف أصحاب الأيكة، وهذا يرجح أحد القولين، أنه عليه السلام بعث في قومه وهم مدين، وفي أقوام آخرين، فإذا ذُكر قومه خاصة؛ ذُكرت أخوة النسب والعشيرة، وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم تُذكر هذه الأخوة، ويؤيده الحديث الذي أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق بإسناده قال:[عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله r ذات يوم:"إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيب النبي r "، وقال قتادة: في قول الله عزّ وجلّ " وأصحاب الرّسّ " قال: قوم شعيب وقيل: إن الأيكة ومدين هما واحد. والله أعلم].ا.هـ.

قلت: وهذا الحديث فيه ضعف، وقد رجح بعضهم وقفه، وعلى كل فهو أولى من الرأي المجرد، وأوفق لظاهر القرآن. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}.[الذاريات:٥٦].وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ:يُوَحِّدُونِ، وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ:إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ، وَهُوَ:دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}[النساء:٣٥].

الشرح

قوله رحمه الله:(اعلم أرشدك الله لطاعته)، تقدم الكلام عن فائدة وتأثير الدعاء وإلقاء العلم بصيغة الأمر في شحذ الهمم وتفريغ الذهن لتلقي المأمور به.

قوله:(أرشدك الله لطاعته): الرشد:ضد الغواية والسَّفَه، وقد بين الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز حقيقة الرشد، فمن لم يتصف بما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه، كان فيه حظ من الغواية والسفه، بقدر ما ترك من ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) }فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ٥١-٦٧].

من هم وما هي صفات عباد الله الراشدين:

وإليك هذه الجملة من صفات عباد الله الراشدين، أن يكونوا قائمين لله بالتوحيد، داعيين إلى الله رب العالمين، يغضبون لحق الله تبارك وتعالى، ويسعون في اجتثاث الباطل مهما استطاعوا، إلى ذلك سبيلا، مع ثبات عظيم الشأن، وإعلان للبراءة، من الشرك والمشركين، مع التَّحَلِّي بالعلم والحلم، والمجادلة بالتي هي أحسن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل هذه الصفات، نعت الله بها عبده وخليله إبراهيم r الذي وصفه بأنه آتاه رشده.

وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:٧].

وهذه صفات أخرى تضمنتها هذه الآية، لابد أن نسعى في التحلي بها لنكون من الراشدين، بحق وحقيقة، فإن هناك من يعظمه الناس وينسبونه إلى الحكمة والرَّشَد، وهو إلى السَّفَه ما هو، وإلى الطيش أقرب.

التحول من أبي الحكم إلى أبي الجهل:

واعتبر بحال أبي الحكم، فقد بَلَغَ من المنزلة عند قومه، أن نَعَتُوه بأنه أبو الحكمة، ولكن اكْتُشِفَ في نهاية الأمر أنه هو أبو الجهل والسَّفَه والطَّيْش، فلا تغتر بالألقاب والأوسمة البَرَّاقة، ومخادعة البشر وأحكامهم، والتفت إلى حكم الله وقوله، فإنه أصدق قيلا وأحسن حديثا، فلا تخادع نفسك.

كما أن الناس ربما نعتوا الفئة المؤمنة الصابرة الصادقة، بالطيش والتسرع، والسفه في الرأي، ولكن الحمد الله الذي قضى في المسألة بحكمه، وبَيَّنَ ما هو الرَّشَد، وكيف يكون، ومن هم أهله، والعكس كذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه الآية دالة على أن الراشدين هم الذين، يطيعون الله ورسوله، ويحبون الإيمان وأهله، ويكرهون الكفر وأهله، والفسوق بكل أنواعه، وكذلك يكرهون العصيان، فهؤلاء هم الراشدون عند الله تبارك وتعالى، بالموازين الربانية، لا بموازين البشر.

وتأمل في هذه الآية كيف جعل الله تعالى فيها التِّبْيَانَ والفَيْصَل بين الغواية والرشد، الاستمساك بالعورة الوثقى وتحقيقها، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦].

ثم ذكر الله تعالى بعدها، حال المؤمنين أصحاب العروة الوثقى، وحال الكافرين الذين تنكبوا صراطها، فقال سبحانه: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢٥٧].

ثم ضرب مثلا لِلمُسْتَمْسِكين بها بالخَليل إبراهيم r ، ولِلمُفَرِّطِين فيها، المُعَانِدِينَ لها بالنُّمْرُود، المُحَاجِّ إبراهيم في ربه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨]. فسبحان القائل عن كتابه: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤١-٤٢].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلف يعلمون أبناءهم ويُلَقِّنُونَهُم العقيدة:

وقد كان السلف يلقنون أبناءهم هذه العقيدة، التي تمثل العروة الوثقى، الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، كما في مصنف ابن أبي شيبة حدثنا حاتم بن إسماعيل عن جعفر عن أبيه قال كان علي بن الحسين يعلم ولده يقول قل:"**آمنت بالله وكفرت بالطاغوت**". وسنده جيد.

وهو يعكس لك عظيم عناية السلف بالعقيدة وسلامتها وتفقد الأهل فيها.

أنواع الهداية والإرشاد

والإرشاد، إما أن يكون إرشاد دلالة وبيان، وإما أن يكون إرشاد توفيق وإلهام، فالأول مما كلف الله جل وعلا به عباده الصالحين، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون والعلماء والدعاة والمصلحون، ومنه قوله تعالى:{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى:٥٢-٥٣]، وقوله:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٤٣].

وأما الثاني، فخاص بالله جل وعلا، ومنه قوله تعالى:{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص:٥٦]، وقوله:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا نفى الله تعالى هداية عبد لعبد مثله، فالمقصود النوع الثاني الذي اختص الله به، وهو إدخال الهداية إلى القلوب، وتثبيت العبد عليها، نسأل الله من فضله العظيم، وحيث أثبت الله تعالى الهداية للنبي r - ويدخل في ذلك تباعا العلماء والدعاة والمصلحون – فالمقصود بها هداية الدلالة إلى الحق، وبيانه والأمر به، والتحذير من الباطل وبيانه والنهي عنه.

ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٤١]، وقوله: {وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٧٦]. نعوذ بالله من الخذلان.

وأعظم أنواع الرشد، الاهتداء إلى طاعة الله جل وعلا؛ ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام للخضر عليه الصلاة والسلام: { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً} [الكهف:٦٦].

وبهذا نَتَبَيَّنُ أن حقيقة الرشد طاعة الله جل وعلا، ولن تحصل الطاعة إلا بالعلم الصحيح، فمن تعلم وعمل فقد أطاع الله جل وعلا، إذ حقيقة الطاعة امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهي حقيقة العبودية، وهي حقيقة التقوى، ولن تكون عابدا بحق، ولا متقيا بحق، حتى تتعلم حدود ما أنزل الله على رسوله r ، إذ حقيقة التقوى فعل المأمور بعد العلم به، واجتناب المحظور بعد العلم به، وهي حقيقة العبادة كذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رعاك الله، أن من أعظم ما تسأله الله تعالى، الرشد، كما قال تعالى مذكرا بذلك في سياق قصة الفِتْيَةِ أصحاب الكهف، إذ قال تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف:١٠].

قوله:(إلى طاعته): خرج بذلك، المعصية، فإن العبد قد يستدرج، وتُزين له، فيقع في الورطة، واعتبر بقوله تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة: ٢١٢]، وقوله: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٢]، وقوله: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧]، وقوله: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨].

تعريف الحنيف:

قول المؤلف رحمة الله:(أن الحنيفية ملة إبراهيم): **الحنيف لغة**: هو المائل، يقال: رجل أنفه حنيف، وساقه أحنف: إي فيهما ميلان، جاء في لسان العرب:[(حنف) الحَنَفُ في القَدَمَينِ إقْبالُ كل واحدة منهما على الأُخرى بإبْهامها، وكذلك هو في الحافر في اليد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والرجل، وقيل هو ميل كل واحدة من الإبهامين على صاحبتها حتى يُرى شَخْصُ أَصلِها خارجاً، وقيل هو انقلاب القدم حتى يصير بَطنُها ظهرَها، وقيل ميل في صدْر القَدَم، وقد حَنِفَ حَنَفاً، ورجُل أَحْنَفُ، وامرأَة حَنْفاء، وبه سمي الأَحْنَفُ بن قَيْس، واسمه صخر؛ لِحَنَفٍ كان في رجله}ا.هـ.

واصطلاحا: هو المائل عن سبل الضلال إلى صراط الله المستقيم، وهذا هو المراد هنا، فالمقصود هنا العدول عن سبل الضلالة والغواية، إلى سبيل الهداية والرشد. قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥٣].

وجاء في تفسير الطبري قوله:[وأما"الحنيف"، فإنه المستقيم من كل شيء. وقد قيل: إن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى، إنما قيل له"أحنف"، نظرا له إلى السلامة، كما قيل للمهلكة من البلاد"المفازة"، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل لِلَّدِيغِ:"السليم"، تفاؤلا له بالسلامة من الهلاك، وما أشبه ذلك]ا.هـ. قلت:وقيل الحنيف:المخلص حكاه الطبري في تفسيره.

جاء في تاج العروس من جواهر القاموس:[والْحَنِيفُ، كأَمِيرٍ: الصَّحِيحُ الْمَيْلِ إِلى الإِسْلاَمِ، الثَّابِتُ عَلَيْهِ، وقال الراغِبُ: هو المائلُ إِلى الاسْتِقَامةِ. وقال الأَخْفَشُ: الحَنِيفُ: الْمُسْلِمُ، قال الجَوْهَرِيُّ:وقد سُمِّيَ الْمُسْتَقِيمُ بذلك، كما سُمِّيَ الغُرابُ أَعْوَرَ، وقيل:الحَنِيفُ هو الْمُخْلِصُ، وقيل:مَن أَسْلَمَ لأَمْرِ الله، ولم يَلْتَوِ في شَيْءٍ. وقال أَبو زَيْدٍ:الحَنِيفُ:الْمُسْتَقِيمُ، وأَنْشَدَ:(تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا... طَرِيقٌ لاَ يَجُوزُ بِكُمْ حَنِيفُ)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

.....إلى قوله:الحَنِيفُ: مَن كَانَ علَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وعلَى نَبِيِّنا وسَلَّمَ، في اسْتِقْبَالِ قِبْلَةِ البَيْتِ الحَرَامِ، وسُنَّةِ الاخْتِتَانِ. قال أَبو عُبَيْدَةَ:وكانَ عَبَدَةُ الأَوْثَانِ في الجاهِلِيَّةِ يقولون:نحنُ حُنَفَاءُ على دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فلَمَّا جاءَ الإِسلامُ سَمَّوُا المُسْلِمَ حَنِيفاً، وقال الأَخْفَشُ:وكان في الجاهِلِيَّةِ يُقَال:مَن اخْتَتَنَ، وحَجَّ البيتَ، قيل له:حَنِيفٌ، لأَنَّ العربَ لم تَتَمَسَّكْ في الجاهِلِيَّةِ بشَيْءٍ مِن دِينِ إِبْرَاهِيمَ غير الخِتانِ، وحَجِّ البيتِ، وقال الزَّجَّاجُ:الحَنِيفُ في الجاهِلِيَّة مَنْ كان يحُجُّ البيتَ، ويغْتَسِلُ مِن الجَنابَةِ، ويَخْتَتِنُ، فلَمَّا جاءَ الإِسْلاَمُ كان الحَنِيفُ:المُسْلِمَ، لِعُدُولِه عن الشِّرْكِ]ا.هـ.

وجاء في لسان العرب:[وجمع الرّاكِع رُكَّع ورُكُوع، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الحَنِيف راكعاً، إذا لم يَعْبُد الأَوثان، وتقول رَكَع إِلى الله، ومنه قول الشاعر إِلى رَبِّه رَبِّ البَرِيّةِ راكِع]ا.هـ. وبهذا نفهم أحد معاني قوله تعالى:

إبراهيم الخليل وإمامة الحنيفية:

وإنما أُضيفت الملة إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأنه قام بحقيقتها في قومه، فنابذهم وحاورهم وجادلهم، ثم اعتزلهم،وكسّر أصنامهم، وسَفَّهَ أحلامهم، ووبخ عقولهم، ثم خرج مغاضباً لهم هجرةً إلى الله جل وعلا، لا يطلب سوى إقامة الدين، والبراءة من الشرك والمشركين، فصار علما عليها متصفا بها، فلا تُذْكَرُ إلا ويُذْكر معها، فصار عَلَماً عليها، وهاديا إليها، شكرا من الله تعالى له؛ لما قدمه في الانتصار لحق الله تعالى، وما قام به في جنب الله تعالى، متحملا ما يصيبه في ذلك، صابرا لله مقبلا غير مدبر r ؛ ولهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه محمد r بقوله: { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:١٢٣].

فإبراهيم r هو أبو الحنفاء، ومحمد r أمامهم ومُقَدَّمَهُم، فلهذه القَوْمَة العظيمة التي قام بها إبراهيم عليه السلام في قومه سماه الله حنيفاً.

ولما زعمت اليهود والنصارى أنهم على الحق ودعوا الناس إلى ذلك، أمر الله تعالى نبيه r وأصحابه أن يجيبوهم، بأنهم مستمسكون بملة الحنيف إبراهيم، الذي أنتم تنتسبون إليه زورا وبهتانا، أما نحن فنحققها قولا وعملا، كما قال تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } [البقرة:١٣٥-١٣٩].

جاء في تاج العروس من جواهر القاموس:[وقال الزَّجَّاجُ في قَوْلِه تعالَى: {بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً} نَصَبَ: حَنِيفاً، عَلَى الحالِ، والمَعْنَى:بل نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبراهِيمَ في حالِ حَنِيفِيَّتِهِ، ومعنى الحَنِفِيَّةِ في اللُّغَةِ:المَيْلُ، والمعنى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حَنِفَ إِلى دِينِ اللهِ، ودِينِ الإِسْلامِ].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقة ملة إبراهيم:

ثم اعلم رحمك الله، أن ملة إبراهيم، هي الأيمان بالله والكفر بالطاغوت، وتأمل في هذه الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة:١ - ٤].

ثم اعلم بارك الله فيك، أن الإبداء والإعادة في هذا الشأن، أمر مهم ومفيد، ذلك لأن المتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى؛ يجد أن الله تعالى أبدى فيه وأعاد، لأن أكثر الأمم إنما هلكت من هذا الباب، وطالما أن الشيطان يعقد ولاءاته في الضلال ويُكَثِّرُ أعوانه وأنصاره، ويُقْلِقُهم إلى ذلك، فلا تسأم أيها المسلم من ترداد هذه المسألة، بل اجعلها هُجَيِّرَاك، تسعى في نشرها وإظهارها، بقلمك، ولسانك، وحَدِّكَ وسِنَانِك، وتنفق في ذلك أنفس مَالِك، فإنما هو دين الله تبارك وتعالى، وهو الدين الذي لا نجاة، ولا عز،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا فلاح لك إلا به، ومهما سمعت بِدَرْسٍ في ذلك، أو حلقة تعليم في هذا الصَّدَد هنا أو هناك؛ فِطِرْ إليها كل مَطَار واصبر عليها، أيَّما صبر، فإنما هي قضيتك، ووظيفتك التي لأجلها خُلِقْت، ومَن أحَبَّ شيئا لم يسأم من ترداده، ولا تقل قد عَلِمْتُ، فالنسيان وارد، والغفلة ممكنة، والشيطان حاضر، ومكر الله قائم.

مسألة:فإن قال قائل: ألم يَقُم الأنبياء كلهم بهذه الحنيفية، فلم خُصَّ بها إبراهيم r ؟.

قيل: نعم، ولكن هم في ذلك درجات، فقد رفع الله جل وعلا بعض النبيين على بعض، كما قال تعالى:{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة:٢٥٣] ، وإنما خُصَّ إبراهيم بالذكر هنا؛ لأن كفار مكة، واليهود والنصارى، كلهم كانوا ينتسبون إليه،ويقولون هم على دين إبراهيم، فبين الله كذبهم، وأنهم لا يعرفون من ملة إبراهيم شيئاً مما تكون به النجاة ويحققون به التوحيد، ثم جَلَّاها الله في كتابه، وعلى لسان نبيه r ؛ ليظهر الصادق من الكاذب.

قوله:(أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين): العبادة:اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة.

وهذا من أجمع التعاريف وأشملها، وهو ما قاله ابن تيمية رحمه الله. وستأتي تعريفات أخرى إن شاء الله تعالى.

قوله:(وحده): لأن من العباد من يعبد الله ويعبد معه غيره. فدل على ضرورة إفراد الله بذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(مخلصاً): لأن من العباد من يعبد الله وحده، ولكنه لا يخلص في عمله، فالإخلاص هو استنقاذ العمل من كل ما يشوبه، لا سيما ما يكون سببا في بطلانه، وهو الشرك ونواقض الإسلام الأخرى، قال تعالى:{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر:٤٠]، وفي القراءة السَّبْعِيَّة:{ الْمُخْلِصِينَ} بكسر اللام، وبذلك نعلم يقينا أنه لا خلاص بدون إخلاص، وأن السلامة والنجاة في الإخلاص، كما قال تعالى:{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف:٢٤].

قوله:(له الدِّين):لأن من العباد من يعبد الله وحده، ويخلص في تلك العبادة لربه،لكنه لا يذل وينقاد لأمر الله ورسوله، وهو الدِّينُ المَعْنِيُّ هنا، فهو على غير سبيل، بل يعبد الله على جهل، واتباع هوى، فجاء المؤلف بقوله:(الدين) ليبين أن الذل والانقياد لابد أن يكون على هدي الأنبياء والمرسلين، لا بالهوى، وكل أمة بحسب نبيها، ولهذا لو أن يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً وحَّدَ الله، وصلى لله مخلصاً، ولكنه دان بغير شريعة محمد r ، ولم يَذِلَّ لدين النبي r وينقاد له، فهذا مشرك بالله كافر، كما تقدم.

ولهذا قال تعالى:{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣١-٣٢].

قوله:(وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها): أي بهذه الحنيفية ولها، والتي هي عبادة الله والكفر بالطاغوت، فمن تعبد الله بعبادات ولم يكفر بالطاغوت فليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمسلم، ومن كفر بالطاغوت ولم يعبد الله؛ فليس بمسلم،وأمة النبي ﷺ كلها، أعني أمة الدعوة، كلها مخاطبة بهذا الأمر، فمن امتثل كان من أمة الإجابة، وإلا كان من الخالدين في النار.

قوله:(وخلقهم لها): أي لا غاية من خلق الخلق وراء ذلك، فإذا قيل لك لماذا خُلِقْتَ؟، فقل: لأعبد الله، فإذا قيل وكيف تعبد الله؟، فقل بتحقيق الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

فأعظم أمْرٍ أمَرَ الله به التوحيد، وأعظم نهي نهى الله عنه الشرك، وإذا قرأت القرآن بترتيب المصحف العثماني الذي بين أيدينا، وجدت أن أول أمر في سورة البقرة، هو الأمر بالتوحيد، وأول نهي هو النهي عن الشرك، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١-٢٢].

قوله:(كما قال تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون})، الخلق المراد به في هذه الآية الإيجاد من العدم. وقد يأتي بمعنى التقدير، كما في قوله تعالى:{فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون:١٤].

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقوله في هذه الآية:{أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} أي الْمُقَدِّرِين، والعرب تطلق الخَلْقَ وتُرِيدُ التَّقْدِير. ومنه قول زهير:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

فقولـه:يخلـق ثـم لا يفـري: أي يُقَـدِّرُ الأمـر، ثـم لا يُنْفِـذُهُ لِعَجْـزِهِ عنـه، كـما هـو معلوم]ا.هـ.

قوله:{الجن}، خَلْقٌ خُلِقُوا من النَّار من لهبها، وهو مَارِجُها، وسُمُّوا بـذلك؛ لأنهـم يَسْتَجِنُّونَ عن الأنظار، أي يسترون، ومنه قوله r :"والصيام جُنة"أي ستر ودرع بـين العبد وعذاب ربه، وقد خُلِقُوا قبل الإنـس؛ ولهـذا قُـدِّموا في هـذه الآيـة، والله أعلـم، والدليل قوله تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْـنُونٍ (٢٦) وَالْجَـانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} [الحجر:٢٦-٢٧].

قوله {الإنس}: هم بنو آدم ذكوراً وإناثاً، وقد تطلق كلمة الناس ويدخل فيها الجـن كذلك، كقوله تعـالى:{ الَّـذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّـاسِ (٥) مِـنَ الْجِنَّـةِ وَالنَّـاسِ} [الناس:٥- ٦]، قال ابن كثير في تفسيره:[وقوله:{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُـدُورِ النَّـاسِ} هل يختص هذا ببني آدم -كما هو الظاهر -أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا.وقال ابن جرير:وقد استعمل فيهم(رجَالٌ منَ الجنَ) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم.

وقوله:{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، هل هـو تفصـيل لقولـه:{الَّـذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّاسِ} ثم بينهم فقال:{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} وهذا يقوي القول الثاني. وقيل قوله:{مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجِنَّـةِ وَالنَّـاسِ} تفسـير للـذي يُوسـوس في صـدور النـاس، مـن شـياطين الإنـس والجن]ا.هـ.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله r :"خُلِقَـتِ الْمَلاَئِكَـةُ مِـنْ نُـورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ".

قوله:{إلا}: أداة حصر.**وقولـه:{ليعبـدوا}** هـذا هـو المَحْصُـور، والـلام للتعليـل، والمعنى، خَلْقُكُم مُحْصُور في هذه الوظيفة، فهي الغاية من الخلق.

كثير من الكتاب والمثقفين يجهلون حقيقة التوحيد:

قوله:{إلا ليعبدون}، أي إفراد الله تعالى بجميع أنواع التوحيد، وبعض من لا علـم عنده بحقائق التوحيد، يُعَرِّفُ العبادة بأنها معرفة الله بأفعاله، وهذا موجود في كثير مـن الكتب، فعندهم إذا عرف العبد أن الله هو الخالق الرازق المحيـي المميـت؛ فقـد حقـق العبودية لله، وليت شعري أكان يجهل أبو جهل هذا الأمر، أو كان يجحده؟!، كلا والله، بل كان أكثرهم يقر بذلك.

ولكن كثيرا من هؤلاء الكُتَّاب يجهلون، حقائق التوحيـد ولـيس عنـدهم التعظـيم الحقيقي لحق الله تبارك وتعالى؛ ولهذا من عظيم جهلهم، أنهم يقولون إن التوحيد يفرق النَّاس، ويحدث الفتن؛ فيجب ألا نتكلم عن الشرك وفروعه، بل نبدأ بـذكر عظمـة الله جل وعلا، ثم الناس يفهمون التوحيد وحدهم، وهـذا جهـل عظـيم بـدعوة الأنبيـاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمرسلين، فما من نبي بعثه الله تعالى، إلا جاء ليقول لقومه:{اعبدوا الله مالكم من إله غيره}، فخاطبوهم ابتداء بتوحيد الألوهية، وفيه وقعت أكثر الخصومة.

لا يرجون لله وقَارَا:

وهناك أحزاب، وطوائف، وطرق، وعلماء ودعاة، لا يرجون لحق الله وقارا، يعظمون سلامة الدنيا، ولو بتعطيل حق الله جل وعلا، فتراهم تواطأت كلمتهم، مع تفرقهم في الأمصار، على أن الدعوة إلى التوحيد الخالص، وبيان الشرك وحقائقه، وتحذير الناس منه، مَدْعَاة للفتنة، وسبب لفرقة المسلمين، وتشتيت جهودهم،وأن الواجب جمع الكلمة وتوحيد الصف -لا توحيد الرَّب-، وليت شعري، أي فتنة أعظم من الشرك، وأي اجتماع متوهم هذا، بعيدا عن التوحيد الخالص، هذه حرب دَاحِس والغَبْرَاء، شَاهِدَةٌ على فساد تصوراتكم، حرب ضَرُوس، دَامَت سنين، بين الأوس والخزرج، على فَرَس، ولما جاءت دعوة التوحيد، التي بعث بها النبي r ، اجتمعت قلوبهم، وتآلفت، وصاروا إخوة في الله متحابين بجلاله، كما قال تعالى:{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٦٢-٦٣]، وقال:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:١٠٢-١٠٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولنعلم أن كل اجتماع قام على غير تحقيق التوحيد، فإنه صائر إلى فُرْقَة، وعما قليل ستعلمون، وانظر إلى حال الأمة، اليوم كم فيها من الآلام والجراحات، وما ذلك إلا لأنها ضيعت حق الله تعالى، ظنا منها أنها ستقيم دنياها بذلك، فضيعهم الله تعالى، وسلط بعضهم على بعض، فحكمهم الطواغيت بالطاغوت، فلم يلتفتوا إلى ذلك، حتى إذا ارتفعت الأسعار، وضاقت المعايش؛ ضجوا، وتجمهروا، وتعاركوا، وتقاتلوا مع هؤلاء الطواغيت، فإذا أعطوهم ما يرضيهم من فتات هذه الدنيا؛ عادوا إلى بيوتهم، وكأن شيئا لم يكن، هذا وحق الله مُضَيَّعٌ مُسْتَخَفٌ به[1].

وبلاد أخرى، فيها من الاختلاف العقدي الشيء العظيم، مما لا يمكن وجوده من مسلم أصلا، ومع ذلك ترى أكثر الناس لا يَلْوُون على ذلك، بل المهم عندهم أن تبقى العلاقات حسنة، بين أفراد المجتمع الواحد، وأما حق الله تعالى فليذهب، {لكم دينكم ولي دين}، هكذا يفهمون القرآن على أهوائهم، لتمرير المجاملات والمحافظة على اللُّحْمَة الوطنية، والنسيج الاجتماعي، زعموا، ثم ما يلبثون أن تنكشف الحقائق، وتظهر المُخَبَّئات؛ فيهجم عليهم أصحاب العقائد الفاسدة، ويَسَومُونَهم العذاب والنكال الشديد، ويقع الاحْتِراب، وترتفع معدلات القتلى إلى أعلى مستوياتها، وكأنها حرب عالمية، وعندها تفيق الأمة، وتكتشف أن هؤلاء كانوا أعداء لها، والآن يعلمون

---

١ - وتذكر ما جرى في تونس ومصر وليبيا واليمن، في حكم الطواغيت ابن علي وحسني ومعمر وعلي. والدور على البقية آت لا محالة. بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقينا، أن عَدُوَّ عقيدتك، هو عَدُوٌّ أصِيلٌ لك[١]، وأنك وإن رضيت به وعنه، فإنه لا يرضى بك ولا عنك،{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}[آل عمران:١١٩]. هكذا تعيش الأمة أيام خداعها لأنفسها، {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]، والله تعالى يقول:{وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا}[النساء:٤٥].

ودول رفعت شعار الشريعة، ثم تنكرت له، وأخرى رفعته ثم نَكَلَت عنه، زاعمة أن ذلك يحافظ لها على ملكها، وما علمت أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٦].

وأخرى تنتسب إلى حركة إسلامية لما مُكِّن لها، ولكن بسبيل خبيثة، ألا وهي الديمقراطية المأفونة الفاجرة الكافرة، تمادت في غيها، ونادت باحترام الحريات، ومساواة الجميع كفارا ومسلمين، فاليهودي والنصراني والمسلم، عندهم سواء في جميع الحقوق والواجبات، كل هذا بدعوى درء الفتنة، وتجاوز الحرب الطائفية، وما يسمى بالحروب الأهلية، وما علموا أن الله تعالى أبدا قضى، أن الأمن والأمان، لا يكون إلا بتطبيق شرعه، وإقامة حقه، وإلا فإنما هو الخوف والهرج والتخبط، فهؤلاء إنما يجرون

١ - واعتبر بما جرى في العراق بين الرافضة وأهل السنة،وما يجري في سوريا، بين النصيرية وأهل السنة، وما جرى في لبنان بين الرافضة والدروز من جهة وأهل السنة من جهة أخرى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وراء سراب، قال الله تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥]، أفرضي هؤلاء لأنفسهم صفة والكفر والفسوق، عياذا بالله من الخذلان.

يا هؤلاء جميعا، اعلموا أنكم عبثا تحاولون، ووراء سراب تهرولون، وعن خيال تبحثون، فاعلموا أنه أبدا لن يكون، أمن ولا أمان، ولا رغد ولا استقرار، إلا بالتوحيد الخالص، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، وقال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف:٩٦-١٠٢].

فكل اجتماع على غير التوحيد؛ فإلى فرقة وشتات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل تفرق لأجل إقامة التوحيد؛ فأهله إلى عِزٍّ ونَصَرٍ وتَمْكِين.

إن الأمر في غاية الوضوح في كتاب الله تعالى، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل هؤلاء ما قرؤوا القرآن؟، أم قرؤوه وهم عنه غافلون؟، أم له معاندون؟، أم به مكذبون؟!!.

القرآن والسلطان يقتتلان:

وتأملوا أيها الناس - لاسيما من وَلِيَ من الأمر شيئا– سؤال سلمان الفارسي **t** لزيد بن صوحان، وانظروا في حالكم، ففي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق طارق بن شهاب قال: قال سَلْمان لِزَيد بن صُوحَان:(كيف أنت إذا **اقتتل القرآن والسلطان؟)** قال: إذاً **أكون مع القرآن**، قال:**(نعم الزَّيْدُ إذاً أنت)**.

وفيه أيضا من طريق عامر بن مطر بسند قوي قال:كنت مع حذيفة فقال:(كيف أنت يا عامر بن مطر، **إذا أخذ الناس طريقا والقرآن طريقا، مع أيهما تكون؟)** فقلت: **مع القرآن، أحيا معه أو أموت، (**قال:**فأنت إذا)**.

وفي متن كتاب الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري (ص:١٥٤):[وَقَالَ اَلْحَسَنُ:(سَيَأْتِي أُمَرَاءُ يَدْعُونَ اَلنَّاسَ إِلَى مُخَالَفَةِ اَلسُّنَّةِ فَتُطِيعُهُمْ اَلرَّعِيَّةُ خَوْفًا عَلَى ذَهَابِ دُنْيَاهُمْ فَعِنْدَهَا سَلَبَهُمْ اَللَّهُ اَلْإِيمَانَ وَأَوْرَثَهُمْ اَلْفَقْرَ وَنَزَعَ مِنْهُمْ اَلصَّبْرَ وَلَمْ يَأْجُرْهُمْ عَلَيْهِ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ:(إِذَا خَالَفَ اَلسُّلْطَانُ اَلسُّنَّةَ وَقَالَتْ اَلرَّعِيَّةُ قَدْ أُمِرْنَا بِطَاعَتِهِ أَسْكَنَ اَللهُ قُلُوبَهُمْ اَلشَّكَّ وأَوْرَثَهُمْ اَلتَّطَاعُنَ)].ا.هـ.

أَنَّى تُنْصَرُون؟!:

أتظن الأمة أنها تضيع حق الله تبارك وتعالى، ويُقِيمُ اللهُ تعالى لها دُنْيَاهَا، على أحسن ما يكون؟!.

هيهات هيهات، فإنها سنة الله التي لا تحابي أحدا، قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود:١٠٢-١٠٣].

واعتبر بحال أهل الكتاب من قبلنا،- فإن هذه الأمة أشبه الأمم بهم-، لما خالفوا شرع الله تعالى واستكبروا على أمره، وعادوا رسله والحق الذي جاؤوا به، وحاربوا أولياءه وضيقوا عليهم وكادوا لهم؛ ضرب الله عليهم الذلة والصاغر، وصاروا إلى ما ذكر الله تعالى عنهم في كتابه، والنبي r في سنته، حتى إن أهل الجاهلية الذين لا كتاب لهم، كانوا يذلونهم ويقهرونهم، ويغلبونهم في الحروب ونحوها، كما قال تعالى:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [البقرة:٦١]، وقوله:{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [آل عمران:١١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَأَمَّا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَنْ الْيَهُودِ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْصَرُونَ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ شَاذٌّ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْآثَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي هَذَا الْبَابِ فَإِنَّ الْيَهُودَ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهَا غَلَبَتْ الْعَرَبَ بَلْ كَانُوا مَغْلُوبِينَ مَعَهُمْ وَكَانُوا يُحَالِفُونَ الْعَرَبَ فَيُحَالِفُ كُلُّ فَرِيقٍ فَرِيقًا كَمَا كَانَتْ قُرَيْظَةُ حُلَفَاءَ الْأَوْسِ وَكَانَتْ النَّضِيرُ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ . وَأَمَّا كَوْنُ الْيَهُودِ كَانُوا يَنْتَصِرُونَ عَلَى الْعَرَبِ فَهَذَا لَا يُعْرَفُ بَلْ الْمَعْرُوفُ خِلَافُهُ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}. فَالْيَهُودُ - مِنْ حِينِ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ - لَمْ يَكُونُوا بِمُجَرَّدِهِمْ يَنْتَصِرُونَ لَا عَلَى الْعَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ حُلَفَائِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَالذِّلَّةُ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ حِينِ بُعِثَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ]ا.هـ.

جماعة التبليغ في ميزان السُّنَّة:

وآخرون يخرجون – زعموا – لتبليغ دين الله تعالى، تسموا بـ (جماعة التبليغ)، بعضهم أربعة أيام، وبعضهم أسبوعا، وبعضهم أربعة أشهر، فيجوبون الأمصار،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقطعون الفيافي والقفار، ثم يقدمون للناس فضائل الأعمال، ويُـأَمِّنُونَ عـلى مـا عنـد الناس من صالح الأعمال، ولا ينهونهم عن المنكـرات التـي تلبسـوا بهـا، وأمـا دعـوة التوحيد عندهم فإنها رسم بلا أثر، وحبر عـلى ورق، فيجعلـون مـن أصـولهم (تحقيـق الكلمة الطيبة)، وهم من أبعد الناس عن الدعوة إليها بل هم كغيرهم، ممن ذكرنـا مـن قبل، يرون أن الدعوة إلى التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، يرون ذلك فتنة وتَكَلُّـماً في أمراض الأمة، وهذا ممنوع في دعوتهم البَتَّة، ومتى ما شعروا بأحد الخـارجين يـتكلم في هذا الموضوع، سارعوا إلى احتوائه بعد أن يفرغ، لتعديل قناعاته، فإن تعذر علـيهم، تركوه وابتعدوا عنه، فلن يخرج معهم وهو على هذه الوتيرة أبدا، وكثير منهم في معظـم البلدان صوفية، وبعضـهم ديوبنديـة، وهـم عـلى اسـتعداد تـام أن ينزلـوا في مسـاجد الضِّرَار، التي بُنِيَت على القبور، وتمارس فيهـا الأعـمال الشركيـة مـن عبـادة للأوليـاء وأصحاب القبور، وفوق ذلك لا يَنْبِسُونَ بِبِنْتِ شَفَةٍ عن التوحيد، وبيان ما عليه هؤلاء من الشـرك بالله رب العالمين، ومع ذلك يزعمون أنهم ما خرجوا في سبيل الله - زعموا – إلا رحمة للعباد، فأين الرحمة يا هؤلاء؟!!، إن الله تعالى سـمى نبيـه r رحمـة؛ لأن الله تعالى أرسله بالتوحيد الخالص؛ ليخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، فلم يبدأ بشـيء قبل ذلك، فيا سبحان الله، أَنَنْتَسِبُ إلى الرحمة المهداة r ، ونحـن نخالفـه في أصل دعوته؟!!، الله المستعان.

على جرأة فيهم عجيبة، فهم يجوبون الأمصار، ويعترفون بـأنهم ليسـوا بعلـماء، ولا طلبة علم، ومن العجائب أن عامة الطوائف لديها علماء بارزون إلا هـذه الجماعـة، فيـا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحان الله لا علم، ولا دعوة للتوحيد، فعلام تخرجون إذاً؟!!. لا حول ولا قوة إلا بالله.

وآخرون من أهل العلم، لا يكادون يتكلمون عن التوحيد، ويقول أحدهم:إن سُئِلْت أجبت، وإلا فلا. سبحان الله ما هذا التلبيس، وما هذا الضياع.

قال الله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}[آل عمران:١٨٧].

وقال:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:١٥٩٠-١٦٠].

فهل من توبة نصوح، وصدق مع الأمة في حق ربها تبارك وتعالى، قبل حلول الأجل.

وبهذا نعلم يقينا أن الله تبارك وتعالى عندما يأمرنا بإقامة حقه، وإظهار ذلك، وعدم تقديم شيء عليه البتة، إضافة إلى أنه هو حقه الواجب علينا القيام به، فكذلك لأنه تبارك وتعالى إنما يريد بذلك رحمتنا، والإحسان إلينا، كما قال تعالى:{وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء:٢٧-٢٩].

فيا دعاة الإسلام، ارحموا الأمة، بالتوحيد الخالص، لا تقدموا على التوحيد شيئا، فإن فعلتم فاعلموا أنكم تُخَادِعُونَ الأُمَّةَ وتَخْدَعُونَها، وتَغُشُّونها، وتُهَيِّئُونَها لأسباب العذاب، وأشد النكال، فراجعوا أمر ربكم، واعملوا بهدي نبيكم r ، الذي بُعِثَ في أقوام، بل في عَالَم، يَعُجُّ بالضلالات والانحرافات، وألوان الاحْـتِراب، فـإنما هـي شريعـة الغَـاب، القوي فيها يأكل الضعيف، فلم يُعَرِّج على شيء من ذلك، قبل حق الله تبـارك وتعـالى، وشكى منه قومه، ورَمَوْهُ بأنه يدعو إلى الفتنة، والتفريق بين الـزوج وزوجتـه، والوالـد وولده، والرجل وعشيرته، فلم يلتفت إلى ذلك، بل مضى لله صابرا محتسبا؛ لعلمه بـداء الأمة ودوائها، فداؤها الحقيقي الشـرك بالله تعالى، ولا دواء لها سـوى تحقيـق التوحيـد الخالص لله رب العالمين لا شريك له، وإن وقعت تضحيات وجراحات، وإن سُـفِكَت دماء، وذَهَبت مُقَدَّرَات، ولكن العاقبة للمتقين، والنتائج حميدة.

حيلة شيطانية: إسقاط العالم لإسقاط دعوته:

واعلم رحمك الله تعالى، أن أعداء دعوة التوحيد يسـعون جاهـدين في تشـويه هـذه الدعوة، من خلال إسقاط دعاتهـا، ومحاربـة أئمتهـا، حتـى إذا وصـموهم بالعظـائم، ورموهم بالقبائح؛ نفروا الناس عنهم؛ لينفروا تباعا لـذلك عـن دعـوة التوحيـد التـي يحملونها، ويسعون في تبليغها وإقامتها، وهذه طريقة المشركين منذ القدم، كـما قـرر الله تبارك وتعالى ذلك في آيات متكاثرة من الذكر الحكيم، فمنها ما قاله قوم نوح لنوح عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلام: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [الشعراء:١١١]، وقال قوم هود عن هود عليه السلام: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [هود:٥٤]، وقال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٠]، وقال عن فرعون في تنفيره عن موسى عليه السلام: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:٢٦]، وقال: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء:٢٧]، وقال المشركون عن نبينا عليه الصلاة والسلام: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الحجر:٦-٧]، وقال: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [القلم:٥١]، ونحو ذلك.

وإلى يومنا هذا يستعمل أعداء التوحيد هذه الشِّنْشِنَةِ الشيطانية، فترى كثيرا منهم يطعن في دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ويرمونها بالعظائم وأسوء الأوصاف، تنفيرا للناس عن الدين الحق والصراط المستقيم، حتى إنهم يقولون عن كل من دعا إلى التوحيد بأنه (وهابي) أو (حشوي) أو (مجسمة) أو (خامسي)؛ ليربطوا دعوة التوحيد بهذه المسميات ونحوها، والتي سبق أن ربطوها مثلا في هذا الزمان بالشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، الذي شوهوه عند اتباعهم، فصارت شعارا عند هؤلاء المشركين لدى أتباعهم، فما أن يتكلم أحد بالتوحيد الخالص، ويدعو إليه؛ حتى يقولوا عنه (وهابي) وكذا وكذا مما تقدم؛ ليكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك كافيا تماما؛ لينفر الأتباع ويفروا من هذا الداعية، الـذي يـدعو إلى إقامـة حـق الله تبارك وتعالى.

وكأن هذا التوحيد الذي تكلم به هؤلاء الأئمـة، وهـذا الداعيـة أو ذاك، هـو ملـك لأحد دون غيره، وما علموا أن هذه هي دعوة الأنبياء والمرسلين، ولكـن المفسـدين في الأرض يبغونها عوجا، ويصدون عن سبيل الله تعالى، فالله المستعان.

ولخطورة هذا الكيد والمكر الكبار، جرى التنبيه والتحـذير، عافانـا الله وإيـاكم مـن ذلك.

فلنسع جادين جاهدين في تبين هذه الحقيقة للناس؛ لإبطال هذا الكيد والمكر الكبار، مقررين أن هذا التوحيد ليس ملكا لأحد، بل هو دين الله تعالى في أرضه، وهو حـق الله تعالى على عباده، بغض النظر عمن تكلم به، فلا نربطه بأشخاص، بل علينا أن نعـرض ما يطرح من الدعوات على كتاب الله تعالى وسنة رسوله r على هدي وطريقة وسـبيل الصحابة الكرام y، فنقبل ما يوافقها ونرد ما سواها.

ولنعلم أن عامة المشركين، كانوا يُقِرُّونَ بكثير من توحيد الربوبية، إلا القليل مـنهم، ومع ذلك لم ينتفعوا من ذلك بشـيء وحكـم الله علـيهم بـالكفر والشـرك، وأحـبط أعمالهم، كـما قـال تعـالى: {وَقَـدِمْنَا إِلَى مَـا عَمِلُـوا مِـنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُـورًا} [الفرقان:٢٣]، وقال: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِـكَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف:١٠٣-١٠٦].

ولقد وقعت أشد الخصومات في توحيد الألوهية، كما قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر:٣٨].

فلنعلم أنه لن يغني عن العباد شيئا، أن يعظموا خالقهم بأفعاله، وهم يصرفون العبادة إلى غيره.

تنبيه: الخلل في المشركين حاصل في جميع أنواع التوحيد، ولكن بنسب متفاوتة، ومن أقبح الخطأ ما يتصوره البعض من أن مشركي العرب كان شركهم فقط في الألوهية، وأنهم كانوا موحدين في الربوبية لا خلل عندهم في ذلك، فإن هذا القول لا دليل عليه، بل الأدلة قامت على خلافه، قال تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٨-٧٩]، وقال: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [التغابن:٧]، وقال: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٤٩-٥٢]، وقال:{وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٨٠]. إلى غير ذلك من الأدلة.

وقد أورث هذا الفهم الخاطئ للتوحيد والخلل فيه خطأ آخر أقبح وأشنع، حيث حصر أقوام الشرك في نوع واحد وهو توحيد الألوهية، وقللوا من غيره من جهة الوقوع في الكفر وتنزيل الأحكام على الأعيان، كما سيأتي بيانه، والسبب في هذا الخلل ما يوجد في بعض كتب أهل العلم لاسيما المتأخرين، عندما يقررون أن الخصومة بين الرسل وأعدائهم إنما وقعت في توحيد الألوهية، ولأجله بعثت الرسل ولأجله سُلَّت سيوف الجهاد، مع إغفال تام لأنواع التوحيد الأخرى، التي لا تَقِلُّ شأنا عن توحيد الألوهية بل العلاقة كما سيأتي متلازمة.

نعم كان أكثر الخصومة في توحيد الألوهية، ولكن الخلل حاصل في توحيد الربوبية، بل كونهم ما قدروا الله حق قدره هو الذي قادهم إلى تعطيل حقه تبارك وتعالى، فلما عَظُمَ غَيْرُه سبحانه وتعالى في قلوبهم وأنظارهم؛ صرفوا إليهم العبادة من دون الله تعالى، قال تعالى:{وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُّ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام:٩١]، وقال:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَّ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:٧٣-٧٤]، وقال: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَّ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر:٦٥-٦٧].

ولهذا جاء القرآن ليعالج الخلل في جميع أنواع التوحيد معا؛ لسد كل ثغرة؛ والإجابة على كل تساؤل وسؤال، فالشيطان عدو مبين، يسعى جاهدا في التلبيس والتدليس، عياذا بالله منه.

قال المؤلف:(ومعنى يعبدون يوحدون): هذا هو أحد تعريفات العبادة الواردة عن الأئمة وقد تقدم تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال كما في مجموع الفتاوى:[الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُّ وَيَرْضَاهُ : مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ]ا.هـ.

وعرفها بعضهم: بأنها فعل المأمور وترك المحظور، أي إلا لآمرهم فيمتثلوا، وأنهاهم فينتهوا، أو نحو ذلك.

وعرفها ابن كثير في تفسيره فقال:[وفي الشرع:**عبارة عما يَجْمَعُ كَمَالَ المَحَبَّةِ والخُضُوع والخَوْف**]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعرفها ابن القيم: بغاية الحب مع غاية الخضوع والذل، فقال في نونيته:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قُطْبان
وعليهما فَلَكُ العبادة دَائِر ... ما دَارَ حتى قَامَت القُطبان
ومَدَارُه بالأمْرِ أَمْرِ رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان
فقيام دين الله بالإخلاص ... والإحسان إنهما له أصلان
لم يَنْجُ من غضب الإله ونَارِه ... إلا الذي قامت به الأصْلَان
والناس بعد فَمُشْرِكٌ بإلاهِه ... أو ذُو ابْتِدَاع أو لَهُ الوَصْفَان
والله لا يرضى بكثرة فعلنا ... لكِنْ بأحْسَنِهِ مع الإيمان
فالعارفون مُرَادُهُم إحْسَانُه ... والجَاهلون عَمُوا عن الإحسان

وجاء في تفسير القرطبي، جملة من الأقوال، أذكرها باختصار غير مخل إن شاء الله:[وقيل: {إلا ليعبدون} أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها، رواه علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وعن مجاهد: إلا ليعرفوني.وعن مجاهد أيضا: إلا لآمُرهم وأنهاهم.وعن الكلبي:إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، يدل عليه قوله تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين} الآية.وقال عكرمة:إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد.وقيل: المعنى إلا لأستعبدهم.والمعنى متقارب، تقول:عبد بين العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل.والتعبيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التذليل، يقال:طريق معبد.والعبادة:الطاعة، والتعبد التنسك.فمعنى (ليعبدون) ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا]ا.هـ..

وأما في لغة العرب فتدور على خمسة معان:أحدها:الخضوع، والثاني:الذل، ومنه قولهم طريق معبد أي مذلل، والثالث:الطاعة، والرابع: ملكة اليمين، والخامس:النُسُك أو التَّنَسُّك، والنَّاسِكُ هو العابد.

والملاحظ أن تعريف العبادة لغة وشرعا فيهما تقارب وتداخل، وإليك هذه النقولات من بعض كتب اللغة الدالة على هذا المعنى:

جاء في لسان العرب جمعتها من مواضع متقاربة من الكتاب:[العبد الإِنسان حرّاً كان أَو رقيقاً يُذْهَبُ بذلك إِلى أَنه مربوب لباريه جل وعز] [والعَبْدِيَّةِ وأَصل العُبودِيَّة الخُضوع والتذلُّل] [والعابد المُوَحِّدُ].

[وقال الزجاج في قوله تعالى:{وما خلقتُ الجنّ والإِنس إِلا ليعبدون} المعنى ما خلقتهم إِلا لأَدعوهم إِلى عبادتي وأَنا مريد للعبادة منهم وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عُبَّاداً مؤمنين].

قال الأَزهري وهذا قول أَهل السنَّة والجماعة] [وتَعَبَّدَ اللهُ العَبْدَ بالطاعة أَي استعبده] [والتَّعَبُّدُ التَّنَسُّكُ والعِبادَةُ الطاعة] [ومعنى العبادةِ في اللغة الطاعةُ مع الخُضُوعِ ومنه طريقٌ مُعَبَّدٌ إِذا كان مذللاً بكثرة الوطءِ].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب:(الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي):[والنسك العبادة، والناسك العابد الذي يخلص عبادة الله ولا يشرك به، وأصله من النسيكة، وهي النقرة المذابة المصفاة من كل خلط، والنسيكة أيضا القربان الذي يتقرب به إلى الله تعالى، وجمعها نسك]ا.هـ.

وجاء في كتاب:(التعريفات) للجرجاني قال:[العبادة:هو فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه]ا.هـ.

وجاء في كتاب:(التوقيف على مهمات التعاريف):[العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه، وقيل تعظيم الله وامتثال أوامره، وقيل هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض]ا.هـ.

قوله:(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)، تقدم الحديث عن هذه الجمل والمعاني، وكما تقدم معنا، فلأن هذا المقام عظيم فإن الإبداء فيه والإعادة، أمر مهم ومطلوب دائما.

وهنا يذكر المؤلف بتعريف التوحيد، وأنه مرادف لمعنى العبادة، فقد دل عليها مطابقة والتزاما واشتمالا.

وفي هذا التذكير بالرد على من يجتزئون العبادة ويختزلونها، في قوالب معينة؛ ليقدموها بطريقة معينة؛ ليأخذوا منها ما يَرُوقُ لهم، وذلك كما تقدم في أحوال بعض الطرق والأحزاب، وبعض الدعاة والعلماء، مع دعوة التوحيد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأدلة على إطلاق لفظة (التوحيد) على معنى تحقيق العبودية لله تعالى:

ففي حديث ابن عباس المخرج في الصحيحين، جاء في أحد طرقه في صحيح البخاري ذكر التوحيد مكان (شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله) وما ذلك إلا لأنها هي كلمة التوحيد، وهي معنى تحقيق العبادة لله الواحد القهار.فعن ابن عباس قال لما بعث النبي r معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له:"إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن **يوحدوا الله تعالى** فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم.....الحديث"، وقد تقدم.

كما أفاد هذا الخبر ورود التسمية بالتوحيد لفظا، كما دلت على ذلك الشهادتان معنى، وقد جاءت أخبار وآثار في ذلك، واستعملها السلف بلا أنى تردد لا نكير، كما في صحيح مسلم في ذكر جابر t لقصة حجة النبي r في الحديث الطويل، وفيه قال:(فَصَلَّى رَسُولُ الله r فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَرَسُولُ الله r بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ **فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ**:"لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ". وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ الله r عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ وَلَزِمَ رَسُولُ الله r تَلْبِيَتَهُ...الحديث).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في سنن أبي داود في نفس سياق خبر جابر t ، في ذكر الركعتين خلف المقام، حيث سميت سورة الإخلاص بالتوحيد:[وَأَدْرَجَ فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ قَوْلِهِ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قَالَ فَقَرَأَ فِيهَا بِالتَّوْحِيدِ وَ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)]ا.هـ.

وقال البخاري في صحيحه :[كتاب التوحيد. باب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ r أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى]ا.هـ.

وفي سنن الترمذي عن جابر قال: قال رسول الله r :"يعذب ناس من **أهل التوحيد** في النار حتى يكونوا فيها حمما ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة قال فترش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة"، قال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن جابر.ا.هـ.

وجاء في سنن الترمذي:[وروى محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي r قال:"من قتل نفسه بسم عذب في نار جهنم"، ولم يذكر فيه :"خالدا مخلدا فيها أبدا"، وهكذا رواه الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي r ، وهذا أصح؛ لأن الروايات إنما تجيء بأن **أهل التوحيد** يعذبون في النار ثم يخرجون منها، ولم يذكر أنهم يخلدون فيها]ا.هـ.

وفي سنن الترمذي أيضا:[باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار **من أهل التوحيد**]ا.هـ.

وفي سنن الدارمي أخبرنا إبراهيم بن إسحاق عن بن المبارك عن الأوزاعي قال:[قال إبليس لأوليائه: من أي شيء تأتون بني آدم فقالوا من كل شيء قال فهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تأتونهم من قبل الاستغفار فقالوا هيهات ذاك شيء قرن **التوحيد** قال لأُثَنَّ فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه قال فبث فيهم الأهواء]ا.هـ. قلت:وسنده جيد.

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند جيد عَنْ إبْرَاهِيمَ، قَالَ : إذَا أَشَارَ الرَّجُلُ بِإِصْبَعِهِ فِي الصَّلاَة فَهُوَ حَسَنٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.ا.هـ.

وفيه أيضا بسند جيد أيضا عَنْ إبْرَاهِيمَ فِي السَّبِيِّ يُسْبَى مِنْ أَرْضِ الْعَدُو ، وَقَالَ : إذَا أَقَرَّ **بِالتَّوْحِيدِ** وَبِالشَّهَادَتَيْنِ صُلِّيَ عَلَيْهِ.ا.هـ.

وفي مصنف عبد الرزاق بسند جيد عن قتادة في قوله :{واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} يقول سل أهل الكتاب أكانت الرسل تأتيهم **بالتوحيد** أكانت تأتيهم بالإخلاص.ا.هـ.

ومثل هذا كثير جدا، ولو ذهبت أستقصيه؛ لطال الأمر جدا، وفيما ذكرت كفاية للمنصف، وإنما قررت ذلك؛ لأن هناك بعض الجهلاء ادعى أن إطلاق كلمة التوحيد على معنى تحقيق العبودية لله تعالى، هو استعمال حادث لا دليل عليه، ولولا أنه جهل قد قيل، ويخشى أن يعرض على الناس فيقبل، في زمان كثر فيه اتباع الهوى، والحانقين على التوحيد؛ لما قررت ذلك؛ لأنه واضح المعالم في الأدلة الشرعية، وإطلاقات الصحابة والسلف الصالح **y**.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن قوله:(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ.... وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّـركُ): دال على أن المأمورات والمَنْهِيات درجات، وأنه لا شيء أعظم من الأمر بالتوحيد، ولا شيء آكد من النهي عن الشرك، والمعنى فاحذر أن تقدم على ذلك شيئا؛ فتكون من الظالمين.

وقوله:(وَهُوَ:دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ): بيان لما تقدم، من تساوي العباد في هذا الباب، إذ هذا مقام انتصار لحق الخالق تبارك وتعالى، وإنه لمن السَّفَه والطَّيش، أن يقوم العبـد مـدافعا عن حق المخلوق بالافتئات على حق الخالق تبارك وتعالى، وذلـك لأن بعـض الجهـلاء المفتونين، يظنون أن في قول أهل التوحيد:**[إنه لا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، حتى وإن كان هو سيد الأولين والآخرين محمد r ، وأن هـذا الفعـل شرك أكـبر وذنب لا يغفر]**؛ فيظن هذا المسكين، أن في ذلك تَنَقُّصاً لِقَدْرِ النبي **r** ، وما علم هذا أن هذا من إكرام النبي **r** غاية الإكرام، فإنه ما بعث إلا لبيان حق الله تعالى، وأنه لا يجـوز المساس به أبدا، وبهذا بُعِثت جميع الرسل وأنزلت الكتب.

لا للألفاظ المُوهِمَة في مقام التوحيد:

وهكذا كان الأنبياء والمرسلون يغضبون لربهم تبارك وتعالى، إذا أحسوا، أو سمعوا أحدا يَرْمِي إلى رفعهم إلى مقام الخالق تبارك وتعالى، كما في صحيح البخاري من حديث الرُّبيع بنت معوذ بن عفراء قالت:جاء النبـي **r** فـدخل حـين بُنِـيَ عَـلَيَّ فجلـس عـلى فراشي، كمجلسك مني، فجعلت جُوَيْرِيَاتٌ لنَا يَضْرِبْنَ بالدف، ويَنْدُبْنَ مَـنْ قُتِـلَ مِـنْ آبَائِي يَومَ بَدْر، إذ قالت إحداهن: وفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ ما فِي غَدٍ، فقـال:"دَعِـيْ هَـذَا وقُـولِي بِالذِي كُنْتِ تَقُولِين".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتأمل كيف زَجَرَها النبي r ، لَمَا تَعَدَّتْ على حق الله تبارك وتعالى، بالكلام المُوهِم؛ لأن التَّعْمِيم هنا باطل قطعاً، فَذَبَّ النبي r عن حق ربه تبارك وتعالى، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة، إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ومثله قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢].

قوله:(والدليل قوله تعالى:{واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً}): كما تقدم معنا، القاعدة تقول:إن النكرة إذا جاءت في سياق النهي فإنها تفيد العموم، و{شيئاً} هنا نكرة جاءت في الآية في جملة متضمنة للنهي؛ فأفادت العموم، أي لا تشركوا به، لا شركا أصغر ولا أكبر، فالشرك كله مذموم.

مسألة: هل يَغْفِرُ الله تعالى الشرك الأصغر؟:

وهل يغفر الله الشرك الأصغر، أو لا يغفره، على قولين لأهل العلم، إلا أن المقطوع به أن الله تعالى لا يغفر الشرك الأكبر إلا بالتوبة.

والخلاف مبني على معنى قوله تعالى: {إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨]، مع أن الظاهر أنها في الشرك الأكبر. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والذين قالوا، بأنه لا يغفر، لا يعنون أن صاحبه مخلد في النار، كأصحاب الشرك الأكبر، وإنما يقولون لابد له من دخول النار، وهم يقولون إن آية النساء عامة، في الأكبر والأصغر، وأن كل أنواع الشرك لا يغفر، إلا بالتوبة النصوح منه. والعلم عند الله تعالى.

واعلم رحمك الله تعالى، أن الأدلة كثيرة على قبول توبة المشرك - ما لم تأت العلامات التي لا تُقبل معها التوبة -، وسيأتي ذكرها، فمن هذه الآيات، قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٥٤]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء:٦٤]، وقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٤-٦٦]، وقوله: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٧٢-٧٤].

وفي قوله:{وَاعْبُدُواْ اللهَّ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}، بيان وتأكيد لمقام التوحيد، وتنبيه إلى أن العبادة إن خالطها الشرك فسدت، وأحبطت غيرها من العمل، كما أن الآية، دالة على أن البعض قد يعبد الله تعالى ولكنه واقع في الشرك في مقام آخر، وهذا كقوله تعالى:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف:١٠٦].

فالحذر الحذر، فالأمر عظيم والخطب جسيم، نسأل الله تعالى لنا ولكم العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

* الأصل الأول *معرفة الرب: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟.

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

الشرح

قوله:(فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها فقل معرفة العبد ربه ودينه ونبيه r): شرع المؤلف في تفصيل ما أجمل من قبل، لما ذكر المسائل الأربع، فقال في المسألة الأولى العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخذ الآن في تفصيل هذه الجمل، إذ بمعرفتها وضبطها، والعمل بمقتضاها؛ نجاة العبد، وسعادته في الدنيا والدار الآخرة، وإنما سماها أصولاً؛ لأن الأصل: هو ما ينبني عليه غيره، وذلك لكي يُبين أنه لا غنى للعبد عن معرفة هذه الأصول الثلاثة، فمعرفة الرب أصل في الإيمان والعبودية، ومعرفة الدين أصل في الذل والطاعة، ومعرفة النبي r أصل في تحقيق المتابعة والانقياد، فمن عرف ربه ولم يعرف دين الله؛ كان من الهالكين، ومن عرف ربه، ولم يعرف رسوله فهو كذلك.

المعَلِّم الرَّبَاني: وفي ذكره للأصول، أولا نصحا منه للمتعلم وللأمة، فإن العالم الرباني، إنما يبدأ بالأصول قبل الفروع، وبالأهم قبل المهم، وهكذا، قال تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران:٧٩]، وهذا أحد معاني الربانية.

وفي وقوله:(الثلاثة)، تذكير بأهميتها على قلة عددها، فإياك أن تَمَلَّ من تعلمها، والعمل بها، فإنها هي قضيتك ووظيفتك التي وكلت بها، وأمرت بها.

قال المؤلف:(فإذا قيل لك من ربك): **هذا** تذكير بأن العبد سيسأل ولابد عن هذه الأصول الثلاثة، وهذا السؤال قد يقع للعبد في هذه الحياة من بعض العباد، إما للتعليم أو للامتحان، أو نحو ذلك، ولكنه قطعا ولابد أنه سيقع بعد الممات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن أسئلة القبر الثلاثة أولها:(من ربك)، وتلاحظون أن هذه الأصول الثلاثة هي أسئلة القبر بعينها، فالمؤلف رحمه الله يريدك أن تتعلمها اليوم رحمة منه بك، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، وَلَاتَ حِينَ مَنْدَم

.أسئلة سَهْلَةٌ والمُجِيبُونَ عنها قَليل:

ولكن الذي يجب أن يُعْلَم، وألا يغيب عن الذهن أبدا، أنه لن يجيب على هذه الأسئلة في القبر، إلا من كان عارفاً بها، عاملاً بمقتضاها قبل الموت، فإن الإجابة هناك إنما هي إجابة علم وعمل، لا إجابة معرفة وحفظ، فلو كان العبد لديه أعلى الشهادات، أو كان من أعلم الناس بهذه الأصول، في هذه الحياة الدنيا، ولو كان أحفظ أهل زمانه وأتقنهم، وهو لم يعمل بمقتضاها، ولم يحقق معناها ولوازمها؛ فإنه لن يستطع أن يجيب على هذه الأسئلة في القبر.

فمع سهولتها، إلا أنها ممتنعة على المتخذين دينهم لهوا ولعبا وهزوا.

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وغيره١، وقال فيه البيهقي رحمه الله:هذا حديث صحيح الإسناد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ r فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ

١ -عزاه السيوطي في جامع الأحاديث(٧/ ٣٨٤) إلى: أبي داود الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن منيع، والرويانى، وهناد بن السرى في الزهد، وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن منده فى كتاب الإيمان، والحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان وصححه، والضياء. قلت:وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.وقال ابن منده:هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ الله r وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:"اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ:"إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ الله وَرِضْوَانٍ قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ الله r فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُك فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجَنَّةِ قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ الله وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله r :{لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ:{وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُك الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ".

وفي الصحيحين عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا قَالَتْ أَتَيْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ r حِينَ خَسَفَتْ الشَّمْسُ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يُصَلُّونَ وَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي فَقُلْتُ مَا لِلنَّاسِ فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَتْ سُبْحَانَ اللهِ فَقُلْتُ آيَةٌ فَأَشَارَتْ أَيْ نَعَمْ قَالَتْ فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلَّانِي الْغَشْيُ فَجَعَلْتُ أَصُبُّ فَوْقَ رَأْسِي الْمَاءَ فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ r حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ مَا مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ r جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا فَيُقَالُ لَهُ نَمْ صَالِحًا فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ".

شؤوم التقليد والتعصب الأعمى:

وفي هذه الأحاديث إشارة إلى شؤم التقليد في العقيدة، وأنها رزية على العبد، وذلك عندما يسأل في قبره فيقول:(ها ها لا أدري)، فإذا عُلم هذا؛ عرفنا معنى قول المؤلف رحمه الله، (التي يجب على الإنسان معرفتها) إذ أن الجهل بها، و التقليد الأعمى فيها، لا ينجي صاحبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(فإذا قيل لك من ربك؟)، بدأ المؤلف بالتفصيل، في الأصل الأول؛ لأنه الأعلى والأهم، وفي هذا أيضا أسلوب تربوي جميل،كما تقدم معنا،وهو أسلوب التعليم بطرح السؤال، وهذا الأسلوب مستعمل في الكتاب والسنة، كقوله تعالى:{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله} [الأنعام:١٢]، وقوله:{ءإله مع الله}، ومن السنة قوله r لمعاذ:"أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله، وقد تقدم تخريجه، وفي صحيح مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ". قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:"يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ"، قَالَ قُلْتُ:{اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ:"وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة.

وإنما تعظم الأسئلة بعظمة المسئول عنه، وعليه فلا سؤال أعظم من السؤال عن الرب تبارك وتعالى، ورسوله وشرعه، إذ لا شيء أعظم ولا أكبر من الله جل جلاله.

قال المؤلف:(فقل ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه – وفي بعض النسخ بنعمته -) التربية هي العناية، وإصلاح حال المُرَبَّى، والقيام على مصالحه، وبيان ما ينفعه ويضره، والله تبارك وتعالى،فعل ذلك بعباده جل الله في علاه، فله الحمد والشكر، والفضل والمنة، فقد ربى عباده بنوعين من أنواع التربية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نوعي التربية:

النوع الأول: رباهم بأن علمهم وألهمهم ما يكون به أسباب معاشهم في الحياة الدنيا، وتكون هذه التربية مرادفة في المعنى للهداية العامة، كما قال جل وعلا: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} [طه:٥٠-٥١].

ويدخل فيها عناية الرب تبارك وتعالى، بعباده قبل ولادتهم، وهم في أرحام أمهاتهم، إذ هيأ لهم الغذاء في الأرحام، وحفظهم حتى خرجوا إلى الحياة الدنيا.

ويدخل في هذا جميع العالمين، إنسهم وجِنِّهم، والهوام والدواب والسباع، فهي تربية عامة شاملة للخلائق، منذ لحظات الحياة الأولى، بل وقبل ذلك.

فَمَن الذي أَلْهَمَ الرَّضِيعَ، أن يَلْتَقِمَ ثَدْيَ أُمِّهِ، لِأَوَّلِ لحظات حياته؟!، إنه الله الذي علمه ما لم يكن يعلم.

وهذا النوع من التربية، لا مزية فيه لمخلوق عن مخلوق، فالكل يشتركون في ذلك، وليس في ذلك عنصر يتفاضلون به،إلا من جهة طيب المطعم، كما تقدم، ولهذا كان المعول في التفاضل على التربية الثانية.

النوع الثاني: التربية بالهداية والتوفيق:وهذه من أعظم نوعي التربية، وبها يتمايز العباد ويتفاضلون، وهي مرادفة لقوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}، وهي مرادفة للتقوى، ومرادفة لمعنى الإرشاد المتقدم تقريره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكثير من العباد همته مصروفة إلى تربية الأبدان، ولو بخراب القلوب، والعياذ بالله، وفي مثل هذا يقول الناظم:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران

انهض إلى الروح واستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

قال المؤلف:(وهو معبودي ليس لي معبود سواه): تقدم تقرير ذلك في بيان قوله تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، إذ حَرَّمَ الله جل وعلا، أن يُعبَد غيره، وبَيَّنَ أن هذا من أعظم الظلم، إذ كيف يخلق خلقاً، ويربيهم بنعمه، ثم يشكرون سواه ويعبدون غيره، ما أعظم هذا اللؤم، والله تعالى يقول:{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠].

فالله خلقنا لعبادته، وأنعم علينا لنشكره، ونتوجه بذلك إليه جل وعلا، ونعامله بما هو أهله، كما قال تعالى في شأن سليمان عليه السلام، مع عرش بلقيس:{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل:٤٠].

ولله المثل الأعلى:

وقد ضرب الله جل وعلا الأمثلة في كتابه بآيات متكاثرة، علينا أن نتدبرها، وأن نعمل بمقتضاها، كقوله تعالى:{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لله الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللهُّ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُّ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلله غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [النحل:٧٣-٧٧].

فَذَكَرَ الذين عبدوا غيره، ثم ضرب لهم مثلا، يَأْنَفونَ عن قبوله في حَقِّهم، فتضمن الخطاب تَقْرِيعَهُم، إذ كيف تَرْضَونَه لربكم، ولا تقبلونه لأنفسكم، وهو الله رب العالمين؟!!، ثم عطف بعلم الغيب؛ ليعلم الكل أنه لا أعلى من المثل الذي يضربه عالم الغيب والشهادة، فأنى لصاحب العلم القاصر، أن يضرب مثلا لعلام الغيوب؛ ولهذا قدم قوله:{فَلَا تَضْرِبُوا لله الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

وكذلك قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [الروم:٢٧-٢٩].ونحو ذلك من الأمثلة، والله تعالى يقول:{إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٢-٤٣].

فأعظم نِعَمِ الله جل وعلا علينا، ما ربَّانَا به من نعمة الإيمان والهداية إلى السراط المستقيم. فنسأله تعالى الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

قال المؤلف:(والدليل قوله تعالى:{الحمد لله رب العالمين}): ما زال المؤلف رحمه الله تعالى يؤكد على ضرورة التزام الدليل ليسير العبد إلى ربه على بصيرة، فلابد من الاستدلال من الكتاب والسنة على فهم السلف، لكل ما نقوله وما نأتي وما نذر، فلا نقدم على كتاب الله وسنة رسوله r على سبيل الصحابة y أحد كائنا من كان، أميرا كان أو عالما أو حاكما.

لا تَعَصُّبَ إلا للحق:

ومن جميل ما حفظناه من شيخنا العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان –حفظه الله ورعاه وسدد على الخير خطانا وخطاه- وكان كثيرا ما يردد حتى حفظناه عنه:

وقول أعلام الهدى لا يُعْمَلُ ... بقولنا بدون نَصٍّ يُقْبَل
فيه دليل الأخذ بالحديث ... وذاك في القديم والحديث
قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذ بأقوالي حتى تُعرَضَا ... على الكتاب والحديث المُرْتَضَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومـالك إمــام دار الهـجـــرة ... قـال وقـد أشار نَحْوَ الحُجْـرَة
كـل كـلامٍ مِنْـهُ ذُو قَبُـــــولِ ... ومنه مردود سِـــوى الرَّسـول
والشـــافعي قـــال إن رَأَيْتُمُوا ... قـــولي مخـالفـا لما رَوَيْـتُـــم
من الحديث فاضـربوا الجِدَارا ... بِقَـوْلِي المُخَـالِفَ الأَخْبَـــارا
وأحمـد قـال لهـم لا تَكْتُبُـــوا ... مَا قُلْتُه بَل أصـلُ ذلك اطْلُبوا
فاسمع مَقَالات الهُدَاة الأربعة ... واعمـــل بهـا فـإن فيها منفعة
لِقَمْعِهـــا لكـــل ذِي تَعَصُّـب ... والمُنْصِفُـــونَ يَكْتَفُـون بالنبي[1]

وهذه الأبيات، دالة على ضرورة التجرد للحق، والإخلاص لله تعالى في طلبه، بعيدا عن أي التعصب المذموم، لا لجماعة، ولا حزب، ولا شيخ، ولا حـظ نفـس، ولا أهـلا ولا مالا، ولا سـلطانا، ولا عشـيرة ولا قبيلـة، ولا أي شيء أبـدا دون الحـق، بـل هـو السعي الجاد في إصابة الحق والقول به، والصبر عليه والدعوة إليـه، ولـو عـلى الـنفس والأقربين، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَـوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:١٣٥].

---

١ -هذه القصيدة عُثِر على مخطوطتها وهي تسمى:رسالة الهدى في اتباع النبي المقتدى r وهـي مـن نظم الشيخمحمدسعيد بن محمد أمين صفرالمدنيالحنفي رحمه الله١١١٤ – ١١٩٤. وقد ذكر بعضهم أنه قد شرحها بعض علماء اليمن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ اللَّازِمِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ "حُكْمُ الْحَاكِمِ" وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ؛ بَلْ حُكْمُ الْحَاكِمِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ يُلْزِمُ قَوْمًا مُعَيَّنِينَ تَحَاكَمُوا إلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ لَا يَلْزَمُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَلَا يَجِبُ عَلَى عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَلِّدَ حَاكِمًا لَا فِي قَلِيلٍ وَلَا فِي كَثِيرٍ إذَا كَانَ قَدْ عَرَفَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ بَلْ لَا يَجِبُ عَلَى آحَادِ الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ الْحَاكِمِ فِي شَيْءٍ؛ بَلْ لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ يَجُوزُ لَهُ اسْتِفْتَاؤُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا وَمَتَى تَرَكَ الْعَالِمُ مَا عَلِمَهُ مِنْ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتَّبَعَ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْمُخَالِفِ لِحُكْمِ الله وَرَسُولِهِ **كَانَ مُرْتَدا كَافِرًا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**، قَالَ تَعَالَى:{المص} {كِتَابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}. وَلَوْ ضُرِبَ وَحُبِسَ وَأُوذِيَ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى لِيَدَعَ مَا عَلِمَهُ مِنْ شَرْعِ الله وَرَسُولِهِ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَاتَّبَعَ حُكْمَ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِعَذَابِ الله بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَإِنْ أُوذِيَ فِي الله فَهَذِهِ سُنَّةُ الله فِي الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى:{الم} {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وَقَالَ تَعَالَى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} وَقَالَ تَعَالَى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ}. وَهَذَا إذَا كَانَ الْحَاكِمُ قَدْ حَكَمَ فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ قَدْ تَنَازَعَ فِيهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فَحُكْمُ الْحَاكِمِ بِقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سُنَّةٌ لِرَسُولِ الله r تُخَالِفُ مَا حَكَمَ بِهِ فَعَلَى هَذَا أَنْ يَتَّبِعَ مَا عَلِمَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ الله r وَيَأْمُرَ بِذَلِكَ وَيُفْتِيَ بِهِ وَيَدْعُوَ إلَيْهِ وَلَا يُقَلِّدَ الْحَاكِمَ. **هَذَا كُلُّهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.** وَإِنْ تَرَكَ الْمُسْلِمُ عَالِمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ عَالِمٍ مَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ الله وَرَسُولِهِ r لِقَوْلِ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ قَالَ تَعَالَى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَاكِمُ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ - مِثْلَ كَثِيرٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلَّمُوا فِي مَسَائِلَ بِاجْتِهَادِهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ لِرَسُولِ الله r تُخَالِفُ اجْتِهَادَهُمْ - فَهُمْ مَعْذُورُونَ لِكَوْنِهِمْ اجْتَهَدُوا و {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا}، وَلَكِنْ مَنْ عَلِمَ سُنَّةَ رَسُولِ الله r لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ السُّنَّةِ إلَى غَيْرِهَا قَالَ تَعَالَى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} وَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ كَانَ مَهْدِيا مَنْصُورًا بِنُصْرَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {إنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } وَإِذَا أَصَابَتْ الْعَبْدَ مُصِيبَةٌ كَانَتْ بِذَنْبِهِ لَا بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ r ، بَلْ بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ r يُرْحَمُ وَيُنْصَرُ، وَبِذُنُوبِهِ يُعَذَّبُ وَيُخْذَلُ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}؛ وَلِهَذَا لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا مَعَ النَّبِيِّ r وَاسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ الْعَدُوُّ بَيَّنَ اللهُ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ بِذُنُوبِهِمْ قَالَ تَعَالَى: {إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} وَقَالَ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعَالَى:{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ حِكْمَةَ ابْتِلَائِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى:{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} وَقَالَ تَعَالَى:{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}، وَاللهُ قَدَّرَهَا وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ].ا.هـ.

وكما قيل: الحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق.

واعرف الحق تعرف أصحابه.

لا تَلَازُم بين رَدِّ الخَطأ وإسْقَاط فَاعله:

واعلم رحمك الله، أننا لا نعني أبدا إسقاط أقوال الأئمة، بل هم مصابيح الدُّجَى، ومفاتيح العلم لمن بعدهم، ولكنَّا متى ظهر لنا الحق عند غيرهم؛ تركناهم إلى الحق الذي ظفرنا به، مع حبنا إياهم وإجلالنا لهم، وحفظ سابقتهم في الدين، ولا نفعل كما تفعل بعض النساء، تَكْفُرُ العَشِير، كما قال النبي r ، كما في الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ r :"أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ قِيلَ أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ قَالَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل نحفظ لهم الوُدَّ، ونُكِنُّ لهم الاحترام والقَدْر، ولكن الحق أحب إلينا منهم، ولابد من التحلي بالعدل والإنصاف في إطلاق الأحكام، فلا نُبَدِّعُهم، ولا نُجَرِّمُهُم، ولا نُجَرِّحُهم، إذ الفُجُورُ في الخُصُومة من خصال المنافقين، أعاذنا الله وإياكم منهم.

والضابط في ذلك أن العالم إذا كان من أهل السنة والجماعة، بحيث هو على ما كان عليه النبي r وصحابته الكرام y في جميع أبواب الدين، أصوله وفروعه، بما في ذلك باب الأسماء والصفات، وأسماء الدين والإيمان والتوحيد، وباب النبوات، وباب الصحابة؛ فهذا يجب تَوَلِّيهِ، والذَّبُّ عنه، وحفظ حقه، والاعتراف بفضله، مع رد ما وقع فيه من الخطأ، إذ ليس معصوم بعد رسول الله r وسبيل الصحابة y .

قال الإمام الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء) في ترجمة الإمام المحدث الْمُفَسِّر قتادة بن دعامة السدوسي:[ثُمَّ إِنَّ الكَبِيْرَ مِنْ أَئِمَّةِ العِلْمِ إِذَا كَثُرَ صَوَابُه، وَعُلِمَ تَحَرِّيهِ لِلْحقِّ، وَاتَّسَعَ عِلْمُه، وَظَهَرَ ذَكَاؤُهُ، وَعُرِفَ صَلاَحُه وَوَرَعُه وَاتِّبَاعُه، يُغْفَرُ لَهُ زَلَلُهُ، **وَلاَ نُضِلِّلْهُ وَنَطْرَحُهُ وَنَنسَى مَحَاسِنَه.نَعَم، وَلاَ نَقتَدِي بِهِ فِي بِدعَتِه وَخَطَئِه، وَنَرجُو لَهُ التَّوبَةَ مِنْ ذَلِكَ**]ا.هـ.

وانتبه لهذا الكلام الخطير:

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي في كتابه:(التبيان في آداب حملة القرآن):[قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله، اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، **أن لحوم العلماء مسمومة وعادة**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب،{فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}].ا.هـ.

قلت: فإذا كانت لحوم العلماء مسمومة، فكيف بلحوم أطهر الأمة وأشرفها بعد النبي r ، ألا وهم الصحابة الكرام y ، فقبح الله الرافضة، ألا لعنة الله على الرافضة.

قال المؤلف:(الحمد لله رب العالمين): الحمد لغة الثناء على الجميل الاختياري، والألف واللام فيها للاستغراق، أي جميع أنواع المحامد مُسْتَحَقَّةٌ مُسْتَغْرَقَةٌ للرب تبارك وتعالى.

الفرق بين الحمد والثناء والشكر: واختلف أهل العلم في الفرق بين الحمد والثناء والشكر[1]، فمنهم من قال الحمد هو الثناء، والشكر هو المدح مقرون بعمل، ولكن

---

١ -فالحمد:هو الثناء على المحمود لكمال ذاته وصفاته، ولو لم يصلك منه شيء، وليس هذا الحمد المطلق إلا لله؛ لأن كمال الذات خاص بالله سبحانه، وهو منزه عن النقص:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}؛ ولهذا يقول العلماء: ال (في قولك) الحمد:للاستغراق،فاستغرقت جميع المحامد، وأضافتها لله سبحانه.

والثناء:هو امتداحك الشخصلحسن فعاله،هناك، أي الحمد، لكمال ذاته ولولم يأتك ولا غيرك منه خير، ولولم يصدر منه فعل،وهنالحسن فعاله تثني عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الشكر :فيكون لمنصنع لك معروفاً،ولو لم يصل لغيرك منه شيء.

وجاء في موقع الإسلام سؤال وجواب:السؤال: هل هناك فرق بين الحمد والشكر؟.

الجواب:الحمد لله، اختلف أهل العلم في الحمد والشكر هل بينهما فرق؟، على قولين:القول الأول:أن الحمد والشكر بمعنى واحد، وأنه ليس بينهما فرق، واختار هذا ابن جرير الطبري وغيره.قال الطبري رحمه الله:"ومعنى(الْحَمْدُ لله):الشكر خالصًا لله جل ثناؤه، دون سائر ما يُعبد من دونه ....."، ثم قال رحمه الله بعد ذلك:"ولا تَمَانُع [أي:اختلاف] بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحُكْم لقول القائل:"الحمد لله شكرًا" بالصحة، فقد تبيّن - إذْ كان ذلك عند جميعهم صحيحًا - أنّ الحمد لله قد يُنطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضعَ الحمد؛ لأن ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال:"الحمد لله شكرًا""انتهى من "تفسير الطبري" (١/ ١٣٨).

القول الثاني:أن الحمد والشكر ليسا بمعنى واحد، بل بينهما فروق، ومن تلك الفروق:

١. أن الحمد يختص باللسان، بخلاف الشكر، فهو باللسان والقلب والجوارح.

٢. أن الحمد يكون في مقابل نعمة، ويكون بدونها، بخلاف الشكر لا يكون، إلا في مقابل نعمة.

قال ابن كثير رحمه الله – في معرض رده على كلام ابن جرير السابق – (١/ ٣٢):"وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين:أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعمّ الحمد، أو الشكر على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقولحمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية، كما تقدم. وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشكل على هؤلاء ما أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة t قال قال رسول الله r :"قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ

الصفات المتعدية:لا يقال شكرته لفروسيته، وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليّ ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم " انتهى .

وعلى ذلك بنى أبو هلال العسكري تفريقه بين الأمرين،قال رحمه الله:"الفرق بين الحمد والشكر: الحمد هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبر.والشكر:فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لأجل النعمة، سواء أكان نعتا باللسان، أو اعتقادا، أو محبة بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان.وقد جمعها الشاعر في قوله .. [فذكر البيت السابق] فالحمد أعم مطلقا، لانه يعم النعمة وغيرها، وأخص موردا إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس، إذ متعلقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره.فبينهما عموم وخصوص من وجه، فهما يتصادقان في الثناء باللسان على الإحسان، ويتفارقان في صدق الحمد فقط على النعت بالعلم مثلا، وصدق الشكر فقط على المحبة بالجنان لأجل الإحسان".انتهى." الفروق اللغوية" (٢٠١-٢٠٢).

وقال ابن القيم رحمه الله "مدارج السالكين" (٢/٢٤٦):"والفرق بينهما:أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.ومعنى هذا:أن الشكر يكون:بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقيادا.ومتعلقه:النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال:شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله.والشكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان."انتهى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعَالَمِينَ}. قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ:{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}. قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}. قَالَ:هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ".

قالوا فَفَرَّقَ الله تعالى في هذا الحديث بين الحمد والثناء هنا، وهذا قول قوي وَوَجِيه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى:[مسألة:في الحمد والشكر ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد؟ أو معنيان؟ وعلى أي شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟.

الجواب: الحمد لله رب العالمين الحمد يتضمن: المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه:الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله تعالى يُحْمَدُ على ماله من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى:{وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا}، وقال:{الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور}، وقال تعالى:{الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة}، وقال:{الحمد لله فاطر السماوات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء}.

وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى: {اعملوا آل داود شكرا}، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه، وفي الحديث:"الحمد لله رأس الشكر"[1]، فمن لم يحمد الله لم يشكره، وفي الصحيح عن النبي r أنه قال:"إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأَكْلَةَ؛ فيحمده عليها ويشرب الشَّرْبَةَ فيحمده عليها". والله أعلم]ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:[الشكر: يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «الحمد»؛ ومتعلَّقه أعم من متعلق الحمد؛ فيختلفان إذاً من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ سبب الحمد كمال المحمود، وإنعام المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان «الحمد» من «الشكر»؛ أما «الشكر» فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق «الحمد» فيكون باللسان

---

١ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ولكنه منقطع؛ لأنه من رواية قتادة عن ابن عمر ولم يسمع منه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر: أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فـ«يدي» هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني» هذا الشكر باللسان، يعني القول؛ و«الضمير المحجبا» يعني القلب]ا.هـ.

وملخص ذلك فيما يظهر والله أعلم، أن يقال:بأن الحمد مُتَعَلَّقُه المحبة والإجلال، على ما قام بالمحمود من الصفات،الموجبة للمدح والإجلال، وأما الشكر فمتعلقه أخص من جهة العمل، في مقابلة النعم؛ لعموم قوله تعالى:{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]، فلا يكون العبد شاكرا بحق حتى يكون ذلك منه باللسان والجنان والأركان (أي:الجوارح)، وأما الثناء: فهو ذكر ما قام بالمُثْنَى عليه من الصفات التي لا مْدفَع لها، لاتصاف صاحبها بها وإن أنكرها من أنكرها، فهي شهادة بما علم المُثْنِي من صفات، ولا يستلزم محبة، وبينه وبين الحمد عموم وخصوص.

ويكون الثناء بالخير وبالشر، كما في الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقَالَ نَبِيُّ الله r :"وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ". وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقَالَ نَبِيُّ الله r :"وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ". قَالَ عُمَرُ فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتَ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد حمد الله جل وعلا نفسه في مواضع من كتابه فهو أهل الثناء والمجد جل وعلا، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١]، وقوله: {الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف:١]، وقوله: {الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ:١]، وقوله: {الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر:١]، ونحو ذلك من الآيات.

وأمر عباده بأن يحمدوه وأن يكثروا من ذلك، كما قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء:١١١]،وقال: {قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل:٥٩]، وقوله: {وَقُلِ الْحَمْدُ لله سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [النمل:٩٣]، وقوله: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون:٢٨] ونحو ذلك من الآيات.

وامتثل فريق من عباده ذلك، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون والملائكة، ومن تبعهم من المؤمنين المتقين، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [النمل:١٥]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر:٧٥].

بل ويَمْتَدُّ حَمْدُهُم لله تعالى ويستمر إلى يوم القيامة، وفي جنات النعيم نسأل الله من فضله العظيم، كما قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف:٤٣]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس:٩-١٠]، وقوله: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر:٣٤]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر:٧٤]، ونحو ذلك من الآيات.

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ". قَالُوا فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟، قَالَ:"جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ". نسأل الله من فضله العظيم، الفردوس الأعلى.

وفي الصحيحين عن سَعْد بْنِ عُبَادَةَ، قال: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله r فَقَالَ:"أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَالله لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ".

قوله (لله): اللام للاستحقاق، أي أعظم من استحق الحمد هو الله جل وعلا، وإن قيل للاختصاص، كان المعنى أي أن الحمد المطلق المستغرق لجميع المحامد، خاص بالله جل وعلا، فلا يجوز إطلاقه على غيره من هذا الوجه، فإن المخلوق قد يمدح من وجه، ولا يمدح من وجوه أخرى، فمهما بلغ من الصفات والنعوت الحسنة، فإنه يبقى ذلك متعلقا بما قام به من الصفات الحسنة، وإذ هو مخلوق، فلابد أن لا تقوم به جملة من الأوصاف التي لا تليق إلا بالخالق جل وعلا، بل والمخلوق ربما حُمِدَ على شيء ما، ويكون في حَقِّه كمالا، ولكنه دال أيضا على نقصه، وافتقاره، كالولد مثلا، فالعُقْمُ مذموم في المخلوق، ولهذا قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء:١١١]، وقوله: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام:١٠١]، فعدم الولد والزوجة كمال في حق الخالق سبحانه، يحمد عليه جل وعلا، إذ هو دال على كمال الغنى والقوة، والقدرة والبقاء، وهو في حق المخلوق نقص وعيب، إذ المخلوق فقير محتاج مربوب، وهو صائر إلى الموت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الله جل جلاله فكل ما يحمد به فهو كمال مطلق في ذاته، لا تعلق لـه بافتقـار ولا نقص ولا عيب، جل الله في علاه، ولهذا كان لله تعالى الحمد المطلـق؛ لكمالـه وجلالـه، جل الله في علاه.

(الله): عَلَمٌ على ذات الله جل وعلا، **وهو أعرف المعارف سبحانه وتعالى**، ولا يجـوز تسمية المخلوق به أبدا، فهو من الأسماء المختصة بالخالق جل وعلا،والأسماء تنقسم في الجملة إلى ثلاثة أقسام:

أقسام الأسماء:

١- **قسم خـاص بـالله جـل وعـلا**، لا يجـوز إطلاقـه عـلى المخلـوق كاسـم (الله، والرحمن،والقهار،ومالك الملك، والمحي المميت، والوهاب، والحي القيوم، والقدوس، وعـالم الغيـب والشـهادة، وعـلام الغيـوب، وفـالق الإصـباح، ومكـور الليـل عـلى النهار)وغير ذلك.

٢- **قسم خاص بالمخلوق**، لا يليق بالخالق تبارك وتعالى، كأسـماء العبـاد:(محمـد، وصالح، وعكرمة)، وغير ذلك.

٣- **قسم مشترك من جهة الحروف لا تماثل المعاني**، بين الخالق والمخلوق، فهـذه لله تعالى منها الكمال المطلق، وللعبد منهـا الـنقص والتقصـير، كاسـم(الملـك، والجميـل، والحي، والرب) ونحو ذلك. فملك المخلوق قاصر ناقص، فهـو لا يملـك كـل شيء، وربما مَلَكَ ولم يحكم، وربما حَكَم ولا يملك من يحكمهم، بل وحتى ملكه موهوب له،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك جمال المخلوق قاصر محدود، وكذلك حياته، وأما الله تبارك وتعالى، فله الكمال المطلق جل الله في علاه.

الأسماء والصفات توقيفية:

وأسماء الله جل وعلا توقيفية، فلا يقبل إلا ما صح به الدليل، وعليه فإنه ليس من أسماء الله تعالى:(الرشيد، ولا المنتقم، ولا الحنان، والرافع، والخافض، والنافع ، والضار) وفي (المنان) اختلاف إذ أن الأحاديث الواردة في ذلك فيها لين وضعف، إذ لا تخلو من مقال، وأما:(الصانع، العارف، المخترع) فهذه ليست من أسماء الله، واستعمال بعض الأئمة لها، فهو من باب أن الوصف أعم من الاسم، فيتوسعون في ذلك، وإن كان الأصل التقيد بما وَرَدَ وَصَحَّ.

قوله:(رب العالمين): تقدم معنى الرب. و(العالمين) جمع عَالَم، واللفظ دال على تعدد العَوَالِم، وهو دال على عظمة الرب وقدرته جل الله في علاه، وإضافتها إلى الرب دال على أنه هو القائم على مصالحها، وهو الموجد لها من العدم، وهو المتكفل بأرزاقها وحوائجها، وهو القادر عليها المتصرف فيها، وهي ذليلة مفتقرة إليه، جل الله في علاه، وهذا أخص بالربوبية؛ ولهذا أضيفت إلى اسم الله (الرب) في هذا المقام، وهو وحده تبارك وتعالى المختص بذلك كله، لا ينازعه في ذلك أحد، جل الله في علاه، وهو سبحانه له الحكم فيه، وإليه يرجعون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام:٣٨]، وقال سبحانه: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} [البقرة:١٦٤]، وقال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦]، وقال: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود:٥٦]، وقال: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل:٤٩]، وقال: {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النور:٤٥]، وقال: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [العنكبوت:٦٠]، وقال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان:١٠-١١]، وقال: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى:٢٩].

قوله: (وكل ما سوى الله عَالَم، وأنَا واحد من ذلك العالم): هذا إقرار من المخلوق بعظمة الخالق واستحقاقه أن يُعْبَد وحده لا شريك له، فلابد أن تُمَرَّ هذه الجمل بمعانيها على القلوب، وأن تَتَنَزَّلَ على أرض الواقع، عملا بالجوارح، وأن تظهر آثار ذلك، على حياة العبد، وفي تعامله مع الرب جل جلاله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس الأمر مجرد إقرار واعتراف فحسب، وإنما هو القول الذي يسعى العبد في تحقيقه، ومطابقته لواقع الحال.

الابتلاء في الأقوال بتحقيقها:

فالأقوال المجردة عن التطبيق العملي لا تغني عن صاحبها شيئا، وقد أبى الله جل وعلا إلا أن يمتحن العباد ويبتليهم فيما يقولون، كما قال تعالى: {الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت:١-٣]، وفضح الله أقواما يريدون أن يَقْتَصِروا على المَقَال، وأن يَتَخَلَّفُوا عن الفِعَال، فقال تعالى في شأنهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء:٦٠-٦١] الآيات، والزعم هو القول، يحتاج إلى برهان وإثبات.

وتأمل هذه الآيات: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور:٤٧-٥٤].

فما أيسر الأقوال إذا كانت ستبقى رهن اللسان فحسب، فلا أثر لها في الواقع، ولا حظ لها من العمل، وهذه الطريقة، لا تمت إلى سبيل النجاة بصلة، واعتبر بحال المنافقين، الذين حكم الله تعالى عليهم، بأنهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم أرادوا الاقتصار على الأقوال دون الفعال، بل وعملوا بضد ما قالوا فأكذبهم الله تعالى، كما في قوله جل الله في علاه وتعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}[المنافقون:١-٣].

كما أن أقوالا بهذا الاعتبار لا قيمة لها أصلا، وقد كان المشركون أعقل من هؤلاء المنافقين وأمثالهم، إذ فقهوا أن كلمة التوحيد تتضمن الإقرار بمعانيها ومدلولاتها، والالتزام بما أفادته ودلت عليه؛ ولهذا أبوا أن يقولوها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟.

فَقُلْ:بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ،وَمِنْ آيَاتِهِ:اللَّيْلُ،وَالنَّهَارُ،وَالشَّمْسُ،وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[فصلت:٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤]. وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢١-٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(فإذا قيل لك: بما عرفت ربك؟): أراد المؤلف رحمه الله أن يقرر، بِمَ تكون معرفة الرب تبارك وتعالى، وأنها لا تتوقف فقط على الدليل الشرعي، ولا فقط على الدليل العقلي، بل كذلك بشاهد الدليل الكوني، الدال على وجود الرب تبارك وتعالى، ولو لم يبعث الله جل وعلا الرسل، ولم ينزل الكتب؛ لكان في ما بثه الله تبارك وتعالى في كونه، دليل كاف، على إثبات وجوده تبارك وتعالى ووحدانيته خلقا وتقديرا وتدبيرا، متفرداً بذلك جل وعلا، ولهذا قال قائلهم:

تَأَمَّل في نبات الأرض وانْظُر ... إلى آثار ما صَنَعَ المَلِيكُ
عُيونٌ من لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هي الذَّهَبُ السَّبِيكُ
على قُضُبِ الزُّبُرْجُدِ شَاهِداتٌ ... بأن الله ليس له شَرِيكُ

ويقول الآخر:

تَأَمَّل سُطُورَ الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رَسَائِلُ
وقد خُطَّ فيها لو تَأَمَّلْتَ خَطُّهَا ... ألا كُلُّ شَيء ما خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ".

وكم قيل:

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمر الله تبارك وتعالى العباد، أن يستدلوا على عظمته وقدرته ووحدانيته، بالتفكر والنظر في ملكوت السموات والأرض، كما قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام:١١-١٢]، وقال: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام:٩٩-١٠١]، وقال: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس:١٠١]، وقوله: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [سبأ:٩]، وقوله: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق:٦-١١]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات:٢٠-٢٣]، ونحو ذلك من الآيات.

يا فوز المُتَفَكرين المُعْتَبرين:

وامتدح الله جل وعلا هذا الصنف من العباد، الناظرين في ملكوت الله جل وعلا؛ المتفكرين المعتبرين، الذين سخروا عقولهم في أشرف المعلومات على الإطلاق، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٦٤]، وقال: {وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [آل عمران:١٨٩-١٩٥]، وقوله:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس:٥-٦].

وهَدَّدَ الذين يَمُرُّونَ على هذه الآيات بلا تفكر ولا اعتبار، ونَعَتَهُم بأنهم من الصُّم البُكْم الذين لا يعقلون، وإن كانوا سَادَةً في أقوامهم، وإن كانت لهم مكانة في أقوامهم، أيّاً كانت تلك المكانة، كما قال تعالى:{أَلَا إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٦ - ٧٠]، وقال:{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف:١٠٥-١٠٧]، وقوله:{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} [الروم:٧-١٣]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء:٣٠-٣٣]، وقوله: {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٣- ٦]، وقوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢٢-٢٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فإن وحدانية الله جل وعلا خلقا وتدبيرا يدل عليها الشرع المُنَزَّل، والعقل السليم، والفطرة المستقيمة؛ ولهذا كان المتعين عليهم أن يبادروا إلى تصديق الرسل واتباعهم، لَمَّا جاءوهم بمراد الله تعالى منهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ولكن لما فسدت فِطَرُ الكافرين، وسَقُمَتْ عُقُولهم - كما هو في حال الحضارة الغربية الكافرة الماثلة اليوم - لم يهتدوا إلى الله جل وعلا، مع كثرة نظرهم في هذا الكون، واشتغالهم بأجزائه، إلا أنهم نظروا إليه بِعَينِ البَصَرْ، لا بِعَينِ البِصِيرَة النافذة؛ فاكتفوا منها بالشكل الظاهر، ولم يَعْتَنُوا باللُّبَاب؛ ولهذا ما زادتهم إلا طغياناً وعتواً وكِبراً كبيرا نسأل الله العافية والسلامة.

الصُّمُّ البُكْمُ الَّذين لا يَعْقلُون:

أُسْوَتُهم في ذلك حالُ أسْلافِهم من أهل الجاهلية، الذين نَعَتَهم الله تعالى بأنهم يَرَونَ ولكن لا يبصرون، ويسمعون ولكنهم لا يعقلون، فالآلَة سَلِيمة من جهة إدراك مجريات الحياة الدنيا، ولكنها مُعَطَّلة عن إدراك الحق وفَهْمِهِ وعَقْلِه، فلا تعجب إذا رأيت أن الله تعالى يثبت لهم السمع والبصر والقلب (وهو محل العقل)، وفي نفس الوقت يَنْفِيهِ عنهم، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف:١٩٧-١٩٨]، وقوله: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩]،وقوله: {وَلَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢١-٢٣]، وقوله: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} [يونس:٤١-٤٣].

وهناك صنف من العباد لا ينفع معه الدليل السمعي، ولا شاهد الكون، كالملاحدة الدَّهريين، والشَّاكِّين في وجُود الله تبارك وتعالى، عُبَّاد الطبيعة، بل عباد الشيطان والهوى، بما يسمون اليوم بالشيوعيين (الماركسيين)، ومن شايعهم من العقلانيين والعلمانيين واللبراليين، فهؤلاء يخاطبون بما قرره الله تبارك وتعالى من خبايا المخلوقات، وأسرار الكائنات، التي لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، خالق الخلق ومالك الملك جل الله في علاه، فَتُقَرِّرُهم بوجود الرب تبارك وتعالى، ووحدانيته، بهذه السبيل، التي لا يتعالى عليها إلا معاند عرف الحق واستكبر عنه، وتعالى عليه،فها هو دُونَهُم عظيم صنعة الله تعالى، وجميل تدبيره في كونه، ودِقَّة إحْكَامِه خَلْقَه جل الله في علاه[١].

١ - ولمعرفة المزيد عن هذه الطريقة من القرآن والسنة، لإقناع وإفحام هؤلاء الملاحدة، راجع كتابي الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية، الاستنباط الرابع والأربعون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}[فصلت:٥٢-٥٤]، وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج:٣-٥]، وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [المؤمنون:١٢-١٧]، وقوله: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} [الفرقان:٤٤-٥٥]، وقوله:{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ:٦-١٦]، وقوله:{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عبس:١٧-٣٢]، ونحو ذلك من الأدلة الدالة على أن وراء هذا العالم خالق ، عظيم، ومدبر حكيم، عليم غني قوي عزيز رحيم، خلق هذا الكون كله، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، جل الله ربي في علاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(فقل: بآياته): هذا أسلوب تربوي رفيع في التعليم، وهو تلقين المُتعلم المعلومة الصائبة؛ ليصدر بِعَطَن؛ ولتكون الأمور في غاية الوضوح والظهور، فهذا سلاح العلم الصحيح، بالحجج الظاهرة، التي تدمغ الباطل، وبه ينهدم بنيانه، وهذه هي التربية العلمية الربانية، وبها يُعَلِّم العَالِمُ الرَّباني طُلَّابَه، وهذا الأسلوب كثير في الكتاب والسنة، فمنها قوله تعالى:{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران:٢٠]، وقوله:{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران:٦١]، وقوله:{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٧-١٥٠]، وقوله:{فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة:٨٣]، وقوله:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٨٥]، وقوله:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه:١٠٥-١١٢]، ومثل هذا كثير في الكتاب العزيز.

ومن السنة ما في صحيح البخاري من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قصة غزوة أحد في الحديث الطويل وفيه: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ r أَنْ يُجِيبُوهُ ثُمَّ قَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ قَالَ يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ أُعْلُ هُبَلْ أُعْلُ هُبَلْ. قَالَ النَّبِيُّ r :"أَلَا تُجِيبُوا لَهُ" قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ، قَالَ:"قُولُوا اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ". قَالَ إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ r :"أَلَا تُجِيبُوا لَهُ" قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ. قَالَ:"قُولُوا اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا وُفِّق العبد إلى معلم، يلقنه الحجج الصائبة، والمعلومة الصحيحة؛ كان ذلك من فضل الله على هذا المتعلم، وإلا كانت الهلكة، وحصل التلبيس والتدليس، والتلاعب بشرع الله تبارك وتعالى، فإن وُفِّقْتَ إلى أمثال هؤلاء، من أمثال المؤلف رحمه الله تعالى، أصحابِ العقيدة السليمة، والتصور الصحيح لدين الله تبارك وتعالى؛ فاحمد الله كثيرا، وسل الله العافية والسلامة، والسداد والثبات حتى الممات.

والآية لغة هي العلامة، وهي هنا المراد بها الآية الدالة على واضعها وموجدها، وهو الله رب العالمين.

أنواع الآيات:

والآيات التي استدل الله تبارك وتعالى بها على عباده على وحدانيته أنواع:

١- **الآيات المَتْلُوَّةُ:** والتي هي كلام الله تبارك وتعالى، فالقرآن كلام الله تعالى، كقوله تعالى: { تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}، في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم [البقرة:٢٥٢]، [آل عمران: ١٠٨] [الجاثية: ٦]، والسُّنَّة وَحْيٌ من الله تعالى، كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣-٤].

٢- **الآيات المخلوقة العامة:** وهي الشواهد الكونية التي خلقها الله تبارك وتعالى، وبثها في كونه، دلالة على وحدانيته، وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، ولعل المؤلف أراد هذا النوع، في هذا المقام.

٣- **الآيات المخلوقة الخاصة:** وهي ما أيد الله تبارك وتعالى به رسله، من المعجزات الدالة على صدقهم، وما أَيَّدَ به أتباع الرسل من الكرامات،ومنها ما جعلها الله تبارك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى عبرة للعباد، تحصل لهم بها الهدايات، كما قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} [هود:٦٤]، وقوله تبارك وتعالى: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [الأعراف:١٣٢]، وقوله: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران:٤١]، وقوله: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٤٨]، وقوله: {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [مريم:٢١]، وقوله: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:٩١]، وقوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفرقان:٣٧]، وقوله: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [العنكبوت:٣٥]، وقوله: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:٢٥٩]، وقوله: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْأَبْصَارِ} [آل عمران:١٣]، وقوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس:٩٢]. ونحو ذلك من الآيات.

قال المؤلف:(ومخلوقاته): عطف على آياته، إذ أن كل المخلوقات، هي من آيات الله جل وعلا، الدالة على وجوده ووحدانيته، وقد يقال إن هذا من عطف الشيء على نفسه، إذا أردنا بالآيات هنا، الآيات المخلوقة، إذ الآيات بهذا الاعتبار مخلوقة، فالآيات من جملة المخلوقات، والمخلوقات بهذا الاعتبار، هي آيات كذلك.

فالآيات مخلوقات، والمخلوقات آيات، ويكون هذا من تنويع العبارة لاتساع المعلومة، أو للإثراء المعرفي.

وهنا نُكْتَةٌ لطيفة، في وجه التفريق بين الآيات والمخلوقات، وهي أن من لا بصر له يرى به آيات الله جل وعلا، كالأعمى،قد يجادل بأنه لا يرى هذه الآيات، في السموات والأرض، فنقول تأملها في نفسك، كيف كنت من قبل؟، وما أنت عليه الآن؟، وما سوف تكون عليه بعد ذلك؟، فما في جسمك من النِّعم والآيات، كاف لك لو أراد الله هدايتك، كما قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:١-٣]، وقوله: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات:٢١]، فخلق الله كافٍ في ذلك، لو أراد الله هدايتك، بفتح بصيرتك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(ومن آياته): من تبعيضية، فالمؤلف أجمل ثم أخذ يفصل، وهذا كما تقدم يسمى بأسلوب اللف ثم النشر.

قال المؤلف:(الليل والنهار والشمس والقمر): قال تعالى:{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات:٤٩]، وقال:{وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} [الفجر:١-٣]، فقد فسر بعض أهل العلم هذه الآيات، بأن الله تعالى خلق من كل نوع زوجين:(ظلمة وضوء – ليل ونهار – شمس قمر – ذكر أنثى - إنس و جن)، وأما الوِتْرُ الصمد، فهو الله الواحد الأحد جل وعلا؛ ولهذا فسر بعضهم قوله تعالى: {والشفع والوتر}، بأنه إقسام بالخلق والخالق،فالشفع الخلق، والوتر الخالق تبارك وتعالى.

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}:ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولا ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلا.

أما جُمْلَةً: فقالوا إنما الوتر هو الله للحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" وما سواه شفع كما في قوله تعالى:{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق كما في عموم :{فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ}.

أما التفصيل: فقالوا المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء وهكذا ذكروا لكل شيء مقابله ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والواقع أن أقرب الأقوال عندي والله أعلم أنه هو الأول لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة.

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات، والذرة لها نواة ومحيط، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر حتى في أدق عالم الصناعة كالكهرباء فإنها من سالب وموجب وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان حتى الماء الذي كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين أكسجين وهدروجين ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أي الغليان ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء وهكذا.

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب فلم يبق في الكون شيء قط فردا وترا بذاته إلا ما نص عليه الحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغني بذاته عن غيره والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت إلخ بخلاف المخلوق وقلنا المستغني بذاته عن غيره لأن كل مخلوق شفعا فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك ولهذا كان القول الأول وهو أن الوتر هو الله والشفع هو المخلوقات جميعها هو القول الراجح وهو الأعم في المعنى]ا.هـ..

ودلالة الليل والنهار والشمس والقمر، على وحدانية الخالق ووجوده، كونها مُتَصَرَّفٌ فيها، فهي مقهورة مربوبة، تذهب وتجيء، وتظهر وتختفي، والليل يغلب النهار فيذهب به، والنهار يقهر الليل فيذهب به، والشمس والقمر كل في فلكه يسبح،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي أوان معلوم يظهر، لا تملكان من أمرهما شيئا، وبهذه المقدمة احتج إبراهيم عليه السلام على قومه كما قال تعالى: {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:٧٤-٨٣]. وقد تقدم بيان ذلك مستوفى ولله الحمد والمنة.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء:٣٣]، وقوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٣٧-٤٠].

قال المؤلف رحمه الله:(وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا): وهذا أمر مُجمع عليه، أن السماوات سبعاً، وأن كل سماء هي أوسع من التي تحتها، وبين كل سماء والتي تليها مسافة لا نعلمها؛ إذ لم تثبت الأخبار الدالة على ذلك، ولكن القرآن دَلَّ على تَفْتِيقِها، وفوقهن عرش الرحمن جل جلاله، والله جل جلاله مستوى على عرشه، لا تخفى عليه خافية، فالقريب والبعيد عنده سواء، لا يشغله سمع عن سمع، ولا بصر عن بصر، ولا يحول دونه ودون خلقه حجاب، (أي بالنسبة لسمعه وبصره وعلمه)، وكذلك الأمر في الأرض فإنهن سبع، كما قال تعالى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:١٢].

وفي صحيح البخاري :[بَاب مَا جَاءَ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ، وَقَوْلِ الله تَعَالَى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} السَّمَاءُ {سَمْكَهَا} بِنَاءَهَا الْحُبُكُ اسْتِوَاؤُهَا وَحُسْنُهَا {وَأَذِنَتْ} سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ {وَأَلْقَتْ} أَخْرَجَتْ مَا فِيهَا مِنْ الْمَوْتَى وَتَخَلَّتْ عَنْهُمْ {طَحَاهَا} دَحَاهَا {بِالسَّاهِرَةِ} وَجْهُ الْأَرْضِ كَانَ فِيهَا الْحَيَوَانُ نَوْمُهُمْ وَسَهَرُهُمْ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَخْبَرَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنَاسٍ خُصُومَةٌ فِي أَرْضٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ لَهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ يَا أَبَا سَلَمَةَ اجْتَنِبْ الْأَرْضَ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ".

قوله:(وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا)، تنبيه على أن هذه السموات السبع، والأرضين السبع، وما فيهن وما بينهما، كلها مخلوقات لله جل وعلا، وأنه لا يعلمها ويحيط بها إلا الله جل وعلا، وهذا كقوله تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٦٤]، وقوله:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [لقمان:١٠]، وقوله:{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية:٣-٦].

وهذا دال على كمال الخالق وقدرته، وتمام ملكه وعمومه، وانفراده بالتصرف والتدبير، وإذ لا شريك له في ذلك كونا، فقد أمر تعالى ألا يكون معه شريك في عبادته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شرعا، فالحقيقة الكونية، مُوَطِّئَةٌ للحقيقة الشرعية، وملزمة بها، بعد بعثة الرسل، إذ بهم تكون الحجة التكليفية.

فالحجج المطلقة كثيرة جدا، ولكن الحجة التي بها يؤخذ العباد هي الحجة التكليفية، وهي التي تكون ببعثة الرسول وإنزال الكتاب، تبيانا لمراد الله تعالى من خلقه.

قال المؤلف رحمه الله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، هذا من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فإذا تَبَيَّنَ أن خالق هذه الأشياء هو الرب تبارك وتعالى، لزم كل من أقر بذلك، ألا يعبد سواه، فإن الله خالق العالم هو الآمر بعبادته وحده لا شريك له.

والسجود يطلق يُرَادُ به ما يكون على الأعضاء السبعة، كما تقدم، ويُطْلَقُ ويُرَاد به الذُّلُّ والانْقِياد العام، وهذا أشبه بسياق الآية، فإن الله تبارك وتعالى قال:{وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٣٧-٤٠].

والمعنى أنه إذا كانت هذه المخلوقات الكِبَار، على حجمها الهائل وما استودع الله فيها من الطاقات، كلها ذليلة منقادة لأمر الله تبارك وتعالى، فلا يَجْتَرِئُ شيء منها على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يَخْرُج عن أمر الله وقدرته، بل كل في فلكه سابح، مستسلم تمام الاستسلام، وبانضباط تام، لا يستقدمون ولا يستأخرون، فنحن أولى بذلك، والمعنى إذن هو ما قاله ربنا تبارك وتعالى، في سورة البقرة، وما في معناها من آي الذكر الحكيم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة:٢٠٨-٢٠٩].

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ يَوْمًا:"أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ"، قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ.....الحديث".

السجود بمعناه العام والخاص:

والتحذير من هذا السجود في الآية، وإن كان قد ذكر الله تعالى فيه مخلوقات بعينها، فإن المقصود العموم قطعا ولاشك، لأن الجامع في هذه المسألة الذل والانقياد للخالق للأشياء، فإذا تقرر أنه لا خالق إلا الله، فلا معبود إذن بحق إلا الله، فإن الله تبارك وتعالى علق الحكم على ذلك؛ لإفادة العموم. والله أعلم.

وهذا المعنى العام للسجود، يدخل فيه ضمنا وضرورة المعنى الخاص، وهو السجود على الأعضاء السبعة، في الصلاة، وفي سجود التلاوة، والشكر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن هناك أقواما يتعلقون بالمعنى العام زاعمين، أن من وصل إلى المعنى العام؛ جاز له ترك المعنى الخاص، كما يفعله الزنادقة الذين يزعمون أنهم قد تم لهم الوصول إلى الله، وإلى روح الدين، فلا يلزمهم بعد ذلك العبادات الجوارحية، من صلاة وصيام وحج وجهاد وغير ذلك.

وهذا من الردة والكفر الصراح البواح، وهو كذلك من التلاعب بعقول الأتباع، فإن الذي زعم أنه حقق المعنى العام؛ كان لزاما عليه أن يعلم أن من ضرورات تحقيقه له، تمام الانقياد لأفراده، بحسب مواقعها من الشرع، فما الدين إلا الأمر والنهي، ظاهرا وباطنا، فهناك أعمال قلبية، وهناك أعمال بالجوارح، فتنبه لهذا المقام فإنه مزلة أقدام.

كما أن الآية نبهت على شيء يمكن وقوعه، ألا وهو عبادة هذه المخلوقات، لِمَا قد يَغُرُّ به الشيطان العباد في هذه المخلوقات، من كِبَر حجمها، أو سرعة جريانها، واتساقها، أو ما فيها من القدرات، وغير ذلك، ولاشك أن العموم مقصود هنا كذلك.

فالقاعدة واحدة، فمهما بلغ المخلوق من الطاقات والقدرات، والحجم الهائل والإمكانات، فإنه يبقى ذليلا منقادا، عابدا لله جل وعلا، وهذا هو المراد من سياق هذه الآيات وأمثالها في الكتاب العزيز.

والسجود غاية في التذلل، ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ". **فكلما كان العبد أذل لله تعالى؛ كان منه أقرب. فَلْنُشَمِّر.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سجود التحية والإكرام:

مسألة: من قوله تعالى:{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف:١٠٠]، فإن هذه الآية دالة على أن هذا النوع من السجود، وهو المعروف بسجود التحية، كان مشروعا في شريعة يوسف عليه السلام، وأما في شريعتنا فلا يسجد أحد لأحد، بل السجود لله الواحد القهار، فَمُنِعَ في شرعنا حتى سجود التحية، وهذا من باب سد الذرائع؛ ولهذا كان شرعنا أكمل الشرائع في هذا الباب وغيره. وأما الحديث الذي رواه أحمد في مسنده من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: قَدِمَ مُعَاذٌ الْيَمَنَ، أَوْ قَالَ: الشَّامَ، فَرَأَى النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَّى فِي نَفْسِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r أَحَقُّ أَنْ يُعَظَّمَ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَّأْتُ فِي نَفْسِي أَنَّكَ أَحَقُّ أَنْ تُعَظَّمَ، فَقَالَ:"لَوْ كُنْتُ آمُرُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا".....الحديث. فهذا الحديث لا يكاد يَسْلَمُ من ضعف على كثرة طريقه، فقد جاء من حديث عائشة وأبي هريرة وقيس بن سعد، ولا يصح من ذلك شيء.

وبما أن الشرك لا يباح بحال في أمة من الأمم؛ علمنا يقينا أن السجود منه ما يكون تحية، ومنه ما يكون عبادة، وذلك إذا تضمن معنى التقرب، ولما منع في شرعنا أن يسجد أحد لأحد؛ كان الأصل في كل سجود لغير الله تعالى في شرعنا أنه من الشرك بالله تعالى، إلا إن تصورنا وجود من يجهل هذه الحقيقة، فيُعلم، أما إذا كان المَسْجُودُ له مما يعبد من دون الله تعالى؛ كان السجود له شركا أكبر على كل حال، كالقبور والتماثيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصُّلْبَان والأصنام ونحو ذلك، فالسجود لغير الله من جهة النوع في شرعنا هو من الشرك الأكبر، فلا يعرف في شرعنا سجود تحية حتى نجعله نوعين.

فالتوحيد واحد، عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن الشرائع تختلف، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]، وقوله: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} [الجاثية:١٨]؛ وعليه فلا سجود للتحية في شريعتنا، وإن كانت هي من شريعة يعقوب ويوسف عليهما السلام.

بل هو في شريعتنا كله عبادة وقربة، ففعله لغير الله تعالى، والتقرب بذلك لغير الله تعالى، كله من الشرك الأكبر، عياذا بالله من الخذلان.

عبادة الكواكب، وحجة الخليل الدامغة:

وعبادة الكواكب قد ظهرت في زمن إبراهيم عليه السلام، فَحَجَّهُم بالدليل العقلي النظري، بأن هذه المخلوقات مسيرة مقهورة، فأخذ يستفهم منهم،استفهام تقرير وإنكار، فيقول: {هذا ربي}، أي أهذا ربي؟!، الذي تزعمون وتعبدون، حتى إذا أفل الكوكب بين لهم سخف عقولهم، وأن رباً هذه صفته، ليس هو الإله الذي يعبد ويُوَحَّد، حتى قال الله تعالى: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه}، وهذا قد تقدم تقريره، والصحيح في هذه الآيات أن إبراهيم كان مُنَاظِرا، لا نَاظِراً.

قوله: {إن كنتم إياه تعبدون}: أي إن كنتم حقيقة إنما تقرون بالعبادة لرب هذه المخلوقات، فاعلموا إذن أنه هو الله رب العالمين، وأما إقراركم النظري الظاهري،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المجرد عن تحقيق لازمه ومقتضاه، وهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة دونما سواه، فلن يُجْدِيَ عنكم شيئا، واعلموا أنكم حينئذ تتبعون أهواءكم، وأنكم مشركون بالله تعالى ، ولن ينفعكم إثبات ربوبية الله جل وعلا على خلقه، طالما أنكم تَتَنَصَّلُونَ عن عبادته؛ لأن لازم الربوبية إثبات الألوهية، ومعاملة الله تعالى بها.

وقد بين تبارك وتعالى أنه مع تعليمه لعباده، وبيانه لكل هذه الآيات والمخلوقات، وإرساله الرسل، وإنزاله الكتب، مع هذا كله كفر الكافرون، وأشرك المشركون، ونافق المنافقون، فهم لا يستفيدون من ذلك بشيء، بل هم من الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون، بل وأخطر من ذاك كله، أن الله تبارك وتعالى، قَرَّرَ في كتابه، أن أكثر خلقه من المكلفين كذلك كانوا، ويصيرون إلى ذلك، كما قال تعالى:{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} [الروم:٤٢]، وقال:{وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠٢]، وقوله:{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف:١٠٣].

أغلى ما نَمْلك:

وهذا يفيدك ضرورة الخوف على دينك، ودين أهلك، ومن حولك، ويفيدك الجد والاجتهاد في تعلُّم العلم النافع والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على ذلك، والإلحاح على الله تبارك وتعالى في المسألة أن نكون أجمعين أهلا وذرية، ووالدين وأقارب، وأشياخ وطلاب، وأصحاب وأحباب، جميعا من الناجين، فإن السلامة قليلة، والله هو الهادي إلى سواء السبيل، فاللهم اهدنا أجمعين، وخلِّصنا من مضلات الفتن، ما ظهر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منها وما بطن، ودافع عنا يا كريم، فإنا نستودعك ديننا، وأمانتنا، وخواتيم أعمالنا، وألحق بنا ذرياتنا، يا أرحم الراحمين.

وتأمل في هذه الآيات؛ لترى كيف هو تَعَنُّتُ كثير من الناس، عن قبول الحق، مع ظهوره وبيانه؛ ولترى مدى نُفْرَتِهم عنه، مع أن فيه عِزُّهُم وأمَانُهم، وفيه خير الدنيا والآخرة وبركاتها، قال تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الأنعام:٤]، وقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:٢٥-٢٦]، وقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام:١٠٩-١١٠]، وقوله: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام:٣٧-٣٩]، وتأمل في هذه الآية،أنهم لما طلبوا آية؛ ليَتَحَقَّقُوا بها من صدق الرسل، أجابهم الله تبارك وتعالى، بأن الله تعالى على ذلك قادر، ولكن المشكلة أنهم لا يستفيدون منها، وإن جاءتهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عقوبة لا يُفْطَنُ لها:

أليس بين أيديهم آيات؟!!، الجواب بلى، فهذه دواب في الأرض، وتلك طيور تقلب أجنحتها في السماء، وهي أمم أمثالكم، وفيها من العجائب واللطائف ما الله تعالى به عليم، ترون كثيرا منها بين أيديكم، وتتعاملون معها، أليس في ذلك عبرة ودلالة على الحق؟، فما ذا صنعتم معها؟، لقد مَرَرْتُم عليها وكأن شيئا لم يكن، فحقيقة الأمر أن الذين كذبوا بآيات الله {صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} والله يهدي من يشاء، **فليست المشكلة إذن أنه لا آيات، ولكن المشكلة أنهم في الظلمات.**

وهذه عقوبة يعاقب بها العبد، عند إمْعَانِه في الغواية، واستكباره على الحق، كما قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٤٦-١٤٧]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء: ١٣٧]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٧-١٧٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا، للفريقين، الفريق الذي ينتفع، والـذي لا ينتفـع، قال تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُـمْ بِـالْآخِرَةِ هُـمْ كَـافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِـزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَـا كَـانَ لَهُـمْ مِـنْ دُونِ اللهِ مِـنْ أَوْلِيَـاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَـنْهُمْ مَـا كَـانُوا يَفْـتَرُونَ (٢١) لَا جَـرَمَ أَنَّهُـمْ فِي الْآخِـرَةِ هُـمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّـمِيعِ هَـلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود:١٩-٢٤].

قال المؤلـف رحمـه الله:(والـدليل قولـه تعـالى:{إن ربكـم الله}) : قولـه: {إن ربكـم الله}:تقرير لأمر متفق عليه؛ لِتَرْتِيبِ حُكْمٍ ومَعْلُومَة مُلْزِمَةٍ عـلى ذلـك،والمعنى أن هـذا الرب الذي أثبتم قدرته وسعة علمه، وأن الخلق خلقه هو الذي يجب أن يُؤْلَه ويُعْبَد، إذ لا يمكن أن يخلق ويَرْضَى أن يعصى ويعبد غيره؛ ولهذا كان الشـرك نقصـا في العقـل، وقدحا في الرب تبارك وتعالى. فمعنى قولـه: {إن ربكـم الله}:أي اعلمـوا أن خـالقكم وموجدكم، هو المستحق وحده للعبادة.

فهذه الآية، في سياقها تقرير لهذا المعنى العظيم؛ وهذا يدل على التوفيق الذي حظـي به المؤلف رحمه الله تعالى، من الله تعالى في انتقاء الآيات المناسبة للمقام، وهذا بحمد الله تعالى مُطَّرِد في استدلالات المؤلف، فنسأل الله من فضله العظيم، وكما قال تعالى: {وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ رَمَى} [الأنفال:١٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام}: أي إن الذي خلق تلك السماوات وهذه الأرض؛ هو ربكم وإلاهكم، إذ ليس لآلهتكم المزعومة حظ، ولا نصيب من ذلك، وهذه الآية لو تدبرها الناس؛ لما أشركوا بالله جل جلاله، لأنها دالة على كمال التصرف والاقتدار، وهذا فعل الخالق وحده، فكيف يُعْبد غيره، وقد أمرنا ألا نعبد إلا إياه؟!!.

غُلَامٌ يَفْدي دِينَ الله بنَفْسه:

ولهذا في صحيح مسلم في قصة الغلام والملك، أَظْهَرَ اللهُ تعالى ضَعْفَ هذا الملك، الذي يزعم أنه ربهم، فَأَظْهَرَ الله سُبحانه ضعف هذا الملك الكذاب، وقلة حيلته، حيث عجز أن يقتل هذا الغلام، حتى أخبره الغلام، أنه لن يستطيع قتله حتى يقول:(بسم الله رب الغلام)، فقالها تخلصا من حرج الموقف الذي هو فيه، فلما لم يستطع أن يقتل الغلام إلا بعد أن قال هذه الكلمات العظيمة؛ علم الناس أنه ليس إلاهاً، وإنما الإلاه الحق هو الله رب العالمين، فأُتي الملك في مَقْتَل، من حيث لا يشعر، فَآمَنَ النَّاسُ كُلُّهم، ودَخَلوا في دين الله؛ فقتلهم هذا الطاغية، فأدخلهم الله الجنة، وتلك هي قصة أصحاب الأخدود، أهْلِ الفوز الكبير، والثبات العظيم على التوحيد.

كما في صحيح مسلم عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: **بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلاَمِ**.ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ **بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلاَمِ**. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ **آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ**.فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمليات الفدائية (الاستشهادية):

وتأمل كيف فَدَى هذا الغلام دين الله تعالى بنفسه، وهذا الحديث دليل صريح على مشروعية **العمليات الفدائية (الاستشهادية)**، وأنه لا سواء بين من يسعى في التخلص من نفسه بغضا للحياة وضيقا بها، والذي يفدي دين الله تعالى بنفسه، وهو متطلع للحياة، ولكن دين الله أعظم عنده من نفسه، وتأمل كيف قدم هذا الغلام البطل العظيم مصلحة هداية الناس، على مصلحة الإبقاء على نفسه، وكيف تعلم الناس من هذا الغلام أن المحافظة على الدين أغلى وأعظم من المحافظة على الدنيا، وتأمل كيف يفعل بعض الدعاة اليوم، حيث يدعون الناس إلى أن يَفْدُوا دنياهم بدينهم، حيث يدعونهم إلى الديمقراطية الخبيثة، الكافرة الفاجرة، وآخرون، يُفْتُون بدخول المدارس والجامعات على ما فيها من عظيم الخبث والضلال، الذي يصل أحيانا إلى حد الكفر والزندقة، ويقولون بكل بساطة لمن استفتاهم:**(ادخل واتق الله ما استطعت؟!!)**، عياذا بالله من هذا الضلال المبين.

وهل من التقوى في شيء المكوث والبقاء في أماكن الخبث والضلال؟!!، وهل من التقوى في شيء أن تفتي بهذا أنت تعلم ما في العباد من عظيم الجهل بالشرع؟!!، ولكنه التعظيم للحياة الدنيا وتقديمها، ولو على حساب الدين.

ومن الأدلة على هذه العمليات المباركة، التي أَنْكَتْ في العدو أيَّما نِكَاية، وأَقْلَقَت أمريكا وحلفاءها وأذنابها أيَّما إقلاق، ما جاء في سنن الترمذي من طريق أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ، قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ r : إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ r يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاَحَهَا، وَتَرْكَنَا الغَزْوَ فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ، شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

قوله:{الذي خلق}:كلمة الخلق، تعني الإيجاد من العدم، بعد أن لم يكن، فإن كان على غير مثال سابق، فهو الفَطْر، ومنه قوله تعالى:{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} في ستة مواضع من الذكر الحكيم. وهذه من الصفات المشتركة من جهة الاستعمال اللغوي، كما قال تعالى:{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ } [آل عمران: ٤٩] ، وقوله:{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [المائدة: ١١٠] ، ولكن كما تقدم للخالق منها الكمال المطلق، وللمخلوق منها النقص والتقييد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وربما سيقت على المعنى المتقدم، في نعت الكذابين والأفاكين والدجالين، من المشركين وغيرهم، كما قال تعالى: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} [العنكبوت:١٧]. وهو الكلام الواضح الكذب، فلا حقيقة له إلا على لسان المتكلم به، فهو يوهم وجود شيئ غير موجود زورا وبهتانا، كما قال الشاعر:

لي حيلة في من يَنُمُّ ... وليس لي في الكذب حيلة

من كان يخلق ما يقول ... فحِيلَتِي فيه قليلة

وفي الحديث في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ". قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ". قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ:"إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ".

وأما البَرْء، فهو إخراج ما استودع من القدرات في المخلوقات بالقوة إلى الفعل، وهذا فعل الرب تبارك وتعالى، إذ هو من استودعها وهو من يخرجها، ومنه اسم الله البارئ. جل الله في علاه.

قوله:{في ستة أيام}:قيل هي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس واجتمع الخلق في يوم الجمعة، وفيه خلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه. وسُمِّيَ السَّبْتُ سَبْتاً؛ لانقطاع الخلق فيه.

وقيل وهو الراجح عندي، والعلم عند الله، أن خلق السموات والأرض ابتدأ يوم السبت وانتهى يوم الخميس، ثم خلق الله تعالى آدم في آخر يوم الجمعة بعد العصر، وهذا ما أفاده حديث أبي هريرة في صحيح الإمام مسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ الله r بِيَدِي فَقَالَ:"خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ"١.

---

١ - قال الإمام البخاري في (التاريخ الكبير):[وروى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي r قال:"خلق الله التربة يوم السبت" وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح]ا.هـ.

وجاء في جامع الأصول:[أخرجه مسلم رقم (٢٧٨٩) في صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، وهذا الحديث من أفراد مسلم، ورواه أيضاً أحمد في"المسند"٢/٣٢٧ رقم (٨٣٢٣)، وكذلك رواه النسائي في التفسير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده١/٦٩:وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم فيه ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب، وإنما اشتبه، على بعض الرواة، فجعله مرفوعاً، وقد حرر ذلك، البيهقي، وقال ابن كثير أيضاً٣/٤٨٨:وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال:{في ستة أيام}، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً، وقال أيضاً٧/٣٢٦:وهو من غرائب الصحيح، وقد علله البخاري في"التاريخ" فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة t ، عن كعب الأحبار، وهو الأصح،وقال المناوي في:(فيض القدير):وقال بعضهم: هذا الحديث في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأربعة خلقت في أربعة أيام، ثم خلقت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الحديث قد تكلم في إسناده بعض أهل العلم، كما في الحاشية المتقدمة، وأما من جهة من صححه كالإمام مسلم، فليس في معناها إشكال عند التأمل؛ لأن البعض ذهب إلى تضعيفه لأجل أن ظاهره يعارض القرآن، وفي ذلك نظر، وذلك لأن الله تبارك وتعالى بَيَّنَ تفاصيل خلق السموات والأرض في كتابه، حيث قال تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) } فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت:٩-١٢] ، وقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء:٣٠]، وقال: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ

السموات في يومين، وقد سكت عن الحديث النووي في "شرح مسلم"، وممن صحح الحديث، الشوكاني في "فتح القدير" وقد تكلم عليه العلماء من جهة متنه، ورأوا أنه معارض للقرآن، ومن صححه كالشوكاني وغيره، رأوا أنه لا تعارض بينه وبين نص القرآن، فإن القرآن ذكر أن الله تعالى خلق السموات والأرض جميعاً في ستة أيام، وخلق الأرض وحدها في يومين، والحديث إنما بين أن الله تعالى خلق ما في الأرض في سبعة أيام، ويحتمل عند بعض من صححه أن تكون هذه الأيام السبعة غير الأيام الستة التي ذكرها الله تعالى في خلق السموات والأرض، وحينئذ لا تكون معارضة، وإنما الحديث فصل كيفية الخلق على الأرض وحدها، والله تعالى أعلم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}[النازعات:٢٧-٣٣]، فهذه الآيات دالة على تداخل زمن الخلق، وأن هذه المدة كانت زمنا لخلق السموات والأرض، فمنه المتقدم ومنه المتأخر، فكانت الأيام الستة زمنا لخلق السموات والأرض، كما في صحيح البخاري معلقا: وَقَالَ طَاوُسٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أَعْطِيَا {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} أَعْطَيْنَا وَقَالَ الْمِنْهَالُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ قَالَ {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَقَالَ: {أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا إِلَى قَوْلِهِ دَحَاهَا} فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ طَائِعِينَ} فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ.....إلى أن قال:وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ {دَحَاهَا} وَقَوْلُهُ {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} فَجُعِلَتْ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتْ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ.....إلى أن قال: فَلَا يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ....انتهى.

وعليه فلا إشكال أن يكون ابتداء خلق السموات والأرض، يوم السبت وانتهاؤه يوم الخميس، ثم اجتمع خلق آدم يوم الجمعة، ولم يقع شيء من خلق السموات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأرض في يوم الجمعة، وهذا هو **سِرُّ المسألة ونُكْتَتُهَا**، وهذا صريح حديث أبي هريرة المتقدم في صحيح مسلم، فإن الله تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولم يحدد سبحانه وتعالى في أدلة القرآن هذه الأيام الستة، كما أنه سبحانه وتعالى لم يذكر فيها خلق آدم عليه السلام في هذه الأيام، وعليه فلا تعارض البَتَّة، فخلق السموات والأرض وقع في الأيام من السبت إلى الخميس، وانتهى خلق السموات والأرض في يوم الخميس، وخُلِقَ آدم في يوم الجمعة، ولم يكن في السبت الذي يليه خلق أصلا. والله أعلم.

والله قادر على أن يخلقها في ما شاء فيما دون ذلك، فالأمر كما قال تعالى:{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل:٤٠]، وقوله:{مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [مريم:٣٥]، ونحوها من الآيات.

وقد قال بعض أهل العلم:ومن هذا يتعلم العباد، التأني في الأمور والحلم، والإتقان. ولله تعالى المثل الأعلى.

وفي صحيح مسلم من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله r :"خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا".

وفي صحيح البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ r وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ الله قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" فَنَادَى مُنَادٍ ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ فَوَالله لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ t قَالَ: سَمِعْتُ، رَسُولَ الله r يَقُولُ:"كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

والظاهر أن هذه الأيام الستة هي من أيام الدنيا؛ لأن الحديث سماها بأعيانها، وخاطب بها الناس بما يعقلون ويعلمون.

قوله:{ثم استوى على العرش}، (ثُمَّ) هنا تفيد الترتيب والتعقيب والتراخي، والمعنى أنه جل وعلا، بعد أن فرغ من خلق السموات والأرض،استوى على عرشه سبحانه وتعالى.

معنى الاستواء عند السلف الصالح:

والاستواء من الصفات التي نَازَعَ فيها أَهْلُ البِدْعَةِ، أَهْلَ السنة والجماعة، بل إن حقيقة نفي الاستواء يتضمن نفي تعظيم الرب تبارك وتعالى، بل وهو تكذيب لله جل جلاله في خبره الذي أخبر به عن نفسه، وهذا كفر بالله جل وعلا، فإن الدواب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والبهائم إذا تَأَلَّت رفعت بصرها إلى السماء، فعقيدة العُلُو، أي علو الله على خلقه، مستقرة في الفطرة السليمة، ولكن بسبب قراءة بعض المبتدعة - كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة - في كتب اليونان الفلاسفة الضالين المُهَرْطِقين؛واعتدادهم بعقولهم السقيمة، وأفهامهم الفاسدة التي ورثوها عن هؤلاء الضالين؛ فوقعوا في سوء الظن بالله تبارك وتعالى؛ ووقعوا في تحريف صفات الرب تبارك وتعالى.

والاستواء جاء في القرآن الكريم على معاني:

المعنى الأول: القَصْدُ والعَمْد، ويدخله فيه معنى الارتفاع، كما في قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٩]، وقوله:{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت:١١]، فهنا الاستواء بمعنى القصد.

المعنى الثاني: وهو الذي نازع فيه المبتدعة وهو بمعنى الاستقرار والعلو والفوقية على العرش، وهذا هو معنى هذه الصفة، وأما الكيفية فكما تقدم هي مجهولة بالنسبة لنا؛ لأن الله تبارك وتعالى أخبرنا أنه استوى على عرشه ولم يخبرنا كيف استوى، فنحن نقف عند حدود ما علمنا فإن عقولنا قاصرة عن إدراك ذلك ومعرفته، إلا بخبر توقيفي من الله جل جلاله، وهذا كما تقدم عام في كل صفاته، علينا أن نؤمن بها، ونثبت ومعانيها، وأما كيفيتها فمجهولة، فنفوض ذلك إلى عالمها، وهو الله سبحانه وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس معنى ذلك أنه ليس هناك كيفية، فإن هذا المعنى باطل قطعا، ولكننا لا نعلم الكيفية، وعدم علمنا بها لا ينفي وجودها، إذ أن نفي وجود كيفية البتة هو نفي للصفة من أصلها، فتنبه.

وقد رَاوَغَ المُبتدعة في إثبات هذه الصفة، حتى اضطُرُّوا أن يفزعوا إلى قول شاعر نصراني، قيل هو الأخطل، فَحَرَّفُوا الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه، ومِنْ بعد مَوَاضِعِه، حيث قالوا استوى بمعنى استولى، وهذا باطل لغة وشرعا، وعقلا، إذ ليس للعرش خصوصية في الاستيلاء، فالرب تبارك وتعالى مستول على كل شيء، على أن هذه التعبير باطل كذلك لأن استولى، تفيد أن هناك من ينازع الله في عرشه؛ ولهذا احتاج الله تعالى إلى أن يستولي عليه، وأن يغلب ويقهر من نازعه، وهذا وحده في حد ذاته كفر وزندقة؛ ولهذا قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء:٤٢-٤٣].

وقد تشبه هؤلاء باليهود الذين قيل لهم قولوا: {حِطَّة}، فحرفوها وقالوا:(حنطة)، فزادوا النون تحايلا وعنادا، وكذلك هؤلاء،فالله تعالى قال: {استوى}، فزادوا حرف اللام، فقالوا:(استولى)، وقد فَنَّدَ شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك من وجوه في مجموع الفتاوى، فقال:[السَّابِعُ:أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنْ لَفَظَ اسْتَوَى فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى اسْتَوْلَى ؛ إذْ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ عُمْدَتُهُمْ الْبَيْتُ الْمَشْهُورُ:

ثُمَّ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ * * * مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَمْ يَثْبُتْ نَقْلٌ صَحِيحٌ أَنَّهُ شِعْرٌ عَرَبِيٌّ وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا : إِنَّهُ بَيْتٌ مَصْنُوعٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ احْتَجَّ بِحَدِيثِ رَسُولِ الله r لَاحْتَاجَ إِلَى صِحَّتِهِ فَكَيْفَ بِبَيْتٍ مِنْ الشِّعْرِ لَا يُعْرَفُ إسْنَادُهُ وَقَدْ طَعَنَ فِيهِ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ ؛ وَذَكَرَ عَنْ الْخَلِيلِ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو الْمُظَفَّرِ فِي كِتَابِهِ " الْإِفْصَاحِ " قَالَ:سُئِلَ الْخَلِيلُ هَلْ وَجَدْت فِي اللُّغَةِ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى؟ فَقَالَ:هَذَا مَا لَا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ؛ وَلَا هُوَ جَائِزٌ فِي لُغَتِهَا وَهُوَ إمَامٌ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ حَالِهِ فَحِينَئِذٍ حَمْلُهُ عَلَى مَا لَا يُعْرَفُ حَمْلٌ بَاطِلٌ]ا.هـ.

وقد نظم ابن القيم في نونيته الرد على هؤلاء وكشف عوارهم فقال:

أُمِـرَ اليهـود بـأن يقولوا حِطَّةٌ.... فَـأَبَـوْا وَقَالُوا حِنْطَةٌ هِـوَان
وكذلك الجَهْمِيُّ قِيْلَ لَهُ اسْتَوَى .... فَأَبَى وَزَادَ الحَـرْفَ للنُّقْصَان
قال اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ .... لُغَةً وَعَقْـلاً ما هما سِـيَّان
عِشْرُونَ وَجْهاً تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاسْـ.... تَوْلَى فَلا تَخْرُجْ عِنِ القُـرآن
قَـدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَنَّفٍ هُوَ عِنْدَنَـا .... تَصْـنِيفُ حَبْرٍ عـالم رَبَّـانِي
وَلَقَدْ ذَكَـرْنَا أَرْبَعِـينَ طَرِيقَـةً قَدْ.... أَبْطَـلَـتْ هَـذَا بِحُسْنِ بَيَان
هِيَ فِي الصَّوَاعِقِ إنْ تُرِدْ تَحْقِيقَهَا .... لا تَخْتَفِي إلا عَـلى العُـمْيَان
نُـوْنُ اليَهُـودِ ولَامُ جَهْمِيٍّ هُمَـا .... في وحْيِ رَبِّ العَرْشِ زَائِدَتَان

المعنى الثالث: التمام والنضج والفتوة، وذلك في قوله تعالى في وصف موسى عليه السلام:{وَلَمَّا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ وَاسْـتَوَى آتَيْنَـاهُ حُكْـمًا وَعِلْـمًا وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ} [القصص:١٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي المعنى الثاني يقول ابن القيم، مدافعا عن حق الله تعالى، وعن عقيدة الصحابة y، والسلف في ذلك، في متن القصيدة النونية:

واقرأ تَفَاسِيرَ الأئمة ذَاكِرِي الإسْـ..... ـنـاد فَهْيَ هِدَايَةُ الحَيْرَان

وانظر إلى قولِ ابن عباسٍ بِتَفْسِـ .... ـيرِ استوى إن كنت ذا عِرْفَان

وانظر إلى أصحابه من بعده كَمُجَـ .ـاهِدٍ ومُقَاتِلٍ حَبْرَان

وانظر إلى الكَلْبِيِّ أيضا والذي قد قاله من غير ما نُكْرَان

وكذا رُفَيْعُ التَّابِعيُّ أَجَلُّهُم ذاك الرِّيَاحِيُّ العظيم الشَّان

كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إليه عِلْمَه فَلِذَاك ما اخْتَلَفَتْ عليه اثْنَان

فَلْيَهْنْ مَنْ قَدْ سَبَّه إذ لم يُوا فِقْ قَوْلَه تَحْرِيفَ ذي البُهْتَان

فلهم عِبَارَات عليها أرْبَعٌ قد حُصِّلَتْ للفَارِس الطَّعَان

وهي اسْتَقَرَّ وقَدْ عَلا وكذلك ارْ تَفَعَ الذي ما فِيه مِنْ نُكْرَان

وكَذَاكَ قَدْ صَعَدَ الذي هو رَابِعٌ وأبو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَاني

يَخْتَارُ هَذَا القَوْلَ في تَفْسِيرِه أَدْرَى من الجَهْمِيِّ بِالقُرْآن

والأشْعَرِيُّ يقول تفسير اسْتَوَى بِحَقِيقَةِ اسْتَوْلَى مِن البُهْتَان

هو قول أهل الاعتزال وقول أَتْـ بَاعِ جَهْمٍ وَهْوَ ذُو بُطْلَان

وانْظُر كَلامَ إمَامِنَا هُوَ مَالِكٌ قَدْ صَاحَ عَنْ قَوْلٍ لِذِي إِتْقَان

في الاسْتِواء بِأَنَّه المَعْلُوم لكن كَيْفُهُ خَافٍ على الأَذْهَان

ورَوى ابْنُ نَافِعٍ الصَّدُوقُ سَمَاعَهُ مِنْهُ على التَّحْقِيقِ والإتْقَانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{على العرش}: ومعناه لغة ما جاء في القاموس المحيط:[سَرِيرُ المَلِكِ]ا.هـ.

وقد وردت هذه الكلمة مضافة إلى الله تعالى في الكتاب العزيز في إحدى وعشرين موضعا، ووردت مقيدة باستواء الرب على العرش، في سبعة مواضع من الذكر الحكيم.

والعرش خلق عظيم من مخلوقات الله تبارك وتعالى، فإذا كان الكرسي الذي هو موضع قدمي الجبار جل جلاله، قد وسع السموات والأرض، كما قال تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة:٢٥٥]، فكيف بالعرش الذي استوى عليه الرب تبارك وتعالى؛ ولهذا قال بعض أهل العلم إنه أكبر مخلوقات الله تبارك وتعالى. والله أعلم.

ما ورد عن الصحابة في معنى الكرسي والعرش:

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدِ بْنُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، ثنا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ، عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ"]ا.هـ.وفي تفسير ابن كثير قال:[قد رواه وَكِيع في تفسيره: حدثنا سفيان عن عمار الدُّهْنِي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:"الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره"].ا.هـ. قلت:وهذا إسناد صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عرشه، وعرش المخلوق في سياق قصة واحدة، وهذا دال على أن الاشتراك في المسمى لا يستلزم التطابق والتماثل، قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل:٢٣-٢٦]؛ ولهذا كان من عظيم فقه السلف الصالح أن أثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، مع نفي أن يكون ما أثبته لنفسه، مُمَاثِلاً لما عند خلقه؛ ولهذا قال مالك المقولة المشهورة ، وقد سَأَلَهُ سائل، عن الاستواء كيف هو؟!: فقال الاستواء معلوم والكيف غير معقول (وفي رواية:والكيف مجهول) والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، وهذا القول متواتر عن السلف، فهو منسوب إلى ربيعة، وأحمد وغيرهم.

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا" (وفي راوية:"جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا")، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ (وفي رواية:"أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ")، قَالَ:"إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} الآية، هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله:{يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} ونحو ذلك، أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه، سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله، والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذلك أنه جل وعلا بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:**أحدهما**: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله r ؛ لأنه لا يَصِفُ اللهَ أَعْلَمَ بِاللهِ مِنَ الله:{أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ}، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله r ، الذي قال فيه:{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}، فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله r زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ!.

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله r مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا؛ هي قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فنفى عن نفسه جل وعلا مماثلة الحوادث بقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال. والظاهر أن السِّر في تعبيره بقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، دون أن يقول مثلاً: {وهو العلي العظيم} أو نحو ذلك من الصفات الجامعة؛ أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى، وبين صفات خلقه، ولذا جاء بقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، بعد قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة، وسنوضح إن شاء الله هذه المسألة إيضاحاً تاماً بحسب طاقتنا، وبالله جل وعلا التوفيق]ا.هـ.

لا تعارض بين أسماء الله وصفاته:

واعلم رحمك الله، أن ما يتصوره البعض من تعارض الصفات، إنما وقع لهم؛ لأنهم قاسوها على أنفسهم الحقيرة الضعيفة، أما الخالق تبارك وتعالى، فإنه إذا أخبر عن نفسه بشيء؛ فإنه كمال قال سبحانه وتعالى، إذ {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

فلا تعارض بين إخباره جل وعلا، من أنه ينزل إلى السماء الدنيا إذا بقي ثلث الليل الآخر، وإخباره سبحانه أنه مستوى على عرشه، وإنما هذا في حقنا نحن؛ ولهذا لم يشكل على الصحابة **y** ذلك أبدا؛ لفهمهم لهذه الحقائق الكبار، فلم يقل أحد منهم: إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النزول يلزم منه خُلُوُّ العرش، ويلزم منه كذا كذا، مما تكلم به أهل الضلال والانحراف.

ولكن أعود وأقول: أين الذين يعتدون بفهم الصحابة والسلف، والله المستعان.

قوله:{يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً}: أي هو المتصرف في تدبير الليل والنهار، وحده لا شريك له، فيدخل هذا على هذا والعكس، والمعنى أنه ليس لآلهتكم الباطلة حظ في ذلك وقسط منه، بل هو الله وحده، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار،كما قال تعالى:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [الزمر: ٥]، فيدخل الليل على النهار، والنهار على الليل، وهذا معنى الغشيان .

وفي قوله:{يطلبه حثيثا} دليل على سرعة استجابة المخلوقات، ومسارعتها في مراضي الله تبارك وتعالى وطاعته، وفي هذا تَهْيِيجٌ للعباد أن يسلكوا هذه السبيل، وفي الذكر الحكيم قال الله تعالى عن موسى عليه السلام:{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه:٨٣-٨٤] ؛ ولهذا قال تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: ١٣٣]، وقال:{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١]، وأما في شأن الدنيا قال سبحانه:{هُوَ الَّذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك:١٥]، وقال :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:٩-١٠] ، وقال:{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٧٧]، فجعل الدنيا تابعة، والآخرة وما عند الله، هو الأصل.

فالليل والنهار مخلوقان لله تعالى، وهما دالان على هذه المعاني الكبار؛ ولهذا كان ذَمُّهُمَا، وسَبُّهُمَا، أَذِيَّةً لله تبارك وتعالى، إذ لا حول لهما ولا قوة، بل هما مُمْتَثِلان لأمر ربهما تبارك وتعالى، فَلِمَ يَلْحَقُهُمَا هذا التنقص؟!!؛ ولهذا في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ".

لا تثبت ما لم يثبته الله:

واعلم رحمك الله تعالى، أنه من الأخطاء الشائعة في هذا المقام نسبة المشيئة والإرادة للأيام والليالي، وكذلك للأقدار والظروف، فتسمع هنا أو هناك من يقول: شاءت الأيام، أو شاءت الأقدار، أو شاءت الظروف، وهذا كله من الرجم بالغيب، ومن تَكَلف ما لا علم لنا به، فإن الله تعالى لم يثبت لهذه الأشياء مشيئة؛ حتى ننسبها إليها، فلا نقول: شاءت الأيام والأقدار والظروف، ولكن نقول: شاء الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وننبه في هذا المقام على بيت ينسب إلى الشافعي، ولا أظنه يثبت عنه:

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطِب نفسا إذا حكم القضاء

ولكن نقول:

هو الرَّحمن يفعل ما يشاء ... فِطِب نفسا إذا حَكَمَ الإله

قوله: {والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره}: أي وكذلك الشمس والقمر، بل والنجوم كذلك، الكل مسخر بأمره، أي مقهور مسير مربوب، للذي خلقها وخلق كل شيء، ألا وهو الله الواحد القهار.

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان): [قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده. والخمسة المذكورة هي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم.

وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده؛ كقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}]، وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما، وقوله: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالنَّهَارَ}، وقوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}، وقوله: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ} الآية، وقوله: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، إلى غير ذلك من الآيات]ا.هـ.

وفي قوله: {مسخرات}: تذكير بنعمة الله تعالى علينا، بأنه ذللها لنا، فلا تتأخر عما فيه مصالحنا، كما قال الشنقيطي في(أضواء البيان): [والتسخير في اللغة: التذليل]ا.هـ.

وبالتالي فإن هذا من تمام قيام الحجة على العباد، فإن الله تبارك وتعالى قد قطع أعذارهم، من جهة المعاش والمعاد (أي كونا وشرعا)؛ لتكتمل البينة وتقوم الحجة.

أما من جهة المعاش: فبتسخير المخلوقات لهم، عُلْوِيُّهَا وسُفْلِيُّهَا، دَقِيقُها وجَلِيلُها، كبيرها وصغيرها[1]، كما قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم:٣٢-٣٤]؛ ولهذا ذكر بعد هذه الآيات دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، أن يُجَنِّبَهُ وبَنِيهِ عِبَادَةَ الأصنام، والمعنى أنه وَمَعَ ظُهورِ التَّسْخِيرِ، وتَمَام النِّعمة من

---

١ - ومن أراد معرفة المزيد عن مسألة التسخير، وحُجِّيَّتها على العباد؛ فليراجع كتابي:(الإنسان والأمانة الكبرى).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله على خلقه، إلا أن إبراهيم الخليل، رأى أن كثيرا من الناس على الضلال، عندها عَلِمَ شِدَّةَ الوَرَطَةِ وخُطورَةَ المسألة؛ فَأَشْفَقَ على نَفْسِه وذُرِّيَّتِه، فسأل الله تعالى، له ولِبَنِيه النجاة،كما قال تعالى{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم:٣٥-٣٦].

فيالله ما ذا نقول نحن؟!!؛ ولهذا قال إبراهيم التيمي:ومن يأمن البلاء بعدك يا إبراهيم.

وقال تعالى:{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) }

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النحل:٥-١٤] الآيات، في هذه السورة التي لو سُمِّيَت بسورة النِّعَم؛ لما كان بعيدا، كما لو سُمِّيَت سورة الأنعام بسورة التَّوحِيد كذلك.

وقال تعالى في آيات جامعة لذلك: {اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية:١٢-١٣].

وأما من جهة المعاد: فقد أرسل الله تبارك وتعالى الرسل وأنزل الكتب مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٤-١٦٥]، وقال: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأنعام:٤٨-٤٩]؛ فحصل بذلك الإعْذَارُ والإنْذَار، فلله الحمد والمنة، فاللهم أعِنَّا على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ.

قوله: {ألا له الخلق والأمر}: بعد أن ذكر تبارك وتعالى بعض أكبر مخلوقاته، بَيَّنَ تبارك وتعالى، أنه لا شيء يخرج عن قهره وأمره، فلا العرش، ولا السموات وما فيها، ولا الأرض وما عليها، ولا ما بين ذلك، الكل خلقه، والملك ملكه، كما قال تعالى: {لَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [طه:٦]، فهو المتصرف فيه بلا منازع له في أمره تبارك وتعالى.

و تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر والقصر، فَيَخْرُجُ بذلك كل ما سوى الله تبارك وتعالى، وبهذه الآية وأمثالها، احتج أهل السنة والجماعة، على أن القرآن منزل وليس مخلوق.

كما قال الإمام اللالكائي في كتابه (اعتقاد أهل السنة) والذي ذكر فيه ما أجمعوا عليه:[استنباط آية أخرى من كتاب الله وهي قوله: {ألا له الخلق والأمر}، فَفَرَّقَ بَيْنَهُما، والخَلقُ هو المخلُوقَات، والأمْرُ هو القُرآن.

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن العباس قال أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي قال حدثنا سعيد بن نصير أبو عثمان الواسطي الشعيري في مجلس خلف بن هشام البزار قال سمعت ابن عيينه يقول: ما يقول هذا الدُّوَيْه؟!، يعني بشر المريس، قالوا يا أبا محمد بن أبي عمران: القرآن مخلوق، قال:فقد كذب قال الله عز وجل: {ألا له الخلق والأمر}، فالخلق خلق الله، والأمر القرآن.

وكذلك قال أحمد بن حنبل ونعيم بن حماد ومحمد بن يحيى الذهلي وعبد السلام بن عاصم الرازي وأحمد بن سنان الواسطي وأبو حاتم الرازي]ا.هـ.

وقال أيضا في نفس المرجع :(اعتقاد أهل السنة) بعد أن ذكر خلقا كثيرا من الأئمة والعلماء في مختلف الأمصار والأقطار، ثم قال:[قالوا كلهم:القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق؛ فهو كافر، فهؤلاء خمس مائة وخمسون نفسا، أو أكثر، من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التابعين وأتباع التابعين والأئمة المَرْضِيين، سوى الصحابة الخَيِّرين، على اختلاف الأعصار ومُضِيِّ السنين والأعوام، وفيهم نحو ممن مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم، وتَدَيَّنُوا بمذاهبهم، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لَبَلَغَت أسماؤهم أُلُوفًا كثيرة، لكني اختصرت، وحذفت الأسانيد للاختصار، ونقلت عن هؤلاء عَصْراً بَعْدَ عَصْر، لا يُنْكِرُ عليهم مُنْكِر، ومَنْ أنْكَرَ قَوْلَهُم اسْتَتَابُوه أو أمَرُوا بِقَتْلِه أو نَفْيِه أو صَلْبِه، ولا خلاف بين الأمة، أن أول من قال القرآن مخلوق، جعد بن درهم في سِنِيٍّ نَيِّفٍ وعشرين، ثم جهم بن صفوان، فأما جَعْدٌ، فقتله خالد بن عبد الله القَسْرِي، وأما جَهْمٌ فَقُتِلَ بَمَرْو، في خلافه هشام بن عبد الملك]ا.هـ.

قوله:{تبارك الله رب العالمين}: تبارك: في هذا المقام صيغة كَثْرَةٍ وامتلاء ودوام، أي كثير البركة دائمها جل الله في علاه، ولها معان أخرى عظيمة، كما جاء في تفسير البغوي حيث قال:[{تَبَارَكَ اللهُ} أي:تعالى الله وتعظم. وقيل:ارتفع. والمبارك المرتفع. وقيل:تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة، أي:البركة تكتسب وتنال بذكره.

وعن ابن عباس قال:جاء بكل بركة. وقال الحسن:تجيء البركة من قِبَله وقيل:تبارك: تقدس. والقدس:الطهارة. وقيل:تبارك الله أي:باسمه يتبرك في كل شيء. وقال المحققون:معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة الثبوت. ويقال:تبارك اللهُ ولا يقال:متبارك ولا مبارك، لأنه لم يرد به التوقيف]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقوله تعالى:{ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} أي:يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، فقوله: {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} أي:لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ}، منهم من نَصَبَ، ومنهم من رَفَعَ، وكلاهما قَريب المعنى، أي:الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبِّها: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ}؟، أي:له الملك والتصرف، {تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}]ا.هـ.

قوله:(والرب هو المعبود): هذا بَيَانٌ لِوَقْتِ التَّكْلِيف، وقيام الحجة على العباد، ودلالة على المراد بالخلق، والمقصود الأعظم من إيجاد العباد، أن لا يعبدوا إلا الله، فما بَثَّهُ الله تبارك وتعالى في العالم، من الشواهد والمخلوقات والآيات، كل ذلك دال على وجود الخالق العظيم، وتفرده بالحكم والأمر والتصرف، جل الله في علاه، ولكن العَبد ومع هذه الدلائل كلها؛ يبقى خاليا ذِهْنُهُ تماما، عما يُرادُ منه، وما يُرادُ به، فشاهد الكون من حوله أقام حُجَّةَ وجود الخالق العظيم، ودَلَّ على بعض صفاته تبارك وتعالى، ثم أرسل الله الرسل وأنزل الكتب فقامت حجة الله على خلقه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحُجَّةُ التي يُحاسَبُ بها العبَاد:

وبهذه الحجة يأخذ الله تبارك وتعالى عباده، أما شاهد الفطرة، وشاهد الكون، كل ذلك لا يتضمن ما يُرادُ من العبد أن يقوم به في هذا العالم، حتى أتاه العلم من الله تبارك وتعالى، فمن أعرض، أو عاند أو استكبر بعد ذلك، كان من الكافرين، وحقت عليه كلمة العذاب. نعم شاهد الفطر يدل على أنه، إن كان هناك معبود، وكان هناك أمر بالعبادة؛ فلا أحق من الله الخالق الرازق بذلك، ولكن يبقى بيان ذلك والإلزام به، أمرا متعلقا بنصوص الوحي، التي توجه الإنسان إلى ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

وهذه المسألة عند من لم يفقهها، أحدثت خللا واضحا في التصور، وفسادا في التعامل مع العباد في مسألة، متى تقوم الحجة، وبم تقوم الحجة.

فإن البعض يعتقد أن شاهد الكون والفطرة، كاف في إقامة الحجة على العباد، فإن سألته، هل هذا الشاهد فيه الأمر بعبادة الله؟، وهل فيه أن لا نعبد أحدا سواه؟، وما هي هذه العبادة التي يريدها الله؟، وما أنواعها؟، وما عقوبة المخالف لذلك؟، ومن أين علمنا أن هناك عقوبة أصلا؟، وما هو بالتحديد الشيء الذي لو صرف لغير الله تعالى؛ كان شركا أكبر؟، وما عقوبة الشرك الأكبر؟، وهل الله تعالى منع عباده منه؟ وحرمه عليهم؟، هل هذه المعلومات يتلقاها العبد من هذا الشاهد؟!!. أم لابد من البيان الصريح الصحيح من الله تبارك وتعالى إلى خلقه؛ لتقوم الحجة ويقع التكليف؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أوَلَيس الكل مُتَّفِقٌ على أن العبادة لا يجوز تحديدها بـالأهواء، ولا الآراء، ولا بفعـل الناس، ولا بإملاءات الواقع، وأحواله؟.

أوَلَسْنا مُتَّفِقِين على أن الأصل في العبادة الحظر والمنع والتحـريم، حتـى يـأتي الـدليل الصحيح الصريح عن الله تبارك وتعالى ورسوله r .

إذن فلنعلم أن القول بأن شاهد الكون والفطرة، كاف في قيام الحجة، قـول باطـل، وصاحبه حجيج نفسه، إن احتكم إلى أصوله التي بني عليها معتقده ودينه، ومن ذلـك ما يتعلق بمعنى قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ} [الأنعـام:١٥٣]، فالآيـة دلـت، عـلى منازعة الشياطين صراطَ الله تعالى بين يدي العباد، بالسبل المنحرفة الضالة، فمن أين لنا أن نعلم أن هذا صراط الله؟، وأن ذاك سبيل الشيطان؟، لا سبيل إلى ذلك إلا بـما أنزلـه الله تعالى في كتابه، وما أوحى به إلى نبيه r من الحكمة.

أولم يأت الذم الصحيح الصريح في الكتاب العزيز، للظن والـرجم بالغيـب؟، وأن كل مَنْ بَنَى دينه على ذلك؛ فإنه ضال منحرف؟، ونحن نعلم يقينا، أن كل إنسان مُعْتَدٌّ بعقله وفهمه ورأيه، فمن أين لنا أن نميز، بين قول فلان وفلان، وهوى فـلان وفـلان، ورأي فلان وفلان؟، إلا أن يكون بيننا حكم عدل، هو حجـة عـلى الجميـع، ألا وهـو شرع الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُـهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُـمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى:١٠]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩].

فعاد الأمر كله مبدأً ومنتهى، إلى العلم الشرعي، وجودا وعدما، فمن بلغه هذا العلم، وبُيِّن له مراد الله تبارك وتعالى فقد قامت عليه الحجة، وكذلك من سمع به ولم يأته، فقد قامت عليه الحجة، ومن باب أولى المعاند والمستكبر، وأما من كان طالبا للحق سائلا عنه، ولديه استسلام عام له، فهو مهما أتاه من الحق قبله، ومتى ما أزيلت عنه الشبة أذعن وانقاد، فهذا معذور، فيما ما لم يبلغه من العلم، سواء في ذلك أصول الدين أو فروعه، وهذا الذي يسميه العلماء بالعذر المعتبر، كالجهل والتأويل، والخطأ والنسيان والإكراه، ونحو ذلك من الأعذار المعتبرة شرعا، وأجمع عليها السلف الصالح.

فالأصل في الإنسان، الجهل بما يُرَادُ منه وما يُرَادُ به، حتى يأتيه العلم، فتقوم الحجة ويقع التكليف. وهذا ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، وهذا ما نقله الأئمة عنهم، وهذا عام في فروع الدين وأصوله، وتأمل فيما قاله اللالكائي في كتابه الذي نقل فيه ما يعتقده أهل السنة وأجمعوا عليه، حيث قال في كتابه (اعتقاد أهل السنة):[باب جماع توحيد الله عز و جل وصفاته وأسمائه وأنه حي قادر عالم سميع بصير متكلم مريد باقي.

سياق ما يدل من كتاب الله عز و جل وما روى عن رسول الله r على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته **بالسمع لا بالعقل**:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الله تعالى يخاطب نبيه r بلفظ خاص والمراد به العام: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}، وقال تبارك وتعالى: {اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين}، وقال تبارك وتعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}، **فأخبر الله نبيه r في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد**، وقال تعالى: {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب}، وقد استدل إبراهيم بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته بطلوع الشمس وغروبها وظهور القمر وغيبته وظهور الكواكب وأفولها، ثم قال: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين}؛**فعلم أن الهداية وقعت بالسمع، وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع**، قال الله تبارك وتعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}، وقال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}، وقال تبارك وتعالى: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}، وقال تبارك وتعالى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين} {وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى}، **فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله عز و جل وهذا مذهب أهل السنة والجماعة**]ا.هـ.

إذن في قوله:(والرب هو المعبود)، بيان للنتيجة التي لا مَحِيدَ عنها، لكل عاقل سليم العقل، التزم ما دلت عليه النصوص المتقدمة، أن الرب تبارك وتعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وهو المعبود جل الله في علاه، إذ أن ما سلمتم به من الربوبية؛ مقتض ومستلزم لإثبات العبودية لله وحده لا شريك له، فلا معنى لمجادلة الرسل فيما جاءوا به من الأمر بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، إلا الجحود والعناد والاستكبار.

فالعبادة بالإخلاص والمتابعة هو سبيل النجاة ولا سبيل سواه.

قال المؤلف رحمه الله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، شرع المؤلف يستدل على هذه النتيجة الحتمية، لتلك المقدمة المُلْزِمة للعباد كلهم، إلا أن يكون معاندا مستكبرا، أو مجنونا فقد عقله، فهو لا يميز.

قوله:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ}: هذا النداء يفيد التخصيص، والمقصود هنا التخصيص بالتكليف أمرا ونهيا، كما أنه يفيد التشريف لمن كان أهلا لذلك، أما الصم البكم الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يعقلون، فهؤلاء أهل هذه الآية:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال:٥٥].

نوعي الإصغاء:

كما أن هذا النداء، حَاثٌّ على ضرورة الإصغاء والتفكر، والتعقل مع ما يُراد طَرْحُه وإيرَادُه، وضرورة الميل إلى الحق والركون إليه، والاستبصار فيه؛ ولهذا قال تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [الزمر:٢١]، وقال:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق:٣٧].

وإلا فإن الله تبارك وتعالى حدثنا، عن نوع آخر من الإصغاء، يستعيض به المجرمون، عن الإصغاء لكلام الله تعالى ورسله، والركون إلى الحق، كما قال تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام:١١٢-١١٣].

ثم اعلم رحمك الله،أن شَرَفَ الخطاب من شَرَفِ الْمُخَاطِبِ به، وحيث أن الْمُخَاطِبَ هنا، هو الله رب العالمين، تَعَيَّنَ استفراغ الوسع، في الفهم والإصغاء، وبلوغ الغاية من القيام لله تعالى، بالإكرام والإجلال، والخضوع والخشوع، وتأمل قوله تعالى:{لَوْ أَنْزَلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر:٢١].

قوله:{اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم}: هذا سبب النداء، فلا تلتفت إلى غيره، لا في حالك، ولا فيما بعد ذلك، ولا فيما وراء ذلك، وهو أمر بالعبادة للرب الذي خلق، والمعنى أن من لم يخلقكم؛ لا يستحق أن يُعْبَد.

قوله:{لعلكم تتقون}: دليل أن على التقوى قَرِينُ التوحيد، فلا يُتَصور وجود مُتَّقٍ غير مُوَحِد، ولا مُوَحِد غير مُتَّقٍ، فويل للذين يَدَّعُون ولاية الله، وهم يَدْعُونَ الناس إلى الشرك والتنديد، وعبادة العبيد، وويل للذين يصدقونهم على ذلك، ويتبعونهم.

واعلم، أن من أبرز علامات التقوى، تقديم فرائض الله جل وعلا، وليس هناك فريضة أعظم ولا أجل، من تحقيق التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك والمشركين، بل هذه هي حقيقة التقوى.

فإن هناك قدرا من التقوى، لا يتصور وجود الإسلام والإيمان بدونه، وهو التقوى في حق الله جل وعلا، بالقيام له بالتوحيد الخالص، إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، وبهذا الاعتبار يَصْدُقُ وَصْفُ التقوى على كل مؤمن ومؤمنة، ثم الناس بعد ذلك درجات متفاوتة في تقوى الله جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى:{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات:١٣]، وقال النبي r كما في حديث جابر في صحيح مسلم:"قَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ للهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ". وهذا المعنى متواتر عن النبي r في مواضع من الصحيحين.

وعليه فالتقوى هنا بمعنى التوحيد، و{لعل} من الله متحققة الوقوع، والمعنى أن من أراد أن يكون متقيا، فليبدأ بهذا الحق، الذي لا تكون تقوى بدونه، مَهْمَا اتَّقَينَا من المُحَرَّمَات الأخرى، ومَهْمَا فعلنا من المأمورات، والطاعات والقربات، فمن أراد أن يتقي عذاب الله؛ فعليه بتوحيد الله جل وعلا، إذ لا عاصم من عذاب الله، إلا من رحم الله، والله تعالى لا يرحم يوم القيامة، إلا أهل التقوى الموحدين، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٥٦].

قوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ}: أي احفظوا الإحسان وتعاملوا به مع الله تعالى، فإنكم تعلمون يقينا، أن الله تعالى هو الذي فعل بكم ذلك كله، فهو الذي سخر لكم الأرض والسماء وما فيهما، وجعل السماء سقفا محفوظا، وذلل الأرض، ومَهَدَها، وجعلها مسخرة لكم، لا تبغي عليكم، ولا تمتنع منكم، مع عظمة حجمها وقدراتها، وأنزل من السماء ماء طهورا، ثم جعل الأرض رحما لكم، تنبت زرعكم، ومستودعا لمائِكم، وتستر أذاكم وقذركم، وتدفنون فيها موتاكم، كل ذلك وغيره كثير،فقط؛ لتعبدوا الله وحده لا شريك له، وتلك هي الأمانة التي حملناها بين يدي الله جل جلاله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهَّ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب:٧٠-٧٣].

قوله:{فلا تجعلوا لله أنداداً و أنتم تعلمون}: بعد أن أمر بالتوحيد، نَهَى عن ضِدَّه، ومع أن الأمر بالشيء غالبا هو نهي عن ضده، إلا أنه في هذا المقام هو من باب التوكيد لمقام التوحيد، ودفعه الإيهام؛ لأنه حق الله على العبيد؛ ولأن البعض قد يتوهم، أنه إذا عبد الله في جوانب كثيرة، واتخذ معه أندادا في شيء آخر، أنه بذلك لا يخرجه عن كونه قائما بحق الله تعالى، مُتَّصِفاً بالتوحيد، فأراد الله تعالى أن يحسم هذه المادة، ويقطع على الشياطين طريقهم، أن يضلوا العباد ويهلكوهم، والله هو البر الرؤوف الرحيم، جل لله في علاه.

ولهذا جاءت كثير من النصوص متضمنة كلمة التوحيد، ومعها هذا المقام، أعني مقام التوكيد ودفع الإيهام، كما في الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ **t** عَنْ النَّبِيِّ **r** قَالَ:"مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهَّ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ" وفي رواية" مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ". فتأمل كيف أكد (لا إله إلا الله) بقوله (لا شريك له).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومثله في صحيح البخاري عن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الْحَمْدُ لله وَسُبْحَانَ الله وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ".

ومثله ما في الصحيحين من طريق وَرَّاد مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ كَتَبَ الْمُغِيرَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا سَلَّمَ:"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"ومثل هذا كثير جدا.

فلابد من التحقق، بتحقيق النفي والإثبات في هذا المقام الخطير، قال الإمام الشنقيطي في كتابه(أضواء البيان):[وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلا في آيات أخر كقوله:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} الآية، فصرح بالإثبات منها بقوله:{اعْبُدُوا رَبَّكُمْ}، وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة، بقوله:{فَلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون}، وكقوله:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، فصرح بالإثبات بقوله: {أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ} وبالنفي بقوله: {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، وكقوله:{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}، فصرح بالنفي منها بقوله:{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ}، وبالإثبات بقوله:{وَيُؤْمِنْ بِالله}؛ وكقوله:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}، وكقوله:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}؛ إلى غير ذلك من الآيات]ا.هـ.

وأقوال السلف، وأهل التفسير في قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا}، تدور على العِدْلِ والنَّظِير والشَّبِيه والمَثِيل والشَريك. والمعنى أن الله تبارك وتعالى لا يرضى ذلك ولا يقبله، وسيحبط عمل من يلقاه به، وله عند الله تعالى العذاب الأليم، والنكال الشديد.

قوله: {وأنتم تعلمون}: إما أن يكون هذا العلم مسبقاً (أي قبل هذه الآية من عند رسول الله r)، وإما أن يكون هذا العلم حادثاً (أي بعد الآية)، وفيه دليل على أن العلم هو مفترق الطرق، وبه يأخذ الله جل وعلا عباده، فمتى ما قامت الحجة، واستبانت المحجة؛ لزم العبد كل ما يترتب على ذلك، من كفر وإيمان، وعذاب وإحسان.

قال المؤلف رحمة الله: (قال ابن كثير): هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي،ولد بقرية "مجْدَل" من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل، نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، ومن أشهر شيوخه شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله، والحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله، والحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله، كان ابن كثير، رحمه الله، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومَنْ بَعْدَهُم الثناء الجَمّ الجميل، فقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: "وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذي الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي، سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم"، وقال عنه أيضًا في المعجم المختص: "الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال". وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: "صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل"، وقال العلامة ابن ناصر الدين: "الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين"، وقال ابن تغري بردي: "لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفى"، وقال ابن حجر العسقلاني: "كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته".وقال ابن حبيب: "إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير"، وقال العيني: "كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة"، وقال تلميذه ابن حجي: "أحفظ من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه"، وقال الداودي:"أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب"، وتوفي في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ودفن عند شيخه ابن تيمية، رحمهما الله[1].

وهذا النقل الذي ذكره المؤلف عن ابن كثير لم أقف عليه بهذه الحروف، ولكن وجدت قريبا منه، كما في تفسير ابن كثير:[وقوله:{أَتَدْعُونَ بَعْلا} أي: أتعبدون صنما؟ {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللهَّ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} أي:هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له]ا.هـ.

قوله:(الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة): هذا من الأساليب الجميلة في التأليف والتعليم، وذلك بانتقاء مختصر الكلام، ومفيده، عن الأئمة الذين لهم قدم صدق في الأمة، فتكون هذه الكلمات نبراسا يُهْتَدى بها، ويسهل انتشارها، فيحصل بذلك النفع العميم.

---

١ - انتهى منقول بحروفه من ترجمته لمحقق تفسير ابن كثير طبعة دار طيبة سامي بن محمد بن عبد الرحمن بن سلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقيدة واحدة أبدا:

وهذه الكلام من العماد ابن كثير رحمه الله تعالى، هو معنى قول المؤلف آنفا:(والرب هو المعبود)، وفي هذا إشارة بليغة، إلى أن العقيدة واحدة، لا تتنوع ولا تتلون، بل هي كذلك من زمن السلف إلى زمان ابن كثير، وإلى زمان المؤلف، وفيما بعد ذلك، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهي حقائق ثابتة، ومعاني ومفاهيم راسخة، لا تقبل التلاعب والاجتزاء أبدا.

وهذا كثير في الذكر الحكيم، الاستدلال على الألوهية بطريق الربوبية والأسماء والصفات، كما قال تعالى:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان:١٠-١١]، ثم ذكر وصية لقمان لابنه يحذره ويخوفه من الشرك بالله تعالى، وقوله تعالى:{فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:١٧-٣٢].وقوله:{قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النمل:٥٩-٦٣]. قال ابن كثير في تفسيره:[فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ يُعبَدُ غيره؟ ولِمَ يُتَوَكَّلُ على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك]ا.هـ.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:[ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلَّ وعلا ـ على وجوب توحيده في عبادته. ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير. فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده. لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده؛ لَزِمَهُ الاعتراف بأنه هو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له، جل الله في علاه. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}، إلى قوله:{فَسَيَقُولُونَ اللهُ}، فلَّما أقروا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله:{فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}، ومنها قوله تعالى:{قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله}، فلمَّا اعترفوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله:{قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}، ثم قال:{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لله}، فلما أقرُّوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله:{قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}، ثم قال:{قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله}، فلما أقروا وبخهم منكراً عليهم شركهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بقوله:{قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}، ومنها قوله تعالى:{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ}، فلما صح الاعتراف وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله:{قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا}، ومنها قوله تعالى:{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [٤٣/ ٨٧]، ومنها قوله تعالى :{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله :{فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم شِركهم بقوله:{قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}، وقوله تعالى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله:{قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، وقوله تعالى:{ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السَّموات والأرض وما ذكر معها، خير من جماد لا يقدر على شيء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله.{أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}، ثم قال تعالى:{أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً}، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله:{أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، ثم قال جلَّ وعلا:{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خلَفَاءَ الْأَرْضَ أَإِلَهٌ}، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكراً عليهم بقوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، ثم قال تعالى: {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَينَ يَدَي رَحْمَتِهِ}، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكراً عليهم بقوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ثم قال جلَّ وعلا: {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ والأَرْضِ}، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكراً عليهم بقوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}،وقوله: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ}، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}. والآيات بنحو هذا كثيرة جداً. ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع:أن كل الأسئلة المتعلِّقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار. لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة. نحو قوله تعالى: {أَفِي اللهِ شَكٌّ}، وقوله: {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا}، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار. لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلِّق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ:الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ:الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا.كُلُّهَا لله تَعَالَى.وَالدَّلِيلُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً} [الجن: ١٨]. فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٧].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان): المؤلف رحمه الله بعد أن بين حقائق العبودية، وربط ذلك بحقائق الربوبية، وبين أن الله تبارك وتعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، شرع في بيان هذه العبادة التي ما خُلق الإنس والجن إلا من أجلها، وهذا أسلوب أدبي تربوي رفيع،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث أن النفوس إذا عُظِّمَ لها أمْرٌ ما؛ تطلعت إلى معرفة تفاصيله، وإذا علمت شدة حاجتها إليه، وأنه لا عز ولا كرامة ولا نجاة لها إلا به؛ اشتاقت إلى العمل به.

لطيفة تربوية:

فالمؤلف بَعْدَ أن بَيَّنَ وَشَوَّقَ، جاء بأنواع العبادات بعد ذلك مباشرة، وكأنه يقول ها هي دونك، فَعُضَّ عليها بالنواجذ، ولا تزهد فيها البَتَّة، بل استمسك بها، قولا وعملا، ظاهرا وباطنا.ولهذا قال بعدها:(وأنواع العبادة التي أمر الله بها).

فبعد أن اشتاقت النفوس، وعرفت المطلوب؛ دلها على الكيفية والتفاصيل، وقَدَّمَ ذكرها إجمالاً؛ لحث العباد على المسارعة في الخيرات، فكأنه قال:وهَاكَ جملة من أنواع العبادات.

وفي طَيَّاتِ قوله:(وأنواع العبادة) إشارة إلى أنها ليست نسكاً معيناً، يؤدى وينتهي الأمر، بل هي أنواع شتى، فالحياة كلها عبادة لله جل وعلا، وعليك أيها المسلم أن تَتَقَلَّبَ في هذه الأنواع، حتى تلقى الله جل وعلا ، كما قال تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام:١٦٢-١٦٣].

قوله:(التي أمر الله بها): بيان وتأكيد على أن معرفة هذه الأنواع، سبيله الكتاب والسنة، خلافاً لما عليه أهل الجاهلية، من اتباع الهوى والسادات والكبراء، بل الله تعالى هو الآمر وما علينا إلا أن نسمع ونطيع، كما قال الله تعالى:{ألا له الخلق والأمر}،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: ٦٨]، وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب:٣٦].

قوله:(مثل الإسلام والإيمان والإحسان)، هذه الثلاثة سماها النبي **r** :"دينكم"، كما سيأتي معنا، في حديث جبريل المشهور.

وهذه الأسماء الثلاثة، إذا جاءت في سياق واحد، فالصحيح أنها تفترق في المعنى، فيكون المراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، وهي الأركان الخمسة المذكورة في حديث عمر بن الخطاب المشهور الآتي، والمراد بالإيمان أعمال القلوب، وهي الأركان الستة الآتي تقريرها، والمراد بالإحسان مرتبة فوق الإسلام والإيمان، كما سيأتي بيانه.

والعبد مطالب بكل ذلك، فالدين له شعائر ظاهرة، وشعائر باطنة، ولابد له من الإحسان، وهذه المرتب الثلاث كلها سيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

وقد يشكل على البعض، تمثيل المؤلف رحمه الله بهذه الثلاث؛ لأنها تمثل الدين كله، ظاهرا وباطنا، قولا وعملا واعتقادا، كما بين ذلك النبي **r** ، فيقال إن المؤلف يتكلم عن الأمور الواجبات المتحتمات، وإنما مثل بهذه الثلاثة؛ لبين أن هناك أعمالا، لم تذكر في تعاريف هذه الثلاث، هي أيضاً من جملة العبادة؛ لكي لا يظن ظان، أنه قد أدى ما عليه، وهناك أيضا النوافل، فهناك نفل الذكر، وترداد كلمة التوحيد، ونفل الصلاة والصيام والصدقة والحج، إلى غير ذلك من النوافل، ومن الفرائض الجهاد بكل أنواعه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه كلها داخلة في جملة العبادات، وكأن المؤلف رحمه الله تعالى عنى بهذه الأسماء الثلاث ما ورد في حديث جبريل الآتي؛ ولهذا جعلها أمثلة للعبادة. والله أعلم.

قال المؤلف:(ومنه)، الضمير عائد على العبادة، والمعنى: أي ومن أنواع العبادة أيضا،أمور أخرى، منها الأعمال الظاهرة ومنها الباطنة، ثم شرع يذكرها، وقد استعمل المؤلف هنا أسلوب اللف والنشر، وقد تقدم بيان معناه، فذكر إجمالاً، ثم فصّل كل واحدة بدليلها.

قال المؤلف:(وغير ذلك من العبادة): بيان أن العبادة ليست محصورة على ما تقدم فقط، بل هناك أعمال أخرى وراء ذلك، إذ كل ما يحبه الله ويرضاه، فعله عبادة، وكل ما يكرهه الله ويأباه، تركه عبادة؛ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله:(العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

قال المؤلف:(كلها لله): الضمير عائد على العبادات، وهذا من باب التعميم بعد التخصيص، والمعنى أنه إذا ثبت أن الشيء عبادة، فهي مختصة أبدا بالله رب العالمين.

كما أن في ذلك إشارة إلى الإخلاص، فإنه مَرْكَبُ الخلاص، أي لن تغني عنك العبادات، حتى تُخَلِّصَها من شوائب الشرك كله، وإلا فإن أهل الجاهلية كانوا يقومون بكثير من تلك العبادات، ولكنها متضمنة للشرك بالله، إما في ذات العمل المخصوص، أو في عبادات أخرى، صرفوها لغير الله تعالى؛ فصاروا بذلك مشركين، فأحبط الله جميع أعمالهم الصالحة، وأورثهم لظى، كما قال تعالى:{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية:١ - ٧].

قوله:(والدليل قوله تعالى:{وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً})، هذه الآية تقدم الحديث عن تفسيرها ومتعلقاته العظيمة، في تقرير وإثبات حق الله تبارك وتعالى، ومن التوحيد الخالص.

قوله:(فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ)، هذه هي الحقيقة الكبرى التي يجب ألا نغفل عنها أبدا، أن من صرف العبادة كلها أو بعضها، ولو شيئاً يسيراً منها لغير الله، - وإن كان من صُرِفَت له العبادة، ملكا مُقَرَّباً، أو نَبِيّاً مرسلا، أو وَلِيّاً صالحا - ؛ فهو عند الله مشرك كافر، واعتبر بقوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر:٦٥-٦٦].

التَّرَادُف اللَّفْظي والمَعْنَوي بين لفظي الشرك والكفر:

قوله:(مشرك كافر)، هذا من الترادف اللفظي والمعنوي في بعض المواطن، فإن الشرك والكفر يأتيان مترادفين، في بعض المواضع، ويأتي كل واحد منهما بمعنى مغاير، وذلك بحسب دلالة السياق، ففي قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون:١١٧]،هنا جاء الشرك والكفر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مترادفين؛ لأنه استفتح الآية بعمل شركي، ثم ختمها باسم الكفر، ولا خلاف في النتيجة والمؤدى، فإن المشرك والكافر مخلدان في النار أبدا.

وهذه حقيقة مهمة، متعلقة بقضية تقدم الإشارة إليها من قبل، وهي قضية إقامة الحجة، ومسألة الأعذار المعتبرة شرعا، في مسائل تنزيل الأحكام على الأعيان.

فإن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة؛ يقطع ويعلم يقينا، أنه لا فرق بين الكفر والشرك، من جهة أحكام الدنيا والآخرة، فيما يتعلق بانتقاض الإيمان، وحبوط الأعمال، والخلود في النيران، والحجاب عن رؤية الرحمن، جل جلاله تبارك وتعالى، وإن اختلف الناس في تعريف كل واحد منهما، وترادفهما من عدمه.

وعليه فكل ما يمكن أن يقال في الشرك، فإنه يقال في الكفر والعكس، فالكل ناقض للإسلام، وناقل عن الملة.

وإنما قلت؛ هذا لأن هناك من فرق بين الكفر والشرك، في أحكام الدنيا، فيما يتعلق بمسائل العذر المعتبرة شرعا؛ ليمرر فهما اعتقده حقا، فقال بالعذر في مسائل الكفر، ومنعها في مسائل الشرك، وهذا خطأ بَيِّنٌ واضح، ومخالفة صريحة لصريح الكتاب والسنة، وتعامل سلف الأمة.

فالسلف كانوا يجعلون ذلك بابا واحدا، فيما يتعلق بجميع أحكام الدنيا والآخرة، ولهذا لا فرق عندهم بين من استحل الحرام، والذي قال بخلق القرآن، كلاهما قد أتى الكفر بالله تعالى، فالضابط عندهم مستقر ثابت، وهو مسألة العلم بالْمُكَفِّر، وجودا وعدما، فمتى ما انتفى العلم، عن عدم إعراض ولا استكبار ولا عناد، فإنهم يعذرون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلا منهما. واعلم أن من عَدَمِ العِلمِ بالحق التأويل الخاطئ، لمن سلك السبيل الصحيحة في الاجتهاد.

مقدمة وبيان مختصر[١]، عن العذر بالجهل المعتبر

فكان أهل كل زمان، يعالجون ما يظهر بين أيديهم من الشركيات والكفريات، على هذا المنوال والنسق، وألفت في ذلك كتب، وسرت الركبان بالفتاوى في ذلك، بلا نكير ولا مخالف.

وإليك هذا النقولات في مكفرات ظهرت في زمان الصحابة والسلف وبعد ذلك، وانظر كيف تعاملوا معها:

فقد أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى، قال:سمعت الشافعي يقول:(لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، **وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل** لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر)ا.هـ.

قال البخاري في خلق أفعال العباد(ج١ - ص٦٢) :[**وكل من لم يعرف الله بكلامه أنه غير مخلوق فإنه يعلم ويرد جهله إلى الكتاب والسنة فمن أبي بعد العلم به كان معاندا،** قال الله تعالى :{وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}،

---

١ - وأما بسط الكلام في ذلك والرد على المخالف، فستجده إن شاء الله تعالى وافيا في كتابي:(**العذر بالجهل بين ميزان السلف وتخليط الخلف بين الإفراط والتفريط**).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقوله :{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد ويدعيه كل لنفسه فليس بثابت كثير من أخبارهم وربما لم يفهموا دقة مذهبه بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق وما سواه مخلوق وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم وبينه رسول الله e]ا.هـ.

وقال أبو محمد بن حزم الظاهري رحمه الله:[مَن ادعى أن النبي e لم يدَع أحداً يُسلم حتى يوقِفَه على هذه المعاني كان قد كذب بإجماع المسلمين من أهل الأرض، وقال ما يدري أنه فيه كاذب، و ادعى أن جميع الصحابة y تواطئوا على كتمان ذلك من فعله عليه السلام، وهذا المحال ممتنع في الطبيعة، ثم فيه نسبة الكفر إليهم؛ إذ كتموا ما لا يتم إسلام أحد إلا به. وإن قال:إنه e لم يَدَّعِ قط أحَدٌ إلى شيء من هذا، و لكنه مودع في القرآن، و في كلامه e قيل له:صدقت]ا.هـ. [الفصل في الملل والأهواء والنحل].

وقال ابن قدامة في المغني:[**ومن اعتقد حل شيء أجمع على تحريمه، وظهر حكمه بين المسلمين وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه، كلحم الخنزير، والزنى، وأشباه هذا، مما لا خلاف فيه، كفر، وإن استحل قتل المعصومين، وأخذ أموالهم بغير شبهة ولا تأويل فكذلك** وإن كان بتأويل كالخوارج فقد ذكرنا أن أكثر الفقهاء لم يحكموا بكفر ابن ملجم مع قتله أفضل الخلق في زمنه، متقربا بذلك ، وكذلك يخرج في كل محرم استحل بتأويل مثل هذا، وقد روي أن قدامة بن مظعون شرب الخمر مستحلا لها، فأقام عمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه الحد ، ولم يكفره، وكذلك أبو جندل بن سهيل، وجماعة معه ، شربوا الخمر بالشام مستحلين لها ، مستدلين بقول الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا}، فلم يكفروا، وعرفوا تحريمها فتابوا وأقيم عليهم الحد، فيخرج فيمن كان مثلهم حكمهم، **وكذلك كل جاهل بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك ، وتزول عنه الشبهة ويستحله بعد ذلك**]ا.هـ.

وقال ابن عبد البر رحمه الله في كتابه :(التمهيد):[**من جهل بعض الصفات وآمن بسائرها لم يكن بجهل البعض كافرا**؛ لأن الكافر من عاند لا من جهل، وهذا قول المتقدمين من العلماء ومن سلك سبيلهم من المتأخرين]ا.هـ.

متى ظهرت عبادة القبور والأولياء؟:

ثم لما ظهرت عبادة القبور والأولياء الصالحين، وكانت لا تعرف في القرون المفضلة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَإِذَا كَانَ الدُّعَاء فِي مَسْجِدِ رَسُولِ الله r أَمَرَ الْأَئِمَّةُ فِيهِ بِاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ كَمَا رُوِيَ عَنْ الصَّحَابَة وَكَرِهُوا اسْتِقْبَالَ الْقَبْرِ فَمَا الظَّنُّ بِقَبْرِ غَيْرِهِ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ لَك أَنَّ قَصْدَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْقُبُورِ: لَيْسَ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ ذَكَرَ شَيْئًا يُخَالِفُ هَذَا مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي الْمَنَاسِكِ أَوْ غَيْرِهَا فَلَا حُجَّةَ مَعَهُ بِذَلِكَ وَلَا مَعَهُ نَقْلٌ عَنْ إمَامٍ مَتْبُوعٍ. وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ أَخَذَهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ بَعْضٍ؛ لِأَحَادِيثَ ظَنُّوهَا صَحِيحَةً وَهِيَ بَاطِلَةٌ أَوْ لِعَادَاتِ مُبْتَدَعَةٍ ظَنُّوهَا سُنَّةً بِلَا أَصْلٍ شَرْعِيٍّ. **وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعُصُورِ الْمُفَضَّلَةِ " مَشَاهِدُ " عَلَى الْقُبُورِ وَإِنَّمَا ظَهَرَ ذَلِكَ وَكَثُرَ فِي دَوْلَةِ بَنِي بويه**؛ لَمَّا ظَهَرَتْ الْقَرَامِطَةُ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ كَانَ بِهَا زَنَادِقَةٌ كُفَّارٌ مَقْصُودُهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَبْدِيلُ دِينِ الْإِسْلَامِ وَكَانَ فِي بَنِي بويه مِنْ الْمُوَافِقَةِ لَهُمْ عَلَى بَعْضِ ذَلِكَ وَمِنْ بِدَعِ الْجَهْمِيَّة وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فَبَنَوْا الْمَشَاهِدَ الْمَكْذُوبَةَ " كَمَشْهَدِ عَلِيٍّ " - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَأَمْثَالِهِ . وَصَنَّفَ أَهْلُ الْفِرْيَةِ الْأَحَادِيثَ فِي زِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ وَالصَّلَاةِ عِنْدَهَا وَالدُّعَاءِ عِنْدَهَا وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ. فَصَارَ هَؤُلَاءِ الزَّنَادِقَةُ وَأَهْلُ الْبِدَعِ الْمُتَّبِعُونَ لَهُمْ يُعَظِّمُونَ الْمَشَاهِدَ وَيُهِينُونَ الْمَسَاجِدَ وَذَلِكَ: ضِدُّ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْتَتِرُونَ بِالتَّشَيُّعِ]ا.هـ.

وقال ابن الجوزي في كتابه:(تلبيس إبليس):[قال ابن عقيل:لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطَّغَام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمْرِ غيرهم، قال:وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع، من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ التراب تبركا، وإفاضة الطِيبِ على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر، اقتداء بمن عبد اللات والعزى، ولا تجد في هؤلاء من يحقق مسألة في زكاة فيسأل عن حكم يلزمه، والويل عندهم لمن لم يُقَبِّل مَشْهَد الكف، ولم يَتَمَسَّح بِآجُرَّةِ مسجد المأمونية يوم الأربعاء]ا.هـ. وكان ابن عقيل قد عاش في الفترة مابين ٤٣١ إلى أن توفي رحمه الله سنة ٥١٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن ظهرت المشاهد في أواخر القرن الثالث، ولم تعرف عبادة القبور إلا بعد ذلك[١]، على يد الصوفية، والقرامطة والرافضة، ومن نحى نحوهم وتأثر بهم.

فأقول: لما ظهرت هذه الكفريات والشركيات، تعامل معها العلماء بنفس النسق والأسلوب، الذي تعاملوا به مع الكفريات والشركيات التي ظهرت من قبل، فكانوا يفرقون بين النوع والعين، والكلام كله على من تلبس بالكفر أو الشرك من المسلمين، - لا على الكفار والمشركين الأصليين، فهؤلاء بالإجماع كفار مشركون بأعيانهم-.

---

١ - وكتب أحد الباحثين في (شبكة الدفاع عن السنة) فقال:[صدق شيخ الإسلام رحمه الله، وأهل التاريخ والآثار، قد أقاموا البراهين على صدق ما يقول،...ثم نقل عن أحد الموسوعات المصرية فقال إنها، أتثبت أن أوائل الأضرحة التي شيدت عليها المشاهد هي أضرحة الشيعة الرافضة، فبعد أن أثبتت أن أول ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة عرفت بقبة الصليبية، وأنها بنيت عام ٢٨٤ هـ على قبر الخليفة المنتصر العباسي، ونقلت عن الطبري أن أم الخليفة العباسي المنتصر استأذنت في بناء ضريح منفصل لولدها فأذن لها، إذ كانت العادة قبل ذلك أن يدفن الخليفة في قصره، وتلك الأم هي أم ولد نصرانية رومية، فهي بحكم عقيدتها وما تربت عليه من تعظيم القبور طلبت ذلك، وأجيبت إليه عندما تمكن نساء القصر من تسيير الحياة ، وغلبن على الخلفاء في حال ضعفهم وانصرافهم إلى شهواتهم وملذاتهم، إذن فالتأثير النصراني ظاهر في إنشاء هذا المشهد. ثم ذكر تواريخ لمشاهد بنيت فقال: ويليها من حيث التاريخ ضريح إسماعيل الساماني المبني سنة ٢٩٦هـ في مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام علي في النجف الذي بناه الحمدانيون سنة ٣١٧ هـ، ثم ضريح محمد بن موسى في مدينة قم بإيران سنة ٣٦٦هـ، ثم ضريح السبع بنات في الفسطاط سنة ٤٠٠ هـ، وهذا الترتيب قد ذكره غير واحد من المستشرقين والباحثين في الآثار والعمارة الإسلامية]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقول: كانوا ينظرون في حالة هذا المسلم الذي تلبس بمكفر، إن كان ممن يُعْذَر أو لا؟، مع اتفاقهم على أنه أتى كفرا وشركا بالله تعالى، ولكنهم أبدا ما كانوا يقولون إن هذا كفر ننظر فيه في حال صاحبه، فإن كان معذورا عذرناه، وإلا كفرناه، وأما إن كان مشركا فهذا نكفره مباشرة، بلا نظر في حاله البتة، هذا لم يكن موجودا أصلا؛ ولهذا ابن تيمية رحمه الله لما ظهرت في زمانه هذه المشاهد الشركية، وحصل في زمانه عبادة للقبور، أجرى نفس القاعدة، المتقدمة، في التفريق بين النوع والعين، وضرورة اعتبار حال العبد مع العلم، وقيام الحجة وإزالة الشبهة، وكان رحمه الله تعالى لا يفرق في هذا الباب بين عباد القبور، ولا الجهمية، والحلولية، فالكل كفر، ولابد من العدل والإنصاف، وطرح العواطف جانبا، ونبذ الغيرة المخالفة لما كان عليه النبي r وأصحابه y، والسلف والأئمة، وإليك شيئا من أقواله وأقوال غيره في ذلك:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:[فإنه بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعو أحداً من الأموات و لا الصالحين و لا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة و لا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، **لكن لغلبة الجهل و قلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه.....**]ا.هـ. (مختصراً من: الاستغاثة الكبرى).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد صرَّح في مقام آخر باشتراط قيام الحجة على الجاهل قبل الحكم بكفره، فقال رحمه الله، كما في :(الاستغاثة الكبرى):[والاستغاثة بالرسول؛ بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم كما أنه يستغاث بغيره بمعنى أن يطلب منه ما يليق به، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به وإما مخطئ ضال وأما بالمعنى الذي نفاه الرسول عليه الصلاة و السلام فهي أيضاً مما يجب نفيها، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها] ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري:[ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال وكان هذا خطابا لعلمائهم و قضاتهم و شيوخهم وأمرائهم وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح و المعقول الصريح الموافق له وكان هذا خطابنا فلهذا لم نقابل جهله و افتراءه بالتكفير بمثله كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ولا أن يقذفه بالفاحشة]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري:[وأيضا فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها وإلا فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر؛ ولهذا لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحا على ما فهموه من آية المائدة اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون فإن أصروا على الاستحلال كفروا وإن أقروا به جلدوا فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق فإذا أصروا على الجحود كفروا].ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة]ا.هـ.

وقال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى أيضا: [إن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطبق ذلك وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر و النهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان كما عفا النبي r عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا بإمكان الشرط، ومن هنا يتبين سقوط كثير من الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجباً في الأصل] ا- هـ.

لا فرق عند السلف بين الأصول والفروع في إمكانية وقوع الجهل المعتبر فيها:

وقال في عدم التفريق بين الأصول والفروع في إمكانية وقوع الجهل، ووجود العذر المعتبر شرعا:قال كما في مجموع الفتاوى (٢٣ / ٣٤٦ - ٣٤٧):[وَهَكَذَا الْأَقْوَالُ الَّتِي يَكْفُرُ قَائِلُهَا قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَمْ تَبْلُغْهُ النُّصُوصُ الْمُوجِبَةُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَقَدْ تَكُونُ عِنْدَهُ وَلَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُ أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ فَهْمِهَا وَقَدْ يَكُونُ قَدْ عَرَضَتْ لَهُ شُبُهَاتٌ يَعْذُرُهُ اللهُ بِهَا فَمَنْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَائِنًا مَا كَانَ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ **هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ r ، وَجَمَاهِيرُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَمَا قَسَّمُوا الْمَسَائِلَ إلَى مَسَائِلِ أُصُولٍ يَكْفُرُ بِإِنْكَارِهَا وَمَسَائِلِ فُرُوعٍ لَا يَكْفُرُ بِإِنْكَارِهَا.**

فَأَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَوْعٍ وَتَسْمِيَتِهِ مَسَائِلَ الْأُصُولِ وَبَيْنَ نَوْعٍ آخَرَ وَتَسْمِيَتِهِ مَسَائِلَ الْفُرُوعِ **فَهَذَا الْفَرْقُ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ لَا عَنْ الصَّحَابَةِ وَلَا عَنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَلَا أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ عَنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَعَنْهُمْ تَلَقَّاهُ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ الْفُقَهَاءِ فِي كُتُبِهِمْ** وَهُوَ تَفْرِيقٌ مُتَنَاقِضٌ فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ : مَا حَدُّ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي يَكْفُرُ الْمُخْطِئُ فِيهَا؟، وَمَا الْفَاصِلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ؟، فَإِنْ قَالَ: مَسَائِلُ الْأُصُولِ هِيَ مَسَائِلُ الِاعْتِقَادِ وَمَسَائِلُ الْفُرُوعِ هِيَ مَسَائِلُ الْعَمَلِ. قِيلَ لَهُ: فَتَنَازَعَ النَّاسُ فِي مُحَمَّدٍ r هَلْ رَأَى رَبَّهُ أَمْ لَا؟، وَفِي أَنَّ عُثْمَانَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ أَمْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ؟، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَصْحِيحِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ هِيَ مِنْ الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَلَا كُفْرَ فِيهَا بِالِاتِّفَاقِ وَوُجُوبُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَالْخَمْرِ هِيَ مَسَائِلُ عَمَلِيَّةٌ وَالْمُنْكِرُ لَهَا يَكْفُرُ بِالِاتِّفَاقِ . وَإِنْ قَالَ الْأُصُولُ: هِيَ الْمَسَائِلُ الْقَطْعِيَّةُ قِيلَ لَا: كَثِيرٌ مِنْ مَسَائِلِ الْعَمَلِ قَطْعِيَّةٌ وَكَثِيرٌ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ لَيْسَتْ قَطْعِيَّةً وَكَوْنُ الْمَسْأَلَةِ قَطْعِيَّةً أَوْ ظَنِّيَّةً هُوَ مِنْ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ عِنْدَ رَجُلٍ قَطْعِيَّةً لِظُهُورِ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ لَهُ كَمَنْ سَمِعَ النَّصَّ مِنْ الرَّسُولِ r وَتَيَقَّنَ مُرَادَهُ مِنْهُ. وَعِنْدَ رَجُلٍ لَا تَكُونُ ظَنِّيَّةً فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ قَطْعِيَّةً لِعَدَمِ بُلُوغِ النَّصِّ إيَّاهُ أَوْ لِعَدَمِ ثُبُوتِهِ عِنْدَهُ أَوْ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ الْعِلْمِ بِدَلَالَتِهِ.....إلى أن قال:

وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنَّ مَذَاهِبَ الْأَئِمَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَا التَّفْصِيلِ بَيْنَ النَّوْعِ وَالْعَيْنِ وَلِهَذَا حَكَى طَائِفَةٌ عَنْهُمْ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَفْهَمُوا غَوْرَ قَوْلِهِمْ فَطَائِفَةٌ تَحْكِي عَنْ أَحْمَد فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ رِوَايَتَيْنِ مُطْلَقًا حَتَّى تَجْعَلَ الْخِلَافَ فِي تَكْفِيرِ الْمُرْجِئَةِ وَالشِّيعَةِ الْمُفَضِّلَةِ لِعَلِيٍّ وَرُبَّمَا رَجَّحَتْ التَّكْفِيرَ وَالتَّخْلِيدَ فِي النَّارِ وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَ أَحْمَد وَلَا غَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ بَلْ لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ أَنَّهُ لَا يُكَفِّرُ الْمُرْجِئَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ وَلَا يُكَفِّرُ مَنْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ بَلْ نُصُوصُهُ صَرِيحَةٌ بِالِامْتِنَاعِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ تَكْفِيرِ الْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَ يُكَفِّرُ الْجَهْمِيَّة الْمُنْكِرِينَ لِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ ؛ لِأَنَّ مُنَاقَضَةَ أَقْوَالِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ r ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ: وَلِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ الْخَالِقِ وَكَانَ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِمْ حَتَّى عَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ وَأَنَّهُ يَدُورُ عَلَى التَّعْطِيلِ **وَتَكْفِيرُ الْجَهْمِيَّة مَشْهُورٌ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، لَكِنْ مَا كَانَ يَكْفُرُ أَعْيَانُهُمْ فَإِنَّ الَّذِي يَدْعُو إلَى الْقَوْلِ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَقُولُ بِهِ وَالَّذِي يُعَاقِبُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَدْعُو فَقَطْ وَالَّذِي يُكَفِّرُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يُعَاقِبُهُ** وَمَعَ هَذَا فَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّة: إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَإِنَّ اللهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَيَدْعُونَ النَّاسَ إلَى ذَلِكَ ويمتحنونهم وَيُعَاقِبُونَهُمْ إذَا لَمْ يُجِيبُوهُمْ وَيُكَفِّرُونَ مَنْ لَمْ يُجِبْهُمْ. حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا أَمْسَكُوا الْأَسِيرَ لَمْ يُطْلِقُوهُ حَتَّى يُقِرَّ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّة : إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَلَا يُوَلُّونَ مُتَوَلِّيًا وَلَا يُعْطُونَ رِزْقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ إلَّا لِمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ **وَمَعَ هَذَا فَالْإِمَامُ أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى تَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ وَلَا جَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنْ تَأَوَّلُوا فَأَخْطَئُوا وَقَلَّدُوا مَنْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا قَالَ لِحَفْصِ الْفَرْدِ حِينَ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ: كَفَرْت بِاَللهِ الْعَظِيمِ، بَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كُفْرٌ وَلَمْ يَحْكُمْ بِرِدَّةِ حَفْصٍ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ بِهَا وَلَوْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ لَسَعَى فِي قَتْلِهِ** وَقَدْ صَرَّحَ فِي كُتُبِهِ بِقَبُولِ شَهَادَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد فِي الْقَدَرِيِّ: إنْ جَحَدَ عِلْمَ اللهِ كَفَرَ وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ نَاظَرُوا الْقَدَرِيَّةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْعِلْمِ فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خَصَمُوا وَإِنْ جَحَدُوهُ كَفَرُوا، وَسُئِلَ أَحْمَد عَنْ الْقَدَرِيِّ: هَلْ يَكْفُرُ ؟ فَقَالَ: إنْ جَحَدَ الْعِلْمَ كَفَرَ وَحِينَئِذٍ فَجَاحِدُ الْعِلْمِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْجَهْمِيَّة]ا.هـ.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (ج١ - صفحة ١٢٣):[**وهؤلاء الجهال** يرى أحدهم أدنى شيء فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت إليهما ويقول : حدثني قلبي عن ربي ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت وأنتم أخذتم عن الوسائط ونحن أخذنا بالحقائق وأنتم اتبعتم الرسوم وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد **وغاية صاحبه أن يكون جاهلا يعذر بجهله** حتى قيل لبعض هؤلاء: لا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق، وهذا غاية الجهل فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن.

وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول وهو يدعي أنه يسمع الخطاب من مرسله فيستغني به عن ظاهر العلم ولعل الذي يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة أو هما مجتمعين ومنفردين.

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرا، وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يلقي في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَا وَقَعَ من الوَهْم على ابن القيم في دَعْوَى الإجماع على عَدَمَ العُذْر:

وهذا يبين لك الوهم الذي وقع فيه البعض مِنْ نِسْبَة الإجماع إلى ابن القيم في عدم العذر بالجهل لأهل القبلة، واعتمادهم على كلام موهم له في كتابه (طريق الهجرتين)، والصحيح أن المراد به الكفار الأصليين، لا أهل القبلة، ولكن القوم لا يفرقون.

وقال الذهبي رحمه الله في كتاب الكبائر:[واعلم أن كثيرا من الكبائر ، بل عامتها إلا الأقل، يجهل كثير من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد، فهذا الضرب فيهم تفصيل؛ فينبغي للعالم أن لا يستعجل على الجاهل، بل يرفق فيه ويعلمه مما علمه الله، ولا سيما إذا كان قريب عهدٍ بجاهلية، قد نشأ في بلاد الكفر البعيدة، وأسر وجُلِب إلى أرض الإسلام، وهو تركي كافر أو كرجي مشرك لا يعرف بالعربي، فاشتراه أميره تركي لا علم عنده ولا فهم، فبالجهد إن تلفظ بالشهادتين، فإن فهم بالعربي حتى يفقه معنى الشهادتين بعد أيام وليال؛ فبها ونعمت، ثم قد يصلي وقد لا يصلي، وقد يلقن الفاتحة مع الطول إن كان استاذه فيه دين ما، فإن كان استاذه شبيهاً به، فمن أين لهذا المسكين أن يعرف شرائع الإسلام والكبائر واجتنابها، والواجبات وإتيانها ؟!.

فإن عرف هذا موبقات الكبائر وحُذر منها، وأركان الفرائض واعتقدها، فهو سعيد، وذلك نادر، فينبغي للعبد أن يحمد الله تعالى على العافية.

فإن قيل: هو فرَّط لكونه ما سأل عما يجب عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قيل: هذا ما دار في رأسه، ولا استشعر أن سؤال من يعلمه يجب عليه، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف بعباده رؤوفٌ بهم، قال الله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}، وقد كان سادة الصحابة بالحبشة، وينزل الوجوب والتحريم على النبي e فلا يبلغهم تحريمه إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأشهر معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص ، فكذا يعذر بالجهل كل من لم يعلم حتى يسمع النص.والله أعلم] ا.هـ.

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[إني دائماً - ومن جالسني يعلم ذلك مني - من أعظم الناس نهياً **عن أن يُنسب معيَّن إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى**، وإني أقرر أن الله تعالى قد غفر لهذه الأمة خطأها، **وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية**، وما زال السلف يتنازعون في كثير من المسائل ، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية]....إلى أن قال:[**وكنت أبيِّن أن ما نُقل عن السلف والأئمَّة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا: فهو أيضاً حقٌّ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين** "".....إلى أن قال :[والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول r لكن الرجل قد يكون حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، **ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئاً]ا.هـ.

وقال في مجموع الفتاوى:[وَإِنَّمَا " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ مَا ثَبَتَ قُبْحُهُ مِنْ الْبِدَعِ وَغَيْرِ الْبِدَعِ مِنْ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ الْمُخَالِفِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إذَا صَدَرَ عَنْ شَخْصٍ مِنْ الْأَشْخَاصِ فَقَدْ يَكُونُ عَلَى وَجْهٍ يُعْذَرُ فِيهِ ؛ إمَّا لِاجْتِهَادِ أَوْ تَقْلِيدٍ يُعْذَرُ فِيهِ وَإِمَّا لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ كَمَا قَدْ قَرَّرْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَقَرَّرْته أَيْضًا فِي أَصْلِ " التَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ " الْمَبْنِيِّ عَلَى أَصْلِ الْوَعِيدِ . فَإِنَّ نُصُوصَ " الْوَعِيدِ " الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَنُصُوصَ الْأَئِمَّةِ بِالتَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا يُسْتَلْزَمُ ثُبُوتُ مُوجَبِهَا فِي حَقِّ الْمُعَيَّنِ إلَّا إذَا وُجِدَتْ الشُّرُوطُ وَانْتَفَتْ الْمَوَانِعُ **لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ]**ا.هـ.

وفي مجموع الفتاوى:[وَسُئِلَ الشَّيْخُ: عَنْ جَمَاعَةٍ اجْتَمَعُوا عَلَى أُمُورٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِي الْفَسَادِ وَتَعَلَّقَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ يُونُسَ الْقَتَّاتَ يُخَلِّصُ أَتْبَاعَهُ وَمُرِيدِيهِ مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ وَأَلِيمِ الْعِقَابِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ عَلِيًّا الْحَرِيرِيَّ كَانَ قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْحَالِ مَا إنَّهُ إذَا خَلَا بِالنِّسَاءِ والمردان يَصِيرُ فَرْجُهُ فَرْجَ امْرَأَةٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَيَدَّعِي أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ الظُّهُورِ فِي وَقْتٍ فَيَعْلُو دِينُهُ وَشَرِيعَتُهُ ؛ وَأَنَّ مِنْ شَرِيعَتِهِ السَّوْدَاءِ تَحْرِيمَ النِّسَاءِ وَتَحْلِيلَ الْفَاحِشَةِ اللُّوطِيَّةِ وَتَحْرِيمَ شَيْءٍ مِنْ الْأَطْعِمَةِ وَغَيْرِهَا؛ كَالتِّينِ وَاللَّوْزِ وَاللَّيْمُونِ. وَتَبِعَهُ طَائِفَةٌ: مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُصَلِّي فَتَرَكَ الصَّلَاةَ وَيَجْتَمِعُ بِهِ نَفَرٌ مَخْصُوصُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَيَّامِ إلَخْ. فَأَجَابَ: أَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ إنَّ يُونُسَ الْقَتَّاتِيَّ يُخَلِّصُ أَتْبَاعَهُ وَمُرِيدِيهِ مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ وَأَلِيمِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيُقَالُ جَوَابًا عَامًّا: مَنْ ادَّعَى أَنَّ شَيْخًا مِنْ الْمَشَايِخِ يُخَلِّصُ مُرِيدِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْعَذَابِ: فَقَدْ ادَّعَى أَنَّ شَيْخَهُ أَفْضَلُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ قَالَ هَذَا فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ :"يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ الله لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا سَلُونِي مَا شِئْتُمْ مِنْ مَالِي"، وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ:"لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ: لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُك الْحَدِيثَ بِتَمَامِهِ"، وَذُكِرَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَقْوَالِ. فَإِذَا كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ مِثْلَ هَذَا لِأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ؛ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - يَقُولُ إنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ الله شَيْئًا - فَكَيْفَ يُقَالُ: فِي شَيْخٍ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} {ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله} وَقَالَ: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَّا الشَّفَاعَةُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ:"أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ آدَمَ لِيَشْفَعَ فَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي وَكَذَلِكَ يَقُولُ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى - وَهَؤُلَاءِ هُمْ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ – وَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: اذْهَبُوا إلَى مُحَمَّدٍ؛ عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَإِذَا رَأَيْت رَبِّي خَرَرْت لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: أَيْ مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَك وَقُلْ يُسْمَعُ وَاسْأَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ ؛ فَيَحِدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ"،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَذُكِرَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ. فَهَذَا خَيْرُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى الله إذَا رَأَى رَبَّهُ لَا يَشْفَعُ حَتَّى يَسْجُدَ لَهُ وَيَحْمَدَهُ ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ ؛ فَيَحِدُّ لَهُ حَدًّا يُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ . وَهَذَا تَصْدِيقُ قَوْله تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ} إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ تَشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ؛ لَكِنْ بِإِذْنِهِ فِي أُمُورٍ مَحْدُودَةٍ لَيْسَ الْأَمْرُ إلَى اخْتِيَارِ الشَّافِعِ . فَهَذَا فِيمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَشْفَعُ فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ : إنَّ مُحَمَّدًا يُخَلِّصُ كُلَّ مُرِيدِيهِ مِنْ النَّارِ : لَكَانَ كَاذِبًا بَلْ فِي أُمَّتِهِ خَلْقٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ ثُمَّ يَشْفَعُ فِيهِمْ ؛ وَأَمَّا الشُّيُوخُ فَلَيْسَ لَهُمْ شَفَاعَةٌ كَشَفَاعَتِهِ وَالرَّجُلُ الصَّالِحُ قَدْ يُشَفِّعُهُ اللهُ فِيمَنْ يَشَاءُ وَلَا شَفَاعَةَ إلَّا فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ.

وَأَمَّا الْمُنْتَسِبُونَ إلَى الشَّيْخِ يُونُسَ: فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَافِرٌ بِاَللهِ وَرَسُولِهِ لَا يُقِرُّونَ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ بَلْ لَهُمْ مِنْ الْكَلَامِ فِي سَبِّ الله وَرَسُولِهِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ مَا يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَهُمْ.

وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ عَامَّتِهِمْ - لَا يَعْرِفُ أَسْرَارَهُمْ وَحَقَائِقَهُمْ - فَهَذَا يَكُونُ مَعَهُ إسْلَامُ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي اسْتَفَادَهُ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ خَوَاصَّهُمْ مِثْلُ الشَّيْخِ سلول وجهلان والصهباني وَغَيْرِهِمْ : فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا يُوجِبُونَ الصَّلَاةَ ؛ بَلْ وَلَا يَشْهَدُونَ لِلنَّبِيِّ r بِالرِّسَالَةِ. وَفِي أَشْعَارِهِمْ - كَشِعْرِ الكوجلي وَغَيْرِهِ - مِنْ سَبِّ النَّبِيِّ r وَسَبِّ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ: مَا لَا يَرْضَى بِهِ لَا الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى. ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ لِيُونُسَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ مَكْذُوبٌ عَلَى يُونُسَ لَكِنَّ مِنْ الْمَعْلُومِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُشَاهَدِ أَنَّهُمْ يَنْشُدُونَ الْكُفْرَ وَيَتَوَاجَدُونَ عَلَيْهِ وَيَبُولُ أَحَدُهُمْ فِي الطَّعَامِ وَيَقُولُ يَشْرَحُ كَبِدِي يُونُسَ أَوْ مَاءِ وَرْدِ يُونُسَ وَيَسْتَحِلُّونَ الطَّعَامَ الَّذِي فِيهِ الْبَوْلُ وَيَرَوْنَ ذَلِكَ بَرَكَةً. وَأَمَّا كفرياتهم: مِثْلُ قَوْلِهِمْ وَأَنَا حَمَيْت الْحِمَى وَأَنَا سَكَنْت فِيهِ وَأَنَا تَرَكْت الْخَلَائِقَ فِي مَجَارِي التِّيهِ مُوسَى عَلَى الطُّورِ لَمَّا خَرَّ لِي نَاجَا وَصَاحِبُ أَقْرَبِ أَنَا جَنَّبُوهُ حَتَّى جا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرَى الْخَلَائِقَ أَفْوَاجًا إلَى نَبِيِّهِ عِيسَى يَقْضِي لَهُمْ حَاجَا. وَيَقُولُونَ: تَعَالَوْا نُخَرِّبُ الْجَامِعَ وَنَجْعَلُ مِنْهُ جماره وَنَكْسِرُ خَشَبَ الْمِنْبَرِ وَنَعْمَلُ مِنْهُ زناره وَنُحَرِّقُ وَرَقًا وَنَعْمَلُ مِنْهُ طنباره نَنْتِفُ لِحْيَةَ الْقَاضِي وَنَعْمَلُ مِنْهُ أوتاره. أَنَا حَمَلْت عَلَى الْعَرْشِ حَتَّى صح وَأَنَا صَرَخْت فِي مُحَمَّدٍ حَتَّى هَجَّ وَأَنَّ الْبِحَارَ السَّبْعَةَ مِنْ هَيْبَتِي تَرْتَجُّ.

وَأُمُورٌ أُخَرُ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ قَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا: إنَّ لله وَلَدًا. وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ إنَّ مِنْ الشُّيُوخِ مَنْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فَرْجُهُ فَرْجَ امْرَأَةٍ: فَكَذِبٌ مُخْتَلَقٌ؛ بَلْ فِي طَرِيقِهِ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ مَا يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَصْحَابَهُ يَنْقُلُونَ عَنْهُ كفريات سَطَّرُوهَا عَنْهُ كَقَوْلِهِ: لَوْ قَتَلْت سَبْعِينَ نَبِيًّا مَا كُنْت مُخْطِئًا وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَتْلَ نَبِيٍّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنْ النَّبِيِّ r :"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ". وَإِذَا قِيلَ: هَذَا قَالَهُ مُشَاهَدَةً لِلْحَقِيقَةِ الْقَدَرِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ. أَنَّ اللهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ كَانَ الْعُذْرُ أَقْبَحَ مِنْ الذَّنْبِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً: لَمْ يَكُنْ عَلَى إبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَلَامٌ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا الْمُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ لَوْ تَعَدَّى عَلَيْهِ أَحَدٌ لَقَاتَلَهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً: فَهُوَ حُجَّةٌ يَفْعَلُ بِهِ مَا يُرِيدُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً لَمْ يُؤْذِ آدَمِيًّا فَكَيْفَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَكُونُ حُجَّةً لِمَنْ يَكْفُرُ بِاَللهِ وَرَسُولِهِ؟. وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّمَا حَجَّ مُوسَى لِأَنَّ مُوسَى لَامَهُ لِمَا أَصَابَهُ مِنْ الْمُصِيبَةِ لَمْ يَلُمْهُ لِحَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي الذَّنْبِ فَإِنَّ آدَمَ تَابَ وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ بَلْ قَالَ لَهُ : بِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى .....

فَصْلٌ: وَأَمَّا الَّذِي يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَأَنَّهُ يُبِيحُ الْفَاحِشَةَ اللُّوطِيَّةَ وَيُحَرِّمُ النِّكَاحَ وَمَا ذُكِرَ مِنْ ذَلِكَ: فَهَذَا أَمْرٌ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ الْكَافِرِينَ وَأَخْبَثِ الْمُرْتَدِّينَ وَقَتْلُ هَذَا وَمَنْ اتَّبَعَهُ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ إمَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِالْحُجَّةِ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ وَيَهْدِيَهُ؛ وَإِمَّا أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَيُقْتَلُ. فَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ لَزِمَهُ ذَلِكَ وَمَنْ عَجَزَ عَنْ هَذَا وَهَذَا فَلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا؛ لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ الْمَعْرُوفَ وَيُحِبَّهُ وَيُنْكِرَ الْمُنْكَرَ وَيَبْغُضَهُ وَيَفْعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَمْرَيْنِ - مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - كَمَا قَالَ النَّبِيُّ r فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ". وَاَللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: (الدرر السنية):[وأما التكفير:فأنا أكفِّر مَن عرف دين الرسول، ثم بعدما عرفه سبَّه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفره]. وفي (ص٦٦) قال:[وأما الكذب والبهتان فقولهم:إنا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، فكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، **وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبد القادر، والصنم الذي على أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل؟!"]ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين في لقاءات الباب المفتوح (٣٣/ ١٨):[السؤال:ما حكم المرجئة؟، وما حكم من يصف الذين يعذرون بالجهل بأنهم دخلوا مع المرجئة في مذهبهم؟.

الجواب: أولاً: لا بد أن نعرف من هم المرجئة؟، المرجئة هم الذين يقولون: الإيمان عمل القلب، ولكن قولهم هذا باطل لا شك فيه؛ لأن النصوص تدل على أن الإنسان إذا عصى الله عز وجل نقص إيمانه، وأما العذر بالجهل فهذا مقتضى عموم النصوص، ولا يستطيع أحد أن يأتي بدليل يدل على أن الإنسان لا يعذر بالجهل، قال الله تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }، وقال تعالى:{رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ]، ولولا العذر بالجهل لم يكن للرسل فائدة، ولكان الناس يلزمون بمقتضى الفطرة ولا حاجة لإرسال الرسل، فالعذر بالجهل هو مقتضى أدلة الكتاب والسنة، وقد نص على ذلك أئمة أهل العلم: كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، لكن قد يكون الإنسان مفرطاً في طلب العلم فيأثم من هذه الناحية أي: أنه قد يتيسر له أن يتعلم؛ لكن لا يهتم، أو يقال له: هذا حرام؛ ولكن لا يهتم، فهنا يكون مقصراً من هذه الناحية، ويأثم بذلك. أما رجل عاش بين أناس يفعلون المعصية، ولا يرون إلا أنها مباحة ثم نقول: هذا يأثم، وهو لم تبلغه الرسالة هذا بعيد، ونحن في الحقيقة -يا إخواني- لسنا نحكم بمقتضى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عواطفنا إنما نحكم بما تقتضيه الشريعة، والرب عز وجل يقول: (إن رحمتي سبقت غضبي) فكيف نؤاخذ إنساناً بجهله وهو لم يطرأ على باله أن هذا حرام، بل إن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قال: نحن لا نكفر الذين وضعوا صنماً على قبر عبد القادر الجيلاني وعلى قبر البدوي لجهلهم وعدم تنبيههم. والمرجئة لم أعلم أن أحداً أخرجهم من الإسلام، وهم لا شك أنهم مخطئون، وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، كما يدل على ذلك نصوص كثيرة، وأن عدم عمل الصالحات ينقص من الإيمان]ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين في (لقاءات الباب المفتوح (٤٨ / ١٦)):[حكم من يقول الشهادتين ويذبح لغير الله:السؤال: ما رأي فضيلتكم بمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم يذبح لغير الله، فهل يكون مسلماً؟ مع العلم أنه نشأ في بلاد الإسلام؟.

الشيخ: الذي يتقرب إلى غير الله بالذبح مشرك شركاً أكبر، ولا ينفعه قول: لا إله إلا الله ولا صلاة ولا صوم ولا غيره، اللهم إلا إذا كان ناشئاً في بلاد بعيدة، لا يدري عن هذا الحكم، كمن يعيش في بلاد بعيدة يذبحون لغير الله، ويذبحون للقبور، ويذبحون للأولياء، وليس عندهم في هذا بأس، ولا يعلمون أن هذا شرك أو حرام، ولم تقم عليهم الحجة في ذلك فإن هذا يُعذر بجهله. أما إنسان يقال له: هذا كفر. فيقول: لا، ولا أترك الذبح للولي، فهذا قد قامت عليه الحجة فيكون كافراً، فإذا نُصح وقيل له: إن هذا شرك، وبينت له الأدلة في ذلك، وأقيمت عليه الحجة الشرعية فلم يعبأ ولم يهتم، صار مشركاً كافراً مرتداً يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. السائل: وهل هناك فرق بين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسائل الظاهرة والمسائل الخفية؟ الشيخ: الخفية بينة، مثل هذه المسألة لو فرضنا أنه يقول: أنا أعيش في قوم يذبحون للأولياء ولا أعلم أن هذا حرام فهذه تكون خفية؛ لأن الخفاء والظهور أمر نسبي قد يكون ظاهراً عندي ما هو خفيٌ عليك وظاهرٌ عندك ما هو خفي عليَّ. السائل: وكيف أقيم الحجة عليه؟ وما هي الحجة التي أقيمها عليه؟ - الشيخ: الحجة عليه ما جاء في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، وقال تعالى:[إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ]، فهذا دليل على أن النحر للتقرب والتعظيم عبادة، ومن صرف عبادة لغير الله فهو مشرك.

فتجب إقامة الحجة قبل التكفير، وذلك في كل المسائل التي يمكن أن يجهلها الناس، فلا نقسم المسائل إلى مسائل ظاهرة ومسائل خفية؛ لأن الظهور والخفاء أمر نسبي، قد تكون المسألة ظاهرة عندي وخفية عند غيري، فلابد إذاً من إقامة الحجة وعدم التسرع في التكفير؛ لأن إخراج رجل من ملة الإسلام ليس بالأمر الهين، وهناك موانع تمنع من تكفير الشخص وإن قال أو فعل ما هو كفر، منها: الخطأ، فالرجل الذي قال: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) قال كلاماً كفرياً، ومع ذلك لم يكفر؛ لأنه أخطأ من شدة الفرح.

وكذلك إذا أكره رجل على الكفر فتكلم به لم يكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، لقوله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِالله مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً}، والعلماء الذين يقولون: كلمة كفر دون صاحبها، هذا إذا لم تقم عليه الحجة ولم نعلم عن حاله، أما إذا علمنا عن حاله فما الذي يبقى؟ نقول: لا يكفر؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معناه: لا أحد كافر؟ أي: لا يبقى أحد يكفر، حتى المصلي الذي لا يصلي نقول: لا يكفر؟ حتى ابن تيمية يقول: إذا بلغته الحجة، قامت عليه الحجة]ا.هـ.

تنبيه مهم للغاية

واعلم أرشدك لطاعته، أن التكلم في هذا المقام (العذر بالجهل المُعْتَبَر)، هو كلام عن أعظم قضية على الإطلاق، ألا وهي قضية الإيمان والكفر، وما أعظمها من قضية، وما أخطرها من مسألة، وإنما قلت ذلك؛ لأن البعض قد يتلاعب به الشيطان، فيظن أن السلف عندما تناولوا قضية وجود أعذار معتبرة شرعا؛ تدرأ تنزيل حكم الكفر على المُعَيَّن - ممن تلبس بشيء من المكفرات من أهل الإسلام – أن هذا مما يرقق حكم ذلك المُكَفِّر الذي أتاه هذا المعين، وأنه سيبقى بمنأى عن الكفر طالما أن هناك أعذارا في ذلك، ونسي هذا المسكين المفتون أن الحديث في هذا المقام إنما هو عن مسألة إلحاق الحكم بالفاعل للمكَفِّر، لا عن الفعل المُكَفِّر، إذ الأمة مجمعة على أن هذا الشخص الذي قد اختلف في تكفيره قد أتى كفرا وشركا أكبر، باتفاق القرون المفضلة ومن تبعهم بإحسان.

إذن هذا العبد المختلف في تنزيل حكم الكفر عليه من عدمه، قد أتى في ميزان الشرع الشرك والكفر بالله رب العالمين، وأنه وإن انطلى حاله وأشكل أو خفي وغمض على العباد في هذه الحياة الدنيا، فإن أمره عند الله تبارك وتعالى مكشوف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفضوح، فإنما أنت كتاب مفتوح بين يدي من يعلم السر وأخفى الـذي لا تخفـي عليـه خافية، ولو كانت في خائنة الأعين ولحظها.

فلن يغني عن هذا العبد شيئا أن يُدْرَأ عنه حكم التكفير، وهو عند الله كـافر مقيـت لعين، فإنما هي نجاة مزيفة في الدنيا، ثم يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد، أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة، حتى يلج الجمل في سم الخيـاط، كما قال ربنا تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْـوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُجْـرِمِينَ} [الأعراف:٤٠].

فإنما يقضي العباد بما يبدوا لهم من ظاهر حال هذا العبد، وتبقى السرائر معلومة عند علام الغيوب، الذي يعلم السـر وأخفى، كما قال النبي r فيما جاء في الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:قال رسول الله r :"إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه فمن قطعت له من حـق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار".

إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَ:

ولهذا إياك أن تغتر أيها الواقع في المُكَفِّر بمثل هذا الخلاف الجـاري في هـذه المسـألة، فإنما هو خلاف لتحرير المسألة والعمل بما يجب من شرع الله تبـارك وتعـالى فيهـا، ومـا يتبع ذلك من اللوازم والمقتضيات الشرعية، ويبقى شأن الآخرة على ما قال ربنا تبـارك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً} [النساء:٤٢]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [الزمر:٤٧-٤٨].

وقوله تعالى: {وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ{٢٧} وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٨} هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٩} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ{٣٠} وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} [الجاثية:٢٧-٣١].

وعليه فلنعلم أن العذر بالجهل، لا يعني على كل حال النجاة والسلامة.

لا يصح إطلاق وصف الكفر على المعاصي إلا ما خصه الدليل:

واعلم رحمك الله، أن مسمى الكفر والإيمان، هي مُسَمَّياتٌ شرعية، والأصل أنه لا يصح إطلاقها على غير مَوَارِد الشرع، فلا نسمي شيئا أنه كفر، إلا بنص صريح في ذلك، إذ أن إطلاق القول في ذلك، والتعميم فيه؛ مظنة حصول تصور فاسد، وذريعة للقول على الله بغير علم، لمن ساء فهمه؛ فيصير إلى قول الخوارج، والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فالقول بأن المعاصي كلها من شعب الكفر، كما قرره بعض الفضلاء من العلماء المتأخرين، فيه نظر كبير، بل لا نسمي شيئا بأنه كفر إلا بنص صحيح صريح، ولكن نقول معاصي، وفسق، وجاهلية، بحسب موارد أدلة الشرع. والله أعلم.

جاء في صحيح البخاري:[بَاب الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ t إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}]ا.هـ.

قوله:(مشرك كافر)، تقدم أن هذا كثيرا ما يكون من الترادف اللفظي، وإليك النصوص الدالة على الترادف والتباين، بعد أن تقرر أنه لا فرق بينهما في أحكام الدنيا والآخرة، قال تعالى:{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُّ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَّ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة:٧٢-٧٣]، فهاتان الآيتان الأولى منهما، افتتحت بذكر الكفر، ثم ختمت بذكر الشرك، والمخاطب واحد، وفي الثانية، ذكر الكفر في سياق التثليث وهذا شرك.

وقال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُّ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٠-٣١]، وكذلك هنا الآية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأولى، قررت أن من قال إن لله ولدا، فهو كافر، مع أن هذا الفعل شرك، والآية الثانية، سَمَّت اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا شركا، مع أن الله تعالى في آية المائدة يقول: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة: ١]، فمن المعلوم أن الكل في هذه الآية مشرك كافر، فأهل الكتاب مشركون، والمشركون كفار.

ومن أدلة المغايرة: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣٢-٣٣].

قلت: فغاير بين الكفر واتخاذ الأنداد، وليس ببعيد أن يقال، إن هذا من عطف أفراد الشيء على الأصل، أو يبقى على المغايرة، ولكنه غير مؤثر في أحكام الدنيا ولا الآخرة، كما تقدم.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الأعراف: ٣٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسمية السلف الملحد في الأسماء والصفات الإلهية مشركا:

وسمى السلف من ألحد في أسماء الله وصفاته مشركا كذلك، كما في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: "يُلْحِدُونَ، قَالَ: يُشْرِكُونَ"]. قلت: **وهذا إسناد صحيح.**

قوله:**{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ الهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}**، اسْتُفْتِحَت هذه الآية بصيغة العموم، وهذا كما تقدم معنا مرارا، أن الله تعالى لا يقبل من أحد أن يتخذ معه أندادا، بأي دَعْوَى كانت، فيستوي في ذلك الصَّالح والطَّالح، والحجر والشجر والبشر، وهذه حقيقة لابد من تكرارها؛ لأن الفتنة بالصالحين، لم تزل موجودة، فالشيطان يَدُقُّ على هذا الوَتَرِ كثيرا؛ لإضلال العباد، ويستغل في ذلك العاطفة الدينية، والتعصب المذموم؛ فيقع في حَبَائِله، وشِرَاك الشِّرْك التي نصبها، فِئَام من العباد، واعتبر بقوله تعالى:{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سبأ:٢٠]، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وصف القرآن للمشركين حال سماعهم التوحيد:

حتى صار كثير من الأمم إلى قول الله تعالى:{وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر:٤٥]، فنعوذ بالله من الخذلان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعم صار أكثرهم، إذا دُعوا إلى الله وحده، غضبوا وأرْغَوا وأزْبَدُوا، واقْشَعَرَّت جلودهم، اشمئزازا ونفرة من ذلك، ويَرْمُون من أتاهم بذلك بالعظائم، فتسمع من يقول:أنتم لا تحبون الأنبياء ولا الملائكة، ولا تعظمون الأولياء ولا الصالحين، هذا فيما يتعلق بشرك القباب والقبور، والأضرحة والمشاهد الشركية.

وأما في جانب شرك التشريع، فيقولون:أنتم مُتَخَلِّفُون رَجْعِيون، وما عندكم فقه للواقع، ولا تصور صحيح للمسائل، وترى طَاغُوتَهم الذي نَصَّبَ نفسه مشرعا من دون الله، يَغْلِي غَضَبا وحَنَقا، وَوَدَّأن لو بَطَش بهؤلاء، فَصَدَق عليه قوله تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحج: ٧٢]، ولو وَجَدَوا سبيلا إلى قتلهم لَفَعَلُوا، وقد فعل بعضهم ذلك، والله تعالى يقول:{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران:٢١-٢٢].

وتأمل في هذه الآيات، التي يقص الله تبارك وتعالى، فيها حالة المشركين، إذا دُعُوا إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:{ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر:١٢]، وقال:{إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات:٣٥-٣٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك تأمل هذه الآيات، قال تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الإسراء:٤٥-٤٨].

التوحيد عام في كل شيء:

ألا فلنعلم أنه لا إله إلا الله في الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر، ولا إله إلا الله في الدعاء والاستغاثة والاستعاذة والذبح والنذر ، ولا إله إلا الله في التشريع والحكم، بل لا إله إلا الله في الأرض والسماء، في كل وقت وعلى كل حال، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزخرف:٨٤-٨٥].

قوله:{لا برهان له به}: هذا تَهْيِيجٌ على البَحث والتَّنْقِيب، وهو يتضمن التَّحَدِي والتَّهْدِيد، والمعنى دُونَكُم شَوَاهِدُ الكَون، ومُجْرَيات الأحداث في السموات والأرض، وهذه آيات الله تُتْلَى غَضَّةً نَدِيَّةً، فابْحَثُوا هل تَجِدُون برهانا على ما تدعونه، بأن مع الله أندادا وآلهة أخرى، وهذا كقوله تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف:٤٥]، وقوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس:٩٤-٩٧].

وهذا التحدي والتهييج، تحصل به هدايات عظيمة، بل حتى لبعض صناديد الكفر والإلحاد والزندقة، إذ مَنْ هَذا الذي يَجْرُؤُ على أن يَتَحَدَّى بِكِتَابِه، العالم كله، أن يَأْتُوا بمثله، أو أن يجدوا فيه عيبا أو نقصا، أو تعارضا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، إن هذا حقا لإِغْرَاءٌ عظيم، بالْمُحَاوَلَةِ الجَادَّةِ لإيجَاد أدْنَى أدْنَى نَقْدٍ له، هذا مع عظيم العداوة، وشدة الحرص على الصد عن سبيل الله، مع الشهوة العارمة في الانتصار للنفس، ودين الآباء والأجداد، حتى إذا ما عجزوا وأفلسوا؛ علموا يقينا أنه من عند الله علام الغيوب، خالق الخلق، العظيم الكبير المتعال، وأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، وقال سبحانه: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء:٨٨].

معنى لطيف في هذه الآية وأمثالها:

والمعنى أن الله تعالى قد علم أنه لا برهان أصلا على ذلك، ولكن لإيصالهم إلى هذه النتيجة بواقع عملي؛ لعلهم أن يهتدوا، فسبحانه أرحم الراحمين، وهو شديد العقاب، وهذا من المعاني الدقيقة واللطيفة، فلله الحمد والمنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، تهديد وتخويف، وبيان أنه لا فلاح للكافرين، مهما اجتهدوا وتحزبوا، وأنفقوا أموالهم وطاقاتهم وقدراتهم، فإن الله تبارك وتعالى كتب عليهم الخسران، وحَرَّمَ عليهم الفلاح، فلا يفلحون أبدا، وأعظم خسرانهم وعدم فلاحهم، يوم القيامة، عندما يفضحون على رؤوس الأشهاد، ويساقون إلى جهنم سَوْقَ النِّعَاج، بل النِّعَاجُ منهم أكْرَم، كما قال تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود:١٨-١٩].

ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، كقوله تعالى:{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء:٢٤]، وقوله:{أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل:٦٤]، وقوله:{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [القصص:٧٤-٧٥]، وقوله:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [فاطر:٤٠]، وقوله:{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات:١٥٨-١٥٩]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف:٤]، وقوله: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ:٤٥-٤٦]. ونحو ذلك من الآيات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية

إسْعَافُ السَّـؤُول

بشـرح

ثلاثـةِ الأصُـول

لأبي عبد الله صادق بن عبد الله

المجلد الثاني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَفِي الْحَدِيثِ:(الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ).وَالدَّلِيلُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠]. وَدَلِيلُ الْخَوْفِ:قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٧٥]. وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[الكهف:١١٠]. ودَلِيلُ التَّوَكُلِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[المائدة:٢٣]. وقوله:{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق:٣]. وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠]. وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} الآية [البقرة:١٥٠]. وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ}الآية [الزمر:٥٤]. وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة:٥]. وَفِي الْحَدِيثِ:"وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ".وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الفلق:١]. وَ:{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}[الناس:١]. وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} الآية [الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:١٦١-١٦٣].

وَمِنَ السُنَّةِ:{لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ}.وَدَلِيلُ النَّذْرِ:قَوْلُهُ تَعَالَى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً} [الإنسان:٧].

الشرح

قوله:(وفي الحديث الدعاء **مُخُّ العبادة**): شرع المؤلف رحمه الله تعالى يفصّل ما أجمله من قبل، مستعملا الأدلة من الكتاب والسنة كما هي الجَادَّة؛ لِيُبَيِّن أن هذه الأعمال التي سيذكرها على سبيل المثال لا الحصر، قَلْبِيَّةً كانت أو جَوَارِحِيَّة؛ فإنها عبادة لله جل وعلا، وينْطَبِقُ عليها الحكم المتقدم في قوله:(فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر)، وكما تقدم كل عبادة ثبتت بالكتاب والسنة أنها عبادة لله تعالى، فإن صرفها لغير الله تعالى شرك وكفر أكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة: بم تعرف العبادة؟.

الجواب: إن المتأمل في أحوال الأمم في الكتاب والسنة، بل وفي الواقع اليوم؛ يجد أن الطريقة التي يُحدِّد بها كثير من الناس، ما يعظمون، وبِمَ يَتَعَبَّدُون، ومَنْ يَعْبُدُون، هي طريقة جاهلية شيطانية، مَبْنِيَّةٌ على الهوى، والعادات والتقاليد، وفعل الآباء والأجداد، والتجربة والخبرة، وفعل الأكثر، واتباع السادات والسلاطين والكبراء، ونحو ذلك من سبل الجاهلية الضالة المنحرفة، بعيدا عن الحق وإصابته، وإليك شيئا من النصوص الدالة على ذلك:قال تعالى:{إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [النساء:١١٧-١٢١]، وقوله:{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: ٦٤]، وقوله:{وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الأنعام:١٣٦] إلى قوله:{وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:١٣٨-١٣٩]، وقوله:{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}[الأنعام:١٤٨]، وقوله:{أَلَا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦]، وقوله:{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [المائدة:١٠٣].

ولهذا كان لزاما علينا أن نعلم، ونتبين السبيل، التي بها نتعرف على العبادات؛ لنصرفها لله الواحد القهار لا شريك له، فإن المؤمن مطالب ألا يعمل عملا إلا بعلم وبصيرة، ومن أجمع الآيات الدالة على هذه السبيل قوله تعالى:{وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف:٢٨-٣٣]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَّ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل:٩٠-٩١]، وقوله:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:١٩-٢٢]، وقوله:{ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٥]، وقوله:{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزمر:٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وبهذا نتبين أن من أجمع التعاريف للعبادة، ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فيما تقدم، من أنها:(اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فمدار المسألة إذن على ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، ففعل المَرْضِيِّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند الله تعالى، عبادة، وترك ما نهى الله تعالى عنه، عبادة أيضا، إذا ابتغى العبد بذلك وجه الله تعالى، وكان في ذلك على علم وبصيرة.

وعليه فنقول: تُعْرَفُ العبادة بأحد خمسة أمور:

الأمر الأول: أمر الله تعالى بها، إما في كتابه أو فيما صح من سنة نبيه **r**، كالركوع والسجود وغيرها من المأمورات:

مثال ذلك، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج:٧٧-٧٨]، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأنفال:١]، وقوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة:٤٣]، وقوله: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن:٩]، وقوله: {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} [النساء:٢]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:٣٥]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦]، وقوله: {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور:٣١]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [المجادلة:١١]، ونحو ذلك مما أمر الله تعالى به، إما أمر إيجاب، أو أمر استحباب، فإن الله تعالى لا يأمر إلا بما يحب ويرضى جل الله في علاه.

الأمر الثاني: ثناء الله تعالى، على فعل من الأفعال، قولية كانت أو عملية، كقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم:٥٤-٥٥]، وقوله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٢-٤]، وقوله: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة:٢٢٢]، وقوله: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:٧٦]، وقوله: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩]، وقوله: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٤٩]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الثالث: حث الله تبارك وتعالى على الفعل أو الفاعلين، وهذا ربما يكون فيه تداخل مع الأمر الثاني، كقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[البقرة:٢٧٠-٢٧١]، وقوله:{وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة:١٢١]، وقوله:{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:٤]، وقوله:{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠]، وقوله:{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران:١٣٤-١٣٦]، وقوله:{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٤٦-١٤٨]، وقوله:{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٨٣-٨٥]، وقوله:{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الكهف:١٣-١٥]، وقوله:{ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ١٧ - ١٨] ، وقوله:{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف:١٧٠]، وقوله:{قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور:٢٦-٢٨]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الرابع:أن ينهي الله تعالى عن أي فعل ما، فإن اجتنابه عبادة كما تقدم، كما قال تعالى:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥١-١٥٣]، وقوله:{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء:٣١-٣٩]، وقوله: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [هود:١١٣]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٣٨-٤٠]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الخامس: أن يذم الله تبارك وتعالى شيئا ما، قولا كان أو عملا أو شخصا، فنعلم بذلك أن اجتنابه عبادة لله تعالى، كقوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأعراف: ١٦٩]، وقوله: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم:٥٩]، وقوله: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة:١٢٠]، وقوله: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢]، وقوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر:١١-١٧]، وقوله: {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [الشمس:١٢]، وقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء:١٤٥]، وقوله: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة:٥]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن السنة أكتفي بحديث جامع مانع، ألا وهو الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ: "دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أنه لابد من التَّقَيُّد بالهدي النبوي، في الفعل والتَّرْك؛ وطريقته r في ذلك؛ حتى لا نستعمل مسمى العبادة الشرعي، ثم نتبع أهواءنا في تنزيلها والعمل بها، فإننا بذلك لم نصنع شيئا، إذ لم نزل مُتَّبِعين للشيطان والهوى، مُبْحِرِينَ بعيدا عن الهدى، الذي جاء به المصطفى r من عند ربه تبارك وتعالى.

ولا تنس في كل ذلك، أن أمر رسول الله r، ونهيه داخل في ذلك أيضا، فإنما هو r مبلغ عن الله تعالى، كما قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:١-٤]، وسيأتي بيان ذلك في كلام المؤلف فيما بعد إن شاء الله تعالى.

واعلم رعاك الله أن تحديد درجات العبادات من المأمورات والمنهيات، يرجع إلى موارد ذلك ومظانه، من الكتاب والسنة، فتحديد الواجب من الفرض من المستحب، وتحديد المحرم ومن المكروه كراهة تَنْزِيه، كل ذلك لابد من الرجوع فيه إلى جمع الأدلة المتعلقة بالمسألة؛ لاستخلاص الحكم الشرعي، فإن هذه عبادة من أجل العبادات، قال الله تعالى فيها: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]، وقال: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً} [النساء:٨٣].

قوله:(وَفِي الْحَدِيثِ: "الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ"، بدأ المؤلف بالدعاء؛ لأنه عَصَبُ الأمر، وأُسُّه وأَسَاسُه، فإن الدعاء في عمومه يمثل العبادة كلها، كما سيأتي معنا، بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والدعاء لغة[١]: الطلب، ومنه النداء، وهو حث على الإصغاء لأمر ما، وتحقيق الاستجابة للطلب.

وشرعا: أكمل تعريف وأعدله، هو ما قاله النبي r :"الدعاء هو العبادة": وسيأتي.

*** * وهذا بحث قيم جليل وقفت عليه في المجلة الإسلامية بالمدينة النبوية، أنقله بحروفه:[(المسألة الأولى - وهي دعاء غير الله)، نريد أن نعرف حقيقة الدعاء لغة وشرعا.**

١ - قال في الصحاح:[دعوت فلانا صحت به واستدعيته ودعوت الله له وعليه].

٢ - وقال في القاموس:[الدعاء: الرغبة إلى الله].

٣ - وقال في المصباح:[دعوت الله أدعوه دعاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله].

٤ - وقال الحافظ ابن حجر في الفتح:[والدعاء الطلب والدعاء إلى الشيء الحث على فعله ودعوت فلانا سألته ودعوته إستغثته]ا.هـ. فالدعاء إذا استدعاء ورغبة ونداء وابتهال بالسؤال واستغاثة والذي يدعو الله راغب إليه ومنادٍ له ومبتهل وسائل له ومستغيث به والداعي لغير الله من ميت وغائب كذلك.

---

١ - جاء في تفسير ابن عرفة:[وفي شرح الأسماء الحسنى للشيخ ابن العربي : الدّعاء لغة الطّلب. {اغفر لنا}، ويطلق على النداء وعلى الترغيب مثل:{والله يدعوا إلى دَارِ السلام}، وعلى التكوين مثل:{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض}]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- **(حقيقة الدعاء في القرآن):**

١ - قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} آل عمران.

٢ - وقال تعالى عن زكريا أيضا: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً} .

فالدعاء المذكور في آل عمران سمّاه هنا نداء وفسر النداء في سورة مريم بطلب الولد.

(حقيقة الدعاء في السنة):

١ - عن أبي هريرة t أن رسول الله r قال: "إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن الله سبحانه لا يتعاظمه شيء أعطاه".

فسمى ما يطلبه العبد من ربه دعاء ومسألة رغبة وهو موافق لأقوال أئمة اللغة.

٢ - وعنه t قال: قال رسول الله r :"يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي" متفق عليه وأخرجه الترمذي.

٣- وعن أنس t قال: قال رسول الله r : "إذا دعا أحدكم فليعزم الدعاء ولا يقل اللهم إن شئت فأعطي فإن الله لا مستكره له" متفق عليه.

والأحاديث ومؤلفات العلماء وتراجمهم في الدعاء شيء لا يأتي عليه العد بل عوام الناس إذا ذكر لفظ الدعاء لا يتبادر إلى أذهانهم إلا هذه الحقيقة وهي النداء والسؤال والطلب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا تقررت وفهمت حقيقة الدعاء على ضوء الكتاب والسنة واللغة العربية وواقع الناس فالله تعالى قد أمرنا بدعائه ونهانا أشد النهي عن دعاء غيره.

قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} . أمرنا الله بدعائه وعلمنا آداب الدعاء التي يرجى من ورائها الإجابة وهي: ١ - التضرع ٢ - الخفية ٣ - الخوف ٤ - الطمع.

وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}. فهنا ندب تبارك وتعالى عباده إلى دعائه وأخبر أن المستكبرين عن دعائه مستكبرون عن عبادته لأن الدعاء أهم أنواع العبادة وأعظمها فالتارك لدعائه استكبارا كافر سيدخل جهنم داخِرا أي صاغرا وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبن أبي حاتم عن النعمان بن بشير عن النبي r قال: "إن الدعاء هو العبادة"ثم قرأ {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}.قال الترمذي صحيح الإسناد، ومعنى الدعاء هو العبادة، كما قال العلماء، أي جلها ومعظمها كقوله r :"الحج عرفة" أي أعظم أركان الحج، وكقوله r :"الدين النصيحة" ولا شك أن الدعاء كذلك ولذا تعبدنا الله به في كل صلاة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}. هذه لُمَحَةٌ عن أهمية الدعاء وإشارة خاطفة إلى بعض ما أمرنا به ربنا تعالى من دعائه وحده.

أما دعاء غير الله فقد نهى الله تبارك وتعالى عنه أشد النهي وحكم على فاعله بالضلال وضرب فيه الأمثال وأبدى فيه وأعاد وركز عليه تركيزا قويا واعتنى بموضوعه أقوى عناية وأشدها وكيف لا يكون كذلك وهو أعلى أنواع العبادة وقد قال رسول الله r :"الدعاء هو العبادة" بتعريف الجزءين وهو من طريق القصر المعروفة عند البلاغيين.

وَلْنُشِر الآن إلى قليل من كثير مما ورد في القرآن الكريم في هذا الموضوع قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ}. والظلم هنا هو الشرك: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ}. فهذا نهي صريح للنبي r عن دعاء غير الله مهما علت منزلته وارتفعت درجته سواء كان نبيا أو ملكا مقربا، فهذا أكمل المخلوقات وسيد المرسلين والنبيين لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا قال تعالى في سورة الأعراف آمرا نبيه r :{قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. وإذا كان النبي r لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فبديهي أنه لا يملك ذلك لغيره وصرح بهذا المعنى في آيات أُخر قال الله آمرا نبيه r :{قُلْ إِنِّي لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً}. {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}. {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}. وقال r حين أنزل عليه {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}: "يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا" .

فإذا كان أكمل الخلق r كذلك، فغيره أبعد عن ذلك وأبعد، فهذه البيانات الواضحة والتصريحات القوية التي تصدر عن أصدق القائلين الهدف الأصيل منها أن يقطع المؤمن الصادق كل أمل وكل رجاء من غير الله ويتجه بدعائه ورجائه ورغباته وكل مطالبه إلى الله وحده مباشرة.

ولذا قال عقب هذه الآية التي تلوناها عليكم من سورة يونس: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} .

وقال في سورة الأنعام مستعملا الأسلوب نفسه: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

٢- وقال تعالى ضاربا مثلا لحال من يدعو غير الله: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} .

شبهت حال من يدعو غير الله بحال شخص استولت عليه الشياطين فحرفته عن الجادة فهو تائه مضطرب الفكر والعقل ذاهب اللب يتخبط في سيره لا يهتدي لجهة ولا يعرف مقصدا في الوقت الذي يدعي فيه إلى خلاصه والطريق الذي فيه نجاحه وفلاحه فيمعن ويوغل في البعد عن طريق الخلاص والنجاة حتى يلقى هلاكه ومصيره المشئوم.

٣- وقال ضاربا مثلا لخيبة الأمل التي يُمنى بها من يدعو غير الله: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ} .

فهل يستجيب ماء بئر في الدنيا لمن وقف على حافته يمد كفيه ويبسطهما إليه ولو كان ملتهب الأحشاء محترق الفؤاد من الظمأ؟

٤- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

وهذا تصوير صحيح لواقع كل مدعو من دون الله وأن من في السماوات والأرض لو اجتمعوا لخلق ذرة فضلا عن ذباب لا يستطيعون، ولوقفوا عاجزين وهذا غاية الغايات في العجز، فإذا كان هذا حال المدعوين فلماذا لا يثوب الداعون لهم إلى رشدهم ولذا قال ما قدروا حق قدره إن الله لقوي عزيز، فهو قادر على كل شيء غالب على كل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء إنما أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، والواقع أن الذين يستجيزون لأنفسهم دعاء غير الله لا يشعرون أن هذا النداء في هذه الآية موجه إليهم وأن هذا المثل فيها مضروب لهم ومن جراء فقدان هذا الشعور والإحساس لم يرهفوا أسماعهم لهذا المثل الذي قال الله فيه فاستمعوا له وإلا لكان لهم منه أكبر زاجر وأقوى رادع ولفتحوا أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم على قدرة الله الهائلة التي يصغر أمامها كل شيء فاتجهوا إليه وحده ضارعين وداعين.

٥ - وقال تعالى مبينا غناه المطلق وفقر من عداه المطلق وأن المدعوين من دون الله جميعا صفر اليدين مما يتعلق به المشركون بهم الداعون لهم من دون الله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} .

فهذه الآية فيها تحطيم لكل أمل يتعلق به المشركون فالمدعوون من دون الله لا يملكون من هذا الملك الواسع والكون الكبير السموات والأرض مثقال ذرة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل المشاركة والله غني غنىً مطلقا فليس هو سبحانه وهي متوقفة على إذنه، على أنه لا حظ فيها لهؤلاء المشركين الداعين لغير الله، وإنما هي للموحدين فماذا استفاد المشركون؟! إنما هي النار، هي مولاهم، ولبئس القرار والمصير، ولا كرامة.

وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}. فالله تبارك وتعالى يأمر رسوله r بأن يتحدى المشركين بأن يشيروا إلى أي نقطة من السموات والأرض قد خلقها آلهتهم ولو مجتمعة أو أي جزئية شاركوا فيها في الخلق والتصرف وهم لا يمكن أن يدعو ذلك فهم معترفون بأن الله وحده المنفرد بخلق الكون والتصرف في شئونه.

فإن تَوَقَّحَ مُتَوَقِّحٌ منهم فليت بالبرهان الواضح ولا يمكنه ذلك لا من طريق النقل ولا من طريق العقل وبعد عجزهم الفاضح أمام التحديات فما حكمهم إن أصروا على دعاء غير الله؟. حكمهم أنهم خلق الله إنهم غارقون في ضلال بعيد لأنهم يدعون من لا يملك شيئا في السماوات والأرض لا لنفسه ولا لغيره وقد عجزوا وأفحموا عن إقامة البرهان على شيء من ذلك وهم مع ذلك لا يستجيبون لهم ولو بحت أصواتهم وانقطعت حناجرهم من النداء والهتاف ولو استمروا فيهما إلى يوم القيامة.

والنتيجة المرة أنهم يوم القيامة يبارزونهم ويصارحونهم بالعداء الشديد: {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} إنها لنهاية أليمة ومصير مشئوم وهذا الذي أشرنا إليه قليل من كثير فما يزخر به القرآن من محاربة هذا الاتجاه المخزي فمن أراد أن يعرف الحقيقة فليمط عن وجهه حجاب التعصب الأعمى وليقرأ القرآن ملاحظا ما أشرنا إليه فسيجد الأمر أوضح وأقوى]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

****** وهذا بحث أخر، نفيس أيضا متمم للفائدة، منقول عن:(الموسوعة الفقهية الكويتية):**[دُعَاءٌ:التَّعْرِيفُ:

١ - الدُّعَاءُ لُغَةً مَصْدَرُ دَعَوْتُ اللهَّ أَدْعُوهُ دُعَاءً وَدَعْوَى، أَيِ ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ بِالسُّؤَال وَرَغِبْتُ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ. وَهُوَ بِمَعْنَى النِّدَاءِ يُقَال:دَعَا الرَّجُل دَعْوًا وَدُعَاءً أَيْ:نَادَاهُ، وَدَعَوْتُ فُلاَنًا صِحْتُ بِهِ وَاسْتَدْعَيْتُهُ، وَدَعَوْتُ زَيْدًا نَادَيْتُهُ وَطَلَبْتُ إِقْبَالَهُ. وَدَعَا الْمُؤَذِّنُ النَّاسَ إِلَى الصَّلاَةِ، فَهُوَ دَاعِي الله، وَالْجَمْعُ:دُعَاةٌ وَدَاعُونَ. وَدَعَاهُ يَدْعُوهُ دُعَاءً وَدَعْوَى: أَيْ: رَغِبَ إِلَيْهِ، وَدَعَا زَيْدًا: اسْتَعَانَهُ، وَدَعَا إِلَى الأَمْرِ:سَاقَهُ إِلَيْهِ.

وَالدُّعَاءُ فِي الاِصْطِلاَحِ:الْكَلاَمُ الإِنْشَائِيُّ الدَّال عَلَى الطَّلَبِ مَعَ الْخُضُوعِ، وَيُسَمَّى أَيْضًا سُؤَالاً.

وَقَدْ قَال الْخَطَّابِيُّ:حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ اسْتِدْعَاءُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ الْعِنَايَةَ وَاسْتِمْدَادُهُ إِيَّاهُ الْمُعُونَةَ، وَحَقِيقَتُهُ إِظْهَارُ الاِفْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَوْل وَالْقُوَّةِ الَّتِي لَهُ، وَهُوَ سِمَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَإِظْهَارُ الذِّلَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِيهِ مَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَى الله، وَإِضَافَةُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ إِلَيْهِ.

٢ - وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِمَعَانٍ مِنْهَا:

أ - الاِسْتِغَاثَةُ: كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى:{قُل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب - الْعِبَادَةُ:كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ}. وقَوْله تَعَالَى:{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ}. وقَوْله تَعَالَى:{لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}.

ج - النِّدَاءُ:وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:{يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ}. وَقَوْلُهُ:{قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}.

د - الطَّلَبُ وَالسُّؤَال مِنَ الله:وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}. وقَوْله تَعَالَى:{وَقَال رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}. وَيُوَافِقُ هَذَا الْمَعْنَى مَا يُقَال:دَعَوْتُ اللهَ أَدْعُوهُ دُعَاءً، أَيِ ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ بِالسُّؤَال، وَرَغِبْتُ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَالدَّاعِي اسْمُ الْفَاعِل مِنَ الدُّعَاءِ، وَالْجَمْعُ دُعَاةٌ، وَدَاعُونَ، مِثْل قَاضٍ وَقُضَاةٌ وَقَاضُونَ]ا.هـ.

والمؤلف رحمه الله تعالى:احتج على كون الدعاء عبادة، بحديث"الدُّعاء مُخُّ العبادة"، وهذا هو حديث أنس t عند الترمذي والطبراني في الأوسط بلفظ:"الدعاء مُخُّ العبادة"، قال أبو عيسى الترمذي:هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، وقال الطبراني في المعجم الأوسط:[لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله تفرد به ابن لهيعة]ا.هـ.

وَمُخَّ الشيء لُبْه ولُبَابُه، فإذا عُدِمَ الْمُخُّ عُدِمَت فَائِدَةُ الشَّيء.بَيْدَ أن هذا الحديث ضعيف الإسناد؛ لأنه من رواية عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف الحديث مطلقاً، وإن هو في رواية العبادلة عنه أعدل منه في غيرها، ولكنه حتى فيهم لا يحتج بحديثه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويمكن أن نستعيض عنه بما رواه الترمذي[1] أيضا بإسناد صحيح، وبعد هذا الحديث مباشرة في سننه عن النعمان بن بشير t قال:قال رسول الله r :"الدعاء هو العبادة"، وهذا الحديث أبلغ لفظاً، وأقوى سنداً من السابق.

ووجه الدلالة في الحديث ظاهرة في بيان أن الدعاء من العبادة، حيث أن أسلوب تعريف الجزءين يفيد الحصر والقصر، وهو من الأساليب البلاغية الفصيحة.

كما أن هذا السياق يتضمن الحث على الدعاء، وهذا كما تقدم هو أحد الطرق، التي يُسْتَدَلُّ بها على العبادة الشرعية.

قوله:(وَالدَّلِيلُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، احتج المؤلف رحمه الله تعالى أيضا، على أن الدعاء من العبادة، بهذه الآية المطابقة في دلالتها للمراد؛ لأن الله تبارك وتعالى استفتح الآية بالأمر بالدعاء، ثم أخبر أن من استكبر عن هذا الأمر؛ فقد استكبر عن العبادة؛ فدل السياق إذن على أن الدعاء عبادة، وهي طريقة متبعة في القرآن الكريم، بحيث يذكر الله تعالى الشيء ثم يعطف بذكر صلته بالعبادة، مما يفيد أن ذلك الشيء عبادة لله جل وعلا.

---

١ - ورواه لبن المبارك في مسنده وأحمد ولبن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد ولأبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجة وغيرهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومثال ذلك قوله تعالى:{وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [مريم:٤٨-٤٩]، ففي الآية الأولى ذكر الله تعالى دعاء المشركين غير الله، وأن إبراهيم اعتزلهم إلى دعاء الله وحده لا شريك له، وفي الآية التالية بيَّن الله تعالى أن إبراهيم اعتزلهم وما يعبدون، أي وما يدعون، فدل على أن دعاء غير الله شرك، وأن دعاء الله تعالى عبادة. وهذه الآيات كلها تبين معنى قوله r :"الدعاء هو العبادة".

وكذلك قوله تعالى:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٦]. ذكر الدعاء، ثم سماه عبادة في الآية التالية.

ومن ذلك قوله تعالى:{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠]، فذكر تبارك وتعالى الحكم واختص به نفسه، ثم ذكر العبادة؛ ليتبين الجميع أن كون الحكم لله والتشريع خاص به، هو عبادة من أجل العبادات، فمن صرفها لغير الله فهو مشرك كافر، الشرك والكفر الأكبر، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

فإذا عَرَفْتَ ذلك، فاعلم أن من صرف شيئاً منه، ولو كان يسيراً، لغير الله تعالى؛ فهو شرك أكبر وذنب لا يغفر، إلا بالتوبة النصوح، وهذا يقال في جميع العبادات، فلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرق فيها بين القليل والكثير، ولا فرق في حكم من تعاطى ذلك، بين العظيم والحقير، ولا بين الغني والفقير، فمن دعا حجراً أو شجراً أو بشرا، أو أي جماد أو حيوان،، فهو ومن دعا ملكاً أو نبياً أو ولياً، سواء بسواء، ليس هناك فرق بينهما البتة.

وكذلك يقال في التشريعات الجاهلية، لا فرق فيها بين المسألة والمسألتين، والقليل والكثير، فطالما ثبت أن التشريع حق لله تعالى، فصرف شيء منه، ولو كان يسيراً، لغير الله، شرك أكبر.

واعلم رحمك الله، أن الدعاء إذا كان من الأدنى إلى الأعلى؛ سُمِّيَ التماساً وطلباً، كقولك:(اللهم اغفر لي) فأنت لا تأمر الله جل وعلا، وإنما تلتمس منه المغفرة، وتتضرع إليه أن يغفر لك، فهو طلب والتماس بغاية الذل والحب والخضوع وإحسان الظن.

وفي الآية التي استدل بها المؤلف فوائد منها:

١- إثبات صفة الكلام لله جل وعلا، وذلك في قوله: {وقال ربكم}.

٢- أن الرب هو المعبود، وذلك في قوله: {وقال ربكم أدعوني}.

٣- تعلق الاستجابة بالدعاء، ففيه الأخذ بالأسباب لأن ترك الأسباب قدح في التوحيد، والاعتماد عليها شرك في التوحيد، كما سيأتي في الحديث عن التوكل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤ - أن حقيقة الاستكبار، عدم الانقياد للأوامر واجتناب النواهي، ولهذا قال r :"الكبر بطر الحق[١]" أي التعالي عليه وعدم الانقياد له.

٥ - أن مآل المشركين والكافرين إلى جهنم وبئس المصير، واكْتَفَى بذكر حالهم في الدخول؛ في قوله: {داخرين} أي ذليلين حقيرين؛ لأنهم لا حال لهم عند الخروج تُذْكَر؛ لأنهم لن يخرجوا منها أبدا، نسأل الله العافية والسلامة.

والدعاء ينقسم إلى قسمين: ١ - دعاء عبادة . ٢ - دعاء مسألة.

أما دعاء المسألة: فهو ما تضمن طلبا وسؤالا، وهذا أكثر ما يطلق عليه لفظ الدعاء، وهو أكثر ما وقع فيه الشرك بالله تعالى، فالقرآن مليء بذكر، دعاء المشركين لأوليائهم؛ ليفرجوا كربهم، ويقضوا حوائجهم؛ ولهذا كان مما قابل به إبراهيم قومه، أنه بَيَّنَ لهم أنه قد تعلق ظاهرا وباطنا بالله تعالى، كما هي حالتهم مع أوليائهم، كما قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ

---

١ - أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ". قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ:"إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَّ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:٦٩-٨٩].

فبين لهم أن الله تعالى هو الذي يفعل ذلك كله، وأنتم آلهتكم لا تفعل من ذلك شيئا، فكانت دعوته إياهم، بالحال والمقال، إلى توحيد ذي الجلال والإكرام.

كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} [الحج:١١-١٣]، وقوله:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٦].

وفي الحديث الذي في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ t عن رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ" قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي قَالَ:"لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه الكلمة دالة على غاية الافتقار لله جل جلاله، وهكذا ينبغي أن يكون العباد، متعلقين بربهم تبارك وتعالى من كل وجه، وفي كل شيء، فيسألونه حوائجهم، ويستعينون به على قضائها، وتيسيرها، فكم حاجة للعبد يحتاج قضاءها، وهي بين يديه، فلا يستطيع إلا بحول الله وقوته، وتأمل في كثير من الأشغال التي تريد أن تقوم بها وأنت عاجز عنها.

ولهذا أخبرنا تبارك وتعالى أن خزائن كل شيء عنده وإليه، وأن مقاليد الأمور بيديه، جل الله في علاه؛ لتتعلق القلوب به رغبة ورهبة، كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر: ٢١]؛ ولهذا كان الأنبياء يوجهون أممهم إلى الله تعالى؛ لعلمهم أنه لا أحد بيده أن يقضي الحوائج، ولا يفرج الكربات، ولا يغيث اللهفات، سوى الله رب العالمين، فلا يملك ذلك أحد سواه، لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، ولا وَلِيّاً صالحا، وقد قص الله تبارك وتعالى ذلك عن أول الأنبياء وآخرهم، وإِخْوانُهم مِثْلُهم في ذلك، فأصل دينهم واحد، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما قال تعالى عن نبينا r: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام:٥٠]، وقال عن نوح عليه السلام: كما قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} [ص:٩-١٠]، وقوله: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ} [الطور:٣٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَرَدَّ على المنافقين وأشباههم، الذين ظنوا أن امتِنَاعَهم عن الإنفاق على من عند رسول الله r ؛ كفيل بِفِرَاقِهم إياه، وانْجِفَالِهم عنه، وهذا من خزيهم وخبثهم، حيث ظنوا أن الصحابة y، إنما اجتمعوا على النبي r ؛ لأنه يُنْفِقُ عليهم، وهذا ليس بمستغرب منهم فإنهم ينظرون بعين طبعهم الخبيث، وإلى زماننا هذا لم يزل أهل النفاق يتكلمون بنحو من ذلك، فرد الله تعالى عليهم، أن الخزائن عند الله، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تبارك وتعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلله خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون:٧-٨].

أَقْوَى وأعْتَى الأَسْلحَة الفَتَّاكَة:

واعلم رحمك الله، أن الدعاء، هو أقوى وأعتى سلاح تلقى به أعداءك، وتستعين به على قضاء حوائجك، ومن أسرار الدعاء، أن العبد يكون معتمدا فيه على الله تبارك وتعالى تمام الاعتماد، بخلاف الأسباب المادية الأخرى، فإن العبد يكون فيها معتمدا، على الضعيف مهما كانت قوته، وعلى المحتاج الفقير مهما كان غناه، فإذا علمت ذلك علمت أن المقولة الشائعة بين الناس: فعلت كل شيء وما بقي إلا الدعاء، هي مقولة خاطئة، وهي مشعرة بأن الدعاء هو أضعف السبل، وهو أقل ما يمكن الالتفات إليه، عند قلة الحيلة، وانْقِطَاعِ المُعِين، ولو فتشت وجدت كثيرا من الناس هكذا يظن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهم بخلاف ذلك تماما، فإنهم يجعلون الدعاء نصب أعينهم، وفي كل حال، ولا يلتفتون إلى شيء قبله، بل يبدؤون بالله تعالى قبل خلقه، وتأمل ما قصه الله تبارك وتعالى علينا من ذلك ؛ لنقتدي بهم ونهتدي بهديهم صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ** (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [المؤمنون:٢٣-٢٧]، وقوله: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر:٩-١٦]، وقوله: {**وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ** وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء:٧٦-٧٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال سبحانه عن أحد رسله عليه السلام: {**قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ** (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ} [المؤمنون: ٣٩ - ٤٢]

وقال عن لوط عليه السلام: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**} [العنكبوت: ٢٨ - ٣٠]

وقال عن موسى عليه السلام: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وأَلَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ**(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}[الدخان:١٩-٢٩].

وقال عن جَمْع من أنبيائه ورسله عليهم السلام: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:٨٣-٩٠].

وقال عن زكريا عليه السلام:{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } [آل عمران:٣٨-٣٩].

وقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام:{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:٨٣-٨٩]، وقوله:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات:٩٩-١٠١].

وفي الحديث في صحيح مسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال:حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله r إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله r الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:"اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ". فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلاَئِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ، قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ r فَقَالَ:"صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ". الحديث.

وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْرٍ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ" فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:"{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}".

وما حفظ عن النبي r من الدعاء وكثرته وإكثاره منه، شيء لا يمكن استيعابه في مثل هذا المقام، وإن هذه الكثرة الكاثرة، دالة على ما كان عليه النبي r ، من التعلق بربه وسؤاله ودعائه، وهكذا كان أصحابه من بعده y .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الرسالة الواسطة بين الخلق والحق):[وَالدُّعَاءُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ : فَالِالْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ؛ بَلْ الْعَبْدُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَوَكُّلُهُ وَدُعَاؤُهُ وَسُؤَالُهُ وَرَغْبَتُهُ إلَى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَاَللهُ يُقَدِّرُ لَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ - مِنْ دُعَاءِ الْخَلْقِ وَغَيْرِهِمْ - مَا شَاءَ . وَالدُّعَاءُ مَشْرُوعٌ أَنْ يَدْعُوَ الْأَعْلَى لِلْأَدْنَى وَالْأَدْنَى لِلْأَعْلَى]ا.هـ.

فَشَتَّانَ بين من الله ناصره ووليه، وبين من يعتمد على المخلوقين من أمثاله، كما قال تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَّ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف:١٨٩-١٩٨]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آداب الدعاء: واعلم أن للدعاء آدابا ينبغي التحلي بها وهي:

١- الإخلاص.

٢- الثناء على الله تعالى ثم الصلاة على نبيه r قبل الدعاء.

٣- الجمع بين الرغبة والرهبة والتضرع والتذلل والإلحاف في المسألة.

٤- الإلحاح على الله تعالى.

٥- استشعار الافتقار إليه جل وعلا.

٦- الإقبال على الله تعالى حال الدعاء.

٧- الجِدِّية في الدعاء، لا كحال الذين قال الله فيهم: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنفال: ٣٥]

٨- الاعتراف بالذنوب والخطايا.

٩- ترك أكل الحرام، والمعاملات المحرمة.

١٠- ترك سبيل المفسدين والذين لا يعلمون.

١١- الاستجابة لأمر الله ورسوله r .

١٢- عدم استعجال الإجابة.

١٣- تحري أوقات الإجابة.

١٤- إحسان الظن بالله تعالى.

١٥- عدم الصراخ والصياح والعويل ورفع الصوت الفاحش.

١٦- ترك التَّشْقِيق والتفصيل الغير مفيد، والحرص على جوامع الكلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٧ - ألا يتضمن الدعاء إثما ولا شركا ولا قطيعة رحم.

أما دعاء العبادة: فهو كل عبادة أدَّتْ مُؤَدَّى دعاء المسألة، وإن لم تَتَضَمَّن السؤال والطلب الصريح، كالذكر والصلاة والصيام والزكاة والصدقة والحج وبر الوالدين والجهاد وغير ذلك، فهذه العبادات كلها إنما يفعلها العبد، طلبا لما عند الله من الخير والثواب والإحسان والإنعام، من حظ الدنيا أو الآخرة.

وبهذا نكون قد فهمنا معنى قوله r :"الدعاء هو العبادة" إذ لم يخرج شيء من أفراد العبادة، عن مُسَمَّى الدعاء العام، وما اشتمل عليه من المعاني، فلله الحمد والفضل والمنة.

قوله:(وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ})، شرع المؤلف رحمه الله في ذكر العبادة الثانية، بحسب ترتيبها، فيما أجمله من قبل، وهذا من فقهه رحمه الله، فإن هذا مما يسهل على الطالب، حفظ هذه العبادات مرتبة مع أدلتها، بعد أن كان قد حفظها مَلْفُوفَة دون أدلتها.

وكأنه أراد أن يقول لك: لا تحمل هَمَّ حِفْظ هذه العبادات مُفَصَّلَةً مُرتَّبة، فإني قد سقتها لك على نسق حفظك الأول لها. فيا سبحان الله! كم هو موفق هذا الإمام، رحمه الله، وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخوف: هو اضطراب في القلب من جراء مؤثر عليه أفزعه، وهو على درجات ومراتب، فمنه الوَجَل، ومنه الرهبة، ومنه الخشية، والظاهر أن مسمى الخوف ينتظمها جميعا، وإنما هذه مراتب منه.

وينقسم الخوف إلى أقسام:

١ - **الخوف من الله**: وهو عبودية من أجّل العبوديات لله جل وعلا،وسببه إجلال الخالق ومعرفته وتقواه، ولهذا الناس يتفاوتون فيها تفاوتا عظيما، وكل بحسبه، فنسأل الله من فضله العظيم.

وصرفه لغير الله شرك أكبر، ودليل، أنه عبودية، هو ما ذكره المؤلف، من قوله تعالى: {فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين}، فعلق الإيمان على عدم الخوف من سواه جل وعلا، فعُلم أن الخوف منه تعالى، هو من صميم الإيمان بالله تعالى، وأن الخوف من غيره ينافي التوحيد، والخوف هنا هو اضطراب في القلب يعتري العبد عند تذكره عظمة الرب جل وعلا.

ومن الأدلة على ذلك، قوله تعالى: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة:٢٨]، وقوله: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأنعام:١٥]، وقوله: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام:٨٠-٨١]، وقوله:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف:٥٩]، وقوله:{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} [مريم:٤٥]، وقوله:{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} [الشعراء:١٠-١٥]، ونحو ذلك من الآيات.

٢- **خوف السِّر**: وهذا شرك أكبر، ويُرادُ به الخوف من المخلوق، أن يعلم سَرِيرَتَه، وخَائِنَة عينه، وخَافِيَة أمْرِه، كالخوف من أصحاب القبور، ومن يُسَمُّونَهم برجالات الغيب، والأقطاب والأغواث، فيعتقدون أنهم قادرون على إدخالهم النار، ومسخهم، وقطع أرزاقهم، وإفقارهم، وإفساد حياتهم، وأذية أزواجهم وأولادهم، وغير ذلك، مما هو من خصائص الرب تبارك وتعالى، وسُمِّي بخوف السِّر؛ لأن العبد يشعر بذلك في داخلة نفسه، عند ذكر الأموات والأولياء، ولهذا يُعَظِّمُهُم، حتى إنه ليحلف بالله كاذباً، ولا يجرؤ أن يحلف بالوَلِيِّ كاذباً، بل ويعظمهم أكثر من الله تعالى، ويجد في قلبه من الوَجَلِ والرهبة والخشوع، إذا وقف أمامهم، ما لا يجده إذا وقف في الصلاة بين يدي الله جل جلاله؛ ولو خُوِّفَ بالله ربما لم يلتف إليك، ولو خوف بالولي لم يملك إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستسلام والإذعان. وهو مع ذلك يعتقد أن الولي يسمعه، وإن عصاه فإنه سيلعنه، وقد يكون هذا الولي قد مات منذ زمن، ولو كان حياً لكان شركاً، فكيف وهو ميت!!.

فإن من يرى أن هذا المخلوق أو ذاك - مهما علا كعبه في المنزلة والعلم والفضل، والعبادة والزهد والورع -، أنه يعلم ما في قلبه، ويحصي خائنة عينه، فإنه قد اتخذه إلاها من دون الله، وإن زعم أنه يعبد الله تعالى؛ لأن هذه الصفات مختصة بالله جل وعلا، فمن زعمها في مخلوق كائنا من كان؛ فقد زعم أن هذا المخلوق كالله تعالى، أو أنه إله من دون الله تعالى. فتنبه، فإن المسألة غاية في الخطورة، فإنما هو إسلام أو كفر، وجنة أو نار. نسأل الله العافية والسلامة.

قصة عجيبة جرت معي !!:

وكنت قد ذهبت إلى السوق ذات يوم، فدخلت على صاحب دكان، فوجدت منه علامات التَّعَلُّق بالشيوخ، رغبة ورهبة، فَكَلَّمْتُه في ذلك، وأخذت أُبَيِّنُ له، وكان مما قال لي، وهو يريد أن يظهر احترامه لي: إذا كنت مع العلماء؛ فاحفظ لسانك، وإذا كنت مع الأولياء فاحفظ قلبك، فاستدرجته ليفسر لي ذلك، حتى أُبَيِّنَ له، أ ن هذا القول يتضمن الشرك بالله تعالى، فقال لي: لأنك إذا كنت مع العلماء؛ سَيُحْصَونَ عَليك كَلامَك، ويَعْرِفُونَ جَهْلَك، ويُحَاسِبُونَك على ذلك، فلا تَتَفَلْسَف أمامهم، وأما إذا كنت مع الأولياء، فاحفظ خَوَاطِر قَلْبِكَ وعَقْلِك؛ فإنهم يَطَّلِعُونَ مِنك على ذلك!!.

لا إله إلا الله !!، ما هذا الشرك ؟!! ، وما هذا الخوف الذي لا يليق إلا بذي الجلال والإكرام؟!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه قوله تعالى"{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء:٧٧].

٣- **الخوف الفطري**: وهو ما جبل عليه العبد من الفزع مما غُيب عنه، وخوفه مما قد يكون قُدِّرَ عليه، وهذا إن كان في أمر واقع لا محالة، فمن العجز والجهل مجرد الخوف منه، بل على العبد الكَيِّسِ أن يقبل على ما ينفعه، من أخذ العُدَّة، وتوخي الحذر، والاجتهاد في العمل على الاستعداد لما هو حتما لاقيه بقدر الطاقة، كالخوف من الموت، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة:٨].

وإما إن كان الأمر يحتمل الوقُوعَ وعَدَمَه، فهذا إن وقع فعليه بالصبر على أقدار الله جل وعلا، وإن لم يقع فإن كان بمقدوره دفعه؛ فليعمل على ذلك، وإن كان ليس بمقدوره دفعه؛ فليقبل على ما ينفعه من التوكل على الله، ودعائه ورجائه، والاستعانة والاستغاثة به، والأخذ بالأسباب المتاحة، فهذا العبد أحْرَى أن يزول عنه الخوف، مثل إذا قيل لك:(إن العدو قادم إليك)، ومن الخوف الفطري الخوف من السَّبُع، ومن العدو الباطش، وكل هذا يدافعه العبد بصدق التوكل، والالتجاء إلى الله تعالى، ولا يلام العبد على مثل هذا الخوف، إن لم يَقْعُدْ به عما أُمِرَ به في هذا المقام أو ذاك، ولا عما خلق لأجله، ودليل هذا الخوف قوله تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص:٢٠-٢١]، وقوله: هذا خوف فطري طبيعي.

ومنه ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:(حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله r وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ).

خوف المفسدين في الأرض:

وهناك خوف الدجالين والمجرمين، وهو خوف مُفْتَعَل، يُظْهِره المفسدون في الأرض، زَاعِمِين الحرص على مصالح أتباعهم، ومن تحت أيديهم،كما قال تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:٢٦]، ونحو ذلك من الأدلة.

وهناك خوف المنافقين، والمتلاعبين، والكذابين، إذا اعترتهم لحظات من الصدق مع النفس، أو جَاءهم ما يَقْهَرُ تَعَنُّتَهُم وكِبْرَهُم، ثم سرعان ما يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم، إن وجدوا إلى ذلك سبيلا، كقوله تعالى:{يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة:٧٤]، وقوله:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦٠-٦٢]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:٩٧]، وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام:٢٧- ٢٨]، وقوله: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال:٤٨]، وقوله: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر:١٦]، ونحو ذلك من الآيات.

والذي أراده المؤلف هو النوع الأول، الذي ضده النوع الثاني، فعلينا أن نعتقد أنه لا نافع ولا ضار إلا الله الواحد القهار، وأنه لا يقع في الكون، إلا ما قدره الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَهُوَ:أَنْ يَجْعَلَ لله نِدًّا - أَيْ:مِثْلًا فِي عِبَادَتِهِ أَوْ مَحَبَّتِهِ أَوْ خَوْفِهِ أَوْ رَجَائِهِ أَوْ إنَابَتِهِ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ إلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ. قَالَ تَعَالَى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَاتَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله r مُشْرِكِي الْعَرَبِ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا فِي الْإِلَهِيَّةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله} الْآيَةَ {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى} الْآيَةَ {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، وَقَالَ تَعَالَى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} - إِلَى قَوْلِهِ - {الَّذِي جَعَلَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}....إلى أن قال: وَأَمَّا الرُّبُوبِيَّةُ فَكَانُوا مُقِرِّينَ بِهَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، وَقَالَ: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله} إِلَى قَوْلِهِ: {فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} **وَمَا اعْتَقَدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطُّ أَنَّ الْأَصْنَامَ هِيَ الَّتِي تُنْزِلُ الْغَيْثَ وَتَرْزُقُ الْعَالَمَ وَتُدَبِّرُهُ وَإِنَّمَا كَانَ شِرْكُهُمْ كَمَا ذَكَرْنَا أَنْ اتَّخَذُوا مَنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله** وَهَذَا الْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِنْ دُونِ الله كَمَا يُحِبُّ اللهَ تَعَالَى فَقَدْ أَشْرَكَ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ}، {تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، {إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}. وَكَذَا مَنْ خَافَ أَحَدًا كَمَا يَخَافُ اللهَ أَوْ رَجَاهُ كَمَا يَرْجُو اللهَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ]ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الرجاء:{فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا})، الرجاء: كلمة تحتمل معنى التعلق بالشيء والأمل فيه، فإن كان هو طلب شيء يمكن حصوله؛ فهو رجاء، وإن كان في طلب شيء لا يمكن حصوله؛ فهو تمني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كقوله تعالى في التمني: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:١١١].

ومنه قوله تعالى في الرجاء: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور:٦٠].

ومنه قول الشاعر:

عجوزٌ ترجِّي أن تكون فتيةً ... وقد غارَتِ العينانِ واحْدَوْدَبَ الظهرُ
تدسُّ إِلى العطارِ سِلْعَةَ أهلِها ... وهل يصلحُ العطارُ ما أفسدَ الدهرُ

فهذا رجاء بمعنى التمني، وكما قال أبو العتاهية:

عَرِيتُ من الشباب وكان غَضّاً ... كَما يَعْرَى من الوَرَقِ القَضِيبُ
ألا لَيْتَ الشباب يعود يوما ... فأخبره بما صنع المشيب

والرجاء، إذا كان فيما لا يقدر عليه إلا الله، فصرفه لغير الله؛ شرك أكبر، كقول المتصوفة لمشائخهم:(أرجوك أن تغفر لي) أو (أرجو منك الولد)، وكالذين يرجون النصر من عند غير الله، والله تعالى يقول: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ} في موضعين من الذكر الحكيم.

وقوله: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ إِنِ الْكَـافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ} [الملك:٢٠].

لا يملك تحقيق النصر أحد إلا الله:

واعلم رحمك الله، أن النصر الذي هو بمعنى تحقيق التوفيـق وحصـول الظفـر، هـو خاص بالله تعالى، وهذا طلبه من غير الله تعالى شرك أكبر، وكذلك اعتقاد أن النصر بيد فلان أو فلان، وأما إن كان المقصود بالنصر هو المناصرة، فهـذا داخـل في جملـة الأخـذ بالأسباب المشروعة، وهو بمعنى التعزير والتقوية، ومنه قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِّ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله آمَنَّا بِالله وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهَّ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهَّ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهَّ فَآَمَنَـت طَّائِفَـةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْـبَحُوا ظَـاهِرِينَ} [آل عمران:١٤]، وقوله: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَـرُواْ السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ الله هِـيَ الْعُلْيَـا وَاللهُ عَزِيـزٌ حَكِـيمٌ} [التوبة:٤٠].

وفي الحديث المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة نزول الوحي على النبي r :(فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله r خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّـامُوسُ الَّـذِي نَـزَّلَ اللهُّ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَـالَ رَسُـولُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله r :"أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ"، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ).ا.هـ.

وكذلك الذين يرجون المخلوقين أن يفرجوا كرباتهم، ويغيثوا لهفاتهم، ويقضوا حاجاتهم، ويزيلوا عنهم الشدائد ويدفعوا عنهم المصائب، هم كذلك واقعون في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، كما قال تعالى:{قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [الأحزاب:١٧].

والله تعالى يقول:{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل:٦٢]، ويقول:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر:٣٨]، ويقول:{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [الفتح:١١]، ويقول:{وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد:١١].

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند جيد قال حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا موسى بن مسلم الطحان عن عبد الرحمن بن سابط قال:كان نفر متواخين، قال: ففقدوا رجلا منهم أياما ثم أتاهم فقالوا:أين كنت؟، فقال:دَيْنٌ كَانَ عَلَيَّ، فقال:هَلَّا دَعَوْتَ بهؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدعوات:"اللهم مُنَفِّسَ كُلِّ كَرْبٍ وفَارِجَ كُلِّ هم وكَاشِف كُل غَمٍّ ومُجِيبَ دَعوة المُضْطَرِّين رَحْمَانَ الدُّنيا والآخرة ورَحِيْمَهُمَا أنت رَحْمَانِي فَارْحَمْنِي يا رَحْمن رَحْمَةً تُغْنِينِي بها عَن رَحْمَةِ مَنْ سِواك". وروي مرفوعا ولا يصح رفعه.

ويدخل فيه من الأعمال ما يقوم مقام اللفظ، ومنه ما هو من عمل القلب، فلا يلزم أن يقيد الرجاء بلفظة:(أرجو)، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [يونس:٧]، فدلت الآية على أنهم لا يرجون لقاء الله، ولكنهم يرجون الحياة الدنيا بأعمالهم.

وفي مقابلة هؤلاء قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } [فاطر:٢٩-٣٠]، وقال تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء:١٠٤].

وقال تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس:١٥].

وقوله:{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْثُورًا } [الفرقان:٢١-٢٣]، وقوله:{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} [الفرقان:٤٠]، وقال عن أهل النار:{ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} [النبأ:٢٧].

وأما إذا كان الرجاء متعلقا بما هو في وسع المخلوق فعله؛ فالظاهر أنه لا حرج في إطلاق لفظ الرجاء عليه، كقولك مثلا:(أرجوك ساعدني في إصلاح سيارتي) ونحو ذلك فهذا فلا حرج فيه.

ودليل أن الرجاء عبادة قوله تعالى:{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}، أي حتى لا يتعلق العبد بالأماني الكاذبة، أراد الله تبارك وتعالى أن يبين السبيل الصحيحة للرجاء الذي ينتفع به العبد، فأخبر تعالى أنه الرجاء المبني على تحقيق التوحيد لله تعالى، بإفراده العبادة لله جل وعلا، مع الكفر بالطاغوت، وهذا معنى قوله تعالى هنا:{فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}.

لقاء الإكرام والنجاة:

والمتأمل في حديث عدي المخرج في الصحيحين عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"؛ يعلم يقينا أن كل العباد سيلقون الله تبارك وتعالى، **فما هو هذا اللقاء المذكور في هذه الآية؟**.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والجواب: أن المعنى أن من كان يرجو لقاءً، تكون فيه النجاة يوم لقاء الله، ويُحَدِّثْ نفسه بذلك؛ فعليه بتحقيق شَرْطَيْ قَبُولِ الأعمال:

١ - أن يكون العمل صالحاً، أي موافقا للسنة.

٢ - وأن يكون خالصاً، فلا يصرفه إلا لله وحده.

إذا ليس كل لقاء يوم القيامة ستكون به النجاة والكرامة، وإنما هو لقاء مخصوص، وهو لقاء المُوَحِّدِين المتقين لله رب العالمين، هؤلاء هم الذين يرجون لقاء الإكرام والأمن والأمان، وهؤلاء هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. نسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ولهذا في الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله r قَالُوا يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ الله r :"نَعَمْ".قَالَ:"هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ". قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَّ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُّ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. - قَالَ - فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَّ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا.قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ....الحديث".

فتأمل في هذا الحديث العظيم، كم هو رجاء العباد في هذا المقام كبير!!، ومَن الذي كان يرجوا هذا اللقاء بحق وحقيقة؟، وتأمل كيف خذل الله المنافقين!!، وقد اندسوا في صفوف المؤمنين إلى آخر اللحظات، حتى كَشَفَ رَبُّنَا تبارك وتعالى عن سَاقِه، فَتَمَايَزَت الصفوف، ولم يَنْجُ إلا الذين كانوا يرجون لقاء الأمن والأمان، والسعادة والإكرام والإحسان؛ فعملوا لمثل هذا اللقاء؛ فشكر الله سعيهم، ورحمهم، فاللهم، ارحمنا ووفقنا إلى هداك، واجعل عملنا في رضاك حتى نلقاك، يا أكرم الأكرمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في قوله تعالى عن أهل الجنة نسأل الله من فضله العظيم: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات:٥١-٦١].

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الرجاء، قال الله تعالى: {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجعون رحمته ويخافون عذابه}، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف والرجاء، قال تعالى: {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت}، وقال: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، وقال تعالى: {أولئك الذين يرجون رحمة الله والله غفور رحيم}، وفي صحيح مسلم عن جابر t قال: سمعت رسول الله يقول قبل موته بثلاث:"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه"، وفي الصحيح عنه:"يقول الله عز و جل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء".

الرجاء حَادٍ يَحْدُو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير، وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد و الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل، فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها، والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل]ا.هـ.

مقولة خاطئة:

واعلم أن أقواما جَنَحُوا وأخطئوا السبيل، لما قالوا: نحن لا نعبد الله تعالى رجاء جنته، ولا خوفا من ناره، فإن هذا غلط فاحش، ومصادم للنصوص الشرعية، فإن الله تعالى رغب في جنته، وخوف من ناره، وأمر عباده أن يرجوا رحمته، وأن يخافوا من عذابه، فمن الجهل اعتقاد أن طلب الجنة، أو الخوف من النار، يتنافي مع تحقيق العبودية لله تعالى، فإن العبادة كما تقدم، فعل ما يحبه الله ويرضاه، عملا وتركا، ومن ذلك أن نرغب في جنته، وأن نخاف من ناره، كيف وقد جاء النص الصريح من الله تعالى في ذلك، كما قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [العنكبوت:٣٦].

فهذا القول وإن كان صاحبه، يقصد أن الله تبارك وتعالى، أَهْلٌ لأن يُعْبَدَ لِذَاتِه، لا لما وعد به عباده، أو خَوَّفَهُم به، فهذا المعنى، وإن كان حقا، إلا أنه لا يجوز أبدا، أن نَنْفِي به ما أمر الله تبارك وتعالى به عباده، من سؤاله الجنة والتعلق بذلك، والخوف من النار والفرار من ذلك، ولم يكن عند السلف هذه المفارقات، ولا هذه الأقوال، ولا تكلم بها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النبي r ، بل كان الرجل يأتي يَسأل عن الجنة، والنبي r يَعِدُ أصحَابَه الجنة، ويُبَـايِعُهم على ذلك، مصدقا لما قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، فلا تنافي بين مقام استحقاق الله تعالى أن يُعْبَدَ وحده، مع مقام تعلق القلب بما وعد الله به عبـاده، أو خـوفهم بـه أو منه، فمن قال:لا أعبد الله خوفا من نـاره، ولا رغبـة في جنتـه، فقـد أتي بكـلام مبتـدع مخالف للكتاب والسنة، ولا سلف له في ذلك عـن الصـحابة الكـرام y ومـن تـبعهم بإحسان.

قوله رحمه الله:(ودَلِيلُ التَّوَكُلِ:قَوْلُهُ تَعَـالَى:{وَعَـلَى اللهِ فَتَوَكَّلُـواْ إِن كُنـتُم مُّـؤْمِنِينَ}، وقوله:{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ})، التوكل هو عمل القلب، كما قال الإمام أحمد رحمه الله، وحقيقته اعتماد القلب الجازم على الله جل وعلا، واستيقانه بـذلك، والتوكـل من أعظم دلالات التوحيد، التي تُظهر مقـدار التوحيـد في قلـب العبـد، فكلـما عَظُـمَ التوكل؛ كان ذلك علامة على قوة توحيد العبد لربه، فالعلاقة بينهما طردية.

قال ابن مفلح في (الآداب الشرعية):[وقال ابن عقيل في الفنون: والله ما اعتمد على أني مؤمن بصلاتي وصومي بل أعتمد إذا رأيت قلبي في الشدائد يفزع إليه، وشكري لمن أنعم علي، وقال: قد صُنْتُكَ بكل معنى عـن أن تكـون عبـدا لِعَبْـد، وأعلمتـك أني أنـا الخالق الرازق؛ فتركتني وأقبلت على العبيد، كُلُّكُم تسألوني وقت جدب المطـر، وبعـد الإجابة يَعْبُد بَعْضُكُم بَعْضَا، { أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار}].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَالْمُدَّعُونَ للتوكل كثير، والْمُتَزَيِّنُون به قليل، فاللهم اجعلنا من عبادك المتوكلين الصادقين، قال ابن القيم في (مدارج السالكين):[فصل فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك:أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات، ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد، ومنهم: من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب، فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء، وهو تَرْكُ الاختيار والاسترسال مع مَجَارِي الأقدار، قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد]ا.هـ.

رَاجع تَوَكُّلك على الله:

والمتأمل في أحوال الناس اليوم يرى خللاً بَيِّناً في حقيقة التوكل، ومما يخطئ فيه العامة في هذا الباب اعتمادهم على الأسباب، ويظنون أن هذا توكل، وهو حقيقة من الشرك بالله تعالى، إذ أن الاعتماد عليها، ونسيان الله جل وعلا، لا شك أنه شرك أكبر، كما أن الذين يتركون الأسباب السائغة، شرعاً وعقلاً وتجربةً، هم أيضاً يخطئون في التوكل الواجب أو كماله، وهذا إضافة إلى أنه نقص في العقل، فهو قدح في الشرع أيضاً؛ لأن الله خلق الأشياء وخلق معها أسبابها، فلا وكس ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، والتوكل بين هذين؛ اعتماد على الله، وأخذ بالأسباب التي شرعها الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسبب إن كان ثبوته بالشرع، فهذا لا أشكال فيه، ويجوز الأخذ به، بل لربما يجب؛ بل لربما كان ركناً من أركان الدين، وأما إن لم يثبت شرعاً، ولكن ثبت نفعه عقلاً، فهذا إن كان العقل سليماً - فإن العقل السليم يدل على الصراط المستقيم – جاز الأخذ به، فإذا تظافر العقلاء على نفع شيء ما، أُخذ به سبباً؛ لأن العقل السليم، لا يعارض في الشرع المنزل، فإن عارضه؛ كان العقل فاسداً، وقد يثبت السبب بالخبرة، كأن يجرب أهل كل صنعة طريقة ما، فيجدونها نافعة؛ فهذا من الأسباب التي يؤخذ بها، وهذا معنى قوله r :"**أنتم أعلم بأمور دنياكم**" أي فيما لم ينص عليه الشرع، أمرا أو نهيا، فما لا ينكره العقل السليم، وأثبتت التجربة جدواه،أخذ به، ويدخل في ذلك الطب وما يلحق به، فما جُرب وعُلم نفعه، أخذ به، فيخطئ البعض فيظنون أنه منافٍ للتوكل، مع أنه بمنزلة خبرة الزراع، ونحو ذلك، فيأخذون النافع ويدعون الضار.

ومن الأخطاء أيضاً، أن يجعل العبد عجزه وكسله تَوَكُّلاً، فيدع ما ينفعه في تحصيل خيري الدنيا والآخرة، بحجة التوكل، وإذا قيل له:(لم لا تعمل)؟، قال: الله هو الرازق ذو القوة المتين، وهو خير الرازقين، فيدع بذل الأسباب التي تجلب الرزق، زعماً منه أنه متوكل على الله، وهذا ينافي حقيقة التوكل، فلابد من التفريق بين التَّوَكُّل والتَّوَاكُل، وهذا باب نافع لمن تأمله.

وفي مسند أحمد وأبي يعلى وعبد بن حميد وهو في سنن الترمذي عن عمر بن الخطاب قال:قال رسول الله r :"لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطَّير تَغْدُو خِمَاصَا وتَرُوحُ بِطَانَا". قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأفاد هذا الخبر، ضرورة الأخذ بالأسباب، فالطيور لا تمكث في عُشِّهَا، مُنْتَظِرَة الرزق من الله تعالى، ولو شاء الله لفعل، ولكنها التربية الإيمانية على العمل بالأسباب المشروعة، فأفاد الخبر أن الطير تعمل، فهي تغدو وتروح، والله يرزق من يشاء، بما شاء، كيف شاء، جل الله في علاه.

ولما ذُكِرَ للإمام أحمد، أن هناك رجلا يريد أن يحج، ولا يأخذ معه الزاد أبدا، وزعم أنه متوكل على الله تعالى، فقال الإمام أحمد:هذا متوكل على مَزَادَةِ أصحابه، أي سيأكل منهم، ويتكفف ما في أيدي الناس، شَحَّاذاً، والمعنى أن هذا ليس من التوكل في شيء.

قال ابن القيم في (مدارج السالكين):[فترك الأسباب المأمور بها: قادح في التوكل وقد تولى الحق إيصال العبد بها]ا.هـ.

وقال أيضا في (طريق الهجرتين):[الوجه الرابع أن قوله لأنك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل إن أراد به رفض الأسباب جملة فهذا كما أنه ممتنع عقلا وحسا فهو محرم شرعا ودينا فإن رفض الأسباب بالكلية انسلاخ من العقل والدين وإن أراد به رفض الوقوف معها والوثوق بها وأنه يقوم قيام ناظر إلى سببها فهذا حق ولكن النقص لا يكون في السبب ولا في القيام به وإنما يكون في الإعراض عن المسبب تعالى كما تقدم فمنع الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل والشرع وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح في التوحيد والتوكل والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسببها وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد وبين الشرع والقدر وهو الكمال والله أعلم.

الوجه الخامس: قوله: فصار التوكل بدلا عن تلك الأسباب، هذا حق فإن التوكل من أعظم الأسباب ولكنه بدل عنها كما تكون الطاعة بدلا عن المعصية والتوحيد بدلا عن الشرك فهو بدل واجب مأمور به مطلوب من العبد والمذموم أن يجعل العبد الأسباب بدلا عن التوكل لا أن يجعل التوكل بدلا عن الأسباب]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (التحفة العراقية في الأعمال القلبية):[كَمَنْ اشْتَغَلَ بِالتَّوَكُّلِ عَنْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ وَطَاعَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا ؛ فَإِنْ غَلِطَ هَذَا فِي تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا الَّتِي هِيَ دَاخِلَةٌ فِي قَوْله تَعَالَى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} كَغَلَطِ الْأَوَّلِ فِي تَرْكِ التَّوَكُّلِ الْمَأْمُورِ بِهِ الَّذِي هُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْله تَعَالَى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وَكَذَلِكَ مَنْ تَرَكَ الْأَسْبَابَ الْمَشْرُوعَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ مِنْ جَلْبِ الْمَنَافِعِ أَوْ دَفْعِ الْمَضَارِّ قَادِحٌ فِي الشَّرْعِ خَارِجٌ عَنْ الْعَقْلِ وَمِنْ هُنَا غَلِطُوا فِي تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا وَظَنُّوا أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ وَالتَّوَكُّلُ مَقْرُونٌ بِالْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } وَالْعِبَادَةُ فِعْلُ الْمَأْمُورِ فَمَنْ تَرَكَ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا وَتَوَكَّلَ لَمْ يَكُنْ أَحْسَنَ حَالًا مِمَّنْ عَبَدَهُ وَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بَلْ كِلَاهُمَا عَاصٍ لله تَارِكٌ لِبَعْضِ مَا أُمِرَ بِهِ . وَالتَّوَكُّلُ يَتَنَاوَلُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ لِيُعِينَهُ عَلَى فِعْلِ مَا أَمَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ لِيُعْطِيَهُ مَا لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ فَالِاسْتِعَانَةُ تَكُونُ عَلَى الْأَعْمَالِ وَأَمَّا التَّوَكُّلُ فَأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَيَكُونُ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ لِجَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي حَمْلِ الزَّادِ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَسْفَارِ فَالَّذِي مَضَتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ الله r وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَكَابِرُ الْمَشَايِخِ هُوَ حَمْلُ الزَّادِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ وَانْتِفَاعِ الْحَامِلِ وَنَفْعِهِ لِلنَّاسِ. وَزَعَمَتْ " طَائِفَةٌ " أَنَّ مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ أَلَّا يَحْمِلَ الزَّادَ وَقَدْ رَدَّ الْأَكَابِرُ هَذَا الْقَوْلَ كَمَا رَدَّهُ الْحَارِثُ المحاسبي فِي كِتَابِ التَّوَكُّلِ وَحَكَاهُ عَنْ شَقِيقٍ البلخي وَبَالَغَ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَذَكَرَ مِنْ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ مَا يُبَيِّنُ بِهِ غَلَطَهُمْ وَأَنَّهُمْ غالطون فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُمْ عَاصُونَ لله بِمَا يَتْرُكُونَ مِنْ طَاعَتِهِ وَقَدْ حُكِيَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّ بَعْضَ الْغُلَاةِ الْجُهَّالِ بِحَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ كَانَ إذَا وُضِعَ لَهُ الطَّعَامُ لَمْ يَمُدَّ يَدَهُ حَتَّى يُوضَعَ فِي فَمِهِ وَإِذَا وُضِعَ يُطْبِقُ فَمَهُ حَتَّى يَفْتَحُوهُ وَيُدْخِلُوا فِيهِ الطَّعَامَ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ حَرَّمَ الْمَكَاسِبَ . وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ بِسُنَّةِ الله فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْبَابِ وَشَرَعَ لِلْعِبَادِ أَسْبَابًا يَنَالُونَ بِهَا مَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَثَوَابَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِمُجَرَّدِ تَوَكُّلِهِ مَعَ تَرْكِهِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ يَحْصُلُ مَطْلُوبُهُ وَأَنَّ الْمَطَالِبَ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ أَسْبَابًا لَهَا . فَهُوَ غالط فَاَللهُ سُبْحَانَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضَمِنَ لِلْعَبْدِ رِزْقَهُ وَهُوَ لَا بُدَّ أَنْ يَرْزُقَهُ مَا عَمَّرَ فَهَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّزْقُ الْمَضْمُونُ لَهُ أَسْبَابٌ تَحْصُلُ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ وَغَيْرِ فِعْلِهِ . وَ "أَيْضًا" فَقَدْ يَرْزُقُهُ حَلَالًا وَحَرَامًا فَإِذَا فَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَزَقَهُ حَلَالًا وَإِذَا تَرَكَ مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَمَرَهُ بِهِ فَقَدْ يَرْزُقُهُ مِنْ حَرَامٍ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الدُّعَاءُ وَالتَّوَكُّلُ؛ فَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي حُصُولِ مَطْلُوبٍ وَلَا دَفْعِ مَرْهُوبٍ وَلَكِنَّهُ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ وَلَكِنْ مَا حَصَلَ بِهِ حَصَلَ بِدُونِهِ وَظَنَّ آخَرُونَ أَنَّ ذَلِكَ مُجَرَّدُ عَلَامَةٍ وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَالْجُمْهُورُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَا قَدَّرَهُ اللهُ بِالدُّعَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْكَسْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ إذَا قَالَ الْقَائِلُ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ السَّبَبُ مَاذَا يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ هَذَا الْمَقْتُولُ لَوْ لَمْ يُقْتَلْ هَلْ كَانَ يَعِيشُ وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الْقَدَرِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ وَظَنَّ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ أَنَّهُ كَانَ يَمُوتُ وَالصَّوَابُ أَنَّ هَذَا تَقْدِيرٌ لِأَمْرِ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ يَكُونُ فَاَللهُ قَدَّرَ مَوْتَهُ بِهَذَا السَّبَبِ فَلَا يَمُوتُ إلَّا بِهِ كَمَا قَدَّرَ اللهُ سَعَادَةَ هَذَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَتَوَكُّلِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ وَكَسْبِهِ فَلَا يَحْصُلُ إلَّا بِهِ وَإِذَا قَدَّرَ عَدَمَ هَذَا السَّبَبِ لَمْ يَعْلَمْ مَا يَكُونُ الْمُقَدَّرُ وَبِتَقْدِيرِ عَدَمِهِ فَقَدْ يَكُونُ الْمُقَدَّرُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يَمُوتُ وَقَدْ يَكُونُ الْمُقَدَّرُ أَنَّهُ يَحْيَى وَالْجَزْمُ بِأَحَدِهِمَا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ الْقَائِلُ : أَنَا لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ فَإِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ حَيَاتِي فَهُوَ يُحْيِينِي بِدُونِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ كَانَ أَحْمَقَ كَمَنْ قَالَ : أَنَا لَا أَطَأُ امْرَأَتِي فَإِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي وَلَدًا تَحْمِلُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ]ا.هـ.

كيف تَقيسُ تَوَكُّلَك على الله؟:

واعلم رحمك الله تعالى، أن المَحَكَّ الحقيقي، الذي تَظْهَرُ فيه مُخَبَّآت الصدور، ويتحَقَّقَ العبد به، عن حقيقة ما معه من التوكل، ذلك الذي يقع من العبد عند الشدائد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمُلِمَّات، فإن العبد في مثل هذه المقامات يَنْجُمُ التوكل الذي في قلبه، ويَعْلَمَ حقيقة، على من هو متوكل؟، أَعَلَى الله جل وعلا؟، أم على من سواه؟.

ولو تأملت فيمن حولك، أو فَتَّشْتَ دَاخِلَةَ نَفْسِك،؛ لَوَجَدت أن كثيرا من الناس، عند الشدائد، يتذكرون بعض قدراتهم وعلاقاتهم، وتفزع قلوبهم، إلى فلان وفلان، وهذا خلل عظيم وشر مستطير، فلنتنبه لذلك.

ومن جميل ما أفاده شيخنا العلامة سليمان بن ناصر العلوان، وكثيرا ما كان يُرَدِّدُهُ:

[قال ابن عقيل رحمه الله:أنا ما أقيس إيماني عند الازدحام عند أبواب المساجد ولا في الحج (لبيك اللهم لبيك) ولكن أنظر إلى إيماني وأقيسه، أين يفزع قلبي عند حدوث النكبات والشدائد]ا.هـ.

واعلم أن كثيرا من أهل العلم، يرى أن اتخاذ أسباب لم يشرعها الله تعالى، أن هذا من الشرك بالله تعالى، وقد يكون أصغر، وقد يكون أكبر، بحسب طبيعة السبب، وحاله مع العمل.

أعمال تنافي التوكل:

واعلم أرشدك الله، أن من الأمور ما يقع منافيا للتوكل، إما في كماله الواجب أو في أصله، كالتطير بالمخلوقات ومجريات الأحداث، وهو من صنيع المشركين، وأهل الجاهلية، وذلك أن البعض إذا أراد أن يعمل عملا أو يقضي حاجة، فظهر له شيء من الدواب، كالغراب والبوم ونحو ذلك، أو رأى أعْوَرا أو مَجْذُوما، أو أعْرَجا، أو حصل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدث معين، أو ذُكِرَ عنده خَبَرٌ ما؛ تشاءم وترك العلم وامتنع منه، وهذا لا شك أنه من الضلال المبين، وقد ذكره الله تعالى عن الضالين عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} [يس:١٣-١٩]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ الله بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}[النمل:٤٥-٤٧]، وقوله: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:١٣١].

قال ابن مفلح وهو يذكر فصلا في الطيرة والشؤم والتطير والتشاؤم والتفاؤل في كتابه (الآداب الشرعية):[وصح عنه عليه السلام لا طيرة ويعجبني الفأل الكلمة الحسنة الطيبة وصح عنه أيضا:"لا طيرة وأحب الفأل الصالح"، روى ذلك أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وفي الطيرة توقع البلاء وسوء الظن والفأل رجاء خير، وعن أنس أن رسول الله r كان يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع يا راشد يا نجيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رواه الترمذي وقال حسن غريب، وعن عبد الله بن مسعود مرفوعا:"الطيرة شرك ولكن الله يذهبه بالتوكل" رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، وعندهم:"وما منا إلا" وجعله الترمذي من قول ابن مسعود، ولأحمد من حديث عبد الله بن عمرو:"من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك" قالوا: وما كفارة ذلك، قال:"أن يقول اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك"، وعن الفضل بن عباس قال خرجت مع رسول الله r يوما فبرح بي ظبي فمال في شق فاحتضنته فقلت يا رسول الله تطيرت، قال:"إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك" رواه أحمد من رواية محمد بن عبد الله بن علاثة، وهو مختلف فيه، وفيه انقطاع.

قوله: برح بي أي طار عن اليسار والبارح ما جرى من اليسار والسانح ما جرى من اليمين

وقال معاوية بن الحكم للنبي r منا رجال يتطيرون، قال:"ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم"، وفي رواية:"فلا يصدنكم"رواه مسلم، ومعناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا تكليف به لكن لا تمنعوا بسببه من التصرف لأنه مكتسب فيقع به التكليف. قال في النهاية: الطيرة هي التشاؤم بالشيء يقال تطير طيرة وتخير خيرة ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضرر، وفي المسند والصحيحين وغيرهما:"الشؤم في المرأة والدار والدابة" زاد مسلم:"والخادم" ورووا أيضا:"إن كان الشؤم في شيء"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيكون على ظاهره، واختار جماعة من العلماء أنه مخصوص من النهي عن الطيرة ورووا أيضا:"لا عدوى ولا طيرة وإنما الشؤم" وذكروه عن حكيم بن معاوية مرفوعا:"لا شؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس" رواه الترمذي ورواه ابن ماجه من حديث مخمر بن معاوية وفيهما معاوية بن حكيم تفرد عنه يحيى بن جابر الطائي،ولأحمد من حديث سعد:"لا عدوى ولا طيرة وإن يك ففي المرأة والفرس والدار" رواه أبو داود وفيه:"إن تكن الطيرة في شيء" فذكره وهو حديث جيد، وذكر ابن عبد البر وغيره الخبر المروي عنه عليه السلام:"ثلاثة من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح وثلاثة من شقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء"، وروى أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا هشام عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله r :"لا يتطير من شيء ولكنه إذا أراد أن يأتي أرضا سأل عن اسمها فإن كان حسنا رؤي البِشْرُ في وجهه وإن كان قبيحا رؤي ذلك في وجهه وكان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه فإن كان حسن الاسم رؤي البشر في وجهه وإن كان قبيحا رؤي ذلك في وجهه. ورواه أبو داود عن مسلم بن إبراهيم عن هشام وفيه فإذا دخل قرية وذكر معناه، ورواه النسائي عن ابن مثنى عن معاذ بن هشام عن أبيه ولأحمد وابن ماجه من حديث ابن عباس:"لا تديموا إلى المجذومين النظر" زاد أحمد من حديث علي:"وإذا كلمتموهم فليكن بينكم وبينهم قدر رمح"، وذكر بعض العلماء أن الطيرة من الكبائر وما تقدم من أنها مكروهة ذكره غير واحد من الأصحاب والأولى القطع بتحريمها ولعل مرادهم بالكراهة التحريم وظاهر ما تقدم أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حديث:"لا عدوى ولا طيرة" على ظاهره فيحتمل أن حديث:"لا يورد" بكسر الراء :"مُمْرِضٌ على مُصِح"، وهو في المسند والصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ليس للعدوى بل للتأذي بقبح صورة ورائحة كريهة والأولى أن حديث:"لا عدوى ولا طيرة" نفي لاعتقاد الجاهلية أن ذلك يعدي بطبعه ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بفعل الله تعالى وقدره فيكون قوله:"لا يورد ممرض على مصح" إرشادا منه عليه السلام إلى الاحتراز وفي شرح مسلم أن هذا قول الجمهور وزعم بعض العلماء أن الخبر الثاني منسوخ بخبر لا عدوى وليس بالقوي. وقد قال إسحاق بن بهلول وذكرت لأحمد بن حنبل هذا الحديث يعني حديث جابر أن رسول الله r أخذ بيد مجذوم فوضع يده معه في القصعة، فقال:"باسم الله ثقة بالله"، فقال إليه أذهب فيحتمل أن هذا كما ذهب إليه عمر وغيره من السلف إلى الأكل معه وخبر جابر هذا رواه أبو داود وعثمان بن بي شيبة عن يونس عن محمد بن مفضل بن فضالة عن حبيب بن الشهيد عن محمد بن المنكدر عن جابر مفضل هو البصري لا المصري قال ابن معين ليس بذاك وقال أبو حاتم يكتب حديثه وقال النسائي ليس بالقوي ووثقه ابن حبان وقال ابن عدي لم أر له أنكر من هذا ورواه ابن ماجة من حديث يونس وكذا الترمذي وقال غريب ورواه شعبة عن حبيب بن بريدة أن عمر أخذ بيد مجذوم وقال وحديث شعبة عندي أشهر وأصح، وللبخاري من حديث أبي هريرة:"وفر من المجذوم كما تفر من الأسد" ولأحمد ومسلم عن الشريد بن سويد قال كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي r :"إنا قد بايعناك فارجع"، وعند هؤلاء أن هذا منسوخ ويحتمل أن مراد الإمام أحمد أنه لا يجب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اجتنابه وإن استحب احتياطا وهو قول الأكثر وهو أولى إن شاء الله تعالى؛ ولهذا يقول الأطباء إن الجذام والسل من الأمراض المعدية المتوارثة وإن كل مرض له نتن وريح يعدي كالجذام والسل والجرب والحمى الوبائية والرَّمَد وإنه ربما أعدى بالنظر إليه والقروح الرديئة والوباء وهو يحدث في أخر الصيف ولا يريدون بذلك معنى العدوى بل لأجل الرائحة وهم أبعد الناس عن الإيمان بيمن وشؤم لا سيما وقد يكون في بدن الصحيح قبول واستعداد لذلك الداء والطبيعة سريعة الانفعال نقالة لا سيما مع الخوف والوهم فإنه مستول على القوى والطبائع ويتوجه احتمال يجب ذلك هنا. وفي قوله:"لا يورد ممرض على مصح: عملا بظاهر الأمر والنهي لما في ذلك من الضرر وهذا ظاهر كلام بعض العلماء وأظنه قول ابن قتيبة في كتاب اختلاف الحديث]ا.هـ.

وفي الصحيحين عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي قَالَ لَا وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ قُلْتُ وَلِمَ قَالَ كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"، فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ:ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ،قَالَ:"اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ"، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ، قَالَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ:"سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توجه إلى من بيده مقاليد الأمور:

واعلم رحمك الله، أن الله تعالى هو مقدر الأقدار، ومكور الليل على النهار، وأنه لن يأتيك إلا ما كتب الله لك، فَثِقْ به وتوكل عله، ولتكن همة قلبك مصروفة إلى الله تبارك وتعالى، ولا تعلق قلبك بمخلوق، بل واعلم أن المخلوق لربما أَضَرَّ بِك من حيث تظن أنه ينفعك، فإذا أخذت بالأسباب المشروعة فلا تلتفت بقلبك إليها، بل أَلِحَّ على الله تعالى بالدعاء، أن يوفقك ويقضي حاجتك، فإن المخلوق ما هو إلا سبب، والله تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فلا تعلق قلبك بأحد سواه، مهما كان استيثاقك من إمكانيات وعلاقات، هذا العبد أو ذلك.

وفي الحديث الذي في مسند أحمد وأبي يعلي وفي سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ الله r يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله r يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلْ اللهَّ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ". قال الترمذي:هذا حديث حسن صحيح.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي:

سَهِرَتْ أَعينٌ، وَنَامَتْ عُيونُ ... في أمورٍ تكونُ أو لا تكونُ

فَادْرَأ الهمَّ مَا استَطعْتَ عَنْ النَّفْـ...ـس فحملانكَ الهمومَ جنونُ

إن رَبَّاً كفاكَ بالأمسِ ما كا ... نَ سَيَكْفِيكَ في غَدٍ مَا يَكُونُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الشيخ ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ:مَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ.قَالُوا:الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ. وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ وَإِنَّمَا التَّوَكُّلُ وَالرَّجَاءُ مَعْنًى يَتَأَلَّفُ مِنْ مُوجِبِ التَّوْحِيدِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ. وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ الِالْتِفَاتَ إلَى السَّبَبِ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ وَرَجَاؤُهُ وَالِاسْتِنَادُ إلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شُرَكَاءَ وَأَضْدَادٍ وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ لَمْ يُسَخَّرْ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَأَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَالْأَفْلَاكَ وَمَا حَوَتْهُ لَهَا خَالِقٌ مُدَبِّرٌ غَيْرَهَا]ا.هـ.

توكل الصَّادعين بالحق:

ومن أعظم مراتب التوكل، ما يكون في مقام تبليغ الدين، والصدع بالحق، كما قال ابن عباس t ، كما في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:({حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ r حِينَ قَالُوا:{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ})، وعليه يحمل قوله r الذي في صحيح مسلم من طريق قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلاَةِ مَرْوَانُ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ الصَّلاَةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ. فَقَالَ قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ. فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في:(مدارج السالكين):[التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة]ا.هـ.

قال المؤلف:(والدليل قوله تعالى:{وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين})، تقديم المعمول على العامل في هذه الآية يفيد الحصر والقصر، ففي الآية قدم الله تبارك وتعالى الجار والمجرور {وعلى الله} على الفعل {فتوكلوا}، وهذا الأسلوب يؤكد على أن التوكل عبادة من أجل العبادات لا يجوز صرفها لغير الله تبارك وتعالى، والمعنى، أي ليس بمؤمن من توكل على غير الله تعالى، فالعامل هنا فعل الأمر، والمعمول الجار والمجرور وتقدمه يفيد ما تقدم، ومن هنا يُعلم خطأ من أجاز قولك:(توكلت على الله ثم عليك).

وذلك أن التوكل عمل قلبي كما تقدم تقريره، فلا يجوز صرف هذا العمل لغير الله عز وجل، فلا يجوز التوكل في شيء على المخلوقين، بل التوكل كله لابد أن يكون على الخالق جل وعلا؛ ولهذا فالراجح منع (ثم) في هذا الموطن، والاكتفاء بقولك:(توكلت على الله) ومنه قول:(حسبي الله ثم فلان)، فهو بمنزلة ذلك.

أما إذا استعمل الواو، فقال:(توكلت على الله وعليك)، فهذا شرك بالله تعالى، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، بحسب ما قام بقلب العبد، من المعاني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تقل توكلت على الله ثم عليك:

وكذلك لا يجوز إطلاق (توكلت على الله ثم عليك)، بمعنى الوكالة في عمل الجوارح؛ لأن الواجب على العبد التأدب مع الله تعالى، ومن أعظم ذلك ترك الألفاظ المُحْتَمِلَةِ والمُوهِمَة، والمَصِير إلى الألفاظ الصريحة في ذلك كقولك (وَكَّلْتُ فلانا).

الفرق بين التوكل والوَكالَة:

واعلم أن هناك فرقا بين التوكل والوكالة، فيجوز أن تقول:(وكَّلْتُ فلانا)، ولا يجوز أن تقول:(توكلت على فلان)، فإن الوكالة هنا بمعنى الإنابة، وهي من أعمال الجوارح، وهذا لا يُنَافِي الشرع، بل جاء الإسلام بجوازه وبيانه.

وأما:(توكلت على فلان)، فالتوكل عمل القلب فلا يجوز هذا اللفظ كما تقدم، ومن الألفاظ المنهي عنها في هذا المقام قول:(دع هذا الأمر علي).

قوله:{إن كنتم مؤمنين}، تذكير بالإيمان، وتهديد بذهابه، والسياق دال على انتفاء الإيمان في حق من اعتمد بقلبه على المخلوقين، يرجو منهم قضاء حاجته وتفريج كربته وإغاثة لهفته، فإن هذا لا يكون إلا لله رب العالمين.

وقد يدل السياق في بعض مقاماته، على أن قوله تعالى:{إن كنتم مؤمنين} لا يلزم منه انتفاء الإيمان بالكلية، إذا كان العمل أو المعصية لا ترتقي إلى حد الشرك الأكبر، إلا بقيد الاستحلال أو الجحود ونحو ذلك، وذلك كقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨]، وقوله:{قَالَ رَجُلَانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة:٢٣]، فإن جُبْنَهُم وخَوَرَهُم لا يعد ناقضا لإسلامهم، لوجود أدلة أخرى تدل على أن التخلف عن الجهاد، وقتال العدو، والجُبن عن ذلك والنُّكول عنه، لا ينقض الإسلام.

فائدة واستنباط من قوله تعالى:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا} [البقرة: ٢٧٥].

إن صيغة المضارعة هنا:{يأكلون} دالة على الاستمرارية والاستمراء للربا، وهنا تقع الورطة:{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر:٨]؛ فيتحول الإحساس بالمنكر إلى إحساس بالرضى عنه، الذي يكون سبيلا إلى استحلاله:{إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}؛ ولهذا قال تعالى في السياق:{فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وقال:{وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}، ومن هنا تعلم عظيم فقه السلف القائلين:**إن المعاصي بريد الكفر**. والله أعلى، وأعلم.

قال المؤلف:({والدليل قوله تعالى:{ومن يتوكل على الله فهو حسبه}})، {مَنْ}:اسْمُ شرط، تجزم فِعْلَين، الأول:فعل الشرط، والثاني: جَوَابُه وجَزَاءُه ، والفَاءُ رَابِطَةٌ فيه، ولا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، فيكون المعنى: مـن أراد أن يكـون في حَسْـبِ الله وكفايتـه؛ فعليه أن يتوكل عليه وحده، ومن أراد أن لا يكون في حسب الله وكفايته، فليتوكل على غيره، ممن شاء من المخلوقين الضعفاء، وكما قيل: ومن تَوَكَّلَ على شيء وُكِلَ إليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بم نَنَال دفَاعَ الله عَنَّا؟:

فلن تَنَال من الله تعالى، الحَسْبَ والكفاية والمُدَافَعَة، بحق وحقيقة، حتى تحقق مقام التوكل على الله تعالى، واعتبر بمقام الأنبياء والصديقين في هذا الباب، كما قال تعالى **عن موسى الكليم**، وهو يظهر عظيم التوكل والاعتماد على الله تعالى، عندما ظهر فرعون بجنوده، وهو يطارد موسى عليه السلام ومن معه، فَشَكَّ بَعْضُ قومه، وتَرَدَّدَ بعضهم، فقال عليه الصلاة والسلام: {كلا إن معي ربي سيهدين}، كما قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:٦١-٦٨].

وقال **عن نوح عليه السلام**: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [يونس:٧١-٧٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال **عن نبيه هود عليه السلام** في خطاب قومه له، وما رَدَّ عليهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [هود:٥٣-٥٨].

وقال **عن شعيب عليه السلام**: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٧-٨٨].

وقال **عن يعقوب عليه السلام** مع بَنِيهِ: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف:٦٧].

وقال **عن نبيه محمد r والأنبياء من قبله**: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد:٣٠]، وقوله:{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَّ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم:١١-١٥].

وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:{حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ r حِينَ قَالُوا {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

حصول الحسب والكفاية عام لكل من كان أهلا لذلك:

واعلم أن هذا ليس خاصا بالأنبياء والمرسلين، بل هي كذلك لأتباعهم، حِزْبِ الله المفلحين المتقين، ولكن بقدر ما يكون الاتباع، والتوحيد والطاعة، بقدر ما يكون النصر والتأييد، والمدافعة، من الله تعالى عن عبده. وهذا معنى دقيق يَعِزُّ من يَتَفَطَّنُ إليه عَمَلاً، وإلا فالقائلون به كُثُر، نسأل الله تعالى من فضله، ونعوذ به من الخذلان.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفلاح، والعزة والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة]ا.هـ.

ومنه قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال:٦٤]، إي إن الله تعالى كافيك، وكافي أتباعك على الحق، إلى قيام الساعة، كما قال تعالى:{أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ } [الزمر:٣٦-٣٧]، وقوله:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٣٧].

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[وقال تعالى:{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}. وقال تعالى:{فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم}. وقال تعالى:{يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}. أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهنا تقديران أحدهما:أن تكون الواو عاطفة ل "مَن" على الكاف المجرورة ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار وشواهده كثيرة وشبه المنع منه واهية. والثاني:أن تكون الواو واو "مع" وتكون "مَن" في محل نصب عطفا على الموضع "فإن حسبك" في معنى "كافيك" أي الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب:حسبك وزيدا درهم، قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا .... فحسبك والضحاك سيف مهند

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيها تقدير ثالث أن تكون "مَنْ" في موضع رفع بالابتداء أي ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله.

وفيها تقدير رابع وهو خطأ من جهة المعنى وهو أن تكون "مَن" في موضع رفع عطفا على اسم الله، ويكون المعنى:حسبك الله وأتباعك، وهذا وإن قاله بعض الناس،فهو خطأ محض، لا يجوز حَمْلُ الآية عليه، فإن "الحَسْبَ" و "الكفاية" لله وحده، كالتوكل، والتقوى، والعبادة، قال الله تعالى:{وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين}. فَفَرَّقَ بين الحَسْبِ والتَّأْيِيد، فجعل الحَسْبَ لَهُ وحده، وجعل التَّأييد له بنصره وبعباده، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحَسْبِ، فقال تعالى:{الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}. ولم يقولوا:حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم، ومَدْحُ الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله الله: وأتْبَاعُكَ حَسْبُكَ؟! وأتْبَاعُه قد أفردوا الرب تعالى بالحَسْبِ، ولم يشركوا بَيْنَه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟!، هذا مِن أمْحَلِ المُحَال، وأبْطَلِ الباطل، ونظير هذا قوله تعالى:{ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون}. فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله، كما قال تعالى:{وما آتاكم الرسول فخذوه}. وجعل الحَسْبَ له وحده، فلم يقل، وقالوا:حسبنا الله ورسوله، بل جعله خَالِصَ حَقِّهِ، كما قال تعالى:{إنا إلى الله راغبون}. ولم يقل وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى:{فإذا فرغت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانصب وإلى ربك فارغب}. فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه، {أليس الله بكاف عبده}. فالحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى، أنه وحده كافٍ عَبْدَه، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد، أكثر من أن تذكر هاهنا]ا.هـ.

المُتَوَكِّلون على الشَّهَادات العلمية كُثُر:

تنبيه هام: وفي زماننا هذا، هناك من يتوكل على الشهادات النظامية، فيعلق بها الآمال، ويرى أنها مخلصة له من أيام الشدة وسوء الأحوال، بل وحتى صار كثر من الناس يعتقد أنه إذا كان معه شهادة نظامية؛ فقد نجى من كل كرب وبلاء، وهذا من أخبث ما يكون في هذا الزمان، حتى أخرجنا نساء المسلمين من بيوتهن إلى المدارس والجامعات، فصارت خَرَّاجَة ولاَّجَة، وأكثرهن كاسية عارية، مع اختلاط بالرجال، ناهيك عن الدساتير الجاهلية التي تحكم تلك المستنقعات الآسنة – سيأتي بيانه في الكلام عن الديمقراطية - فإذا سألت لما تفعلون هذا بالمرأة؟!!، ألم تعلمون أن الله تعالى أمرها بالقرار، وتكفل لمن اتقاه بالمخرج والرزق الحسن؟!!، قالوا مباشرة، لابد أن يكون معها سلاح، وربما قال بعضهم، من أين تأكل وتشرب، ومن أين تعيش وتقضي حوائجها، فلا حول ولا قوة إلا بالله من هذا الخذلان.

وهكذا صار بعض أفراد هذه الأمة، يركب المحرمات بل والشركيات والكفريات، طلبا للرزق وتكثيرا لماله. {نسوا الله فنسيهم}، {نسوا الله فأنساهم أنفسهم}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جاء في ديوان الإمام الشافعي:

تَـوكلْتُ في رِزْقي عَلَى اللهِ خَـالقـي ... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شــكٌ رازقي
ومـا يـكُ مـن رزقي فليسَ يفوتني ... وَلَو كَانَ في قَاع البَحَارِ الغَوامِقِ
سـيـأتي بـهِ اللهُ العظـيـمُ بفـضـلـهِ ... ولو لم يكن مني اللســانُ بناطقِ
ففي أي شيءٍ تذهبُ النفسُ خسرةً ... وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلاَئِقِ

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الرغبة والرهبة والخشوع، قوله تعالى:{إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين})، الرغبة:لغة الابْتِهَالُ أو هو الضَّراعَةُ والمَسْأَلَةُ والطلب، هكذا أصل وضعها في اللغة، فلما جاء الإسلام بين الممنوع منها والمأذون فيه، فقيد وفصل، فإذا كنت متضمنة الضراعة، وتعلق القلب، واعتقاد النفع والضر، فهذا خاص بالله تعالى، وهو بهذا الاعتبار عبادة من أجل العبادات، فمن صرفها لغير الله فهو مشرك كافر، وفي زماننا هذا هناك من عباد القبور والأولياء، والمشاهد والأضرحة وغيرها، من يدعوا هؤلاء الأنداد، بهذه الحال أو أشد عياذا بالله من الشرك بالله تعالى.

والرغبة في هذه الآية، هي هنا بيان لحال هؤلاء الكرام البررة عند الدعاء، أنهم يطلبون الخير من الله تعالى وحده، حالة كونهم ضارعين، مبتهلين، راجين، منكسرين، ملحفين في المسألة، وهذه كلها صفات رفعة للعبد، وشرف له، فإن العبد كلما كان أكثر تَذَلُّلا لله تعالى؛ كان أكثر قربا من الله تعالى، وأشرف وأكرم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اختلف المفسرون في عودة الضمير في هذه الآية، أهُوَ عائد على جميع من تقدم من الأنبياء والمرسلين، أم أنها عائدة على زكريا وأهل بيته عليهم السلام، قولان لأهل العلم.

والرغبة من الألفاظ المتضادة، التي تستعمل في الشيء وضده، فإذا عُدِّيَت بـ (في) أو (إلى) دلت على طلب الشيء وسؤاله، وأما إذا عديت ب (عن) دلت على النفرة منه، والابتعاد عنه، وإذا لم تعد لا بهذا ولا ذاك، حَدَّدَ معناها السياق الذي وردت فيه، كما هو هنا في هذه الآية. والله أعلم.

كما في قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة:١٣٠]، وقوله: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة:١٢٠]، وقوله: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم:٤٦]، وقوله: {عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} [القلم:٣٢]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ} [التوبة:٥٩]، وقوله: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} [الشرح:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما في الصحيحين عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله r فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله r قُلْتُ **وَهِيَ رَاغِبَةٌ** أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ نَعَمْ:"صِلِي أُمَّكِ". فهنا السياق دل على أنها جاءت مقبلة تريد الخير.

وفي الصحيحين من طريق ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ r وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ **تَرْغَبُ عَنْ** مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ r :"لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ"، فَنَزَلَتْ:{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} وَنَزَلَتْ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا **تَرْغَبُوا عَنْ** آبَائِكُمْ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ t يَقُولُ جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ r يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ r فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ r قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ الله r إِلَيْهِمْ فَقَالَ:"أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر عن النبي r في قصة النفر الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار، فسأل كل واحد منهم ربه تبارك وتعالى بصالح العمل، الحديث وفيه: "قَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ **فَرَغِبَ عَنْهُ** فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللهَّ فَقُلْتُ اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرُعَاتِهَا فَخُذْ فَقَالَ اتَّقِ اللهَّ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَخُذْ فَأَخَذَهُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللهُّ".

وفي الصحيحين قَالَتْ عَائِشَةُ وَقَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}، يَعْنِي: هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا **مَا رَغِبُوا فِي** مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ **رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ**. ونحو ذلك من المواضع من الكتاب والسنة.

والمقصود أن الأدلة دلت على أن الرغبة تكون عبادة لله تعالى، إذا كانت بمعنى التذلل والتضرع، والابتهال، وتعلق القلب، فهذا لا يكون إلا لله رب العالمين، فمن فعل مثل ذلك مع أي مخلوق كائنا من كان؛ فقد أتى الشرك بالله تعالى، عياذا بالله من الخذلان، ومن ذل القلوب لغير علام الغيوب.

قوله: (والرهبة)، الرهبة لغة: الخوف، ويكون في الحال وفي المآل، فيدخل فيه الخوف من سوء العاقبة، ويدخل في ذلك معنى الزَّهَادَةُ في الدنيا، ومنها الرهبانية، والزهد منه الممدوح ومنه المذموم بحسب موارد الأدلة، وقد ذم الله تعالى رهبانية النصارى حيث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت بالمعنى الفاسد، كما قال تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:٢٧].

جاء في القاموس المحيط:[رَهِبَ كَعَلِمَ رَهْبَةً ورُهْباً بالضم وبالفتح وبالتحريكِ ورُهْباناً بالضم ويُحَرَّكُ: خافَ، والاسْمُ:الرَّهْبَى. وأرْهَبَهُ واسْتَرْهَبَهُ:أخافَهُ. وتَرَهَّبَهُ:تَوَعَّدَهُ. والتَّرَهُّبُ:التَّعَبُّدُ]ا.هـ.

وبمعنى الخوف جاءت الآيات، كقوله تعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف:١١٦]، وقوله: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف:١٥٤]، وقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠]، وقوله: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [القصص: ٣٢].

وفي استعمال الشارع، تنوعت مواردها لاختلاف السياقات التي وردت فيها، ولكنها كلها داخلة في درجات الخوف، وهي درجة من الخوف تدخل العبد من جراء عظمة ما بلغه، رؤية أو سماعا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأصل الكلمة مبني على التعظيم، وحيث لا أعظم من الله تعالى؛ كان لزاما أن تكون الرهبة الحقيقة منه تبارك وتعالى، وهي بهذا الاعتبار عبودية عظيمة، ومما يدل على ذلك أمر الله تعالى عباده بها، كقوله تعالى:{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة:٤٠]، وقوله:{وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [النحل:٥١].

وفي الصحيحين عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ الله r :"إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ وَقُلْ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ" فَقُلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ قَالَ:"لَا وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ".

وفي صحيح مسلم من طريق حطان بن عبد الله الرقاشي قال:صليت مع أبي موسى الأشعري صلاة فلما كان عند القعدة قال رجل من القوم أُقِرَّت الصلاة بالبر والزكاة، قال فلما قضى أبو موسى الصلاة وسلم انصرف، فقال: أيكم القائل كلمة كذا وكذا؟، قال فَأَرَمَّ القَوْمُ، ثم قال:أيكم القائل كلمة كذا وكذا؟، فَأَرَمَّ القوم، فقال:لعلك يا حطان قلتها؟، قال: ما قلتها، ولقد رَهِبْتُ أن تَبْكَعَنِي بها...الحديث".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في قوله تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الحشر:١٣]؛ لتعلم أن هناك معنى شركي في الرهبة، وذلك عندما يكون قدر المخلوق في القلب أعظم من الخالق أو مساويا له، عياذا بالله من الخذلان.

والمقصود بالرغبة والرهبة هنا التي هي عبودية، هي طلب الخير الذي لا يقدر عليه إلا الله، ودفع الشر الذي لا يدفعه إلا الله، أما إن كان فيما هو في وسع المخلوق، وقدرته مما خوله الله جل وعلا إياه، فهذا لا حرج فيه، بالضوابط الشرعية، حتى لا يدعي عبد ما ليس له كما تقدم.

قوله:(والخشوع): لغة الخضوع والسكون، ويكون في الظاهر والباطن، وقيل الخضوع في البدن، والخشوع في الصوت والبصر.

جاء في القاموس المحيط:[الخُشوعُ:الخُضوعُ كالاِخْتِشَاعِ، والخُشُوعُ في الصوتِ والبَصَرِ:السُّكونُ والتَّذَلُّلُ، وفي الكَوْكَبِ:دُنُوُّه من الغُروبِ. والخاشِعُ:المكانُ المُغْبَرُّ لا مَنْزِلَ به، والمكانُ لا يُهْتَدَى له، والمُسْتَكِينُ والراكِعُ.وتَخَشَّعَ:تَضَرَّعَ]ا.هـ.

وفي تاج العروس من جواهر القاموس:[وخَشَعَ بِبَصَرِه، أَيْ غَضَّهُ، وفي النِّهَايَة:الخُشُوعُ في الصَّوْتِ والبَصَرِ كالخُضُوعِ في البَدَنِ. ومِنْهُ حَدِيثُ جابِرٍ:أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فقالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ" قَالَ:فخَشَعْنَا، أَي خَشِينَا وخَضَعْنا.والخُشُوعُ:السُّكُونُ والتَّذَلُّلُ. ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ} أَي انْخَفَضَتْ. وقِيلَ:سَكَنَتْ. وكُلُّ سَاكِنٍ خَاضِعٌ وخَاشِعٌ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه قوله تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت:٣٩]

وفي صحيح مسلم من حديث جابر t قال:أَتَانَا رَسُولُ الله r فِي مَسْجِدِنَا هَذَا وَفِي يَدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُخَامَةً فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ:فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ:فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قُلْنَا: لاَ أَيُّنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا". ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ....الحديث.

والخشوع في الآية: هو ركون القلب إلى الرب، والتذلل له والسكون إليه، وخضوع البدن بين يدي الله جل وعلا، مما يصرف العبد عن شواغل الدنيا، ويقبل به على الله تعالى، وغالباً الخشوع يطلق على القلب والجوارح، وقال بعضهم إن أريد به الجوارح فأخص به الخضوع، وهو داخل في مسمى الخشوع، ولا مُشَاحَّ إذن بهذا الاعتبار، وقد جاءت النصوص دالة على إطلاق الخشوع على الجوارح كذلك، فمن ذلك قوله وتعالى:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهَّ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]، وقوله تعالى:{خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ}[القمر:٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عن جابر t قال:"أَتَانَا رَسُولُ الله r فِي مَسْجِدِنَا هَـذَا وَفِي يَـدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ فَرَأَى فِي قِبْلَـةِ الْمَسْـجِدِ نُخَامَـةً فَحَكَّهَـا بِـالْعُرْجُونِ ثُـمَّ أَقْبَـلَ عَلَيْنَـا فَقَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ فَخَشَعْنَا ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ فَخَشَعْنَا ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قُلْنَا لاَ أَيُّنَا يَـا رَسُـولَ الله. قَالَ:"فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِـهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِـهِ هَكَذَا". ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ....الحديث.

ومما يدل على أن الخشوع منه ما هو عبادة لله تعالى - إضافة لما جاء في الآية المتقدمة - أمر الله تعالى به، وحث العباد عليه، كما في قوله:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُـوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ مِـنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَـيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]، وقوله:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]، وقوله:{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لَا يَشْتَرُونَ بِآيَـاتِ الله ثَمَنًـا قَلِيلًا أُولَئِـكَ لَهُـمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ إِنَّ اللهَ سَرِيـعُ الْحِسَـابِ} [آل عمـران: ١٩٩]، وقوله:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُـمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ} [المؤمنـون:١-٢]، وقوله:{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَـدِّعًا مِـنْ خَشْـيَةِ الله وَتِلْـكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر:٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال:ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية:{ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله}، إلا أربع سنين.

وقد كان النبي r يستعيذ بالله من قلب لا يخشع، كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله r يقول كان يقول:"اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها".

خشوع المجرمين والمشركين:

وقد بين الله تبارك وتعالى أن أقواما سيأتون بهذه العبادة في غير وقتها؛ فلا تغني عنهم شيئا، كما قال تعالى:{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه:١٠٨-١٠٩]، وقوله:{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} [الشورى:٤٥]، وقوله:{خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر:٧-٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخشوع الذي هو بهذا المعنى، المتضمن تذلل القلب وانكساره وإخباته وخضوعه، لا يجوز إلا لله الواحد القهار، فالذين يخشعون عند مرور الكبراء، أو عند الدخول على من يسمونهم برجالات الغيب، أو الأقطاب والأغواث، والخلفاء، أو عند ما يسمى بالسلام الوطني أو الملكي (الوثني)، أو عند رفع العَلَم (الجاهلي)، وما يمارسه الرياضيون في الميادين، من الوقوف خاشعين بين يدي الجماهير، والمشجعين، ونحو ذلك، فكل هذا من الشرك بالله تعالى، لو كانوا يفقهون.

ومن جهل هؤلاء أنك ترى الواحد منهم لا يتحرك أبدا، بل لو كان يَقْدِرُ أن يكتم أنفاسه ويحبسها لفعل، ويُعَلِّمُهُ الكُبَراءُ ذلك ويَأْمُرُونَهُ به، ويُثْنُونَ على من كان كذلك، بما لا يفعله هؤلاء ولا ربعه، إذا قام في الصلاة، بين يدي جبار السموات والأرض، ولكنها لوثة اليهود والنصارى، واتّباع مناهجهم الكفرية، والتأمين على مواثيقهم الإلحادية، المحاربة لحق الله تبارك وتعالى وشرعه، والعياذ بالله.

فيجب التحذير من ذلك، والتنبيه عليه، فإن كثيرا من هذه الحقائق خافية، لا يكاد كثير من العلماء والدعاة أن يتكلموا فيها.

قوله: {إنهم كانوا}: تقدم الإشارة إلى الخلاف الواقع في مسألة عودة الضمير، وقوله: {كانوا} تفيد في هذا المقام المداومة على ذلك، وإلا فقد تأتي (كان) بمعنى الغالب، أو بمعنى وقوع الشيء في الماضي، بغض النظر عن تكرره، كَثْرَةً أو قِلَّةً، ويتحدد ذلك بالسياق الذي وردت فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصيغة الاستمرار هنا تذكر، بأن الواجب على العبد أن يكون على الدوام محققا لعبادة الله، فلا يكون ذلك بحسب فراغ العبد، ولا اتباعا لهواه، ولا تأثرا بضغط الواقع، وتغير الأحوال، بل عليه أن يكون دائما عبدا عابدا لله رب العالمين، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يَثْنِيه عنه ثَانٍ.

المسارعة المحمودة والمذمومة:

قوله:{يسارعون}: أي يتنافسون ويتسابقون، حباً وشوقاً، وإجلالاً وتعظيماً، وذُلاً وانقياداً، ورجاء وخوفاً من الله جل وعلا، وكما قيل:من كان بالله أعرف؛ كان لله أتقى، وله أرجى، ومنه أخوف. قال تعالى:{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه:٨٣-٨٤].

وقد أمر الله تعالى عباده بالمسارعة والمسابقة إليه، في مواضع أخرى من الذكر الحكيم، ثم ضرب المثل هنا بأنبيائه ورسله؛ لتَتَمَثَّل القدوة العلمية، واقعا عمليا، للركب المبارك من أتباع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ } [الأنعام:٨٩-٩٠]؛ لتطمئن القلوب، وتأنس بالرفقة، وتعلم أنه طريق مُزَكَّى؛ فيحصل الثبات، وتنشط النفوس للتسارع في مراضي الله جل وعلا، صابرة ومحتسبة.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْها ... فَعُقْبَى كُلِّ خافِقَةٍ سُكُوْنُ

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فلا تدري السكونُ متى يكونُ

وهذا بيت نظمته؛ أشد به عزمي وعزمكم؛ لخدمة دين الله تعالى:

إن صَحِيحَ العَزْمِ كالرِّيحِ كُلَّما ... تَقَاعَسَ أصْحَابٌ تَصَدَّرَ وانْبَرَى.

قوله:{في الخيرات}: تزكية ومدافعة وعبودية وتذكير، تزكية للرسل، ومدافعة للظن السيئ بهم، وعبودية من جهة تحديد ما يُتَسَارَع فيه، وتذكير للعباد بأن هناك من يسارع، ولكن في الفواحش والشرور والمنكرات، كما قال تعالى عن قوم لوط عليه السلام:{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود:٧٨]، وقال عن أمم أخرى:{إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [الصافات:٦٩-٧٠]، وقال عن أصحاب الجنة المفتونين:{فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [القلم:٢٣-٢٧]، وقوله:{وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص:٦]، فهذه مسارعة في الباطل والكفر والضلال، وتلك مسارعة الأنبياء والمرسلين في الإيمان والتقى، والذل والانقياد، فإلى أيهما نميل ونختار؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نسأل الله أن يجعلنا من المتبعين للرسل، المقتدين بهم، وأن يجعلنا مسارعين في الخيرات، وأن ندعوه سبحانه رغبا رهبا، وأن نكون له من الخاشعين، فاللهم أعنا يا كريم.

لن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدُ إلا غَلَبَه:

وهنا أصل لابد من التنبه له، بينه سيدنا عليه الصلاة والسلام، فيما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ".

والمعنى أن على العبد أن لا يكلف نفسه ما لا تطيق من الأعمال، وعليه أن يكون ربَّانِيّا، فيربي نفسه بالأصول قبل الفروع، وأن يَسْبُرَ حَالَ نَفْسِه، وأن يُعْطِيَهَا حَقَّهَا، فإن المُنْبَتْ لا أرضا قَطَع، ولا ظَهْراً أبْقَى، والشيطان لا يَعْبَؤُ بالعَبْدِ إنْ هَلَكَ في إفراط أو تفريط. قال تعالى: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه:١-٢].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ سُئِلَ النَّبِيُّ r أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ:"أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ وَقَالَ اكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ".

وفي الصحيحين عن عَبْدُ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لِي رَسُولُ الله r :"يَا عَبْدَ الله أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ" فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ:"فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ" فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ:"فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ" قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام؟ قَالَ:"نِصْفَ الدَّهْرِ" فَكَانَ عَبْدُ الله يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ r .

وعن أنس t قال:دخل النبي r المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال:"ما هذا الحبل" قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ به. فقال النبي r :"حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أحدكم نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ". متفق عليه.

وعن ابن مسعود t أن النبي r قال:"هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُون "قالها ثلاثا.رواه مسلم.

فهم خاطىء على علي t :

وفي أثر منسوب إلى علي t وهو مشهور، ولم أقف له على إسناد، ولا أصل له مرفوعا، ولا يصح موقوفا، وروى نحوه ابن قتيبة في غريب الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ولا يصح، (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)، وهذا مع أنه لا يثبت إلا أن بعض الجهال، ظنوا أن علياً t ،يحث الناس على المسارعة في أمور الدنيا، وإطالة النفس فيها، ولهذا إذا قلت لأحدهم: هَوِّنْ عليك، فإن الرزق مكتوب، ولم تخلق لتعبد الدنيا، ولا الدرهم والدينار، وإن هذه الدنيا فانية، فاجعل من وقت لآخرتك، واعمل للباقية، ذكر لك هذا القول ونسبه إلى علي t ، وهذا الخبر مع عدم ثبوته، فليس هذا معناه، بل معناه الذي يتوافق مع حال علي t والصحابة الكرام y ، هو أنه إذا كنت في أمر الدنيا فلا تهلع، ولا تجزع، فإن الذي لا ينقضي اليوم ينقضي غداً، أو بعد غد، كأنك تعيش أبداً ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما فيما يتعلق بأمر الآخرة، فَتَخَيَّل أنك تموت غداً؛ لتبادر إلى العمل الصالح اليوم قبل الغد، قبل أن تَخْتَرِمَكَ المَنِيَّةُ وَلَاتَ حِينَ مَنْدَم.

الفرق بين الاسْتِمْسَاك والغُلُو والتَّنَطُّع:

واعلم رحمك الله تعالى، أن هناك فرقا بين التحذير من التشدد والتنطع في الدين، وبين التحذير من الاستمساك به، فكثيرا ما تسمع ونرى، من يحذر من التمسك بالدين، واتباع هدي سيد المرسلين، بدعوى محاربة التنطع والغلو والتطرف، فالحذر الحذر من مسالك الشيطان ومزالق أعوانه.

واعلم أننا كما نحن مأمورون بترك التنطع والغلو، فنحن مأمورون بالاستمساك بالدين، والدخول وفي السِّلْمِ كَافَّة، وأَخْذِ الكتاب بِقُوَّة، والأخذ بالأحسن في ديننا أبدا، فإياك من تلاعب المبطلين، واستمسك بهذا الدين جملة وتفصيلا، وإن رَمَاكَ الناس بما رَمَوْكَ به، وإن لَفَظَكَ أكثر العباد، فإن أكثرهم على الضلالة والعياذ بالله. ف

افطن لهذا المقام، فإنه خطير، فكم زلت فيه أقدام، وكم ضَلَّت بسببه أقوام. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي قوله:{ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين}: استعمال ضمير (نا) المتصل في محل نصب مفعول به، وهو إشارة إلى أكرامهم، وقربهم من الله جل وعلا، والمعنى أنهم في كل أحوال عباداتهم، كانوا يجمعون بين الرجاء والخوف، يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، فالعبادة لها جناحان، كالطير مع جناحيه، إن تعطل أحدهما سقط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهلك، فامتدح الله جل وعلا أنبياءه ورسله، بالاستقامة على الطريقة، والكمال في العبودية، وحَادِيهِم في ذلك حب الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: {وكانوا لنا خاشعين}، بخلاف من يعبد الله بالخوف فقط، أو من يعبده بالرجاء فقط.

والخشوع ضد الارتفاع، فهو متضمن للذل والسكون والتواضع، وهذا منافٍ للعلو والنشوز والاستكبار، كما قال تعالى: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة}: أي ساكنة، قال: {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت}، فامتدحهم الله بالذل له، والسكون إليه، والطمأنينة به.

ومنه قوله تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

ومنه سكون القلب ثقة في الله عند الشدائد، كقوله تعالى: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود:٥٤-٥٦].

ومنه قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف:١٩٥-١٩٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القَلْبُ القَوي:

ومنه سكون القلب والجوارح في الصلاة إلا من حاجة، والقلب القوي هو الذي يخشع في صلاته، مع إعمال أمر الله تعالى فيما يعرض للعبد في صلاته،فقد أمَرَ النبي r بقتل الحية ونحوها في الصلاة، وكان يسمع كلام الجارية، ويجيبها بالإشارة وهو في الصلاة، وكان يفتح الباب لعائشة وهو في الصلاة، هذه هي الحالة الفاضلة،وهذا هو القلب القوي، بخلاف من يضيق عَطَنُهُ عن ذلك، ولهذا عندما نقرأ بأن فلانا كان يسقط الجدار بجانبه ولا يشعر، فلنعلم أن هذه حالة مفضولة، وأن الحالة الفاضلة دائما هي ما كان عليه النبي r وأصحابه y.

قال المؤلف:(ودليل الخشية، قوله تعالى:{فلا تخشوهم واخشوني إن كنتم مؤمنين}): أي دليل أن كون الخشية عبادة، هو قوله تعالى:{فلا تخشوهم واخشوني إن كنتم مؤمنين}.

ومنه قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد:٢١]، وقوله:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء:٤٨-٤٩].

ولقد أمر الله تعالى عباده بالخشية، وهذا دليل آخر دال على أنها عبادة لله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ} [لقمان:٣٣].

والخشية نوع من أنواع الخوف، والذي يظهر لي والله أعلم، أنها تكون في مقام الإنكار، والصدع بالحق، هكذا جاءت في القرآن العظيم، فالخوف أعم من الخشية، والخشية أخص من جهة متعلقها، ففي نهي الله جل وعلا عن خشية أعداءه؛ التي تورث الذل لهم، والانقياد لباطلهم، والمداهنة لهم في الدين، والتولي يوم الزحف أمامهم، وأمْرِهِ بخشيته سبحانه، المتضمنة للاستعلاء بالإيمان، والتوكل على الرحمن، مما يورث القلب ثباتاً عظيماً، إذْ ما شَاءَ الله كان، وما لم يشاء لم يكن، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، دليل على أن العباد لابد أن يقوموا في هذا المقام أعني مقام الخشية، وبذلك نعلم يقينا أن الخشية من أجل العبوديات.

ولنتأمل في هذه الآيات الدالة، على أن مقام الخشية أخص بمقام تبليغ الدين، والدعوة إليه، وإنكار المنكر والصبر على ذلك، قال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَّ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا} [الأحزاب:٣٩]، وقوله: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٠].

وقوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٣].

وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤].

وقوله: {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة:١٣].

جهاد البيان صدعا أفضل الجهاد:

ولهذا جعل النبي **r** أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي بسند جيد عن طارق بن شهاب أن رجلا سأل النبي **r** وقد وضع رجله في الغرز:أي الجهاد أفضل؟ قال:"كلمة حق عند سلطان جائر".

وقد أفاد هذا الخبر أن جهاد العلم بالحجة والبرهان إذا صدع به العبد في وجه الطغاة، يعد أفضل من جهاد السنان والمال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذْ أنَّ مثَلَ هذا العبد، مَثَلُ عبد قد ارتفع رصيد التوكل في قلبه، حتى أصبح لا يرى عظيماً، ولا كبيراً سوى الرب تبارك وتعالى، فهانت عليه نفسه، في جنب الله تبارك وتعالى، وهذا ما فعله الرسل كما تقدم، وهكذا فعل مؤمن آل فرعون، كما قال تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٨-٢٩]، إلى قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر:٤١-٤٥].

أثر الخشية على العبد:

ومقام الخشية من أجل وأعظم المقامات، التي ينتفع بها العبد في الدنيا والآخرة، فأصحابها أرق قلوبا، وألين جلودا لذكر الله وتعظيمه وتعظيم حقه، كما قال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} [فاطر:١٨]، وقوله:{اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر:٢٣].

والخشية من أعظم أسباب المغفرة، والأجر الكبير، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك:١٢].

قال المؤلف: ودليل الإنابة:({وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له}):

الإنابة شرعا لها معنيان:

١ -الرجوع إلى الله جل وعلا بالتوبة والاستغفار، ويكون بمعنى ثاب وعاد.

٢ -الانقطاع إلى الله تعالى، بقطع العلائق دونه تبارك وتعالى ذلا وانقيادا.

وفي كل من الحالين لابد أن يكون العبد مسلما لله تعالى أي منقادا لشرعه وحكمه.

ومنه، قولك:عبد منيب، أي: منقاد رَجَّاع، فهو يرجع إلى ربه ويتوب إليه، ومنه أُخِذَ (النَّاب) لأنه أشد الأسنان قطعا.

وفي اللغة: جاء في (تاج العروس من جواهر القاموس):[(وناب) زيدٌ (إِلى اللهِ) تَعالى:أَقبَلَ، و(تابَ)، ورجَعَ إِلى الطّاعَة،(كأَنَابَ) إِليهِ إِنابَةً، فهو مُنِيبٌ، واقتصر الجوهريُّ على الرُّباعيّ. وقيلَ:نابَ:لَزِمَ الطّاعَةَ، وأَنابَ:تابَ ورجعَ، وفي حديث الدُّعاءِ:(وإِليكَ أُنِيبُ)، الإِنابَةُ:الرُّجُوعُ إِلى الله بالتَّوْبة، وفي التَّنْزِيل العَزِيز:{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، أَي:راجعينَ إِلى ما أَمرَ به، غيرَ خارِجينَ عن شَيْءٍ من أَمره]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيه:أيضا: [ويُقَالُ:ثَابَ فُلاَنٌ إِلى الله وتَابَ، بالثَّاءِ والتَّاءِ، أَيْ عَادَ وَرَجَعَ إِلى طَاعَتِه، وكذلك أَثَابَ بمَعْنَاهُ، ورَجُلٌ تَوَّابٌ أَوَّابٌ *!ثَوَّابٌ مُنِيبٌ بِمَعْنًى وَاحد]ا.هـ.

وقال أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري في:(النهاية في غريب الأثر):[وفي حديث الدعاء:"وإليك أَنَبْتُ" الإنابة:الرجوع إلى اللهَّ بالتَّوبة، يقال:أناب يُنيب إنابةً فهو منيب، إذا أقبل ورجَع. وقد تكرر في الحديث]ا.هـ.

وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ كَانَ النَّبِيُّ r إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:"اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ".

وقد أثنى الله تعالى على عباده، سَرِيعِيْ الرَّجْعَةِ إليه، والانقطاع، التائبين إليه من قريب، كما قال تعالى:{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٧]، وقال:{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَّ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران:١٣٥-١٣٦].

والأمر بالإنابة، والثناء على أصحابها، في سياقات الأدلة الشرعية هنا، دال على أنها عبادة لله جل وعلا، بهذا الاعتبار والوصف، يجب صرفها إلى الله وحده لا شريك له، فمن تاب إلى مخلوق وتعلق قلبه به، أن يغفر له ذنبه، ويقيل عثرته، ويتجاوز عن سيئاته؛ فهذا قد اتخذ مع الله آلهة أخرى، عياذا بالله من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر.

وقد وُجِدَ في أصحاب الطرق الضالة المنحرفة - كالرافضة والمتصوفة، وأمثالهم من الفرق الباطنية - مَن يُتَوِّبون أتباعهم للشيوخ، وقد سمعنا وسمعتم عما يسمى بِصُكُوكِ الغفران، التي يصدرها رؤوس الضلال للأتباع، وهذا أشبه ما يكون بالتعميد الذي تفعله النصارى، وصدق رسول الله r :"لتتبعن سنن من كان قبلكم".

مقولة شركية سَرَت بين بعض الناس:

ومن المقولات الشركية المنتشرة بين العوام، قولهم:**(العفو لله والرسول)**، فإن إدخال الرسول r في هذا المقام لا يجوز، فإن معناها، اعف عني لأجل لله والرسول، وهذا تقرب بعبادة لغير الله تعالى، فهو من الشرك والعياذ بالله.

وكل هذا من منازعة الرب جل جلاله في صفات، هي من أخص صفاته جل وعلا، كالرحمة والمغفرة، والعفو والصفح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{وأسلموا له}:أي واستسلموا لأمره ونهيه، فلا تعترضوا عليه، ولا تعرضوا عنه، بل عليكم أن تحبوا شرعه، حالة كونكم منقادين له.

فالمستسلم المنقاد يفعل الأوامر محباً لها، وإن كانت شاقة على نفسه، ويترك النواهي مبغضاً لها، وإن كانت محببة إلى نفسه؛ لأن مدار حياته، الحب في الله، والبغض في الله، ومنها محبة ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله.

فعلينا أن نلزم هذا المقام، في المنشط والمكره، ولنحذر من إنابة واستسلام الكَذَّابين، والمراوغين، والمتلاعبين بحق الله تعالى ، المتبعين لأهوائهم، كما قال تعالى:{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [الروم:٣٣].

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على إبراهيم الخليل بهذه الخصلة، فقال تعالى:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود:٧٥]، بل وبين تبارك وتعالى أن من أكثر العباد انتفاعا، وفكرة في ملكوت السموات والأرض، هو العبد المنيب، كما قال تعالى:{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [سبأ:٩]، كما امتدح بها عبده داود وابنه سليمان عليهما السلام، كما قال تعالى:{قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص:٢٤]، وقوله:{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} [ص:٣٤] ، وعمم فقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق:٦-٨].

مَزَايا العبد المُنيب:

وبين سبحانه وتعالى، أن العبد المنيب مَوْعُودٌ بالهداية من الله تبارك وتعالى، وأنه من أقرب العباد هداية واهتداء إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [الرعد:٢٧].

بل وبين الله تعالى أن للمنيبين سبيلا، وأوصى باتباعها، وبين أنها هي أهدى وأقوم، أنها هي الحق، وأن ما عداها ضلال وباطل، وجعلهم قدوة للأنام، كما قال تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان:١٥].

وبين تبارك وتعالى أنها من أخص خصال الموحدين المحققين، وبشرهم تبارك وتعالى على ذلك، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} [الزمر:١٧]، وقوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣٠-٣٢].

بل وبين تبارك وتعالى أنها خصلة تورث العبد جنات النعيم نسأل الله من فضله العظيم، كما قال تعالى:{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق:٣١-٣٥].

قال المؤلف رحمه الله:(وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. وَفِي الْحَدِيثِ:: "وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله"): الاستعانة:هي طلب دَفْعِ المكروه، أو طَلَبُ جَلْبِ المَحْبُوب.

مقامات الاستعانة:

وعليه فهذا المقام متوقف على طبيعة مادة الاستعانة، فإن كانت فيما يقدر عليه العباد؛ فلا حرج فيه، فيجوز أن تقول مثلا:(يا فلان أعني على حمل هذا المتاع) ونحو ذلك، وأما إن كان فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا؛ فالاستعانة هنا عبودية لله تعالى، وصرفها لغير الله شرك أكبر، كطلب حصول الخشوع في القلب، أو إدخال الهداية فيه، أو إقرار الأولاد في الأرحام، أو غير ذلك من الأعمال التي لا يملك عبد، أن يقذفها في قلب أحد، أو أن يهبها لأحد، فمن طلب العون على ذلك من غير الله تعالى؛ كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشركاً بالله كافرا، وكذلك طلب زيادة الهدى، ورفع الإيمان في القلب، والعصمة من الشيطان، كل ذلك لا يطلب إلا من الله وحده، ولا يقدر عليه أحد إلا هو سبحانه.

فلابد من تحرير المقام على هذا المنوال، حتى لا ننفي حقا، ولا نقر باطلا، فلابد من الاستفصال، ليتبين الحال.

فإن الاستعانة تأتي بمعنى المساعدة والمناصرة وشد الأزر، ومنه قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢].

ومنه قول بريرة لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :(فأعينيني)، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ جَاءَتْنِي بَرِيرَةُ فَقَالَتْ كَاتَبْتُ أَهْلِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي كُلِّ عَامٍ وَقِيَّةٌ **فَأَعِينِينِي** فَقُلْتُ إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ وَيَكُونَ وَلَاؤُكِ لِي فَعَلْتُ فَذَهَبَتْ بَرِيرَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَقَالَتْ لَهُمْ فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَيْهَا فَجَاءَتْ مِنْ عِنْدِهِمْ وَرَسُولُ الله r جَالِسٌ فَقَالَتْ إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ لَهُمْ فَسَمِعَ النَّبِيُّ r فَأَخْبَرَتْ عَائِشَةُ النَّبِيَّ r فَقَالَ:"خُذِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمْ الْوَلَاءَ فَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ"، فَفَعَلَتْ عَائِشَةُ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله r فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ قَضَاءُ الله أَحَقُّ وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ".

وفي صحيح مسلم عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ قَالَ كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله r فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي:"سَلْ". فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ:"أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ". قُلْتُ هُوَ ذَاكَ. قَالَ:"فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَدَّمَ المَعْمُولَ على العَامِل، في قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؛ لإفادة الحصر والقصر، والمعنى: أي لا نعبد أحدا سواك، قد شرّفتنا يا الله بعبادتك، وأمرتنا ألا نعبد سواك، وهذا مقام عظيم ومنزلة عالية كبيرة؛ فنسألك المعونة على ذلك، إذ لا معين لنا على ذلك سواك، ولا يقدر على العون في ذلك إلَّاك، فكانت الاستعانة بالمولى تبارك وتعالى، عبودية من أجل العبوديات، في مقابلة استعانة المشركين، بأندادهم وآلهتهم الباطلة.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره:[القول في تأويل قوله جل ثناؤه:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}.قال أبو جعفر: وتأويل قوله:{إيَّاكَ نعبُدُ}:لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك]ا.هـ.....إلى أن قال:[القول في تأويل قوله:{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.قال أبو جعفر: ومعنى قوله:{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها لا أحدًا سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة]ا.هـ..

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ، ثنا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، عَنْ حُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنْ مَطَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ:({إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} دَلَّ عَلى نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَا فَقُولُوا).حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، ثنا عَبْدُ الْوَهَّابِ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ،فِي قَوْلِهِ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَالَ:(يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أَمْرِكُمْ)]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقدم المفعول وهو {إياك}، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}، {رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا}، وكذلك هذه الآية الكريمة:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}]ا.هـ.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"قَالَ اللهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ). قَالَ اللهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). قَالَ اللهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ). قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى):[وَقَدْ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي مَوَاضِعَ كَقَوْلِهِ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَقَوْلِهِ:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} وَقَوْلِهِ:{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} وَقَوْلِهِ:{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} فَالْعِبَادَةُ لله وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَكَانَ النَّبِيُّ r يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ:"اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك" فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللهِ لَا يَكُونُ ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللهِ فَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ.

وَلَا بُدَّ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ أَصْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا إخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالثَّانِي مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ t يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا، وَقَالَ الْفُضَيْل بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْله تَعَالَى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالُوا يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إذَا كَانَ الْعَمَلُ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا؛ وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لله وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُّ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى اتِّبَاعِ مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُّ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنْ الدِّينِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُّ} كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُّ، وَالدِّينُ الْحَقُّ أَنَّهُ لَا حَرَامَ إلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُّ وَلَا دِينَ إلَّا مَا شَرَعَهُ.

ثُمَّ إنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

فَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ. وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ، بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ . وَطَائِفَةٌ فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ مِنْ غَيْرِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسْتِقَامَةٍ عَلَى الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنْ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَيُعْطَى مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُتَّقِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ، إنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ وَالْعَجْزِ، وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ وَشَرُّ الْأَقْسَامِ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ]ا.هـ.

قوله:(وفي الحديث: "إذا استعنت فاستعن بالله"): هذا الحديث أخرجه أحمد والترمذي وأبو يعلى وغيرهم من طريق قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال:كنت خلفت رسول الله r يوما فقال:"يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله **واعلم** أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف". قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ومعنى: "إذا استعنت فاستعن بالله"، "إذا " ظرف لما يستقبل من الزمان، أي: إذا أردت العون، فابدأ بالله جل وعلا، حتى وإن كان فيما يقدر عليه المخلوق، فاجعل الله تعالى أول مبدوء به جل الله في علاه، وهذا تربية للنفوس على حسن التوكل على الله، ومداومة الالتجاء إليه، وملازمة ذلك، واستشعار الحاجة والفاقة إلى الله جل وعلا، وأن العبد لا حول له، ولا قوة له، إلا بالله جل وعلا، مهما عظمت قدراته وإمكاناته، وهذه عبودية عظيمة جليلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حِمَايَة النَّبِي r حِمَى التوحيد:

وتأمل كيف أن النبي r ، أمر صاحبه ودَلَّهُ، على الله تعالى، على كل حال، فلم يقل:(فاستعن بي)، مع أنه رأس الأولياء، وإمام الأتقياء، وسيد ولد آدم أجمعين، وهذا دال على ما كان يربي عليه النبي r أتباعه، وهو إرشاد للأمة من بعدهم، فدله r على الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه العباد، وهذا إذا كان في الأمور التي يقدر عليها العباد، فكيف فيما لا يقدر عليه إلا الله؟، فويل للمشركين، الذين يَدُلُّونَ الناس على أنفسهم، أو على غيرهم من المخلوقين؛ ليسألوهم تفريج الكربات، وقضاء الحاجات، وإغاثة اللهفات، ألا فليعلم كل من كان كذلك، أن هذا من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر.

الاستعانة بالأخذ بالأسباب المشروعة:

وأعلم أن الله تبارك وتعالى، قد دل عباده على جملة من الأمور، التي يُشْرَعُ الاستعانة بها، فهي من منازل الأسباب التي شرعها الله تعالى لعباده، واعلم أن من أجلها وأعظمها، الاستعانة بِمَحَابِه ومَرَاضِيهِ على طاعته سبحانه وتعالى، وهذا من غاية التفويض والاعتصام، والالتجاء والتقرب، لله جل جلاله، حتى يكون الأمر منه وإليه جل الله في علاه، ومن ذلك الدعاء والصلاة والذكر والتقوى والصبر والصيام، ونحو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك من العبادات التي دل الله تعالى عليها عبده، وجعلها سببا لتحصيل النفع منه سبحانه تعالى.

فمن ذلك قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]، وقوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة:١٥٢]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣]، وقوله: {وَاتَّقُوا اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [البقرة: ١٨٩]، وقوله: {وَاتَّقُوا اللهَّ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُّ} [البقرة:٢٨٢]، وقوله: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران:١٢٥]، وقوله: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَّ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء:٩]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَّ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: ٢٩]، وقوله: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس:٨٩] ، وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٢-٣]، وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٥]، وقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الحديد:٢٨]، وقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [القصص:٥٢-٥٤]، وقوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[البقرة: ١٨٦]، وقوله: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور:٢٢]، ونحو ذلك من الآيات.

الاستخارة من أعظم مقامات الاستعانة بالله تعالى:

واعلم أن من أعظم الاستعانة بالله تعالى، استخارته جل وعلا في الأمور، كما في صحيح البخاري عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ r يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ يَقُولُ:"إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَيَدْعُو بِالْأَدْعِيَةِ الَّتِي فِيهَا طَلَبُ إعَانَةِ اللهِ لَهُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ كَقَوْلِهِ:{أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك}، وَقَوْلِهِ:{يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك وَيَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قَلْبِي إلَى طَاعَتِك وَطَاعَةِ رَسُولِك}، وَقَوْلِهِ:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْك رَحْمَةً إنَّك أَنْتَ الْوَهَّابُ}، وَقَوْلِهِ:{رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْك رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}، وَمِثْلِ قَوْلِهِ:{اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَاكْفِنِي شَرَّ نَفْسِي}. وَرَأْسُ هَذِهِ الْأَدْعِيَةِ وَأَفْضَلُهَا قَوْلُهُ:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}. فَهَذَا الدُّعَاءُ أَفْضَلُ الْأَدْعِيَةِ وَأَوْجَبُهَا عَلَى الْخَلْقِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ صَلَاحَ الْعَبْدِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ "بِالتَّوْبَةِ" فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ بِأَنْ يُلْهِمَ الْعَبْدَ التَّوْبَةَ وَكَذَلِكَ دُعَاءُ "الِاسْتِخَارَةِ" فَإِنَّهُ طَلَبُ تَعْلِيمِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ وَتَيْسِيرِهِ لَهُ وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ r يَدْعُو بِهِ إذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ. وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ:{اللَّهُمَّ رَبَّ جبرائيل وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي فِيهِ:{اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِك مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِك وَمِنْ طَاعَتِك مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا}، وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ بِالْيَقِينِ وَالْعَافِيَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي قَلْبِي وَنِيَّتِي، وَمِثْلُ قَوْلِ الْخَلِيلِ وَإِسْمَاعِيلَ:{وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَك وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَك}]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب (التفسير القيم لابن القيم):[فصل إذا عرفت هذا فالناس في هـذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة، أربعة أقسام:أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليهـا ويـوفقهم للقيـام بهـا ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبي لحبه معاذ بن جبل t فقال:"يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبـر كـل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هـذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فـإذا هـو سـؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في:{إياك نعبد وإياك نستعين}، ومقابـل هـؤلاء القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبـادة ولا اسـتعانة بـل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشـهواته لا عـلى مرضـاة ربـه وحقوقـه فإنـه سبحانه يسأله من في السموات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهـؤلاء وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطـرده عنـه وهكـذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونـا عـلى طاعتـه كـان مبعـدا لـه عـن مرضاته قاطعا له عنه ولا بد، وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره ولـيعلم أن إجابـة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكـه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنه بربه وهذا حشو قلبه ولا يشعر به والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأي هناك معاتبة القدر واتهامه وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ولكن ما حيلتي والأمر ليس إلي والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك وإذا لم تجد من سؤاله بدا فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره، وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عونا لك على طاعته وبلاغا إلى مرضاته ولا يجعله قاطعا لك عنه ولا مبعدا عن مرضاته ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن *كلا}، أي ليس كل من أعطيته ونعمته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخولته فقد أكرمته وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء عَلِيٌّ وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق أم يتسخط فيكون حظه السخط

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لإهانته إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد؛ فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى {إياك نعبد وإياك نستعين}.

فصل القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان: أحدهما: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طريق الاستعانة والتوحيد قال ابن عباس رضي الله عنهما الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وتلاشيها في ضمنه وقيامها به وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له بل كالعدم الذي لا وجود له وأن القدر كالروح المحرك لها والمعول على المحرك الأول، فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ومن السبب إلى المسبب ومن الآلة إلى الفاعل فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم فقل نصيبهم من إياك نستعين ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورا بإزالته لأزاله

فإن قلت فما معنى التوكل والاستعانة؟، قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما فهذه حال المتوكل ومن كان هكذا مع الله؛ فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: {ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتوكل على الله فهو حسبه} أي كافيه، والحسب الكافي، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به فقضيت له وأسعف بها سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ولكن لا عاقبة له فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام فضلا عن الولاية والقرب من الله فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه فالحال من الدنيا فهو كالملك والمال إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة.

فصل إذا عرف هذا فلا يكون العبد متحققا ب إياك نعبد، إلا بأصلين عظيمين، أحدهما: متابعة الرسول، والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق إياك نعبد]ا.هـ.

قال المؤلف:(ودليل الاستعاذة:{قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس}): الاستعاذة: طلب دفع المكروه، وهي الاعتصام والالتجاء، ومنه (شجرة عُوَّذ) إذا كانت ملتفة كثيرة الأغصان. واللياذ: قيل عكس العياذ: وهو طلب جلب المحبوب،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والظاهر أن ليس هو كذلك على كل حال، بل بينهما تداخل في المعنى، كما في لسان العرب:[لاذَ به يَلوذ لَوْذاً و لواذاً ولُواذاً ولِياذاً: لَجَأَ إِليه وعاذَ به. ولاوَذَ مُلاوَذَةً و لِواذاً و لِياذاً:استتر. وقال ثعلب:لُذْت به لِواذاً احتَضَنْتُ. ولاوَذَ القومُ مُلاوَذةً ولِواذاً أَي لاذَ بَعْضُهُم ببعض ومنه قوله تعالى:{يتسللون منكم لواذاً} .....لاذ به التجأَ إِليه وانضم واستغاث. والمَلاذُ و المَلْوَذَةُ:الحِصن. ولاذَ به ولاوَذَ وأَلاذَ :امتنع. ولاوَذَه لِواذاً:راوَغَهُ]ا.هـ.

ومنه ما في الصحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنْ الذَّهَبِ ثُمَّ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ".

وفي اللغة: جاء في (النهاية في غريب الأثر):[يقال:عُذْت به أعُوذ عَوْذاً وعِيَاذاً ومَعاذاً: أي لَجَأت إليه. والمَعاذ المصدرُ والمكان والزمان: أي لَقد لَجَأت إلى مَلْجأ ولُذْت بِمَلاذٍ]ا.هـ.

وفي (تاج العروس من جواهر القاموس):[عوذ:(العَوْذُ: الالْتِجَاءُ، كالعِيَاذِ) بالكسر(والمَعَاذِ والمَعَاذَةِ والتَّعَوُّذِ والاسْتِعاذَةِ) عاذَبه يَعُوذ:لاَذَبه وَلَجَأَ إِليه واعْتَصَم.وعُذْتُ بفُلانٍ واستَعَذْتُ به، أَيلَجَأْتُ إِليه. وفي الحديث:(إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذاً) أَي:إِنما أَقَرَّ بالشَّهَادَةِ لاجِئاً إِليها ومُعْتَصِماً بها لِيَدْفَع عنه القَتْلَ، وليس بمُخْلِصٍ في إِسْلامه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاستعاذة، إذا أريد بها فزع القلب إلى من يعتصم به ويتوكل عليه، فهذا لا يكون إلا لله الواحد القهار، فمن صرف ذلك إلى غيره تبارك وتعالى فقد كفر بالله أو أشرك، وإن قصد بها عمل العبد في الظاهر، بحيث تكون بمعنى الالتجاء إلى ما يَسْتَتِرُ به ويَتَحَصَّن فيه، مما جعله الله سببا لذلك، فهي هنا بمعنى الاستعانة الجائزة كما تقدم تقريرها، المتأمل في استعمالات هذه اللفظة في الكتاب والسنة، يقطع بأن الأصل في إطلاقها أن تكون لله تبارك وتعالى، وقد ذم الله تبارك وتعالى من يستعيذ بغيره جل وعلا، كما في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن:٦]، ولهذا لا تأتي في القرآن إلا مختصة بالله تعالى، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة:٦٧]، وقوله: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود:٤٧]، وقوله: {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم:١٨-١٩]، وقوله: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} [المؤمنون:٩٧]، وقوله: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر:٢٧]، وقوله: {وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ} [الدخان:٢٠]، وقوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق:١]، وقوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس:١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما في السنة، فهي كذلك أيضا، فمن ذلك ما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ" فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنْ الْمَغْرَمِ، فَقَالَ:"إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ"، وفي صحيح البخاري من طريق عِكْرِمَة قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ وَلِابْنِهِ عَلِيٍّ انْطَلِقَا إِلَى أَبِي سَعِيدٍ فَاسْمَعَا مِنْ حَدِيثِهِ فَانْطَلَقْنَا فَإِذَا هُوَ فِي حَائِطٍ يُصْلِحُهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَاحْتَبَى ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى أَتَى ذِكْرُ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ فَرَآهُ النَّبِيُّ r فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ:"وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ" قَالَ يَقُولُ عَمَّارٌ:"أَعُوذُ بِالله مِنْ الْفِتَنِ". وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ t قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ".وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ r كَانَ يَقُولُ:"أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ"، وفي صحيح مسلم عن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ:"سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ". وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ. وَزَادَ فِيهِنَّ:"آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، وفي صحيح مسلم عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ الله r وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله r :"ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ الله . ثَلاَثًا. وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِالله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"، وفي صحيح مسلم عن سَعْد بْن أَبِى وَقَّاصٍ يَقُولُ سَمِعْتُ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ".

بيان ضعف ما ورد بلفظ الاستعاذة بغير الله:

ومثل هذا كثير جدا، ولا أعلم حديثا صحيحا صريحا يدل على جواز إطلاق الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته، وأما قول غلام أبي مسعود t ، لما كان أبو مسعود t يَضْرِبُه وهو يقول:(أَعُوذُ بِرَسُولِ الله)، فهذه اللفظة شاذة في هذا الخبر فقد أخرج مسلم أصل هذا الخبر وأخرج هذه الرواية وبين علتها وضعفها، حيث تفرد بها ابن أبي عدي في مقابلة جمهرة من الحفاظ الكبار رووا الخبر بدون هذه الزيادة، فهي زيادة شاذة منكرة، لا يجوز الاحتجاج بها.

فأصل الخبر في صحيح مسلم هو من طريق الأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي:"اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ". فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ - قَالَ - فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ الله r فَإِذَا هُوَ يَقُولُ:"اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ". قَالَ فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ يَدِي فَقَالَ:"اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلاَمِ". قَالَ فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وقد روى هذا الخبر بدون هذه الزيادة كل من سفيان وجرير وأبو عوانة وعبد الواحد بن زياد وأبو معاوية كلهم عن الأعمش به، بينما رواه ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ الأعمش عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ غُلاَمَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ أَعُوذُ بِالله - قَالَ - فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ فَقَالَ **أَعُوذُ بِرَسُولِ الله**. فَتَرَكَهُ فَقَالَ رَسُولُ الله **r** :"وَالله للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ".قَالَ فَأَعْتَقَهُ.ا.هـ.

ومع أنه تفرد بهذا عن شعبة عن الأعمش، فقد خالفه حتى في روايته عن شعبة من هو أوثق منه بكثير وهو محمد بن جعفر المعروف بغندر، فروى هذا الخبر عن شعبة عن الأعمش به بدون هذه الزيادة، وهذا ما بينه مسلم بقوله:وَحَدَّثَنِيهِ بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ - يَعْنِى ابْنَ جَعْفَرٍ - عَنْ شُعْبَةَ بِهَذَا الإِسْنَادِ وَلَمْ يَذْكُرْ قَوْلَهُ :(أَعُوذُ بِالله أَعُوذُ بِرَسُولِ الله **r**). قلت: ورواه عبد الرزاق في مصنفه بهذه الزيادة من مراسيل الحسن، ولا يصح.

ومثله في الضعف الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده من طريق فُلَيْتٌ عَنْ جَسْرَةَ بِنْتِ دَجَاجَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ بَعَثَتْ صَفِيَّةُ إِلَى رَسُولِ الله **r** بِطَعَامٍ قَدْ صَنَعَتْهُ لَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَهُوَ عِنْدِي فَلَمَّا رَأَيْتُ الْجَارِيَةَ أَخَذَتْنِي رِعْدَةٌ حَتَّى اسْتَقَلَّنِي أَفْكَلُ[١] فَضَرَبْتُ الْقَصْعَةَ فَرَمَيْتُ بِهَا قَالَتْ فَنَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ الله r فَعَرَفْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ فَقُلْتُ أَعُوذُ بِرَسُولِ الله أَنْ يَلْعَنَنِي الْيَوْمَ، قَالَتْ قَالَ:"أَوْلَى" قَالَتْ قُلْتُ وَمَا كَفَّارَتُهُ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"طَعَامٌ كَطَعَامِهَا وَإِنَاءٌ كَإِنَائِهَا". فهذا إسناد لا يحتج بمثله لحال فليت وجسرة، فقد تُكُلِّم فيهما، كما أنهما لا يحتمل تفردهما بمثل هذه الأصول الكبار.

وعليه فَتُتَّقَى هذه اللفظة في حق البشر، فلا تطلق إلا على رب البشر، تبارك وتعالى، كما هو إطلاقها في الكتاب والسنة، فلا يجوز أن تطلق على غير الله جل وعلا، وهي في ذلك كالتوكل في عدم جواز استعمال (ثم) فيها، كما تقدم، فلا يجوز أن تقول (أعوذ بالله ثم بك).

قال الإمام ابن خزيمة في كتابه (التوحيد):[أفليس العلم محيطًا يا ذوي الحِجَا أنه غير جائز أن يأمر النبي r بالتعوذ من خلق الله من شر خلقه،.....إلى أن قال: أو يُجِيزَ أن يقول أعوذ بالصفا والمروة، أو أعوذ بعرفات ومنى، من شر ما خلق الله، هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه]ا.هـ.

---

١ - جاء في النهاية في غريب الأثر:[(أَفْكَلُ) الأَفْكَل بالفتح، الرِّعدة من بَرْد أو خوف.....ومنه حديث عائشة رضي اللّه عنها:(فأخذني أفْكَل وارْتَعَدْتُ من شدة الغَيْرَة)]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس}، في قوله{قل} إثبات أن القرآن كلام الله، لا مدخل لفعل عبد فيه، فقد نزل به الروح الأمين، بهذه الحروف:{قل أعوذ برب الفلق}، وهكذا نقله النبي r لأصحابه، وللأمة من بعدهم، فلم يقل النبي r إن الله تعالى أمرني أن أقول:{أعوذ برب الفلق}، بل تلاها r كما نزلت من عند الله تعالى، إذ هي من كلام الله تبارك وتعالى، ولا تصرف لعبد فيها.

قوله:{الفلق}، قيل القمر، وقيل الليل، وقيل الخلق كله، وهذا أشمل وأظهر، فيكون المعنى، أي: أعوذ برب الخلق كله من شر ما خلق، واختصاص ذكر اسم الله (الرب) هنا ظاهر، فإنه أخص بمقام التصرف والكفاية والمدافعة. والله أعلم.

ومثله في قوله:{قل أعوذ برب الناس}، فهو سبحانه رب الناس، ورب الفلق، ورب العالمين، جل الله في علاه، وفي هذا لَمٌّ لِشَعَثِ القلوب على علام الغيوب، جل الله في علاه، فلا تذهب بعيدا أيها العبد، فإن ما حولك من الشرور، لا يعلمها إلا الله رب العالمين، لا تفزع إلى أحد سواه، فإن الله تعالى يعلم وهم لا يعلمون، فاعتصم به وافزع إليه؛ يكفك، شر الأشرار، وكيد الفجار، وشر ما تعاقب عليه الليل والنهار، {أليس الله بكاف عبد ويخوفونك باللذين من دونه}، واعتبر بهذا الآيات، قال تعالى في شأن نبيه صالح عليه السلام مع قومه ثمود:{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل:٤٨-٥٣]، وقوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } [الأنعام:١٢٣-١٢٤]، وقوله: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف:١٠٢]، وقوله: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٧-١٢٨]، وقوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النمل:٦٩-٧٠]، وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَللهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر:١٠]، وقوله: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَللهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٤٢]، وقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر:٤٢-٤٤] ، وقوله:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم:٤٦-٤٧] .

فاعتصم بالله وعُذْ به والتَجِىء إليه، وتذكر الحديث المتقدم آنفا:"لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ". وقول الله تعالى:{قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الجن:٢٢].

وقوله تعالى:{قل أعوذ برب الناس}، أي موجدهم ومربيهم بنعمه، فإذا عُلِمَت هذه الحقيقة وتم الإقرار بها، جاء الأمر الآخر، وهو أن رَبَّ الناس هو مالكهم، والمالك هو المتصرف في خلقه كونا وشرعا، فهو القائم على مصالحهم، وهو الحاكم فيهم جل وعلا، فقال:{ملك الناس} أي هو الذي يملكهم ويحكم فيهم، فإذا عُلِمَت هذه الحقيقة وتم الإقرار بها؛ جاءت النتيجة العظمى، ألا وهي أنه سبحانه هو إلههم الذي لا معبود لهم سواه، ولا يجوز لهم صرف العبادة إلى غيره أبدا؛ فقال:{إله الناس}، أي هو الذي يجب أن يُؤْلَه وحده، ويُحب ويُعبد، على إحسانه إلى خلقه، وعلى كماله في أسمائه وصفاته، وعظيم حكمته، وجماله وجلاله، تبارك وتعالى، ولأنه حقه الذي أمر به عباده، ولم يخلقهم لشيء سواه، وكل ذلك يستلزم ألا يُعْبَدَ أحد إلا إياه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(ودليل الاستغاثة:{إذ نستغيثون ربكم فاستجاب لكم}: الاستغاثة:هي النداء ومنه الصياح طلبا للعون والنُجدة، ومنه قوله تعالى:{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ} [القصص:١٥].

ومنه في الحديث قول هاجر عليها السلام:"أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ"، أخرجه البخاري. وسيأتي بيانه.

فالاستغاثة إذا، تأتي بمعنى طلب العون من فاقة إلى ذلك، وشدة حاجة، ومن هنا افترقت عن مطلق الاستعانة، وعليه فحكم الاستغاثة، يتوقف على طبيعة حالة المستغيث، ومادة استغاثته؛ ولهذا جاء استعمالها في القرآن الكريم في سياقين مختلفين، فاختلف الحكم فيهما لاختلاف الحال.

وعليه فالاستغاثة على نوعين:

١ - استغاثة مشروعة. ٢ - استغاثة الممنوعة.

والاستغاثة الممنوعة المذمومة تنقسم إلى أقسام:

١ - فيما لا يقدر عليه إلا الخالق تبارك وتعالى فهذه شرك أكبر وذنب لا يغفر.

٢ - الاستغاثة بالخالق جل جلاله على إنفاذ أمر محرم، فهذا جهل بأسماء الله وصفاته، وإثم وعصيان، وربما اسْتُجِيبَ له استدراجا وابتلاء.

٣- فيما يقدر عليه المخلوق، ولكن مادة الاستغاثة محرمة، كما سيأتي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاستغاثة المشروعة تنقسم إلى قسمين:

١ - الاستغاثة بالله جل جلاله، فهذه عبودية من أجل العبوديات، يتعين صرفها لله رب العالمين وحده لا شريك له، والتعبد له بذلك جل جلاله، وهي دالة على تعلق قلب العبد بالرب تبارك وتعالى، ومعرفته بالله جل وعلا، كما قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢]، وبها توجه إلى الله تعالى، أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وسادات الأولياء والصالحين، وأئمة المتقين، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، كما في دعاء ذي النون عليه السلام، في قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء:٨٧- ٨٨]، وبها قام النبي r يوم بدر يَهْتِفُ بربه، ومعه العصابة المؤمنة y، قد انقطعت القلوب عن العلائق، وتوجهت إلى خالقها ورازقها وولي نعمتها، القوى العزيز، مالك الملك، والمتفرد بالجلال والجمال والكمال، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ألا وهو الله رب العالمين؛ فجاءهم الفرج والمدد من الله رب العالمين، الذي له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين، كما قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩]، ومثل ذلك من الفرج ما جاءهم يوم الأحزاب، في غزوة الخندق، التي قال الله تعالى في وصف حال المؤمنين فيها، وما وقع من الإرجاف من المنافقين، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب:٩-١٣]، ولكن كانت القلوب المؤمنة متعلقة بالقوي العزيز، العليم الحكيم، في مقابلة خور المنافقين وسوء ظنهم بالله رب العالمين، فاستطار نور الإيمان في قلوب الصادقين، ونجم النفاق من قلوب المنافقين، وكُلٌّ تكلم بما وَعَاهُ قلبه في ذلك الحين، وكما قيل: عند الشدائد تتمايز الصفوف، وتتمحص القلوب، ويجعل الله تعالى العاقبة للمتقين، فأظهر الله تعالى على ألسنة الصادقين، ما امتدحهم الله به، في قوله: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب:٢٣-٢٧].

وتأمل ما جرى مع موسى عليه السلام، عندما أراد فرعون اللعين الذميم، أن يستأصل الفئة المؤمنة الصادقة، ولكن هيهات هيهات فإن الله تعالى ليدافع ويغار جل الله في علاه، قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:٦١-٦٨].

وهذه العبودية قد عرفها في حال الشدة والضيق والفاقة والورطة ومسيس الحاجة حتى المشركون الأوائل، فإذا استجاب الله لهم، فنجاهم من الكرب؛ عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله تعالى، كما قال تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}[الأنعام:٦٣-٦٤]، وقوله: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس:٢٢-٢٣]، وقوله:{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت:٦٥-٦٦]، وقوله:{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان:٣٢].

وذلك بخلاف الفئة المؤمنة الصابرة، فإنها تلزم عتبة العبودية على كل حال، فالله تعالى هو معبودها، ولا معبود لها سواه، سيان في السراء أو الضراء، وعلى هذا كانت البيعة على الإيمان والاتباع، كما في الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:"بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ r عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ".

فيقال إذا: الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق مما أذن الله تعالى فيه جائزة مشروعة، وأما إن كانت الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق، ولكن كانت مادتها محرمة، منع الغوث والنجدة في هذه الحال، كصاحب الحرام يستغيث على قضاء وطره منه، وكالقاتل يطلب النجدة والمدد، وكاللص يسأل الملجأ للفرار والنجاة من العقوبة، ونحو ذلك فكل هذا لا يجوز العون فيه ولا الإغاثة وإن كانت في مقدور المخلوق، كما قال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢].

وإن كانت فيما لا يقدر عليه إلا الخالق تبارك وتعالى؛ فهذا كما تقدم هو الشرك الأكبر، كمن ينادي الأموات ويستنجد بهم، مستغيثاً طالبا الفرج منهم، وكذلك من ينادي الغائبين أو حتى الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين، فهذا متعلق بما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو أهون وأوهن من بيت العنكبوت، ولربما أجابه الشيطان، إلى بعض ذلك، مما جعله الله تبارك وتعالى، في مقدور الشياطين، فتنةً من الله وامتحاناً، بل لربما، استغاثهم في أمرٍ فيستجيب الله دعاءه فتنة له، وذلك لأن العبد كما تقدم، لا يجوز له أبدا أن يبني دينه على الأحوال التي تجري بين يديه، خارقة لما اعتاده الناس في هذا الأوان أو ذاك، أو على ما يسمى بالتجربة الناجحة –زعموا-، فإنما هو نجاح مزيف، وكيف يكون نجاحا وهو الشرك بالله تعالى؟!.

ولهذا كما تقدم قد يُسْتَجاب للمشرك، وقد يُعْطَى الكافرُ إمكانات، كحال الدَّجَالِ مثلا، ولكن يبقى التوحيد هو التوحيد، والشرك هو الشرك، فما كان شركا بالله تعالى، لا يمكن أن ينقلب بحال من الأحوال إلى توحيد؛ لحال ظهرت أو كرامة ادُّعِيت، وكذلك التوحيد لا ينقلب أبدا إلى شرك، بدعوى أن صاحبه لم تظهر على يده أحوال ولا كرامات، بل التوحيد ومعالمه وشعائره، والشرك وأنواعه وظلماته، كل ذلك إنما يعرف بالوحي النازل من عند الله تبارك وتعالى، لا بالهرطقات وآراء البشر. فانتبه فإنه مقام عزيز وخطير، وهو هلكة ومزلة أقدام .

مثال لضلال عقول المستغيثين بغير الله تعالى، فيما لا يقدر عليه إلا الله:

وقد ضرب أهل العلم مثلاً لخرق عقول المستغيثين بغير الله تعالى، فقالوا:[مثله كمثل رجل يمشي في أرض فيها حُفَر، وحوله أناس أحياء قادرون، وبينما هو كذلك إذ سَقَطَ في أحد تلك الحفر، فأخذ يستغيث ويستنجد بالأموات، والغائبين؛ لينشلوه، ويخرجوه من ورطته]، فما ذا يقال عن مثل هذا؟، أقل أحواله أن يوصف بالخبل والخلل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في العقل، والطيش والسفه في الفعل، إذ كيف تترك الأحياء القادرين الحاضرين، وتستغيث بالأموات والغائبين.

ولله تعالى المثل الأعلى، فكم من عبد يستغيث بالعباد مثله ويدع الله رب العالمين، وكم من عبد يسأل مخلوقا مثله تفريج كربة أو قضاء حاجة ولا يسأل الله رب العالمين.

والله تعالى يقول: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [المائدة:٧٥-٧٦]، وقال: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [النحل:٧٣].

وهناك مثل آخر ضُرِبَ لذلك، قالوا: إنما مثله مثل رجل فقيرٍ معدمٍ، عليه من الديون والهموم ما الله تعالى به عليم، فكتب كتاباً عرض فيه حالته، وبَيَّنَ فيه وَرْطَتَه ومُصِيبَتَه وفاقته وحاجته، ثم دخل على مجلس كبير، فيه رجلان، أحدهما بلغ في غناه، أن كان لديه من جميع الأموال الشيء الكثير، وهو مع ذلك سخي كريم، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وآخر فقير معدم، بَالِي الحال، ممزق الثياب، قد بدت عليه علامات الفقر والفاقة، حتى ظهرت على قسمات وجهه، فلما دخل هذا الفقير عليهما، توجه مباشرة إلى الفقير، وترك الغني، ولم يعرج عليه، وأخذ يصيح ويولول عند الفقير، ويصف حالته لهذا الفقير، ويرجوه ويتوسل إليه أن يقضي حاجته، ويسد خُلته وفاقته، فماذا يقال عن مثل هذا الرجل؟! لاشك أنه مجنون، أو كاد، فإذا كان هذا لا يسوغ في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ميزان البشر، فكيف يسوغ ذلك مع رب البشر جل الله في علاه، فكم من الملايين من البشر يطلبون الحوائج من المخلوقين الفقراء الحقراء، وينسون الله رب العالمين، الغني الكريم جل وعلا، ولكن أين التوحيد أين التوحيد، فالقلوب معتمدة على المخلوق، إذ هو المعظّم في النفوس، وإلا في أي عقل يسوغ ترك الخالق والاعتماد على المخلوق.

والله تعالى يقول في وصف نفسه تبارك وتعالى، ومبينا ضعف وافتقار الخلائق إليه جل الله في علاه: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر:١٣-١٧].

ثم أعود وأقول: أما إذا كانت الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق فهذه جائزة؛ لقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه}، ولو كان شركاً لما سكت عنه موسى، ولما لَبَّى طلبته، فإن الأنبياء والمرسلين معصومون من جميع الكبائر، قبل البعثة وبعدها، وأعلاها الشرك الأكبر، وهذا هو الراجح الصواب من قولي أهل العلم، بما في ذلك شعيب عليه السلام، فلا يجوز بحال نسبته إلى الشرك قبل البعثة ولا بعدها، وكذلك إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وإن كان قد قال بهذا بعض الأكابر كابن تيمية رحمه الله، ونُقل عن بعض المتقدمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله r مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ...الحديث.

فهذا كان حاله r قبل البعثة، فلم يثبت عنه قط أنه سجد لصنم، ولا عبد إلها غير الله[1].

مسألة: شبهة يلقيها المتصوفة والمُجَوِّزُنَ للاستغاثة بغير الله تعالى في تفريج كل كرب، ورفع كل ضر، وقضاء كل حاجة، ألا وهو ما جاء في صحيح البخاري في الحديث الطويل عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا قَالَ إِلَى الله قَالَتْ رَضِيتُ بِالله قَالَ فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتْ الْمَرْوَةَ

---

١ - ولمزيد من تحقيق هذه المسألة راجع كتابي (الاستنباطاتالبهية من الأدلة الشرعية): الاستنباط الخامس والسبعون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ تَعْنِي الصَّبِيَّ فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ فَإِذَا جِبْرِيلُ قَالَ فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ قَالَ فَانْبَثَقَ الْمَاءُ فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ r لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا"....الحديث بطوله.

ومحل استشهادهم هو في قولها:"فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ".

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن نقول قارن بين هذا السياق، وقوله تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩]؛ لترى الفرق العظيم والبون الشاسع، بين المقامين والمنزلتين.

الوجه الثاني: أن هاجر كانت من أئمة التوحيد، كيف لا وهي زوجة خليل الله إبراهيم، وأم الذبيح إسماعيل عليهم السلام؛ ولهذا كانت دقيقة في هذه المقامات، فقالت:(إن كان عندك خير)، فعلمنا يقينا أنها تخاطب من لا حول له ولا قوة إلا بالله، ولهذا استعملت أداة التردد (إن كان عندك)، وأما عند سؤال الله تعالى، لا يقال ذلك، وإنما نَعْزِمُ المسألة؛ لأن الله تعالى لا يُعْجِزُهُ شيء، ولا يُكْرِهُهُ شيء، ولا يُكْرِثُهُ شيء، جل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله في علاه. كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ".

الوجه الثالث: أنها كانت تطلب الماء، وهذا لا شك أنه في مقدور كل من يحمله، فلما سمعت صوتا، نادته طالبة الماء، فَبَنَت نداءها على ما سمعته من حس، وقد علمت يقينا أن المخلوق، قد ينفع وقد لا ينفع، وقد يكون عنده ما تريد، وقد لا يكون، ولهذا قيدت ذلك بقولها (إن كان عندك خير)، أي ماء تسقيناه، فأين هذا ممن يسأل المخلوق مسألة من أيقن أن الفرج عنده والنصر بيديه، وفي مسألة النصر مثلا، - وكما تقدم النصر لا يكون إلا من عند الله -، ترون أن النبي r ومن معه استغاثوا بالله وحده لا شريك له؛ لأنه مقام لا مدخل للعبد فيه أصلا، مهما كانت منزلة ذلك العبد عند الله رب العالمين.

الوجه الرابع: أنها عليها السلام كانت قد علمت من حقائق التوحيد، من إنقاذ الله تعالى إبراهيمَ من النار، ومن إنجائه لِسَارَةَ عليها السلام، من الملك الفاجر، وما موقف الخليل منها ومن ولدها عنها بالبعيد، حيث تركهما بواد غير ذي زرع، فقالت:"يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى الله، قَالَتْ: رَضِيتُ بِالله"، ناهيك عما تعلمته من الخليل عليه السلام، ما أيقنت معه بأنه لا يغيث المَكْرُوب، ولا يفرج الكُرُوب إلا الله علام الغيوب، وبدليل أنها كانت تسعى بين الصفا والمروة، تبحث عن الماء، مما شاهده الحس، أي مما هو في مقدور العباد ممن يَحْمِلُه، أو يعلم مكانه؛ لتذهب إليه، كما هي عادة العرب، ولو كانت تريد الاستغاثة بغير الله تعالى؛ لأخذت تنادي، كما يفعل المشركون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليوم، مَدَدْ يا فُلَان، مَدَدْ يا عِلّان، إلا أن قلبها كان فارغا إلا من الله جل جلاله، فكيف يُظَنُّ بها هذا الظن السيء عليها السلام؟!!.

الوجه الخامس: أن النبي r كان قد مَرَّ بأصحابه من الشدائد، قبل الهجرة وبعدها، ما لا يخفى، ومع ذلك ما استغاثوا بالنبي r ، ولا هو أمرهم بذلك، فكيف نظن أنه يحكي استغاثة شركية عن هاجر عليها السلام؟!– وحاشاها -، فإن هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل.فتأمل، وإياك إياك،لا تنخدع بقول المشركين الدَّاعين إلى تعظيم المخلوقين غلوا فيهم، حتى سألوهم ما لا يحل سَؤالُه إلا من الله جل جلاله.

قال المؤلف:قوله:(والدليل): أي على أن الاستغاثة عبودية من أجل العبوديات لا يجوز صرفها لغير الله، قوله تعالى:{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم}: ففي هذه الآية الثناء من الله تعالى على النبي r وصحابته الكرام y ، الذين رَسَخَ التوحيد في قلوبهم، وعرفوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا ينفع ذا الجد منه الجد؛ فأفرغوا قلوبهم من علائق المخلوقين، وتوجهوا إلى الخلاق العظيم؛ فاستجاب لهم سُؤْلَهُم، وأَيَّدَهُم بِنَصْرِه.

فتضمنت الآية الثناء عليهم بذلك، وتضمنت حث العباد على أن يحذوا حذوهم فيكونوا كذلك. وهذا كما تقدم معنا مما نعلم به أن ذلك الفعل عبادة لله تعالى، وأن صرفها بهذا الاعتبار لغير الله تعالى كفر وشرك أكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}):

قوله:(الذبح):المقصود به هنا إزهاق النفس، المأذون فيها تقربا لله جل وعلا، ويدخل فيه النحر كذلك، ومنه قوله تعالى:{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر:٢]، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم عن جابر:أن رسول الله r قال:"نَحَرْتُ ههنا ومنى كلها مَنْحَر، فَانْحَرُوا في رحالكم، ووقفت ههنا وعرفة كلها موقف، ووقفت ههنا وجَمْعٌ كلها موقف". وقوله:"وجمع" أي مزدلفة.

ويلحق بذلك كل ما أُهِلَّ وأُشْعِر مما أذن الله تعالى به تقربا لله تعالى، فإنه حق لله رب العالمين، وصرفه لغيره شرك أكبر. وإنما قلت: مما أذن الله به؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

وقد كان المشركون يتحكمون في الأنعام بما يشاؤون من أهوائهم، وهذا شرك من وجهين، من جهة تقربهم بها لغير الله تعالى، ومن جهة التشريعات الجاهلية التي وضعوها لذلك، وتأمل في هذه الآيات، قال تعالى:{وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [الأنعام:١٣٦-١٤٠].....إلى قوله تعالى:{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام:١٤٣-١٤٦].

وكذلك قوله تعالى:{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة:١٠٣-١٠٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فلابد أن نعلم، أن كل من تقرب لغير الله تعالى بشيء من ذلك؛ فهو مشـــرك كافر، وكذلك كل من سَنَّ ذلك لعشيرته أو طريقته وحزبه؛ فهو مشرك كافر.

فالذين يذبحون تقربا لغير الله تعالى، على شرف الولي، أو طلعـة السـلطان، أو عـلى عتبة الضريح، أو على قبر فلان، كل هؤلاء واقعون في الشرك الأكبر، والذنب الـذي لا يغفر.

وكما تقدم أن هذا ليس خاصا بالأنعام، فلو تقرب بحشـرة، أو بعوضة، أو طـائر أو غير ذلك لغير الله تعالى، فقد كفر أو أشرك.

وكذلك الذين، يحلقون رؤوسهم توبـة عنـد الشـيوخ، ومـن يقـوم قانتـا لِلْعَلَـم أو المعظمين من سلاطين ووزراء وأمراء وربما بعض المُعَلِّمـين، وغـير ذلـك، وفي الجملـة فكل عبادة ثبتت لله تعالى فصرفها لغيره شرك أكبر.

أنواع الذبح المشروع:

فالمؤمنون إنما يذبحون لله وعـلى اسـم الله، وعـلى مـا شرعـه الله، كـإكرام الضـيف وإطعام الطعام ونحو ذلك، فالذبح عـلى أنـواع، فمنـه مـا هـو قربـة محضـة لله تعـالى، كالرجل ينذر ذبيحة لله على أن يوزعها كلها على الفقراء والمساكين، فهذه لاحَظَّ للذابح منها، وكذلك في دم الجُبران في المناسك (كفدية حلق الرأس، وكالهـدي يسـاق ليـذبح لفقراء الحرم)، ومنها ما يذبح على اسم الله تعالى ويراد بها القربة واللحم، كالأضحية، ودم الشكران في المناسك (كدم التمتع والقران، وكالذبح للأضـياف فـإن فيهـا معنـى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القربى)، ومنها ما يذبح على اسم الله تعالى ويراد بها اللحم، وقد لا يخطر بذهن صاحب الذبيحة معنى القربى، ولكن المهم أن تكون على اسم الله تعالى، كما قال تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١١٨-١٢٢].

وفي الحديث الذي في سنن أبي داود بسند جيد عن ثَابِت بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله r أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ فَأَتَى النَّبِيَّ r فَقَالَ:إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ. فَقَالَ النَّبِيُّ r :"هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ". قَالُوا :لاَ. قَالَ:"هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ". قَالُوا: لاَ. قَالَ رَسُولُ الله r :"أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ"، وسيأتي قريبا إن شاء الله تعالى الحديث عن النذر وأحكامه.

قوله:(والدليل)، على أن الذبح عبادة لله تعالى فمن صرفها لغيره فهو مشرك كافر، قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِين}.

والدلالة واضحة من الآية، حيث جعل النسك، والذي هو بمعنى الذبح هنا - على أحد القولين في الآية -، خاصا بالله تعالى وحده لا شريك له، وقد تقدمت الأدلة والمعاني الدالة على ذلك.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ حَمْزَةَ، ثنا شَبَابَةُ، ثنا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ:{صَلاتِي وَنُسُكِي}، قَالَ:ذَبِيحَتِي فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ، وَالسُّدِّيِّ، وَقَتَادَةَ، مِثْلُ ذَلِكَ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي قَرَأْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ مُزَاحِمٍ، عَنْ بُكَيْرِ بْنِ مَعْرُوفٍ، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، قَوْلُهُ :{وَنُسُكِي} يَعْنِي:الْحَجَّ]ا.هـ.

وفي تفسير ابن كثير قال:[{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، يقول الله تعالى آمرًا نبيه r سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف:{دِينًا قِيَمًا} أي:قائمًا ثابتًا، {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كقوله:{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة:١٣٠] ، وقوله:{وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}، قوله:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}وليس يلزم من كونه عليه السلام أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وأكملت له إكمالا تامًا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام].....إلى قوله:[وقوله تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى:{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى]ا.هـ.

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: [القول في تأويل قوله:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد r : (قل)، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنامَ (إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم)، يقول: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له(دينًا قيمًا)، يقول: مستقيمًا (ملة إبراهيم)، يقول: دين إبراهيم (حنيفًا) يقول: مستقيمًا (وما كان من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشركين)، يقول: وما كان من المشركين بالله، يعني إبراهيم صلوات الله عليه، لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام]ا.هـ.

الافتخار بملة إبراهيم:

وفي الآيات افتخار بالدين الحق وفرح به، واعتزاز بملة إبراهيم الخليل، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآب} [الرعد:٣٦].

وهكذا ينبغي أن يكون المسلمون، ولكن المشكلة أن كثيرا من المسلمين يعيش على هامش الدين، وبعضهم يعبد الله على حرف، إن أعطي رضي وإن لم يُعط سخط، وكما قيل: من لا يعرف قيمة ما بين يديه؛ فلن يعرف قدره، ولا وما هو الواجب تجاهه.

قوله:{ومحياي}: هذا تعميم بعد تخصيص، فبعد أن ذكر العبادات البدنية، كالصلاة، ثم عطف بالعبادات المالية، كالنسك، -وإن قيل هو الحج، فهو جمع بين العبادتين، المالية والبدنية، والعبادات كلها تتركب منهما، أو أحدها-، أقول بعد أن خصص تبارك وتعالى عاد فعمم، فقال:{ومحياي} أي الحياة كلها لله، فليس هناك ساعة لك، وساعة لربك، بل كلها لله الواحد القهار، ولن يبلغ العبد كمال العبودية حتى يعلم أن لله تعالى عليه حقا في كل صغير وكبير من حياته، وفي كل ساعات العمر، وبالاحتساب تتحول الحياة كلها إلى طاعة وقربة لله الواحد القهار، وتأمل في هذا الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ r قَالُوا لِلنَّبِيِّ r يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ:"أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ:"أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ".

وفي الصحيحين من طريق عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ عَادَنِي رَسُولُ اللهِ r فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ شَكْوَى أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَ بِي مَا تَرَى مِنْ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي قَالَ لَا قُلْتُ فَبِشَطْرِهِ قَالَ الثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيَّ امْرَأَتِكَ" أي اللقمة تناولها إياها أو تضعها في فَمِهَا.

ساعة وساعة وكلها في الحق:

وأما قول النبي r لحنظلة:"ساعة وساعة" فالمقصود بها ساعات الحق، وأنها تتفاوت، وإلا فهل يظن عاقل ، فضلا عن المؤمن، أن يأمر النبي r بساعة في الحلال، وأخرى في الحرام؟!!، معاذ الله!! وحاشا رسول الله r !!.

وإنما قلت هذا؛ لأن البعض يفهم هذا الحديث خطأ، بل وسمعت من يحتج بقوله r :"ساعة وساعة" على الترويح عن النفس بالحرام، وهذا كثير عندما تنكر على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعضهم منكره، يقول لك يا أخي لا تشدد ساعة وساعة، وإليك سياق الخبر لتعلم أنه ليس فيه ذكر لمحرم أبدا.

ففي صحيح مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ الله r قَالَ - لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله r يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله r عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله r قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"وَمَا ذَاكَ". قُلْتُ يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

ومن جميل وبديع ما قاله بعضهم:(إن الإسلام أرقى من أن يُحْبَسَ بين باب المسجد وقبلته، فالمساجد في الإسلام إنما بنيت؛ ليخرج منها الدين إلى الحياة، لا لتكون أقفاصا للشريعة).

قوله:{ومماتي}: أي وكذلك أموت على هذا الدين، مستقيماً على شرع رب العالمين، ولو كلفني ذلك حياتي، إذ ما خلقنا لنعيش ونحيا، وإنما خلقنا لنعبد الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمعنى الحياة كلها والممات لله رب العالمين، بدينه أحيا وعلى دينه أموت، أسأل الله لي ولكم حسن الختام، والصدق مع الله تبارك وتعالى، حتى نلقاه مقبلين غير مدبرين ولا مبدلين.

وهذا القدر من الآية فيه التذكير بضرورة الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد، حتى يوافي العبدُ ربَّه تبارك وتعالى بذلك، نسأل الله من فضله العظيم.

قوله: {لله}: اللام هنا للملكية والاختصاص، فإنه هو رب العالمين، فيجب ألا يكون ثمة معبود سواه، وألا يُرَادَ بالعمل إلا إياه، ولئلا يظن ظان – لا سيما ممن تمرغ في أوضار الشرك وأوحاله -، أنه يجوز صرف بعض ذلك لغير الله أو مع الله، سواء في عبادة بعينها، أو في أبعاض العبادات، فيصلي لله مثلا ولكنه يدعو غير الله، بل لابد أن تكون العبادات كلها لله وحده؛ ولهذا جاء قوله تعالى: {لا شريك له}: حسماً لمادة الشرك، وقطعاً للقلوب عن غير الله جل وعلا؛ وليعلم الجميع أن هذا هو أمر الله تبارك وتعالى، وأن من لم يمتثل ذلك فليس من المسلمين؛ ولهذا قال سبحانه: {وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}. أي من هذه الأمة على الراجح، إذ مَنْ قبله من الأنبياء والمرسلين كانوا كذلك، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

كما أن هذا القدر من الآية، جاء مذكرا بالحقيقة التي تكاثر ذكرها في الكتاب والسنة، ألا وهي ضرورة المسارعة إلى أمر الله تبارك وتعالى، كما أنها تذكر بأن الرسل هم رؤوس الناس في ذلك، فَلْيُقْتَدَى بهم، ولا تَغْتَر بغيرهم، ممن قدم أشياء هي دون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التوحيد، زاعما أن هذا أسلم، وأبعد عن الفتن، وأنه هذا هو الأنسب للأحوال والأوضاع الراهنة.

كما أن في الآية تذكيرا، بأن الآمر بالشيء الأصل أن يكون هو أول المسارعين إلى فعله، وكذلك في باب المنهيات، كما قال تعالى في قصة شعيب عليه السلام: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨]، وقال تعالى لعموم المؤمنين: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٤-٤٥].

قوله:(وَمِنَ السُّنَّةِ: "لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ")، بعد أن استدل المؤلف بالكتاب العزيز، عطف بالاستدلال بالسنة الصحيحة - إذ ليس كل حديث يصح الاحتجاج به-، وهذا من تكثير الحجج وإلا فالمؤمن يكفيه مع البر والتقى، دليل واحد ثابت؛ لينقاد ويستسلم، والمبطل المعاند لو حشدت له عشرات الأدلة، فإنه من الصم البكم.

وهنا بين المؤلف أنه إضافة إلى أن الذبح لغير الله تعالى شرك أكبر، فكذلك صاحبه ملعون من قِبَلِ الله تعالى، وسواء قلنا هذا اللفظ من النبي r ، أعني قوله:"لعن الله" سواء أكان ذلك خبرا عن الله تعالى، أو كان دعاء من النبي r عليه؛ فهو دال على عظيم المقت وعِظَم الفجور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الخبر الذي ذكره المؤلف جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ سُئِلَ عَلِيٌّ أَخَصَّكُمْ رَسُولُ الله r بِشَيء فَقَالَ مَا خَصَّنَا رَسُولُ الله r بِشَيء لَمْ يَعُمَّ بِهِ النَّاسَ كَافَّةً إِلاَّ مَا كَانَ فِي قِرَابِ سَيْفِي هَذَا - قَالَ - فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا:"لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله وَلَعَنَ اللهُ مَنْ سَرَقَ مَنَارَ الأَرْضِ وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا".

والشاهد منه قوله r :"لعن الله من ذبح لغير الله" فاقتصر المؤلف على الشاهد، وهذا من هدي بعض السلف، في تقطيع الأحاديث والاقتصار على الشاهد، وصنيع البخاري في صحيحه ظاهر في ذلك، بشرط أن يكون عالماً ورعاً، وأن يكون مميزا بين ما تحيله المعاني من جراء الاختصار المُخِل.

وفي الحديث إثبات أن الله تعالى يلعن من يشاء، والله تعالى إنما يلعن من يستحق اللعن، ومن لازم اللعن الطرد والإبعاد، نسأل لله تعالى العافية والسلامة.

أثبت الصفة أولا ثم بين معناها:

ولا يصح أن نقول: اللعن هو الطرد والإبعاد، وإنما علينا أن نثبت الصفة لله تعالى قبل كل شيء، فنقول: فيه إثبات أن الله تعالى يلعن من يشاء، ثم نثبت ونذكر لوازمها. فتنبه لذلك، خشية الوقوع في التأويل المذموم.

تنبيه: هناك من أهل العلم من إذا ذكر مثل هذه الصفات التي أخبر بها الله تعالى عن نفسه أو النبي t في سنته الصحيحة، كصفة المكر والكيد، يمنع من اشتقاق أسماء منها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لله تعالى، ويعللون ذلك بإيهام النقص في حق الله تعالى، وهذا التعليل عندي فيه نظر كبير، ولكن لو عللوا بأن الله تعالى لم يسم بها نفسه، لكان هذا هو الصحيح، وإلا فإن جميع أسمائه تبارك وتعالى وصفاته ليس كمثله فيها أحد ولا شيء، جل الله في علاه، فلا نقول هذه توهم كذا أو كذا، بل إذا ثبتت الصفة أو الاسم قلنا بها مباشرة وأثبتناها ومعانيها، على ما تقدم تقريره. والله أعلم.

ثم قد يكون الملعون كافراً أو مشركاً، و قد يكون عاصياً أو فاجراً، فليس كل من لُعن حُكِم عليه بالكفر أو الشرك، لورود أحاديث بلعن بعض عصاة الموحدين المستعلنين بالفسق والفجور، ولكن سبب اللعن هنا لكفره بالله تعالى، الكفر الأكبر؛ بدليل الآيات المتقدمة في ذلك، الدالة على أن الذابح لغير الله على وجه التعظيم أو التعبد أو الذل أو القربى، أنه مشرك كافر، وشركه مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وفي الحديث من طريق سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:"مَنْ فَعَلَ هَذَا لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا إِنَّ رَسُولَ الله r لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا". هذا لفظ مسلم وهو في البخاري بمعناه بدون ذكر اللعن.ولفظه في صحيح البخاري :"فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ r نَهَى أَنْ تُصْبَرَ بَهِيمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الشيخ النووي في (رياض الصالحين):[(باب، جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين):قال الله تعالى:{ألا لعنة الله على الظالمين}، وقال تعالى:{فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين}.

وثبت في الصحيح أن رسول الله r قال:"لعن الله الواصلة والمستوصلة"، وأنه قال:"لعن الله آكل الربا"، وأنه لعن المصورين:(انظر باب تحريم تصوير الحيوان)، وأنه قال:"لعن الله من غير منار الأرض": أي حدودها، وأنه قال:"لعن الله السارق يسرق البيضة"،وأنه قال:"لعن الله من لعن والديه"، و:"لعن الله من ذبح لغير الله"، وأنه قال:"من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"،أنه قال:"اللهم العن رعلا وذكوان وعصية عصوا الله ورسوله" وهذه ثلاث قبائل من العرب، وأنه قال:"لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، وأنه:"لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال" وجميع هذه الألفاظ في الصحيح بعضها في صحيحي البخاري ومسلم وبعضها في أحدهما وإنما قصدت الاختصار بالإشارة إليها . وسأذكر معظمها في أبوابها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى]ا.هـ.

قلت: وقول الإمام النووي:(غير المعينين) لعله يريد الأشخاص بأعيانهم، وإلا فالأحاديث دالة على جواز لعن أقوام بأعيانهم، كما ذكره هو في السياق المتقدم.

قوله:(وَدَلِيلُ النَّذْرِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً})، النذر يطلق ويراد به معنيان:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول:العهد والميثاق بطاعة الله تعالى وعبادته.

الثاني: هو إلزام المكلف نفسه بشيء لم يلزمه به الشارع؛ فصار في حقه بعد التزامه إياه واجبا شرعاً.

جاء في النهاية في غريب الأثر:[يقال: نَذَرْتُ أَنْذِر وأَنْذُر نَذْراً إذا أوجبتَ على نفسِك شيئا تبرُّعا من عبادة أو صدقة أو غير ذلك]ا.هـ.

وبينهما عموم وخصوص، فالأول أعَم؛ لأن إلزام النفس لله تعالى بالشيء، هو عهد وميثاق قطعه العبد لربه، ولم يلزمه به الله ابتداء.

وعلى هذا فالآية تتضمن الثناء على كل من النوعين، ولكن يقيد الثاني منهما بما إذا نذر نذرا منضبطا شرعا، فلا يدخل في الثناء لا من جهة الفعل ولا من جهة الوفاء، كما سيأتي.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[عَنْ قَتَادَةَ، {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}، قَالَ: كَانُوا يُوفُونَ بِطَاعَةِ اللهِ مِنَ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَالْعُمْرَةِ، وَمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، فَسَمَّاهُمُ اللهُ الْأَبْرَارَ لِذَلِكَ]ا.هـ.

وقد ورد النذر في القرآن في سياقات متعددة، فمن ذلك قوله تعالى:{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [البقرة:٢٧٠]، وقوله:{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [آل عمران:٣٥]، وقوله:{فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَـذَرْتُ لِلـرَّحْمَنِ صَـوْمًا فَلَـنْ أُكَلِّـمَ الْيَـوْمَ إِنْسِـيًّا} [مـريم:٢٦]، وقوله:{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج:٢٩].

والنذر من جهة أصله ينقسم إلى قسمين:

١ - نذر مشروع. ٢ - نذر ممنوع.

والنذر الممنوع وهو نذر المعصية، ينقسم إلى قسمين:

١ - **النذر الشركي**، وهو النذر لغير الله تعالى تقربا. وهو الـذي عنـاه المؤلـف هنـا؛ ليحذر منه وهو عقد النذر مهِلاً باسم أحد المخلوقين، كأن يقول:(نـذرت للبـدوي أن أتصدق بكذا)، أو يقول:(للدسوقي على إن حصل كـذا وكـذا أن أفعـل كـذا وكـذا)، ونحو ذلك فهذا شرك أكبر يخرج صاحبه من الملة، ومنه النذر لِطَلْعَتِ السـلطان، كـأن يقول:(نذرت أن أريق دم سبع بدنات إبَّانَ طَلْعَتِ السلطان)، فهذا جمع بين نوعين من الشـرك الأكـبر، شرك الـذبح لغـير الله، وشرك النـذر لغـير الله، ومنـه الـذبح للجـن والشياطين، والنذر لهم، كما يفعله عامـة السـحرة والكهـان، ومـن ذلـك الحصـالات الموضوعة عند القبور، والمزارات والمشاهد،والأضرحة، ويسـمونها (صـناديق النـذر)، فهذا كله من الشرك الأكبر، ولن ينتفع صاحبه بصلاته وصيامه وذكره وجميع عباداتـه، ولا فرق في هذا النـوع بـين النـذر للحجـر والشـجر، أو النـذر للملائكـة، والأنبيـاء، والأولياء، والسلاطين، وغيرهم، فكله شرك أكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- **النذر على اسم الله تعالى ولله تعالى**، ولكن مادة النذر محرمة، كقول القائل مثلا:(لله علي إن حصل كذا أن أقيم حفلة غنائية)، أو قوله:(لله علي لو حصل كذا أن أذهب بأهلي إلى فرنسا مثلا أو غيرها من ديار الكفر)، سواء جاء به بلفظ النذر أو بلفظ العهد، والإلزام.

أما النذر المشروع، فهو نذر الطاعة على اسم الله تعالى، وهذا اختلف أهل العلم في حكمه، فمنهم من قال باستحبابه مطلقاً، واحتجوا بقوله تعالى:{يوفون بالنذر}، وبقرن الله إياه مع النفقة في الآية المتقدمة، ومنهم من قال إنه مذموم ابتداؤه، فيُكره للعبد أن ينذر، ولكن إن نذر وجب عليه الوفاء، ونال الثناء الذي في الآية، واحتج هؤلاء بما الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ نَهَى النَّبِيُّ r عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ:"إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ" وفي لفظ:"إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنْ الْبَخِيلِ". وفي لفظ:"إِنَّهُ لاَ يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ".وفي الصحيحين أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا يَأْتِ ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرْتُهُ وَلَكِنْ يُلْقِيهِ الْقَدَرُ وَقَدْ قَدَّرْتُهُ لَهُ أَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ". وفي لفظ:"لاَ تَنْذُرُوا فَإِنَّ النَّذْرَ لاَ يُغْنِى مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ".

والقول الثالث: التفصيل في ذلك، فيقال: إن من أنشأ النذر معتقداً أنه سبب لجلب الخيرات، ودفع الشرور والمستكرهات؛ فالنذر في حقه مكروه، فإن نذر على هذا الوجه، وجب عليه الوفاء حسب ما سيأتي تفصيله،وعليه تحمل أحاديث النهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتقدمة، ذلك لأن الله تعالى لم يجعل النذر سبباً لحصول الخير ولا لجلبه، ولا لدفع الضر ولا لرفعه.

أما من نذر قربة وطاعة، لا لسبب دنيوي، إلا أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بالنذر، وهو المسمى بالنذر المطلق، أي الذي لم يعلق بسبب ولا شرط، فهذا محمود مطلقاً، وهو كغيره من العبادات المطلقة، كنفل الصلاة والصدقة والصيام والحج والعمرة، ونحو ذلك، وهذا الذي أثنى الله عليه في كتابه، والقول بالتفصيل أرجح من القول بالجواز المطلق أو المنع المطلق، والله أعلم.

أما النذر الشركي، فلا يجوز عقده، فمن فعل فقد أشرك، والشرك لا حرمة له ولا كفارة فيه، بل على صاحبه التوبة النصوص؛ ليخرج مما وقع فيه من كفر بالله تعالى.

كما اختلف أهل العلم في حكم كفارة نذر المعصية - وهو النذر الذي يعقد على اسم الله تعالى وتكون مادته محرمة -، بعد أن اتفقوا على تحريم الوفاء به، فمنهم من قال تجب الكفارة فيه؛ لأنه عقده على اسم الله تبارك وتعالى، ومنهم من قال لا كفارة فيه؛ لأن أصله محرم، والمحرم لا حرمة له، والراجح القول الأول، احتراما وتعظيما لاسم الله تبارك وتعالى.

كفارة من حَنَثَ في نَذْره فلم يَفِ به:

أما كفارة النذر فهو كفارة يمين، كما في صحيح مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ **r** قَالَ:"كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكفارة اليمين هي المذكورة في قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٨٩].

وكما هو نَصُّ هذه الآية، فإن الكفارة على مرتبتين، فالمرتبة الأولى فيها ثلاثة أمور على التخيير، والأخرى على الترتيب، أي: أولا يبدأ العبد باختيار واحدة من ثلاث، إما الإطعام، وإما الكسوة، وإما الإعتاق، فإن عجز عن كل ذلك؛ انتقل إلى صيام ثلاثة أيام، ولا يجوز له أن يبدأ بالصيام مباشرة، وهو قادر على أحد الخيارات الثلاث الأُوَل، وللأسف فإن كثيرا من الناس يعمد إلى الصيام مباشرة، مع استطاعته، وهذا مخالف لظاهر القرآن.فتنبه.

وقد رجح جماعات من أهل العلم، أن يصوم الأيام الثلاثة متتابعة، إن عجز عن الإعتاق أو الإطعام أو الكسوة، واحتجوا بقراءة ابن مسعود، وفيها تقييدها بـ (متتابعات)، ولكنها قراءة غير ثابتة، كما قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقراءة ابن مسعود: {فصيام ثلاثة أيام متتابعات}لم تثبت؛ لإجماع الصحابة على عدم كتب متتابعات في المصاحف العثمانية]ا.هـ.

واعلم أنه لا يجوز للمكلف أن يعدل عن الوفاء إلى الكفارة، وهو قادر على الوفاء، حتى إذا عجز عن الوفاء أو اضطر إلى الحنث، عمد إلى الكفارة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً}: أثنى الله جل وعلا على الموفين بالنذر، والمقصود هنا نذر الطاعة؛ وسبب الثناء أنهم يفعلون ذلك محبة لله تعالى وخوفا من لقاء الله جل وعلا، في يوم وصفه الله جل وعلا، بأن شره كان مستطيرا، والمستطير، هو العظيم الكثير الظاهر البَيِّن، فهو يوم على الكافرين عسير. نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

* الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ.

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

المرتبة الأولى: الإسلام، فَأَرْكَانُ الإِسلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{شَهِدَ اللهُ أَنهُ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسطِ لاَ اله إِلاَّ هوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران:١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ (لا إله)، نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (إِلا اللهُ)، مُثْبِتًا الْعِبادَةَ للهِ وَحدَهُ لا شرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَتَفْسِيرُهَا:الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ*إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الزخرف:٢٦-٢٨].وقَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(الأصل الثاني): الأصل: هو ما يبنى عليه غيره، والمراد بـه هنـا ما ينبني عليه دين العبد، من معرفته رَبَّهُ ودينَه ونبيَّه r ، فعلى هذه الثلاث يدور الدين، وبها قوام الملة، وبزوال أحدها يزول دين العبد.

بعد أن فرغ من الأصل الأول، شرع في الأصل الثاني، والأصل الأول لا يعـرف إلا من خلال الأصل الثاني، وهذا هو الترابط الوثيق الذي أشرت إليـه آنفـا، فلـن يعـرف العبد ربه بهواه ولا بخبرته، ولا بموروث الآباء والأجداد، وإنـما يعـرف ربـه بمعرفـة الدين الحق، الذي أرسل الله تعالى به محمـدا r ، فهـذه الأصـول الـثلاث كـما تقـدم لا تنفصم، ولا تقبل التبعيض ولا العِضِين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(معرفة دين الإسلام بالأدلة): تقدم الحديث عن المعرفة، وأنها هي إدراك الشيء، وهي على الراجح مرادفة للعلم، وهو إدراك الشيء على ما هو عليه، إلا أن بعضهم يقول إن المعرفة علم مسبوق بجهل، بخلاف العلم فإنه لا يستلزم ذلك، ولهذا صح وصف الله تعالى بالعلم، ولا يجوز وصفه بالمعرفة، وإدراك الشيء ومعرفته، إما أن يكون عن طريق التجربة، أو عن طريق التلقي، أو عن طريق أصحاب الخبرة.

العقل لا يستقل بمعرفة مراد الله تعالى ورسوله r بلا أدلة تهديه:

واعلم أنه لا يسوغ في معرفة دين الإسلام، لا التجربة، ولا الخبرة، ولا مطلق التلقي، حتى يكون مصدر التلقي هو الكتاب والسنّة على فهم وطريقة الصحابة الكرام **y**، فالدين ليس محلاً للتجارب، والاختبار، بل حقيقته ذل وانقياد، على وقف الكتاب والسنة، وما ضل من ضل من هذه الأمة أو غيرها، إلا عندما ظنوا أن الدين يمكن أخذه من التجارب الخاضعة للعقول، أو عن طريق خبرة الفاعل المعظم في النفوس من المخلوقين، أو عن التلقي عن الآباء والأجداد، وما يمليه ضغط الواقع، والعادات والتقاليد، فالصوفية مثلاً يقولون:(قبر فلان الترياق المُجَرَّب)، فاعتمدوا على تجربتهم الباطلة، فجعلوا دعاء أصحاب القبور والتعلق بهم، دينا لهم بل وجعلوه - زورا وبهتانا وافتراء على الله تعالى- من دين الله جل وعلا، في حين أنه مضاد تماماً لدين الله عز وجل، وكذلك الفلاسفة والملاحدة ومن تأثر بهم من أهل الكلام، كالأشاعرة والجهمية وأشباههم، ظنوا أن الدين يؤخذ من قدماء الأولين، كاليونان وأشباههم، الذين شُهِدَ لهم بالعقل والمنطق، والذكاء والحذق والفطنة؛ فجعلوا العقول- التي هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الحقيقة فاسدة وسقيمة - حاكمة على الدين؛ ولهذا قيد المؤلف معرفة هذا الدين بالأدلة من الكتاب والسنة، لا بالرأي ولا بالعقل، ولا بالخبرة ولا بالتجربة، ولا بالتلقي عن الأولين، بل فقط الكتاب والسنة الصحيحة، على فهم الصحابة الكرام **ﷺ**.

وتأمل في هذه النصوص - وغيرها كثير – الدالة على أن العقل إذا ترك وحده انحرف على جادة السبيل، وحاد عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الزخرف:١٩-٢٥].

وقال جل من قائل عليما: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٦٨-٧١].

وفي الصحيحين من طريق أَبِي وَائِلٍ، قال: لَمَّا قَدِمَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ مِنْ صِفِّينَ أَتَيْنَاهُ نَسْتَخْبِرُهُ فَقَالَ:(اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله r أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وَمَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا لِأَمْرٍ يُفْظِعُنَا إِلَّا أَسْهَلْنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ قَبْلَ هَذَا الْأَمْرِ مَا نَسُدُّ مِنْهَا خُصْمًا إِلَّا انْفَجَرَ عَلَيْنَا خُصْمٌ مَا نَدْرِي كَيْفَ نَأْتِي لَهُ).

وجاء في صحيح البخاري:[بَاب الْحَائِضِ تَتْرُكُ الصَّوْمَ وَالصَّلَاةَ، وَقَالَ أَبُو الزِّنَادِ: إِنَّ السُّنَنَ وَوُجُوهَ الْحَقِّ لَتَأْتِي كَثِيرًا عَلَى خِلَافِ الرَّأْيِ فَمَا يَجِدُ الْمُسْلِمُونَ بُدًّا مِنْ اتِّبَاعِهَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَائِضَ تَقْضِي الصِّيَامَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ]ا.هـ.

وفي الصحيحين من طريق مُعَاذَةَ قَالَتْ سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلاَ تَقْضِي الصَّلاَةَ؟، فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟، قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلاَ نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ.

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء:[الرِّيْوَنْدِيُّ أَبُو الحَسَنِ أَحْمَدُ بنُ يَحْيَى بنِ إِسْحَاقَ المُلْحِدُ، عَدُوُّ الدِّينِ، أَبُو الحَسَنِ أَحْمَدُ بنُ يَحْيَى بنِ إِسْحَاقَ الرِّيْوَنْدِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ فِي الحَطِّ عَلَى المِلَّةِ، وَكَانَ يُلاَزِمُ الرَّافِضَةَ وَالمَلاَحِدَةَ، فَإِذَا عُوتِبَ، قَالَ:إِنَّمَا أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ أَقوَاهُم. ثُمَّ إِنَّهُ كَاشَفَ، وَنَاظَرَ، وَأَبْرَزَ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ. قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ: كُنْتُ أَسْمَعُ عَنْهُ بِالعَظَائِمِ، حَتَّى رَأَيْتُ لَهُ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ، وَرَأَيْتُ لَهُ كِتَابَ(نَعْتِ الحِكْمَةِ)، وَكِتَابَ(قَضِيْبِ الذَّهَبِ)، وَكِتَابَ(الزُّمُرُّدَةِ)، وَكِتَابَ(الدَّامِغِ)؛ الَّذِي نَقَضَهُ عَلَيْهِ الجُبَائِيُّ. وَنقَضَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُحَمَّدٍ الخَيَّاطُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ(الزُّمُرُّدَةَ). قَالَ ابْنُ عَقِيْلٍ:عَجَبِي كَيْفَ لَمْ يُقْتَلْ!وَقَدْ صَنَّفَ(الدَّامِغَ)يَدْمَغُ بِهِ القُرْآنَ، وَ(الزُّمُرُّدَةَ)يُزرِي فِيْهِ عَلَى النُّبُوَّاتِ. قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ:فِيْهِ هَذَيَانٌ بَارِدٌ لاَ يَتَعَلَّقُ بِشُبْهَةٍ!يَقُوْلُ فِيْهِ:إِنَّ كَلاَمَ أَكْثَمَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بنِ صَيْفيٍّ فِيْهِ مَا هُوَ أَحْسَنُ مَنْ سُـوْرَةِ الكَـوْثَرِ!وَإِنَّ الأَنْبِيَـاءَ وَقَعُـوا بِطَلاَسِـمَ. وَأَلَّـفَ لِليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى يَحْتَجُّ لَهُم فِي إِبْطَالِ نُبُوَّةِ سَيِّدِ الـبَشَرِ. قَـالَ أَبُـو عَـلِيٍّ الجُبَّـائِيُّ:طَلَـبَ السُّلْطَانُ أَبَا عِيْسَى الوَرَّاقَ وَابْنَ الرِّيْوَنْدِيِّ، فَأَمَّا الوَرَّاقُ فَسُـجِنَ حَتَّـى مَـاتَ، وَاسْـمُهُ مُحَمَّدُ بنُ هَارُوْنَ، مِنْ رُؤُوْسِ المُتَكَلِّمِيْنَ، وَلَهُ تَصَانِيْفُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَـارَى وَغَـيْرِهِم. وَاخْتَفَى ابْنُ الرِّيوَنْدِيِّ عِنْدَ ابْنِ لاَوِي اليَهُودِيِّ، فَوَضَعَ لَهُ كِتَابَ(الدَّامِغِ)، ثُـمَّ لَمْ يَلْبَـثْ أَنْ مَرِضَ، وَمَاتَ إِلَى اللَّعْنَةِ، وَعَاشَ نَيِّفاً وَثَمَانِيْنَ سَنَةً.

وَقَدْ سَرَدَ ابْنُ الجَوْزِيِّ مِنْ بَلاَيَاهُ نَحواً مِنْ ثَلاَثَةِ أَوْرَاقٍ. قَالَ ابْنُ النَّجَّارِ:أَبُو الحُسَـيْنِ ابْنُ الرَّاوَنْدِيِّ المُتَكَلِّمُ مِنْ أَهْلِ مَرْوَ الرُّوْذِ، سَكَنَ بَغْدَادَ، وَكَانَ مُعْتَزِلِيّاً، ثُمَّ تَزَنْدَقَ.

وَقِيْلَ:كَانَ أَبُوْهُ يَهُوْدِيّاً، فَأَسْلَمَ هُوَ، فَكَانَ بَعْضُ اليَهُوْدِ يَقُوْلُ لِلْمُسْلِمِينَ:لاَ يُفْسِدُ هَذَا عَلَيْكُم كِتَابَكُم كَمَا أَفْسَدَ أَبُوْهُ عَلَيْنَا التَّوْرَاةَ. قَالَ أَبُو العَبَّاسِ بنُ القَاصِّ الفَقِيْهُ:كَانَ ابْـنُ الرَّاوَنْدِيِّ لاَ يَسْتَقِرُّ عَلَى مَذْهَبٍ وَلاَ نِحْلَةٍ، حَتَّـى صَـنَّفَ لِلْيَهُـوْدِ كِتَـابَ(الـنُّصْرَةِ عَـلَى المُسْلِمِينَ)لِدَرَاهِمَ أُعْطِيَهَا مَنْ يَهُوْدٍ. فَلَمَّا أَخَذَ المَالَ، رَامَ نَقْضَهَا، فَـأَعْطَوهُ مـائَتَيْ دِرْهَـمٍ حَتَّى سَكَتَ. قَالَ البَلْخِيُّ:لَمْ يَكُنْ فِي نُظَرَاءِ ابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ مِثْلُـهُ فِي المَعْقُـولِ، وَكَـانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ حَسَنَ السِّيْرَةِ، كَثِيْرَ الحَيَاءِ، ثُمَّ انْسَلَخَ مِنْ ذَلِكَ لأَسبَابٍ، وَكَانَ عِلْمُهُ فَـوْقَ عَقْلِـهِ. قَالَ:وَقَدْ حُكِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ أَنَّهُ تَابَ عِنْدَ مَوْتِهِ. قَالَ فِي بَعْـضِ المُعْجِـزَاتِ:يَقُـوْلُ المُـنَجِّمُ كَهَذَا. وَقَالَ:فِي القُرْآنِ لَحْنٌ. وَأَلَّفَ فِي قِدَمِ العَالِمِ، وَنَفَى الصَّانِعَ. وَقَالَ:يَقُوْلُوْنَ:لاَ يَـأْتِي أَحَدٌ بِمثلِ القُرْآنِ، فَهَذَا إِقْلِيْدِسُ لاَ يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِهِ، وَكَذَلِكَ بَطْلِيْمُوْسُ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَقِيْلَ:إِنَّهُ اخْتَلَفَ إِلَى الْمُبَرِّدِ، فَبَعْدَ أَيَّامٍ قَالَ الْمُبَرِّدُ:لَوِ اخْتَلَفَ إِلَيَّ سَنَةً، لاَحْتَجْتُ أَنْ أَقُومَ وَأُجْلِسَهُ مَكَانِي.

قَالَ ابْنُ النَّجَّارِ:مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِيْنَ وَمائَتَيْنِ. وَقِيْلَ:مَا طَالَ عُمُرُهُ، بَلْ عَاشَ سِتّاً وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً. **لَعَنَ اللهُ الذَّكَاءَ بِلاَ إِيْمَانٍ، وَرَضِيَ اللهُ عَنِ البَلاَدَةِ مَعَ التَّقْوَى**]ا.هـ.

ونقل الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام عن أبي حازم سلمة بن دينار أنه قال:[من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتوى الحموية الكبرى):[النظر إلى أهل الكلام بعين الشرع وبعين القدر: ويعلم العليم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي ـ t ـ حيث قال:«كمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام».

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر ـ والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم ـ رحمتَهم ورفقتَ عليهم، أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهومًا وما أُعْطُوا علومًا وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون} [الأحقاف:٢٦]. ومن كان عليمًا بهذه الأمور: تَبَيَّنَ له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم، حيث حذروا [عن الكلام ونهوا عنه، وذمُّوا] أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد إلا بعدًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصـــراط المستقيم، صراط الـذين أنعـم علـيهم غـير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين]ا.هـ.

وقال ابن القيم في (إعلام الموقعين):[على المفتي أن يكثـر الـدعاء لنفسـه بـالتوفيق، الفائدة الحادية والستون: حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصـحيح اللهـم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السـموات والارض عـالم الغيـب والشـهادة أنـت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهـدي من تشاء إلى صراط مستقيم وكان شيخنا كثير الدعاء بـذلك وكـان إذا أشـكلت عليـه المسائل يقول يا معلم إبـراهيم علمنـي ويكثـر الاسـتعانة بـذلك .....إلى أن قـال: والمعول في ذلك كله على حسن النية وخلوص القصد وصدق التوجه في الاستمداد من المعلم الأول معلم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإنه لا يرد مـن صـدق في التوجه إليه لتبليغ دينه وإرشاد عبيده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلا علم فإذا صدقت نيته ورغبته في ذلك لم يعدم أجراً إن فاته أجران والله المستعان]ا.هـ.

والحرورية، هم الخوارج، الذين كـانوا يقـدمون فهـومهم وعقـولهم السـقيمة عـلى النصوص الصحيحة الصريحة، ويضربون كتاب الله وسنة رسوله r بعضـها بـالبعض الآخر، اتباعا لرأيهم الفاسد، الذي ظنوه حقا، فخرجوا على الأمة بأسيافهم، عياذا بالله منهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه:(درء تعارض العقـل والنقـل):[وبكـل حـال فالعبد مفتقر إلى الله في أن يهديه ويلهمه رشده وإذا حصل لـه علـم بـدليل عقـلي فهـو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفتقر إلى الله في أن يحدث في قلبه تصور مقدمات ذلك الدليل ويجمعها في قلبه ثم يحدث العلم الذي حصل بها وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فلا حول ولا قوة إلا به فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل]ا.هـ.

قال المؤلف:(بالأدلة): جمع دليل، وهي العلامة على الشيء، التي تميزه عن غيره وتدل عليه، ويطلق ويراد به البرهان، وهي الحقيقة، والحجة المثبتة للشيء، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:١١١-١١٢]، أي هاتوا الأدلة الحقيقية الصائبة الدالة على صدقكم فيما تقولون، وكقوله: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء:٢١-٢٤].

فعُلم من هذا أن كل فعل نتعبد الله تعالى به، إذا لم يقم عليه دليل؛ فهو من اتباع الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً؛ ولهذا قلنا لا اعتبار لشيء سوى الكتاب والسنة، وما انبثق عنهما، كعمل الصحابة **y**، والإجماع، والقياس المنضبط، المتضمن للأصل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي يقاس عليه، وهذا الأصل المقاس عليه لابد أن يكون له مستند من الكتاب أو السنة الصحيحة، ثم توفر العلة الصحية الجامعة بين الأصل والفرع، مع ملاحظة أن يكون الجامع ظاهرا بينا، لأن البعض يذكر علة، ويكون الفارق أكبر من الجامع، ثم بعد ذلك يأتي الحكم صائبا، هذا هو القياس الصحيح المنضبط، الذي اعتبره الشارع الحكيم، وعمل به الصحابة والسلف، ولم ينازع فيه إلا أصحاب الهوى، ومن اغتر بهم، أو فسد اجتهاده في هذه المسألة، وقد ذكر أهل العلم أن أول من نفى القياس جملة، هو النَّظَام المعتزلي، نسأل الله العافية والسلامة.

الظن خَرْصٌ وضلال لا يغني من الحق شيئا:

واعلم أنه ليس من المعرفة في شيء في دين الله عز وجل، بناء العقائد والأحكام على اتباع الضعيف من القول والشاذ، واتباع الظن بالأحاديث الضعيفة، فإنها من قبيل الظن، والرجم بالغيب، إذ لا يمكن الجزم بخروجه من المشكاة النبوية، وما كان بهذه المثابة فهو ظن لا يجوز اتباعه؛ لأنه خرص ورجم بالغيب، كما قال: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام:١١٦]، وقال: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام:١٤٨-١٤٩]، وقال: {أَلَا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦]، وقوله:{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم:٢٣]، وقوله:{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم:٢٨].

واعلم رحمك الله، أنه لا فرق في ذلك بين أصول الدين وفروعه، ولا بين فرائضه ولا فضائله، إذ الكل دين، وبالكل نحن متعبدون لله تعالى، فمن أراد أن يسير إلى الله على بصيرة؛ فعليه بما صح من الأخبار عن النبي المختار **r**؛ ولأن اتباع الضعيف من الأحاديث، ضياع للعمر القصير، إذ قد يُفْرِغُ العبد جهده ووقته في أمر لا أصل له، أو على الأقل هو مشكوك في ثبوته عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا كان الحديث الضعيف عند أئمة الحديث، لا يجوز الاعتماد عليه في مسائل الدين كلها، أصوله وفروعه. فتنبه.

لماذا مذهب أبي حنيفة:

أما الإقبال على الرأي مع وجود الدليل؛ فإنه خرص وهلكة، وضلال مبين، فإنما الرأي ليل، والدليل نهار، وقد تقدم بيان حال السلف وبغضهم للرأي المخالف للدليل وأهله، فقد كان الأصل عندهم أنهم كانوا شديدين على أصحاب الرأي، وإنما كان أبو حنيفة مثلا. فلله دَرُّهُم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أخرج اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة) في ذكره لعقيدة علي بن المديني أنه قال:[وإذا رأيت الرجل يحب أبا حنيفة ورأيه والنظر فيه؛ فلا تطمئن إليه وإلى من يذهب مذهبه، ممن يغلو في أمره ويتخذه إماماً].

ومن هنا تعلم عمق نظر السلف الصالح، في معرفتهم وتمييزهم لطلاب الهدى، وإن خالف توجهاتهم وآراءهم، من أصحاب الهوى المعارضين للهدى بآرائهم، ولك أن تفهم الآن لماذا بعض الحكومات، ومنهم حكومتنا، قبلت وتَبَنَّت مذهب أبي حنيفة في بعض الأحكام، لا سيما الأحوال الشخصية!!.

قال اللالكائي في اعتقاد أهل السنة:[وذكر أن فتى من أصحاب الحديث أنشد في مجلس أبي زرعة الرازي رضي الله عنه هذه الأبيات فاستحسنه وكتبت عنه:

دين النبي محمد أخباره ... نعم المطية للفتى آثاره

لا تعدلن عن الحديث وأهله ... فالرأي ليل والحديث نهاره

ولربما غلط الفتى أثر الهدى ... والشمس بازغة له أنواره

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن العباس أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا ابن المبارك قال أنبأ معمر عن يزيد العقيلي أو غيره عن مطرف بن الشخير قال: لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحدا؛ لقال القائل: الحق فيه، فلما تشعبت واختلفت؛ عرف كل ذي عقل، أن الحق لا يتفرق]ا.هـ.

وأنشد بعض أهل العلم قائلا:

أهل الكلام وأهل الرأي قد جهلوا ... علم الحديث الذي ينجو به الرجل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لو أنهم عـرفوا الآثار ما انحـرفـوا ... عنـهـا إلى غيرهـا لكنـهم جـهـلوا

وأنشدوا أيضا:

أهل الكلام دعونا من تعســفكم ... كم تبتغون لدين الله تبديلا

ما أحدث الناس في أديانهم حدثا ... إلا جعلتم له وجها وتأويلا

ولأبي بكر بن أبي داود السجستاني:

تمسك بحبل الله واتبـع الهـدى ... ولا تَـكُ بِدْعِيـاً لعـلك تُفـلـحُ

ولُذْ بكتـاب الله والسـنن التي ... أتَتْ عن رسول الله تَنْجُو وتَرْبَحُ

ودَعْ عنك آراء الرجال وقَوْلَهم ... فَقَـوْلِ رَسُولِ الله أَزْكَى وأَشْرَحُ

قوله:(دين الإسلام)، هذا يتضمن الأمر والحث على الإعراض عن تعلـم مـا سـواه من الأديان، إذ كلها باطلة، كما قال تعالى:{أَفَغَـيْرَ دِيـنِ اللهِ يَبْغُـونَ وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَـنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمـران:٨٣]، وقولـه:{ أَفَغَـيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [الأنعام:١١٤]، وقوله:{وَلَـهُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ} [النحل:٥٢]، واصبا:أي واجبا ملزما، لا يأذن الله تعالى بالمَحِيدِ عنه.

وجاء في تفسير الإمام ابن أبي حاتم قوله :[عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ:{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا}، قَالَ:{الدِّينُ}: الإخلاص، {وَاصِبًا}: دائماً]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً}، الدين هنا:الطاعة؛ ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً؛ كقوله:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ}، وقوله:{وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً}، وقوله:{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}.والمراد بالدين في الآيات: طاعة الله بامتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي. ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأياماً لنا غراً كراما ... عصينا الملك فيها أن ندينا

أي: عصيناه وامتنعنا أن ندين له؛ أي: نطيعه. وقوله:{وَاصِباً}، أي: دائماً؛ أي له جلَّ وعلا: الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الواحد منهم يكون مطاعاً له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطعمون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويَتَّضِعُ بعد رِفْعَةٍ؛ فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه جل وعلا في مواضع أُخر؛ كقوله:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ}، وقوله تعالى:{خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}؛ لأنها ترفع أقواماً كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقواماً كانوا ملوكاً في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة، وقوله:{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، ونظير هذه الآية المذكورة قوله: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}،أي: دائم]ا.هـ.

واعلم بارك الله فيك، أنه هذا الدين هو أهم ما يجب على العبد أن يبدأ به من العلوم، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى العظيم، وبيانه.

والدين مأخوذ من الذل والانقياد، ومنه قوله جل وعلا:{مالك يوم الدين}، أي اليوم الذي يدين فيه العباد لربهم جل وعلا، ويراد به الطريق والمنهج، ومنه قوله جل وعلا:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ} [المائدة:٣] ، وهو المذكور في قوله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨]، أي بينت لكم منهجكم في الإسلام، والطريقة التي يجب اتباعها؛ ولهذا قال المؤلف:(وهو الاستسلام لله بالتوحيد).

قوله: (وهو الاستسلام لله بالتوحيد)، والاستسلام حقيقته، الانطراح على باب العبودية، يُصَرِّفُك فيها ربك كيف يشاء، فَيَجِدُك حيث أمرك، ولا يَجِدُك حيث نهاك، ولما كان هذا الانطراح يفعله المشركون مع غير الله عز وجل، كفعلهم مع الطواغيت ونحوهم، فَيَأْتَمِرُونَ بأمرهم، وينتهون عن نهيهم، كان الاستسلام لله تعالى هو طاعته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على كل حال في المنشط والمكره، فتأمل الفرق بين الحالين؛ لتعرف الفرق بين الإيمان والكفر.

قوله:(لله بالتوحيد): اللام لام الاختصاص والاستحقاق. ولما كان هناك من يخص الله جل وعلا بذلك ويخص معه غيره، قال المؤلف (بالتوحيد): أي مستصحباً التوحيد في ذلك، والتوحيد ينافي الإشراك، وقد تقدم بيان أنواع التوحيد من قبل، والمعنى إذاً كن لله وحده لا شريك له، ولهذا قال ابن القيم في نونيته:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِداً فِي وَاحِدٍ .... أعْنِي طَرِيقَ الحَقِّ والإيمان

أي فإذا علمت أنه سبحانه واحد أحد جل في علاه، فأفرده بالعبادة دونما سواه، وكن جامعاً لقلبك عليه، سالكا طريقا واحدا، وهو صراط الله المستقيم، وهو طريق الحق والإيمان.

قال تعالى:{ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر:٢٩].

قال المؤلف رحمه الله:(والانقياد له بالطاعة): هذا من عطف الخاص على العام، فالانقياد من جملة الاستسلام، ولكنه أفرده للأهمية، ولكثرة الخلل فيه، فإن كثيرا من العباد يزعم الاستسلام لله بالتوحيد، ولكن لا تراه منقادا مطيعا لله عز وجل؛ ولهذا ابتلى الله تعالى عباده بقوله:{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَّ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُّ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣١-٣٢]، وذلك لأن البعض يظن أن التوحيد هو فقط ألا تسجد لصنم، ولا تعلق صليبا، ولا تعبد حجرا، أو بشرا، أو قبرا، أو نحو ذلك، ويظن أنه وإن لم يَنْقّد للتعاليم الربانية، وتشريعاته التي أنزلها على نبيه r ، فإن ذلك لا يضره، وهذا حال كثير من العِبَاد اليوم، كالعلمانيين، والديمقراطيين، والشيوعيين – زعموا في الاقتصاد والاجتماع والسياسة –قد يصلي لله ولا يعبد صنما ولا قبرا ولا صليبا، ويظن أنه على شيء، ألا فليعلم كل هؤلاء وغيرهم أن الله تعالى أبَى هذا الإيمان، ورده على أصحابه، حتى يكون الدخول في السلم كافة، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٤-٦٥]، وحتى يكون الإذعان والانقياد لشرعه، حكما مطاعا في الدقيق والجليل القليل والكثير، في الداخل والخارج، في الحياة كلها، بل وبعد الممات،كما قال تعالى:{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦].

فهو سبحانه الواحد القهار على كل حال، كما قال تعالى في عُبَّاد الهوى والتشريعات الجاهلية:{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُّ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٣٩-٤٠]، وقال في عباد الأولياء والصالحين وأصحاب القبور:{وَللهِ يَسْجُدُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[الرعد:١٥-١٦]، وقال:{أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللهُّ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر:٣-٤].

قوله:(بالطاعة): قيد مهم ليخرج من ذلك التقرب بالمعاصي والانقياد بها، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، ولا يرضى أن يتقرب إليه أحد إلا بما شرع.

فإن هناك فئاما من الناس، ضل عن سواء السبيل في هذه المسألة الهامة الخطيرة، حتى صار بعضهم إلى الزندقة والعياذ بالله، وتأمل فيما يفعله بعض الممثلين والفنانين، واللاعبين، حيث يقارفون الآثام والمنكرات أثناء ذلك، ثم يزعمون أنهم يريدون بذلك نصرة الدين، ومعالجة قضايا المجتمع، وأخبث من ذلك، ما يجدونه من الفتاوى الخبيثة، التي يَتَقَيَّؤ بها الْمُتَلَوِّنُون في الدين، الذين اتخذوا دين الله تعالى لعبا ولهوا، لا كثرهم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة:١١-١٦].

وليس ببعيد عنا ما سمعناه من الدعوة الصريحة إلى أَسْلَمَة الفَنْ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَتْوَى كُفْرِيَّة:

بل وبعضهم أجاز التمثيل، وزعم أنها رسالة تربوية للمجتمعات، مع أن هذا التمثيل يتضمن اختلاط النساء بالرجال، وتَبَرجُ النساء فيه بأصرح وأصرخ ما يكون، ناهيك عن المواقف الشهوانية فيها، بل والألفاظ الخبيثة، بل حتى الألفاظ الكفرية ليست بعيدة.

ولا شك أن هذه الفتوى تُعَدُّ استحلالا لما حرم الله، وهذا تشريع يكفر به العبد، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. فليتنبه لهذا المقام الخطير، والمزلق الوخيم.

وآخرون يسافرون إلى بلاد الكفر والفجور والإباحية، بدعوى الدراسة، وبعضهم يحتجون بنصرة الدين كذلك، ومثلهم المرأة التي تخرج من بيتها خَرَّاجَة وَلَّاجَة، وهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّلْفَعُ من النساء[١]، وربما قطعت الفيافي والقفار، هي الأخرى كذلك لَقَّنوها أنها على ثغرة، وأنها تخدم دين الله، وما علمت هي والآخرون، أنهم إنما يطبقون أجندة الغرب، ويَتَجَارَوْنَ مع وحي الشيطان وأعوانه. فالله المستعان.

جاء في تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:[قال المصنف: وقوله{ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}، قال أبو بكر بن عياش في الآية إن الله بعث محمدا r إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد r فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه و سلم فهو من المفسدين في الأرض، وقال ابن القيم قال أكثر المفسرين لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله r هو أعظم الفساد في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول r فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة ومن تدبر أحوال العالم وجد كل

---

١ - أخرج ابن أبي شيبة في وصف عمر t لابنتي شعيب عليه السلام، لما جاءتا إلى موسى عليه السلام، قال عُمَرُ t : فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ لاَ خَرَّاجَةٍ وَلاَأَوَلاَجَةٍ ، وَاضِعَةً ثَوْبُهَا عَلَى وَجْهِهَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله انتهى وبهذا يتبين وجه مطابقة الآية للترجمة لأن من يدعو إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله والى الرسول فقد أتى بأعظم الفساد.

قال: وقوله:{وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون}، قال أبو العالية في الآية يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة قلت ومطابقة الآية للترجمة ظاهر لأن من دعا إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله فقد أتى بأعظم الفساد وفي الآية دليل على وجوب اطراح الرأي مع السنة وإن ادعى صاحبه أنه مصلح وأن دعوى الإصلاح ليس بعذر في ترك ما أنزل الله والحذر من العجب بالرأي]ا.هـ.

قال المؤلف:(والبراءة من الشرك وأهله): أي هذه متممة الأمر، فالإسلام الذي هو الإسلام عند الله، لا بموازين البشر، يستلزم البغض للمشركين والبراءة منهم، وهذه هي عقيدة الولاء والبراء التي تحدثنا عنها من قبل، وهذه الجمل هي المسائل الثلاث التي ذكرها المؤلف من قبل، المتضمنة لإفراد الله تعالى بالعبادة، وإفراد النبي r بالاتباع، وتحقيق عقيدة الولاء والبراء، وإنما كرر المؤلف ذلك هنا؛ لأنه كما تقدم معنا مرارا، هو قِوَامُ الدين، ولابد من ترداده، وبيانه والإكثار منه، بأوجه مختلفة، ومناسبات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متنوعة، إذ لا يخرج الدين عن ذلك، ولا شيء من الدنيا يخرج عن حكم الله تعالى، كما قال تعالى:{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام:٣٨].

لا إيمان بلا انقياد:

فأراد المؤلف أن يقول: من أسلم ولم ينقاد؛ فليس بداخل في دين الإسلام، ومن أسلم وانقاد، ولم يبرأ من الشرك وأهله، فلم يحقق الانقياد المطلوب شرعا،فليس هو إذا بداخل في دين الإسلام، حتى يجمع الثلاثة معاً،استسلام وانقياد وبراءة.

وهذه البراءة تتضمن فضح الشرك وكشف عوارهم، والسعي في القضاء عليه، ومطاردته، وجهاد أهله، بكل أنواع الجهاد، بالبيان بالدعوة والبرهان، وبإنفاق الأموال في ذلك، ثم إن كان ثمة قدرة وشوكة؛ جاهدناهم بالسِّنَانَ على ذلك، حتى تكون كلمة الله هي العليا، قال تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(وهو ثلاث مراتب): هذا تأكيد من المؤلف على أن الدين لا يُسَمَّى دينا، إلا بالقيود والضوابط الشرعية، لا بأهواء وآراء البشر، فالدين له أعمال ظاهرة، وأخرى باطنة، ولا يصح إيمان العبد بدونها، ولن يحافظ عبد على دينه بغيرها، فإذا أطلق الدين أريد به هذه الثلاث:(الإسلام والإيمان والإحسان).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اختلف العلماء في التفريق بين الإسلام والإيمان، وأظهر الأقوال في ذلك قول من قال بأن الإسلام هو الاسم العام، كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران:١٩] ، فعند الإطلاق يدخل فيه الدين كله،؛ لأن الله تعالى عرف الدين بالإسلام في هذه الآية، فيدخل فيه الإيمان والإحسان، وكذلك على الراجح إذا قلنا الإيمان يدخل فيه الإسلام والإحسان؛ لأنه يكون في هذه الحالة المراد به جملة الدين، كما في الصحيحين من طريق أَبِي جَمْرَةَ قَالَ كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ r قَالَ مَنْ الْقَوْمُ أَوْ مَنْ الْوَفْدُ قَالُوا رَبِيعَةُ قَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ وَسَأَلُوهُ عَنْ الْأَشْرِبَةِ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقَيَّرِ وَقَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ"، فسمى هذه الأمور إيمانا وهي متنوعة، والمقصود إقامة الدين والدخول في السلم كافة، بأن يكون العبد مهيئا لقبول ما يأتيه من الإسلام؛ فيقبل وينقاد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما إذا اجتمع الإسلام والإيمان في حديث واحد، أو آية واحدة، فإنه يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وبالإيمان الأعمال الباطنة، وهي أركانه الستة، وأما إذا ورد ذكر الإسلام وحده، أو الإيمان وحده؛ فكل واحد منهما يشمل الآخر، وقد جمع بعض أهل العلم ذلك بقوله:(إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا)، أي إذا اجتمعا في سياق واحد؛ افترقا في المعنى، وإذا افترقا في السياق؛ اجتمعا في المعنى، كقوله تعالى:{فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الذاريات:٣٥-٣٦]، أي كانت النجاة لمن حقق الإيمان ظاهرا وباطنا، ولما كان من بين أهل البيت زوجة لوط، وكانت تظهر الإسلام ولا تحققه، سمى أهل البيت مسلمين، ولكن النجاة كانت للمحققين منهم فقط. والله أعلم.

ومنه ما في الصحيحين عَنْ سَعْدٍ t أَنَّ رَسُولَ الله r أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فَتَرَكَ رَسُولُ الله r رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَالله إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ:"أَوْ مُسْلِمًا" فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَالله إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ:"أَوْ مُسْلِمًا" ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ الله r ثُمَّ قَالَ:"يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّار".

وهذه الجمل والمعاني ستمر علينا لاحقا بإذن الله تعالى، وأما الإحسان فسيأتي بيانه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(وكل مرتبة لها أركان): هكذا اصطلح أكثر أهل العلم على تسميتها بالأركان، ولم أقف على دليل ينص على هذه التسمية، ولكنها جاءت بموارد مختلفة، كما الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسَةٍ عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَالْحَجِّ »، وفي رواية لمسلم:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"، وفي لفظ للبخاري:"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ إِيمَانٍ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ"، وفي لفظ لمسلم:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ".

والركن لغة:قال في القاموس المحيط:[والرُّكْنُ. بالضم:الجانِبُ الاقْوَى والأمْرُ العظيمُ وما يُقَوَّى به من مَلِكٍ وجُنْدٍ وغيرِهِ والعِزُّ والمَنَعَةُ]ا.هـ.

فيمكن تسميتها بـ(ما بني عليها الإسلام)، أو بـ(تعريف الإسلام والإيمان والإحسان).

وهذا التفصيل دال على عظمة الإتقان في هذا الدين، وانضباطه ودقته، كما قال تبارك وتعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء:٨٢]، والمؤلف هنا أجمل القول، ثم سيعود لتفصيل كل ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(المرتبة الأولى:الإسلام: **فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ**).

كأن المؤلف رحمه الله تعالى هنا، أراد أن يفسر هذه المراتب الثلاث، بناء على حديث جبريل الآتي، ولم يرد المعنى العام للإسلام والإيمان والإحسان، وهذا ما يظهر واضحا جليا من خلال، استدلاله على كل مرتبة من المراتب وأبعاضها.

فبدأ بالإسلام على ما جاء في الترتيب في حديث جبريل الآتي، وهنا يكون الإسلام هو المباني الخمس، الواردة في الخبر، على أننا كنا قد بينا بالروايات المتقدمة لحديث ابن عمر، أنه يدخل فيه التوحيد والبراءة من الشرك وأهله، كما في رواية:" بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ".

أجمل المؤلف ذكر أركان الإسلام الخمسة هنا، ثم بعد ذلك سيشرع في تفصيل كل ركن بدليله، وهذا أسلوب اللف والنشر المرتب، كما تقدم.

قال المؤلف:(شهادة ألا إله إلا الله): جاء تفسيرها في حديث ابن عمر بأنها تحقيق العبودية بأن يُوَحَّدَ الله، ويُكْفَرَ بما دُونَه، ومن هنا كانت المفارقة والمفاصلة بين النبي **r** ، وكفار مكة والمشركين في زمانه عموما، حيث علموا مفادها ولوازمها وما تقتضيه، فأبوها ومضوا يحاربونها، ويحاربون من جاء بها - **r** - .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعض المسلمين يقولونها، ولا يعرفون لها معنى، إلا ما اعتادوا عليه من الشعائر الظاهرة، أما عقيدة الولاء والبراء، فهذه كثير من المسلمين في غياب عنها، لا سيما في هذا الزمان، وهذا حال كثير ممن ورث الإسلام، ولم يعرف حقائقه. فالله المستعان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (درء التعارض):[ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه، فهذه حال من كان مريضا، في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[فَعَامَّةُ النَّاسِ إذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ أَوْ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا شَرَائِعَهُ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لله وَرَسُولِهِ فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إيمَانٌ مُجْمَلٌ وَلَكِنَّ دُخُولَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ إلَى قُلُوبِهِمْ إنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إنْ أَعْطَاهُمْ اللهُ ذَلِكَ وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إلَى الْيَقِينِ وَلَا إلَى الْجِهَادِ وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا وَلَوْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لله وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَهَؤُلَاءِ إنْ عُوفُوا مِنْ الْمِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الْجَنَّةَ. وَإِنْ ابْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ. وَكَذَلِكَ إذَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ الْجِهَادُ وَلَمْ يُجَاهِدُوا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ r الْمَدِينَةَ أَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا فَلَمَّا جَاءَتْ الْمِحْنَةُ وَالِابْتِلَاءُ نَافَقَ مَنْ نَافَقَ. فَلَوْ مَاتَ هَؤُلَاءِ قَبْلَ الِامْتِحَانِ لَمَاتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَدَخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَكُونُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا الَّذِينَ ابْتُلُوا فَظَهَرَ صِدْقُهُمْ. قَالَ تَعَالَى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وَقَالَ تَعَالَى: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، وَقَالَ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ} - إلَى قَوْلِهِ - {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}]ا.هـ.

وقد وردت للشهادتين ضوابط في الكتاب والسنة:

١ - أن تكون بعلم وعمل؛ لقوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩]، وقوله: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف:٨٦].وفي صحيح مسلم عَنْ عُثْمَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ".

٢ - أن يتلفظ بها كل مستطيع لذلك، فإن أبي فلن ينفعه الإقرار بصدقها، وشهادته بأنها هي الحق، كما في الصحيحين من طريق سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ r فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ:"أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله r يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r وَالله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللهُ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ الله r: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}،ونحو ذلك من الأحاديث.

وفي ذلك غاية الاعتبار، فأبو طالب حَاطَ النبي r ونصره، ووقف معه في خندق واحد، ينافح عنه ويدافع، حتى اعتزل معه في مقاطعة أهل مكة له، في الشعب الذي سُمِّيَ بشعب أبي طالب، وقد عَلِمَ أنه على الحق، ومع ذلك لما أَبَى أن يقولها، ويذعن لها؛ مات كافرا بالله جل وعلا، ومما قاله من الشعر في مُنَاصَرتِه للنبي r:

والله لن يَصِلُوا إليك بِجَمْعِهِم ... حتى أُوَسَّدَ في التُّرَابِ دَفِينَا
فاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَليكَ غَضَاضَةٌ ... وأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونَا
ودَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّك نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِيناً قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِيْنَا
وَلَولَا المَلَامَةُ أو حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

٣- أن تكون بيقين وصدق؛ لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}[المنافقون:١]، وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات:١٥].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- أن تكون بذل وانقياد؛ لقوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، وقوله: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠].

٥- أن يَصْحَبَها الإخلاص فيها؛ لما في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ". وفي الصحيحين من حديث مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيُّ t في قصة عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ t قال النبي r :"فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله".

٦- أن يتواطأ الظاهر فيها مع الباطن؛ لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٢-٤].

٧- عقد الولاء والبراء فيها؛ لقوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة:٢٢]،وقوله:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٨-٩]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد:٢٥-٢٦].

٨- موافاة الله تعالى بها، بألا يرتكب نواقضها؛ لقوله تعالى:{لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} [مريم:٨٧-٨٩]، وقوله:{يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه:١٠٩].

فاعلم رحمك الله، أن الشهادة لا تنفع صاحبها إذا لم تتوفر فيها هذه الأمور، وقد ذكر بعض أهل العلم أن شروط قبول الشهادتين سبعة.

شروط الشهادتين:

١- العلم المنافي للجهل.

٢- اليقين المنافي للشك والريبة والتردد، ودليله قوله تعالى:{ثم لم يرتابوا}، وقوله تعالى:{لا ريب فيه}، وقوله:{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُنْـزِلَ عَـلَى الَّـذِينَ آمَنُـوا وَجْـهَ النَّهَـارِ وَاكْفُـرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُـونَ} [آل عمران:٧٢]، فمن شك أو تردد فليس بِمُسْلِم. نسأل الله العافية والسلامة.

٣- القبول المنافي للإعراض والنفور، ودليله قوله تعالى:{ثم لا يجدوا في أنفسهم حرج مما قضيت ويسلموا تسليماً}.

٤- الانقياد المنافي للاستكبار والتعالي؛ لأن حقيقة الانقياد هو الذل والخضوع والإذعان، ودليله قوله تعالى:{قل أن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

٥- الصدق المنافي للتكذيب والكذب، قال تعالى:{والذي جاء بالصدق وصدق به}.

٦- الإخلاص المنافي للرياء والشرك وحظوظ النفس، قال تعالى:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ... الآية}.

٧- المحبة وهي تاجها، المنافية للبغض والكره، قال تعالى:{يحبهم ويحبونه}، وقوله تعالى:{ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم}.

والناس مع الشهادة أصناف وهم:

أ- من يعلمها ويتعلمها ولكنه لا يقين عنده كالمستشرقين وأشباههم من المنافقين، فهم يعلمون معناها، ولكنهم شاكون فيها مترددون في قبولها والانقياد لها، وهؤلاء كفار ولو كثرت صلاتهم وصيامهم وحجهم وعمرتهم، فلا بد من اليقين الجازم بهذه الكلمة الطيبة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما يشهد لذلك قوله r في صحيح البخاري:"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ". متفق عليه من حديث سهل بن سعد الساعدي t ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة لما ذكر النبي r المنافقين قال في شأنهم:"وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ"، وأصله في الصحيحين.

ب- وبعض الناس يعلمها ويوقن بها، ولكنه لا يقبلها، قال تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل:١٤]،كحال المستكبرين والكافرين، والمبدلين لشرع الله تعالى، على مر العصور والأزمان، فهم يعلمون صدق الرسل، ويوقنون بصدق رسالتهم، ولكنهم لا يقبلون ما جاؤوا به، إما لحسد أو كبر، أو استغناء بعرض الدنيا عن الآخرة.

ج- ومن العباد من يعلمها ويوقن بها ويقبلها، ولكنه لا يريد أن ينقاد لها، فلا يعمل بالشرع، ولا يحكِّم كتاب الله جل وعلا، فهذا لا تنفعه الشهادة عند الله جل وعلا، فالانقياد أصل من أصول الاعتقاد، كحال الحاكمين بغير ما أنزل الله بالتشريعات الجاهلية، فهم ينطقون بالشهادتين، ويزعمون العلم بمقتضاها، واليقين بها، والقبول لها، ولكنهم يأبون الانقياد لما تأمر به هذه الكلمة، من إفراد الله جل وعلا بالحكم والتشريع. وكذلك تارك الصلاة لم ينقد لله جل وعلا فلم ينفعه نطقه بالشهادتين، فهؤلاء تولوا عن العمل بما اقتضته هذه الشهادة في هذا المقام، فكانوا بذلك كفارا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

د- ومن العباد من يعلم ويوقن ويقبل وينقاد، لكنه ليس بصادق مع الله فيها، فهو يفعل ما تقدم إما رغبة، أو رهبة،أو تحصيلا لشيء من عرض الدنيا، أما في حقيقة حاله، فهو كاذب مخادع، نسأل الله العافية السلامة، كحال الطواغيت الذين يلجئون إلى تطبيق الشرع؛ خشية من شعوبهم إذا قويت شوكتهم، فيظهرون القبول بها، ولكنهم في باطن الأمر يكذبون بها والعياذ بالله، وهذا هو حقيقة النفاق، وقد فضحهم الله تعالى وعرى أحوالهم في فواتيح سورة البقرة، من قوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين} إلى قوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}.

هـ - ومن العباد من يعلم ويوقن ويقبل وينقاد ويصدق، لكنه يرائي في ذلك، يريد ثناء الناس، وعرض الحياة الدنيا، فهذا مشرك بالله جل وعلا، وعمله حابط، وهو وبال عليه، نسأل الله العافية والسلامة.

و- ومن العباد من يفعل جميع ما تقدم، ولكنه يحب أعداء الله، ويواليهم، فهذا يزعم الإيمان، ولَّما يدخل الإيمان في قلبه، فهو لا يحب الله جل وعلا ولا رسوله r ؛ لأن من لوازم محبة الله ورسوله بغض أعدائهما، إذ لا يتصور محبة الشيء، ومحبة ضده، فالضدان لا يجتمعان، فلا يكون أبدا محبة الله مع محبة أعدائه؛ ولهذا نفى الله الإيمان عمن زعم ذلك، كما قال تعالى: {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله .... الآية}.

وقد جمع الناظم العلامة الشيخ حافظ حكمي رحمه الله المتوفى سنة ١٣٧٧هـ، هذه الشروط السبعة فقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبـشـروط سـبـعـة قـد قُيِّدَت ... وفي نصوص الوحي حقاً وَرَدَت
فإنـه لـن يـنـتـفـع قـائـلـهـا ... بالنطـق إلا حيـث يَسْـتَكْمِلُهـا
الـعلـم والـيـقـيـن والقـبـول ... والانقـيـاد فـادري مـا أقـول
والصدق والإخلاص والمحبة ... وفـقـك الله لمـا أحـبـه

فهذه هي شروط لا إله إلا الله محمد رسول الله r ، فإن العبـد إذا علـم معنـى هـذه الشهادة وما دلت عليه ومقتضياتها؛ وجب عليه أن يقبل كل ما جاءت به هذه الشهادة، فإذا قبل ذلك، وجب عليه تحويل هذا القبول وترجمته إلى واقع عملي، وذلـك بالانقيـاد لما أمرت به ونهت عنه، وأن يكون في ذلك صادقاً لا منافقاً، فَـيُرِي الله جـل وعـلا مـن نفسه الصدق في توجهه وعمله، وذلك إنما يكون بالإخلاص قَلْباً وقَالَباً، فإن من أبـرز علامات الصدق الإخلاص لله جل وعلا ما وقر في القلب من التعظـيم والإجـلال لله تبارك وتعالى، مما يتضاءل معه كل شيء سوى الله تعـالى، عنـدها يصـرف العبـد همتـه لإرضاء ربه تبارك وتعالى، ولو سخط النـاس أو ذمـوه أو فاتـه عـرض الـدنيا، والله لا يرضى إلا عن الموحدين المنقادين لشرعه، فإذا فعل ذلك، فعليه أن يعلم أنه لم يَقْـدُر الله حق قدره حتى يحب الله وأولياء الله، ويبغض الشيطان وأولياء الشيطان، وهـذه المحبـة هي تاج هذه الشروط، فمن أحب الله حقاً، فعل جميع ما تقـدم، وأمـا المـدعي للمحبـة فتراه يخالف بعض تلك الشروط، والأمر كما قال الشافعي كما في ديوانه المنسوب إليه:

لو كان حبك صادقاً لأَطَعْتَهُ.... إن المُحِبَّ لمن يُحِبُّ مُطِيعُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الشهادة، قوله تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم): أي دليل الشق الأول من الشهادتين، لأنهما لا تنفصلان؛ ولهذا جعلهما النبي r واحدة لما ذكر ما بُنِيَ عليه الإسلام، وهذا إعلام منه r ، أن العبد لن ينتفع بالشهادة لله بالتوحيد، حتى يشهد للنبي r بالرسالة ويحقق معناها ولوازمها ومقتضياتها، وكذلك لن ينتفع العبد بالشهادة للنبي r بالرسالة وبرفع شعار محبته للنبي r ، حتى يأتي بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، فإنهما لا يفترقان أبدا، فإن افترقتا؛ صار العَبدُ بالله كَافِرا.

واعلم أن هذه الشهادة هي أعظم ما يتقدم به العبد بين يدي الله جل وعلا، وأنه لا تقوم للدين قائمة إلا بها، وأن الله لا يقبل من الأعمال شيئاً، إلا ممن كان من أصحابها.

قوله:{شهد الله}: أعظم شَاهِدٍ على أعظم مَشْهُودٍ به، فالشاهد الله رب العالمين، والمشهود به التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد.

وفي الآية دليل على أن الله جل وعلا لم يزل متكلماً، فقد شهد تبارك وتعالى بهذه الشهادة العظيمة، وأخبر بها جل وعلا، وأعلمنا أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ثم أشهد على ذلك جل وعلا من عباده أَشْرَفَهم، وذلك لأنه لما كانت هذه الشهادة هي أشرف الأمور، وجاءت من أعظم شاهد بها، وتضمنت أعظم مشهود به؛ اصطفى من عباده من ارتضاهم جل وعلا شهداء، ليشهدوا على هذه الشهادة، فاختار تبارك وتعالى الملائكة ومن آتاهم الله العلم، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، ففيه شرف الملائكة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشرف أهل العلم، عند الله تعالى، ولو لم يرد إلا هذه الآية في فضلهم؛ لكانت كافية، كيف وقد ورد ما سوى ذلك، فنسأل الله من فضله العظيم.

ولما كانت هذه الشهادة، هي شهادة القسط، قائمةً بالعدل، دالةً عليه آمرةً به، قال تعالى: {قائما بالقسط}، ثم بين جل وعلا أن هذا القيام لا يشاركه فيه أحد؛ لأنه قيام على العالمين، وهذا لا يملكه ولا يستطيعه سواه، جل الله في علاه، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد:٣٣].

فلما كان لا أحد يقوم بهذا كله ويدبر الخلق إلا هو تبارك وتعالى، قال مؤكداً هذا المعنى: {لا إله إلا هو العزيز الحكيم}.

معاني العزيز:

قوله: {العزيز}: أي ذو العزة جل وعلا، ومعناه المنيع الممتنع، الذي لا يرام جنابه، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره وقضائه، والذي لا يخاف من أحد إذا أراد فعل شيء جل الله في علاه، كما قال تعالى: {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس:١٤-١٥]، على أحد التفسيرين في عودة الضمير على الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال العلامة ابن القيم في (القصيدة النونية):

وهو العزيز فلن يُرامَ جَنَابُهُ... أنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلطانِ

وهو العزيز القاهر الغَلَّابُ...لم يَغْلِبْـهُ شُـيءٌ هـذه صِفَتَـانِ

وهو العزيز بِقُوة هي وَصْفُهُ...فالعِـزُّ حِينَئِـذٍ ثَـلاثُ مـعـانِ

وهي التي كَمُلَت له سُبحانه..مِن كُل وُجْـهٍ عَـادِمِ النقصانِ

قوله:{الحكيم}: أي ذو الحكمة البالغة العظيمة، فهو المُحْكِمُ لخلقـه، وهـو الحـاكم فيهم، وهو الذي وضع كـل شيء في نصـابه بحكمتـه تبـارك وتعـالى، فهـو العـادل في حكمه، وهو المحكم لخلقه وشرعه، الواضع لكل شيء في نصابه، والـذي أعطـى كـل ذي حق حقه.

وحكمه سبحانه في خلقه، قدري كوني، وقدري شرعي، والكل بِقُدْرَتِه وقَدَرِه جـل الله في علاه، وسيأتي الفرق بين القدر الكوني والشرعي، بإذن الله تعالى، عن الكلام عند القدر.

وختم الله تعالى هذه الآية بهاتين الصفتين؛ ليبين أنه وحده المسـتحق لـذلك، فلـيس شيء من خلقه كذلك، بل هو سبحانه المتفرد بذلك، جل الله في علاه.

قال المؤلف رحمه الله:(وَمَعْنَاهَا:لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ): أي معنى كلمة (التوحيد: لا إله إلا الله) أنه لا معبود (بحق)، وإنما قيدها بقول (بحـق) ليخـرج بـذلك المعبـودات بالباطل، وللتذكير والتنبيه على أن هناك من يعبد في الأرض سوى الله، وعليـه فيكـون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعنى: المعبودات كُثُرْ، ولكنها كلها باطلة إلا الله الواحد القهار؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام:{قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:٧٥-٧٧]، فبين عليه السلام، أن كل ما يعبدونه من دون الله فهو باطل، وأنهم له أعداء إلا الله جل وعلا، ثم أخذ في بيان صفات الإله الحق المستحق للعبادة، وهذه دعوة منه r لهم أن يَدَعُوا عبادة ما سواه، وأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، فهو المستحق لذلك، وأما الآلهة الباطلة فهي ضعيفة ذليلة مقهورة مربوبة لله رب العالمين.إذن ليس المعنى إنكار وجود ما يعبد من دون الله عند البشر، ولكن إنكار أن تكون هذه آلهة، أو أن تكون مستحقة للعبادة، أو أن فيها أدنى مقومات ذلك.

ولهذا عندما ينفي الله تعالى المعبودات من دونه، إنما ينفيها بهذا المعنى، فهي حقيقة ليست آلهة، ولا تستحق أن تعبد، وإن زعم فيها أصحابها ذلك، كما قال تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت:٤٢]، وقوله:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [لقمان:٣٠].

ولهذا الله تعالى يتحدى هؤلاء المشركين في ذلك، كما قال تعالى:{قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُّ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سبأ:٢٧]، وقوله:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر:٤٠-٤١]، وقوله:{مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف:٣- ٥]، ونحو ذلك من الآيات.

تقدير فاسد، دال على قصور صاحبه:

وبعض من لا علم له بمعاني التوحيد وحقائقه، يُقَدِّرُ أن معنى الكلمة الطيبة هو: أي:(لا رب بحق إلا الله) أو (لا خالق ولا رازق بحق إلا الله)، وهذا الكلام وإن كان حقا، إلا أنه قصور واضح في فهم كلمة التوحيد، فإن كلمة التوحيد لم تأت فقط لإثبات ربوبية الله تعالى على خلق وفعله بهم، وإنما جاءت كذلك ليصرف العباد إليه العبادة وحده لا شريك له، فهؤلاء لم يفهموا حقيقة التوحيد، وأنه جاء ليقرر مبدأ تعبيد العباد لله، وتقرير إلهيته عليهم، فإن الذين بُعِثَ فيهم النبي r ، وكذلك من بُعِثَ فيهم الأنبياء من قبله، أغلبهم كان يقر بربوبية الله جل وعلا، ومع هذا كانت الرسل تقول لهم:{اعبدوا الله مالكم من إله غيره}، أي طالما أنكم تقرون بربوبيته؛ فأقروا بألوهيته، فلا تعبدوا أحدا سواه، كما أنكم لا رب لكم سواه، فلو كان المعنى كما قال هؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجهلاء، فعلى أي شيء يُحارِب الرسل أقوامهم،وعلى أي شيء كانت الخصومة والعداوة إذن؟!، بل ولماذا يدخل المشركون في هذا الحروب، ويُعذبون أنفسهم؟!، فإنه وبهذا التعريف الفاشل لكلمة التوحيد، قد قال هؤلاء عين ما أمرت به كلمة التوحيد، وعين ما جاءت به الرسل؟!!، فعُلم من هذا يقيناً أنه ليس المراد إثبات الربوبية فحسب، فإن هذا أمر لا ينازع فيه إلا الشواذ على مر العصور والأزمان، بل المراد إثبات العبودية لله وحده، وصرف جميع العبادات له سبحانه.

وبعض أهل العلم من المتأخرين يقدر كلمة (موجود)، أي (لا إله حق موجود إلا الله)، وهذه الكلمة لم ترد في كلام السلف، وإنما أراد بها المتأخرون الرد على الوُجُودِيَّين، فإن كان هذا مرادهم؛ فتقال ويبين أن المراد بذلك الرد على الوجوديين، أما ما عدا ذلك فالأولى الاكتفاء بما جاء عن السلف؛ ولأن هذا التقدير يوهم بإنكار أن يكون هناك من يعبد من دون الله في الأرض، وهذا المعنى فاسد كما تقدم تقريره.

وقد سمى الله تبارك وتعالى هذه الكلمة في القرآن، وضرب لها مثلا، في مقابلة كلمة الشرك ومثلها، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم:٢٤-٢٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(مجموع الفتاوى):[وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ مَثَّلَ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ أَيْ : كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . فَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَلَهَا فَرْعٌ عَالٍ وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي قَلْبٍ ثَابِتٍ كَمَا قَالَ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ فَالْمُؤْمِنُ عِنْدَهُ يَقِينٌ وَطُمَأْنِينَةٌ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ثَابِتٌ مُسْتَقِرٌّ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ ثَابِتٌ عَلَى الْإِيمَانِ مُسْتَقَرٌّ لَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَالْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ} اُسْتُؤْصِلَتْ وَاجْتُثَّتْ كَمَا يُقْطَعُ الشَّيْءُ يُجْتَثُّ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ {مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} لَا مَكَانَ تَسْتَقِرُّ فِيهِ وَلَا اسْتِقْرَارَ فِي الْمَكَانِ؛ فَإِنَّ الْقَرَارَ يُرَادُ بِهِ مَكَانُ الِاسْتِقْرَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَبِئْسَ الْقَرَارُ} وَقَالَ:{جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا}. وَيُقَالُ: فُلَانٌ مَا لَهُ قَرَارٌ أَيْ ثَبَاتٌ وَقَدْ فُسِّرَ الْقَرَارُ فِي الْآيَةِ بِهَذَا وَهَذَا فَالْمُبْطِلُ لَيْسَ قَوْلُهُ ثَابِتًا فِي قَلْبِهِ وَلَا هُوَ ثَابِتٌ فِيهِ وَلَا يَسْتَقِرُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمَثَلِ الْآخَرِ:{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} فَإِنَّهُ وَإِنْ اعْتَقَدَهُ مُدَّةً فَإِنَّهُ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ يَخُونُهُ كَالَّذِي يُشْرِكُ بِالله فَعِنْدَ الْحَقِيقَةِ يَضِلُّ عَنْهُ مَا كَانَ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله. وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي يَعْتَقِدُهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ تَخُونُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ بَلْ هِيَ كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ فَمَنْ كَانَ مَعَهُ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ كَانَ لَهُ فَرْعٌ فِي السَّمَاءِ يُوَصِّلُهُ إلَى الله فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ { إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَصْلٌ ثَابِتٌ فَإِنَّهُ يُحْرَمُ الْوُصُولَ؛ لِأَنَّهُ ضَيَّعَ الْأُصُولَ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْبِدَعِ وَالشُّبُهَاتِ لَا يَصِلُونَ إلَى غَايَةٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَحْمُودَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

وَاَللهُ سُبْحَانَهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ؛ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنَّمَا يُعْبَدُ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ. وَأَصْلُ عِبَادَتِهِ مَعْرِفَتُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ؛ وَهَذَا كَانَ مَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللهَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَاَلَّذِينَ يُنْكِرُونَ بَعْضَ ذَلِكَ مَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَمَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَلَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ وَلَا عَبَدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ. وَاَللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ {مَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ} فِي ثَلَاثِ مَوَاضِعَ ؛ لِيُثْبِتَ عَظَمَتَهُ فِي نَفْسِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَلِيُثْبِتَ وَحْدَانِيَّتَهُ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَلِيُثْبِتَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فَقَالَ فِي الزُّمَرِ: {وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الْآيَةَ.

وَقَالَ فِي الْحَجِّ: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} {مَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ} وَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ: {وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}.

وَفِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ ذَمَّ الَّذِينَ مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ الْكُفَّارِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْدُرَ اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ حَقَّ تُقَاتِهِ وَأَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ قَالَ تَعَالَى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ} وَقَالَ: {اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ}].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ، (لا إله)، نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إِلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ).

الحد هنا المراد به، أي بيان موضع النفي من الإثبات، في كلمة التوحيد، وهذا بيان وتفصيل لمعنى كلمة التوحيد، وأنها جاءت لإخراج كل من سوى الله تعالى، وتقرير إفراده سبحانه بأنه المعبود بحق جل وعلا؛ ولأجل هذه الكلمة وبيانها اصطفى الله جل وعلا أفضل خلقه، وأوحى إليهم بشرعه، وأنزل إليهم كتبه، وأمرهم بجهاد من خالفهم فيها، وهجران من هجرها، والحب فيها والبغض فيها، وبين أن المكرم الناجي من أتى بها، وأن المهان الهالك من تنكب صراطها، فهي ميزان العدل والإنصاف، ومفتاح كل عمل، ولهذا بقدر ما تقوم في قلب العبد وواقعه، بقدر ما يكون له التمكين والنصر.

وبين المؤلف أن لهذه الشهادة جزأين:

١- نفي جميع المعبودات الباطلة نفياً قلبياً؛ يبعث على إزالتها واقعياً، عملا بالجوارح، تلازما بين الظاهر والباطن، مهما استطاع إلى ذلك سبيلا.

٢- إثبات العبادة الحقة لله جل وعلا، فمن نفى فقط كان ملحداً، ومن أثبت فقط أتى بكلام لا معنى له، ولا اعتبار به في الشرع، فلا بد من التلفظ بركني النفي والإثبات؛ ولهذا تكاثرت النصوص في بيان فضل التلفظ بهذه الكلمة الطيبة، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ"، وجاءت في أذكار أدبار الصلوات المكتوبة، وجاءت في ذكر من تَعَارَّ مِن اللَّيل، وجاءت في أذكار الفراغ من الوضوء، وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي r قال:"لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ".

وجاء في صحيح البخاري في (كتاب الجنائز) :بَاب مَا جَاءَ فِي الْجَنَائِزِ وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَقِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَلَيْسَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ.

وجاء في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ".

فائدة:جاء في كتاب (المطلع على أبواب المقنع) لشمس الدين أبي محمد، محمد بن أبي الفتح، بن أبي الفضل البعلي الحنبلي قال:[«أشهد أن لا إله إلا الله» قال الجوهري: الشهادة خبر قاطع، والمشاهدة: المعاينة، فقول الموحد «أشهد أن لا إله إلا الله» بمعنى: أخبر بأني قاطع بالوحدانية، فالقطع من فعل القلب، واللسان مخبر عن ذلك. و«الله» مرفوع على البدل من موضع «لا إله» لأن موضع «لا» مع اسمها رفع بالابتداء ولا يجوز نصبه حملاً على إبداله من اسم «لا» المنصوب، لأن «لا» لا تعمل النصب إلا في نكرة منفية و«الله» معرّف مثبت. وهذه الكلمة وإن كان ابتداؤها نفياً، فالمراد غاية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإثبات، ونهاية التحقيق، فإن قول القائل: لا أَخٌّ لي سواك، ولا معين لي غيرُك آكد من قوله: أنت أخي، وأنت معيني. **ومن خواصها أن حروفها كلها مهملة ليس فيها حرف معجم تنبيهاً على التجرد من كل معبود سوى الله تعالى، ومن خواصها أن جميع حروفها جوفية، ليس فيها شيء من الشفوية]**ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه): هذا من باب قياس الأولى، ومن ترتيب الملزوم على اللازم، فمن علم وأيقن وشهد، بأن الله تعالى هو مالك الملك،فلا مالك لهذا الكون إلا الله؛ لزمه ألا يعبد سواه، إذ كيف يخلق ويملك، ثم يأمر أن يُعبد، فَيُعَبدَ غيره؟!!، ولهذا كان الشرك ظلماً عظيما وضلالا مبيناً.

وهذا المعنى الذي ذكره المؤلف قد أخذه من مواضع من الذكر الحكيم، بل الكتاب كله يقرر هذا الأصل العظيم، ومن أقصر السور في هذا المعنى العظيم، المتضمن ترتيب اللازم على الملزوم، سورة (الناس)، فقد جاءت مرتبة على هذا النسق، كما تقدم تقريره من قبل.

وإليك جملة من الأحاديث الدالة على أن العبد إذا لقي الله تعالى بالشرك؛ فإنه قد لقيه بالذنب الأعظم، الذي لا يغفره الله تعالى؛ ولترى عظيم الظلم الذي يمارسه بعض الدعاة، عندما يُهَمِّشُونَ قضية بيان التوحيد والتحذير من الشرك، ولتعلم عظيم ضلال الذين أَسَّسُوا أحزابهم، ودعوتهم على توحيد الربوبية فحسب، فكل هؤلاء مخادعون للأمة غاشون، لها فويل لهم ويل لهم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ r أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله قَالَ:"أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَال:"وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ" قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ:"أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ r رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله **مَا الْمُوجِبَتَانِ**، فَقَالَ:"مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا".

وفي صحيح مسلم في:(باب بَيَانِ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَلاَ تَنَالُهُ شَفَاعَةٌ وَلاَ تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْمُقَرَّبِينَ). أخرج مسلم حديث أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ الله أَيْنَ أَبِي قَالَ:"فِي النَّارِ". فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ:"إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ".

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ:"لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ". أي لم يعرف حق الله تعالى عليه، فلم يعبده، فتأمل، فإن هذه أعمال جليلة، ومع ذلك لم ينتفع بها هذا المشرك؛ لِنَعْلَمَ جميعا أنه ليس الشأن أن نعمل، وإنما الشأن أن نأتي بأسباب قبول الأعمال، واعلم أن أجلها وأعظمها على الإطلاق هو التوحيد والبراءة من الشرك وأهله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى:[وَقَوْلُهُ:{إذْ نُسَوِّيكُمْ} لَمْ يُرِيدُوا بِهِ أَنَّهُمْ جَعَلُوهُمْ مُسَاوِينَ لله مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا نُقِلَ عَنْ قَوْمٍ قَطُّ مِنْ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا: إنَّ هَذَا الْعَالَمَ لَهُ خَالِقَانِ مُتَمَاثِلَانِ .....إلى أن قال: وَكَذَلِكَ "مُشْرِكُوا الْعَرَبِ" كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى أَنَّ أَرْبَابَهُمْ لَمْ تُشَارِكْ اللهَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ بَلْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَّ وَحْدَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا كَمَا أَخْبَرَ اللهُّ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ آيَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُّ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} {اللهُّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}. وَقَالَ تَعَالَى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}....إلى أن قال: وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:{آللهُّ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ} {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ الله}. أَيْ: أَإِلَهٌ مَعَ الله فَعَلَ هَذَا؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إنْكَارٍ وَهُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا إلَهٌ آخَرُ مَعَ الله. وَمَنْ قَالَ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ الْمُرَادَ:هَلْ مَعَ الله إلَهٌ آخَرُ؟ فَقَدْ غَلِطَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى:{أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ}. وَقَالَ تَعَالَى:{فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ}. وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}. وَكَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تُشَارِكْ اللهَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ شَيْءٍ؛ بَلْ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ وَوَسَائِطَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ}.ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). وقَوْلُهُ تَعَالَى:(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ): ذكر المؤلف هذه الآيات، كتوضيح وبيان لحقيقة التوحيد الكاملة، وأنها لا تتم إلا بتحقيق عقيدة الولاء والبراء، والمعنى أن من لم يأت بهذا الأصل فلم يفهم التوحيد أصلا، فأراد المؤلف رحمه الله، أن بين أن مجرد النطق بكلمة التوحيد ليس بكافٍ، حتى يأتي العبد بما تقتضيه هذه الكلمة، من المعاني العظام والمباني الجِسَام، فهذه الكلمة قامت على الحب والبغض، فمن نطق بها في حين أنه يحب أعداءَهَا ويُوالِيهم، ويُبْغِضُ أَوْلِياءَهَا ويُعَادِيهم؛ فهو من المنافقين الخُلَّص، الذين لا تنفعهم هذه الشهادة يوم القيامة بشيء، بل وسيكونون تحت جميع الكافرين في النار، في دركها الأسفل، عياذا بالله، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:١٤٥-١٤٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالولاء والبراء هي الركن الركين، والأصل الأصيل، في مقتضى لا إله إلا الله وحقيقتها، قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦]، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وأن من لازِمها أن من لم يكفر بالطاغوت؛ فليس بمؤمن، وليس بمستمسك بـ(لا إله إلا الله) ولن تنفعه، ولو كثرت صلاته وصيامه وحجه وزكاته، ولو عمل من طاعة الله جل وعلا ما عمل؛ حتى يأتي بالكفر بالطاغوت، ويحقق ذلك في دنياه، قولا وعملا.

وإنما قُدم الكفر بالطاغوت على الإيمان وأُفْرِدَ - في آية سورة البقرة المتقدمة - مع أنه من جملة الإيمان؛ تأكيداً عل هذه الحقيقة العظمى، التي يجهلها كثير من العباد، فينطقون بكلمة التوحيد، ويصلون ويصومون، وهم في نفس الوقت، يحبون أعداء الله، ويوالونهم، ويناصرونهم، بل وربما ناصروهم حتى على المؤمنين،وهؤلاء ليس في قلوبهم من الإيمان شيء ينتفعون به يوم القيامة، فإن في قولك (لا إله) إثباتا لبغضك لجميع الطواغيت والمعبودات من دون الله جل وعلا، وفي قولك (إلا الله) إثبات للعبادة لله تعالى، وللمحبة لله جل وعلا، ومحبة من يحب الله جل وعلا.

علاقة العبودية بالحب والذل:

والعبودية إنما تقوم على المحبة والذل، فأين المحبة، وتحقيق العبادة، في من يسعى جاهداً في حرب دين الله، وإيذاء عباد الله المؤمنين، وفي نفس الوقت، يُؤَمِّنُ الأعداء، ويقربهم، ويحمي الشرك وأهله، ويلقي عليهم الخُلَع والعطايا، فمعاذ الله أن يكون أمثال هؤلاء، شموا رائحة التوحيد، أو عرفوه، معرفة عمل وذل ومحبة وانقياد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في نونيته راداً على هؤلاء:

لَـو كان حُبُّهُـمُ لأَجْلِ الله ما ... عَـادَوا أَحِبَّتَه على الإيمـانِ
ولما أحَبُّـوا سُخْطَهُ وتَجَنَّبُـوا ... مَحْبُـوبَـه ومَـوَاقِعَ الرِّضْوانِ
شَـرْطُ المحبـة أن تُـوافِق من... تُحِـبُّ على مَحَبَّتِه بِـلا عِصْيانِ
فإذا ادَّعَيْتَ له المحبة مَعْ خِلَا ... فِكَ مَا يُحِبُّ فَأنت ذُو بُهْتَانِ
أَتُحِـبُّ أعْدَاءَ الحَبِيبِ وتَدَّعِي ...حُـبّاً لَـه مَـا ذَاكَ في إمْـكَانِ
وكذا تُعَـادِي جَاهِداً أحْبَابَهُ .... أيْـنَ المَحَـبَّةُ يـا أخَ الشَّيطانِ
ليس العِبَادَةُ غَير تَوْحِيد المَحَبَّة مَعْ خُضُوع القَلْـب والأرْكَانِ
والحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِه فيما يُحِبُّ وَيُبْغِـضُ مَـا لا يَـرْتَضِي بِجَنَـانِ
وَوِفَاقُهُ نَفْسُ اتِّبَاعِكَ أمْـرَهُ ..والقَصْد وَجْه الله ذِي الإحسانِ
هذا هو الإحْسَانُ شَرْطٌ في قَبُو.. لِ السَّعْي فَافْهَمْهُ مِن القُرآنِ

لا استغفار للمشركين:

حتى حرم الله تعالى مجرد الاستغفار للمشركين أو الصلاة عليهم، وهذه من شـفاعة الدنيا، وكذلك لا يقبل الله تعالى فيهم شفاعة الآخرة، كما قال تعـالى:{مَـا كَـانَ لِلنَّبِـيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْـدِ مَـا تَبَـيَّنَ لَهُـمْ أَنَّهُـمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة:١١٣-١١٤]، وقال:{وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُـمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:٨٤-٨٥].

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي".

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ".قلت: قوله r :"بذيخ"، الذيخ: هو ذَكَرُ الضَّبُع.

هكذا أراد المؤلف أن يبين أهم مقتضيات لا إله إلا الله، وأنها لا تقبل بدون الكفر بالطاغوت.

احذر ربوبية البشر:

وفي قوله تعالى:{وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ} تذكير بأن ربوبية البشر بعضهم للبعض الآخر شرك أكبر وذنب لا يغفر، وأن الإسلام بريء من هؤلاء، وهنا يمثل بين يدينا طاغوت عصري، لا يقل تعلق أتباعه به عن تعلق المشركين الأوائل بهبل واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألا وهو طاغوت التشريعات البرلمانية، والديمقراطية المأفونة الكافرة، حيث التأليه للبشر، وفرض ربوبية الأكثرية على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأقلية، فالتصويت حاسم للمسألة، حيث تضفي الديمقراطية، صفة الربوبية التشريعية لأصحاب العدد الأكبر من الناخبين، وعلى الآخرين الإذعان والانقياد التام، لما يمليه هذا الرَّب الجديد لهذه الجموع.

فيتخذ البعضُ البعضَ أربابا من دون الله، عياذا بالله من الردة والكفر الصراح البواح، وللأسف الشديد يظهر بين الجموع أقوام أصحاب لحى فواتن، يزينون العملية الانتخابية ويبررونها، ويجعلونها واجبا ومطلبا شرعيا، للذود عن الدين والقيام بالإسلام –زعموا-، خابوا وخسروا، أما علم هؤلاء أن مجرد الدخول في هذه الصفقة الشيطانية؛ يعني تدشين هذا الرب الجديد للجموع البشرية، إنها عبادة الشيطان بوجه آخر، صارخ كالح أسود، مشين مهين، فنعوذ بالله من الخذلان، ومن غياب المعاني الشرعية، في أخص خصائص العبودية، وأسمى معاني التوحيد الخالص لله رب العالمين، وسيأتي مزيد بيان لذلك في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، عند الحديث عن الطواغيت.

قوله:(وتفسيرها): التفسير هو الإبانة والإيضاح، ومنه قولهم:(فَسَرت المرأة عن وجهها) أي كَشَفته.

قوله:(الذي يوضحها): التوضيح مرادف للتفسير، واعلم أن أفضل وأعظم أنواع التفسير، هو تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وهذا ما فعله المؤلف هنا، حيث فسر كلمة التوحيد، بآيات من القرآن الكريم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضرب المثال بالخليل للاقتداء به:

قوله:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ}: {إذ} ظرف لما مضى من الزمان، فالله جل وعلا يقص علينا أمراً قد قُضِيَ؛ لنأخذ منه العبرة والعظة والهدايات؛ ولكي نتخذ إبراهيم r في ذلك قدوة عليه الصلاة والسلام، فقد كان وحيداً بين قوم مشركين، بما فيهم أقرب الناس إليه، وهو أبوه، وعشيرته، وقد تَفَنَّنُوا في أنواع الشرك، فعبدوا الكواكب، وعبدوا الأصنام، وعبدوا الإنسان، فقام عليهم كلهم بكلمة التوحيد، وبذل نفسه وماله ووقته، في تقرير هذا الأصل العظيم، الذي ما خلقت الدنيا والآخرة إلا لأجل إقامته والعمل بمقتضاها، فناظر كل طائفة منهم، مناظرة عقلية فطرية، تلزمهم الحجة، وقَد قَصَّ الله جل وعلا علينا مناظراته الثلاث، لهذه الطوائف الثلاث في كتابه العزيز، فناظرهم في الكواكب، وناظرهم في الأصنام، وناظر النمرود، إلآههم من بني الإنسان. فيا لِعَذابِ هذا القلب المشرك، يعبد كوكبا وحجرا وبشرا .!!؟

قوله:{لأبيه}: دليل على أن أولى الناس بالعمل على نجاته وبذل الدعوة له، هم الأقربون، فهم أولى الناس بالمعروف، ولا معروف أعظم من دعوتهم إلى التوحيد؛ ولهذا بدأ إبراهيم بأبيه، ثم ثَنَّى بقومه، الأقرب فالأقرب، كما صحيح مسلم عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} دَعَا رَسُولُ الله r قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ:"يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا".

قوله:{إنني براء}: تأكيد على ما تقدم تقريره من ضرورة البراءة من الشرك والمشركين، وإن كان أقرب الأقربين، وليس معنى البراءة هنا التبرؤ من انتسابه لأبيه فإن هذا محرم، ولا يجوز لما في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ **t** أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ **r** يَقُولُ:"لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ وَمَنْ ادَّعَى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"، فالمقصود في كلام المؤلف براءة الدين.

واعلم رحمك الله، أن براءة الدين، هي أعظم أنواع البراءات، فإنها تَحُولُ بين المرء وزوجه، والوالد وولده، والقريب وقريبه، والصديق وحَمِيمِه، فلا سواء بين من انتسب إلى الإسلام، ومن انتسب إلى الطاغوت وعبادته.

واعلم أن البراءة تستلزم أمورا:

١- بغضهم في دينهم.

٢- بغض آلهتهم، وهذا فيه تفصيل، فيفرق بين من رضي ومن لم يرض، ليخرج بذلك الملائكة والرسل والمتقون، ممن عُبِدُوا بغير رضاهم، وكذلك الشمس والقمر والكواكب، أما الأصنام والأوثان التي وضعها المشركون فهذه تُبْغَضُ بأعيانها، سواء الأوثان الحجرية، أو الدساتير والتشريعات الجاهلية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣- بغضهم في أعيانهم، إلا من استثنى الله تعالى في باب المعاملة في حق الوالدين، والزوجة من أهل الكتاب.

٤- اعتقاد كفرهم وشركهم.

٥- إقصاؤهم وإبعادهم فلا يُتَّخَذُون بطانة، ولا يولون ولاية،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١١٨-١١٩]، وقوله:{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٨٩]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:١٤٤].

٦- دعوتهم إلى الله جل وعلا.

٧- جهادهم حتى لا يبقى في الأرض سلطان لغير الله عز وجل.

قوله:{إلا الذي فطرني}: دليل على أنهم كانوا يعبدون الله جل وعلا، ولكنهم كانوا يعبدون معه آلهة أخرى، ومع هذا لم ينفعهم ذلك عند الله شيئاً، وفيه الرد على عباد القبور والأولياء والصالحين، الذين اتخذوا أنداداً من دون الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقة هذا الاستثناء:

كما أن قوله:{إلا الذي فطرني}: استثناء منقطع، أي لا يدخل المستثني في المستثنى منه، فإبراهيم الخليل عليه السلام إنما تبرأ من الآلهة الباطلة، فالبراءة وقعت على الباطل، واستثنى الله ربَّ العالمين، إلهَ الحق، إله الأولين والآخرين.

وفي قوله:{فطرني}، دعوة لهم إلى التوحيد، حيث ذكّرهم أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله لم يفطروكم؛ فكيف تعبدونهم من دون الذي فطركم. في الآية تعظيم لشأن الولاء البراء، وشأن الرب تبارك وتعالى، وأن فاطراً هذا شأنه حَرِيٌّ أن تُقَطَّعَ لأجله كل آصرة، وأن يُتَبَرَّأَ من أجله من كل قريب كفر بالله تعالى، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:٢٣]، وهذا من بعض شكرك الله الذي فطرك.

ثم بين مرة أخرى عليه الصلاة السلام، أنه إضافة إلى أن الله تعالى هو الفاطر، وأنه هو الذي يهدي، فهو كذلك الذي هدانا لأسباب المعاش، وهو الذي علمنا ما لم نكن نعلم، وهو الذي كسانا بعد عري، وأطعمنا بعد جوع، وأغنانا بعد عَيلة، وقوانا بعد ضعف، وكبّرنا بعد صغر، فهل من خالق غير الله يفعل ذلك؛ فالنتيجة إذن: فكيف تعبدون غيره؟، وهل مَنْ تَعبدُونَهم يفعلون بكم مثل هذا؟.قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه:٥٠].

وفي الآية تذكير بأعلى درجات الهداية، وأنها هي الهداية إلى الصراط المستقيم، ففيه دعوة أخرى إلى توحيد الله جل وعلا، وذكره وشكره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{وجعلها كلمة باقية في عقبه}: أي في الآخرين، من نسله أو ممن يأتون بعده، فجعلها {باقية} إلى قيام الساعة، من أنه لا معبود بحق إلا الله.

وقد اخْتُلِفَ في الضمير في هذه الآية، هل هو عائد على الله تعالى، أم على إبراهيم، قولان لأهل العلم، وهذا من شكر الله تعالى لصنيع إبراهيم الخليل وما قام به من الصدع بالتوحيد الخالص.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}، عَنْ عِكْرَمَةَ،{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}، قَالَ: فِي الْإِسْلامِ أَوْصَى بِهَا وَلَدَهُ]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال:{ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي "لا إله إلا الله" أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } أي: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } يعني:لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها.

ورُوي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تفسير البغوي:[{وَجَعَلَهَا} يعني هذه الكلمة، {كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} قال مجاهد وقتادة: يعني كلمة التوحيد، وهي "لا إله إلا الله" كلمة باقية في عقبه في ذريته. قال قتادة: لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده. وقال القرظي: يعني: وجعل وصية إبراهيم التي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته،وهو قوله عز وجل:{ووصى بها إبراهيم بنيه}.وقال ابن زيد: يعني قوله:{أسلمت لرب العالمين}، وقرأ:{هو سماكم المسلمين}.{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم. وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عز وجل]ا.هـ.

تَرِكَةُ الأنبياء والمرسلين، وتركة الشياطين:

قوله:{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}: أي لعل فئاما منهم يَتُوبُون إلى رشدهم، ويرجعون إلى توحيد ربهم، وهذا من رحمة الله تعالى أنه لا يخلي الأرض من قائم لله تعالى بالحق، وقد بين الله تعالى في آيات أخرى، أنه مع أن الله تعالى جعلها باقية، ألا أنه لا ينال عهده الظالمون، وأن منهم من سيقبلها، ومنهم من سيردها، بل الذين سيردونها أكثر، نسأل الله العافية والسلامة؛ ولهذا خاف إبراهيم من ذلك، كما قال تعالى :{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، وقد شكر الله تعالى لخليله إبراهيم r فجعل في ذريته النبوة والكتاب.

قال الشنقيطي في: (أضواء البيان):[قوله تعالى:{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}. الضمير المنصوب في {جَعَلَهَا} على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله، المذكورة في قوله:{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات.وهذا المعنى جاء موضحا في قوله:{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}.ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله.وهذا المعنى جاء موضحا في قوله: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}.وضمير الفاعل المستتر في قوله:{وَجَعَلَهَا}.قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق.وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى.فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة:{بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي ولده وولد ولده.وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين:أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله:{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ}.والأمر الثاني هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح، كقوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، أي واجعل من ذريتي أيضا أئمة، وقوله تعالى عنه:{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، وقوله عنه:{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، وقوله عنه هو وإسماعيل:{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، إلى قوله:{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}.وقد أجاب الله دعاءه في بعث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرسول المذكور ببعثه محمدا r .ولذا جاء في الحديث عنه r أنه قال:"أنا دعوة إبراهيم".وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت:{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}، وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}.وعلى القول الثاني، أن الضمير عائد إلى الله تعالى، فلا إشكال.وقد بين تعالى في آية الزخرف هذه، أن الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه، لأن كفار مكة الذين كذبوا بنبينا r من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه r وقالوا إنه ساحر. وكثير منهم مات على ذلك، وذلك في قوله تعالى:{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ} يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد r :{وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}.وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة:{قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، أي الظالمين من ذرية إبراهيم.وقوله تعالى في الصافات:{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}، فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك]ا.هـ.

قلت: وهذا دال على أن للتوحيد ورثة، فهو ميراث وتركة الأنبياء والمرسلين، كما أن للشرك ورثة، وهو ميراث وتركة الشيطان الرجيم.

وِلِكُلَ قَوم وَارِث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:({قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد ألا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون})، هذه هي الآية الأخرى التي استدل المؤلف رحمه الله بها على تفسير كلمة التوحيد، وأنها تقوم على الحب والبغض في الله، ولو استلزم ذلك مقاطعة الدنيا بأسرها، وقد شرع الله جل وعلا لعباده تذكر هذه الحقيقة في كل يوم، إذا أصبحوا فقد ثبت عن النبي r أنه كان يقرأ في راتبة الصبح في الأولى بـ(الكافرون) وفي الثانية بـ(الإخلاص)، فالأولى يقرأ فيها التذكير بإخلاص العبودية لله جل وعلا، وفي الثانية يقرأ فيها إخلاص التذكير بالولاء البراء في الله جل وعلا،وربما قرأ في الأولى بالآية من البقرة قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم .... الآية} وفي الثانية الآية من آل عمران قال تعالى: {فلما أحس عيسى منهم الكفر ... الآية}، والخبران في صحيح مسلم كما تقدم؛ ليتذكر العبد في صبيحة كل يوم هذه الحقيقة العظمى، التي غفل أو تغافل عنها كثير من الناس، أن الدين لا تقوم له قائمة في قلب العبد، ولن ينعكس ذلك إيجاباً على واقعه إلا إذا حقق الولاء والبراء في الله الواحد القهار، وكذلك شرع قراءة سورتي الإخلاص والكافرون في ركعتين الطواف خلف المقام؛ أيضا ليتذكر العبد أن العلاقة مع الناس لا تكون إلا على وفق الولاء والبراء، فشرع قراءة ما يتعلق بالولاء والبراء في صبيحة كل يوم، وفي أعظم مجامع المسلمين في بيت الله الحرام؛ لهذه المعاني العظام، وتأمل تخصيص كون الركعتين مع هذه التلاوة فيهما خلف المقام؛ تذكيرا بما قام به إبراهيم الخليل صاحب هذا المقام، من الإيمان الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والكفر بالطاغوت، وهذا المعنى قد تقدم؛ وإنما كررناه لضرورة التنبيه والإكثار من ذلك.

فتأمل في قوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد ألا الله ... الآية} كيف أمر الله جل وعلا نبيه r ، والأمر للأمة من بعده، أن يَدْعُوا أهل الكتاب من يهود ونصارى، - ومجوس على قول -، وقيل المراد بهم يهود نجران، الراجح عموم الآية وإنما خص أهل الكتاب بالدعوة هنا؛ لأن سياق الآية في مجادلة أهل الكتاب لا لكونهم مخصوصين بالدعوة دون غيرهم، بل هذه الدعوة عامة لهم ولغيرهم.

أهمية مدارسة الإسلام.

بل إن العبد مأمور بأن يدعو نفسه ومن حوله، ويتدارسون ذلك، ويذكرونه مراراً وتكراراً، فإنما هي العبودية لله جل وعلا وتوحيده سبحانه، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ.قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ r أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ r خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:"مَا أَجْلَسَكُمْ". قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ:"آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ". قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ:"أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري معلقا:[وَقَالَ مُعَاذٌ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً]. وقد وصله ابن أبي شيبة بسند جيد، وفيه بسند حسن عن علقمة أنه كان يقول لأصحابه:امشوا بنا نزدد إيمانا.

وفي مصنف ابن أبي شيبة من طريق عبد الرحمن بن سابط قال:كان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول:تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمانا ، تعالوا نذكره بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته. قلت:وسنده جيد لولا ما يحذر من مراسيل ابن سابط.

هكذا قد كان العلماء في زمن السلف ومن بعدهم، بل وفي زمن ليس ببعيد عنا، كان يراسل بعضهم البعض الآخر، يتدارسون لا إله إلا الله؛ ترسيخاً لها، وتذكيراً بعظيم شأنها، ودعوةً إليها وترغيبا في ذلك.

وقد كان الواحد من أئمة الدعوة النجدية، يراسل قرينه الآخر، أن يكتب له شيئا عن لا إله إلا الله، وآخر يسأل عن ضوابطها ولوازمها، وهكذا.

مع أن الواحد منهم باستطاعته أن يكتب الصفحات الطوال حول كلمة التوحيد؛ ولكنهم عَلِمُوا أن مدارسة العلم، تسبيح وترسيخ، فكيف إذا كان هذا العلم هو أصل العلوم كلها، وأشرفها وأعلاها، وكما قيل: من عَرَف ليس كَمَن لم يَعرِف، والقلوب أوعيه، واللسان مغرافها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما قال عبد الله بن سهل قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول:[القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه، من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه، اغتراف لسانه].ا.هـ. من حلية الأولياء.

أسباب مناداتهم بأهل الكتاب مع كفرهم وإشراكهم:

واعلم أن مُنَادَاة أهل الكتاب في هذه الآية بذلك، ليس مخرجا لهم عن دائرة الإشراك والكفر الأكبر، وإنما جاء ذلك لأمور:

١ - لتذكيرهم بأنهم أهل كتاب سماوي، لكنهم حرفوه وبدلوه، فهم أولى الناس بالرجوع إلى الحق لو أرادوه.

٢ - فيه التلطف بالعبارة معهم؛ لعلهم أن يرجعوا عن غيهم:{فقولا له قولا لينا}.

٣- خطابهم بما اشتهروا به بين الناس؛فيكون ذلك أدعى لرجوعهم إلى الحق، بسبيل الإلزام والالتزام.

٤ - لإنزال الناس منازلهم، وإلا فهم من جملة المشركين بالله جل وعلا، كما قال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٠-٣١].

والكتاب هنا المراد به الكتاب الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليست هي اليوم كتبا سماوية:

تنبيه: يحرم تسمية الكتاب الذي معهم اليوم بالكتاب المقدس، أو الكتاب السماوي، أو الكتاب الإلهي، ونحو ذلك؛ وذلك لأنهم حرفوه وبدلوه؛ فزالت قداسته، لعدم تمايز كلام الله تبارك وتعالى من تحريفهم، فلا تصح نسبته إلى الله جل وعلا ، ولهذا سُمِّيَ القرآن مهيمناً عليها، أي رادّاً للباطل الذي فيها، مصدقاً للحق الذي فيها، وزائداً عليها، وناسخا للشرائع التي تختلف عن شريعة محمد r ،وهذا هو معنى المهيمن.

الإسلام بدعو إلى الوحدة القائمة على التوحيد:

قوله:{تعالوا إلى كلمة سواء}: هذا هو المدعو إليه، أي هَلُمُّوا وأقبلوا إلى كلمة هي غايةٌ في الإنصاف، ومنتهى في العدل، تقضي القضاء الحق، وتفصل النزاعات، وترد الخصومات، ومنه قوله تعالى:{مكاناً سوى} أي عدلاً وسطاً نَصَفاً؛ ليتمكن جميع الناس أن يحضروا.

وفي الآية بيان لعظمة هذه الكلمة وتذكير بأهميتها، وشدة انتفاع المتكلم بها إن قام بحقها.

كما أن في قوله تعالى:{تعالوا إلى كلمة سواء} تذكيراً بأن الإسلام يدعو إلى الوحدة والائتلاف، ولكنه ائتلاف ووحدة من نوع خاص، وبمواصفات ربَّانية معينة محددة، معلومة واضحة المعالم، لا على موازين البشر وأهوائهم، فإنما يدعو الإسلام إلى توحيد الكلمة ولكن على كلمة التوحيد، فليس المقصود مطلق الاجتماع والتَّوَحُّد على أي شيء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان، أو على أي قاسم مشترك يوجد، فإن هذا ليس من دين الإسلام في شيء، وإنما هي دعوة أصحاب الأهواء والمنكرات والضلالات، بل والكفريات، من دعاة الوطنية والإنسانية والديمقراطية، الذي يجعلون من مطلق الاجتماع هدفا مقدما على غيره، ومعظما أكثر حتى من الإسلام وثوابته ومبادئه، وهؤلاء هم أعداء الإسلام، الذين يَدْعُون إلى نقض عقيدة الولاء والبراء، ونقض تحقيق كلمة التوحيد، وإنكار قياس الناس على المبدء القرآني الخالد العظيم: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}.

فالإسلام يدعو إلى توحيد الكلمة، على كلمة التوحيد، بلوازمها ومُقْتَضَيَاتِها وحقائقها، :{فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}.

قوله:{ألا نعبد إلا الله}: هذه هي كلمة العدل والإنصاف، وهي معنى لا إله إلا الله، وقد تقدم معنا أن الروايات الثابتة سمتها، توحيدا وعبادة لله .

قوله:{ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله}: هذا من لازم كلمة التوحيد، إذ لا تُقْبَلَ هذه الكلمة، وإن قالها العبد الليل والنهار، مع كونه مقيماً على تحكيم غير شرع الله؛ فإنها كلمة الفصل، الدالة على حق الله جل وعلا، فلن تنفع صاحبها حتى تكون لها الهيمنة على حياة العباد مبدأ ومنتهى.

والخطاب جاء على هذا النسق متعلقا بالربوبية؛ لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم مشرعين، يحللون ويحرمون بأهوائهم، فبينت الآية أن من فعل ذلك فهو طاغوت، وأنه نزل نفسه منزلة الرب للعباد، ومن أطاعه في ذلك وانقاد له؛ فهو مشرك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالله العظيم، فالآية دلت على أن أهل الكتاب قد اتخذوا أرباباً من دون الله بهذا الفعل، وكذلك من سلك سبيلهم.

والشرك في الربوبية أغلظ وأعظم من الشرك في الألوهية، عند جماعات من أهل العلم، والكل عظيم وغليظ.

قوله:{فإن تولوا}: أي إن أعرضوا عن العمل بهذه الكلمة، فأبوا إلا أن يعبد بعضهم بعضا بهذه التشريعات الجاهلية، فأعْلِنوا بَرَاءَتَكم منهم، واعتزلوهم، واعتزوا بإسلامكم، واصدعوا بشهادة الحق غير مبالين، ولا مكترثين بكثرة المخالفين، فاسْتَعْلِنُوا بها وافْخَرُوا بأنكم مسلمون، أي مُنْقَادُون لكلمة التوحيد، عاملون بما أمرت به، وَدَلَّتْ عليه واقْتَضَتْهُ، وهذا في غاية الإنصاف، حيث بدأت الآية معهم بدعوتهم إلى الحق، وبينت لهم باطلهم وضلالهم، ومناط كفرهم وشركهم، فإن قَبِلوا ذلك؛ فهم إخواننا لهم مالنا وعليهم ما علينا، وإن أبوا إلا الكفر والشرك، فما ثمة إلا البراءة منهم، وجهادهم، معتزين بإسلامنا، قائمين بالتوحيد الخالص لربنا تبارك وتعالى.

والتولي يطلق على النكول عن العمل، إما تكذيبا، وإما إعراضا، هكذا هو الأصل في إطلاقها في الكتاب العزيز لمن تتبع ذلك،كما قال تعالى:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [البقرة:٦٣-٦٤]، وقوله:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة:٨٣]، وقوله: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة:١٣٧]، وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]، وقوله: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة:٢٤٦]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [آل عمران:٢٣]، وقوله: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣٢]، وقوله: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء:٨٠]، وقوله: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٤٣]، إلى غير ذلك من آيات الذكر الحكيم.

وهذا هو حقيقة ما وقع من أهل الكتاب، أنهم أقروا بحكم الله تعالى ولكنهم، تولوا عن العمل به، وبهذا نعلم يقينا أن الأقوال في مثل هذه المقامات؛ لن تُجْدِيَ شيئا عن أصحابها، مع التزامهم التولي عن العمل بها، فكم من قائل لهذه الكلمة، وهو يحاربها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويحارب أهلها، ويَفْتَئِتُ على حق الله عز وجل، في أن يكون له الأمر حُكْماً وتَشْرِيعاً، كما أن له الخلق، حَقّاً واخْتِصَاصا.

ففي صحيح مسلم عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ r بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا فَدَعَاهُمْ r فَقَالَ:"هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ".قَالُوا نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلاً مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ:"أَنْشُدُكَ بِالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ". قَالَ: لاَ وَلَوْلاَ أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ نَجِدُهُ الرَّجْمَ وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ قُلْنَا تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ". فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} إِلَى قَوْلِهِ:{إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ} يَقُولُ ائْتُوا مُحَمَّدًا r فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}**فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا**.

جاء في تفسير ابن كثير:[{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ} والكلمة تطلق على الجملة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: {سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي:عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: {أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَّ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} لا وَثَنا، ولا صنما، ولا صليبا ولا طاغوتا، ولا نارًا، ولا شيئًا بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، ثم قال: {وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} وقال ابن جُرَيْج:يعني: يطيع بعضنا بعضا في معصية الله. وقال عكرمة:يعني: يسجد بعضنا لبعض.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي:فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم]ا.هـ.

قوله:{فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}، هذه هي المفاصلة على مبدأ الحق والباطل، فلا مجاملات ولا قرابات، ولا عشائر ولا قبائل، ولا مواطنة ولا غير ذلك، فإن الحق لا يجتمع مع الباطل إلا عند المنافق المداهن، أما المؤمن فيعتز بإسلامه، ويشهد على غيره بالكفر والشرك والضلال، فإن شَهَادَتَنَا لأنفسنا بالإسلام، شَهَادَةٌ عليهم بأنهم ليسوا كذلك، والمعنى أنتم كفار بالله تعالى، مشركون برب العالمين، وإن رَغِمَت أنوف، رضي من رضي وسخط من سخط، فإن هذا هو الموقف الذي يرضى به الله تبارك وتعالى عنا، وكما قيل:

إذا صَحَّ منك الوُد فالكل هَيِّنٌ... وكُل الذي فوق التُّراب تُرابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما اليوم فالمداهنات والوطنيات، والتلاعب بالدين، جعل من اليهود والنصارى، بل وعموم الكفار، كالمسلمين عند هؤلاء المنافقين، يَتَساوَوْنَ في الحقوق والواجبات، إلى غير ذلك من الترهات والهرطقات التي يَتَفَوَّهُ بها هؤلاء، ولكن يبقى الحق هو الحق، وله الكلمة الأخيرة، والورقة الرابحة، والنصر والعاقبة والتمكين، فالحق واحد لا يتعدد، فإن شهدنا لهم بإيمان شهدنا على أنفسنا بالكفر، وإن شهدنا لأنفسنا بالإسلام شهدنا عليه بالكفر، فهما ضدان لا يجتمعان، الإيمان والكفر، وهذه الحقيقة لا تبدلها عوامل السياسة، ولا ضغط الواقع، إلا عند من اجتالتهم الشياطين عن الإسلام بالكلية، عياذا بالله من الردة عن الإسلام.

جاء في تفسير ابن كثير:[{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

يقول تعالى مقررًا تفرُّدَه بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض -أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع-إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله:{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}:هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}.قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد r للمشركين:والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد.وقال عِكْرِمة وزياد بن أبي مريم: معناه:إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: {قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}:معناه التبري منهم، أي:لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم بُرآء منا، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}.

وقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا} أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}؛ ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا. {كَلا} أي: ليس له نظير ولا نَديد، ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال: {بَلْ هُوَ اللهُ} :أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس]ا.هـ.

عُبَودية اللِّسَان:

وفي قوله تعالى: {فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}، تذكير بعبودية اللسان، وأن التوحيد كما يكون بالأعمال، فكذلك يكون بالأقوال، حتى يصير العبد موحدا لله تعالى، ظاهرا وباطنا، بقلبه ولسانه وجوارحه؛ ولهذا جاء الآيات والأحاديث واضحة المعالم في تأديب المؤمنين في مقالهم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة:١٠٤] ، وقوله: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَّ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٥٠]، وقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُّ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [النساء:١٧١]، وقوله: {قُلْ هُوَ اللهُّ أَحَدٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:١-٤]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن السنة، ما جاء من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ"، وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن عمر t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:" أَلاَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ"، وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لاَ تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلاَ بِآبَائِكُمْ"، وفي الصحيحين عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنَعَ وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"، وجاء النهي عن التلفظ بالأقوال الموبقة، كما في الصحيحين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله r صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ:"هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ"، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"، وفي صحيح مسلم عَنْ جُنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ الله r حَدَّثَ:"أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ". أَوْ كَمَا قَالَ، بل حتى على مستوى الأسماء لحظ النبي r مَلْمَحَ التوحيد، كما في الصحيحين وهذه رواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ الله رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ". قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو عَنْ أَخْنَعَ فَقَالَ أَوْضَعَ.

وفي حديث يَزِيدَ بْنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِئٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ الله r مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ الله r فَقَالَ:"إِنَّ اللهَّ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ".فَقَالَ إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ". قَالَ لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله، قَالَ:"فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ". قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ:"فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ"، أخرجه أبو داود والنسائي والبخاري في الأدب المفرد بسند جيد من حديث شريح بن هانئ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَدِليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨].وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}[البينة: ٥].ودَلِيلُ الصِّيَامِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:١٨٣].ودَلِيلُ الْحَجِّ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران:٩٧].

الشرح

قال المؤلف:(ودليل شهادة أن محمدا رسول الله): أي دليل وجوب التلفظ بها، وفرضية ذلك، وأنه لا يدخل العبد في الإسلام، إلا بالتلفظ بها، فلو أن يهودياً أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نصرانياً ترك عبادة الطواغيت كلهم، وترك عبادة الأنبياء والأولياء والقبور، وقال لا إله إلا الله، ولكنه أبى أن يقول محمدا رسول الله؛ فهو بعد فعله هذا وقبله سواء بسواء؛لأن الكفر بالنبي r ، وعدم الشهادة له بأن رسول الله، كفر بالله العلي، جل وعلا، على ما سيأتي تفصيله في شرح أركان الإيمان، وقد تقدم الحديث عن شروط الشهادتين.

قوله (محمداً): هو نبي الله r ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، حامل لواء الحمد، صاحب المقام المحمود، واللواء المَعْقُود، والحوض المورود r .

وقد اختلف أهل العلم، هذا الاسم، أهو اسم له r أم صفة له r ، على قولين: فمنهم من قال إن اسمه محمدٌ، وباقي الأسماء هي صفات له. ومنهم من قال بل هي كلها صفات.

والقول الأول: أقوى لأنه سمي بذلك في الكتاب والسنة،ومعنى مُحَمَّد، أي كثير الخصال التي يُحمد عليها، ومنه (أحمد) أي كثير الحمد لربه جل وعلا، فهو أَحْمَدُ الناس لربه، وهو أحمد خلق الله عند الله جل وعلا، وهو أحمد الناس في خصاله r .

قوله:(رسول الله): هذا من إضافة التشريف والإنعام والإكرام، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وقوله: {وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَظِيمًا} [النساء:١١٣]، وقوله:{إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} [الإسراء:٨٧]، وقوله:{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى:٧]، أي هداك إلى الرسالة وأنت في غفلة عنها، أن يُرَادَ بك ذلك، وقوله:{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح:٤]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على عظيم إكرام الله تعالى لنبيه r ، وتفضيله واصطفائه واجتبائه r ، رزقنا الله وإياكم صدق محبته، وشكر نعمة الله به، والعمل على اتباع شريعته، والانتصار لها وله r .

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله مَتَى السَّاعَةُ قَالَ:"وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ". قَالَ حُبَّ الله وَرَسُولِهِ قَالَ:"فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ". قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ r :"فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ". قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أُحِبُّ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ.

ونحن كذلك رَبَّنَا؛ فألحقنا بهم، وهَبْنَا للمحسنين منهم، يا ولي نِعْمَتِنَا، يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.

وفي كونه رسولاً دلالة على صدقه، وعظيم أمانته، إذ قد استأمنه الذي في السماء على وحيه ورسالته، كما في الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ t إِلَى رَسُولِ الله r مِنْ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النَّبِيَّ r فَقَالَ:"أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً" قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الْإِزَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله اتَّقِ اللهَّ قَالَ:"وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَّ" قَالَ ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَا رَسُولَ الله أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ:"لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي" فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ" قَالَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ:"إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ الله رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ وَأَظُنُّهُ قَالَ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ" وفي لفظ:"فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللهَّ فَقَالَ النَّبِيُّ r فَمَنْ يُطِيعُ اللهَّ إِذَا عَصَيْتُهُ فَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي". ومعنى ضِئْضِئِ: أي من نَسْلِهِ.

قوله:({لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم}): استدل المؤلف على الشِّقِّ الثاني من الشهادتين اللتين هما كما تقدم بمنزلة المبنى الواحد أو الركن الواحد، استدل بهذه الآية، وقد جاءت آيات أخرى، هي أصرح من هذه الآية، كقوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف:١٥٨]، وقوله:{مَا كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب:٤٠].

وقوله: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩]، وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:٧]، وقوله: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف:٦].

وغير ذلك من الآيات، ولكن المؤلف لعله اختار هذه الآيات؛ لتضمنها دلالات الامتنان والإكرام والإنعام، ونعت الرسول عليه الصلاة والسلام.

فهذه الآية أخص من جهة تعلقها بحال النبي عليه الصلاة والسلام مع أمته، إشفاقا وحرصا ورحمة كما سيأتي، وهذا أخص مناسبة بهذا المقام.

قوله: {لقد}: حرف تحقيق وتأكيد، يدل على ثبوت الأمر ووقوعه وتحققه، بحيث لا يداخله شك ولا ريبة ولا تردد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{جاءكم رسول}:فيه دلالات:

الدلالة الأولى: فيه الامتنان ببعثة النبي r .

الدلالة الثانية: فيه التحذير من معصيته ومخالفته فإنه رسول الله r .

الدلالة الثالثة: التذكير بشهادته على أتباعه يوم القيامة، فإيَّانَا والتبديل، كما قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثًا} [النساء:٤١- ٤٢]

الدلالة الرابعة: فيه شرف المُرْسَل حيث أن السياق يعنى: لقد جاءكم من قِبل الله رسول.

الدلالة الخامسة:فيه عظيم صدق الرسول r ، وعظيم أمانته.

الدلالة السادسة: فيه عناية الله جل وعلا بهذه الأمة المرحومة.

الدلالة السابعة: فيه إثبات علوية التشريع، وذلك مأخوذ من علوية من أرسله، وهو الله رب العالمين.

الدلالة الثامنة: فيه أن الشرع من تحليل الحلال وتحريم الحرام لا يكون إلا من قِبل الله جل وعلا، وأن الرسول مبلغ عن ربه، كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣-٤].

الدلالة التاسعة: أن الرسول لا تصرف له في الوحي بل يأتيه الوحي من السماء فيؤديه كما أوحي إليه، فهذه هي مهمة الرسول، البلاغ عن رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدلالة العاشرة: الامتنان علينا أن جعلنا من أمته ﷺ .

حقيقة الشكر وعلاقته بالتوحيد:

فلابد من شكر هذه النعمة العظيمة الجليلة، الشكر الحقيقي المتضمن لشكر اللسان والجنان والأركان، وهو المعروف بالشكر العملي، فإن شكرا مجردا عن العمل لا ينفع؛ ولهذا قال تعالى:{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]، وقال في الشكر بالعمل كذلك:{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } [الكوثر:١-٢]، وقال عن نوح عليه السلام:{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:٣]، وقال عن سليمان عليه السلام:{فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل:٤٠].

واعلم رحمك الله، أن الشكر يأتي بمعنى التوحيد[١]، كما قال تعالى:{ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:١٧]، وقوله:{مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: ١٤٧]، ويأتي في مقابلة الكفر، كما في قوله تعالى:{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:٣].

---

١ - لمزيد من البيان في مسالة: أن الشكر يأتي مرادفا للتوحيد، راجع كتابي:(الاستنباطات البهية) في الاستنباط الرابع والخمسون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري من طريق عَمْرٌو عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: {الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا} قَالَ هُمْ وَاللهِ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالَ عَمْرٌو: هُمْ قُرَيْشٌ، وَمُحَمَّدٌ r نِعْمَةُ اللهِ: {وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} قَالَ النَّارَ: يَوْمَ بَدْرٍ.ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابن نُفَيْل، قَالَ: قرأت عَلَى معقل، عَنِ ابْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، قَالَ: قام عَلِيٌّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ t ، فقال"ألا أحد يسألني عَنِ القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به، وإن كَانَ مِنْ وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكَوَّاء، فقال:مَن{الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}؟، فقال:مشركوا قريش، أتتهم نعمة الله: الإيمَان، فبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار]ا.هـ.

ولم يذكر في الآية من الذي جاء من قِبَلِه - وهو الله تعالى-؛ لأنه واضح من السياق.

واعلم أرشدك الله تعالى، أن من أعظم أنواع الشكر العملي، شكر الله تعالى بتحقيق عقيدة الولاء والبراء، والقيام بسنة الاعتزال للباطل وأهله، كما قال تعالى:{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص:١٧]، وقوله تعالى في خواتيم نفس هذه السورة:{وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ} [القصص:٨٦].

قوله:{رسول}: أي ليس ببدع من الأمر، فهو رسول مبعوث، كما بعث الأنبياء والمرسلون من قَبْلِه، فما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير، كما قال تعالى:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [فاطر:٢٤-٢٦]، فإرساله ليس بالشيء الغريب المبتدع المحدث، بل ها أنتم تنتسبون إلى إبراهيم عليه السلام وهو رسول، وهاهم أهل الكتاب ينتسبون إلى موسى وعيسى عليهما السلام وهما رسولان، فأي غرابة وعجب في أن يجيئكم رسول من عند الله؛ وقد ذكر الله تعالى هذا العجب الواقع من المشركين إذا أرسل الله إليهم رسولا، كما في قوله تعالى عن نوح عليه السلام: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٦٣]، وقوله عن هود عليه السلام: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف:٦٩].

ولهذا أكد الله الأمر هنا وبينه، وأخبر في آيات أخرى، أنه لا يجحد ذلك إلا كل ختار كفور، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} [العنكبوت:٤٧]، وقال: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل:١٤]، أي إنهم إنما جحدوا رسالته مع استيقان أنفسهم بها، تكذيبا، ورَدّا للحق، وامتناعا عن الانقياد له، وحسدا من عند أنفسهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}، بعد أن نوه الله جل وعلا بذكر نبيه، وشرف رسالته، وعظمة من أرسله، شرع يُبَيِّنُ جل وعلا خصائص هذا الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ليعرف العباد قدره، وعظمته؛ فيعزروه أي ينصروه، ويوقروه أي يحترموه، ويقوموا بحقه، أكمل قيام، من اتخاذه قدوة، ومتبوعاً، وإماماً، وقائداً، ولأن لا يرتضوا لهذه المنزلة من البشر أحدا سواه r ، كائنا من كان؛ لأنه رسول الله، فالذي أرسله وزكَّاه هو الله رب العالمين، فهو أفضل خلق الله، وأطهر خلق الله، وأعلم خلق الله، وأكرم خلق الله على الله، وهو أتقى عباد الله، وهو سيد ولد آدم، وحامل لواء الحمد يوم القيامة،وهو الشافع المشفع في المحشر، وهو أول من يدخل الجنة ويستفتحها، وهو صاحب الحوض المورود، وهو خليل الرحمن جل وعلا، إلى غير ذلك من خصاله الجميلة، وفضائله الجليلة r ، فأي مخلوق من هذه الأمة له من هذه الصفات رُبعها؟!، ولو كان له لما ساغ أن يُتْرَك النبي r ويُتَّبَعَ غيره، فكيف بمن يَتَّبِعُ أفراخ اليهود والنصارى، والمجوس والذين أشركوا، ويتخذ منهم قدوات، ويرتضيهم مشرّعين من دون رب العالمين، ورسوله الأمين؟!، بل وكيف بمن يُقَلِّدُ الفُسَّاقَ والفجار، ويحذو حذوهم ويعجب بطريقة حياتهم، سواء من فساق المسلمين، أو من الصم البكم الكافرين.

وقد ابتلينا في هذا الزمان بهذا نسأل الله العافية والسلامة، فما أكثر المتشبهين، بالفجار والفساق، في لباسهم، والافتتان بحضارتهم، وطريقة حياتهم، والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن هؤلاء ما عرفوا حقيقة عظمة هذا النبي r ، وما وَقَرَ في قلوبهم التعظيم المطلوب منهم تجاهه r . وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى بأدلته.

عندما يُعَادي المسلم دينه:

بل والبعض أصبح يعادي هدي النبي r ، بل ويُعَيِّرُ القائمين بها بذلك، عياذا بالله من النفاق، في حين أنهم ينتسبون إلى هذا النبي وأمته ومِلَّتِه، فصرنا نرى ونسمع من يرمي من يدعو إلى التوحيد الخالص بالعظائم، فتارة يُرمى بأنه داعية فتنة وفرقة وشقاق، وتارة يقال عنه خَامِسِي، أي صاحب مذهب ودين جديد، وتارة يقال عنه وهابي، وكأن هؤلاء ما قرؤوا القرآن، ولا عرفوا دعوة الرسل، وأنهم ما بعثوا إلا بالدعوة إلى تحقيق التوحيد الخالص لله رب العالمين، لا شريك له، لا في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته.

وآخرون يَرْمُون، من يدعو إلى أن يكون الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له، يرمونهم بإرادة سفك الدماء، ونشر الفوضى، والخروج على السلاطين، وزعزعة الأمن، إلى غير ذلك مما تَفَوَّهَ به هؤلاء، ولا أقول من العوام، بل ومن بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكأنهم ما قرؤوا الكتاب والسنة، بنصوصهما الصريحة الواضحة في ذلك، وأن هذا حق محض لله رب العالمين.

وآخرون يرمون من يدعو إلى تحقيق عقيدة الولاء والبراء، وجعل ذلك هو المعيار في علاقات المجتمع الواحد، لا المواطنة، وفي العلاقات الدولية، حتى تكون كلمة الله هي العليا، يرمونه بالتخلف والرجعية، وعدم فقه الواقع، وتعريض الأمة للتفكك، أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التغرير بالأمة في مقابلة عدو لا قِبَلَ لهم به، ونحو ذلك من التَّدْجِين، والضَّلال المبين، وكأن هؤلاء ما علموا معنى العروة الوثقى، ولا وقفوا على الآيات المتكاثرة، والأحاديث المتظافرة، الدالة على أن المتحكم في تقييم العباد، وعلاقات البلاد، والأفراد، هي عقيدة الولاء والبراء.

وكذلك فيما يتعلق بالجهاد، بِنَوْعَيه، طلبا ودفعا، والطلب أشد عليهم، وقل مثل هذا في الدعوة إلى تطبيق الهدي النبوي في الصلاة وإن غضب الناس، وكذلك في إعفاء اللحى وإحْفَاء الشوارب، ومحاربة تصوير ذوات الأرواح، والتحذير من التبرج والسفور، ومنع النساء الكاسيات العاريات من الإفساد في البلاد، والدعوة إلى الحجاب وتغطية المرأة لوجهها، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء الأجنبيات، والمنع من مس النساء الأجنبيات ومصافحتهن، ونحو ذلك، وكأن هذه المسائل لا ذكر لها في الأدلة الشرعية، وكأن المطالب بذلك قد أتى بدين من عنده وهواه، فسبحان الله!!.

فأصبح المسلم، يُعَيِّرُ المستمسك بالدين، بنفس الدين الذي هو ينتسب إليه!!.

ولكنها نتيجة بعدنا عن هدي نبينا r ، وتأثرنا بالغرب الكافر، وافتتاننا بالفجار والفساق، والفساد الذي قدمته الحضارة المعاصرة.

قوله:{من أنفسكم}، أي من بني آدم، بل ومن أنْفَسِكُمْ حَسَباً ونَسَبا، وهو خيركم سمتا وهديا وخلقا r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإيمان الاختياري والاضطراري:

وفي ذلك دليل على أن الله تعالى يريد من عباده الإيمان الاختياري، أي الذي يقع فيه الإيمان من العبد اختيارا لا اضطرارا؛ لوجود ما يُكْرِهُهُ ويُجْبِره على ذلك، فإن الله تعالى لا يَعْبَأُ بالمنافقين، والمرتابين، والمتخذين دينهم لهوا ولعبا؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام:٩-١٠]، وقوله: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء:٩٤-٩٦]، وهدد الله تبارك وتعالى بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان:٢١-٢٣].

فهو من أنفسكم أي هو منكم، خرج فيكم ونشأ بينكم وترعرع، فأنتم من أعرف الناس به وبصدقه، وأمانته وكريم أخلاقه وخصاله، التي تدل على إكرام الله جل وعلا له، وأن مثله لا يمكن أن يكذب على الله، أو أن يقول عليه بغير علم، وعبد كهذا لا يخزيه الله جلا وعلا، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله عنها:(قالت خديجة كلا والله لا يخزيك الله إنك لتحمل الكل وتصل الرحم وتعين ذا الحاجة ... الحديث].

وفي قراءة:{مِن أَنْفَسِكم} بفتح الفاء وكسر السين، أي من أحسنكم حسباً ونسباً وهذه القراءة من القراءات الشاذة ، وليس معناها أنها ضعيفة أو باطلة ، فالشذوذ في القراءات ليس كالشذوذ في الحديث ، فالشاذ في الحديث ضعيف لا يحتج به ولا يعتد به، وأما الشاذ في القرآن فإنها ليست كذلك، بل بعض القراءات الشاذة ثابتة عن النبي r ، ولكن درءا لمفسدة الاختلاف في القرآن تركت القراءة بها، والقراءة الشاذة هي التي اختل فيها أحد هذه الشروط:

١ - تواتر الإسناد.-٢- اشتهار الرواية بها.-٣- موافقة الخط العثماني.-٤-موافقتها للغة ولو بوجه ضعيف. -٥- صحة الإسناد.

وقال السيوطي في (إتمام الدراية لقراء النقاية):[وأخرج من طريق عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس، أن النبي r أَقْرَأَهُ:{لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكُم}بفتح الفاء يعني من أعظمكم قدرا]ا.هـ.

وجاء في (إعراب القرآن لابن سيده):[وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، ومحبوب، عن أبي عمرو وعبد الله بن قسيط المكي، ويعقوب من بعض طرقه: من أنفسكم بفتح الفاء. ورويت هذه القراءة عن رسول الله ، وعن فاطمة، وعائشة رضي الله عنهما، والمعنى: من أشرفكم وأعزكم، وذلك من النفاسة، وهو راجع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لمعنى النفس، فإنها أعز الأشياء. والظاهر أنّ ما مصدرية في موضع الفاعل بعزيز أي: يعز عليه مشقتكم]ا.هـ.

وفي تفسير القرطبي:[قوله تعالى:{من أنفسكم} يقتضى مدحا لنسب النبي r وأنه من صميم العرب وخالصها. وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله r يقول:"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"]ا.هـ.

وقال أيضا:[وقرأ عبد الله بن قسيط المكي من :{أنفسكم} بفتح الفاء من النفاسة، ورويت عن النبي r وعن فاطمة رضي الله عنها أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم من قولك:شيء نفيس إذا كان مرغوبا فيه، وقيل: من أنفسكم أي أكثر كم طاعة].ا.هـ.

ففي قوله:{من أنفسكم} إذاً، تَهْيِيجٌ واستعطاف، واستنطاق لعقلائهم، أي:فَخَلُّوا بينه وبين الناس، فإن ظَهَرَ فَلَهُ وَلَكُم، وإلا كَفَاكُمُوه النَّاس، وَفَوْقَ ذَلك لَنْ يَدَعَ الله تعالى مَنْ يَكْذِبُ عَليه بِلا عُقُوبَةٍ وفَضْحِ حَال، كما قال تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشورى:٢٤]، وبمثل هذا احتج مؤمن آل فرعون على قومه، ودافع عن موسى عليه السلام، كما قال تعالى:{وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَذَّابٌ}[غافر:٢٨]. وهذا ما تكلم به عقلاء قريش، فكانوا يقولون لقومهم:خلوا بينه وبين الناس فإن اتبعوه، فإن عزه عزكم وشرفه شرف لكم، أي لأنه من أنفسكم، وإلا فقد كفيتموه بغيركم.

قوله:{عزيز}:العزيز يراد به معان:

١- الامتناع المستلزم للعلوية والقوة والأمن.

٢- المشقة وهو المراد في هذه الآية.

٣- الندرة، فيقال:(هذا شيء عزيز) أي نادر الوجود، كما يقال:(هذا عزيز ممتنع لصفات قامت فيه)، منه ما جاء في الصحيحين عن عَبْدُ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ r يَخْطُبُ وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"{إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ...الحديث"، ويقال:(عزيز عليه كذا) أي شاق عليه كذا، وهو المراد في الآية، بدليل قوله:(عزيز عليه) فقد عدي بـ(على) .

قوله:{ما عنتم}: ما إما أن تكون مصدرية؛ فيكون المعنى، أي: يَشُقُّ عليه عَنَتُكُم، وإما أن تكون موصولة بمعنى الذي؛ فيكون المعنى، أي: يشق عليه الذي يُعْنِتُكُم أو الذي فيه عَنَتُكُم، والمعنيان متقاربان.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام لا يخير بين أمرين إلا اختار الأيسر والأرفق منهما بشرط ألا يكون ثَمَّةَ إثم، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ r بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ r لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه قوله تعالى:{ونيسرك لليسرى} أي نحبب إليك التيسير، ونعطيك الشريعة اليسرى، والخير العظيم والنفع العميم، كما في تفسير ابن أبي حاتم:[عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}، قَالَ: لِلْخَيْرِ]ا.هـ.

وجاء في تفسير الطبري:[يقول تعالى ذكره:ونسهلك يا محمد لعمل الخير وهو اليُسرَى، واليُسرَى: هو الفُعلى من اليسر]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقوله تعالى:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} أي:نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر]ا.هـ.

اليسر في الدين فلا تطلبه من غيره:

ففيه دلالة على لطف الله جل وعلا بنبيه r ، وبهذه الأمة المرحومة، فمن آثار رحمة الله بنا أن أرسل إلينا رسولا من أنفسنا، وجعله مُحِبّاً للتيسير، كارهاً للتعسير، يَشْعُرُ بِنَا، ويَسْعَى في نَفْعِنَا عليه الصلاة والسلام، فلله وحده الحمد والفضل والمنة.

وفي الصحيحين من طريق سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ r بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:"يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا".

وفي هذا تذكير بأمر مهم وعظيم، غفل عنه كثير من الناس، ألا وهو أن الله تعالى ما قَبَضَ نَبِيَّهُ إليه، إلا وقد اختار لأمته الأيسر والأرفق بهم، فما بقي علينا إلا الاتباع، فلا تَرَدُّدَ ولا اعتراض، ولا بَحَثَ عن تَيْسِير فوق هذا التَّيْسِير، فإن الأمر قد فُرِغَ منه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولْنَعْلَمْ أن أي تَيْسِيرٍ يَتَوَهَّمُهُ الناس وراء اختيار النبي r وتَيْسِيرِه، فإنما هو التَّلاعُبُ بالدين، وتَرْقِيقُ المسائل الشرعية.

بَادِر ولا تَتَعَنَّت:

واعلم وَصَلَكَ الله بِعَفْوِه وعَافِيته، أن التَّعَنُّتَ في الاستجابة لله ورسوله؛ مُوجِبٌ لحصول العَنَت، الذي حرص النبي r على دفعه عنا، ولنا في بني إسرائيل العظة والاعتبار، ونحن أشبه الأمم بهم، فتأمل كيف قص علينا القرآن، تَعَنُّتَهُم وعنادهم لرسلهم، وما جَرَّ عليهم ذلك من قسوة القلوب، وفساد الأحوال، وضنك المعايش، حتى صاروا إلى الكفر بالله تعالى؛ ولهذا جاءت النصوص المتكاثرة، آمِرَةً وحَاثَّةً على ضرورة الاستمساك بالشرع، وسرعة الاستجابة لله والرسول - r -.

كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٤-٢٥].

وقال: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف:٤٣-٤٤]، وقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣]، وقوله: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهَّ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهَّ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل كيف وقعت القسوة والجفاء من بني إسرائيل عن شرع الله تعالى، قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد:١٦-١٧]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:٤٢-٤٥].

صورة من تنعت بني إسرائيل وعواقبه:

وقص الله تبارك علينا قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، في قصة القَتِيل، الذي اختلفوا في قَاتِله، فأمرهم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، وتأمل كيف أنهم لما تَعَنَّتُوا وقَدَحُوا وشَدَّدُوا؛ شَدَّدَ الله عليهم، ثم صاروا إلى قسوة القلب التي أورثتهم الكفر، ثم جهنم وبئس المهاد، ولو أنهم عَمَدُوا إلى أقرب بقرة فذبحوها؛ لحصل المطلوب، وانْجَلَت المسألة، وانْحَلَّت المشكلة، في بيان واضح من الله تعالى، أن العبد كلما كان أكثر مسارعة واستجابة للشرع، صار إلى اليسر والفرج، وحسن الحال والمآل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك سياق الآيات التي وردت فيها هذه القصة العظيمة، التي سُمِّيَت السورة بها، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُّ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة:٦٣-٨٣].

أخذ الله عليهم العهد والميثاق، على أن يأخذوا الدين بِجِدٍّ، وحرص، وعمل وإخلاص، ورفع فوقهم جبل الطور، إمعانا في ذلك، وحَمْلاً لهم عليه، ومع ذلك عادوا إلى التعنت والاستكبار، وأمْعَنُوا في الاعتداء؛ حتى حصلت قصة السَّبت التي عُرِفُوا بها، مما أورثهم أن مَسَخَهم الله تعالى قردة خاسئين، ثم جاءت قصة القتيل، فسألوا موسى عن ذلك، فأمرهم أن يذبحوا أي بقرة، فتعجبوا وقَدَحُوا، إذ - في نظرهم القاصر وعقلهم السقيم - أيُّ شأن للبقرة فيما نسألك عنه يا موسى؟!، فلما رأوا أن الأمر جِدٌّ؛ تعنتوا، ولم يبادروا إلى الاستجابة، فطلبوا وصفا زائدا على مطلق مسمى البقرة، فشددوا؛ فشدد الله عليهم، فقال: {لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُؤْمَرُونَ}، فبعد أن كانوا في سعة من أمرهم؛ صاروا إلى شيء من التضييق، فَقُيِّدَت البقرة بأن تكون لا صغيرة ولا كبيرة، ثم أمرهم بسرعة الاستجابة، والمبادرة إلى ذلك، ولكن طبعهم صار بسبب اعتيادهم التعنت؛ أن قادهم إلى مزيد من التنطع، فقال لهم: {إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}، فاشتد الأمر زيادة على ما تقدم، فَقُيِّدَت بِلَوْنٍ مُعَيَّن، وقُيِّدَ اللون بمواصفات أخرى، أن يكون فَاقعا، ثم جاء الأشد مِن وصف لونها، أن تَسُر الناظرين، فأنظار الناس متفاوتة، واستحسان كذا والإعجاب به، يتفاوت فيه الناس تفاوتا عظيما، وعندها قالوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}، ثم عادوا فقست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد، بل بعض الحجارة يُنتَفَعُ بها، ومن هؤلاء من لا خير فيه، ولا نفع منه، حتى صاروا إلى التلاعب بشرع الله تعالى، وبغض المؤمنين، والاستهزاء بهم والاحتيال عليهم والاستخفاف، فكانت عاقبة أمرهم إلى الكفر والزندقة، عياذا بالله من التَّمادِي في الباطل، والاسترسال فيه، فإنه مهلكة أي مهلكة.

فعلينا أن نعتبر بهذه القصة؛ فنسارع ونُبَادِر إلى امتثال كل أمر، واجتناب كل نهي، دون تَعَنُّتٍ ولا تَنَطُّع، فإنا صائرون إلى اليسر والسعة، والله لا يخلف الميعاد.

كما قال تعالى في شأن أهل الكتاب، وهو لنا كذلك: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٥-٦٦].

وقال في حَقِّنَا: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا} [النساء:٦٦-٧٠].

خطورة دعاة الوسطية المعاصرة:

واعلم أرشدك الله، أنه يوجد في عالم اليوم أقوامٌ رَاقَ لهم أن يُطْلِقُوا على أنفسهم، وأن يُسَمِّيَهُم الناس بذلك **(دعاة الوسطية)**، وإنما هم دعاة الفتنة والانحلال، والتلون في الدين، وجعل الدين شيئا هلاميا لا يمكن الاستمساك به، فكل شيء ممكن، وكل أمر وارد، وكل رأي محترم، ولكل حال فقهها، فحلال اليوم حرام الغد، والعكس، وسنة اليوم بدعة الغد، والعكس، والسياسة هي فقه الواقع، والماعون في الإسلام واسع – أعني إسلام هؤلاء – والجلباب واسع الأرْدَان، فكن ما شئت فإن الإسلام يَسْتَوْعِبُك، ولا وألف لا للنظرة الإقصائية، ولا وألف لا لتحجير العقول على ما جاء في المنقول، أو على ما يقول الصحابة والرسول، فإن الاجتهاد واسع، والعقول لها مجالها ومحلها من النظر، وما يصلح اليوم قد لا يصلح بالأمس، وما كان دينا بالأمس قد لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصلح أن يكون دينا اليوم، فلابد من التَّجَدُّد والمواكبة، وإلا عِشْنَا العزلة داخليا وعالميا، فلا يصلح مخاطبة قرن التَّحَضُّرِ والمدنية، بعَقْلِيَّةٍ أكَلَ عليها الزَّمَان وشرب، فقد تُرِكَ ما هُنَالِك، نعوذ بالله من النفاق والخذلان والشقاق، والزيغ والضلال.

وقد كان سلفنا الصالح يقولون: دع كذا وكذا أو لا تفعل كذا وكذا؛ خروجا من الخلاف –أي تَوَرُّعاً وصِيَانَةً للدين- ، وهؤلاء المفتونون يقولون: اعمل بما شئت مما وقع فيه الخلاف، أو ربما قالوا: هذا جائز لأن فيه خلافا، فَتَبًّا لهم.

فهؤلاء يستوعبون كل سبيل وطريقة وحزب،

إلا طريق الإسلام الجَاد، وسبيل الجِهَاد.

والله تعالى يقول في كتابه العزيز: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}[الأحزاب:٣٦]، وقال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر:٧].

وقال في نعت أمثال هؤلاء المتشبهين بالمنافقين، إن لم يكونوا منهم، الذين يقدمون أهواءهم وآراءهم على الشرع، ثم يقولون ما أردنا إلا خيرا: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦١-٦٢] ، وقال: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور:٤٧-٥٠]، ثم ذكر نعت المؤمنين الصادقين بعدها مباشرة فقال: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [النور:٥١-٥٣].

وَرَدَّ الله تعالى عليهم بقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:١١-١٢]، وفضحهم أنهم ينتقدون إيمان الناس، أي الصحابة ومن تبعهم بإحسان لا بإساءة، أنهم يرونهم سفهاء، والله تعالى حكم بأنهم هم السفهاء، وليس الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، فقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٣].

قال الله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨]

ولقد أحسن من قال:

يُقْضَى على المرء في أيام مِحْنَتِهِ ... حَتى يَرَى حَسَناً مَا لَيس بِالحَسَنِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتنبه فإن المقام خطير، والشُّبْهَة مُزَيَّنة، وأصحابها مُلَمَّعُون، وقد سَرَتْ بهم الفضائيات والإعلام والرُّكْبَان، فكن على حذر، أن يضلوك أو يفتنوك، فإنهم فتنة لكل مفتون، عافانا الله وإياكم منهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قوله:{حريص عليكم}:أي إن من نعت هذا النبي الكريم r أنه يفرغ وسعه، ويجهد نفسه في الأخذ بأيدينا عن التهلكة، وتحذيرنا من كل شر وسوء، ولقد بلّغ بأبي هو وأمي البلاغ المبين، وشهد له بذلك أطهر خلق الله في هذه الأمة، بعد نبينا r وهم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، كما جاء في خطبة الوداع في الصحيحين كما في حديث أبي بكرة، ورواه مسلم من حديث جابر وفيه قال r :"وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ:. قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ:"اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ".

وما من نبي بعثه الله جل وعلا إلا كان حق عليه أن يأمر أمته بخير ما يعلمه لهم وينهاهم من شر ما يعلمه لهم وإمامهم ومقدمهم في ذلك محمد r .

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَشَفَ رَسُولُ اللهِ r السِّتْرَ وَرَأْسُهُ مَعْصُوبٌ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ:"اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ "إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا يَرَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ".

وبين عظيم حرصه علينا عليه الصلاة السلام بما جاء في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ y أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا" وفي رواية:" أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا"، وفي رواية:"وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي".

وفي قوله:{حريص عليكم} دلالات منها:

أ- دلالة على سعة صبره. ب- دلالة على سعة حلمه.

ج- دلالة على عظيم رحمته. د- دلالة على تواضعه.

هـ- دلالة على عظيم همته في تبليغ دعوته r .

و- دلالة على عظيم عدله وعدم تمييزه في دعوته، فالكل محل لذلك، ومخاطب به.

فهو r يركب كل سبيل مما شرعه الله له لهدايتنا، ولو كان ذلك على حساب نفسه وراحته، وأنسه مع أهله في بيته r ؛ ولهذا تحمل المَشَاق إشفاقا على أمته، حتى أُدْمِيت قدماه، واستهزأ به الصبيان، ونزل إليه ملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين، فقال بل أَسْتَأْنِ الله بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله،وفيه دلالة على علو همته وسعة أفقه وتطلعه فهو يطمع في أجيال وأجيال توحد الله تبارك وتعالى،فهل فوق هذا الحرص من حرص r .

وتأمل في هذا الخبر المخرج في الصحيحين من طريق قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ لِي جَرِيرٌ قَالَ لِي رَسُولُ الله e :"أَلاَ تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ"، وَكَانَ بَيْتًا فِي خَثْعَمَ يُسَمَّى كَعْبَةَ الْيَمَانِيَةَ قَالَ فَانْطَلَقْتُ فِي خَمْسِينَ وَمِئَةِ فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ وَكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ قَالَ:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَكُنْتُ لاَ أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ أَصَابِعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ:"اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا"، فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا فَكَسَرَهَا وَحَرَّقَهَا ثُمَّ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ الله e يُخْبِرُهُ، فَقَالَ رَسُولُ جَرِيرٍ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُكَ حَتَّى تَرَكْتُهَا كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْوَفُ ، أَوْ أَجْرَبُ قَالَ فَبَارَكَ فِي خَيْلِ أَحْمَسَ وَرِجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ.

تأمل كيف جعل تحطيم هذا الطاغوت راحة لهم، وإزالة لِهَمِّه؛ لتعرف عظيم همته r ، فراحته وأنسه r في إقامة التوحيد ونشره، وتَدْمِيرِ الشرك والقضاء عليه.

والمخاطب في قوله:{عليكم} أي أمة الدعوة، أي حريص على الأمة كلها، من المؤمنين والكافرين، أما المؤمنون، فهو حريص على جلب مزيد من الهداية لهم، وأما الكافرون فبدعوتهم إلى التوحيد، فإن أبوا أخذنا منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ويبقون بيننا؛ لعلهم أن يتأثروا بنا؛ فيؤمنون بالله العظيم، فإن أبوا الجزية قاتلناهم، وقتلهم خيرٌ لهم، فإن الكافر كلما بقي تمادى في الكفر، وكلما فعل ذلك ازداد في الإثم؛ وقيل بل بتأخير العذاب عنهم، كما قال تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال:٣٣]، وهذا من معاني قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧].

قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النَّبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى الخلائق إلا رحمة لهم. لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة التنازل. فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها. فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل. فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال. والأول أظهر]ا.هـ.

صفتان في المصطفى r :

وقوله:{بالمؤمنين رؤوف رحيم}، اجتماع هاتين الصفتين، دليل على عظيم الرحمة والإشفاق، والحرص على الإحسان والنجاة، كما أنهما دالتان على تأكيد مقام الولاء والبراء، فهو **r** كذلك مع المؤمنين، أما مع الكافرين فقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} في موضعين من الذكر الحكيم، في التوبة والتحريم.

وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن كثير في تفسيره على هذه الآية:[يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ}، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال:{وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، كما قال تعالى:{فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}، وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفًا على الكفار، رحيما برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}، وقال النبي r :"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر"، وقال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" وشبك بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح]ا.هـ.

قوله:{رؤوف رحيم}: هذا كما تقدم من الأسماء المشتركة بين الخالق والمخلوق، وللخالق منها الكمال المطلق، وللمخلوق منها ما يليق به من أنه مخلوق لا خالق، على ما تقدم ذكره من قبل.

قال المؤلف رحمه الله:(وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ:طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ): بعد أن بين المؤلف بالدليل شرف النبي r وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، شرع يبين النتيجة اللازمة لهذه المعرفة، فإن المعرفة المجردة عن لوازمها لا تغني عن صاحبها شيئاً، فأخذ يبين أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الإقرار والتصديق بالرسول r والشهادة له بالرسالة، له دعامات لابد من وجودها حتى تقوم هذه الشهادة بحق في قلب الإنسان، وواقعه، وإلا كان ممن يَهْرِفُ بما لا يعرف، ويقول ما لا يعلم، فيشهد ولا يَعِي للشهادة معنى، ولا يقيم لها في واقعه وزنا، ومثل هذا لا تنفعه الشهادة، وكان النطق بها وبالاً عليه، لا إكراماً له.

قال المؤلف:(طاعته فيما أمر): الطاعة هي الامتثال والاستسلام، يقال:(رجل مِطْوَاع) أي مستسلم منقاد، ومنه (طَوَّعَ الحَدِيد)، وهذا القدر من الكلام يشمل الدين كله، الذي يتضمن طلب فعل المأمور وطلب ترك المحذور، أي الأمر والنهي، وتكون الجمل بعدها من باب عطف الخاص على العام، وتبيين المجمل بالمفصل، إذ أنه r أمر بتصديقه فيما أخبر، وأمر باجتناب ما نهي عنه وزجر، وأمر ألا يعبد الله إلا بما شرع.

واعلم أن الطاعة لا تكون إلا في المعروف، لهذا قال الله تبارك وتعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَّ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهَّ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [الممتحنة:١٢-١٣]، والشاهد من هذه الآية قوله تعالى:{ولا يعصينك في معروف}، والمعنى أنه لو أمر أَحَدٌ بغير المعروف فلا طاعة له، وإنما أريد في هذه الآية بيان أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان ملكاً مقربا أو نبيا مرسلا، فهذا لبيان غاية الامتناع، وإلا فحاشاه r أن يقع منه ذلك، وهذا كقوله تعالى:{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَأَنَـا أَوَّلُ الْعَابِـدِينَ (٨١) سُـبْحَانَ رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَـمَّا يَصِفُونَ}[الزخرف:٨١-٨٢].

ولهذا حَصَرَ النبي r الطاعة في المعروف كما في الصحيحين عَنْ عَـلِيٍّ t قَـالَ بَعَـثَ النَّبِيُّ r سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَـالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ r أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَـالَ قَـدْ عَزَمْـتُ عَلَـيْكُمْ لَمَـا جَمَعْـتُمْ حَطَبًـا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَـامَ يَنْظُـرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ r فِرَارًا مِـنْ النَّـارِ أَفَنَـدْخُلُهَا فَبَيْـنَمَا هُـمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتْ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ r فَقَالَ:"لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُـوا مِنْهَـا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ".

واليوم نسمع من يقول **(أنا عبد المأمور)** نعوذ بالله من الشرك بالله تعـالى، بـل نحـن عباد لله تعالى، ولا طاعة لمخلوق مهما كان في معصية الخالق تبارك وتعالى.

جاء في تعليقات الشيخ ابن عثيمين رحمه الله على الأربعون النووية:[ومنها: الوصية بالسمع والطاعة لولاة الأمور وقد أمر الله بذلك في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...}[النساء:٥٩]،... وهذا الأمر مشروط بـأن لا يؤمر بمعصية الله ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة في معصـية الله لقـول النبـي r :"إنما الطاعة في المعروف" ومن هنا نتبين الفائدة في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...[النساء٥٩]،... حيث لم يعد الفعـل عند ذكر طاعة أولياء الأمور بل جعلها تابعة لطاعة الله ورسوله]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمره r إما أن يكون أمر إيجاب أو أمر استحباب، ويدخل في ذلك، إقراره للشيء يسمع به أو يبلغه أو يُفْعَلُ بين يديه ويسكت عنه r ، فإن هذا داخل في جملة سنته r ، كما قال الناظم:

وإن أَقَرَّ قول غيره جُعِل ... كقوله كذاك فعل قد فعل

وما جرى في عصره ثم اطلع ... عليه إن أَقَرَّه فَلْيُتَّبَع

وتعريف الأمر: هو استدعاء طلب الفعل، على وجه اللزوم، وهو الواجب، وهو الأصل في جميع المأمورات، فإذا نزل عن هذه المرتبة لصارف ما، كان تعريفه هو استدعاء طلب الفعل على وجه الندب، أو الاستحباب، وهذا هو المستحب.

مفهوم السنة وما مرت به من أطوار:

تنبيه:وقع خلط كبير عند أكثر الناس في معرفة معنى السُّنَّة، في المفهوم الشرعي، فاختلط التعريف الحادث، بأصل معنى السُّنَّة في الصدر الأول، ولنعلم أن هذه الكلمة، قد مرت بمراحل:

١ - كانت في أول الأمر تعنى الطريقة والهدي، وبهذا يدخل فيها كل الإسلام، ولهذا قال ابن مسعود كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله قَالَ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَّ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللهَّ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ r سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّى هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ.

فقوله:(لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ)، تبين منه أن ترك السنة هنا ضلال، والمعنى إذا الهدي والطريق، المقابلة للإحداث في الدين، ومنها قوله r في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح عن أبي نجيح العرباض بن سارية t قال:وعظنا رسول الله r موعظة بليغة وجِلَت منها القلوب وذرفت منها العيون.فقلنا:يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال:"أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي،وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة"، فمعنى قوله r :"فعليكم بسنتي"أي بهديي وطريقتي.

٢- وكانت تطلق أيضا في الصدر الأول على من لا يطعم إلا حلالا، فهو يَعْرِفُ ما يدخل في بَطْنِه، وكانوا يصفونه بأنه (صاحب سنة).

٣- ثم لما ظهرت البدع، كبدعة الخوارج والمرجئة والجهمية، وأهل الكلام أَلَّفَ أهل العلم كتباً أسموها كتب السنة؛ لكي تكون في مقابلة البدع، فهنا حصل تَخْصِيص لكلمة السُّنة، عما كانت عليه في الأصل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- ثم اصطلح المتأخرون، عندما قسموا الأحكام، على خلاف بينهم في عددها، (المحرم، المكروه، الفرض، الواجب، المستحب، المندوب، المباح)، فقالوا السنة: ما يثاب فاعلها، ولا يعاقب تاركها، فَخُصِّصَتْ أكثر مما كانت عليه من قبل.

ولا مشاحة في الاصطلاح، ولكن لا بد من تنبيه العوام على هذا المعنى الخطير، ولهذا لما وقع الخلط بين هذه المعاني أصبحت تسمع من يقول:إن حلق اللحية مكروه،وإن رفع الثوب عن الكعبين سنة، وإن الحجاب سنة، وعلى هذا فقس، ولخطورة هذه المسألة جرى التنبيه عليها. والله الموفق.

قال المؤلف:(وتصديقه فيما أخبر): التصديق ضده التكذيب، فمن شهد ولم يصدق بالرسول، ولا بما أخبر به؛ كان كافراً زنديقاً منافقاً، وعليه فلابد أن يكون التصديق جازما لا تردد معه.

ووجوب تصديقه لسببين:

١- لأنه رسول رب العالمين،وفي تكذيبه تنقيص لمن أرسله، وقدح في حكمته وقدرته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٢- أن مقتضى كونه رسولاً، أنه لا يأتي بشيء من عند نفسه؛ فهو مبلغ عن الله، فإن كذبت رسوله، فلا سبيل إلى تحقيق عبادته تبارك وتعالى، وإلا ستكون متبعا للهوى لا للهدى، وهذا هو الكفر والزندقة والضلال المبين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن الخبر لا يدخله النسخ؛ لأن مقتضى النسخ تكذيب للخبر، وهـذا محـال في كلام الشرع، فأخبارهم تقع مطابقة للواقع، كالقصـص في القـرآن والسـنة، وكأخبـار الصفات والأسماء، وكأخبار ما يقع في البرزخ ويوم القيامة مـن الجنـة والنـار، وسـائر الأخبار التي جاءت في الكتاب والسنة، فيجب تصديقها تصـديقاً جازمـاً، لا يداخلـه شك ولا تردد، فإن شك أو تردد أو توقف؛ فلـيس بمسـلم؛ لأن مقتضـى أحـد هـذه الأمور تكذيب الرسول، ويتبعها اللوازم المتقدمة.

الشرع حاكم لا محكوم، والعقل محكوم لا حاكم:

واعلم أرشدك الله ، أن موجب تصديق الشهادة، اعتقاد مطابقة وتصـديق الأخبـار بعضها للبعض الآخر، فالأخبار يصدق بعضها بعضا؛ لأنها من مشـكاة واحـدة، فـلا تعارض بينها، فإن توهمنا تعارضا فهو فيما ظهر لنا، وإلا ففي حقيقة الأمر لـيس هنـاك تعارض في الأخبار البتة.

وهذا الذي ظهر لنا يزول بالنظر في الأخبار التي ظاهرها التعارض عندنا، من جهة صحة الخبر، وسلامة الاستدلال به، وصحة الاستنباط منه.

فقد يكون هناك حديث أصح من حديث، أو مقارنة بين صـحيح وضـعيف، أو أن يكون العقل الذي حكم بالتعارض عقل فاسد، فإما أن يكون الخلل في الإسناد، أو أن يكون في حالة العقل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك جميل ما قاله ابن القيم في هذا المقام في (متن القصيدة النونية):

فـإذا تـعـارض نـص لـفـظ وراد .... والعقـل حتى ليس يلتقيان
فالـعقـل إمـا فاسـد ويظنه الرائي .... صـحيحـا وهـو ذو بطلان
أو أن ذاك النـص ليـس بـثـابـت .... مـا قـاله المـعصوم بالبرهان
ونصوصه ليست تعارض بعضها ....بعضا فسل عنها عليم زمان
وإذا ظننت تعـارضـا فيـهـا فـذا .... مـن آفـة الأفهام والأذهـان
أو أن يكون البعـض ليس بثابت .... مـا قـاله المبعـوث بالقـرآن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(درء تعارض العقل والنقل):[وقد يكـون الرجـل من أذكياء الناس وأحدهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء وقد يكون مـن أبلـد النـاس وأضعفهم نظرا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فلا حول ولا قوة إلا به، فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل]ا.هـ.

الأصل في النواهي التحريم:

قال المؤلف:(ما نهى عنه)، النهي لغة: المنع. وشرعاً: الأمر إلزاما بالترك ويقتضـي، التحريم، فكل ما ورد بصيغة النهي، فمقتضاه التحـريم، فـإن صرفـه صـارف معتـبر شرعا صار النهي نهي تنزيه، أي صار مكروها، والنهي من أفعال التروك؛ ولهذا أوجب الشارع ترك جميع المنهيات، إذ لا تعلق لها بالاستطاعة والمشقة، إلا مجاهد النفس الأمارة بالسوء، فالترك الكل يستطيع أن يفعله؛ ولهذا قال r :"وما نهيتكم عنه فاجتنبوه" متفق عليه وقد تقدم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الـذكر الحكـيم قـال تعـالى: {وَمَـا آتَـاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧]، وقال الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَـيَّنَ لَـهُ الْهُـدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥].

واعلم أن المكروه في كلام الشارع ربما جاء مرادفا للحرام، كما قال تعالى بعد أن ذكر جملة من المحرمات المتفق عليها: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْـدَ رَبِّـكَ مَكْرُوهًـا} [الإسراء: ٣٨]، فالمكروه هنا يُرادُ به التحريم قطعا.

ولهذا استعمل بعض الأئمة في القرون المفضلة المكروه، وأرادوا به التحريم، كما هـو مقرر في موضعه. فتنبه لذلك رعاك الله.

تنبيه: وكذلك وقع خلط بين معنى المكروه -على المعنى الحادث- والتحريم، قريباً مما وقع في معنى السنة، ولهذا تجد اليوم من يشرب الحرام، كالدخان ونحوه، ويقول هو مكروه، ويسبل الإزار ويقول هو مكـروه، ويخـتلط بالنسـاء الأجنبيـات ويصـافحهن ويخلو بهن، ويقول هو مكروه، ويسمع المعازف والغناء الفاحش، ويقول هو مكروه.

وهنا لعلنا أن نعيد التذكير بالحديث الذي تقدم تخريجه عن أبي هريرة t قـال:قـال رسول الله r :"كلكم يدخل الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسـول الله؟ قـال مـن أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبـى" فهـذا الحـديث يقـرر فرضـية طاعـة النبـي r وأنه لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بذلك، وأن أعظم أسباب دخول النار معصية النبي r ؛ ولهذا حق لنا أن نقول تجب طاعة النبي r الطاعة العمياء، فقد أيقنت أنفسنا أنه لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، فَعَلامَ التردد إذاً؟!. وفي الحديث المتقدم قريبا شَبَّهَ النبي r المُتَفَلِّتِينَ عن طاعته بالفَرَاشِ يَأْبَى إلا أن يَقَعَ في النار؛ وفي هذا تذكير بأننا كنا قبل بعثته، وبزوغ نور دعوته، كنّا كالفراش، نهيم على وجوهنا، لا نلوي على شيء، فقد اجتالت الشياطين أكثر العباد، لا نعلم إلى أي وجهة نتوجه، فلا عِلْمَ ولا حِلْم، فلما جاء عليه الصلاة والسلام بالنور المبين، والهدى القويم؛ أبصرنا الطريق، ولكن بعض العباد أَبَوْا إلا حالة الفراش، الذي يأوي إلى النار، ولهذا قال الله تعالى: {فأمه هاوية} أي أمه جهنم فهو يأوي إليها، عياذا بالله من النار، والتَّفَلُّتُ المذكور في الحديث هنا، هو مخالفته عليه الصلاة والسلام وعصيانه.

الفرق بين النهي والزجر.

قوله:(وزجر): الزجر أشد من النهي، فإنه الكلام المتضمن للردع والتعنيف، والتشديد على الفعل والفاعل، بلفظ فيه زيادة على مجرد النهي، ولهذا غاير بينهما المؤلف، وذلك كقوله r :"لعنة الله" أو :"لعنه الله" أو :"ليس منا" فهذا هو الزجر وأما النهي فكما تقدم، فالزجر نهي وزيادة.

وعليه فالواجب اجتناب جميع المحرمات الكبائر منها والصغائر واللَّمم، فلنجاهد أنفسنا على ذلك، فإنما الخير إلينا راجع أصالة، وإلا فإن الأمر كما جاء في الحديث القدسي الطويل في صحيح مسلم من حديث أبي ذر t فيما يرويه النبي r عن ربه تبارك وتعالى وفيه قال تعالى:"يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا"...الحديث.

وعلينا أن نعلم، أن الله تعالى أرحم بنا من أمهاتنا، كما في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ **t** قَالَ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ **r** سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ **r** :"أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا".

فإذا نهانا الله تعالى عن شيء فلنمتثل، وكذلك إذا أمرنا تبارك وتعالى، وقد ضرب بعض الحكماء لذلك مثلا، فقالوا: أرأيتم لو أن طريقا كان فيه جملة من الأخطار، من منعطفات، وحفر، ومزالق، فأخذ السلطان يضع للناس علامات وتحذيرات من سلوك هذه الطريق، ولافتات للحذر من كذا وكذا، فهل سنعد ذلك من التضييق والتحجير علينا، أم سنعد ذلك من الرحمة والإرفاق بنا، ولله تعالى المثل الأعلى.

وما أجمل ما قيل:

جهلت عيون الناس ما في داخلي ... فوجدت ربي بالفؤاد بصيرا
يا أيها الحزن المسافر في دمي ... دعني فقلبي لن يكون أسيرا
ربي معي فمن الذي أخشى إذن ... ما دام ربي يحسن التدبيرا
وهو الذي قد قال في قرآنه ... {وكفى بربك هاديا ونصيرا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(وألا يعبد الله إلا بما شرع): هذا كقوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [النحل:١١٦]، وقوله:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف:٣٣-٣٤]، فحرم الله تعالى الافتئات على حقه بالتشريعات الجاهلية، وأن يتقول العبد على الله تعالى ما لم يأذن به.

كما قال تعالى:{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية ١٨-١٩].

ولهذا حرّم الله على عباده أن يقولوا هذا واجب أو مستحب بدون علم؛ لأنه تشريع، وكذلك أن يقول هذا محرم بدون علم.

قوله:(إلا بما شرع): أي إلا بما حكم الله وقضى، ووصى به وأمر، في شريعة محمد **r**، فلا سبيل للإيمان إلا بتحقيق عبادة الله تعالى على هدي الرسول **r**، فمن أراد عبادة الله تعالى بشريعة غير شريعة النبي **r** فإن الله تعالى رَادٌ عليه ذلك، ومُحْبِطٌ عمله، وإن كانت أعماله كأمثال الجبال، وهو من حطب جهنم وحَصَبِها، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ **r** أَنَّهُ قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ".

والله تعالى يقول في محكم تنزيله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، وسيأتي مزيد بيان لهذه الجمل بإذن الله تعالى عند الكلام على طاغوت التشريعات الجاهلية، والديمقراطية.

مقولة فيها نظر:

تنبيه: هناك مقولة نجدها في بعض الكتب تقول:(**فقد سَدَّ الله جل وعلا جميع الطرق الموصلة إليه إلا طريق النبي r**)، وهذه المقولة الذي يظهر لي أن فيها نظرا، إذ أن مفادها أن هناك طرقا أخرى، توصل إلى الله تعالى، ولكن الله تعالى سَدَّهَا، ولم يبق إلا طريق المصطفى **r** ، وهذا الكلام ليس بصحيح، فإن الله أرأف بنا من أنفسنا، بل ومن أمهاتنا اللآتي وَلَدْنَنَا، كما جاء بذلك الخبر، في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ **t** عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ **r** سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ :"أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ" قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ:"للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"

وقال تعالى: {وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء:٢٧-٢٨]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو سبحانه وتعالى يريد أن يرحمنا، وأن يتوب علينا، فكيف يَسُدُّ الطرق دونه،مع كونها طرقا صحيحة، وبهذا نعلم يقيناً أنه ليس هناك طريق أصلاً، يوصل إلى الله إلا طريق النبي r ، وأنه ليس ثَمَّةَ طُرُقٌ صحيحة مسدودة.

والله تعالى يقول: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص:٦٨]، فقد اختار تبارك وتعالى هذا الرسول r لهذه الأمة، فلا سبيل لها إلى عبادة الله إلا بِشَرْعِه وهديه عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن الله تبارك وتعالى لا يقبل عملا ألا أن يكون خالصا صوابا، والخالص هو ما ابتغي به وجه الله تعالى، والصواب هو ما كان على شرع النبي r ، وعليه فالشرك مردود على صاحبه، وكذلك البدعة، وقد كنا أفردنا كلاما مطولا عن الشرك وأحواله، فيما تقدم، وسيأتي مزيد بإذن الله تعالى، والآن فلنفرد للبدعة حظا من ذلك كذلك، لخطورتها، وسرعة انتشارها، واستهواء الشيطان العباد بها؛ ولأنها غالبا ما تُنْسَبُ إلى الدين زورا وبهتانا عياذا بالله؛ فينهدم حظ من السنة، ويرق أمر البدعة، وتروق لكثير من العامة، بل وبعض الخاصة، نسأل الله العافية والسلامة.

فصل في بيان شؤم البدعة: اعلم أن البدعة تكون سبباً لرد العمل الذي تلبست به، وربما كانت سبباً في نقص الأجر لا غير دون حبوط العمل، بحسب نوع البدعة وخطرها، وتعلقها بالعمل، وعلى كل فهي شؤم محض، القليل منها والكثير، عافانا الله وإياكم منها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمبتدع مصيبته، أنه غالباً ما يتعبد الله بتلك البدعة، فهو يَعُدُّها قربة من القربات إلى الله جل وعلا،ولهذا لا يَكَاد يَنْزِع عن بدعته وضلالته؛ لأنه يعتبرها ديناً يتعبد الله به،حتى إذا ما أقلع عنها وقع في أشد منها،ولهذا قيل لأحد السلف:(فلان أقلع عن بدعته)، فقال انظروا إلى حاله فإن صاحِب البدعة لا يقلع عنها إلا إلى أكبر منها، قال فنظرنا فإذا به قد وقع في بدعة القدرية الذين هم (مجوس هذه الأمة) والعياذ بالله.

وقد ذكر ابن وضاح في كتابه (البدع) بسند جيد عن أبي عمرو السيباني قال:[يَأْبَى الله لصاحب بدعة بتوبة، وما انتقل صاحب بدعة إلا إلى شر منها]ا.هـ.

ولهذا كانت البدعة عند بعض أهل العلم أكبر من الكبائر مما هي دون الكفر والشرك، حتى قال بعضهم: لأن أرى ابني على خَمَّارَةٍ أَحَبُّ إلي من أن أراه صاحب بدعة، وذلك لأن صاحب الخمر يعلم أنه على منكر، برجاء أن يَنْزِعَ عنها ويَتُوب، وأما صاحب البدعة فيرى أنه على حَق، فَمَتَى يُقْلِعُ عنها ويتوب؟، وقال أيوب السختياني:[ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا؛ إلا ازداد من الله بعدا]، قال الشاطبي في الاعتصام تعليقا على قول أيوب السختياني:[ويصحح هذا النقل ما أشار إليه الحديث الصحيح في قوله عليه الصلاة والسلام في الخوارج:"يخرج من ضئضئ هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم: إلى أن قال:"يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، فَبَيَّنَ أولا اجتهادهم، ثم بَيَّنَ آخرا بُعْدَهُم من الله تعالى]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب (الاعتصام) للشاطبي:[وخرج ابن وهب عن أبي إدريس الخولاني أنه قال: لأن أرى في المسجد نارا لا أستطيع إطفاءها أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها]ا.هـ. وقد نُقِلَ عن السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين نقولات متكاثرة في ذم البدعة وأهلها، والتحذير منها ومن أهلها، والسعي في الخلاص منها، بِنَشْرِ السُّنة، وهَجْرِ أصحاب البدع المُعَانِدين، والمُتَوَلِّينَ كِبْرَها، وقد ذكر الشاطبي في كتابه الاعتصام حظا وافرا من ذلك. فليراجع فإنه نفيس في بابه.

تعريف البدعة: هي طريقة في الدين محدثة، تقع بها مضاهاة الشرع، قال الشاطبي في الاعتصام :[فالبدعة إذن عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة وإنما يخصها بالعبادات وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية]ا.هـ.

والبدعة من جهة إطلاقها العام تنقسم إلى قسمين:

١ - **بدعة دينية**: وهي ما ينسبها صاحبها إلى الدين.

٢ - **بدعة دنيوية**: وهي ما يحدثه الناس لِتَيْسِيرِ وتَسْيِيرِ أسباب معاشهم، وهي بهذا الاعتبار سميت بدعة بالمعنى اللغوي، وهو الشيء المحدث، وبما أن الدين جاء لِيَسُوسَ الدنيا؛ فلابد من النظر في أحوال الدنيا بمنظور شرعي، كما قال تعالى:{قل إن صلاتي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}؛ وعلى هذا فإنها تنقسم إلى قسمين:

٣- ما سكت عنه الشرع، فالأصل فيها الحل والإباحة، كأنواع المراكب والمساكن المستحدثة ونحو ذلك، ما لم تتضمن محرما، وإن كانت ثَمَّة أدلة كلية دالة عليها.

أ- ما انتقده الشرع وحذر منه، فهذا الأصل فيه الحظر والمنع، وتتوقف درجته على نوع البدعة ودرجتها، فمنها المكفر، ومنها ما هو دون ذلك على ما سيأتي، ومن المكفر منها ما استحدثه الناس من القوانين الوضعية والتشريعات الجاهلية، ومما هو دون ذلك ما استحدثه الناس من أنواع الملابس المتضمنة للمحرم، ولم تكن موجودة بأعيانها زمن التشريع، كالتشبه بالكفار، والرجال بالنساء والعكس.

والبدعة الدينية، من جهة نوعها تقسم إلى قسمين:

١- **بدعة حقيقية**: وهي ما ليس لها أصل في الشرع، وهي التي لا مستند لها من الشرع، لا كُلِّي، ولا تفصيلي.

٢- **بدعة إضافية**: وهي ما كان لها أصل في الشرع، فزاد عليه المبتدع أو حرفه.

فبدعة البناء على القبور، والغلو في المقبور، واتخاذ المشاهد، والأضرحة، والطواف بها، هي بدع حقيقية، لا برهان عليها، بل جاء الشرع بنقضها وبيانها، والتحذير منها، وأنها بين ذرائع إلى الشرك، وبين شرك حقيقي أكبر، عياذا بالله.

وأما بدعة التَّطْرِيبِ في الآذان مثلا، فإنها بدعة إضافية؛ لأن الشرع دل على الأذان، ولكن الناس أضافوا إليه أحوالا وطرقا في الأداء ليست منه. وعلى هذا فَقِسْ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالعلم تحاصر البدع وتنحسر:

والبدع تكثر عند قلة العلم وثبوت الجهل، ولهذا قال ابن مسعود t ، فيما أخرجه الدارمي في سننه أخبرنا يعلى ثنا الأعمش عن شقيق قال قال عبد الله:(كيف أنتم إذا لَبِسَتْكُم فِتنَةٌ، يَهْرَمُ فيها الكبير، ويَرْبُو فيها الصغير، ويتخذها الناس سُنَّةً، فإذا غُيِّرَت؛ قالوا غُيِّرَتْ السُّنَّةُ، قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟، قال: إذا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُم، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُم، وكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُم، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُم، والْتُمِسَتْ الدنيا بِعَمل الآخرة). قلت:سنده جيد، وأخرجه ابن أبي شيبة كذلك في مصنفه.

فنسأل الله العافية والسلامة، وإلى هذا أشار النبي r فيما أخرجه أحمد والثلاثة وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية t قال r :"فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ". قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث صحيح[1].

---

١ - هناك من المتأخرين، لا سيما بعض المعاصرين من تكلم في إسناد هذا الخبر وطعن فيه، ولا أعلم لهؤلاء سلفا، بل أنت كما ترى قد نص الإمام الترمذي على تصحيحه، ولا يعلم له مخالف من السلف؛ فلا تلتفت إلى من خالف السلف بلا سلف له من السلف، ولا يهولنك شهرة الأسماء التي طعنت في هذا الخبر، فإن الإمام الترمذي أعلم منهم وأقعد، وهو من السلف والأئمة الكبار في هذا الشأن. فتنبه ولا تُخْدَع عن اتباع السلف إلى مجازفات الخلف، واجتهاداتهم المزعومة في مقابلة ما قاله السلف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطر القادم المحدق بالأمة:

فبين النبي r الخطر المُحْدِق القادم، وبين المخرج منه، بالرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، على فهم سلف الأمة الأخيار الأطهار الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم، فلا بد أن يَسَعَنَا ما وَسِعَ السَّلف، في العبادات والاعتقادات والمعاملات، وأن لا نُعارض الكتاب والسنة بقول أحد كائنا من كان.

وقد ورد عن الصحابة الإنكار، والتشديد على من أحدث في الإسلام، كما في معجم الطبراني في الكبير قال: حدثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عمر الضرير أنا حماد بن سلمة أن عطاء بن السائب أخبرهم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كان عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي ومعضد في أناس من أصحابهما اتخذوا مسجدا يسبحون فيه بين المغرب والعشاء كذا ويهللون كذا ويحمدون كذا فأخبر بذلك عبد الله بن مسعود فقال للذي أخبره: إذا جلسوا فآذني فلما جلسوا آذنه فجاء عبد الله عليه برنس حتى دخل عليهم فكشف البرنس عن رأسه ثم قال: أنا ابن أم عبد والله لقد جئتم ببدعة ظلماء أو قد فضلتم أصحاب محمد r علما فقال معضد وكان رجلا مفوها: والله ما جئنا ببدعة ظلماء ولا فضلنا أصحاب محمد r فقال عبد الله :"لئن اتبعتم القوم لقد سبقوكم سبقا مبينا ولئن جرتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا"١.

---

١ - قلت: وهذا إسناد جيد، فأما أبو مسلم فقد ذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه الذهبي في تذكرة الحفاظ، وأما أبو عمر الضرير فصدوق، قال عنه أبو حاتم:صدوق، صالح الحديث، عامة حديثه يحفظه، وقال ابن حبان:كان من العلماء بالفرائض، والحساب، والشعر، وأيام الناس،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخرج الحاكم والدارمي بسند لا بأس به: أن أبا موسى الأشعري جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال:"يا أبا عبد الرحمن، إن رأيت في المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا، قال:فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال:رأيت في المسجد قوما حلقا حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة؛ في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول لهم: كبروا مائة؛ فيكبرون مائة.فيقول: هللوا مائة؛ فيهللون مائة. ويقول:سبحوا مائة؛ فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئا؛ انتظار رأيك وانتظار أمرك. قال أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم. ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق؛ فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم. أو مفتتحي باب ضلالة! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه". والله أعلم.

والفقه، ولد وهو أعمى. وقال في موضع آخر:كان من علماء أهل البصرة مات سنة عشرين ومئتين، وقال العقيلي:حدثنا محمد بن عبد الحميد حدثنا أحمد بن محمد الحضرمي قال:سألت يحيى بن معين عن ابن عمر الضرير، فقال:لا يرضى. وقال الساجي:من أهل الصدق مظلوم، قال الساجي: وكان يحفظ الحديث، وكان سليمان الشاذكوني يمدحه ويطريه وينسبه إلى الحفظ، و ذكروا أن حماد بن سلمة كان يستذكره الأحاديث وهو حدث، وكان غاية في السنة، وله موضع بالبصرة من العلم. وأما حماد بن سلمة فصدوق وروايته عن عطاء قبل الاختلاط على الراجح ويشهد لاستقامة مروية الحديث الذي يليه، كما في الأصل. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البدع في الشرع كلها ضلالها، ليس فيها حسن:

فانظر إلى عظم فقه الصحابة كيف حصروا الإحداث في أحد أمرين:

١ - إما ضلالة المُحدث. ٢ - وإما تنقُّصه واتهامُه للشرع، وهذا أشد لأنه كفر.

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله:(من قال أن في الدين بدعة حسنة؛ فقد اتهم النبي r بالخيانة، ثم تلا قوله تعالى:{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}، في بيان واضح من هذا الإمام الجليل إمام دار الهجرة، أن ما كان عند الصحابة y ديناً فهو عند الله الدين، وما لم يكن عندهم دين؛ فليس عند الله بدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٧٥):[وَقَدْ سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ رَجُلٍ أَحْرَمَ قَبْلَ الْمِيقَاتِ؟، فَقَالَ: أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ الْفِتْنَةِ، فَقَالَ: قَالَ تَعَالَى:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}، فَقَالَ السَّائِلُ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ فِي ذَلِكَ؟، وَإِنَّمَا هِيَ زِيَادَةُ امْتِثَالٍ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَظُنَّ أَنَّك خُصِصْتَ بِفِعْلٍ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ r ؟، أَوْ كَمَا قَالَ. وَكَانَ يَقُولُ: لَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا، أَوَ كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إلَى مُحَمَّدٍ بِجَدَلِ هَذَا؟]ا.هـ.

وقد أجمع الصحابة على عدم جواز الإحداث في الدين، وأنه ليس في الإسلام بدعة حسنة، إلا بتعريفها اللغوي المتقدم، أو بمعنى تجديد ما انْدَرَسَ من معالم الشرع، وذلك بأن تُتْرَكَ سُنَّةٌ مثلا، فَيَنْتَدب إليها من يُحْيِيها في واقع الناس، ويحملهم عليها، ويكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قدوة في ذلك، هذا معنى أنها بدعة حسنة، وهذا معنى تجديدها، فإن البدعة لغة هي الشيء المبتكر الجديد المحدث، وهذا قد يكون لخلو ذهن الناس منه في وقتها، أو لأنه لم يكون موجودا أصلا.

وعليه يحمل ما ورد من الآثار في ذلك، كقوله r في الحديث الذي في صحيح مسلم عن جَرِيرٍ بن عبد الله قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله r فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله r لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:"{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ {إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ {اتَّقُوا اللهَّ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَّ} تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ". قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله r يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"، والشاهد قوله r :"من سن في الإسلام سنة حسنة"، فإن المراد بذلك من دَلَّ على هذه السُّنة الحَسَنَةِ المتقررة شرعا، - فإنما نالت الحُسْنَ لكونها من الشرع، وإلا كانت سيئة مذمومة، وبدعة ضلالة -، ودعا إليها، لا سيما عند إعراض

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس عنها، وهجرانهم إياها، وسياق الحديث يدل على ذلك، فإن النبي r لما حث على الصدقة، فأبطؤوا كما في الرواية الأخرى:"فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ"، فجاء هذا الرجل بهذه الصُّرَّةِ العظيمة من المال، التي عجزت عنها يده أو كادت، فوضعها بين يدي النبي r ، فلما رأى الناسُ ذلك نشطوا وتسارعوا إلى الإنفاق؛ فقال النبي r :"من سن في الإسلام سنة حسنة"، فالرجل لم يأت بشيء جديد مُبْتَكر من عند نفسه، وإنما أحْيَا وشَجَّعَ على أمْرٍ تَأَخَّرَ النَّاس عنه.

وأما قول عمر t :(نعمت البدعة هذه)، وذلك فيما أخرجه مالك في الموطأ بسند صحيح عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ:(وَاللهِ إِنِّي لَأَرَانِي لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ)؛ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ فَقَالَ عُمَرُ:(نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنْ الَّتِي تَقُومُونَ)، يَعْنِي آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ.ا.هـ.

فالمعنى: نِعْمَ العَمَلُ إحْيَاء مَا قَد تُرِكَ، فقد كان هذا الاجتماع على الإمام في رمضان، في زمنه يُعْتَبَرُ أمراً جديداً على الناس؛ ولهذا سماها بدعة، أي بالمعنى اللغوي، لا الشرعي، فعمر t لم يأت بهذا من عنده، وإنما كان أول ذلك ومنشؤه في زمان النبي r ، فأصل التواطىء على قيام الليل جماعة في رمضان مشروع على وجه التخصيص،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يشرع التواطؤ في غيره، كما أن السنة الصحيحة، دلت على أن النبي r كان يقوم من الليل، فيقوم معه بعض أصحابه، لا عن تواطىء واتفاق مُسْبَق، فأصل الأمر كان محفوظا، فعمر t إنما أحياها وجددها في الناس، لا أنه أنشأها وأحدثها تعبداً جديدا.

ففي الصحيحين عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله r خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَصَلَّوْا مَعَهُ فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنْ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ فَخَرَجَ رَسُولُ الله r فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا".

وجاء عند أحمد وعبد الرزاق والطيالسي وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه غيرهم كلهم من حديث أَبِي ذَرٍّ قَالَ صُمْنَا مَعَ رَسُولِ الله r رَمَضَانَ فَلَمْ يَقُمْ بِنَا شَيْئًا مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى بَقِيَ سَبْعٌ فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ فَلَمَّا كَانَتِ السَّادِسَةُ لَمْ يَقُمْ بِنَا فَلَمَّا كَانَتِ الْخَامِسَةُ قَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله لَوْ نَفَّلْتَنَا قِيَامَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ. قَالَ فَقَالَ:"إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَلَّى مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ حُسِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ". قَالَ فَلَمَّا كَانَتِ الرَّابِعَةُ لَمْ يَقُمْ فَلَمَّا كَانَتِ الثَّالِثَةُ جَمَعَ أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ وَالنَّاسَ فَقَامَ بِنَا حَتَّى خَشِينَا أَنْ يَفُوتَنَا الْفَلاَحُ. قَالَ قُلْتُ مَا الْفَلاَحُ قَالَ السُّحُورُ ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا بَقِيَّةَ الشَّهْرِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكلام على المصالح المرسلة:

ولأجل هذا أنكر من أنكر من السلف قاعدة ومسألة المصالح المرسلة، وبينوا أنه ما من أمر مثل به القائلون بقاعدة بالمصالح المرسلة، إلا ولها أصل معتبر شرعا، فلم يأت صاحبه بجديد في الدين، إذ لا جديد في الإسلام؛ لأن الله تعالى قال:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ} [المائدة:٣].

فأما السجن فقد حبس النبي r ثمامة t في المسجد، وأما جمع المصحف فقد كان للنبي r كتاب للوحي، وكان القرآن مجموعا في صحف، وأما الدواوين فقد كان النبي يكتتب الصحابة في الغزوات، وكان يقول: "أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلاَمَ"، وكانت معرفة الغزاة وقسمة الغنائم عليهم فرعا عن ذلك، وهكذا.

واعلم رعاك الله، أنه وكما تقدم معنا، ليس الشأن أن تستدل على فِعْلِك، وإنما الشأن أن يكون الدليل صحيحا على فهم الصحابة والسلف، فإذا أردت عملا ما، فَسَلْ نفسك، ما هو الدليل عليه؟، فإن اسْتَدْلَلْتَ؛ فَسَلْ نفسك، هل فهم الصحابة من هذا الدليل ما فهمت؟، وهل عملوا بما عملت؟، أم أنك سبقت إلى عبادة لم يعرفوها؟!، وإلى تقى وورع لم يكونوا عليه؟!، أم أن حقيقة الأمر أنك وقفت على دين لم يقفوا عليه؟!.

وعلينا أن نتذكر دائما وأبدا، أن الصحابة y، هم الذين نقلوا لنا، أدلة الكتاب والسنة، فكيف نتوهم أن ينقلوا دليلا يتضمن عبادة لله تعالى، لم يعرفوها ولم يعملوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بها؟!، هذا باطل قطعا، عقلا وشرعا، أما عقلا؛ فلأنهم y، كانوا أَبَرَّ قلوبا، وأَبْعَدَ عن التَّكَلُّف، وأَكْمَلَ عقلا وفَهْما وحِرْصا، وأما شرعا؛ فلتزكية الله تعالى ورسوله r لهم؛ وسبقهم في هذا الدين، فلا كان ولا يكون مثلهم، كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى.

فهم الصحابة حجة، وأقوالهم حجة تفسير للسبيل:

واعلم رحمك الله، أن قول الصحابة حجة قاطعة في فهم الدين، إذ أن القول الذي يجتمعون عليه y، أو يتكلم به بعضهم y، ولا يختلف عليهم الآخرون y؛ يُمَثِّلُ سبيل المؤمنين، والفهم الصائب لهذا الدين العظيم، فقد بين الله تعالى أن للمؤمنين سبيلا وأمرنا باتباعها، والتسليم لهم في ذلك، وهذه السبيل هي في مقابلة سبيل المجرمين.

واعلم أرشد الله لطاعته، أن الأمر المقطوع به في القرون المفضلة أن قول الصحابي حجة في فهم الدين، بالضابط المتقدم ذكره، وأن القول بعدم حجية أقوال الصحابة y، ما هو إلا لَوْثَةٌ كلامية، اعتزالية، وما يروى عن الشافعي في ذلك، غلط عليه، فقد صرح في مواضع من كتبه بحجية قول الصحابي الذي لم يختلف عليه فيه.

السؤال الكبير الذي يفرض نفسه، في مثل هذه المقامات الكبار:

أنخاف على الأمة من الزيغ والضلال، إن حَمَلْنَاهُم على أقوال الصحابة رضي الله عنهم، في فهم الدين والعمل به، وفهم الأدلة وتنزيلها؟!!.

خِبْنَا والله إذَن وخَسِرْنَا، خِبْنَا والله إذَن وخَسِرْنَا!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شهداء الله في أرضه:

فَلْنَرْفُق بأنفسنا، فلن نَسْبِقَ القوم إلى فضيلة، ولن نَبُزَّهم في فهم هذا الدين والعمل به، فما بقي إلا أن نعمل بما أوصانا به ربنا تبارك وتعالى، حيث قال:{ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، وقوله:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، فالصحابة هم أصول الشهداء في أرض الله تعالى من هذه الأمة، كما في الصحيحين من حديث أنس t قال النبي r لأصحابه:"مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، **أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**".

وفي صحيح مسلم من طريق سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ r ثُمَّ قُلْنَا لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ - قَالَ - فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ:"مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا". قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ:"أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ". قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ:"النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود t عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ". وسيأتي مزيد بيان لذلك؛ لخطورة المسألة، ودخولها في جميع الدين.

واعلم غفر الله لي ولك، أن أهل البدع لم يُعْوِزْهُم الاستدلال على غالب بِدَعِهم، فأنت تراهم يتكلمون بأدلة من الكتاب والسنة، ولكنهم أرادوا فهما على أهوائهم، وهنا يستبين لنا أهمية سبيل المؤمنين.

فالإسلام هو الدين الذي كان عليه النبي r وأصحابه y، وهو ما تلقاه الأئمة عن الصحابة.

فالإسلام الشرائع، والسبيل هو بيان كيفية فهمها وكيفية العمل بها وتنزيلها، وهنا يَنْخَزِمُ الهوى ويظهر الهدى، ويتميز الحق من الباطل في الأقوال والآراء والاجتهادات.

فلا يَنْفَكَّانِ أبدا؛ وإلا كانت المشاقة والضلالة، عياذا بالله منها، قال تعالى:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، فالآية ذكرت الهدى ثم عطفت ببيان السبيل المتبعة فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإلا فإن لغة العرب واسعة، والمعاني متكاثرة لا تكاد تنحصر، وبعضها أضداد، وهنا يظهر سبيل المؤمنين؛ ليرد الناس إلى جادة الطريق، وسواء السبيل.

والمُشَاقَّةُ لهم تكون بفهم الدين على غير فهمهم، والتعامل معه ومع أدلته بغير طريقتهم، وهو هدي النبي r الذي ربى عليه أصحابه، وشهد لهم بالخيرية ثم لقرنين.

وأمرنا باتباعهم بإحسان، كما قال تعالى:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة:١٠٠].

المطلوب اتباع الصحابة بإحسان لا بإساءة:

واتباعهم بإحسان، أيضا هو في عدم مشاقة سبيلهم، لا في طرح فهمهم للأدلة، ومقارعة عقولنا لعقولهم، واجتهاداتنا لاجتهاداتهم، إذ ذاك هو الاتباع بإساءة لا بإحسان، والمعنى أنه انتساب صوري إلى سبيلهم، مع الإمعان في مشاقتهم في فهم الدين وتنزيله.

فما قبض الله نبيه حتى أنزل سبحانه:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]، فما كان عندهم دين فهو الدين وإلا فإنما هو اتباع الهوى وترك الهدى الذي كانوا عليه حتى قال تعالى عنهم في مواضع:{رضي الله عنهم}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالذي يريد أن يجعل فهم النصوص، كل بحسب ما أدَّاهُ إليه اجتهاده؛ هو مُشَاقٌّ لسبيل المؤمنين، بل وهذا من أعظم أسباب فساد الدين؛ بل والوقوع في الزندقة، وفتح بابها؛ ولهذا تجد أئمة هذا الدين في زمان السلف يردون إلى فهم الصحابة.

الأدلة على وجوب الاعتداد بفهم الصحابة وعلومهم:

وتأمل ما كان عليه المسلمون في فهم الدين، وتَبَيّن حقيقة ما ترمي به الأهواء على أفواه وقلوب البعض.

ففي صحيح مسلم من طريق يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله r ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله،.....الحديث.

هكذا علموا أن الدين ليس ليلا يَخْطِبُ فيه كل حاطب، بل هو نهار نستبين فيه سبيل المؤمنين.

وكم من الأذكياء والحفاظ خانهم ذكاؤهم وحفظهم لما أرادوا أن يفهموا النصوص على سبيل أنفسهم لا على سبيل المؤمنين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبب ضلال الفرق بسبب التَّنكُّر لفهم الصحابة y :

فهؤلاء القدرية لم ينقصهم النص، حتى نقول إن الاحتجاج كان بمجرد ذكر أدلة القدر لهم في خبر ابن عمر المتقدم، ولكن كان ينقصهم كيفية الإيمان بالقدر، فإن لفظة القدر، مجملة ولها معان، وهذا ما أراده يحي وصاحبه.

فليس المشكلة عند أهل البدع أنه ليس عندهم لفظ الدليل، ولكن مشكلتهم في فهم الدليل.

ولاحظ بارك الله فيك، كيف أن يحيى بن يعمر، وحميد بن عبد الرحمن الحميري، لم يفرقا بين أصحاب محمد r ، بل علموا أنهم مهما وجدوا أحدا منهم؛ فقد حصلوا على المطلوب، فكلهم عدول، وكلهم عامل بما كان عليه النبي r وما رَبَّاهم عليه؛ ولهذا قالا:[لو لقينا **أحدا من أصحاب رسول الله r** ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر].

هكذا كان السلف يعلمون علم اليقين، أن للمؤمنين سبيلا وطريقة في فهم هذا الدين العظيم، وأن هذه السبيل هي ما كان عليه النبي r وأصحابه y .

وهنا خبر آخر جليل القدر فتأمله، وانظر كيف أن أبا سعيد الخدري t ، بَيَّنَ بل وجَزَمَ، أن الصحابة y هم الأحق بفهم الدين، وأنه لم يقل للسائل: عليك أن تفهم على اجتهادك، فنحن رجال وأنتم رجال.

ففي صحيح مسلم من طريق أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري t قال: اعتكف رسول الله r العشر الأوسط من رمضان، يلتمس ليلة القدر قبل أن تبان له، فلما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انقضين أمر بالبناء فقوض، ثم أبينت له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس، فقال:"يا أيها الناس، إنها كانت أبينت لي ليلة القدر، وإني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يَحْتَقَّان معهما الشيطان، فنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة"، قال قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا، قال:**[أَجَلْ نحن أَحَقُّ بذلك منكم]**، قال قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال:[إذا مضت واحدة وعشرون، فالتي تليها ثنتين وعشرين وهي التاسعة، فإذا مضت ثلاث وعشرون، فالتي تليها السابعة، فإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة].

فتبين أنه لابد للعبد لفهم هذا الدين، من أن يرجع إلى فهم الصحابة، وهذا متكاثر جدا من عمل التابعين والسلف وأقوالهم، وإلا وقعنا في الضلال والانحراف.

وهذا ما جرى مع جميع طوائف الضلال، حيث لم يحذروا من اتباع الأهواء والآراء، ولم يلتفتوا إلى سبيل المؤمنين، ومن هؤلاء الخوارج، الذين حذر النبي **r** منهم، وتأمل هذا الخبر:"يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية". وما ضل من ضل إلا من جهة عدم فهم الدليل على طريقة الصحابة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فما من عالم إلا وقد رضي عن عقله وفهمه، ولكن الشأن أن يعلم العالم أن فهم الصحابة فوقه، وهو المقصود، لا فهم نفسه، وإلا كان الكبر المبطن، أو الإزراء المبطن، فمن هذا الذي ارتضينا فهمه وطرحنا معه فهم الصحابة؟!!.

المرجعية عند الاختلاف في فهم الأدلة:

فقبل الخوض في أي مسألة من مسائل الشرع، أو الدخول في نقاش، أو مناظرة مع مخالف لك، لابد ابتداء أن تَتَحَدَّدَ المرجعية لفهم الأدلة، فإن لم تكن هذه المرجعية هي الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وإلا كان ضياعا للوقت، وإزراء بالسلف الخوض مع المخالف لك في هذا الأصل، بل هو طريق الزندقة والضلال عياذا بالله.

ولنحذر من سبيل المنافقين الذين قال الله تعالى في شأنهم:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٣]، فما كان من المنافقين إلا أن احتقروا إيمان المؤمنين، وأنِفُوا عن سبيلهم، فلنكن على حذر شديد من التشبه بأعداء الله تعالى.

بيان معنيان هامان

واعلم أرشدك الله، أن قوله **r** :"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، يدل على أمرين هامين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحدهما: أنه لا أحد من العباد أكبر من الحق الذي جاء النبي r ، فمهما عَظُمَ العبد علما وتقى وورعا، قولا وعملا، فالواجب علينا أن نَرُدَّ خَطَأه إذا أخطأ، ولا نتعاظم ذلك أبدا.

والثاني: أن أمرهم المذكور هنا، المقصود به سبيل المؤمنين، وهو ما كان عليه النبي r وأصحابه y، والمعنى أن السبيل أصبحت واضحة المعالم، مَنْشُورَة الأعلام، قد أحيطت بِسِياجٍ مَنِيع، لا يُقْبَل فيه تخليط ولا تلبيس، وليس فيه شيء من ذلك البتة.

تنبيه هام

وإذا أردت أن تقف على طرف من خطورة هذه السبيل، وأهميتها في نفي الضلال، واستبانة الصراط المستقيم، فعليك أن تعلم أنه ما من سبيل إلى رد كلام أصحاب الأهواء، من الأشاعرة والجهمية والمرجئة والمعتزلة وأشباههم، إلا بمحاكمتهم إلى ما كان عليه الصحابة t ، من فهم هذه النصوص التي يحتجون بها، إذ لغة العرب كما تقدم واسعة، وكل يدعي الفهم والإدراك، فما من سبيل للرد عليهم إلا بالرجوع إلى عمل الصحابة وتعاملهم مع هذه المسائل الشرعية، وتلك الاستدلالات التي يتلاعب بها هؤلاء المبطلون.

مَكَرَ الشيطان بالمبتدع فتراه لا يكاد يتوب:

فائدة: اعلم أن الله تعالى تفضل على عباده بقبول توبتهم، وأمرهم باستغفاره ووعدهم المغفرة، وهذا من أشد ما يكون على الشيطان، فإنه يسعى في إهلاك العباد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالذنوب، فإن قابل العباد ذنوبهم بالاستغفار، والتوبة النصوح، كان ذلك مما يُضْنِي الشيطان ويهلكه؛ ولهذا فهو يسعى في تزيين القبائح والمعاصي، والبدع والضلالات، لأصحابها؛حتى لا يستشعروا معصيتهم وضلالهم عندها؛ فلا يستغفرون الله، ولا يتوبون منها، وإذا ما دُعُوا إلى ذلك لَوَّوْا رؤوسهم، كحال المنافقين والعياذ بالله؛ عندها يَظْفَرُ الشيطان منهم بِمُرَادِه، ويَنَالُهُم في مَقْتَل. نسأل الله العافية والسلامة.

واعلم أن المبتدع له حظ وافر من هذا التزيين الشيطاني؛ ولهذا لا يكاد يقلع، ولا يتوب، ولا يستغفر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم رحمك الله أن البدعة، مفسدة محضة وأذى على صاحبها ومن يَحُومُ حَوْلَها، وأن أصحابها يزخرفونها للآخرين؛ بغية إيقاعهم فيها، فهم لسان إبليس الناطق في هذا الباب، والعياذ بالله، وتأمل فيما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَمِنْ هَذَا الْبَابِ سَمَاعُ كَلَامِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالنَّظَرُ فِي كُتُبِهِمْ لِمَنْ يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَيَدْعُوهُ إلَى سَبِيلِهِمْ وَإِلَى مَعْصِيَةِ الله فَهَذَا الْبَابُ تَجْتَمِعُ فِيهِ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ وَاَللَّهُ تَعَالَى ذَمَّ هَؤُلَاءِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ:{يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ:{وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ} الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} وَقَوْلِهِ:{مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ} وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله} الْآيَةُ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ فَأَهْلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَعَاصِي كَثِيرُونَ فِي الْعَالَمِ؛ بَلْ هُمْ أَكْثَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله} الْآيَةُ. وَفِي النُّفُوسِ مِنْ الشُّبُهَاتِ الْمَذْمُومَةِ وَالشَّهَوَاتِ قَوْلًا وَعَمَلًا مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ وَأَهْلُهَا يَدْعُونَ النَّاسَ إلَيْهَا وَيَقْهَرُونَ مَنْ يَعْصِيهِمْ وَيُزَيِّنُونَهَا لِمَنْ يُطِيعُهُمْ. فَهُمْ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ وَأَنْدَادُهُمْ فَرُسُلُ الله يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى طَاعَةِ الله وَيَأْمُرُونَهُمْ بِهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَيُجَاهِدُونَ عَلَيْهَا وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ مَعَاصِي الله وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَيُجَاهِدُونَ مَنْ يَفْعَلُهَا. وَهَؤُلَاءِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى مَعْصِيَةِ الله وَيَأْمُرُونَهُمْ بِهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُجَاهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ثُمَّ قَالَ: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ} وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}.

وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ وَاَللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَنَا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ مَسْبُوقٌ بِمَعْرِفَتِهِ فَمَنْ لَا يَعْلَمُ الْمَعْرُوفَ لَا يُمْكِنُهُ الْأَمْرُ بِهِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ مَسْبُوقٌ بِمَعْرِفَتِهِ فَمَنْ لَا يَعْلَمُهُ لَا يُمْكِنُهُ النَّهْيُ عَنْهُ وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْنَا فِعْلَ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ حُبَّ الشَّيْءِ وَفِعْلَهُ وَبُغْضَ ذَلِكَ وَتَرْكَهُ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِمَا حَتَّى يَصِحَّ الْقَصْدُ إلَى فِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَسْبُوقٌ بِعِلْمِهِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ الشَّيْءَ لَمْ يُتَصَوَّرْ مِنْهُ حُبٌّ لَهُ وَلَا بُغْضٌ وَلَا فِعْلٌ وَلَا تَرْكٌ ؛ لَكِنَّ فِعْلَ الشَّيْءِ وَالْأَمْرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهِ يَقْتَضِي أَنْ يُعْلَمَ عِلْمًا مُفَصَّلًا يُمْكِنُ مَعَهُ فِعْلُهُ وَالْأَمْرُ بِهِ إذَا أُمِرَ بِهِ مُفَصَّلًا. وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ : مِثْلَ صِفَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ إذَا أَمَرَ بِأَوْصَافِ فَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِثُبُوتِهَا فَكَمَا أَنَّا لَا نَكُونُ مُطِيعِينَ إذَا عَلِمْنَا عَدَمَ الطَّاعَةِ فَلَا نَكُونُ مُطِيعِينَ إلَّا إذَا لَمْ نَعْلَمْ وُجُودَهَا ؛ بَلْ الْجَهْلُ بِوُجُودِهَا كَالْعِلْمِ بِعَدَمِهَا وَكَوْنُ كُلٍّ مِنْهُمَا مَعْصِيَةً فَإِنَّ الْجَهْلَ بِالتَّسَاوِي كَالْعِلْمِ بِالتَّفَاضُلِ فِي بَيْعِ الْأَمْوَالِ الرِّبَوِيَّةِ بَعْضِهَا بِجِنْسِهِ؛ فَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ الْمُمَاثَلَةَ كَانَ كَمَا لَوْ عَلِمْنَا الْمُفَاضَلَةَ .

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ مَا يَتْرُكُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ فَقَدْ يُكْتَفَى بِمَعْرِفَتِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مُجْمَلًا فَالْإِنْسَانُ يَحْتَاجُ إلَى مَعْرِفَةِ الْمُنْكَرِ وَإِنْكَارِهِ وَقَدْ يَحْتَاجُ إلَى الْحُجَجِ الْمُبَيِّنَةِ لِذَلِكَ وَإِلَى الْجَوَابِ عَمَّا يُعَارِضُ بِهِ أَصْحَابَهَا مِنْ الْحُجَجِ وَإِلَى دَفْعِ أَهْوَائِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ وَذَلِكَ يَحْتَاجُ إلَى إرَادَةٍ جَازِمَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى ذَلِكَ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بِالصَّبْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَالْعَصْرِ * إنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ نَذْكُرَ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ لَهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا وَبَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الْفَسَادِ فَإِنَّ الْإِنْكَارَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ قَبْلَ الْإِنْكَارِ بِالْيَدِ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِيمَا يَذْكُرُهُ تَعَالَى عَنْ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ وَالْعُصَاةِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ؛ يَذْكُرُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ وَالْبُغْضِ لَهَا وَلِأَهْلِهَا وَبَيَانِ فَسَادِهَا وَضِدِّهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا كَمَا أَنَّ فِيمَا يَذْكُرُهُ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ وَالْحُبِّ وَبَيَانِ صَلَاحِهِ وَمَنْفَعَتِهِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ وَذَلِكَ]ا.هـ.

كما أن البدعة من جهة حكمها أيضا تنقسم إلى قسمين:

١ - **بدعة مكفرة:** وهي ما دلت الأدلة من الشرع على أنها من الكفر والشرك الأكبر، كالتشريع العام، وبدعة القدرية، والجهمية، والرافضة، والاعتقاد في الأولياء والصالحين وأصحاب القبور، وكالطواف بالقبور والسجود لها، ونحو ذلك.

٢ - **بدعة غير مكفرة:** وهي ما دون ذلك، فهي تشترك مع المُكَفِّرة في الذَّم وإن كان الذَّمُ درجات أيضا في ذلك، ولكن تفترق عنها في الحكم، كبدعة المولد، وزخرفة المساجد، والدعاء جماعة أدبار الصلوات[١]، وعقب الدروس والمحاضرات وعقب حِلَقِ القرآن والتزام ذلك[٢]، وقد جاء في كتاب العلم لأبي خيثمة بسند صحيح حدثنا

---

١ - واعلم رحمك الله أن الأئمة نصوا على بدعية ذلك، ومنهم المالكية كما ف يالمدزنة، وقد ألف الشاطبي كتابه (الاعتصام) انتصارا لمذهب أهل السنة في بدعية ذلك، وأما الحديث الذي أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي في السنن وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة قال:قيل لرسول الله r أي الدعاء أسمع؟، قال:"جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات". فإنه خبر لا تقوم به حجة، إذ أنه خبر مرسل، فإن الأئمة نصوا على أن عبد الرحمن بن سابط لم يسمع من أبي أمامة t شيئا؛ فالحديث ضعيف. والله أعلم.

٢ - أما الحديث الذي في سنن النسائي الكبرى من طريق عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبي عمران عن نافع قال كان بن عمر إذا جلس مجلسا لم يقم حتى يدعو لجلسائه بهذه الكلمات وزعم: أن رسول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جرير عن منصور عن إبراهيم قال:"كانوا يجلسون ويتذاكرون العلم والخير، ثم يتفرقون لا يستغفر بعضهم لبعض، ولا يقول: يا فلان ادعُ لي".

ومن هذه البدع كذلك المصافحة أدبار الصلوات، والتسبيح بالمِسْبَحَة–واعلم أنه لم يصح حديث لا مرفوع عن النبي r ، ولا موقوف عن الصحابة y في التسبيح بغير

الله r كان يدعو بهن لجلسائه:"اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكثر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا"، قلت: فهذا خبر منكر تفرد به عبيد الله بن زحر وقد ضعفه كبار الأئمة، الإمام أحمد وابن معين وابن المديني والدارقطني، وقد جاء الخبر في سنن الترمذي أيضا من طريق عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبي عمران أن ابن عمر قال:قلما كان رسول الله r يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه:"اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا" قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن خالد بن أبي عمران عن نافع عن ابن عمر.ا.هـ. قلت:فهذا الترمذي استغربه وبين وقوع الاختلاف في وصله وإرساله، وقد روى الخبر البزار بإسناد فيه ابن لهيعة، وقد عزاه السيوطي في جامع الأحاديث إلى ابن المبارك والحاكم وابن السني، وعليه فهذا الخبر لا تقوم به حجة، ويبقى التزام ختم المجالس العلمية والمحاضرات بالدعاء من الأمور المحدثة التي لا دليل صحيح عليها. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأنامل-، ومنها اتخاذ المحاريب في المساجد، وتسمى بمذابح النصارى، ومنها تعليق القرآن والأذكار في المساجد، وفي قبلة المصلين، وتعليق القرآن في جدران البيوت والمكاتب، وإنَارَة المقابر وتَشْجِيرِها، والبناء على القبور وتَجْصِيصِها، ونحو ذلك.

التشريع من أخطر البدع الكفرية:

واعلم أرشدك الله، أن من أخطر البدع المكفرة بدعة التشريع من دون الله تعالى، والديمقراطية، وهي كما تقدم من البدع الحقيقية، وقد لَبَّسَ بعض الناس على هذا الأصل العظيم، بالاشتراك اللفظي بين البدعة المكفرة وغيرها؛ بُغْيَةِ إخراج التشريع العام، عن أن يكون شركا أكبر بالله رب العالمين، ومُحَادَّةً ومُنَازَعَةً لله تعالى في أخص خصائص الربوبية: {ألا له الخلق والأمر}، وزعموا أنه لا فرق بينهما، فإن لم نحكم بالكفر على من دعا أدبار الصلوات جماعة؛ فلا نحكم كذلك على التشريع العام بذلك، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، من طمس البصائر، والخذلان المبين.

فنقول إن صاحب البدعة غير المكفرة، يعتقد أنها من الدين، ولو علم أنه قد شرع لنفسه، واتبع هواه؛ لكان مضاهئاً لله في شرعه، ومن ضاهى الله في شرعه كفر، إلا أن عامة أصحاب البدع لا يعتقدون التشريع، ولا يريدونه، وإنما يظنون أن ذلك من دين الله عز وجل، إما بتضليل أئمة مضللين، أو لشبهة وقعت في دليل عام لم يَرُدُّوها إلى الدليل الخاص؛ ليزول الإشكال، والالتباس، أو نحو ذلك، إلا أن البدع كلها ضلالة وكلها في النار، ومنها ما يوجب الخلود فيها، ومنها ما لا يوجب ذلك، ولكن صاحبها معرض للوعيد، وليست العبرة في البدع وتحديدها بعلم وعلو صاحبها، بل إنما تعرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحدد وفق الكتاب السنة، على فهم سلف الأمة، فلو جاءت البدعة على يد أو لسان كائن من كان ممن ليس بمعصوم، فإننا يحرم علينا اتباعه فيها، أو إقراره عليها، فالقاعدة تقول:(نَعْرِفُ الرجالَ بالحق، ولا نَعْرِفُ الحق بالرجال).

أما التشريع العام، فهو استصدار أحكام للمكلفين من حلال وحرام، وتحديد ما يجوز وما لا يجوز، وما هو من حقهم وما ليس من حقهم، ونحو ذلك من الأحكام التكليفية، ويدخل في ذلك جميع أنواع العبادات والمعاملات، بما في ذلك السياسة وعلاقات الدول والاقتصاد وغير ذلك، وهذا المقام هو حق محض لله رب العالمين، فمن نازعه فيه؛ كفر بالله وأشرك، الكفر والشرك الأكبر.

موجز المسألة:

وإليك أخي المسلم هذا التأصيل والتفصيل الموجز المفيد، في التفريق بين البدعة غير المكفرة، وبدعة التشريع العام التي تخرج صاحبها من الملة عياذا بالله:

فأقول:إن هذه المسألة من المسائل الأساسية التي كثر طرقها في الآونة الأخيرة، لا سيما مع ظهور من يدافع عن الحكام المبدلين والمشرعين للعباد التشريعات الجاهلية، في البرلمانات والمجالس التشريعية وغيرها، زاعمين أنه لا فرق بين البدعة والتشريع العام، حتى جعلوا ذلك، حائلا دون القول بكفر المشرع من دون الله رب العالمين، مقلدين في ذلك المرجئة، نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنا سأكرر القول هنا بشيء من التفصيل والتأصيل المختصر؛ حرصا على عدم الإطالة في هذا المقام، وأحيل القارئ الكريم على كتابي الموضوع في ذلك (فتنة العصر التشريع)، فقد بسطت فيه المسألة بأدلتها، مع الحظ الوافر الكثير جدا من المنقولات، عن السلف والخلف، وتقرير الإجماعات، على كفر أصحاب التشريع العام من دون الله تعالى.

فمنها، ما قاله ابن حزم رحمه الله:[واتفقوا أنه مُذْ مات النبي e ؛ فقد انقطع الوحي، وكَمُلَ الدِّين واستقر، وأنه لا يحل لأحد أن يزيد شيئا من رأيه بغير استدلال منه، ولا أن ينقص منه شيئا، ولا أن يبدل شيئا مكان شيء، ولا أن يُحْدِث شَرِيعة، وأن من فعل ذلك كافر]ا.هـ.(مراتب الإجماع لابن حزم ص:١٣٠).

وقال أيضا:[وأما من أجاز أن يكون صاحِبٌ فمَن دُونَه، ينسخ أمراً أمَرَ به رسول الله e، أو يُحْدِث شَرِيعَة، فهذا كافر مشرك حلال الدم والمال، بمنزلة اليهود والنصارى، وعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة، والناس أجمعين، ونحن برآء منه، وهو بريء منا]ا.هـ. (الأحكام لابن حزم:٥/ ٧٠٥).

وجاء في كتاب الإحكام لابن حزم:[قال أبو محمد: وهذا لا حجة لهم فيه لا خلاف بين اثنين من المسلمين أن هذا منسوخ، وأن من حكم بحكم الإنجيل، مما لم يأت بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام؛ فإنه كافر مشـرك خارج عن الإسلام]. ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:(٢٨/ ٥٢٤) قال:[وَمَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَبِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَنْ سَوَّغَ اتِّبَاعَ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ اتِّبَاعَ شَرِيعَةٍ غَيْرِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ e فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ كَكُفْرِ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}]ا.هـ. وهناك نقولات أخرى كثيرة في الكتاب تقرر هذا الإجماع فليراجع، فإنه مهم ونفيس.

بحث مهم ومفيد:

وسأقتصر على ذكر بحث مختصر ونفيس مع التعليق عليه، كتبه أحد الباحثين، بعنوان:(بحث نفيس ومختصر في الفرق بين البدعة والتشريع المطلق):

فصل في التفريق بين البدعة والتشريع المطلق: قد أورد العنبري كلاماً يذكر فيه أن المشرع للقانون الوضعي مماثل للمبتدع من جهة أنه مستدرك على الشارع، وأنه يزيد بِبِدَعِهِ على الشريعة أو ينقص، إلى غير ذلك ولذا يجب أن يأخذ حكمه! فلا يكفر إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة! وبنى كلامه على أن كل ما قاله العلماء في المبتدع يصح أن يقال في المشرع الوضعي فيجب أن نسوي بين المتماثلين على حد زعمه والرد على هذا الكلام من وجوه:

أولها: التفريق بين البدعة والتشريع المطلق:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيقال إن التشريع هو الرأي المجرد الغير مسند إلى دليل من الكتاب والسنة وهو مع ذلك فيه خصائص العموم والإلزام فليس لدى المشرع الوضعي أصل المرجعية إلى الكتاب والسنة في سن القوانين وإنما هو آراء وأهواء رجال.

والبدعة ليست رأياً مجرداً لكنها رأي مستند إلى الشرع مع مما زجه الهوى وتقديم المتشابه على المحكم، فهو كما يقول الشاطبي رحمه الله:(فصاحب البدعة لما غلب الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم، فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضل في أدلتها حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله وهذا الفرق بين المبتدع وغيره لأن المبتدع جعل الهوى أول مطالبه وأخذ الأدلة بالتبع..)

ثم يقرر رحمه الله أن سبيل المبتدع في ذلك إنما هو تأويل النصوص فيقول:[والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعاً ممن ينسب إلى الملة إلا هو يستشهد على بدعته بدليل شرعي فينزله على ما وافق عقله وشهوته وهو أمر ثابت في الحكمة الأزلية التي لا مفر منها] ج٤ـ/ ٩٩.

وبهذا يظهر جلياً أن المشرع الموضعي والمبتدع ليسوا سواء في أصل مرجعية كل منهما''' فالمشرع شرع رأيا مجرداً متبعاً فيه الهوى، والمبتدع تأول النصوص وأخطأ في الدليل مع ممازجة الهوى فشارك أهل الهوى في الدخول في نحلتهم وشارك أهل الحق في اتباع الدليل على الجملة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: وهو أهمها: أن المشرع الوضعي قصد إلى التشريع قصداً أولياً متعمداً إليه منظماً الدوائر الخاصة به، فقول العلماء عنه أنه مضاهي للشريعة وأنه مستدرك على الشارع بالزيادة أو النقص وأنه جعل نفسه رباً وأنه ....إلخ، كل هذا يدل عليه بدلالة المطابقة، بمعنى أن نفس عمله وهو التشريع يعني هذا كله لأنه يفعله قاصداً إليه متعمداً له! وهذا بخلاف المبتدع فإنه كما يقول الشاطبي رحمه الله(٤/ ٣٢):[إن البدع لم يقصد بها صاحبها منازعة الشارع ولا التهاون بالشرع، وإنما قصد الجري على مقتضاه، لكن بتأويل زاده ورجحه على غيره]. ويقول رحمه الله أيضاً (٤/ ٣١٧) تعليقاً على قول الإمام مالك رحمه الله عندما قال:[من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن محمداً خان الرسالة]، وقوله لمن أراد أن يحرم من المسجد :[أي فتنة أعظم من أن تظن أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله e]، إلى آخر الحكاية، يقول الشاطبي رحمه الله تعليقا على ذلك:[إنها إلزام للخصم على عادة أهل النظر كأنه يقول يلزمك في هذا القول كذا لا أنه يقول قصدت إليه قصداً؛ لأنه لا يقصد إلى ذلك مسلم ولازم المذهب هل هو مذهب أم لا ....)) (٤/ ٢١٧)، فهذا يوضح أن المبتدع لم يقصد ما قاله العلماء عنه قصداً أولياً وإنما هو لازم له بخلاف المشرع فإن حقيقة فعله يدل عليه ولذا لزم التفريق، ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله أيضاً (٤/ ٤٩٠):[وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا في الحقيقة من أهم الفوارق بين المبتدع والمشرع فإنه لا يشك مسلم أن المعاند للشريعة والمشاق لله ولرسوله والمتهم الرسول e بالخيانة أنه كافر إن قال ذلك متعمداً ولكن لما كان المبتدع غير قاصد لهذه الأقوال بل هي على سبيل الإلزام فقط وجدنا أن العلماء لم يحكموا عليه بالكفر إلا بالقيود المعروفة.

أما المشرع الوضعي فهو بخلاف ذلك كما سبق فهو كافر لأنه قاصد لهذا كله، قاصداً تغيير الشريعة بشريعة أخرى من رأيه وهواه.

ثالثاً: البدعة يدخل فيها التفاوت بحسبها فقد تكون معصية صغيرة، وقد تكون فسقا، وتكون مكفرة، بحسب ما كانت جزئية أو كلية أو غير ذلك، أما التشريع فلا تفاوت فيه لأنه حق لله سبحانه وتعالى فمن شرع فقد أله نفسه لقوله سبحانه وتعالى:{ولا يشرك في حكمه أحداً}. والشرك الأكبر لا تفاوت فيه فكله كفر، فالذي يدعو قبر ولي، كالذي يعبد هبل من دون الله، لا فرق، وكله شرك وكفر مخرج من الملة.

ولكن هنا نكته،، وهي أن البدعة تدور بين طرفين وهي المعصية والتشريع المطلق، فالمعصية إن وضعت موضع الاستنان صارت بدعة لأنها ضاهت الشريعة في فعلها على سبيل التعبد، والبدعة هو ما وضع على مضاهاة التشريع ولكن على مقتضى الدليل مع الانتساب للشريعة ولكن مع ممازجة الهوى وتقديم المتشابه على المحكم، فالبدعة دخل فيها شوب التشريع من حيث أنها زيادة في الدين محدثة أو نقصان منه على سبيل التعبد، أما التشريع فهو الرأي المجرد المحض كما سبق في كلام الشاطبي رحمه الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالمعصية هي المخالفة لا يدخلها شوب التشريع بحيث لم توضع موضع الاستنان بها فتضاهي الشريعة.

والبدعة هي ما دخلها شوب التشريع ووضعت على مضاهاته لكن مع الانتساب للشريعة والعمل على مقتضى الدليل مع ممازجة الهوى وتقديم المتشابه على المحكم وهي تتفاوت بحسبها.

والتشريع هو الرأي المجرد المحض الذي لا ينسب إلى الشريعة مع وضعه على مضاهاة الشريعة من حيث الإلزام به والتكليف به. وهذا لا تفاوت فيه ولو كان في جزئية واحدة، فحكمه كما قال الشاطبي كفر صراح.

يقول الإمام الشاطبي (٢/ ٦١٠) في الاعتصام:[والثاني أن كل بدعة تشريع زائد أو تغيير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادحاً في المشروع ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامداً لكفر إذ الزيادة أو النقصان فيها أو التغيير قل أو كثر كفر فلا فرق بين ما قل منه أو كثر]ا.هـ.

يقول الشاطبي رحمه الله في قوله سبحانه:{ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام}:[فهم شرعوا شرعة وابتدعوا بدعة في ملة إبراهيم عليه السلام هذه البدعة توهماً أن ذلك يقربهم من الله كما يقرب من الله ما جاء به إبراهيم عليه السلام، وقال سبحانه{وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً} الآية فهذا تشريع كما هو المذكور قبل هذا..... ثم قال:{وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم} وهو تشريع أيضاً بالرأي مثل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول..... ثم قال:{وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم} إلى آخرها، فحاصل الأمر أنهم قتلوا أولادهم بغير علم وحرموا ما أعطاهم الله من الرزق بالرأي على جهة التشريع، فلذلك قال تعالى:{قد ضلوا وما كانوا مهتدين}] (١/١٠١٤).

ويقول عند قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم}:

[المسألة الأولى: أن تحريم الحلال وما أشبه ذلك يتصور منه أوجه: الأول: التحريم الحقيقي وهو الواقع من الكفار كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ومجمع ما ذكر الله تعالى تحريمه عند الكفار بالرأي المحض، ومنه قوله تعالى:{ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب} وما أشبه ذلك من التحريم الواقع في الإسلام رأياً مجرداً] (١/٢٣٨).

وقرر رحمه الله مراتب البدع فيقول:[فمنها ما هو كفر صراح كبدع الجاهلية التي نبه عليها القرآن كقوله تعالى:{وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا} الآية.

وقوله:{وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذ كورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء} وكذلك بدعة المنافقين حيث اتخذوا الدين ذريعة لحفظ المال والنفوس وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح]ا.هـ.

فكلام الإمام الشاطبي واضح في أن بدعة التشريع كفر صراح ومع ذلك فالعنبري لا يفقه ما ينقل أو يستغفل القارئ فينقل عن الشاطبي رحمه الله مما هو دليل عليه لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له!!!؛ ولذا تراه في ص ٩٥من كتابه (الماتع)ينقل عن الشاطبي قوله:[وهذا إن كان مقصود للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين] (١/٤٩)!!! ، فأي صراحة وأي وضوح بعد هذا أيها العنبري؟!.

وبهذا يظهر جلياً الفرق بين البدعة والتشريع المطلق. والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم].ا.هـ.

مثال تتضح به المسألة:

قلت: وإني سأضرب مثلا لهذه المسألة، فمن عقل هذا المثال اتضحت له المسألة، وإليك المثال: نحن نعلم يقينا أن البدعة محرمة شرعا، وأن مرتكبها قد فعل محرما، كما أننا نعلم أن أصحاب هذه البدع يجوزونها ويرونها حقا، بل ويأمرون بها ويدعون إليها، وعليه فالذين يجوزون هذه البدعة قد جوزوا ما حرمه الله، وهذا تحليل لما حرم الله، ومع ذلك لا نحكم بكفرهم، لماذا؟؛ لأنهم فعلوا ذلك مُتَأَوِّلِين بِمَنْزَعٍ شَرْعِي من أدِلَّة كُلِّيَّةٍ، لم يفهموها على وجهها، كبدعة الدعاء الجماعي أدبار الصلوات مثلا.

فهل الذي يعمد إلى تبديل الشرع بالرأي المحض، وهو يعلم أنه فاعل لمحرم، وليس له أدنى منزع من الشرع، هل هذا وصاحب هذه البدعة سواء؟!.

بمعنى هل من جَوَّزَ الدعاء الجماعي، كمن جوز شرب الخمر؟.

وهل بدعة الدعاء الجماعي، كبدعة الطواف بالقبور والحج إليها؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا إذا صارت بدعة المبتدع رأيا مجردا؛ صارت تشريعا شركيا، كبدعة القول بخلق القرآن، وبدعة صلاة الفاتح، وبدعة الرفض، وبدعة القرامطة وهكذا.

ثم اعلم رحمك الله تعالى، أن للمشرع صفات لابد أن نتعرف عليها؛ لنعلم من الذي له حقٌ أن يشرع للعباد، فأقول: صفات المشرع هي:

صفات من له حق التشريع:

١ - أن يكون عالماً، كامل العلم، محيطا بحقائق الأمور، ظاهرا وباطنا، فإن الجاهل يفسد ولا يصلح، وناقص العلم والإحاطة، يصلح فيما يعلم ويفسد فيما لا يعلم، وبما أن التشريع قوام للعباد والبلاد؛ فلابد أن يأتي من قِبل العالم المحيط، صاحب العلم المطلق، الذي هو بكل شيء عليم، ووسع كل شيء علما.

٢ - أن يكون حكيماً تام الحكمة، فإن السفيه يضع الأمور في غير مواضعها، ويستعمل الأشياء في غير ما أريد بها، وناقص الحكمة يُصْلِحُ فيما بلغته حكمته، ويَتَسَافَه في ما عدا ذلك، فلابد أن يكون المشرع ذو حكمة تامة، لا يعتريها ذهول ولا نسيان، ولا عيب ، ولا نقص، ولا خلل؛ ليضع كل شيء في نصابه.

٣- أن لا يتعارض أجزاء هذا التشريع بعضه مع بعض، وأن يسلم من المعارض والقادح، فإن التناقض دليل على قلة العلم والحكمة.

٤ - أن يكون المشرع مالكاً متصرفاً، فإن الذي يملك الملك المطلق، هو الذي يستحق له أن يتصرف ويشرع كما يشاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥- أن يكون التشريع صالحاً، لكل زمان ومكان، وأن يكون متضمنا للعدل التام العام، مساوياً بين العباد في الأحكام، فلا فرق بين الغني والفقير، وأن يكون هذا مطرداً في جميع الأحوال والأزمان، وأن يكون متوافقا مع فطرة الإنسان السوية، وهذا لا يتأتي إلا للذي يعلم السر وأخفى، ألا وهو الله رب العالمين.

فليس هناك أحدٌ تتوفر فيه هذه الصفات التشريعية إلا الله رب العالمين؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:"إن الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكْم" أخرجه البخاري في الأدب المفرد وعبد الرزاق وأبو داود والنسائي والحاكم وابن حبان عن هانئ بن يزيد t ، وليس هناك أحد تنطبق عليه هذه الصفات إلا الله الواحد القهار؛ ولهذا كان التشريع مع الله، أو من دون الله، شركا وكفرا أكبر؛ لأنه محادة لله جل وعلا، وتصرف في خلقه بما لم يأذن به الله جلا وعلا؛ وفوق ذلك لأن الحكم والتشريع عبودية من أجل العبوديات، فمن صرف منه شيئا لغير الله؛ كان مشركا كافرا، فإن الإجماع منعقد على أنه لا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله جل وعلا، فطالما أنه قد ثبت أن ذلك الشيء عبادة لله جل وعلا، فمن صرفه لغير لله فهو مشرك كافر.

وقد ثبت أن الحكم عبادة، بنص القرآن والسنة والإجماع، قال تعالى:{إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه} فسمى الحكم عبادة، وهذه الاستنباط بهذه الطريقة، تقدمت الإشارة إليه عن الكلام عن الدعاء، في قوله جل وعلا:{وقال ربكم أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}، فلا فرق، فكما أنه سمى الدعاء عبادة هنا، فقد سمى الحكم عبادة هناك، وقال تعالى:{ألم تر إلى الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت}، فسمى الله جل وعلا التحاكم إلى غيره طاغوتا، وهو كل ما عُبد من دون الله جل وعلا، وهو اسم لما ينتقض به إسلام العبد، كما سيأتي؛ ولهذا قال بعدها: {وقد أمروا أن يكفروا به}، أي: لا أن يتحاكموا إليه، والكفر بالطاغوت يستلزم بغضه والبراءة منه، ومعاداة أهله، ودعوتهم، وجهادهم؛ فمن لم يفعل كان منافقاً، قال تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا}، وسيأتي مزيد كلام على هذه المسألة في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

والحكم بغير ما أنزل الله والتشريع العام كفر من ثلاثة وجوه:

١ - ترك الشرع المنزل والإعراض عنه، مع العلم به، فما وافق أهواءهم أخذوا وإلا نبذوه واستعاضوا عنه، قال تبارك وتعالى: {والذين كفروا عما أنذروا معرضون}، وقوله: {فنبذوه وراء ظهورهم}، وقوله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٤١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- تبديل الشرع المنزل، بالشرع المبدل، وهذه الاستعاضة كفر بالله جل وعلا، كما قال تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}، وقوله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧]، وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:٨٤-٨٦].

٣- تنزيل الشرع المبدل في الواقع وتطبيقه والعمل به، وهذا كفر ثالث، قال تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}.

قال ابن القيم في نونيته:

والله ما خوف الذنوب فإنها .... لعلى سبيل العفو والغفرانِ

لكنما أخشى انسلاخ القلب .... عن تحكيم هذا الوحي والقرآنِ

ورضاً بآراء الرجال وخَرْصِهَا ....لا كان ذاك بِمِنَّةِ المَنَّانِ

فالكفرُ ليس سِوى العِنَادِ وَرَدِّ... ما جاء الرسول به لِقَوْلِ فُلانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في (طريق الهجرتين وباب السعادتين):[ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله؛ فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أُمِرَ أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت؛ حتى يجعل الحكم لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر]ا.هـ.

والكفر بالتشريع كفر بالربوبية، وهو كما تقدم أغلظ من الكفر بالألوهية، وإن كان هو يدخل في شرك الألوهية والأسماء والصفات كذلك، إلا أنه أخص بالربوبية، قال تعالى:{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً}، وتفسير هذه الآية، التي لا أشكال فيها بين المفسرين، بل إجماعهم معقود على ذلك، أنها تعني طاعة الأمراء والعلماء وغيرهم، في تحليل الحرام وتحريم الحلال، إذا لا خلاف بين المفسرين وأهل العلم أن معنى هذه الآية هو ما جاء في حديث عدي t الذي أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عَنْ عَدِيِّ بن حَاتِمٍ، قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ r وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ:"يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ"، فَطَرَحْتُهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله}، حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ:"أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ؛ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ" قُلْتُ: بَلَى، قَالَ:"فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ"١. ورواه الترمذي، وقال:[حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب و غطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث].ا.هـ.

---

١ - ولكن فيه ضعف، وله شاهد عند ابن جرير، وهو ضعيف أيضا،والآية حجة قاطعة هنا، ومعناها متفق عليه، على أنه هو ما جاء في حديث عدي t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنبيه متكرر لأهميته: لا فرق في التشريع العام بين المسألة والمسألتين، ولا القليل ولا الكثير، فالمسألة ليست مسألة نِسَبٍ، وعَدَد، بل التشريع كله، أيّا كان قدره وعدده ونسبته، فإنه كفر بالله جل وعلا؛ لأنه كما تقدم منازعة لله جل وعلا في أخص صفاته.

ولهذا كان من لوازم شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، إثبات هذا الحق لله تعالى وحده لا شريك له، والقيام له به، فمن شك أو تردد، أو تخلف عن العمل بذلك في مملكته أو حكومته، أو رئاسته القبلية أو العشائرية، أو الطرق والأحزاب، فقد وقع في الكفر بالله تعالى، وأن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى وهو يتكلم عمن تولى جِنْكِيزْ خَانْ وسماه مَلِكَ الْمُشْرِكِينَ:[وَكُلُّ مَنْ قَفَزَ إلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءَ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، بِقَدْرِ مَا ارْتَدَّ عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ قَدْ سَمَّوْا مَانِعِي الزَّكَاةِ مُرْتَدِّينَ مَعَ كَوْنِهِمْ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ، وَلَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ بِمَنْ صَارَ مَعَ أَعْدَاءِ الله وَرَسُولِهِ قَاتِلًا لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاَلله لَوْ اسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ لله وَرَسُولِهِ الْمُحَادُّونَ لله وَرَسُولِهِ الْمُعَادُونَ لله وَرَسُولِهِ، عَلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ. فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ لَأَفْضَى ذَلِكَ إلَى زَوَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَدُرُوسِ شَرَائِعِه]ا.هـ.

وبهذا يكون المؤلف قد بين لوازم شهادة أن محمدا رسول الله، كما بين من قبل لوازم شهادة ألا إله إلا الله، وأن لهذه الشهادة العظيمة، شروطاً ومقتضيات، فلا يكفي النطق فيها باللسان المجرد عن الإتيان باللوازم والعمل بمقتضاها، إذ لو كانت القضية هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجرد نطق باللسان؛ لما تردد الكفار في قولها، ولما احتاجوا إلى إراقة دمائهم، وضياع أموالهم، وافتراق جمعهم، وذهاب عزهم، ولجَادُوا بها لأول وهلة، بَيْدَ أنهم علموا يقيناً أن لهذه الكلمة لوازم ومقتضيات، وعلموا أنهم إن تكلموا بها لزمهم العمل بذلك، وإلا فليسوا على شيء وسيحاربهم النبي r على ذلك، ولهذا كانوا أعقل من أن ينطقوا بها ظاهرا، دون التزام لها، فأبوا أن يتلفظوا بها، بل كانوا يمنعون الناس من ذلك كما قال تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:٢٦]، أي ينأون بأنفسهم عن التوحيد والإيمان، وينهون غيرهم عن ذلك.

ومن عجائب هذا الزمان أنك ترى العبد يتلفظ بالشهادتين صباحاً ومساءً، وينقضها في اليوم عشرات المرات، بنواقض شَتَّى، فهذا يطوف حول القبور، وهذا يتحاكم إلى الطاغوت، وهذا يحكم بالطاغوت، وآخر تعلق قلبه بالأولياء والصالحين رغبة ورهبة ورجاء، يرجوا نفعهم ويخاف ضرهم، وقد أَضْفَوا عليهم عامة صفات الله جل وعلا، فهم يعتقدون فيهم أنهم يعلمون الغيب الذي لا تعلمه الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون، وأن لهم قسطاً من تصريف الأمور مع الله جل وعلا؛ فيدعونهم بالأغواث والأقطاب، إلى غير ذلك من أهل الإشراك بالله تعالى، كالشيوعيين والعلمانيين واللبراليين ودعاة الدولة المدنية والديمقراطيين.

قال المؤلف: (ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}:

أي ودليل كون الصلاة والزكاة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا، قوله تعالى:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وما أمروا إلا ليعبدوا الله}، والحصر بعد النفي يفيد التخصيص، والمعنى، أي لم يؤمروا بشيء سوى أن يحققوا العبودية لله الواحد القهار، فبين الله جل وعلا في هذه الآية أن كل أمْرٍ أمَرَ الله به إنما يصب في مصب واحد، ألا وهو قوله تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وهذا الأمر عام في جميع أنواع العبادات، وبما أن العبادة ذل وانقياد ومحبة، دلت هذه الآية، على أن النفوس لابد أن تكون مهيأة، لقبول هذه الأوامر وتلقيها، دون اعتراض ولا تردد، وهم في ذلك ذَلِيلُون مُحِبُّون للذي أمر بها، ولألا يظن البعض أن مجرد الانقياد والذل في الظاهر، كافيان في تحقيق العبودية، قال بعدها:{مخلصين}؛ لأن البعض قد ينقاد ظاهرا خوفاً كالمنافقين، ولهذا قال:{مخلصين}، أي حالة كونهم مخلصين في عباداتهم، ذليلين منقادين لربهم.

ولئلا يظن للبعض أن مجرد الانقياد والإخلاص كافيان، في تحقيق العبودية والاستقامة على أمر الله، قال:{له الدين} فلا دين إلا دين الله، ولا شرع إلا شرعه، فلابد من انقياد وذل وإخلاص على وِفْقِ دين الله جل وعلا، لا بحسب الأهواء والعادات والتقاليد، وفعل الأكثر من الناس وضغط الواقع.

فالعبودية منهج متكامل للحياة، من المهد إلى اللحد، فلا ينفك العبد قدر أُنملة عن عبوديِّةٍ لله تعالى.

قوله:{حنفاء}، دليل على أن كل ذلك لا ينتفع به العبد حتى يضيف إلى ذلك عقيدة الولاء والبراء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرد على المرجئة:

قوله: **{ويقيموا والصلاة ويؤتوا الزكاة}**، دليل على أن أعمال القلوب وحدها من ذل وإخلاص وانقياد وحب وبغض في الله، لا تكفي في تحقيق ما تكون به النجاة، حتى يضيف إلى ذلك عمل الجوارح، ومثل لها هنا بالصلاة والزكاة، فالعبادات كما تقدم إنما تتكون من مالية أو بدنية أو منهما معا، وفي هذا الرد على المرجئة الذي أخرجوا العمل من مسمى الإيمان.

فبمجموع ذلك تكون النجاة، إذ هذا هو الدين القائم عند الله تعالى، الذي لا يرتضي سواه، وتأمل أن هذه الآية جاءت في سياق سورة (البينة)، مما يؤكد أنها تتكلم عن ما إذا أتي به العبد؛ سلم ونجا، وإلا كفر وضل وغوى.

قال أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي في كتابه (تعظيم قدر الصلاة): [قال أبو عبد الله: وقال الله عز و جل: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، وقال: {إن الدين عند الله الإسلام}، فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دينا قيما، وسمى الدين إسلاما، فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام بعضا، وقد جامعتنا هذه الطائفة التي فرقت بين الإيمان والإسلام على أن الإيمان قول وعمل وأن الصلاة والزكاة من الإيمان، وقد سماهما الله دينا، وأخبر أن الدين عند الله الإسلام، فقد سمى الله الإسلام بما سمى به الإيمان، وسمى الإيمان بما سمى به الإسلام، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي r **فمن زعم أن الإسلام هو**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار]ا.هـ.

وقال القرطبي في تفسير:[قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس، كما ثبت في البخاري من حديث البراء بن عازب، على ما تقدم. وخرج الترمذي عن ابن عباس قال : لما وجه النبي r إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} الآية، قال: هذا حديث حسن صحيح. **فسمى الصلاة إيمانا لاشتمالها على نية وقول وعمل. وقال مالك: إني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان]**.ا.هـ.

وقال الإمام ابن القيم في كتابه :(زاد المعاد في هدي خير العباد):[إقْرَارُ الْكَاهِنِ الْكِتَابِيِّ لَهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِأَنّهُ نَبِيّ لَا يُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يَلْتَزِمْ طَاعَتَهُ وَاخْتِلَافُ النّاسِ فِي ذَلِكَ.

وَفِيهَا: **أَنّ إقْرَارَ الْكَاهِنِ الْكِتَابِيّ لِرَسُولِ اللهِ r بِأَنّهُ نَبِيّ لَا يُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يَلْتَزِمْ طَاعَتَهُ وَمُتَابَعَتَهُ** فَإِذَا تَمَسّكَ بِدِينِهِ بَعْدَ هَذَا الْإِقْرَارِ لَا يَكُونُ رِدّةً مِنْهُ وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ الْحَبْرَيْنِ لَهُ وَقَدْ سَأَلَاهُ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلَ فَلَمّا أَجَابَهُمَا قَالَا : نَشْهَدُ أَنّك نَبِيّ قَالَ فَمَا يَمْنَعُكُمَا مِنْ اتّبَاعِي؟، قَالَا : نَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ وَلَمْ يُلْزِمْهُمَا بِذَلِكَ الْإِسْلَامَ. وَنَظِيرُ ذَلِكَ شَهَادَةُ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ لَهُ بِأَنّهُ صَادِقٌ وَأَنّ دِينَهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيّةِ دِينًا وَلَمْ تُدْخِلْهُ هَذِهِ الشّهَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ . **وَمَنْ تَأَمّلَ مَا فِي السّيَرِ وَالْأَخْبَارِ الثّابِتَةِ مِنْ شَهَادَةِ كَثِيرٍ مِنْ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ لَهُ r بِالرِّسَالَةِ وَأَنَّهُ صَادِقٌ فَلَمْ تُدْخِلْهُمْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ عَلِمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ أَمْرٌ وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْمَعْرِفَةَ فَقَطْ وَلَا الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ فَقَطْ بَلْ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ وَالِانْقِيَادُ وَالْتِزَامُ طَاعَتِهِ وَدِينِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. وَقَدْ اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْكَافِرِ إذَا قَالَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَلَمْ يَزِدْ هَلْ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ بِذَلِكَ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ وَهِيَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَدَ إحْدَاهَا : يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ بِذَلِكَ . وَالثَّانِيَةُ لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى يَأْتِيَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ . وَالثَّالِثَةُ أَنَّهُ إذَا كَانَ مُقِرًّا بِالتَّوْحِيدِ حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُقِرًّا لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيفَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَإِنَّمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ إشَارَةً وَأَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ نَبِيًّا يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَهُ وَلَا يَشُكُّ عُلَمَاؤُهُمْ فِي أَنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِنَّمَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ رِئَاسَتُهُمْ عَلَى قَوْمِهِمْ وَخُضُوعُهُمْ لَهُمْ وَمَا يَنَالُونَهُ مِنْهُمْ مِنْ الْمَالِ وَالْجَاهِ]ا.هـ.

وفي قوله:**{ويقيموا الصلاة}**، إشارة إلى وجوب القيام بها وبشروطها وواجباتها، من الطهارة لها وإقامتها في ميقاتها الزَّمَانِي والمَكَانِي، تأمل أن هناك فرقا بين أن يقول:(وصلوا)، وبين {وأقيموا الصلاة}، فليس المراد إذا مطلق الأداء، وإنما إقامتها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، وهذا لا يتأتى إلا بتطبيق قوله r ، كما في صحيح البخاري من حديث مالك بن الحويرث:"وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلابد من الخشوع والإتيان بها على وجهها، فإن فعلنا تحقق فينا قول الله تعالى:{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥].

فإذا رأيت أن المنكرات قد تفَشَّت في الأمة مع أنها تصلي، فاعلم أن في صلاتها خللا، وأنها حرصت على الأداء، ولم تحرص على إقامتها على هدي رسول الله r .

ولنتذكر حديث المسيء صلاته المخرج في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ اللهِ r دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ r فَرَدَّ وَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ r فَقَالَ:"ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثَلَاثًا فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي فَقَالَ:"إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا".

وفي صحيح البخاري:بَاب إِذَا لَمْ يُتِمَّ السُّجُودَ: عَنْ حُذَيْفَةَ رَأَى رَجُلًا لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَلَا سُجُودَهُ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: مَا صَلَّيْتَ، قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَالَ: لَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخشوع واجب مع الاستطاعة في الصلاة:

وكما تقدم فإن الخشوع يكون في الظاهر والباطن، وهذا القدر من الخشوع واجب[١] على العباد في صلواتهم، ويأثمون بالتفريط فيه عمدا، وأما ما يقع عن غفلة ونسيان، فقد تجاوز الله تعالى عن عباده في ذلك، وشرع لعباده سجود السهو على لسان نبيه r .

وكما تقدم لما حصل الخلل والتلاعب في الصلاة، حتى صارت قريبة من نقر الغراب - عند الأكثرين إلا من رحم الله -، وصار الناس يتنافسون في أيهم يُنْهِيهَا قبل المسجد الآخر.

بل وصار البعض يعتبرونها عبئا عليهم، فيريدون الاستراحة منها لا الراحة بها؛ صار حالنا إلى ما ترى، وأصبحت الصلاة لا تعمل عملها إلا قليلا، فلا تكاد تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها تُؤَدَّى ولا تُقَام.

والله تعالى يقول: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥].

---

١ - وأما ما نقل من الإجماع على أنه مستحب، وكذلك ما عُزي للجمهور فإنما المقصود به أن الصلاة لا تبطل بتركه، وإن كان في هذا الإجماع نظر من جهة ثبوته من جهة سلامته من المعارض، فإن النبي r قال للمسيء صلاته :"ارجع فصل فإنك لم تصل"، وهذا دال على أن الصلاة غير مجزئة ولا تبرؤ بها الذمة. وهناك بحث نفيس في تحقيق هذه المسألة، تجده في كتابي (موسوعة الجامع الثمين في أخطاء المصلين والأئمة والمؤذنين).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفرق كبير بين من يقول عن الصلاة:

أَرِحْنَا بِها،

ومن يقول: أَرِحْنَا مِنْها.

وكذلك لم يقل(وزَكُّوا)، وإنما أمر بإيتاء الزكاة، مما يدل على اطمئنان النفس حين إخراجها، فَتُخْرجها طيبة بها النفس، فرحاً بأدائها عبادة لربه جل وعلا، مما يستشعر معه العبد منة الله تعالى عليه بالمال، ويتذكر ما للفقير من حق واجب عليه، لا منة له فيه عليه.

فائدة: فإن قال قائل فأين ذكر الرسول r في الآية، مع أنها حصرت الأوامر التي أمر الله بها العباد؟.

فالجواب: لقد تضمنت الآية الأمر باتباع الرسول في غير ما موضع:

الموضع الأول: في قوله: {وما أمروا}: فإن البناء لما لم يسم فاعله، دال على إرسال الرسول، فمن الذي أمر؟، إنه الله جل وعلا، ولكن كيف أمر؟، هل كلم عباده بأوامره كفاحاً دون ترجمان؟، ومباشرة دون واسطة؟، الجواب: كلا بل أمرهم وخاطبهم بواسطة رسله، فكان هذا دالاً على إرسال الرسول، دالاً على وجوب تصديقه والانقياد له؛ لأنه مُبَلِغ عن الله جل وعلا، فمن رد أمره أو خالف هديه، كان راداً لأمر الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموضع الثاني: في قوله: {ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} هذا أمر مجمل، فمن أين للمأمورين أن يعرفوا تفاصيله؟، فكان ذلك دالاً على ضرورة وجود رسول يبين للعباد مراد الله تعالى وحدوده، فهم الذين اصطفاهم الله جل وعلا لبيان هذه المهمة العظيمة، ألا وهي كيف تعبد الله جل وعلا، كما يحب ربنا ويرضى،وهو دال على وجوب متابعة الرسول والأخذ بأوامره.

الموضع الثالث: في قوله: {ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة} فإنه لو أمر بمطلق الصلاة ومطلق الزكاة؛ لكان للعباد أن يصلوا كما شاءوا، ويزكوا بأي قدر شاءوا من أموالهم، لكنه عندما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ دل ذلك على أن هناك صفة مخصوصة لهما، لا يقبل الله جل وعلا الصلاة والزكاة بدونها، فمن سيبين هذه الصفة؟، إنهم الأنبياء والمرسلون، فكان ذلك دالاً على إرسال الرسول، ووجوب اتباع الرسول وتعزيره وتوقيره ومحبته.

وعليه فإن هذه الآية، قد اشتملت على ما أمر الله به عباده، وما أراده منهم من تحقيق العبودية قولاً وعملاً ، ولهذا قال الله جل وعلا: {وذلك دين القيمة} أي هذا هو الدين المستقيم، والصراط القويم، الذي لا يقبل الله جل وعلا غيره،كما قال تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه}، وفي قوله تعالى: {دين القيمة} دلالة على عدالة هذا الدين، وأفضليته، وأنه جاء ليُقَوم حياة العباد والبلاد، وأنه لا قوام للعباد ولا البلاد إلا بهذا الدين المستقيم، القائم بكل ما يحتاجه العباد، من تعاليم وأوامر ونواهي تهديهم إلى الصراط المستقيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله:{القيمة}، إشارة إلى عظمة هذا الدين وعلو منزلته، فهو دين قيم عظيم، فقد جاء وسطاً بين طرفين وعدلاً بين ظلمين، لا إفراط ولا تفريط، وهذه هي الحنيفية السمحة التي أمر الله جل وعلا بها عباده وزكاها، بقوله تعالى:{ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.

كما أن في قوله:{وما أمروا...الآية}، امتنانا وإنعاما من الله تعالى علينا، والمعنى: أي ما أمرناهم بشيء فيه منقصة عليهم، وإنما أمرناهم بما فيه شرفهم وعزهم وعافيتهم، وهذا كقوله تعالى:{لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء:١٠].

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الصيام، قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}): أي دليل فرض الصيام في الإسلام، وأنه من أركانه ومبانيه العظام، وأنه عبادة لله جل وعلا. قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}.

الصيام لغة: الحبس والمنع، ومنه قوله تعالى:{إني نذرت للرحمن صوماً}. واختلف أهل العلم في حكم تارك الصيام عمداً، فذهب جمهور أهل العلم إلى عدم كفره؛ لعدم وجود دليل خاص بكفره، بينما ذهب ابن عباس وغير واحد من السلف إلى كفر تارك أي ركن من أركان الإسلام عمداً؛ لأن الركن هو ما لا يمكن الاستغناء عنه، وإنما يطلق الإسلام على مجموع هذه الأركان، فمن لم يأت بها؛ لم يكن مسلماً، قال تعالى:{ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}، وعلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلٍ فالأمر عظيم، فإذا كان من أفطر يوماً متعمداً من رمضان بـلا عذر؛فقـد أتي جرمـا عظيما،وإثما كبيرا، فكيف بمن يترك الصيام كله متعمداً بلا عذر، فهذا لا شك أن دينـه على خطر عظيم، وسوف يلقى الله بأربعة أركان، بإسـلام نـاقص، فنسـأل الله العافيـة والسلامة.

والصيام شرعاً: هو التعبد لله وحده بالإمساك عـن أشـياء مخصوصـة مـن شـخص مخصوص إلى زمن مخصوص، وقيل هو الإمساك عن المُفَطِّرَات مـن وقـت تبـين ضـوء الصبح واستطارته إلى غروب الشمس، والمفروض من ذلك هو صيام شهر رمضان.

وفي الصيام فوائد كثيرة منها:

١ - استشعار الفقر والفاقة، والذل والحاجة، إلى الله جل وعلا، حيث يعلم الصائم قيمة نعمة الله عليه بالطعام والشراب وعظيم قدرته جل وعلا فوقـه، إذ كيـف لـو أنـه حرمنا من هذا الطعام والشراب طوال العام، فكيف ستكون أحوالنا من جوع ومسغبة وضعف وفاقة؟، فالحمد لله الذي أغنانا بفضله عمن سواه.

٢ - تذكير الصائم بأحوال إخوانه الجياع في مشارق الأرض ومغاربها، فيحصل من جراء ذلك التكافل والتعاون والتناصر.

٣- بيان أهمية التقليل من الطعام والشراب، مما يكون عونـاً لـك عـلى مزيـد مـن الطاعات، بتضييق مجاري الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه، فتنطلـق الـروح بعيـدة عـن معوقاتها ومثبطاتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- التذكير بأن غذاء الأرواح آكد من غذاء الأبدان، فالقلوب تجد من الانشراح وراحة البال في رمضان، ما لا تجده في سائر العام، مع الجوع والعطش.

٥- التذكير بأعداء الإنسان، فإذا علمنا أن مردة الشياطين مسلسلة، ومع ذلك بقيت هناك معاصي، علمنا أن هناك أعداء آخرين، نحن بحاجة إلى أن نتقي الله معهم، لتكون النجاة، وهم النفس الأمارة بالسوء، والهوى الذميم، ورفقاء السوء، والدنيا الغرورة إن لم نحسن التعامل معها

قال أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه:(المدهش):[إخواني: الدُّنيا غَرَّارَة غَدَّارَة خَدَّاعَة مَكَّارَة، تُظَنُّ مُقِيْمَةً وهِي سَيَّارَة، ومُصَالِحَةً وقَد شَنَّت الغَارّة].

٦- تربية المسلم على الخلق الرفيع، فلا همة له في مجادلة الناس، ولا مُسَابَّتِهم، ولا مُشَاتَمَتِهم، بل هو معرض عن السيء من القول، فلا يشهد الزور ولا يتكلم به، وإن مَرَّ بِه، مَرَّ مُرُورَ الكرام، كما قال تعالى:{والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً}.

٧- استشعار العبودية لله، وأنه هو وحده المشرع لعباده، وأن من نازعه في ذلك كان كافرا بالله تعالى، حيث أنه منعنا حتى من ما أحل لنا، فالخلق خلقه والأمر أمره، وما لنا إلا أن نقول سمعنا وأطعنا، ونحن محبون لذلك، مذعنون له موقنون أنه لا يأمرنا إلا بما فيه مصلحتنا، ولم ينهنا إلا عما فيه فسادنا، كيف لا وهو أرحم الراحمين.

هذه بعض فوائد الصيام والأمر أعظم من ذلك بكثير، فما كان الله ليجعله ركناً من أركان الدين، إلا وقد تضمن حكما، وآلاء لا يطيق البشر الإحاطة بها، فهناك من فوائد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصيام البدنية (كإراحة البدن، وإراحة الجهاز الهضمي)، والطبية (كالحمية) والأخلاقية والدينية على ما تقدم، والاجتماعية والاقتصادية والدين كله خير[١].

قوله تعالى:{يا أيها الذين أمنوا}: نداء وخطاب للمؤمنين خاصة، ففيه إكرامهم وتقديمهم على من سواهم، حيث خصهم الرب تبارك وتعالى بذلك النداء العلوي المقدس، إعلاماً منه تبارك وتعالى، أن الله لا يقبل عملاً بدون إيمان، مهما كثر وعظم، وأنه لا كرامة عند الله تعالى لغير المؤمنين، وأن العمل اليسير مع الإيمان يقبله الرحمن ويربيه، كما يربي أحدُنا فَلُوه، حتى تصل الحسنة الواحدة إلى أمثال الجبال، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ" (فلوه): أي المُهْر، نفيس الفرس.

قوله:{كتب عليكم}: أي فرض، وقد يراد به أيضاً، أي (قُدِّرَ عليكم)، فالكتابة تدل على سبق التقدير، وأن هذا الأمر قد فرغ منه من قبل أن يخلقنا الله جل وعلا بخمسين ألف سنة، كما سوف يأتي معناه في الكلام عن القدر بإذن الله. ومنه قوله r :كما في الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r :"إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ".

---

١ - لمعرفة مزيد من ذلك، راجع رسالتي (رسائل رمضان إلى أمة القرآن).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{عليكم}، تكليف وتشريف، وبيان لعنايته جل وعلا بهذه الأمة المرحومة، حيث أنه جل وعلا ارتضى لها أكمل الشرائع وأسمحها، وأيسرها، وهذا كقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى:١٨-١٩]، فأعطاها من الفضائل والخصائص، ما لم يعط غيرها من الأمم، لشرف نبيه وكتابه الذي أنزل إليه فلله الحمد والمنة.

قوله:{الصيام}:ليس المراد بذلك الحصر، بل المراد بذلك البيان، فإنه قد فرضت أمور كثيرة، قبل الصيام، كالتوحيد والصلاة والزكاة، ولكن سياق الآية يتكلم عن الصيام خاصة، ولهذا خصّه بالذكر هنا.

قوله:{كما كتب على الذين من قبلكم}: في ذلك بيان من الله جل وعلا أنه قد كمّل ديننا وضمنه سائر فضائل الأديان من قبلنا، كما قال جل وعلا:{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}، كما أن في ذلك تخفيفا للأمر على المؤمنين، وتعزية لهم؛ لأن الصيام فيه مشقة على النفوس، فإذا علم العبد أنه أسوة غيره، وأنهم كانوا يصومون كذلك؛ خف عليه الأمر، وسهل وقعه على النفس، واستشعر ضرورة التنافس والقيام بذلك،فلن يسبقنا إلى الله أحد من الأمم الماضية، والمعنى سنصبر كما صبروا وأعظم، ونصوم كما صاموا وأكمل، وهذا من عظيم رحمة الله جل وعلا بنا، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم بيّن الله جل وعلا الحكمة والغاية التي لأجلها شرع هذا الصيام؛ وأنه لتحقيق عبوديته، وتحصيل تقواه جل وعلا، وفي هذا بيان لكمال غناه جل وعلا عنا، وشدة احتياجنا إليه جل وعلا، فهو سبحانه ليس بحاجة إلى تجويعنا وتعطيشنا، وذلك لا يزيد في ملكه شيئا جل وعلا، فهو ذو الغنى الكامل التام المطلق، وإنما شرع ذلك لمصلحتنا، ولتزكية نفوسنا، ولرفعة درجاتنا، فالنفع إلينا راجع، والله عنا وعن أعمالنا غني واسع، جل الله في علاه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعبيد. وما أحسن ما قال الناظم:

من كل شيء إذا ضيعته عِوَضٌ ... وما مِنَ اللهِ إن ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

قوله:{لعلكم}: تفيد التحقيق، وتيقن حصول الأمر، وهذا مطّرد في الكتاب والسنة، فحيثما ورد أفاد وقوع الأمر وتحققه، إذا اكتملت شروطه وانتفت موانعه.

قوله:{تتقون}: التقوى هي فعل المأمور وترك المحظور، على علم وبصيرة، فلا سبيل إلى حصول التقوى، إلا بطلب العلم الشرعي، الذي به يعرف العبد المأمور فيمتثله، والمحظور فينتهي عنه ويدعه.

وقد اختلف أهل العلم في صيام من قبلنا، أكان مثل صيامنا؟، أم أن هذه الكيفية خاصة بنا،على قولين:

١ - أنهم كانوا يصومون، ولكن ليس كصيامنا فالأمر واحد، ولكن الشرائع مختلفة، وهؤلاء يحتجون بصيام اليهود والنصارى الموجود بين يدي الناس، وأنه يخالف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طريقة صيامنا، ولكن يُعَكِّرُ عليه، أنهم قوم بُهْت يحرفون الكلم عن مواضعه، فما يُؤَمِّنُنَا أن يكونوا قد حرفوا الصيام عن حقيقته التي شرعها الله جل وعلا لهم.

٢- أن صيام من قبلنا كصيامنا بدليل، قوله تعالى: {كما كتب}، فالكاف تفيد التشبيه والمماثلة، وهذا أظهر، وعلى كل فالخلاف في هذا يسير، لا يؤثر.

أجر الصيام تدخله المُقَاصَصّة:

فائدة: ذهب بعض العلماء الفضلاء، إلى أن الصيام لا يدخل في المقاصة بين العباد يوم القيامة، وإنما تقع المقاصة في سائر الأعمال عدا الصيام، أخذا من قول الله تعالى في الحديث القدسي المتفق على صحته من حديث أبي هريرة t فيما يرويه النبي r عن ربه تبارك وتعالى قال:"كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ".

ولكن هذا القول فيه نظر ولا دليل عليه، بل دل الخبر الصحيح على أن المقاصة تقع في الصيام كذلك، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:"أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ". قَالُوا:الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ:"إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ".

فدل هذا الخبر الصحيح الصريح على أن الصيام تقع فيه المُقَاصَصَة، وأن الحسنات قد تَفْنَى حتى مع الصيام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا تعارض بين الخبرين، فبعد أن يجزي الله تعالى عبده على صيامه؛ تقع الْمُقَاصَصَة، إذ من المعلوم أن الحسنات توضع في الميزان، فيكون الله تعالى قد وفاه حسابه، فوضعت في الميزان، ولكن غُرَمَاءَه كُثُر؛ فذهبوا بها عياذا بالله من الإفلاس.

وثَمَرَةُ هذه الفائدة أن البعض، ظَنَّ أن حسنات الصيام لا تُمَسُّ أبدا؛ فيكثر من الصيام، مع إكثاره من ظلم الناس، زاعما أن ديوان حسنات الصيام سيكفيه ما وقع فيه من ظلم للعباد، ولكن هيهات هيهات. فانتبه وكن على حذر من الظلم، فإنما هو ظلمات يوم القيامة، ولا يخدعنك الشيطان.

هذا وقد حث الشارع على هذه العبادة والإكثار منها، كما في الصحيحين عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :"إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:"مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ الله إِلاَّ بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا". قلت: وفي الباب غير ذلك من الأخبار.

قال المؤلف:(ودليل الحج): الحج لغة: القصد، ويطلق ويراد به الحول والسَّنة،ومنه قوله تعالى: {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ} [القصص: ٢٧]، أي أعوام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشرعاً: هو التعبد لله تعالى بأعمال وأقوال مخصوصة في زمن مخصوص من شخص مخصوص، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، ولقد اختلف السلف رحمهم الله في حكم تاركه عمداً مع القدرة والاستطاعة، فذهب ابن عباس وجماعة إلى كفر فاعل ذلك، الكفر الأكبر، واحتجوا بقوله تعالى:{ومن كفر فإن الله غني عن العالمين}، واحتجوا أيضاً بحديث ابن عمر في الصحيحين:"بني الإسلام على خمس" وما بني عليه الشيء لا يقوم البناء إلا به، وعليه فلا يقوم إسلام المرء إلا بما بني الإسلام عليه.

بينما ذهب عامة أهل العلم، إلى أن الكفر هنا هو الكفر الأصغر، قالوا لأنه لم يأت دليل صحيح في تكفير تارك الحج عمداً مع القدرة والاستطاعة،ولكن لاشك أن هذا الفعل من أكبر الكبائر، وفيه نوع استخفاف بالشرائع، وعدم تعظيم لحرمات الله وشعائره، مما يدل على ضعف بيّن في التقوى واليقين والإيمان.

والحج من أعظم شعائر الإسلام، التي جمع الله جل وعلا فيها، أنواعا من العبادات القولية والقلبية، والمالية والبدنية، وشعاره الأعظم الإهلال بالتوحيد: (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك).

واستدل المؤلف رحمه الله بقوله تعالى:{ولله على الناس}: أي لله حق واجب على الناس، فرضه الله جل وعلا، أن يقصدوا البيت الحرام حاجين.

واحتج بعض أهل العلم بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وأصولها؛ لأن الله جل و علا عمم القول هنا، فقال:{على الناس}، أي كلهم، فيشمل المؤمن والكافر، وهذه المسألة قد اختلف فيها الأصوليون، فمنهم من قال هم مخاطبون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالأصول دون الفروع، ومنهم من قال هم مخاطبون بالتوحيد ابتداءً فقط، فإن دخلوا في الإسلام، خوطبوا بباقي الشرائع، ويحتجون بحديث ابن عباس t في قصة معاذ t ، كما في الصحيحين عندما بعثه النبي r إلى اليمن وبحديث سهل في الصحيحين في بعث على بن أبي طالب إلى خيبر، وفيهما تقديم التوحيد في الخطاب الشرعي، ويمكن أن يقال: هم مخاطبون به سؤالا وعذابا، وغير مخاطبين به حالا وعملا؛ لأنهم ليسوا محلا لذلك، مع ثبوتهم على الكفر والشرك، ولعل هذا أقرب الأقوال عندي، والله أعلم.

وفي سياق الآية تذكير بأن الله تعالى، ما خلق الخلق عبثا، ولا تركهم سدى، بل خلقهم للأمر والنهي، وهي عبادة الله تعالى، ثم يبعثهم للحساب والجزاء على ذلك.

قوله:{ومن كفر}، الكفر لغة السَّتْرُ والتَّغْطِية، ومنه سُمِّيَ الْمُزَارِعُ كَافِرا؛ لأنه يَكْفُرُ الحَبَّةَ في الأرض، أي يُوارِيها ويَسْتُرها ويُغَطِّيهَا بالتراب.

جاء في (تاج العروس من جواهر القاموس):[(حتَّى إذا أَلْقَتْ يَداً في كافِرٍ ... وأَجَنَّ عَوراتِ الثُّغورِ ظَلامُها)، قال: ومن ذلك سُمِّيَ الكافِرُ كافراً لأنَّه سَتَرَ نِعَمَ الله.

الكافِرُ: الوادي العظيمُ. قيل الكافر: النَّهر الكبير.....الكافِر: السَّحاب المُظلِمُ لأنَّه يستُرُ ما تحتَه. الكافِر: الزَّارع لسَترِه البَذر بالتُّرابِ. والكُفَّارُ: الزَّرّاع وتقول العرب للزَّارع كافِرٌ لأنَّه يكْفُرُ البَذرَ المَبذور بتُرابِ الأَرضِ المُثارَة إذا أَمَرَّ عليها مالَقَهُ، ومنه قولُه تعالى: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّار نباتُه} أي أَعجبَ الزُّرَّاعَ نَباتُه.....]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمراد بالكفر هنا على الخلاف السابق إما أن يكون أكبر، أو أن يكون أصغر، والأصغر أكبر من كل الكبائر فيما دون الشرك والكفر؛ لأن الشارع سماه كفرا، وهذا مطرد فيما سُمِّيَ بذلك.

قوله تعالى:{فإن الله غني عن العالمين}: أي لا تنفعه طاعة الطائعين ولو كثرت، ولا تضره معصية العاصين ولو كثرت، فالنفع إلينا راجع والله عنّا وعن أعمالنا غني واسع جل الله في علاه، وهذه الآية دليل عظيم على التوحيد، بما تضمنته من معاني العبودية لله جل وعلا، فقد بينت أن الله هو المعبود الحق، وهو الذي يملك التصرف في عباده، فهو الذي يأمر ويفرض، وهو الذي ينهي ويحرم، وهو المطلع على عباده؛ فيعذر الصادقين ويعذب المنافقين، كما تضمنت غناه جل وعلا عن كل أحد وشيء، وتضمنت شدة احتياج عباده إليه، وفقرهم إليه تبارك وتعالى؛ وليعلم العباد أنهم إنما يفعلون ذلك لينفعوا أنفسهم ويُنجوها من العذاب والهلاك والعطب.

نفع العبادات إلينا عائد، والله غني حميد:

واعلم رحمك الله، أننا عندما نقوم بهذه العبادات، إنما نقوم بها إخلاصا وعبادة لله جل وعلا، وأما نفعها فإنما ننفع أنفسنا بها، فالعبادة لله والنفع لنا.

كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء:٧]، وقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت:٤٦]، وقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُرْجَعُونَ} [الجاثية:١٥]، وقوله:{مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [الروم:٤٤-٤٥].

وكما في الحديث الذي في صحيح مسلم من طريق أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:"يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ". قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا وقد حث الشارع الحكيم على هذه العبادة الجليلة، كما في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج:٢٧-٣٠].

وفي الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:"مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:"الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ".

وأخرج أحمد والنسائي والترمذي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله r:"تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلاَّ الجَنَّةُ". قال الترمذي: حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. قلت: وفي الباب غير ذلك من الأخبار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ:الإِيمَانُ: وَهُوَ:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ:كما في الحديث:"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ".وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة:١٧٧].ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:٤٩].

الشرح

قال المؤلف:(المرتبة الثانية:الإيمان): أي من مراتب الأصل الثاني، وهو معرفة دين الله جل وعلا بالأدلة.

الإيمان لغة: يطلق ويراد به عدة معان، ومنها التصديق، ومنه قوله تعالى:{وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين}. والإيمان من الألفاظ المنقولة، فإن الله تبارك وتعالى، قد نقل بعض الألفاظ من معانيها العرفية المتداولة بين العرب إلى المعاني الشرعية، فمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك الصلاة، فإنها في اللغة تطلق على معان ومن أظهرها الدعاء، فنقلت إلى الصلاة ذات الخضوع والخشوع، المتضمنة لجملة من الأقوال والأعمال والاعتقادات، مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

الألفاظ التي نقلها الشرع، والألفاظ المُتَقَوَّلَةُ على الشرع:

وإذا نقل الشارع معنى لغوياً عرفياً إلى معنى شرعي آخر؛ وجب حمل اللفظ على المعنى الشرعي، حيث ورد في الكتاب أو السنة، حتى تأتي قرينة تدل على أن المراد هو المعنى اللغوي العرفي، لا المعنى الشرعي الاصطلاحي، ومن ذلك الإيمان.

ولما غلط أقوام في معرفة هذا الأصل العظيم، فيما يتعلق بالألفاظ المنقولة في الشرع؛ ضل أقوام في معرفة الحقائق الشرعية الاصطلاحية لهذه الألفاظ المنقولة؛ ولهذا وُجَدَ من يقول إن الأيمان هو مجرد التصديق فقط، فمن صدق بقلبه كان مؤمناً، ولو لم يعمل عملاً قط؛ وهؤلاء قد وقعوا في ضلال مبين؛ لأنهم لم يعرفوا من الإيمان إلا المعنى اللغوي، وعلى هذا فكفار مكة مؤمنون، بل وإبليس كذلك، وفرعون، وغيرهم من صناديد الكفر والإجرام؛ لأن إبليس كان مصدقا، وكان يعلم علم اليقين أنه لا إله إلا الله.

وكذلك المشركون فإن غالبهم يعلم صدق الرسل، وقد ذكر الله تعالى ذلك عنهم، كما في قوله: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً} نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله تعالى: {واستيقنتها}، أوسع من قولك:(وأيقنتها)، وكما قيل: إن زيادة المَبْنَى تُفِيدُ زيادة في المعنى، ومع ذلك بَقُوا كُفَّارا، وهم حَطَبُ النار. نسأل الله العافية والسلامة.

ولا شك أن هذه الفرقة القائلة، بأن الإيمان هو التصديق فقط، وإن لم يعمل قط شيئا، **بالمعنى المتقدم**، أنها من أقبح الفرق ضلالا، وأخبثهم مقالا، وما هم من الفرق الناجية، بل هي فرقة مارقة عن الإسلام؛ لأن من شهد بالإيمان لمن حكم الله عليه بالكفر، وشهد عليه بذلك، هو مكذب لله جل وعلا، وهو رادٌ لشرع الله تعالى، ومحادٌ لدينه ورسله، وهذا كفر أكبر بإجماع المسلمين.

وممن ضل في باب الإيمان وقال بهذا القول الخبيث، الجهمية وغلاة المرجئة أيضاً: القائلون إن تارك جنس العمل لا يكفر، مهما عمل، فلو ارتكب جميع النواقض العملية، فهو مؤمن كامل الإيمان، بل هو كإيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام، فعند هؤلاء من لم يركع لله ركعة، ولم يسجد لله سجدة، ولم يقم بأي عمل من شعائر الإسلام الظاهرة، فهو مؤمن كامل الإيمان؛ لأنهم يعتقدون أن الإيمان هو التصديق،وقالوا إن التصديق كتلة واحدة وجملة لا تقبل التجزئة، ولا الزيادة ولا النقصان، فما هو إلا أن تصدق أو تكذب، وهذا مذهب الجهمية الذين كفرهم السلف.

وجاء في كتاب (السنة) للخلال:[أخبرني عبيد الله بن حنبل قال حدثني أبي حنبل بن إسحاق ابن حنبل قال قال الحميدي وأخبرت أن قوما يقولون إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت أو يصلي مسند ظهره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا إذا علم أن تركه ذلك في إيمانه إذا كان يقر الفروض واستقبال القبلة، فقلت: **هذا الكفر بالله الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وفعل المسلمين، قال الله جل وعز:{حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة}، قال حنبل: قال أبو عبد الله أو سمعته يقول: من قال هذا فقد كفر بالله، وَرَدَّ على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به]**.ا.هـ.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه (فتح الباري):[وكثير من علماء أهل الحديث يرى تكفير تارك الصلاة. وحكاه إسحاق بن راهويه إجماعا منهم، حتى إنه جعل قول من قال: لا يكفر بترك هذه الأركان مع الإقرار بها من أقوال المرجئة. وكذلك قال سفيان بن عيينه: المرجئة سموا ترك الفرائض ذنبا بمنزلة ركوب المحارم، وليسا سواء؛ لأن ركوب المحارم متعمدا من غير استحلال: معصية، وترك الفرائض من غير جهل ولا عذر: هو كفر. وبيان ذلك في أمر آدم وإبليس، وعلماء اليهود، الذين أقروا ببعث النبي r ولم يعملوا بشرائعه. وروي عن عطاء ونافع مولى ابن عمر أنهما سئلا عمن قال: الصلاة فريضة ولا أصلي، فقالا: هو كافر. وكذا قال الإمام أحمد.

ونقل حرب عن إسحاق قال: غلت المرجئة حتى صار من قولهم: إن قوما يقولون: من ترك الصلوات المكتوبات وصوم رمضان والزكاة والحج وعامة الفرائض من غير جحود لها لا نكفره، **يرجى أمره إلى الله بعد، إذ هو مقر**، فهؤلاء الذين لا شك فيهم - يعني في أنهم مرجئة. وظاهر هذا: أنه يكفر بترك هذه الفرائض]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب:(الشريعة) للآجري:[باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، لا يكون مؤمنا، إلا أن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث قال محمد بن الحسين: اعملوا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقا، ولا تجزيء معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال: كان مؤمنا دل على ذلك القرآن، والسنة، وقول علماء المسلمين]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَصْلٌ: الْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ غَلَطِ الْمُرْجِئَةِ: ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ الْإِيمَانِ لَيْسَ إلَّا التَّصْدِيقَ فَقَطْ دُونَ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ؛ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ جهمية الْمُرْجِئَةِ . الثَّالِثُ ظَنُّهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ يَكُونُ تَامًّا بِدُونِ شَيْءٍ مِنْ الْأَعْمَالِ وَلِهَذَا يَجْعَلُونَ الْأَعْمَالَ ثَمَرَةَ الْإِيمَانِ وَمُقْتَضَاهُ بِمَنْزِلَةِ السَّبَبِ مَعَ الْمُسَبِّبِ وَلَا يَجْعَلُونَهَا لَازِمَةً لَهُ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ إيمَانَ الْقَلْبِ التَّامِّ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ بِحَسَبِهِ لَا مَحَالَةَ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقُومَ بِالْقَلْبِ إيمَانٌ تَامٌّ بِدُونِ عَمَلٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلِهَذَا صَارُوا يُقَدِّرُونَ مَسَائِلَ يَمْتَنِعُ وُقُوعُهَا لِعَدَمِ تَحَقُّقِ الِارْتِبَاطِ الَّذِي بَيْنَ الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ مِثْلَ أَنْ يَقُولُوا: رَجُلٌ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْإِيمَانِ مِثْلَ مَا فِي قَلْبِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَهُوَ لَا يَسْجُدُ للهِ سَجْدَةً وَلَا يَصُومُ رَمَضَانَ وَيَزْنِي بِأُمِّهِ وَأُخْتِهِ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ نَهَارَ رَمَضَانَ ؛ يَقُولُونَ : هَذَا مُؤْمِنٌ تَامُّ الْإِيمَانِ فَيَبْقَى سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ . قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَيَّانَ حَدَّثَنَا مَعْقِلُ بْنُ عُبَيْدِ الله الْعَبْسِيُّ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا سَالِمٌ الْأَفْطَسُ بِالْإِرْجَاءِ فَنَفَرَ مِنْهُ أَصْحَابُنَا نُفُورًا شَدِيدًا مِنْهُمْ مَيْمُونُ بْنُ مهران وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ فَإِنَّهُ عَاهَدَ اللهَّ أَنْ لَا يُؤْوِيَهُ وَإِيَّاهُ سَقْفُ بَيْتٍ إِلَّا الْمَسْجِدُ]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله التستري عَنْ الْإِيمَانِ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَسُنَّةٌ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ].

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهَّ عَنْهُ فِي كِتَابِ "الْأُمِّ" فِي (بَابِ النِّيَّةِ فِي الصَّلَاةِ : يُحْتَجُّ بِأَنْ لَا تُجْزِئَ صَلَاةٌ إلَّا بِنِيَّةٍ بِحَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهَّ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ r "إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" ثُمَّ قَالَ: وَكَانَ الْإِجْمَاعُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ أَدْرَكْنَاهُمْ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ لَا يُجْزِئُ وَاحِدٌ مِنْ الثَّلَاثِ إلَّا بِالْآخَرِ]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[فَإِذَا كَانَ اللهَّ قَدْ كَرَّهَ إلَى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ الْمَعَاصِي وَهُوَ قَدْ حَبَّبَ إلَيْهِمْ الْإِيمَانَ الَّذِي يَقْتَضِي جَمِيعَ الطَّاعَاتِ إذَا لَمْ يُعَارِضْهُ ضِدٌّ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ ؛ فَإِنَّ الْمُرْجِئَةَ لَا تُنَازِعُ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ يَدْعُو إلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ وَيَقْتَضِي ذَلِكَ وَالطَّاعَةُ مِنْ ثَمَرَاتِهِ وَنَتَائِجِهِ لَكِنَّهَا تُنَازِعُ هَلْ يَسْتَلْزِمُ الطَّاعَةَ]ا.هـ.

وقال ابن القيم في نونيته عن الجهمية وكفرهم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون ... في عَشْرٍ من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـــــهم بل حكاه قبله الطبراني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي هذا العدد قد كفروا الجهمية، وسبب ظهور الإرجاء، هو التفريط في معرفة حقيقة الإيمان، في مقابلة الإفراط الذي جنح إليه الخوارج، لا كثرهم الله، فالخوارج فهموا الدين فهما قاصرا ناقصا؛ لأنهم لم يعملوا على جمع النصوص، بغية استخلاص الحق وإصابته، بل عملوا على اتباع الهوى، وهذا حال كل من اعتقد، ثم ذهب يبحث في الأدلة، ما يؤيد به فهمه، ويعرض عما سواه، والعياذ بالله، فالخوارج لما عبدوا الله بالخوف فقط؛ غلب على أحكامهم الغلظة وتضييق رحمة الله عز وجل، حتى صار الواحد منهم لا يتصور أن تسع رحمة الله تعالى عصاة المسلمين؛ فحكموا عليهم بالكفر الأكبر، بذنوب لا تبلغ حد الشرك أو الكفر الأكبر؛ فخرجوا على الناس بأسيافهم، كما وصفهم النبي r :"يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، وبين أن سيماهم التحليق، أي إنهم يكثر فيهم ذلك، وأبوهم هو ذو الخويصرة، الذي ظن أن النبي r لم يعدل في قسمته، وأنه حَابَى أقواما، هكذا كان أبوهم ناقص العقل قاصر النظرة؛ فورثوا عنه ذلك، والخبر مخرج في الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ t قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله r وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله اعْدِلْ فَقَالَ:"وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ" فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ:"دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ" قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ الله r وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ r الَّذِي نَعَتَهُ.

دم المؤمن عند الله عظيم، أعظم من حرمة الكعبة:

وحكم الخوارج على أصحاب الكبائر بالكفر في الدنيا والخلود في النار يوم القيامة، وتبعهم المعتزلة في أحكام الآخرة، وخالفوهم في أحكام الدنيا، فقالوا هم في الدنيا في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وهكذا أهل البدع أعاذنا الله وإياكم منهم، ومن خَطَلِهم، يأتون بكلام أشبه ما يكون بالهذيان.

وكان نتيجة هذا الهوى، والافتئات على سبيل المؤمنين؛ أن كفروا الصحابة، وخرجوا يقاتلون الناس بأسيافهم، فسفكوا الدم الحرام.

واعلم رحمك الله أن دم المسلم عند الله عظيم، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣]، وقوله: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة:٣٢].

ولهذا قال النبي r ، - في إشارة واضحة لخطورة التكفير بغير وجه حق، والتحذير من التكفير على غير سبيل المؤمنين، وما يؤول إليه مَنْ هذه حَالُه مِنْ سَفْكٍ للدماء المعصومة بغير حق -، ما جاء في الصحيحين عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلاَمِ كَاذِبًا فَهْوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، **وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهْوَ كَقَتْلِهِ**".

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله r :"لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ r :"أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ"

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ثَلاَثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود، t ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله r :"لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ".

وفي مصنف عبد الرزاق عن بن جريج قال أخبرني عبد الله بن عثمان أن سعيد بن ميناء أخبره، قال: إني لأطوف بالبيت مع عبد الله بن عمرو، بعد حريق البيت، إذ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال:(أي سعيد أعظمتم ما صنع البيت)، قال قلت: وما أعظم منه؟، قال:(**دم المسلم يسفك بغير حقه**). قلت وسنده لا بأس به، والأحاديث في هذا الباب كثيرة غفيرة.

وجاء في تفسير القرطبي:[وقال مطرف بن عبدالله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية. وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها فما في العالم جنة أرجى منها؛ إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت:{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} بكى ثم قال: **يا خلف ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له.**

كيف ضل القوم:

ولتعلم عظيم الورطة تأمل في هذه النصوص التي أغفلتها كل من هاتين الطائفتين (المعتزلة والخوارج)، قال تعالى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:٩-١٠]، وقوله:{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:٢٤٩]، وقوله: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}[الإنسان:٢٤]، فَفَرَّقَ بين الآثم والكفور.

ومن السنة: عَنْ أَبِي ذَرٍّ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ". وفي صحيح مسلم عن جابر أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ r فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنَعَةٍ - قَالَ حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ r لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلأَنْصَارِ فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ r إِلَى الْمَدِينَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ فَمَرِضَ فَجَزِعَ فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ فَقَالَ غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ r فَقَالَ مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ قَالَ قِيلَ لِي لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ.فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ r . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ".

وكذلك أحاديث الشفاعة في أصحاب المعاصي، وهناك آيات وأحاديث أخرى غير ذلك، دالة على هذا المعنى، وهذا أمر مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة، ولكن الخوارج والمعتزلة لما ضاق عطنهم، وسئموا أن يفهموا الدين على فهم الصحابة y، وظنوا بأنفسهم غَيْرَةً أعلى، وطريقة أهدى وأعدل، مما كان عليه الصحابة y؛ ضلوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأضلوا، وأخذوا يجادلون بآيات وأحاديث، ويهملون النصوص الأخرى المقيدة والمبينة والمفصلة، وكأن الصحابة y ما علموا هذه الأدلة التي يحتجون بها، ولكن البدعة إذا أشربت في القلوب؛ تفعل أعظم من ذلك والعياذ بالله، أما علم هؤلاء أن الصحابة هم الذين نقلوا لهم هذه الأخبار؟!، فيا سبحان الله!!.

ولئن كان زنادقة الصوفية يقول الواحد منهم: **حدثني قلبي عن ربي**، تعاليا على الشريعة وسبيل المؤمنين، فإن هناك أقواما اعْتَدُّوا بعقولهم وفُهُومِهِم، طارحين فهم الصحابة والسلف، وربما انتسبوا إلى الحديث والأثر، أوشك أحدهم أن يقول:

حدثني فهمي عن عقلي.

ومما احتجوا به أيضا ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ"، ولم يجمعوا بينه وبين حديث أبي ذر t المتقدم؛ ليعلموا ما هو الإيمان المنفي هنا، وأن المراد نفي الكمال الواجب، لا نفي أصل الإيمان؛ لأن الفعل ليس مكفرا، إذ لم يسمه الله تعالى ولا رسوله r كفرا ولا شركا.

ومنها ما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"، وتركوا العمل بالآية المتقدمة، ليعلموا أن الكفر هنا هو الأصغر وليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأكبر، وعلى هذا المنوال انطلقوا يؤسسون هذه العقيدة الفاسدة الخربة، وهكذا يكون حال كل من تَنَكَّبَ سبيل الصحابة وشَاقَّهُم، عياذا بالله من الضلال والخذلان.

وفي مقابلة هذا الجفاء والغلظة من الخوارج والمعتزلة، شذت المرجئة في الطرف الآخر، كردة فعل لمعتقد الخوارج والمعتزلة، فجاءوا بمعتقد أخبث منهم، فأخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان، فالخوارج أخرجوا من الإسلام من هم منه،والمرجئة أبقوا في الإسلام من ليس منه، وكلا قصدي طرف الأمور ذميم.

وتكررت نفس مصيبة الخوارج والمعتزلة، مع المرجئة وأذنابهم، فضربوا الأخبار بعضها ببعض؛ فاعتقدوا ثم استدلوا،فردوا ما يخالف هواهم، وقبلوا ما يؤيد بدعتهم وضلالهم، وكان الواجب عليهم أن يجمعوا بين الأخبار، لا أن يعارضوا ببعضها ببعض، فالكل قد خرج من مشكاة واحدة، وإنما هو الحق الذي لا تعارض فيه أبدا، وهو الحكم العدل الذي لا هوى معه، كما قال تعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء:٨٢]، وقال سبحانه وتعالى:{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} [الطارق:١٣-١٤].

فاحتجت المرجئة بالآيات التي فيها عطف العمل على الإيمان، وقالوا: العطف يقتضي المغايرة، فأخرجوا العمل من مسمى الإيمان، كما في قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٨٢]، وقوله:{وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٩]، وقوله:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف:٤٢]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم:٩٦]، ومن هذه الآيات أيضا قوله تعالى:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:٥٥]، وقوله:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٢-٤]، وقوله:{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [النمل:١ - ٣]، وقوله:{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣١-٣٢]، وقوله:{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} [مريم:٥٩-٦٠]، وقوله:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت:٦-٨]، وقوله:{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدثر:٣٨-٤٧].

ومثل هذا كثير جدا في القرآن، في أكثر من خمسين موضعا، يعطف الله تعالى العمل الصالح على الإيمان، فلم يلتفت المرجئة إلى أن الواو أيضا من أخص معانيها المعية والاشتراك، ولكن لغلبة الهوى أخذوا ببعض الدلالات وتركوا أكثرها، وكان الواجب عليهم أن يجمعوا النصوص؛ ليفهموا ما هو معنى الواو العاطفة في مثل هذه الآيات، وإليك جملة من النصوص التي تؤكد أن العمل داخل في مسمى الإيمان، بل هو لازم من لوازمه، فلا يتصور وجود الإيمان بلا عمل، كما أنه لا يتصور وجود شجرة بلا جُذُور، وهذه المعاني التي تضمنتها النصوص وأجمع عليها أهل السنة، أهملها المرجئة إمعانا في الهوى، واتباعا للشيطان، وانتصارا للرأي الفاسد، والعياذ بالله.

وقد عرف النبي r الإيمان بأعمال الجوارح، كما في الصحيحين من طريق أَبِي جَمْرَةَ قَالَ كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا النَّبِيَّ r فَقَالَ:"مَنْ الْوَفْدُ" أَوْ "مَنْ الْقَوْمُ" قَالُوا رَبِيعَةُ، فَقَالَ:"مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى"، قَالُوا إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ قَالَ:"**هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْمَغْنَمِ وَنَهَاهُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ".

وفي صحيح مسلم عن جَابِر **t** قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ **r** يَقُولُ:"إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ".

وفي مسند أحمد وسنن النسائي والترمذي وابن ماجة من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله **r** :"العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر" قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي مسند أحمد وعبد بن حميد وسنن الدارمي بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ **r** أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ:"مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ".

فهذه الأدلة وغيرها دالة على أن العمل لازم من لوازم الإيمان، لا ينفك عنه أبدا، إلا أن يصبح العبد كافرا بالله تعالى.

وانقسمت المرجئة إلى أقسام:

النوع الأول: من جعل الأعمال مجرد ثمرة الإيمان، إن وجدت فحسن، وإن لم توجد فلا أثر لها على حقيقة الإيمان، وشبهوا ذلك بالشجرة المثمرة وغير المثمرة، فقالوا إذا انعدم ثمرها فما زالت هي الشجرة، وإن وجد ثمرها فما زالت هي الشجرة، فلم ينتفِ اسم الشجرة عنها لانعدام ثمرها، وإنما ازدانت به وحسنت، ولم تتغير حقيقة كونها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شجرة، وهكذا الإيمان عندهم لا يتأثر من جهة أصله، وجودا وعدما بالأعمال، فلا كفر بعمل إلا إن اعتقد أو استحل، ومؤدى قولهم، ولازمه، أن يكون ذلك تصريحاً بلسانه، فليس عندهم شيء اسمه الاستحلال العملي، وهؤلاء من أخبث الطوائف، الموجودة اليوم،وهم الأكثر تلبيساً في الأمة لا كثرهم الله.

وقريب من هؤلاء وأخطر **النوع الثاني**، الذين يلبسون لباس السلف، ويتحذلقون؛ ليوجدوا سبيلا بين المرجئة وأهل السنة، فيقولون: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، ولكنهم يجعلون العمل في الإيمان شرط كمال واجب، أو مستحب، لا شرط صحة، ويزداد المصاب عندما ينسبون ذلك إلى السلف زورا وبهتانا، وهؤلاء حَقِيقَةُ قولهم، أنه لا كفر بالأعمال أصلا، بل بالقلب فقط، أو كما تقدم الاستحلال الصريح باللسان، ونحو ذلك، ولاشك أنهم بهذا القول هم من غلاة الجهمية والمرجئة.

المرجئة أخبث من الخوارج:

واعلم أن أهل السنة يرون أن المرجئة، أخبث وأضل سبيلا، وأشد ضررا على الأمة من الخوارج– ومن أسمائهم الأزارقة، والحرورية- والمعتزلة، وإليك ما قاله ابن تيمية فيما نقله عن السلف في ذلك، كما في مجموع الفتاوى:[فلهذا عظم القول في ذم الإرجاء، حتى قال إبراهيم النخعي:لفتنتهم ـ يعنى المرجئة ـ أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة. وقال الزهري: ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء. وقال الأوزاعي: كان يحيي بن أبي كثير وقتادة يقولان: ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء. وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال:هم أخبث قوم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَسْبُك بالرافضة خُبثا، ولكن المرجئة يَكْذِبُونَ على الله. وقال سفيان الثوري: تَرَكَت المرجئة الإسلام أَرَقَّ مِن ثَوب سَابري. وقال قتادة: إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة ابن الأشعث].ا.هـ.

وانتبه ولا تغتر فإن في هذه الفرقة الضالة المنحرفة، شيوخا وعلماء، والأمر كما قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء:[قلت:غلاة المعتزلة، وغلاة الشيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم **أذكياء، وعباد، وعلماء**]ا.هـ.

وهنا تعظم الورطة، وتشتد المصيبة، ويتأكد علينا التحقق، بمذهب السلف، والاستمساك به؛ لتكون النجاة بإذن الله تعالى.

كلام أمتعني حروفه ومعانيه:

وقد أمتعني كلام لأحد الباحثين، أنقل منه جملا بحروفها:[فالمتأمل في كتابات المعاصرين من الإسلاميين يحسب أن فرق الضلالة التي حذر منها المصطفى r قد اختفت من الساحة ولم يبقى منها إلا فرقة الخوارج، فهذه الفرقة تمثل الشغل الشاغل للجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربها، وكأن الأرض عندهم قد طُهّرت من الكفر والردة والزندقة العلمانية ولم يبق فيها إلا ضلال الخوارج! وكأن خوارج اليوم ألوف مُؤَلَّفَة، وجنود مجندة، تستعد للانقضاض على الخلافة الراشدة التي ينعم تحت ظلها أهل الإسلام !.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخوارج في زماننا، لمن عرفهم، شرذمة متفرقة محدودة التأثير بالمقارنة مع بقية الفرق الضالة، يرون أن الأصل في الناس اليوم هو الكفر ويتوقفون أو يكفرون من يُظهر الإسلام ولا يَظهر عليه ناقض من نواقضه، مع فظاظة وغلظة في الطبع وكبر يذكر بسلفهم من أهل النهروان، فكم عدد هؤلاء على الساحة الإسلامية اليوم وكم نسبة ضحاياهم مقابل ضحايا العلمانيين وأنصار الصليبيين الذين لا يكادون يذكرون بسوء؟.

أمّا تهمة الخارجية، فهي تهمة قديمة تلاحق أهل السنة و التوحيد في كل زمان ومكان و لم يسلم منها الإمام أحمد ولا ابن تيمية و لا ابن عبد الوهاب ولا كل من سار على منهجهم واتبع طريقتهم واقتدى بإبراهيم عليه السلام ومن معه في البراءة من الشرك والمشركين. وأهل الباطل من كفرة مرتدين ورهبان ضالين يجدون في أحاديث الرسول r عن الخوارج مطية لصد الناس عن كل دعوة إصلاحية بتهمة الحرورية، جاهلين أو متجاهلين أن سبب تعدد ذكرهم في الأحاديث الصحيحة ليس لأن خطرهم بهذه الدرجة التي يصورها المبطلون، إنما هو لأنها أول فرقة ظهرت في من ينتسب للإسلام، فسن بها r سنة التعامل مع غيرها من فرق الضلالة. وقد زامنها وجاء من بعدها من الفرق ما يفوق ضلالها أضعافا مضاعفة بل ويخرجها من الملة بالكلية، ورغم ذلك لم يأت فيها أي حديث صحيح. فهذه السبئية قد زامنت ظهور الخوارج وفرخت الرفض والباطنية اللذان يجران على المسلمين إلى اليوم أشد الويلات بسبب دولهم التي رعت هذا الإلحاد على امتداد العصور المتأخرة. وقل مثل ذلك عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بدعة القدر التي أدركها صغار الصحابة وكفروا مبتدعيها، وبدعة التجهم التي صارت تعصف بالأمة في الإيمان والتوحيد ولم يسلم منها إلا من رحم الله، بلوغا إلى بدعة التصوف التي أفرزت بدع الطرقية و شركيات القبورية. فهل الخوارج أضل من هؤلاء؟.....إلى أن قال:

أما المرجئة المعاصرون، أدعياء السلفية، فهم من شر طوائف البدع المنتسبة إلى الإسلام، وخطرهم أشد من خطر غيرهم؛ لأنهم ينسبون بدعتهم إلى السلف الصالح، ويزعمون اتباع الأثر والحديث، ويشتغلون بنشر تصانيف السلف النافعة، فيدسون فيها سمهم الزعاف، ويصدون عن مذهب السلف بأقوال السلف أنفسهم في التحذير من أهل البدع من أمثالهم، فتلبس حالهم على الكثير من الناس، والله المستعان.

يقولون بقول السلف في تسمية الإيمان، و يشرحونه بتعريف مرجئة الفقهاء، ويتخبطون في مسألة الكفر على أقوال: فمنهم من لا يرى الكفر بالقول و العمل إطلاقا، وينكر التكفير بالمكفرات المجمع على التكفير بها، ومنهم من يرى أنها دليل على الكفر، ومنهم من ينتقي من المكفرات، فيرى أن بعضها مخرج من الملة والبعض الآخر غير مخرج، مجاراة لهوى الطواغيت المشرعين مع الله سبحانه! فالتشريع واستحلال المحرمات القطعية والتحاكم إلى طواغيت الشرق والغرب والمظاهرة الصريحة للكفار في قتال المسلمين عندهم كفر دون كفر، وهم في المقابل يتشددون في شركيات العوام، وبعضهم لا يعذرهم بعذر إطلاقا، بل ويعتبرهم كفارا أصليين!، وقد أضافوا إلى هذا شناعات أخرى مثل تكفير الدعاة بمحض التوحيد والجهاد، واستحلال دمائهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحريض الطواغيت عليهم، وتأثيم نواياهم، والحكم على خواتيمهم عند الله سبحانه، رغم أنهم لا يعتدّون بالحكم على الظواهر في تكفير المرتدين، و يحرمون دماء المشركين من غير ذمة ولا عهد صحيح!.

وأحمق من رأيت منهم دَعِيٌّ عِلْمٍ زَنِيم، يعتبر جملة من أعيان مشايخ التوحيد المعاصرين طواغيتا؛ لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله - على حد زعمه - ، ويقصد بذلك الخلافات العلمية، بينما يرى أن تشريع وتحكيم القوانين الوضعية الطاغوتية كفر دون كفر! فأيّ ضلال فوق هذا الضلال؟.

وقد أحدث هؤلاء الجهمية، ضوابطا وشروطا للتكفير، لا يقوم عليها دليل، ولم يسبقهم إليها عالم معتبر، كاشتراط قصد الكفر لتكفير من جاء بالكفر مختارا، والامتناع من تكفير الأعيان، والاقتصار على تجريم الفعل والتكفير العام دون الفاعل، أو تعليق حكم التكفير على شيخ أو شيخين دون غيرهم من علماء الأمة، فعطلوا بذلك حكم الردة وتوابعه، من أحكام فقهية، وولاء وبراء، وهجرة وجهاد، وفتحوا الأبواب للزنادقة للتحكم في رقاب المسلمين، فكانت بذلك الفتنة والفساد الكبير الذي توعد الله به من ترك معاداة أهل الكفر ومناصرة أهل الإسلام]ا.هـ.

بيان بعض مخاطر الإرجاء على أمة الإسلام لاسيما في واقعنا المعاصر:

١- التصور الخاطىء لحقائق الإيمان، وهذا من أخطر ما يكون إذ به تكون النجاة، فكيف بعبد يقدم على الله تعالى يوم القيامة، بإيمان لا يعرفه رسول الله r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- التلاعب بعقيدة الولاء والبراء، وإحلال المجاملات عوضا عنها، إذ المعاصي لا تؤثر على الإيمان؛ وبالتالي فهي لن تؤثر على الحب والبغض.

٣- تسهيل وتبرير مولاة الطواغيت، إذ الردة عند المرجئة متعذرة، والطاعة للسلاطين واجبة، مهما كان، ومهما فعل، طالما أنه ينطق بالشهادتين، بل بعضهم يرى أن الطاعة واجبة للكافر الأصلي إذا تغلب.

٤- انتشار الفواحش والمنكرات، بسبب زعمهم عدم مضرتها بالإيمان، فيجترئ العباد عليها أكثر وأكثر.

٥- التزهيد في عمل الطاعات؛ إذ إيمان أعبد الناس كإيمان أفسق الناس، فعلام التعب إذن!!.

٦- التزهيد في التوبة والاستغفار، إذ كلمة التوحيد كافية، وإن أذنب ولم يستغفر، وإن فعل ما فعل.

٧- تعظيم الدنيا وتهميش الآخرة، إذ لا شيء سيضرك في دينك؛ وتبعا لذلك في آخرتك، فأنت على خير على كل حال، فمهما أتيت من المعاصي والآثام، فإنك ناج، فإنما الإيمان في القلب.

٨- تدجين الأمة لأعدائها بتهميش فريضة الجهاد في سبيل الله، بل ومعادة أهلها.

٩- إضعاف الغير على دين الله تعالى، وعلى الإحساس بالمنكرات.

ثم أقول: بينما ذهب أهل السنة والجماعة، إلى أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، يزيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى يبلغ ذروته، وينقص حتى يذهب ويتلاشى، ونقصانه بحسب نوع المعصية، فإن كانت مكفرة ذهبت به بالكلية، وإلا ذهب بكماله الواجب.

عقيدة السلف في مرتكب الكبيرة من أهل القبلة:

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن مرتكب الكبيرة مما هي دون الشرك أو الكفر، تحت المشيئة الإلهية، فهو معرض للوعيد، ولكن لو شاء الله غفر له، وإنه إن مات على التوحيد، إن قدر عليه العذاب، فإنه يعذب ما شاء الله له، ثم مآله ولابد إلى الجنة، فينفعه التوحيد يوماً من الدهر،وهو يقطعون كذلك بأن هناك من المسلمين من سيدخل النار قطعا، ثم يخرجون منها، على ما دلت عليه النصوص، خلافا للمرجئة الواقفة، ويقولون أيضاً بالعذر بالجهل والتأويل المعتبر،، كما تقدم، ويحكمون على النوع بالكفر أو الشرك فيما حكم الله جل وعلا أو رسوله r عليه بذلك، ولا ينزلون الحكم على الأعيان حتى تنتفي الموانع وتتوفر الشروط، فهم يشترطون إقامة الحجة وبلوغ المَحَجَّة وفهم الحجة أيضاً، اعتماداً على ما جاء في الكتاب والسنة، على فهم سلف الأمة، فمنها قوله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً}، فهذه جملة شرطية و لا يتحقق جواب الشرط إلا بتحقيق فعل الشرط والعكس كذلك، وجملة:{من بعد ما تبين لهم الهدى} جملة اعتراضية واقعة بين فعل الشرط وجوابه، تدل على عدم حصول فعل الشرط إلا بهذا القيد، فلا ينفذ الوعيد إلا بعد أن يتبين له الهدى، فالذين يُكَفرون المسلمين دون إقامة الحجة عليهم، ويكتفون بالعهد السابق الذي ذكره الله في سورة الأعراف في قوله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم .... الآية}، بل وبعضهم يكتفي بمجرد وجود القرآن، وإن لم يكن المسلم قارئاً له، وإن لم يكن فاهماً لمراد الله جل وعلا فيه، وهذا كله مخالفة محضة لما كان عليه الصحابة والسلف، ولي بحث لعله أن يخرج قريبا إن شاء الله تعالى في كتاب، فيه الأدلة والإجماعات المتقررة في هذا الأصل العظيم.

والحاصل أن السلف ما كانوا ينزلون الحكم على أعيان المسلمين، الذين تلبسوا بمكفر، حتى تقوم عليهم حجة الله عز وجل، فمن أصر وعاند بعد بيان الحق؛ فقد كفر بعينه، فأهل السنة لا يمنعون من تكفير المعين، كما يظن البعض ظلماً منهم وعدواناً على أهل السنة الجماعة، بل أهل السنة والجماعة يحكمون بالكفر على النوع، وينزلون هذا الكفر على العين، ولكن بشرط إقامة الحجة، وبيان الحق بدليله، بما تنتفي معه الشبه، والتأويل والجهل المعتبر، خلافاً لما عليه البعض.

وإن الواقع اليوم لينبئ أن هناك خللا واضحا جليا في عامة الشعوب والمجتمعات الإسلامية، في فهم حقائق هذا الدين، إلى حد وصل فيه العبد أن يصلي ويصوم، وفي نفس الوقت يطوف حول الأضرحة، ويحكم بالطاغوت، وينذر ويذبح لغير الله، والمخرج الحقيقي هو في تعليمهم ورفع الجهل عنهم؛ لكي تستبين سبيل المؤمنين من سبيل المجرمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإرجاء الفقهي وخطورته:

النوع الثالث من المرجئة: هم الذين اتفقوا مع أهل السنة والجماعة في إدخال الأعمال في مسمى الإيمان، وأن العبد إذا ترك جنس العمل، وارتكب ما ينقض إسلامه، أنه يكفر بذلك، ولكنهم قالوا: لم يكفر لذات العمل، وإنما لأن هذا العمل صار قرينة على ما قام في قلب صاحبه من الجحود وعدم اليقين أو الاستحلال ونحو ذلك، فجعلوا الأعمال مجرد قرائن، تدل على ما في القلوب.

بينما قال أهل السنة والجماعة، بل العمل المكفر في ذاته يَكْفُر به صاحبه، سواء استحل أو لم يستحل، وسواء أيقن أو جحد؛ لأن الاستحلال والتكذيب والشك والجحود كل واحدة من هذه الأمور كفر مستقل.

وهذا النوع من الإرجاء، سماه العلماء **(الإرجاء الفقهي)**، **وسُمِّيَ أهْلُه بـ(مرجئة الفقهاء)**، وهو قول حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة النعمان، و قد ذهب بعض أهل العلم، إلى إن الخلاف بينهم وبين أهل السنة والجماعة خلاف لفظي؛ لأنهم يُكَفرون بترك العمل وفعل النواقض، ولكنهم اختلفوا مع أهل السنة والجماعة، في هل هذا العمل هو سبب الكفر، أم أنه قرينة على ما قام في القلب من الكفر، وفي هذا القول نظر فإن الخلاف حقيقي لا لفظي، فإن مرجئة الفقهاء بهذا الاعتبار يُكَفِّرُون بالمعتقد فقط، ويجعلون العمل قرينة عليه، بينما أهل السنة والجماعة يُكَفرون بالعمل المجرد، بغض النظر عن المعتقد، فكيف يكون الخلاف لفظيا؟!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التكفير حكم شرعي لا يجوز التنكر له

واعلم رحمك الله، أن التكفير حكم شرعي كغيره من الأحكام الشرعية، لا يجوز بحال من الأحوال التنكر له ولا السعي في التلبيس على الناس فيه، ولا تهميشه، فضلا عن إلغائه، ولو بدعوى ما وقع من بعض الطوائف من الانحراف في مسألة التكفير، خاصة في التنزيل على الأعيان، فلا يجوز أبدا التعامل بردود الأفعال، بل لا بد من العدل والإنصاف، فنثبت التكفير الصحيح المنضبط، ونرد التكفير الجائر المنحرف، وإلى هذا المعنى أشار النبي r ، كما في الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا"، وفي لفظ:"أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ".

وتأمل في قوله r :"إذا كَفَّرَ الرَّجُلُ أخاه"، وفي قوله:"إن كان كما قال"؛ لتفهم أن النبي r أثبت أصل التكفير، وأن المقصود به هنا، تكفير من الأصل فيه الإسلام، فالأصل أنه أخ لنا، ثم بين r أن من كفر بغير مكفر، أو من لم يستحق التكفير، فإنها ترجع عليه، وهذا زجر ووعيد شديد عن التكفير غير المنضبط بضوابط الكتاب والسنة على فهم السلف، وفي نفس الوقت هو دال على أنه إن كان كما نقول؛ فإن هذا من الدين، أي تكفير من كفره الله ورسوله من الدين، ولا نتنكر لذلك أبدا، ولكن بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، فيما يتعلق بتنزيل ذلك على الأعيان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقد كفر السلف أقوالا وأعمالا، حتى عقد العلماء بابا خاصا في كتب العقائد، وهو الباب الذي يتكلم عن نواقض الإسلام، وعقدوا بابا خاصا في كتب الفقه، فيما يتعلق بأحكام المرتدين عن الإسلام. فتنبه وتأمل، حتى لا تقع في قول المرجئة، ولا تجنح إلى قول الخوارج.

أسباب وُقُوع فتنة الإرجاء:

واعلم رحمك الله، أن أصل الإرجاء كان بسبب أربعة أمور هامة، عليها مداره وأُسُّهُ وأَسَاسُه، ألا وهي:

أولا: معارضة لقول الخوارج، وكما تقدم كان ذلك، كردة فعل لقول الخوارج الخبيث.

ثانيا: الفرار من فتنة السلطان، وبطشه، وقهره.

ثالثا: الطمع في عطايا السلاطين وتسهيلاتهم، وطلب جاههم، وتولي الأعمال لهم.

رابعا: الخوف من سفك الدماء وضياع الأموال وزعزعة الأمن.

ثم إنهم أتوا بها، عمياء بكماء صماء، فتكلموا في هذه الأمور الثلاثة على سبيل التعميم والإطلاق، حتى إنهم لا يكادون يرون أن أحدا يكفر بعد النطق بالشهادتين، وحتى جَرَّمُوا وحَرَّمُوا الخروج على الحاكم وإن أتى كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان، وكانت هناك شوكة ضاربة، بل ورأوا وجوب الطاعة له ولو كان كافرا أصليا إذا تغلب، بل وبعضهم يكاد يقولها بلسان مقاله بعد أن دل عليها لسان حاله، أن مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موانع التكفير أن تكون حاكما، فعندهم الحاكم لا يكفر أبدا!!، وحتى إنهم قدموا المحافظة على الدماء والأموال والأمن على المحافظة على توحيد الله تعالى ودينه وشرعه، والله تعالى يقول:{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:١٩١]، ويقول:{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧]، والفتنة هنا هي الشرك بالله تعالى.

احذر من مشابهة الخوارج:

واعلم رحمك الله، أن العبد قد يقع في مشابهة الخوارج من حيث لا يشعر، وإن كان قد خالف الخوارج في كونه يكفر بمكفر شرعي، وذلك من ثلاثة أوجه:

١- تكفير من لا يستحق التكفير.

٢- عدم فهم الدين على فهم النبي r وأصحابه.

٣- الاعتقاد ثم الاستدلال.

فإن هذه المسائل الثلاث كانت السبب الأساسي والرئيس في جنوح الخوارج، إلى الوقوع في هذا القول الفاسد في شرع الله تعالى، والتعصب لذلك؛ حتى خرجوا على المسلمين بأسيافهم.

مثال ذلك، الذين لا يفرقون بين النوع والعين في مسألة إنفاذ الوعيد، أو ما يعرف بتكفير المعين من المسلمين، الذين تلبسوا ببعض النواقض - واحد أو أكثر – فإنك ترى بعض العاملين في الساحة الدعوية، وربما يكون من بعض العلماء، أو من بعض طلبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلم، يقع في مثل هذا المأزق الخطير، الذي يؤول إلى تكفير من لا يستحق التكفير من المسلمين.

بل ويزداد الأمر خطورة عندما يجنح هؤلاء، إلى التعصب لرأيهم الفاسد، ويرمون المخالفين لهم بالتجهم والإرجاء، بل لربما عمد بعضهم إلى تكفير من يخالفه في قوله الفاسد.

مسألة العذر بالجهل والتأويل المعتبر في الأصول والفروع لأهل القبلة

واعلم أن هذا الأمر، لا يقل خطورة على المسلمين، عن غيرهم من أصحاب الأهواء؛ وذلك لصدوره في بعض الأحيان، ممن ترفع إليهم الأبصار، ويَحْسُنُ الظَّنُّ بهم، وقد يكونون أهلا لذلك، ولكنها زَلَّةُ العَالِم، التي قَدْ تكون زَلَّة لِعَالَم.

وليس بخاف، ما أحدثته هذا المسألة من الشرخ الكبير، والفتنة في صفوف العاملين في الساحة الدعوية، فكانت وبالا ورِزْءً على الإسلام وأهله، بل تعدى الأمر ذلك، واستفحل، عندما ظهرت آثار ذلك على الساحة الجهادية، عندما يختلف المجاهدون في سبيل الله؛ فيقع التنازع؛ ويحصل الفشل؛ وتذهب الريح، والله تعالى يقول: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦].

وليس معنى ذلك، إغلاق باب التكفير، حتى يصبح الدين ألعوبة في أيدي الزنادقة، وأهل التلون في الدين، المتلاعبين بشرع رب العالمين، ولكن علينا أن نثبت ما أثبته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشارع، وأن ننفي ما نفاه ، ونقيد ما قيده، لنصيب الحق والعدل والإنصاف، الذي ابتلينا بإصابته والقول به والعمل، فالعواطف، والتصورات الخاصة، والاعتقادات المسبقة، والفُهُوم المغلوطة للمسائل الشرعية، لا محل لها عند القيام لله تعالى، للتفكر؛ بغية إصابة الحق؛ للعمل به.

أسباب الانحراف في هذه المسألة الكبيرة الخطيرة

ويمكن تلخيص أسباب الانحراف في هذه المسألة في نقاط:

١ - عدم النظر في المسألة من أصولها من كلام السلف ابتداء، وذلك أن البعض يكتفي ببعض كتابات المعاصرين، أو أقوال بعض الخلف، ممن عَظُمُوا في نفسه؛ فقلدهم، وظن الحق في قولهم، فتعصب، واستمسك بهذا القول، وليس هذا اتهاما لمن أخذ عنهم هذه المسألة، ولكن العبد إذا وجد من أهل العلم، الذين لا يُتَّهَمُونَ في دينهم ببدعة، ولا مداهنة للسلاطين، ولا دخول عليهم، وليست له هِمَّةٌ سوى إصابة الحق، والدعوة إلى منهج السلف، فهم شركاء أصليون له، في أصل وأسِّ دعوته، أقول: إذا وجد العبد من يخالفه من أمثال هؤلاء، تعين عليه، أن يرد المسألة إلى أصولها الكبار، وأن يحاول جاهدا، أن يصيب قول الصحابة **y** ، والسلف في هذه المسألة؛ ليخلص إلى الحق الصافي، والقول الفصل في هذه المسألة أو تلك، فإن الله تعالى أمرنا أن نرد إلى أصحاب النبي **r** ، في أعظم القضايا، ألا وهي قضية الإيمان، وفي مقابلة الإيمان الكفر، فالصحابة إذاً، علموا ما هو الإيمان، وما هو الكفر، وتعاملوا مع المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، والمرتدين، ولهم في ذلك سبيل واضحة، أحال الله تعالى عليها في كتابه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلابد من البحث عنها؛ لسلوكها، واتباعها، غير عابئين بآرائنا، ولا بما كنا نعتقده من قبل، ولا بما قال به بعض من نعظمهم، دعوة وعلما وجهادا.

قال تعالى في إيمان الصحابة: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} [البقرة:١٣٧-١٣٩]، وقال في سبيلهم: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[النساء:١١٥]، ثم قال في ضرورة اتباعهم بإحسان: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١٠٠].

٢- عدم جمع الأدلة والتوفيق بينها والتأليف، على هدي وطريقة السلف، في هذه المسألة، فإن الحق لا يتعارض ولا يختلف، ولهذا كان قول السلف واحدا في هذه المسألة، وغيرها من المسائل كذلك، لأن الطريقة المتبعة في ذلك واحدة.

٣- الأخذ بأقوال بعض العلماء، وترك أقوال علماء آخرين، ربما كانوا من السلف، بل وأقعد وأعلم، كنقلهم عن القرافي إجماعا متوهما مزعوما زعمه، في حين أن القرافي رحمه الله تعالى، قد تكلم العلماء في عقيدته، وكذلك ينقلون عن السيوطي، وهو كذلك، ويتركون كلام السلف الصريح الواضح البين في ذلك، فتنبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- الاعتداد بإجماعات بعض أئمة الدعوة النجدية، ولا يلتفتون إلى أن الخلاف في ذلك محفوظ، وواقع بين نفس هؤلاء الأئمة، فضلا عن غيرهم، وفي نفس الوقت يُعْرِضُون عن الإجماعات المنقولة، في العذر بالأعذار الشرعية المعتبرة عن السلف الصالح.

٥- حصرهم الشرك في توحيد الألوهية، وهذا جهل وتخبط، فإن الله تعالى أثبت وقوع الشرك في جميع أنواع التوحيد، فالتفريق بين المتماثلات ضرب من الجهل واتباع الهوى، وإذا عذرنا في نوع فلابد أن نعذر في غيره، طالما أنه عذر معتبر شرعا.

٦- النقل عن أحد الأئمة، والاحتجاج بقوله، في حين أن نفس الإمام الذي يُنقل عنه، يفرق بين النوع والعين، ويعذر بالأعذار المعتبرة شرعا، كالجهل والتأويل المعتبر، وخذ على ذلك أربعة أمثلة، ابن جرير، ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، فإننا نعلم يقينا، - إلا عند من ضعف جَمْعُهُ واضمحل علمه في ذلك – أن لكل واحد من هؤلاء الأئمة، أقوالا محفوظة واضحة، في التفريق بين النوع والعين، واعتبار الأعذار المقررة شرعا، وقد جمعتها في كتابي (العذر بالجهل في ميزان السلف وكشف الشبهات) الذي ستأتي الإشارة إليه بعد قيل، وإن من أعجب ما سمعت وقرأت في هذا الباب، ما ينقلونه عن ابن القيم، في كتاب طريق الهجرتين، من الإجماع على أنه لا عذر بالجهل، ثم يغفلون كلام ابن القيم الصريح، في كتبه الأخرى، حيث يصرح، وبكل جلاء ووضوح، أن هناك عذرا بالجهل في التوحيد، فأين ذهبت العقول؟!، ولكنهم قد ضاق عطنهم، عن أن يفهموا، أن ابن القيم في طريق الهجرتين، إنما يتكلم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن الكفار الأصليين، وفي كتبه الأخرى يتكلم، عمن وقع في مكفر من المسلمين، وقد تقدمت النقولات في ذلك، وأما ابن تيمية فأقواله أكثر من أن تذكر، وأشهر من أن تنكر، وقد تقدم نقل بعضها، وأما محمد بن عبد والوهاب، فعنه، وعن بعض أئمة الدعوة النجدية، بل حتى عن ولد الشيخ (عبد الله)، أقوال محفوظة في العذر بالجهل في التوحيد.

٧- عدم التفريق، بين الكافر الأصلي، والمنافق، والمتحقق بالردة، وبين المسلم الذي وقع في مكفر، ومعه مانع معتبر شرعا من إلحاق حكم الكفر به، من حيث اعتبار المكفرات، فإن المتأمل في الأحاديث، وكتب السلف؛ يعلم يقينا ويقطع، بأن السلف لا يعتبرون الواقع في الكفر من المسلمين كافرا أصليا، ولا مرتدا، حتى تتوفر في حقه الشروط، وتنتفي الموانع، وإلا فما معنى: أبواب الردة في كتب الفقه؟!، وما معنى الاستتابة؟!، وما معنى إقامة الحجة؟!، وهل نقول مثل هذا القول مع الكفار الأصليين؟!!، فمثلا هل نقول: بأن اليهودي أو النصراني، لا يكفر حتى يُسْتَتَاب، أو حتى تُقَام عليه الحجة، لا شك أن هذا القول كفر بالله تعالى، إذ لا خلاف بل هو إجماع حقيقي، أن اليهود والنصارى كفار، وأن من شك في كفرهم، أو تردد؛ فهو كافر كذلك؛ وعليه فتنزيل آيات الكفر الأكبر على المسلم الذي أتى مكفرا بدون اعتبار للتفريق بين النوع والعين، ولا اعتبار للموانع الشرعية، وحصر الموانع في الخطأ والإكراه، كل هذا مخالفة صريحة لما كان عليه السلف الصالح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٨- اختلاق أقوال، ثم نسبتها إلى السلف، وعلينا أن نعلم، أننا إذا أردنا، أن نحقق النسبة الصحيحة إلى السلف؛ فعلينا أن نقول قولا، لا يعترض علينا فيه السلف، فكيف بقول انعقد الإجماع على خلافه عند السلف، فالسلف قاطبة في القرون الثلاثة المفضلة، يفرقون بين النوع والعين، ويشترطون إقامة الحجة وفهمها، في حالة المسلم الواقع في المكفر.

٩- اختلاق أصول مخالفة لأصول السلف، ومن ذلك تفريقهم بين الكفر والشرك، من جهة إمكانية العذر في الكفر، وعدم إمكانيته في الشرك، مع أن الكفر والشرك، لا فرق بينهما البتة، من جهة أحكام الدنيا والآخرة، والنصوص واضحة في ذلك، وعلى هذا كان تعامل السلف، كما تقدم تقريره من قبل، ومن الأصول الفاسدة كذلك، دعواهم التفريق بين الأصول والفروع، في إمكانية العذر بالجهل، وقد تقدم رد ابن تيمية عليهم في ذلك ونسبة عدم التفريق إلى السلف، وكذلك جعل مسائل جلية، وأخرى خفية، وينقلون هذا عن ابن تيمية، مع أن ابن تيمية، عذر في جميع ذلك، فعذر عباد القبور بالجهل، وعذر الجهمية بالتأويل، بل حتى بعض الحلولية كذلك، مما يدل على أن المقصود بالجلي والخفي، جلاء العلم أو خفائه، فالمسألة تدور على العلم وجودا وعدما، مع استصحاب الشبه، وحال العبد.

١٠- قول بعضهم بما يشابه قول المعتزلة بـ(المنزلة بين المنزلتين) وذلك أنهم يقولون لا نسمي الواقع من أهل القبلة في الكفر ابتداء كافرا، ولا نسميه مسلما، ثم هم يعاملونه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معاملة الكافر، ويفوضون أمره إلى الله تعالى، ويجعلون سبب إقامة الحجة عليه؛ إما ليدخل في الإسلام، أو ليثبت عليه مسمى الكفر، وما يتبعه من العقوبة والحد.

١١- مُكَابَرَات عِلْمِية، حيث تجد الواحد منهم، لا يقر بالحقائق التي هي من المسلمات، ويَتَحَذْلَق بالتَّعَنُت والجمود على فهم معين أو لفظ معين، مع أن المعاني واحدة، ويظنون أنهم على شيء، وأن ذلك يغني عنهم شيئا، كالذين لا يريدون أن يسلموا بأن الخطأ والتأويل، حَقِيقَتُهُ حُصُولِ جَهْلٍ بمراد الله تعالى ورسوله r ، فإنه وإن سميناه خطأ أو تأويلا فاسدا، فإنه جهل بالحق، وعدم علم به، **وإن أَبَى مَن أَبَي**.

١٢- إطلاقهم القول بقاعدة :**(من لم يكفر الكافر فهو كافر)**، وهذا إطلاق باطل وقول ليس في محله أصلا، وقد وقع فيها إفراط وتفريط، فمن قائل لا يكفر من لم يكفر اليهود والنصارى والكفار الأصليين؛ وهذا إفراط، بل هو ملحق بهم، ومن قائل يكفر كل من توقف في تكفير بعض أهل القبلة ممن تلبس بالكفر من جهة النوع، وإن لم يثبت له كفره تعينا، من جهة توفر الشروط وانتفاء الموانع وهذا تفريط، وغلو في تكفير المعين من أهل القبلة، فقد اختلف السلف بعد الصحابة في كفر تارك الصلاة، فهل نقول بهذه القاعدة في حقهم؟!!، معاذ الله، وكذلك اختلف السلف في كفر الحجاج مثلا، فقد كان عامة علماء الحجاز يكفرونه، ومع ذلك قال طاووس وغيره، عجبا لإخواننا من أهل العراق كيف يتوقفون في كفر الحجاج، فسماهم إخوانا.

فهذه القاعدة إذا إنما تُنزل على الكفار الأصليين نوعا وعينا، وعلى نوع العمل المُكَفِّر في أهل القبلة، وعينا إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع، أي إذا قامت الحجة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخلاصة أن هذه القاعدة صحيحة في الكفار الأصليين، وفي نوع المكفرات التي يقع فيها أهل القبلة، بمعنى أن من قال بأن قول القدرية مثلا في القدر، أو الجهمية في الأسماء والصفات مثلا، ليس كفرا فهو كافر، وأما من جهة الأعيان من أهل القبلة، فمن ثبت له كفرهم بمكفر شرعي صحيح، وظهر له أن الحجة قد قامت على هذا المعين فكفرهم؛ فهذا تكفير منضبط، وليس له أن يلزم به غيره، ولا يقال فيه من لم يكفر الكافر فهو كافر، فإن تنزيل الأحكام على أهل القبلة مسألة اجتهادية، لأنها متوقفة على قيام والحجة، وهذه مسألة تتفاوت من شخص إلى آخر.

فقد كفر الشافعي حفص الفرد ولم يلزم غيره بذلك، ولم يقل من لم يكفر الكافر فهو كافر، وكذلك فعل الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه في تكفيره لابن أبي دؤاد، ومثل هذه الأمثلة قد وقع منها قدر معتبر في زمان السلف والخلف، حيث كفر بعض أهل العلم أقواما من أهل القبلة، ولكن لم يلزموا الآخرين أن يقولوا بقولهم، ولا قالوا:(**من لم يكفر الكافر فهو كافر**)؛ لعلمهم أن هذه القاعدة ليس هذا محلها، فتنبه بارك الله فيك.

حتى تجارى هذا الداء بأقوام فقالوا: إن من يعذر بالجهل في مسائل الشرك الأكبر فهو كافر، ومن لم يكفره فهو كافر.

ولاشك أن هذا القائل قد بلغ شأوا غليظا من الغلو والتنطع والتشدد، بل هو مسلك من مسالك الخوارج، لا كثرهم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويلزم هؤلاء أن يقولوا بكفر جماعات غفيرة من أهل العلم، ممن يقولون بالعذر بالجهل في الأصول والفروع، ويلزمهم تكفير جميع العلماء من الخلف والسلف الذين لم يكفروا، بعض الأعيان الذين كفرهم بعض أهل العلم بمكفر ما، فما أقبح الجهل، وما وأفظع الغلو والتطرف.

الفرق بين متعلق القتال ومتعلق التكفير:

فائدة: ولنعلم أن متعلق القتال هو الامتناع عن شعائر الإسلام الظاهرة أو ظهور الكفر البواح، بينما متعلق تكفير المعين من أهل القبلة، هو إقامة الحجة من توفر الشروط وانتفاء الموانع.

فالولاء والبراء والجهاد ماض قائم، وإن اختلف الناس في كفر فلان أو فلان من المنافقين، فالاتفاق حاصل على قتاله والخروج عليه إن امتنع عن التزام الشرع وكانت ثمة شوكة ظاهرة. والله أعلم.

١٣ - دعواهم أن مقتضى القول بالعذر بالجهل في المكفرات، يعني أن يجتمع إيمان وكفر في العبد وهذا محال، وما عَلِمَ هؤلاء أن السلف عندما فَرَّقُوا، قالوا الذي لا يجتمع هو كُفْرٌ يَعْلَمُه العبد مع الإيمان والإسلام؛ وذلك لأن المسلم المتلبس بالكفر ومعه عذر معتبر شرعا لا يسمى كافرا أصلا، حتى نقول كيف اجتمع فيه كفر وإسلام؟!، ثم انظر واعتبر، فهؤلاء المنافقون في زمان النبي r ، كان يعلم النبي r بعض أعيانهم، ومع هذا كان يعاملهم بما يظهرون من حالهم على الإسلام، فتأمل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٤- تفريقهم بين الأصول والفروع في إمكانية وقوع الجهل المعتبر فيها، فيعذرون في الفروع ولا يعذرون في الأصول، وهذا تفريق حادث، بل نقل ابن تيمية عن الصحابة والسلف y عدم تفريقهم بين الأصول والفروع في هذه المسألة، فالكل يمكن أن يقع فيه هذا الجهل المعتبر شرعا.

١٥- دعواهم أن في القول بالعذر بالجهل تكذيبا لله تعالى، حيث أن الشرع سمى هذا العبد الواقع في الكفر كافرا أو مشركا، فكيف نسميه مسلما، وهذا القول قد جنحوا به من عند أنفسهم، بعيدا عن تعامل النبي r وأصحابه y، وهو فرع عن عدم تفريقهم بين تنزيل الأحكام على المعينين من أهل القبلة والكفار الأصليين، فالنبي r وأصحابه y والسلف الصالح، لم يتوقفوا أبدا في تسمية الكفار الأصليين بالكفر أو الشرك، وهذا محل إجماع منهم، ولكنهم في نفس الوقت لم يسموا أعيان المتلبسين بالكفر أو الشرك من أهل القبلة بذلك، حتى تقوم عليهم الحجة، التي من خالفها إعراضا أو عنادا واستكبارا؛ كان كافرا، وهو المعبر عنه بتوفر الشروط وانتفاء الموانع.

لا يلزم من الفعل تسمية الفاعل به بإطلاق:

وإليك مثالا دالان على التفريق بين مسمى الفعل وتسمية الفاعل به وإطلاق الحكم عليه، فهاهم أقوام في زمان عام الرَّمَادَة سرقوا، ولم يُقَم الحد عليهم، لوجود شبهة تمنع من ذلك، فأنت ترى أن الفعل سرقة، ولكن الفاعل ليس سارقا ولا يستحق الحكم عليه بذلك ولا حَدَّ عليه، وكذلك الذي يَطَؤُ في شبهة، فصورة الفعل زنا، ولكنه لا يسمى زانيا، ولا حد عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٦ - دعواهم أن من قال بالعذر بالجهل في أصول الدين؛ فقد قال بقول الجهمية، بل بعضهم يصرح بأن هذا القائل جهمي جلد، ولا شك أن هذا ضلال مبين، وفساد في تصور المسائل الشرعية والحقائق الإيمانية، ولكي تتصور المزلق الذي وقعوا فيه، أقص عليك طريقة استنباطهم لهذا الحكم الفاسد الجائر، حيث قالوا بأن الجهمية لا يكفرون بالأعمال الظاهرة وإنما بالقلب فقط، والذين يعذرون بالجهل لا يكفرون العامل بالشرك، وبالتالي فهو جهمي؛ لأنه اجتمع مع الجهمية في كون العمل الشركي لم يَصِر مخرجا للعبد عن الملة، فالنتيجة واحدة، ولا شك أن هذا انحراف واضح في تصور هذه المسألة، وطريقة الاستدلال، فإن أهل السنة والجماعة عندما قالوا بالعذر بالجهل - والذي هو مقتضى النصوص وتعامل السلف -، لم يقولوا بأن العمل الذي وقع فيه هذا العبد من أهل القبلة ليس كفرا، ولم يقولوا ليس مكفرا، بل أثبتوا أن العمل كفر بذاته، مجردا عما قام بالقلب من المعاني، ولكنهم درؤوا تنزيل هذا الحكم على أهل القبلة؛ باعتبار وجود مانع شرعي منع من ذلك، فأهل السنة يقولون بأن من الأعمال الجَوارِحِيَّة ما يكون كفرا بذاته، ويطلقون عليها مسمى الكفر من جهة نوعها، بغض النظر على القلب، بينما الجهمية لا يرون أن هناك عملا في الظاهر يكون كفرا بذاته، وإنما الكفر عندهم بالقلب فقط، فأين هذا من هذا؟!!.

١٧ - دعواهم أن العذر في أصول الدين يعني عدم تحقيق الكفر بالطاغوت، وهذا منكر من القول وزور، فإن العذر في الكفر كالعذر في الشرك، ولا فرق أبدا كما تقدم، وقد جاءت الأدلة وتعامل الصحابة والسلف دالة على اعتبار العذر المعتبر مانعا من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التكفير في كل ذلك، بلا تفريق، فإن قالوا أنتم تحكمون بإسلام المشرك، فقل لهم وأنتم تحكمون بإسلام الكافر. إذ أنهم كما تقدم يعذرون من وقع في بعض المكفرات بجهل منه، مع أن أحكام الكفر والشرك واحدة في الدنيا والآخرة كما تقدم. فتأمل.

١٨ - دعواهم أن العذر بالجهل يعني هدم عقيدة الولاء والبراء، وهذا من الجهل العظيم منهم بمنهج السلف وتعاملهم، بل وبشيء من أصول المعتقد، فإن من عقائد أهل السنة والجماعة الواضحة الراسخة، أن العبد من أهل القبلة يجتمع فيه حب وبغض وولاء وبراء، بحسب ما معه من طاعة أو معصية، وإليك بعض النقولات التي توضح لك أن السلف كانوا يباشرون ذلك عمليا، حتى إنهم يحترزون ويحتاطون لصلواتهم، فلا يصلون خلف الفاجر والمبدع لا سيما الداعية، وأصحاب البدع الكفرية، وإن لم يحكموا على أعيانهم بالكفر، ففي طبقات الحنابلة:[قال:المروذي سئل أحمد أمر في الطريق فأسمع الإقامة ترى أن أصلي فقال: قد كنت أسهل فأما إذ كثرت البدع فلا تصل إلا خلف من تعرف]، وقال اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة) وهو ينقل عقيدة سفيان:[يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر والجهاد ماض إلى يوم القيامة والصبر تحت لواء السلطان جار أم عدل قال شعيب فقلت لسفيان يا أبا عبد الله الصلاة كلها قال لا ولكن صلاة الجمعة والعيدين صل خلف من أدركت وأما سائر ذلك فأنت مخير لا تصل إلا خلف من تثق به وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة يا شعيب بن حرب إذا وقفت بين يدي الله عز و جل فسألك عن هذا الحديث فقل يا رب حدثني بهذا الحديث سفيان بن سعيد الثوري ثم خل بيني وبين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ربي عز و جل]ا.هـ. فليس من لوازم العذر بالجهل المعتبر انتفاء الولاء والبراء، بل هذه أوهام في رؤوس هؤلاء، هدانا الله تعالى وإياهم سواء السبيل، فمنهج السلف واضح المعالم، في التحذير والهجر والتنفير عن أهل الضلال والزندقة، والبدع المكفرة وغير المكفرة، فكانوا يوالون ويعادون، وفي نفس الوقت يعذرون بالأعذار المعتبرة شرعا، ويفرقون بين النوع والعين في إطلاق الأحكام على الأعيان من أهل القبلة وتنزيلها عليهم. **فافهم رعاك الله**، واسْعَ في التَّحَقُّق بمنهج السلف، ودَعْكَ من مُخالفات واختلاف الخلف، وغُلُوِّ بعضهم.

١٩ - الاعتماد على طريقة مبتدعة، اعتزالية، في رد الأدلة الدالة على العذر بالجهل لأهل القبلة إذا وقع أحدهم في المكفر، وذلك بقولهم:هذه قضايا أعيان لا عموم لها، فلا يلحق بها ما في معناها مع المسائل، ولا نأخذ منها أحكاما عامة، وهذه قاعدة باطلة، بل لا أصل لها، بل هي من طرق المعتزلة الضلال.

وهذه الطريقة يستعملها بعضهم للحيدة والتخلص من الأدلة الصريحة الدالة على إثبات العذر بالجهل والتأويل المعتبر، في مكفرات مجمع عليها، وقع فيها بعض أهل القبلة، وعَذَرَهُم السلف فيها، سواء في زمان النبي r ، أو بعد وفاته r في زمان أصحابه y .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٩ / ٢٥٣):[وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ أَرَادُوا بِزَعْمِهِمْ نَصْرَ الشَّرْعِ بِعُقُولِهِمْ النَّاقِصَةِ وَأَقْيِسَتِهِمْ الْفَاسِدَةِ. فَكَانَ مَا فَعَلُوهُ مِمَّا جَرَّأَ الْمُلْحِدِينَ أَعْدَاءَ الدِّينِ عَلَيْهِ فَلَا الْإِسْلَامَ نَصَرُوا وَلَا الْأَعْدَاءَ كَسَرُوا . ثُمَّ مِنْ الْعَجَائِبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنَّهُمْ يَتْرُكُونَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ الْمَعْصُومِينَ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ إِلَّا الْحَقَّ وَيُعْرِضُونَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَيُقَلِّدُونَ وَيُسَاكِنُونَ مُخَالِفَ مَا جَاءُوا بِهِ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومِ وَأَنَّهُ يُخْطِئُ تَارَةً وَيُصِيبُ أُخْرَى وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ].ا.هـ.

٢٠- الاستدلال بأدلة، من الكتاب والسنة، ثم فهمها على غير فهم السلف لها، فيذكر أحدهم آية من القرآن، ثم يقول: الآية لم تعذر، مع أنها أثبتت العلم لهم، كقوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦]، وكأن هذه الآية أُوحِيَ بها إليهم ابتداء؟!، ولم ينقلها إلينا الصحابة الكرام y عن نبي الهدى r ؟!!، والسؤال الذي يطرح نفسه، أليست هذه الآية قد علمها الصحابة والسلف من بعدهم؟!، ونحن والمخالف نقطع بأنهم علموها ونقلوها إلينا، فنقول هل فهموها بفهمكم، فلم يعذروا أحدا من المسلمين، وقع في مكفر قط، وهل أطلقوا الحكم مباشرة، وسموا هذا المسلم بالكفر والشرك، دون اعتبار لحاله، من توفر الشروط وانتفاء الموانع؟!، الجواب قطعا وبكل يقين (لا)، ولابد أن ننتبه لأمر مهم وخطير، أننا لا نتكلم عن أن السلف ما كانوا يكفرون، بل نتكلم عن أنهم كانوا يكفرون بضوابط شرعية، بمعنى أنهم كانوا يعذرون من يستحق العذر، ممن لم تتوفر في حقهم الشروط ولم تنتف الموانع، وإنما قلت هذا حتى لا يأتينا أحد بنقل عن أحد السلف، ثم يقول ها هم السلف يكفرون، فنقول حيث كَفَّرُوا، فهم قطعا استصحبوا الضوابط الشرعية، بدليل أنهم لم يكفروا آخرين، ممن وقع في الكفر، فدل على أنه ليس كل من وقع في الكفر من أهل القبلة؛ كفر ابتداء، وألحقنا به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاسم ثم ننظر في حاله، وإلا فما فائدة إقامة الحجة إذا، إلا إدخاله في الإسلام، والمعنى أننا لم نعذر أصلا، وهذا باطل قطعا.

حجة عليهم لا لهم:

ومن عجائب القوم التي لم يفطنوا أنها حجة للقول الحق، باعتبار الجهل المعتبر عذرا في أصول الدين وفروعه، أنهم يقررون أن العبد لا يعذب حتى يبعث الله إليه رسولا، ويحتجون بقول الله تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء:١٥].

فإذا سألتهم لماذا لن يعذب الله حتى يبعث رسولا؟، لم يجدوا جوابا إلا أن يقولوا؛ لأن الحجة لم تبلغهم ولم تقم عليهم، والمعنى أنهم كانوا جاهلين جهلا هو عند الله معتبر، فعذرهم الله تعالى به، فيقال لهم: كيف تتصورون أن الله تعالى سيعذر أقواما بالجهل وهم من الكفار الأصليين؛ لأن الرسالة لم تبلغهم، وحجة الله لم تقم عليهم، وسيقبل منهم قولهم:{ما جاءنا من بشير ولا نذير}، وذلك في العرصات بعد انكشاف الأمور، والتحول من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فكيف لا يكون نفس هذا الجهل عذرا في أحكام الحياة الدنيا؛ لأقوام انتسبوا إلى الإسلام وكانوا يسألون عن دينهم؛ فخفيت عليهم بعض مسائل العقيدة فوقعوا في الشرك، أليس هؤلاء أولى بالعذر من الكافر الأصلي، الذي صرح بعبادة غير الله، وأشرك به بأنواع من الشرك والكفر، ومع هذا سيعذره الله تعالى إن أدلى على الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى بهذه الحجة :{ما جاءنا من بشير ولا نذير}، فكيف بعبد نطق بالتوحيد وعمل بما علم منه، وهو باحث عن الحق محب له، لا بمعرض ولا معاند ولا مستكبر، بل مسترشد سائل، ثم وقع في خلل في التوحيد، سواء في أصوله أو فروعه، أفلا يقبل الله تعالى منه أن يقول:{ما جاءنا من بشير ولا نذير}، أي لم يبلغني شيء فيما يتعلق بهذه المسألة، لأعمل به. فتأمل.

مثال حاسم وقوي

وإليك هذا المثال لتتضح لك المسألة:

إننا نعلم يقينا أن كفر أهل الكتاب كان من جراء تعاطي جملة من المكفرات القولية والعملية، فمن اتخاذ للأحبار والرهبان أربابا من دون الله، إلى عقيدة التثليث، إلى استحلال أموال الناس بالباطل، إلى انتقاد الشارع والاستدراك عليه، والقول على الله تعالى بالعظائم، إلى الكذب والافتراء على الله تعالى ورسله.

فإذا أردت دعوة نصراني ما إلى الإسلام، فلا شك أنك ستبدأ معه بالقضية الأكبر والأعظم في حاله، وهي قضية التثليث؛ باعتبار أنها باب لهدم ما عداها من الكفر والضلال، فتأخذ في الجدال بالتي هي أحسن معه، حتى إذا انتصف الليل؛ اقتنع هذا النصراني بالإسلام، ونطق بالشهادتين، ثم أخلد إلى النوم، على أمل المواصلة في الغد، فاخْتَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ من ليلته تلك، وهو لَمَّا يحقق بَعْدُ الكفر الكامل بكل الطاغوت، فهل هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآن نسميه مسلما أم كافرا؟، لا شك أنه مسلم، قد دخل في الإسلام، بالنطق بالشهادتين، وهو على استعداد تام لقبول ما يأتيه من العلم المتعلق بهذه الشهادة العظيمة، فتأمل في هذا المثال جيدا، رعاك الله.

ودليل أن العبد تقبل منه كلمة التوحيد، ابتداء، ويدخل في الإسلام بذلك، ويسمى مسلما، وإن لم يتعلم جميع نواقضها ومقتضياتها، وإن لم يحقق الكفر بجميع الطاغوت إذ هو يجهله، ويكون معذورا حتى نعلمه إياها، ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ الله r فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ r فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَقَتَلْتَهُ". قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ:"أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ". فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

ولهذا لم يتردد السلف أبدا في إثبات العذر في أصول الدين وفروعه، بالتأويل والجهل المعتبر، وهو للعبد غير المعرض ولا المعاند ولا المستكبر.

هذه أبرز المسائل، وسأفيض في ذلك بإذن الله تعالى في كتاب، لعله أن يخرج قريبا، بإذن الله تعالى، في بيان مسألة العذر بالجهل والتأويل، (العذر بالجهل في ميزان السلف)، وهو الآن في أشرطة على موقعنا (الحكمة والأثر)، وهي كذلك مبثوثة، في ثنايا الشبكة العنكبوتية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا للإرهاب الفكري المضلل:

واعلم هدانا الله وإياك: أن استعمال ما يعرف بالإرهاب الفكري في الجدال العلمي المنطلق من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، هو نوع من الإفلاس العلمي، فإن المُخَالِف إذا ضَعُفَت حجته، أو عجز عن أن يجيب على الأسئلة العلمية المُحْرِجة، التي يُوَاجَهُ بها؛ يَعْمَد إلى هذا الأسلوب، إما لإسكات المخالف، أو لتثبيت الأتباع، برفع سياط التكفير والتبديع والتضليل لكل من يقول بقول المخالف، في حين أنه أضعف وأقل جرأة من أن يَطْرُدَ هذه الأحكام الارتجالية -التي يطلقها جزافا-؛ فيطلقها على أئمة أعلام، احتج عليه المخالف له بهم، نقلا بحروف أقوالهم، من أنهم يقررون العذر بالجهل في أصول الدين وفروعه، وكذلك إذا ذكرت له بعضا من أهل العلم الذين وقعوا في أقوال كفرية.

فأقول: إن هذا المفلس إذا قوبل بهذا أخذ يَرُوغُ ويَخُور، وكما تقدم فإن هذا القَدْرَ من الإرهاب الفكري؛ دال على الإفلاس، وهو لا يغني عن صاحبه شيئا، إذ أن جَارِفَ المعلومة الصحيحة سَيَكْتَسِحُه بأمواجه المتلاطمة، ولن يبقى معه إلا الإمَّعَات، أصحاب التقليد الأعمى، الذين لو قلت لأحدهم هذه هي الشمس؛ قال مباهتا، الشمس لم تطلع إلى ذا الآن.

فاحذر من هذا الإرهاب الفكري، وامض على بركة الله ، فإنك على الحق، والهدى المستقيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة: ما هو مناط التكفير في أفعال التروك أو ترك الأعمال؟.

الجواب: لابد أن نعلم أن مناط الكفر فيها هو ذات العمل المتروك، أي مجرد الترك كفر؛ لأن الشارع إنما حكم بالكفر بسبب الترك، فمن ترك فقد كفر، وأما أصحاب الأهواء فقد تكلفوا ما ليس لهم به علم.

ولنضرب مثلا لتتضح المسألة، بمسألة ترك الصلاة مثلاً، فمن قال بأن ترك الصلاة ليس بكفر؛ لأن الصلاة عمل، والأعمال لا تدخل في مسمى الأيمان، وتارك جنسها ليس بكافر؛ فهذا من غلاة المرجئة والجهمية. ومن قال إن ترك الصلاة كفر؛ لأنه وقع في ذنب من الكبائر، فمناط الكفر عنده مقارفة الكبائر أياً كانت درجتها؛ فهذا من الخوارج، ومن قال إن ترك الصلاة ليس كفرا، ولكن لا لأنه عمل، بل لأن الأدلة لم تظهر لي في كفره، ولو صحت دلالتها عندي؛ لقلت بكفره، فهذا مجتهد، معذور، يدور بين الأجر والأجرين، ولكنه مخطئ في اجتهاده؛ لأن الأدلة والإجماع دَلَّا على كفر تارك الصلاة، وأما من قال إن ترك الصلاة كفر، ولكن لا بعمله، وإنما لأن هذا الترك قرينة على ما في القلب من الكفر؛ فهذا من المرجئة، وهم مَنْ سُمُّوا بمرجئة الفقهاء.

والحق أن يقال: إن كل فعل أو قول أو اعتقاد، دل الكتاب أو السنة على أن فعله كفر أو تركه كفر أكبر أو شرك أكبر؛ فإن هذا العمل يكون كذلك، وكل ذنب دون الشرك أو الكفر هو تحت المشيئة، إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له، والكلام على هذه المسألة يستلزم النشر والإكثار في هذا الزمان، الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، وذهبت فيه معالم السنة، لاسيما في باب الإيمان، فكان لزاما على أهل السنة تجليتها، والكلام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنها، وهذا هو هدي السلف، فقد كانوا يركزون على القضايا التي يظهر خطرها، ويستفحل شرها، ويتطاير شررها في المجتمعات ، فلكل زمان رجال ولكل مقام مقال.

فائدة واستنباط هام

في بيان أن من عَلِمَ الحَرَام فَرَكِبَهُ؛ لَحِقَهُ حُكْمُه وَحَدُّه وإن جَهِلَ دَرَجَتَهُ

وذلك من حديث أبي هريرة t الذي رواه عن النبي r قال:"إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم". وفي رواية :"إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق".

هذا الحديث الجليل القدر يبين لنا أن العبد إذا تكلم بالكلمة من الحق، وإن لم يتبين درجتها الحكمية، من استحباب أو وجوب؛ يرفعه الله تعالى إلى منزلتها، بل وربما زاده الله تعالى من فضله، والعكس كذلك إن تكلم العبد بالحرام والمعصية، فإنه ينزل منزلتها، إن كانت كبيرة، أو كفرا، وإن جهل هذه المنزلة طالما أنه عالم بالتحريم، ومن هنا نعلم لماذا كفر المستهزئون في غزوة تبوك، مع أن البعض ربما ما كان يعلم أنه أتى كفرا، ولكنه كان يعلم أنها معصية واستهزاء؛ فصاروا إلى حكمها مباشرة، فَحَكَم الله عليهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم، وكونهم لم يتبينوا في معصيتهم؛ دل ذلك على الإعراض، وتأمل أنهم ما اعتذروا بعدم العلم، ولكنهم اعتذروا بقولهم :{إنما كنا نخوض ونلعب}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك الحال مع العقوبة في حال الزنا مثلا، فمن علم التحريم وكان محصنا ثم قال أنا لا أعلم أن الحكم هو الرجم، ولكني أعلم أنها معصية، فنقول ارجموه، لا يغني عنه ذلك الجهل بالعقوبة شيئا؛ ولذا قال العلماء الجهل بالعقوبة لا يسقطها. والله أعلم.

أما من جهل الحكم أصلا ولم يكن عن إعراض أو عناد واستكبار؛ فإنه يعذر، كما مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج قال أخبرني هشام بن عروة عن أبيه أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب حدثه قال توفي عبد الرحمن بن حاطب وأعتق من صلى من رقيقه وصام وكانت له نوبية قد صلت وصامت وهي أعجمية لم تفقه فلم يرع إلا حبلها وكانت ثيبا فذهب إلى عمر فَزِعاً فحدثه فقال له عمر لأنت الرجل لا يأتي بخير فأفزعه ذلك فأرسل إليها فسألها فقال: حَبِلْتِ؟، قالت: نعم من مرغوش بدرهمين، وإذا هي تَسْتَهِلُّ بذلك لا تَكْتُمُهُ، فَصَادَفَ عنده عَلِياً وعُثْمان وعبد الرحمن بن عوف، فقال: أَشِيرُوا عَلَيَّ، وكان عثمان جالسا فاضطجع، فقال عَلِيٌّ وعبدُ الرحمن قد وَقَعَ عليها الحَدُّ، فقال أَشِرْ عَلَيَّ يا عثمان، فقال: قد أَشَارَ عليك أخواك، قال أشر عَلَيَّ أنت، قال عثمان: **أراها تَسْتَهِلُّ به كأنها لا تعلمه وليس الحد إلا على من علمه**؛ فأمر بها فجلدت مئة، ثم غَرَّبَها، ثم قال: صَدَقْتَ والذي نفسي بيده ما الحَدُّ إلا على من عَلِم.

قال المؤلف رحمه الله:(وهو:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا اله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ): قول المؤلف هنا مقتبس من حديث مخرج في الصحيحين، وهذه رواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَدْنَاهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"، وفي لفظ له:"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"، ولفظ البخاري هو:"الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ".

وهذا من التوفيق إلى استعمال المعاني الشرعية بالألفاظ الشرعية أو المقاربة لها، وهذا متقرر في كلام الصحابة والسلف، وإنما أورده المؤلف هنا، ليبين تعريف الأيمان، وأنه جملة من الأقوال والأعمال والاعتقادات، فبين أن العمل داخل في مسمى الإيمان، وأنه لا يتصور هذا الإيمان بدون أعمال مطلقاً.

قال المؤلف:(بضع وسبعون شعبة): جاء في القاموس المحيط:[البِضْعُ:ما بينَ العَقْدَيْنِ من واحِدٍ إلى عَشَرَةٍ ومِنْ أحَدَ عَشَرَ إلى عِشْرينَ. ومع المُذَكَّرِ بهاءٍ ومعَهَا بغيرِ هاءٍ:بِضْعَةٌ وعِشْرُونَ رجُلاً وبِضْعٌ وعِشْرونَ امرأةً ولا يُعْكَسُ أو البِضْعُ : غيرُ مَعْدودٍ لأَنَّهُ بمعنَى القِطْعَةِ]ا.هـ.

واختار المؤلف رواية:"بضع وسبعون" إما لأنه رأى أنها الأصح، وإما - وهذا أظهر عندي -؛ لأنها تضمنت زيادة فضل بزيادة عدد، فيكون ذلك توسعة من الله تعالى على عباده.

قوله:(شعبة)، جاء في النهاية في غريب الأثر:[الشُّعبةُ: الطائفةُ من كُلِّ شيء والقِطعة منه]ا.هـ، والمراد بها هنا شعاب الدين، التي يتقرب بها العباد إلى الله جل وعلا، وقد جعل النبي r أعلاها قول: لا إله إلا الله؛ لأنها هي مفتاح الدخول في الإسلام، وهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمل اللسان، فمن لم يتلفظ بها لم يقبل الله منه عدلاً ولا صرفاً، ومن تلفظ بها دخل في جملة المسلمين، إلا أن ينقضها ناقض، ولازمها قول محمد رسول الله فلا يقبل من العبد قول لا إله إلا الله، دون أن يقول وأشهد أن محمداً رسول الله، ويلتزم لوازم ذلك، فإن بعض أهل الكتاب في زماننا يزعم التوحيد ويتلفظ بلا إله إلا الله،ولكنه يأبى أن يشهد للرسول r بالرسالة، أو قد يشهد له ولكنه يقول ليست رِسالَتُهُ ولا شَرِيعَتُه ملزمة لي، بل سآخذ بشريعة كذا وكذا؛ فهذا لم يخرج عن الكفر قيد أنملة، فإن الكفر بالرسل كفر بمن أرسلهم ولا بد، وقد تقدم بيانه.

قوله:(وأدناها): دليل لأهل السنة والجماعة، على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال تتفاوت في قدرها ومنزلتها، ولكن لا يُقْبَلُ أيُّ عمل بدون تحقيق التوحيد، وفي ذلك رد على الذين يَدْعُونَ إلى فضائل الأعمال، قبل دَعْوَةِ الناس إلى تحقيق التوحيد، فيعمدون إلى ذكر الأدنى ويعرضون عن تقرير الأعلى، زعماً منهم أن الابتداء بذلك أجدى، وأن التوحيد يفرق بين الناس، وهذا ضلال عظيم وخطأ محض، فإن الرسل قاطبة إنما بُعثوا لتقرير التوحيد ابتداءً، ولم يبعثوا لتقرير فضائل الأعمال ابتداءً، ولكن تذكر تبعا، وإنما كانت الدعوة في أصلها إلى نبذ الشرك وإقامة التوحيد، فها هي دعوة النبي r ، وها هي دعوة الأنبياء من قبله، شاهدة على ذلك، وأن المقدم في دعوة الرسل بيان قضية الإيمان وترسيخ التوحيد وبيان حقائقه، وبعد ذلك يأت الخطاب بفضائل الأعمال التي تزيد هذا الإيمان وترفع رصيده في القلب، أما قَلْبُ هرم التوحيد وتقويض صرحه، بالبداءة بالأدنى وترك الأعلى، فهذه مخالفة صريحة للمنقول والمعقول،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومكابرةٌ صريحة، وحَيْدَةٌ واضحة عن طريق الرسل، ومنهجهم في الدعوة إلى الله عز وجل. وقد تقدم بسط ذلك من قبل.

قوله :(وإماطة الأذى عن الطريق): هذا من باب ذكر الأدنى ليدخل الأعلى، والأذى المذكور هنا، هو كل أذى حسي ومعنوي، ويدل على ذلك ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ"، فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ:"إِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ"، قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ الله، قَالَ:"غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ". فأين أصحاب الطرقات من هذا اليوم؟!، بل العكس هو الحاصل إلا مَنْ رحم الله، وقليل ما هم، والله المستعان.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ".

قوله:(عن الطريق): يدخل فيه الطريق الحسي، والمعنوي، فإن إزالة أشواك الضلال، ودفن حفر الباطل، وهدم جسور الشرك، ومنع الذي يصدون عن سبيل الله، بقطع الطريق الذي يوصلهم إلى الله جل وعلا، هو من أعظم الأذى، الذي يجب أن يُمَاطَ عن طريق الناس، وقد ورد في ذلك آيات وأخبار:

ففي التحذير من الأذى المعنوي في الطريق إلى الله تعالى، قوله تعالى: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:٨٦]، وقوله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران:٩٩]، وقوله: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} [الأعراف:٤٤-٤٥]، وقوله: {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأنفال:٣٤]، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود:١٨-١٩].

ومن أعظم ذلك وأشده، ويدخل بعضه في الأذى الحسي، قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب:٥٧-٥٨].

وأما الأذى الحسي، فمنه قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان:٦-٧]، وقوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحج: ٧٢]، وقوله:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة:٦١]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران:٢١-٢٢].

وفي الحديث الذي في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **t** أَنَّ النَّبِيَّ **r** قَالَ:"أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ثَلَاثَةٌ، مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله **r** :"صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا". ونحو ذلك من الأدلة.

وتأمل في هذا الخبر؛ لتعلم عظيم أجر من سعى في إزالة الأذى عن المسلمين، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ:"بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه".

فلله در العلماء والدعاة والمصلحين، وبخ بخ لهم، كم أزالوا من الأذى، عن صراط الله المستقيم، فنسأل الله من فضله العظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإزالة الأذى عن الطريق من عظيم العمل عند الله جل وعلا، فهذا رجل غُفِر له بِعُودٍ أماطه عن طريق المسلمين، والعبد لا يدري أي عمله المقبول، فإنما يتقبل الله من المتقين، فعلينا أن نحرص على إماطة الأذى عن طريق المسلمين، سواء كان حسياً أو معنوياً.

قوله:(والحياء شعبة من الإيمان): الحياء المراد هنا هو الحياء المحمود، وهو خلق يبعث على مكارم الأخلاق، وأما إذا كان يمنع منها، أو يدعو إلى ضدها؛ فهو حياء مذموم.

وقد وردت جملة من الأخبار في الحياء وفضله فمنها ما في الصحيحين عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ"، فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ إِنَّ مِنْ الْحَيَاءِ وَقَارًا وَإِنَّ مِنْ الْحَيَاءِ سَكِينَةً فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ r وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ؟!.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَرَّ النَّبِيُّ r عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ:" دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الْإِيمَانِ".

وفي صحيح مسلم قَالَتْ عَائِشَةُ:(نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ).

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t قَالَ:(كَانَ النَّبِيُّ r أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مسند أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن ماجة والترمذي كلهم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ :"مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ". ولكن قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق.ا.هـ. قلت:وليس فيه ما ينكر، غير الكلام في رواية معمر عن ثابت، فقد قال عنها ابن معين:[حديث معمر عن ثابت مضطرب كثير الأوهام]ا.هـ ذكره ابن رجب في شرح علل الترمذي، وبنحو من هذا قال البخاري، بينما كان الإمام أحمد يحسن رواية معمر عن ثابت.

واعلم أرشدك الله أن أعظم الحياء، هو الحياء من الله تعالى، قياما بحقه، بفعل ما أمر به، والبعد عن محارمه وحدوده، وكذلك الحياء مع رسول الله r ، باتباع هديه وطريقته، نسأل الله الإعانة والسداد والتوفيق.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري:[قوله: مر النبي r على رجل يعظ أخاه في الحياء] تقدم في أول كتاب الإيمان مع شرحه ولم أعرف اسم الرجل ولا اسم أخيه إلى الآن والمراد بوعظه أنه يذكر له ما يترتب على ملازمته من المفسدة قوله الحياء من الإيمان حكى بن التين عن أبي عبد الملك أن المراد به كمال الإيمان وقال أبو عبيد الهروي معناه أن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي وإن لم يكن له تقية فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي قال عياض وغيره إنما جعل الحياء من الإيمان وان كان غريزة لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم وأما كونه خيرا كله ولا يأتي إلا بخير فأشكل حمله على العموم لأنه قد يصد صاحبه عن مواجهة من يرتكب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنكرات ويحمله على الإخلال ببعض الحقوق والجواب أن المراد بالحياء في هذه الأحاديث ما يكون شرعيا والحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياء شرعيا بل هو عجز ومهانة وإنما يطلق عليه حياء لمشابهته للحياء الشرعي وهو خلق يبعث على ترك القبيح قلت ويحتمل أن يكون أشير إلى أن من كان الحياء من خلقه أن الخير يكون فيه أغلب فيضمحل ما لعله يقع منه مما ذكر في جنب ما يحصل له بالحياء من الخير أو لكونه إذا صار عادة وتخلق به صاحبه يكون سببا لجلب الخير إليه فيكون منه الخير بالذات والسبب وقال أبو العباس القرطبي الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب وقد ينطبع بالمكتسب حتى يصير غريزا قال وكان النبي r قد جمع له النوعان فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها وكان في الحياء المكتسب في الذروة العليا r انتهى]ا.هـ.

وجاء في كتاب (الآداب الشرعية لابن مفلح):[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا:"الْحَيَاءُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَالْبَذَاءُ مِنْ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ مِنْ النَّارِ" رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَلِابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ مِثْلُهُ .

وَفِي الْمُوَطَّأِ مُرْسَلًا:"إنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ" وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ.

وَالْحَيَاءُ مَمْدُودٌ الِاسْتِحْيَاءُ قَالَ الْوَاحِدِيُّ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الِاسْتِحْيَاءُ مِنْ الْحَيَاءِ، وَاسْتَحْيَا الرَّجُلُ مِنْ قُرَّةِ الْحَيَاءِ فِيهِ لِشِدَّةِ عِلْمِهِ بِمَوَاقِعِ الْعَيْبِ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ قَدْ يَكُونُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْحَيَاءُ تَخَلُّقًا وَاكْتِسَابًا كَسَائِرِ أَعْمَالِ الْبَرِّ وَقَدْ يَكُونُ غَرِيزَةً، وَاسْتِعْمَالُهُ عَلَى مُقْتَضَى الشَّرْعِ يَحْتَاجُ إِلَى كَسْبٍ وَنِيَّةٍ وَعِلْمٍ وَإِنْ حَلَّ شَيْءٌ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِخْلَالِ بِحَقٍّ فَهُوَ عَجْزٌ وَمَهَانَةٌ ، وَتَسْمِيَتُهُ حَيَاءً مَجَازٌ.

وَحَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى فِعْلِ الْحَسَنِ وَتَرْكِ الْقَبِيحِ وَاَللهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَيَاءُ نِظَامُ الْإِيمَانِ فَإِذَا انْحَلَّ النِّظَامُ ذَهَبَ مَا فِيهِ، وَفِي التَّفْسِيرِ: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى}.

قَالُوا الْحَيَاءُ وَقَالُوا الْوَقَارُ مِنْ الله فَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ الْوَقَارَ فَقَدْ وَسَمَهُ بِسِيمَا الْخَيْرِ وَقَالُوا مَنْ تَكَلَّمَ بِالْحِكْمَةِ لَاحَظَتْهُ الْعُيُونُ بِالْوَقَارِ وَقَالَ الْحَسَنُ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ كَامِلًا، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ كَانَ مِنْ صَالِحِي قَوْمِهِ دِينٌ يُرْشِدُهُ، وَعَقْلٌ يُسَدِّدُهُ، وَحَسَبٌ يَصُونُهُ، وَحَيَاءٌ يَقُودُهُ]ا.هـ.

خطورة انتزاع الحياء:

واعلم أن من أعظم المخاطر، وأشنع سبل الوقوع في المهاوي والرذائل، انتزاع الحياء من الناس، وهذا ما يعمل عليه الشيطان وأعوانه في أمة الإسلام اليوم، وللأسف الشياطين قد قطعوا شوطا بعيدا في ذلك، حتى وقع تغريب المرأة المسلمة، بل والمجتمع كذلك، فخروج المرأة صار أمرا معتادا، وانتشرت الأفلام والمسلسلات الهابطة، بل والداعية صراحة إلى الفواحش، والرذيلة، وكشف العورات، بل حتى زنا المحارم، ودخلت أجهزة الدمار الشامل، من دجتيلات، وإنترنت، عامة البيوتات، وانتشرت الصور الفاضحة، وظهرت النساء الكاسيات العاريات، بل والعاريات تماما كما في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفلام الزنا والفجور المبثوثة؛ فانتشرت الفواحش، وعظم البلاء وكثر السفاح، وأعرض الأكثر عن النكاح، وكثر أبناء الزنا، واللقيط، فاللهم رحماك بنا، نسأل الله العافية والسلامة.

فإذا ذهب الحياء من الأمة أو اضمحل، لاسيما عند النساء؛ فَحَدِّثْ عن شر مستطير، وخطر عظيم، وخلل بالغ جسيم، وقد قال النبي r كما في الصحيحين عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ r :"قَالَ مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ"، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاء".

واعلم رحمك الله، أن كثرة هذه الشعب دالة على سعة فضل الله تعالى، كما في صحيح البخاري من طريق حَسَّان بْنِ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي كَبْشَةَ السَّلُولِيِّ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الْجَنَّةَ"، قَالَ حَسَّانُ فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ مِنْ رَدِّ السَّلَامِ وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ t :(بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا)، قَالَ:"نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ r أَنَّهُ قَالَ:"يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى"، ونحو ذلك من الأحاديث، والمحروم من حُرم الخير، مع توفره وكثرة أبوابه، ولكن تذكر أن مفتاح القبول دائما وأبدا، هو التوحيد، بتحقيق الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول r .

والإيمان المذكور بجملة هذه الشعب في أعلاها وأدناها، هو الإيمان العام، المرادف للإسلام العام، الذي يمثل جملة شرائع الدين، فكأن المؤلف أراد أن يعرف الإيمان العام، بأقواله وأعماله، ثم عطف ببيان الإيمان الخاص، المذكور في حديث جبريل عليه السلام الآتي.

قوله:(وأركانه ستة)، هذا هو الإيمان الخاص، والذي يراد به أعمال القلوب، وهذه الأركان الستة، إذا ترك العبد أحدها؛ كفر بالله جل وعلا، إذ ليس هناك خلاف بين أهل العلم، في أن هذه الأركان الستة شرط في صحة الإيمان، بخلاف أركان الإسلام، فقد أشرنا إلى وقوع الخلاف في بعضها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(ستة): هذا على سبيل الحصر، فإنها جاءت مؤقتة على لسان النبي r ؛فلا يجوز الزيادة فيها، وهذا يتضمن دقة الشريعة، وإحكامها وأن كل شيء محصى مفروغ منه، فليس لأحد أن يدخل فيه ما ليس منه، أو أن ينكر ما تقرر فيه، فإنه دين الله، وويل لمن بدل أو تلاعب.

قوله:(أن تؤمن بالله): الإيمان بالله لا يتحقق في العبد إلا بتحقيق ثلاثة أمور:

١- إفراده جل وعلا بأفعاله فلا يشركه فيها غيره، وهذا هو المعروف بتوحيد الربوبية، فمن زعم أن في الكون أرباباً يتصرفون مع الله جل وعلا؛ فهذا كافر الكفر الأكبر.

٢- إفراد الله جل وعلا بأفعال العبادة، بحيث يصرف العبد جميع أعماله التعبدية ظاهرة كانت أو باطنة لله الواحد القهار، وهذا المعروف بتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية،وبعض أهل العلم يسمي توحيد الألوهية بالتوحيد العملي.

٣- إفراد الله جل علا بأسمائه وصفاته، فتثبت إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، على حد قوله تبارك وتعالى:{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، وهدا هو توحيد الأسماء والصفات، وهو المعروف عند بعض أهل العلم بالتوحيد العلمي.

وإن كان كل منهما يتضمن العلم والعمل، وقد تقدم الحديث عن هذه الأقسام الثلاثة، ولكن أقول: لقد ضل في كل باب من هذه الأبواب الثلاثة أقوام، وسنورد أمثلة على كل باب ممن ضل فيها، مع ذكر الدليل عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمثلة لأقوام ضلوا في أبواب التوحيد:

أما توحيد الربوبية: فإن الذين أنكروا ربوبية الله جل وعلا على خلقه، هم قلة على مر العصور والأزمان، وهم مع ذلك يَدَّعُون بعض خصائص الربوبية لا كلها، إذ ليس هناك من ادعى أنه هو رب العالمين بأسمائه وصفاته من كل وجه، إلا ما سيأتي من زعم الدجال، أعاذنا الله وإياكم منه.

وممن أنكرها (النمروذ) في زمان إبراهيم عليه السلام، و(فرعون) في زمن موسى عليه السلام ، وكالذي قال الله جل وعلا فيه: {وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه} لما فَتَّ عظماً رميماً، وقال يا محمد هل يستطيع ربك أن يعيدني إذا صرت مثل هذا، فهذا إنكار لبعض أفعال الرب جل وعلا،وكذلك قوم لوط لما شرعوا لأنفسهم حقا في نكاح الذكران من العالمين، وكذلك الأحبار والرهبان الذين اتخذهم أهل الكتاب مشرعين من دون الله تعالى، وفي زماننا هذا كثر أرباب التشريعات الجاهلية.

وكما تقدم أن الكفر بالربوبية أعظم من الكفر بالألوهية، ولكن لكونه كان قليلاً لم تقع فيه خصومة كبيرة بين المشركين والمرسلين، ولهذا قلت الآيات الداحضة لشبة منكري الربوبية، مع أنه قد جاء في الكتاب والسنة ما فيه الكفاية التامة، لدحض شُبَهِ منكري الربوبية.

أما توحيد الألوهية، فهو الذي وقعت فيه أكثر الخصومة، وهو الذي ظفر إبليس فيه بفئام من الخلائق؛ فصرفوا العبادة لغير الله جل وعلا، مع إقرارهم بأن الله هو الرب الخالق الرازق المحي المميت المدبر، فما أكثره اليوم فترى في كثير من البلدان من يصرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبادات لغير الله جل وعلا، كالطواف حول القبور، والنذور عند الأضرحة والمشاهد، وسكب العبرات توبة لأصحاب القبور، وتضرعا وتوسلا إليهم، وتمريغ الوجه على عتبة المزارات، وذبح الذبائح والقرابين للأولياء والصالحين، والاستغاثة بهم؛ لتفريج الكربات وقضاء الحاجات، ويسمونهم بالأقطاب والأغواث، ورجالات الغيب، ويعتقدون فيهم أنهم يدبرون الكون مع الرب جل وعلا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهذا ينادي البدوي وذاك ينادي السيدة زينب وآخر يستغيث بالحسين وآخر يأتي إلى السيدة خديجة لتهبه الولد ، وجماعة آخرون يشدون الرحال لأداء فروض الطاعة والولاء وطقوس العبودية لهم؛ فتُذبح الذبائح، ويحضر المرضى ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً؛ لطلب الشفاء منهم، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات، فماذا تركوا لله جل وعلا؟!!، إذ قد صرفوا جُلَّ عبودياتهم للأموات والغائبين، بل ويعتقدون أنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما ترى هذا في كتب بعض الطوائف كالطائفة (البرهانية) في كتابهم الموسوم بـ(تبرئة الذمة في نصح الأمة) وهذا الكتاب يحكي قواعد عامة، ومعتقدات راسخة عند هذه الطائفة، وهي في الحقيقة أصول لمعظم الطوائف الصوفية، وغير هذا كثير مما تعج به بلدان المسلمين اليوم، وهم يستحلون بذلك الكذب على الله ورسوله، بإيراد الأحاديث الموضوعة والأخبار المكذوبة، إمعاناً منهم في الغي والضلال، وحرصاً منهم على ترويج الباطل، ودعوة الناس إلى جهنم وبئس المصير. فقد كفوا إبليس كثيرا من المؤونة، وقاموا بالدور على أكمل وجه حتى قال قائلهم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكنت امرء من جند إبليس فارتقى .... بي الدهر حتى صار إبليسُ من جندي

فـإن يمت قبلي كنت أحسن بعـده .... طَـرَائِـقَ فِسْـقٍ ليـس يُحْسِـنها بعدي

قال البوصيري في بردته التي يتغنى بها كثير من المتصوفة، بل وينشرونها، ويرغبـون فيه، ويذكرونها في اجتماعاتهم واحتفالاتهم، قال مخاطباً النبي r في غلو ظـاهر وإشراك بَيِّن، وهذا عين ما خافه النبي r علينا، وحذرنا منه، فلا حول ولا قـوة إلا بـالله العـلي العظيم، قال:

واذكـر نبيـك أعـلى الله منـبره... واحـكـم بـما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف...ومِن فـخار ومـن فـضـل ومن همـم

وانسب إلى يده ما شئت من منن... وانسـب إلى قـدره مـا شئت من عظم

فإن فضـل رسـول الله ليس لهند ... ونـادبـه فـي الخـطـب لـم يـضـم

إلى أن قال:

يا أكـرم الخلـق مالي من ألـوذ به... وصـرت للضـنك والأنكـاد كـالعـلـم

وليـس لي إمـام الرسـل من سند... سـواك عنـد حلـول الحـادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي... إن أبخس الخصم طيشا في الورى قيمي

ولن أرى الضيم إن أوليتني نظرا ...إذا الـكـريـم تحـلى بـاسـم مـنـتـقـم

فـإن مـن جودك الدنيا وضرتها... وأنـت أكـرم مـن يـمـشي عـلى قـدم

فمن فهومك تفسير الكتاب بدا ... ومـن عـلـومـك عـلـم اللـوح والقلم

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت...ولازمي بـاب بـاب الله واعـتـصـمي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فائدة: لا يصح من أحاديث الأبدال شيء:

قال ابن القيم في كتابه :(المنار المنيف):[ومن ذلك أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله r .

وأقرب ما فيها:(لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء) كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلا آخر ذكره أحمد ولا يصح أيضا فإنه منقطع]ا.هـ.

ومن هنا نعلم خطورة إهمال بيان توحيد الألوهية للعباد، وأن هذا من أوجب الواجبات، وأعظم المقامات والقربات، وأن ترك ذلك، والدعوة إلى غيره، من إقامة الدولة، أو جمع الناس على فضائل الأعمال، لهو من أعظم الظلم في حق الخالق جل وعلا، وحق المخلوقين، وهو من الغش والخداع وعدم الرحمة للعباد، في انتشالهم من أوضار الشرك، وحبائل الشيطان وشراكه، التي أوقع فيها كثيرا من العباد إلا من رحم الله.

وأما النوع الثالث، وهو توحيد الأسماء والصفات، فقد تقدم الحديث عن ذلك، وبينا أنه قد ضل في هذا الباب طائفتان:

١- المعطلة. ٢- الممثلة.

وسيندم كل من هاتين الفرقتين ندماً عظيماً، في موطنين في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا، فما سيقع فيه هؤلاء ومن نحى نحوهم عند ظهور المسيح الدجال، فهم لا يعرفون ربهم، إلا بتشبيهه بالمخلوقين،فإذا أتى الدجال- بما أجرى الله على يديه من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خوارق العادات-؛ وقعوا في الفتنة به،حتى لربما آمنوا بـه ربـاً لهـم، نسـأل الله العافيـة والسلامة.

أما في الآخرة فكما أنهم حجبوا أنفسهم عن رؤية الحق جل وعلا، بمعرفتـه بأسـمائه وصفاته في الحياة الدنيا، وما قدروه حق قدره؛ فلن يعرفوا ربهم يوم القيامة، وهـذا مـا ذكره النبي r عن المنافقين، فإنهم لا يعرفون ربهم، ويفتنون في صفاته تبارك وتعـالى في عرصات القيامة، نسأل الله العافية والسـلامة، وبعـد ذلـك النـار والعيـاذ بـالله،كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري t قال النبي r :"حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَـانَ يَعْبُـدُ اللهَّ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِـي رَأَوْهُ فِيهَا.قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَـادُ أَنْ يَنْقَلِـبَ. فَيَقُـولُ هَـلْ بَيْـنَكُمْ وَبَيْنَـهُ آيَـةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَـانَ يَسْـجُدُ لله مِـنْ تِلْقَـاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللهُّ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَـلَ اللهُّ ظَهْـرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ"...الحديث.

ومن الإيمان بالله جل وعلا الإيمان بوجـوده تبـارك وتعـالى، وهـذا ثابـت بـالفطرة السليمة، والعقل الصحيح، والشرع المنزل، والحس المدرك، فكل مفطـور عـلى معرفـة وجود الرب تعالى، بل حتى الدواب تعرف ذلك، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وملائكته): الملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى، خلقهم الله تعالى من النور، والإيمان بالملائكة ينقسم إلى قسمين:

١ - **الإيمان المُجْمَل**: وهو أن تؤمن أن الله جل وعلا، خلق في الجملة عباداً، من نور، وأَسْمَاهُم بالملائكة، وأنهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، وأن لكل واحد منهم عملاً ومقاما معلوما يقوم به بين يدي الرب تبارك وتعالى، وأنهم مطيعون لله جل وعلا أبداً، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يعصون الله ما أمرهم،وهو ذليلون لله خاضعون خائفون مشفقون، كما قال تعالى في وصفهم إذا تكلم الله جل جلاله، بالوحي في السماء:{وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:٢٣]، وأن نعلم أن لهم أجنحة وأسماءً، لا نعرف منها إلا الشيء اليسير، وأن منازلهم عند الله متفاوتة، وأن الله جل وعلا أخبرنا، أن بعضهم يتشكلون في صور على ما أراد الله جل وعلا، وأنهم موجودون حقيقةً، لا كما يقول الزنادقة (كابن سيناء) في كتابه (الإشارات) وغيره، من أنهم عبارة عن تصورات روحانية، من قبل الأنبياء، بسبب سمو نفوسهم، وطهارة أرواحهم، وعلو أخلاقهم وهممهم، فعند هؤلاء الزنادقة لم ير الأنبياء شيئاً، ولم يتنزل ملك أصلا، بل لم يخلق الله ملكاً، ولم يتكلم الله بوحي، وهذا لا شك أنه تكذيب محض، وكفر صراح نسأل الله العافية والسلامة، وهذا الإيمان المجمل يلزم جميع المسلمين أن يقنوا به، ويعلمه عوامهم وعلمائهم، وذكورهم وإناثهم ممن كلف منهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن العجائب في هذا الزمان المليء بالعجائب، أن الأمة تعظم ابن سينا القرمطي، وتسمى بعض أبنائها به، وترى كثيرا من الصيدليات والمستشفيات تسمى به، فيا لِغُرْبَةِ العقيدة بين أهلها.

قال ابن القيم في نونيته وهو يُبين مقالة ابن سينا وأشباهه من القرامطة الباطنيين:فصل: في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جل جلاله:

وأتى ابن سينا القرمطي مصانعا ... للمسلمين بإفك ذي بهتان
فرآه فيضا فاض من عقل هو الـ ... ـفعال علة هذه الأكوان
حتى تلقاه زكي فاضل ... حسن التخيل جيد التبيان
فأتى به للعالمين خطابة ... ومواعظا عريت عن البرهان
ما صرحت أخباره بالحق بل ... رمزت إليه إشارة لمعان
وخطاب هذا الخلق والجمهور بالحـ ... ـق الصريح فغير ذي إمكان
لا يقبلون حقائق المعقول إلا ... في مثال الحس والأعيان

وقال أيضا: فصل: في طريقة ابن سينا وذويه من الملاحدة في التأويل:

وأتى ابن سينا بعد ذا بطريقة ... أخرى ولم يأنف من الكفران
قال المراد حقائق الألفاظ تخييـ ... ـلا وتقريبا إلى الأذهان
عجزت عن الإدراك للمعقول ... إلا في مثال الحس كالصبيان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في النونية أيضا في مقارنته بين قول أهل الحديث والسنة، وبين قول الزنادقة، كـ (أرسطو وابن سينا ونصير الطوسي وبشر المريسي وحفص الفرد والنظام المعتزلي والشحام وغيرهم):

أهل الحديث جميعهم وأئمة الـ ... ـفتوى وأهل حقائق العرفان
العارفون بربهم ونبيهم ... ومراتب الأعمال في الرجحان
هذا كلامهم لدينا حاضر ... من غير ما كذب ولا كتمان
فاقبل حوالة من أحال عليهم ... هم أمليـاء أولو إمكان
فإذا بعثنا غارة من أخريا ... ت العسكر المنصور بالقرآن
طحنتكم طحن الرحى للحب حـ ... ـتى صرتم كالبعر في القيعان
أنى يقاوم ذي العساكر طمطم ... أو تنكلوشا أو أخو اليونان
أعني أرسطو عابد الأوثان أو ... ذاك الكفور معلم الألحان
ذاك المعلم أولا للحروف والثـ ... ـاني لصوت بئست العلمان
هذا أساس الفسق والحرف الذي ... وضعوا أساس الكفر والهذيان
أو ذلك المخدوع حامل راية الـ ... إلحاد ذاك خليفة الشيطان
أعني ابن سينا ذلك المحلول من ... أديان أهل الأرض ذا الكفران
وكذا نصير الشرك في أتباعه ... أعداء رسل الله والإيمان
نصروا الضلالة من سفاهة رأيهم ... وغزوا جيوش الدين والقرآن
فجرى على الإسلام منهم محنة ... لم تجر قط بسالف الأزمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو جعدا وجهم وأتباع له ... هم أمة التعطيل والبهتان
أو حفص أو بشر أوالنظام ذا ... ك مقدم الفساق والمجان
والجعفران كذاك شيطان ويد ... عى الطاق لا حييت من شيطان
وكذلك الشحام والعلاف والنـ ... جار أهل الجهل بالقرآن
والله ما في القوم شخص رافع ... بالوحي رأسا بل برأي فلان
وخيار عسكركم فذاك الأشعر ... ـي القرم ذاك مقدم الفرسان
لكنكم والله ما أنتم على ... إثباته والحق ذو برهان
هو قال إن الله فوق العرش ... واستولى مقتالة كل ذي بهتان
في كتبه طرا وقرر قول ذي الـ ... إثبات تقريرا عظيم الشان
لكنكم أكفرتموه وقلتم ... من قال هذا فهو ذو كفران
فخيار عسكركم فأنتم منهم ... برآء إذ قربوا من الإيمان
هذي العساكر قد تلاقت جهرة ... ودنا القتال وصِيحَ بالأقران
صفوا الجيوش وعبئوها وابرزوا ... للحرب واقتربوا من الفرسان
فهم إلى لقياكم بالشوق كي ... يوفوا بنذرهم من القربان
ولهم إليكم شوق ذي قرم فما ... يشفيه غير موائد اللحمان
تبا لكم لو تعقلون لكنتم ... خلف الخدور كأضعف النسوان
من أين أنتم والحديث وأهله ... والوحي والمعقول بالبرهان
ما عندكم إلا الدعاوى والشكا ... وى أو شهادات على البهتان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هـذا الـذي والله نـلـنـا مـنكم ... في الحـرب إذ يـتـقـابل الصـفان
والله مـا جـئـتـم بـقـال الله أو ... قال الـرســول ونحـن في الميدان
إلا بِـجَـعْـجَعَةٍ وفرقعة وغـَمْـ ... غَـمَـة وقَـعْـقَـعَـةٍ بـكل لســان

وعليه فاعلم رحمك الله، أن الأسماء القديمة[1]، إذا لمعت في سماء الأمة في الزمن المعاصر، إن لم يزكها أئمة الهدى؛ فاعلم أن من وراء تلميعها ورفعها أعداء الله؛ ليخْدَعُوا الأمة ويُخَادعوها.

---

١ - جاء في رسالة للشيخ ناصر الفهد فك الله أسره ونفع بـه، جمـع فيهـا ضـلالات وأقـوال أئمـة السلف في ابن سينا ومن على شاكلته، فنذكر من ذلك مختصرا: فمن هؤلاء ابن المقفع - عبـد الله بـن المقفع - [ت: ١٤٥ هـ]: كان مجوسياً فأسلم، وعرّب كثيراً من كتب الفلاسفة، وكان يتهم بالزندقـة. وجابر ابن حيان [ت: ٢٠٠ هـ]: أولاً: إن وجود جابر هذا مشكوك فيـه. ولـو أثبتنـا وجـوده، فـإنما نثبت ساحراً من كبار السّحرة في هذه الملة، اشتغل بالكيمياء والسّيمياء والسّحر والطلسـمات، وهـو أول من نقل كتب السّحر والطّلسمات، والخوارزمي - محمـد بـن موسـى الخـوارزمي - [ت: ٢٣٢ هـ]: كان من كبار المنجّمين في عصر المأمون والمعتصم الواثق، وكان بالإضافة إلى ذلك من كبار مَـنْ ترجم كتب اليونان وغيرهم إلى العربية. والجاحظ - عمـرو بـن بحـر - [ت: ٢٥٥ هــ]:مـن أئمـة المعتزلة، تنسب إليه "فرقة الجاحظية"، كان شنيع المنظر، سيء المخـبر، رديء الاعتقـاد، تنسـب إليـه البدع والضّلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال، حتى قيل: (يا ويح من كفّره الجاحظ). وابن شاكر - محمد بن موسى بن شاكر]ت ٢٥٩ :هـ:[فيلسوف، موسـيقي، مـنجّم، مـن الـذين ترجمـوا كتب اليونان، وأبوه موسى بن شاكر، وأخواه أحمد والحسن؛ منجمون فلاسـفة أيضـاً، والكنـدي - يعقوب بن اسحاق - [ت: ٢٦٠ هـ]: فيلسوف، من أوائـل الفلاسـفة الإسـلاميين، مـنجّم ضـال،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة، بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه، عباس بن فرناس [ت: ٢٧٤ هـ]: فيلسوف، موسيقي، مغنٍ، منجّم، نسب إليه السّحر والكيمياء، وكثر عليه الطّعن في دينه، واتهم في عقيدته، وكان بالإضافة إلى ذلك شاعراً بذيئاً في شعره مولعاً بالغناء والمُوسيقى، وثابت بن قرة [ت: ٢٨٨ هـ]: صابئ، كافر، فيلسوف، ملحد، منجّم، وهو وابنه إبراهيم بن ثابت وحفيده ثابت بن سنان؛ ماتوا على ضلالهم، واليعقوبي - أحمد بن اسحاق - [ت: ٢٩٢ هـ]: رافضي، معتزلي، تفوح رائحة الرّفض والاعتزال من تاريخه المشهور، ولذلك طبعته الرّافضة بالنجف، والرازي - محمد بن زكريا الطبيب:] ت ٣١٣ :هـ[من كبار الزّنادقة الملاحدة، يقول بالقدماء الخمسة الموافق لمذهب الحرانيين الصابئة - وهي الرّب والنفس والمادة والدّهر والفضاء - وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وصنّف في مذهبه هذا ونصره، وزندقته مشهورة، و البتّاني - محمد بن جابر الحراني الصابئ - [ت: ٣١٧ هـ]: كان صابئاً، قال الذهبي: (فكأنه أسلم)، فيلسوفاً، منجّماً، والفارابي - محمد بن محمد بن طرخان] ت ٣٣٩ :هـ[من أكبر الفلاسفة، وأشدهم إلحاداً وإعراضاً، كان يفضّل الفيلسوف على النبي، ويقول بقدم العالم، ويكذّب الأنبياء، وله في ذلك مقالات في انكار البعث والسّمعيات، وكان ابن سينا على إلحاده خير منه، نسأل الله السّلامة والعافية، والمسعودي - علي بن الحسين - [ت: ٣٤٦ هـ]: كان معتزلياً، شيعياً، والمجريطي - مسلمة بن أحمد - [ت: ٣٩٨ هـ]: فيلسوف، كبير السّحرة في الأندلس، بارع في السّيمياء والكيمياء، وسائر علوم الفلاسفة، نقل كتب السّحر والطّلاسم إلى العربية، وألف فيها "رتبة الحكيم" و "غاية الحكيم"، وهي في تعليم السّحر والعياذ بالله.

ومسكويه - محمد بن أحمد - [ت: ٤٢١ هـ]:كان مجوسياً، فأسلم، وتفلسف، وصحب ابن العميد الضّال، وخدم بني بويه الرّافضة، واشتغل بالكيمياء فافتتن بها، وابن الهيثم - محمد بن الحسن بن الهيثم - [ت: ٤٣٠ هـ]: من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علماً وسفهاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإلحاداً وضلالاً، كان في دولة العبيديين الزنادقة، كان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات، وابن النديم - محمد بن اسحاق رافضي، معتزلي، غير موثوق به، والمعرّي - أبو العلاء أحمد بن عبد الله المشهور بالزّندقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفي أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين، وابن باجه - أبو بكر بن الصائغ، محمد بن يحيى - [ت: ٥٣٣ هـ]: فيلسوف كأقرانه، له إلحاديات، يعتبر من أقران الفارابي وابن سينا في الأندلس، من تلاميذه ابن رشد، وبسبب عقيدته حاربه المسلمون هو وتلميذه ابن رشد، الأدريسي - محمد بن محمد - [ت: ٥٦٠ هـ]: كان خادماً لملك النّصارى في صقليه بعد أن أخرجوا المسلمين منها، وكفى لؤماً وضلالاً، وابن طفيل - محمد بن عبد الملك من ملاحدة الفلاسفة والصّوفية، له الرّسالة المشهُورة "حي ابن يقظان"، يقول بقدم العالم وغير ذلك من أقوال الملاحدة، وابن رشد الحفيد - محمد بن أحمد بن محمد [٥١] - [ت: ٥٩٥ هـ]: فيلسوف، ضال، ملحد، يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع، ويقول بقدم العالم وينكر البعث، وحاول التوفيق بين الشريعة وفلسفة أرسطو في كتابيه "فصل المقال" و "مناهج الملة"، وهو في موافقته لأرسطو وتعظيمه له ولشيعته؛ أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد انتصر للفلاسفة الملاحدة في "تهافت التهافت"، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، والحادياته مشهورة، نسأل الله السلامة، وابن جبير - محمد بن أحمد - [ت: ٦١٤ هـ]: صاحب الرّحلة المعروفة بـ "رحلة ابن جبير"، ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور والمشاهد الشّركية، وتعظيمه للصّخور والأحجار، واعتقاده بالبدع والخرافات وغيرها كثير، والطوسي - نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن - [ت: ٦٧٢ هـ]: نصير الكفر والشّرك والإلحاد، فيلسوف، ملحد، ضال مضل، كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين، حاول أن يجعل كتاب "الإشارات" لابن سينا بدلاً من القرآن، وفتح مدارس للتّنجيم والفلسفة، وإلحاده عظيم، نسأل الله العافية، وابن البناء - أحمد بن محمد - [ت: ٧٢١ هـ]: شيخ المغرب في الفلسفة والتّنجيم والسّحر والسّيمياء، وابن بطوطة - محمد بن عبد الله -] ت ٧٧٩ :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- **الإيمان المُفَصَّل**: وذلك بأن نثبت ما أثبته الله جل وعلا لملائكته على وجه التعيين والخصوص، من الأسماء، والوظائف، والأشكال، والصور، فنعرف من سماهم الله جل وعلا بأسمائهم، مثل (جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومنكر، ونكير[1]، وملك

هـ:[الصّوفي، القبوري، الخرافي، الكـذّاب، كـان جـل اهتماماتـه في رحلتـه المشـهورة؛ زيـارة القبـور والمبيت في الأضرحة، وذكر الخرافات التي يسـمونها "كرامـات" وزيـارة مشـاهد الشرك والوثنيـة، ودعائه أصحاب القبور وحضور السماعات ومجالس اللهو، وذكر الأحاديـث الموضـوعة في فضـائل بعض البقاع، وتقديسه للأشخاص، والافتراء على العلماء الأعلام، وغير ذلك.

١- وردت تسمية (منكر ونكير) في حديث أبي هريرة مرفوعا والـبراء وابـن عبـاس وأبي الـدرداء موقوفا وجاء عن عطاء بن يسار مرسلا، وهذه الأخبار تكلم فيهـا بعـض أهـل العلـم، ولكـن ذكـر اللالكائي في كتابه:(اعتقاد أهل السنة) في اعتقاد أحمد بن حنبل أنه قال:[والايمان بعذاب القـبر وأن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن الايمان والإسلام ومن ربه ومن نبيه ويأتيه منكر ونكـير كيـف شاء الله عز وجل وكيف أراد والايمان به والتصديق به]ا.هـ.

ونقل أيضا عن علي بن المديني ومن نقل عنه ممن أدركه من جماعـة السـلف....:[والإيـمان بعـذاب القبر إن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن النبي r ويأتيه منكر ونكير كيـف شـاء الله عـز وجـل وكما أراد الإيمان بذلك والتصديق].ا.هـ. قلت:وهذا دال على أن هذه من عقائد السلف، ومما يؤكـد ترجيح الأخبار الواردة بذلك؛ جزم إمامين من أئمة الحديث بذلك في عقيدتيهما، وهمـا الإمـام أحمـد وابن المديني كما تقدم. والله أعلم.

ومما ظاهره القوة ما جاء في مصنف ابن أبي شيبة: حدَّثَنَا غُنْدَرٌ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ يَعْلَى بْنِ عَطَاءٍ عَنْ تَمِيمٍ عَنْ غَيْلاَنَ بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنَّك قَدْ أَصْبَحْتَ عَلَى جَنَاحِ فِرَاقِ الدُّنْيَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، وَأَذْكُرُك بِهِ، قَالَ: إِنَّك مِنْ أُمَّةٍ مُعَافَاةٍ، فَأَقُمَ الصَّلاَةَ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموت، ومالك خازن النار، وملك الجبال، وملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وحملة العرش)، وملك الموت شاع عند العامة أن اسمه (عزرائيل)،وهذا قول لا دليل عليه، بل هو قول باطل؛ لأن السُّنة جاءت بتسميته (ملك الموت)، وأما خازن الجنة، فقد اشتهر أن اسمه (رضوان)، ولم أقف على دليل صحيح صريح في ذلك.

ذكر طرف من وظائف بعض الملائكة:

وأن نعلم أن جبريل، موكل بالوحي والعذاب للأمم الكافرة، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث والجزاء والنشور، وأن ميكائيل موكل بالقطر من السماء يَزْجُرُ السحاب إلى حيث شاء الله تبارك وتعالى، وأن مالكاً خازن النار،وأن ملك الموت

وَأَدِّ زَكَاةَ مَالِكِ، إِنْ كَانَ لَكَ، وَصُمْ رَمَضَانَ وَاجْتَنِبَ الْفَوَاحِشَ، ثُمَّ أَبْشِرْ، قَالَ: ثُمَّ أَعَادَ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ شُعْبَةُ: وَأَحْسَبُهُ أَعَادَ عَلَيْهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَفَضَ الرَّجُلُ رِدَاءَهُ، وَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ} إِلَى قَوْلِهِ {وَيَلْعَنُهُمُ اللاَعِنُونَ}، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: عَلَيَّ الرَّجُلِ، فَجَاءَ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:(مَا قُلْتَ)؟، قَالَ: كُنْتُ رَجُلاً مُعَلَّمًا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدِي، فَأَرَدْت أَنْ تُحَدِّثَنِي بِمَا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَلَمْ تَرُدَّ عَلَيَّ إِلاَّ قَوْلاً وَاحِدًا، فَقَالَ له أَبُو الدَّرْدَاءِ:(اجْلِسْ، ثُمَّ اعْقِلْ مَا أَقُولُ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ يَوْمٍ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَرْضِ إِلاَّ عَرْضُ ذِرَاعَيْنِ فِي طُولِ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ، أَقْبَلَ بِكَ أَهْلُك الَّذِينَ كَانُوا لاَ يُجِبُّونَ فِرَاقَك، وَجُلَسَاؤُك، وَإِخْوَانُك فَأَثْقَنوا عَلَيْك الْبُنْيَان، ثُمَّ أَكْثَرُوا عَلَيْك التُّرَاب، ثُمَّ تَرَكُوك لِمَتَلِّكَ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَك مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ جَعْدَانِ، اسْمَاهُمَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ فَأَجْلَسَاك، ثُمَّ سَأَلاَك مَا أَنْتَ أَمْ عَلَى مَاذَا كُنْت؟، أم مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا، فَإِنْ قُلْتَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ قَالُوا قَوْلاً، فَقُلْتُ، فَقَد وَاللَّهِ رَدِيتَ، وخَزِيتَ، وَهَوِيتَ، وَإِنْ قُلْتَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ، فآمَنْتُ بِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، فَقَدْ وَاللَّهِ نَجَوْتَ، وَهُدِيتَ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ ذَلِكَ إِلاَّ بِتَثْبِيتٍ مِنَ اللهِ، مَعَ مَا تَرَى مِنَ الشِّدَّةِ وَالْخَوْفِ)، قلت: سنده ظاهره الصحة، وهو من الموقوف الذي له حكم الرفع. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقبض الأرواح، وأن ملائكة الرحمة لأرواح المؤمنين، وملائكة العذاب لأرواح الكافرين والمنافقين، وأنهم لا يزالون يتعبدون الله جل وعلا بألوان من الطاعات والقربات، من تسبيح لله، واستغفار للمؤمنين، كما قال تعالى:{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الشورى:٥]، وفيهم من هو بين سجود وقيام لله تعالى، كما في الصحيحين في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس t ، وفيه قال النبي r :"فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ"،ونحو ذلك من العبادات، وأنهم يتسابقون في إرضاء الله جل وعلا، و أن جبريل له ستمائة جناح، إذا قام بها سد الأفق، كما في الصحيحين من طريق أبي إسحاق الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} قَالَ أَخْبَرَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ :(أَنَّ النَّبِيَّ r رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ)، وقيل إنه حمل قرية (المؤتفكات) وهم قوم لوط، حملهم بما فيها بطرف جناحه، أي بطرف جناح من الأجنحة إلى أن وصل بهم عنان السماء ثم قلب عاليها سافلها، وأن من حملة العرش ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، كما في سنن أبي داود بسند جيد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ"، قال تعالى:{هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان:١١]، إلى غير ذلك من تتبع الأدلة للإيمان بما أفادته، إما على وجه الإجمال، أو على وجه التفصيل، بحسب موارد الأدلة.

وهذا الإيمان يقرر لنا حقيقة كبرى، وهي أن الله جل وعلا، خلق خلقاً هم أعظم منا أجساماً، ومع ذلك هم أسرع منا إجابة، وأكثر منا طاعة، وأعظم منا قوة، يتسابقون في مراضي الله جل وعلا؛ لئلا نُعجب بأعمالنا، ولا ندلي بها على ربنا، ولنعلم كمال غناه عنا وعن عبادتنا، وأنه معبود في الأرض والسماء، مع غناه جل وعلا عن عبادة كل عابد في السماء والأرض؛ ولنزداد قوة في الحق، وثباتاً على الدين، فعندما يعلم الواحد منا أنه ليس وحده الذي يدعوا الله جل وعلا، ويدافع عن دينه، بل ثمة ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله جل وعلا يفعلون ذلك أيضاً، ولكي لا نستوحش من قلة السالكين، ولا نحزن لكثرة المخالفين والمعارضين، فمعنا على هذا السبيل خير خلق الله في الأرض والسماء، فما علينا إلا أن نمضي في سبيل الحق والدين،ولن يضرنا بإذن الله تعالى، خذلان خاذل، ولا مخالفة مخالف، كما أن من وظائف الملائكة تثبيت الذين آمنوا بأمر الله، ومن وظائفهم القتال مع المؤمنين الصادقين بأمر الله رب العالمين، وضرب أعناق الكافرين وبنانهم، وما النصر إلا من عند الله جل وعلا، كما قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال:٩-١٢] ، فيجب الإيمان بكل ما أخبر الله جل وعلا عن الملائكة بأعيانهم ووظائفهم أنه حق اليقين، ونؤمن أيضاً أن من الملائكة من يمكن لبعض العباد رؤيتهم، كما رأى الصحابة جبريل في صورة رجل، وكثيراً ما يأتي في صورة، (دحية الكلبي t)، وكما رأى بعضهم الملائكة تقاتل يوم بدر، وهذا الأيمان معرفته على وجه التفصيل مما يجب على العلماء وطلبة العلم بيانه للناس ليكمل إيمانهم بالملائكة وليعرفوا فوائد ذلك.

قوله:(وكتبه) : كذلك الإيمان بالكتب ينقسم إلى قسمين:

١- **الإيمان المجمل**: أن نعلم ونُـيْقِن أن الله جل وعلا، أنزل كتباً كثيرة، وأنها اشتملت على الحق المبين والصراط المستقيم، و سعادة العباد في الدنيا والآخرة، وأن في اتباعها العزة والنصرة والتمكين، وفي تركها الخذلان والذل والهلاك، وأنها كلام الله جل وعلا، وأنها تتفاوت في فضلها،وأن العباد ملزمون بالأخذ بها، واستقاء الهدايات منها، والرد إليها في كل شيء، وفي الخصومات والمنازعات، وأنه لا يجوز لأحد الحكم بغيرها، ولكن لك منهم شريعة أوحى الله بها لا يجوز تخطيها إلى غيرها، فالخلق خلق الله والأمر أمره، ولا بد أن يكون الحكم حكمه، وهذا قد تقدم بيانه وسيأتي.

٢- **الإيمان المفصل**: هو أن نعرف أسماء ما أسماه الله جل وعلا من الكتب، وعلى من أنزلت، (فالصحف على إبراهيم، والتوراة وتسمى الصحف على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داوود، والفرقان أو القرآن على محمد r)، وأن نعلم أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرآن مهيمناً على سائر الكتب،يُصَدِّق ما فيها من الحق، وينفى ما فيها من الباطل، الذي وضعه العباد تحريفاً للكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه؛ ولهذا نسخها الله جميعها، وختم كتبه بالقرآن العظيم، وأكمل فيه الدين، وأتم به النعمة، ولم يأذن لأحد من أفراد هذه الأمة، وهم كل من حضر بعثة النبي r وإلى قيام الساعة، لم يأذن لأحد أن يتبع غير هذا الكتاب العزيز، وكذلك علينا أن نؤمن بأنه محفوظ حروفاً وحدوداً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،فمن شك أو تردد أو زعم زيادة أو نقصانا فيه فقد كفر، فويل للرافضة المارقين، وأنه كلام الله مُنزل غير مخلوق، فهو صفة من صفات الله جل وعلا، وأن من قال بأن القرآن مخلوق فهو كافر بالله، وأن الله جل وعلا ما فرط فيه من شيء، وأنه حوى سائر العلوم التي يحتاجها العباد، النافعة لهم في المعاش والمعاد، وأنه يجب على المسلمين، تلاوته وتدبره، والعمل به والتحاكم إليه، والرضى بحكمه والاستسلام والانقياد لأمره، واجتناب نهيه، والإيمان بمتشابهه، ورده إلى محكمه، والعمل بحكمه، وتأليف بعضه على بعض، وأنه خاتم كتب الله جل وعلا، وأن نؤمن أن هذه الكتب قد اشتملت على الحق المبين، الذي لا باطل معه، وعلى الأخبار الصادقة التي لا كذب فيها، وأنها جاءت بكل ما يحتاجه العباد في معاشهم ومعادهم، وأنه يلزم كل أمة أُنزل إليها كتاب، أن تؤمن بسائر الكتب، ولكن عليها ألا تعمل إلا بالكتاب المنزل إليها، فأمة محمد r يلزمها الإيمان بسائر الكتب التي أنزلها الله جل وعلا، إجمالاً فيما أجمل، وأعياناً فيما وسمى وعين، ولكن يحرم عليها العمل بغير القرآن الكريم، الذي أُنزل على النبي r ، الكفر بكتاب واحد كالكفر بجميع الكتب؛ لأن الكفر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالكتاب كفر بمن أنزله، والمتكلم به وهو الله رب العالمين، والكلام هنا عن أصول الكتب، لا عن الموجودة اليوم، التي دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، فهذه لا يجوز الإيمان بها، بهذا الاعتبار، ولهذا قيد القرآن الإيمان بما فيها من الحق، فعلينا أن نؤمن بما نزل من عند الله، كما قال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى:١٥].

من اتبع كتابا غير القرآن فهو كافر:

وَيَتْبَع الإيمان بالكتب، اعتقاد كفر من اتبع اليوم كتاباً غير القرآن الكريم، وإن وُجِدَتْ صحف موسى، وإنجيل عيسى، عليهما السلام على وجه لم يحرف منهما شيء، مع أن هذا محال.

فلو أن موسى بن عمران عليه السلام بيننا؛ ما وسعه إلا أن يتبع هذا الكتاب العزيز، وإلا أن يدخل في شريعة محمد r ؛ ولهذا إذا نزل عيسى عليه السلام آخر الزمان، فإنه سيحكم بشريعة محمد r ، ويأخذ بالقرآن العظيم، فيصلى صلاتنا، ويقرأ كتابنا، ويصلي خلف إمام منا.

كما في صحيح مسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ r فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الأُمَّةَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t عَنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ".

قوله:(ورسله): وكذلك الإيمان بالرسل ينقسم إلى قسمين:

١ - **الإيمان المجمل**: فنؤمن أنهم أرسلوا من عند الله جل وعلا، وأنهم صفوة خلق الله تبارك وتعالى، وأنهم معصومون عن الضلال في تبليغ الحق، ومعصومون من الكبائر كلها بما في ذلك الشرك، ومعصومون في كل ما يقدح في عقولهم وأخلاقهم، وأنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم، بل هم مؤتمنون الأمن التام على تبليغ شرع الله عز وجل، وأنهم لم يدخروا وسعاً في النصح لأممهم، فما من خير إلا ودلوا عليه، وما من شر إلا وقد حذروا منه، وأنهم القدوة في فعل الخيرات، وترك المنكرات، وأن من أعظم ما بينوه أسماء الله وصفاته، وحقوقه تبارك وتعالى على عباده، وأنهم في الجملة قد بلغوا البلاغ المبين، وأنه يحرم المفاضلة بينهم على وجه التنقص والاحتقار والازدراء، كما قال تعالى:{لا نفرق بين أحد من رسله}، وكما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ r بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي فَقَالَ:"لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ" فَذَكَرَهُ فَغَضِبَ النَّبِيُّ r حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ:"لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"، مع اعتقاد أن بعضهم أفضل من بعض، من جهة منازلهم عند الله تعالى، وأن ذلك من فضل الله جل وعلا يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، كما قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة:٢٥٣]، فَحَرَّمَ تفضيل التنقص، وأثبَتَ تفاضل المنزلة.

وأن أفضلهم وأكرمهم وأشرفهم هو محمد r ، فهو النبي الخاتم ولا نبي بعده، وأنهم أولوا عزم، وأن أفضلهم أعلاهم شأنا في ذلك، كما قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٥]، وقد اختلف العلماء في قوله تعالى: {من الرسل} في هذه الآية هل {مِنْ} للتبعيض، أم للجنس؟، على قولين، فمن قال إنها للجنس؛ كان المعنى أن الرسل كلهم من أولي العزم، ومن قال بأنها تبعيضية؛ خص بذلك بعض الرسل، وهم على المشهور،(نوح – إبراهيم – موسى – عيسى – محمد r ، وعليهم أجمعين)، وبعضهم يضيف إليهم (هود)، ولا تعارض بين القولين، فإن مما لا شك فيه أن جميع الرسل أولوا عزم، ولكن هؤلاء الخمسة أعلاهم في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك كَعْباً ومنزلة، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، وهذا أظهر، ومما يرجح ذلك أن الله تعالى جمع هؤلاء الخمسة، في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [الأحزاب:٧]، وقوله: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى: ١٣]، وهم الذين سيأتيهم أهل الموقف في عرصات القيامة؛ يسألونهم الشفاعة بين يدي الله تعالى كما تقدم. والله أعلم.

مسألة: من هم أولوا العزم من الرسل:

واعلم أن هناك نحوا من عشرة أقوال، في تحديد من هم أولوا العزم من الرسل، ولكن أصل الخلاف يدور على ما هو المراد بـ {مِنْ} في آية الأحقاف، وقد تقدم التفصيل والراجح. والله أعلم.

أما القول بأن (آدم) و (يونس) عليهما السلام، ليسا من أولي العزم؛ لأن الله تعالى قال في شأن أبينا آدم عليه السلام: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه:١١٥]، وقال في شأن يونس -وهو صاحب الحوت- عليه السلام: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القلم:٤٨]، فإنه قول مرجوح وفيه نظر؛ لأن الظاهر من العزم المذكور عن آدم عليه السلام، إنما المراد به الإصرار، وتعمد معصية الله تعالى، والمعنى أي لم نجده مصرا، ولا قاصدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معصيتنا، وإنما غره الشيطان، وعلى القول الآخر فإن الله تعالى تداركه بالتوبة، وقَبِلَها منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، بل ولربما عاد بعد الذنب أعلى وأفضل وأكمل، وهذا ما حصل مع أبينا آدم عليه السلام؛ ولهذا لم يقبل من موسى عليه السلام مُعَاتَبَتَه إياه على ذنبه، كما تقدم.

وكذلك الأمر في يونس عليه السلام، فقد تداركه ربه تبارك وتعالى، فعاد أكمل وأفضل؛ ولهذا جاءت الآيات بعدها مبينة تدارك الله واجتباءه إياه، وإنعامه عليه،كما قال تعالى:{لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القلم:٤٩-٥٠]، وكذلك في قوله تعالى:{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات:١٣٩ - ١٤٨]، وفي حديث أبي هريرة **t** المتقدم في الصحيحين قال النبي **r**:"وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى".

وأن الأنبياء يحوطهم الله تعالى بعلمه وتوفيقه وتسديده وتأييده ونصره، ويمدهم بمدد من عنده، فهم أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى، كما أنه سبحانه وتعالى يعلمهم ويعاتبهم، ويبين لهم، ويتوب عليهم ويرحمهم، ويدافع عنهم، كما قال تعالى:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٣٥-٣٧]، وقال:{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات:١٣٩-١٤٨]، وقوله:{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود:٧٤-٧٦]، وقوله:{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود:٤٦-٤٧]،وقوله:{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف:١٥٠-١٥١]، وقوله:{عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} [عبس:١-١٢]. فهم أكمل الخلق على الإطلاق، كما أنه يجب عدم وضعهم موضع الاتهام، والاستدراك على أقوالهم وأفعالهم، فهم المنزهون المعصومون، فمن رد أخبارهم، وتنقص أفعالهم فقد كفر بالله العظيم، وقد ظهر في هذا الزمان من يضع الأنبياء في قفص الاتهام، ويحقق في أقوالهم وأفعالهم، إمعاناً منه في الكفر والزندقة والضلال، وما ذلك إلا لتشكيك الناس في مصداقية الرسل فيذهب الدين كله، وهذا ما حصل من أهل الكتاب من قبل، فقد نسبوا إلى أنبيائهم ورسلهم الفواحش وشرب الخمور، بل وأخس أنواع الزنا (زنا المحارم)، وما ذلك إلا ليقعوا في تلك الفواحش، ويبرروها بحجة وقوع الأنبياء فيها، وهذا فيه من أغلظ الكفر وأفحشه، وهو من التنقص العظيم لله عز وجل، ما يجعله من أعظم أنواع الكفر والضلال، فتعالى الله أن يصطفي لتبليغ رسالته من يتعاطى هذه الفواحش، ولكنهم قوم بُهْت، وهم مكذبة الرسل، وقتلة الأنبياء، والمعاندون والمحاربون لشرع الله جل وعلا، والموجودون اليوم من المنتسبين للإسلام ممن حذا حذوهم، هم أفراخ وورثة لهم، فقد تتلمذوا في هذا الزمان في جامعاتهم، ومعاهدهم الماسونية، التي قامت على حرب الفضيلة، ونشر الرذيلة، والتشكيك في الدين والرسل، بل وفي وجود الله تبارك وتعالى، فهم ملاحدة في لباس مسلمين، فنسأل الله العافية و السلامة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- **الإيمان المفصل**: وهو أن يعلم العبد كل ما فصله الله جل وعلا عنهم، في الكتاب العزيز أو النبي r في السنة المطهرة، فمن سماهم الله عز وجل آمنا بتسميته، ومن ذكر الله عز وجل أنه أرسل إلى قوم معينين؛ آمنا بذلك، ونؤمن بأن أول الرسل والأنبياء آدم عليه الصلاة السلام، وهو أبونا، ثم نوح وإدريس، وقد ذكر الله جل وعلا خمسة وعشرين نبياً ورسولاً في كتابه العزيز، فيجب الأيمان بأعيانهم وأسمائهم، ويجب معرفة ما جرى معهم مع أقوامهم وأحوال دعوتهم، احتفاء بهم وتعظيما لهم؛ ولنأخذ من ذلك العبرة، ونعرف سنة الله في الأمم، وأن النصر آتٍ لا محالة، وأن الباطل مهما أرغى وأزبد، وأرعد وهدد، وعلا صوته؛ فإنه إلى اضمحلال وزوال، وأن أهل الحق مهما اعترتهم بعض الفترات من الضعف والتقصير، إلا أن الله جل وعلا يتداركهم بتجديد لمعالم ما انْدَرَسَ من الحق؛ فيثبون إليه، ويرفعون لواءه، ويجاهدون دونه؛ فتكون لهم العاقبة والنصر والتمكين؛ ولهذا كثيراً ما يرد الله جل وعلا عباده إلى تاريخ الأمم الماضية، وهذا ما فعله النبي r أيضاً فقد كان كثيراً ما يفعل ذلك، فيقص على أصحابه والأمة من بعدهم، بعض ما جرى في الأمم الماضية، والقرون الغابرة.

وأنه على كل أمة اقتفاء أثر نبيها الخاص بها، واحداً كان أو أكثر من ذلك، وأن الواجب علينا معرفة نبينا محمد r المعرفة التامة، كما قال تعالى: {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون}، ولهذا عقد المؤلف الأصل الثالث في بيان ذلك، وسيأتي الكلام عن حياته ودعوته مفصلة فيما يأتي بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(واليوم الآخر): وهذا الركن أيضا يقال فيه ما تقدم، من وجوب الإيمان المجمل والمفصل، فما ذكر مفصلا آمنا به على وجه التفصيل، وما ذكر ومجملا آمنا به على وجه الإجمال، فلابد من الإيمان بكل ما سيقع في ذلك اليوم، ومع الإيمان بوقوع وتحقق وحصول ذلك اليوم، وأنه آت لا محالة، فهو اليوم الموعود، وهو الحاقة، وهو القارعة،وقد سمى الله جل وعلا ذلك اليوم بأسماء عديدة، تبين عظمة ذلك اليوم، وما سيجري فيه من الأهوال، ويتبع الإيمان باليوم الآخر، ما هو متعلق به، كإثبات الموت وحياة البرزخ، ونعيم القبر، وعذابه، وفتنة القبور، وتصور الأعمال إن حسنة فحسنة، وإن سيئة فسيئة، وتثبيت الله جل وعلا لعباده المؤمنين، وإضلاله للفاجرين.

والإيمان باليوم الآخر يكون بأمور:

أولاً: الإيمان بما سيجرى من الأهوال العظام، والكرب الشديد عند احتضار هذا العالم، من تكوير للشمس وجمعها مع القمر، وتسجير البحار وتفجيرها، وانْكِدَارِ الكواكب وانْتِثَارِها، وتَسْيِيْرِ الجبال حتى تكون كالعهن المنفوش، والناس لا يلوون على شيء كالفراش المبثوث، ثم بعد تطاير الصحف، كالجراد المنتشر، وما سيقع من تَلَوُّن السماء وتشققها، ودك الأرض ومدها حتى تكون كالأديم المنبسط، فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات، وكذلك اليقين بالبعث وأن الله جل وعلا يبعث من في القبور، والبعث يكون للأرواح والأجساد معاً، وسيأتي الكلام مفصلاً عن البعث وأدلته؛ لأن المؤلف أعاده بشيء من التفصيل فيما يأتي، وذلك في معرض كلامه على الأصل الثالث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: اليقين بحصول الجزاء والحساب، وما يتبع ذلك من شهادة الشهود، ونصب الموازين، ونشر الدواوين، وأخذ العباد كتبهم باليمين، نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أصحاب اليمين، وما يتبع ذلك من العز والكرامة لمن أخذ كتابه بيمينه، حيث يسير بين الأولين والآخرين فرحاً مسروراً، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } [الحاقة: ١٩ - ٢٤]، {إني ظننت} أي أيقنت أني ملاقٍ الحساب، ومعروض على الله تعالى، قد أيقنت نفسي بلقائها لله.

وأننا ما خلقنا عبثاً ولا تركنا سداً، هذه حال المؤمنين نسأل الله من فضله العظيم، وهناك حالة رَدِيَّةٍ وهي حالة المجرمين، أصحاب سقر، عياذا بالله منهم و من حالهم ومآلهم، ونؤمن بما يحصل من الذل والمهانة لمن أخذ كتابه بشماله، فيلعنهم اللاعنون، ويقال هؤلاء الذين كذبوا على الله، فتسود وجوههم، ويجمع بين النواصي والأقدام، ويزوجون، أقران أشقياء فجرة، وتُلوى أيديهم إلى ظهورهم إذلالاً ومهانة لهم، كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [الحاقة:٢٥-٣٧].

إثبات رؤية الله تبارك تعالى يوم القيامة:

ونؤمن من ذلك أيضا برؤية الرب تبارك وتعالى في عرصات يوم القيامة، وطلب المؤمنين من أهل العلم من الأنبياء والمرسلين الشفاعة، ودنو الشمس من الخلائق على قدر أعمالهم، وأن العباد يحشرون في صعيد واحد ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، وأنهم يحشرون حفاة عراة غُرْلَا، الرجال والنساء، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى، وأن من العباد من يظلهم الله تعالى تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأن لكل غادر لواء ينصب له عند إسته يوم القيامة، وينادى عليه هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان، وأن الفضيحة على رؤوس الأشهاد، والإتيان بالشهود من أنبياء ومرسلين وعلماء وقراء وصالحين وشهداء وصديقين، والأرض تشهد وكذلك الجلود، ونؤمن كذلك بمجيء الرب تبارك وتعالى، مجيئاً حقيقياً كما يحب ربنا ويرضى، كما قال تعالى: {وجاء ربك والملك صفاً صفاً}، وأنه لا يؤذن لأحد أن يتكلم في ذلك اليوم المهيب الرهيب، إلا من أذن له الله جل وعلا ورضي له قولا، وأن جهنم يؤتى بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ونؤمن بالسراط وحِدَّتِه، ودِقَّتِه، والحَسَكُ حوله، وبحال الناس عند المرور عليه، وأنه دَحَضٌ مَزَلَّة، ويشمل ذلك الإيمان بأن الصراط مضروب على متن جهنم، والناس يسيرون عليه بحسب أعمالهم في الدنيا، ويعطى كل عبد نوراً، فأما الكافر فتنطفئ أنوارهم، ويُكَرْدَسُون في جهنم وبئس المهاد، وأما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤمنون فبحسب أعمالهم، فَنَاجٍ مُسَلَّم، ومَخْدُوشٌ مسلم، ومُكَرْدَسٌ في جهنم، وأن على الصراط كلاليب مثل شوك السعدان، تأخذ أصحاب النار، ونؤمن برؤية المؤمنين لربهم تبارك وتعالى في جنات النعيم، نسأل الله تعالى ألا يحرمنا ذلك، ووالدينا وأهلينا وذرياتنا وأقاربنا وأشياخنا وأحبابنا وطلابنا، بفضله ومنه وكرمه وجوده وعطائه، وذلك أعظم نعيم أهل الجنة، نسأل الله من فضله العظيم، إلى غير ذلك مما ذكر في الكتاب و السنة، فيما يتعلق بالجزاء والحساب، وأن من نوقش الحساب هلك، ومن عُرض عليه عرضا دون نقاش نجى، فإن الله تبارك وتعالى سيخاطب كل عبد، فمن نوقش في حسابه ألقاه الله في ناره، فنسأل الله تعالى أن يحاسبنا حساباً يسيراً، والحساب اليسير هو العرض دون نقاش، نسأل الله من فضله العظيم.

ثالثا: الإيمان بالجنة والنار، وما في النار من العذاب والجحيم، وما في الجنة من الثواب والنعيم،فنؤمن أن النار دركات، كما أن الجنة درجات، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وأن أهون أهل النار من يوضع تحت قدميه جمرتين من النار يغلي منهما دماغه، نسأل الله العافية والسلامة، وأن النار ألواناً من العذاب،ففيها الزمهرير الذي ما أن يصل إليه أصحابه حتى تتكسر عظامهم من شدة برده، وأن طعامهم الزقوم والغسلين والضريع، وأنه لا يسمن ولا يغني من جوع، وشرابهم الصديد وطينة الخبال عصارة أهل النار، والحميم الذي انتهى في حره، وهذا التنوع دال على تنوع أحوال المعذبين في النار، فلكل قوم عذابهم وجحيمهم وآلامهم، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، وأن النار باقية، خلقت ليتجدد فيها العذاب على أهلها أبدا، وقد وكل الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعذاب أهلها ملائكة غلاظاً شداداً، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، كما أخبر ربنا تبارك وتعالى، وأن الكفار عن ربهم لمحجوبون، وأن عصاة الموحدين الذين يدخلونها سيخرجون منها ولابد، إلى غير ذلك مما دلت عليه الأخبار الصحاح.

وأن أهل الجنة يخفف عليهم ذلك اليوم، فيقيلون في الجنة، كما قال تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان:٢٤]، وأن فيها من جميع أنواع النعيم، نسأل الله من فضله العظيم، وأن أعظم نعيم أهل الجنة رؤية الجبار جل جلاله في جنات النعيم في يوم المزيد يوم اسْتِزَارَةِ رب العبيد للعبيد جل الله في علاه، كما أن أعظم عذاب النار حجابهم عن رؤية الجبار قال تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم}، وأن أهل الجنة يخلدون فيها أبد الآبدين ودهر الدَّاهِرين، وأن من حبسه القرآن في النار؛ باق فيها، أبد الآبدين ودهر الدَّاهِرين،ويؤتى بالموت على هيئة كبش، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال لكل فريق خلود فلا موت.

رابعا: وإثبات إخراج الله تعالى أقواما من أهل التوحيد لم يعملوا خيرا برحمته وهو أرحم الراحمين، ونؤمن بما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتْ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا".

الإيمان بالشفاعة:

ونؤمن ونثبت المقام المحمود للنبي r ، ونثبت الشفاعة بأنواعها، وأنها لا تكون إلا بشرط إذن الله تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، وأنه تبارك وتعالى لا يقبل شفاعة في مشرك أبدا، وإن شفع فيه الخليل إبراهيم كما سيجري مع آزر والد الخليل إبراهيم، وأن أهل المعاصي من أهل التوحيد منهم من قطعا سيدخل النار، ثم يخرجون منها إلى الجنة، ومنهم من استوجب النار ولكنه لا يدخلها، إما بشفاعة الشافعين، أو برحمة أرحم الراحمين.

قال ابن القيم في (تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته):[وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث الشَّفَاعَة عَنْ النَّبِيّ r مِنْ حَدِيث أَنَس، وَأَبِي سَعِيد، وَجَابِر، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَعَوْف بْن مَالِك الْأَشْجَعِيّ، وَأَبِي ذَرّ، وَابْن الْجَدْعَاء، وَيُقَال:اِبْن أَبِي الْجَدْعَاء، وَعُتْبَة بْن عَبْد السُّلَمِيِّ، وَعِمْرَان بْن حُصَيْنٍ، وَحُذَيْفَة، وَكُلّهَا فِي الصَّحِيح. فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَس بْن مَالِك أَنَّ النَّبِيّ r قَالَ:"لِكُلِّ نَبِيّ دَعْوَة دَعَاهَا لِأُمَّتِهِ ، وَإِنِّي اِخْتَبَأْت دَعْوَتِي شَفَاعَة لِأُمَّتِي يَوْم الْقِيَامَة". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول اللهَّ r قَالَ:"لِكُلِّ نَبِيّ دَعْوَة مُسْتَجَابَة، فَتَعَجَّلَ كُلّ نَبِيّ دَعْوَته، وَإِنِّي اِخْتَبَأْت دَعْوَتِي شَفَاعَة لِأُمَّتِي يَوْم الْقِيَامَة فَهِيَ نَائِلَة إِنْ شَاءَ اللهَّ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِك بِاَللهِ شَيْئًا":وَلَفْظه لِمُسْلِمٍ، وَرَوَاهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيث جَابِر بِنَحْوِهِ. وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ:"قُلْت:يَا رَسُول اللهَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ أَسْعَد النَّاس بِشَفَاعَتِك يَوْم الْقِيَامَة؟ قَالَ:"لَقَدْ ظَنَنْت يَا أَبَا هُرَيْرَة أَنْ لَا يَسْأَلنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيث أَوْلَى مِنْك لِمَا رَأَيْت مِنْ حِرْصك عَلَى الْحَدِيث أَسْعَد النَّاس بِشَفَاعَتِي يَوْم الْقِيَامَة مَنْ قَالَ : لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ مِنْ قِبَل نَفْسه". وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ أَنَس قَالَ:سَمِعْت رَسُول الله r يَقُول:"إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة شُفِّعْت فَقُلْت. يَا رَبّ، أَدْخِلْ الْجَنَّة مَنْ فِي قَلْبه خَرْدَلَة فَيَدْخُلُونَ ثُمَّ أَقُول يَا رَبّ أَدْخِلْ الْجَنَّة مَنْ فِي قَلْبه أَدْنَى شَيْء" قَالَ أَنَس "كَأَنِّي أَنْظُر إِلَى أَصَابِع رَسُول الله r ". وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيّ r قَالَ:"يَخْرُج قَوْم مِنْ النَّار بِشَفَاعَةِ مُحَمَّد . فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّة، وَيُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد قَالَ : قُلْت لِعَمْرِو بْن دِينَار : أَسَمِعْت جَابِر بْن عَبْد اللهَّ يُحَدِّث بِحَدِيثٍ عَنْ رَسُول الله r :"إِنَّ اللهَّ يُخْرِج قَوْمًا مِنْ النَّار بِالشَّفَاعَةِ؟ قَالَ:نَعَمْ". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ r :"يَجْمَع اللهَّ النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اِسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبّنَا، حَتَّى يُرِيحنَا مِنْ مَكَاننَا هَذَا –فَذَكَرَ الْحَدِيث - وَفِيهِ: ثُمَّ أَشْفَع فَيَحُدّ لِي حَدًّا. فَأُخْرِجهُمْ مِنْ النَّار، وَأُدْخِلهُمْ الْجَنَّة. ثُمَّ أَعُود، فَأَقَع سَاجِدًا، فَيَدَعنِي مَا شَاءَ اللهَّ أَنْ يَدَعنِي، ثُمَّ يُقَال لِي، اِرْفَعْ رَأْسك يَا مُحَمَّد، قُلْ تُسْمَع، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّع فَأَرْفَع رَأْسِي، فَأَحْمَد رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمنِيهِ ثُمَّ أَشْفَع، فَيَحُدّ لِي حَدًّا. فَأُخْرِجهُمْ مِنْ النَّار، وَأُدْخِلهُمْ الْجَنَّة - وَذَكَرَ بَاقِي الْحَدِيث". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا مِنْ حَدِيث أَنَس عَنْ النَّبِيّ r قَالَ:"إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة مَاجَ النَّاس بَعْضهمْ فِي بَعْض. - فَيَأْتُونَ آدَم - وَذَكَرَ الْحَدِيث - وَقَالَ فَأَقُول: يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَقَالَ : اِنْطَلِقْ ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة مِنْ بُرَّة أَوْ شَعِيرَة مِنْ إِيمَان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَأَنْطَلِق فَأَفْعَل ثُمَّ أَرْجِع إِلَى رَبِّي، فَأَحْمَدهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِد، ثُمَّ أَخِرّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد اِرْفَعْ رَأْسك وَقُلْ يُسْمَع لَك، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّع. فَأَقُول: يَا رَبّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَال لِي: اِنْطَلَق فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَل مِنْ إِيمَان فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِق فَأَفْعَل، ثُمَّ أَعُود إِلَى رَبِّي، فَأَحْمَدهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِد، ثُمَّ أَخِرّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد اِرْفَعْ رَأْسك، وَقُلْ يُسْمَع لَك وَسَلْ تُعْطَه وَاشْفَعْ تُشَفَّع. فَأَقُول: يَا رَبّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَال لِي: اِنْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَل مِنْ إِيمَان فَأَخْرِجْهُ مِنْ النَّار فَأَنْطَلِق فَأَفْعَل، ثُمَّ أَرْجِع إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَة، فَأَحْمَدهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِد، ثُمَّ أَخِرّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد اِرْفَعْ رَأْسك، وَقُلْ يُسْمَع لَك، سَلْ تُعْطَه وَاشْفَعْ تُشَفَّع فَأَقُول: يَا رَبّ اِئْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ لَك، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَائِي لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: أُتِيَ رَسُول الله r يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاع، وَكَانَتْ تُعْجِبهُ - فَذَكَرَ الْحَدِيث إِلَى أَنْ قَالَ - فَأَنْطَلِق، فَآتِي تَحْت الْعَرْش، فَأَقَع سَاجِدًا لِرَبِّي. ثُمَّ يَفْتَح اللهَّ عَلَيَّ، وَيُلْهِمنِي مِنْ مَحَامِده، وَحُسْن الثَّنَاء عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّد، اِرْفَعْ رَأْسك، سَلْ تُعْطَه، اِشْفَعْ تُشَفَّع، فَأَرْفَع رَأْسِي. فَأَقُول: يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَال: يَا مُحَمَّد، أَدْخِلْ الْجَنَّة مَنْ أُمَّتك مَنْ لَا حِسَاب عَلَيْهِ مِنْ بَاب الْأَيْمَن مِنْ أَبْوَاب الْجَنَّة وَهُمْ شُرَكَاء النَّاس فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَاب". وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ حُذَيْفَة وَأَبِي هُرَيْرَة قَالَا: قَالَ رَسُول الله r :"يَجْمَع اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاس، فَيَقُوم الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تَزْدَلِف لَهُمْ الْجَنَّة، فَيَأْتُونَ آدَم فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اِسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَقُول: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الْجَنَّة إِلَّا خَطِيئَة أَبِيكُمْ آدَم. لَسْت بِصَاحِبِ ذَلِكَ - فَذَكَرَ الْحَدِيث إِلَى أَنْ قَالَ - فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ، فَيَقُوم ، فَيُؤْذَن لَهُ وَتُرْسَل الْأَمَانَة وَالرَّحِم - الْحَدِيث". وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ أَنَس قَالَ:قَالَ رَسُول الله r :"أَنَا أَوَّل النَّاس يَشْفَع فِي الْجَنَّة - الْحَدِيث". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيد أَنَّ رَسُول الله r ذُكِرَ عِنْده عَمّه أَبُو طَالِب فَقَالَ:"لَعَلَّهُ تَنْفَعهُ شَفَاعَتِي يَوْم الْقِيَامَة، فَيُحْمَل فِي ضَحْضَاح مِنْ النَّار يَبْلُغ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغه"، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ الْعَبَّاس بْن عَبْد الْمُطَّلِب أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُول اللَّهَ هَلْ نَفَعْت أَبَا طَالِب بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطك وَيَغْضَب لَك قَالَ:"نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاح مِنْ نَار ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْك الْأَسْفَل مِنْ النَّار". فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيث خَمْسَة أَنْوَاع مِنْ الشَّفَاعَة:

أَحَدهَا: الشَّفَاعَة الْعَامَّة، الَّتِي يَرْغَب فِيهَا النَّاس، إِلَى الْأَنْبِيَاء، نَبِيًّا بَعْد نَبِيّ، حَتَّى يُرِيحهُمْ اللَّهَ مِنْ مَقَامهمْ النَّوْع الثَّانِي: الشَّفَاعَة فِي فَتْح الْجَنَّة لِأَهْلِهَا.النَّوْع الثَّالِث:الشَّفَاعَة فِي دُخُول مَنْ لَا حِسَاب عَلَيْهِمْ الْجَنَّة. النَّوْع الرَّابِع:الشَّفَاعَة فِي إِخْرَاج قَوْم مِنْ أَهْل التَّوْحِيد مِنْ النَّار. النَّوْع الْخَامِس: فِي تَخْفِيف الْعَذَاب عَنْ بَعْض أَهْل النَّار. وَيَبْقَى نَوْعَانِ يَذْكُرهُمَا كَثِير مِنْ النَّاس. أَحَدهمَا: فِي قَوْم اِسْتَوْجَبُوا النَّار فَيُشْفَع فِيهِمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا. وَهَذَا النَّوْع لَمْ أَقِف إِلَى الْآن عَلَى حَدِيث يَدُلّ عَلَيْهِ. وَأَكْثَر الْأَحَادِيث صَرِيحَة فِي أَنَّ الشَّفَاعَة فِي أَهْل التَّوْحِيد مِنْ أَرْبَاب الْكَبَائِر إِنَّمَا تَكُون بَعْد دُخُولهمْ النَّار، وَأَمَّا أَنْ يُشْفَع فِيهِمْ قَبْل الدُّخُول، فَلَا يَدْخُلُونَ. فَلَمْ أَظْفَر فِيهِ بِنَصٍّ. وَالنَّوْع الثَّانِي:شَفَاعَته لِقَوْمٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي زِيَادَة الثَّوَاب، وَرِفْعَة الدَّرَجَات. وَهَذَا قَدْ يُسْتَدَلّ عَلَيْهِ بِدُعَاءِ النَّبِيّ r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِأَبِي سَلَمَة، وَقَوْله:"اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَة، وَارْفَعْ دَرَجَته فِي الْمَهْدِيِّينَ". وَقَوْله فِي حَدِيث أَبِي مُوسَى:"اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِر، وَاجْعَلْهُ يَوْم الْقِيَامَة فَوْق كَثِير مِنْ خَلْقك".

وَفِي قَوْله فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة:"أَسْعَد النَّاس بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ:لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ"، سِرّ مِنْ أَسْرَار التَّوْحِيد. وَهُوَ أَنَّ الشَّفَاعَة إِنَّمَا تُنَال بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيد، فَمَنْ كَانَ أَكْمَل تَوْحِيدًا كَانَ أَحْرَى بِالشَّفَاعَةِ. لَا أَنَّهَا تُنَال بِالشِّرْكِ بِالشَّفِيعِ. كَمَا عَلَيْهِ أَكْثَر الْمُشْرِكِينَ. وَبِاَللهِ التَّوْفِيق]ا.هـ.

قلت: وقول ابن القيم رحمه الله تعالى:[وَيَبْقَى نَوْعَانِ يَذْكُرهُمَا كَثِير مِنْ النَّاس. أَحدهمَا: فِي قَوْم اِسْتَوْجَبُوا النَّار فَيُشْفَع فِيهِمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا. وَهَذَا النَّوْع لَمْ أَقِف إِلَى الْآن عَلَى حَدِيث يَدُلّ عَلَيْهِ]، يمكن أن يستدل له بحديث جابر في صحيح مسلم أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنَعَةٍ - قَالَ حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ r لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلأَنْصَارِ فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ r إِلَى الْمَدِينَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ فَمَرِضَ فَجَزِعَ فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ فَقَالَ غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ r فَقَالَ مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ قَالَ قِيلَ لِيلَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ.فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ الله r . فَقَالَ رَسُولُ الله r :"اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ". فهذا الرجل t بادر بنفسه، وقد جاء في ذلك الحديث الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الصحيحين من طريق الْحَسَنِ حَدَّثَنَا جُنْدَبٌ t فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فَمَا نَسِينَا وَمَا نَخَافُ أَنْ يَكْذِبَ جُنْدَبٌ عَلَى النَّبِيِّ r قَالَ:"كَانَ بِرَجُلٍ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ اللهُ بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ". فهذا رجل استوجب النار فعفى الله عنه، وقَبِلَ شفاعة نبيه r في يديه.والله أعلم.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَقَالَ:{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} فَنَفَى عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْ الْمُلْكِ أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لله وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْمَلَائِكَةِ:{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}. وَقَالَ:{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}. فَهَذِهِ "الشَّفَاعَةُ" الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ. وَأَمَّا مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ r أَنَّهُ يَكُونُ. فَأَخْبَرَ:"أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ" لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا. فَإِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ رَبَّهُ بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيْهِ؛ يُقَالُ لَهُ:أَيْ مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَك وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أُمَّتِي فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ. وَكَذَلِكَ فِي الثَّانِيَةِ وَكَذَلِكَ فِي الثَّالِثَةِ، وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ:مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ:"مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ". فَتِلْكَ "الشَّفَاعَةُ" هِيَ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ لَيْسَتْ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللهِ وَلَا تَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ. وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللهَ هُوَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ الشَّافِعِ الَّـذِي أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ بِذَلِكَ وَيَنَالَ بِهِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ والآخرون r كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا يَسْتَسْقِي لَهُمْ وَيَدْعُو لَهُمْ وَتِلْكَ شَفَاعَةٌ مِنْهُ لَهُمْ فَكَانَ اللهُ يُجِيبُ دُعَاءَهُ وَشَفَاعَتَهُ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ "فَالظُّلْمُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ": فَالظُّلْمُ الَّذِي هُوَ شِرْكٌ لَا شَفَاعَةَ فِيهِ. وَظُلْمُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ إعْطَاءِ الْمَظْلُومِ حَقَّهُ؛ لَا يَسْقُطُ حَقُّ الْمَظْلُـومِ لَا بِشَفَاعَةِ وَلَا غَيْرِهَا وَلَكِنْ قَدْ يُعْطَى الْمَظْلُومُ مِنْ الظَّالِمِ كَمَا قَدْ يُغْفَرُ لِظَالِمِ نَفْسِهِ بِالشَّـفَاعَةِ. فَالظَّالِمُ الْمُطْلَقُ مَا لَهُ مِنْ شَفِيعٍ مُطَاعٍ وَأَمَّا الْمُوَحِّدُ فَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا مُطْلَقًا بَلْ هُوَ مُوَحِّدٌ مَـعَ ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ. وَهَذَا إنَّـمَا نَفَعَـهُ فِي الْحَقِيقَـةِ إخْلَاصُـهُ لله فَيـهِ صَـارَ مِـنْ أَهْـلِ الشَّـفَاعَةِ. وَمَقْصُودُ الْقُرْآنِ يَنْفِي الشَّفَاعَةَ نَفْيَ الشِّرْكِ وَهُوَ:أَنَّ أَحَدًا لَا يَعْبُدُ إلَّا اللهَ وَلَا يَدْعُو غَيْرَهُ وَلَا يَسْأَلُ غَيْرَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ لَا فِي شَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا؛ فَلَيْسَ لَـهُ أَنْ يَتَوَكَّـلَ عَـلَى أَحَدٍ فِي أَنْ يَرْزُقَهُ وَإِنْ كَانَ اللهُ يَأْتِيهِ بِرِزْقِهِ بِأَسْبَابِ. كَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللهِ فِي أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَيَرْحَمَهُ فِي الْآخِـرَةِ وَإِنْ كَـانَ اللهُ يَغْفِـرُ لَـهُ وَيَرْحَمُـهُ بِأَسْـبَابِ مِـنْ شَـفَاعَةٍ وَغَيْرِهَا، **فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مُطْلَقًا؛ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ وَتِلْكَ مُنْتَفِيَةٌ مُطْلَقًا؛ وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَتِلْكَ قَدْ بَـيَّنَ الرَّسُـولُ r أَنَّهَـا لَا تَكُـونُ إلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ فَهِيَ مِنْ التَّوْحِيدِ ، وَمُسْتَحِقُّهَا أَهْلُ التَّوْحِيدِ**]ا.هـ.

بيان معنى الشفاعة وممن تطلب وأقسامها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت: والشفاعة من جهة الإطلاق والعموم، هي طلب وتوسط ووسيلة، يرغب بها صاحب الحاجة لتُقْضَى حاجته، من جلب محبوب أو دفع مرهوب، ومنه أخذ الشَّفع، وهو من التعزيز والتقوية، فيقال:[كان وتراً فشفعته بالآخر حتى صار شفعا].

قال في مختار الصحاح :[(شفع) ش ف ع: الشَّفْعُ ضد الوتر يقال كان وترا فَشَفَعهُ من باب قطع والشُّفْعَةُ في الدار والأرض والشَّفِيعُ صاحب الشفعة وصاحب الشَّفَاعَةُ] ....إلى قوله:[واسْتَشْفَعَهُ إلى فلان سأله أن يشفع له إليه وتَشَفَّعَ إليه في فلان فَشَفَّعهُ فيه تَشفيعا]ا.هـ.

والشفاعة بهذا الاعتبار تنقسم إلى قسمين:

١ - شفاعة محمودة: وهذه كذلك تنقسم إلى قسمين:

أ- الشفاعة التي تُطْلَبُ من الله جل جلاله.

ب- الشفاعة التي تُطْلَبُ من المخلوق، فيما يَسَعُهُ ويَقْدِرُ عليه، بالضوابط والمعطيات الشرعية، وهي التي دلت عليها الأدلة الشرعية الصحيحة، فلا تقبل التجارب، والاجتهادات الخاصة، و لا الادعاءات والأكاذيب، والأراجيف الباطلة.

فقد دل الشرع على حدود قدرات المخلوق، ودلت على ما يجوز للمخلوق تعاطيه من الأسباب.

٢ -الشفاعة المذمومة، وهي تنقسم إلى قسمين كذلك:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ-التي تطلب من المخلوق فيما لا يجوز طلبه إلا من الخالق، كطلب إدخال الجنة والنجاة ومن النار، ومغفرة الذنوب، وإقالة العثرات والتجاوز عن الزلات وقبول التوبة، ومعرفة ما في غد، وإنزال المطر والنصر على الأعداء، وتسخير الرياح والسحاب، ونحو ذلك مما هو من خصائص الخالق تبارك وتعالى، الذي له الخلق والأمر، الذي له ملكوت السموات والأرض المتصرف فيهما وحده لا شريك له، فلا أقطاب ولا أغواث، بل هو الله الواحد القهار.

قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢].

وقال سبحانه: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد: ١٦]

ب-التي تطلب من المخلوق العاجز، سواء كان عجزه لغيبته، أو لعدم تمكنه، وإن كان حيا أو حاضرا، مع كون مادة الشفاعة مما هو في وسع المخلوق حقيقة أن يقوم به لو أمكن ذلك، كطلب النجدة والمدد من الأموات، أو الغائبين.

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات وفوائد نذكر جملة منها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١- إثبات عدل الله تبارك وتعالى وقدرته على خلقه، وأنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

٢- بيان عظيم حكمته عز وجل فلم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى بل خلقهم لحكمة عظيمة وضرب لهم موعداً للحساب.

٣- فيه الرد على نفاة الحكمة، فيتبين في ذلك اليوم المهيب، أن الله جل وعلا لا يفرق بين المتماثلين، ولا يسوي بين المفترقين، كما قال تعالى:{أم نجعل المتقين كالفجار}.

٤- فيه تخويف العباد لئلا يغتروا برحمة الله فيعبدوه بالرجاء فقط فيبقوا في الضلال.

٥- فيه تعزية للرسل وأتباعهم، وأنهم أوشكوا أن ينتقلوا إلى دار عز لا ذل فيها، وسعادة لا شقاء بعدها، وبقاء تام.

٦- فيه بيان لهوان الدنيا على الله جل وعلا، وإنما سمي باليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، أما الدنيا فظل زائل.

٧- فيه حث العباد على التنافس في الباقيات الصالحات رجاء رحمة الله في ذلك اليوم.

٨- فيه تعزية المظلومين، وأن هناك يوما يقتص الله فيه ويقضي بين العباد بالحق، لا وكس ولا شطط، فتنشر الدواوين، وتنصب الموازين، التي تزن مثاقيل الذر، فما السبيل وأين النجاة، قال الله تعالى:{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٩- فيه تحذير الظالمين من يوم يَعَضُّ الظالم فيه على يديه؛ ولهذا توعدهم الله جل وعلا بذلك اليوم، فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَّ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم:٤٢-٤٣]، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"، فكيف بحقوق بني آدم؟!.

قال ابن الجوزي في كتابه:(التبصرة):[يا كثير الكلام، حسابك شديد، يا عظيم الإجرام، عذابك جديد، يا مؤثرا ما يضره ما رأيك سديد، يا ناطقا بما لا يجدي ولا يفيد، {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}، كلامك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب، وقد أتاه ما يصدع الحديد {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}، أتظن أنك متروك مهمل، أم تحسب أنه ينسى ما تعمل، أو تعتقد أن الكاتب يغفل، هذا صائح النصائح قد أقبل، يا قاتلا نفسه بكفه لا تفعل، يا من أجله ينقص وأمله يزيد {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}.أنا من خوف الوعيد في قيام وقعود، كيف لا أزداد خوفا وعلى النار ورودي، كيف جَحْدِي مَا تَجَرَّمْتُ وأعضَائِي شُهُودِي، كيف إنْكَارِي ذُنُوبِي، أم ترى كيف جُحُودِي، وعلى القَول يحصى بِرَقِيبٍ وعَتِيد].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٠- فيه تعزية للفقراء والمساكين، ولمن فاتهم حظ من هذه الفانية، فبين يدينا الباقية فلنعمل لذلك.

١١- ظهور آثار الأسماء والصفات الإلاهية، بل ورؤية المؤمنين له عيانا حقا نسأل الله من فضله العظيم.

قال المؤلف:(والقدر خيره وشره): أي ونؤمن بالقدر، والقدر: هو قدرة الرحمن، أي لا يمنع من قدر الله شيء، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله على كل شيء قدير، وهذا ما رجحه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

قال ابن القيم في النونية مشيراً إلى هذا المعنى:

وحَقِيقَةُ القَدَرِ الذِي حَارَ ... الوَرَى فيه هُو قَدْرَةُ الرَّحْمَن

واسْتَحْسَنَ ابْنُ عَقِيلٍ ذَا مِن أَحْمَد ... لمّا حَكَاهُ عَن الرِّضَى الرَّبَانِي

قال الإمامُ شَفَى القُلُوبَ بِلَفْظَةٍ ... ذَاتِ اخْتِصَارٍ وهْيَ ذَاتُ مَعَانِي

وتحقيق الإيمان بالقدر يكون بتحقيق أربعة مراتب:

أ- إثبات العلم السابق الشامل لله رب العالمين، وأن الله وسع كل شيء علماً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا العلم صفة من صفات الله جل وعلا، من أنكره كفر،وهذا دالٌ على كمال الخالق تبارك وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب- إثبات أن الله جل وعلا كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، وأن هذه الكتابة كانت بعلمه جل وعلا، ومشيئته وقدرته، وأنها استغرقت كل صغير وكبير،كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" وفي صحيح البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ r وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ". **وأما حديث أول ما خلق الله القلم، فمعلول لا يصح.**

وقد ضل في باب القدر طائفتان وهما:

١ - **القَدَرِيَّة**: وهم الذين يقولون:إن العبد يخلق فعل نفسه، وأن الله لا يعلم ذلك، قبل فعل العبد له، ولا كتبه عليه، بل إذا فعله المخلوق؛ علمه الخالق وكتبه، وهؤلاء اعترتهم شبهة الظلم، فظنوا أنه من الظلم، أن يكون هناك علم وكتابة ومشيئة سابقة لخلق المخلوق وفعله، فأرادوا أن يَفِرُّوا من وصف الخالق بالظلم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -؛ فوقعوا فيما هو أشنع من ذلك وأقبح، إذ أنهم نسبوا الخالق جل وعلا إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجهل، والعياذ بالله، فهو بهذا الاعتبار خلق خلقاً، وهو لا يعلم عنهم شيئاً، لا قولا ولا عملا، ولا حالا ولا مآلا، وهذا من أعظم الظلم والتنقص للخالق تبارك وتعالى.

وهؤلاء قد صنف أهل العلم في الرد عليهم كتباً كثيرا، فمن أشهرها، كتاب (خلق أفعال العباد) للإمام للبخاري، وكتاب (السنة) للإمام أحمد،ولابن أبي عاصم، والخلال، وكتاب (الشريعة) للآجري، و(الإبانة) لابن بطة، وكتاب (اعتقاد أهل السنة) للالكائي، بل وما من كتاب من كتب السلف في العقائد، إلا وغالبا ما تكلمت عن هذه الفرقة الضالة، إما قصدا أو عَرَضا، وقد جزم غير واحد بكفرهم كالإمام أحمد وغيره، وهذا ظاهر صنيع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فيما وقع في قصة معبد الجهني والحديث مشهور معروف وسيأتي معنا وهو المعروف بحديث جبريل المشهور، ففي صحيح مسلم قال يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله r فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ:(فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سماهم غير واحد من السلف بـ (مجوس هذه الأمة)، هـم ومـن تشـعب عـنهم كالجبرية.

٢- **الجَبْرِيَّة**: وهم القائلون بأن المخلوق مجبور على جميع أفعاله، فهو إنما يفعل عـين ما أمر الله به، ونفس ما أراده منه؛ فلا لوم على المخلوق مهما فعـل بهـذا الاعتبار،سـواء كفر أو تزندق، أو آمن أو صلى، إذ ليس له فعل في ذلك، فهو كالميت المنطرح بين يـدي مغسله،يقلبه كيف يشاء، وهؤلاء اعـترتهم شـبهة عـدم التفريـق بـين المشـيئة الكونيـة القدرية، والمشيئة الشرعية القدرية، أو ما يعبر به بعض أهل العلم، بعـدم التفريـق بـين المشيئة والإرادة،فلما ضاق عطن عقولهم عن فهم ذلك وإدراكه – مع أنه واضح جلي في كتاب الله تعالى -؛ تكلموا بكلمات الجهل في دين الله عز وجل؛ فضلوا وأضلوا.

وهؤلاء بهذا الاعتبار، يَعْذُرُونَ حتى إبليس، في كفـره وإلحـاده، إذ أنـه مجبـور عـلى ذلك، بل وبعضهم يرى أنه مطيع للرب جل وعـلا؛ لأنـه مـا فعـل إلا مـا أريـد منـه، وهؤلاء لاشك أنهم من أكفر عباد الله تعالى، بالله العظيم.

واعلم رحمك الله، أن ممن ضل في هذا الباب كذلك أولئك الـذين يسـبون الأقـدار، والذين يتشاءمون ويتطيرون، ويجزعون ويتسخطون.

بين السنة القدرية والشرعية:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: في بيان معنى السنة القدرية الشرعية: وهي الأحكام التي أمر الله جل وعلا بها، وقدرها، فهي داخلة في التقدير السابق، وأنزلها الله في كتبه، وأرسل لبيانها رسله، وكل هذا مقدر مكتوب معلوم عند الله جل وعلا، فهذه الأوامر يحبها الله تعالى ويرضاها، وما نهى عنه، فإنه يكرهه ويأباه، فهي إذن جملة الحقائق الشرعية، من الأمر والنهي، التي تبين ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، والعباد مأمورون شرعا، بأن يأتوا ما يحبه الله تعالى، وأن يجتنبوا ما منعهم منه، وحذرهم ونفرهم عنه، تبارك وتعالى.

أما الحقيقة القدرية الكونية: فهي ما قدره الله جل وعلا، وأجراه في كونه عز وجل، من جميع مجريات الأحداث في السموات والأرض، بما في ذلك الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، وكل ما يجري في الكون من خير أو شر، وإيجاده تبارك وتعالى لهذه المخلوقات، لا يستلزم محبة الله لكل ذلك، ولما يقع من ذلك، كما قال تعالى: {ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم}، فبين الله تعالى في هذه الآية، وغيرها كذلك، أن الكفر وقع بعلمه ومشيئته وأنه هو الموجد له، ولكنه لا يحبه ولا يرضاه، بل وأمر بمدافعته، والسعي في إزالته.

إذن الحقيقة الكونية، لا تدل أبدا على مراد الله تعالى من عباده تجاه هذه المخلوقات التي قدرها الله تعالى وخلقها بمشيئة كونا، وإنما يتعرف العباد على الموقف من هذه المخلوقات من خلال القدر الشرعي، الذي بين الله تبارك وتعالى فيه ما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويأباه، وبهذا تتضح المسألة، فقد أنزل الله إلينا ذكرا، وأرسل رسولا؛ ليبين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للناس ما نُزِّلَ إليهم، فالعباد مأمورون أن يتعاملوا مع ما في هذا الكون من خلال ما أمر الله تعالى به في شرعه، وبهذا تتضح المسألة ويزول الإشكال.

ولهذا وجب مدافعة السنة القدرية الكونية، بالسنة القدرية الشرعية، ومن لم يفرق بين هذا وهذا؛ هلك في باب القدر.

وإليك هذا المثال لتتضح المسألة أكثر وأكثر، إن النبي r أخبر بأن هذه الأمة ستتشبه باليهود والنصارى، إذا هذه معلومة من النبي r تبين أمرا قد قدره الله تعالى كونا، وهو أمر واقع لا محالة، ثم جاءت الآيات الواضحات البينات، في التحذير من اتباع اليهود والنصارى، والمفسدين وفي الأرض، ومن سبيل الذين لا يعلمون، وبين النبي r في الأحاديث الأخرى، بل وبتعامله العملي، ما هو الواجب تجاه اليهود والنصارى، أن نخالفهم، ونسعى في إقامة الحجة عليهم، وأن نقاتلهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

هكذا ينبغي أن نكون دائما وأبدا، أن نرجع إلى الحقيقة الشرعية القدرية،؛ لنتبين ما هو المطلوب تجاه ما يظهر حولنا من مجريات الأحداث في هذا الكون.

فصل: في ذكر بعض الشبه المتعلقة بالقدر، والرد عليهم بما يتيسر بإذن الله جل وعلا:

الشبهة الأولى: الاحتجاج بالقدر على ترك المأمور وفعل المحظور، فإن من العباد من إذا لُمْتَهُ على تركه لما أمر الله جل وعلا به، أو ارتكابه لما نهى الله عنه، قال: هذا أمر قدره الله علي، ولو شاء الله جل وعلا، لفعلت المأمور، وتركت المحظور، وهذه كلمة حق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أريد بها باطل، إذ لا يجوز بحال، لا شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، الاحتجاج بالقدر على العزم على ارتكاب المعاصي لا حالا ولا مستقبلا:

أما شرعاً: فلأن الله جل وعلا بين لنا تحريم المعصية، وشؤمها على صاحبها، وبين فضل الطاعة وبركتها على أهلها، الأدلة متكاثرة في بيان تحريم فعل المعصية، والترغيب في الطاعة، وقد تقدم ذكر طرف منها من قبل، فهذه هي السنة القدرية الشرعية التي أُمرنا أن ندافع بها السنة القدرية الكونية.

وأما عقلا وعرفا: فإن السنة القدرية الشرعية يقين معلوم قطعا بالنسبة لنا، وأما السنة القدرية الكونية فهي ظنية محتملة؛ لأننا لا نعلم الغيب، فكيف نجترئ على المعاصي، بحجة أن الله كتبها علينا، ونحن لا نعلم، أكتبها الله علينا أم لا؟، فهذا من اتباع الظن وترك اليقين، وهذا الأمر محرم شرعاً، كما قال تعالى: {إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً}، ثم لماذا لا نقدر أن الله تعالى كتب لنا طاعته والبغض لمعصيته، والبعد عنها واجتنابها؟، لماذا أسأنا الظن بربنا؟، ولكن حقيقة الأمر أننا أحببنا المعصية، فأردنا أن نركبها، بوجه نبرر لأنفسنا فيه الآثام والخطايا والمعاصي، عياذا بالله من الخذلان.

ولهذا لم يقبل الله جل وعلا من المشركين قولهم: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا}؛ لأنهم اتبعوا الظن، وأساؤوا الظن بالله جل وعلا، فمن أين لهم أن يعلموا أن الله كتب عليهم، الشرك؟!، فهلا أحسنوا الظن بربهم، وفعلوا صالحاً، وأذعنوا وانقادوا، إذا لكان خيراً لهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنهم من يحتج بقصة موسى عليه السلام مع آدم عليه الصلاة والسلام، لما احتج آدم بالقدر، وحَجَّ موسى بذلك، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنْ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ قَالَ قَالَ آدَمُ يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ رَسُولُ اللهِ r فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى".

وهذا الحديث لا حجة فيه، على ارتكاب المعصية، احتجاجاً بالقدر السابق، بل إن فيه بيانا للوقت الذي يجوز فيه الاحتجاج بالقدر، ومتى يكون ذلك الاحتجاج صائبا مقبولا، فإن آدم عليه السلام تاب إلى ربه، وأقلع عن الذنب، ومن كانت هذه حاله فلا لوم عليه، وله أن يحتج بالقدر؛ لأن الأمر قد وقع ومضى، وقد أحدث منه توبةً نصوحاً، أما أن يكون العبد متلبساً بالمعصية، مصراً عليها، عازما على إتيان المزيد منها، ثم يحتج بالقدر على المزيد منها، فهذا هو المحرم شرعاً، ولن تنفعه هذه الحجة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، بل هو مفتون مخذول. نسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن القيم في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:[وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ، وَفِي جَنَّةِ يَوْمِ الْمَعَادِ.

سَلَامَةُ الْقَلْبِ: وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ، وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضَرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا. فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يَتَضَمَّنُ: عُلُومًا، وَإِرَادَةً، وَأَعْمَالًا، وَتُرُوكًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً تَجْرِي عَلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُونُ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا يَعْلَمُهُ قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَانِعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمُتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِالْمُتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُصْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٍ فِي الْخَلْقِ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ. وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهِدَايَةُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وُكِلَ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِرْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالظُّلْمِ، وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعْلِهِ الْهِدَايَةَ حَيْثُ تَصْلُحُ، وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِعَدَمِ صَلَاحِيَةِ الْمَحَلِّ، وَذَلِكَ مُوجِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوصِلُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يَخْرُجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا الْفَضْلِ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقَامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْحَشْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقُوهُ، وَأَطْفَأَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعُصَاةِ بِجَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبَ وَحَسَكًا تَخْطِفُهُمْ كَمَا خَطَفَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتَهُمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَشْرَبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرْبِهِمْ مِنْ شَرْعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَمَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حُرِمَ الشُّرْبَ مِنْ شَرْعِهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا.

فَانْظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا رَأْيُ عَيْنٍ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ، تَعْلَمْ حِينَئِذٍ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ وَعُنْوَانُهَا وَأُنْمُوذَجُهَا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِالله التَّوْفِيقُ.

فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]ا.هـ.

وعليه فإن الاحتجاج بالقدر على ما وقع ومضى مع التوبة والندم، نافع وجائز ، أما الاحتجاج به على مزيد من المعاصي في المستقبل، أو لزوم المعصية في الحال الحاضر، أو تبريراً لما هو عازم أن يقع فيه من المعاصي، فهذا هو الأمر الذي لا يجوز شرعاً.

الشبهة الثانية: هل الإنسان مسير أم مخير؟.

والجواب:أنه كما تقدم إذا نظرنا إلى السنة الكونية القدرية؛ فإنه مسير، وإن نظرنا إلى السنة القدرية الشرعية؛ فإنه مخير، والجمع بينهما، أن نقول: إن السنة الكونية أمر بالنسبة لنا غيبي، وأما السنة الشرعية، فيقين، فاحذر من الأخذ بالظن وترك اليقين، فإنه سبيل الهلكة، وسوء الظن بالله جل وعلا.

وعليه فلا إشكال علينا أبدا في هذا السؤال، إذا فهمنا هذا المعنى، فأنت بين أمر يقيني قد أُمِرْتَ به، وبين مآل غيبي لا تعلمه، ولكن الله تعالى أخبرنا في شرعه، أنه يريد الإحسان إلى خلقه، وأنه لا يظلم الناس شيئا، وأنه شكور لعباده جل وعلا، كما قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٧].

فإياك وسوء الظن بالله تعالى، وإياك من الرجم بالغيب؛ تَسْلُك، سبيل النجاة بإذن الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشبهة الثالثة: أنه إذا كان الأمر معلوما مسبقا، ففيم العمل؟.

والجواب: أن نقول: هو معلوم بالنسبة لمن؟، لك، أم لله عز وجل؟، فإنك إن عرفت الفرق بين المقامين؛ زال عنك الإشكال، وحُلَّ الالتباس بحمد الله تعالى؛ ولهذا لما سئل النبي r عن ذلك قال كما في الصحيحين من حديث عَلِيٍّ t قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ:"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ"، قَالُوا يَا رَسُولَ الله: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟، قَالَ:"اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} الْآيَةَ".

وتأمل في إجابة النبي r ؛ لتنكشف لكل المسألة، فإن النبي r قرر علم الله السابق، وبين السبيل التي يجب أن يسلكها العبد في هذه الحياة الدنيا، فاستدل بالآية:{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل:٥-١٠]، وهذه الآية تدل على ربط الأمور بأسبابها، فمن صدق الله تعالى، وأحسن الظن به تبارك وتعالى، فأولئك أهل اليسرى وهي الجنة، وأما من كذب وأبي، ونَفَرَ وعصى، وأساء الظن بالله جل وعلا، فقعد عن العمل؛ فذاك صاحب العسرى، نسأل الله تعالى لنا ولكم اليسرى، ونعوذ به من العسرى.

آيات من سورة الأنعام تكشف الحقيقة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في هذه الآيات من سورة الأنعام، فإنها تقرب لك الأمر عن كَثَب، وتكشف المسألة عن قرب، وذلك أن الله تعالى، لم يقبل من المشركين الاحتجاج بالقدر على الشرك، مع أن ظاهر كلامهم حق، فإنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله تعالى، فتعالوا ننظر في الآيات، وتَسَلْسُلِها؛ لننظر كيف رَدَّ الله تبارك وتعالى شبهتهم، بما قطعهم وجعلهم في نهاية المطاف يشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، وأنهم حَقِيقُون بدخول النار، فهلم إلى الآيات نتأملها؛ لنستقي الهدايات، فإنه ما من شبهة للمبطلين، إلا وفي كتاب الله وسنة رسوله r ردها وبيانها، لمن كان له قلب يعقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٨-١٥٠].

هنا بين الله تعالى شبهة المشركين: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ}، ثم سمى الله تعالى ذلك تكذيبا، وليس حجة {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}؛ لأنهم اتبعوا فيها الظن والخرص والرجم الغيب، واتبعوا الهوى وتركوا الهدى الواضح البين، وأساءوا الظن بالله جل وعلا، ثم حَجَّهُم الله تبارك وتعالى، بِسِرِّ المسألة، فقال تعالى: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}، أي هل اطلعتم على اللوح المحفوظ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو هنا يمثل القدر الكوني، هل اطلعتم فيه فأيقنتم أن الله تعالى شاء لكم ذلك، وقدره عليكم، أم أنكم تتبعون الظن والخرص، نعم هو كذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}؛ فكشف الله حالهم وفضحهم، وبين أن مرادهم تبرير واقعهم، وتمرير أهوائهم، بسوء الظن بالله تعالى، أنه قدر عليهم ذلك، ثم جاءت الفاضحة الواضحة، فقال تعالى: {قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، أي إن كانت تلك هي حجتكم الداحضة الواهية، فاسمعوا حجة الله الدامغة، ألا وهو الخيار الثاني في الأمر الذي غُيِّبَ عنكم، وليس لكم علم فيه، بل اتبعتم فيه التكذيب والخرص والظن والرجم بالغيب، ألا وهو: أن تكونوا من المهتدين، المؤمنين الموحدين.

والمعنى أن هناك خيارين، **الأول**: أن تكونوا مشركين، **والثاني**: أن تكونوا مؤمنين موحدين.

وبالنسبة لكم قد استوى الطرفان؛ لأن الكل مغيب عنكم، والسؤال الذي يطرح نفسه، لِمَ اخترتم أن تكونوا من المشركين، فإنه كذلك لو شاء الله تعالى لكنتم مؤمنين موحدين، ولهداكم أجمعين، ولكنه سوء الظن بالله تعالى، الذي قال الله تعالى فيه: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فصلت:٢٣-٢٥]، وقال سبحانه: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[النحل:٦٠].

ثم بين تبارك وتعالى أنهم سَيُمْعِنُونَ في غَيِّهِم، وسَيُشْهِدُونَ على ذلك أولياءهم، فلا تشهد معهم، واعلم أنهم بربهم يعدلون، أي يشركون.

ولهذا من جميل ما حفظ عن السلف، وهو منقول عن الحسن بن يسار البصري رحمه الله تعالى، إن المؤمن أحسن الظن بربه؛ فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه؛ فأساء العمل، فرحماك يا أله.

وبهذا تكون قد اتضحت المسألة، فنسأل الله تعالى أنه يهدي قلوبنا، وأن يشرح صدورنا للإسلام، وأن ييسر أمورنا، وأن يفتح علينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراتب الإيمان بالقدر:

ثم اعلم رحمك الله تعالى، أن مراتب الإيمان بالقدر أربعة، من استكملها، وتحقق بها، والتزمها بمقتضياتها، وعامل الله بها، فقد حقق الإيمان بالقدر، وهي:

١- **العلم**: والمراد به إثبات علم الله السابق لك شيء، ولك مخلوق، فإن الله تعالى علم الأشياء على تفاصيلها قبل أن يوجدها من العدم.

٢- **الكتابة**: والمراد بها أن الله تعالى أحصى كل شيء وكتبه، في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:٣٩]، ففي هذه الآية أثبت تعالى أم الكتاب، وأثبت ما يمحوه وما يُثبت بمشيئته تبارك وتعالى، والمحو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإثبات، كله داخل في عموم كتابه الأول، الذي كتبه جل وعلا، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي"، وفي رواية مسلم:"لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي".

٣- **المشيئة**: والمراد به إثبات الإرادة الكونية والشرعية لله تبارك وتعالى، ولابد من التفريق بين الإرادتين، فإن المشيئة القدرية الشرعية، تأتي مرادفة للإرادة، أي ما قدره الله تعالى شرعا وأحبه، وأما مطلق التقدير، بغض النظر عن ما أحبه وما أبغضه تبارك وتعالى، فهو مرادف للمشيئة أو الإرادة القدرية الكونية، كما قال تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[البقرة:٢٥٣]، وقوله:{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:١٣٧]، وقوله:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:٩٩]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على الإرادة الكونية القدرية، وأما الإرادة الشرعية المتضمنة، بيان ما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه، كقوله تعالى:{ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥]، وقوله:{يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء:٢٦-٣١]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة:١]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٦]، وقوله:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٦٧]، ونحو ذلك من الآيات.

٤- **الخلق**: والمراد به إثبات أن الله تعالى، هو خالق كل شيء، إجمالا وتفصيلا، وأنه سبحانه تعالى خالق العباد وأعمالهم، كما قال تعالى:{وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات:٩٦].

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ): هذا اختيار دال على عظيم فهم المؤلف لكتاب الله تعالى وعظيم تدبره له، فهو استدلال موفق قوي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب}: أي ليس البر محصوراً، في تحديد أين تكون تولية الوجوه أثناء أداء العبادة، بل حقيقة البر، هو الذل والانقياد، والطواعية التامة، والاستسلام العام لأمر الله ورسوله، فمن وجد هذا من قلبه، فإنه لن يعترض على أمر من أوامر الله جل وعلا، فإن المشرق والمغرب لله عز وجل، وهو الآمر بالتوجه إليه، ولكن المهم أن تكون الآلة سليمة؛ لتتلقى كل أمر من الله تبارك وتعالى، بالتسليم والرضى والقبول، فليس عندها أدنى تردد، ولا استدراك على أمر الله تعالى ورسوله r ، فأينما تولوا فثم وجه الله، فليعلم العباد ذلك علم اليقين، المستلزم للذل والانقياد والإذعان، فإن الخلق خلق الله، والملك ملك الله، وأنه وحده الآمر المتصرف في هذا الكون كُلِه، وسبب نزول هذه الآية أن الله جل وعلا،لما أمر نبيه r أن يصلى إلى الكعبة، بعد أن كان يصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا؛ اعترض الكفار والمشركون على ذلك، وظن اليهود أن البر في الصلاة إلى بيت المقدس، وآخرون ظنوا أن البر في الصلاة إلى الكعبة، فبين الله حقيقة البر، وأنه ليس في تولية الوجوه فحسب، بل في تولية الوجوه والقلوب إلى علام الغيوب، بتحقيق الطاعة التامة العامة لله الواحد القهار، والاستعداد التام للاستسلام، فأينما أمرك، فعليك أن تمتثل، ولهذا قال سبحانه:{ولكن البر من آمن بالله ..... الآية} أي البر الحقيقي لا يمكن أن يكون إلا باستسلام القلب، والانقياد التام لله الواحد القهار؛ لأن في الاعتراض على أمر الله عز وجل، دليلاً على عدم تمام الإيمان في القلب، أو انعدامه، بحسب الأمر المُعْتَرَضِ عليه فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:[وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال:{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ}الآية،كما قال في الأضاحي والهدايا:{لَنْ يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}]ا.هـ.

وأنت كما ترى أن هذه الآية تضمنت ذكر الأركان الستة للإيمان إلا القدر؛ ولهذا أفرد له المؤلف دليلا خاصا.

ما يميز طالب الهدى من طالب الهوى

وفي ذكر المؤلف لدليل واحد على ذلك، مع كثرة الأدلة في الكتاب والسنة، تذكير بأصل عظيم، ألا وهو أن طالب الحق يكفيه أن يُذْكَر له الدليل الدال على المسألة، بغض النظر عن العدد، وهذا ما يميز طالب الهدى من طالب الهوى.

أما طالب الهوى، فإنك إن حَشَدْتَ له ما حَشَدْتَ من الأدلة؛ فإنه يبقى مُتَنَصِّلا من دلالتها، صَادًّا عنها، يَدْفَعُها بالأَقْيِسَةِ الفاسدة، والآراء الضالة، والاعتراضات الباهتة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنحرفة، انتصارا لهواه، فلا يطلب سوى لَيِّ أعناق النصوص؛ نصرة لمذهبه وهواه. عياذا بالله. **فكلما أتيته بدليل؛ قال لك: هل من دليل آخر؟!!.**

قوله:(ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ})، لما كانت الآية التي استدل بها المؤلف على الأركان الستة، لم يُذْكَر فيها القَدَر، ذكر المؤلف رحمه الله دليلاً آخر خاصاً بالقدر؛ ليستكمل الاستدلال على الأركان الستة كلها.

قوله:{إنا كل شيء خلقناه بقدر}، بين الله تعالى في هذه الآية، أنه ما من شيء إلا والله خالقه، وأنه ما من شيء خلقه الله، إلا وقد قدره قبل أن يخلقه، فوقع الخلق بعلمه وقدرته ومشيئته جل وعلا، وهذا عام في كل المخلوقات، وقد تقدم تفصيل ذلك، بما أغنى عن إعادته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ، وله رُكْنٌ وَاحِدٌ.كما في الحديث:"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]. وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس:٦١].

الشرح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(المرتبة الثالثة: الإحسان): وهو ضد الإساءة، وهو مرادف للإتقان والإجادة. ويطلق الإحسان ويراد به البر وإيصال الخير للآخرين، ويتحدد المعنى بالسياق الذي وردت فيه، هذا من الناحية اللغوية.

وشرعاً: الإخلاص في العبادة لله الواحد القهار محبة وخوف ورجاء، والصدق في المتابعة للنبي ﷺ، وهو بهذا الاعتبار لا ينفك عنه مسلم بحال، وعليه فالإحسان له معنى عام وخاص، فأما العام فهو ما ذكرته هنا، وأما الخاص فهو ما سيأتي في حديث جبريل، عليه السلام الآتي، وإن كان بينهما أيضا عموم وخصوص، ولكن في الإحسان الخاص قدرا زائدا، من ضبط وإتقان وخوف ومحبة ورجاء؛ ولهذا نجد أن هذه الكلمة، تتوارد في سياقات مختلفة، بمعاني يحددها السياق، فمثلا في قوله تعالى:{الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [لقمان:١ - ٤]، جاء الإحسان هنا مرادفا للإيمان والإسلام بمعناهما العام كما تقدم، فقد نعت الله المحسنين هنا بما نعت به المتقين في صدر سورة البقرة، فقال تعالى: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة:١ - ٤]، وبما نعت به المؤمنين في صدر سورة النمل:{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [النمل: ١ - ٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:٥٨]، حث على مزيد من الانقياد والمتابعة، والمعنى امتثلوا أمرنا واحرصوا على الاستزادة من ذلك والتَّكَثُّر.

وفي قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]، حث على مزيد من الإنفاق والعطاء والكرم، وكذلك في قوله تعالى: {وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:٢٣٦]

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٤]، حث على الترقي في مراتب فضائل الأعمال، وكريم الأخلاق والخصال. وهكذا فبحسب السياق يتحدد المعنى. والله أعلم.

والإحسان بمعناه العام له ركنان:

١ - غاية الإخلاص. ٢ - غاية المتابعة.

وعلى هذا المنوال سمى النبي **r** الإسلام والإيمان والإحسان، دينا، كما في حديث جبريل الآتي، فسمى ذلك كله الدين، حيث قال **r** :"أتاكم يعلمكم دينكم"، والمعنى أن هذه الثلاث تمثل الدين القيم، الذي لا يرتضي الله تبارك وتعالى من عباده سواه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنحن إذا مخاطبون بالإسلام والإيمان والإحسان؛ لتكون النجاة؛ ولأجل هذا جاءت هذه الألفاظ والمسميات، مترادفة في بعض مواضع الكتاب والسنة كما تقدم؛ لنعلم أن هناك قدرا من الإحسان لا يكون العبد مسلما إلا به.

الفقه الأكبر:

وهذا معنى قول النبي r :"من يرد الله به خيرا يفقه في الدين" متفق عليه، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

فليس المراد بالفقه هنا، المصطلح الفقهي الحادث، من حلال وحرام، ومكروه ومستحب، ومباح، بل المراد هذه المراتب الثلاث، المذكورة في حديث جبريل عليه السلام، وهو دال على ضرورة القيام بالدين كله، ولاء وبراء، حبا وبغضا، إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، وأن تكون الآلة سليمة، أي أن يكون القلب مستعدا للقبول والانقياد، والجوارح مستعدة للعمل، فإن الفقه واسع، وليس كل يحيط بأكثره، ولكن المهم أن يكون الإنسان عاملا بما عَلِم، ومستعدا للعمل بما لم يعلم متى ما أتاه، طالبا للمزيد من العلم والعمل، ثم درجة ذلك حكما؛ تتوقف على درجة ذلك العلم، كما تقدم، هل هو فرض عين، أم فرض كفاية، وهل هو في حق المعين، واجب أم مستحب، وهكذا. والله أعلم.

مرتبتي الإحسان:

والمؤلف قد اعتبر ما ذُكر في حديث جبريل المشهور ركناً للإحسان، ويمكن جعل ذلك تعريفاً للإحسان، وبيانا لحقيقة حال أداء العبادات، وأنه على مرتبتين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - **المرتبة العليا**: مرتبة الحب والشوق والطلب، وهو قوله: {أن تعبد الله كأنك تراه}، فإن هذا المعني يحملك على حب الله عز وجل، وتعظيمك إياه، مما يجعلك تجتهد في إحسان العبادة، وكأن قلبك يرى الله عز وجل، بأسمائه وصفاته، فهو مقبل عليه إقبال المشتاق المحب، الطالب لرضاه، فلا تراه إلا خاشعاً متنسكاً، يأنس بالله جل وعلا، أشد من أُنس أهل الدنيا بدنياهم، بل ويجد للعبادة لَذة يَسْلُو بها عن كثير من الآلام، ويفرح بها أشد من فرح الناس بالأحباب والأصحاب، وفي مثل هذا يقول بعضهم:(إنه تمر بالقلب لحظات أقول لو أن أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي عيش رغيد)، وقال بعضهم:(إنه لتمر بالقلب لحظات يهتز فيها طرباً)؛ ولهذا كان الأنبياء والمرسلون وأتباعهم، مع عظيم ما يكابدون؛ يجدون راحة وانشراحَ صدر ولذة، من جراء محبتهم لله وأنسهم به، والرضى عنه، وهذا ابن تيمية رحمه الله،لما أوذي في الله كان يجد أُنساً ونعيماً عظيماً، بالله تبارك وتعالى، وقد وصف ذلك تلميذه العلامة ابن القيم في كتابه (الوابل الصيب)، فقال:[وسمعت شيخ الإسلام أبن تيمية قدس الله روحه يقول: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة:ما يصنع أعدائي بي؟، أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رُحْتُ فهي معي، لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا، وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله، وقال لي مرة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: {فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب}، وعِلْمِ الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأَسَرِّهِم نفسا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه؛ فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحا، وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل؛ فآتاهم من رَوْحِهَا ونَسِيمِهَا وطِيبِهَا ما اسْتَفْرَغَ قُوَاهُم لِطَلَبِهَا والمسابقة إليها]ا.هـ.

٢ - **مرتبة الخوف والهرب**: وهو قوله: "فإن لم تكن تراه فهو يراك"، أي إن لم ترتق نفسك إلى تلك الحالة الرفيعة، فلا أقل من هذه الحالة الثانية، وهي رفيعة كذلك، أن تستشعر مراقبة الله لك، وإحصاءه لأعمالك، وملاقاتك إياه، وأنه ليس ثمة إلا الجنة أو النار، أحدث هذا الشعور إحساناً في القلب والعبادة، فهو يخاف إن لم يخلص أن يحبط عمله، وإن لم يتابع أن يرد فعله، فهو خائف وَجِل من الله عز وجل، حريص على أداء العبادات على ما يحبه الله ويرضاه.

تنبيه: في الخلوات تذكر ثلاثا: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧]، {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الطلاق: ٢]. **ولا تنس ثلاثا**: نظر الله إليك، ونعمه عليك، وإحسانه إليك. **وراقب ثلاثا**: عظمته في قلبك، وحبك له، وحياؤك منه.

وفي قوله:(أن تعبد الله)، تذكير بأن العبادة لابد أن تكون بإحسان، لا باتباع الهوى، ولابد أن تتحقق من هذه العبادة، أنها من عند الله، وأن المراد بها الله وحده، والمعنى إذا أن تكون في شرائع الإسلام محسنا، وفي شرائع الإيمان ومحسنا، فتعمل بكل ذلك، جامعا بين عمل الظاهر والباطن، حالة كونك، مخلصا لله تعالى، متبعا لرسوله r .

وبهذا تكون قد اتضحت معالم الدين في حديث جبريل، وظهر الترابط بين هذه المراتب الثلاث، فلنتق الله ولنعمل على سبيل النجاة، أسأل الله تعالى، لي ولكم ولمن نحب النجاة.

قال ابن القيم في:(الوابل الصيب) بعد أن ذكر حال الأشقياء، أهل الإساءة، نسأل الله العافية والسلامة:[وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب، قال تعالى:{من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة}، فهذا في الدنيا، ثم قال:{ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}، فهذا في البرزخ والآخرة، وقال تعالى:{والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}، وقال تعالى:{وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله}، فهذا في الآخرة، وقال تعالى:{قل يا عباد الذين آمنوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}، فهذه أربعة مواضيع ذكر الله تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين:جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة، فالإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد، ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدوره، في انفساح قلبه وسروره ولذاته، بمعاملة ربه عز و جل وطاعته، وذكره ونعيم روحه بمحبته، وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى، أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدني حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللَّهَجِ بذكره والفرح والسرور بمعرفته، ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.....إلى أن قال: وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجَالَدُونَا عليه بالسيوف، وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل:وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره، أو نحو هذا، وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قوة عين المحبين وحياة العارفين وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز و جل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وإنما يُصَدِّقُ هذا من في قلبه حياة، وأما ميت القلب، فيوحشك ما له، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك وترحل عنه بقلبك وفارقه بِسِرِّك، ولا تشغل به عما هو أولى بك، واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فَوت نصيبك وحظك من الله عز و جل وانقطاعك عنه وضياع وقتك وضعف عزيمتك وتفرق همك، فإذا بليت بهذا ـ ولا بد لك منه ـ فعامل الله تعالى فيه واحتسب عليه ما أمكنك وتقرب إلى الله تعالى بمرضاته فيه واجعل اجتماعك به مَتْجَراً لك لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وَقَّفَه عن سيره، فَاجْتَهِدْ أن تأخذه معك وتسير به فتحمله ولا يَحْمِلُك، فإن أَبَى ولم يكن في سيره مطمع؛ فلا تقف معه بلا رَكب الدرب، ودعه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق، ولو كان من كان، فَانْجُ بقلبك وَضُنَّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة؛ فَتُؤْخَذ، أو يطلع الفجر، أنى لك **بلماقهم**]ا.هـ. هكذا عندي في الأصل، ولعل الصواب (بِمَلْقَاهُم).

قال المؤلف رحمه الله:(قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"): هذا الخبر أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"إِنَّ اللهَّ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ".

وفي هذا الحديث دليل على أن هناك قدراً من الإحسان، لابد من وجوده، وهو الإخلاص والمتابعة.

وللإخلاص والمتابعة، أثار في القلب بحسب قوتها، فتقوى حتى يصل الأمر بالقلب إلى أن يعبد الله كأنه يراه، أو إلى أن يعبده مستشعراً مراقبته لله جل وعلا، خائفاً وجلاً منه تبارك وتعالى.

قوله:"كتب"، أي أمر وأوصى وقدر وفرض، والمعنى أن الله تبارك وتعالى أراد من عباده شرعا أن يكونوا على حالة الإحسان في كل ما يأتون ويذرون، حتى في ذبحهم للبهائم، لابد من الإحسان، وسبيل معرفته الوقوف مع حدود الشرع والعمل به، فإنما سمي إحسانا من الحسن، ولا حسن في مخالفة الشريعة، بل كل الإحسان في مواطأة مراض الله تبارك وتعالى، والبحث عنها والعمل بها.

قوله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ اللهّ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}، إذا كان الإسلام هو عمل الظاهر، والإيمان هو عمل الباطن، فإن الإحسان ينتظمهما، فإن أعمال الجوارح والقلوب لا تقبل إلا بالإخلاص والمتابعة، ففي فريضة الصيام مثلاً، تظهر حقيقة الإحسان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعبد يسعه أن يأكل ويشرب في خلوه من العباد، إلا أنه لا يفعل ذلك لاستشعاره رؤية الله جل وعلا وإطلاعه عليه، فهذا إحسان نسبي متعلق بهذه الفريضة، حتى إذا صارت حياة العبد كلها بهذه المتابعة؛ كان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} فأثبت الله جل وعلا في هذه الآية معيته لهذا الصنف من العباد.

ومعية الله جل وعلا على نوعين:

١ - **معيةٌ عامة**: وهي بمعنى العلم والإحاطة والقهر والقدرة.

٢ - **معيةٌ خاصة**: وهي بمعنى التوفيق والسداد، والحفظ والنصر والتمكين، وهذه هي المرادة في هذه الآية، إذ أن المعية الأولى، هي معية عامة، يدخل فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:٧] ، وَشَرَفُ المتقين وعزهم، وكرامة المحسنين وعلو قدرهم، إنما يتجلى في المعية الخاصة: {مع الذين اتقوا} أي سلكوا سبيل التقوى في جميع أحوالهم، فيحرصون على العمل بالطاعات والقربات، وينأون عن المعاصي والمحرمات، ثم لا يزالون بأنفسهم حتى يرتقوا بها إلى مراتب الإحسان. وحقيقة التقوى ما قاله طلق بن حبيب رحمه الله تعالى:(أن تعبد الله بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله، وأن تدع معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله)، وهذا من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجمع التعاريف للتقوى، وإنما تميز هذا التعريف؛ لأن فيه لفظة (على نور من الله)، فهي التي تميز المُحسن من غيره، فإن العبد قد يفعل المأمور طلباً لشيء من عرض الحياة الدنيا، كما أنه قد يترك المحظور حِمية وتداوياً، أو يكون وضعه الاجتماعي لا يسمح بتعاطي هذا المحرم أو ذاك، فهذا وذاك ليسا من التقوى والإحسان في شيء، فالواجب إذن فعل الأوامر ابتغاء مرضات الله عز وجل على علم وبصيرة، لا على وفق العادات والتقاليد، أو فعل الأكثر من الناس، أو ضغط الواقع، بل على وفق الكتاب والسنة، وهذا هو النور المشار إليه في كلام طلق بن حبيب المتقدم، فهو يعلم الطاعة ويأتيها محبا محتسبا الأجر من الله تعالى، وكذلك الأمر مع المعصية، يعلم أنها معصية بدليل الكتاب والسنة؛ فيتركها لأن الله يبغضها، ولأن الله نهى عنها، وحذر منها، فهو يفعل ما يفعل، ويترك ما يترك، وفقاً للكتاب والسنة، لا وفقاً للهوى والعادات،وهذا من معاني قوله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام}، فالحلال والحرام لا يعرف إلا من جهة الكتاب والسنة، وما كان تبعاً لهما كالإجماع الصحيح والقياس المعتبر، فهذا الصنف من العباد هم أحق العباد بمعية الله جل وعلا الخاصة، وهم أولى الناس باسم التقوى والإحسان.

وقوله:{الذين اتقوا}، تقدم معنا أن التقوى قد يراد به الدين كله بحسب السياق، وهنا جاءت التقوى في سياق ذكر الإحسان، فالظاهر أن المراد بها هنا ترك المحرمات، والمراد بالإحسان فعل المأمورات، وقيل التقوى الاقتصار على الواجب من ذلك، بأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يفعل محرما ولا يترك واجبا، والإحسان التوسع في فعل النوافل، وترك المكروهات وشيء من المباحات، وهناك أقوال أخرى غير ذلك.

الفرق بين البر والتقوى:

مِثْلُ البر والتقوى إذا اجتمعا في سياق واحد، فالظاهر أن المراد بالتقوى ترك المحظور، وبالبر فعل المأمور، وبينهما عموم وخصوص. وقد يقال بالترادف، ولكن ما ذكرته أوجه. والله أعلم.

قوله:{وهم محسنون}، جملة حالية، والمعنى أي حالة كونهم محسنين في عباداتهم، هذا على القول بأن هذا من قبيل التعميم بعد التخصيص، ولما كانت التقوى والإحسان متعلقين بتحقيق العبودية، ناسب ذكر اسم الله جل وعلا دونما سواه من الأسماء الإلهية، فلم يقل(إن ربك)، بل قال:{إن الله}.

قال المؤلف:(وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}): تقدم الكلام عن التوكل، وأنه عمل القلب، وأنه هو الاعتماد التام على الله عز وجل، في جلب المحبوب ودفع المرهوب؛ ولهذا أمر الله جل وعلا به هنا أمر إلزام، فلا يجوز التوكل على غير الله جل وعلا، إذ أن ذلك شرك أكبر، ولابد للعبد من التوكل على الله جل وعلا، فهذه عبادة يجب صرفها لله رب العالمين وحده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم بين الله جل وعلا، أنه لا يسوغ التوكل على سواه؛ لأنه هو {العزيز الرحيم} فهو العزيز الذي لا يرام جنابه، ولن يبلغ العباد نفعه فينفعوه، ولا ضره فيضروه، فهو الغني من كل وجه، وما سواه فقير إليه، من كل وجه، وهو الغالب على أمره، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؛ لأنه هو مالك الملك عز وجل، وبيده مقاليد الأمور، فهو الذي يصرفها دونما ظهير ولا شريك، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ:٢٢]، وهو مع ذلك كله جل وعلا الرحيم بعباده المؤمنين، فهو مع كمال عزه، أرحم بهم من أمهاتهم اللاتي ولدنهم، والمخلوق غالباً إذا ملك، غلب وتَجَبَّر، أما الله جل وعلا، فإذا فزعت إليه، وتوكلت عليه؛ منعك من كل ما يسوؤك؛ لأنه هو العزيز، وعنده كل ما تؤمله ، وهو سيفعل بك ما هو الأصلح لك؛ لأنه هو الرحيم، فكيف يسوغ التوكل على غير الذي هذه صفته،جل الله في علاه، وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ".

ثم زاد الأمر بياناً ووضوحاً بقوله: **{الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}**، أي هو الذي لا تخفى عليه خافية، فقد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بصره بالْمُبْصَرات، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات، فالكل عنده سواء، لا تحجبه سماء عن سماء، ولا أرض عن أرض، فالقريب والبعيد عنده سواء جل وعلا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلا يحجبه شيء عن شيء، ويشغله شيء عن شيء، ولا حال عن حال، كما قال تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد:١٠]، وأما قوله r :"أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد" فالقرب هنا قرب إجابة، وإلا فالكل عند الله قريب، ولهذا قال سبحانه: {إنه هو السميع العليم}، أي العليم الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، وهو بكل شيء عليم، فلا أعلم منه جل جلاله، وهو السميع الذي وسع سمعه كل المسموعات، فالنجوى والسر عنده كالعلانية والجهر، ولهذا تقول عائشة رضي الله عنها فيما بوبه البخاري في صحيحه[بَاب قَوْلِ الله تَعَالَى: {وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}، وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ تَمِيمٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الْحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ r : {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}]ا.هـ.

فهو الله جل وعلا السميع، وهو مع ذلك العليم بأحوال عباده، وما هم فاعلون، وإلى أي شيء يؤولون، وما يمكرون، وماذا يكيدون، وهذه الآية بيان لمعنى:"فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، ففي هذه الآية توضيح لحقيقة الأمر، وأن العبد كلما علم أسماء الله وصفاته؛ عظم الله في قلبه؛ فعبده بالإحسان، وكلما ازداد جهله بأسماء الله وصفاته؛ تخبطته الشياطين؛ فيتوكل على المخلوق الفقير، والإمكانات البشرية التي مهما بلغت فإنها ضعيفة، مقهورة متصرف فيها، ويدع العزيز الرحيم، السميع العليم، ولكن الأمر كما قال تعالى: {وما قدورا الله حق قدره}، وقوله: {مالكم لا ترجون لله وقاراً}. فالله تعالى يعلمنا أسماءه وصفاته لنقوم بحق عبادته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في هذه الآيات؛ لتحسن التعامل مع الله تعالى، وتحسن الظن به، ويعظم شأن الله تعالى في قلبك، وتعرف حقيقة المخلوق وفعله:قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل:٤٥-٥٣]، وقوله:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:١٢٣]، وقوله:{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٧-١٢٨]، وقوله:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر:١٠]، وقوله:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠]، وقوله:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[إبراهيم:٤٦-٤٧]، وقوله:{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَّ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الأنفال:٤٩-٥١].

لا تحزن ولا تخف إن كنت من المتقين:

فهاهي خطوب تُدَار، ومَكْرٌ كُبَّار، ومَكَايُد تُحَاك من حَولك الليل والنهار، ولكن لا عليك منها، فقط التفت إلى حق الله تعالى، واعبده بالإحسان، فإنما هم عباد، نَواصِيهِم بِيَدِ مالك الملك، فلا تَحْزَن ولا تَخَف ولا تَبْتَئِس، بل اعمل على عبادة ربك، واسع في مراضيه، حتى يأتيك اليقين.{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُّ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُّ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠].

فارض به وليا وهاديا ونصيرا، فإنه سبحانه:{نعم المولى ونعم النصير}، وهو القائل:{وَاللهُّ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا} [النساء:٤٥].

وما أحسن ما قاله بعض أهل العلم: علينا أن نعمل بما يُرَادُ مِنّا، وأما ما يُرَادُ بنا، فالله أعلم وأحكم، وهو خير الحافظين. ولتذكر قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر:١٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله تعالى، أن هناك تلازما وثيقا بين التقوى، وقبول الأعمال، كما قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة:٢٧].

قوله: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قيل أي في الصلاة، وقيل أي بأمر الدعوة والجهاد لتبليغ الدين، وقيل حالة كونك قائما لا تخفى عليه، ولا حالة كونك ساجدا، فالكل كتاب مفتوح، عند الذي لا تخفي عليه خافية، سبحانه وتعالى.

قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقوله هنا: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، يدلّ على الاعتناء به r ، ويوضح ذلك قوله تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم:[قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَاصِمٍ، ثنا أَبِي، أنبا شَبِيبٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِ اللهِ:الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، قَالَ:تَقُومُ الصَّلاةُ.

حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَّادٍ الطِّهْرَانِيُّ، أنبأ حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، ثنا الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، فِي قَوْلِ اللهِ: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قَالَ:يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ.

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ الْبَصْرِيُّ، ثنا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ، ثنا أَبِي، ثنا رَبِيعَةُ بْنُ كُلْثُومِ بْنِ جَبْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ الْحَسَنَ، يَقُولُ فِي قَوْلِ اللهِ: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قَالَ:حِينَ تَقُومُ إِذَا صَلَّيْتَ وَحْدَكَ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْوَجْهُ الثَّانِي:حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ، ثنا أَبُو بُكَيْرٍ النَّخْعِيُّ، عَنْ جُوَيْبِرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ،{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قَالَ:حِينَ تَقُومُ مِنْ فِرَاشِكَ أَوْ مِنْ مَجْلِسِكَ.

حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثنا صَفْوَانُ، ثنا الْوَلِيدُ، ثنا شُعَيْبُ بْنُ رُزَيْقٍ، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}،مَعَهُمْ وَتَقْعُدُ.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، أنبأ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ، ثنا يَزِيدُ، ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، يَقُولُ:الَّذِي يَرَاكَ قَائِمًا، وَجَالِسًا وَعَلَى حَالاتِكَ.

حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ، ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْهَرَوِيُّ، أنبأ الْحَجَّاجُ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ:يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ أَيْنَمَا كُنْتَ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ:حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ الْبَصْرِيُّ، بِمِصْرَ، ثنا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، ثنا رَبِيعَةُ بْنُ كُلْثُومٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، يَقُولُ:{ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}،حِينَ تَخْلُو بِهَا]ا.هـ.

قوله:{ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، قيل في قيام الليل، وقيل في قيامه مع أصحابه، وقيل في تفقده لأهله وأصحابه في قيام الليل وحثهم على ذلك، وقيل تسلسل نسبه وتقلبه في أصلاب الرجال، فَجَدَّاهُ إسماعيل الذبيح عليه السلام، وإبراهيم الخليل r .

جاء في تفسير ابن كثير:[وقوله:{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: قال قتادة:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجَمْع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن البصري.وقال مجاهد: كان رسول الله r يرى مَنْ خلفه كما يرى مَنْ أمامه؛ ويشهد لهذا ما صح في الحديث:"سَوّوا صفوفكم؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإني أراكم من وراء ظهري".وروى البزار وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبيا]ا.هـ.

وجاء في تفسير البغوي:[{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك. قال عكرمة وعطية عن ابن عباس: في الساجدين أي: في المصلين. وقال مقاتل والكلبي: أي مع المصلين في الجماعة، يقول: يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة. وقال مجاهد: يرى تقلب بصرك في المصلين، فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه. أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله r قال:"هل ترون قبلتي هاهنا، فوالله ما يخفي علي خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري"، وقال الحسن:{وتقلبك في الساجدين} أي: تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين. وقال سعيد بن جبير: يعني وتصرفك في أحوالك، كما كانت الأنبياء من قبلك. والساجدون: هم الأنبياء. وقال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة]ا.هـ.

فهذه الآيات وغيرها كثير، من أعظم ما يَثْبُتُ بها فؤاد المؤمن، صاحب الإحسان في عبادة الرحمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، وتعلم أنها تأوي إلى ركن شديد.

قوله:(وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ})، هذا كقوله تعالى:{اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد:٨-١١].

قوله:{وما تكون في شأن}: {ما) هنا لِلْجَحْد، والمعنى: أي لست تكون في شأن، إلا وقد علمناه، فلا يخفى علينا منه شيء، كما قال تعالى:{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام:٥٩]، ولئن كان علم الله جل وعلا، وسمعه وبصره،قد أحاط بأفعال غير المكلفين، فكيف بأفعال المكلفين، وقال سبحانه:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[الأنعام:٣٨]، فسبحان من وسع علمه كل شيء وأحاط سمعه بالمسموعات وبصره بالمبصرات.

قوله:{في شأن}، الشأن الأمر، والمعنى، أي شيء من أمرك وحالك لا يخفى علينا، بل قد أحطنا به وبكل شيء علما.

قوله:{وما تتلوا منه من قرآن}: فُسر بمعنيين:

المعنى الأول: أن الضمير في {منه} يعود على الشأن؛ فيكون المعنى: وما يحدث لكمن شأن، أي مهما يكن من أمر من أمورك وأي خطبك ينزل بك، فينزل فيه قرآن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُتْلى إلا، والله أنزله وعلمه، فهو الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

المعنى الثاني: أن الضمير في {منه} يعود إلى القرآن، فيكون المعنى، أي ما من أمر من أمورك وإلا ونحن نعلمه، وأي تلاوة للقرآن تتلوها فنحن نسمعها، فلا يخفى علينا لا قول ولا عمل.

وقوله:{من قرآن}، أي ما تتلوه من هذا القرآن، يعلمه ويسمعه، وتكون كلمة القرآن للتوكيد والتفخيم والتعظيم، أو لبيان ما يتلى.

قوله:{ولا تعملون من عمل}: أي كل عمل وأي عمل معلوم محصى، ليس في وقت عمله فحسب، بل وقبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة كما تقدم معنا في باب القدر.

وكلمة :(شأن – وعمل – وقرآن) كلها نكرات جاءت في سياق النفي؛ فتفيد العموم، والمعنى أن الله جل وعلا يعلم جميع الأمور على اختلاف الأحوال، ويسمع جميع الأصوات على تفنن الأصوات والحاجات، ويعلم ما العباد عاملون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد أحاط بكل شيء علما.

قوله:{إلا كنا عليكم شهوداً}: الشاهد هو المطلع المخبر عن علم، أي مطلعين على ذلك، كما قال سبحانه:{إنني معكما أسمع وأرى}، وقال:{تجري بأعيننا}، فهو سبحانه وتعالى الرقيب والشهيد والمحصي والحفيظ، جل الله في علاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{إذ تفيضون فيه}: فُسر بأحد معنيين:

المعنى الأول: أن الضمير في {فيه} يعود على الشأن، أي الأمر والعمل؛ فيكون المعنى، إذ تفيضون فيه: أي تعملون به وتتكلمون به، وفيما يتعلق به، فتكون الإفاضة هنا التوسع في الكلام فيه والأخذ والعطاء.

المعنى الثاني: أن الضمير في {فيه} يعود على القرآن، فيكون المعنى، إذ تفيضون بالكذب في القرآن وتتوسعون في ذلك، فكل هذا وغيره لا يخفى على الله جل وعلا، ولهذا قال بعدها:{وما يعزب عن ربك مثقال ذرة}، كقوله قال تعالى:{ما فرطنا في الكتاب من شيء}، وقوله:{وأحصى كل شيء عدداً}، وقوله:{أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون}، ففي هذه الآية، والتي قبلها بيان لإحاطة الله تعالى بجميع الأقوال والأفعال والأحوال، الظاهرة منها والباطنة؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية.

جاء في تفسير ابن كثير:[{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله:{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، وقال تعالى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[هود:٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء:٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} أي:إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان قال:"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"]ا.هـ.

ذكر بعض الأمور التي تعين على دفع الرياء والسمعة والعُجب:

وهذه الآيات التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى من أعظم ما يذكر بضرورة الإخلاص لله تعالى والخوف من الرياء وضرورة مدافعته حتى لا تحبط الأعمال، ولنذكر بعض ما يعين على دفع الرياء وتحقيق الإخلاص بإذن الله تعالى، **وذلك بتذكر جملة من الأمور:**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - أن الله جل وعلا يطلع على القلوب والأعمال، فاحذر أن يطلع الله على قلبك فيراك قد أشركت معه غيره، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة t قال: قال رسول الله r :"إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، وفي رواية:"إِنَّ اللهَّ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ". وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ.

٢ - تذكر أن الجنة والنار بيد العزيز الجبار ،وأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو.

٣ - تذكر أن هذا العمل الذي تقوم به، إنما قمت به بتوفيق من الله تعالى ونعمته، لا بحولك ولا بقوتك، فلا تبدل نعمة الله كفرا، ولا تقابل الإحسان بالإساءة، كما قال تعالى:{فلولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله}، ولهذا جاء في الحديث:"لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة" وقد تقدم تخريجه.

٤ - تذكر أنه لن يغني عنك شيئا أن يثني الناس عليك، وأنت عند الله مذموم.

٥ - تذكر ضعف المخلوق وقلة حيلته، فالمرائي يصرف عمله عن الذي هو على كل شيء قدير، إلى المخلوق الضعيف الحقير، يرجو بذلك عرضاً زائلاً، يورث هماً وغماً في الدنيا والآخرة، وقد تقدم معنا حديث أبي هريرة t في صحيح مسلم في ذكر الأصناف الثلاثة من أهل الرياء وأن الله تعالى أدخلهم النار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦- تجديد التوبة وكثرة الاستغفار من هذا الشرك، وألا يغفل عن ذلك العبد، ولهذا كان من جوامع كلم النبي r في خطبة الحاجة كان يقول:"ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا" أخرجه أحمد، وأصحاب السنن وسنده صحيح.

٧- تذكر حقيقة النفس الأمارة بالسوء، وأنها داعية إلى العصيان، وأنها تبغض الإخلاص؛ لأنه ليس لها حظ فيه ولا معه.

٨- تذكر أن هذا الرياء يحبط الأعمال، فأنت تتعب وتنصب، والله يُحْبِطُ ويُعَذِّب؛ لأنه جل وعلا لا يقبل معه شريك، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ".

٩- الإلحاح على الله تعالى بالدعاء، والانطراح بين يديه، والانكسار إليه، أن يخلصنا من هذا الشرك، وأن يعيننا على الإخلاص والمتابعة، في جميع الأحوال والأعمال، الظاهرة والباطنة، ولا يهلك مع الدعاء أحد بإذن الله تعالى، والرياء، كما قيل:لا يخافه إلا مؤمن ولا يأمنه إلا منافق، كما نقل ذلك عن الحسن البصري وغيره. وما أحسن ما قيل:

ولو لم يكن من الله عون للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وفي مسند أحمد وأبي يعلى وعند البخاري في الأدب المفرد وسنن النسائي وأبي داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ t قَالَ: يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. قَالَ:"قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ". قَالَ:"قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ".

فهذه من أبرز الأمور التي تعين على ترك الرياء وتحقيق الإخلاص، والله هو المسؤول أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قال ابن القيم في:(الفوائد):[فصل: لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضَّبُّ والحُوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص؛ فأقبل على الطَّمَع أولا، فَاذْبَحْهُ بِسِكِّينِ اليَأْسِ، وأقبل على المدح والثناء؛ فازْهَد فيهما، زُهْدَ عُشَّاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح؛ سَهُلَ عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يُسَهِّلُ عَلَيَّ ذَبْحَ الطمع، والزهد في الثناء والمدح؟، قلت: أما ذبح الطمع فَيُسَهِّلُهُ عليك، عِلْمُكَ يقينا أنه ليس من شيء يُطْمَعُ فيه، إلا وبِيَدِ الله وحده خَزَائِنُه، لا يَمْلِكُها غَيرُه، ولا يُؤْتِي العَبْدَ منها شيئا سِوَاه، وأما الزُّهد في الثناء والمدح، فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مَدْحُه ويَزِين، ويَضُرُّ ذَمُّهُ ويَشِين، إلا الله وحده].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ t قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ r إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ r فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ:"أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا". قَالَ:صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ:"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ:"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ:"مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ". قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ:"أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ". قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ:"يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ". قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:"هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قال المؤلف:(والدليل من السنة حديث جبريل المشهور ... الحديث): بعد أن استدل المؤلف فيما تقدم بكثير من آيات الذكر الحكيم، على مراتب الدين الثلاثة، عطف بحديث صحيح من السنة؛ لأن السنة تفصل ما أجمل، وتبين ما أبهم وتفسره، وقوله:(المشهور)، أي صحة ومعنى، وإلا فهناك كثير من المشهورات ضعيفة جدا مثل:(أدبني ربي فأحسن تأديبي)، بل وبعضها لا أصل له، مثل (كذب المنجمون ولو صدقوا)، ومن ألطف الكتب في ذلك كتاب:(المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة) للسخاوي.

وهذا الحديث العظيم، قد تقدم ذكر جملة من مسائله، وشرح تفاصيلها، كالإسلام والإيمان والإحسان، وقد أفردت مؤلفا خاصا ذكرت فيه جملة غزيرة من فوائد هذا الحديث الجليل القدر، حتى بلغت الفوائد ما يزيد على أربعمائة فائدة، في كتاب أسميته (الدرر والزهور من حديث جبريل المشهور)، فمن أراد المزيد فليراجعه مشكورا.

وقد ورد معنى حديث ابن عمر t هذا وبلفظ قريب منه كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ:"مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ r :{إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}الْآيَةَ ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ".

وبما أن عامة جُمَلِ هذا الحديث العظيم القدر قد تقدم بيانها بإسهاب، فسنعمد إلى بيان ما تبقى منه، وهو قوله: قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ:(مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ). قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: (يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم).

قوله:(أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ")، هذا من العلم الذي استأثر به، وهذا محل إجماع من المسلمين، أن الساعة لا يعلمها إلا الله، حتى قال تعالى:{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه:١٥]، وقال:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:١٨٧]، وقال:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النازعات:٤٢-٤٦]، وقوله:{إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان:٣٤]، وقوله:{ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزخرف:٨٥].

ذكر بعض أشراط الساعة:

قوله:(فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا): أي عن بعض أماراتها؛ لأن المذكور في هذا الخبر ليس هو كله أشراط الساعة، فهناك علامات أخرى بعضها في القرآن والأكثر في السنة، وعلامات الساعة منها الكبار ومنها الصغار، فمن ذلك دكُّ سدِّ يأجوج ومأجوج، كما في قوله تعالى:{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [الكهف:٩٨-٩٩]، ومنه قوله:{وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [النمل:٨٢]، وقوله عن عيسى عليه السلام :{وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [الزخرف:٦١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن السنة، ما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ فَاطَّلَعَ إِلَيْنَا فَقَالَ:"مَا تَذْكُرُونَ". قُلْنَا السَّاعَةَ. قَالَ:"إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالدُّخَانُ وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الأَرْضِ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيِّصَةَ أَحَدِكُمْ".

وفي صحيح مسلم من طريق عَبْدِ الْعَزِيزِ - يَعْنِى ابْنَ الْمُخْتَارِ - حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلاَلٍ عَنْ رَهْطٍ مِنْهُمْ أَبُو الدَّهْمَاءِ وَأَبُو قَتَادَةَ قَالُوا كُنَّا نَمُرُّ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ نَأْتِي عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ إِنَّكُمْ لَتُجَاوِزُونِي إِلَى رِجَالٍ مَا كَانُوا بِأَحْضَرَ لِرَسُولِ اللهِ r مِنِّي وَلاَ أَعْلَمَ بِحَدِيثِهِ مِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ t قَالَ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ r حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ بِهِ غَيْرِي قَالَ:"مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ الْجَهْلُ وَيَقِلَّ الْعِلْمُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ". قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ قَالَ:"الْقَتْلُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ".

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ".

وفي صحيح البخاري من طريق أبي إِدْرِيسَ قَالَ: سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ e فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهْوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ:"اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَوْتِي ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ثمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِّ e فِي غَزْوَةٍ - قَالَ - فَأَتَى النَّبِيَّ e قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ فَوَافَقُوهُ عِنْدَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَكَمَةٍ فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ الله e قَاعِدٌ - قَالَ - فَقَالَتْ لِي نَفْسِي ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ لاَ يَغْتَالُونَهُ - قَالَ - ثُمَّ قُلْتُ لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ - قَالَ - فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي قَالَ:"تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ ». قَالَ فَقَالَ نَافِعٌ يَا جَابِرُ لاَ نَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ".

الإكثار من العبادة من أعظم الأعمال في وقت الفتنة:

ومن أعظم ما يُعِينُ العبد على الثَّبات في الأمر، لزوم العبادة وصالح العمل والتقوى عند الفتن، كما في صحيح مسلم عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ t رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ r قَالَ:"الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ".

وكذلك مما يعين على التخلص من فتنة الدجال، الاستعاذة منه أدبار الصلوات، وكذلك حفظ أول عشر آيات و آخر عشر آيات من سورة الكهف، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ"، وفي وراية:"العشر الآواخر".

قوله: "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ"، جاء في شرح النووي على مسلم:["أن تلد الأمة ربتها" وفي الرواية الأخرى "ربها" على التذكير وفي الأخرى "بعلها"، وقال يعنى السراري، ومعنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها لأن مال الإنسان صائر إلى ولده وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين إما بتصريح أبيه له بالإذن وإما بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال وقيل معناه أن الإماء يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته وهذا قول إبراهيم الحربي وقيل معناه أن تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان فيكثر ترددها في أيدي المشترين حتى يشتريها ابنها ولا يدري ويحتمل على هذا القول أن لا يختص هذا بأمهات الأولاد فإنه متصور في غيرهن فإن الأمة تلد ولدا حرا من غير سيدها بشبهة أو ولدا رقيقا بنكاح أو زنا ثم تباع الأمة في الصورتين بيعا صحيحا وتدور في الأيدي حتى يشتريها ولدها وهذا أكثر وأعم من تقديره في أمهات الأولاد وقيل في معناه غير ما ذكرناه ولكنها أقوال ضعيفة جدا أو فاسدة فتركتها]ا.هـ.

قوله: "وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ"، وهذا علم من أعلام نبوته **r**، حيث وقع ما أخبر عنه، فاليوم التباهي والتفاخر والتنافس بارتفاع البنايات أصبح شيئا مَهُولا مَلْمُوسا، وأصبحت بوادي معظم البلدان، مليئة بالعمائر المرتفعة، وهذه هي بلاد الخليج، قد بلغت شأوا عظيما من ذلك، حتى أصبح فيها من أطول بنايات العالم، وفيها تنافس عظيم بين الرؤساء والملوك والأمراء وأصحاب رؤوس الأموال، فسبحان الذي يعلم السر وأخفى، الذي أوحى بهذا للمصطفى **r**.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"، وقوله:(قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)، هـذا من التربية العملية لنا أن نقول دائما، وبلا أدنى حرج ولا تردد، إذا سئلنا عما لا نعلمـه، أن نقول:لا نعلم، أو لا علم لنا، فإن الذي يعلم كـل شيء هـو الله رب العـالمين، وهنـا كلام جميل أنقله عن القرطبي، قاله في تفسير سورة البقرة:{قالوا سبحانك لا علـم لنـا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}(الآية: ٣٢).

قال رحمه الله:[الواجب على من سئل عن علـم أن يقـول إن لم يعلـم: الله أعلـم ولا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضـلاء مـن العلـماء ....إلى أن قـال: وفي صـحيح مسلم عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال: كنت جالسـا عنـد القاسـم بـن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظـيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجـد عنـدك منـه علـم ولا فـرج، أو علـم ولا مخرج؟ فقال له القاسم: وعم ذاك؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى: ابـن أبي بكـر وعمـر. قال يقول له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عـن غير ثقة. فسكت فما أجابه. وقال مالك بن أنس: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعـالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلا في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري. وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنـس سـئل عـن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري]ا.هـ.

قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين.انتهى بتصرف يسير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تاريخ ابن معين - رواية الدوري- سمعت يحيى قال حدثنا معن بن عيسى القزاز عن مالك قال:[يقال إذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مقاتله]ا.هـ.

وذكر هذا الأثر محتجا به، الآجري في أخلاق العلماء، والبيهقي في المدخل، وابن عبد البر في جامع بيان العلم، والخطيب في الفقيه والمتفقه، وابن الصلاح في أدب الفتوى والمستفتي، كلهم مسلسلا عن الأئمة أحمد بن حنبل عن الشافعي مالك عن محمد بن عجلان، وروي عن سفيان بن عيينة.

وفي (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر قال:[قَالَ ابنُ وَهْبٍ رَحِمَهُ اللهُ:لَوْ كَتَبْنا عَنْ مَالِكٍ: لا أدْرِي، لَمَلأنا الأَلْوَاحَ]ا.هـ.

وَنَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِذَا مَا قَتَلْتَ الشَّيْءَ عِلْمًا فَقُلْ بِهِ ... وَلَا تَقُلِ الشَّيْءَ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهْ

فَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّرًا ...وَيَكْرَهُ لَا أَدْرِي أُصِيبَتْ مُقَاتِلُهْ

قوله:"هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم"، فيه عناية الله تعالى بهذه الأمة، وفيه فوائد كثيرة ذكرتها في كتابي المشار إليه آنفا، وكنت قد بينت أن هذه الجمل من النبي **r** ، مع قول ابن عمر فيما بعد موت النبي **r** :(إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ) دال على الاسم يُطْلَق على ما ظهر لنا مما بين أيدينا، بغض النظر عما كان عليه من قبل، وهذا متعلق ببيان شبهة وردها للمجوزين للتصوير الفوتغرافي والمباشر، ونحو ذلك، وإليك نص الكلام من كتابي الاستنباطات:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستنباط السابع والتسعون

ذهب بعض أهل العلم إلى جواز التصوير الفوتوغرافي والصور التي في الكمبيوترات، والبث المباشر بدعوى أن هذه الصور لا زيادة فيها على الحقيقة فهي مجرد عكس للحقيقة وحبس للظل، فليس هو من باب التصوير ولا تسمى صورة في هذه الحالة، والبعض يعلل بكونها تزول بإغلاق الجهاز، وآخرون يقولون:إن أصلها ليس بصورة، وللإجابة على هذه الشبه أقول وبالله التوفيق:

إن المتأمل في قوله r : «ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي». «متفق عليه»واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة، وفي رواية مسلم : «فإن الشيطان لا يتمثل بي». وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر عن النبي r : «من رآني في النوم فقد رآني إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي» وفيه عن جابر أيضا : «من رآني في النوم فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي» .

يجد أن هذه الأحاديث كلها دالة على أن المرئي في المنام هي صورة النبي r ، وقد بَيَّنَ r امتناع أن يتمثل الشيطان بصورته، ولا شك أن رؤيته r في المنام ستكون بنفس معالمه وصفاته عليه الصلاة والسلام، فهي صورته حقيقة، وهي مطابقة للواقع، وهذا دليل على أن الصورة وإن كانت مطابقة تمامًا للحقيقة والواقع، فهي لا تخرج عن كونها صورة، فقد سماها النبي r صورة، بدليل هذه الأحاديث الصحاح .

فإن قيل: أنا لم أصور بل عكست فقط، فالجواب أن هذه مغالطة عقلية؛ لأن من أثبت أنها صورة فإنه قد صورها، ولا يغني عنه قوله إنها عكس أو حبس للظل، علمًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأن الذين صنعوا هذه الأجهزة سموها صورة (photo)، والبعض لا يفهم من التصوير سوى الرسم والنحت وهذا مخالف للغة العرب بل ولعموم النصوص التي تكلمت عن سائر أنواع الصور، وقد ذهب أصحاب المعاجم اللغوية إلى أن الصورة هي الشكل، وعليه فكل ما كان له شكل فهو صورة، وهذا الذي فهمه ابن عباس حيث عمم حكم المنع من التصوير على كل أفراده، ثم استثنى للحاجة ما لا روح له كما في «صحيح مسلم» من طريق سعيد بن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها؟ فقال له: ادن مني فدنا منه، ثم قال: ادن مني فدنا حتى وضع يده على رأسه قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم» وقال: إن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا نفس له.

وليست المضاهاة هي العلة الوحيدة في تحريم التصوير؛ بل هناك عدة علل، فمنها التشبه باليهود والنصارى، ومنها أنها كانت أول سبب لوقوع الشرك في الأرض، كما في «البخاري» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومنها ضياع الأموال والأوقات وغير ذلك من العلل .

وعليه فالصورة التي تظهر في الشاشات والكمبيوترات والبث المباشر والكاميرات الفوتغرافية؛ هي داخلة في جملة التصاوير، وإن قيل إنها تزول فإن هذا لا يغير من الحكم والمسمى شيئًا؛ لأنه من المعلوم أن الصورة التي في المنام تزول ومع هذا سماها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشارع صورة، فلا يسوغ بعد هذا تسميتها بغير اسمها تجويزًا لها كقولهم: (عكس أو حبس للظل أو ما شابه ذلك).

فإن قيل: إذن رؤية النبي r في المنام، ورؤية ذوات الأرواح على السطوح الصقيلة، والمرايا، وسطح الماء هي الأخرى محرمة ؛ لأنها لا تنفك عن كونها صورة.

قلنا نعم هذا هو الأصل، ولولا أن الشارع فرق بين ما للإنسان فيه عمل، وما ليس للإنسان فيه عمل، لتوجه القول بالتحريم لعموم الأدلة الواردة بأبلغ صيغ العموم في تحريم التصوير والتصاوير جملة وتفصيلًا.

ولكن لما كانت الصور التي تظهر في الرؤى والمرايا والسطوح الصقيلة وسطح الماء لا دخل للإنسان فيها ولا عمل له فيها، لم يُحَمَّل تبعتها ؛ ولم يكلف باجتنابها لكونه لا يد له في ذلك، وإنما مناط التكليف بالأمر والنهي مندرج تحت ما كان بوسع الإنسان أن يقوم به لعموم قوله تعالى: ﴿لاَيُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّوُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولهذا لم تدخل في عموم التحريم، فلازم الآية ومفهوم المخالفة منها أن ما ليس للإنسان فيه كسب لا يؤاخذ عليه، ولا يُحَمَّلُ تَبِعَتَه فلله الحمد والمنة.

ولهذا فرق الشارع بينهما فأحل هذه وحرم هذه ؛ فوجب الوقوف على ما أخبر به الشارع فهو أحكم وأعلم، كما أننا عباد لله تعالى والله تعالى، يقول:﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، فعلينا باجتناب ما نهى عنه وقبول ما أحله لنا هذا مقتضى العبودية لله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن في الحديث، دليلًا على أن العبرة في هذا الباب، هو بما آل إليه الأمر والشيء، فالحكم إنما يكون على النتائج، فإن النبي ﷺ سماها صورة مع أنها مجرد رؤية منامية، ولكن لما كانت النتيجة أنه رأى الصورة أخذت الحكم والمسمى، وذلك دال على أنه متى ما ظهرت الصورة أخذت الحكم، ولا ينظر إلى المراحل المتقدمة على ذلك لكونها ليست هي محل النزاع ؛ لأنها لم تكن صورة أصلًا، كما أن المسافة بين الواقف أمام السطوح الصقيلة وأمام الماء هي مسافة انتقلت فيها صورته فظهرت عليها، فلم تسم هذه المسافة صورة لكونها لم تظهر بعد فلما ظهرت سميت، ومما يبين ويؤكد هذا المعنى ما جاء في حديث جبريل المشهور في «صحيح الإمام مسلم» وذلك لما قال عمر t: إذ طلع علينا رجل، فمع أنه عرف فيما بعد أن هذا الرجل هو جبريل إلا أنه مازال يروي الخبر قائلًا: إذ طلع علينا رجل وهكذا رواه عنه ابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ؛ لأن العبرة بما يظهر لنا، أما ما غيب عنا أو مرَّ بمراحل قبل ذلك، فلا تعلق له بالحكم النهائي على الشيء، ولا يمكن بحال أن يغير من مسماه ؛ إذ المقصود هو ما ينتهي إليه الحال.

فالحكم على الأشياء إنما يقع على الشكل المشاهد، لا على ما يخفى أو يكون وراء ذلك.

ألست ترى الطعام يدخله العبد، أو الحيوان في فمه على أحسن ما يكون ثم يتحول إلى بول وغائط، ولما كان الحكم على حالة الشيء المعتبرة كان الطعام المشروع طاهرًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حلالًا، وكان البول والغائط نجسًا حرامًا. فلا يقال إن هذا البول والغائط هو نفسه الطعام الذي تم تناوله، فكل بحسب حاله.فيتم الحكم عليه حلًا أو حرمة.

وفي هذا القدر من الاستدلال الرد على الذين يحللون التصوير بكونها أصلا حبسًا للظل، أو بكونها إشارات، أو ذبذبات أو نحو ذلك، أو أنها مطابقة للواقع.

فنقول : المهم ما هو الشكل النهائي؟ أليس صورة ؟ فإذن فالحكم يتعلق بهذه الحالة لا بالمراحل التي قبلها.والله أعلم.

شبهة شيطانية:

ولعل من الفاضل التنبه إلى مسألة مهمة في هذا الباب، ألا وهي أن كثيرًا من الدعاة وطلبة العلم؛ بل وبعض العلماء يظن أن الله تعالى كلفه بهداية الناس كلهم، وأن الواجب عليه أن يدخل إلى كل بيت، وأن يخاطب كل إنسان، وكأنه شمس تشرق على مختلف بقاع الأرض، ولعل الدافع لهم على هذا رؤيتهم لتسارع الباطل وأهله في الفساد والإفساد في مشارق الأرض ومغاربها، فاستفزهم ذلك إلى سلوك بعض السبل التي أقل ما يقال فيها أنها مظنة ركوب الحرام، كيف وقد يركب بعضهم الحرام ؟!

فأقول : إن هذا السعي الحثيث والحرص الشديد على هداية العباد كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، وإن كان مطلبًا حميدًا؛ إلا أن الله تعالى لم يكلفنا به لعلمه تعالى بعدم قدرتنا عليه، فنحن بشر ولنا قدرات محدودة، ولهذا جاء التشريع بما هو في إمكان البشر، كما أنه مما ينبغي أن يتفطن له أن الله تبارك وتعالى لا يمكن بحال أن يعوز الأمة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحرام، فإن هذا إذا كان ممتنعًا في باب الأرزاق، فلأن يمتنع في باب الدعوة إلى الله تعالى هو من باب أولى؛ولهذا أخبر تعالى أنه طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وبذلك أمر المرسلين وأمرهم أن لا يسلكوا في الدعوة إليه أي مسلك محرم، هذا هو الأصل العام في دعوة الرسل كلهم أنهم يدعون إلى الله بما أحل الله من الوسائل المتاحة لهم، وأنهم لا يتكلفون ركوب الحرام في الدعوة إليه، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وبما أن الهداية عنده تبارك وتعالى وإنما تطلب منه جل وعلا؛ فلهذا أمرنا أن نُجْمِلَ في طلبها، وذلك بأن لا نأتيها إلا من أبوابها التي شرعها الله لنا، ولهذا قال الله تعالى مبينًا أنه سبحانه قادر على أن يهدي العباد كلهم، ولكن على الداعية أن يسعى بما أتيح له قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[الأنعام:٣٥] . وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَل لله الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ @وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

وإن كان قد تقرر في علم الأصول أنه لا يسوغ تقديم المصالح المتيقنة على المفاسد المتيقنة إذا استويا في المرتبة، فكيف بمن يقدم المصالح الظنية على المفاسد اليقينية، إذ إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هداية الناس عبر هذه الوسائل أمر ظني، فإن هذه الأجهزة لم توضع لـذلك ففيهـا مـن بحار الباطل ما ينغمر فيه الحق، ولو كان نهـرًا، في حـين أن في الظهـور هنـاك بالصـور مفاسد يقينية، فمنها الترويج لتلك القنـوات، وكـون ذلـك ذريعـة إلى إدخـال بعـض الصالحين الدشوش إلى بيوتاتهم، والتلبيس على الأمة، والتصوير المحـرم، وغـير ذلـك كثير، ألا فلنتق الله تعالى ولنتبع ما أحل الله لنا من الوسائل المشروعة والمباحة، وإن طال الطريق وتطاول الزمن، فإن الهادي هو الله تعالى، وهو الحكيم العلـيم، فلـن نسـتعجل النصر بحرصنا، ولكن بالتقوى والصبر واليقين، والله نعم المولى ونعم النصير .

فالحذر الحذر من أن تكون من الجاهلين الذين يحرصون على هدايـة النـاس كلهـم، ولو عن طريق ركوب أي سبيل ممكن بغض النظر عن مشـــروعيته.والله أعلـم. وهـو الهادي إلى سواء السبيل .

فإن قيل ألا يمكن أن ندافع الباطـل في القنـوات الفضـائية وغيرهـا، فـالجواب: إن مدافعة الباطل لا تكون بالباطل وإنما تكون بالحق، ولهذا قال تعالى:﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وليس من الحق في شيء ظهور صور الدعاة في هذه القنـوات المشبوهة، ولا حتى ما تسمى بالإسلامية، وليت شعري مـا هـي المصـلحة مـن ظهـور صور الدعاة هناك أهو الرياء والسمعة أم حب الشهرة؟ حاشا دعـاة الحـق مـن ذلـك، وإنَّا نعيذهم ونُجِلُّهُم مـن أن يكونـوا كـذلك، عـلى أن ظهـورهم لا يعـدو أن يضـفي الشرعية على مواطن الفساد والإفساد، ولكن إن تصورنا وجود قناة إسلامية بحتة ليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها من المحرمات شيء وكان لابد منها فبالصوت فقط دون الصورة وذلك بشروط قررها العلماء المحققون.

شروط إنشاء قناة إسلامية صوتية لا مرئية:

١- أن يكون مخلصًا لله تعالى متقيًّا له خائفًا راجيًا. فيكون أبعد ما يكون عن العُجْبِ والرياء والسمعة، وحب الظهور والشهرة.

٢- أن يقول ما يريد، لا ما يريد المبطلون.

٣- أن يكون حديثه في الأصول والمسائل الكبار، وهموم الأمة التي تعاني منها اليوم، كالولاء والبراء وبيان حقائقه، و التحريض على جهاد أعداء الله تعالى، وكشف خطط العلمانيين والحَدَاثِيِّين والرافضة وأمثالهم والرد على شبههم، والتحذير من اليهود والنصارى ومخططاتهم التوسعية الاستعمارية في العالم الإسلامي، ووجوب الانتفاض في وجوههم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

٤- أن يُبَيِّنَ فساد أجهزة الإعلام؛ حتى لا يتخذ المبطلون من خروج الدعاة عبر وسائلهم ذريعة لترويج باطلهم تحت غطاء الحرية، أو الديمقراطية، أو الإسلامية، أو بما يعرف اليوم بـ (أَسْلَمَة الإعلام) كذبًا وزورًا.

٥- أن لا يسبق برنامج الداعية فساد ولا عهر ولا باطل، وأن لا يتخلله ذلك من باب أولى وأن لا يعقبه ذلك بداهة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن قيل هـذه الشـروط لا يمكـن معهـا أن يظهـر أي داعيـة عـلى هـذه القنـوات المفسدة،ولا يتصور هذا إلا في إعلام طاهر من أدران الضلال والانحراف والزندقة .

قيل: لم يكلفنا الله تعالى أن نركب الحرام للدعوة إليه، فإن أَبَـوْا فتـذكر قولـه تعـالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلًا﴾ [الأحـزاب: ٢٣].والله تعـالى أعلـم.انتهـى بحروفـه مـن كتـابي الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية.

قوله:(فَلَبِثْنَا مَلِيًّا)، قال النووي:[أي زمانا طويلا، وكان ذلك ثلاثا]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الأَصْلُ الثَّالِثُ مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ r ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الِعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ في النبوة. نُبِّئَ بـ{اقْرَأْ}، وَأُرْسِلَ بـ{الْمُدَّثِّرْ}، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ. بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[المدثر: ٧.١]. وَمَعْنَى:{قُمْ فَأَنذِرْ}: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}: أَيْ:عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}: أَيْ:طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا:تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(الأصل الثالث): تقدم معنا تعريف الأصل، وأنه ما يبنى عليه غيره، وإنما سمى معرفة النبي r أصلاً؛ لكونه عليه الصلاة والسلام، هو الواسطة بين الخلق، والخالق تبارك وتعالى؛ فلا سبيل إلى معرفة الأصل الأول، وهو معرفة الرب تبارك وتعالى، ولا الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام، إلا عن طريق الرسول r ؛ فلذلك كان لزاماً علينا أن نتعرف على هذه الواسطة معرفة تامة.

ومعرفة النبي r تتضمن أمورا:

١ - تعبد الله جل وعلا بذلك، لقوله تعالى:{أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون}، فهذا أمر من الله تعالى، بالتعرف على هذا الرسول الكريم، بالقراءة في سيرته، ومعرفة حياته، وهديه، وذلك من أعظم القربات إلى الله تبارك وتعالى، فلا سبيل إلى تحقيق الدين والقيام به إلا بمعرفة الرسول r ، ولا شك أن استحضار النية، أمر معتبر في قراءة سيرته r ، وقد كان السلف يعتنون بذلك عناية فائقة، حتى كانوا يعلمونها أبناءهم، ويحثونهم على معرفة سيرة النبي r وغزواته، وهديه، ومعاملاته، ومواقفه، وما جرى معه قبل الهجرة وبعدها، بل وقبل البعثة كذلك.

٢ - تحقيق المحبة له عليه الصلاة والسلام، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وحرص على معرفته، عن كثب وقرب، وفي هذا ضرب الصحابة y بعطن، فبلغوا في معرفته عليه الصلاة السلام أعظم المنازل، حتى أن الواحد منهم ليعرف عدد الشعرات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البِيض في لِحْيَتِه الكريمة عليه الصلاة السلام، كما جاء في الصحيحين سئل أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ هَلْ كَانَ رَسُولُ الله r خَضَبَ فَقَالَ :لَمْ يَبْلُغِ الْخِضَابَ كَانَ فِي لِحْيَتِهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ.

واعلم رحمك الله، أن طاعته r ضرورة إيمانية، لا يُتَصَوَّرُ الإيمان بدونها، حتى عَلَّقَ الشَّرْعُ صحة إيماننا على ذلك؛ كما قال تعالى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]، وفي الصحيحين عن أنس أن النبي r قال:"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ". فَقَدَّمَ محبته r على محبة أقرب الأقربين، فهو r الأب الأعلى في ديننا، فُقُدِّمَ على أُبوَّة النسب. وقد ضرب الصحابة y أروع الأمثلة في ذلك.

٣- معرفة مراد الله تبارك وتعالى، تطبيقا عمليا، كما قال تعالى:{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَّ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَّ كَثِيرًا}[الأحزاب:٢١].

٤- رسالته وصدق ما أخبر به وعظمة ما جاء به دال على وجود الرب تبارك وتعالى، وعظمته، وأنه هو الذي أرسله، وهو الذي أطلعه على ذلك الغيب، حتى يخبر به العباد، فمعرفة النبوات والمعجزات، من أعظم الدلالات على وحدانية الله جل وعلا، ووجوده تبارك وتعالى.

قول المؤلف (نبيكم): تذكير بأنه نبي هذه الأمة خاصة، وأن كل أفراد أمته معنيون بمعرفته ورسالته r ، وإنما سمي النبي نبياً من التنبيء، وهو الإخبار، فإنه يأتيه الخبر من الله جل وعلا، ويقوم هو r بتبليغه إلى العباد، ففي هذا معنى قوله تعالى:{وما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى} وفي الضمير وهو الكاف هنا إشارة إلى نبي مختص بهذه الأمة جمعاء، فليس لأحد أن يدعي النبوة في هذه الأمة بعده، فقد جاءت نبوته ورسالته عامة لأهل الأرض قاطبة من زمان بعثته وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهنا يحسن الكلام عن الفرق بين النبي والرسول، وهي مسألة وقع فيها خلاف بين أهل العلم، على أقوال:

الفرق بين النبي والرسول:

١- أن الرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، بينما النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وهذا تعريف فيه نظر كبير، وإن كان هو المشهور، فإن آكد مهمة للمبعوثين من قبل الله تعالى، البلاغ والبيان، وإقامة الحجة على العباد، فكيف يقال ولم يؤمر بتبليغه، هذا محال قطعا.

٢- أن الرسول هو من أوحي إليه بشريعة جديدة مستقلة، وأما النبي فهو من جاء مجددا لشريعة نبي قبله، وكل منهما أُمِرا بالبلاغ المبين، كموسى وهارون عليهما السلام، ولكن يشكل عليه حال يوسف عليه السلام، وهو نبي، وحال عيسى عليه السلام، وهو رسول، ولكن قيل إنه جاء مجددا لشريعة موسى وناسخا لبعضها، وزائدا عليها، ولكن هذا التفريق لا شك أنه أوجه بكثير مما سبق.

٣- أن النبي والرسول كل منهما معه شريعة من الله تعالى، وأمر الجميع بالبلاغ، وأن الرسول أعلى منزلة من النبي، وليس هناك دليل واضح، ولا قول فصل في تحديد التفريق بينهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- أن الرسول والنبي بمعنى واحد، واحتج هؤلاء بتوارد اللفظين، ترادفا، كقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٣-١٦٥]، وقوله: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر:٣٤]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} [غافر:٧٨]. ولعل أقوى الأقوال هو القول الثالث. والله أعلم.

أسماء سيد الناس وصفاته r :

قوله:(محمد r): اختلف أهل العلم في أسماء النبي **r**، وهل له أسماء، أم أنها كلها نعوت وصفات، والراجح في ذلك أنه له اسماً عَلَماً على ذاته عليه السلام، وأظهر هذه الأسماء (محمد – أحمد)، وما عدا ذلك فهي أوصاف له عليه الصلاة والسلام، كما في الصحيحين من طريق مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ **t** قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ **r**:"لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ". وسماه أبو هريرة بـ(نبي التَّوْبَة) كما في صحيح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسلم، وقد ذكر ابن القيم في أوائل كتابه (زاد المعاد) في المجلد الأول جملة من أسمائه وصفاته عليه الصلاة السلام حري بنا أن نراجعها، وإن كان بعضها لا يثبت له r ، كالضَّحُوك والقَتَّال. **وإنما سمي r بمحمد؛** لكثرة الخصال التي يُحْمَدُ عليها؛ ولكونه محموداً في السماء والأرض، وسمي بأحمد لكونه أكثر الناس حمداً لله جل وعلا، وقيل لكونه أكثر الناس خصالاً يحمد عليها فهو الأحمد والأَمْدَح بين العباد r .

ثم شرع المؤلف في ذكر اسمه عليه الصلاة والسلام، فقال هو:(محمد بن عبد الله): وعبد الله هو الذبيح الثاني، والذبيح الأول هو إسماعيل عليه السلام، وقد افتداه أبوه بمائة من الإبل؛ ليدفع عنه الذبح على ما جاء في السير، وقد مات جده وأبوه على الإشراك، وقد جاء في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ أَبِي قَالَ:"فِي النَّارِ". فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ:"إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ". ففيه معنى قوله تعالى:{يخرج الحي من الميت}، وكذلك معنى قوله r كما في مسلم من حديث أبي هريرة t أن النبي r قال:"ومَنْ بَطَّأَ به عمله لم يُسْرِعْ به نسبه".

قوله:(ابن عبد المطلب): وليس هذا اسماً له، وإنما اسمه (شيبة) ويقال (شيبة الحمد)؛ لكثرة جوده، فقد كان ذا خصال يحمده العرب عليها، وكان جماع أمر قريش إليه، وإنما سُمِّيَ بعبد المطلب؛ لأنه سافر سَفْرةً مع عمه المطلب، فلما دخلوا مكة، كان رديفاً لعمه، وكان قد اسمر لونه؛ لطول السفر وشدة الحر، فظنوا أن عمه اشتراه من مكان ما؛ فقالوا هذا عبد المطلب وعلى كل فلابد أن نعلم أنه لا يجوز التعبيد لغير الله تعالى، وأما من احتج بقوله r كما في الصحيحين من طريق أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله r يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكِنَّ رَسُولَ الله r لَمْ يَفِرَّ إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَأَمَّا رَسُولُ الله r فَلَمْ يَفِرَّ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالنَّبِيُّ r يَقُولُ:"أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ"، فإن من ذكر الأمر الذي لا مدفع له؛ فهذا أمر واقع، وقد كان النبي r وأصحابه y، يخاطبون الناس بأسماء آبائهم وإن كان فيها محذور، ولم يغير ذلك عليه الصلاة والسلام، وإنما غير بعض أسماء أصحابه لا أسماء آبائهم.

قوله:(ابن هاشم): وليس هذا اسماً له، بل اسمه عمرو، وإنما سمي هاشماً؛ لأنه (يهشم الثَّرِيد للحجيج) أي يكسره ويقطعه؛ ليطعم الحاج، وذا الحاجة.

قوله:(وهاشم من قريش): قريش هم أشرف العرب، وقد جاءت أحاديث في بيان فضلهم، وأن الأمر فيهم باق إلى قيام الساعة، وأن الإمامة العظمى منهم، فقد اختارهم الله جل وعلا من بين سائر العالمين؛ ليكون النبي r منهم.

ففي صحيح البخاري عن معاوية t قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ".

وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ".

وفي صحيح مسلم من طريق عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ كَتَبْتُ إِلَى جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ مَعَ غُلَامِي نَافِعٍ أَنْ أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله r قَالَ فَكَتَبَ إِلَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَوْمَ جُمُعَةٍ عَشِيَّةَ رُجِمَ الأَسْلَمِيُّ يَقُولُ:"لاَ يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"عُصَيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى أَوْ آلِ كِسْرَى". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"إِذَا أَعْطَى اللهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"أَنَا الْفَرَطُ عَلَى الْحَوْضِ".

قوله:(وقريش من العرب): والمراد بهم العرب الْمُسْتَعْرِبة؛ لأن العرب ينقسمون إلى قسمين: ١ - عَرَبٌ عَارِبَة . ٢ - عرب مُسْتَعْرِبة .

والعرب لهم فضائل كثيرة وخصال حميدة؛ ولهذا خصهم الله جل وعلا بأن يكون الرسول r منهم، وقد بين الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) فضل العرب على سائر الأمم، لا من جهة اللغة، و لا من جهة الخصال، بل من وجوه كثيرة جدا، فليرُاجع فإنه بحث نفيس وكتاب جليل.

وقد بوب البخاري في صحيحه فقال:(بَاب مَبْعَثِ النَّبِيِّ r مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ) إلى هذا القدر اتفق العلماء على هذا النسب، واختلفوا فيمن فوق عدنان، إلا أنهم مجمعون على أن نسبه r يتصل إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قال المؤلف:(والعرب من ذرية إسماعيل): والمقصود بالعرب هنا، هم العرب المُستعربة، وهم المنسوبون إلى عدنان، وهم الذين اصطفاهم الله جل وعلا، إذ جعل من نسلهم أشرف الخلق وأكملهم وأطهرهم وسيدهم، محمد r ، وأُمَّهُم هَاجَر زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنما سُمُّوا بالمُستعربة؛ لأنهم اكتسبوا العروبة واللغة من العرب العَارِبَة؛ لأن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنها إسماعيل عليهم السلام، وأسكنهم بوادٍ غير ذي زرع، عند بيت الله المحرم، فلم يكونوا عَرَباً في الأصل، ثم بعد أن فجر الله تبارك وتعالى زمزما؛ إكراما ورحمة لهاجر، ولابنها إسماعيل عليهم السلام، وكان وجود الماء سببا لاجتماع الناس عليهما، استجابة من الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم:٣٧] ، وهكذا العرب، كانت تتبع الماء والكلأ، فصارت وابنها في محل الفخامة والرفعة والسيادة، فتزوج إسماعيل عليه السلام امرأة من العرب، ثم طلقها وتزوج بأخرى بناء على توجيه أبيه الخليل وأمره، ثم خرج من نسله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي صحيح البخاري قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ قَالَتْ إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ رَبِّ:{إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ} وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ r فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ r يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ قَالُوا نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ r فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ قَالَ فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَالَ ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى الله فَقَالَ مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ اللَّحْمُ قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ قَالَتْ الْمَاءُ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ قَالَ النَّبِيُّ r وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ قَالَ فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ وَأُعِينُكَ قَالَ فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} قَالَ فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: والذبيح هو إسماعيل عليه السلام: وهذه المسألة قد حصل فيها نـزاع، إلا أن الراجح الذي دلت عليه الأدلة،- وهو اختيار جماعات من السلف والخلف، وبـه قـال الإمام أحمد-، أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق، عليهما السلام.

قوله:(ابن إبراهيم): قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [العنكبـوت:٢٧]، فهـو أبو الأنبياء وخليل الرحمن الذي بلغ مـن المحبـة أعلاهـا، حتـى اتخـذه الله جـل وعـلا خليلاً،كما قال سبحانه: {واتخذ الله إبراهيم خليلاً}، وابتلاه الله جل وعلا بذبح ابنه، فما تلكأ وما تردد، فإسماعيل هو الذبيح الأول، وابـتلاه الله جـل وعـلا بالصـدع بـالحق، ومناظرة المشـركين، أفراداً وجماعات، رؤساءً وأتباعاً، وكان وحده، فقـام بـذلك كلـه على أكمل وجه؛ فرفع الله ذكره، وأعلى منزلته، وجعله أمة وحده، وفضّله الله على كثـير من خلقه تفضيلاً، وجعله إماماً للمسـلمين، وأمـر النبـي r أن يتبـع ملتـه، كـما قـال تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.

قوله:(عليه وعلى نبينا): لأن الصلاة مشروعة على سائر الأنبياء والمرسـلين، علـيهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهو من مقتضى عدم التفريـق بيـنهم، ففيـه معنـى قولـه تعالى: {لا نفرق بين أحد من رسله}، أي تفريق التنقـيص والازدراء كـما تقـدم، إلا أن الواجب من ذلك الصلاة على نبي هذه الأمة r.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(أفضل الصلاة والسلام): هذا فيه أن الصلاة تتفاضل وتتفاوت، وهذا أمر لا مرية فيه، والصلاة المراد بها هنا الثناء، أي عليه من الله أفضل الثناء؛ لقول أبي العالية في صحيح البخاري:[صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ]ا.هـ.

وأما السلام، فدعاء له بالسلامة، والأمن، ويتضمن الإخبار بكمال الأنبياء والمرسلين، وسلامة ما جاءوا به من أي نقصان أو تحريف أو خلل، وأنهم معصومون بعصمة الله لهم.

فضل الصلاة على النبي r :

وقد جاءت أحاديث متكاثرة في فضل الصلاة على النبي **r** ، وأن المحروم البخيل من ضّنَّ بهذا، فمن ذلك ما في الصحيحين عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ **t** قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ قَالَ:"قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".

وفي الصحيحين عن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ **t** أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ **r** :"قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ **r** يَقُولُ:"إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ".

وفي سنن الترمذي وغيره عن حسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله r :"البَخِيل الذي من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَل عَلَيَ"، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب[1].

ليس للصلاة حد ولا ميقات، ولكن بما دلت عليه النصوص:

وليس للصلاة عليه r ميقات معين، من يوم ولا وقت مخصوص، بل المشروع الإكثار من ذلك مهما استطاع العبد، إلا ما دلت الأدلة على المنع منه لانشغال الموضع بعبادة أخرى، فلا يجوز مثلا أن تصلي على النبي r بعد تكبيرة الإحرام، ولا دبر الصلوات مباشرة، وهكذا، وأما حديث أوس بن أوس الذي رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن خزيمة كلهم من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِي الأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ". قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ

---

١ -ولكن في تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ذكر نسخة قال فيها الترمذي:حسن غريب، ولكن قال الحافظ في تهذيب التهذيب:وصحح الترمذي حديثها.هـ. ذكره في ترجمة عبد الله بن على بن الحسين، ومدار الحديث عليه، وليس له سوى هذا الخبر عند الترمذي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ، يَقُولُونَ: بَلِيتَ. فَقَالَ:"إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ".

فهذا الخبر معلول ضعيف١ وذلك لأنه عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ هذا هو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، غلط فيه بعض الحفاظ، وهذا قول أكثر الحفاظ. وابن جابر ثقة، وابن تميم منكر الحديث.

---

١ - جاء في مقدمة المحقق لكتاب تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي:[ذكر ابن أبي حاتم هذا الحديث في "كتاب العلل"، فقال: سمعت أبي يقول: عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، لا أعلم أحدًا من أهل العراق يحدث عنه، والذي عندي أن الذي يروي عنه أبو أسامة وحسين الجعفي واحد، وهو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، لأن أبا أسامة روى عن عبد الرحمن ابن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة خمسة أحاديث أو ستة أحاديث منكرة، لايحتمل أن يحدث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر مثله، ولا أعلم أحدًا من أهل الشام روى عن ابن جابر من هذه الأحاديث شيئًا.وأما حسين الجعفي، فإنه روى عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس عن النبي ﷺ في يوم الجمعة أنه قال:"أفضل الأيام يوم الجمعة، فيه الصعقة ، وفيه النفخة ، وفيه كذا". وهو حديث منكر، لا أعلم أحدًا رواه غير حسين الجعفي.وأما عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، فهو ضعيف الحديث؛ وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثقة.وقال البخاري في "تاريخه":عبد الرحمن بن يزيد بن تميم السلمي الشامي، عن مكحول، سمع منه الوليد بن مسلم، عنده مناكير، ويقال:هو الذي روى عنه أهل الكوفة أبو أسامة وحسين، فقالا:عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر.وقال في كتاب "الضعفاء":عبد الرحمن بن يزيد بن تميم السلمي، يعد في الشاميين مرسل، روى عنه الوليد بن مسلم، وعنده مناكير، يقال:هو الذي روى عنه أهل الكوفة أبو أسامة وغيره، فقالوا:عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر، وهو ابن يزيد بن تميم ليس بابن جابر.وقال ابن أبي حاتم في كتاب "الجرح والتعديل":حدثني أبي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال:سألت محمد بن عبد الرحمن بن أخي حسين الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فقال: قدم الكوفة عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ويزيد بن يزيد بن جابر، ثم عبد الرحمن بن يزيد بن جابر بعد ذلك بدهر، فالذي يحدث عنه أبو أسامة ليس هو ابن جابر، وهو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، قال ابن أبي حاتم:وسألت أبي عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، فقال: عنده مناكير، يقال:هو الذي روى عنه أبو أسامة وحسين الجعفي، وقالا:هو ابن يزيد بن جابر، وغلطا في نسبه، وهو ابن يزيد بن تميم، وهو أصح، وهو ضعيف الحديث.وقال أبو داود:وعبد الرحمن بن يزيد بن تميم متروك الحديث، حدث عنه أبو أسامة، وغلط في اسمه، فقال:حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الشامي، وكل ما جاء عن أبي أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد فإنما هو ابن تميم.وقال أبو بكر بن أبي داود: قدم يعني الكوفة فارًا مع القدرية، وقد سمع أبو أسامة من ابن المبارك عن ابن جابر، وجميعًا يحدثان عن مكحول وابن جابر أيضًا دمشقي، فلما قدم هذا، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد الدمشقي، وحدث عن مكحول، فظن أبو أسامة أنه ابن جابر الذي روى عنه ابن المبارك وابن جابر ثقة مأمون، يجمع حديثه، وابن أبي تميم ضعيف، روى عن الزهري أحاديث مناكير، حدثنا ببعضها محمد بن يحيى النيسابوري في "علل حديث الزهري"، وقال:أحرج على من حدث عني هذه الأحاديث مفردة قال:وقدم ابن تميم هذا مع ثور بن يزيد وبرد بن سنان ومحمد بن راشد وابن ثوبان فروا من القتل، وكانوا قدرية، فقدموا العراق، فسمع منهم أهل العراق.وقال النسائي في "كتاب الضعفاء":عبد الرحمن بن يزيد بن تميم متروك الحديث، شامي، روى عنه أبو أسامة، وقال:عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر.وقال موسى بن هارون الحافظ: روى أبو أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وكان ذلك وهمًا منه، هو لم يلق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وإنما لقي عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، فظن أنه ابن جابر، وابن جابر ثقة، وابن تميم ضعيف. وقال الخطيب: روى الكوفيون أحاديث عبد الرحمن بن يزيد ابن تميم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فوهموا في ذلك، والحمل عليه، في تلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وله من العمر ثلاث وستون سنة): أي هذه مدة بقائه في الدنيا، وهذا على المشهور، وفيه خلاف يسير، يمكن توجيهه، فالبعض ذكر أن عمره r ستون، ومنهم من قال اثنان وستون، والأمر قريب على طريقة العرب في التغليب في العدد، فربما حذفوا ما زاد على ألفاظ العقود، إن كان دون الخمسة، وربما أتموه إلى العقد الذي بعده إن زاد على الخمسة. والله أعلم.

وهذا دال على أنه r من سائر البشر، يحيا ويموت عليه الصلاة السلام، ففيه الرد على الغلاة والضالين، وهذا العمر مقارنةً بأعمار الأمم السابقة قصير، ولكنه أطول من سائر الأعمار بالبركة والعمل الصالح والعلم النافع، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

الأحاديث.وقال بعض الحفاظ المتأخرين: قدم عبد الرحمن بن يزيد بن تميم الكوفة فسألوه عن اسمه، فقال: عبد الرحمن بن يزيد الدمشقي، ولم يزد على ذلك، فظنوه ابن جابر، لأنه أشهر الرجلين، فغلطوا في ذلك لتدليسه نفسه.وقال أبو حاتم بن حبان البستي في كتاب "المجروحين":عبد الرحمن ابن يزيد بن تميم من أهل دمشق، كنيته أبو عمرو، يروي عن الزهري، روى عنه الوليد بن مسلم وأبو المغيرة، وكان ممن ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات، من كثرة الوهم والخطأ، وهو الذي يدلس عنه الوليد بن مسلم، ويقول:قال أبو عمرو، وحدثنا أبو عمرو، عن الزهري، يوهم أنه الأوزاعي، وإنما هو ابن تميم، وقد روى عنه الكوفيون أبو أسامة والحسين الجعفي وذووهما.

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني:قوله"حسين الجعفي روى عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم"خطأ، الذي يروي عنه حسين هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وأبو أسامة يروي عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم فيقول: ابن جابر، ويغلط في اسم الجد]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والله ذو الفضل العظيم، فهو آخر الأنبياء، وهو أفضلهم، وأعظمهم عند الله منزلة، وأكثرهم تابعا، وثواباً، وأعلاهم منزلة في الجنة عليه الصلاة السلام.

مولد سيد الناس[١] r :

كان مولده عليه الصلاة السلام في يوم الاثنين، كما جاء ذلك في صحيح مسلم، ولهذا حث النبي r على صيام ذلك اليوم كما في صحيح مسلم من طريق شُعْبَةُ عَنْ غَيْلاَنَ بْنِ جَرِيرٍ سَمِعَ عَبْدَ الله بْنَ مَعْبَدٍ الزِّمَّانِيَّ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ t أَنَّ رَسُولَ الله r سُئِلَ عَنْ صَوْمِهِ قَالَ فَغَضِبَ رَسُولُ الله r فَقَالَ عُمَرُ t رَضِينَا بِالله رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً وَبِبَيْعَتِنَا بَيْعَةً. قَالَ فَسُئِلَ عَنْ صِيَامِ الدَّهْرِ فَقَالَ:"لاَ صَامَ وَلاَ أَفْطَرَ". أَوْ :"مَا صَامَ وَمَا أَفْطَرَ". قَالَ فَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمَيْنِ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ قَالَ:"وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمَيْنِ قَالَ:"لَيْتَ أَنَّ الله قَوَّانَا لِذَلِكَ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ قَالَ:"ذَاكَ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ قَالَ:"ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ". قَالَ فَقَالَ:"صَوْمُ ثَلاَثَةٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ صَوْمُ الدَّهْرِ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ فَقَالَ:"يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ فَقَالَ:"يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ". وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ رِوَايَةِ

---

١ - جاء في سياق ذكر حديث الشفاعة والمقام المحمود في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ أُتِيَ رَسُولُ الله r بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ:"**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شُعْبَةَ قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَسَكَتْنَا عَنْ ذِكْرِ الْخَمِيسِ لَمَّا نَرَاهُ وَهْمًا.ا.هـ.

أما تحديد تاريخ مولده r بالضبط، فلا يعلم في ذلك دليل صحيح يجب المصير إليه؛ ولهذا فقد وقع في ذلك خلاف بين أهل السير. والله اعلم.

ولكن الأشهر من ذلك أنه r ولد في ربيع الأول، وقد قيل كان ميلاده r عام الفيل، حيث هزم الله تعالى أَبْرَهَةَ وجُنْدَه، ونَصَرَ البَيْتَ والحَرَم.

الاحتفال بالمولد بدعة منكرة:

واعلم رحمك أن أقواما زعموا محبة النبي r ؛ فجعلوا من يوم مولده r ، -على أنه لم يثبت فيه شيء معلوم- مناسبة للطبول والرقص والغناء، وما يتبع ذلك من اختلاط الرجال بالنساء، وأحوال عجيبة يَنْدَى لها الجَبِين، ناهيك عن الأشعار الشركة المتضمنة الغلو في النبي r ، وإطرائه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليهما السلام. عياذا بالله من الخذلان.

واعلم أن هذا المولد، لا أصل له من عمل النبي r وأصحابه، وأئمة الهدى، ومن سار على دربهم، بل ما زال أئمة الهدي يحذرون من ذلك ، وينادون على أهله بالجهل والضلال، وينهون الناس عن ذلك، ويحذرونهم أشد التحذير، فلا تنخدع عن هدي المصطفى r وأصحابه الكرام y ، وسلف الأمة الأخيار الأطهار. والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَأَمَّا اتِّخَاذُ مَوْسِمٍ غَيْرِ الْمَوَاسِمِ الشَّرْعِيَّةِ كَبَعْضِ لَيَالِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ الَّتِي يُقَالُ: إنَّهَا لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ أَوْ بَعْضِ لَيَالِي رَجَبٍ أَوْ ثَامِنَ عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ أَوَّلِ جُمْعَةٍ مِنْ رَجَبٍ أَوْ ثَامِنِ شَوَّالٍ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْجُهَّالُ عِيدَ الْأَبْرَارِ فَإِنَّهَا مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يَسْتَحِبَّهَا السَّلَفُ وَلَمْ يَفْعَلُوهَا وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ]ا.هـ. قلت: ومثل هذا كثير في كتب أصحاب المذاهب.

وقد ذكر أهل السِّيَر جملة من الأحداث التي وقعت إبَّان مولده عليه الصلاة والسلام، فقد تغير الكون بمولده، وجاء النور المبين، إلا أن من هذه الأحداث ما ثبت به الدليل، وهو الأقل، ومنها ما لم يثبت به الدليل، وهو الأكثر، فمنها خُرُورُ الأصنام بمولده، وخروج النور من رحم أمه، واهتزاز عرش كسرى وإيوان قيصر، وظهور النور معه، حتى أضاءت قصور الشام، وهتف الجن به عليه الصلاة والسلام، هذا كله لم يثبت به خبر، وإن كان أهل السير يتجوزون في رواية ذلك، ويكتفون بتناقل الناس له جيلاً بعد جيل.

توفى أبوه وهو حمل في بطن أمه، فولد يتيماً، واسم أمه (آمنة بنت وهب)، فَكَفَلَهُ جده، ثم لما توفي، كفله عمه (أبو طالب)، وكان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، عاش قبل البعثة أربعون سنة، ما سجد فيها لصنم قط، ولا شرب فيها خمراً قط، ولا هتك فيها حرمة قط، ولا تعاطى فاحشة قط، فقد عصمه الله جل وعلا، ولم تنكشف له عورة بعد بلوغه إلا مرة واحدة، خرَّ بعدها مغشياً عليه، فلم تر له عورة بعد ذلك، وكان ذلك إرهاصاً وتوطئةً لبعثته، فقد كان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم عهدا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأبرهم وعداً، وأكرمهم ضيفاً، فقد كان كما قالت خديجة أم المؤمنين t :(كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ). متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

حتى سمي بالصادق الأمين، وقد تزوج خديجة رضي الله عنها، وهو ابن خمس وعشرين عاماً، وهي ابنة أربعين سنة، على المشهور، وكلفته فتاجر في مالها، فرأت البركة العظيمة في تجارتها منذ أن وليها النبي عليه الصلاة السلام، وكانت خديجة رضي الله عنها هي أم أولاده ذكوراً وإناثاً، إلا إبراهيم فهو من مارية القبطية رضي الله عنها، وقد كانت خديجة أحب نسائه إليه، وما تزوج عليها حتى ماتت، إكراماً وإجلالاً وحباً لها، فقد واسته بنفسها ومالها، وفعلت ما لم يفعله أحد من الناس، إلا ما كان من أبي بكر الصديق t وأرضاه.

وقيل لم يتزوج عليها لانشغاله بأعباء التبليغ في أول أمره، وما كان عليه من المطاردة والتضييق، ثم لم تنزل آيات الإذن الشرعي بالتعدد إلا فيما بعد، وكان r لا يفعل شيئا حتى يوحى إليه فيه، وكل من القولين وجيه، وقد يكون الأمر مركبا منهما، وذلك لأن التعدد كان معروفا، فاشيا عند العرب لا ينكرونه، والمجتمع كان مهيئا لمثل ذلك، بلا إشكالات. والله أعلم.

وقد كان بأبي هو أمي r أحسن الناس خلقا وهديا وسمتا ودلا، وكان أكرم الناس وأشجع الناس وأكثرهم تواضعا وحياء، ويكفيه قول الله تعالى:{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صفاته الخُلُقية r :

ومما ورد في صفاته الخُلُقية، ما جاء في صحيح مسلم من رواية سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ في سياق حديث طويل وفيه قال:(فَأَتَيْتُ عَلَى حَكِيمِ بْنِ أَفْلَحَ فَاسْتَلْحَقْتُهُ إِلَيْهَا فَقَالَ مَا أَنَا بِقَارِبِهَا لأَنِّي نَهَيْتُهَا أَنْ تَقُولَ فِي هَاتَيْنِ الشِّيعَتَيْنِ شَيْئًا فَأَبَتْ فِيهِمَا إِلاَّ مُضِيًّا. - قَالَ - فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ فَجَاءَ فَانْطَلَقْنَا إِلَى عَائِشَةَ فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا فَأَذِنَتْ لَنَا فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا. فَقَالَتْ أَحَكِيمٌ فَعَرَفَتْهُ. فَقَالَ نَعَمْ. فَقَالَتْ مَنْ مَعَكَ قَالَ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ. قَالَتْ مَنْ هِشَامٌ قَالَ ابْنُ عَامِرٍ فَتَرَحَّمَتْ عَلَيْهِ وَقَالَتْ خَيْرًا - قَالَ قَتَادَةُ وَكَانَ أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ. فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله r . قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: **فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله r كَانَ الْقُرْآنَ.**

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ من رسول الله r .

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ : لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ.

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ الله r أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ - كَانَ فَطِيمًا - قَالَ - فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ الله r فَرَآهُ قَالَ:"أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ". قَالَ فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ r قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهْوَ يَقُولُ لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وَهْوَ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ فَقَالَ لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا ، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله r شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهَّ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهَّ فَيَنْتَقِمَ للهَّ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ r غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلاَّ الدُّنْيَا فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلاَمُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا ، قَالَتْ كَانَ رَسُولُ الله r يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ.

صفاته الْخُلُقِيَّة r :

وأما صفاته الخَلْقِيّة r ، فقد وردت له r صفات كثيرة، وسأذكر أصح ما ورد في ذلك، ففي صحيح البخاري من طريق رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ r قَالَ: كَانَ رَبْعَةً مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ وَلَا آدَمَ لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبْطٍ رَجِلٍ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَقُبِضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ، قَالَ رَبِيعَةُ فَرَأَيْتُ شَعَرًا مِنْ شَعَرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرُ فَسَأَلْتُ فَقِيلَ احْمَرَّ مِنْ الطِّيبِ.

وفي صحيح البخاري من طريق أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ : سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللهِ r أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ ، وَلاَ بِالْقَصِيرِ. وهو في صحيح مسلم من طريق أبي إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللهِ r رَجُلاً مَرْبُوعًا بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ عَظِيمَ الْجُمَّةِ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ - r - .

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t قَالَ: مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ r وَلَا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ r .

وفي صحيح البخاري من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبٍ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ قَالَ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ r وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ r إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r ضَخْمَ الْيَدَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ حَسَنَ الْوَجْهِ لَمْ أَرَ بَعْدَهُ ، وَلاَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَكَانَ بَسِطَ الْكَفَّيْنِ.

وفيه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَوْ عَنْ رَجُلٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r ضَخْمَ الْقَدَمَيْنِ حَسَنَ الْوَجْهِ لَمْ أَرَ بَعْدَهُ مِثْلَه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيه عَنْ أَنَسٍ كَانَ النَّبِيُّ r شَثْنَ الْقَدَمَيْنِ وَالْكَفَّيْنِ. وفيه عَنْ أَنَسٍ أَوْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ كَانَ النَّبِيُّ r ضَخْمَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ لَمْ أَرَ بَعْدَهُ شَبَهًا لَهُ.

وفي صحيح البخاري من طريق أَبِي الْعَالِيَةِ ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ : رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى رَجُلاً آدَمَ طُوَالاً جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلاً مَرْبُوعًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبْطَ الرَّأْسِ وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ.

وفي صحيح مسلم من طريق سِمَاكٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللهِ r قَدْ شَمِطَ مُقَدَّمُ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ وَكَانَ إِذَا ادَّهَنَ لَمْ يَتَبَيَّنْ وَإِذَا شَعِثَ رَأْسُهُ تَبَيَّنَ وَكَانَ كَثِيرَ شَعْرِ اللِّحْيَةِ فَقَالَ رَجُلٌ وَجْهُهُ مِثْلُ السَّيْفِ قَالَ لاَ بَلْ كَانَ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَكَانَ مُسْتَدِيرًا وَرَأَيْتُ الْخَاتَمَ عِنْدَ كَتِفِهِ مِثْلَ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ يُشْبِهُ جَسَدَهُ.

وفي صحيح مسلم من طريق سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ r ضَلِيعَ الْفَمِ أَشْكَلَ الْعَيْنِ مَنْهُوسَ الْعَقِبَيْنِ. قَالَ قُلْتُ لِسِمَاكٍ مَا ضَلِيعُ الْفَمِ قَالَ عَظِيمُ الْفَمِ. قَالَ قُلْتُ مَا أَشْكَلُ الْعَيْنِ قَالَ طَوِيلُ شَقِّ الْعَيْنِ. قَالَ قُلْتُ مَا مَنْهُوسُ الْعَقِبِ قَالَ قَلِيلُ لَحْمِ الْعَقِبِ.

وعند أحمد وابن أبي شيبة والنسائي في الكبرى بسند لا بأس به عَنْ مُحَرِّشٍ الْكَعْبِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ r خَرَجَ مِنَ الْجِعِرَّانَةِ لَيْلاً فَنَظَرْتُ إِلَى ظَهْرِهِ كَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ فَاعْتَمَرَ وَأَصْبَحَ بِهَا كَبَائِتٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل في ذكر أسماء زوجاته النبي r ، رضي الله عنهن

وأما زوجاته أمهات المؤمنين فهن:

١ - خديجة بن خويلد رضي الله عنها.

٢ - سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

٣ - عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها.

٤ - حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

٥ - زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

٦ - أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية رضي الله عنها.

٧ - أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

٨ - جويرية بنت الحارث وكان اسمها بَرَّة، فسماها رسول الله r جويرية.

٩ - ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها.

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

١١ - زينب بنت جحش رضي الله عنها.

واختلف في ريحانة بنت زيد النضرية هل كانت من زوجاته أم من إمائه؟.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[قيل ومن أزواجه ريحانة بنت زيد النضرية . وقيل القرظية سبيت يوم بني قريظة فكانت صفي رسول الله r فأعتقها وتزوجها ثم طلقها تطليقة ثم راجعها، وقالت طائفة بل كانت أمته وكان يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها فهي معدودة في السراري لا في الزوجات والقول الأول اختيار الواقدي ووافقه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه شرف الدين الدمياطي. وقال هو الأثبت عند أهل العلم. وفيما قاله نظر فإن المعروف أنها من سراريه وإمائه والله أعلم. فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهن وأما من خطبها ولم يتزوجها ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها فنحو أربع أو خمس وقال بعضهم هن ثلاثون امرأة وأهل العلم بسيرته وأحواله r لا يعرفون هذا بل ينكرونه والمعروف عندهم أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها فدخل عليها ليخطبها فاستعاذت منه فأعاذها ولم يتزوجها وكذلك الكلبية وكذلك التي رأى بكشحها بياضا فلم يدخل بها والتي وهبت نفسها له فزوجها غيره على سور من القرآن هذا هو المحفوظ والله أعلم. ولا خلاف أنه r توفي عن تسع وكان يقسم منهن لثمان: عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وصفية وأم حبيبة وميمونة وسودة وجويرية. وأول نسائه لحوقا به بعد وفاته r زينب بنت جحش سنة عشرين وآخرهن موتا أم سلمة سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد والله أعلم]ا.هـ.

قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب:٦].

فصل في ذكر أولاده r رضي الله عنهم

وأما أولاده y عليهم السلام، فأكتفي بما قاله ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل في أولاده r : أولهم القاسم وبه كان يكنى مات طفلا وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وسار على النجيبة. ثم زينب وقيل هي أسن من القاسم ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد قيل في كل واحدة منهن إنها أسن من أختيها وقد ذكر عن ابن عباس أن رقية أسن الثلاث وأم كلثوم أصغرهن. أعلم. وهؤلاء كلهم من خديجة ولم يولد لـه مـن زوجـة غيرها. ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سريته مارية القبطية سنة ثمان من الهجرة وبشره به أبو رافع مولاه فوهب له عبدا ومات طفلا قبل الفطام واختلف هل صلى عليـه أم لا؟، على قولين. وكل أولاده توفي قبله إلا فاطمة فإنها تأخرت بعده بستة أشهر فرفع الله لهـا بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فضلت به على نساء العالمين. وفاطمة أفضـل بناتـه على الإطلاق وقيل إنها أفضل نساء العالمين وقيل بل أمها خديجة وقيل بل عائشة وقيل بل بالوقف في ذلك]ا.هـ.

فصل في ذكر أعمامه r

وأما أعمامه وعماته، فقال ابن القيم أيضا في (زاد المعاد):[فصل في أعمامه وعماته r : فمنهم أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب والعباس وأبـو طالـب واسمه عبد مناف وأبو لهب واسمه عبد العزى والزبير وعبـد الكعبـة والمقـوم وضرار وقثم والمغيرة ولقبه حجل والغيداق واسمه وقيل نوفل وزاد بعضهم العـوام ولم يسـلم منهم إلا حمزة والعباس. وأما عماته فصفية أم الزبير بن العـوام وعاتكـة وبـرة وأروى وأميمة وأم حكيم البيضـاء. أسـلم مـنهن صـفية واختلـف في إسـلام عاتكـة وأروى وصحح بعضهم إسلام أروى. وأسن أعمامه الحارث وأصغرهم سنا: العباس وعقـب منه حتى ملأ أولاده الأرض. وقيل أحصوا في زمن المأمون فبلغوا ستمائة ألف وفي ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعد لا يخفى وكذلك أعقب أبو طالب وأكثر والحارث وأبو لهب وجعل بعضهم الحارث والمقوم واحدا وبعضهم الغيداق وحجلا واحدا].ا.هـ.

فصل في ذكر أخواله r

وأما أخواله، فقد قيل إن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب لم يكن لها إخوة لا من الذكور ولا من الإناث؛ ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أنه ليس للنبي r أخوال مباشرون، وإنما ما كان يُعرف عند العرب من الاتساع في إطلاق اسم الأخوال على الأقارب من ناحية الأم، ومن أشهر أخوله بهذا الاعتبار هم بنو زهرة وبنو النجار. وقيل بل له أخوال مباشرون، فقد قال ابن حزم في (جمهرة أنساب العرب)"[وهؤلاء بنو زهرة بن كلاب، ولد زهرة بن كلاب : الحارث ، وعبد مناف . فولد عبد مناف بن زهرة : وهب ، ووهيب . فولد وهب : آمنة ، أم رسول الله r ، وعبد يغوث بن وهب. فولد عبد يغوث: الأرقم، والأسود. فولد الأرقم: عبد الله ، له صحبة، ولاه عمر وعثمان بيت المال. وولد الأسود، وهو أحد المستهزئين، مات كافراً: عبد الرحمن، له صحبة، وكان فاضلاً، ذكر في شورى أبي موسى وعمرو رضي الله عن جميعهم. وولد وهيب بن عبد مناف بن زهرة: نوفل؛ ومالك، وهو أبو وقاص؛ وهالة، أم حمزة بن عبد المطلب t . فولد نوفل: مخرمة، له صحبة، وهو أحد المؤلفة قلوبهم. فولد مخرمة: المسور، له صحبة، وكان فاضلاً. ومن ولده: أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور، ..... وابن أخيه : عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وولد أبي وقاص: معد بن أبي وقاص، وعمير، وعمارة، وعامر، وعتبة]ا.هـ. أما أبوه عبد الله فقد مات على الشرك كما تقدم.

فصل في ذكر أحوال خاصة به r مع بعض الصحابة y (ونقتصر على الأشهر)

واعلم رحمك الله، أن وزِيرَيْهِ هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وحُذيفة t كَاتِمُ سِرِّه، والزُّبير t حَوَارِيُّه،وبلال t مُؤَذِّنُه، وابن مسعود t صاحب الوِسَادِ والنعلين، وأنس t خادمه، أبو عبيدة t أمين هذه الأمة، وخالد t سيف الله المسلول.

واعلم رحمك الله، أن النبوة مأخوذة من التنبؤ وهو الإخبار، فإن الأنبياء يأتيهم الخبر من السماء، وحياً من الله جل وعلا، وقيل مأخوذ من النُّبُوْ وهو الارتفاع والظهور، لارتفاع رتبة النبوة وعُلُو منزلتها. **وقد تقدم.**

قوله:(منها أربعون قبل النبوة): وهو سن كمال الرجولة، واشتداد القوى، العلمية والعملية، ولها تُبعث الأنبياء، وهذا في الغالب إلا ما كان من عيسى بن مريم، عليهما الصلاة والسلام.قال تعالى:{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف:١٥].

قوله:(وثلاث وعشرون نبياً رسولا): أي هذه هي مدة دعوته ورسالته،وما قبضه الله جل وعلا إلا بعد، أن أقام به الملة العوجاء، وترك الناس على المحجة البيضاء، ليلها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونهارها سواء، لا يزيغ عنها إلا هالك مفتون، وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله r وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ؛ فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ r .

قوله (نبياً رسولا): تقدم الكلام على الفرق بين النبي والرسول، وأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، فمرتبة الرسالة أعلى من النبوة. والله أعلم.

النبوة في الذكور خاصة:

والنبوة والرسالة لا تكون إلا في الذكور خاصة دون الإناث، بنص القرآن العظيم،كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ}، في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم، وكل من قص الله تبارك وتعالى علينا من الأنبياء والمرسلين كانوا من الذكور، وهذا بالإجماع[1] أن الله جل وعلا لم ينبئ ولم يرسل امرأة قط.

---

١ - جاء في مجموع الفتاوى لابن تيمية:[وَأَمَّا الْحَصْرُ فِي " إنَّمَا " فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْحَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا أَنْتَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} {وَمَا مُحَمَّدٌ إلَّا رَسُولٌ}. وَالْحَصْرُ قَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَنَّ الْأَوَّلَ مَحْصُورٌ فِي الثَّانِي وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعَكْسِ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَّ الثَّانِيَ أَثْبَتَهُ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ غَيْرُهُ مِمَّا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ ثَابِتٌ لَهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ إنَّك تَنْفِي عَنْ الْأَوَّلِ كُلَّ مَا سِوَى الثَّانِي فَقَوْلُهُ: {إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ} أَيْ: إنَّك لَسْت رَبًّا لَهُمْ؛ وَلَا مُحَاسِبًا؛ وَلَا مُجَازِيًا؛ وَلَا وَكِيلًا عَلَيْهِمْ؛ كَمَا قَالَ: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} وَكَمَا قَالَ: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} لَيْسَ هُوَ إلَهًا وَلَا أُمُّهُ إلَهَةً بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا كَمَا غَايَةُ مُحَمَّدٍ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا وَغَايَةُ مَرْيَمَ أَنْ تَكُونَ صِدِّيقَةً. وَهَذَا مِمَّا اُسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ: أَنَّهَا نَبِيَّةٌ وَقَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما قلت من الذكور، ولم أقل من الرجال؛ ليدخل في ذلك من نُبِّىء ولم يبلغ، كعيسى عليه السلام، فقد نُبِّىء في المهد، كما قال تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [مريم:٢٧-٣٠].

قوله:(نُبِّئَ بـ اقْرَأ، وَأُرْسِلَ بـ الْمُدَّثِّرْ)، وقع خلاف بين أهل العلم[١]، في أول ما أنزل من القرآن، وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هنا، هو القول الجامع بين الأخبار فهو

حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ نُبُوَّةِ أَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الطَّيِّبِ وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَالْأُسْتَاذُ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي وَغَيْرُهُمْ].ا.هـ.

قلت: ويقصد بالمتأخرين ما جاء عن القرطبي وابن حزم وغيرهما، فإنهما محجوجان بإجماع من سبق، وقد نقل القرطبي عن الكرماني إثبات الإجماع كذلك، وابن حزم في "الملل والنحل" أثبت أن هذه المسألة لم يحدث التنازع فيها إلا في عصره في قرطبة.

١ - جاء في تفسير ابن كثير:[ثبت في صحيح البخاري من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} كما سيأتي [بيان] ذلك هناك.قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وَكِيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، قلت:يقولون: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}؟، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلتُ له مثل ما قلتَ لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله r قال:"اورت بحرَاء، فلما قضيت جواري هبطتُ فنُوديت فنظرت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الراجح، فأول ما أنزل في الإرسال والتنبيء(اقْرَأ)، وأول ما أنزل في البلاغ والصدع (المُدَّثِّرْ).

عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا. فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني. وصبوا علي ماء باردا. قال: فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال:فنزلت:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}، هكذا ساقه من هذا الوجه. وقد رواه مسلم من طريق عُقَيل، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله r يحدث عن فترة الوحي:"فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قبَلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجَئِثْتُ منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} إلى:{فَاهْجُرْ} –قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان -ثم حَمِيَ الوحيُ وتَتَابع".هذا لفظ البخاري وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله:"فإذا الملك الذي جاءنيبحراء"، وهو جبريل حين أتاه بقوله:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد:حدثنا حجاج، حدثنا لَيْث، حدثنا عُقَيل، عن ابن شهاب قال:سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله r يقول:"ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء الآن قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئت منه فَرَقًا، حتى هَوَيت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت لهم: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} ثم حمي الوحي بعدُوتتابع". أخرجاه من حديث الزهري، به]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وبلده مكة): أي التي عاش ونشأ وترعرع فيها، إلا الفترة التي قضاها في البادية (بادية بني سعد) عند ظئره (مرضعته) حليمة السعدية؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، نشأ يتيماً، وقد توفى أبوه وهو حملٌ، وتوفيت أمه قبل أن يبلغ سن التمييز، وكانت عادة العرب أن ترسل غلمانها إلى البادية؛ لكي يكتسبوا معاني الشجاعة والرجولة، وقوة البدن، وحدة النظر، وغير ذلك من الأمور، ثم نشأ في حضانة جده عبد المطلب فما لبث أن مات فكفله عمه أبو طالب وكان من أكثر الناس حياطةً له وعنايةً به إلا أنه لم يسلم،ولهذا قال العباس كما في الصحيحين عَنْ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ t ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ:"نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ".

لا عبرة للوطنيات والحنين للأرض إذا كانت الأرض يحارب فيها الدين.

ومع أن بلده r هي مكة، إلا أن أهلها، لما أبوا الإيمان، وأرادوا قتله؛ خرج منها مهاجرا إلى الله تعالى، كما فعل أبوه إبراهيم الخليل r ، بل وقاتل أهلها، وعاداهم في الله تعالى، وتولى المدينة وأهلها المؤمنين، في دلالة واضحة بليغة إلى أن الأوطان إنما تقاس بما فيها من الدين، لا بعرقيات ولا قبليات ولا وطنيات، فلا ولاء وبراء في الأوطان، وإنما الولاء والبراء في الله الواحد القهار، ففيه الرد على دعاة الوطنية، وعباد التراب، ومتَّبعي تشريعات الأمم المتحدة الجاهلية، فكم من الجيوش الجرارة في بلاد المسلمين، مرصودة لحماية الوطن، والمؤمن إنما يحمي ابتداء الدين، فوطن بلا دين لا خير فيه، ولا حنين له،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما يقدس المرء عمله، وإلا فإن الأرض لا تقدس أحدا، فكم من ساكن في الحرم وهو ملحد فيه، وكم من بعيد عنه، متق لله تعالى، يعبد الله على بصيرة.

وفي موطأ مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَتَبَ إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ: إِنَّ الْأَرْضَ لَا تُقَدِّسُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يُقَدِّسُ الْإِنْسَانَ عَمَلُهُ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ جُعِلْتَ طَبِيبًا تُدَاوِي، فَإِنْ كُنْتَ تُبْرِئُ فَنَعِمَّا لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُتَطَبِّبًا، فَاحْذَرْ أَنْ تَقْتُلَ إِنْسَانًا فَتَدْخُلَ النَّارَ، فَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِذَا قَضَى بَيْنَ اثْنَيْنِ ثُمَّ أَدْبَرَا عَنْهُ نَظَرَ إِلَيْهِمَا وَقَالَ ارْجِعَا إِلَيَّ أَعِيدَا عَلَيَّ قِصَّتَكُمَا مُتَطَبِّبٌ وَالله .ا.هـ. قلت: وفيه إرسال. قال ابن المديني في "العلل" عن يحيى بن سعيد الأنصاري:[لا أعلمه سمع من صحابي غير أنس]ا.هـ.

وفي فضائل مكة أُلِّفَت مصنفات عديدة في بيان فضلها وشرفها، حيث اختارها الله جل وعلا، بلداً لخاتم أنبيائه، وسيد رسله، وهي أم القرى ومحط بيت الله الحرام ولها فضائل كثيرة.

قوله:(بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ): تقدم معنا أن هذا هو أصل دين الله تبارك وتعالى، وهو أصل دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُّ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى:{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٩]، وهي دعوة أتباعه على الحق إلى قيام الساعة، لا يصدهم عنها طاغوت، ولا مبطل،ولا مضل، ولا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تعالى، تلك بشارة المصطفى r لهم، كما قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]، وكما في الصحيحين عن مُعَاوِيَةَ t ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ". وسيأتي بيان للطاغوت وما هو الواجب معه بإذن الله تعالى.

قوله:(بعثه الله بالنذارة عن الشرك): أي محذراً منه، ومبيناً سوء عاقبته، وأنه يخالف الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، بل ويخالف الشريعة المطهرة.

قوله:(ويدعو إلى التوحيد): هذا عطف عام على خاص؛ لإفادة أن التوحيد يشتمل ترك الشرك و يزيد عليه، فكل طاعة لله تعالى فعلها من التوحيد، وكل معصية لله تعالى تركها من التوحيد، وفيه التذكير بعدم الاقتصار على التحذير من الشرك، بل لابد من الأمر بالخير والنهي عن الشر عموما؛ نعم، ترك الشرك هو أصل التوحيد، ولكن التوحيد فيه واجبات يلزم فعلها، ومستحبات يُنْدَبُ إتيانها، وفيه محرمات لابد من تركها، ومكروهات ينبغي الابتعاد عنها، ومباحات الأولى التخفف منها؛ ولهذا أمرنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا معروف أعظم من التوحيد، ولا منكر أقبح من الشرك.

وقوله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}): أي هذا هو الدليل على كونه أُرسل بالمدثر؛ لينذر عن الشرك، ويدعوا إلى التوحيد.

قوله:{يا أيها المدثر}: نداء رباني يتضمن الأمر بالانتقال إلى مرحلة أشد من مراحل التبليغ، وهي مرحلة الصدع بالحق والدعوة المعلنة، وهو يتضمن الحث على الصبر وتحمل المشاق في سبيل ذلك، فالدِّثار هو ما يتغطى به المرء من لحاف ونحوه، وهو مستعمل عند الإخلاد إلى الراحة والسكون والنوم، فجاء الأمر بترك ذلك، وهذا أبدع تمثيل في النهوض بالحق والقيام به.

قوله:{قم}: أي قم به في الناس، فبعد أن نُبِّىءَ r في خاصة نفسه، وفجأه الحق وهو في غار حراء، جاء الدور على القيام بذلك في الناس، فالرسل لا تبعث في خاصة أنفسها، بل في أقوامهم، مبشرين ومنذرين، ولهم في ذلك الأجر العظيم، عند الله تعالى، فكل من اهتدى من بعد دعوته من أمته، فهم في موازين حسناته يوم القيامة، وأوفرهم حظا وأكثرهم في ذلك هو سيدنا محمد r ، إذ كانت دعوته عامة، ولا نبي بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والمعنى دع عنك هذا التَّدَثُّر، وقم لله جل و علا، قومة رجل واثق في الله ونصره، فقام r قومة لا يدانيه فيها أحد، والمعنى أنت لست كغيرك، فقد شرفك الله جل وعلا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بهذا الواجب العظيم، فقم به وأنذر قومك، وابدأ بعشيرتك الأقربين، ثم انطلق بذلك في العالمين، وليكن أول ما تنذرهم فيه وتحذرهم منه الشرك، وأنذرهم النار التي وعدها الله الذين لا يؤمنون.

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}،{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم، كقوله:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ}، وقوله:{وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إبراهيم}، وقوله:{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، قيل:{يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا}، وقوله:{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ}، وقوله:{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}، وقوله:{يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً}، أما النبي r فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}، وقوله:{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}، وقوله:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}].ا.هـ.

قوله:(وَمَعْنَى:**{قُمْ فَأَنذِرْ}**: **يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}**: **أَيْ:عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}**: **أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ**)، شرع المؤلف رحمه الله يفصل في معاني الآيات التي أوردها من سورة المدثر،فاستعمل عبارات موجزة؛ ليسهل حفظها، وقد ذكر فيها ما ترجح عنده من معانيها، وقد تقدم تقرير ذلك فيما مضى من كلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، جاء في كلام المفسرين من السلف، حمل معنى الثياب على معنيين، الحسي والمعنوي، واختار المؤلف المعنى المعنوي؛ لأنه أقرب لسياق الدليل في هذا الموطن، وقد قال تعالى مذكرا بكل من اللِّبَاسَين، وبين تعلق أحدهما بالآخر، فقال: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:٢٦-٢٧]، فبالمعصية حصل عُرِيٌّ حقيقي لأدم وحواء عليهما السلام، ولو شاء الله لأجرى ذلك سنة في كونه، ولكن كما تقدم معنا، من أن الله تعالى يريد منا الإيمان الاختياري لا الإجباري، وإذا كان هذا العُرِي حصل من الأكل من الشجرة، فكيف بِعُرِي يحصل من جراء الفواحش، بل كيف بالذي يحصل من جراء الإشراك بالله تعالى؟. فاللهم استر عوراتنا وآمن رَوْعَاتِنَا واحفظنا ياحفيظ.

أقسام الطهارة:

ولنا أن نتذكر بهذه المناسبة أن الطهارة تنقسم إلى قسمين:

١- **طهارة حسية:** وهي التطهر من الحدث الأكبر والأصغر في البدن، وإزالة النجاسات، والقاذورات، من الثياب والبقاع.

٢- **طهارة معنوية:** وهي طهارة القلب من الأدران والأوساخ، ويأتي على رأسها، الشرك بالله تعالى، ولكن المسلم أو المؤمن لا ينجسه شيء، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هُرَيْرَةَ قَالَ لَقِيَنِي رَسُولُ الله r وَأَنَا جُنُبٌ فَأَخَذَ بِيَدِي فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ فَانْسَلَلْتُ فَأَتَيْتُ الرَّحْلَ فَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ فَقَالَ:"أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هِرٍّ" فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ:"سُبْحَانَ الله يَا أَبَا هِرٍّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ"، وفي رواية:"أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ" قَالَ كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ، فَقَالَ:"سُبْحَانَ الله إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ"، وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r لَقِيَهُ وَهُوَ جُنُبٌ فَحَادَ عَنْهُ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ كُنْتُ جُنُبًا. قَالَ:"إِنَّ الْمُسْلِمَ لاَ يَنْجُسُ"، وفي صحيح البخاري معلقا:وَحَنَّطَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ابْنًا لِسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَلَهُ وَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الْمُسْلِمُ لَا يَنْجُسُ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا وَقَالَ سَعِدٌ لَوْ كَانَ نَجِسًا مَا مَسِسْتُهُ.

وهذا الحكم عام في جَنَابَةِ الذكور والإناث من المؤمنين، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ r مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلَانَا جُنُبٌ وَكَانَ يَأْمُرُنِي فَأَتَّزِرُ فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائِضٌ وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ. وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ r يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ. وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ r فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ r فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ.

وأما الكافر أو المشرك، فنجس، ونجاسته لا تطهرها مياه البحار وإن اغتسل بها، بل وحتى النار لا تقوى على تطهيره ولهذا يبقى فيها أبدا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٢٨].

وقد أمر الله بالطهارتين جميعاً، وهما من باب اللازم والملزوم، فلا يمكن أن يأمر الله بتطهير الثياب ويدع تطهير القلب واللُّبَاب، بل هو من باب أولى؛ ولهذا فإن هذه الآية دالة على الأمر بطهارة الظاهر والباطن.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، قَالَ:النَّائِمُ، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قَالَ: لا تَكُنْ ثِيَابُكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسَبٍ بَاطِلٍ، {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}، قَالَ:الْأَصْنَامُ، {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}، قَالَ: لا تُعْطِ عَطِيَّةً تَلْتَمِسُ بِهَا أَفْضَلَ مِنْهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قَالَ: مِنَ الْإِثْمِ، قَالَ: وَهِيَ فِي كَلامِ الْعَرَبِ نَقِيُّ الثِّيَابِ.عَنْ عِكْرَمَةَ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قَالَ: لا تَلْبَسْهَا عَلَى غَدْرَةٍ وَلا فَجْرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَلا تَسْمَعُونَ قَوْلَ غَيْلانَ بْنِ سَلَمَةَ:إِنِّي بَحْمِد اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبَسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ]ا.هـ.

قوله:{والرجز فاهجر}: الرجز الأصنام، وقيل الأوثان، وقيل الطاغوت والكل حق، فالمراد ترك كل ما يعارض التوحيد من قليل أو كثير، وقد أطلق النبي r اسم الوثن على كل ما يعبد من دون الله تعالى، كما قال لثابت بن الضحاك:"هَلْ كَانَ فِيهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ"، وقد تقدم تخريجه، وفي مرسل عطاء بن يسار أن رسول الله r قال:"اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، أخرجه مالك في الموطأ، وروي مرفوعا والراجح إرساله. والله أعلم.

والمعنى أن الشرك ليس خاصا بعبادة الأصنام من الحجارة أو الأشجار، بل كل ما يعبد من الله يقع به الشرك بالله تعالى، حجرا كان أو بشرا، دستورا كان، أو قانونا، أو نظاما، كله شرك بالله تعالى.

قوله:(وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا): أي هذا هو معنى الهجر المأمور به شرعا، لا الهجر الذي يتخذه البعض لهوا ولعبا، وتَلَوُّناً في الدين والعياذ بالله.

قوله:(تركها): أي ترك عبادتها، وترك إطرائها، أو الركون إليها، أو الدخول في أنصاف حلول معها، أو المساومة في ذلك، مما يستلزم تحطيمها، والتحذير منها، وفضحها والسعي ذلك، وامتهانها في القلوب قبل الواقع، فإن تحطيم الأصنام في القلوب، من أعظم الأسباب المفضية للعمل على إزالتها من الأرض، ولهذا بدء النبي r دعوته ببيان ضعف هذه المعبودات، وقلة حيلتها، وأنها لا تغني عن أهلها شيئا.

وهكذا الرسل تبعث لاجتثاث جميع أنواع الشرك، وإحلال التوحيد مكانها، حتى لا يبقى في الأرض سلطان سوى سلطان الله جل وعلا، بأن تكون كلمة الله هي العليا أبدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكلمة الذين كفروا السفلى أبدا،وسيأتي مزيد بيان لهذه المعاني الكبار في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

مسألة: متى يقع الهجران؟.

الجواب: يقع الهجران، متى كان ثَمَّةَ مصلحة وفائدة، وهذا على ثلاثة أنواع:

١ - **النوع الأول**: مصلحة وفائدة لِلمَهْجُور، بحيث لو هُجر؛ تأثر وأقلع عن المعصية، وتاب منها، فهنا الأولى إيقاع الهجران، بل هو الواجب، وإن كان لا يستفيد من الهجران، فالأولى عدم إيقاعه إلا في حالة واحدة، وهي النوع الثاني.

٢ - **النوع الثاني**: إذا كانت المصلحة والفائدة تحصل للهَاجِر، بمعنى أنه لو لم يهجر؛ تضرر في دينه؛ لأن كثرة الإمساس تفقد الإحساس، فهنا يجب عليه إيقاع الهجران، وإلا حصل فساد عريض، قال تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}، وقد فسر أهل العلم هذه الآية بما جاء في الحديث الضعيف أن صالحيهم كانوا ينكرون على طالحيهم، فلا يقلع الطالحون عن العصيان، فإذا كانوا من الغد، جالسوهم وآكلوهم وشاربوهم؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم.

٣ - **أن تكون المصلحة حاصلة للمجتمع**، وإن لم تحصل للمهجور، فإن هذا الهجران يقلل الشر ويحسم مادته، ويحاصر أهله، وينفر الناس عنه، وعن مُنْكَرِه، فهذا أيضا مما يوجب إيقاع الهجران، وهذا كثير في كتاب الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذاً لابد من التنبه لكل هذه الأنواع، ومن الخطأ فَهْمُ الهجران، على أنه لا يجوز إيقاعه، إلا إذا كانت هناك مصلحة للمهجور، فحسب.

قوله:(وأهلها): أي بغضهم وما هم عليه، مما يستلزم دعوتهم، إذ ليس المراد هنا اعتزالهم فحسب - إلا حال عبادتهم إياها- بل المراد كذلك السعي في إزالة منكرهم بدعوتهم إلى الحق والهدى.

قوله:(والبراءة منها وأهلها): أي البراءة القلبية والعملية من الشرك والمشركين، وهذه هي عقيدة الولاء و البراء، الحب في الله والبغض في الله، والتي لا تقوم للإيمان قائمة بدونها.

حتى إذا طغى على الناس حُبُّ الدنيا والاصطلاح عليها، وقُدمت المجاملات والمحسوبيات، على الدين؛ حصل البلاء العظيم؛ وحلت بالأمة الدواهي والفتن والابتلاءات، نسأل الله العافية والسلامة.

فصل:في ذكر مراتب الهجران و البراءة:

١ - **الهجران والبراءة بالقلب**: وهذا فرض على كل مسلم ومسلمة، ويشمل ذلك الكفر الأكبر والأصغر والمعاصي، فيهجرها العبد بقلبه، ويتبرأ من كل ضلال وانحراف، وعليه أن يجدد هذا المعنى باستمرار في قلبه؛ حتى لا تندرس معالم الولاء والبراء فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- **الهجران والبراءة لأمر الدنيا وحطامها**: وهذا محرم بين المسلمين، إلا إلى ثلاث أيام وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

٣- **الهجران العملي لأصحاب الشرك والكفر والطاغوت**: وهذا إنما يكون باعتزال أوطانهم–إن كانت دار كفار أصليين وفي غيرهم تفصيل سيأتي-، ومَجَامِعِهم، ومؤسساتهم، وبرلماناتهم، ودورهم التي اتخذوها أوثانا مودة بينهم، ويجب بغضهم وما هم عليه،مع وجوب دعوتهم، والاجتهاد في البيان، حتى إذا ما امتنعوا من قبول دعوته، اعتزلهم بدعوته كذلك، كما قال تعالى: {فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه}، مع تحقيق معنى الاعتزال الشرعي، فلا يداخلهم ولا يداهنهم، ولا ينتسب إلى مؤسساتهم الطاغوتية، ومع ذلك يبذل لهم الدعوة، ويبلغ دين الله تعالى، مع التنبيه إلى أن يكون حذرا من التلبيس في الدين، والتخليط فيه.

أما من لم تكن عنده آلة للدعوة إلى الله، أو كان ممن لا يصبر على أذى الناس، بحيث لو دعا؛ أفسد أكثر مما يصلح، أو لربما تضرر هو في دينه، فليس عنده من قوة التحمل ما يؤهله لذلك، فهو سريع التأثر بما حوله، فهذا الأولى أن يعتزلهم.

٤- **هجران أهل المعاصي من المسلمين**: وهذا كالسابق يستمر العبد في دعوته، حتى يبارزوه بالعداء، ويمتنعوا من قبول دعوته، بشرط ألا يجالسهم حال المعصية، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥- **هجران أماكن العصيان والباطل**: وأوله تحرق القلب لله تعالى، فإن كان العبد صادقا في غيرته على محارم الله تعالى أن تنتهك؛ لم يرض أن يبقى في أماكن الباطل والخبث، فإن القلب سيد الجوارح، كما قال النبي r :"أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وهذا من صميم سنة اعتزال الباطل وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى، وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ الله r قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَتُوبُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ مَاذَا أَذْنَبْتُ فَقَالَ:"رَسُولُ الله r مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَة" قَالَتْ: فَقُلْتُ اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا فَقَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ وَقَالَ إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ". وفي صحيح البخاري عن ابن عمر t : قَالَ وَعَدَ النَّبِيَّ r جِبْرِيلُ فَرَاثَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى النَّبِيِّ r فَخَرَجَ النَّبِيُّ r فَلَقِيَهُ فَشَكَا إِلَيْهِ مَا وَجَدَ فَقَالَ لَهُ إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا كَلْبٌ". وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ وَاعَدَ رَسُولَ الله r جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ وَفِي يَدِهِ عَصًا فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَقَالَ:"مَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُه" ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ، فَقَالَ:"يَا عَائِشَةُ مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَا هُنَا". فَقَالَتْ: وَالله مَا دَرَيْتُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْت". فَقَالَ مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ إِنَّا لاَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَة". وقال البخاري في صحيحه:[وَدَعَا اِبْن عُمَر أَبَا أَيُّوب فَرَأَى فِي الْبَيْت سِتْرًا عَلَى الْجِدَار فَقَالَ اِبْن عُمَر: غَلَبَنَا عَلَيْهِ النِّسَاء. فَقَالَ: مَنْ كُنْت أَخْشَى عَلَيْهِ فَلَمْ أَكُنْ أَخْشَى عَلَيْك، وَاللَّهِ لَا أَطْعَم لَكُمْ طَعَامًا. فَرَجَعَ].ا.هـ. قال ابن حجر في (فتح الباري):[وَصَلَهُ أَحْمَد فِي "كِتَاب الْوَرَع" وَمُسَدَّد فِي مُسْنَده وَمِنْ طَرِيقه الطَّبَرَانِيُّ مِنْ رِوَايَة عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِم بْن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَر قَالَ " أَعْرَسْت فِي عَهْد أَبِي، فَآذَن أَبِي النَّاس، فَكَانَ أَبُو أَيُّوب فِيمَنْ آذَنَّا وَقَدْ سَتَرُوا بَيْتِي بِبِجَادٍ أَخْضَر، فَأَقْبَلَ أَبُو أَيُّوب فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فَقَالَ: يَا عَبْد اللَّهِ أَتَسْتُرُونَ الْجُدُر؟ فَقَالَ أَبِي وَاسْتَحْيَا: غَلَبَنَا عَلَيْهِ النِّسَاء يَا أَبَا أَيُّوب، فَقَالَ: مَنْ خَشِيت أَنْ تَغْلِبهُ النِّسَاء. فَذَكَرَهُ].ا.هـ. قال ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين):[وقد نص الإمام على أن الرجل إذا شهد الجنازة فرأى فيها منكرا لا يقدر على إزالته أنه لا يرجع ونص على أنه دعي إلى وليمة عرس فرأى فيها منكرا لا يقدر على إزالته أنه يرجع فسألت شيخنا عن الفرق فقال لأن الحق في الجنازة للميت فلا يترك حقه لما فعله الحي من المنكر والحق في الوليمة لصاحب البيت فإذا أتى فيها بالمنكر فقد أسقط حقه من الإجابة].ا.هـ.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في كتابه:(لطائف المعارف فيما المواسم العام من الوظائف):[فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله، واليُمن هو طاعة الله و تقواه كما قيل:

إن رأيا دعا إلى طاعة الله ... لرأي مبارك ميمون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعصية ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس وهم أضر من شياطين الجن قال بعض السلف: شيطان الجن نستعيذ بالله منه فينصرف وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية .....إلى أن قال: ومما يروى لعلي t :

فلا تصحب أخا الجهـ ... ل و إيـاك و إيـاه
فكم من جاهل أردى ... حكيمـا حين آخاه
يقـاس المـرء بـالمـر ... ء إذا ما المرء ماشاه
وللشـيء على الشـي ... ء مقاييس و أشـباه
وللقـلـب على القلـ ... ب دليل حين يلقاه

فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس خصوصا من لم ينكر عليه عمله فالبعد عنه متعين فإذا كثر الخبث هلك الناس عموما وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب كما قال النبي r لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر:"لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم" ولما تاب الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل و سأل العالم: هل له من توبة؟ قال له: نعم فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة فأدركه الموت بينهما فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إليهم أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها فوجدوه إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرية الصالحة أقرب برمية حجر فغفر له هجران أماكن المعاصي وأخواتها من جملة الهجرة المأمور بها فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه قال إبراهيم بن أدهم: من أراد التوبة فليخرج من المظالم وليدع مخالطة من كان يخالطه وإلا لم ينل ما يريد احذروا الذنوب فإنها مشؤومة عواقبها ذميمة وعقوباتها أليمة والقلوب المحبة لها سقيمة السلامة منها غنيمة والعافية منها ليس لها قيمة والبلية بها لا سيما بعد نزول الشيب داهية عظيمة:

طاعة الله خير ما اكتسب العبـ ... د فكن طائعا لله لا تعصينه

ما هلاك النفوس إلا المعاصي ... فاجتنب ما نهاك لا تقربنه

إن شيئا هلاك نفسك فيه ... ينبغي أن تصون نفسك عنه

يا من ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى....]ا.هـ.

أما اليوم فالمجاملات والحرص على مليء البطون، مقدم على الغيرة والغضب لحق الله تعالى، عند رؤية المنكرات؛ ولهذا تجد كثيرا من الناس همته مصروفة إلى مجاملة الناس، وإجابة ولائمهم، وإن كانت الأماكن متضمنة المعاصي والمنكرات؛ ولهذا ازدادت جُرْأة أصحاب المنكرات، وازداد الأمر سوءً والعياذ بالله، حيث الحفلات الصاخبة، والاختلاط، وغيرها من المحرمات.

قوله:(أخذ على هذا عشر سنين): أي مكث داعيا إلى التوحيد، لا يدعو إلا إليه في غالب حاله، فليست هناك شعائر أخرى كان يدعو إليها في تلك الفترة، كما يدعو إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التوحيد، -ولكنه دعا أيضا إلى صلة الأرحام-، مما يدل على أهمية ترسيخ التوحيد في القلوب، وتنزيله في واقع الحياة، وأنه أهم ما يشتغل به الداعية إلى الله، فإنه متى ما امتثلت القلوب التوحيد؛ فإنها لن تتلكأ في قبول الشرائع؛ لأن المرء سيكون قد فهم أنه عبدٌ يجب عليه امتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فيبادر إلى ذلك، بل ويتنافس فيه، واعتبر بحال الصحابة y قبل البعثة وبعدها، لما رسخ التوحيد في قلوبهم؛ بادروا إلى ترك المحرمات، وفعل الطاعات.

قوله:(وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ)، هذا من باب التأكيد على أن دعوة الرسل، إنما تكون أصالة في إقامة حق الله تعالى، وأن قضيتهم العظمى هي التوحيد، وأن هذا هو مراد الله تبارك وتعالى، حتى إنه جل وعلا لم يأمر عباده بالصلاة، مع أنها الركن الثاني، إلا بعد هذه المدة الطويلة من الدعوة إلى التوحيد، وترسيخه في القلوب، وقد تقدم معنا في قصة حديث معاذ وسهل رضي الله عنهما، كيف أن النبي r ، أمر بالبداءة بالتوحيد، ثم بعد ذلك، يأتي أمرهم وتعليمهم بما يجب من حق الله تعالى فيه، وما ذلك إلا لأن الله تعالى لن يقبل من العبد عملا مهما عظم، إذا كان صاحبه متلبسا بالشرك بالله تعالى، كما قال تعالى:{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان:٢٣]، وقال:{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة:٥٤].

فالتوحيد يبني ويشيد، والشرك يهدم ويبيد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(**وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ**)، هذا ما آل إليه الأمر في الصلوات المفروضة على العباد، وإلا فقد كانت خمسين صلاة، فخفف الله على هذه الأمة، وقبل شفاعة نبينا **r** في ذلك، فاللهم لك الحمد كله، وصلى اللهم على نبينا محمد، واجزه اللهم عنا خير ما جزيت نبيا عن أمته ودعوته، ففي الصحيحين في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس **t** قال النبي :"ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَا أُمِرْتَ قَالَ أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَ أُمِرْتَ قُلْتُ أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ قَالَ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ قَالَ فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي".

تاريخ ليلة الإسراء لا يعلمه إلا الله تعالى:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أن ليلة الإسراء والمعراج ليلةٌ لم تحدد، فلا يعرف اليوم الذي أسري فيه وعرج بالنبي r ، ولهذا من الكذب والافتراء زعم أن هذا وقع في شهر رجب، وقد ابتدع في هذا الشهر، بدع كثيرة، بحجة الإسراء والمعراج، فمن الاحتفالات إلى الصيام، وصلوات ونفقات وصدقات، وغير ذلك مما لا أصل له في الكتاب والسنة، وعليك بأصحاب محمد r فقد كانوا هم أحرص الناس على اتباع السنة، واحترام وتوقير وتعزير نبي الأمة، عليه الصلاة والسلام، ومع هذا لم يحتفل أحدٌ منهم بشيء من ذلك، ولا التفتوا إليها أصلاً، وفوق هذا كله،فهذا رسول الله r ، قد علم الليلة التي أسري به فيها، ولم يتخذها منسكاً ولا متعبداً، ولم يخصها بشي من ذلك والأمر، كما قال قائلهم:

وخير الأمور السالفات على الهدى ....وشر الأمور المحدثات البدائع

صلاة الرغائب بدعة لا مستند لها:

أما ما يسمى بصلاة الرغائب فلا أصل لها عن النبي r ، وجميع ما ورد فيها، كلها أحاديث منكرة، وهي صلاة مبتدعة، يخصون بها شهر رجب، ولهذا ترى المبتدعة، يكثرون في هذا الشهر بمكة والمدينة، ويزعمون إحياء هذه السنة الجاهلية، وراجع كتاب لطائف المعارف للحافظ ابن رجب؛ لتقف على حظ وافر من العلم في ذلك.

الإسراء والمعراج كان يقظة لا مناما وبالروح والجسد النبوي الشريف r :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله أن الراجح أن الإسراء والمعراج كان بالروح والبدن معـاً، وهـذا هو الصحيح في المسألة، أما القول بأن ذلك كان مناماً، أو كان يقظة ولكن بالروح دون الجسد، كل هذا خطأ، فلو كان الأمر كذلك، ما تعجب الكفار من وقـوع ذلـك؛ لأنـه بالإمكان حصول هذا المنام، والروح أخف من الجسد بكثير، ولهذا فالصحيح أنه عرج به عليه الصلاة والسلام، بروحه وجسده معاً إلى فوق سبع سماوات، وهذا هو صريـح الأدلة، وما عدا ذلك فهو اتباع الظن، بالأخذ بالضعيف والآراء الخاطئة.

قوله:(وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ)، أي صلى هذه الصلوات المكتوبات، على مواقيتها على ما نزل به جبريل عليه السلام، إلى النبي r ، وأما هل كان النبي r يصلي قبل ذلك أم لا؟، في ذلك خلاف، والظاهر أنه كان يصلي، ولكن ليست هذه الصلوات الخمس.

ولم تكن فرضت صلاة الجماعة في ذلك الوقت؛ لوجود الخوف، فكانوا يصلون سراً أو جماعات متفرقة في بعض البيوت، كدار الأرقم ابن الأرقم.والله أعلم.

قوله:(وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ)، لما أذن الله جل وعلا بنصـر نبيـه، وإظهـاره على أعدائه، أمر النبي r بالهجرة، وكان أبو بكر t قد أجمـع عـلى الهجـرة قبـل ذلـك بزمن، فخرج من مكة لما كثر الأذى عليه، فرده أحد كفار مكة في جـواره فقـال لـه:إن مثل أبي بكر لا يخرج ولا يُخرج، ومنّاه النبي r بالهجرة معه، وقال أبو بكـر:(الصـحبة الصحبة يا رسول الله)، فصحب النبي r في أعظم هجرة عرفها التاريخ.

فقد غيرت هذه الهجرة بفضل الله جل وعلا التاريخ كله، وقلبت مجريات المـوازين البشـرية، وتبدلت الأحداث؛ فحصل بعدها ما تعلمون من النصـر والتمكين للنبي r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولدينه وأتباعه؛ ليعلم العباد أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه وتعالى لطيف لما يشاء؛ ولتعلم هذه الأمة، عظيم المعاناة التي عاشها نبي الأمة عليه الصلاة السلام، وأنه تحمل الكثير الكثير للقيام بهذا الأمر العظيم.

فحري بنا أن نعرف سنته، وأن نقتفي أثره، وأن لا نقدم عليه أحداً، عليه أفضل الصلاة والسلام.

الدعوة إلى التوحيد كانت ولم تزل حتى توفاه الله تعالى r :

واستمر النبي **r** على هذه الدعوة والصلوات الخمس، حتى هاجر، وبقي على ذلك عليه الصلاة والسلام داعيا إلى التوحيد مصليا لله رب العالمين، حتى توفاه الله، ومن الوهم اعتقاد أن الدعوة إلى التوحيد كانت ببكة، فحسب، بل لم يزل **r** داعيا إلى التوحيد حتى توفاه الله تعالى، كما في الصحيحين من طريق عُبَيْدُ الله بْن عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ وَعَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ قَالَا لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ الله **r** طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ:"لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. وفي رواية لعائشة رضي الله عنها: فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ.

والمعنى أنه r لم يزل داعيا إلى التوحيد، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى r .

تنبيه: واعلم رحمك الله، أن دعوة الرسل جاءت عامة إلى كل أنواع التوحيد، فليس من التوحيد شيء مهمل، وكل آية أو حديث فيه الأمر بعبادة الله تعالى، فالمقصود به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جميع أنواع التوحيد، وكل دليل دل على النهي عن الشرك، فالمقصود به النهي عن الشرك في كل أنواع التوحيد.

خلافا لما يتوهمه البعض، من أن الرسل إنما بعثت بتوحيد الألوهية فحسب، فإن هذا الفهم الخاطىء لحقيقة دعوة الرسل؛ قد أورث فسادا عريضا.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية: وخاف منهم الكفار اشتد أذاهم له r وفتنتهم إياهم فأذن لهم رسول الله r في الهجرة إلى الحبشة وقال إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله r فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار فبلغهم أن قريشا أسلمت وكان هذا الخبر كذبا فرجعوا إلى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديدا وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود .

(الحصر في الشعب ثم وفاة خديجة فعمه فخروجه للطائف): ثم أذن لهم في الهجرة ثانيا إلى الحبشة فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا إن كان فيهم عمار فإنه يشك فيه ومن النساء ثمان عشرة امرأة فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال فبلغ ذلك قريشا فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة ليكيدوهم عند النجاشي فرد الله كيدهم في نحورهم فاشتد أذاهم لرسول الله r فحصروه وأهل بيته في الشعب شعب أبي طالب ثلاث سنين وقيل سنتين وخرج من الحصر وله تسع وأربعون سنة وقيل ثمان وأربعون سنة وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب وله سبع وثمانون سنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الشعب ولد عبد الله بن عباس فنال الكفار منه أذى شديدا ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير فاشتد أذى الكفار له فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى وأقام به أياما فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه وقاموا له سماطين فرجموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه فانصرف عنهم رسول الله r راجعا إلى مكة وفي طريقه لقي عداسا النصراني فآمن به وصدقه وفي طريقه أيضا بنخلة صرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا القرآن وأسلموا وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره مكة وهما جبلاها إن أراد فقال: لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا.

(الإسراء): وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي.... الحديث، ثم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ثم أسري المسجد الأقصى ثم عرج به إلى فوق السموات بجسده وروحه إلى الله عز وجل فخاطبه وفرض عليه الصلوات وكان ذلك مرة واحدة هذا أصح الأقوال. وقيل كان ذلك مناما وقيل بل يقال أسري به ولا يقال يقظة ولا مناما. وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناما. وقيل: كان الإسراء مرتين مرة يقظة ومرة مناما. وقيل بل أسري به ثلاث مرات وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق. وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه فهذا مما عد من أغلاط شريك الثمانية وسوء حفظه لحديث الإسراء. وقيل إن هذا كان إسراء المنام قبل الوحي. وأما إسراء اليقظة فبعد النبوة وقيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل الوحي هاهنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء فأسري به فجأة من غير تقدم إعلام والله أعلم.

(دعوة القبائل والهجرة إلى المدينة): فأقام r بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله تعالى ويعرض نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فلم تستجب له قبيلة وادخر الله ذلك كرامة للأنصار فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإنجاز وعده ونصر نبيه وإعلاء كلمته والانتقام من أعدائه ساقه إلى الأنصار لما أراد بهم من الكرامة فانتهى إلى نفر منهم ستة وقيل ثمانية وهم يحلقون رءوسهم عند عقبة منى في الموسم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله r . فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق ثم قدم مكة في العام القابل اثنا عشر رجلا من الأنصار منهم خمسة من الستة الأولين فبايعوا رسول الله r على بيعة النساء عند العقبة ثم انصرفوا إلى المدينة فقدم عليه في العام القابل منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهم أهل العقبة الأخيرة فبايعوا رسول الله r على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم فترحل هو وأصحابه إليهم واختار رسول الله r منهم اثني عشر نقيبا وأذن رسول الله r لأصحابه في الهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا متسللين أولهم فيما قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وقيل مصعب بن عمير فقدموا على الأنصار في دورهم فآووهم ونصروهم وفشا الإسلام بالمدينة ثم أذن الله لرسول الله r في الهجرة فخرج من مكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول وقيل في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صفر وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي فدخل غار ثور هو وأبو بكر فأقاما فيه ثلاثا ثم أخذا على طريق الساحل فلما انتهوا إلى المدينة وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وقيل غير ذلك نزل بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف. وقيل نزل على كلثوم بن الهدم. وقيل على سعد بن خيثمة والأول أشهر فأقام عندهم أربعة عشر يوما وأسس مسجد قباء ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم كان معه من المسلمين وهم مائة ثم ركب ناقته وسار وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة فيقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة فبركت عند مسجده اليوم وكان مربدا لسهل وسهيل غلامين من بني النجار فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه وأقربها إليه مسكن عائشة ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته إلى المدينة فرجع منهم ثلاثة r بالمدينة ثم هاجر بقيتهم في السفينة عام خيبر سنة سبع].ا.هـ.

قوله:(وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ)، شرع المؤلف رحمه الله تعالى يتكلم عن الهجرة، وأنها تستلزم الانتقال والخروج، من الديار والأرض، والأهل، وبين أنها باقية إلى قيام الساعة، وأن التي انقطعت فقط هي الهجرة من مكة إلى المدينة؛ لأن مكة صارت دار إسلام، وهذا معنى قوله r :"لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" متفق عليه من حديث ابن عباس t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمؤلف هنا خص الحديث عن نوع معين من أنواع الهجرة، **وهي الأعظم والآكد والأعلى**، وأنها هي الفريضة، وهي التي تكون مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ، وسنأتي على ذكر باقي الأنواع، بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً} [النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قوله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

الهجرة تنقسم إلى أقسام:

١ - **هجرة بالقلب**: وهذه تنقسم إلى قسمين:

أ- هجرة إلى الله بالإخلاص. ب- هجرة إلى النبي r بالمتابعة.

وهاتان الهجرتان فرض على كل مسلم ومسلمة، فهما شرطا قبول العمل، وقد أبدع ابن القيم في نونيته إذ قال:

واجعل لقلبك هجرتين ولا تنم.. فهما على كل امرئ فرضان
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالـ ... إخلاص في سر وفي إعلان
فالقصد وجه الله بالأقوال والـ ... أعمال والطاعات والشكران
فبذاك ينجو العبد من إشراكه ... ويصير حقا عابد الرحمن
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالـ حق المبين وواضح البرهان
فيدور مع قول الرسول وفعله ... نفيا وإثباتا بلا روغان
ويحكم الوحي المبين على الذي ... قال الشيوخ فعنده حكمان
لا يحكمان بباطل أبدا وكل الـ ... عدل قد جاءت به الحكمان
وهما كتاب الله أعدل حاكم ... فيه الشفا وهداية الحيران

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحـاكم الثاني كـلام رسـوله ... ما ثـم غيـرهمـا لـذي إيمـــان
فإذا دعـوك لغير حكمهـما فلا ...سمعا لداعي الكفر والعصيان
قل لا كـرامـة لا ولا نُعْمَى ولا...طـوعا لمـن يـدعـو إلى طغيان
وإذا دعيت إلى الرسـول فقل لهم سمعا وطوعا لست ذا عصيان
وإذا تكاثـرت الخصوم وصيحوا فاثبت فصيحتهم كمثل دخان
يرقى إلى الأوج الرفيـع وبعده ..يهوي إلى قعر الحضيض الداني
هذا وإن قتال حـزب الله بالــ ... أعمـال لا بكتائب الشجعان
والله مـا فتحوا البــلاد بكثـرة... أنـى وأعْـَداهُم بـلا حسـبان
وكذاك ما فتحوا القلوب بهذه الـآراء بـل بـالـعـلـم والإيـمان
وشجاعة الفرسان نفس الزهد في...نفس وذا محذور كل جبان
وشجاعة الحكام والعلماء زهــد في الثنـاء مـن كل ذي بطلان
فإذا هما اجتمعا لقلب صادق ... شُـدَّت ركـائـبـه إلى الـرحمن

٢- **هِجْرةٌ بمعنى ترك المعاصي، واعتزالها واعتزال أهلها**: وهذه تكون قلبية وبدنية، ومنه حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قال: قَالَ النَّبِيُّ r :"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ". متفق عليه.

٣- **الهجرة بالبدن**: وهذه تنقسم إلى أقسام:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ- الهجرة من بلاد الكفر والشرك إلى بلاد الإسلام، وهذه فرض، وهي التي تحدث عنها المؤلف، ومن هذه الهجرة ما حصل من أصحاب الكهف، أولئك الفتية الكرام البررة الموحدين الخُلَّص المُخْلِصِين المُخْلَصِين.

الحكم العظيمة من الأمر بالهجرة من بلاد الكفر:

واعلم رحمك الله، أن الحِكَمَ والعلل التي لأجلها أمر الله تعالى بهذه الهجرة، كثيرة جدا، وليس كما يتوهم البعض، أنها فقط مسألة إمكانية إظهار الدين من عدمه، فمنها:

أولها: لأن في بقائه بين المشركين تكثيرا لسوادهم.

ثانياً: أن في بقائه ذلاً له في دينه، والله تعالى يقول:{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}.

ثالثاً: أنه سيجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، والله تعالى يقول:{ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً}، فالماكث بين ظهرانيهم، سيضطر إلى التحاكم إلى طواغيتهم، والعمل تحت أيديهم، فيتسلطون عليه، وقد نهى الله جل وعلا أن يذل المؤمن نفسه،بل أمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا هم الأعلون.

رابعاً: أنه سيرى الكفر والكافرين، وشعائر المشركين، وسيسمع أذية الله وسبه صباح مساء، والنيل من الإسلام والمسلمين، ولن يحرك ساكناً؛ لكونه مضطهدا، وكفى بهذه مذلة ومهانة.

خامساً: أنه غالبا ما سيقع في التشبه بهم، ولو على الأقل في لباسهم وهيئتهم، والنبي r يقول كما في مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة وهو في سنن أبي داود وسكت عنه، فهو صالح عنده كلهم من طريق حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي مُنِيبٍ الْجُرَشِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم):[وأيضا مما هو صريح في الدلالة ما روى أبو داود في سننه حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا أبو النضر يعني هاشم بن القاسم حدثنا عبد الرحمن بن ثابت حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله r :"من تشبه بقوم فهو منهم" وهذا إسناد جيد[1] ....إلى أن قال: وهذا الحديث أقل أحواله، أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم}، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال:(من بنى

---

١ - قال ابن تيمية في نفس الموضع من الكتاب:[فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال هم من رجال الصحيحين وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله العجلي ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم هو ثقة وقال أبو حاتم هو مستقيم الحديث، وأما أبو منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي هو ثقة وما علمت أحدا يذكره بسوء وقد سمع منه حسان بن عطية وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث].ا.هـ.

وقال في موضع آخر من اقتضاء الصراط المستقيم:[وقال المروزي سألت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل عن حلق القفا فقال هو من فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة)، فقد يحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك، الذي شابهم فيه، فإن كان كفرا أو معصية أو شعارا للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك]ا.هـ.

سادساً: سيضعف وازع الإيمان في قلبه حتى على مستوى الشركيات والكفريات؛ لأن كثرة الإمساس تفقد الإحساس؛ ولهذا أوجب الشارع الخروج من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، إلا من كان مستضعفاً ولا يجد إلى الخروج سبيلاً، ولهذا احتج المؤلف بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا}. **والراجح** أن الآية على عمومها، تشمل القادر على إظهار دينه وغيره.

سابعا: أن في بقائه بين الكافرين، تقوية لهم على كفرهم، فإن العبد غالبا ما يبقى بينهم لرغبة في دنياهم، فيرى الكفار أنهم خير من المسلم حالا، مما يزيد في طغيانهم على الحق وتمردهم عليه.

ثامنا: إمكانية أن يقتل إذا أغار المسلمون على ديار الكافرين، وهو السبب في ذلك.

ب- هجرة من بلاد المعصية إلى بلاد الطاعة، ودليل هذا النوع قصة الرجل التي في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ r قَالَ:"كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَّ فَاعْبُدِ اللهَّ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله . وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ".

ج- **الهجرة من بلد البدعة إلى بلد السنة**، وهذه يمكن الاحتجاج لها بقوله تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم .... الآية}، ويحتج لها بالحديث المتقدم أيضاً.

د- **الهجرة إلى طلب العلم**، كما فعل موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، ومن ذلك ما وقع من الصحابة والسلف الصالح، وهذا أكثر من أن يحصر.

هـ- **الهجرة لنصرة الدين وإرساء قواعده ونصرة المظلوم**، ومن ذلك ما حصل من ذي القرنين t ورحمه.

<u>ضابط هام</u>: **وضابط النوع الثاني والثالث**، أن لا يكون قادراً على التغيير والدعوة والإصلاح، ويخشى على نفسه الضرر في دينه، فإن كان بعيداً من هذا كله؛ فالأولى أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يبقى ببدنه داعياً إلى الله صابراً على الأذى، وفي نفس الوقت يهاجر بقلبه إلى الله ورسوله، فالبدن مع الناس، والقلب معلق بالمحل الأعلى، وهذه التي تسمى باعتزال المبادئ، فمبادئه معه، هو ثابت عليها، وإن كان مع الناس ببدنه، يدعو إليها، ويظهرها، ولا يداهن فيها، ولا يلبس الحق بالباطل.

الهجرة العكسية:

و- الهجرة المحرمة وهي التي وللأسف الشديد قد كثرت في هذا الزمان، وهي الهجرة العكسية، أي عكس ما تقدم ، وذلك بأن يهاجر من بلد الإسلام إلى بلد الكفر، أومن بلد الطاعة إلى بلد المعصية، أو من بلاد السنة إلى بلاد البدعة؛ جرياً وراء الحياة وشهواتها الزائلة الزائفة، غير آبه لدينه ولا ما يجري عليه، وهذا يخشى عليه من قول النبي r الذي في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ ".

ولا يغني عن هؤلاء التَّحَجُّجُ بطلب العلم ونحو ذلك، فإن علما دنيويا يكون سببا لفساد الدين، والتعرض لعقوبة الله تعالى، يجب تركه والبعد عنه، وإياك أن تحتج بما أخرج الترمذي وغيره وعلقه البخاري في الصحيح عن زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله r أن أتعلم له كتاب يهود قال:"إني والله ما آمن يهود على كتاب: قال فما مر بي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نصف شهر حتى تعلمته له قال فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم. قال الترمذي:هذا حديث حسن صحيح.

فإن هذا الخبر، أولا فيه انتقاء لا تعميم، فالنبي r انتقى من بين أصحابه، ولم يأمر الأمة بذلك، ثم إنه انتقى أحد العلماء من أصحابه، ثم إن المنعة والغلبة كانت للمؤمنين، ثم إن الأرض والديار كانت ديار المسلمين، واليهود يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وآخرون في عهد، والغلبة على كل حال للمسلمين، وكلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فأين هذا من الذهاب إلى بلاد الكفار، وللكفار فيها المنعة، والغلبة، وكلمة الكفر هي السائدة هناك، إلى غير ذلك من ألوان الضلال والانحراف، لا شك أن هذا من أفسد أنواع القياس والاحتجاج.

وأما الحال للمريض الذي لا يجد علاجا إلا في بلاد الكفار، فإنه يجب أن يرسل معه أحد العلماء أو طلبة العلم؛ حتى لا يذهب ليعالج بدنه؛ فيتلف قلبه، فيكون موته بمرضه مع سلامة معتقده، خيرا له من حياته بقلب ميت أو سقيم، وعلى كلٍ فالذهاب إلى بلاد الكفر، هو من أضيق الأبواب في الإسلام، والمقصود هو المفاصلة التامة والمفارقة لأعداء الله.

قوله:(وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلام، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)، بعد أن بين المؤلف معنى الهجرة، - وكما تقدم أنَّ قصد المؤلف النوع الذي هو فريضة -، جاء الدور على بيان حكم هذا الانتقال من بلد الكفر إلى بلد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسلام، فبين أنها فريضة، فليست هي محلا للمساومات، وضرب الأمثلة، بل تتعين المسارعة إلى القيام بهذه الفريضة، ولو كلف العبد ذلك أن يتنازل عن حطام هذه الحياة الدنيا، التي يراها أو يجدها في بلا الكفر والكافرين، واليوم الأمر بخلاف ذلك والعياذ بالله، فقد حصلت الهجرة العكسية، من بلاد المسلمين إلى بلاد الكافرين، وفرح بذلك فئام من المسلمين، وآخرون يتطلعون لذلك، والواحد منهم إذا حصل على تأشيرة دخول إلى بلاد الكفر، أو عقد عمل، أو ما يسمى بـ (الجِرِين كَارْد)، فرح وتهلل وجهه، ودعا أصحابه إلى وليمة، بل لربما إلى حفلة، عياذا بالله من الخذلان والفتنة.

قوله: (**وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**)، بيان أن هذا هو دين الله تعالى وحكمه باق، لا يتغير بتغير العوامل والظروف، فإن هذه الفريضة باقية، مهما أرغى وأزبد الأعداء، وأعوانهم من المنافقين، وعباد الحياة الدنيا.

قوله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً**})، الآية تحكي حالة أقوام ظلموا أنفسهم، حتى نزل الموت بساحتهم، ولم يتوبوا إلى الله تعالى، وأن الملائكة توبخهم وتقرعهم وتعنفهم، وأنهم متوعدون بجهنم وساءت مصيرا، فما هو هذا الظلم الذي أوقع هؤلاء في هذه الورطة العظيمة، والمحنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشديدة، والعقوبة الغليظة؟، إنه المقام بين ظهراني الكافرين، والمكث في بلادهم، بلا عذر شرعي معتبر عند الله تعالى.

ومعنى الآية إذا: أن من لم يهاجر من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، مع القدرة على ذلك؛ فإنه قد أحب المُقَامَ بين أعداء الله ورسوله، وأنه أَلِفَ النظر إليهم والعياذ بالله، وهذه من علامات النفاق، ولهذا سيموت ظالماً لنفسه، وتوبخه الملائكة عند موته فبئست الخاتمة، إضافة إلى ما توعده الله جل وعلا به من النار والنكال، ثم استثنى الله جل وعلا المستضعفين، وهم أصحاب الأعذار المعتبرة شرعا، التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة وتعامل سلف الأمة.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابْن عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله r يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ اللهُ: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} الْآيَةَ.

قلت: والمعنى أي لا تعبئوا بهم، فإنهم القوم رضوا بأن يكونوا مع المشركين، يساكنونهم ويكثرون سوادهم، حتى خرجوا معهم في صفوف القتال فلا تأسفوا عليهم، كاليوم كذلك يخرج بعض المعتنقين للإسلام، في جيوش الكافرين أمريكا وغيرها، ليقاتلوا المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، ولاشك أن هذه مظاهرة ورِدَّةٌ، ناهيك عن الانخراط تحت النظام الكفري الطاغوتي، والدفاع عنه وعقد الولاء فيه، وتأدية القسم، على التفاني في خدمته وحمايته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في تفسير ابن كثير:[هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} أي:بترك الهجرة {قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ} أي:لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ {قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرْضِ} أي:لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض {قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً [فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}.وقال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثني يحيى بن حسان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله r :"من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله" .وقال السدي: لما أسر العباس وَعقِيل ونَوْفَل، قال رسول الله r للعباس:"افد نفسك وابن أخيك " قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلتك، ونشهد شهادتك؟ قال: " يا عباس، إنكم خاصمتم فخُصمتم". ثم تلا عليه هذه الآية:{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً [فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} رواه ابن أبي حاتم.

وقوله:**{إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ [مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا}**، هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال:{لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} قال مجاهد وعكرمة، والسدي: يعني طريقا.وقوله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ} أي: يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة {وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا}.قال البخاري : حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا شَيْبَان، عن يَحْيَى، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هريرة قال: بينا النبي r يصلي العشاء إذ قال:"سمع الله لمن حمده" ثم قال قبل أن يسجد "اللهم نَج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نَج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كسِنِيِّ يوسف".....وقال البخاري : أنبأنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن ابن عباس: {إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ} قال:كانت أمي ممن عَذَر الله عز وجل]ا.هـ.

هذه الهجرة فريضة على المتمكن وغير المتمكن من إظهار دينه:

واعلم رحمك الله تعالى، أنه لا فرق في فَرَضِيَّةِ هذه الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، بين المتمكن من إظهار دينه وغير المتمكن، إذ المقصود الأعظم من هذه الهجرة، ترك هذه الأرض التي يشرك فيها بالله تعالى، والبراءة من أهلها، مع بغضهم والكفر بهم، فالمؤمن مطالب أن يأوي إلى المؤمنين، وأن يساكنهم ويكثر سوادهم.

ولم تستثن الآية إلا العاجزين عن هذا الانتقال، ولم تُعَلِّق الحكم على القدرة الفردية على إظهار الدين من عدمه، فتنبه لهذا المعنى الجَلَل، فإنه مقام خطير، ومَزْلَقٌ وَخِيم، تَعَلَّلَ به أقوام؛ لِيُبَرروا مُكُوثَهم بين ظَهْرِانَي المشركين، بل وبعضهم هاجر إلى بلاد الكفر من بلاد الإسلام، طمعا في الدنيا، تحت هذه الدعوى الضالة المنحرفة، عياذا بالله من الخلان والهوان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}، هذا نداء من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين، ناداهم باسم العبودية، التي تقتضي توحيد الله وبغض المشركين، وأعداء الملة والدين ورسول رب العالمين، ألا يجاورا المشركين في بلدانهم، وألا يساكنوهم في أوطانهم، فإن من فعل هذا مختاراً مع القدرة على خلافه، دل ذلك على حبه لهم، وموالاته إياهم، وركونه إليهم، وهذا ينافي التوحيد، القائم على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، ولهذا ناداهم الله جل وعلا باسم الإسلام والإيمان؛ لكي يتذكروا حقيقة الإيمان، وأن ضده الكفر، وأنه لا يجتمع الإيمان والكفر بحال، ولهذا قال تعالى:{إن أرضي واسعة}، أي اخرجوا من هذه الديار الكافرة، التي عشش فيها الشيطان وفرخ،وهاجروا في أرضي الواسعة، ابتغاء مرضاتي، وتحقيقاً للكفر بالطاغوت، المستلزم لمحبة الله جل وعلا، ولهذا قال بعدها {فإياي فاعبدون} أي إن حقيقة العبودية تتنافى مع البقاء بين ظهراني المشركين وحبهم وحب ديارهم، التي يظهرون فيها عزهم بكفرهم، ويرفعون شعارات الطاغوت، ويحاربون الله ورسوله، كيف يرضى المؤمن مساكنة أمثال هؤلاء، فالعبادة لا تسمى عبادة إلا بالإيمان بالله والكفر بالطاغوت، قال تعالى:{لا تجد قوماً يؤمنون الله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله}، وإن من فضّل البقاء بين المشركين؛ لزخرف الحياة الدنيا؛ فإنه قد اشترى العاجلة وباع الآخرة، والله يقول:{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار}، ويقول:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء:١٣٨-١٤٠]، فعّرض الله جل وعلا بهذا الصنف من العباد بالنفاق، إذ لا يجالس الكافرين حال كونهم مستهزئين بالدين، كافرين برب العالمين، إلا وفي قلبه خبيئة سوء، ودخن ومرض، وسيخرج الله أضغانهم، ولهذا فإن عامة الذين يبقون بين أظهر المشركين يتأثرون بهم، والناس في ذلك درجات بحسب الإيمان، فمنهم من بلغ به التأثر أن تشبه بهم في لباسهم، ومنهج حياتهم،ومنهم من بلغ به التشبه والتأثر أقصى درجاته وغاياته، حتى كفر بالله العظيم، ومنه من هو دون ذلك، ومنهم من بلغ به الحال أن يدافع عنهم، ويفتتن بحياتهم، ويتمدحهم؛ ولهذا حرم الإسلام مجرد المشابهة في الظاهر؛ لأنها تورث مودةً في الباطن، فكيف بمن ساكنهم في ديارهم، تجري عليه أحكام الطاغوت، ويخضع للطاغوت، ويتحاكم إلى الطاغوت، وهو ذليل صاغر في دينه، خائف على نفسه، لا شك أن هؤلاء داخلون في جملة الخطاب في الآية المتقدمة ممن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمون لأنفسهم، فبئست الخاتمة، وبئس المولى وبئس العشير.

جاء في تفسير ابن كثير:[{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}، وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و أخروي، يتخذونها {هُزُوًا وَلَعِبًا} يستهزئون بها، {وَلَعِبًا} يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد]ا.هـ.

قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.نادى اللهَّ جلَّ وعلا عباده المؤمنين، وأكّد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دلّ عليه تقديم المعمول الذي هو إياي؛ كما بيّناه في الكلام على قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربّهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول اللهَّ r والمسلمون]ا.هـ. ولهذا جاء في الحديث الذي في مسند أحمد ومستدرك الحاكم وسنن النسائي واللفظ له عن بَهْزَ بْنَ حَكِيمٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ الله مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِنَّ لِأَصَابِعِ يَدَيْهِ أَلَّا آتِيَكَ وَلَا آتِيَ دِينَكَ وَإِنِّي كُنْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللهُّ وَرَسُولُهُ وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ الله عَزَّ وَجَلَّ بِمَا بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا قَالَ:"بِالْإِسْلَامِ" قَالَ قُلْتُ وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ قَالَ:"أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَتَخَلَّيْتُ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُشْرِكٍ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ". وسنده جيد. وراجع تفسير عبد الرزاق وابن أبي حاتم على قوله تعالى:{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}، لتعلم عمومها للجميع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي رواية لعبد الرزاق في مُصَنَّفِهِ وهي في المعجم الكبير للطبراني واللفظ له قَالَ:"تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله r ، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتُفَارِقُ الشِّرْكَ، وَإِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ مِنْ بَعْدِ إِسْلامِهِ عَمَلاً..". وهو في سنن ابن ماجه بلفظ مقارب له، وسلسلة بهز، صححها ابن معين وأحمد وإسحاق وغيرهم، وروى عنه شعبة، وهو خبر صالح المعنى، إذ من لوازم الإيمان تحقيق عقيدة الولاء والبراء، ومن أظهر ذلك مفارقتهم.

فانظروا كيف عَلَّقَ قبول الأعمال من هذا المسلم الجديد على هجرته إلى بلدٍ مسلم، والآيات والأحاديث في هذا المعنى أكثر من أن تُحْصَر، وأظْهَر مِن أنْ تُنْكَر.

وفي سنن البيهقي باب كَرَاهِيَةِ الدُّخُولِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي كَنَائِسِهِمْ وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ يَوْمَ نَيْرُوزِهِمْ وَمِهْرَجَانِهِمْ: ثم ذكر حديثا سنده جيد من طريق عَوْفٍ عَنِ الْوَلِيدِ أَوْ أَبِي الْوَلِيدِ[1] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو t قَالَ:"مَنْ بَنَى بِبِلاَدِ الأَعَاجِمِ وَصَنَعَ نَيْرُوزَهُمْ وَمِهْرَجَانَهُمْ وَتَشَبَّهَ بِهِمْ حَتَّى يَمُوتَ وَهُوَ كَذَلِكَ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

سيخلف الله لك خيرا أيها المهاجر إليه:

وقد وعد الله تعالى من يهاجر في سبيله، ويترك أرض الكافرين؛ لأجل الله تعالى، والمحافظة على الدين، أن الله تعالى سيخلف عليه خيرا، ويرزقه رزقا حسنا، وسيجعل

١ - هو صدوق وقد ذكره الإمام الثقة يعقوب بن سفيان في ثقات البصريين، فلا يضره قول أبي حاتم عنه:إنه مجهول، فإن من عرف حجة على من لم يعرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له فرجا ومخرجا، وإن مات فقد وقع أجره على الله،كما قال تعالى:{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١٠٠].

وتأمل في هذه الآية الكريمة:{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠].

مسألة: ما حكم الهجرة؟، وما حكم الدار؟، إذا كان أكثر أهلها من مسلمين، وغلب على حكمها المنافقون، بمعنى هل إذا كان الغالب على البلد أهل الإسلام، وهي في الأصل أرض للمسلمين، فغلب عليها المنافقون، فلبسوا دين الله تعالى، وحكموا الناس بالطاغوت، قهرا وظلما، هل يلزم الخروج منها أم لا؟.

الجواب: لا يلزمهم الخروج منها إلا إن تعذر عليهم إقامة الصلاة، وإظهار الدين، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ودعوة إلى الله، وأما المنافق، فإن الواجب السعي في إزالته بعد بذل النصح والدعوة له، لا الخروج من ديار المسلمين، وقد مرت بالأمة أحوال مثل هذه، فلم يأمر السلف الناس فيها بالخروج والهجرة من بلادهم، كما جرى مع أهل العراق أيام الحجاج، فقد كان جماهير السلف يرون كفر الحجاج، ومع ذلك لم يأمروا الناس بالهجرة، وكذلك في زمان الإمام أحمد، أظهر الخليفة مقولة كفرية بالإجماع، ألا وهي القول بخلق القرآن، وامتحن الناس على ذلك، ومع ذلك لم يخرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإمام أحمد، ولم يفت العلماء الناس بالهجرة، إلى أمثلة أخرى على هذا النسق، فلابد أن نستصحب حالة السلف؛ لنتصور المسائل الشرعية على وجهها. والله أعلم.

وهنا أدلة تدل على هذا الأصل، فمنها حديث حذيفة المخرج في الصحيحين، في ذكر أحوال الأمة وفيه:(قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ:"نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ:"هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ:"تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ، قَالَ:"فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ". فالنبي r لم يأمره بالهجرة، وإنما أمره بالاعتزال، حتى لو اضطر إلى أن يلجأ إلى الشجر.

ومثله كذلك قول النبي r :"وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ الله فِيهِ بُرْهَانٌ"، وهو في الصحيحين من حديث عبادة t .

فهنا أيضا لم يأمرهم بالهجرة، وإنما أمرهم بالجهاد، إن أمكن، وإلا فيسعى المؤمنون في الدعوة والبيان، وفضح الطاغوت، حتى يأذن الله بالفرج، وهذا هو تعامل السلف كما تقدم.

لا اعتبار شرعا للحدود الطاغوتية:

واعلم أرشدك الله، أن مسألة الهجرة لا تتعلق بالحدود الوهمية التي وضعاها المستعمر الجاهلي الكافر، فليست الهجرة خاصة بالانتقال من قطر إلى قطر، بل إذا خرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبد من قرية إلى أخرى، سُمِّيَ مهاجرا، المهم أن لا يكون للطاغوت عليه سلطان، وأن يكون مستعلنا بدينه، يعبد ربه على بصيرة، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، هذا هو الحال في مثل هذه البقاع من الأرض التي يكون فيها أهلها الأصل فيهم الإسلام، ثم يتسلط عليهم أهل النفاق، والطغيان، ولا حيلة لهم في دفعه.

كيفية الحكم على الديار:

واعلم رحمك الله، أن الحكم على الديار يكون باعتبار حالها، من جهتين، من جهة الحكم فيها، ومن جهة أهلها، فإن كان الغالب على أهلها الإسلام، وتسلط منافق فحكم الدار بالطاغوت، زاعما أنه ما أراد إلا إحسانا وتوفيقا، فلا يجوز أن يطلق عليها أنها دار كفر بإطلاق، بل لابد من التقييد والبيان، والعكس كذلك، وإن كان هذا نادرا، أن يكون الغالب على أهل الدار الكفار من يهود أو نصارى مثلا، والحاكم مسلم يحكم البلاد بالشريعة، فلا يجوز إطلاق أنها دار كفر بإطلاق، بل لابد من التفصيل والبيان.

وبالاستفصال يزول الإشكال، فإن قال هي دار كفر باعتبار، حكامها والحكم المطبق فيها؛ فقد أصاب، ولكن ليست هي دار كفر باعتبار أهلها، والعكس بالعكس. والله أعلم.

فائدة: استنباط متعلق بمناسبة ذكر آيات القتال، عقب آيات التشريع والحاكمية، في سورتي النساء والمائدة، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٠ - ٦٥]....إلى أن قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء:٧١-٧٦].

وقال في سورة المائدة:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٤٩-٥٠].....إلى أن قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

فإن في ذلك بيانا واضحا من الله تبارك وتعالى، أن من أشرف من تُسَلُّ فيه سيوف الجهاد في سبيل الله، هو إحياء هذه الشعيرة العظمى، وإقامة حق الله تعالى بالتشريع والحكم في عباده، فمهما كانت ثمة شوكة ضاربة؛ تَعَيَّنَ على المسلمين السعي في اجتثاث طواغيت التشريعات الجاهلية؛ حتى يكون الحكم لله وحده، كما أن العبادة لله وحده، ومن هنا كان قول النبي r :"وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ" متفق عليه من حديث عبادة t .

فصل في بيان أحكام التشبه باليهود والنصارى والكفار والأعاجم

مسألة: هل يجوز التشبه باليهود والنصارى والأعاجم على وجه العموم؟.

الجواب: هذا ينقسم إلى قسمين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم الأول: ما كان من خصائصهم، فهذا يحرم التشبه بهم فيه، سواء في أعيادهم أو شعاراتهم أو مناهج حياتهم أو لباسهم.

القسم الثاني ما ليس من خصائصهم ، فهو ينقسم إلى قسمين:

أ- ما يمكن الاستغناء عنه، ببديل مناسب، فهذا الأولى المصير إليه، حسما لمادة التشبه بهم، وإن كان مباحاً في أصله؛ لأنه ليس من خصائصهم.

ب- ما كان مشتركاً بيننا وبينهم، ولم يكن في يوم من الأيام من خصائصهم، ولا نجد له بديلاً، فهذا جائز ولا حرج فيه.

مسألة: ما حكم التشبه في اللباس بأهل الكتاب والمشركين والأعاجم؟.

الجواب: على ما تقدم تفصيله، فما كان من خصائصهم، ولو في سالف الزمن؛ فيحرم، وما كان مشتركاً ولم يكن من خصائصهم في يوم من الدهر جاز،كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ رَأَى النَّبِيُّ r عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ فَقَالَ:"أَأُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا". قُلْتُ أَغْسِلُهُمَا. قَالَ:"بَلْ أَحْرِقْهُمَا"، وفي رواية له:"إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلاَ تَلْبَسْهَا"، والأعاجم وإن كانوا مسلمين فإنه يحرم التشبه بهم فيما هو من خصائصهم، وللأسف ترى بعض الصالحين فَرَّ من لباس الكفار، فلبس لباس العجم من بلاد الهند والسند وباكستان وأفغانستان وبنجلاديش وغيرهم من الأعاجم، وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منهي عنه أيضا١،كما في مسند أحمد وصحيح ابن حبان من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب t أنه قال:"اتزروا وارتدوا وانتعلوا والقوا الخفاف والسراويلات والقوا الركب وانزوا نزوا وعليكم بالمعدية وارموا الأغراض وذروا التنعم وزي

---

١ - وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن البراء بن عازب قال:"نهانا النبي r عن الْمَيَاثِرِ الْحُمْرِ وَالْقَسِّيِّ ". قال أبو عبيد في غريب الحديث:[وأما المياثر الحمر التي جاء فيها النهي فإنها كانت من مراكب الأعاجم من ديباج أو حرير]ا.هـ. قال شيخ الإسلام في الاقتضاء:[قال محمد بن أبي حرب: سئل أحمد عن نعل سندي يخرج فيه . فكرهه للرجل والمرأة وقال : إن كان للكنيف والوضوء وأكره الصرار. وقال : هو من زي العجم. وقد سئل سعيد بن عامر عنه فقال : سنة نبينا أحب إلينا من سنة باكهن .وقال في رواية المروذي وقد سأله عن النعل السندي فقال : أما أنا فلا أستعملها، ولكن إن كان للطين، أو المخرج فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا ورأى على باب المخرج نعلا سنديا فقال : يتشبه بأولاد الملوك. وقال حرب الكرماني:قلت لأحمد: فهذه النعال الغلاظ؟ قال:هذه السندية قال:إذا كان للوضوء، أو للكنيف، أو لموضع ضرورة فلا بأس. وكأنه كره أن يمشي فيها في الأزقة قيل: النعل من الخشب. قال:لا بأس بها أيضا إذا كان موضع ضرورة. قال حرب: حدثنا أحمد بن نصر حدثنا حبان بن موسى، قال:سئل ابن المبارك عن هذه النعال الكرمانية فلم تعجبه وقال:أما في هذه غنية عن تلك؟. وروى الخلال عن أحمد بن إبراهيم الدورقي قال:سألت سعيد بن عامر عن لباس النعال السبتية فقال:زي نبينا أحب إلينا من زِيِّ بَاكَهَن ملك الهند، ولو كان في مسجد المدينة لأخرجوه من المدينة.

سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علما ودينا، من شيوخ الإمام أحمد قال يحيى بن سعيد القطان وذكر عنده سعيد بن عامر فقال: هو شيخ المصر منذ أربعين سنة. وقال أبو مسعود بن الفرات: ما رأيت بالبصرة مثل سعيد بن عامر].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العجم وإياكم والحرير فإن رسول الله r قد نهى عنه وقال لا تلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا وأشار رسول الله r بأصبعيه" وسنده جيد.والله أعلم.

علة فاسدة تنهدم بها قاعدة النهي عن التشبه بالكفار والأعاجم:

مسألة: ما حكم إذا شاع لباس المشركين الذي هو من خصائصهم بين المسلمين حتى صار الأكثر يستعمله؟.

الجواب: ليس المعيار في الشرع بالكثرة، وإنما العبرة باتباع الكتاب والسنة، فطالما أن اللباس كالبنطال أو الكرفتة أو البرنيطة مثلا، هو سمة من سمات القوم الكافرين؛ فهو تشبه، وللرد على شبهة المتذرعين بفعل الأكثر من المسلمين، ظانين أن هذا يخرجه عن كونه تشبهاً، بحيث يصبح جائزاً بين المسلمين، نذكر آية وحديثا من فَهِمَهُما؛ عرف حقيقة الأمر: أما الآية فقوله تعالى:{وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون}، فهذا الآية تقرر أن الأكثر دائماً، وليس غالباً، على الضلال، وأنهم يفعلون ما يفعلون ليس بناءً على العلم الصحيح، واتباعا للكتاب والسنة، بل على الظن و الخرص والهوى، فاستصحب هذا المعنى في ذهنك.

وأما الحديث فهو ما جاء في الصحيحين من حديث أَبِي سَعِيدٍ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا الحديث يقرر سنةً قدرية كونية، وأنها واقعة لا محالة، وهي أن هذه الأمة ستأخذ مأخذ الأمم السابقة، وستتبع هدي اليهود والنصارى، ومن هنا نخلص بالحقيقة العامة،التي بينتها تلك الآية وهذا الحديث، وهي أن أكثر هذه الأمة سيكون على الضلال، وسيتبعون اليهود والنصارى، والمعنى أنه كلما ظهر أمرٌ في اليهود والنصارى.

ولا شك أن اللباس من ذلك؛ سيبادر الأكثر إلى اتباعهم؛ لأنهم لا حلم ولا علم، فما هو إلا الخرص والظن واتباع الهوى؛ وبالتالي، فلو قلنا بهذا القول، وهو أنه كلما فشا الأمر بين المسلمين وشاع مما هو من خصائص الكفار جعلناه جائزاً بدعوى فُشُوِّه.

فإن هذه المقولة ستهدم قاعدة التشبه بالكلية؛ لأن الأكثر كما تقدم نصا على الضلال، والأكثر كذلك سيتبعون اليهود والنصارى، وبالتالي فلا تشبه محرم بالكلية، ولاشك أن هذا باطل واتباع محض للهوى، وتخبط وخرص في دين الله جل وعلا.

الهيئات معتبرة:

واعلم رحمك الله، أن التأثير في هذا الباب للهيئات، وذلك لأن بعض أهل العلم ينظر إلى أصل الملبوس فيقول مثلا: السروال مشروع، والبنطال سروال كذلك؛ فيجوز، وهذا لا شك أنه خلل واضح في تصور هذه المسألة، فإننا نقول لهم، فبهذا الاعتبار إنه لم يزل الناس يلبسون ما يستر أسفلهم وأعلاهم ورؤوسهم، وعليه فكل ما ستر الإنسان فلا تشبه فيه، أهذا مقبول شرعا؟!؛ إذا لانهدمت مادة التشبه على الإطلاق، ولهذا نقول إن الاعتبار بالهيئات هو الأصل في هذا الباب، فلو لبست المرأة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثوبا، هَيْئَتُهُ رجالية، ووضعت فيه وُرُوداً مثلا، فهل ستخرج بذلك عن كونها قد لبست لبسة الرجال؟!، والعكس كذلك، لو لبس رجل فستان النساء، وأزال ما فيه من الورود والأشكال، فهل سيخرج عن كونه متشبها بالنساء، ولاحظ أن الكل قد ستر بدنه؟!!.

والعجيب أن بعضهم إذا سئل عن البُرنيطة، قال هذا تشبه فهو حرام، مع أنه على قاعدته فإن البرنيطة كالقلنسوة (الطاقية) تستر الرأس، وعليه فنعود لنؤكد أن المعتبر هي هيئة اللباس، وأنه وإن اشترك لباس الكفار مع لباس المسلمين في الستر لجزء ما من البدن، فتبقى الهيئة هي المؤثرة في الحكم. فتنبه لهذا فإنه نافع ومفيد في بابه.

ولنتذكر هذه الآيات المباركات التي نرددها في كل يوم مرات ومرات: قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦-٧]، فالمؤمنون لهم صراط، وكذلك لهم سِيمَا، وهديا، يتميزون به عن أهل الكفر والإلحاد، من المغضوب عليهم والضالين، فاعمل على تحقيق ذلك، بأن تكون من الصادقين في مسألتك الله تعالى، أن يهديك هذا الصراط، المُزَكَّى، المبارك.

الخطأ على الإمام مالك في ذلك:

وأما من احتج بأن الإمام مالكا قال بجواز ارتداء لباس الكفار إذا شاع بين المسلمين، فهذا قول باطل على الإمام مالك، إذ أن الإمام مالكا لم يصرح بهذا مطلقا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد كان كغيره من الأئمة يشددون في هذا الباب، ولكن البعض فهم من كلامه هذا؛ فأخطأ وأبعد النجعة، وإليك ما نُقِل عنه في ذلك، وهو ما جاء في فتح الباري لابن حجر:[وَقَدْ كَرِهَ بَعْض السَّلَف لُبْس الْبُرْنُس لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ لِبَاس الرُّهْبَان، وَقَدْ سُئِلَ مَالِك عَنْهُ فَقَالَ: لَا بَأْس بِهِ. قِيلَ: فَإِنَّهُ مِنْ لُبُوس النَّصَارَى. قَالَ: كَانَ يُلْبَس هَاهُنَا. وَقَالَ عَبْد اللَّهِ بْن أَبِي بَكْر: مَا كَانَ أَحَد مِنْ الْقُرَّاء إِلَّا لَهُ بُرْنُس].ا.هـ.

ثم نقول وبكل صراحة، هذا النقل لا يوجد في كتب الإمام مالك، بل لم أجده عن أصحابه المتقدمين عنه، فلعل وهما حصل في النقل، أو يكون كما هو حال كثير من المنقولات عن الأئمة، ينقلها البعض عن الأصحاب، ثم تُعْزَى إلى الأئمة خطأ؛ فتصل إلينا على أنها قول للإمام، ولعل هذا ما وقع للحافظ ابن حجر، لأنه كما تقدم هذا النقل لا نجده في كتب مالك رحمه الله تعالى، بل وجدنا خلافه.

ومما يؤكد أن هناك وهما أو تصحيفا حصل، ما جاء في كتاب (البيان والتحصيل) لابن رشد القرطبي وهو من أئمة المالكية، ومن المعتنين بأقوال مالك ومذهبه، قال:[مسألة: وسئل مالك عن الصلاة في البرنس، قال هي من لباس المصلين، **وكانت من لباس الناس القديم**، وما أرى بها بأساً، واستحسن لباسها وقال هي **من لباس المسافر للبرد والمطر**. قال: ولقد سمعت عبد الله بن أبي بكر، وكان من عُبَّادِ النَّاس، وأهل الفضل، وهو يقول: ما أدركت الناس إلا ولهم ثوبان، برنس يغدو به وخميصة يروح بها، ولقد رأيت ناساً يلبسون البرانس، فقيل له ما كان ألوانها؟ قال صفر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال محمد بن رشد: البرانس ثياب مِتَان في شكل الغفائر عندنا مفتوحة من أمام تلبس على الثياب في البرد والمطر مكان الرداء، فلا تجوز الصلاة فيها وحدها إلا أن يكون تحتها قميص أو إزار وسراويل، لأن العورة تبدو من أمامه. **وهذا في البرانس العربية، وأما البرانس الأعجمية فلا خير في لباسها في الصلاة ولا في غير الصلاة، لأنها من زي العجم وشكلهم.** أما الخمائص فهي أكسية من صوف رقاق معلمة وغير معلمة يلتحف بها، كانت من لباس الأشراف في أرض العرب، فقوله برنس يغدوا به، يريد يلبسه على ما تحته من الثياب، وخميصة يروح بها، يعني يلتحفها على ما عليه من الثياب، والله أعلم، وبه التوفيق]ا.هـ..

فتبين من هذا النقل المعتمد من كتب المالكية، أن مالكا أخبر أن هذا من لباس الناس، أي العرب، وهذا ما فهمه ابن رشد، أنها البرانس العربية، وليست الأعجمية، فإن هناك اشتراكا في اللفظ حصل، كما بين هذا النقل أن المالكية يرون الإنكار والتشديد على من تشبه بالأعاجم من روم وفارس وغيرهم، وأنها لا خير فيها. فتأمل.

حكم الألبسة المشتركة التي لم تكن من خصائصهم:

ثم على فرض صحة النقل، نقول بأن الإمام مالك هنا احتج بأن هذا اللباس ليس من خصائص النصارى، بدليل قوله:(كان يلبس ها هنا)، والمقصود بأنه ليس من خصائصهم بل هو لباس شائع عندنا وعندهم، ومن علم طبيعة البرنس، مما تقدم؛ علم يقينا أنه كذلك، فهو من الألبسة المشتركة، التي لا خصيصة لقوم بها دون الآخرين،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن هذا الذي يستطيع أن يزعم أن هذا اللباس كان من خصائص النصارى وأنه كان شعارا لهم، فانتبه رعاك الله.

وكذلك القول في غيرها من الألبسة المشتركة، وهذا قد تقدم الحديث عنه، فالألبسة المشتركة لا حرج فيها كما تقدم، ومنها الجبة، والطيالس، والقلنسوة، ونحوها، فإنها ألبسة يتقى بها الحَر والقَر، ولا تميز لقوم بها دون الآخرين، بدليل أن النبي r كان يلبسها، وفي نفس الوقت كان ينهى عن ألبسة معينة، ويعلل ذلك r بأنها من لباس الكافرين، والمعنى أي مما اختصوا به، فمن ذلك ما جاء في الصحيحين عن البراء t من نهي النبي r عن القِسِّي وهي من مراكب العجم، وكذلك ما تقدم من نهي النبي r عن الثياب المعصفرة، وبين أنها من لباس المشركين، فإذن كان النبي r يفرق بين لباس ولباس، وقد وقع الانتقاء من لباس العرب لأن الشارع جعله هو الأصل، ثم أُمِرَ النبي r باتقاء بعضه، والضابط في ذلك ما كان من خصائص المشركين، وشعارهم.

حتى إن النبي r كان ينهى عن بعض الهيئات في الصلاة؛ خشية المشابهة للكفار، كما في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ اشْتَكَى رَسُولُ الله r فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَآنَا قِيَامًا فَأَشَارَ إِلَيْنَا فَقَعَدْنَا فَصَلَّيْنَا بِصَلاَتِهِ قُعُودًا فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ:"إِنْ كِدْتُمْ آنِفاً لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلاَ تَفْعَلُوا ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِكُمْ إِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا وَإِنْ صَلَّى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى كل فالأدلة صريحة في أن التشبه بأهل الكتاب والمشركين والأعاجم لا يجوز مطلقاً، ولو وقع فيه من وقع من الصالحين، فالعبرة بالحق لا بالرجال، و الكتاب والسنة يقضيان على أقوال الرجال وأفعالهم، وليست أقوالهم وأفعالهم قاضية على الكتاب والسنة، فإنما نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال، وهذا هو الراجح في هذه المسألة التي عمت وطمت، وزلت فيها أقدام، وليت شعري هل يرضى أحد العلوج الكافرين، أن يلبس لباس المسلمين، فلو أتينا بأحد كبرائهم وعلمائهم أيرضى أن يفتي أهل بلده بأن يلبسوا لباس المسلمين، كلا والله، والواقع خير شاهد؛ لأنهم لا يرضون أصلاً التشبه بنا، لا في قليل، ولا في كثير، إمعاناً منهم في بغض هذا الدين وحَمَلَتِه، وكل من يمت إليه بصلة، من قريب أو من بعيد، واحتقارا لنا وتهوينا من شأننا، فلا أقل من معاملة القوم من جنس ما يعملون، فكيف وقد أمر الشارع بذلك، وأكد وألزم، وأبدى وأعاد، في وجوب مصارمتهم، ومخالفتهم وجهادهم، في كل شيء، صغيرا كان أو كبيرا، مما هو من شعارهم وخصائصهم، فإن المسألة دين وعبادة لله رب العالمين، فنشكوا إلى الله غربة الإسلام بين أهله، والله المستعان.

التشبه لا يسقط بالتَّقَادم ولا بالانتشار والذيوع:

ومن المسائل المهمة التي يجب معرفتها أن قاعدة التشبه مطردة في الماضي والحاضر والمستقبل، **فالتشبه لا يسقط بالتَّقَادم ولا بالانتشار والذيوع**، بمعنى أن كل أمرٍ ثبت أنه من خصوصيات المشركين وشعارهم في زمن من الأزمان، فإن الحكم بالتحريم باق في ذلك الشيء، على المسلمين عموما، فليس كون الشيء اختفى في زمن من الأزمنة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسوغاً للبسه فيما بعد، ولهذا لا يزال السلف كالإمام أحمد وغيره ينهون عن كل ما كان من خصائص الكافرين ولو في زمن مضى. وقد تقدم الإشارة إلى هذا المعنى والمنقولات في ذلك.

ومن المسائل المهمة أيضاً ما عليه بعض المسلمين اليوم، من انتقاد المسلم الذي يتشبه بلباس المسلمين، إذا انتقل إلى غير بلده، كأن يكون مثلاً من أهل مصر فينتقل إلى الجزيرة العربية، فلبس لباس أهل الجزيرة، فتجد بعض المسلمين ينتقد هذا الرجل، ويصفه بأنه إمَّعَة، وأنه لا يعتز بلباس وطنه، ونحو ذلك من الكلام الذي لا يساوي شيئا، بل هو من الضلال المبين، مع أن هذا العبد ما زاد على أن تشبه بالمسلمين في تلك البلاد وبلباسهم، ولو لبس هذا المصري البنطال والبدلة والكرفتة لم ينتقدوه، بل وترى هذا الناقد يرى في بلده من يلبس لباس الكفار، وربما كان هو كذلك لابسا له، ولكنه لا ينتقد ذلك، مع أن هذه الألبسة هي من خصائص المشركين، ولباسهم وهيئاتهم، وهذا من تلبيس إبليس، وإرجاف الشيطان بالعامة، وهذا من جراء العصبيات المذمومة، والتفرقة المقيتة الجاهلية، التي جعلت المسلم يرضى أن يتشبه بالكفار، ولا يرضى أن يتشبه بلباس مسلم مثله في بلد أخرى، فهو أولى بالنقد والإنكار ممن أنكر عليه، ولكن الله المستعان.

النية غير معتبرة في هذا الباب عند إطلاق الوصف:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المسائل الهامة أيضا، أنه لا يلزم في قاعدة التشبه النية ولا القصد، فسواء نوى، أم لم ينو؛ فقد حصل التشبه؛ لأنه من أعمال الظاهر، لا من أعمال القلوب، ولو قصد لكان أشد وأعظم.

ومن المسائل التي ينبغي أن تُعلم حتى لا يشغب بها المبطلون على أصل هذه المسألة، أنه ليس من التشبه، الاستفادة من علومهم وصناعاتهم، التي لا تخالف الشرع، فقد أباح الله لنا صنعتهم من الآنية ونحوها، وهذا ليس خاصا بالآنية بل هو عام في الصناعات كلها، مما لم يأت في الشرع نهي عنها بخصوصها؛ ولهذا استعمل النبي r المنبر، واتخذ خاتما يختم به كتاباته، وأذن باستعمال آنية اليهود والنصارى، بالضوابط المعروفة في كتب الحديث والفقه، إلى غير ذلك، وإنما قلت هذا؛ لأن بعض المخلطين، لبس على الناس بهذه الصناعات، فقال كما أننا نستعمل سياراتهم، وصناعاتهم؛ فيجوز أيضا لباسهم، والتشبه بهم، فمرر بهذا القول الخبيث مسائل التشبه بالكفار؛ فلبس على الناس دينهم، حتى بلغ الحال، إلى قياس الديمقراطية الكافرة المأفونة الملعونة، على الشورى في الإسلام، واختزلوا المسألة في صناديق الاقتراع، وطريقة التصويت، مع أن الديمقراطية دين مستقل، لا يقوم إلا أنقاض الإسلام، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن المسائل الهامة أيضا، أن بعضهم غاير بين قولك التشبه بالكفار، وقولك مخالفة الكفار، وبعضهم لم ير ذلك شيئا، بل جعلوه بابا واحدا، والذين فرقوا قالوا المخالفة تكون في المتروكات، فمثلا اليهود لا يغيرون الشيب بلون آخر، فأمرنا أن نخالفهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بتغيير الشيب وأن نجتنب السواد فهو أحوط لدين العبد، ومن ذلك تركهم لبس الإزار، فنخالفهم، فنتسرول ونَتَّزِر، ومن ذلك أنهم لا يأتون النساء مُجَبِّيات، فأجاز شرعنا ذلك، حتى قالت يهود، مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ، وهو في صحيح مسلم وقد تقدم.

قالوا وأما المشابهة فهي في الأفعال التي يفعلونها ويتميزون بها، أو تكون شعارا لهم، والأمر في ذلك قريب، والكل منهي عنه، والحمد لله رب العالمين، على استبانة السبيل، {وقل رب زدني علما}.

حكم تعلم لغة الكفار:

ومن المسائل كذلك ما يقع اليوم من التوسع في تعلم لغة الكفار، حتى بلغ حد التباهي والتفاخر، وهذا كله من التشبه المذموم، وأما شبهة أمر النبي r صاحبه زيد بن ثابت t أن يتعلم لغة يهود؛ ليقرأ كتابهم، فهذا قد تقدم الرد عليه في حديثي عن الهجرة وأنواعها.

قال شيخ الإسلام في كتابه:(اقتضاء الصراط المستقيم):[واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيرا قويا بينا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية، وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عيسى بن يونس عن ثور عن عمر بن زيد قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري t :"أما بعد: فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن، فإنه عربي".

وفي حديث آخر عن عمر t أنه قال:"تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم"، وهذا الذي أمر به عمر t من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله]ا.هـ.

وقال رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى:[وَمَا زَالَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ تَغْيِيرَ شَعَائِرِ الْعَرَبِ حَتَّى فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهُوَ "التَّكَلُّم بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ" إلَّا لِحَاجَةِ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مَالِك وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد، بَلْ قَالَ مَالِك:مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ.

مَعَ أَنَّ سَائِرَ الْأَلْسُنِ يَجُوزُ النُّطْقُ بِهَا لِأَصْحَابِهَا؛ وَلَكِنْ سَوَّغُوهَا لِلْحَاجَةِ وَكَرِهُوهَا لِغَيْرِ الْحَاجَةِ وَلِحِفْظِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ الْعَرَبِيَّ وَجَعَلَ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ خَيْرَ الْأُمَمِ فَصَارَ حِفْظُ شِعَارِهِمْ مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الْإِسْلَامِ فَكَيْفَ بِمَنْ تَقَدَّمَ عَلَى الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ - مُفْرَدِهِ وَمَنْظُومِهِ - فَيُغَيِّرُهُ وَيُبَدِّلُهُ وَيُخْرِجُهُ عَنْ قَانُونِهِ وَيُكَلِّفُ الِانْتِقَالَ عَنْهُ إنَّمَا هَذَا نَظِيرُ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالِ مِنْ الشُّيُوخِ الْجُهَّالِ حَيْثُ يَصْمُدُونَ إلَى الرَّجُلِ الْعَاقِلِ فَيُؤَهِّلُونَهُ ويحنثونه؛ فَإِنَّهُمْ ضَادُّوا الرَّسُولَ إذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بُعِثَ بِإِصْلَاحِ الْعُقُولِ وَالْأَدْيَانِ وَتَكْمِيلِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَحَرَّمَ مَا يُغَيِّرُ الْعَقْلَ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ.

فَإِذَا جَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى صَحِيحِ الْعَقْلِ فَأَفْسَدُوا عَقْلَهُ وَفَهْمَهُ وَقَدْ ضَادُّوا اللهَّ وراغموا حُكْمَهُ. وَالَّذِينَ يُبَدِّلُونَ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ وَيُفْسِدُونَهُ لَهُمْ مِنْ هَذَا الذَّمِّ وَالْعِقَابِ بِقَدْرِ مَا يَفْتَحُونَهُ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْعَقْلِ وَاللِّسَانِ مِمَّا يُؤْمَرُ بِهِ الْإِنْسَانُ. وَيُعِينُ ذَلِكَ عَلَى تَمَامِ الْإِيمَانِ وَضِدُّ ذَلِكَ يُوجِبُ الشِّقَاقَ وَالضَّلَالَ وَالْخُسْرَانَ. وَاَللهُ أَعْلَمُ]ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(قَالَ الْبُغَوِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ): هذا النقل بهذه الحروف لم أجده في تفسير البغوي رحمه الله، ولا أدري مكان هذه المقولة، إلا أننا نكاد نجزم أن المؤلف قد وقف عليها في مكان ما، ولعله في غير التفسير، ومن تتبع كلام البغوي رحمه الله يرى أنه ينتصر لما نقله الشيخ هنا، من أن هذه الآية خطاب من الله جل وعلا للمؤمنين المقيمين بمكة، بعد الأمر بالهجرة، ناداهم الله باسم الإيمان؛ لكي يتذكروا حقيقة الإيمان، وأنه قام على الولاء والبراء، والكفر بالطاغوت، والمعنى: أي لو كنتم مؤمنين حقاً، لما سمحت نفوسكم، ولا رضيتم بالبقاء بين أظهر المشركين، تكثرون سوادهم، وترون شعائر الكفر ترفع بينهم، ويعمل بها من حولكم، كل هذا وغيره كثير من المخالفات الشرعية، أفلا يكون في هذا حث لكم للخروج من بلادهم، وإذا لم تفعلوا فهذا دليل على ضعف واضمحلال الإيمان في قلوبكم، ولهذا توعد الله جل وعلا من فعل هذا بسوء الخاتمة، وتوبيخ وتقريع الملائكة له عند الموت، إلا من استثنى الله تعالى، من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستضعفين رجالاً كانوا أو نساءً أو ولداناً كما هو نص القرآن، وهذا المعنى قد تقدم قريبا.

وما قرره المؤلف، وما نقله عن البغوي، هو الوجه الأول في معنى هذه الآية وهناك وجه آخر أنقله من تفسير ابن أبي حاتم حيث قال:[وَالْوَجْهُ الثَّانِي:حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُنِيبٍ، ثنا أَبُو مُعَاذٍ النَّحْوِيُّ، ثنا عُبَيْدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنِ الضَّحَّاكِ قَوْلَهُ:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}، قَالَ: هُمْ أُنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ r بِمَكَّةَ، فَلَمْ يَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَخَرَجُوا مَعَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ إِلَى بَدْرٍ، فَأُصِيبُوا يَوْمَئِذٍ فِيمَنْ أُصِيبَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ}]ا.هـ.

قلت: وهذا من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فإن المعنى واحد، والمُؤَدَّى واحد، وهو إلزام المؤمنين أن يخرجوا من بين أظهر الكافرين.

قال المؤلف رحمه الله:(وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ r :"لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"): قلت: هذا الحديث رواه أحمد والدارمي والنسائي وأبو يعلى وأبو داود وغيرهم، كلهم من طريق حَرِيزِ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَوْفٍ الْجُرَشِيُّ عَنْ أَبِي هِنْدٍ الْبَجَلِيِّ قَالَ كُنَّا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَدْ غَمَّضَ عَيْنَيْهِ فَتَذَاكَرْنَا الْهِجْرَةَ وَالْقَائِلُ مِنَّا يَقُولُ انْقَطَعَتْ وَالْقَائِلُ مِنَّا يَقُولُ لَمْ تَنْقَطِعْ فَاسْتَنْبَهَ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ فَأَخْبَرْنَاهُ وَكَانَ قَلِيلَ الرَّدِّ عَلَى النَّبِيِّ r فَقَالَ تَذَاكَرْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ r فَقَالَ:"لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا" وهذا لفظ الإمام أحمد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الخبر مختلف فيه، وفيه لين وضعف، فأبو هند البجلي هو الشامي قال عنه الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب:[ذكره العسكري في الصحابة، وقال عبد الحق: ليس بالمشهور، و قال ابن القطان:مجهول].ا.هـ.

ولكن معناه صحيح، ولأفراده شواهد في الصحيحين وغيرهما، فالآيات والأحاديث الأخرى دالة على أن الهجرة باقية مشروعة، طالما نفع الإيمان،فإذا جاء وقت لا ينفع فيه الإيمان؛ فلا تنفع فيه الهجرة، كما قال تعالى:{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام:١٥٨].

أما حديث:"لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية"، فالمقصود كما تقدم، أنه لا هجرة من مكة؛ لأنها صارت بلد توحيد وإسلام، فلا يهاجر منها بل إليها،، ولا تنقطع التوبة إلا حين لا تنفع، وذلك في مواطن دلت عليها الأخبار الصحاح.

متى لا تقبل التوبة:

١ - إذا غرغرت النفس في الحلقوم، كما قال تعالى:{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء:١٨]، وقال عن فرعون، وقد أراد الإيمان بعد أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عاين الغرق:{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس:٩٠-٩١]، وقال في شأن الذين يريدون تناوش الإيمان أي تناوله، عند الموت وقد عاشوا مكذبين بالحق، متبعين للهوى،فيقولون آمنا به، وأنى لهم الإيمان، وأنى لهم تناوله من مكان بعيد، أي هو بعيد عنهم، ولا يقبل منهم، إذ كانوا يكفرون به من قبل، ويتبعون الظن ويقذفون بالغيب، ويسيئون الظن بالله تعالى، قال تعالى:{ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} [سبأ:٥١-٥٤].

٢-إذا طلعت الشمس من مغربها، كما في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَاكَ حِينَ :{لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ}".

٣- إذا خرج الدجال.

٤- إذا ظهرت الدابة.

والدليل ما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة: هل عدم قبول التوبة مستمر حتى بعد ذهاب هذه الآيات، أم أنه مرهون ببقائها، فإذا زالت؛ عاد الأمر على ما كان من قبل، فتقبل التوبة؛ على اعتبار أن هناك أجيالا ستنشأ، ويندرس العلم فيها، ثم تتوب؟.

الجواب: قولان لأهل العلم:

١ - انتفاء قبول التوبة مطلقاً بعد ظهور الآيات، لما جاء في البخاري من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي r قال:"ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا كلهم وذلك يوم لا ينفع نفسا إيمانها أو كسبت في إيمانها خيراً"؛ ولأن ظهور هذه الآيات نقل العباد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وفي عالم الشهادة يقع الإيمان الجبري، وهذا ليس بمقبول بل لا بد أن يكون الإيمان اختياريا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

٢ - أنه متى زالت هذه الآيات، على القول ببقاء الدنيا زمناً طويلاً بعد ذلك، فإن التوبة تقبل؛ لِانْدِرَاسِ الآيات، ونسيانها؛ فتعود إمكانية الإيمان الاختياري.

والراجح القول الأول لأن هذه الآيات حتماً لا تنسى؛ ولأن الدابة تختم على كل عبد، (مؤمن وكافر)، حتى يبقى الناس يتبايعون، ينادي بعضهم بعضا (يا مؤمن أعطني يا كافر أعطني)، وأما قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء:١٥٩] ، فهذا محمول على أمرين:

١ - إما على فترة ما قبل نزوله، وهذا مقبول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- إذا نزل فإنه يقع الإيمان به من البعض، ولكن قيل لا ينفعهم ذلك الإيمان؛ لأن الدجال إذا ظهر لا تقبل توبة، كما في الحديث المتقدم، وعيسى عليه السلام، سينزل بعد الدجال لعنه الله، والأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق. والله أعلم.

قال الإمام النووي في كتابه:(رياض الصالحين):[قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب. فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع عن المعصية والثاني أن يندم على فعلها والثالث أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها . فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كانت غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة]ا.هـ. قلت:ولها شروط أخرى فلنذكرها:

فصل: في شروط التوبة النصوح، وفي صحيح البخاري:[قَالَ قَتَادَةُ: {تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} الصَّادِقَةُ النَّاصِحَةُ].ا.هـ.، واعلم أن أهل العلم ذكروا شروطا للتوبة، مستقاة من الأدلة الشرعية وهي ما يلي:

١- أن تكون خالصة لله تعالى، لا من جراء أمر قاهر، ولا حطام دنيوي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - أن تكون في زمن المهلة، وهي المدة التي يقبل الله تعالى فيها التوبة، على ما تقدم.

٣ - الإقلاع عن الذنب.

٤ - الندم على ما بَدَر.

٥ - العَزْم على عدم العود في الذنب.

٦ - التحلل من مظالم العباد.

فصل في ذكر آيات وأحاديث تحث على التوبة والاستغفار:

أما من القرآن: قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة:٥٤]، وقوله: {يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة:٧٤]، وقوله: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٨-١١٩]، وقوله: {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور:٣١]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج:١٠]، وقوله:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٥-٦٦]، وقوله:{أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٧٤]، وقوله:{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود:٣] ، وقوله:{يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود:٥٢]، وقوله:{وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود:٦١]، وقوله:{وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود:٨٩-٩٠]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما من السنة: فعَنْ أَنَسٍ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ" متفق عليه.

وعن أبي هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً". متفق عليه.

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود موقوفا: قَالَ:(إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا). يعني فأطاره عن أنفه، وهو غير مبال لذلك.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ r يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ:"سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ". قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ:"خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَدْ رَأَيْتُهَا:{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، فَتْحُ مَكَّةَ، {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}" أصله في البخاري أيضا.

وفي صحيح مسلم عَنِ الأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ - وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ".

وفي صحيح مسلم عن عَائِشَةَ تَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ وَحَمِدَ اللهَ وَهَلَّلَ اللهَ وَسَبَّحَ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ".وفي لفظ:"فَإِنَّهُ يُمْسِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ".

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري t عن النبي r قال:"إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة t قال قال رسول الله r :"من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"رواه مسلم.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ قَالَ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ".

وفي الصحيحين عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:"يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة : يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله r قال:"لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب" متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إلَيْهِ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ ؛ وَعَنْ إبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ - لَعَنَهُ اللهُ - أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ فَمَنْ أَذْنَبَ وَتَابَ وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ]ا.هـ.

قال ابن القيم في (الوابل الصيب):[فإذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف:إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار قالوا:كيف؟ قال:يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقا وجِلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام:العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل وهذا معنى قوله r في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه:" سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" فجمع في قوله r :"أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي" مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل، فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت وأن لا يرى نفسه إلا مفلسا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض، دخول من كَسَرَ الفقرُ والمسكنةُ قلبَهُ حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته وشهد ضرورته إلى ربه عز و جل وكمال فاقته وفقره إليه وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته، ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية ولا حجاب أغلظ من الدعوى والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غره وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله عز و جل ويجبره ويتداركه برحمته]ا.هـ.

وقال أيضا في (الوابل الصيب):[فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت وأن لا يرى نفسه إلا مفلسا وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكسرة من كل جهاته وشهد ضرورته إلى ربه عز و جل وكمال فاقته وفقره إليه وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته، ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية ولا حجاب أغلظ من الدعوى والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلي المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غره وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله عز و جل ويجبره ويتداركه برحمته]ا.هـ.

ومن جميل ما قيل في هذا الصدد:

يا من عَدَى ثم اعْتَدَى ثم اقْتَرَف ... ثم انتهى ثم ارْعَوَى ثم اعْتَرَف

ابشر بقول الله في آياته ...{إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}

قال ابن القيم في (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين):[فههنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات ومغفرة وتكفير، فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، وهي ما تعمل فيه الكفارة من الخطأ، وما جرى مجراه؛ ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة؛ ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين، فلا تعمل في قتل العمد ولا في اليمين الغموس في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة، والدليل على أن السيئات هي الصغائر والتكفير لها : قوله تعالى:{إن تجتنبوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما}، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله كان يقول:"الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر، كما تقدم فقوله تعالى:{كفر عنهم سيآتهم} يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالى:{ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا}، وإذا فهم هذا؛ فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح:"ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه".

فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بِطَهرهم؛ طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة؛ فورد القيامة طيبا طاهرا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: وتوبة العبد إلى ربه محفوفة بتوبة مِنَ الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من الله، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا: إذنا وتوفيقا وإلهاما فتاب العبد فتاب الله عليه، ثانيا: قبولا وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: {لقد تاب الله سبحانه تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم}، فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا ومقتضياً لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتف لانتفاء علته، ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء؛ فيهتدي بهدايته؛ فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها، قال الله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى}، فهداهم أولا فاهتدوا فزادهم هدى ثانيا، وعكسه في أهل الزيغ، كقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم، وهذا القدر من سِرِّ اسْمَيْهِ: الأول والآخر، فهو المعد وهو المُمِد، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يُعِيذُ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: "وأعوذ بك منك"، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهمية وأثر الاستغفار على العبد:

ومما ينبغي ألا نغفل عنه، أن الاستغفار سبب للمغفرة، والتوفيق والهداية والستر، وسعة الأرزاق وزيادة القوة، كما قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود:٥٢].

وقوله: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا} [نوح:١٠-١٣].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ r كَانَ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ".

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله r يَسْكُتُ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَبَيْنَ الْقِرَاءَةِ إِسْكَاتَةً- قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ هُنَيَّةً - فَقُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله إِسْكَاتُكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ، قَالَ:"أَقُولُ اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنت ترى في هذه الأخبار الاعتراف بالخطايا، ونسبتها إلى النفس، في تربية عملية واضحة المعالم للأمة أن يكونوا كذلك، وأن يستصحبوا ذلك، فالعبد محل للنقص والتقصير، والرَّبُّ أهل التقوى وأهل المغفرة.

وفي صحيح مسلم عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ r إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا وَقَالَ:"اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ".

وهذا الخبر دال على أن العبد مهما عمل من الصالحات، وحرص على الكمالات، فلابد له من استصحاب الاستغفار؛ لِجَبْرِ مَا يَقَعُ من سَهْوٍ وخلل وتقصير.

وقال تعالى عن الخليل وابنه عليهما السلام:{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:١٢٧-١٢٨].

كما يجب علينا أن نجتهد في تحصيل أسباب التوبة، وأن نسأل الله تعالى أن يتوب علينا، وأن يوفقا إلى التوبة النصوح، كما قال تعالى:{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة:١٠٢-١٠٤]، وقوله:{حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَصِيرُ} [غافر:١-٣]، فهو سبحانه وتعالى قابل التوب؛ فعلينا أن نسأل الله تعالى ذلك، وقال تعالى:{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]، فهو سبحانه الذي يتوب على عباده، وهو الموفق للتوبة؛ فلنسأل الله تعالى ذلك، بصدق وإخلاص وإقبال، وثقة ويقين.

تَوْبَةُ الكَذَّابين:

ولنحذر من توبة الكذابين: قال عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي أبو بكر في كتابه :(الوجل والتوثق بالعمل):[قال الحسن إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، يقول إني أحسن الظن بربي، كذب ولو أحسن الظن بربه؛ لأحسن العمل].ا.هـ.

الاستتار بالمعصية سبب للنجاة والعافية:

فصل: واعلم غفر الله لي ولك، أن من أعظم ما يُعين على التوبة والإقلاع عن الذنب، أن يستتر به العبد عن العباد، **ولا يَتَلاعَبَنَّ بك الشيطان، بأن يقول لك: كيف تخاف الناس ولا تخاف الله؟!، وتستخفي منهم والله يراك؟!**، فإن هذا منه من قبيل كلمة الحق التي أريد بها باطل.

ففي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَاةٌ إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَارِ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحُ قَدْ سَتَرَهُ رَبُّهُ فَيَقُولُ يَا فُلاَنُ قَدْ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ فَيَبِيتُ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ". **فاعلم أن هذا طِبٌّ نَبَوِيٌّ عظيم في هذا الباب، وذلك من وجوه: أولا**: أن الله تعالى يحب الحياء، والاستتار بالذنب دال على حرص العبد على الحياء، واتقاء الفحش وإظهاره، وهذا من أعظم أسباب إعانة الله وتوفيقه.

ثانيا: أن الاستتار بالذنب، يدل على عدم حرص العبد على نشر المنكر، وتجرئة الآخرين عليه، وهذا من أعظم أسباب إعانة الله وتوفيقه.

ثالثا: أن في الاستتار محاصرة للمنكرات، ودفعا لانتشارها وإغراء الآخرين بها، فمصلحته ومنفعته متعدية للأمة جمعاء.

رابعا: أن فيه تضييقا لفرص تعاطي المنكر، فإن صاحب المعصية، سيحتاج إلى مكان يتوارى فيه، وكثيرا ما لا يتيسر له ذلك، مما يكون عونا له على الإقلاع.

خامسا: أن في هذا الاستتار استشعارا للذنب، بخلاف المجاهرة التي تُميت الإحساس تجاه الذنب.

سادسا: أن هذا الاستتار دال على وجود خوف من الله تعالى، فهو برجاء أن يتوب الله عليه.

سابعا: أن في تقليل ظهور المنكرات سببا عظيما لرحمة الله تعالى، أما مع ظهورها وانتشارها؛ يحصل غضب الله تعالى، وما يتبع ذلك من آثار على العباد والبلاد والشجر والدواب، كما قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثامنا: أن الاستتار دال على حرص العبد على أن يستره الله تعالى، فهو بفعله طالب للطف الله تعالى به، وأن يستره ويتوب عليه.

فعلينا أن نعلم أن الله تعالى أعلم وأحكم، وأن نبيه r أحرص على هدايتنا ونجاتنا، فإيانا ومكر الشياطين وأعوانهم، قال تعالى:{وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا} [النساء:١٢٢].

لا تفوت الفرصة فقد لا تعود:

واعلم أرشدني الله وإياك، أن الله تعالى يعطي لعباده فُرَصاً للتوبة، فإن الله تعالى يحب من عباده أن يتوبوا إليه، وأن يَثُوبُوا إلى رشدهم، فيراجع أمر ربهم؛ فَيَلْتَزِمُوهُ ويعملوا به، والأدلة دال على ها المعنى العظيم.

فما من أمة إلا وقد أعذر الله تعالى إليها،- إلا من اسْتُثْنُوا ممن يُدْلِي على الله تعالى بحجة، فهؤلاء يُبْتَلَونَ يوم القيامة، إعذارا من الله تعالى- فيعطي الله تعالى لعباده، الفرصة تِلْوَ الأخرى للهداية والتوبة، مهما تعاظم الذنب، كما قال تعالى: {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا } [النساء: ١٥ - ١٨]، وقوله: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود: ٧٧، ٧٨]، وقوله: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهَّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهَّ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهَّ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهَّ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٩٩-١٠٣]، وقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهَّ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُّ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة: ٦٤-٦٦].

بل وهؤلاء أهل النفاق، يكشف الله تبارك وتعالى لهم مخبآت صدورهم؛ لعلهم أن يعلمون بذلك حقيقة الأمر؛ فَيَتُبُوا، ويعلموا أنه تنزيل من حكيم حميد، وأن الكتاب حق، وأن الرسول حق، كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٨-٢٠]، وقوله: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران: ١٥٤]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } [النساء:١٣٧-١٤٧]. فمع هذا النفاق العظيم دعاهم الله تعالى إلى التوبة، ورغبهم فيها: { مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }.

بل حتى الشيطان الرجيم، خاطبه الله تبارك وتعالى بما يَدُورُ في خَلَدِه، وما انْطَوَت عليه نفسه الأَمَّارَةُ بالسُّوء؛ لعله أن يرجع عن غَيِّه وكِبْرِه وشِرْكِه، ولكنه أَبَى إلا الْمُضِيَّ قُدُماً، إلى سَخَطِ الله وغضبه، وعَذَابِه العظيم الأليم، نار تلظى خالدا فيها أبدا، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص:٧٥].

فأعلمه الله تعالى بما خَالَطَه من فَسَادِ نِيَّتِه وسُوءِ طَوِيَّتِه، فما هما إلا خِيَارَان، أنت في أحدهما أو كليها وَاقِع، ولكنه أَصَرَّ واستكبر استكبارا؛ فكانت عاقبة أمره خُسْرا، نسأل الله العافية والسلامة من الخذلان، ومن سخط وغضب العزيز الجبار القهار.

لا تَقْنَط من رَحْمَةِ الله، ولا تُسَوِّف:

واعلم غفر الله لي ولك، أنه ليس هناك ذنب تتعاظم على الله أن يغفره إن حققت التوبة، واستغفرت الله تعالى منه، كما قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهَّ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَّ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الزمر:٥٣-٥٧].

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ e قَالَ : إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ ، أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا- قَالَ : قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ ، أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثًا - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إسْعَافُ السَّـؤُول

بشـرح

ثلاثـةِ الأصُـول

لأبي عبد الله صادق بن عبد الله

المجلد الثالث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

فَلَمَّا استَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّـةِ شَرَائِعِ الإِسْـلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْـيِ عَـنِ الْمُنْكَـرِ، وَغَـيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ ـ صَـلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ـ وَدِينُهُ بَاقٍ.

الشرح

قال المؤلف:(فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثلِ: الزَّكَـاةِ، وَالصَّـوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِـكَ مِـنْ شَرَائِـعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ ـ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ـ وَدِينُهُ بَاقٍ).

أراد المؤلف رحمه الله، أن يبين أن البداءة لابد أن تكون بالتوحيد، وترسيخ العقيدة، ثم بعد ذلك يأتي الأمر بالصلاة، ثم باقي شرائع الدين، خلافاً لما تفعله بعض الطوائف الدعوية، من البداءة بالقفز إلى رأس الهرم، فلابد من تأسيس القاعدة العريضة، وتوعية الناس بالتوحيد، وبيان حقيقة (لا إله إلا الله محمـد رسـول الله) أولا وقبـل كـل شيء، وخلافاً لمن يبدأ بفضائل الأعمال في الدعوة إلى الله جل وعلا، فهاهو النبـي r ، قضـى جُلَّ وقته، وأفرغ جهده في التوحيد وبيانه، ثم لم يتوسع في بيان فضائل الأعمال والأمـر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بها، وبيانها والحث عليها، إلا بعد أن هاجر إلى المدينة، بعد أن رسخ التوحيد، وظهرت معالمه، فلابد من البداءة بالأهم، ثم المهم، فلنعلم أن هذا هو الترتيب النبوي، فمن خالف ذلك فقد ضل سواء السبيل.

وفي قوله:(فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ....الخ)، تذكير بقول الله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج:٤١]، فهذه هي حالة الأنبياء والمرسلين، وهي حالة عباد الله الصالحين المتقين الذين يسعون في مراضي الله تعالى، وشكر نعمته، إذْ مكن لهم في الأرض، بخلاف المنافقين والكافرين، الذين يستعملون هذا التمكين في تثبيت عروشهم بالباطل، وخدمة الشيطان الرجيم والهوى، ونصرة الشرك أهله، ونشر الفاسد في الأرض، عياذا بالله من الخذلان، والمكر والاستدراج.

وإليك جملة من الآيات الدالة على مثل هذا المعنى؛ لتحذر كل أمة يحصل لها نوع من التمكين، فتختبر حالها مع ما حصل لها من تمكين، هل هي ممكنة بحق ورضى من الله جل وعلا؟، أم أنها أُمَّةٌ مَمْكُورٌ بها مُسْتَدْرَجَةٌ من الله جل وعلا، حتى إذا أخذهم الله، فإنه أخذه أليم شديد، وعذابه عظيم، وعاقبتهم وخيمة خاسرة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام:٤-٦].

وقال:{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف:٢٦-٢٨].

وقال تعالى في نعت الفريق الذي حقق شكر نعمة الله تعالى عليه؛ فسعى في الصلاح والإصلاح، والفريق الآخر الغافل، الذي اغتر بهذا التمكين المؤقت المزيف؛ فسعى في إهلاك نفسه ومن معه، فقارن الله تعالى بينهما ، كما قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:٩٦-١٠٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [النور:٥٤-٥٧].

فمن وجد شيئا من التمكين، وهو لم يقم بشروطه، ولوازِم بَقَائِه؛ فليعلم أنه مستدرج، من حيث لا يشعر، وليتربص الزوال والنكال، فَسَنَّةُ الله لا تُحَابِي أحَدا. نسأل الله العافية والسلامة من الخذلان.

التكليف بالأعمال العامة تابع للتمكين:

واعلم أن السياق دال على أن خطاب الأمر بالقيام بالأعمال العامة في الأمة بقوة السلطان، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وإقامة للحدود، هو خطاب لمن حصل له التمكين، وأنه قبل ذلك داخل في عموم قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا} [البقرة:٢٨٦]، وقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللهُّ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق:٧].

ولنحذر من تلاعب من آتاهم الله تعالى دولة وإمكانات، ثم يعتذرون عن تطبيق شرع الله تعالى، بدعوى عدم التمكين، وعدم القدرة، فإنما هو النفاق والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعظم وأهم وظيفة وعمل للسلطان:

وعليه فمتى ما حصل التمكين تعين القيام بهذه الفريضة العظيمة، التي تمثل إقامة شرع الله تعالى في أرضه، حتى لا يكون سلطان فوق سلطان الله تعالى، وحتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

فهذه أعظم وظيفة لمن ولاه الله تعالى الأمر، وجعله خليفة في الأرض، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨].

وقال: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦].

وإلا فالأمر كما قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٦]، وقال: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [النحل:١١٢-١١٣].وقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لله أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم:٢٨-٣٠].

ولنحذر من حال فرعون اللعين مع قومه الفاسقين، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [طه: ٧٧ - ٧٩]. وقوله:{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} [الزخرف:٥١-٥٦].

ثم مثل المؤلف رحمه الله بجملة من شرائع الإسلام؛ ليبين تأخر فرض أكثرها؛ لأن بعضها كان قد جاء ذكره فيما قبل الهجرة، كما في صحيح مسلم قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ الله r مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ:"أَنَا نَبِيٌّ". فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ:"أَرْسَلَنِي اللهُ" فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَالَ:"أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ"...الحديث.

وفي الصحيحين في قصة أبي سفيان t -قبل أن يسلم- مع هرقل وسؤاله إياه عن النبي r ودينه وأصحابه y، وفيه قال:[مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَّ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ لَبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ]...الحديث.

فعامة الشرائع تأخرت إلى ما بعد الهجرة، أما الزكاة والصوم فمختلف فيهما، وأما الحج والآذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا لم يشرع إلا في المدينة.

مثل المؤلف بهذه العبادات؛ لأنها أخص وأبرز شعائر الإسلام، فالزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام.

وأما الآذان به تتميز البلدان المؤمنة من الكافرة؛ ولهذا كان النبي r إذا أراد أن يغير على قوم أرجئهم حتى الصباح، فإن سمع آذاناً تركهم وإن لم يسمع آذاناً أغار عليهم، والآذان من أعظم ما تَشْرَق به نفوس المنافقين وأعداء الدين.

كما في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ الله e يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ وَكَانَ يَسْتَمِعُ الأَذَانَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلاَّ أَغَارَ فَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ رَسُولُ الله e:"عَلَى الْفِطْرَةِ". ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله e:"خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ". فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى.

وأما الجهاد فهو ذروة سنام هذا الدين، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم الأول: جهاد النفس، وهذا ينقسم إلى قسمين:

١-**جهاد الطلب**: ودليله قوله تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:١٢٣]، وقوله:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله} [الأنفال: ٣٩]، قال ابن عباس:(قاتلوا حتى لا يكون شِرك)، ونحو ذلك من الآيات، وأما الأحاديث فمتكاثرة متواترة، قولا وعملا، فمنها ما في الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله **r** قَالَ:"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله"، وهذا الخبر جاء في الصحيحين عن أبي هريرة **t** أيضا، وفي البخاري عن أنس **t** ، وفي مسلم عن جابر **t** .وهذا الجهاد يستلزم الأمير العام، وتوفر الشوكة عُدَّةً وعَدَدا وعَتَادا.

٢-**جهاد الدَّفع**: ويكون في حالة تسلط الأعداء على بلد من بلدان المسلمين، فيجب دفعهم، بكل ما هو متاح، وبكل سبيل؛ ليكفوا بأس الذين كفروا، وهذا النوع فرض عين على أهل البلدة المُغَار عليها، فإن اندفع الكفار بذلك، وإلا انتقل الفرض إلى من يليهم، وهكذا حتى يطبق الأرض كلها، فهو من فروض الكفايات، بحيث إن اندفع بقوم؛ سقط عن الآخرين، وإن لم يندفع لزم الجميع، وإن كانت الأمة بأسرها، وقد حكى ابن قدامة في المغني وغيره الإجماع على ذلك، إلا إنه لا شك داخل تحت عموم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة:٢٨٦]، وقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } [الطلاق:٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى:[وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ، وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ. لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إذَا نَفَرَ إلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلِفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلَّفُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُنَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهَجَهُمْ وَمُهَجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنْ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الِانْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ وَوَقْعَةُ أُحُدٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ]ا.هـ.

القسم الثاني: جهاد اللسان، وهذا الذي أشار إليه المؤلف بقوله:(والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وهو جهاد عظيم لإظهار الحق وبيانه، والدعوة إليه، والعمل على إخماد الباطل، وتجفيف منابعه، وهو النزال بسيف البرهان، لتقطيع رقاب الباطل، وإزهاقه، وكشف شبهاته وعواره، وهذا جهاد عامة الأنبياء والمرسلين، فإن الذي قاتلوا الكفار من الرسل قلة، ولكنهم كانوا جميعا، يجاهدون الكفر وأهله، والباطل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وزَخَمَه، بالحجة والبرهان، وهذا أيضاً من فروض الكفايات، وقد يتعين، وقد تقدم الحديث عنه من قبل.

وقد سماه الله تعالى جهادا كبيرا، كما في قوله تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان:٥٢]، كما قال ابن كثير في تفسيره:[{فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ} يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس: {جِهَادًا كَبِيرًا}، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}]ا.هـ.

وقال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً} [٢٥/٥٢]، أي بالقرآن لقوله قبله {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً}.ومعلوم أن المنافقين كافرون فكان جهاده r للكفار بالسيف ومع المنافقين بالقرآن]ا.هـ.

قال ابن القيم في (القصيدة النونية): فصل: في مقدمة نافعة قبل التحكيم:

يا أيها الرجل المُرِيدُ نجاته ... اسمع مقالة ناصح مِعْوانِ
كن في أمورك كلها متمسكا ... بالوحي لا بزخارف الهذيانِ
وانصر كتاب الله والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقانِ
واضرب بسيف الوحي كل معطل ... ضرب المجاهد فوق كل بنانِ
واحمل بعزم الصدق حملة مخلص ... متجرد لله غير جبانِ
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فإذا أُصِبْتَ ففي رضا الرحمنِ
واجعل كتاب الله والسنن التي ... ثبتت سلاحك ثم صِحْ بِجَنانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مـن ذا يُـبـارز فَـلْيُـقَـدِّم نـفـسـه ... أو مـن يسـابق يَـبْدُ في الميدانِ
واصدع بما قال الرسول ولا تخف ... مـن قِـلَّةِ الأنصـار والأعوانِ
فـالله نَـاصِـرُ ديـنِـه وكـتَـابِـه ... والله كَـافٍ عَبْـدَهُ بِـأَمَـانِ
لا تخش من كيد العدو ومكـرهم ... فـقـتـالهم بالـكِذْبِ والبُـهْتَانِ
فجنـود أتبـاع الرسـول مَلَائِكٌ... وجنـودهم فَعَسَـاكِرُ الشيطانِ
شَتَّانَ بين العسـكرين فمن يكن ... مُـتَـحَـيِّراً فَـلْينـظِرِ الفِـئَـتَـانِ
واثْبُتْ وقَاتِلْ تَحت رَايَاتِ الهُدَى ... واصْـبِر فـنَـصرُ الله ربَـكَ دَاني
واذْكرْ مَقَاتِلَهم لفرسان الهـدى ... لله دَرُّ مَـقَـاتِلِ الفُـرسـانِ
وادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِّ في نَحْرِ العِدَا ... وارْجُمْهُـمو بِشَـوَاقِبِ الشُّـهْبَانِ
لا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ فَهُمْ هَمَجُ الوَرَى ... وذُبَـابُـهُ أَتَـخَـافُ مِـنْ ذُبَّـانِ
واشْغَلْهُمو عند الجدال ببعضهم ... بعضـا فـذاك الحـزم للفرسانِ
وإذا هُمُو حَملوا عليك فـلا تكـن ... فَزِعـاً لِـحَمْلَتِهـم ولا بِـجَبَانِ
واثْبُت ولا تَحْـمِـل بِلا جُنْدٍ فَمـا ... هذا بمحمـود لدى الشجعانِ
فإذا رأيت عصـابة الإسـلام قد ... وافت عسـاكرها مع السلطانِ
فهناك فاخترق الصفوف ولا تكن...بالعـاجز الوانِي ولا الفَزْعانِ
وتَعَـرَّ مـن ثـوبين مـن يلـبسـهما ... يَلْـقَ الـرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وهَـوَانِ
ثَـوبٌ من الجهـل المُرَكَّبِ فَـوقَهُ... ثوب التَّعَصُّبِ بِئْسَتِ الثَّوْبَانِ
وتَحَـلَّ بِالإنْصَـافِ أفْخَـر حُـلَّـةٍ... زِيْنَتْ بِها الأَعْطَاف والكَتِفَانِ
واجْعَلْ شِعَارَكَ خَشَية الرَّحمـن..مَع نُصْحِ الرَّسُول فَحَبَّذَا الأمْرَانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وبَوَحْيِه ... وتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ

فالحق وصف الرب وهو صراطه الـ هادي إليه لصاحب الإيمانِ

وهو الصراط عليه رب العرش أيـ ضا وذا قد جاء في القرآنِ

والحق منصور وممتحن فلا... تَعْجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرحمنِ

وبِذَاكَ يظهر حِزْبُهُ مِنْ حَرْبِهِ... ولأجل ذاك الناس طائفتانِ

ولأجل ذاك الحرب بين الرسل والـ كفار مُذْ قام الورى سِجْلانِ

لَكِنَّمَا العُقْبَى لأهل الحق إن ... فَاتَتْ هُنَا كَانَتْ لَدَى الدَّيَانِ

جهاد البدع وأهلها:

ومن ذلك وأعظمه جهاد البدع وأهلها، ومطاردتهم بالحجج والبراهين؛ لكشف حقيقة البدعة وخبثها، وعظيم ضررها على العباد والبلاد، وانظر لما تَوَانَي الناس في ذلك؛ كيف انتشرت البدع، وصار لها رؤوس ومُنَظِّرُون، وجماعات وأحزاب، بل ودُوَلٌ ترعى ذلك وتَنْصُرُه، حتى اتخذ كثير منهم دينهم لعبا ولهوا، ولهوا ولعبا، حتى أحدثوا أعيادا وطقوسا وشعائر ما أنزل الله بها من سلطان، وتَلَقَّى كثير من أفراد هذه الأمة ذلك بالقبول؛ مما يدل على عظيم غربة السُّنَّة بين أهلها.

حتى صارت عندنا أعياد متنوعة، ألقتها الأهواء على الأمة؛ فاسْتَحْسَنْتَها، وزَخْرَفَها الشيطان فعملت بها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصار عندنا أعياد رأس السنة، وعيد الأم، وعيد الاستقلال، واليوم الوطني، وأسبوع الشجرة، وأسبوع المساجد، ويوم الطفل، ويوم المرأة، وغير ذلك من الأهواء التي قَلَّدْنا فيها شياطين الإنس والجن.

كما حصل من أهل الكتاب، الذين كانوا يتخذون من الأعياد، ما تُمْلِيهِ عليه أهواؤهم، وما يَرُوقُ لهم، مما يُعَظِّمُونُه ويُحِبُّونُه، وتأمل في هذا الخبر، المُخَرَّجِ في الصحيحين عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَؤُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ:(أَيُّ آيَةٍ)، قَالَ:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}، قَالَ عُمَرُ:(قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ e وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

وتأمل هذا الفقه العظيم، من هذا الخليفة الراشد t ، حيث أخبر اليهودي باليوم الذي نزلت فيه هذه الآية، والمعنى أننا لسنا أَصْحَابَ أهواء؛ نتخذ من الأعياد ما نشاء، وما نشتهي ونعظم ونحب، بل إنما هو اتباع الشرع، فلا نتعبد لله تعالى إلا بما شرع، فقد علمنا ذلك اليوم؛ ولم نتخذه عيدا؛ لأنا لم نؤمر بذلك، بل أمرنا بعيد الفطر والأضحى.

كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتِ الأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ- قَالَتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ e :"يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين من طريق أبي عُبَيْدٍ مَوْلَى ابْنِ أَزْهَرَ أَنَّهُ شَهِدَ الْعِيدَ يَوْمَ الأَضْحَى مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ t ، فَصَلَّى قَبْلَ الْخُطْبَةِ ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ e قَدْ نَهَاكُمْ عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ وَأَمَّا الآخَرُ فَيَوْمٌ تَأْكُلُونَ نُسُكَكُمْ).

وهناك يوم الجمعة عيد الأسبوع نصلي في جمعتنا، وفيه ساعة الإجابة نسأل فيه ربنا تبارك وتعالى من خيري الدنيا والآخر.

كما في صحيح البخاري:قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ثُمَّ شَهِدْتُ مَعَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَصَلَّى قَبْلَ الْخُطْبَةِ ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا يَوْمٌ قَدِ اجْتَمَعَ لَكُمْ فِيهِ عِيدَانِ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْتَظِرَ الْجُمُعَةَ مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي فَلْيَنْتَظِرْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْجِعَ فَقَدْ أَذِنْتُ لَهُ). فَيَا لِغُرْبَةِ السُّنَة وأهلها في هذا الزمان، والله المستعان.

تنبيه: فرض الكفاية أشد من فرض العين، من جهة متعلقه بعموم الأمة، فمثلاً لو أن أحداً رأى منكراً، فعلى القول بأن إنكار المنكر فرض عين، فإن لم ينكر هذا الإنسان هذا المنكر، أثم وحده؛ لأنه تعين عليه، ولم يفعل، ولم يتعين على غيره فلا يأثمون، أما على القول بأنه فرض كفاية، فإنه إن ترك الإنكار، وهو قادر؛ أثِمَ؛ولزم غيره الإنكار، وهكذا حتى يعم الإثم جميع الأمة؛ لأن البعض يظنون، أن فرض العين أشد من فرض الكفاية، على كل حال.

القسم الثالث:جهاد المال: وهذا يشمل بذل المال في إقامة جهاد العلم، والدعوة، وجهاد المشركين في القتال، فالمال جعله الله قياما للناس، ولابد على الأمة أن تسلطه على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هلكته في الحق، فمن جهز غازياً فقد غزا، وطلب العلم نفير في سبيل الله جل وعلا، وقد جمع النبي r ذلك كله، فيما صح عنه، قال النبي r :"جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"، وإسناده صحيح كما تقدم.

فَقَدَّمَ ذِكْرَ جِهَادِ المال؛ لبيان أن الحاجة إليه ماسة، بل قد تكون هي أهم في بعض الحالات، ففي الذكر الحكيم قال تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة:٤١] ، وقال سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ الله فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف:١٠-١٤].

وفي الصحيحين عن زَيْد بْن خَالِدٍ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا".

وفي صحيح البخاري من طريق أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عُثْمَانَ t حِينَ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ:(أَنْشُدُكُمْ اللهَّ وَلَا أَنْشُدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ r أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

r قَالَ مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ فَحَفَرْتُهَا، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ فَجَهَّزْتُهُمْ)، قَالَ فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ.

جهاد النفس:

واعلم رحمك الله، أن بعض أهل العلم، يضيف نوعا رابعا من الجهاد، ألا وهو جهاد النفس، ولا شك أن ذلك من الجهاد، لعموم قوله تعالى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]، وقد حكاه البغوي عن الحسن البصري، وسيأتي.

ويروون في ذلك حديثاً ضعيفاً جدا:[قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما الجهاد الأكبر قال جهاد القلب[1]] ، وهذا الخبر على نكارته إسنادا،

---

١ - لما أردت تخريج الحديث وجدت أحد الباحثين في موقع (ملتقى أهل الحديث) قد خرجه فأجاد وأفاد فاقتصرت على ذلك:وإليك جملا من نص كلامه بحروفه جزاه الله خيرا:روى البيهقي في كتاب الزهد أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا تمتام حدثنا عيسى بن إبراهيم حدثنا يحيى بن يعلي عن ليث عن عطاء عن جابر قال قدم على رسول الله r قوم غزاة فقال عليه السلام:"قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" قيل وما الجهاد الأكبر قال:"مجاهدة العبد هواه" قال البيهقي هذا إسناد فيه ضعف. انتهى. وروى النسائي في كتاب الكنى أخبرني حدثنا أبو مسعود محمد بن زياد المقدسي سمعت إبراهيم بن أبي عبلة يقول لأناس جاءوا من الغزو وقد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر قالوا يا أبا إسماعيل وما الجهاد الأكبر قال جهاد القلب. انتهى. والحديث رواه الخطيب أيضا في "تاريخه (٥٢٤ - ٥٢٣/١٣)" من طريق الحسن بن هاشم عن يحيى بن أبي العلاء، قال:حدثنا ليث به، وكذلك رواه أبو بكر الشافعي في " الفوائد المنتقاة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكذلك هو منكر متنا، فإن تسمية جهاد القلب والنفس والهوى، بالجهاد الأكبر، وتسمية قتال الكفار في حَوْمَةِ الوَغَى بالجهاد الأصغر، هذا فيه نظر كبير.

وعلى كل فالمؤلف لا يتكلم هنا عن هذا النوع من الجهاد، ولكن عن جهاد المشركين، بالقتال في سبيل الله، وسيأتي بيان فضل هذا الجهاد، في آخر الكتاب، إن شاء الله.

فصل في ذكر حظ وافر من جهاد رسول الله r

قال ابن القيم في كتابه (زاد المعاد):[فصل في غزواته وبعوثه وسراياه r :غزواته كلها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين فالغزوات سبع وعشرون وقيل خمس وعشرون وقيل تسع وعشرون وقيل غير ذلك قاتل منها في تسع: بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف . وقيل قاتل في بني النضير والغابة ووادي القرى من أعمال خيبر. وأما سراياه وبعوثه فقريب من ستين والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر وأحد والخندق وخيبر والفتح وحنين وتبوك.

" (١٣/ ٨٣/ ١) من طريق عيسى ابن إبراهيم البركي قال : نا يحيى بن يعلى قال:نا ليث عن عطاء عن جابر قال:قدم على النبي r قوم عراة، فقال النبي r : فذكره.

درجة الحديث:ضعيف:(البيهقي)، لا أصل له:(ابن تيمية)١١/ ١٩٧، ضعفه العراقي في تخريج الإحياء، قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس:هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة:(كشف الخفاء للعجلوني)،.الخ.انتهى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن فسورة الأنفال سورة بدر، وفي أحد آخر سورة آل عمران من قوله:{وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} إلى قبيل آخرها بيسير، وفي قصة الخندق وقريظة وخيبر صدر سورة الأحزاب، وسورة الحشر في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة الفتح، وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح صريحا في سورة النصر. وجرح منها r في غزوة واحدة وهي أحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق فزلزلت المشركين وهزمتهم، ورمى فيها الحصباء في وجوه المشركين فهربوا، وكان الفتح في غزوتين: بدر وحنين. وقاتل بالمنجنيق منها في غزوة واحدة وهي الطائف، وتحصن في الخندق في واحدة وهي الأحزاب، أشار به عليه سلمان الفارسي t].ا.هـ.

قال زين العابدين بن الحسين بن عليّ:«كنا نعلم مغازي رسول الله r كما نعلم السور من القرآن»، وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها.

والآن فلنذكر غزوات الرسول r وسراياه وبعوثه بشيء من التفصيل، وسأقتصر على ذكر أشهرها وأظهرها، وسأكتفي ببيان وتعليق يسير مما جمعته ونقلته من مَظَانٍّ متفرقة، وربما أطلت إن استدعى الأمر، وهي على النحو التالي:

سرية حمزة إلى سيف البحر: وكان أول لواء عقده رسول الله r لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره وكان لواء أبيض وكان حامله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي حليف حمزة وبعثه في ثلاثين رجلا من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل. فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا واصطفوا للقتال فمشى مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفا للفريقين جميعا ، بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا.

سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب: ثم بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في سرية إلى بطن رابغ في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة وعقد له لواء أبيض وحمله مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانوا في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري فلقي أبا سفيان بن حرب، وهو في مائتين على بطن رابغ، على عشرة أميال من الجحفة، وكان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال وإنما كانت مناوشة وكان سعد بن أبي وقاص فيهم وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ثم انصرف الفريقان على حاميتهم. قال ابن إسحاق: وكان على القوم عكرمة بن أبي جهل، وقدم سرية عبيدة على سرية حمزة.

سرية سعد إلى بطن رابغ: ثم بعث سعد بن أبي وقاص إلى الخرار في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر وعقد له لواء أبيض وحمله المقداد بن عمرو، وكانوا عشرين راكبا يعترضون عيرا لقريش، وعهد أن لا يجاوز الخرار، فخرجوا على أقدامهم فكانوا يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى صبحوا المكان صبيحة خمس فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غزوة وَدَّان: وهي قرية بين مكة والمدينة، وكان خروجه لها ليعترض عيراً لقريش فوجدها قد سبقته فرجع، وقعت يوم في صفر من السنة الثانية من الهجرة بعد سنة من وصول رسول الله r إلى المدينة في منطقة يقال لها وَدَّان موضع يبعد عن المدينة ٢٥٠ كلم وكذلك تسمى **الأبواء** وهو وادي بالحجاز به قبر أمنة أم رسول الله r ، وهي أول غزوة غزاها بنفسه r وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض واستخلف على المدينة سعد بن عبادة، وخرج في المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش، فلم يلق كيدا، وفي هذه الغزوة وادع مخشي بن عمرو الضمري وكان سيد بني ضمرة في زمانه على ألا يغزو بني ضمرة، ولا يغزوه ولا أن يكثروا عليه جمعا، ولا يعينوا عليه عدوا، وكتب بينه وبينهم كتابا، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

غزوة بواط: وهو جبل جهينة بين المدينة وينبع، ثم غزا رسول الله r بواط في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرا من مهاجره وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، وكان أبيض واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، ويقال السائب بن عثمان بن مظعون وخرج في مائتين من أصحابه يعترض عيرا لقريش، فيها أمية بن خلف الجمحي، ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير فبلغ بواطا من ناحية رضوى، وهما جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة، مما يلي طريق الشام، ولما علمت عيون قريش بخروج المسلمين أسرعت القافلة بحركتها وسلكت طريقاً غير طريق القوافل المعبدة، فتخطت المسلمين، ورجع المسلمون إلى المدينة. وبين بواط والمدينة نحو أربعة برد، ففي هذه الغزوة لم يلق النبي r كيدا فرجع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خروجه r في طلب كرز الفهري: ثم خرج على رأس ثلاثة عشر شهرا من مهاجره يطلب كرز بن جابر الفهري ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب t وكان أبيض واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وكان كرز قد أغار على سرح المدينة، فاستاقه وكان يرعى بالحمى، فطلبه رسول الله r حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز ولم يلحقه فرجع إلى المدينة.

غزوة العشيرة: خرج رسول الله r في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهرا، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض واستخلف على المدينة أبا سلمة بن - عبد الأسد المخزومي، وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ولم يكره أحدا على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيرا يعتقبونها يعترضون عيرا لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العشيرة، وقيل العشيراء بالمد. وقيل العسيرة بالمهملة وهي بناحية ينبع، وبين ينبع والمدينة تسعة برد فوجد العير قد فاتته بأيام وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، وهي التي وعده الله إياها، أو المقاتلة وذات الشوكة ووفى له بوعده. وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

وجاء في صحيح البخاري في (كِتَاب الْمَغَازِي) قال: بَاب غَزْوَةِ الْعُشَيْرَةِ أَوْ الْعُسَيْرَةِ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَوَّلُ مَا غَزَا النَّبِيُّ r الْأَبْوَاءَ ثُمَّ بُوَاطَ ثُمَّ الْعُشَيْرَةَ.

وفي الصحيحين من طريق أَبِي إِسْحَاقَ كُنْتُ إِلَى جَنْبِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقِيلَ لَهُ كَمْ غَزَا النَّبِيُّ r مِنْ غَزْوَةٍ قَالَ:تِسْعَ عَشْرَةَ قِيلَ كَمْ غَزَوْتَ أَنْتَ مَعَهُ قَالَ سَبْعَ عَشْرَةَ قُلْتُ فَأَيُّهُمْ كَانَتْ أَوَّلَ قَالَ الْعُسَيْرَةُ أَوْ الْعُشَيْرُ.ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سرية نخلة: ثم بعث عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة في اثني عشر رجلا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيرا لقريش، وفي هذه السرية سمى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين وكان رسول الله r كتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ولما فتح الكتاب وجد فيه :"إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم" فقال سمعا وطاعة وأخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم، فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه وبعد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله كان في الإسلام وأول قتيل في الإسلام وأول أسيرين في الإسلام وأنكر رسول الله r عليهم ما فعلوه واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك وزعموا أنهم قد وجدوا مقالا، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام واشتد على المسلمين ذلك حتى أنزل الله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل} يقول سبحانه هذا الذي أنكرتموه عليهم وإن كان كبيرا، فما ارتكبتموه أنتم من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكفر بالله والصد عن سبيله وعن بيته وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه والشرك الذي أنتم عليه والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام وأكثر السلف فسروا الفتنة ها هنا بالشرك، ولما كان في شعبان من هذه السنة حولت القبلة وقد تقدم ذكر ذلك.

غزوة بدر الأولى: وبدر موضع بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها، خرج فيها النبي r لتعقب من أغار على سرح المدينة فلم يجده ويطلق عليها اسم غزوة سفوان، فحين قدم النبي r من غزوة العشيرة لم يقم بالمدينة إلا ليالي لم تبلغ العشرة حتى غزا وخرج خلف كرز بن جابر الفهري وقد أغار قبل أن يسلم على سرح المدينة أي النعم والمواشي التي تسرح للمرعى بالغداة خرج في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان بالمهملة والفاء ساكنة وقيل مفتوحة من ناحية بدر؛ ولذا قيل لها غزوة بدر الأولى وفاته كرز ولم يدركه وكان قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة وحمل اللواء وكان أبيض علي بن أبي طالب.

غزوة بدر الكبرى: وتسمى يوم الفرقان، وهي أعظم غزوات الإسلام وكانت في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة. وذلك لما بلغ محمدًا r أن قافلة تجارية يقودها أبو سفيان بن حرب تتجه من الشام عائدة إلى مكة. فخرج النبي r ومعه حوالي ٣١٣ رجلاً ليقطع الطريق عليهم، وهو الذين قال فيهم النبي r فيما توترت عنه:" لَعَلَّ اللهَّ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"، ولما بلغ أبا سفيان ذلك؛ أرسل رسولاً إلى مكة ليُحذر قريش

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويطلب الإمدادات، فأرسلت قريش جيشًا عدد جنوده يتراوح من بين الألف والتسعمائة رجلا، والتقى الجمعان عند آبار بدر حيث دارت معركة طاحنة انتصر فيها المسلمون على قلة عددهم، {وما النصر إلا من عند الله}، واكتفي بهذا لشهرتها.

غزوة بني سليم: وكانت بعد فراغه r بسبعة أيام من غزوة بدر الكبرى حيث نهض بنفسه صلوات الله وسلامه عليه إلى غزو بني سليم، حتى بلغ ماء يقال له الكدر فمكث ثلاثا ثم رجع ولم يلق حربا وكان قد استعمل على المدينة سباع بن عرفطة وقيل عبد الله بن أم مكتوم.

ثم غزا بني قينقاع: وكانوا من يهود المدينة، فنقضوا عهده فحاصرهم خمسة عشر ليلة حتى نزلوا على حكمه فشفع فيهم عبد الله بن أبي، وألح عليه فأطلقهم له وهم قوم عبد الله بن سلام، وكانوا سبعمائة مقاتل وكانوا صاغة وتجارا، فطلبوا من النبي r أن يخرجوا من ديارهم بالنساء والأولاد ويتركوا للمسلمين الأموال، فقبل منهم ذلك وأجلاهم.

غزوة السويق: لما رجع فل المشركين إلى مكة موتورين محزونين نذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو رسول الله r فخرج في مائتي راكب حتى أتى العريض في طرف المدينة ، وبات ليلة واحدة عند سلام بن مشكم اليهودي فسقاه الخمر وبطن له من خبر الناس فلما أصبح قطع أصوارا من النخل أنصار وحليفا له ثم كر راجعا ، ونذر به رسول الله r فخرج في طلبه فبلغ قرقرة الكدر، وفاته أبو سفيان وطرح الكفار سويقا كثيرا من أزوادهم يتخففون به فأخذها المسلمون فسميت غزوة السويق، وكان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك بعد بدر بشهرين، في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة، وكان قد استخلف عليها أبا لبابة، فأقام رسول الله r بالمدينة بقية ذي الحجة ثم غزا نجدا يريد غطفان، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان t فأقام هناك صفرا كله من السنة الثالثة ثم انصرف ولم يلق حربا.

غزوة ذي أمر وهي غزوة غطفان: حيث أقام بقية ذي الحجة سنة ٣ هجرية ثم غزا نجدا يريد غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فأقام بنجد صفرا من السنة الثانية كله ثم رجع ولم يلق حرباً. يقول المباركفوري في كتاب الرحيق المختوم:[هي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله قبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣ هـ. وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول اللهّ أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جُبَار من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو. وتفرق الأعداء في رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة. أما النبي فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم، وهو الماء المسمي بذي أمر فأقام هناك صفراً كله من سنة ٣ هـ أو قريباً من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين، ويستولي عليهم الرعب والرهبة، ثم رجح إلى المدينة]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غزوة الفرع وتسمى غزوة بحران: فأقام بالمدينة ربيعا الأول ثم خرج يريد قريشا، في شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها: بحران واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، فبلغ بحران معدنا بالحجاز من ناحية الفرع ، ولم يلق حربا ، فأقام هنالك ربيعا الآخر وجمادى الأولى ، ثم انصرف إلى المدينة .

غزوة أحد: وقعت في يوم السبت، السابع من شوال في السنة الثالثة للهجرة، قال ابن القيم في (زاد المعاد): ولما قتل الله أشراف قريش ببدر وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم وجاء كما ذكرنا إلى أطراف المدينة في غزوة السويق ولم ينل ما في نفسه أخذ يؤلب على رسول الله r وعلى المسلمين ويجمع الجموع فجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش وجاؤوا بنسائهم لئلا يفروا وليحاموا عنهن ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريبا من جبل أحد بمكان يقال له: عينين وذلك في شوال من السنة الثالثة واستشار رسول الله r أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة ؟ وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي وكان هو الرأي فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر وأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك وأشار عبد الله بن أبي بالمقام في المدينة وتابعه على ذلك بعض الصحابة فألح أولئك على رسول الله r فنهض ودخل بيته ولبس لأمته وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك وقالوا: أكرهنا رسول الله r على الخروج فقالوا: يا رسول الله! إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل فقال رسول الله r :"ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه"، فخرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسول الله r في ألف من الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة وكان رسول الله رأى رؤيا وهو بالمدينة رأى أن في سيفه ثلمة ورأى أن بقرا تذبح وأنه أدخل يده في درع حصينة فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون وتأول الدرع بالمدينة، فخرج يوم الجمعة فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر وقال: تخالفني وتسمع من غيري فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع فرجع عنهم وسبهم وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى وسلك حرة بني حارثة وقال: من رجل يخرج بنا على القوم من كثب؟ فخرج به بعض الأنصار حتى سلك في حائط لبعض المنافقين وكان أعمى فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول: لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه فقال:"لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر"، ونفذ رسول الله r حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي وجعل ظهره إلى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم فلما أصبح يوم السبت تعبئ للقتال وهو في سبعمائة فيهم خمسون فارسا واستعمل على الرماة - وكانوا خمسين - عبد الله بن جبير وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وألا يفارقوه ولو رأى الطير تتخطف العسكر وكانوا خلف الجيش وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم، فظاهر رسول الله r بين درعين يومئذ وأعطى اللواء مصعب بن عمير وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو واستعرض الشباب يومئذ فرد من استصغره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن القتال وكان منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزم وأجاز من رآه مطيقا وكان منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة فقيل : أجاز من أجاز لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ورد من رد لصغره عن سن البلوغ وقالت طائفة: إنما أجاز من أجاز لإطاقته ورد من رد لعدم إطاقته ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك قالوا: وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر: فلما رآني مطيقا أجازني، وتعبت قريش للقتال وهم في ثلاثة آلاف وفيهم مائتا فارس فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ودفع رسول الله r سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق واسمه عبد عمرو بن صيفي وكان يسمى: الراهب فسماه رسول الله r الفاسق وكان رأس الأوس في الجاهلية فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله r بالعداوة فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله r ويحضهم على قتاله ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه فكان أول من لقي المسلمين فنادى قومه وتعرف إليهم فقالوا له: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر ثم قاتل المسلمين قتالا شديدا وكان شعار المسلمين يومئذ أمت، وأبلى يومئذ أبو دجانة الأنصاري وطلحة بن عبيد الله وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأنس بن النضر وسعد بن الربيع، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار فانهزم عدو الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله r بحفظه وقالوا: يا قوم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغنيمة فذكرهم أميرهم عهد رسول الله r فلم يسمعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا في طلب الغنيمة وأخلو الثغر وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر خاليا قد خلا من الرماة فجازوا منه وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة وهم سبعون وتولى الصحابة وخلص المشركون إلى رسول الله r فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته اليمنى وكانت السفلى وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله وكان الذي تولى أذاه r عمرو بن قمئة وعتبة بن أبي وقاص وقيل: إن عبد الله بن شهاب الزهري عم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري هو الذي شجه وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان فأتى بها رسول الله r فردها عليه بيده وكانت أصح عينيه وأحسنهما وصرخ الشيطان بأعلى صوته : إن محمدا قد قتل ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين وفر أكثرهم وكان أمر الله قدرا مقدورا، ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال:ما تنتظرون؟، فقالوا: قتل رسول الله r فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟، قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل الناس ولقي سعد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحوا من عشرين جراحة، وأقبل رسول الله r نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله r فأشار إليه أن اسكت واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم فلما استندوا إلى الجبل أدرك رسول الله r أبي بن خلف على جواد له يقال له: العوذ زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله r فلما اقترب منه تناول رسول الله r الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها فجاءت في ترقوته فكر عدو الله منهزما فقال له المشركون: والله ما بك من بأس فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون وكان يعلف فرسه بمكة ويقول: أقتل عليه محمدا فبلغ ذلك رسول الله r فقال:"بل أنا أقتله إن شاء الله تعالى" فلما طعنه تذكر عدو الله قوله : أنا قاتله فأيقن بأنه مقتول من ذلك الجرح فمات منه في طريقه بسرف مرجعه إلى مكة وجاء علي إلى رسول الله r بماء ليشرب منه فوجده آجنا فرده وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه فأراد رسول الله r أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بهم جالسا وصار رسول الله r في ذلك اليوم تحت لواء الأنصار، وشد حنظلة الغسيل وهو حنظلة بن أبي عامر على أبي سفيان فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود فقتله وكان جنبا فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته فقام من فوره إلى الجهاد فأخبر رسول الله r أصحابه أن الملائكة تغسله ثم قال:"سلوا أهله ما شأنه" فسألوا امرأته فأخبرتهم الخبر وجعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفقهاء هذا حجة أن الشهيد إذا قتل جنبا يغسل اقتداء بالملائكة، وقتل المسلمون حامل لواء المشركين فرفعته لهم عمرة بنت علقمة الحارثية حتى اجتمعوا إليه وقاتلت أم عمارة وهي نسيبة بنت كعب المازنية قتالا شديدا وضربت عمرو بن قمئة بالسيف ضربات فوقته درعان كانتا عليه وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحا شديدا على عاتقها، وكان عمرو بن ثابت المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد قذف الله الإسلام في قلبه للحسنى التي سبقت له منه فأسلم وأخذ سيفه ولحق بالنبي r فقاتل فأثبت بالجراح ولم يعلم أحد بأمره فلما انجلت الحرب طاف بنو عبد الأشهل في القتلى يلتمسون قتلاهم فوجدوا الأصيرم وبه رمق يسير فقالوا: والله إن هذا الأصيرم ما جاء به لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ثم سألوه ما الذي جاء بك؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله ورسوله ثم قاتلت مع رسول الله r حتى أصابني ما ترون ومات من وقته فذكروه لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال:"هو من أهل الجنة" قال أبو هريرة : ولم يصل لله صلاة قط، ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قوام الإسلام بهم فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوءك فقال: قد كان في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ثم قال: أعل هبل فقال النبي r :"ألا تجيبونه" فقالوا: ما نقول؟ قال:"قولوا: الله أعلى وأجل" ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال:"ألا تجيبونه" قالوا: ما نقول؟، قال:"قولوا: الله مولانا ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مولى لكم"، ..... ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال فأجابه عمر فقال: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، وقال ابن عباس : ما نصر رسول الله r في موطن نصره يوم أحد فأنكر ذلك عليه فقال : بيني وبين من ينكر كتاب الله إن الله يقول:{ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه}، وقال ابن عباس: والحَسُّ: القتل ولقد كان لرسول الله r ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب المشركين سبعة أو تسعة وذكر الحديث، وأنزل الله عليهم النعاس أمنة منه في غزاة بدر وأحد والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن وهو من الله وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان، وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله r ففي الصحيحين: عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول الله r يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد.ا.هـ.

غزوة حمراء الأسد: وكانت يوم الأحد لثمان خلون من شوال في السنة الثالثة للهجرة على رأس اثنين وثلاثين شهرا، ودخل المدينة يوم الجمعة وغاب خمسا. قالوا لما صلى رسول الله r الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا في المسجد على بابه - سعد بن عبادة، وحباب بن المنذر وسعد بن معاذ، وأوس بن خولي وقتادة بن النعمان، وعبيد بن أوس في عدة منهم. فلما انصرف رسول الله من الصبح أمر بلالا أن ينادي إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل: وكانت وقعة أحد يوم السبت في سابع شوال سنة ثلاث كما تقدم فرجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة فأقام بها بقية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فلما استهل هلال المحرم بلغه أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوان بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله r فبعث أبا سلمة وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلا من الأنصار والمهاجرين فأصابوا إبلا وشاء ولم يلقوا كيدا فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة.

فصل: فلما كان خامس المحرم بلغه أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي قد جمع له الجموع فبعث إليه عبد الله بن أنيس فقتله قال عبد المؤمن بن خلف: وجاءه برأسه فوضعه بين يديه فأعطاه عصا فقال: هذه آية بيني وبينك يوم القيامة فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه وكانت غيبته ثمان عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، فلما كان صفر قدم عليه قوم من عضل والقارة وذكروا أن فيهم إسلاما وسألوه أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فبعث معهم ستة نفر في قول ابن إسحاق وقال البخاري : كانوا عشرة وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي وفيهم خبيب بن عدي فذهبوا معهم فلما كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا فجاؤوا حتى أحاطوا بهم فقتلوا عامتهم واستأسروا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما وباعوهما بمكة وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر فأما خبيب فمكث عندهم مسجونا ثم أجمعوا قتله فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم فلما أجمعوا على صلبه قال : دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه فصلاهما فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت ثم قال: اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألّبُوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمَعِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكلهم مُبْدِي العداوة جاهدا ... علي لأني في وَثَاقٍ بِمَضْيَعِ
وقد قَرَّبُوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبْتُ مِن جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ
إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مَصْرَعِي
فذا العَرْشِ صَبِّرْنِي على ما يُرَاد بِي ... فَقَدْ بَضَعُوا لَحْمِي وقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وقد خَيَّرُونِي الكُفْرَ والموت دُونَه ... فَقَد ذَرِفَت عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
ومَا بِي حِذَار الموت إني لَمَيِّتٌ ... وإنَّ إلى ربي إيَابِي ومَرْجِعِي
ولَسْتُ أُبَالِي حين أقْتَلُ مسلما ... على أيِّ شِقٍّ كان في الله مَضْجِعِي
وذلك في ذَاتِ الإله وإن يَشَأْ ... يُبَارِك على أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ للعَدُوِّ تَخَشُّعاً ... ولا جَزَعاً إنِّي إلى الله مَرْجِعِي

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدا عندنا تضرب عنقه وإنك في أهلك فقال: **لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.** وفي الصحيح: أن خبيبا أول من سن الركعتين عند القتل، وقد نقل أبو عمر بن عبد البر عن الليث بن سعد أنه بلغه عن زيد بن حارثة أنه صلاهما في قصة ذكرها وكذلك صلاهما حجر بن عدي حين أمر معاوية بقتله بأرض عذراء من أعمال دمشق، ثم صلبوا خبيبا ووكلوا به من يحرس جثته فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتمله بجذعه ليلا فذهب به فدفنه، ورُئي خبيب وهو أسير يأكل قطفا من العنب وما بمكة ثمرة وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه، وأما موسى بن عقبة فذكر سبب هذه الوقعة أن رسول الله **r** بعث هؤلاء الرهط يتحسسون له أخبار قريش فاعترضهم بنو لحيان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: وفي هذا الشهر بعينه وهو صفر من السنة الرابعة كانت وقعة بئر معونة

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك المدعو ملاعب الأسنة قدم على رسول الله r المدينة فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم فقال : إني أخاف عليهم أهل نجد فقال أبو براء: أنا جار لهم فبعث معه أربعين رجلا في قول ابن إسحاق وفي الصحيح: أنهم كانوا سبعين والذي في الصحيح: هو الصحيح وأمر عليهم المنذر بن عمرو - أحد بني ساعدة الملقب بالمعنق ليموت - وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فنزلوا هناك ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله r إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال: فزت ورب الكعبة ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء فاستنفر بني سليم فأجابته عصية ورعل وذكوان فجاؤوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله r فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار فإنه ارتث بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة فنزل المنذر بن محمد فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه وأسر عمرو بن أمية الضمري فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه ورجع عمرو بن أمية فلما كان بالقرقرة من صدر قناة نزل في ظل شجرة وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه فلما ناما فتك بهما عمرو وهو يرى أنه قد أصاب ثأرا من أصحابه وإذا معهما عهد من رسول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله r لم يشعر به فلما قدم أخبر رسول الله r بما فعل فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما، فكان هذا سبب غزوة بني النضير]ا.هـ.

غزوة بني النضير: حدثت في السنة الرابعة للهجرة في ربيع الأول في منازل بني النضير جنوب المدينة المنورة ويهود بني النضير قيل بلغ عددهم ١٥٠٠ وأتت هذه الغزوة بعد محاولة يهود بني النضير محاولة اغتيال الرسول r فإنه خرج r إليهم ليعينوه في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، لما بينه وبينهم من الحلف فقالوا: نعم وجلس هو وأبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه فاجتمع اليهود وتشاوروا وقالوا: من رجل يلقي على محمد هذه الرحى فيقتله؟ فانبعث أشقاها عمرو بن جحاش لعنه الله ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله يعلمه بما هموا به فنهض رسول الله r من وقته راجعا إلى المدينة ثم تجهز وخرج بنفسه لحربهم فحاصرهم ست ليال واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في ربيع الأول.

غزوة ذات الرقاع وهي غزوة نجد: وقد غزا رسول الله r بنفسه هذه الغزوة، وذلك لما بلغه أن قبائل من نجد يتهيئون لحربه، فخرج إليهم r في جمادى الأولى من السنة الرابعة وقيل: في المحرم يريد محارب وبني ثعلبة بن سعد بن غطفان واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري وقيل: عثمان بن عفان وخرج في أربعمائة من أصحابه وقيل: سبعمائة فلقي جمعا من غطفان فتواقفوا ولم يكن بينهم قتال إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف، قال البن القيم في (زاد المعاد) هكذا قال ابن إسحاق وجماعة من أهل السير والمغازي في تاريخ هذه الغزاة وصلاة الخوف بها وتلقاه الناس عنهم وهو مشكل جدا.ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن إسحاق:حتى نزل نخلا، وهي غزوة ذات الرقاع. قال ابن هشام: وإنما قيل لها: غزوة ذات الرقاع، لأنهم رقعوا فيها راياتهم، ويقال ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع. وقيل: اسم لصخور فيها بقع حمر وبيض وسود في جبل بجهة نجد.

غزوة بدر الآخرة: كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان سنة ٤ هـ ، وتسمى هذه الغزوة ببدر الآخرة، وبدر الصغرى، وبدر الثانية، وبدر الموعد.

وذلك لما انصرف أبو سفيان ومن معه يوم أحد نادى:"إن موعدكم بدر"، فقال رسول الله r لرجل من أصحابه قل:"نعم هو بيننا وبينك موعد".

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل: وقد تقدم أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أحد : موعدكم وإيانا العام القابل ببدر فلما كان شعبان وقيل: ذو القعدة من العام القابل خرج رسول الله r لموعده في ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس وحمل لواءه علي بن أبي طالب واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة فانتهى إلى بدر فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا فلما انتهوا إلى مر الظهران - على مرحلة من مكة - قال لهم أبو سفيان: إن العام عام جدب وقد رأيت أني أرجع بكم فانصرفوا راجعين وأخلفوا الموعد فسميت هذه بدر الموعد وتسمى بدر الثانية].ا.هـ.

غزوة دومة الجَنْدَل: وهي جهة بين المدينة المنورة ودمشق، على بعد خمس ليال من دمشق وخمس عشرة ليلة من المدينة، بلغ محمد أن بها جمعا من الأعراب يعتدون على من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمر بهم وأنهم يريدون القرب من المدينة، فخرج إليهم في ألف من أصحابه، وقعت غزوة دومة الجندل في ربيع أول سنة خمس للهجرة في منطقة دومة الجندل التي تقع على حدود الشام في منطقة الجوف شمال شرقي تبوك.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل: في غزوة دُومة الجندل، وهي بضم الدال، وأما دَومة بالفتح فمكان آخر خرج إليها رسول الله r في ربيع الأول سنة خمس وذلك أنه بلغه أن بها جمعا كثيرا يريدون أن يدنوا من المدينة وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وهي من دمشق على خمس ليال فاستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري وخرج في ألف من المسلمين ومعه دليل من بني عذرة يقال له: مذكور فلما دنا منهم إذا هم مغربون وإذا آثار النعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ونزل رسول الله r بساحتهم فلم يجد فيها أحدا فأقام بها أياما وبث السرايا وفرق الجيوش فلم يصب منهم أحدا فرجع رسول الله r إلى المدينة ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن]ا.هـ.

غزوة المريسيع أو بني المُصْطَلِق: وهم حي من خزاعة ساعدوا قريشا على حرب المسلمين في غزوة أحد ثم تجمعوا لحرب المسلمين، فخرج إليهم رسول الله r في جمع كثير فالتقى الجمعان بجهة المريسيع وهو ماء لقبيلة خزاعة؛ فانهزم المشركون بين قتيل وأسير، وقد تزوج محمد جويرية بنت زعيمهم الحارث وأعتق سائر نسائهم، وفي أثناء رجوع المسلمين من هذه الغزوة حصلت حادثة الإفك المشهورة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل: في غزوة المريسيع وكانت في شعبان سنة خمس وسببها: أنه لما بلغه r أن الحارث بن أبي ضرار سيد بن المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله r فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم له ذلك فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله r فأخبره خبرهم فندب رسول الله r الناس فأسرعوا في الخروج وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة وقيل: أبا ذر وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي وخرج يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله r وقتله عينه الذي كان وجهه ليأتيه بخبره وخبر المسلمين فخافوا خوفا شديدا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب وانتهى رسول الله r إلى المريسيع وهو مكان الماء فضرب عليه قبته ومعه عائشة وأم سلمة فتهيؤوا للقتال وصف رسول الله r أصحابه وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق وراية الأنصار مع سعد بن عبادة فترامو بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله r أصحابه فحملوا حملة رجل واحد فكانت النصرة وانهزم المشركون وقتل من قتل منهم وسبى رسول الله r النساء والذراري والنعم والشاء ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد هكذا قال عبد المؤمن بن خلف في سيرته وغيره وهو وهم فإنه لم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله r على بني المصطلق وهم غَارُّون وذكر الحديث، وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فأدى عنها رسول الله r وتزوجها فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا وقالوا :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصهار رسول الله r ، قال ابن سعد : وفي هذه الغزوة سقط عقد لعائشة فاحتبسوا على طلبه فنزلت آية التيمم]ا.هـ.

فصل:قال المباركفوري في (الرحيق المختوم):[البعوث والسرايا بعد غزوة المُرَيْسِيع:

١ ـ سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدَوْمَة الجَنْدَل، في شعبان سنة ٦ هـ. أقعده رسول الله r بين يديه وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب، وقال له:"إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم"، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تُمَاضِر بنت الأصبغ، وهي أم أبي سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

٢ ـ سرية على بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفَدَك، في شعبان سنة ٦ هـ. وذلك أنه بلغ رسول الله r أن بها جمعاً يريدون أن يمدوا اليهود. فبعث إليهم علياً في مائتي رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عيناً لهم، فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر. ودل العين على موضع تجمع بني سعد، فأغار عليهم علي، فأخذ خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظُّعنُ، وكان رئيسهم وَبَر بن عُلَيْم.

٣ ـ سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى، في رمضان سنة ٦هـ. كان بطن من فَزَارة يريد اغتيال النبي r ، فبعث رسول الله r أبا بكر الصديق. قال سَلَمَة بن الأكْوَع: وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة، فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل، ورأيت طائفة وفيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، وفيهم امرأة هي أم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قِرْفَة، عليها قَشْعٌ من أدِيم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوبا، وقد سأله رسول الله r بنت أم قِرْفَة، فبعث بها إلى مكة، وفدي بها أسري من المسلمين هناك.

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي r ، وجهزت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك، فلاقت جزاءها، وقتل الثلاثون.

٤ ـ سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرَنِيِّين، في شوال سنة ٦ هـ، وذلك أن رهطاً من عُكَل وعُرَينَة أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها، فبعثهم رسول الله r في ذود في المراعي، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبْوَالهَا، فلما صَحُوا قتلوا راعي رسول الله r ، واستاقوا الإبل، وكفروا بعد إسلامهم، فبعث في طلبهم كرزاً الفهري في عشرين من الصحابة، ودعا على العرنيين:"اللّهم أعم عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيق من مَسَك"، فعمي الله عليهم السبيل فأدركوا، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلَتْ أعينهم، جزاء وقصاصاً بما فعلوا، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا، وحديثهم في الصحيح عن أنس.

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي مع سلمة بن أبي سلمة، في شوال سنة ٦ هـ. أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي r ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا في الاغتيال، لا هذا، ولا ذاك. ويذكرون أن عمرا قتل في الطريق ثلاثة رجال، ويقولون: إن عمرا أخذ جثة الشهيد خُبَيْب في هذا السفر، والمعروف أن خبيباً استشهد بعد الرَّجِيع بأيام أو أشهر، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤ هـ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير، أو كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة، وقد أنكر العلامة المنصورفوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة. والله أعلم.

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبني قريظة، لم يجر في واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد. ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجري الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخَضْد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية]ا.هـ.

غزوة الخندق وتُسمى أيضاً غزوة الأحزاب: وهي غزوة وقعت في شهر شوال من العام الخامس من الهجرة.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل: وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله r ويؤلبونهم عليه ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف ووافتهم بنو سليم بمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله r بمسيرهم إليه استشار الصحابة فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة فأمر رسول الله r فبادر إليه المسلمون وعمل بنفسه فيه وبادروا هجوم الكفار عليهم وكان في حفره من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به وكان حفر الخندق أمام سلع وسلع: جبل خلف ظهور المسلمين والخندق بينهم وبين الكفار، وخرج رسول الله r في ثلاثة آلاف من المسلمين فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم، وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة وهذا غلط من خروجه يوم أحد، وأمر النبي r بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة واستخلف عليها ابن أم مكتوم، وانطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة فدنا من حصنهم فأبى كعب بن أسد أن يفتح له فلم يزل يكلمه حتى فتح له فلما دخل عليه قال: لقد جئتك بعز الدهر جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها لحرب محمد قال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله r ودخل مع المشركين في محاربته فسر بذلك المشركون وشرط كعب على حيي أنه إن لم يظفروا بمحمد أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه فيصيبه ما أصابه فأجابه إلى ذلك ووفى له به، وبلغ رسول الله r خبر بني قريظة ونقضهم للعهد فبعث إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوا: هل هم على عهدهم أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون وجاهروهم بالسب والعداوة ونالوا من رسول الله r فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسول الله r لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا فعظم ذلك على المسلمين فقال رسول الله r عند ذلك:"الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين" واشتد البلاء ونجم النفاق واستأذن بعض بني حارثة رسول الله r في الذهاب إلى المدينة وقالوا:{إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا} وهم بنو سلمة بالفشل ثم ثبت الله الطائفتين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله r شهرا ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وجماعة معه أقبلوا نحو الخندق فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموه وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع ودعوا إلى البراز فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب t فبارزه فقتله الله على يديه وكان من شجعان المشركين وأبطالهم وانهزم الباقون إلى أصحابهم وكان شعار المسلمين يومئذ حم لا ينصرون، ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد رسول الله r أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما وجرت المراوضة على ذلك فاستشار السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة وإن كان شيئا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف فصوب رأيهما وقال:"إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة"، ثم إن الله عز و جل - وله الحمد - صنع أمرا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم وفل حدهم فكان مما هيأ من ذلك أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رجلا من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر t جاء إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت فمرني بما شئت فقال رسول الله r :"إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة" فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة وكان عشيرا لهم في الجاهلية فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بني قريظة إنكم قد حاربتم محمدا وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن قالوا: لقد أشرت بالرأي ثم مضى على وجهه إلى قريش فقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم قالوا: نعم قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى اليهود: إنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحدا فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم فتخاذل الفريقان وأرسل الله على المشركين جندا من الريح فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها ولا طنبا إلا قلعته ولا يقر لهم قرار وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف وأرسل رسول الله r حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم فوجدهم على هذه الحال وقد تهيؤوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للرحيل فرجع إلى رسول الله r فأخبره برحيل القوم فأصبح رسول الله r وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرا وكفاه الله قتالهم فصدق وعده وأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فدخل المدينة ووضع السلاح فجاءه جبريل عليه السلام وهو يغتسل في بيت أم سلمة فقال : أوضعتم السلاح إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها انهض إلى غزوة هؤلاء يعني بني قريظة فنادى رسول الله r :"من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة" فخرج المسلمون سراعا وكان من أمره وأمر بني قريظة ما قدمناه واستشهد يوم الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين]ا.هـ.

غزوة بني قريظة: وكانت في السنة الخامسة من الهجرة، حيث توجه رسول الله r إلى يهود بني قريظة، بعد فراغه من غزوة الخندق، وذلك إثر الغدر الذي قامت به بنو قريظة مواطأة مع قريش وكفار العرب.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[وأما قريظة فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله r وأغلظهم كفرا، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم. وكان سبب غزوهم أن رسول الله r لما خرج إلى غزوة الخندق والقوم معه صلح جاء حيي بن أخطب إلى بني قريظة في ديارهم فقال قد جئتكم بعز الدهر جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح فهلم حتى نناجز محمدا ونفرغ منه فقال له رئيسهم بل جئتني والله بذل الدهر جئتني بسحاب قد أراق ماءه فهو يرعد ويبرق فلم يزل حيي يخادعه ويعده ويمنيه حتى أجابه أصابهم ففعل ونقضوا عهد رسول الله r وأظهروا سبه فبلغ رسول الله r الخبر فأرسل يستعلم الأمر فوجدهم قد نقضوا العهد فكبر وقال أبشروا يا معشر المسلمين].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذه أخرج البخاري ومسلم حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ الله r لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلَاحَ وَاغْتَسَلَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ فَقَالَ وَضَعْتَ السِّلَاحَ فَوَالله مَا وَضَعْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"فَأَيْنَ" قَالَ هَا هُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ قَالَتْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله r .

وأمر النبي r أصحابة y بالنفير إلى بني قريظة، وأكد عليهم في ذلك، حتى قال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r يَوْمَ الْأَحْزَابِ:"لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمْ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ r فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

فانطلق r ومعه الصحابة الكرام y حتى نزلوا بساحتهم، قال ابن القيم في (زاد المعاد):[وأعطى رسول الله r الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ونازل حصون بني قريظة وحصرهم خمسا وعشرين ليلة ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد في دينه وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا إليه بالسيوف مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم وإما أن يهجموا على رسول الله r وأصحابه فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن فبعثوا إليه أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره فلما رأوه قاموا في وجهه يبكون وقالوا: يا أبا لبابة كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال نعم وأشار بيده إلى حلقه يقول إنه الذبح ثم علم من فوره أنه قد خان الله ورسوله فمضى على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله r حتى أتى المسجد مسجد المدينة، فربط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفسه بسارية المسجد وحلف ألا يحله إلا رسول الله r بيده وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدا، فلما بلغ رسول الله r ذلك قال:"دعوه حتى يتوب الله عليه"، ثم تاب الله عليه وحله رسول الله r بيده ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله r فقامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم فقال ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا، فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم لجرح كان به فأركب حمارا وجاء إلى رسول الله r فجعلوا يقولون له وهم كنفتاه يا سعد أجمل إلى مواليك، فأحسن فيهم فإن رسول الله r قد حكمك فيهم لتحسن فيهم وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم فلما انتهى سعد إلى النبي r قال للصحابة قوموا إلى سيدكم فلما أنزلوه قالوا: يا سعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك، قال وحكمي نافذ عليهم؟. قالوا: نعم. قال وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال على من ها هنا وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله r إجلالا له وتعظيما؟ قال:"نعم وعَلَيَّ". قال فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال فقال رسول الله r لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يعلم أين ذهب وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد فلما حكم فيهم بذلك أمر رسول الله r بقتل كل من جرت عليه الموسى منهم ومن لم ينبت ألحق بالذرية فحفر لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم وكانوا ما بين الستمائة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى السبعمائة ولم يقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة كانت طرحت على رأس سويد بن الصامت رحى، فقتلته وجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالا، فقالوا لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ فقال أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعي لا ينزع والذاهب منكم لا يرجع هو والله القتل. قال مالك في رواية ابن القاسم: قال عبد الله بن أبي لسعد بن معاذ في أمرهم إنهم أحد جناحي وهم ثلاثمائة دارع وستمائة حاسر فقال قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ولما جيء بحيي بن أخطب إلى بين يديه ووقع بصره عليه قال أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب ثم قال يا أيها الناس لا بأس قدر الله وملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم حبس فضربت عنقه. واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله من رسول الله فوهبهم له فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك لي رسول الله r ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك. فقال سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة فضرب عنقه وألحقه بالأحبة من اليهود، فهذا كله في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم عقب كل غزوة من الغزوات الكبار. فغزوة بني قينقاع عقب بدر، وغزوة بني النضير عقب غزوة أحد، وغزوة بني قريظة عقب الخندق. وأما يهود خيبر، فسيأتي ذكر قصتهم إن شاء الله تعالى].ا.هـ.

غزوة بني لحيان: قال ابن القيم في (زاد المعاد):[ثم خرج رسول الله r إلى بني لحيان بعد قريظة بستة أشهر ليغزوهم فخرج رسول الله r في مائتي رجل وأظهر أنه يريد الشام واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران واد من أودية بلادهم وهو بين أمج وعسفان حيث كان مصاب أصحابه فترحم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليهم ودعا لهم وسمعت بنو لحيان فهربوا في رءوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد فأقام يومين بأرضهم وبعث السرايا فلم يقدروا عليهم فسار إلى عسفان فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ثم رجع إلى المدينة وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة].ا.هـ.

غزوة الغابة وتسمى بـ (ذي قُرَد): قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل في غزوة الغابة:ثم أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبد الله بن غطفان على لقاح النبي r التي بالغابة فاستاقها وقتل راعيها وهو رجل من عسفان واحتملوا امرأته قال عبد المؤمن بن خلف وهو ابن أبي ذر وهو غريب جدا فجاء الصريخ ونودي يا خيل الله اركبي وكان أول ما نودي بها وركب رسول الله r مقنعا في الحديد فكان أول من قدم إليه المقداد بن عمرو في الدرع والمغفر فعقد له رسول الله r اللواء في رمحه وقال " امض حتى تلحقك الخيول إنا على أثرك " واستخلف رسول الله r ابن أم مكتوم وأدرك سلمة بن الأكوع القوم وهو على رجليه فجعل يرميهم بالنبل ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

حتى انتهى إلى ذي قرد وقد استنقذ منهم جميع اللقاح وثلاثين بردة قال سلمة فلحقنا رسول الله r والخيل عشاء فقلت يا رسول الله إن القوم عطاش فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح وأخذت فقال رسول الله r :"ملكت فأسجح" ثم قال "إنهم الآن ليقرون في غطفان". وذهب الصريخ بالمدينة إلى بني عمرو بن عوف فجاءت الأمداد ولم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله r بذي قرد. قال عبد المؤمن بن خلف فاستنقذوا عشر لقاح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأفلت القوم بما بقي وهو عشر. قلت: وهذا غلط بين والذي في "الصحيحين": أنهم استنقذوا اللقاح كلها، ولفظ مسلم في "صحيحه" عن سلمة: حتى ما خلق الله من شيء من لقاح رسول الله r إلا خلفته وراء ظهري واستلبت منهم ثلاثين بردة].ا.هـ.

فصل: قال المباركفوري في كتابه (الرحيق المختوم):[ثم تابع رسول الله r في إرسال البعوث والسرايا، وهاك صورة مصغرة منها:

١ ـ سرية عُكَّاشَة بن مِحْصَن إلى الغَمْر في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمْر، ماء لبني أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة.

٢ ـ سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى ذي القَصَّة في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى ذي القصة في ديار بني ثعلبة، فكمن القوم لهم ـ وهم مائة ـ فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً.

٣ ـ سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة في ربيع الآخر سنة ٦ هـ، وقد بعثه النبي r على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بني ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم، وغنموا نَعَما وشاء .

٤ ـ سرية زيد بن حارثة إلى الجَمُوم في ربيع الآخر سنة ٦هـ ـ والجموم ماء لبني سليم في مَرِّ الظَّهْرَان ـ خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مُزَيْنَة يقال لها : حليمة، فدلتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسري، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله r للمزينية نفسها وزوجها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥ ـ سرية زيد إلى العِيص في جمادي الأولي سنة ٦ هـ في سبعين ومائة راكب، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص خَتَن رسول الله r . وأفلت أبو العاص، فأتي زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله r رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله r على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدي الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله r زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، كما ثبت في الحديث الصحيح ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد، أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معني، كما أنه ليس بصحيح سنداً . والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح. ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان، وقد بسطنا الكلام شيئاً في تعليقنا على بلوغ المرام. وجنح موسي بن عقبة إلى أن هذا الحادث وقع في سنة ٧هـ من قبل أبي بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ ـ سرية زيد أيضاً إلى الطَّرِف أو الطَّرِق في جمادي الآخر سنة ٦ هـ . خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله r سار إليهم، فأصاب من نَعَمِهِم عشرين بعيراً، وغاب أربع ليال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧ ـ سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى في رجب سنة ٦ هـ . خرج زيد في اثني عشر رجلاً إلى وادي القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادي القرى ؛ فقتلوا تسعة، وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة.

٨ ـ سرية الخَبَط ـ تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ـ قال جابر : بعثنا النبي r في ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقي إلينا البحر دابة يقال لها : العَنْبَر، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنَّا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمة وَشَائِق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله r فذكرنا له ذلك، فقال:"هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمة شيء تطعمونا" فأرسلنا إلى رسول الله r منه.

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية].ا.هـ.

غزوة الحديبية: ولم يقع فيها قتال، بل وقع فيها الصلح المشهور بين النبي r وكافر قريش، الذي سماه الله تعالى فتحا ونزلت فيها سورة الفتح، {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: ١]، وجرى فيها ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أَبِي وَائِلٍ قَالَ قَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ يَوْمَ صِفِّينَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ r يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَلَوْ نَرَى قِتَالاً لَقَاتَلْنَا وَذَلِكَ فِي الصُّلْحِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَى رَسُولَ الله r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ قَالَ:"بَلَى". قَالَ أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ قَالَ:"بَلَى". قَالَ فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ:"يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا". قَالَ فَانْطَلَقَ عُمَرُ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظًا فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ قَالَ بَلَى. قَالَ أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ قَالَ بَلَى. قَالَ فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا. قَالَ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ الله r بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله أَوَفَتْحٌ هُوَ قَالَ:"نَعَمْ". فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ.

وجاء في صحيح البخاري:بَاب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ الله r زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ r إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَالله مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ r حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ r مَا خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ فَعَدَلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ الله r الْعَطَشُ فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَالله مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ الله r مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ وَمَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ فَقَالَ رَسُولُ الله r إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ فَقَالَ بُدَيْلٌ سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ قَالَ فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ r فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى قَالَ أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ قَالُوا بَلَى قَالَ فَهَلْ تَتَّهِمُونِي قَالُوا لَا قَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ قَالُوا ائْتِهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ r فَقَالَ النَّبِيُّ r نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَالله لَأَرَى وُجُوهًا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ قَالَ وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ r فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ r وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ r ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ وَقَالَ لَهُ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ الله r فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فَقَالَ أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ r أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ r بِعَيْنَيْهِ قَالَ فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ الله r نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ r مُحَمَّدًا وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ r وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ الله r هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَصْحَابِهِ قَالَ رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ r هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ r فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعْمَرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ r لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ قَالَ مَعْمَرٌ قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ r الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ r بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ النَّبِيُّ r اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قَالَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ النَّبِيُّ r وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ r عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ فَقَالَ النَّبِيُّ r إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ قَالَ فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا قَالَ النَّبِيُّ r فَأَجِزْهُ لِي قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ قَالَ بَلَى فَافْعَلْ قَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَا أَنَا بِفَاعِلٍ قَالَ مِكْرَزٌ بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الله قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ الله r فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ الله حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ الله r وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فَوَالله إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ قَالَ عُمَرُ فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ الله r لِأَصْحَابِهِ قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا قَالَ فَوَالله مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ الله أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ حَتَّى بَلَغَ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ r إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ فَقَالُوا الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فَقَالَ أَجَلْ وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r حِينَ رَآهُ لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ r قَالَ قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ قَالَ النَّبِيُّ r وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ قَالَ وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ r تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ r إِلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ. قَالَ أَبُو عَبْد الله {مَعَرَّةٌ} الْعُرُّ الْجَرَبُ {تَزَيَّلُوا} تَمَيَّزُوا وَحَمَيْتُ الْقَوْمَ مَنَعْتُهُمْ حِمَايَةً وَأَحْمَيْتُ الْحِمَى جَعَلْتُهُ حِمًى لَا يُدْخَلُ وَأَحْمَيْتُ الْحَدِيدَ وَأَحْمَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَغْضَبْتَهُ إِحْمَاءً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غزوة خيبر: قال موسى بن عقبة : ولما قدم رسول الله r المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها ثم خرج غازيا إلى خيبر وكان الله عز وجل وعده إياها وهو بالحديبية. وقال مالك:كان فتح خيبر في السنة السادسة والجمهور على أنها في السابعة، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة فلما تصاف القوم خرج مرحب يخطر بسيفه وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب إذا الحروب أقبلت تلهب.

فنزل إليه عامر بن الأكوع وهو يقول قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر، فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر فذهب عامر يسفل له وكان سيف عامر فيه قصر فرجع عليه ذباب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه فقال سلمة للنبي r زعموا أن عامرا حبط عمله فقال:"كذب من قاله إن له أجرين" وجمع بين أصبعيه :"إنه لجاهد مجاهد قل عربي مشى بها مثله".

ولما قدم رسول الله r خيبر صلى بها الصبح وركب المسلمون فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم فلما رأوا الجيش قالوا: محمد والله محمد والخميس ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم فقال النبي r :"الله أكبر خربت خيبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" ولما دنا النبي r وأشرف عليها قال "قفوا" فوقف الجيش فقال:"اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا بسم الله"، ولما كانت ليلة الدخول قال لأعطين هذه الراية غدا رجلا يحب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله r كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله r في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال:"انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم"، فخرج مرحب وهو يقول

أنا الذي سمتني أمي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب إذا الحروب أقبلت تلهب.

فبرز إليه علي وهو يقول: أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره أوفيهم بالصاع كيل السندره.

فضرب مرحبا ففلق هامته وكان الفتح. قال موسى بن عقبة: ثم دخل اليهود حصنا لهم منيعا يقال له القموص فحاصرهم رسول الله r قريبا من عشرين ليلة وكانت أرضا وخمة شديدة الحر فجهد المسلمون جهدا شديدا فذبحوا الحمر فنهاهم رسول الله r عن أكلها وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر كان في غنم لسيده فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي فوقع في نفسه ذكر النبي r فأقبل بغنمه إلى رسول الله r فقال ماذا تقول وما تدعو إليه؟ قال أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن لا تعبد إلا الله. قال العبد فما لي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل؟ قال لك الجنة إن مت على ذلك فأسلم ثم قال يا نبي الله إن هذه الغنم عندي أمانة فقال له رسول الله r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخرجها من عندك وارمها بالحصباء فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم فقام رسول الله r في الناس فوعظهم وحضهم على الجهاد فلما التقى المسلمون واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله r اطلع في الفسطاط ثم أقبل على أصحابه وقال لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ولم يصل لله سجدة قط.

قال الواقدي: وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير: حصن منيع في رأس قلة فأقام رسول الله r ثلاثة أيام فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرا ما بالوا إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك فسار رسول الله r إلى مائهم فقطعه عليهم فلما قطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين نفر وأصيب نحو العشرة من اليهود وافتتحه رسول الله r ثم تحول رسول الله r إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم حصن ابن أبي الحقيق فتحصن أهله أشد التحصن وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق فإن خيبر كانت جانبين الأول الشق والنطاة وهو الذي افتتحه أولا والجانب الثاني : الكتيبة والوطيح والسلالم فجعلوا لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله r أن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله r أربعة عشر يوما سألوا رسول الله r الصلح وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله r انزل فأكلمك؟ فقال رسول الله r "نعم" فنزل ابن أبي الحقيق فصالح رسول الله r على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله r وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان فقال رسول الله r "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئا" فصالحوه على ذلك قال حماد بن سلمة: أنبأنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله r قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الزرع والنخل والأرض فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله r الصفراء والبيضاء واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله r لعم حيي بن أخطب:"ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير". قال أذهبته النفقات والحروب، فقال:"العهد قريب والمال أكثر من ذلك"، فدفعه رسول الله إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال:"قد رأيت حييا يطوف في خربة ها هنا"، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله r ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب وسبى رسول الله r نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا وأراد أن يجليهم منها فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم ولم يكن لرسول الله r ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها وكانوا لا يفرغون يقومون عليها فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله r أن يقرهم. وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم كما تقدم. ولم يقتل رسول الله r بعد الصلح إلا ابني أبي الحقيق للنكث الذي نكثوا فإنهم شرطوا إن غيبوا أو كتموا فقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله فغيبوا فقال لهم أين المال الذي خرجتم به من المدينة حين أجليناكم؟ قالوا: ذهب فحلفوا على ذلك فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله r إلى الزبير يعذبه فدفع رسول الله r كنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله ويقال إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله r أن يقرهم وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم كما تقدم. ولم يقتل رسول الله r بعد الصلح إلا ابني أبي الحقيق للنكث الذي نكثوا فإنهم شرطوا إن غيبوا أو كتموا فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله فغيبوا فقال لهم أين المال الذي خرجتم به من المدينة حين أجليناكم ؟ قالوا: ذهب فحلفوا على ذلك فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله r إلى الزبير يعذبه فدفع رسول الله r كنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله ويقال إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة. وسبى رسول الله r صفية بنت حيي بن أخطب وابنة عمتها وكانت صفية تحت كنانة بن أبي الحقيق وكانت عروسا حديثة عهد بالدخول فأمر بلالا أن يذهب بها إلى رحله فمر بها بلال وسط القتلى فكره ذلك رسول الله r وقال أذهبت الرحمة منك يا بلال وعرض عليها رسول الله r الإسلام فأسلمت فاصطفاها لنفسه وأعتقها وجعل عتقها صداقها وبنى بها في الطريق وأولم عليها ورأى بوجهها خضرة فقال ما هذا؟ قالت يا رسول الله أريت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه فسقط في حجري ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا فقصصتها على زوجي فلطم وجهي وقال تمنين هذا الملك الذي بالمدينة وشك الصحابة هل اتخذها سرية أو زوجة؟ فقالوا: انظروا إن حجبها فهي إحدى نسائه وإلا فهي مما ملكت يمينه فلما ركب جعل ثوبه الذي ارتدى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته فتأخروا عنه في المسير وعلموا أنها إحدى نسائه.ا.هـ. انتهى مختصرا من كلام ابن القيم (في زاد المعاد).

غزوة عمرة القضاء:قال الماركفوري في كتابه (الرحيق المختوم):[عمرة القضاء:قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه r لما هَلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوي النساء والصبيان.ا هـ .

واستخلف على المدينة عُوَيف بن الأضْبَط الدِّيلي، أو أبا رُهْم الغفاري، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جُنْدُب الأسلمي، وأحرم للعمرة من ذي الحُلَيْفَة، ولبي، ولبي المسلمون معه، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يَأجُج وضع الأداة كلها: الحَجَف والمِجَانّ والنَّبْل والرِّماح، وخلف عليها أوس بن خَوْلِي الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب: السيوف في القُرُب.

وكان رسول الله r عند الدخول راكباً على ناقته القَصْواء، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون برسول الله r يلبون. وخرج المشركون إلى جبل قُعَيْقِعَان ـ الجبل الذي في شمال الكعبة ـ ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمي يثرب، فأمر النبي r أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين. ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، وإنما أمرهم بذلك ليري المشركين قوته كما أمرهم بالاضطباع، أي أن يكشفوا المناكب اليمني، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودخل رسول الله r مكة من الثنية التي تطلعه على الحَجُون ـ وقد صف المشركون ينظرون إليه ـ فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بِمِحْجَنِه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله r يرتجز متوشحاً بالسيف :

وفي حديث أنس فقال عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله r ، وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبي r :"خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل". ورَمَلَ رسول الله r والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

ولما فرغ من الطواف سعي بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي، وقد وقف الهدي عند المروة، قال:"هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر"، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناساً إلى يَأْجُج، ليقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله r بمكة ثلاثاً، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضي الأجل، فخرج النبي r ، ونزل بسَرِف فأقام بها.

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة، تنادى، يا عم يا عم، فتناولها علي، واختصم فيها علي وجعفر وزيد، فقضي النبي r لجعفر؛ لأن خالتها كانت تحته.

وفي هذه العمرة تزوج النبي r بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله r قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبني بها بسرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَة، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة ـ أي المصالحة ـ التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون، وهذه العمرة تسمي بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والقصاص، والصُّلح.

وقد أرسل رسول الله r بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا، وهي كما يلي:

١ ـ سرية ابن أبي العوجاء، في ذي الحجة سنة ٧ هـ في خمسين رجلاً . بعثه رسول الله r إلى بني سُلَيْم ؛ ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالاً شديداً. جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.

٢ ـ سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفَدَك، في صفر سنة ٨ هـ. بعث في مائتي رجل، فأصابوا من العدو نعما، وقتلوا منهم قتلي.

٣ ـ سرية ذات أطلح في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو قُضَاعَة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله r كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً، فلقوا العدو، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهد كلهم إلا رجل واحد، فقد ارْتُثَّ من بين القتلى.

٤ ـ سرية ذات عِرْق إلى بني هوازن، في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخري فأرسل إليها شُجَاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلاً، فاستاقوا نَعَما من العدو، ولم يلقوا كيداً.

معركة مؤتة: قال المباركفوري في (الرحيق المختوم):[وهذه المعركة أكبر لقاء مُثْخِن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله r ، وهي مقدمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في جمادي الأولي سنة ٨ هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٩٢٦ م. و(مؤتة) بالضم فالسكون هي قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

وسبب هذه المعركة أن رسول الله r بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصْرَي. فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني ـ وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ـ فأوثقه رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله r حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

أمراء الجيش ووصية رسول الله r إليهم:أمر رسول الله r على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال:"إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة"، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم:"اغزوا بسم الله، في سبيل الله، مَنْ كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناء".

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة: ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس، وودعوا أمراء رسول الله r ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكي أحد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمراء الجيش ـ عبد الله بن رواحة ـ فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله r يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار:{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا}، فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الـرحمـن معـفـرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طـعنـة بيـدي حـران مجهزة ... بحـربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثي ... أرشـده الله من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله r مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم.

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغتته حالة رهيبة: وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل مَعَان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز الشمإلى، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْن وبَهْرَاء ويَلِي مائة ألف.

المجلس الاستشاري بمَعَان: لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم ـ الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة ـ وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمون، وأقاموا في مَعَان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتشاورون، ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله r ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجع الناس، قائلاً: يا قوم، والله إن التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو: وحينئذ بعد أن قضي الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها:(شَارِف) ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبؤوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قُطْبَة بن قتادة العُذْرِي، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري.

بداية القتال، وتناوب القواد: وهناك في مؤتة التقي الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة ـ حِبُّ رسول الله r ـ وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر صريعاً.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل. يقال: إن رومياً ضربه ضربةً قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء؛ ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين.

روى البخاري عن نافع؛ أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر يؤمئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني ظهره.

وفي رواية أخري قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية. وفي رواية العمري عن نافع زيادة:(فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده).

ولما قتل جعفر بعد أن قاتل بمثل هذه الضراوة والبسالة، أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة ثم قال:

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعَرْق من لحم فقال : شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نَهْسَة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله: وحينئذ تقدم رجل من بني عَجْلان ـ اسمه ثابت بن أقرم ـ فأخذ الراية وقال : يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً، فقد روي البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية. وفي لفظ آخر: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية.

وقد قال رسول الله r يوم مؤتة ـ مخبراً بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال:"أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم".

نهاية المعركة: ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين، كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أما تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم. ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً. ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال. وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقي الرعب في قلوب الرومان حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة. فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من براثنهم صعب جداً لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقه، وميمنته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد ـ بعد أن تراءي الجيشان، وتناوشا ساعة ـ يتأخر بالمسلمين قليلاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة.

قتلى الفريقين: واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم]ا.هـ.

سرية ذات السَّلاسِل: قال المباركفوري في (الرحيق المختوم):[ولما علم رسول الله r بموقف القبائل العربية ـ التي تقطن مشارف الشام ـ في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سبباً للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخري.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بَلِي. فبعثه إليهم في جمادي الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة؛ ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قُضَاعَة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليه، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معاً.

وعقد رسول الله r لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِي وعُذْرَةَ وبَلْقَيْنِ. فسار الليل وَكمَنَ النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مَكِيثٍ الجُهَنِي إلى رسول الله r يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار ـ فيهم أبو بكر وعمر ـ وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا . فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددا، وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس.

وسار حتى وطئ بلاد قُضَاعَة، فدوخها حتى أتي أقصي بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا.

وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله r، فأخبره بقفولهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.

وذات السلاسل بضم السين الأولي وفتحها: لغتان، بقعة وراء وادي القُرَى، بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جُذَام يقال له: السلسل، فسمي ذات السلاسل.

سرية أبي قتادة إلى خضرة: كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨ هـ ؛ وذلك لأن بني غَطَفَان كانوا يتحشدون في خَضِرَة ـ وهي أرض مُحَارِب بنَجْد ـ فبعث إليهم رسول الله r أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً، فقتل منهم، وسَبَي وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة]ا.هـ.

غزوة الفتح فتح مكة: وفيها جاء ما في صحيح مسلم حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُونَا إِلَى رَحْلِهِ فَقُلْتُ أَلاَ أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى رَحْلِي فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُصْنَعُ ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ فَقُلْتُ الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ فَقَالَ سَبَقْتَنِي. قُلْتُ نَعَمْ. فَدَعَوْتُهُمْ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَلاَ أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ فَقَالَ أَقْبَلَ رَسُولُ الله r حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الأُخْرَى وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي وَرَسُولُ الله r فِي كَتِيبَةٍ - قَالَ - فَنَظَرَ فَرَآنِي فَقَالَ «أَبُو هُرَيْرَةَ». قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ:«لاَ يَأْتِينِي إِلاَّ أَنْصَارِيٌّ». زَادَ غَيْرُ شَيْبَانَ فَقَالَ:«اهْتِفْ لِي بِالأَنْصَارِ». قَالَ فَأَطَافُوا بِهِ وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا وَأَتْبَاعًا. فَقَالُوا نُقَدِّمُ هَؤُلاَءِ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ. وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا فَقَالَ رَسُولُ الله r :"تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ". ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى ثُمَّ قَالَ:"حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا". قَالَ فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلاَّ قَتَلَهُ وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا - قَالَ - فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ لاَ قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ. ثُمَّ قَالَ:"مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ". فَقَالَتِ الأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لاَ يَخْفَى عَلَيْنَا فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ الله r حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ". قَالُوا لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ". قَالُوا قَدْ كَانَ ذَاكَ. قَالَ:"كَلاَّ إِنِّي عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ". فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ وَالله مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلاَّ الضِّنَّ بِالله وَبِرَسُولِهِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَّ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ". قَالَ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَغْلَقَ النَّاسُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَبْوَابَهُمْ - قَالَ - وَأَقْبَلَ رَسُولُ الله r حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ - قَالَ - فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ - قَالَ - وَفِي يَدِ رَسُولِ الله r قَوْسٌ وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَةِ الْقَوْسِ فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ جَعَلَ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنِهِ وَيَقُولُ:"جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ". فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا فَعَلاَ عَلَيْهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَّ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ.

وقال ابن القيم في (زاد المعاد):[**فصل في الفتح الأعظم**: الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دين الله أفواجا وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا خرج له رسول الله r بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان واستعمل على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري. وقال ابن سعد: بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم.

(سببه هو إعانة قريش بني بكر على خزاعة الداخلة في عهده r): وكان السبب الذي جر إليه وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازي والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار أن بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة عدت على خزاعة وهم على ماء يقال له الوتير: فبيتوهم وقتلوا منهم وكان الذي هاج ذلك أن رجلا من بني الحضرمي يقال له مالك بن عباد خرج تاجرا فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله فعدت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه فعدت خزاعة على بني الأسود وهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم هذا كله قبل المبعث فلما بعث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسول الله r وجاء الإسلام حجز بينهم وتشاغل الناس بشأنه فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله r وبين قريش وقع الشرط أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله r وعهده فعل ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة في عقد رسول الله r وعهده فلما استمرت الهدنة اغتنمها بنو بكر من خزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم الثأر القديم.

(خروج عمرو الخزاعي لطلب النصرة منه r): فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر فبيت خزاعة وهم على الوتير فأصابوا منهم رجالا وتناوشوا واقتتلوا وأعانت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ليلا ذكر ابن سعد منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص حتى حازوا خزاعة إلى الحرم فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة لا إله له اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟، فلما دخلت خزاعة مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع ويخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله r المدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه فقال:

يـا رب إني نـاشدا محـمـدا ... حِلْـفَ أبيـنا وأبيـه الأتْلَـدا

قـد كنتم وَلَـداً وكُنـا وَالِدَا ... ثَمَّـتَ أسْـلمنا ولم نَنْـزِع يَدَا

فانصـر هداك الله نصرا أبدا ... وادع عبـاد الله يـأتـوا مَـدَدا

فيـهـم رسـولُ الله قَدْ تَجَرَدّا ... أبْيَضَ مِثلَ البَدرِ يَسْمُو صُعُدا

إن سِيمَ خَسْفا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا ... في فَيْلَـقٍ كالبحـر يجري مُزْبِدَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن قريشا أخْلَفُوكَ الموعِدَا ... ونَقَضُوا مِيثَاقَك المُؤَكَّدا
وجَعَلُوا لي في كَدَاء رَصَدا ... وزَعَمُوا أنْ لَسْتَ تَدْعُو أحَدا
وهُمْ أذَلُّ وأقَلُّ عَدَدا ... هم بَيَّتُونَا بِالوَتِيرِ هُجَّدَا
وقَتَلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدا.

فقال رسول الله r :"نصرت يا عمرو بن سالم" ثم عرضت سحابة لرسول الله r فقال إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله r فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم رجعوا إلى مكة فقال رسول الله r للناس كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة. ومضى بديل بن ورقاء في أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان وقد بعثته قريش إلى رسول الله r ليشد العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا الذي صنعوا فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء قال من أين أقبلت يا بديل؟ فظن أنه أتى النبي r فقال سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال أوما جئت محمدا؟ قال لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيها النوى فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا.

(خروج أبي سفيان إلى المدينة ليثبت العقد ورجوعه بالخيبة): خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله r طوته عنه فقال يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت بل هو فراش رسول الله r وأنت مشرك نجس فقال والله لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى أتى رسول الله r فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله r فقال ما أنا بفاعل ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال أنا أشفع لكم إلى رسول الله r ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين يديهما فقال يا علي إنك أمس القوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا اشفع لي إلى محمد فقال ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله r على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت إلى فاطمة فقال "هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله r قال يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني قال والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال أوَ تَرَى ذلك مغنيا عني شيئا قال لا والله ما أظنه ولكني ما أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد علي شيئا ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم قد أشار علي بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني عني شيئا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال أمرني أن أجير بين الناس ففعلت فقالوا: فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا. قالوا: ويلك زاد الرجل على أن لعب بك قال لا والله ما وجدت غير ذلك.

(تجهيز الجيش): وأمر رسول الله r الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز رسول الله r فقال أي بنية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمركن رسول الله r بتجهيزه؟ قالت نعم فتجهز قال فأين ترينه يريد قالت لا والله ما أدري. ثم إن رسول الله r أعلم الناس أنه سائر إلى مكة فأمرهم بالجد والتجهيز وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها فتجهز الناس.

(كتابة حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش بمسيره r إليهم): وإخبار الوحي له r بذلك فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير رسول الله r إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا فجعلته في قرون في رأسها ثم خرجت به وأتى رسول الله r الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليا والزبير . وغير ابن إسحاق يقول بعث عليا والمقداد والزبير فقال انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان فاستنزلاها وقالا: معك كتاب؟ فقالت ما معي كتاب ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا فقال لها علي t أحلف بالله ما كذب رسول الله r ولا كذبنا والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك فلما رأت الجد منه قالت أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليهما فأتيا به رسول الله r فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله r إليهم فدعا رسول الله r حاطبا فقال ما هذا يا حاطب؟ فقال لا تعجل علي يا رسول الله والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ولكني كنت امرءا ملصقا قريش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد وليس لي فيهم قرابة يحمونهم وكان من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق فقال رسول الله r إنه قد شهد بدرا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فذرفت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم. ثم مضى رسول الله r وهو صائم والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد - وهو الذي تسميه الناس اليوم قديدا - أفطر وأفطر الناس معه.

(لقاؤه r العباس وأبا سفيان بن الحارث ابن عمه وعبد الله ابن أبي أمية ابن عمته): ثم مضى حتى نزل مر الظهران وهو بطن مر ومعه عشرة آلاف وعمى الله الأخبار عن قريش فهم على وجل وارتقاب وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلما مهاجرا فلقي رسول الله r بالجحفة وقيل فوق ذلك وكان ممن لقيه في الطريق ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية لقياه بالأبواء وهما ابن عمه وابن عمته فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو فقالت له أم سلمة لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك وقال علي لأبي سفيان فيما حكاه أبو عمر ائت رسول الله r من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف:{تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين} يكون أحد أحسن منه قولا ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله r :{لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} فأنشده أبو سفيان أبياتا منها:

لعمرك إني حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله...فهذا أواني حين أهدى فأهتدي

هداني هاد غير نفسي ودلني... على الله من طردت كل مطرد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فضرب رسول الله r صدره وقال:"أنت طردتني كل مطرد" وحسن إسلامه بعد ذلك. ويقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله r منذ أسلم حياء منه وكان رسول الله r يحبه وشهد له بالجنة وقال أرجو أن يكون خلفا من حمزة ولما حضرته الوفاة قال لا تبكوا علي فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت.

(إيقاد النيران بمر الظهران): فلما نزل رسول الله r مر الظهران نزله عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران فأوقدت عشرة آلاف نار وجعل رسول الله r على الحرس عمر بن الخطاب t .

(لقاء العباس أبا سفيان وركوبه معه إليه r): وركب العباس بغلة رسول الله r البيضاء وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة أو أحدا يخبر قريشا ليخرجوا يستأمنون رسول الله r قبل أن يدخلها عنوة قال والله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا قال يقول بديل هذه والله خزاعة حمشتها الحرب فيقول أبو سفيان خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها قال فعرفت صوته فقلت: أبا حنظلة فعرف صوتي فقال أبا الفضل ؟ قلت نعم قال ما لك فداك أبي وأمي؟ قال قلت هذا رسول الله r في الناس واصباح قريش والله قال فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله r فأستأمنه لك فركب خلفي ورجع صاحباه قال فجئت به فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين قالوا:"من هذا" فإذا رأوا بغلة رسول الله r وأنا عليها قالوا: عم رسول الله r على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا؟ وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عجز الدابة قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله r وركضت البغلة فسبقت فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله r ودخل عليه عمر فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه قال قلت يا رسول الله r إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله r فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيه الليلة أحد دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت مهلا يا عمر فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا قال مهلا يا عباس فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله r من إسلام الخطاب فقال رسول الله r اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به فذهبت فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله r فلما رآه رسول الله r قال:"ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله" قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله" قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا فقال له العباس ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك فأسلم وشهد شهادة الحق العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ففعل فمرت القبائل على راياتها كلما مرت به قبيلة قال يا عباس من هذه؟ فأقول سليم قال فيقول ما لي ولسليم ثم تمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

به القبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال ما لي ولبني فلان حتى مر به رسول الله r في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال قلت هذا رسول الله r في المهاجرين والأنصار قال ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ثم قال والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما قال قلت يا أبا سفيان إنها النبوة قال فنعم إذا قال قلت النجاء إلى قومك . وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشا . فلما حاذى رسول الله r أبا سفيان قال يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال وما قال فقال كذا وكذا فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله r بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشا . ثم أرسل رسول الله r سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى قيس ابنه ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه قال أبو عمر وروي أن النبي r لما نزع منه الراية دفعها إلى الزبير.

(رجوع أبي سفيان إلى قريش): ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشا صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين قبح من طليعة قوم قال ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قالوا : قاتلك الله وما تغني عنا دارك قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

(دخوله r مكة): وسار رسول الله r فدخل مكة من أعلاها وضربت له هنالك قبة وأمر رسول الله r خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها وكان على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر وهم الذين لا سلاح معهم وقال لخالد ومن معه إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا حتى توافوني على الصفا فما عرض لهم أحد إلا أناموه .

(مقاتلة المسلمين بعض سفهاء قريش): وتجمع سفهاء قريش وأَخِفَّاؤُها مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحا قبل دخول رسول الله r فقالت له امرأته لماذا تعد ما أرى؟ قال لمحمد وأصحابه، قالت والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي عله ... هذا سلاح كامل وأله

وذو غرارين سريع السله الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئا من قتال فقتل كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين وكانا في خيل خالد بن الوليد فشذا عنه فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلا ثم انهزموا وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته فقال لامرأته أغلقي علي بابي فقالت وأين ما كنت تقول؟ فقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه

واستقبلتنا بالسيوف المسلمه...يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضربا فلا نسمع إلا غمغمه ... لهم نهيت حولنا وهمهمه

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه.

وقال أبو هريرة: أقبل رسول الله r فدخل مكة فبعث الزبير على إحدى المجنبتين وبعث خالد بن الوليد على المجنبة الأخرى وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الحسر وأخذوا بطن الوادي ورسول الله r في كتيبته قال وقد وبشت قريش أوباشا لها فقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا فقال رسول الله r :"يا أبا هريرة" فقلت لبيك رسول الله وسعديك فقال:"اهتف لي بالأنصار ولا يأتيني إلا أنصاري" فهتف بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله r فقال:"أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم" ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى:"احصدوهم حصدا حتى توافوني بالصفا"، فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم إلا شاء، وما أحد منهم وجه إلينا شيئا r بالحجون عند مسجد الفتح.(دخول المسجد): ثم نهض رسول الله r والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بالقوس ويقول:{جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا} {جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد} والأصنام تتساقط على وجوهها]ا.هـ.

غزوة حنين: قال ابن القيم في (زاد المعاد):[**فصل في غزوة حنين**: وتسمى غزوة أوطاس وهما موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هوازن، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله r . قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله r وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، وهم قليل ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ولم يحضرها من هوازن كعب ولا دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب وكان شجاعا مجربا، وفي ثقيف سيدان لهم وفي الأحلاف قارب بن الأسود، وفي بني مالك سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري، فلما أجمع السير إلى رسول الله r ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهس ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصبي ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم. قال أين مالك؟ قيل هذا مالك ودُعِيَ له. قال يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟ قال سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال ولم؟ قال أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا: لم يشهدها أحد منهم. قال غاب الحد والجد لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب فمن شهدها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر؟ قال ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن كانت لك، لحق بك من وراءك، إن كانت عليك، ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال والله لا أفعل إنك قد كبرت وكبر عقلك والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأي فقالوا: أطعناك، فقال دريد هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع، ثم قال مالك للناس إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد وبعث عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم قال ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد. ولما سمع بهم نبي الله r بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله r وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ثم أقبل حتى أتى رسول الله r فأخبره الخبر. فلما أجمع رسول الله r السير إلى هوازن ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدا، فقال صفوان أغصبا يا محمد؟ قال:"بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك"، فقال ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح فزعموا أن رسول الله r سأله أن يكفيهم حملها، ففعل خرج رسول الله r معه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانوا اثني عشر ألفا، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميرا، ثم مضى يريد لقاء هوازن. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحدارا. قال وفي عماية الصبح وكان القوم سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه قد أجمعوا، وتهيئوا، وأعدوا فوالله ما راعنا - ونحن منحطون - إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله r ذات اليمين ثم قال إلى أين أيها الناس؟ هلم إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله وبقي مع رسول الله r نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن ابن أم أيمن، وقتل يومئذ. قال ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن، وهوازن خلفه إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه فبينا هو كذلك أهوى عليه علي بن أبي طالب، ورجل من الأنصار يريدانه قال فأتى علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله قال فاجتلد الناس. قال فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله r. قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون ورأى من كان مع رسول الله r من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأزلام لمعه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل - وقال ابن هشام: صوابه كلدة - ألا بطل السحر اليوم فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش، أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. وذكر ابن سعد عن شيبة بن عثمان الحجبي، قال لما كان عام الفتح دخل رسول الله r مكة عنوة قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثأر منه فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا، ما تبعته أبدا، وكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله r عن بغلته فأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه فالتفت إلي رسول الله r فناداني:"يا شَيْب ادن مني" فدنوت منه فمسح صدري، ثم قال:"اللهم أعذه من الشيطان" قال فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي، وبصري، ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال:ادن فقاتل بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيا لأوقعت به السيف فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فكروا كرة رجل واحد وقربت بغلة رسول الله r فاستوى عليها، وخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه ورجع إلى معسكره فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه أحد غيري حبا لرؤية وجهه وسرورا به فقال:"يا شيب الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك"، ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط قال فقلت فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله r ثم قلت: استغفر لي. فقال:"غفر الله لك"، وقال ابن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إسحاق: وحدثني الزهري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال إني لمع رسول الله r آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت قال رسول الله r يقول حين رأى ما رأى من الناس:"إلى أين أيها الناس" قال فلم أر الناس يلوون على شيء فقال:"يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة"، فأجابوا: لبيك لبيك قال فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله r حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت يا للأنصار ثم خلصت آخرا: يا للخزرج وكانوا صبرا عند الحرب فأشرف رسول الله r في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال الآن حمي الوطيس وزاد غيره:"أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"، وفي "صحيح مسلم": ثم أخذ رسول الله r حصيات فرمى بها. في وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد فما هو إلا أن رماهم فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا. وفي لفظ له إنه نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل بها وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين. وذكر ابن إسحاق عن جبير بن مطعم ، قال لقد رأيت - قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون يوم حنين - مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم فلم أشك أنها الملائكة. قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسول الله r في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال فرمي بسهم فقتل فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن أخيه فقاتلهم ففتح الله عليه فهزمهم الله وقتل قاتل أبي عامر فقال رسول الله r :"اللهم اغفر لعبيد أبي عامر وأهله واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك" واستغفر لأبي موسى. ثقيف، وأمر رسول الله r بالسبي والغنائم أن تجمع فجمع ذلك كله ووجهوه إلى الجعرانة، وكان السبي ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة فاستأنى بهم رسول الله r أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة.

(أعطى r المؤلفة قلوبهم أول الناس منهم أبو سفيان وحكيم بن حزام): ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل فقال ابني يزيد؟ فقال:"أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل"، فقال ابني معاوية؟ قال:"أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل"، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ثم سأله مائة أخرى فأعطاه وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين وذكر أصحاب المائة - وأصحاب الخمسين - وأعطى العباس بن مرداس أربعين فقال في ذلك شعرا، فكمل له المائة. ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ثم فضها على الناس فكانت سهامهم لكل رجل أربعا من الإبل وأربعين شاة. فإن كان فارسا أخذ اثني عشر بعيرا وعشرين ومائة شاة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(إرضاؤه r الأنصار): قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال لما أعطى رسول الله r ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم لقي والله رسول الله r قومه فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال فأين أنت من ذلك يا سعد قال يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. قال فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟ قال فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا ، أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله r فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:"يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم" قالوا: الله ورسوله أَمَن وأفضل. ثم قال:"ألا تجيبوني يا معشر الأنصار" قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال:"أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك أوجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا ووديا، وسلكت الأنصار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شعبا ووادیا لسلكت شعب الأنصار ووادیها، الأنصار شعار والناس دثار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار" قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله r قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله r وتفرقوا.

(قدوم أخته r من الرضاعة): وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله r من فقالت يا رسول الله إني أختك من الرضاعة قال وما علامة ذلك؟ قالت عضة عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك. قال فعرف رسول الله r العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها، فقال:"إن أحببت الإقامة فعندي محببة مكرمة وإن أحببت أن أمتعك فترجعي إلى قومك" قالت بل تمتعني وتردني إلى قومي، ففعل فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له مكحول وجارية فزوجت إحداهما من الآخر فلم يزل فيهم من نسلها بقية. وقال أبو عمر فأسلمت فأعطاها رسول الله r ثلاثة أعبد وجارية ونعما، وشاء وسماها حذافة. وقال والشيماء لقب].ا.هـ.

غزوة الطائف: قال ابن القيم في (زاد المعاد):[**فصل في غزوة الطائف**: في شوال سنة ثمان قال ابن سعد:قالوا: ولما أراد رسول الله r المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حممة الدوسي، يهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فخرج سريعا إلى قومه فهدم ذا الكفين وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا.. ميلادنا أقدم من ميلادكا.. إني حششت النار في فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا، فوافوا النبي r بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق. قال ابن سعد: ولما خرج رسول الله r من حنين يريد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطائف، قدم خالد بن الوليد على مقدمته وكانت ثقيف قد رَمُّوا حصنهم وأدخلوا فيه ما يَصْلُح لهم لسنة فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال وسار رسول الله r فنزل قريبا من حصن الطائف، وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا، كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلا، فارتفع رسول الله r إلى موضع مسجد الطائف اليوم وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب فضرب لهما قبتين وكان يصلي بين القبتين مدة حصار الطائف، فحاصرهم ثمانية عشر يوما، وقال ابن إسحاق: بضعا وعشرين ليلة.

(أول منجنيق رمي به في الإسلام): ونصب عليهم المنجنيق وهو أول ما رمي به في الإسلام. وقال ابن سعد: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان عن ثور بن يزيد، عن مكحول أن النبي r نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوما.

(قطع أعناب ثقيف): قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله r تحت دبابة ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا، فأمر رسول الله r بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون. قال ابن سعد: فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله r :"فإني أدعها لله وللرحم" فنادى منادي رسول الله r أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر فخرج منهم بضعة عشر رجلا ، منهم أبو بكرة، فأعتقهم رسول الله r ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(رحيله r من الطائف دون فتحها): ولم يؤذن لرسول الله r في فتح الطائف، واستشار رسول الله r نوفل بن معاوية الديلي، فقال:"ما ترى" فقال: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك. فأمر رسول الله r عمر بن الخطاب، فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله r فاغدوا على القتال فغدوا فأصابت المسلمين جراحات فقال رسول الله r :"إنا قافلون غدا إن شاء الله" فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله r يضحك فلما ارتحلوا واستقلوا، قال قولوا:"آيبون تائبون، عابدون لربنا حامدون"، وقيل يا رسول الله ادع الله على ثقيف. فقال اللهم اهد ثقيفا وائت بهم].ا.هـ.

غزوة تبوك: وهي آخر الغزوات الكبرى التي غزاها النبي r بنفسه، قال ابن القيم في (زاد المعاد):[**فصل في غزوة تبوك**: وكانت في شهر رجب سنة تسع قال ابن إسحاق: وكانت في زمن عُسْرَةٍ وجدب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون شخوصهم على تلك الحال وكان رسول الله r قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وَوَرَّى بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك لبعد الشقة وشدة الزمان. فقال رسول الله r ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أحد بني سلمة:"يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر" فقال يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر فأعرض عنه رسول الله r وقال قد أذنت لك ففيه نزلت الآية:{ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني}. وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر فأنزل الله فيهم:{وقالوا لا تنفروا في الحر} الآية. ثم إن رسول الله r جَدَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في سفره وأمر الناس بالجهاز وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها. قلت: كانت ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها وألف دينار عينا.

(استحمال البكائين النبي r):وذكر ابن سعد قال بلغ رسول الله r أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وجاء البكاؤون وهم سبعة يستحملون رسول الله r فقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون . وهم سالم بن عمير وعلبة بن زيد وأبو ليلى المازني وعمرو بن عنمة وسلمة بن صخر والعرباض بن سارية. وفي بعض الروايات وعبد الله بن مغفل: ومعقل بن يسار وبعضهم يقول البكاؤون بنو مقرن السبعة وهم من مزينة وابن إسحاق : يعد فيهم عمرو بن الحمام بن الجموح . وأرسل أبا موسى أصحابه إلى رسول الله r ليحملهم فوافاه غضبان فقال والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه ثم أتاه إبل فأرسل إليهم ثم قال ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير.

(فصل: قصة علبة بن زيد): وقام علبة بن زيد فصلى من الليل وبكى وقال اللهم إنك قد أمرت وما عندي ما أتقوى به مع رسولك ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس فقال النبي r أين المتصدق هذه الليلة. فلم يقم إليه أحد ثم قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أين المتصدق فليقم فقام إليه فأخبره فقال النبي r أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة.

(المعذرون من الأعراب): وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فلم يعذرهم. قال ابن سعد:وهم اثنان وثمانون رجلا وكان عبد الله بن أبي ابن سلول قد عسكر على ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين فكان يقال ليس عسكره بأقل العسكرين. واستخلف رسول الله r على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وقال ابن هشام: سباع بن عرفطة والأول أثبت.

(تخلف جمع ابن أبي وبعض الصحابة): فلما سار رسول الله r تخلف عبد الله بن أبي ومن كان معه وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة السالمي وأبو ذر ثم لحقه أبو خيثمة وأبو ذر وشهدها رسول الله r في ثلاثين ألفا من الناس والخيل عشرة آلاف فرس وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة وهرقل يومئذ بحمص.

(استخلاف علي على المدينة): قال ابن إسحاق: ولما أراد رسول الله r الخروج خلف علي بن أبي طالب على أهله فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا وتخففا منه فأخذ علي t سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله r وهو نازل بالجرف فقال يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني فقال:"كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"، فرجع علي إلى المدينة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(لحاق أبي خيثمة به r): ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله r أياما إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له ماء وهيأت له فيه طعاما فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال رسول الله r في الضح والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف ثم قال والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله r فهيئا لي زادا ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله r حتى أدركه حين نزل تبوك وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله r فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب إن لي ذنبا فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتي رسول الله r ففعل حتى إذا دنا من رسول الله r وهو نازل بتبوك قال الناس هذا راكب على الطريق مقبل فقال رسول الله r :"كن أبا خيثمة" قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله r فقال له رسول الله r :"أولى لك يا أبا خيثمة" فأخبر رسول الله r خبره فقال له رسول الله r خيرا ودعا له بخير.

(المرور بديار ثمود والنهي عن شرب مائه واستعماله للوضوء والأكل): وقد كان رسول الله r حين مر بالحجر بديار ثمود قال لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضئوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له ففعل الناس إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعيره فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ فأخبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بذلك رسول الله r فقال:"ألم أنهكم أن لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه" ثم دعا للذي خنق على مذهبه فشفي وأما الآخر فأهدته طيئ لرسول الله r حين قدم المدينة قلت: والذي في "صحيح مسلم" من حديث أبي حميد: انطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله r :"ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم منكم أحد فمن كان له بعير فليشد عقاله"، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ قال ابن هشام: بلغني عن الزهري أنه قال لما مر رسول الله r بالحجر سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال:"لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم" قلت: في "الصحيحين" من حديث ابن عمر أن رسول الله r قال:"لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم مثل ما أصابهم".صحيح البخاري: أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه وفي "صحيح مسلم": أنه أمرهم أن يعلفوا الإبل العجين وأن يهريقوا الماء ويستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة، وقد رواه البخاري أيضا وقد حفظ راويه ما لم يحفظه من روى الطرح. وذكر البيهقي أنه نادى فيهم الصلاة جامعة فلما اجتمعوا قال:"علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم" فناداه رجل فقال نعجب منهم يا رسول الله فقال ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم استقيموا وسددوا فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل:(استسقاؤه r):قال ابن إسحاق: وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك إلى رسول الله r فدعا رسول الله r فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء.

(إخبار الله نبيه r بمكان ناقته r) سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته فقال زيد بن اللصيت وكان منافقا: أليس يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله r إن رجلا يقول وذكر مقالته وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي في شعب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها فذهبوا فأتوه بها وفي طريقه تلك خرص حديقة المرأة بعشرة أوسق.

(تخلف بعضهم في الطريق): ثم مضى رسول الله r فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون تخلف فلان. فيقول دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

(إبطاء بعير أبي ذر): وتلوم على أبي ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله r ماشيا ونزل رسول الله r في بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال رسول الله r :"كن أبا ذر" فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله والله هو أبو ذر. فقال رسول الله r :"رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده".....(قصة رهط من المنافقين): رجعنا إلى قصة تبوك وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بن حمير قال بعضهم لبعض أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال إرجافا وترهيبا للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله r لعمار بن ياسر:"أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بل قلتم كذا وكذا" فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله r يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم:{ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب}، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفي عنه في هذه الآية وتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

وذكر ابن عائذ في "مغازيه" أن رسول الله r نزل تبوك في زمان قل ماؤها فيه فاغترف رسول الله r غرفة بيده من ماء فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة.

(نهيه r عن مس عين تبوك حتى يأتي): قلت: في "صحيح مسلم" إنه قال قبل وصوله إليها:"إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار فمن جاءها فلا يمسن من مائها شيئا حتى آتي" قال فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألهما رسول الله r :"هل مسستما من مائها شيئا" قالا: نعم فسبهما النبي r وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله r فيه وجهه ويديه ثم أعاده

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها فجرت العين بماء منهمر حتى استقى الناس ثم قال رسول الله r :"يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانا".

(فصل:الصلح مع صاحب أيلة): ولما انتهى رسول الله r إلى تبوك أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جربا وأذرح فأعطوه الجزية وكتب لهم رسول الله r كتابا فهو عندهم وكتب لصاحب أيلة: بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بحر أو بر].ا.هـ.

قصة الثلاثة الذين خلفوا:

قلت: وفي هذه الغزوة كانت قصة الصحابة الثلاثة الذين خُلِّفُوا y، كما في الصحيحين وهذا سياق مسلم مطولا، من طريق يُونُس عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ ثُمَّ غَزَا رَسُولُ الله r غَزْوَةَ تَبُوكَ وَهُوَ يُرِيدُ الرُّومَ وَنَصَارَى الْعَرَبِ بِالشَّامِ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ كَعْبٍ كَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ الله r فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ الله r فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ الله r وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله r لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ الله r فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَالله مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَغَزَاهَا رَسُولُ الله r فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلاَ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ الله r كَثِيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ - يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَغَزَا رَسُولُ الله r تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ فَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله r وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا. وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ. فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله r غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله r يَحْزُنُنِي أَنِّي لاَ أَرَى لِي أُسْوَةً إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله r حَتَّى بَلَغَ تَبُوكًا فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ:"مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ". قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ الله r فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ". فَإِذَا هُو أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ. فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله r قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ رَسُولَ الله r قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّى الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَصَبَّحَ رَسُولُ الله r قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله r عَلاَنِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ:"تَعَالَ". فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي:"مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ". قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنِّي وَالله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً وَلَكِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله وَالله مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. قَالَ رَسُولُ الله r :"أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ". فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَالله مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ الله r بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ الله r لَكَ. قَالَ فَوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ الله r فَأُكَذِّبَ نَفْسِي - قَالَ - ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَعِي مِنْ أَحَدٍ قَالُوا نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ - قَالَ - قُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ - قَالَ - فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ - قَالَ - فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي. قَالَ وَنَهَى رَسُولُ اللهِ r الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ - قَالَ - فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ - وَقَالَ - تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللهِ r فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ أَمْ لاَ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - قَالَ - فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. قَالَ فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلاَءِ. فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ الله r يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ الله r يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. قَالَ فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لاَ بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلاَ تَقْرَبَنَّهَا - قَالَ - فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ - قَالَ - فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الأَمْرِ - قَالَ - فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ الله r فَقَالَتْ لَهُ يَا رَسُولَ الله إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ:"لاَ وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ". فَقَالَتْ إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَوَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. قَالَ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله r فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ - قَالَ - فَقُلْتُ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ الله r وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ الله r إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ - قَالَ - فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِىَ عَنْ كَلاَمِنَا - قَالَ - ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ - قَالَ - فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. - قَالَ - فَآذَنَ رَسُولُ الله r النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَالله مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ. فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ الله r يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلَيْكَ. حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ الله r جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَالله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله r قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ:"أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ". قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله فَقَالَ:"لاَ بَلْ مِنْ عِنْدِ الله". وَكَانَ رَسُولُ الله r إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ - قَالَ - وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ - قَالَ - فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ r . فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ". قَالَ فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ - قَالَ - وَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّ اللهَّ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ - قَالَ - فَوَالله مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللهُّ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله r إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللهُّ بِهِ وَالله مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله r إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللهُّ فِيمَا بَقِيَ. قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ:{لَقَدْ تَابَ اللهُّ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) حَتَّى بَلَغَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) قَالَ كَعْبٌ وَالله مَا أَنْعَمَ اللهُّ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُّ لِلإِسْلاَمِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ الله r أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللهَّ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ وَقَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهُ:{سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}. قَالَ كَعْبٌ كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ r حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ r أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه:(زاد المعاد في هدي خير العباد):[فَصْلٌ:نَهْيُهُ r عَنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الثّلَاثَةِ لِتَأْدِيبِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ: وَفِي نَهْيِ النّبِيّ r عَنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الثّلَاثَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مَنْ تَخَلّفَ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ وَكَذِبِ الْبَاقِينَ فَأَرَادَ هَجْرَ الصّادِقِينَ وَتَأْدِيبَهُمْ عَلَى هَذَا الذّنْبِ وَأَمّا الْمُنَافِقُونَ فَجُرْمُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُقَابَلَ بِالْهَجْرِ فَدَوَاءُ هَذَا الْمَرَضِ لَا يُعْمَلُ فِي مَرَضِ النّفَاقِ وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ وَهَكَذَا يَفْعَلُ الرّبّ سُبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ فِي عُقُوبَاتِ جَرَائِمِهِمْ فَيُؤَدّبُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الّذِي يُحِبّهُ وَهُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ بِأَدْنَى زَلّةٍ وَهَفْوَةٍ فَلَا يَزَالُ مُسْتَيْقِظًا حَذِرًا وَأَمّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ وَهَانَ عَلَيْهِ فَإِنّهُ يُخَلّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ وَكُلّمَا أَحْدَثَ ذَنْبًا أَحْدَث لَهُ نِعْمَةً وَالْمَغْرُورُ يَظُنّ أَنّ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَلَا يَعْلَمُ أَنّ ذَلِكَ عَيْنُ الْإِهَانَةِ وَأَنّهُ يُرِيدُ بِهِ الْعَذَابَ الشّدِيدَ وَالْعُقُوبَةَ الّتِي لَا عَاقِبَةَ مَعَهَا]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(**وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ**): هذا إعلام بضرورة القيام بشعائر الإسلام وإظهارها، وأن النبي r مازال قائما بذلك مجاهدا بنفسه وماله وعلمه، لإقامة الدين كله، حتى يدخل الناس في السلم كافة، وحتى لا تبقى شعيرة من شعائر الإسلام، إلا ظاهرة ممكنة في الأرض، فإن هذا من صميم التوحيد، ومن صميم دعوة النبي r ، وأنه r مكث على هذا عشر سنين، ولازم ذلك حتى تَوَفَّاهُ الله تبارك وتعالى، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، ولكن دينه باق، إذْ هو دين الحي الذي لا يموت تبارك وتعالى.

والأمة مأمورة أن تسير على الدرب، متأسية مقتدية برسولها، وحبيبها وسيدها، وقائد مسيرتها، محمداً r .

كما أن في ذلك إشارة إلى الاستمرارية في فعل الخيرات، وتنوع القربات، وهكذا ينبغي أن يكون المسلمون،كما قال تعالى:{واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} أي الموت.

وجوب مقاتلة الطوائف الممتنعة إن كان ثمة شوكة:

واعلم رحمك الله: أن الأمة مجمعة، على وجوب مقاتلة الفئة الممتنعة عن العمل بشيء من شعائر الإسلام الظاهرة، حتى تقام تلك الشعيرة، ولكن لابد من استصحاب شرط توفر الشوكة القادرة على ذلك، كما فعل الصحابة y ، عندما قاتلوا ما نعي الزكاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى(٢٨/٥٥٦-٥٥٨):[**نَعَمْ، يَجُوزُ؛ بَلْ يَجِبُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ؛ مِثْلُ الطَّائِفَةِ الْمُمْتَنِعَةِ عَنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، أَوْ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ إِلَى الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ، الَّتِي سَمَّاهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَوْ الَّذِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ عَنْ سَفْكِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، **أَوْ لَا يَتَحَاكَمُونَ بَيْنَهُمْ بِالشَّرْعِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ**، كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ وَكَمَا قَاتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ e الْخَوَارِجَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ النَّبِيُّ e :"يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله} وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}،{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ}.

وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا. وَيُدْعَوْنَ قَبْلَ الْقِتَالِ إِلَى الْتِزَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ فَإِنْ الْتَزَمُوهَا اسْتَوْثَقَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ بِمَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ إِنْ أَذَلَّهُمْ، وَقَالَ:"اخْتَارُوا؛ إِمَّا الْحَرْبُ الْمُجَلِّيَةُ وَإِمَّا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ، وَقَالَ:"أَنَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ e ".

فَقَالُوا:هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجَلِّيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟، قَالَ:"تَشْهَدُونَ أَنَّ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ وَنَنْزِعُ مِنْكُمْ الْكُرَاعَ - يَعْنِي الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ - حَتَّى يَرَى خَلِيفَةُ رَسُولِ الله e وَالْمُؤْمِنُونَ أَمْرًا بَعْدُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَهَكَذَا الْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ إِذَا أَظْهَرُوا الطَّاعَةَ يُرْسَلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَيُقِيمُ بِهِمْ الصَّلَوَاتِ وَمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. وَإِمَّا أَنْ يَسْتَخْدِمَ بَعْضُ الْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ فِي جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَيَجْعَلُهُمْ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.وَإِمَّا بِأَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ السِّلَاحَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ وَيُمْنَعُونَ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ.وَإِمَّا أَنَّهُمْ يَضَعُوهُ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا؛ وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ الْمُمْتَنِعُ مِنْهُمْ مِنْ الْتِزَامِ الشَّرِيعَةِ.

وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لله وَلِرَسُولِهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.وَاَللَّهُ أَعْلَمُ]ا.هـ.

إقامة الدين ودولة الإسلام مسؤولية الجميع إن قدروا على ذلك:

فصل: واعلم أرشدك الله: أن الجهاد لإبراز شريعة الله تعالى، وإعلائها، وتنزيلها في الواقع - إذا لم توجد دولة تقوم بذلك - **واجب على عموم المسلمين**، إذا كانت لديهم الشوكة، والقدرة على القيام بهذا الواجب المتعين، وعلى الأمة وجوبا أن تسعى في إيجاد هذه الشوكة إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، كما فعل النبي **e** . ففي أول دعوته لم يقاتل، ولكنه سعى **e** في تكثير السواد، حتى جاءت بيعة الرضوان، أما اشتراط أنه لا يقوم بذلك إلا الدول، فهذا قول خاطئ، لاسيما عندما لا تكون هناك دولة تحكم بشرع الله تعالى، أو لا توجد دولة تقاتل لأجل ذلك، كما هو واقعنا اليوم، وتَأَمَّلْ أن النبي **r** لم يشترط الدولة لذلك، كما في الصحيحين واللفظ للبخاري من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي **r** قال دعانا النبي **r** فبايعناه فقال فيما أخذ علينا:"أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان".

وفي صحيح مسلم من طريق ابن عم عوف بن مالك الأشجعي يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي يقول: سمعت رسول الله r يقول:"خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم". قالوا قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال:"لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة". فعلمنا أنهم إذا أتوا كفرا بواحا أو امتنعوا عن إظهار شعائر الإسلام وجب على المسلمين قتالهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا بالشوكة الظاهرة.

مراحل البيعة العامة:

فصل: وقد مر النبي r بثلاث مراحل حتى انتهى الأمر إلى البيعة العامة:

أما المرحلة الأولى:فقد كان r في أول دعوته لا يبايع أحدا على القتال والتناصر، وإنما كان يسعى في بذل الدعوة لنشر الإسلام وتوسيع القاعدة الدعوية ويبايع على ذلك؛ ولهذا كان يقول لأحدهم:"ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي"، كما قاله لعمرو بن عبسة t ، إذ يروي لقاءه مع نبي الهدى والملحمة r ، حيث قال: فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ. قَالَ:"إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي". قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدِمَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَسُولُ الله r الْمَدِينَةَ وَكُنْتُ فِي أَهْلِي فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقُلْتُ مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَالُوا النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَتَعْرِفُنِي قَالَ:"نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ". قَالَ فَقُلْتُ بَلَى. فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ الله أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأَجْهَلُهُ.....الحديث" أخرجه مسلم.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الإعداد والتحريض على ذلك، وفي هذه المرحلة كانت بيعة العقبة الثالثة، وفيها تعاقدوا وتعاهدوا على النصر والقتال y، وأن يمنعوه r مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وذلك لما لقي الوفد من الأوس والخزرج y، فكانت نواة للانتقال إلى مرحلة القتال والمجاهدة للأعداء بالسنان، وهذه التي تسمى ببيعة القتال، ومثلها ما جرى مع أبي بصير ومن معه y.

المرحلة الثالثة: البيعة العامة، وهي التي كانت بعد الهجرة وحصول التمكين، وهو الظهور الذي ذكره النبي r لعمرو بن عبسة t في الحديث السابق.

ومن هنا نعلم الفرق بين بيعة القتال، والبيعة العامة، مع استصحاب أن هذا هو نبي الهدى والرحمة والملحمة r، فتجب طاعته r أصالة، ولكني أتحدث عمن يأتي بعده، فليس لأحد أن يطالب بالبيعة العامة وهو لم يتحقق له الظهور والامتناع والغلبة، بتكوين الدولة القائمة الظاهرة، ذات الشوكة والنكاية، بمعطيات الدول الماثلة في ذلك الزمان أو غيره، فَمُسَمَّى الدولة يخضع لمعطيات الواقع كذلك؛ ولهذا قال النبي r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعمرو بن عبسة:"إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ"، فاعتبر r بالواقع.

ثم إن هذه البيعة العامة إنما تكون أصالة بالشورى بين أهل الحل والعقد، لا بفرض النفس على الغير، وإن كُنا نؤكد على أنه إن حصل شيء من ذلك واستتب الأمر لصاحبه؛ وجبت الطاعة والدخول في السلم.

أما ما جرى في مبايعة الصديق t ، فقد كان بمشورة جمع من أهل الحل العقد، وكانت قد دلت الأدلة على أحقيته بذلك وأسبقيته t .

ومع هذا كله يقول الفاروق عمر t كما في صحيح البخاري:[إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلاً مِنْكُمْ يَقُولُ وَاللهِ لَوْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلاَنًا فَلاَ يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ أَلاَ وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ اللهَّ وَقَى شَرَّهَا وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ مَنْ بَايَعَ رَجُلاً عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يُبَايَعُ هُوَ، وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلاَ.....الحديث بطوله.

أما بيعة مع عدم تمكن واستتباب أمر، وتوفر معطيات الدولة زمانا ومكانا، وبدون مشورة لأهل الحل والعقد، فهذه ليست بيعة شرعية، ولا يصح وصفها إلا ببيعة قتال، لا بيعة عامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقة الشورى في الإسلام:

مسألة: الشورى في الإسلام، هدي نبوة، وسنة ماضية، ولكن تحديد عدد من يُسْتَشَار، لم يَرِد به نَصٌّ صَرِيح، وإنما وَرَدَ ما يدل على تحديد طبيعة من يُسْتَشَار، وهم أهل الحل والعقد، أما العدد فلم يَرِد.

وعليه، فهل إذا وقعت المشورة لعدد محدود، من أهل الحل والعقد، هل يصدق على ذلك مسمى الشورى أم لا؟، الظاهر من عُمُومَات الأدلة أنه يصدق عليها، إن كانوا رؤوسا في أهل الحل والعقد، فلا يلزم الاستقصاء، في ذلك، وعليه فدعوى أن خلافة أبي بكر الصديق t ، كانت بِغَيرِ شُوْرَى، أو أنها اسْتِبْدَاد، هو قول خاطىء، بل قد وقعت الشورى، ولا يلزم الاستقصاء، إذْ كَانَ أَهْلُ الشُّورَى، رُؤُوسَ النَّاسِ في ذلك، والناس لهم تبع، ولهذا بادر جمهور الصحابة إلى المبايعة y . **قال ابن حزم في:(الفصل في الملل والأهواء والنحل:[أما من قال أن الإمامة لا تصح إلا بعقد فضلاء الأمة في أقطار البلاد، فباطل؛ لأنه تكليف ما لا يطاق، وما ليس في الوسع وما هو أعظم الحرج]ا.هـ.**

ونقل النووي في مسلم الاتفاق عليه؛ وبهذا التصور لواقع الحال، يزول الإشكال، فيما يتعلق بطريقة تولي أبي بكر الصديق الخلافة t ، مع استصحاب خَاصِّيَّةِ أبي بكر الصديق t ، فيما تقدم من الأدلة، وفي الباب غير ذلك، فَمَنْ كَأَبِي بكر الصديق t .

مسألة: ما هي البيعة التي اعتبرها الشارع؟.

الجواب: إن المتأمل في هدي النبي r وأصحابه y ؛ يجد أن المعتبر من ذلك، ما يلي:

١ - بيعة تتم بِمَشُورَةِ رؤوس أهل الحل والعقد، في وَضْعٍ مُسْتَقِر، لا تتعدد فيه الشَّوْكَات، كما جرى في طريقة استخلاف أبي بكر الصديق t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- بيعة تتم بمشورة عامة أهل الحل والعقد، في وَضْعٍ مُسْتَقِر، لا تتعدد فيه الشَّوْكَات، كما جرى في طريقة استخلاف ذي النورين t .

٣- وَصِيَّةُ مَنْ تَوَلَّى الأمر، واستتب له الوضع واستقر، - إما بمشورة أهل الحل والعقد، أو بظهور وغلبة شوكة، بلا منازع- كما جرى في طريقة استخلاف عمر الفاروق t .

أما مشورة البعض، ثم عقد بيعة عامة، في وضع غير مستقر، مع تعدد الشَّوْكَات، ووجود النِّزَاع، فهذا لا يجوز؛ لأنه سبب لاقتتال المسلمين؛ ولأنها صورة لم يَجْرِ عليها العمل، في القَطْعِ بالبيعة العامة، لِفَصِيلٍ دُوْنَ آخر، وهو سبب لقلة التوفيق. والله أعلم.

تلخيص ضوابط البيعة العامة:

ويمكن تلخيص ضوابط البيعة العامة فيما يلي:

١- أن تكون لقرشي مسلم صالح الأهلية، وأهم ذلك أن يكون معروفا بالعلم، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t ، أَنَّ النَّبِيَّ e قَالَ:"النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ". والأحاديث في هذا كثيرة متواترة.

وأما دليل العلم فما جاء في صحيح مسلم عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي فَقَالَ ابْنَ أَبْزَى. قَالَ وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى قَالَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى قَالَ إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ e قَدْ قَالَ:"إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ". قلت: فأقره على ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- أن تكون في وضع مستقر.

٣- ألا تكون الغلبة للطاغوت، قوة وعددا.

٤- وجود امتداد وعمق إسلامي تكون فيه منعة وعصابة موحدة ناصرة مؤيدة. وهو ما يسمى اليوم بأرض المنعة، والعمق الشعبي، أو العشائري.

وهذه الشروط:(الثاني والثالث والرابع)، مأخوذة من واقع دعوة النبي r وحاله، إذ كان يقبل إسلام من يأتيه، ويأمره أن يلحق بقومه، حتى يسمع بظهور النبي r ، وهذا الظهور متمثل في ما حصل له r في المدينة، حيث أرض المَنَعَةِ والعُمْق العَشَائِرِي القَبَلِي من العِصَابَة المؤمنة الموحدة الصابرة، والغلبة الظاهرة لأهل التوحيد. ولنتذكر قول النبي r لعمرو بن عبسة t ، لما قال له:إِنِّي مُتَّبِعُكَ. قَالَ:"إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا **أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ**". وهو في صحيح مسلم كما تقدم.

٥- أن يكون ممكنا أمرا ونهيا، مضطلعا بأمور المسلمين وشؤونهم، ساع في حماية بيضة الإسلام وأهله، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ e قَالَ:"إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ".

جاء في :(إكمال المعلم شرح صحيح مسلم) للقاضي عياض:[وقوله:"إنما الإمام جُنة، يقاتل من ورائه ويتقى به" الحديث: أي أنه كالساتر وكالترس لمنعه وحمايته بيضة المسلمين، واتقائهم بمكانه ونظره عدوهم، وهو معنى قوله:"يقاتل من ورائه"]ا.هـ.

وجاء في شرح النووي على مسلم"[قَوْله r :"الْإِمَام جُنَّة"، أَيْ: كَالسِّتْرِ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَع الْعَدُوّ مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَمْنَع النَّاس بَعْضهمْ مِنْ بَعْض، وَيَحْمِي بَيْضَة الْإِسْلَام،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيَتَّقِيه النَّاس وَيَخَافُونَ سَطْوَته، وَمَعْنَى:"يُقَاتَل مِنْ وَرَائِهِ"، أَيْ: يُقَاتَل مَعَهُ الْكُفَّار وَالْبُغَاة وَالْخَوَارِج وَسَائِر أَهْل الْفَسَاد وَالظُّلْم مُطْلَقًا]ا.هـ.

وجاء في:(فتح الباري) لابن حجر :[وقوله:"إنما الإمام جنة"، بضم الجيم أي سترة؛ لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين، ويكف أذى بعضهم عن بعض، والمراد بالإمام كل قائم بأمور الناس والله أعلم]ا.هـ.

وجاء في :(معالم السنن) للخطابي:[قلت: معناه أن الإمام هو الذي يعقد العهد والهدنة بين المسلمين وبين أهل الشرك، فإذا رأى ذلك صلاحاً وهادنهم؛ فقد وجب على المسلمين أن يُجِيزُوا أمَانَه، وأن لا يَعْرِضُوا لمن عَقَدَ لهم في نفس أو مال، ومعنى الجنة العصمة والوقاية، وليس لغير الإمام أن يجعل الأمة بأسرها من الكفار أماناً، وإنما معنى قوله e :"يسعى بذمتهم أدناهم"، أن يكون ذلك في الأفراد والآحاد أو في أهل حصن أو قلعة ونحوها. فأما أن يجوز ذلك في جيل وأمة منهم فلا يجوز]ا.هـ.

وجاء في :(النهاية في غريب الأثر) لابن الأثير:[ومنه الحديث الآخر:"إنما الإمام جُنَّة يتَّقَى به ويُقاتَل من ورائه"، أي يُدْفع به العَدُوّ ويُتَّقَى بقُوَّته]ا.هـ.

وجاء في حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي:[:"إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّة"، أَيْ كَالتُّرْسِ، قَالَ الْقُرْطُبِيّ: أَيْ يُقْتَدَى بِرَأْيِهِ وَنَظَره فِي الْأُمُور الْعِظَام وَالْوَقَائِع الْخَطِرَة وَلَا يَتَقَدَّم عَلَى رَأْيه وَلَا يَنْفَرِد دُونه بِأَمْرٍ مُهِمّ، "يُقَاتَل مِنْ وَرَائِهِ"، قَالَ النَّوَوِيّ: أَيْ يُقَاتَل مَعَهُ الْكُفَّار وَالْبُغَاة وَسَائِر أَهْل الْفَسَاد وَيُنْصَر عَلَيْهِمْ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: أَيْ أَمَامه وَوَرَاءَهُ، مِنْ الْأَضْدَاد، يُقَال: بِمَعْنَى خَلْف، وَبِمَعْنَى أَمَام، وَهَذَا خَبَر عَنْ الْمَشْرُوعِيَّة، أَيْ يَجِب أَنْ يُقَاتَل أَمَام الْإِمَام، وَلَا يُتْرَك يُبَاشِر الْقِتَال بِنَفْسِهِ؛ لَمَا فِيهِ مِنْ تَعَرُّضه لِلْهَلَاكِ؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَهْلَك كُلّ مَنْ مَعَهُ، قَالَ: وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا اللَّفْظ عَلَى إِيجَازه أَمْرَيْنِ: أَنَّ الْإِمَام يُقْتَدَى بِرَأْيِهِ، وَيُقَاتَل بَيْن يَدَيْهِ، فَهُمَا خَبَرَانِ عَنْ أَمْرَيْنِ مُتَغَايِرَيْنِ، وَهَذَا أَحْسَن مَا قِيلَ فِي هَذَا الْحَدِيث، عَلَى أَنَّ ظَاهِره أَنَّهُ يَكُون إِمَامًا لِلنَّاسِ فِي الْقِتَال، وَلَيْسَ الْأَمْر كَذَلِكَ بَلْ كَمَا بَيَّنَّاهُ، :"وَيُتَّقَى بِهِ"، أَيْ شَرّ الْعَدُوّ وَأَهْل الْفَسَاد وَالظُّلْم، "فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهَ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا"، قَالَ الْقُرْطُبِيّ أَيْ أَجْرًا عَظِيمًا فَسَكَتَ عَنْ الصِّفَة لِلْعِلْمِ بِهَا قُلْت فَالتَّنْكِير فِيهِ لِلتَّعْظِيمِ]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(منهاج السنة النبوية):[فصل وأما قول الرافضي إنهم يقولون إن الإمام بعد رسول الله e أبو بكر بمبايعة عمر برضا أربعة.

فيقال له ليس هذا قول أئمة أهل السنة وإن كان بعض أهل الكلام يقولون إن الإمامة تنعقد ببيعة أربعة كما قال بعضهم تنعقد ببيعة اثنين وقال بعضهم تنعقد ببيعة واحد. فليست هذه أقوال أئمة السنة بل الإمامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها ولا يصير الرجل إماما حتى يوافقه أهل الشوكة عليها الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار إماما ولهذا قال أئمة السلف من صار له قدرة وسلطان يفعل بها مقصود الولاية فهو من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ما لم يأمروا بمعصية الله فالإمامة ملك وسلطان والملك لا يصير ملكا بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكا بذلك وهكذا كل أمر يفتقر إلى المعاونة عليه لا يحصل إلا بحصول من يمكنهم التعاون عليه ولهذا لما بويع علي رضي الله عنه وصار معه شوكة صار إماما ولو كان جماعة في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سفر فالسنة أن يؤمروا أحدهم كما قال النبي e :"لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أن يؤمروا واحدا منهم"، فإذا أمره أهل القدرة منهم صار أميرا فكون الرجل أميرا وقاضيا ووواليا وغير ذلك من الأمور التي مبناها على القدرة والسلطان متى حصل ما يحصل به من القدرة والسلطان حصلت وإلا فلا إذ المقصود بها عمل أعمال لا تحصل إلا بقدرة فمتى حصلت القدرة التي بها يمكن تلك الأعمال كانت حاصلة وإلا فلا وهذا مثل كون الرجل راعيا للماشية متى سلمت إليه بحيث يقدر أن يرعاها كان راعيا لها وإلا فلا، فلا عمل إلا بقدرة عليه فمن لم يحصل له القدرة على العمل لم يكن عاملا والقدرة على سياسة الناس إما بطاعتهم له وإما بقهره لهم فمتى صار قادرا على سياستهم بطاعتهم أو بقهره فهو ذو سلطان مطاع إذا أمر بطاعة الله ولهذا قال أحمد في رسالة عبدوس بن مالك العطار أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله e إلى أن قال ومن ولي الخلافة فأجمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين فدفع الصدقات إليه جائز برا كان أو فاجرا وقال في رواية إسحاق بن منصور وقد سئل عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية ما معناه فقال تدري ما الإمام؟، الإمام الذي يجمع عليه المسلمون كلهم يقول هذا إمام فهذا معناه والكلام هنا في مقامين أحدهما في كون أبي بكر كان هو المستحق للإمامة وأن مبايعتهم له مما يحبه الله ورسوله فهذا ثابت بالنصوص والإجماع والثاني أنه متى صار إماما فذلك بمبايعة أهل القدرة له وكذلك عمر لما عهد إليه أبو بكر إنما صار إماما لما بايعوه وأطاعوه ولو قدر أنهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يصر إماما سواء كان ذلك جائزا أو غير جائز فالحل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحرمة متعلق بالأفعال وأما نفس الولاية والسلطان فهو عبارة عن القدرة الحاصلة ثم قد تحصل على وجه يحبه الله ورسوله كسلطان الخلفاء الراشدين وقد تحصل على وجه فيه معصية كسلطان الظالمين ولو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر إماما بذلك وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة ولهذا لم يضر تخلف سعد بن عبادة لأن ذلك لا يقدح في مقصود الولاية فإن المقصود حصول القدرة والسلطان اللذين بهما تحصل مصالح الإمامة وذلك قد حصل بموافقة الجمهور على ذلك فمن قال إنه يصير إماما بموافقة واحد أو اثنين أو أربعة وليسوا هم ذوي القدرة والشوكة فقد غلط كما أن من ظن أن تخلف الواحد او الاثنين والعشرة يضره فقد غلط وأبو بكر بايعه المهاجرون والأنصار الذين هم بطانة رسول الله e والذين بهم صار للإسلام قوة وعزة وبهم قهر المشركون وبهم فتحت جزيرة العرب فجمهور الذين بايعوا رسول الله e هم الذين بايعوا أبا بكر وأما كون عمر أو غيره سبق إلى البيعة فلا بد في كل بيعة من سابق ولو قدر أن بعض الناس كان كارها للبيعة لم يقدح ذلك في مقصودها فإن نفس الاستحقاق لها ثابت بالأدلة الشرعية الدالة على أنه أحقهم بها ومع قيام الأدلة الشرعية لا يضر من خالفها ونفس حصولها ووجودها ثابت بحصول القدرة والسلطان بمطاوعة ذوي الشوكة فالدين الحق لا بد فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب}، فالكتاب يبين ما أمر الله به وما نهى عنه والسيف ينصر ذلك ويؤيده وأبو بكر ثبت بالكتاب والسنة إن الله أمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمبايعته والذين بايعوه كانوا أهل السيف المطيعين لله في ذلك فانعقدت خلافة النبوة في حقه بالكتاب والحديد وأما عمر فإن أبا بكر عهد إليه وبايعه المسلمون بعد موت أبي بكر فصار إماما لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم له وأما قوله ثم عثمان بن عفان بنص عمر على ستة هو أحدهم فاختاره بعضهم فيقال أيضا عثمان لم يصر إماما باختيار بعضهم بل بمبايعة الناس له وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان ولم يتخلف عن بيعته أحد قال الإمام أحمد في رواية حمدان بن علي ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان كانت بإجماعهم فلما بايعه ذوو الشوكة والقدرة صار إماما وإلا فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إماما ولكن عمر لما جعلها شورى في ستة عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ثم إنه خرج طلحة والزبير وسعد باختيارهم وبقي عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف واتفق الثلاثة باختيارهم على أن عبد الرحمن بن عوف لا يتولى ويولى أحد الرجلين وأقام عبد الرحمن ثلاثا حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمراء الأنصار وكانوا قد حجوا مع عمر ذلك العام فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها ولهذا قال غير واحد من السلف والأئمة كأيوب السختياني وأحمد ابن حنبل والدارقطني وغيرهم من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم وأما قوله ثم علي بمبايعة الخلق له فتخصيصه عليا بمبايعة الخلق له دون أبي بكر وعمر وعثمان كلام ظاهر البطلان وذلك أنه من المعلوم لكل من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عرف سيرة القوم أن اتفاق الخلق ومبايعتهم لأبي بكر وعمر وعثمان أعظم من اتفاقهم على بيعة علي رضي الله عنه وعنهم أجمعين وكل أحد يعلم أنهم اتفقوا على بيعة عثمان أعظم مما اتفقوا على بيعة علي والذين بايعوا عثمان في أول الأمر أفضل من الذين بايعوا عليا فإنه بايعه علي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وعبد الله بن مسعود والعباس بن عبد المطلب وأبي بن كعب وأمثالهم مع سكينة وطمأنينة بعد مشاورة المسلمين ثلاثة أيام وأما علي t فإنه بويع عقيب قتل عثمان t والقلوب مضطربة مختلفة وأكابر الصحابة متفرقون وأحضر طلحة إحضارا حتى قال من قال إنهم جاءوا به مكرها وأنه قال بايعت واللج أي السيف على قفى وكان لأهل الفتنة بالمدينة شوكة لما قتلوا عثمان وماج الناس لقتله موجا عظيما وكثير من الصحابة لم يبايع عليا كعبدالله بن عمر وأمثاله وكان الناس معه ثلاثة أصناف صنف قاتلوا معه وصنف قاتلوه وصنف لم يقاتلوه ولم يقاتلوا معه فكيف يجوز أن يقال في علي بمبايعة الخلق له ولا يقال مثل ذلك في مبايعة الثلاثة ولم يختلف عليهم أحد بل بايعهم الناس كلهم لا سيما عثمان.

وأما أبو بكر فتخلف عن بيعته سعد لأنهم كانوا قد عينوه للإمارة فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر ولكن هو مع هذا رضي الله عنه لم يعارض ولم يدفع حقا ولا أعان على باطل بل قد روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسند الصديق عن عفان عن أبي عوانه عن داود بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن هو الحميري فذكر حديث السقيفة وفيه أن الصديق قال ولقد علمت يا سعد أن رسول الله e قال وأنت قاعد:"قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم"، قال فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء، وأنتم الأمراء، فهذا مرسل حسن، ولعل حميدا أخذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن بعض الصحابة الذين شهدوا ذلك وفيه فائدة جليلة جدا، وهي أن سعد بن عبادة نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة، وأذعن للصديق بالإمارة؛ فرضى الله عنهم أجمعين]ا.هـ.

قال الحافظ ابن كثير في كتابه:(الفصول في سيرة الرسول r):[فصل ـ بيعة العقبة الأولى و الثانية ـ ثم إن رسول الله r لقي عند العقبة في الموسم نفراً من الأنصار، كلهم من الخزرج، و هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس، وعوف بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب، فدعاهم رسول الله r إلى الإسلام، فأسلموا مبادرة إلى الخير، ثم رجعوا إلى المدينة فدعوا إلى الإسلام، ففشا الإسلام فيها، حتى لم تبق دار إلا و قد دخلها الإسلام.

فلما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلاً: الستة الأوائل خلا جابر بن عبد الله بن رئاب، ومعهم: معاذ بن الحارث بن رفاعة، أخو عوف المتقدم، و ذكوان بن عبد قيس بن خلدة ـ و قد أقام ذكوان هذا بمكة حتى هاجر إلى المدينة فيقال: إنه مهاجري أنصاري ـ، وعبادة بن صامت بن قيس، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، فهؤلاء عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، وهما: أبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، فبايعوا رسول الله r كبيعة النساء، ولم يكن أمر بالقتال بعد.

فلما انصرفوا إلى المدينة، بعث معهم رسول الله r عمرو بن أم مكتوم، و مصعب بن عمير، يعلمان من أسلم منهم القرآن، و يدعوان إلى الله عز و جل، فنزلا على أبي أمامة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسعد بن زرارة، و كان مصعب بن عمير يؤمهم وقد جمع بهم يوماً بالأربعين نفساً، فأسلم على يديها بَشَرٌ كثير منهم:(أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل، الرجال والنساء، إلا الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم يومئذ، وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة، فأخبر عنه النبي r فقال:"عمل قليلاً و أجر كثيراً".

و كثر الإسلام بالمدينة وظهر، ثم رجع مصعب إلى مكة، ووافى الموسم ذلك العام خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور t .

فلما كانت ليلة العقبة ـ الثلث الأول منها ـ تسلل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فبايعوا رسول الله r خفية من قومهم ومن كفار مكة، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم و أزرهم، و كان أول من بايعه ليلتئذ البراء بن معرور، و كانت له اليد البيضاء، إذ أكد العقد و بادر إليه، وحضر العباس عم رسول الله r موثقاً مؤكداً للبيعة مع أنه كان بعد على دين قومه.

واختار رسول الله r منهم تلك الليلة اثني عشر نقيباً، وهم: أسعد بن زرارة بن عدس، وسعد بن ربيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وهو والد جابر، وكان قد أسلم تلك الليلة t ، وسعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وعبادة بن الصامت، فهؤلاء تسعة من الخزرج، ومن الأوس ثلاثة، وهم: أسيد بن الحضير بن سماك، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير، وقيل: بل أبو الهيثم بن التيهان مكانه، ثم الناس بعدهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمرأتان هما: أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو، التي قتل مسيلمة ابنها حبيب بن زيد بن عاصم بن كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، فلما تمت هذه البيعة استأذنوا رسول الله r أن يميلوا على أهل العقبة، فلم يأذن لهم في ذلك، بل أذن للمسلمين بعدها من أهل مكة في الهجرة إلى المدينة، فبادر الناس إلى ذلك، فكان أول من خرج إلى المدينة من أهل مكة أبو سلمة بن عبد الأسد، هو و امرأته أم سلمة فاحتبست دونه ومنعت سنة من اللحاق به، و حيل بينها وبين ولدها، ثم خرجت بعد السنة بولدها إلى المدينة، و شيعها عثمان بن طلحة، و يقال: إن أبا سلمة هاجر قبل العقبة الأخيرة، فالله أعلم، ثم خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً]ا.هـ.

فصل:في بيان معنى القُعُود، ومَنْ هو العَبْدُ القَاعِد:

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة؛ يجد أن الذم منصب على الذين لا يقدمون شيئا لدين الله تعالى، فلا هم ممن يجاهد بعلمه ودعوته، ولا بنفسه، ولا بماله، وكذلك على الذين تعين القتال في حقهم ولم يقوموا به، أما تسمية المجاهد بماله أو بعلمه قاعدا باعتبار أنه لم ينفر إلى القتال، فهذا قول لا أصل له، فقد سمى الله تعالى العالم القائم بعلمه المدافع عن دين الله تعالى، الساعي في دحض الباطل، وتَفْقِيهِ الأمة، سماه الله تعالى نافرا، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]، بل منع الله تعالى الأمة أن تنفر كلها إلى القتال، حتى ينفر منها جماعة إلى جهاد العلم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتأمل الآية المتقدمة، لتعلم عظيم الظلم الذي يقع فيه من يسمي أهل العلم القائمين بعلمهم في الأمة قولا وعملا، فيسميهم قاعدين، لاشك أن هذا من الجهل والخطل.

وكذلك سمى النبي r المجهز للغازي بماله، غازيا، فكيف نسميه قاعدا، إن هذا لظلم وجهل، كما في الصحيحين عن زَيْد بْن خَالِدٍ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا".

وقد فصل الله تعالى في ذلك، وبينه في قوله تعالى:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٩٥-٩٦]، فبينت الآيات أنواع الجهاد، ودلت على أن من كان في أحد هذه الأنواع؛ فلا يكون، ولا يسمى قاعدا بحال، فَذَكر الله تعالى جهاد المال، وجهاد النفس وهو ينقسم إلى جهاد العلم بالبيان والحجة والبرهان، وجهاد القتال بالبدن في سبيل الله تعالى، ومن عدا هؤلاء فهم القاعدون، فتأمل؛ حتى لا تجور في الأحكام، وحتى لا تتصور المسائل الشرعية على غير وجهها.

فصل: عَدَاوَةٌ مُفْتَعَلَةٌ ومَكِيدَةٌ مُدَبَّرَةٌ:

ولنعلم أن هناك من يحاول جاهدا أن يوجد عداوة مفتعلة بين أنواع الجهاد الثلاثة، العلم والنفس والمال، وهذا باطل قطعا والتجاري مع هذا الطرح، والتجاوب معه خذلان للأمة، وتضييع لجهودها، ولعل الغرب الكافر بقيادة أمريكا، لما فطن لخطورة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تظافر العلم والمال مع القتال بالنفس في الحرب على الاتحاد السوفيتي؛ عملت على إيجاد هذه العداوة، حتى لا تجتمع مقدرات الأمة على جهادها، والنصر حليفهم إن فعلوا، فبدأنا نسمع الطعن واللَّمز في العلماء، من بعض المنتسبين إلى الجهاد بالنفس، ونعتهم بالقعود، وبكذا وكذا، وكذلك يرمون بعض من يجاهد بماله، ثم تجاوب بعض العلماء مع ذلك، فصاروا يطعنون في المجاهدين بأنفسهم، ويرمونهم بكذا وكذا، وبدل أن يصبر هؤلاء العلماء على جهل هؤلاء؛ ليعلموهم ويرشدوهم، ويأخذوا بأيديهم، اتخذوهم خصوما لهم، وكذلك بدلا من أن ينهض عقلاء المجاهدين بأنفسهم؛ ليأخذوا زمام المبادرة، لتأليف قلوب العلماء عليهم، لمناصرتهم، ولو بالكلمة الطيبة، ناهيك عن السلاح الأعظم، ألا وهو الدعاء، أقول بدلا من التآلف والتراحم حصلت الوحشة والفرقة، والشقاق، وهذا ما يريده الأعداء؛ فتشتت الجهود، وصارت الأمة تحارب عزها وشرفها، من خلال محاربة الجهاد في سبيل الله، ومطاردة أهله، حتى امتلأت السجون بأنواع المجاهدين الثلاثة، وتَفَقَّد السجون والمعتقلات، واسأل؛ لتعلم أن الذين في السجون السياسية، هم بين عالم وطالب علم ومجاهد بنفسه وآخر بماله، والله المستعان.

والله تبارك وتعالى يقول: {أَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]، وقد كان النبي r يستعمل جميع من حوله في طاعة الله، فهذا حسان بلسانه، وهناك خالد بسيفه، وها هو أبو هريرة بعلمه، وكل بحسبه، المهم ألا تكون قاعدا عن نصرة هذا الدين، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يعني هذا ألا يكون صاحب حُسَام اللسان بشعره، مقاتلا، ولا صاحب الجهاد بعلمه مجاهدا بنفسه، كما أنه لا يعني أن يكون صاحب الجهاد بالنفس معرضا عن العلم والتعلم، بل مهما استطاع العبد أن يجمع ذلك فليفعل، ولتكن همته مصروفة إلى ما هو الأنفع لدين الله تعالى، فلا تكن منطلقاته عاطفية، بل ينظر بميزان الشرع غير عابئ بكلام الناس وأحكامهم.

وإن كثيرا من الناس ربما يحسن الضرب بالسيف، ولكنه لا يحسن معرفة العلم ومعانيه وحقائقه، وتفتقده الأمة في نوازلها، ومشاكلها، وشبه الأعداء التي يتسلطون بها عليها، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، والعكس كذلك، فليعمل الكل لدين الله تعالى، إخوة متحابين بجلال الله جل جلاله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَمَنْ عَجَزَ عَنْ الْجِهَادِ بِالْبَدَنِ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ الْجِهَادُ بِالْمَالِ كَمَا أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ الْجِهَادِ بِالْمَالِ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ الْجِهَادُ بِالْبَدَنِ]ا.هـ.

تنبيه مهم

وإنه لمن الرزايا والبلايا، ألا يَجِدَ العَبْدُ المؤمن - القادر على طلب العلم - سبيلا إلى النفير إلى أرض الجهاد بالنفس، فيقعد عاطلا عن العلم الشرعي، منشغلا ببنيات الطريق، وهذه ثُلْمَةٌ في الإسلام لا يَتَفَطَّنُ لها الكثير، وهي أحد المشاكل الكبار التي تعاني منها أمة الإسلام، أثناء إعدادها لملاقاة أعداء الله، بل الواجب على القادر على طلب العلم أن ينفر إلى العلم، ويَجِدَّ ويَجْتَهِد في ذلك، حتى إذا ذهب إلى أرض الجهاد كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النفع به أعظم، إذ أن جهادا بلا علم صحيح راسخ؛ لا يتحقق به النصر المنشود لأمة الإسلام، وإنَّ عبدا وفقه الله تعالى فانكسر عنده حاجز الخوف من الموت والأعداء، وملاقاة الشدائد والصعاب، والتعلق بهذه الحياة الدنيا، لا يليق به أبدا أن يقعد عن طلب العلم والاجتهاد فيه، مع قدرته على ذلك، حتى ينفع الله تعالى به ويدفع، فلنتنبه إلى هذا المقام الجليل العظيم، فإنه مَزَلَّةُ أَقْدَام، ومظنة غفلة، والله المستعان.

وفاة سيد الناس r وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

قوله:(وتوفي عليه الصلاة والسلام ودينه باق)، فقد مرض النبي r في شهر صفر، وتوفي في شهر ربيع عن ثلاث وستين عاماً، كما جاء ذلك مصرحاً به في البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي هذا إثبات بشريته عليه الصلاة والسلام، وأنه مات كما يموت الناس، إلا أن الأنبياء والمرسلين يخيرون قبل الموت بين البقاء في الدنيا، أو الانتقال إلى جوار الرحمن تبارك وتعالى، وما كان لِنَبِيٍّ عَلِمَ ما ادخره الله جل وعلا له من الخير العظيم والرحمة والإكرام أن يختار البقاء في دار الهم والغم والنصب والتعب والأمراض واللأوى، ولهذا اختار الأنبياء كلهم الانتقال إلى الرفيق الأعلى، وذلك لعظيم علمهم بالله جل وعلا، وبحقيقة هذه الحياة الدنيا.

توفي النبي r حين اشتد الضحى من يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة في يوم لم ير الصحابة أظلم منه، كما في مصنف ابن أبي شيبة ومسند أحمد وسنن الدارمي بسند جيد عن أَنَسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ رَدِيفَ رَسُولِ الله r بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَخْتَلِفُ إِلَى الشَّامِ وَكَانَ يُعْرَفُ وَكَانَ النَّبِيُّ r لَا يُعْرَفُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَكَانُوا يَقُولُونَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا هَذَا الْغُلَامُ بَيْنَ يَدَيْكَ قَالَ هَذَا يَهْدِينِي السَّبِيلَ فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ الْمَدِينَةِ نَزَلَا الْحَرَّةَ وَبَعَثَا إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَاءُوا فَقَالُوا قُومَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ قَالَ فَشَهِدْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ **فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَاتَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا كَانَ أَقْبَحَ وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

وفي الصحيحين من طريق عُبَيْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ **r** وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ فِي أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ فَخَرَجَ النَّبِيُّ **r** بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ عَبَّاسٍ وَرَجُلٍ آخَرَ قَالَ عُبَيْدُ الله فَأَخْبَرْتُ ،عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ أَتَدْرِي مَنْ الرَّجُلُ الْآخَرُ قُلْتُ لَا قَالَ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ **t** وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ **r** قَالَ بَعْدَمَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَاشْتَدَّ وَجَعُهُ:" هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ" وَأُجْلِسَ فِي مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ **r** ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ تِلْكَ حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ.

وفي لفظ لمسلم عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ لَهَا أَلاَ تُحَدِّثِينِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ الله **r** قَالَتْ بَلَى ثَقُلَ النَّبِيُّ **r** فَقَالَ:"أَصَلَّى النَّاسُ". قُلْنَا لاَ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ". فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ:"أَصَلَّى النَّاسُ". قُلْنَا لاَ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ:"ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ". فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ:"أَصَلَّى النَّاسُ". قُلْنَا لاَ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ:"ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ". فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ:"أَصَلَّى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النَّاسُ". فَقُلْنَا لاَ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله. قَالَتْ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ الله r لِصَلاَةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ قَالَتْ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِّ r إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ الله r يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقًا يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَ فَقَالَ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ.

قَالَتْ فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله r وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلاَةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ r أَنْ لاَ يَتَأَخَّرَ وَقَالَ لَهُمَا:"أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ". فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِى بَكْرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلاَةِ النَّبِيِّ r وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ أَبِي بَكْرٍ وَالنَّبِيُّ r قَاعِدٌ.

وفي الصحيحين عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ رَسُولِ الله r الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ - وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ - كَشَفَ رَسُولُ الله r سِتْرَ الْحُجْرَةِ فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ. ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ الله r ضَاحِكًا - قَالَ - فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلاَةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ الله r - وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ الله r خَارِجٌ لِلصَّلاَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله r بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ - قَالَ - ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ الله r فَأَرْخَى السِّتْرَ - قَالَ - فَتُوُفِّيَ رَسُولُ الله r مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t أَنَّ رَسُولَ الله r جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ:"إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُّ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ"، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ، انْظُرُوا إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ الله r عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ الله r هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ t بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله r لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالاَ لَهَا مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ r . فَقَالَتْ مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ r وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قُبِضَ رَسُولُ الله r وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ.

ففي موته r عزاء لكل من يفقد حبيبا، فاللهم أوردنا حوضه، واسقنا من يده الشريفة، شربة هنيئة مَرِيئَة، لا نظمأ بعدها أبدا، واجمعنا به في جناتك جنات النعيم، إنك ولي ذلك والقار عليه، يا ر بنا.

قوله:(ودينه باق): كما تقدم لأن الذي شرعه حي لا يموت، ألا وهو الله رب العالمين، فالدين دين الله، وهو الذي أمر به، وأنزل الكتب لأجله، وأرسل الرسل لبيانه، وهو باق إلى أن يأتي الوقت المعلوم، كما في صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى". فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}، أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا، قَالَ:"إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ". ومثله في صحيح مسلم في الحديث الطويل الذي يرويه النواس بن سمعان t عن النبي r، وفيه قال النبي r :"فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ".

ولهذا قام أبو بكر في الصحابة خطيباً، فقال مقولته المشهورة:(من كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات، ومن كان بعيد الله فإن الله حي لا يموت).

كما في صحيح البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ t عَلَى فَرَسِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ r وَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ثُمَّ بَكَى فَقَالَ بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ الله لَا يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا قَالَ أَبُو سَلَمَةَ فَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ t خَرَجَ وَعُمَرُ t يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ فَأَبَى فَقَالَ اجْلِسْ فَأَبَى فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ t فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَتَرَكُوا عُمَرَ فَقَالَ:(أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا r فَإِنَّ مُحَمَّدًا r قَدْ مَاتَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ})، وَاللهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ t فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا.

فأراد الصديق t في هذه الحادثة العظيمة، والموقف الجليل منه t ، أن يبين للناس والأمة من بعدهم، أن هذا الدين ليس مربوطاً ببقاء أحد أو موته، بل هو دين الله جل وعلا، يحيا من يحيا، ويموت من يموت، ولكن الإسلام باق، والله الحي الذي لا يموت قد تكفل بنصره، وحفظه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[الصافات:١٧١-١٧٣]،

وقال: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر:٩]، فما بقي علينا سوى العمل والجد والاجتهاد في نصرة دين الله جل وعلا، والمعنى لَئِن كان رسول الله r قد مات، فاعملوا على أن تموتوا على ما مات عليه، وترككم عليه، من القيام بالدين قولا وعملا، دعوة وجهادا.

أنت بحاجة لهذا الدين العظيم والله هو الغني الحميد:

واعلم رحمك الله، أن الله تعالى هو الغني الحميد، وأننا عندما نسعى، في نصرة هذا الدين، فإنما ننفع أنفسنا، كما قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الروم: ٤٤].

ولنحذر من أن تُسَوِّلَ لنا أنفسنا، أو يُمْلِي علينا شياطين الإنس أو الجن، أنَّ نَصْرَ هذا الدين مرهون بنا، وأنا إن تخلفنا عن ذلك؛ فَسَيذهَب دين الله تعالى، هيهات هيهات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨].

جاء في كتاب طبقات الحنابلة في بيان خصال الإمام أحمد بن حنبل قال:[محمد بن زهير أبو جعفر نقل عن إمامنا أشياء: منها قال: أتيت أبا عبد الله في شيء أسأله عنه، فأتاه رجل فسأله عن شيء أو كلمه في شيء، فقال: له جزاك الله عن الإسلام خيرا، فغضب أبو عبد الله، وقال له: من أنا حتى يجزيني الله عن الإسلام خيراً، بل جزى الله الإسلام عني خيراً]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}[الأعراف: ١٥٨]. وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}[المائدة:٣].وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ r ، قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ*ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر:٣٠-٣١]. وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[طه: ٥٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً}[نوح:١٧-١٨].وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[النجم:٣١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قوله:(وهذا دينه): إشارة إلى الإسلام فهو دينه عليه الصلاة والسلام، ودين جميع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى:{إن الدين عند الله الإسلام}.

قوله:(لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه): أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يبين كمال نصح النبي r لأمته، وعظيم حرصه على نجاة أتباعه، وهذا هو شأن جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم نبينا وحبيبنا عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ r فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ r الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ r فَقَالَ:"إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري من طريق طارق بنِ شِهَابٍ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ t يَقُولُ:(قَامَ فِينَا النَّبِيُّ r مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ).

وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:(قَامَ فِينَا رَسُولُ الله r مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلاَءِ وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ).

وفي صحيح مسلم عَنْ سَلْمَانَ قَالَ قِيلَ لَهُ قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ r كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ. قَالَ فَقَالَ:(أَجَلْ لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلاَثَةِ أَحْجَارٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ).

وإذا كانت هذه حالة النبي r وهذا عظيم حرصه، فلنا أن نعجب ممن يتردد في طاعته r الطاعة العمياء؟!،كيف لا وأوامره r خيرُ محض، ونواهيه r شر محض، وإنما أمرنا بطاعته r ؛ وإلا فجهنم وبئس المصير، ولكن الله المستعان.

ألا فلنعلم، أنه لا يسع عبدا يؤمن بالله واليوم الآخر، إلا أن يحب النبي r ، ويحب دينه، وشريعته وسنته، وأن يسعى جاهدا في العمل بذلك، وأنه لا خيار للمؤمنين إلا ذلك، ولنتذكر قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٤٣].

فمحبته من آكد مقامات الإيمان، كما أن بغضه، أو بغض ما جاء به، من أظهر نواقض الإسلام، ومن أعظم ما يورث الهلاك والبوار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٨-٩]، وقال سبحانه: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣].

واعلم أن الله تعالى يدافع عن نبيه r ، كما قال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر:٩٤-٩٩]، وقال: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة:١٣٧]، وقال: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر:٣٦].

قوله:(والخير الذي دلها عليه التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه): أي هذا أعظم ما دعا إليه وبينه، ألا وهو التوحيد، إذ هو مفتاح قبول الأعمال، وهكذا كانت دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، أنهم يقولون لأقوامهم جميعا: {اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف:٦٥] ، فإذا صح التوحيد جاءت باقي الأعمال تبعاً لذلك، ولهذا كان أعظم ما عني به الرسول r ، ترسيخ قضية التوحيد، ثم بعد ذلك أمرهم بباقي شرائع الدين،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا عطف المؤلف بقوله:(وجميع ما يحبه الله ويرضاه)، فالتوحيد مفتاح قبول الأعمال وهو مفتاح دخول الجنة.

فصل: في ذكر الأعمال الجبلية من النبي r :

وأما الأعمال الجِبِلِّيَّة، وهي التي فعلها النبي r بمقتضى خِلْقَتِه، أو لكونها في طريقه، ولم يقصدها لذاتها، فهذه لا تدخل في هذا الباب، وهذا مذهب جمهور الصحابة ومن بعدهم، وأما ما ثبت قصد النبي r إياها، فهذا داخل في عموم هديه عليه الصلاة والسلام.

ولهذا كان الصحابة لا يقلدون صوت النبي في قراءته ولكن في هيئة القراءة، وكان جمهورهم لا يتتبع منزله الذي ينزله r في سفره، سواء للغزو أو لحج أو عمرة، إذا كان r لم يقصده لذاته.

ولنحذر من التكلف فإنا قد نهينا عنه، ولم يكن من هديه عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى:{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦].

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ نُهِينَا ، عَنِ التَّكَلُّفِ.

وقوله:(والشر الذي حذرها منه الشرك): أي هذا أعظم ما بُعث به النبي r ، وهو كذلك أعظم ما بعثت به الرسل من التحذيرات، أن يحذروا أممهم من الشرك بالله تعالى، بكل أنواعه، بلا تبعيض، ولا عِضِين، غير عابئين بأحد من الخلائق، ولا ملتفتين لحق أحد من الخلائق، قبل حق الله جل وعلا، لا سلطانا ولا ملكا، ولا دستورا ولا نظاما،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا فتنة ولا ضغط واقع، ولا مُرَادُ الأكثر، لأنه متعلق بحق الله تعالى، فيجب تقديمه، وبذل التضحيات لأجله، ولأجل إقامته، ولأنه يحبط سائر الأعمال.

كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور:٣٩]؛ ولأنه يورث الخلود في النيران، والحجاب عن رؤية الرحمن، ولأنه هو سبب كل شر وبلاء ومحنة ونكبة وفتنة، وهو السبب الأعظم الذي به يقع الفساد العريض في الأرض، ولكن أهل النفاق لا يعقلون، فيحاربون التوحيد، ويحمون الشرك وأهله، بدعوى درء الفتنة، والإصلاح، ولكن الله تعالى شهد عليهم بأنهم وأمثالهم، مهما ارتفعوا عند الناس، ومهما كانت لهم من المنزلة والمكانة، ومهما انخدع الناس بهم، وخدعوا الناس بمعسول كلامهم، ومكرهم واحتيالهم، إلا أنهم يبقون أبدا، في الميزان الرباني، هم المفسدون.

كما قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٠-١٣]، فانتبه وإياك أن تغتر، فها هي دعوة النبي r واضحة المعالم، ظاهرة الدلائل، فإياك إياك أن تفتن عنها، أو يلتبس عليك الحال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغلو في الصالحين والتعصب للآباء سبب هلاك الأمم:

واعلم عافانا الله وإياك، أن من أعظم ما يوقع في الشرك بالله تعالى هو الغلو في الصالحين؛ ولهذا جاءت التحذيرات من ذلك متكاثرة في الكتاب والسنة.

أما من الكتاب العزيز فقول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٠، ٣١]، وقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ١٧١ - ١٧٥]، وقوله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧]، وقوله: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة:١٧-٢٠]، وقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الزخرف:١٩-٢٥]، وقوله: {أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [الزمر:٣-٥]، وقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء:٥٦-٥٧]، وقوله:{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٣ - ٤٧]، وقوله:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٣١- ٣٦]، وقوله:{ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [ص: ١ - ٨]، وقوله: { يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر:١٣ - ١٤]، وقوله:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء:٦٩-٨٣]، وقوله:{قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [النمل: ٥٩ - ٦٦]. والآيات بهذا المعنى كثيرة جدا في الكتاب العزيز، فهي من أعظم القضايا حضورا في كتاب الله جل وعلا.

أما من السنة: فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ e قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ:"إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ".

وفي الصحيحين من طريق عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عَائِشَةَ وَابْنَ عَبَّاسٍ رضى الله عنهم قَالاَ لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ e طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهْوَ كَذَلِكَ:"لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا".

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ لَمَّا اشْتَكَى النَّبِيُّ e ذَكَرَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَةُ وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَتَتَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ فَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:"أُولَئِكَ إِذَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ".

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَ t ، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ e يَقُولُ:"لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه".

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ e :"هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ". قَالَهَا ثَلاَثًا.

وفي مصنف ابن أبي شيبة وسنن ابن ماجة ومسند أحمد وهذا لفظه وإسناده عنده حَدَّثَنَا يَحْيَى، وَإِسْمَاعِيلُ الْمَعْنَى، قَالاَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، حَدَّثَنِي زِيَادُ بْنُ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الرِّيَاحِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - قَالَ: يَحْيَى لاَ يَدْرِي عَوْفٌ عَبْدُ اللهِ أَوِ الْفَضْلُ؟ - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ r غَدَاةَ الْعَقَبَةِ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ:"هَاتِ الْقُطْ لِي"، فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ، فَقَالَ:"بِأَمْثَالِ هَؤُلاَءِ" مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ بِيَدِهِ - فَأَشَارَ يَحْيَى أَنَّهُ رَفَعَهَا - وَقَالَ:"إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ". قلت:وسنده صحيح.

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح عَنْ أَنَسٍ t ، أَنَّ رَجُلاً، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ:"قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَجْرِكُمُ الشَّيْطَانُ" – أَوِ:"الشَّيَاطِينُ"، إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ - :"أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ". وفي رواية:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ".

وفي رواية:"يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا تَسْتَجْرِيَنَّكُم الشياطين أنا محمد بن عبد الله أنا عبد الله ورسوله وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله".

وفي مسند أحمد والأدب المفرد للبخاري والتوحيد لابن منده وفي السنن الكبرى للنسائي وعند أبي داود من طريق مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ r فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: أَنْتَ وَالِدُنَا، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَأَنْتَ أَفْضَلُنَا عَلَيْنَا فَضْلاً، وَأَنْتَ أَطْوَلُنَا عَلَيْنَا طُولاً، فَقَالَ:"قُولُوا بِقَوْلِكُمْ لاَ تَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ".

وفي وراية، قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ r فَقَالَ:أَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ، فَقَالَ:"السَّيِّدُ اللهُ"، قَالَ: أَنْتَ أَفْضَلُنَا قَوْلاً، وَأَعْظَمُنَا فِيهَا طُولاً ، قَالَ رَسُولُ اللهِ:"لِيَقُلْ أَحَدُكُمْ بِقَوْلِهِ وَلاَ يَسْتَجِرُّهُ الشَّيْطَانُ، أَوِ الشَّيَاطِينُ"، قلت: وإسناده جيد[١].

البراءة والعداوة يوم القيامة:

١ - قلت: ولم يبلغ هذا الخبر الإمام مالك رحمه الله، فلم يعرفه، كما قال الباجي في المنتقى:[وَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ يَا سَيِّدِي، قَالَ مَالِكٌ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَسَيِّدًا وَحَصُورًا}، وَقِيلَ لَهُ: يَقُولُونَ السَّيِّدُ هُوَ اللهُ تَعَالَى، قَالَ مَالِكٌ: أَيْنَ هَذَا فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّمَا فِي الْقُرْآنِ رَبُّنَا رَبُّنَا].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أن المشركين سيتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا، السادة والأتباع، على حد سواء، وتأمل في هذه النصوص.

قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة:١٦٥-١٦٧]، وقوله: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [العنكبوت:٢٥]، وقوله: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} [ص: ٥٥-٦٨]، وقوله: {إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب:٦٤-٦٨]، وقوله:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} [فصلت: ٢٦ - ٢٩]، وقوله:{قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف:٣٨-٣٩]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣١-٣٣]، وقوله: {وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الصافات:١٣ - ٣٩]، وقوله:{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ٩١ - ١٠٤]، وقوله:{إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الزخرف: ٦٤- ٨٤].

وقوله:(وجميع ما يكرهه الله ويأباه): في هذا السياق بيان لعقيدة المؤلف الصافية، في باب الأسماء والصفات، بل وفي غيرها، حيث أنه يُثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه، فالنصوص متظافرة ظاهرة، في إثبات صفة، الكره والأبيان لله تعالى، فلم يجد المؤلف حرجا من نسبتها إلى الله تعالى، فالأمر كما قال تعالى: {قل أأنتم أعلم أم الله}، وفي كلامه إشارة إلى أن أصل كل شر هو الشرك بالله تعالى، وأن كل شر دون الشرك هو أهون منه، وهذا يؤكد التدرج في الدعوة إلى الله تعالى، من الأهم إلى المهم، كما أن المؤلف أراد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يعيد التأكيد، على أن هناك أمورا أخرى يجب اجتنابها؛ ليرتفع العباد في مراتب التوحيد وتحقيقه؛ ولينجوا من عذاب الله ووعيده.

واعلم أن في كلام المؤلف رحمه الله تقريرا لعقيدة أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات، فالله جل وعلا موصوف بالمحبة، فهو يُحِب ويُحَب، وفيه إثبات لصفة الكره والبغض، فالله جل وعلا يكره ويبغض، وأنه سبحانه وتعالى يأبى، كما قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢]، وقوله: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٦]، وقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤].

وأما الأحاديث فكثيرة جدا، وأكتفي بهذا الخبر المتفق على صحته من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"إِنَّ اللهَّ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ قَالَ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَّ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ". نسأل الله محبته، ونعوذ به من غضبه، وبغضه وسخطه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فائدة: جاء عن الإمام أحمد كما كتاب:(الرد على الزنادقة والجهمية):[وذلك أن الله جل ثناه إذا سمى الشيء الواحد باسمين أو ثلاثة أسامي فهو مرسل غير منفصل، وإذا سمى شيئين مختلفين لا يدعهما مرسلين حتى يفصل بينهما، من ذلك قوله: {يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا}، فهذا شيء واحد سماه بثلاثة أسامي وهو مرسل ولم يقل إن له أبا وشيخا وكبيرا، وقال: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات}، ثم قال: {ثيبات وأبكارا}، فلما كانت البكر غير الثيب لم يدعه مرسلا حتى فصل بينهما، فذلك قوله: {وأبكارا}، وقال: {وما يستوي الأعمى}، ثم قال: {والبصير}، فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما، ثم قال: {ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور}، فلما كان كل واحد من هذا الشيء غير الشيء الآخر فصل بينهما، ثم قال: {الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور}، فهذا كله شيء واحد فهو مرسل ليس بمفصل؛ فلذلك إذا قال الله: {ألا له الخلق والأمر}؛ لأن الخلق غير الأمر فهو منفصل).ا.هـ.

وهذا الجهد العظيم المبارك يفعله النبي عليه الصلاة والسلام، وهو صابر لله تعالى ومحتسب؛ يرجو نجاة أمته، حريص على خلاصهم، وجلب الخير إليهم، مع أنه قد أوذي في الله وابتلي r ، ولكنه لعظيم رحمته وإشفاقه عليهم؛ صبر واحتسب، فكان حاله كحال النخلة –وقد ضربها النبي r مثلا للمؤمن –يرميها الناس بالحجارة، وهي ترميهم بأطايب الثمر.

كما في الصحيحين عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ r أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ r هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ:"لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ"، فَقَالَ النَّبِيُّ r :"بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

وفي مسند ابن أبي شيبة بسند جيد عن طارق المحاربي قال:(رأيتُ رسول الله r مرتين:مرة بسوق ذي المجَاز، وأنا في بياعة لي أبيعها، ومرَّ عليه جُبّة له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته:"أيها الناس قولوا:لا إله إلا الله تُفلحوا"، قال: ورجل يتبعُه بالحجارة، وقد أدْمَى كَعْبيْه وعُرقُوبَيْه، ويقول: يا أيها الناس لا تُطيعوه، فإنه كذّاب، قلت: من هذا؟، قالوا: هذا غلام بني عبد المطلب. قلت: فمن هذا الذي يتبعه يَرْميه؟، قالوا: عمّه عبد العزّى، وهو أبو لهب).

وبنحوه في مسند أحمد عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ قَالَ:(رَأَيْتُ النَّبِيَّ r بِذِي الْمَجَازِ يَدْعُو النَّاسَ وَخَلْفَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ يَقُولُ لَا يَصُدَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِ آلِهَتِكُمْ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(بعثه الله إلى الناس كافة): أي من زمان بعثته، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالكل مخاطبون بهذا الدين أصوله و فروعة، على الراجح، بما في ذلك الكفار، والذين أشركوا.

قوله:(كافة): أي لا فرق في ذلك بين حر وعبد، وغني وفقير، وأسود وأبيض، كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ:٢٨]، وببعثته عليه الصلاة والسلام جاءت البينة قال تعالى:{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة:١-٥] ، وصار العباد كلهم ملزمين بها، وعليهم أن يسعوا في تعلمها، وفهمها والعمل بها، فمن أعرض أو عاند، لم يضر إلا نفسه، وله نار جهنم خالدا فيها :{وكان ذلك على الله يسيرا}، وتأمل سورة (البينة)؛ لترى كيف بين الله تبارك وتعالى، افتراق الناس بناء على هذه البينة، فـ {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى:٧] ، جعلني الله وإياكم، ووالدينا، وأهلينا، وذرارينا، وأقاربنا، من أصحاب الجنة، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وهذه السورة أعني سورة البينة، دلت دلالة واضحة على أن أهل الكتاب، وكذلك المشركون، مخاطبون بأصول هذا الدين وفروعه، وأن عبدا يزعم أنه يوحد الله تعالى، ولكن لا يريد أن يصلي صلاة رسول الله r ، ولا زكاته، بل بدين آبائه وأجداده، أو على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شريعة موسى أو عيسى عليهما السلام، فليعلم أن عمله حابط، ولا توحيد له، بل هو كافر بالله العظيم، وهو من حطب جهنم خالدين فيها أبدا، نسأل الله العافية والسلامة.

وكونه r بعث إلى الناس كافة، هذا من خصائصه، ومن عظيم فضله ومنزلته، وعظيم كرامته على الله تبارك وتعالى، كما في الصحيحين عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

قوله:(وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}، والمعنى أن الجن مخاطبون بأصول الدين وفروعه، وأنهم مكلفون كالإنس تماماً، إلا ما خص الدليل هذا عن هذا، فهم مأمورون بالصلاة وسائر فرائض الدين، واحتج المؤلف على ذلك بقوله تعالى:{قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً}: أي إن هذا الدين لا يؤخذ بأقوال الرجال، ولا بأهوائهم، ولا آرائهم، بل الكتاب والسنة، وما يتبعهما من الإجماع والقياس المعتبر، مع استصحاب فهم الصحابة y.

قوله:{قل يا أيها الناس}: هذا أمر بالتبليغ، ويتضمن الإكرام والتشريف للناس، حيث خصهم الله بالخطاب، وشرفهم بالتكليف، وكلمة الناس تطلق ويراد بها بنو آدم، ولكن قد يراد بها كذلك الجن والإنس أيضاً،كما قال تعالى:{الذي يوسوس في صدور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس من الجنة والناس}، وفي هذه الآية دخل في الخطاب الجن أصالة، ثم الناس إما أن يستجيبوا؛ فيحافظوا على هذا التشريف، وتلك الكرامة، وإلا فإن أبوا؛ فلهم الذل والمهانة، في الدنيا والآخرة.

قوله:{إني رسول الله إليكم جميعاً}: تأكيد على مبدأ الرسالة، وصدق الرسول، وأمانته، وضرورة اتباعه، أي إنما بُعثت إليكم من قِبل المالك المتصرف الخالق، الله رب العالمين، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله جل وعلا وأن القرآن كلام الله لا من كلام البشر ولا من الخلق، وقد تقدم هذا المعنى من قبل.

وفي هذا السياق تذكير بمقام الشهادة على الأمم، فإنه سيؤتى من كل أمة بشهيد، وأما نحن فسيشهد علينا محمد r ، فلنكن على حذر، ولنبحث عن طريق السلامة والنجاة، ولا سبيل إليهما إلا بالإخلاص للمعبود جل جلاله، ومتابعة الرسول r ، وتذكر قوله تعالى:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}[النساء:٤١-٤٢].

جاء في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ r :"اقْرَأْ عَلَيَّ" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ:"نَعَمْ"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، قَالَ:"حَسْبُكَ الآنَ" فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وكمل الله به الدين، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}): أي ما قبضه الله تعالى إليه، إلا بعد أن كملت شرائع الدين، واستبانت وظهرت، وتمت نعمته تبارك وتعالى على عباده، قال تعالى:{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام:١١٥] ، وهذه من أعظم النعم، بل هي أعظم النعم على العباد في هذه الدنيا، ولهذا امتن الله جل وعلا بها عليهم، وذلك في قول المؤلف:(والدليل، قوله تعالى:{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ... الآية}،وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة والنبي r يخطب الناس، وهي من آخر ما أوحي إليه عليه الصلاة السلام، من القرآن، فبين نزولها وموته عليه الصلاة والسلام نحواً من ثمانين يوماً، فقد كان الخطاب يوم التاسع من ذي الحجة، وقُبِضَ النبي r إلى الرفيق الأعلى في أول ربيع الأول.

كما في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا قَالَ:(أَيُّ آيَةٍ)، قَالَ:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا}، قَالَ عُمَرُ:(قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ r وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

الرد على الزنادقة المستدركين على الشرع، والزاعمين نقصه أو تعارضه:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الآية رد على المبتدعة، وعلى الزنادقة من العلمانيين، والعقلانيين، وأشباههم من المنافقين، فالدين قد اكتمل والنعمة قد تمت، وقال النبي r ، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله r :"من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ود"، وفي رواية لمسلم:"من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد".

فأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، فلله وحده الحمد والفضل والمنة، فقد بُعث عليه الصلاة السلام، في زمان نَظَرَ الله جل وعلا فيه إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، فلما أراد الله جل وعلا أن يرحم العباد، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم بإذنه، إلى صراط مستقيم، أَذِنَ ببعثة هذا السيد العظيم النبي r ، الذي غير وجه التاريخ، وقلب موازين عصره الجاهلي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما دل على ذلك حديث عياض المجاشعي في صحيح مسلم، وقد تقدم.

فهذا الدين جاء من لدن حكيم حميد، محفوظ لا سبيل إليه، سالم من كل عيب ونقص وتعارض، كما قال تعالى:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩]، وقال تعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء:٨٢].

وقوله:{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٦٨-٧١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات:١٨٠-١٨٢].

وهنا نعود ونذكر أنفسنا بضرورة شكر هذه النعمة العظمى، وهذه الرحمة المُهْداة، وضرورة القيام بحق الله جل وعلا، وحق رسوله r، كما قال تعالى: {وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح:٧-٩].

فريضة الذب عن رسول الله r، وبيان حكم سابه أو متنقصه:

واعلم سددك الله، أن من أعظم الواجبات على المسلمين، الذَّب عن عرض نبيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والسعي في القضاء المبرم على المستهزئين به، والقادحين فيه، **قتالا بالسنان، وبيانا باللسان.**

قال العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (٥٤٤ هـ) في كتابه :(الشفا بتعريف حقوق المصطفى):[الباب الأول في بيان ما هو في حقه r سب أو نقص من تعريض أو نص:

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع من سب النبي r أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عَرَّضَ به أو شَبَّهَهُ بشيء على طريق السَّب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له؛ **فهو سَابٌّ له، والحكم فيه حكم السَّاب، يقتل**، كما نبينه ولا نستثني فصلا من فصول هذا الباب على هذا المقصد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يمترى فيه تصريحا كان أو تلويحا وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة لـه أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبـث في جهتـه العزيـزة بسـخف مـن الكلام وهجر ومنكر من القول وزور أو عَيَّرَهُ بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غَمَصَهُ ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه وهذا كلـه إجمـاع مـن العلـماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جرا]ا.هـ.

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t قَالَ:(كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَـرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ r فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَـا كَتَبْـتُ لَـهُ فَأَمَاتَهُ اللهُ فَدَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَّـا هَـرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقُوهُ فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْـهُ الأَرْضُ فَقَـالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَـهُ وَأَعْمَقُـوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا فَأَصْـبَحَ قَـدْ لَفَظَتْـهُ الأَرْضُ فَعَلِمُـوا أَنَّـهُ لَـيْسَ مِـنَ النَّـاسِ فَأَلْقَوْهُ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه:(الصارم المسلول على شاتم الرسـول):[ومـن سنة الله أن من لم يمكن المؤمنون أن يعذبوه مـن الـذين يـؤذون الله ورسـوله، فـإن الله سبحانه ينتقم منه لرسوله، ويكفيه إياه، كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكاتب المفـترى، وكما قال سبحانه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}.

والقصة في إهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزئين معروفة قـد ذكرهـا أهـل السير والتفسير وهم على ما قيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسودان ابن المطلب وابن عبد يغوث والحارث بن قيس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد كتب النبي r إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر أكرم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وأكرم رسوله فثبت ملكه فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله r واستهزأ برسول الله r فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك

فكل من شَنَأَهُ أو أَبْغَضه وعَادَاه؛ فإن الله يَقْطَعُ دَابِره ويَمْحَقُ عَيْنَه وأَثَرَه، وقد قيل: إنها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبة بن أبي معيط أو في كعب بن الأشرف وقد رأيت صنيع الله بهم.

ومن الكلام السائر **"لحوم العلماء مسمومة" فكيف بلحوم الأنبياء عليهم السلام؟.**

وفي الصحيح عن النبي r قال: "يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة" فكيف بمن عادى الأنبياء؟، ومن حارب الله تعالى حرب وإذا استقصيت قصص الأنبياء المذكورة في القرآن؛ تجد أممهم إنما أهلكوا حين آذوا الأنبياء، وقابلوهم بقبيح القول أو العمل، وهكذا بنو إسرائيل إنما ضربت عليهم الذلة وباءوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير؛ لقتلهم الأنبياء بغير حق، مضموما إلى كفرهم، كما ذكر الله ذلك في كتابه، ولعلك لا تجد أحدا آذى نبيا من الأنبياء، ثم لم يَتُب، إلا ولا بد أن تصيبه قارعة، وقد ذكرنا ما جر به المسلمون من تعجيل الانتقام من الكفار إذا تعرضوا لِسَبِّ رسول الله r ، وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة، وهذا باب واسع لا يحاط به]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت: والمذكور في كتب أهل العلم سلفا وخلفا من هذا كثيرا جدا، كله دال على ما قرره القاضي عياض هنا.

قوله:(وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ r قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، فبعد أن اكتمل الدين وتمت النعمة، خُيّر النبي r بين البقاء في الدنيا، أو الانتقال إلى الرفيق الأعلى فقال عليه الصلاة والسلام:"في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى"، كما جاء الخبر في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، وجاء تخييره في صحيح مسلم وكل ذلك قد تقدم، فمات عليه الصلاة والسلام، ودفن وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، كما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، وكان دفنه بعد أن تولى أبو بكر الصديق t الخلافة، ودفن فيما ذكر في يوم الأربعاء عليه الصلاة والسلام، في بيت عائشة رضي الله عنها، وهذا الذي اجتمع عليه أمر الصحابة y ، وقد ورد في أحاديث لا تخلوا من الضعف أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، وصلى الناس عليه r ، أرسالاً، و فرادى، الرجل وحده، والرجلين والثلاثة، فنُشهد الله تعالى على حبه r ، ونسأل الله سبحانه وتعالى الثبات على سُنَّتِه، والوُرُودَ على حَوْضِه شَارِبِين منه، مَحْشُورين في زمرته، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وفي سنن النسائي الكبرى ومسند عبد بن حميد وابن ماجة بسند جيد من طريق سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد قال وكان من أصحاب الصفة قال: أغمي على النبي r في مرضه فأفاق فقال:"أحضرت الصلاة" قالوا نعم قال:"مروا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بلال فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس" ثم أغمي عليه فأفاق فقال:"أحضرت الصلاة" فقلن نعم فقال:"مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس" قالت عائشة إن أبي رجل أسيف فقال:"إنكن صواحبات يوسف مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس".

فأمرن بلالا أن يؤذن وأمرن أبا بكر أن يصلي بالناس فلما أقيمت الصلاة قال النبي r :"أقيمت الصلاة" قلن نعم قال:"ادعوا لي إنسانا أعتمد عليه" فجاءت بريرة وآخر معها فاعتمد عليها فجاء أبو بكر فصلى فجلس إلى جنبه فذهب أبو بكر يتأخر فحبسه حتى فرغ من الصلاة فلما توفي النبي r قال عمر لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا فسكتوا وكانوا قوما أميين لم يكن فيهم نبي قبله قالوا يا سالم اذهب إلى صاحب النبي r فادعه قال فخرجت فوجدت أبا بكر قائما في المسجد قال أبو بكر مات رسول الله r قلت إن عمر يقول لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا فوضع يده على ساعدي ثم أقبل يمشي حتى دخل قال فوسعوا له حتى أتى النبي r فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي r حتى استبان له أنه قد مات فقال أبو بكر إنك ميت وإنهم ميتون قالوا يا صاحب رسول الله r أمات رسول الله r قال نعم قال فعلموا أنه كما قال قالوا يا صاحب النبي r هل يصلى على النبي r قال نعم قالوا وكيف يصلى عليه قال يدخل قوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون قالوا يا صاحب النبي r هل يدفن النبي r قال نعم قالوا وأين يدفن قال في المكان التي قبض الله فيها روحه فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة قال فعلموا أنه كما قال ثم قال أبو بكر عندكم صاحبكم وخرج أبو بكر واجتمع المهاجرون فجعلوا يتشاورون بينهم ثم قالوا انطلقوا إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إخواننا من الأنصار فإن لهم من هذا الحق نصيبا فأتوا الأنصار فقال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال عمر سفيان في غمد واحد إذا لا يصلحان ثم أخذ بيد أبي بكر فقال من له هذه الثلاث إذ يقول لصاحبه من صاحبه إذ هما في الغار من هما لا تحزن إن الله معنا مع من ثم بايعه ثم قال بايعوا فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها".

ونحن نُشهد الله تعالى على أنه قد مات r ، وأنه لا كرب عليه بعده، عليه الصلاة والسلام، وأن جثمانه مدفون في الأرض، خلافاً لما يقوله المبتدعة والزنادقة، فموته حقيقي، إلا أننا ندين الله جل وعلا، بأنه r في حياة البرزخية على أكمل ما تكون حياة في البرزخ، فهي أعلى من الصديقين، ومن حياة الشهداء، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٦٩ - ١٧١].

وأن الأرض لا تأكل جسده الطاهر r ، لما جاء في مصنف ابن أبي شيبة حدثنا حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن أنس أنهم لما فتحوا تستر قال: فوجد رجلا أنفه ذراع في التابوت، كانوا يستظهرون ويستمطرون به، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب عمر:(إن هذا نبي من الأنبياء، والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء)، فكتب:(أن انظر أنت وأصحابك - يعني أصحاب أبي موسى -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فادفنوه في مكان لا يعلمه أحد غيركما) ، قال:(فذهبت أنا وأبو موسى فدفناه). وقد روي هذا المعنى مرفوعا ولا يصح[١].

وبين المؤلف الدليل على موته بقوله تعالى:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر:٣٠-٣١]، وفي ذكر الموت بصيغة الماضي تقرير على أن الأمر واقع لا محالة،كما قال تعالى:{كل نفس ذائقة الموت}، ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى:

إني معزيكَ لا أَنيٍّ على ثقةٍ ... مِنَ الخُلودِ، وَلكنْ سُنَّةُ الدِّينِ
فما المُعَزِّي بباقٍ بعدَ صاحِبِهِ ... ولا المُعَزَّى وإنْ عاشَا إلى حَينِ

وقال رحمه الله:

إنَّ لله عِبَـاداً فُـطَنـا ...طلقوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وَطَنا
جعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذوا ... صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا

كما أن في ذكر الموت وحقيقته، تذكيرا بكمال الله، وكمال حياته تعالى، وغناه جل جلاله، وقهره وعظمته، وقوته وقدرته، وتذكيرا بضعف المخلوق وقلة حيلته.

---

١ - تقدم تخريجه من حديث أوس بن أوس t وبيان ضعفه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما توفي عليه الصلاة و السلام نزل بالصحابة y خطب عظيم، كيف لا وأطهر روح تفارق الدنيا، وأطهر جسد يدفن في الأرض، عليه الصلاة والسلام، فأخذ الناس بكاء شديد، وارتجت المدينة، وأخذ بعض الصحابة ذهول عظيم، وحُقَّ لهم، فالخطب جسيم، ففقدانه r لا كسائر الفقدان، لا سيما إذا عرفنا عظيم حبهم له عليه الصلاة والسلام، وشدة تعلقهم به عليه الصلاة والسلام، حتى بلغ الحال بعمر t أن سل سيفه، وقال مقالته المشهورة :(من زعم أن محمداً قد مات لأضربن عنقه)، كما ذكر أهل السير، وهذا من شدة ما نزل به من هَوْلِ الخبر، وقد تقدم ذكر الأدلة على ذلك.

قوله:{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، بعد أن أثبت الله جل وعلا أن الموت لجميع الناس حاصل، وأن ذلك واقع تقديراً كونياً قدرياً، أثبت الله جل وعلا في هذه الآية، وقوع الخصومة في يوم القيامة، وحصول القصاص بين الظالمين والمظلومين، كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧]، وقال سبحانه: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [النحل:١١١]، وكما أن هذه الآية تضمنت التهديد والوعيد، فقد تضمنت التبشير بالفرج القريب، فأوشك أن يُرفع الظلم عن المظلومين، ويحيق المكر السيء بأهله، كما أن في هذه الآية معنى قوله تعالى: {وهو أسرع الحاسبين}، وقوله: {والله سريع الحساب}، فإن الله تبارك وتعالى يفصل بين الأولين والآخرين في يوم واحد، بل ويَقِيل أهل الجنة في الجنة في ذلك اليوم، والقيلولة هي الوقت ما قبل الزوال، كما قال عن أهل الجنة: {خيرٌ مستقرا وأحسن مقيلا}، فلا يأتي وقت القيلولة إلا وهم في الجنة في الغرفات آمنون،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نسأل الله من فضله العظيم، كما أن هذه الآية تضمنت إبطال الحجج الواهية، والأقاويل المفتعلة، والأكاذيب، وأنها لن تغني عن أصحابها شيئا؛ لأن العرض سيكون على الرب جل وعلا، الذي خلق وأوجد من العدم، ورَبَّى بالنعم وأحصى سبحانه كل شيء في كتاب مبين، فهو جل وعلا العليم الخبير، كما قال تبارك وتعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة:١٨-١٩]، ولهذا خص ذكر اسم الرب دون سائر الأسماء، فلم يقل:(عند الله تختصمون)، وإنما قال:{عند ربكم تختصمون}، أي العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فهو خلقكم وإليه ترجعون.

ومن جميل ما وقفت عليه، ولم أجد له مرجعا، قول أحدهم: وَرَدَت في القرآن كلمة (ثقيلاً) مرتين فقط، {يوماً ثقيلاً} والمقصود به يوم القيامة. و{قولاً ثقيلاً}. والمقصود به القرآن. فمن أراد أن ينجو من اليوم الثقيل فليتمسك بالقول الثقيل.

والأمر كما قال الناظم وينسب إلى علي بن أبي طالب t :

ولو أنا إذا متنا تُركنا ... لكانَ المَوْتُ راحَةَ كُلِّ حَيِّ

ولكنا إذا متنا بُعثنا ... ونُسأل بعد ذا عن كل شيء

أقوام موتهم نعمة ورحمة للعباد والأرض والبلاد:

واعلم رحمك الله، أن من الناس من موته راحة للعباد؛ لعظيم شره وخبث فعاله، كما الصحيحين عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r مُرَّ عَلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِجِنَازَةٍ فَقَالَ:"مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ، قَالَ:"الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ الله وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ".

بل ومن الناس من يحب الله لقاءه، ومنهم من يكره الله لقاءه، كما في الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ"، قَالَتْ عَائِشَةُ، أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ:"لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ".

بل ويفرح المؤمنون بموت أمثال هؤلاء الفجار الذين حياتهم أذية للعباد والبلاد والدواب، كما في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ الله r قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ هَاجَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ تَكَادُ أَنْ تَدْفِنَ الرَّاكِبَ فَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ". فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَإِذَا مُنَافِقٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ.

وإليك هذه النقول الدالة على فرح السلفِ بموت الطاغية أو الداعيةِ إلى البدعة أو الكفر أو الزندقة والضلال:

ففي سير أعلام النبلاء للذهبي :[قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ عَنْ حَمَّادٍ، قَالَ: بَشَّرْتُ إِبْرَاهِيْمَ بِمَوْتِ الحَجَّاجِ، فَسَجَدَ، وَرَأَيْتُهُ يَبْكِي مِنَ الفَرَحِ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن كثير في ترجمة ابن النقيب في كتابه (البداية والنهاية):[عبيد الله بن عبد الله بن الحسين أبو القاسم الخفاف المعروف بابن النقيب، كان من أئمة السنة، وحين بلغه موت ابن المعلم، فقيه الشيعة، سجد لله شكرا، وجلس للتهنئة، وقال **ما أبالي أي وقت مت بعد أن شاهدت موت ابن المعلم**]ا.هـ.

وفي كتاب الذهبي (العبر في خبر من غبر) في أحداث سنة إحدى وخمسين ومائتين قال:[وفيها قتل أبو عبد الله البريدي أخاه لكونه عامل عليه ابن بويه ونسبه إلى الظلم ولم يحج الركب لموت القرمطي الطاغية أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في رمضان بهجر من جدري أهلكه **فلا رحم الله فيه مغرز إبرة**]ا.هـ.

وفي تاريخ بغداد:[قال سمعت بشر بن الحارث يقول جاء موت هذا الذي يقال له المريسي وأنا في السوق **فلولا أنه كان موضع شهرة لكان موضع شكر وسجود والحمد لله الذي أماته**]ا.هـ.

وفي كتاب (السنة لأبي بكر بن الخلال) ذِكْرُ الْجَهْمِيَّةِ وَمَقَالَتِهِمْ:[سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الْمَرُّوذِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله، وَذَكَرَ الْجَهْمِيَّةَ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ يُرَادُ بِهِمُ الْمُطَابِقَ، تَدْرِي أَيَّ شَيْءٍ عَمِلُوا هَؤُلاءِ فِي الإِسْلامِ؟، قِيلَ لأَبِي عَبْدِ الله: الرَّجُلُ يَفْرَحُ بِمَا يَنْزِلُ بِأَصْحَابِ ابْنِ أَبِي دُؤَادٍ، عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ إِثْمٌ؟، قَالَ: **وَمَنْ لا يَفْرَحُ بِهَذَا؟**]ا.هـ.

وجاء في سير أعلام النبلاء للذهبي في ترجمة عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وكان رأساً في الإرجاء:[قَالَ سَلَمَةُ بنُ شَبِيْبٍ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، فَجَاءنَا مَوْتُ عَبْدِ المَجِيْدِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَمائَتَيْنِ، فَقَالَ: **الحَمْدُ لله الَّذِي أَرَاحَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مِنْ عَبْدِ المَجِيْدِ**]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما مات وهب بن وهب بن كثير -وكان ضالاً مضلاً- حمد الله تعالى بعض الأئمة، كما جاء في (لسان الميزان لابن حجر) قال:[ولما بلغ ابن المهدي موته، قال: **الحمد لله الذي أراح المسلمين منه**]ا.هـ.

وقال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية) عن أحد رؤوس أهل البدع:[قال أبو شامة وفي هذه السنة توفي ملك الرافضة والنحاة الحسن بن بزدن التركي، كان من أكابر أمراء بغداد المتحكمين في الدولة، ولكنه كان رافضيا خبيثا متعصبا للروافض، وكانوا في خفارته وجاهه، حتى أراح الله المسلمين منه في هذه السنة في ذي الحجة منها ودفن بداره ثم نقل إلى مقابر قريش **فلله الحمد والمنة وحين مات فرح أهل السنة بموته فرحا شديدا وأظهروا الشكر** لله فلا تجد أحدا منهم إلا يحمد الله فغضب الشيعة من ذلك ونشأت بينهم فتنة بسبب ذلك]ا.هـ.

واليوم نرى مفارقة عجيبة في أمة الإسلام، أنها باتت تحزن على موت الكفار، من يهود ونصارى وأشباههم، بل ربما ترحمت عليهم واستغفرت لهم، بل بعضهم يصلي عليهم، وهذا ما تراه بجلاء ووضوح عندما يموت أحد الكفرة من لاعبي كرة القدم المشاهير، أو أحد مشاهير الفن، بل حتى بابا الفاتيكان الذي يمثل رأس الكفر في العالم، عندما مات وجدنا من يترحم عليه من المسلمين، حتى على مستوى بعض من ترفع إليهم الأبصار، وهم أشبه ما يكونون بالمنافقين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والله تعالى يقول: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:٨٤-٨٥].

وقال جل من قائل عليما: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٣-١١٤].

بل أصبح المسلم عياذ بالله، يهنئ الكافر بعيد التَّثْلِيث والشرك والكفر، نسأل الله العافية والسلامة، وكثير من المسلمين يحتفلون بذلك، أسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن القيم في :(أحكام أهل الذمة):[وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم فيقول عيد مبارك عليك أو تهنأ بهذا العيد ونحوه فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب بل ذلك أعظم إثما عند الله وأشد مقتا من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك ولا يدري قبح ما فعل فمن هنأ عبدا بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه وقد.كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنبا لمقت الله وسقوطهم من عينه]ا.هـ.

ولكنها غُرْبَةُ عقيدة الولاء والبراء، بين المسلمين نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن القيم في (الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه):[ومن أراد هذا السفر فعليه بِمُرَافَقَةِ الأموات، الذين هم في العالم أحْيَاء، فإنه يَبْلُغُ بِمُرَافَقَتِهم إلى مَقْصَدِه، ولْيَحْذَر من مُرَافَقَةِ الأحْيَاء الذين هم في الناس أمْوَات، فإنهم يَقْطَعُونَ عليه طَرِيقَه، فليس لهذا السَّالِك أنْفَعُ من تلك المُرَافَقَةِ، وَأَوْفَق له من هذه المُفَارَقَة، فقد قال بعض السلف: شَتَّانَ بَيْنَ أقْوَامٍ مَوْتَى، تَحْيَا القُلُوبُ بِذِكْرِهم، وبَيْنَ أقْوَامٍ أحْياء تَمُوتُ القُلُوب بِمُخَالَطَتِهم]ا.هـ.

ومن جميل ما قيل:

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني

فارفع لنفسك بعدَ موتكَ ذكرها ... فالذكرُ للإنسان عُمرٌ ثاني

قال بعض الشعراء:

وما من كاتب إلا ستَبْقَى ... كِتَابَتُه وإن فنيت يداه

فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

قوله:(وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}): هذا القدر تقدم الكلام عنه، والإشارة إليه، والتفصيل في البعث، عند الكلام عن الركن الخامس من أركان الإيمان، ولعل المؤلف رحمه الله أفرده هنا؛ حتى لا تخلو هذه الأصول من الموعظة والتخويف والترهيب، أو لكي يقرر عقيدة أهل السنة الجماعة، في حصول البعث للأبدان والأرواح بأعيانها التي كانت في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدنيا، ولهذا قال رحمه الله تعالى:(والدليل قوله تعالى:{منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى}.

قوله:{منها خلقناكم}: هذا لبيان أصل خلق الإنسان،وهو بيان لخلق آدم عليه السلام، ثم أجرى الله تعالى النسل بعد ذلك من الماء المهين، الذي يصير فيه الإنسان إلى أطوار الخلق،كما قال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون:١٢-١٤]، وهذا مذهب الجمهور، بينما قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية عامة في جميع الإنسان، فالكل خُلق من الأرض، كما هو مروي عن خالد بن معدان وغيره، والأظهر القول الأول، وأن الخلق من الطين والماء، إنما وقع على آدم عليه السلام أبي البشر خاصة.

قوله:{وفيها نعيدكم}: أي ولو كنتم في أي مكان من السماء أو الأرض، فمصيركم إلى الأرض، وهذا عيسى عليه السلام، وقد رفعه الله تعالى إليه، إلا أنه سينزل إلى الأرض ويدفن فيها.

قوله:{ومنها نخرجكم تارة أخرى}: هذا هو دليل البعث، والأدلة على البعث كثيرة، وقد اختار المؤلف رحمه الله قوله تعالى:{والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً}، وذلك لأن العباد ينبتون يوم القيامة من هذه الأرض، إذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمطرت السماء ماء، قال عنه أهل العلم كمني الرجال، ونفخ في الصور نفخة البعث،ليقوم العباد لرب العالمين، كما قال تعالى:{يوم يقوم الناس لرب العالمين}.

جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، t قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله r :"مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَالَ أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَبَيْتُ قَالَ ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهْوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

قوله:{ويخرجكم إخراجاً}: تأكيد لقضية البعث وأنها واقعة لا محالة، وفي صحيح مسلم في حديث عبد الله بن عمرو الطويل وقد تقدم بطوله، وفيه قال النبي r :" ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ - قَالَ - فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ مِنْ كَمْ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ - قَالَ - فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ".

وقد جاء ذكر البعث في الكتاب في مواضع، فمنها قوله تعالى:{مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يس:٤٩-٥٤].

وقوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [المعارج:٤٠-٤٤].

وقوله: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} [ق:٤١-٤٤].

وقوله: {يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات:١٠-١٤].

قوله:(وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}).

قوله:(وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم): دلالة على أن من أعظم حكم البعث وقوع الجزاء والحساب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنواع الحساب: والحساب في ذلك اليوم ينقسم إلى قسمين:

١ - الحساب اليسير. ٢ - الحساب العسير.

أما الحساب اليسير: فهو العرض، دون نقاش، فيعرض الله جل علا الأعمال على عباده الذين اصطفى، ثم مآلهم إلى الجنة ولابد، فمنهم من يدخل الجنة ابتداء، ومنهم من يناقش ويدخل الجنة وهم الظالمون لأنفسهم، ولكن مآلهم إلى الجنة،وأهل الجنة ثلاثة أصناف ذكرهم الله جل وعلا في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر:٣٢-٣٥]، فهم إذاً المقربون وهم السابقون،والأبرار وهم المقتصدون، والظالمون لأنفسهم وهؤلاء معرضون للوعيد، ومنهم من يقع عليه العذاب، ومنهم من سيعفو الله عنهم.

وأما الحساب العسير: فكل من نوقش الحساب، فهذا معذب والعياذ بالله، فأما عصاة الموحدين فينجيهم ربهم برحمته تبارك وتعالى بإيمانهم بعد العذاب، وأما أصحاب الحساب العسير الذي لا تخفيف معه ولا كفارة، فهم أهل الإشراك والكفر الأكبر، وهؤلاء جزاؤهم بأربعة أمور:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - سخط الرب جل وعلا . ٢ - الفضيحة على رؤوس الأولين والآخرين مع الذل والصغار والهوان، والخوف والهلع العظيم. ٣ - دخول جهنم خالدين فيها أبداً. ٤ - وأعظم من ذلك كله حجابهم عن رؤية الله تبارك وتعالى.

أما المنافقون فيرون الله تعالى في العرصات مع المؤمنين، ثم لا يستطيعون السجود، يوم يكشف عن ساق، فيحشرون إلى الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله.

جاء في الصحيحين من طَرِيقِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ إِلاَّ رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:"مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} قَالَتْ فَقَالَ إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ".

قوله:(والدليل قوله تعالى:{ولله ما في السماوات والأرض ليجزي الذين أساؤوا ما عملوا يجزي الذين أحسنوا بالحسنى})، هذه الآية تقرر أن كل ما في السماوات وما في الأرض، هو ملك لله الواحد القهار، وأنه وحده المتصرف في ذلك كله، لا يشركه في ذلك أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي صالح، كما قال تعالى:{بل لله الأمر جميعاً}.

وقوله:{ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا}: هذا كقوله تعالى:{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:١٢٣]، وهذا الجزاء قد يدخر للعبد يوم القيامة، وقد يناله بعض ذلك في الحياة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدنيا، كما قال تعالى:{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة:٢١].

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ:{مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ الله r :"قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا".

وفي الصحيحين عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ r قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله r :"مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا".

أعظم أنواع الإساءة:

واعلم أن أعظم أنواع الإساءة على الإطلاق مع الرب تبارك وتعالى، التلاعب بحقه جل وعلا على عباده، ألا وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، فمن العباد من بلغ في الإساءة الحد الأعظم، وذلك بالوقوع في الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t قَالَ:سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله قَالَ:"أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ"، قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ:"وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ"، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ:"أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

ومن العباد من هم دون ذلك، ومن ذلك إساءة الأدب مع الله جل وعلا، إذ يخلق ويرزق ويعافي، ثم يستعين العبد بنعم الله على معصيته،وبين الأول والثاني مراتب، فليتأمل كل واحد منا نفسه، ومن رحمة الله بعباده أن الجزاء يكون على أنواع، فمنه ما يعجل في الدنيا من البلايا والمصائب، كما تقدم، وكما قال تعالى:{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَأَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٨٦]، ونحو ذلك من الأدلة، الدالة على أن اللأوى والمصائب والآلام، هي من الجزاء المعجل في الدنيا رحمة من الله بعباده المؤمنين.

حَشْرُ العباد:

وأما حَشْرُ العباد فإليك طرفا من ذلك، ففي الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ الله r خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَلاَ وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي. فَيُقَالُ إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، قَالَ فَيُقَالُ لِي إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ".

وفي الصحيحين عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله r تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا"، قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟!، فَقَالَ:"الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ".

وفي صحيح البخاري من طريق قتادة عن أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ t أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا نَبِيَّ الله يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ:"أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، قَالَ قَتَادَةُ بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سنن الترمذي من طريق عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةِ الْخَبَالِ". قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح.

وفي الباب آيات متكاثرة، منها: قوله تعالى:{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مريم:٨٥-٨٧]، وقال:{وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ} [النمل:٨٣-٨٥]، وقوله:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهَّ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [يونس: ٤٥]، وقوله:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان:١٧-١٩]، وقوله:{الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان:٣٤]، وقوله:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُكَذِّبُونَ} [سبأ:٤٠-٤٢]، وقوله:{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت:١٩-٢٣].

الحَشْرُ بَيْنَ حَالَتَي الفَرَاش المَبْثُوث والجَرَاد المُنْتَشر:

وهنا آيتان:{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} [القارعة: ٤]، {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: ٧- ٨].

فقيل إنهم عند الخروج من القبور يكونون كالفراش المبثوث لا يَلْوُونَ على شيء، ثم إذا تطايرت الصحف صاروا كالجراد المنتشر، فالجراد يعرف وِجْهَتَهُ.

قوله:{ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى}: أي بالجنة، ويزيدهم الله من فضله، بالمزيد وهو رؤيتهم لله رب العالمين، تبارك وتعالى، ذي الجلال والإكرام.

إحسان لا ينجي:

وأما إحسان المشركين في الدنيا فلا ينفعهم في الآخرة؛ لأنه إحسان ناقص غير مقبول؛ لأن شرطي قبول الإحسان الإخلاص والمتابعة، ولكن لكمال عدل الله تعالى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي لا يظلم الناس شيئاً، فإن ما وقع منهم من عمل في ظاهره أنه طيب، فإن الله تعالى يجزيهم به في الدنيا، كما قال تعالى:{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف:٢٠].

وبعضهم ربما يلحقه شيء من التخفيف المؤقت، كما في صحيح البخاري موقوفا: قَالَ عُرْوَةُ: وثُوَيْبَةُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي لَهَبٍ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ r فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ قَالَ لَهُ مَاذَا لَقِيتَ قَالَ أَبُو لَهَبٍ لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ.

أهون أهل النار عذبا:

ويخفف عن أبي طالب خاصة العذاب، وهو أهون أهل النار عذابا، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله r وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ:"لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ".

وفي هذه المكاشفة في هذه الآية، التي تبين حقائق الأمور والمآلات، تهيج على العمل بالصالحات، والبعد عن معصية الله جل وعلا، ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، يذكر ثواب الطائعين، وعقوبة العاصين، إعذارا ورحمة للعباد، لعلهم أن يهتدوا إلى سواء السبيل، وهذا أحب الأمرين إلى الله تعالى، أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، بل حتى لربما ضرب الله عباده بألوان من العقوبات الدنيوية؛إما تخيفا لهم عن حظ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآخرة، وإما ليرجعوا إليه من قريب، وهذا كثير في الذكر الحكيم، كقوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١]، ويعظ عباده لعلهم يهتدون، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأحقاف:٢٧]، حتى قال سبحانه وتعالى: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٧]، فاللهم اهد قلوبنا، ووفقنا إلى العمل برضاك، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، يا كريم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[التغابن: ٧].وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النساء: ١٦٥]. وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ r وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}[النساء: ١٦٥]. وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ r يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}[النحل:٣٦]. وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قوله:(ومن كذب بالبعث كفر): وهذا الحكم بالكفر قطعي بدلالات الكتاب والسنة وبالإجماع، وذلك لأمور:

١ - لأنه تكذيب بالخبر.٢ - تكذيب بالرسل.٣- قدح في القدرة.٤ - قدح في الحكمة.وكل واحدة من هذه الأمور كفر مستقل، كيف والمكذب بالبعث جمعها كلها.

قوله:(والدليل قوله تعالى:{زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن.. الآية}، هذا تأكيد من المؤلف على عقيدة أهل السنة والجماعة، أنهم لا يكفرون إلا بمكفر ثابت بالشرع، لا بالهوى، والتخرص كما فعلت الخوارج، كما أن فيه إثباتا للتكفير المنضبط كما تقدم؛ ولهذا أردف بذكر الدليل الدال على كفر المكذب بالبعث.

قوله:{زعم}، هو القول المحتاج إلى برهان، والمعنى في الآية، أي ليس عندكم أدنى برهان ولا أثارة من علم على ما ذكرتم، بل إن شاهد الشرع، وشاهد العقل، والفطرة، يكذبكم في ما ذهبتم إليه، في هذا الإدعاء المأفون، الدال على سفه العقول وطيشها، فإن إماتتكم ثم بعثكم، ليس بأشد ولا أشق من إعادتكم، وقد أوجدكم من العدم، والكل عند الله هين، كما قال تعالى:{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:٨١-٨٢] ، وقال:{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر:٥٧] ، وقال:{مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان:٢٨]، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}، فأقسم سبحانه وتعالى أن ذلك عليه يسير.

وتأمل في هذه الآيات: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٤٩-٥٢].

وفي الآية تذكير بما وقع من الانحراف والشرك والضلال من قبل المشركين في كل أبواب التوحيد، وقد تقدم الكلام عن هذا فيما مضى.

وكما تقدم فالزعم هو القول الذي يحتاج إلى بينة وإلا فهو باطل، وعليه فليحذر الإنسان من الزعم بلا بينة؛ لأن هذا من خصال أهل الضلال، فبئس مطية الرجل زعموا، وما أكثر الزعم والدعاوى اليوم، فكثير من الناس يتناقلون الأخبار من هنا وهناك، فإذا سألت من أين هذا، قيل لك:(قالوا، أو يقال، أو حدثني من لا أتهم، أو سمعت من قناة كذا)، فأكثر الأخبار لا زمام لها، ولا خطام، ويزداد الأمر شناعة وفظاعة، إذا كان ذلك فيما يتعلق بالصالحين، وأشد من ذلك إذا تعلق بالأنبياء والمرسلين، وما جاءوا به من الدين القويم، وأشنع أنواع الزعم ما كان في حق الله تبارك وتعالى، وهذا ما وقع فيه الكفار، والمعنى في هذه الآية أنهم يزعمون ويفترون على الله الكذب، ولهذا خصصهم بقوله: {الذين كفروا}، وعليه فالزعم مراتب متفاوتة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأقبحها وأشدها ما كان افتراءً على الله جل وعلا، وهذا كفر بإجماع المسلمين، كما دلت على ذلك النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، وصدّرت الآية بذكر الكافرين؛ تشنيعاً عليهم، وتنفيراً للعباد عن مثل قولهم، فإذا علم العبد أن هذا هو قول المشركين؛ ارتدع وانزجر وكف، عن الغي و الضلال.

الأدلة النقلية والحسية والعقلية على إثبات البعث:

وهذا الزعم الباطل، والذي مستنده الظن والخرص والهوى، قد قامت البينات على إثبات ضده، وتحقق حصول البعث ووقوعه، فنذكر من هذه البينات:

أولاً: الأدلة النقلية، وهي متكاثرة بحمد الله جل وعلا في الكتاب والسنة تقريراً لحصول البعث وتحقق وقوعه، وقد تقدم بعضها.

ثانياً: الأدلة العقلية، فما من مخلوق إلا ويعلم أنه لم يخلق نفسه، وأنه خُلق بأمر خالق عظيم، فالعقل يقتضي أن من أوجد من العدم، أهون عليه أن يعيد ما أوجده من العدم،الكل عند الله هين.

ثالثاً: الأدلة الحسية، وهذا ما أحال الله تعالى عليه عباده في مواضع من الذكر الحكيم، فعظمة هذه المخلوقات، من السموات والأرضين، دليل على قدرة وعظمة خالقها وموجدها من العدم، فليس إعادتك أيها الإنسان الضعيف بشيء مقارنةً بخلق السماوات والأرض، وهذا هو النبات يكون لا شيء فإذا أنزل الله عليه الماء تحركت الحبة، وانبتت أشجاراً وثماراً، مختلفة وطُعُوماً وأشكالا متباينة، وقد قص الله جل وعلا علينا جملة من الآيات الدالة على إحياء الموتى، فمنها ما في سورة البقرة،وكما في سورة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكهف، وكما هي معجزة عيسى عليه السلام، والأمر أظهر من أن ينكر، أو يتوقف في قبوله.

قوله:(وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين): أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يبين الحكمة من إرسال الرسل، وأنهم إنما يبعثون ليبشروا العباد بالتوحيد، وليأمروهم به، وليبشروهم بما وعدهم الله جل وعلا به من النصر والتمكين، والعز والرفعة في الدنيا، والأمن والنعيم العظيم في الدار الآخرة، فهذا أعظم ما بشرت به الرسل أقوامها، وأعظم ما جاءت الرسل لبيانه، وهو دعوة سائر الأنبياء والمرسلين، كما قرر ذلك المؤلف رحمه الله.

وقوله:(ومنذرين): أي من الشرك الأكبر، وكل ما يوصل إليه من شرك أصغر، أو تطاول في المحرمات، فإن المعاصي بريد الكفر،وينذرونهم وخيم العاقبة، وسوء المنقلب، فأعظم ما حذرت منه الرسل الشرك بالله جل وعلا.

قوله:(والدليل قوله تعالى:{رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل}): وهذا من كمال عدل الله وفضله، ورحمته وإحسانه تبارك وتعالى، فلم يكتف بعلمه السابق الذي وسع كل شيء، ولا بالعهد الأول، ولا بالفطرة، حتى أرسل رسلاً وأنزل كتباً.

قوله:{لئلا يكون}: أي حتى لا تبقى لهم حجة يدلون بها على الله جل وعلا، وذلك بانقطاع الحجة، واستبانة المحجة، على أيدي الأنبياء والمرسلين، ولهذا حذر النبي r ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمته من بعد أن أبلغهم البلاغ المبين، من أن يلقى أحدهم يوم القيامة، ومعه التبديل المفضي إلى دخول النار، أو ما يكون سبباً لذلك.

حجة الله على عبادة التي يأخذهم بها لا تقوم إلا بالرسل:

والمعنى فيه هذه الآية، أن الله تعالى أعذر إلى العباد، حتى لا يقول قائل، رب قد خلقتني، ورزقتني، وأوجدتني من العدم، ولكني لا أعلم ما هو المراد مني، فما جاءني منك بشير ولا نذير، يأمرني وينهاني، ويدلني على مرادك مني إذ خلقتني، وهذا كقوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} [طه:١٣٣-١٣٥].

وقوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [القصص:٤٧].

وقوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [الأنعام:١٥٥-١٥٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ يَرْفَعُهُ إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا:"لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ".

والمعنى: أني كنت قد أخذت عليك العهد والميثاق، وأنت في عالم الذر، ثم حتى لا تحتج بالنسيان، وعدم الذكرى، أرسلت إليك الرسل، وأنزلت الكتب، فأبيت وعصيت، ومضيت في شركك، معرضا عن الحق، أو معاندا له، أو مستكبرا عنه.

لا يأخذ الله تعالى عباده بالفطرة ولا بالعهد حتى يبعث رسولا:

والآية دليل واضح صريح، بأن الله تعالى لا يأخذ العباد، لا بالعهد الأول، ولا بشاهد الفطرة والكون، ولكن بإرسال الرسل؛ أي بعد إعلام العباد مُرادَ الله تعالى منهم؛ ولهذا كان من أعظم نعم الله تعالى علينا، قوله تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]، فما كنا لنعلم ما يريده الله تعالى منا، إلا بعد بيانه ذلك لنا في كتابه، وأرسل به رسله.

إذ أن شاهد الكون والفطرة، يدلان قطعا العبد على وجود الخالق العظيم، ولكن هذا الشاهد لم ولن يخبرنا أبدا، بما يريده الله تعالى منا، لا على وجه الإجمال، ولا على وجه التفصيل، لا في باب الأصول، ولا في باب الفروع، والشرع كله لاسيما العقائد والعبادات مبناه، على التحريم والتوقف، فلا يحل لعبد أبدا، أن يعتقد في الله تعالى شيئا، إلا إذا جاء بذلك الدليل الصحيح الصريح من الكتاب والسنة، كما أنه لا يحل له قطعا، أن يعبد الله تعالى بأي عبادة، مهما استحسنها، حتى يدل عليها الدليل الصحيح الصريح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الكتاب والسنة ، بل من أين نعلم أن هذا الفعل عبادة أصلا، إلا من جهة الرسل والكتب، بل حتى الشرك بالله تعالى، نعم هو قبيح وشنيع، وتستقبحه العقول السوية، والفطر المستقيمة، ولكن من أين لهذه العقول، وتلك الفطر، أن تعلم أن الله تعالى حرم هذا؟!، وأنه ذنب لا يغفره البتة، إلا بالتوبة النصوح؟!، ومن أين لها أن تعلم أن الله تعالى، رَتَّبَ على ذلك، دخول النار، والخلود فيها، بل وفوق ذلك الحجاب عن رؤية الله جل جلاله، قطعا لا سبيل إلا ذلك، إلا بالوحي النازل من السماء، فإن العبد، مهما بلغ من كمال العقل، وتوقد الذهن، وصفاء النفس، فإنه لم ولن يهتدي إلى هذه الحقائق، إلا بوحي من الله جل وعلا، ولا وحي إلا للرسل، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى:٥١]، وقال: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن:٢٦-٢٨]، وقال: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٧٩].

ولهذا كانوا هم الحجة من الله تعالى على خلقه، فهم نَقَلَةُ العلم الصحيح عن الله تعالى، المُبَلِّغُونَ العبادَ مُرَادَ الله جل وعلا، عندها تأتي البينة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا كان من الضلال المبين، ومن السَّفَه العظيم، اعتقاد أن الرسل إنما بعثوا فَضْلَة، وأن الحجة قد قامت على العباد بشاهد الفطر والكون، والعهد والميثاق الأول، لأن العهد منسي، والله تعالى لا يؤاخذ بالنسيان، والراجح أنه كان عهدا بالربوبية على وجه العموم، أما الألوهية وتفاصيل الربوبية والأسماء والصفات فهو العلم الذي جاءت به الرسل، وعلى القول الثاني، فالعهد منسي كما تقدم، والله تعالى قطع على نفسه أنه لا يؤاخذ عباده بالنسيان، كما هو صريح القرآن في خواتيم سورة البقرة، وجاء ذلك مقررا في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله r :"{لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله r فَأَتَوْا رَسُولَ الله r ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا أَيْ رَسُولَ الله كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ الله r :"أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ". قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}، قَالَ نَعَمْ: {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} قَالَ: {نَعَمْ} {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قَالَ:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{نَعَمْ} {وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قَالَ: {نَعَمْ}".

وفي صحيح مسلم أيضا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ} قَالَ دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ r: "قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا". قَالَ فَأَلْقَى اللهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} قَالَ: {قَدْ فَعَلْتُ}، {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}، قَالَ: {قَدْ فَعَلْتُ}، {وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا}، قَالَ: {قَدْ فَعَلْتُ}".

قوله:(وأولهم نوح عليه السلام): وما جزم به المؤلف هنا من أن أول الرسل هو نوح عليه السلام، هو الصواب، والمقصود أنه أول الرسل إلى أهل الأرض، خلافا للذين قالوا بأن أولهم هو إدريس عليه السلام، ودليل ما جزم به المؤلف، ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ r فِي دَعْوَةٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً وَقَالَ: "أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَلْ تَدْرُونَ بِمَ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُبْصِرُهُمْ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا فَيَقُولُ رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَنَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ **يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ** وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ائْتُوا النَّبِيَّ **r** فَيَأْتُونِي فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَهْ". وهذا لفظ البخاري وهو في الصحيحين بأطول من هذا.

بل وذهب بعض أهل العلم إلى أن إدريس عليه السلام، كان بعد نوح بزمان طويل، وأنه من أنبياء بني إسرائيل، وعلى كلٍ فالحديث صريح في الدلالة.

وكان سبب بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام، إلى أهل الأرض، هو ما دب به الشيطان من الشرك بالله تعالى، وتزيينه عبادة غير الله تعالى، لأهل ذلك الجيل، بعد أن كانت الأرض عامرة بالتوحيد عشرة قرون، فلطخها الشيطان الرجيم بالشرك بالله تعالى، وانطلق يدعو إلى ذلك منذ ذلك الزمان، وإلى يومنا هذا، بل وإلى آخر الدنيا، فهو داعية الشرك الأول، وهو الرأس في هذا الذنب الأعظم، أعاذنا الله وإياكم من الشك والشرك، ومن الرجس النجس الشيطان الرجيم.

كما في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :(صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ).

وهذا من رحمة الله تعالى لعباده، أنه ما زال يبعث الرسل للعباد يدعونهم إلى عبادة الله جل وعلا، كما في من طريق أبي حَازِمٍ قَالَ قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ قَالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ".

قوله:(وآخرهم محمد r): وهذا الذي قرره هنا أيضا هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وعليه إجماع سلف الأمة، كما قال تعالى:{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب:٤٠]، وفي الصحيحين عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ r لِعَلِيٍّ:"أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي". والدلائل متكاثرة على ذلك، فمن شك في ذلك، أو تردد، أو توقف؛ فقد كفر بالله جل وعلا، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، فكيف بمن يزعم أنه نبي؟، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، بأن هناك من سيدعي النبوة من بعده، وحذر منهم، وأخبر أن جملتهم، نحواً من الثلاثين من الدجاجلة، الذين سيدّعون النبوة والرسالة، وقد ظهر في زمانه بعضهم، ككذاب اليمامة (مسيلمة الكذاب لعنه الله) (الأسود العَنسي)، بل حتى النساء ادَّعَين النبوة (كسَجَاح)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما زال الأمر إلى يومنا هذا، ففي زمان قريب ادعى رجل في الفلبين النبوة، وآخر كذلك في أمريكا، وهذا علم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، وهنا في السودان ادعى رجل أنه المسيح عيسى بن مريم، وهذه حذلقة منه، لأنه لما علم أنه لا سبيل له إلى ادعاء أنه نبي بعد النبي r ؛ ادعى أنه عيسى بن مريم r ، وكل هذا كفر وردة وزندقة، والعياذ بالله.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ فَيَكُونَ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ".

قوله:(والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى:{إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده}): هذا استنباط بديع، قرره العلماء من هذه الآية، وذلك من قوله:{والنبيين من بعده}، فلو كان قبله أنبياء لذكروا، ولقال و(النبيين من بعده ومن قبله)، وحيث خص بالذكر بـ {من بعده}؛ دل على انتفاء ما قبله، وهذا من القول باللازم، وهو المتعين هنا وهو ما دل عليه الحديث المتقدم.

ومن الأدلة كذلك: قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ}.

قال المؤلف:(وكل أمةٍ بعث إليها رسولاً يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت): أي من كمال رحمة الله جل وعلا بعباده إرسال الرسل إليهم، فما أخلى الله جل وعلا أمة من نذير، بَيْدَ أن كل هؤلاء النُّذُر، دعواهم واحدة، فهم يدعون إلى شيء واحد؛ لأن الذي أرسلهم واحد وهو الله رب العالمين، وهو الآمر لهم وحده لا شريك له، وقد أعلم تبارك وتعالى أنه يرسلهم لشيء واحد، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ ليعلم العباد أهمية الأمر وخطورته، وأن الإيمان ليس بالتمني، ولا بالتحلي، بل هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فأمر هذا شأنه يُخلق العباد لأجله، وتنزل الكتب، وترسل الرسل لبيانه، لعمري إنه لأمر جسيم، فكيف يظن ظَانٌّ، أن العبادة تنحصر في النطق بالشهادتين، أو في لون من ألوان العبادات، أو شعيرة من الشعائر، كلا والله بل إن العبادة حقيقتها، صرف الحياة كلها لله الواحد القهار، والدخول في السلم كافة، وهذا هو معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإنما هي منهج متكامل للحياة، فهي معك تؤدبك، على سرير نومك، ووقت جلوسك مع أهلك، وفي بيعك وشرائك، كما أنها جاءت لتقومك في صلاتك وصيامك، وزكاتك وحجك، كما أنها معنا في بيوتنا وطرقاتنا، وفي كل أحوال حياتنا، إنه الأمر والنهي، الذي هو حقيقة العبادة، فمن قام بهذا كله، واتخذ من هذه الكلمة منهجاً، متكاملاً للحياة، فهذا صاحب الإيمان الكامل، ومن انتقص منها، بأن ارتكب ما يخالفها من المعاصي والمنكرات، وترك العمل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالمأمورات، التي لا تنافي في أصل هذه الشاهدة؛ فهذا معه إيمان ناقص، وأما من ارتكب من الأعمال ما ينافي أصل هذه الكلمة؛ فهذا لم يبق معه شيء ينتفع به من هذه الكلمة، ولو تكلم بها الليل والنهار، وإن من سوء الظن بالله جل وعلا، أن يظن العبد أنه بأدائه الصلوات الخمس مثلاً فقط، قد حقق العبودية، وأتى بالمطلوب منه، وأدى ما عليه!!، فإن الصلوات الخمس إذا اجتمعت لا تتجاوز ساعة من اليوم، فهل يقول من عرف حقيقة التوحيد أن الله خلق خلقه ليعبدوه ويتبعوا أمره ساعةً من النهار؟!، ثم لهم باقي الوقت يُصَرِّفُونه ويتصرفون فيه كما شاءوا بما شاءوا،؟!!، ولكنهم لا يعلمون.

ولهذا نزه الله جل وعلا نفسه عن هذا العبث، الذي لا يليق بالله رب العالمين، ولله المثل الأعلى، كما قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه الله نفسه جل وعلا عن مثل هذا الفعل.

قوله:(وينهاهم عن عبادة الطاغوت): هما أمران متلازمان أبدا الإيمان بالله مع الكفر بالطاغوت، لئلا يظن العباد أن حقيقة التوحيد ليس لها علاقة بما يضاده؛ وليعلم العباد أن الأمر بالشيء هو نهي عن ضده في مثل هذه المقامات، وفي كثير من مواقع الشريعة، فالأمر بعبادة الله يتضمن النهي عن عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، والأمر بمحبة الله ورسله وأوليائه، والنهي عن محبة أعداء الله وأعداء رسله وأولياءه، وهذه هي عقيدة الولاء والبراء، ولكثرة الغفلة عن هذا، وعظيم الجهل به، لدى أكثر الناس،تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في ذلك، وقد تقدم شرح ذلك من قبل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي صحيح مسلم من طريق أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ طارق بن أشيم t قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله".

قوله:{ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}، أي بمثل هذا، ولأجل هذا بعث الله جل وعلا الرسل، وأن من لم يَعِ ذلك، فَلَمَّا يعرف حقيقة دعوة الرسل، بل وما عرف حقيقة الإيمان أصلا، وانتبه فإن الله تعالى أخبر أن أكثر الناس يكونون كذلك، والعياذ بالله. {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف:١٠٢].

قوله:{في كل أمة رسولا}، أي على الحد الأدنى، وإلا فقد بين الله تبارك وتعالى، أنه ربما بعث أكثر من رسول في الأمة الواحدة، أو تكون الآية المراد بها الجنس، أي جنس الرسل.

قوله:{واجتنبوا}: أمْرٌ بِمُجَانَبة الطاغوت؛ سداً لكل طريق يوصل إليه، ولو بعد حين، فكل ما هو من شأن الطاغوت أو سبيله؛فإنه يجب اجتنابه، وهذا فرض حَتْمِيٌّ على كل العباد، فلا يسع أحدا ترك ذلك إلا مع تركه للإسلام، بمعنى أن من لم يكفر بالطاغوت، فليس بمسلم أصلا، والكفر به يستلزم البراءة منه، وبغضه، و مجاهدته، والسعي في إزالته، واعتزاله، واعتزال مؤسساته، وأعماله، فمن داخله فقد نقص من توحيده بقدر مداخلته له، حتى ربما تكون ذاهبة بأصل التوحيد بالكلية، كالذين يتولون حمايته، والدفاع عنه، وتَدْشِين شركه في الأمة، والترويج لذلك، والمجادلة عنه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويدخل في ذلك أصالة الذين يضعون له الدساتير والقوانين الطاغوتية، ويحكمون بها العباد والبلاد، فهذا من أعظم المنكرات على الإطلاق، فنحن مأمورون بهجر الطاغوت واعتزاله، لا الانخراط معه ومداخلته، والأمر كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال:قال رسول الله r :"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان}، وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"؛ ولهذا قال المؤلف رحمه الله:(وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله).

لا خيار في الكفر بالطاغوت:

فنحن إنما أمرنا في الطاغوت أن نكفر به كله، لا أن نختار منه، فإنه لا خيار في ذلك بين كفر وكفرين وثلاثة، بل الخيار الوحيد الكفر به جملة وتفصيلا، والاعتزال التام له، كما قال تعالى: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن التوحيد لا يقبل الترقيع وأنصاف الحلول. **وإن مداخلة الطاغوت في مثل هذه الأحوال، التي يتظاهر فيها الطاغوت بلباس الدين؛ يحدث تلبيسا ولبسا عظيما في الدين. وهو من العمل على سربلة الطاغوت بسربال الإيمان، وهذا من أخبث الأمور، وهو من العمل على الجمع بين المتناقضين.**

فإن التوحيد لا يقبل التبعيض ولا المقابلة، فمهما عمل العبد بشرائع الإسلام، وهو مرتكب للكفر أو الشرك أو النفاق الأكبر؛ لم ينفعه عمله طرفة عين، مهما كثر، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين قَالَ النبي e :"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ" زاد مسلم:"وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ".

فإنما أمرنا في الطاغوت أن ننابذه، وأن نجتنبه، بأن نتركه ونبتعد عنه، كما بين ذلك ابن جرير وغيره، وأن نسعى في محاربته، حتى يفيء إلى أمر الله، كما في حديث عبادة رضي الله عنه في الصحيحين، وحديث عوف بن مالك في صحيح مسلم، بل جاء التحذير الواضح البين من النبي e في شأن من تابع الطاغوت وداخله، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله e قال:"ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع" قالوا أفلا نقاتلهم؟ قال:"لا ما صلوا". أخرجه مسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دين الأنبياء واحد وهو التوحيد وإن اختلفت شرائعهم:

واعلم رحمك الله، أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قاطبة أصل دينهم الإسلام، وهو المتمثل في تحقيق التوحيد العام لله رب العالمين، إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، واجتنابا له، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله **r** :"أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ".

قوله:(وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ)، الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد إما بإفراط أو تفريط، كما قال تعالى:{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة:١١]،أي لما تجاوز حده المعلوم، حملناكم في السفينة، وأعظم الطغيان الاستغناء عن عبادة الله جل وعلا، بعبادة غيره، كما قال تعالى:{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} في موضعين من الذكر الحكيم، وقال تعالى:{كلا إن الإنسان ليطغى}، ثم بين متى يقع ذلك فقال:{أن رآه استغنى}.

واعلم أن لفظة الطاغوت، حيث وردت في الكتاب والسنة، إنما تأتي مرادفة للكفر والشرك بالله تعالى، فإنه مسمى لما ينتقض به الإسلام، عياذا بالله تعالى، كما قال تعالى:{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة:٦٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس في الطاغوت شيء اسمه طاغوت أصغر وآخر أكبر، فهذا التفصيل لا محل له من الأدلة الشرعية، بل الطاغوت كله من قبيل الشرك والكفر الأكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:(مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ). وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا اله إِلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ:"رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ". وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قوله:(قال ابن القيم): هو الإمام المعروف شيخ الإسلام، وتلميذ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية عليهما رحمة الله، وسمي بذلك؛ لأن أباه كان قيّماً على مدرسة، اسمها الجوزية، أي ناظراً ورئيساً لها، وتذكر تماما أن بين تلك المدارس، ومدارس اليوم، من الفُرُوق، أبعد ما بين السماء والأرض، والمشرق والمغرب، كحال الثَّرَى والثُّرَيا، واللبيب بالإشارة يفهمُ، وإنما انتقى المؤلف كلام ابن القيم؛ لأنه من المحققين المتعمقين، في فهم الكتاب والسنة، وقد تلقت الأمة علمه بالقبول، وشهدت له بالفضل والإمامة والتقدم في ذلك، فكان هذا أحرى للعباد وأهدى.

وهذه ترجمة مختصرة له من كتاب (البداية والنهاية) للحافظ العماد ابن كثير رحمه الله تعالى قال:[ترجمة الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية: **وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية** وابن قيمها وصلى عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله، **ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة**، وسمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمة إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جما مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريدا في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلا ونهارا وكثرة الابتهال وكان حسن القراءة والخلق كثير التودد لا يحسد أحدا ولا يؤذيه ولا يستعيبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يحقد على أحد وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا ويمد ركوعها وسجودها ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا واقتنى من الكتب مالا يتهيأ لغيره ..... وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه،**وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله**، وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر شعبان ذكر الدرس بالصدرية شرف الدين عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية عوضا عن أبيه رحمه الله فأفاد وأجاد وسرد طرفا صالحا في فضل العلم وأهله. وانتهى. والله تعالى أعلم]ا.هـ.

قوله:(معنى الطاغوت، ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع):
والمعنى أن للعبد حداً يجب أن يكون في داخله وإطاره فهو لا يصح له أن يكون كالأنعام؛ لأنه إنسان مكرم، كما أنه لا يصلح له أن يتجاوز كونه عبداً، فيدعي الألوهية أو الربوبية أو شيئا من ذلك، فالرَّبُّ رَبٌّ، والعَبْدُ عَبْدٌ، والأصل في كل عبد أن يعبد الله، وأن يطيع الله، وأن يتبع الله، وعليه فكل شيء يخرجه عن هذا الحد؛ ليكون به عبداً لغير الله، أو مطيعاً لغير الله، في معصية الله، أو متبعاً لغير الله في مخالفة شرع الله، فذلك هو الطاغوت، فمقل ومستكثر، فبعض العباد تتمثل فيه حقيقة الطاغوت وعبادته، ومنهم من يكون فيه شيء من ذلك، فليحذر العبد ولينتبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في تفسير الطبري:[وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي الطَّاغُوتِ أَنَّهُ كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللهِ فَعُبِدَ مِنْ دُونِهِ، إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَهُ، وَإِمَّا بِطَاعَةٍ مِمَّنْ عَبَدَهُ لَهُ، وَإِنْسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ، أَوْ شَيْطَانًا، أَوْ وَثنا، أَوْ صَنَمًا، أَوْ كَائِنًا مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ]ا.هـ.

وهذا النقل الذي ذكره المؤلف عن الإمام ابن القيم، موجود في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) وسأنقله كاملا لعظيم النفع والفائدة:[ومنها: أن قوله:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ} نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله جليه وخفيه ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيا لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه وتعالى هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول r هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

انتفاء الإيمان بانتفاء الرد:ومنها: أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه **والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت** كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله، إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله، وإلى الرسول، إلى التحاكم إلى الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا للداعي ورضوا بحكم غيره ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه، كما قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق أي بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه ويزعم بذلك أنه محسن قاصد الإصلاح والتوفيق والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق وبالله التوفيق]ا.هـ.

قوله:(من معبود أو متبوع أو مطاع): يقيد بمن كان راضياً بذلك؛ ليخرج بذلك من لم يرض، كالملائكة والأنبياء والأولياء الذين هم أولياء بحق وحقيقة، لا أهل التصنع والشحاذة والسحر والشعوذة والدجل، وكذلك تخرج الشمس والقمر، ونحو ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نواقض الإسلام كثيرة فتعلمها واحذرها:

قوله:(رؤوسهم خمسة): في هذا بيان أن الطواغيت يتفاوتون، وأن الطغيان دركات، والذي يتكلم عنه المؤلف هو الطغيان الذي يناقض الإسلام، ونواقض الإسلام كثيرة؛ ولعلنا أن نذكرها إجمالاً لتمام الفائدة: كالشرك والكفر والنفاق الأكبر، وترك الصلاة، وتعاطي السحر بالاستعانة بالجن، والتقرب إليهم ذبحا ونذرا وتركا للصلوات بعضا أو كلا، والكهانة، والعرافة، بادعاء علم الغيب، وكالاستهزاء بالدين، ولو بشيء يسير منه، سواء كان ذلك على مستوى الفرائض والواجبات، أو المستحبات، فلو استهزأ بالسواك لكفر، وكذلك الاستهزاء بالصالحين لدينهم، كالاستهزاء بِلِحَاهُم أو بِقِصَر ثيابهم، أو لامتثالهم لسنة نبيهم r ، ومن النواقض القطعية، سب الله، وسب رسوله، وسب الدين، ومن النواقض أيضاً الرضى بالكفر، وكذلك السعي في نشره وحمايته، والترويج له، وإلإذن بالدعوة إليه، والتبشير به بين عباد الله المسلمين، أو الشك في كفر الكافرين والمشركين، من يهود ونصارى وبوذيين ومجوس وهندوس، وغيرهم من الكفار الأصليين، وكذلك التوقف في أفعال الكافرين، التي تقع من بعض المنتسبين إلى الإسلام، فإن التوقف في القطع بأن ما أتوه هو كفر بالله تعالى، هو كفر بالله تعالى، بخلاف الحكم على الأعيان، فإن هذا يتوقف على توفر الشروط وانتفاء الموانع في حق المنتسب إلى الإسلام، فنقول الطواف بالقبور كفر وشرك، وننزل هذا الحكم على من توفرت فيه الشروط، وانتفت في حقه الموانع، شأنه شأن من أتى من المكفرات من المسلمين، وقد تقدم تقرير هذا من قبل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه أيضاً الحكم بغير ما أنزل الله تشريعا عاما، على ما سيأتي بيانه، ومنه اعتقاد أن أحدا يسعه الخروج على شريعة محمد r ، ومنه مظاهرة ومعاونة المشركين على المسلمين، ومنها أيضاً إدعاء علم الغيب ومعرفة ما في غد، ومنه ادعاء الرزق والخلق وإحياء الموتى.

واعلم أن هذه النواقض، قد تزداد بحسب ما يستحدثه الشيطان وأعوانه، من الكفر والشرك والزندقة، وضابط ذلك ومحل بيانه، كتاب الله وسنة رسوله r ، على سبيل المؤمنين y .

وقد كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، صاحب هذه الأصول، رسالة بَيَّنَ فيها نواقض الإسلام، ولشيخنا العلامة المحدث الفقيه الأصولي سليمان بن ناصر العلوان، كتاب نفيس، ومفيد في هذا الباب، اسمه (التبيان شرح نواقض الإسلام)، فَلْيُقْتَنَى ولْيُقْرَأ بِتَمَعُّنٍ، فإن الفتنة في هذا الباب في هذا الزمان كبيرة، وكثيرة.

احذر خصال أهل الجاهلية:

واعلم رحمك الله تعالى، أنه يتعين على العبد في الجملة، أن يحذر من جميع خصال أهل الجاهلية، وأن يسأل عنها ليتقيها، فمن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ t قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ r :"لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في صحيح البخاري:باب قَوْلُ الله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ}. وَقَوْلُهُ:{وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}. وَمَا يُنْهَى عَنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ الشُّعُوبُ النَّسَبُ الْبَعِيدُ وَالْقَبَائِلُ دُونَ ذَلِكَ.ا.هـ.

وفي صحيح مسلم عن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيَّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ". وَقَالَ:"النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ".

وفي صحيح مسلم في حديث طويل عن جابر بن عبد الله في قصة حجة النبي r وفيه:حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ فَرُحِلَتْ لَهُ فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ:"إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ.....الحديث".

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ثَلاَثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ".

مشروعة العزاء والاجتماع مواساة لأهل الميت:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فائدة: ذهب جماعات من أهل العلم إلى النهي عن الاجتماع للعزاء في بيت الميت، ويذكرون أن ذلك من النياحة، والراجح أن الاجتماع لتعزية أهل الميت ومواساتهم، جائزة لا حرج فيها بل هي من السنة، ولم يرد في النهي عن ذلك حديث صحيح، أما حديث جرير t ، فهو حديث منكر أعله إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد، وكذلك أعله الدارقطني[1]، فلا يلتفت إلى تصحيح الخلف له، كالنووي والبوصيري وغيرهما

---

[1] - أما حديث قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ:(كُنَّا نَرَى الِاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ، وَصَنْعَةَ الطَّعَامِ، مِنَ النِّيَاحَةِ). وفي رواية:(كُنَّا نَعُدُّ الِاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ، وَصَنِيعَةَ الطَّعَامِ بَعْدَ دَفْنِهِ، مِنَ النِّيَاحَةِ). أخرجه أحمد قال: حدَّثنا نَصْر بن باب. و"ابن ماجة" قال:حدَّثنا مُحَمَّد بن يَحيى، قال: حدَّثنا سَعِيد بن مَنْصُور، قال: حدَّثنا هُشَيْم (ح) وحدَّثنا شُجَاع بن مَخْلَد، أبو الفَضْل، قال : حدَّثنا هُشَيْم، كلاهما (نَصْر، وهُشَيْم) عن إِسْمَاعِيل بن أَبي خالد، عن قَيْس بن أَبي حازم، فذكره.

فهو حديث معلول، وقد أعله أحمد والدارقطني، كما في سؤالات أبي داود: قال أبو داود: ذكرت لأحمد حديث هُشيم عن إسماعيل عن قيس عن جرير:(كنا نعد الاجتماع عند أهل الميت، وصنيعة الطعام من أمر الجاهلية)، قال: زعموا أنه سمعه من شريك، قال أحمد: ولا أرى لهذا الحديث أصلاً).ا.هـ.

وجاء في العلل للدارقطني :[وسُئِل عَن حَديث قيس، عن جَرير، قال:(كانوا يرون الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام من النياحة).

فقال:يرويه هشيم بن بشير، واختُلِفَ عنه، فرواه سريج بن يونس، والحسن بن عرفة، عن هشيم، عن إسماعيل، عن قيس، عن جَرير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورواه خالد بن القاسم المدائني قيل: ثقة؟، قال: لا أضمن لك هذا، جرحوه، عن هشيم، عن شريك، عن إسماعيل. ورواه أيضا عباد بن العوام، عن إسماعيل كذلك]ا.هـ.

وجاء في المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني:[(١٦٦٠) مَسْأَلَةٌ؛ قَالَ:(وَلَا بَأْسَ أَنْ يُصْلِحَ لِأَهْلِ الْمَيِّتِ طَعَامًا، يَبْعَثُ بِهِ إلَيْهِمْ، وَلَا يُصْلِحُونَ هُمْ طَعَامًا يُطْعِمُونَ النَّاسَ) وَجُمْلَتُهُ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ إصْلَاحُ طَعَامٍ لِأَهْلِ الْمَيِّتِ، يَبْعَثُ بِهِ إلَيْهِمْ ، إعَانَةً لَهُمْ، وَجَبْرًا لِقُلُوبِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ رُبَّمَا اشْتَغَلُوا بِمُصِيبَتِهِمْ وَبِمَنْ يَأْتِي إلَيْهِمْ عَنْ إصْلَاحِ طَعَامٍ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد، فِي "سُنَنِهِ"، بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ".

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّهُ قَالَ: فَمَازَالَتْ السُّنَّةُ فِينَا، حَتَّى تَرَكَهَا مَنْ تَرَكَهَا.

فَأَمَّا صُنْعُ أَهْلِ الْمَيِّتِ طَعَامًا لِلنَّاسِ، فَمَكْرُوهٌ؛ لِأَنَّ فِيهِ زِيَادَةً عَلَى مُصِيبَتِهِمْ، وَشُغْلًا لَهُمْ إلَى شُغْلِهِمْ، وَتَشَبُّهًا بِصُنْعِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَرُوِيَ أَنَّ جَرِيرًا وَفَدَ عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ: هَلْ يُنَاحُ عَلَى مَيِّتِكُمْ؟ قَالَ:لَا. قَالَ:فَهَلْ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَيِّتِ، وَيَجْعَلُونَ الطَّعَامَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ:ذَاكَ النَّوْحُ.

وَإِنْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إلَى ذَلِكَ جَازَ ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا جَاءَهُمْ مَنْ يَحْضُرُ مَيِّتَهُمْ مِنْ الْقُرَى وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ، وَيَبِيتُ عِنْدَهُمْ، وَلَا يُمْكِنُهُمْ إلَّا أَنْ يُضَيِّفُوهُ].ا.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في :(تغليق التعليق):[بَاب مَا يكره من النِّيَاحَة عَلَى الْمَيِّت وَقَالَ عمر t :(دَعْهُنَّ يبْكين عَلَى أبي سُلَيْمَان مَا لم يكن نقع أَو لقلقَة)، وَالنَّقْع التُّرَاب عَلَى الرَّأْس وَاللَّقْلَقَة الصَّوْت، قلت التَّفْسِير من كَلَام الْمُصَنّف وَقد وَافقه عَلَيْهِ غَيره.

قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي السّنَن الْكَبِير أخبرنَا أَبُو مُحَمَّد بن يُوسُف الْأَصْبَهَانِيّ أَنا أَبُو سعيد بن الْأَعرَابِي ثَنَا سَعْدَان بن نصر ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن الْأَعْمَش عَن شَقِيق قَالَ لما مَاتَ خَالِد بن الْوَلِيد اجْتمع نسْوَة بني الْمُغيرَة يبْكين عَلَيْهِ فَقيل لعمر أرسل إلَيْهِنَّ فَإِنَّهُنَّ لَا يبلغك عَنْهُن شَيْء تكره فَقَالَ عمر:(مَا عَلَيْهِنَّ أَن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من المتأخرين والمعاصرين، ويعتذر لهم رحمهم الله بعدم بلوغ ذلك إليهم، أو اجتهدوا فأخطؤوا، فالقول قول السلف وأئمة هذا الشأن من المتقدمين، بل قد جاءت في ذلك أخبار صحاح دالة على حصول الاجتماع في بيت الميت، فمنها ما جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عن عائشة زوج النبي r : أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ، ثمَّ تَفَرَّقْنَ إِلاَّ أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا، أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصُبَّتِ التَّلْبِينَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله e يَقُولُ:"التَّلْبِينَةُ مُجَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ".

وجاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا جَاءَ النَّبِيَّ e قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ وَجَعْفَرٍ وَابْنِ رَوَاحَةَ جَلَسَ يُعْرَفُ فِيهِ الْحُزْنُ وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ صَائِرِ الْبَابِ -

---

يُهْرِقَن دُمُوعهنَّ عَلَى أبي سُلَيْمَان مَا لم يكن نقع أَو لقلقَة)، وَهَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي التَّارِيخ الْأَوْسط وَفِي الصَّغِير عَن عمر بن حَفْص عَن أَبِيه عَن الْأَعْمَش وَرَوَاهُ سعيد بن مَنْصُور عَن هشيم عَن مُغيرَة عَن إِبْرَاهِيم مُنْقَطِعًا بِنَحْوِهِ قَالَ فَقلت لإبراهيم مَا النَّقْع وَاللَّقْلَقَة قَالَ النَّقْع الشق وَاللَّقْلَقَة الرنة وَقَالَ أَبُو عبيد فِي غَرِيب الحَدِيث حَدثنَا جرير عَن مَنْصُور عَن أبي وَائِل نَحوه وَقَالَ قَالَ الْكسَائي النَّقْع صنعه الطَّعَام للمأتم وَأنكر ذَلِك أَبُو عبيد وَقَالَ الَّذِي رَأَيْت عَلَيْهِ أَكثر أهل الْعلم أَنه رفع الصَّوْت قَالَ وَقَالَ بَعضهم هُوَ وضع التُّرَاب عَلَى الرَّأْس قَالَ وَقيل هُوَ شقّ الْجُيُوب قَالَ وَأما اللَّقْلَقَة فشدة الصَّوْت لم أسمع فِيهِ اخْتِلَافا، وقال أبن سعد أَنا وَكِيع بن الْجراح وَأَبُو مُعَاوِيَة الضَّرِير وَعبد الله بن نمير قَالُوا ثَنَا الْأَعْمَش نَحوه، قَالَ وَقَالَ وَكِيع النقع الشق وَاللَّقْلَقَة الصَّوْت، وَعَن هِشَام الطَّيَالِسِيّ عَن شريك عَن عَاصِم عَن أبي وَائِل قَالَ لما مَاتَ خَالِد ابْن الْوَلِيد قَالَ عمر بن الْخطاب مَا عَلَى نسَاء بني الْمُغيرَة أَن يسفحن من دُمُوعهنَّ عَلَى أبي سُلَيْمَان مَا لم يكن نقعا أَو لقلقَة وَالنَّقْع الشق وَاللَّقْلَقَة الصَّوْت].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَقِّ الْبَابِ - فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، لَمْ يُطِعْنَهُ، فَقَالَ:"انْهَهُنَّ"، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، قَالَ وَاللهِ غَلَبْنَنَا يَا رَسُولَ الله، فَزَعَمَتْ أَنَّهُ قَالَ:"فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ"، فَقُلْتُ: أَرْغَمَ اللهُ أَنْفَكَ، لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَسُولُ الله e، وَلَمْ تَتْرُكْ رَسُولَ الله e مِنَ الْعَنَاءِ.

إذاً مقصود المؤلف من قوله:(**ورؤوسهم خمسة**) بيان أشهر هؤلاء الطواغيت، وأكثرهم شيوعاً، وإلا فإن ضررهم على الدين واحد، فإن الكفر وإن تفاوت، إلا أن جميعه مخرج من الملة، وأصحابه كلهم من أصحاب النار.

قوله:(إبليس): وهو اسم للشيطان الأكبر، أعاذنا الله وإياكم منه، فهو رأس الطغيان، وإمام الطواغيت، وخطيبهم في جهنم، وإنما سمي بإبليس لأنه أبلس من رحمة الله، أي أيس منها، نسأل الله العافية والسلامة، وإنما سمي شيطاناً، لأنه شَطَنَ عن طاعة الله، فأبى وأعرض، وأدبر واستكبر، وله ذرية، وأتباع، وأنصار، يعبدونه من دون الله تعالى.

واعلم أن عبادته إنما تكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وليس على كل حال عبادته تستلزم السجود والركوع له، إلا أن بعض الطواغيت، تجاوزوا مع إبليس هذه المرحلة، حتى عمدوا إلى الذبح له، والسجود والركوع بين يديه، كحال السحرة والكهان، الذين لا يخدمهم إبليس وأعوانه إلا إذا صرفوا إليهم شيئا من العبادات، كما هو معروف من حالهم لعنهم الله، وبعضهم يأخذ عليه عهدا بألا يصلي، لا سيما صلاتي الفجر والعصر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أرشد الله إلى توحيده الخالص، أن كثيرا من العباد في هذه الأزمنة المتأخرة، صار إلى تعاطي السحر وطلبه، بنوعيه صرفا وعطفا، عياذا بالله من الردة عن الإسلام، وقد كثر ذلك لا سيما في صفوف النساء، فاستطار شر السحر والسحرة، حتى اتخذهم كثير من الناس مُرْتادا يرتادونه لشفاء مرضاهم، وقضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم، ورد ضالتهم وغائبهم، والعياذ بالله، وأصحاب السلطان تعلقوا بهم؛ لتثبيت عروشهم، وكشف مخططات أعدائهم، وكفايتهم منهم، وإنما هو التعلق بما هو أوهى من بيت العنكبوت، والأمر كما قال تعالى:{ولا يفلح الساحر حيث أتي}، وقوله:{إن الله لا يصلح عمل المفسدين} ، وعما قليل سيعلمون، والناس اليوم على هؤلاء السحرة أفواجا أفواجا، يسعون في التفريق بين الزوج وزوجته، وتفريق الأحبة، ونشر الشقاق والفرقة، وربما سموهم بالأولياء، والفَكِي، ونحو ذلك، نعوذ بالله من الخذلان.

سلاح قوي لمدافعة السحر:

فائدة: واعلم أن من أعظم الأسلحة التي يواجه بها المؤمن السحر والسحرة، أن يطرد الخوف عنه منهم، متوكلا على الله تعالى، ذلك أن الجن يستعملون طريقة التخويف؛ لإرهاب العبد المسحور، وكلما كان أشد خوفا منهم؛ كانوا أشد تأثيرا عليه، وكلما توكل على الله تعالى ولم يخف منهم؛ اندحر كيدهم، واضمحل مكرهم بإذن الله تعالى وتوفيقه، وإليك شواهد ذلك من الذكر الحكيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} [الأعراف:١١٣-١٢٠]، وقوله: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [طه:٦٥-٧٠]. انتهى.

فإذا انضاف إلى ذلك قراءة سورة البقرة والإكثار من ذلك - بعد التوكل على الله وحسن الظن به والدعاء-؛ كانت القاضية على السحر والساحر وأعوانه، بحول الله تعالى وقوته.

ففي صحيح مسلم من طريق مُعَاوِيَةُ - يَعْنِي ابْنَ سَلاَّمٍ - عَنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلاَّمٍ يَقُولُ حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَصْحَابِهَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ **وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**". قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَغَنِي أَنَّ **الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ**.

قلت: وقد قال الله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [يس:٦٠-٦٤] ، وقد بين الله جل وعلا لعباده المخرج من هذا العدو اللدود، وذلك بأن كشف حاله، وجلى مراده ومآربه، في مثل قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٦٨]، وقوله: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٧]، كما بين سبحانه وتعالى، أن الشيطان يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، كما قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:٢٧]، وبين النبي r أنه يجري منا مجرى الدم وأنه يصل إلينا من حيث لا نشعر، كما في الصحيحين من حديث أم المؤمنين صفية رضي الله عنها قال النبي r :"إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ".

كيد الشيطان ضعيف:

إلا أنه من رحمة الله جل وعلا، أنْ جعل كيده ضعيفاً، وأمر الله تعالى بمواجهته ومقاتلته استعانة بالله عليه، كما قال تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضَعِيفًا} [النساء:٧٦]، ورد الله كيده إلى الوسوسة، كما قال تعالى:{مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس:٤-٦]، وبين تبارك وتعالى المخرج منه، وذلك بالاستعاذة بالله منه، وهذا ما أوصى به الله عباده في مواضع من الذكر الحكيم، ومن أعظم ذلك سورتان متمحضتان في هذا الشأن، كما في صحيح مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} وَ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}".

وقال النسائي في السنن الكبرى: والصحيح ما رواه عبد الرحمن أخبرنا عمرو بن علي قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا سفيان عن منصور والأعمش عن ذر عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس أن رجلا قال: يا رسول الله، إني لأجد في نفسي شيئا، لأن أكون حممة أحب إلى من أن أتكلم به، فقال في حديث منصور:"الله أكبر" وقالا جميعا :"الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة". قلت: وأخرجه أحمد وأبو داود من طريق منصور عن ذر به. قلت: وسنده جيد.

فائدة واستنباط: وأنت إذا تأملت قول الله تعالى:{إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ}؛ هالك ذلك وأفزعك، فإذا تذكرت قوله تعالى:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، وقوله تبارك وتعالى:{قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه:٤٦]، ظهر لك أن الشيطان الذي يراك من حيث لا تراه، إذا فزعت منه إلى الذي يرانا جميعا ولا نراه في دنيانا؛ علمت أنك إن التجأت إليه كفاك، وإن اعتصمت به وقاك، ألا وهو الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رب العالمين، فلا يَهُوَلَنَّكَ كَوْنُ عَدُوِّنَا يَرَانَا ولا نَرَاهُ، طالما أن معنا الذي لا تخفى عليه خافية، وقد أحاط بكل شيء سمعا وبصرا وعلما، ولكن الورطة إن غفلت عن الرقيب جل الله في علاه؛ خُذِلتَ ووكلت إلى نفسك، فبادر إليه حتى لا تكون الهلكة.

اللهم إن عَدُوانا يرانا ولا نَرَاه، وأنت تَرَانا وتَرَاه؛ اللهم فاكفناه بما شئت، يا أرحم الراحمين.

وقال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف:٢٠٠]، وقال: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل:٩٨-١٠٠]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر:٥٦]، وقوله: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت:٣٦].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ r كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبين النبي r أن الشيطان أضعف ما يكون مع ذكر الله تعالى والاعتصام به، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى". وفي لفظ لمسلم:"إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ بِالصَّلاَةِ أَحَالَ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ صَوْتَهُ فَإِذَا سَكَتَ رَجَعَ فَوَسْوَسَ فَإِذَا سَمِعَ الإِقَامَةَ ذَهَبَ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ صَوْتَهُ فَإِذَا سَكَتَ رَجَعَ فَوَسْوَسَ".

ومن ضعفه مع ذكر الله تعالى والاعتصام به أنه لا يستطيع أن يفتح بابا مغلقا، كما في الصحيحين عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنْ اللَّيْلِ فَخُلُّوهُمْ فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ الله فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ الله وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ الله وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ".

إذن سبيل النجاة من الشيطان، هو بالاستعانة بالله عليه، والاستعاذة بالله منه، والعمل على مخالفته، في كل شيء، وقد كتب الله جل وعلا النجاة لمن اعتصم به والتجأ إليه، وهذه أعظم فضائل الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول r ، كما قال تعالى:{إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤] }، وقال تعالى:{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موضعين من الذكر الحكيم، فأعظم سلاح نتصدى به لهذا الطاغوت، الإخلاص لله رب العالمين واتباع شرع سيد المرسلين r .

فائدة: جسد الإنسان كما تراه يتركب من جزء علوي فيه الرأس والعقل والقلب، وجزء متوسط فيه البطن والفرج، وجزء سفلي فيه القدمان، تحملان الجزئين العلوي والأوسط، والقدمان تنطلقان بالجسد إلى أيهما غلب، واليدان تخدمان وتساعدان، والله المستعان.

العبد عبد النفس في شهواتها ... والحر يشبع تارة ويجوع

فاللهم خذ بناصيتنا إلى البر والتقوى، وجنبنا ما تكره وتأبي، يا أرحم الراحمين.

فالناصية مَحَلُ الفِكْرَةِ والتَّدْبِير، والجوارح تابعة للتنفيذ، والله المستعان، ومنه قوله تعالى: {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} [العلق:١٥-١٦].

قوله:(لعنه الله): هذا قد يكون من باب الخبر، وقد يكون من باب الدعاء، والأولى في حق إبليس أن نقول:(نعوذ بالله منه)؛ لأن الله قد لعنه، وأمرنا أن نستعيذ به منه؛ ولأن شتمه وذمه مما يفرحه؛ لأنه يرى بذلك أنه قد نال من ابن آدم بغيته وآذاه، فهو يفرح بذلك، ولهذا ورد في الحديث:"لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولَ بِقُوَّتِي وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللهِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ١"؛ ولهذا أُمرنا بالاستعاذة منه، فهي العلاج الأنجع والأنفع، مع هذا العدو اللدود، أعاذنا الله وإياكم منه، وبما أن ذلك يفرحه كان الواجب علينا

١ - هذا الخبر أخرجه عبد الرزاق وأحمد وأبو داود وسكت عنه – فهو صالح عنده – والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الشعب، وإليك ملخص طرق هذا الخبر:

فقد رواه معمر وشعبة في رواية عن عاصم الأحول عن أبي تميمة عن رديف النبي r فذكره.

ورواه يزيد بن زريع ثنا خالد الحذاء عن أبي تميمة: عن رديف النبي r فذكره.

ورواه خَالِدٍ الواسطي عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءَ عَنْ أَبِى تَمِيمَةَ عَنْ أَبِى الْمَلِيحِ عَنْ رَجُلٍ قَالَ كُنْتُ رَدِيفَ النبي r فذكره.

ورواه عبد الله بن المبارك عن خالد الحذا بإثبات الواسطة كما عند النسائي في الكبرى.

قَالَ شُعْبَةُ قَالَ عَاصِمٌ عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ عَنْ رَجُلٍ عَنْ رَدِيفِ r فذكره.

فنخلص من هذا أن الذين رووا الخبر بدون إثبات واسطة بين أبي تميمة والصحابي رديف النبي r هم أكثر وأوثق، وهو شعبة في وراية، ومعمر، ويزيد بن زريع، وقد تابع خالد الحذا عاصما الأحول في هذه الرواية بدون واسطة في إحدى الروايتين عنه، بينما رواه بإثبات الواسطة خالد الواسطي وشعبة في الرواية الثانية عنه.وعليه فالراجح إثبات الواسطة، وهذا أصح. والله أعلم.

وجاء في سنن النسائي الكبرى:ما يقول إذا عثرت به دابته:أخبرنا محمد بن حاتم أخبرنا سويد أخبرنا عبد الله عن خالد الحذاء عن أبي تميمة عن أبي المليح عن ردف رسول الله r نحو أن رسول الله r قال:"إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صنعته ولكن قل باسم الله فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب"، أخبرنا محمد بن حاتم أخبرنا سويد أخبرنا عبد الله عن خالد الحذاء عن أبي تميمة عن أبي المليح عن ردف رسول الله r نحو أن رسول الله r قال:"إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صنعته ولكن قل باسم الله فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب"، أخبرني عثمان بن عبد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إدخال الحزن على قلبه والسعي فيما يسوؤه، وهذا لا يكون إلا بالاستعاذة بالله منه، وذكر الله تعالى والاعتصام به، فإنه عند ذلك يتضاءل، ويتصاغر، ويخنس، ويولي وله ضراط.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن القيم في:(بدائع الفوائد):[فصل: الخَنَّاس وبيان اشتقاقه، وأما الخناس فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ومنه قول أبي هريرة لقيني النبي في بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور فليست لمجرد الاختفاء؛ ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: {فلا أقسم بالخنس}، قال قتادة هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتختفي ولا ترى وكذلك قال علي t هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى وقالت طائفة الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق وهي السبعة السيارة.

قالوا وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والخناس مأخوذ من هذين المعنيين فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها فإذا ذكر العبد ربه

الله حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا محمد بن حمران القيسي حدثنا خالد الحذاء عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي المليح عن أبيه قال : كنت ردف رسول الله r فعثر بعيرنا فقلت تعس الشيطان فقال النبي r :"لا تقل تعس الشيطان فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي ولكن قل باسم الله فإنه يصغر حتى يصير مثل الذباب" قال أبو عبد الرحمن الصواب عندنا حديث عبد الله بن المبارك وهذا عندي خطأ، أخبرنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد عن أبي تميمة عن أبي المليح قال : كان رجل رديف النبي r على دابته فعثرت به ذاته فقال الرجل تعس الشيطان نحوه مرسل.ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستعاذ به انخنس وانقبض كما ينخنس الشيء ليتوارى وذلك الانخناس والانقباض هو أيضا تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج فهو تأخر ورجوع معه اختفاء، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معا قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس، ويقال رأسه كرأس الحية وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه، وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذانا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه ودينه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانا بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر فإن ذِكْرَ الله هو مَقْمَعَتُه التي يُقْمَعُ بها كما يُقْمَعُ المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها، فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مَضْنِي مما يعذبه ويقمعه به من ذكر الله وطاعته، وفي أثر عن بعض السلف، أن المؤمن يندي شيطانه، كما يندي الرجل بعيره في السفر[1]، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ولهذا يكون قويا عاتيا شديدا.

---

١ -قلت: وقد جاء هذا الخبر مرفوعا إلى النبي r ، كما في مسند الإمام أحمد حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ، كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ". ولكن إسناده ضعيف لحال ابن لهيعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنييهما.

فصل: الصفة الثالثة للشيطان، وقوله: {الذي يوسوس في صدور الناس}، صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولا، ثم ذكر محلها ثانيا، وأنها في صدور الناس، وقد جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد، ونفوذا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وُكل بالعبد؛ فلا يفارقه إلى الممات]ا.هـ.

ومع شدة عداوة الشيطان لبني آدم وعظمها، إلا أنك تجد كثيرا من العباد، قد تولاه من دون الله عياذا بالله من الخذلان، ومن الصفقة الخاسرة، والقسمة الضيزى، كما قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، فسحقا لمن استبدل ولاية الرحمن، بولاية الشيطان.

فيالله كم له من قتيل، وسَلِيبٍ وجَرِيح، ويالله كم سيخذلهم ويتبرؤ منهم، فبادر أيها العبد إلى التبرءِ منه، قبل أن يغدر بك، ويمكر بك، ثم يتبرأ منك، واعتبر بهذه الآيات: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم:٢٢]، وقوله:{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَّ وَاللهُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٤٨]، وقوله:{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر:١٦-١٧].

واعلم أن أكثر العباد يوافقون الشيطان ويميلون معه، ولهذا قال تعالى:{تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُّ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف:١٠١-١٠٢]، وقال:{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [سبأ:٢٠-٢١].

مَعَارِكُ الشيطان تَدُورُ من حَوْلك:

واعلم وفقك الله ودافع عنك، أن هناك معارك قائمة، تدور من حولنا، في كل يوم، من قبل الشيطان وأجناده، ونحن أهدافه وأعداؤه، وتأمل هذا الحديث الجليل، ففي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لطفك اللهم بنا، سرايا، وأجناد، وعرش على البحر، فاللهم أعذنا منه، وأهلينا وذرارينا، وأشياخنا وأحبابنا وطلابنا، يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

ولنعلم أنه لا خلاص إلا للمُخْلِصِين المُخْلَصِين، الذين يعتصمون بحبل الله المتين، ويتولون الله تبارك وتعالى، ويستعيذون به ويفزعون إليه، {فنعم المولى ونعم النصير}.

قال تبارك وتعالى: {إِنَّ اللهَّ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج:٣٨].

قوله:(ومن عُبد وهو راض): هذا قيد معتبر؛ ليخرج بذلك من عُبد وهو غير راض، واعلم أنه ليس شرطاً أن يتكلم بالرضى بذلك، بل مجرد سكوته، وهو يرى الناس يصرفون له، ما هو حق محض لله جل وعلا، فهو طاغوت، فإذا سكت العبد عمن يحلف به تعظيماً له، أو ينحني بين يديه ذلاً وافتقار إليه، أو يخافه خوف السر، أو يذبح لطلعته تعظيماً له، أو يحلق رأسه بين يديه ذلاً وإذعاناً وتوبة بين يديه، أو غير ذلك من أنواع القرب ، فالساكت عن هذا شيطان أخرس، وهو طاغوت أكبر.

ومما يجب التنبه له أن بعض الناس يقرر التوحيد، وينهى عن الشرك، لكنه إذا فُعل به شيء من ذلك؛ سكت، وهذا طغيان عظيم. فهذا كذلك طاغوت، وكما قيل:

وعَالِمٍ بعلمه لم يَعْمَلَن ... معذبٌ من قَبل عُبَّاد الوَثَن

وبهذا الاعتبار من عُبد من الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين، الذين لم يرتضوا ذلك، ولكن غلا الناس فيهم؛ فصيروهم أوثاناً، يعبدونهم من دون الله،فهؤلاء لا شيء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليهم، وسيبين الله جل وعلا للخلائق ذلك، يوم القيامة، يوم يتبرأ هؤلاء ممن عبدوهم، دون رضاهم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذا هو الفهم الصحيح لقوله: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ...الآية}، أي الراضين بذلك، وقد تقدم هذا المعنى من قبل.

قوله:(ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه): والفرق بين هذا والذي قبله، أن هذا يأمر الناس، ويدعوهم إلى عبادته، بينما الأول رضي وسكت، عندما رأى الناس يعبدونه، من دون الله تعالى، وكلهم في جهنم وبئس المهاد، إلا أن النار دركات، كما أن الجنة درجات.

المدعون للألوهية:

والمُدَّعُونَ للألوهية، كُثُر عليهم لعائن الله، فمنهم (النمرود) في زمان إبراهيم عليه السلام، ومنهم (فرعون) في زمان موسى عليه السلام، وجُرم هؤلاء أنهم ادعوا شيئاً ليس لهم منه حظٌ ولا قسط ولا نصيب، فهم يعلمون أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السموات والأرضين، وهذا من أشنع أنواع الطغيان وأقبحه، حيث يصل العبد إلى درجة منازعة الرب تبارك وتعالى، في أخص خصائصه، وأظهر صفاته تبارك وتعالى، فالله هو المألوه المعبود، وهؤلاء نازعوا الله جل وعلا في كونه هو المعبود الحق، فويل لهم من مشهد يوم عظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغيب وأنواعه وأحوال الناس معه:

قوله:(ومن ادعى شيئاً من علم الغيب): أي ولو يسيراً، كالكهان والعرافين، والسحرة والمشعوذين، فإن مجرد إدعاء علم الغيب، كفر بالله تعالى،فعل أو لم يفعل، والغيب ينقسم إلى قسمين:

١ - غيب نسبي. **٢ - غيب مطلق.**

أما الغيب المطلق، فلا يعلمه إلا الله الواحد القهار، فلا يطلع عليه لا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل.

جاء في تفسير الطبري في معرض حديثه عن قول الله تعالى:{إني جاعل في الأرض خليفة} وكلام الله تعالى مع الملائكة في ذلك:[وَقَالَ لَهُمْ:{أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ} يَقُولُ:أَخْبِرُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَمْ أَجْعَلْ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالَ : فَلَمَّا عَلِمَتِ الْمَلاَئِكَةُ مُؤَاخَذَةَ اللهَّ عَلَيْهِمْ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، قَالُوا : سُبْحَانَكَ . تَنْزِيهًا للهَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ، تُبْنَا إِلَيْكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا . تَبَرِّيًا مِنْهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا كَمَا عَلَّمْتَ آدَمَ . فَقَالَ : {يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} يَقُولُ: أَخْبِرْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ {فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ} أَيُّهَا الْمَلاَئِكَةُ خَاصَّةً {إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} وَلاَ يَعْلَمُهُ غَيْرِي {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ} يَقُولُ : مَا تُظْهِرُونَ {وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} يَقُولُ : أَعْلَمُ السِّرَّ كَمَا أَعْلَمُ الْعَلاَنِيَةَ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال فيه أيضا :[وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ:{سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا}، فَهُوَ كَمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالُوا:{سُبْحَانَكَ} تَنْزِيهًا للهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرَهُ، تُبْنَا إِلَيْكَ، لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا: تَبَرَّءُوا مِنْهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا كَمَا عَلَّمْتَ آدَمَ]ا.هـ.

وقال أيضا:[وَأَمَّا قَوْلُهُ:{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} فَإِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا r بِأَنْ يُجِيبَ سَائِلِيهِ عَنِ السَّاعَةِ بِأَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ وَقْتَ قِيَامِهَا إِلاَّ اللهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَنَّهُ لاَ يُظْهِرُهَا لِوَقْتِهَا وَلاَ يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ].ا.هـ.

وفيه أيضا:[الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَيَقُولُ هَؤُلاَءِ الْمُشْرِكُونَ: هَلاَّ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِهِ يَقُولُ: عِلْمٌ وَدَلِيلٌ نَعْلَمُ بِهِ أَنَّ مُحَمَّدًا مُحِقٌّ فِيمَا يَقُولُ. قَالَ اللهُ لَهُ: فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ، أَيْ لاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ بِفِعْلِ ذَلِكَ إِلاَّ هُوَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، لِأَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَهُوَ السِّرُّ وَالْخَفِيُّ مِنَ الأُمُورِ إِلاَّ اللهُ، فَانْتَظِرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ قَضَاءَ اللهِ بَيْنَنَا بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِ لِلْمُبْطِلِ مِنَّا وَإِظْهَارِهِ الْمُحِقَّ عَلَيْهِ، إِنِّي مَعَكُمْ مِمَّنْ يَنْتَظِرُ ذَلِكَ].ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقوله:{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} هذه كقوله تعالى:{وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ} وهكذا قال هاهنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا مما أطلعه تعالى عليه؛ ولهذا قال: {فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} وهذا يعم الرسول الملكي والبشري].اهـ.

أما الغيب النسبي، فهو ما يعلمه بعض العباد، دون بعض، فيكون في حق بعضهم غيب، وفي حق الآخرين شهادة، وهذا ينقسم إلى قسمين:

١-**ما هو من خبر السماء**، مما تكلم الله تعالى به من الوحي والأمر والنهي، وهو بهذا الاعتبار خرج عن كونه غيبا مطلقا فصار نسبيا: وهذا الغيب أخبر الله تعالى ورسوله r أنه ربما وقع فيه استراق للسمع من الجان، فتنة من الله تعالى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، إلا أن الله تعالى سلط عليهم الشهب، فربما خلصوا إلى شيء من ذلك أولا، وقد ضُيِّقَ على الجن في ذلك أشد التضييق بعد بعثة النبي r ، كما في صحيح البخاري عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:(انْطَلَقَ النَّبِيُّ r فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا مَا لَكُمْ فَقَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالُوا مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ r وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَالُوا يَا قَوْمَنَا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ r : {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ} وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ r أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ".

وفي الصحيحين قَالَتْ عَائِشَةُ سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ الله r عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله r :"لَيْسُوا بِشَيءٍ". قَالُوا يَا رَسُولَ الله فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا. قَالَ رَسُولُ الله r :"تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ".

وفي صحيح مسلم عن عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ r مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ الله r رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله r :"مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا". قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله r :"فَإِنَّهَا لاَ يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ - قَالَ - فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا النوع من الغيب، لا سبيل لبني آدم إليه، إلا إما عن طريق الأنبياء والمرسلين، فهؤلاء هم المؤمنون، وإما عن طريق الجن والشياطين، فهؤلاء هم إخوان الكهان، المارقون الدجالون.

فالأنبياء والمرسلون، ورسل الله جل وعلا من الملائكة، يُطْلعهم الله جل وعلا على ما يشاء من الغيب، إما لتبليغه للعباد، أو لتنفيذ أمر من أوامر الله جل وعلا، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن:٢٦-٢٨].

وقال: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [آل عمران: ١٧٩].

أما من ادعى هذا الغيب النسبي، من بني آدم فهذا قطعا من إخوان الكهان، فليس هناك إلا سوى هاتين الصفقتين، فإما أن يدعي أنه نبي أو مَلَك، وإما أن يكون من إخوان الجن والكهان، أصحاب الدجل والشعوذة.

أما الولي فمهما بلغ من الصلاح والتقى والورع، فلا سبيل له إلى معرفة شيء من خبر السماء، إلا إما بعلم يحفظه عن شرع الله تعالى مما ثبت وصح، وإما أنه كذاب أشر، ودجال مراوغ منافق، وليس له من ولاية الله تعالى حظ ولا نصيب، ولكن ولاية الشيطان الرجيم، وأعوانه. فتنبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شبهة:

واعلم أرشدك الله تعالى، أن هناك من يدعى الغيب النسبي من غير هؤلاء الكرام البررة؛ ليوهم الناس أنه يعلم الغيب المطلق؛ فهذا طاغوت أكبر (كالكهان والعرافين والسحرة والمشعوذين)، ومن يدّعون أنهم، من الأولياء والصالحين، ممن يحاولون إيهام العباد،بأن لهم خصيصة في علم الغيب، ويسمونهم برجالات الغيب، والأقطاب والأغواث، والله تعالى يقول:{قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النمل:٦٥].

فليس لعبد مهما بلغ، أن يدعي علم الغيب؛ لأن الأصل في الغيب هو المطلق، وأما ما يعلمه البعض ويجهله الآخرون، فهذا لا يسمى غيبا إلا بقيد، وعلم الغيب الذي وصف الله تبارك وتعالى به نفسه،لا يعلمه أحد لا بواسطة ولا بمخبر، ولا بأي سبيل؛ ولهذا بين تبارك وتعالى أن الرسل لا يدعون الغيب، بل ينفونه عن أنفسهم، كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام وهو أول الرسل بعد آدم عليه السلام:{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [هود:٣١]، وقال عن خاتم الأنبياء وسيد المرسلين r :{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}، [الأنعام:٥٠]، وقال:{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٨٨]، فهذا أول نبي وآخر نبي يقرران هذا الأصل العظيم، والأنبياء إخوة لعلات ودينهم واحد وهو توحيد الله عز وجل، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :" أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ".

وهذا الغيب هو الذي نازع فيه إخوان الكهان والشياطين، فادعوهم لأوليائهم، من الأحياء والأموات، عياذا بالله من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

يقول البرعي في قصيدة:قوماك نزور:

قومَاك نَزور الأوليا الأقطاب ليهم نَشَاوِر... إلى أن قال:مِنْهُمْ خَفي الحَال مِنْهُم مُجَاهِر ** مِنْهُم عَلِيم بالغيب بَاطِن وظَاهِر.ا.هـ.

اللهم إنا نبرأ إليك من الطواغيت كلهم، ونُشْهِدُك على بُغْضِهم ولَعْنِهم.

٢-**ما ليس من خبر السماء**، وهذا يستوي فيه جميع العباد، وبعضهم يستعين فيه بالجان، والقرين ونحو ذلك، فمثلا ما في جيبك بالنسبة لي غيب لا أعلمه، ولكنه بالنسبة لك شهادة، فأنت تعلم ذلك وأنا لا أعلمه، وكذلك مجريات الأحداث الماضية، من حياتك أو حياة الآخرين، يجهلها أقوام، ويعلمها آخرون؛ ولهذا الدجاجلة يلبسون على الناس بذلك، فيجمعون المعلومات عن شخص ما، إما ببث العيون يسألون عنه، وإما باستعمال الجن والقرين، حتى إذا ما دخل عليه هذا الشخص، قال له أنت اسمك كذا، واسم أمك وأبيك كذا وكذا، وقد جرى عليك وأنت صغير كذا وكذا، وقد فقدت قبل فترة كذا وكذا، وهكذا يأخذ يعدد له بعض الوقائع عن حياته الماضية؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليوهمه أنه يعلم الغيب؛ فيتعلق به قلب هذا الشخص، فيأخذ عليه الطريقة –طريقة الشيطان الرجيم- ثم يدعوه من دون الله، ويستغيث به، ويأتيه ليوجد له ضائعا، أو ليرد عليه غائب، ويأتي إلى هذا الدجال بالهدايا والعطايا والهبات، ويصرف إليه ألوانا من طقوس التعظيم والولاء، ويتخذه عُدَّةً له من دون الله، عياذا بالله من هذا الشرك الأكبر، وما أكثر الهلكى في هذا الباب. والله المستعان. **فانتبه.**

قال تبارك وتعالى: {إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان:٣٤]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة **t** في قصة سؤال جبريل عليه السلام للنبي **r** :" قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُّ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ **r** : {إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}الْآيَةَ".

وفي الصحيحين من طريق مَسْرُوقٍ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا يَا أُمَّتَاهْ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ **r** رَبَّهُ فَقَالَتْ:(لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا **r** رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ:{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُّ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ:{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} الْآيَةَ وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي رواية في صحيح مسلم قالت:(وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ وَاللهُ يَقُولُ:{قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ}).

رؤوس المتصوفة وادعاء علم الغيب:

واعلم أن كثيرا من رؤوس الصوفية وخواصهم، - في الحاضر والماضي، وهو في الحاضر أكثر -، يزعمون لأنفسهم علم هذه الخمس، التي اختص الله تعالى بها، كما تقدم:**"في خمس لا يعلمهن إلا الله"، وهذا كفر لا أظن أن فوقه كفر.**

وفي صحيح مسلم عَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ **r** عَنِ النَّبِيِّ **r** قَالَ:"مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"[١]، فإذا كان هذا حال من أتى

---

١ - وروي بأسانيد لا تخلو من مقال حديث:" من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد". وهو عند أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والنسائي والدارمي وابن ماجة والطحاوي وأبي يعلى وابن الجعد والمستدرك والبيهقي والطبراني في الأوسط والكبير وغيرهم، من مسند ابن مسعود **t** وفيه سعيد بن عامر، ومن مسند أبي هريرة **t** وفيه انقطاع بين خلاس بن عمرو وأبي هريرة، وهاذان أمثل الطرق لهذا الخبر، وفيه ما قلت لك، وكأن المحفوظ فيه هو السياق الذي رواه مسلم، وإن كان الحاكم قد روى حديث أبي هريرة من طريق خلاس ومحمد بن سيرين عن أبي هريرة به، ولكنه وهم من الحاكم فقد رواه من هو أوثق منه وهو من السلف ألا وهو الإمام أحمد بدون ذكر لابن سيرين، وهذا هو المحفوظ، ولا يبعد أن يكون الخبر أصلا غير محفوظ من مسند أبي هريرة لاضطرابه فقد رواه أحمد عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا، ورواه أحمد والترمذي وغيرهما بلفظ مقارب عن أبي تميمة عن أبي هريرة، وهذه الطريق أعلها الترمذي. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العرافين، ولم يصدقهم، ولم يركن إلى قولهم، فكيف بمن صدقهم وركن إليهم؟، بل فكيف بمن طلب منهم وادعى فيهم ما لا يحل طلبه ولا اعتقاده إلا في الله الواحد القهار؟؛ لا شك أن هذا من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، وقد دلت النصوص على كفر من صدق مدعي علم الغيب من السحرة والكهان والعرافين ونحوهم، فكيف بهم أنفسهم، لاشك في كفرهم.

التحذير من الكهان والعرافين والرمَّالين:

أما الاحتجاج بسلسلة البخاري في صحيحه (خلاس عن أبي هريرة)، فليس بخاف ما للصحيحين من خصوصية في التتبع والاعتبار؛ ولهذا حيث ذكر خلاسا يذكره مقرونا بالحسن ومحمد أو بمحمد أحيانا وحده؛ لبيان أن الخبر محفوظ، والقاعدة الصائبة في هذا المقام: أنه ليس كل منقطع ضعيف وإن كان الأصل فيه الضعف، والله أعلم.

وقد روى البزار عن ابن مسعود موقوفا بنحو حديث أبي هريرة. وجاء في (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم:[حدثنا عبد الرحمن نا صالح بن احمد ابن حنبل نا علي - يعني ابن المديني - قال سمعت يحيى قال قال لي شعبة في أحاديث عوف عن خلاس عن أبي هريرة ومحمد [يعني] ابن سيرين عن أبي هريرة إذا جمعهم قال لي شعبة: ترى لفظهم واحدا ؟ قال أبو محمد كالمنكر على عوف]ا.هـ. قال الحافظ ابن حجر في الفتح:[وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه "من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد " وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما "من أتى كاهنا"] انتهى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد حذر النبي r من الخطوط، في الكهانة ونحوها، إلا ما كان على هدي الأنبياء، ومن المعلوم شرعا، أن الأنبياء لا يخطون إلا حقا، ومن ظن فيهم غير ذلك فقد كفر بالله تعالى، فمن خط شعوذة وطلاسما وحروفا مقطعة ورموزا وأشكلا؛ فهذا من إخوان الكهان، كما في مصنف عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس قال:(إن قوما يحسبون أبَا جَاد، وينظرون في النجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق).

وفي صحيح مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ قُلْتُ وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ قَالَ النبي r :"كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ".

جاء في تفسير القرطبي:[الثانية: قوله تعالى:{أو أثارة من علم}.قراءة العامة:{أو أثارة}بألف بعد الثاء.قال ابن عباس عن النبي r :"هو خط كانت تخطه العرب في الأرض"، ذكره المهدوي والثعلبي، وقال ابن العربي: ولم يصح، وفي مشهور الحديث عن النبي r قال:"كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك"ولم يصح أيضا.

قلت: هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي، خرجه مسلم.

وأسند النحاس: حدثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجي) قال حدثنا محمد بن بندار قال حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن ابن عباس عن النبي r في قوله عز وجل:{أو أثارة من علم} قال الخط وهذا صحيح أيضا.

قال ابن العربي: واختلفوا في تأويله، فمنهم من قال: جاء لإباحة الضرب، لأن بعض الأنبياء كان يفعله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنهم من قال جاء للنهي عنه، لأنه r قال:"فمن وافق خطه فذاك"، ولا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه، فإذا لا سبيل إلى العمل به.

قال: لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحل بهم، فصار ظنا مبنيا على ظن، وتعلقا بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه، وقد نهت الشريعة عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به، وقطعه عن الخلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها في درك الأشياء المغيبة، فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب، فلا يجوز مزاحمته في ذلك، ولا يحل لأحد دعواه.

وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهي، فإذ وقد ورد النهي فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب.

قلت: ما اختاره هو قول الخطابي.قال الخطابي: قوله عليه السلام:"فمن وافق خطه فذاك" هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك عَلَماً لنبوته وقد انقطعت، فنهينا عن التعاطي لذلك.

قال القاضي عياض: الأظهر من اللفظ خلاف هذا، وتصويب خط من يوافق خطه، لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة، فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته، لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحكى مكي في تفسير قوله:"كان نبي من الأنبياء يخط" أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يزجر.

وقال ابن عباس في تفسير قوله:"ومنا رجال يخطون": هو الخط الذي يخطه الحازي فيعطى حلوانا فيقول: اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط الأستاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين، فإن بقي خطان فهو علامة النجح،وإن بقي خط فهو علامة الخيبة.والعرب تسميه السحم وهو مشئوم عندهم]ا.هـ.

وفي الصحيحين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله r صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ:"هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ".

وفي صحيح البخاري قال:[بَاب فِي النُّجُومِ وَقَالَ قَتَادَةُ :{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ}، خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَصِنَاعَةُ "التَّنْجِيمِ" الَّتِي مَضْمُونُهَا الْأَحْكَامُ وَالتَّأْثِيرُ وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ وَالتَّمْزِيجِ بَيْنَ الْقُوَى الْفَلَكِيِّ وَالْقَوَابِلِ الْأَرْضِيَّةِ: صِنَاعَةٌ مُحَرَّمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ؛ بَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ، عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، فِي جَمِيعِ الْمِلَلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:{وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَيْثُ أَتَى}، وَقَالَ:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}، قَالَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ: الْجِبْتُ السِّحْرُ. وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ بِإِسْنَادِ حَسَنٍ عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مخارق عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"الْعِيَافَةُ وَالطَّرْقُ وَالطِّيَرَةُ مِنْ الْجِبْتِ"، قَالَ عَوْف رَاوِي الْحَدِيثِ: الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ؛ وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ. وَقِيلَ بِالْعَكْسِ. فَإِذَا كَانَ الْخَطُّ وَنَحْوُهُ الَّذِي هُوَ مِنْ فُرُوعِ النَّجَّامَةِ مِنْ الْجِبْتِ؛ فَكَيْفَ بِالنَّجَّامَةِ ؟" وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُوَلِّدُونَ الْأَشْكَالَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَوَلِّدٌ مِنْ أَشْكَالِ الْفَلَكِ. وَرَوَى أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادِ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ" فَقَدْ صَرَّحَ رَسُولُ الله r بِأَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنْ السِّحْرِ؛ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى:{وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} وَهَكَذَا الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ الِاسْتِقْرَاءَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ النُّجُومِ لَا يُفْلِحُونَ؛ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. وَرَوَى أَحْمَد وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ ؛ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عُبَيْدٍ؛ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ r عَنْ النَّبِيِّ r أَنَّهُ قَالَ:"مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا" وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْعَرَّافِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ. وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَ السَّائِلِ فَكَيْفَ بِالْمَسْئُولِ. وَرَوَى أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِي قَالَ:قُلْت يَا رَسُولَ الله إنَّ قَوْمًا مِنَّا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ:"فَلَا تَأْتُوهُمْ" فَنَهَى النَّبِيُّ r عَنْ إتْيَانِ الْكُهَّانِ وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْكَاهِنِ عِنْدَ الخطابي وَغَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ الْعَرَبِ. وَعِنْدَ آخَرِينَ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْكَاهِنِ وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْهُ فَلَحِقَ بِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ r أَنَّهُ قَالَ:"ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ" وَحُلْوَانُهُ الَّذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ "حَلَاوَتُهُ" وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطِيهِ الْمُنَجِّمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يَسْتَقْسِمُ بِهَا مِثْلَ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا أ ب ج د وَالضَّارِبِ بِالْحَصَى وَنَحْوِهِمْ فَمَا يُعْطَى هَؤُلَاءِ حَرَامٌ. وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ: كالبغوي وَالْقَاضِي عِيَاضٍ؛ وَغَيْرِهِمَا. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ الله r بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ:"أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ" قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:"أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَمَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ" وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ؛ يُنَزِّلُ اللهُ الْغَيْثَ وَيَقُولُونَ بِكَوْكَبِ كَذَا وَكَذَا".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ r ، أَنَّهُ قَالَ:"أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالنِّيَاحَةُ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ" وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ r :{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قَالَ:"هُوَ الِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ"، أَوْ كَمَا قَالَ.وَالنُّصُوص عَنْ النَّبِيِّ r وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهَا]ا.هـ.

التنجيم والأبراج الشيطانية والسِيرْك وما يعرف بالحَاوِي:

تنبيه مهم: ويدخل في قوله:(وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ)، أصحاب الأبراج من المنجمين الذين يرجمون بالغيب، ولقد عمت بهم البلوى، ووقع بعض الناس في كثير من خرافاتهم وضلالهم، فما أكثر المنطلقين بالأبراج اليوم، والمتحركين بها، فلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكادون يقطعون أمرا إلا بالرجوع إليها، عبر المجلات والجرائد وغيرها، فيبحث عن ما يُتَوَقَّعُ له في الغيب، والمستقبل؛ فيستسلم لذلك ويرضى، فإذا قرأ في برجه أنه سيقع كذا وكذا؛ يصدق ويقبل ويثق بذلك، مالا يجده من نفسه من التصديق بالكتاب والسنة، وهؤلاء أشبهوا المشركين الأوائل، الذين كانوا يُدِيْرُون الأقداح؛ للإقبال على فعل الشيء أو تركه، وهذا كفر بالإجماع إذ لا يخالف في ذلك مسلم.

ولاشك أن هذا المُدعي، كذاب أشر، ودجال مشعوذ، كما تقدم، وفي الحديث الذي في الصحيحين عَنْ أَسْمَاء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ".وهو كذلك في مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

واعلم أرشدك الله لسبيل النجاة، أنه يدخل في إتيان الكهان والسحرة، ما يعرف اليوم بالسِّيرك، فإنه يتضمن فقرات تتضمن السحر والكهانة. **فتنبه**، لا تحبط أجر صلاة أربعين ليلة، أو قد تكون بهذا إن صدقت به من الكافرين، فيحبط العمل بِرُمَّتِه، وتذكر قول الله تعالى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ} [النور:١٥].

تنبيه مهم: على شبهة الفِرَاسَة والإلهام والإلقاء في الروع، وعلاقتها بعلم الغيب عند المبطلين

اعلم رحمك الله تعالى، أن هناك فرقا ظاهرا وبَوْناً شاسعا بين الفراسة، وعلم الغيب، وذلك أن الفراسة والإلهام وما يلقاه العبد في روعه، إنما هو من قبيل الحدس والظن، قد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقع وقد لا يقع، ولهذا لا يجوز القطع به، بخلاف علم الغيب فإن حق ويقين، ولتتضح المسألة، قارن بين إخبار الرسل عن ربهم، وفراسة المتفرسين؛ لتجد أن ما أخبرت به الرسل هو غيب أطلعهم الله عليه، وهو يقين حتمي، لا شك ولا تردد ولا مرية فيه، بخلاف الفراسة.

وأما ما يحكى عن بعض العلماء أنه كان يقول الشيء ويحلف عليه، أنه يكون كذا وكذا، فهذا محمول إما على أنه يقسم على ربه أن يكون كذلك، أو أنه رآى رؤيا تأولها على ذلك فقطع بما قال، أو من خلال استقراء السنن الشرعية التي رتب الشارع عليها تحقق نتائجها، أما أن يحلف هكذا بدون شيء من ذلك؛ فهذا باطل قطعا، وفعله رجم بالغيب، وإن وافق تحققا وحصولا.

وربما يكون متكهنا عياذا بالله، إذ ليس كل من انتسب إلى العلم كان من أهله، وأهلا له، فلابد من الاعتبار بحال العالم مع السنة وإقامة الشرع، كما تقدم.

وعليه فما يذكر في هذا الباب من أقوال لبعض الصحابة y، والتابعين رحمهم الله، ومن عداهم من أهل العلم، كله يدور في هذا المضمار، وأنه لا يعدو أن يكون توقعا للشيء، ثم قد يصدق، وقد لا يصدق.

وبهذا تعلم يقينا أنه لا يمكن، أن تكون الفراسة علم غيب، كما أنها لا يمكن أن تكون مصدرا من مصادر التشريع، فضلا أن يُتَّخَذَ أصحابُها، أربابا من دون الله، فيعتقد فيهم علم الغيب، وقراءة ما في اللوح المحفوظ، فإن هذا من الزندقة، والشرك الأكبر، والعياذ بالله. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولاشك أنه هناك علاقة وطيدة بين صدق الفراسة وقوة الإيمان والتقى، وإن كان ذلك ليس بلازم[١]، ولكنه الغالب، فكلما كان العبد أكثر صدقا وصلاحا كانت فراسته أصدق، حتى إنها ربما لا تكاد تخطىء.

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[وكان الصديق t أعظم الأمة فراسة، وبعده عمر بن الخطاب t ، ووقائع فراسته مشهورة، فإنه ما قال لشيء: أظنه كذا إلا كان كما قال، ويكفي في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة.

ومَرَّ به سَوادُ بن قارب، ولم يكن يعرفه، فقال: لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية، فلما جلس بين يديه، قال له ذلك عمر فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به، فقال له عمر

---

١ - فمن ذلك تفرس عزيز مصر وكان كافرا في يوسف عليه السلام، كما قال تعالى:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٢].

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[وقال ابن مسعود t : أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته:{أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا}، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى:{استأجره}، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه، وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت:{قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا}.ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

t :ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرني عما سألتك عنه، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين كنت كاهنا في الجاهلية، ثم ذكر القصة.

وكذلك عثمان بن عفان t صادق الفراسة، وقال أنس ابن مالك t : دخلت على عثمان بن عفان t وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها، فقال عثمان t : يدخل عَلَيَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه، فقلت: أوحي بعد رسول الله؟، فقال:ولكن تبصرة وبرهان، وفراسة صادقة.

وفراسة الصحابة y أصدق الفراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده؛ فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطىء.

قال الله:{أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}، كان ميتا بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له بالقرآن والإيمان نورا يستضيء به في الناس على قصد السبيل ويمشي به في الظلم، والله أعلم]ا.هـ.

فصل: فائدة في بيان ضعف قصة مشهورة عن عمر وذلك في قوله t :(يا سارية الجبل).

اعلم رحمك الله، أن لهذه القصة طرقا كثيرة لم يخل منها طريق من كذاب أو متروك أو ضعيف أو صدوق لا يحتمل تفرده بمثل هذه القصة التي لها مدخل في الأصول العقدية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أرشدك الله، أن هذا الخبر لا يوجد له ذكر في دواوين الإسلام المشهورة كالموطأ والكتب التسعة والمصنفين. ومثل هذا دال على غرابة الخبر وجهالته ونكارته.

واعلم رحمك الله، أن أمثل طرقها هي طريق يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر به.

وهذا إسناد لا يقبل فيه أمثال محمد بن عجلان، فأين أصحاب نافع الكبار الثقاة؟!!.

أما الطرق الأخرى فإحداها فيها: أيوب بن خواط، متروك. والأخرى فيها: سيف بن عمر، كذاب. وثالثة فيها: الواقدي، كذاب. وأخرى فيها: فرات بن السائب، وضاع، وفي أخرى عمرو بن أزهر قال عنه البخاري في التاريخ الكبير:[عمرو بن أزهر، يقال العتكي، نزل بغداد، يرمى بالكذب، رماه أبو سعيد الحداد بالكوفة]ا.هـ.

وعلى كل فحتى على فرض ثبوتها فإنها محمولة على ما تقدم تقريره، وقد أشار الشاطبي في (الموافقات) إلى عدم ثبوتها، حيث قال:[وقد تعاضدت الآيات والأخبار وتكررت في أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهو يفيد صحة العموم من تلك الظواهر، حسبما مر في باب العموم من هذا الكتاب، فإذا كان كذلك؛ خرج من سوى الأنبياء من أن يشتركوا مع الأنبياء -صلوات الله عليهم- في العلم بالمغيبات.

وما ذكر قبل عن الصحابة أو ما يذكر عنهم بسند صحيح؛ فمما لا ينبني عليه حكم، إذ لم يشهد له رسول الله r ووقوعه على حسب ما أخبروه هو مما يظن بهم، ولكنهم لا يعاملون أنفسهم إلا بأمر مشترك٤ لجميع الأمة، وهو جواز الخطأ، لذلك قال أبو بكر:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"أراها جارية"؛ فأتى بعبارة الظن التي لا تفيد حكمًا، وعبارة "يا سارية الجبل" - **مع أنها إن صحت** لا تفيد حكمًا شرعيًّا- هي أيضًا لا تفيد أن كل ما سواها مثلها، وإن سلم؛ فلخاصية أن الشيطان كان يفر منه؛ فلا يطور حول حمى أحواله التي أكرمه الله بها، بخلاف غيره، فإذا لاح لأحد من أولياء الله شيء من أحوال الغيب؛ فلا يكون على علم منها محقق لا شك فيه، بل على الحال التي يقال فيها: "أرى" و"أظن"، فإذا وقع مطابقًا في الوجود وفرض تحققه بجهة المطابقة أولًا، والاطراد ثانيًا؛ فلا يبقى للإخبار به بعد ذلك حكم لأنه قد صار من باب الحكم على الواقع؛ فاستوت الخارقة وغيرها، نعم تفيد الكرامات والخوارق لأصحابها يقينًا وعلمًا بالله تعالى، وقوة فيما هم عليه، وهو غير ما نحن فيه.

ولا يقال: إن الظن أيضًا معتبر شرعًا في الأحكام الشرعية؛ كالمستفاد من أخبار الآحاد والقياس وغيرهما، وما نحن فيه إن سلم أنه لا يفيد علمًا مع الاطراد والمطابقة؛ فإنه يفيد ظنًّا، فيكون معتبرًا. لأنا نقول: ما كان من الظنون معتبرًا شرعًا؛ فلاستناده إلى أصل شرعي]ا.هـ. قلت:وأثر الصديق **t** رواه مالك في الموطأ بسند جيد.

الدين لا يعرف بالمنامات والرؤى:

واعلم رحمك الله تعالى، أن هذا الدِّين لا يعرف بالرُّؤى والمنامات، وإنما يعرف بالكتاب والسنة على سبيل المؤمنين **y**، خلافا لما تفعله المتصوفة وبعض الفرق الضالة، من بناء العقائد وتحديد المبادىء، بناء على ما يراه أولياؤهم في المنام، بل وحتى تلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنامات إن وجدت، فإنها تُعبر ممن لا يفهم، ولا يعلم أن المنامات لا يمكن أن يؤخذ منها تشريع، ولا في أدنى باب من أبواب الأمر والنهي.

فما كان من الأحلام فيه مخالفة للشرع، كانت من رؤيا السوء، وهي من وساوس الشياطين، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ رَسُولِ الله r أَنَّهُ قَالَ:"الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الله وَالرُّؤْيَا السَّوْءُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا فَكَرِهَ مِنْهَا شَيْئًا فَلْيَنْفِثْ عَنْ يَسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ لاَ تَضُرُّهُ وَلاَ يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً فَلْيُبْشِرْ وَلاَ يُخْبِرْ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ الله وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ".

وقد جاء عن محمد بن واسع أنه قال:[الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره]، ونسبه بعضهم للإمام أحمد.

وهذا ضابط دقيق وبليغ، فلنحذر من ذلك، فإن رأينا ما يسرنا؛ استبشرنا، ولكن علينا ألا نغتر بها.

وهنا نقول: تَسُرُّهُ ولا تُغُره حتى لا تَضُرَّه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولنا أن نعلم أن هناك من أقحم نفسه في تعبير الرؤى، بل وجعل تعبيره لا يخطىء أبدا عياذا بالله من الفتنة والخذلان، فإذا كان النبي r قال للصديق t :" أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا" كما في الصحيحين من حديث ابن عباس.

فكيف الشأن بمن هو دون الصديق، بل كيف الحال بمن يتعاطى الشركيات، ويروج لها بالمنامات والرؤى والأحلام؟!!.

جاء في تفسير القرطبي ونقله ابن عبد البر في التمهيد:[وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟، فقال: أبِالنُّبُوَّةِ يُلْعَب؟]ا.هـ.

الحاكم بغير ما أنزل الله تشريعا عاما:

قوله:(ومن حكم بغير ما أنزل الله)، أي هذا أحد الطواغيت، التي بها يخرج العبد من الإسلام، ووجه كونه طاغوتاً، أنه نازع الرب تبارك وتعالى، في أحد أخص صفاته جل وعلا، فقد قال النبي r :"إن الله هو الحَكم وإليه الحُكم" أخرجه أبو داود والنسائي والبخاري في الأدب المفرد بسند جيد من حديث شريح بن هانئ.

وهذا هو الذي يقتضيه أيضاً، العقل السليم والفطر المستقيمة، فإن الذي يخلق ويرزق ويملك، لابد أن يكون هو المتصرف في ذلك كله، وهو الآمر الناهي، ألا وهو الله رب العالمين، فإن الأمر والنهي للخلائق، من خصائص الخالق تبارك وتعالى، ولا تتحقق العبودية في المخلوق، إلا بامتثال الأمر والنهي، كما قال تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، أي إلا لآمرهم وأنهاهم، فإذا كانت العبودية هي امتثال الأوامر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واجتناب النواهي؛ فإن هذا لا يليق إلا بالله جل وعلا، وقد تقدم بيان ذلك عند الكلام على سورة الناس.

وإذا كان مجرد القول بالحل والحرمة، والإفتاء بدون علم جريمة، من أعظم الجرائم، وقول على الله بغير علم؛ فكيف بمن نصّب نفسه مشرعاً للعباد، يَنْقُضُ ما أَبْرَمَهُ الشَّارع، ويعقد ما أطلقه الشارع، فلا شك أن هذا مناهض للرب جل وعلا، محارب لله ورسوله، ولهذا نفى الله جل وعلا الإيمان عن هذا الصنف، وبين أن ليس معهم سوى الزعم، الذي لا مستند له ولا حقيقة، ونعتهم بالنفاق، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء:٦٠-٦١]، فانظر كيف بين الله جل وعلا في هذه الآية، أنه ليس لهم من الإيمان إلا مجرد الدعوى والزعم، وأنه لن تقوم للإيمان في قلوبهم قائمة، حتى يوحدوا الله جل وعلا في الحكم، ويتعبدوه تبارك وتعالى بتطبيق الشرع المنزل، وقد بين الله جل وعلا في كتابه، أن الحكم من أخص صفاته جل وعلا، وأنه يجب تعبد الله جل وعلا بذلك، ومعلوم بالاضطرار من دين الرسل، أن من صرف شيئا من العبادة لغير الله جل وعلا؛ فقد وقع في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلما ذكر الحكم وخص به نفسه تبارك وتعالى، ثم أمر بعد ذلك بعبادته؛ عُلم أن من أعظم ما أمرنا به، أن نتعبد الله به بتطبيق شرعه بامتثال أمره واجتناب نهيه، وصرف الحكم إليه جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٤-٦٥]، فنفى الله جل وعلا في هذه الآية، الإيمان عن هذا الصنف من العباد، حتى يأتوا بهذه الشروط الثقال:

١-تحكيم الرسول r في جميع الأمور، فهو المشرع بأمر الله جل وعلا.

٢-انتفاء الحرج ولو كان يسيراً.

٣-التسليم التام لقضائه عليه الصلاة والسلام، وألا يكون ذلك على التشهي والهوى، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور:٤٧-٥٠].

والمبدل لشرع الله جل وعلا والمشرع من دون الله تعالى، ليس فيه شيء من هذه الشروط الثقال، وعليه فهو ليس من المؤمنين، بل هو من الكافرين حقا، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء:١٥٠-١٥١]؛ ولهذا قال تعالى:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، وهذا الآية نزلت في أهل الكتاب لما بدلوا شريعة الله، وكل من فعل مثل فعلهم؛ فله نفس الحكم، سواء بسواء، لا فرق البتة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى):[وَهَذَا لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ النِّزَاعَ إلَّا كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ السَّمَاءِ وَإِذَا رَدُّوا إلَى عُقُولِهِمْ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَقْلٌ . وَمِنْ هُنَا يُعْرَفُ ضَلَالُ مَنْ ابْتَدَعَ طَرِيقًا أَوْ اعْتِقَادًا زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ إلَّا بِهِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَذْكُرْهُ وَمَا خَالَفَ النُّصُوصَ فَهُوَ بِدْعَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ].ا.هـ.

وقال أيضا في (مجموع الفتاوى):[فَإِنَّ الْقَوْمَ كُلَّمَا بَعُدُوا عَنْ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَالْكُتُبِ كَانَ أَعْظَمَ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ أَضَلَّ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي أمامة عَنْ النَّبِيِّ r أَنَّهُ قَالَ:"مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ. ثُمَّ قَرَأَ قَوْله تَعَالَى:{مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}" إذْ لَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا تَنَازَعُوا فِيهِ إلَّا كِتَابٌ مُنَزَّلٌ وَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} الْآيَةُ، وَقَالَ:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، وَقَالَ:{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ وَالرَّسُولِ} الْآيَةَ].ا.هـ.

المؤلف يشهد على المشرعين من دون الله بالكفر الأكبر:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتلاحظ أن المؤلف رحمه الله تعالى، قد ذكر هذا الحاكم في رؤوس الطواغيت؛ ليعلم القارىء أن المقصود بذلك وقوعه في الشرك والكفر الأكبر، بما تعاطاه من التشريع العام، تحليلا للحرام والعكس، وهذا ما يسمى اليوم بالدساتير الجاهلية، والقوانين الوضعية، وليس كما يقول المرجفون في المدينة.

واعلم أن المرجئة ومن وافقهم من المنتسبين للسنة - ممن أَخْطَؤوا في هذه القضية الكبيرة- قد أرجفوا بالناس في هذه المسألة الخطيرة، حتى تطاول بهم الأمر، فلم يروا أن التشريع من دون الله كفر أكبر؛ فَجَرَّؤُوا الطواغيت على تنحية شرع الله، ووضع حثالات الأذهان وزبالاتها، حاكمةً بين العباد –القوانين الوضعية الجاهلية - فساموا الناس سوء العذاب، وكثرت في الأمة الآصار والأغلال؛ من جراء ذلك، وحملوا الناس على ذلك بالحديد والنار، فالويل كل الويل عندهم لمن تسول له نفسه، أن يخالف تشريعاتهم الجاهلية، وأنظمتهم الإلحادية، وقوانينهم الوضعية، حتى ظهر الفساد في البر والبحر، والله لا يحب الفساد، وقد قال تعالى:{ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}، أي قد أصلحها الله بحكمه وشرعه، الذي أنزل به الكتب وأرسل لبيانه الرسل، فلا تعطلوا هذه الشرائع، ولا تبدلوها؛ فتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

ومن هنا نعلم أن الفساد العريض، إنما يقع في الأرض من جراء الحكم بغير ما أنزل الله، وإن زعم من زعم أنه يريد الإصلاح، فإن هذه الخصلة هي من أبرز خصال المنافقين، قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:١١-١٢].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمقصود بالحكم هنا أي المستقر العام، وهو نفسه التشريع العام، قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص:٢٦].

قال ابن كثير في تفسيره:[وقوله تعالى:{وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح "المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا" وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله r :"إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر" ورواه الترمذي من حديث فضيل وهو ابن مرزوق الأغر عن عطية به، وقال لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله تعالى:{وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} قال يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول وكيف وقد سلبته ؟ فيقول الله عز وجل إني أرده عليك اليوم قال فيرفع داود عليه الصلاة والسلام بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان. {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب}، هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد حدثنا مروان بن جناح حدثني إبراهيم أبو زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت فقلت يا أمير المؤمنين أقول؟قال: قل في أمان الله، قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى:{يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} الآية وقال عكرمة {لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب} هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، وقال السدي لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب]ا.هـ.

فصل: واعلم أن الحاكم له مع الظلم والمظالم حالتان:**أحدهما**: أن يكون هذا الظلم في خاصة نفسه، أو في ظلمه لبعض أفراد الرعية، مع عدم المساس بمسلمات الشريعة، وعدم التلاعب بشرع الله تعالى، فالمهيمن على دولته حكم الكتاب والسنة، ولا مَرَدَّ عند التنازع إلا إلى الكتاب والسنة على فهم الصحابة الكرام **y**، فهذا الراجح عدم منابذته، مع السعي في مناصحته والإنكار عليه، مع عدم نزع يد من طاعة في المعروف، فَنَكْرَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُنْكَراتِه ونُنْكِرُها، ونناصحه فيها، ونعتزله عندها، ولا نطيعه فيها إن أمر بها، وهذا الذي دلت عليه الأحاديث كما سيأتي، وعلى هذا جماهير السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين، وقد قيل إنه قد استقر الأمر عليه آخرا.

والثاني:أن يكون ظلمه بإتيانه الكفر الأكبر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان، كتعاطي السحر والشعوذة، أو ترك الصلاة، أو منع الناس منها أو تضييقها عليهم، والسعي في منع إقامتها بأي وسيلة من الوسائل، أو تحكيم القوانين الوضعية وشرع أهل الجاهلية قديما أو حديثا، أو مظاهرة المشركين وتوليهم، أو حماية الشرك وأهله، والمرتدين عن شرع رب العالمين، وإعطائهم الحق في ممارسة الكفر الصراح، والشرك البواح، والدعوة إلى ذلك، أو دعمهم ماليا أو معنويا في رفع عقيرتهم بالشرك والدعوة إلى الكفر، وتوفير الحماية؛ باعتبار أنه حق كفله لهم الدستور الجاهلي، أو تجويز المحرمات باستصدار القوانين التي تُرتبها وتحميها، وإقامة المحاكم التي تفض النزاعات بين أصحابها، أو الانضواء تحت لواء الأمم المتحدة، وقرارات مجلس الأمن، أو ما يعرف بحقوق الإنسان، وقوانين العمل والعمال المناهضة لشرع الله تبارك وتعالى، أو غير ذلك من نواقض الإسلام، **فمثل هذا الحاكم تجب منابذته، والسعي في إزالته، إن كان ثمة شوكة ظاهرة**، كما أذن بذلك الصادق المصدوق e ، وإلا سعى المسلمون في اعتزاله، والعمل على فضحه، والدعوة إلى منابذته، وإن من المقطوع به أن الصحابة t لما سألوه e عن منابذة مثل هذا الحاكم الذي أتى الكفر البواح، الذي عندنا فيه من الله برهان، كان r يعلم يقينا مخاطر هذه المنابذة، والآلام التي تفضي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إليها، ولكن لما كان الأمر متعلقا بحق الله تعالى؛ هان كل شيء في سبيل تحقيق القيام لله تعالى بالتوحيد الخالص، إذ لأجل ذلك خلق الله الناس جميعا، كما قال تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وإن أعظم سبب شُرع لأجله الجهاد في سبيل الله هو إقامة حق الله تبارك وتعالى، كما أن النبي e اكتفى من أصحابه t أن يعرفوا هم هذا الكفر البواح، وهم يمثلون أهل العلم والبصيرة، بغض النظر عن اقتناع ذلك الحاكم بذلك أو لا؛ فالكفر البواح ليس محلا للمساومة والأخذ والعطاء، فنصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة دال عليه، وهذا القدر كاف في توفر أسباب هذه المنابذة لمثل هذا الحاكم، مع تذكر شرط وجود الشوكة والقدرة على ذلك، وإنما اشترط أهل العلم ذلك؛ لأن النبي e لما كان في أول دعوته في حالة ليس معه فيها الشوكة، اكتفى بالدعوة مع السعي في تكثير السواد؛ لتوفير الشوكة، فإنما ينتصر هذا الدين ويقوم بالكتاب الهادي والسيف الناصر، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ثم كانت بيعة الرضوان، ثم الهجرة المباركة، ثم انطلق الجهاد في سبيل الله، وقامت دولة الإسلام الممكنة في الأرض، وبقيت ما شاء الله لها أن تبقى، وهكذا ستعود قريبا بإذن الله تعالى في آخر الزمان، خلافة على منهاج النبوة، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلا يذل الله به الكفر وأهله.

بهذا جاءت النصوص المتواترة عن الصادق المصدوق e، كما في الصحيحين من طريق جنادة بن أبي أمية قال:دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا:حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به سَمِعْتَهُ من رسول الله e فقال:دعانا رسول الله e فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال:"إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان". **وفي صحيح مسلم** عن عوف بن مالك الأشجعي يقول:سمعت رسول الله e يقول:"خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصَلُّون عليهم ويُصَلُّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم"، قالوا: قلنا:يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال:"لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله؛ فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة". ومعنى"وتُصَلُّون عليهم ويُصَلُّون عليكم: أي الدعاء.

فهذان خبران يُبَيِّنَان أن الخليفة متى ما ضيع الدين فلا حرمة له، وضَيَاعُ الدِّين يكون بمحاربة الإيمان ونشر ضده، ويكون بتعطيل شرائعه، والتي من أعلاها وأبرزها التشريع والصلاة.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة:عن النبي e أنه قال:"إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع"، قالوا يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال:"لا ما صلوا". أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه. قلت:قوله e:"ومن أنكر فقد سلم" أي فقد أمِنَ من أن تَعُمَّهُ العقوبة إذا نزلت. والله أعلم.

وفي الصحيحين من طريق أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله e عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت:يا رسول الله إنا كنا في الجاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شر؟ قال:"نعم". قلت:وهل بعد ذلك الشر من خير؟، قال:"نعم وفيه دخن". قلت:وما دخنه؟، قال":قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر". قلت:فهل بعد ذلك الخير من شر؟، قال":نعم دعاة إلى أبواب جهنم مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها". قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ فقال":هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا". قلت:فما تأمرني إن أدركني ذلك؟، قال:"تلزم جماعة المسلمين وإمامهم"، قلت:فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟، قال:"فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك".

فهذان خبران يدلان على وجوب اعتزال المنكر، حتى إذا كان الكفر البواح فإن أمكن إزالته تَعَيَّنَ ذلك، وإلا فيستمر العبد على الاعتزال بكل معانيه، حتى وإن بلغ الحال به إلى إن يخرج عن بلده فليفعل، عندما يخشى على دينه الفتن، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري t قال: قال رسول الله e :"يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى:[نعم يجوز بل يجب بإجماع المسلمين قتال هؤلاء وأمثالهم من كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، مثل الطائفة الممتنعة عن الصلوات الخمس أو عن أداء الزكاة المفروضة إلى الأصناف الثمانية التي سماها الله تعالى في كتابه، وعن صيام شهر رمضان، أو الذين لا يمتنعون عن سفك دماء المسلمين، وأخذ أموالهم، **أو لا يتحاكمون بينهم بالشرع الذي بعث الله به رسوله** كما قال أبو بكر الصديق وسائر الصحابة y في مانع الزكاة وكما قاتل علي ابن أبي طالب وأصحاب النبي r الخوارج....]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصِّـديق t يُفَرّق بَينَ مَنْع ابن جميل، ومنع المرتدين في زمانه:

وتأمل كيف فرق الصديق t بين حال ابن جميل الذي منع الزكاة في زمان النبي r ، وبين الذين منعوا الزكاة في زمانه؛ لتعلم عميق فهمه لدين الله تعالى.

ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، t ، قَالَ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالصَّدَقَةِ فَقِيلَ مَنَعَ ابْـنُ جَمِيلٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَأَمَّا خَالِـدٌ فَـإِنَّكُمْ تَظْلِمُـونَ خَالِـدًا قَـدِ احْتَـبَسَ أَدْرَاعَـهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ الله وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَعَمُّ رَسُولِ الله ﷺ فَهْيَ عَلَيْـهِ صَـدَقَةٌ وَمِثْلُهَا مَعَهَا".

أما في زمان الصديق t ، فقد كان المنع من لون وشكل آخـر، حيـث أرادوا تبـديل الدين، وتغيير الشرائع، فقالوا: قد كنا نؤدي الزكاة لمن كانت صَلاتُه لنَا سَـكَنَا، يَعْنُـونَ رسول الله r ، أمَا وقَد مَات r فَلا زكاة.

هنا هب الصديق t ، غَيْرَةً على شرع الله تعالى، أن ينتقص أو يُتلاعب به وهو حـي يرزق، فقال قولته المشهورة:[وَالله لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ].

كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَاسْـتُخْلِفَ أَبُـو بَكْـرٍ بَعْدَهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَمَنْ قَـالَ: لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ عَصَـمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى الله".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَقَالَ وَاللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ: عُمَرُ فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللهَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

فهذا الصديق **t** ، يغضب لحق الله تعالى، ويبين أن الزكاة إنما كانت تدفع لرسول الله **r** ؛ لينفقها في وجوهها المشروعة، ولكنها في نفس الوقت دفعها عبادة لله تعالى، وهي شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة، وأحد مبانيه العظام، والعبادة لا تسقط بموت النبي **r** ، والشريعة لا تُنْقَضُ ولا تتغير بموت المصطفى **r** .

ولهذا قال البخاري في صحيحه:[فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَشُورَةٍ، إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ **وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ**]اهـ.

الصِّديقُ t يَفْضَحُ حُكَّامَ زَمَانِنَا:

هذا وقد فضح الصِّدِيقُ t حكام زماننا، الذين لا أقول لا يطبقون شرع الله فحسب، بل وعَمَدُوا إلى محاربة من يطالب بذلك، بل طَبَّقُوا ضده (قوانين الطاغوت، القوانين الوضعية)، في رقاب العباد والبلاد، **فأي رِدَّةٍ أعظم وأقبح وأشنع من ذلك؟!!، فَتَبّا للمرجئة وأذنابهم، الذين لا يعقلون.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما علم هؤلاء الذين يتصدرون للفتوى في مثل هذه المقامات الكبيرة، أن الواجب عليهم أن ينظروا في حق الله تبارك وتعالى قبل كل شيء، كما هي دعوة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين، الذين من المفترض أن يكونوا هم ورثتهم وأتباعا لهم.

أما علم هؤلاء أن الأرض أصبحت لا تحكم بشرع الله تبارك وتعالى، بل بشريعة الطاغوت التي هي شريعة إبليس اللعين، فليس هناك دولة اليوم تقوم لله تعالى بهذا الحق، ولا فرق بين شرك العبادة وشرك الطاعة والتشريع، فالكل من الشرك والكفر الأكبر البواح، كما قال تعالى في شرك العبادة: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لله شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }، **وقال سبحانه وتعالى في شرك الطاعة والتشريع:** {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، وقال: {قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً }، فسمى الجميع أولياء من دونه، وقال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }، وقال: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ}، وقال: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، **وجمع بينهما في مواضع من الذكر الحكيم** فمن ذلك قوله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقوله: {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لله شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}.

على أن بعض الحكام اليوم أتى كل ذلك، فتراه حاميا لشرك الطاعة والتشريع، بل وعاملا به وربما داعيا إليه، بل قد يكون رأسا في ذلك، عياذا بالله من ظلمات الكفر والشرك بالله تعالى.

تقرير ابن تيمية لشرك الأتباع في التحليل والتحريم:

جاء في مجموع الفتاوى: [وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ وَأَجْنَادِ الْمُلُوكِ وَأَتْبَاعِ الْقُضَاةِ وَالْعَامَّةِ الْمُتَّبِعَةِ هَؤُلَاءِ يُشْرِكُونَ شِرْكَ الطَّاعَةِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ r لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ لَمَّا قَرَأَ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} فَقَالَ يَا رَسُولَ الله مَا عَبَدُوهُمْ، فَقَالَ: "مَا عَبَدُوهُمْ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ الْحَرَامَ فَأَطَاعُوهُمْ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الْحَلَالَ فَأَطَاعُوهُمْ".

فَتَجِدُ أَحَدَ الْمُنْحَرِفِينَ يَجْعَلُ الْوَاجِبَ مَا أَوْجَبَهُ مَتْبُوعُهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ وَالْحَلَالَ مَا حَلَّلَهُ وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ إمَّا دِينًا وَإِمَّا دُنْيَا وَإِمَّا دُنْيَا وَدِينًا . ثُمَّ يُخَوِّفُ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ وَهُوَ لَا يَخَافُ أَنَّهُ أَشْرَكَ بِهِ شَيْئًا فِي طَاعَتِهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ مِنْ اللهِ] ا.هـ.

قلت: فويل للقضاة والمحامين، والبرلمانيين والدستوريين، وجميع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشاركين في هذا الشرك الأكبر، سيتبرأ بعضهم من بعض.

وهنا سؤال كبير نطرحه على هؤلاء المرجفين، ألستم تُقَرِّرُونَ وتُقِرُّون، أن من أحل ما حرم الله، أو حرم ما أحل الله، أنه كافر الكفر الأكبر، فما قولكم في القوانين الوضعية إذا تضمنت تحريما للحلال، أو تحليلا للحرام؟!. أفلا يكون كذلك؟!.

وهل هناك قانون وضعي لا يتضمن تحريما للحلال، أو تحليلا للحرام.

إعلام ونداء لأهل الإرجاء ....بعنوان....يا أهل الإرجاء كفوا عنا سفهاءكم.

إن الحاكم إنما نال واجب الطاعة له، وحقت البيعة له بتحقيق إيمانه بالله تعالى وطاعته له، فإذا عصى الله تعالى؛ فلا طاعة له فيما عصى الله فيه، وأما إن أظهر الكفر البواح؛ فلا بيعة له ولا طاعة، بل وجب الخروج عليه، إن لم يُراجِع دينه، وكان ثمة شوكة.

فيا أهل الإرجاء كفوا عنا سفهاءكم.

وإنما قررت هذه الحقيقة، التي هي من واضحات ومهمات الإسلام؛ لأن هناك من علماء السلاطين وعلماء السوء، من يأمر الناس بطاعة السلطان، ونسوا أو تناسوا هذه الحقيقة البارزة في نصوص الكتاب والسنة، أنه لا طاعة إلا في المعروف، وأن الحاكم الذي له البيعة وتجب له الطاعة، هو الذي قام بكتاب الله تعالى، وطبق شرع الله تبارك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى، وسعى في حماية الدين وثغور الإسلام، فهذا هو الإمام الذي تصح بيعته، وتجب طاعته في طاعة الله تعالى.

أما الطواغيت المعطلين للشريعة، والمحاربين للجهاد في سبيل الله، الذين تولوا الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، فهؤلاء إنما أمرنا بخلعهم ومنابذتهم، لا بطاعتهم والوفاء ببيعتهم التي لم تنعقد أصلا.

فنقول لهؤلاء العلماء المقولة المشهورة: **ثبت العرش ثم انقش.**

فأوجدوا لنا الحاكم الذي انطبقت عليه شروط الإمامة، التي تجب بها بيعته، والدخول في طاعته في طاعة الله تعالى،{فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨].

وتأمل في هذا الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من طريق يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَ سَمِعْتُهَا تَقُولُ حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله r حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلاَلٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله r مِنَ الشَّمْسِ - قَالَتْ - فَقَالَ رَسُولُ الله r قَوْلاً كَثِيرًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ:"إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ **يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ الله تَعَالَى** فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا".

وفي الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ ، وَلاَ طَاعَةَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مصنف ابن أبي شيبة حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: حـدَّثَنَا إسْـمَاعِيلُ بْـنُ أَبِي خَالِـدٍ، قَـالَ: سَمِعْتُ مُصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: كَلِمَاتٌ أَصَابَ فِيهِنَّ: حَقٌّ عَـلَى الإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَأَنْ يُؤَدِّيَ الأَمَانَةَ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا وَيُجِيبُوا إِذَا دُعُوا.

قلت: والمعنى أنه لا سمع له ولا طاعة ولا إجابة إذا لم يحكم بـما أنـزل الله، وهذا واقعنا المُر الذي نعيشه.

فصل: علماء تَاهَت عقولهم، في غمرة الأحداث، أو إغراء السلاطين:

ونحـن نسـأل هـؤلاء العلـماء، أرأيـتم إذا كـان الحـاكم يحكـم بطـاغوت القـوانين الوضعية، والدساتير الجاهلية، والمراسيم الملكية، والسُّلُوم العَشَائِرية، ومـا يمليـه المـلأ المفسدين في الأرض، فأي طاعة لهم؟!!.

أم أنكم تأمرون بما لا تفقهون حقيقته؟!!، إنكم عنـدما تـأمرون بطاعـة السـلطان، وهو مبدل لشرع الله تعالى، إنما تأمرون الناس بطاعتهم في معصية الله، أفلا تعقلون؟!!.

وإذا كان الواجب على الأمة ألا تقبل من الأمراء والسلاطين، حكما مخالفا لشرع الله تعالى، بل ويحرم عليهم طاعتهم في ذلك، فكيـف تقولـون بوجـوب طاعـة السـلاطين المبدلين لشرع الله تعالى.

ونحن نقول فأي طاعة بقيت لهم، وهو يحكمون بحكم الجاهليـة، وكيـف تُجَرِّمُـون من لا يطيعهم، ويسعى في تخليص الأمة منهم؟!!. أفلا تعقلون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخيرا السؤال الذي يطرح نفسه، يا أيها العلماء، فيم نطيع هؤلاء السلاطين؟، فإن قلتم في طاعة الله، قلنا لكم: هم لا يطيعون الله، بل يطيعون أهواءهم ويتبعونها، ويأمرون الناس بحكم الطاغوت، فَلِمَ تأمرون الناس بما تعلمون أنه مخالف لما تعلمونه من كتاب الله تعالى؟!!.

ولنعلم أن الشارع الحكيم إنما سمي أمثال هؤلاء الحكام -الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا- مؤمنين بالجبت والطاغوت، وسماهم منافقين، وسماهم كفارا، {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء:٦٧].

وبهذا يتضح لنا جليا، أن الإسلام بين صفات الأمير الذي تجب طاعته، ويقاتل من ورائه.

الطاغوت لا يغني عنه عمله الصالح شيئا حتى ينزع:

وترى هؤلاء التائهين من علماء السلاطين، يُبَجِّلُون ويعظمون الطاغوت الحاكم بأمر الشيطان، مخادعين الأمة بأنهم حماة الدين وحراس العقيدة، ثم يذكرون طباعته للمصاحف، وبنائهم المساجد، ونشرهم لكتب السنة، وعدم منهم الناس الصلاة، والله تعالى يقول في شأن هؤلاء، وردا على أمثالهم: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [التوبة: ١٧ - ٢٠].

فَبَيَّنَ تبارك وتعالى أن المشركين، والطواغيت، ربما بنوا المساجد، وسقوا الحجيج وأطعموهم، ووسعوا الحرمين وزينوهما، ولكنه يبقى هو الطاغوت، إذ أن هذا الوصف إنما لحقه من جراء تلاعبه بالشرع، وحمايته للكفر والشرك، وموالاته للكفار والمشركين، ومظاهرتهم على المؤمنين، ومسخ عقيدة الولاء والبراء، لا بسبب أنه لم يطبع المصاحف، ولم يوسع الحرم، ولم يخدم الحجيج. فتأمل، حتى لا يتلاعب بك هؤلاء العلماء، المفسدون في الأرض.

ومن جميل ما قاله بعض أهل العلم، على قول الله تعالى:{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء:١٩].

إن في هذه الآية بيانا شافيا واضحا، حيث أنها دالة على أن هناك من سيعمل ما هو سعي الآخرة، ولكنه لما كان هذا السعي قد تخلف عنه شرط الإيمان؛ لم ينتفع من ذلك بشيء، كما قال تعالى:{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف:٢٠].

فاحذر يا مَنْ مَنَّ الله عليك بالعلم، من أن تجعله عُرْضَةً لدنياك، كلما عَنَّ لك طَمَعٌ؛ جعلت دينك ثمنا له، وتذكر قول الله تعالى:{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:٧٩-٨٠]. **ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، يحذر الله تعالى، من جعل الدين ثمنا لتحصيل الدنيا.**

وفي صحيح مسلم من طريقِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ كُنْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَمَرَّ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَقُولُ بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِكَيٍّ فِي ظُهُورِهِمْ يَخْرُجُ مِنْ جُنُوبِهِمْ وَبِكَيٍّ مِنْ قِبَلِ أَقْفَائِهِمْ يَخْرُجُ مِنْ جِبَاهِهِمْ. - قَالَ - ثُمَّ تَنَحَّى فَقَعَدَ. - قَالَ - قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا أَبُو ذَرٍّ. قَالَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ مَا شَيْءٌ سَمِعْتُكَ تَقُولُ قُبَيْلُ قَالَ مَا قُلْتُ إِلاَّ شَيْئًا قَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّهِمْ r . قَالَ قُلْتُ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الْعَطَاءِ، قَالَ: خُذْهُ فَإِنَّ فِيهِ الْيَوْمَ مَعُونَةً، **فَإِذَا كَانَ ثَمَنًا لِدِينِكَ فَدَعْهُ.**

مسألة: لا يجوز جهاد الطلب إلا بإذن الإمام، الذي صَحَّت بَيْعَتُه شرعا، وعلى هذا كان سبيل المؤمنين، -النبي r أصحابه y -، إذ ما كان ينبعث أحد، أو جمع وحدهم للقتال دون إذن الإمام مطلقا، وأما الاحتجاج بحادثة أبي بصير t ، فلا يصح هذا الاستدلال؛ لأنه لم يكن داخلا تحت النبي r ، بل لم يقبله لما جاء إليه؛ للعهد الذي كان في الحديبية، حتى قال النبي r :"وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ. أخرجه البخاري في صحيحه.

ومن الأدلة الدالة على هذا الأصل العام، ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة t أن النبي r قال:"مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ ، وَمَنْ يُطِعِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ".

فالخروج بدون إذنه افتئات عليه، ونشر للفوضى، وسبب للحرج في الدين، وربما جر إلى اعتداء على حق الآخرين، فإن الإمام لربما أبرم عهودا مشروعة لم يطلع عليها هؤلاء، فيقاتلوا أهل عهد وميثاق؛ فيكون ذلك سُبَّةً على المسلمين، وسببا للتنفير عن الدين.

بل وكذلك جهاد الدفع، فإنه وإن كان في أول وهلة نزول العدو بساحة المسلمين لا يلزم إذن الإمام، بل يدفع العدو بمن حضر، حتى إذا حضر السلطان المسلم، وتمكن وجب رد الأمر إليه، واتباع أمره في تدبير أمور الحرب، ودفع الصائل، بما هو الأنفع لدين الله تعالى، والحفاظ عليه، وعلى بيضة الإسلام وأهله. والله أعلم.

وأعود لأنبه، على أن هذا كله في حق الحكام، الذي يَرْجُون لله وَقَارا، المُعَظِّمِينَ لِحَقِّه، الدَّاعِين إليه، أما الحُكَّامُ الخَوَنَة، والمُرْتَدُّون، فهم مَحَلٌّ أن يُقَاتَلُوا ويُخْرَجَ عليهم، - إن كانت بالمسلمين قُوَّةٌ وقُدْرَة -، إلا أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويُقِيمُوا شرعه، ويُعْلِنُوا الجهاد في سبيله، حتى تَكُونَ كلمة الله هي العليا، وكلمة أعداء الله هي السفلى.

الديمقراطية ورطة العالم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل في بيان ورطة المسلمين مع الديمقراطية الكافرة الجائرة: أما أولئك الذين ينادون بخلع الخليفة لدكتاتوريته؛ ليُنَصِّبُوا خليفة ديمقراطيا فهؤلاء إنما مثلهم كحال المستجير من الرمضاء بالنار.

بل إن الأمر في حقهم مع هذه الدعوة الخبيثة صار أشد وأخطر، إذ أنهم كانوا بالأمس يرزحون تحت نير الطاغوت المتسلط المتجبر: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً}، وكانت لهم مندوحة ومخرج - إن كانوا مكرهين- في قول الله تبارك وتعالى: {مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، أما مع هذه الدعوة إلى الديمقراطية فإنهم يأتون الكفر اختيارا ويُقْبِلُون عليه عمدا.

أما علموا أنه لا فرق بين الدكتاتورية والديمقراطية من جهة كون أن الجميع كفر بالله العظيم، إذ أن المُشَرِّع في حالة الدكتاتورية هو طاغوت متسلط – حزبا أو فردا – بدستور جاهلي كلا أو بعضا، وإنَّ كفرا ببعض الكتاب ككفر بالكتاب كله.

والديمقراطية هي أن يختار الشعب – أحزابا أو تجمعات – تشريعا من عند نفسه ليحكم به الشعب، وفي كل من الحالتين فالحاكم ليس هو الله رب العالمين، **وهذا هو الشرك الصُّراح والكفر البَواح، عياذا بالله من الخذلان.**

وما الدكتاتورية والديمقراطية أو العلمانية أو الوطنية أو الدولة المدنية، ونحوها إلا أسماء وأوجه، من صنع البشر، يضاهئون بها قول الذين كفروا من قبل، كما قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَـرْيَمَ وَمَـا أُمِـرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقد قص الله تبـارك وتعـالى علينا قصـة أزمـة أهـل مصر في زمـان يوسـف e، وأنَّ ورطـتهم العظمـى كانـت في التشريعات الجاهلية، وتأليه البشر – فردا كان أو جماعة – فقال تعالى: {قَـالَ لاَ يَـأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَـوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{٣٧} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{٣٨} يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِـدُ الْقَهَّارُ{٣٩} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِـن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}.

الظلم الذي سيملأ الأرض:

وتلك هي ورطة العالم في آخر الزمان، حينما يخيم الطاغوت بتشـريعاته الجاهلية على الأرض، فلا تبقى دولة في الأرض تقوم بشرع الله تعالى وتحمل لواءه ليكون الحكم كله، والدين كله لله رب العالمين.

وذلك هو الظلم الذي أخبر عنه النبي e أنه يملأ الأرض في آخر الزمان، ونحن فيه الآن، إذ أن من المقطوع به أن النبي e لا يقصد أنـه لا يوجـد عـدل في الأرض البتـة، وإنما أراد امتلاء الأرض بهذا الشرك الأكبر والظلم العظيم: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما في سنن الترمذي وأبي داود وغيرهما واللفظ لأبي داود من طريق عاصم عن زر عن عبد الله: عن النبي e قال:"لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لَطَوَّلَ الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني " أو "من أهل بيتي يُوَاطِىء اسمه اسمي واسم أبيه اسمَ أبي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما مُلِئَت ظلما وجورا". قال الترمذي عقبه: هذا حديث حسن صحيح.

ولنعلم أنه ما عُبِدَ الشيطان في هذا الزمان بشيء، هو أشد وأفظع وأصْرخ من هذا التواطؤ العالمي على صرف حق التشريع من الإله الحق العظيم الحكيم العليم الخبير إلى المخلوقين، والله تعالى يقول في محكم التنزيل:{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{١} مَلِكِ النَّاسِ{٢} إِلَهِ النَّاسِ}، فالإله الذي يُسْتَعَاذُ به هو الرب الحق المبين الذي يحيي ويميت ويرزق ويخلق، وهو نفسه سبحانه وتعالى الذي يملك الناس وإليه حُكْمُهم، كما أنه إليه خلقهم ومصيرهم وعنده رزقهم، هذا هو الإله الذي لا إله سواه، ولا معبود بحق إلا إياه{إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

لا خيار، فإما الكفر أو الإسلام:

فعلينا جميعا أن نعلم علم اليقين أنه لا خيار للمؤمنين سوى أن يخلعوا الكافر والمشرك – شخصا كان أو نظاما ودستورا- ليقيموا حكم الله تبارك وتعالى وشرعه، وينشروا توحيد الله تعالى في أرضه وبين خلقه، كما قال تعالى:{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وقوله:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُّ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}، وإن لم نفعل ونحن قادرون فقد هددنا الله تبارك وتعالى بقوله: {قَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤٦} وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{٤٧} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ{٤٨} وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ{٤٩} أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

ثم بين الله تبارك وتعالى بعد ذلك الخيار المطروح للمؤمنين، وبيَّن من هم المؤمنون حقا، فقال سبحانه: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٥١} وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٥٢} وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{٥٣} قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{٥٤} وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{٥٥} وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وعلينا أن نعلم جميعا، أن مجرد الدخول في العملية الانتخابية، وقبول الديمقراطية، هو تسويغ لأن يكون الاختيار للعباد فيما يحكمون به، وهذا في حد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذاته كفر أكبر ناقل عن ملة الإسلام، وهو من تأليه الشعوب لبعضهم البعض، فلنتنبه لهذا المقام الخطير.

نداء إلى علماء المسلمين الصادقين الربانيين:

فيا علماء المسلمين ودعاتهم، بَصِّرُوا شعوب المسلمين بخطورة ما يتعاطونه ويطالبون به من الأسماء والمسميات الجاهلية، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأمُرُوهم وَوَجِّهُوهُم إلى المطالبة بشرع الله تعالى لا يبغون عنه حولا، ولا يقبلون بسواه بديلا، مهما كانت التَّكاليف والتَّبِعَات، فإن هذا من أوجب الواجب عليكم اليوم، فإن كثيرا منهم غافلون عن هذه الحقائق الحساسة الخطيرة، بدليل ما سمعناه من مطالبة صريحة بعدم تطبيق الأصولية الإسلامية!! ويا عجبا لهؤلاء!! أما علموا أن الأصولية تعني الرجوع إلى الأصول، وهل للمسلمين أصول غير الكتاب والسنة على فهم الصحابة الكرام y؟!.

وعلى أمة الإسلام أن تحذر من الانجراف وراء الأهواء والآراء الشخصية، التي ربما يتبناها إسلاميون، وربما كانوا منتسبين إلى السلف، يحاولون إقناع الأمة بأنه لا طريق إلى تغيير هذا الواقع المُر، إلا بالتداول السلمي للسلطة، حتى يصل الأمر إلى الإسلاميين، فَيُدَشِّنُون مشروع الانتخابات، ويُقْلِقُون الأمة إليها، بالدخول في العملية الديمقراطية والانتخابات الشعبية، عبر مؤسسات التشريعات الجاهلية، والقوانين الوضعية، التي ترعاها البرلمانات الكفرية، وكل هذا من الدخول في الكفر الصراح والشرك البواح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجامعات والتشريعات الجاهلية:

فصل: واعلم أرشدك الله، أن من الصور الصارخة، التي يمارس فيها، تطبيق طاغوت التشريعات الجاهلية، ما يسمى اليوم بالجامعات، فإن من المعلوم لدى الصغير والكبير أن لهذه الجامعات دساتيرها الخاصة بها، والتي يضعها مجموعة من البشر، بمشارب وأهواء مختلفة، وتكون هذه الدساتير ملزمة لكل من انضم وانخرط تحت لواء هذه الجامعة أو تلك، فالكل خاضع للدستور، والدستور هو المهيمن على الجميع، وليس لأحد أن يقحم من عنده شيئا فيه، إذ له الحصانة والصيانة العامة التامة، وكل من أتى ليلتحق بهذه الجامعات، معلما كان أو متعلما، ليس له خيار في هذا الدستور، بل عليه الانقياد والإذعان التام له، والويل لمن تسول له نفسه مخالفة الدستور أو الخروج عليه، شأنه في ذلك شأن الدساتير الأخرى التي يخضع لها الناس ويذلون وينقادون، ثم الكل محكوم مربوب بالدستور العام الذي يحكم البلاد.

نعم، هكذا هي طاغوت الدستور، له من الجلالة والمهابة، ما ليس لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله e، بل ليس لشرع الله تبارك وتعالى أي سيطرة أو تحكم أو حكم على هذه الدساتير الجامعية، بل هي تَحْكُمُ الشرعَ وتُقَنِّنُهُ، وتَقْبَلُ مِنْهُ وتَرْفُض، وتختار منه وتَعْزِل، فالحُكمُ لها، لا لله رَبِّ العالمين.

ومن الإجرام والمكر الكبّار، تلك التسمية الطاغوتية التي أطلقوها على هذه الجامعات، ألا وهي (الحرم الجامعي)، وهذه التسمية إن أريد بها أنها حرم بمعنى الحرم الشرعي كالذي لمكة والمدينة؛ فهذا كفر صراح بَوَاح، لأنه من التشريع الجاهلي، وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس ببعيد عليهم أن يقصدوا ذلك، فالتشريع من دون الله تعالى هو شعار تلك المستنقعات.

وإن أريد بها أنه لا أحد يملك أن يحكمها بالشرع، بل الحلال الجائز ما أحله الدستور، والحرام المنوع ما حرمه الدستور، فهذا هو التشريع الجاهلي الكفري الذي اتفق الصحابة والأئمة على أنه شرك أكبر مخرج من الملة، عياذا بالله من الخذلان، وهو من الكفر البواح الصراح.

وليس سرا أنه مهما بلغ العبد من الصلاح والتقى والورع، إذا التحق بهذه الجامعات دارسا أو مدرسا، لا خيار له إلا أن يذل وينقاد لهذا الدستور العلماني الجاهلي، مهما رأى من المنكرات والكفريات والضلالات، وإن غاية ما يملكه أن يلتمس وبكل لطف من صاحب المنكر أن يترك منكره، وصاحب المنكر له مطلق الحرية والخيار في أن يقبل هذا التوسل والالتماس أو يرفضه، وليس لهذا المُنْكِر عليه أدنى أدنى سلطة، لأن الكل محكوم بالدستور الجامعي الجاهلي، القائم أصالة على كفالة الحريات، للجميع، بكل ما تحمله كلمة الحرية من معنى، بل المقصود الأول والأعظم من كفالة الحريات، نزع كل هيمنة أو هيبة للدين الإسلامي على العباد، وأنه ليس هناك شيء من الشرع ملزم لأحد في هذا الـ (الحرم الجامعي)، وكما تقدم فالشرع محكوم لا حاكم. فتأمل!!.

حتى إنه يملك كل صاحب فكر أن ينشر فكره، وأن يدعو إليه، فالشيوعي، والعلماني، والنصراني، والشيطان الرجيم، الكل له الحق المكفول تماما في الدعوة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كفره وضلاله، والترويج لتوابع ذلك من الخبائث، ولا يملك أحد أن يمنعه من هذه الزندقة، إلا أن يبادله المناظرات.

ولنعلم جميعا أن حصر قضية تحريم الجامعات في مسألة الاختلاط، وجودا وعدما، هو من اختزال القضايا، والتلاعب بعقول البسطاء والسذج، فإن الاختلاط وإن كان منكرا عظيما، إلا أنه لا يقارن أبدا بالدساتير الجاهلية، التي تخيم على الجامعات كلها، المختلطة منها وغير المختلطة.

فمن العبث ما نسمعه من الفتاوى هنا أو هناك، أنه إذا كانت الجامعة مختلطة فالالتحاق بها حرام، وإلا كانت جائزة، في تَعَامٍ واضح عن الشرك الصراح الذي يدار في تلك المستنقعات الآسنة، وتغافل عن قضية اجتناب الطاغوت واعتزاله، بل والسعي في إزالته.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف التحق هؤلاء الصالحون، من دعاة وعلماء وطلبة علم بهذا الخبث، مع هذا الزخم العظيم، والركام الهائل، من الزندقة في هذه الدساتير الجاهلية؟!!.

ومن العجائب، والعجائب جمَّة في زمن التخبط والضياع، أن تسمع الفتاوى القوية، في تحريم الالتحاق بالأمم المتحدة، ولو في وظيفة إغاثية، وإن كان المتقدم لهذه الوظيفة ممن عنده حصانة علمية، وقدر مُقدر معتبر من الفقه والحكمة، بل ويهددون بأن هذا الالتحاق قد يصل بالعبد إلى حد الكفر بالله تعالى، وهذه فتوى صائبة موفقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن وفي نفس الوقت تجد نفس هذا المفتي أو ذاك، إذا سئل عن الالتحاق بالجامعات ذات الدساتير الجاهلية، بادر وبلا أدنى تردد أنه لا حرج في ذلك، بل هو بنفسه يلتحق بها معلما، بل ويتولى فيها المناصب؟!!. أما علم هؤلاء أن التشريع من دون الله تعالى هو المهيمن على دساتير الأمم المتحدة ودساتير الجامعات، وليس هناك فرق إلا من جهة كثرة المواد التشريعية وقِلتها، وهذا أمر طبيعي، فدستور الأمم المتحدة يحكم جمهور بلدان العالم، وأما دستور الجامعة فيحكم جامعة معينة، إلا أن الكل يُحَكِّمُ فيه شريعة الطاغوت.

والطاغوت العام يسعى جاهدا في دفع الناس نحو هذه المدارس والجامعات بدعوى محاربة الأمية ومحوها، وكذبوا، بل مراده حمل الناس على الاعتداد بآرائهم وعقولهم بما يسمى بالثقافة والتعلم المدني والحضاري؛ لينزعوا منهم تعظيم أمر الله ورسوله، حتى أصبح البعض يستدرك على شرع الله تعالى، ويقدح وينتقد السلف الصالح وفهمهم وعلومهم، حتى قال بعضهم:هم رجال ونحن رجال، وكذبوا، بل نقول لهم:بل هم رجال وأنتم من الذّكْرَان.

فمراد الشارع تبارك وتعالى أن نحارب الجهل بدينه جل وعلا، وأن نحارب الاعتراض على شرعه جل جلاله، وأما الطاغوت فمراده محاربة الأمية، لا ليتعلم الناس الكتابة والقراءة كما يزعم، وإنما ليجعلهم معتدين بآرائهم وعقولهم في مقابلة الكتاب والسنة، وانخدع المسلمون بذلك؛ فصاروا إلى ما ترون من التخبط والضياع، فالكل يقرأ ما يريد وينظر ما يشتهي، في تعام وتغافل عن شرع الله تبارك وتعالى، فالمعظم هو العقل والرأي، عياذا بالله من الخذلان. ولنعلم أن الأمية ليست وصفا ذميما، بل على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العكس تماما، فإن في أصحابها من الطواعية والانقياد لشرع الله تبارك وتعالى ما ليس عند غيرهم، وقد قال تعالى:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[الجمعة:٢].

والطاغوت إذ يفعل ذلك، يعلم يقينا أنه إن بقي المجتمع متطهرا؛ فستنكشف نجاسة الطاغوت؛ وعليه فلابد أن يتلطخ الجميع أسوة به، كما قال تعالى:{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}[الأعراف:٨٢].

نعم، هكذا هو المُتَلَطِّخ دائما، لا يطيق أن يرى المتعففين الطاهرين من حوله، فإما أن يَتَّسِخُوا مثله، أو سيرميهم بالعظائم، وتأمل قوله تعالى:{إنهم أناس يتطهرون}، فسبحان الله تأمل كيف صار التطهر عند هؤلاء المفسدين جريمة!!.

أنت المسؤول إن كنت سببا في فساد ابنك:

وبعد هذا كله تجد الأمة، تُقْلِقُ أبناءها للذهاب إلى هذه المدارس، وتلك الجامعات، ويطلبون السلامة والنجاة:

أَلْقَوْهُ فِي اليَمَّ مَكْتُوفاً وقيل .... له إياك إياك أن تَبْتَلَّ بالماء

بل إنما الهم الأكبر عندهم أن يتعلم الأولاد، ولو بسبيل محرمة، بل وإن أتلف دينه، بالقدوات الفاسدة، والبيئة السيئة، والمناهج المدخولة، بالدخن والخبث؛ لأن المعظم أصبح عند هؤلاء هو الحصول على الحياة الدنيا، ولو بذهاب الدين، كُلا أو بعضا، والعجيب أن البعض يزعم، أنه سيذهب بابنه أو ابنته إلى هذا المستنقع الآسن،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسيحافظ عليه ويراقبه، ولو طالبته أن يفعل ذلك، مع دنيا أبنائهم لما رضي أبدا بهذه الصفقة الخاسرة الجائرة.

بمعنى لو قلت له إن في المدرسة أو الجامعة طاعونا، أو أي مرض مُعْدٍ مُهْلِك، فلماذا لا تسمح لأبنائك بالذهاب، وتحاول جاهدا وقايتهم، وتهيئة الأسباب لنجاتهم، لقال لكن وهو ينظر إليك، نظرة من يرميك بالخَبَل، أو الجنون، أو على الأقل بنقصان العقل، والطيش والسَّفَه، وسيقول لك، وبكل صرامة وثقة ووضوح، وبالفَمِ المَلآن: **يا أخي الوقاية خير من العلاج، وأن مأمور أن أحافظ عليهم!!!.**

فيا سبحان الله!!، حسنا أين هذه الوقاية مع دين أبنائك، أين هذه الوقاية مع آخرة أبنائك، ألم تعلم أن أبناءك ليسوا عبيدا لك، بل هم شركاؤك، وأنت وإياهم، عبيد لله تعالى، وأن الواجب عليكم جميعا، تنفيذ أمر الله تعالى، ألم تعلم أنه لا يحل لك أبدا، أن يكون سبب فساد الأبناء أنت؟، وأنك مأمور بتجنيبهم جميع سبل الضلال، ولا يحق لك أن تسمح لهم بأدنى شيء منه، فأنت الراعي، وستسأل عن هذه الرعية، فإن كنت غاشا لها، فويل لك، كما في الصحيحين عن مَعْقِل بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِي قال قال النبي r :"مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"، وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ".

واعلم أن الابن إن فسد بسبب خارج عن فعلك؛ فإنه لا لَوْمَ عليك، واعتبر بحال نوح عليه السلام، مع ولده، فقد بَذَلَ له النُّصح، ودعاه إلى آخر لحظات الغرق، ولكنه أبى إلا أن يكون مع الكافرين، فلا لوم ولا تثريب على نوح عليه السلام، ولكن المصيبة كل المصيبة، والورطة الحقيقية، عندما يكون المربي هو أحد الأسباب، التي أدت إلى فساد دين الرعية.

متى تكون المدارس والجامعات حَرَما ومنكرا يجب اجتنابه:

والأعجب من هذا كله، أنك ترى من ينكر على من يقول اليوم، **بتحريم المدارس والجامعات بوضعها الخبيث الماثل أمامنا اليوم**، ويرمي القائلين بالتحريم بالعظائم، والإفك، والافتراء، والكذب الصراح، فيقول إنهم يحاربون العلوم، ويحرمون كذا وكذا، من العلوم النافعة والمباحة!!!.

أما العلوم المباحة، فقد تقدم التفصيل فيها من قبل، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، متى تكون المدارسُ والجامعات محرمة؟.

أليس كل شيء يعتريه التحليل والتحريم، فمثلا قراءة القرآن حال الركوع أو السجود حرام، والأكل والشرب والجماع للصائم في نهار رمضان حرام، والصلاة على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النبي r بعد تكبيرة الإحرام بدعة، وهكذا، فنتسائل متى تكون هذه الجامعات محرمةً، عند أصحابها والمنافحين عنها، أم أنهم يرونها حقا محضا مطلقا؟!!.

وهذا السؤال يُرِيحُنا، من سؤال آخر يوجهه المخالف إلينا، وهو، لماذا تحرمونها؟، وماذا فيها حتى، حَرَّمْتُم المدارس والجامعات؟.

فنقول له هَوِّن عليك، أنت أخبرنا متى تكون محرمة؟، بمعنى، ما هو الشيء الذي إذا وُجِدَ في الجامعات صارت حراما؟.

وللإجابة على هذا السؤال، سنلقي سؤالا آخر، فنقول أرأيت لو أنك سُئِلْتَ عن مكان فيه المواصفات التالية: نَشْرٌ للعقائد الفاسدة، ودعوة صريحة إلى النصرانية، وتَنْصِيرٌ للمسلمين، وأركان إقناع ونقاش على الملأ، الملاحدة يبررون إلحادهم، ويدعون إلى كفرهم، وعندهم قانون جاهلي، يسمح بذلك ويكفله،ويدافع عنه، بل ويُجَرِّمُ من يتعرض لهم، وفي نفس المكان، اختلاط وزنا، ومخدرات وفواحش، ونساء كاسيات عاريات، وقُدُوَات فاسدة، وممارسات غير شرعية، وأخرى مخلة بالأدب، ومذهبة للحياء، ومواد فيها انحراف،بل وبعضها يتضمن الكفر بالله تعالى، ويقدمها أقوام لهم منزلة ومكانة اجتماعية، وعلى أقل الأحوال قد فُرِضَ على الحضور احترامهم وتقديرهم، وهناك ترهيب بالخصم والحسم وربما الطرد، لمن اعترض أو تردد، وحتى من أراد الإنكار، فما هي إلا وجهة نظر يطرحها، كغيرها من الأطروحات، ولأصحاب المكان القبول أو الرد،بل وحتى الإنكار عليه هو كذلك، فشأنها كشأن سائر ما يطرح في ذلك المكان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسؤال الكبير الآن: هل الذهاب إلى هذا المكان،وإتْيَانِه، والالتحاق به، أو مجرد الانتساب إليه، ولو بأدنى شيء، **حلال أم حرام؟.**

قطعا كل عاقل، دعك من شخص عنده ولو شيء من الديانة، سيجيب مباشرة، وبلا أدنى تردد، أو فرصة للتفكير، **إن هذا حرام قطعا،** فإن أقل من هذا كفيل بالحكم بالحُرْمَة، فكيف بها مجتمعة؟.

ولكن ليس سرا أن تعلم، أن هذا الإجابة، سوف تنقلب رأسا على عقب، إذا قلت لهم إن هذا المكان: هو الجامعات الموجودة اليوم، وسترى سيلا هائلا، وركاما عظيما جارفا، من المحاولات الجادة، للتبرير والتمرير، والترقيق والترقيع، وفي نهاية المطاف، سيكون القائل بالتحريم، هو مرمى السهام المأفونة، بالتجريم والتجريح،والتشويه، والتنفير والإسقاط، عياذا بالله من اتباع الهوى.

ضرورة تعليم الناشئة الخير والدعاء لهم:

تنبيه: وعلينا لزاما أن نُعَلِّم أبناءنا الخير ونحملهم ونحثهم عليه، وكذلك أن نُبَيِّنَ لهم الشر ونبعدهم عنه ونحذرهم منه، وألا يكون ضلال أحد من أفراد رعيتك بسببك أنت، فإذا انضاف إلى ذلك الدعاء؛ كانت النجاة بحول الله تعالى وتوفيقه وقوته، وفي مواضع من الذكر الحكيم، ترى الدعاء حاضرا وبكثرة للذرية بالصلاح والنجاة في الدين قبل الدنيا، كقوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الظَّالِمِينَ} [البقرة:١٢٤]، وقوله:{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٢٨] ، وقوله:{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: ٣٨] ، وقوله:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [إبراهيم: ٣٥] ، وقوله{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبراهيم: ٤٠] ، وقوله:{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم} [آل عمران: ٣٦] ، وقوله:{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤] ، وقوله: {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [الأحقاف: ١٥].

والآن نعود إلى موضوع التشريعات الجاهلية، فنقول:

واعلم أن التولي عن شرع الله تعالى هو عين الكفر الذي وقع فيه أهل الكتابين من قبلنا، ومن المقطوع به أن كفرهم بالتولي كان من الكفر الأكبر، فليت شعري كيف انقلب في حقنا إلى أصغر؟!!، فتبا لمن هذا فهمه لحق الله تبارك وتعالى، إنها والله لقسمة ضيزى، أن نحكم على أهل الكتاب بالكفر الأكبر إذا تولوا عن التوراة والإنجيل إلى أهواء البشر، حتى إذا تعاطى حكام اليوم نفس هذا التولي، بل وأخبث منه؛ تحول الكفر؛ لأجلهم وللدفاع عنهم، ولدرء الفتنة بهم، وعنهم، تحول إلى كفر أصغر، فيا سبحان الله؟!!.{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر:٤٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في هذه الآيات: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة: ٤٢ - ٤٤].

نعم تأمل قوله تعالى: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، فانظر كيف لما حصل منهم التولي عن حكم الله تعالى؛ شهد الله عليهم بعدم الإيمان، فالله تعالى هنا ينفي عن هؤلاء الإيمان، وكذلك عَمّن فعل مثل فعلهم.

والسؤال الكبير، هل يمكن أن يتحول الكفر الأكبر من جهة نوعه وجنسه إلى أصغر باعتبار اختلاف أجناس المتعاطين له؟!!.

بل يبقى الكفر كفرا وإن تعاطاه جميع الحكام والسلاطين.

وهل القرآن العظيم لا يستحق أن نحكم على من تولى عنه، بالكفر والردة وعدم الإيمان، أم أن ذلك خاص بالتوراة والإنجيل فحسب؟!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهل هذه الآية: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} [المائدة:٦٨]، خاصة بالتوراة والإنجيل؟!، أم أنها عامة في كل كتاب أنزله الله على قوم من عباده؟!.

وإلا فما معنى هذه الآيات إذن؟!:

قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة:٢١٣].

وقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٣-٢٦]، وتأمل كيف هدد بزوال الملك، عمن ينحي شرعه ويتنكب صراط رب العالمين، في حين أن هؤلاء المخذولين المفتونين، يزعمون أن زوال الملك إنما يكون بتطبيق الشرع.

وقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[المائدة: ٤٨-٥٠]، فيا سبحان الله،{فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء:٧٨].

الكلام على أثر ابن عباس وذكر الروايات:

أما احتجاج المرجئة ومن شابههم بحديث ابن عباس (كفر دون كفر) في تفسير الآية {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، وقولهم أن المراد بهذه الآية الكفر الأصغر، فإن هذه من أعظم الظلم والبهتان، ومن أبطل الباطل وذلك من وجوه:

١-ضعف هذا الأثر عن ابن عباس، فقد رواه هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس، وهشام بن حجير ضعفه الإمام أحمد والبخاري ويحيى بن معين، كما أن له وجهاً آخر في الضعف، وهو أن هشاماً خالف من هو أوثق منه، فقد روى عبد الله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال:(هي به كفر، ولكن ليس ككفر بالله وملائكته ورسله)، وعبد الله ابن طاووس أوثق بكثير من هشام بن حجير، ثم إن تفرد هشام بمثل هذه الأصول لا يقبل، فكيف مع وقوع المخالفة لمن هو أوثق منه؟، فالأثر معلول بثلاث علل، فإن قيل إن ابن عباس قال (ليس ككفر بالله وملائكته ورسله)؟، فنقول نعم، كما أن الإيمان شعب ودرجات، فكذلك الكفر والنفاق، ضلالات ودَرَكَات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبعض الكفر أشنع وأغلظ من البعض الآخر، فليس كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، ككفر الذي كفر بالله وملائكته ورسله، ولكن الكل كفار في جهنم خالدين فيها أبداً، إلا إن تابوا إلى الله، واستقاموا على الطريقة؛ فإن الله تواب رحيم.

٢-أنهم نزّلوا واقع ابن عباس على واقعنا؛ فأخذوا حكم ابن عباس الصادر في واقع معين؛ فجعلوه منطبقا على واقعنا المعاش اليوم في الأرض، وليت شعري أي مقارنة بين واقع ابن عباس وواقعنا، ففي زمان ابن عباس كانت السنة فاشية، والحكم بالكتاب والسنة، والجهاد قائم على قدم وساق، وشعائر الدين ظاهرة، ولكن وقعت بعض المظالم والتجاوزات، من بعض الأمراء، ولكن لم يكن في التشريع العام أبدا، إذا لم يكن في زمان الصحابة أحد يضع للناس دستوراً وقوانين وشرائع يحكم بها العباد والبلاد، ولو كان كذلك ما توقف أحد في كفر فاعل ذلك الكفر الأكبر، ولهذا لما وقع هذا التبديل للشرائع، والحكم بها في زمان الطاغوت (جنكز خان) أجمع العلماء على كفره وردته وزندقته، ونقل إجماعهم شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى، والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، ودفع الشرائع وتبديلها كفر بالإجماع، كما نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، فيما نقله ابن تيمية في أوائل كتابه (الصارم المسلول)، ونقل إجماعهم ابن حزم، وهذا الإجماع إجماع صحيح، إذ لم يتوقف أحد من العلماء في تكفير من كان كحالة (جنكز خان)، ومستند هذا الإجماع، ظاهر من دلائل الكتاب والسنة، أما من الكتاب فقد تقدمت كثير من الآيات في ذلك، ومن أظهرها قوله تعالى:{أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}، وهم الآن يسمون مواقع الحكم الطاغوتية الجاهلية باسم (المجلس التشريعي)، ويجعلون له رئيساً ونائباً، فهذا رئيس المجلس التشريعي،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذاك نائب رئيس المجلس التشـريعي!!، لمن يشـرعون؟!!، للعباد والبلاد، فيحكمون في الصباح وينسخون في المساء، ولا يتوقف من كان له أدنى عقل، أو شيء من علم، أن واقع هؤلاء الطواغيت أشبه ما يكون بواقع (جنكز خان)، بل أعظم منه وأشد، وأنه لا تمت له صله بواقع ابن عباس t ، إلا عند الْمُلَفِّقِين والْمُعَذِّرِين، فإن (جنكز خـان) جمـع قومه على الياسق، وهو عبارة عن جملة من أحكام ديـن اليهـود والنصـارى وشيء مـن الإسلام، وواقع هؤلاء اليوم هو كذلك، فهناك القوانين الأمريكية والقوانين البريطانية والإيطالية والفرنسية والهندية، وهناك مجلس الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، والمحـاكم الدولية، وشيء من الإسلام، بهذا يحكم العباد اليوم، فأي مقارنة بين هـذا وواقـع ابـن عباس؟!. {سبحانك هذا بهتان عظيم}.

ولكن المرجئة كما تقدم، أضر على الأمة، من كثير من الطوائف لا كثـرهم الله، فـإذا كان النبي r غير اسم(أبي الحكم) إلى أبي شريح كما تقدم؛ لوجود ملمـح الوصـف في الحكم، فكيف بمن نصب نفسه للعباد مشرعا حاكما بالطاغوت؟!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَقُولَ بِخِلَافِ قَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ لَا سِيَّمَا وَقَدْ صَارَ ذَلِـكَ ذَرِيعَـةً إلَى بِـدَعِ أَهْـلِ الْكَـلَامِ مِـنْ أَهْـلِ الْإِرْجَـاءِ وَغَيْرِهِمْ وَإِلَى ظُهُورِ الْفِسْقِ فَصَارَ ذَلِكَ الْخَطَـأُ الْيَسِـيرُ فِي اللَّفْـظِ سَـبَبًا لِخَطَـأِ عَظِـيمٍ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ فَلِهَذَا عَظُـمَ الْقَـوْلُ فِي ذَمِّ "الْإِرْجَـاءِ" حَتَّـى قَـالَ إبْـرَاهِيمُ النَّخَعِـي: لَفِتْنَتُهُمْ - يَعْنِي الْمُرْجِئَةَ - أَخْوَفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِتْنَةِ الأزارقة. وَقَـالَ الزُّهْـرِيُّ: مَـا أُبْتُدِعَتْ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةٌ أَضَرُّ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ الْإِرْجَاءِ. وَقَالَ الأوزاعي: كَـانَ يَحْيَـى بْـنُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَبِي كَثِيرٍ وقتادة يَقُولَانِ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ الْأَهْوَاءِ أَخْوَفُ عِنْدَهُمْ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ الْإِرْجَاءِ . وَقَالَ شَرِيكٌ الْقَاضِي - وَذَكَرَ الْمُرْجِئَةَ فَقَالَ - :هُمْ أَخْبَثُ قَوْمٍ حَسْبُك بِالرَّافِضَةِ خُبْثًا وَلَكِنَّ الْمُرْجِئَةَ يَكْذِبُونَ عَلَى الله. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: تَرَكَتْ الْمُرْجِئَةُ الْإِسْلَامَ أَرَقَّ مِنْ ثَوْبِ سابري وَقَالَ قتادة: إنَّمَا حَدَثَ الْإِرْجَاءُ بَعْدَ فِتْنَةِ فِرْقَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ. وَسُئِلَ مَيْمُونُ بْنُ مهران عَنْ كَلَامِ "الْمُرْجِئَةِ" فَقَالَ: أَنَا أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ لِذَرٍّ الهمداني: أَلَا تَسْتَحِي مِنْ رَأْيِ أَنْتَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَقَالَ أَيُّوبُ السختياني: أَنَا أَكْبَرُ مِنْ دِينِ الْمُرْجِئَةِ إنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْإِرْجَاءِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يُقَالُ لَهُ: الْحَسَنُ. وَقَالَ زاذان: أَتَيْنَا الْحَسَنَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَقُلْنَا: مَا هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي وَضَعْت؟ وَكَانَ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ كِتَابَ الْمُرْجِئَةِ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا عُمَر لَوَدِدْت أَنِّي كُنْت مُتّ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ هَذَا الْكِتَابَ أَوْ أَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ فَإِنَّ الْخَطَأَ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ لَيْسَ كَالْخَطَأِ فِي اسْمِ مُحَدِّثٍ؛ وَلَا كَالْخَطَأِ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ إذْ كانت أَحْكَامُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مُتَعَلِّقَةً بِاسْمِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ]ا.هـ.

قلت: وقد سماهم بعض السلف بيهود هذه الأمة، وهو منسوب إلى سعيد بن جبير.

وقد تقدم أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر من ثلاثة وجوه:

١-من جهة كونه نحى الشرع المنزل فهذا كفر مستقل.

٢-من جهة كونه استعاض عنه بالشرع المبدل وهذا كفر مستقل.

٣-تطبيق وتنزيل الشرع المبدل في دنيا الواقع وهذا كفر مستقل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكيف بمن اجتمعت فيه هذه الكفريات الثلاث؟، لا شك أنه من أغلظ الناس كفراً، وإن كثرت صلاته وصيامه وصدقاته وعمارته للمساجد وزخرفتها، كما قال تعالى: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة:١٩]؛ ولهذا فلاشك في كفر وردة من ترك أوامر الرسول r، وطبق عوضاً عنها زُبَالَات الأذهان وحُثَالَات الأفكار.

وجاء في فتاوى نور على الدرب - لابن عثيمين :[يقول السائل: هل يعتبر التحاكم إلى غير شرع الله كفراً مع العلم بأنه يعتقد اعتقاداً منافياً للشك بأن أحكام الشريعة الإسلامية هي أفضل من الأحكام الوضعية؟ نرجو بهذا التوجيه مأجورين.

فأجاب رحمه الله تعالى: الجواب على هذا السؤال يتبين بالآتي: أولاً: أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته، خلق الجن والإنس ليعبدوه، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}. وعبادة الله سبحانه وتعالى هي التذلل له حباً وتعظيماً بإقامة شرائعه القلبية واللفظية والعملية. ثانياً: يقول الله عز وجل: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ}. فلا حاكم بين العباد إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يحل لأحد أن يفصل هذه القضية عما وجهنا الله فيه نحوها: وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله لا إلى غيره. ثالثاً: يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِّ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}. فتأمل هذه الآية الكريمة تجد أن طاعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولاة الأمور تابعة لطاعة الله ورسوله وليست مستقلة، ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} ولم يقل: أطيعوا أولي، الأمر وهذا يدل دلالة ظاهرة على أن طاعة ولاة الأمور تابعة لطاعة الله ولا يمكن أن تكون مستقلة، كما أن الله تعالى يقول: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}. لم يقل: ردوه إلى القانون الفلاني أو القانون الفلاني أو الرأي الفلاني أو النظرية الفلانية أو ما أشبه ذلك، بل لا مرد إلا إلى الله ورسوله، إلى الله إلى كتابه وإلى رسوله إلى سنته r، فإن كان حياً فإليه نفسه، وإن كان ميتاً فإلى ما حفظ من سنته r.

رابعاً: قال تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}. فأقسم الله سبحانه وتعالى بربوبيته لرسوله محمد r، وهي ربوبيةٌ خاصة لا تساويها أي ربوبية بالنسبة للعباد؛ لأنه كلما كان الإنسان أعبد لله كانت ربوبية الله له أخص، ومن المعلوم أن نبينا محمداً r أعبد الناس لله، وعلى هذا فإن الله أقسم بهذه الربوبية الخاصة المضافة إلى رسول الله r أنه لا يؤمن أحد إلا بهذه الشروط: الشرط الأول: {حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} لا يحكموا غيرك. الشرط الثاني: {ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ} بل تتسع صدورهم لذلك وتنشرح صدورهم به، فلا يجدوا حرجاً وضيقاً مما قضيت. والثالث: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} ينقادوا انقياداً تاماً، وبهذا أكد الفعل بالمصدر بقوله: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} إذا عرفت هذه الأمور الأربعة تبين لك أن خروج الإنسان عن التحاكم إلى الله ورسوله خلاف ما خلق الله العباد من أجله، وخلاف ما أرشد الله أن يكون التحاكم إليه، وخلاف ما جعل الله تعالى لولاة الأمور من الطاعة، وخلاف تحكيم الرسول عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصلاة والسلام؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}]ا.هـ.

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه بإسنادين مقبولين في التفسير، قال: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: {أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}، قَالَ: كَانَ مُجَاهِدٌ يَقُولُ: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ r، وَرُبَّمَا قَالَ: أُولُو الْعَقْلِ وَالْفِقْهِ فِي دِينِ الله.

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: حدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: الْعُلَمَاءُ. انتهى.

شبهة متهالكة ودحضها:

تنبيه مهم: يورد بعض المخالفين شبهة، وهي قولهم: إن ابن جرير ذكر قول ابن عباس:(هي به كفر، ولكن ليس ككفر بالله وملائكته ورسله)، تحت من قال بأن آية المائدة في المراد بها (كفر دون كفر).

والجواب على هذه الشبة المتهالكة، أن ابن جرير نقل عن ابن عباس قولين، هذا أحدهما، وأما الثاني، فقوله:[وقال آخرون: معنى ذلك: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به. فأما"الظلم" و"الفسق"، فهو للمقرِّ به.

ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله:"ومن لم يحكم بما أنزل الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأولئك هم الكافرون"، قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسقٌ]ا.هـ. واختار هذا القول ابن جرير كما سيأتي بيانه.

وللمعلومية، فإن ابن عباس t جاء عنه في هذه الآية عدة أقوال وهي: (هي به كفر) (هي به كفر، ولكن ليس ككفر بالله وملائكته ورسله) (من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسقٌ)، وقوله:(كفر دون كفر) وهو أضعفها إسنادا.

والمبطلون يوهمون الناس بأن ابن عباس ليس له سوى قول واحد في تفسير آية المائدة، وهو قوله:(كفر دون كفر)، ويجعلون تفسيره للآية هو التفسير الوحيد لها، ويَتَعَامَونَ عن أقواله الأخرى في نفس الآية، وعن أقوال الصحابة الآخرين في هذه الآية، وهذا من أبرز علامات اتباع الهوى، ورفض الهدى، عياذا بالله من الخذلان.

وهذا التنوع في تفسير الآية عن ابن عباس t ، هو من اختلاف التنوع لا التضاد، وذلك لأن أحوال العباد مع الحكم بغير ما أنزل الله على أنواع، فلكل مقام مقاله المناسب له.

فابن عباس t ، أثبت أن الحكم بغير ما أنزل الله يكون كفرا أكبر، وذلك عندما يقع الجحود، والذي هو التبديل للشرع، وهو ما وقع من بني إسرائيل في سياق قصة الرجم والتحميم.

ومما يجب أن يُعلم أنه لا فرق في ذلك بين المسألة والمسألتين، بمعنى أن من شرّع للعباد، ولو في مسألة واحدة، بحيث صارت هي الدستور المعمول به بين كل العباد،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأصل المُتَحَاكَمُ إليه عند التنازع (التشريع العام)، لكان ذلك كفرا بالله تعالى الكفر الأكبر، بخلاف الذي شرعه هو الكتاب والسنة، وهو المعمول به والمحكوم به، ولكن في مسألة خاصة اتبع الهوى، وخالف الشرع، ولكنه لم يبدل أصل التشريع، فإذا سألته مثلاً ما حكم السارق عندكم؟، قال:إذا توفرت فيه الشروط وانتفت الموانع فحده القطع، ولكن ربما تغاضى عن حبيب أو قريب فلم يقم عليه الحد، وأمره بالانصراف، ونحو ذلك، فهذا كفر دون كفر عند جماهير السلف والخلف.

إذاً نفرق بين من اتبع الهوى، مع ثبوت أصل التشريع عنده، وهو عامل به، لكن غلبته نفسه في قضية معينة؛ فحاد عن حكم الله تعالى؛ فهذا من العصاة، أما المبدل، فهذا كافر كفرا أكبر، وإن لم يحكم به.

ومما يبين ذلك سبب نزول قوله تعالى:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، فإن اليهود لما رأوا الزنا قد فشا فيهم، لا سيما في أشرافهم، قالوا كيف نرجم أشرافنا؟، فهلموا إلى شيء نتفق عليه نمضيه على شريفنا ووضيعنا، فجعلوا على من زنا، وهو محصن جلد مائة، وتغريب عام، فصيروا ذلك شرعاً بينهم، بدلاً عن الرجم للمحصن، مع ثبوت الآية في كتابهم، فإنهم لم يمحوها من كتابهم، بل أبقوها رسما فقط، ووضعوا من عندهم شرعا آخر، يتوافق مع واقعهم وهواهم، فأنزل الله تعالى:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، فوقع التبديل في هذه المسألة الواحدة، ومع ذلك حكم الله عليهم بالكفر، وهذا من أظهر مسائل الدين، ومن أوضح الواضحات؛ لولا إرجاف المرجئة، لا كثرهم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أعظم المفارقات بين ما كانت عليه الأمة في ماضيها، وما آلت إليه في حاضرها، أن السابقين كان يختلفون ويتنازعون في من الذي يحكم؟، وأما اليوم فالتنازع في بماذا نحكم، فيا لله العجب.

كانوا في ما مضى المحكوم به مفروغ منه، إنه الكتاب والسنة عل كل حال، لا عوض ولا استبدال، أما اليوم فالاختيار واقع في المحكوم به، والشعب هو الإله الجديد الذي عُبِدَ في هذا الزمان، إذ هو الذي يختار، وليس رب العزة والجلال، والشعب هو الذي يحكم بما يشتهي، والشرع مطالب أن يكون مِطْوَاعا للشعب، يميل حيث مالوا، ويقف حيث وقفوا، فرحماك اللهم بنا من هذا الكفر الصراح البواح، والردة الظاهرة عن الإسلام.

الجحود في كلام ابن جرير ليس عملا قلبيا:

فصل: طامة أورثت فسادا عريضا، وذلك بعدم فهمهم لمعنى الجحود، الذي قرره ابن جرير الطبري على آية المائدة، وكذلك في كلام السمعاني عليها، ودعواهم أن ابن جرير اختار قول: (كفر دون كفر).

إن كثيرا ممن تكلموا في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله والتشريع العام، يستدلون ويدندنون كثيراً، على قول ابن جرير رحمه الله، وكلامه على آية المائدة، ويزعمون أن ابن جرير علق الحكم على الجحود القلبي فقط، وعليه فكفر الحاكم بغير ما أنزل الله تشريعا عاما، مقتصر فقط على عمل القلب، وهو الجحود في هذا المقام في فهمهم، فتراهم يولولون دائما ويدندنون بقولهم (إلا إن جحد)، ويقصدون عمل القلب، والمعنى مهما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعل في الظاهر فهو كفر دون كفر إلا إن جحد أي بقلبه، ثم يضيفون أمورا أخرى، فيقولون أو جوز أو استحل، أو ساوى أو فضل ونحو ذلك، وفي نهاية المطاف فكفر المشرع والمبدل لدين الله تعالى عندهم، لا يكون إلا بعمل قلبي، وإلا فالتشريع من دون الله تعالى، والتبديل لأحكام الله تعالى عندهم، لا يعدو أن يكون كفرا أصغر، عياذا بالله من الخلان وسوء الفهم لحقائق الشرع، وهؤلاء في حقيقة الأمر، لم يفهموا كلام ابن جرير رحمه الله تعالى، بل ولا حتى السمعاني، بل ولا حتى كلام ابن عباس t الثابت عنه في هذه الآية، وما الذي فهمه ابن جرير من كلام ابن عباس، حتى ظنوا أن كلام ابن جرير يوافق بدعتهم، ويصب في مصب هواهم، وهذا باطل قطعا، ولا علاقة له بالحق.

وإليك بيان حقيقة قول الإمام ابن جرير في قضية الجحود، التي دندنوا عليها كثيراً، وأوهموا السامعين بأن مراد ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى من الجحود، أنه يقصد الجحود القلبي، وهذا الكلام ليس بصحيح أصلا، وببيان كلام ابن جرير - أظن والله أعلم- أنه سينهدم حظ كبير من الإجحاف الجاري في الساحة، وينكشف ذلك الخطأ الكبير، الذي بنى عليه هؤلاء هذه العقيدة الفاسدة، فيما يتعلق بهذه المسألة الخطيرة، أعني قضية التشريع العام؛ ولهذا سأذكر ذلك بشيء من التفصيل والبيان، فأقول مستعينا بالله العلي العظيم:

إن ابن جرير رحمه الله لم ينقل -في أثناء كلامه على آية المائدة: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} -ولم يذكر لا عنه ولا عن أحد من الصحابة **مسألة القلب**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مطلقاً، أو بعبارة أخرى لم يذكر فيها الاعتقاد مطلقاً، ولم ينقل هذا لا عن الصحابة ولا عن أحد من التابعين، وهذا تراه واضحا جليا، فلا تجد فيما نقله عن الصحابة ولا التابعين ذكرا للاعتقاد أبداً.

إن هذه المسألة لابد أن تكون حاضرة في الذهن تماماً، وهي أن ابن جرير لم يلتفت أثناء بيان حكم هؤلاء المبدلين لشرع الله إلى عمل الباطن مطلقا، وإنما عول وأبدى وأعاد على ما فعله أهل الكتاب بظاهر حالهم.

ولنبدأ بكلام ابن جرير رحمه الله كما هو في تفسيره الذي يعتبر عمدة من عمد التفسير عند أهل السنة والجماعة، بل أطلق عليه اسم (إمام المفسرين).

[قال أبو جعفر:يقول تعالى ذكره:إنا أنزلنا التوراة فيها بيان ما سألك هؤلاء اليهود عنه من حكم الزانيين المحصنين {ونور} يقول:فيها جلاء ما أظلم عليهم وضياء ما التبس من الحكم {يحكم بها النبيون الذين أسلموا} يقول:يحكم بحكم التوراة في ذلك أي:فيما احتكموا إلى النبي r فيه من أمر الزانيين {النبيون الذين أسلموا} وهم الذين أذعنوا لحكم الله وأقروا به، وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك نبينا محمدا r في حكمه على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم وفي تسويته بين دم قتلى النضير وقريظة في القصاص والدية ومن قبل محمد من الأنبياء يحكم بما فيها من حكم الله..... إلى أن قال: قال أبو جعفر:يقول تعالى ذكره:ومن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكما بين عباده فأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبية والتحميم وكتمانهم الرجم وكقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية وفي الأشراف بالقصاص وفي الأدنياء بالدية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سوى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة {فأولئك هم الكافرون} يقول : هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه و {هم الكافرون} يقول:هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه، وقد اختلف أهل التأويل في تأويل الكفر في هذا الموضع:.....].ا.هـ.

وهنا سؤالان كبيران مُلِحَّان يَجِبُ الإجابة عليهما في سياق هذه القصة وكلام ابن جرير عليها:

الأول:ما الذي أظهره هؤلاء؟. أليس هو تبديل الشرع، والحكم بغير ما أنزل الله، وتأمل عبارة ابن جرير:[هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه و {هم الكافرون} يقول: هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه].

الثاني: ما الذي في قلوبهم؟، أليس هو الاستيقان بمعرفتهم الحق، ثم تعمدهم كتمانه، والعمل على تبديله، والحكم بالشرع المبدل، وتأمل في قول ابن جرير:[ومن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكما بين عباده فأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبية والتحميم وكتمانهم الرجم وكقضائهم في بعض

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية وفي الأشراف بالقصاص وفي الأدنياء بالدية وقد سوى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة {فأولئك هم الكافرون}].

وتأمل في هذا الحديث المخرج في الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله r فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله r :"ما تجدون في التوراة في شأن الرجم". فقالوا نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله r فرجما قال عبد الله فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة.

فالحديث واضح جدا في أن هؤلاء، بل وجميع أهل الكتاب، كانوا يعلمون علم اليقين حكم الله في هذه المسألة، وقد أيقنت نفوسهم، أن هذا هو حكم الله تعالى في الزاني المحصن، فعمدوا إلى تبديله؛ فوقعوا في الشرك والكفر الأكبر، بما ظهر من فعلهم.

فكيف يحملون كلام ابن جرير إذاً على العمل الباطن، لاشك أن هذا من الفهم السقيم، والخطأ الواضح البين على كلام الأئمة.

فانتبه بالله عليك لتفهم كلام ابن جرير، على وجهه، فإنه يُفَتِّحُ لك أمورا.

فابن جرير هنا يبين ويقرر أن الذي في قلوبهم، هو مخالف لما أظهروه، فهم موقنون بصدق النبي r ، وموقنون بأن هذا هو الشرع الصحيح، وموقنون بأن هذا هو حكم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله تعالى في هذه المسألة، إذاً هذا هو ما يتعلق بالقلب، وعليه فابن جرير إذاً الآن يتكلم عن ما ظهر منهم من عمل، وعليه فإن ابن جرير هنا يحكم بالكفر على ماذا؟.

الجواب الذي لا محيد عنه، أنه قطعا قد أطلق الحكم على ما ظهر من حالهم، فما أتوه هو عند ابن جرير من الكفر الأكبر في ذاته وأصله، إذا هو يحكم بالكفر على ما ظهر منهم.

وإلا فهل يتصور أن نقول: إن ابن جرير يتكلم عن عمل الباطن؟!!؛ وعليه فإنهم كفار؛ لأنهم أيقنوا بالحق أنه مع محمد r ، وأنهم كفار؛ لأنهم أيقنوا أن الحكم في هذه المسألة، هو أن يرجم الزاني المحصن؟!!!.

هذا لا يقوله عالم بل لا يقوله مسلم أصلاً، لأن هذا من الشهادة على الإيمان بالكفر والعياذ بالله، ولكنه لازم قول من لم يفهم كلام ابن جرير، حيث حَمَلَه على هواه ومراده، وأوهم أن ابن جرير يتكلم عن قلوبهم، لا على ما ظهر من حالهم؟!!!.

إذاً قطعا ابن جرير رحمه الله تعالى هنا يحكم على ما ظهر من أفعال هؤلاء.

ثم قال: وقد اختلف أهل التأويل في تأويل الكفر في هذا الموضع فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك من أنه عني به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا حكمه ذكر من قال ذلك.....ا.هـ.

إذاً هو يتكلم عن الفعل الذي فعله اليهود، وهذا هو الشيء الظاهر الذي جرى عليه الحكم في هذه الآية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهل تعرض ابن جرير للقلب هنا عند إطلاقه حكم الكفر على هؤلاء؟!!، أم أن هذا لم يقع في كلام ابن جرير أصلا؟!!، بخلاف ما أوهمه هؤلاء، من أن المسألة متعلقة بالقلب، من جهة إطلاق الحكم عليهم.

كما أن ابن جرير لما نقل هذه الأقوال عن السلف، لم ينقل عن أحد منهم، تعليق الحكم على الاستحلال القلبي، ولم يذكر عن أحد منهم، أن هذا هو اعتقاد القوم، ونحو ذلك، فتنبه وتفطن لهذا المسألة، فقد زلت فيها أقدام.

ولننتقل الآن إلى ما ذكره ابن جرير في مؤخر كلامه، والذي هو موافق تماما لما ذكره في أول كلامه.

[قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت وهم المعنيون بها وهذه الآيات سياق الخبر عنهم فكونها خبرا عنهم أولى فإن قال قائل:فإن الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصا؟. قيل:إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به هو بالله كافر كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والآن تأمل في قوله:[فإن قال قائل:فإن الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصا؟]. تجد أن هذه هي نفس الشبهة التي وقع فيها كثير من الناس، وهي قضية التفصيل في مسألة الحكم، متى تكون كفرا أكبر ومتى تكون دون ذلك.

قال رحمه الله:[إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به هو بالله كافر].

فابن جرير يقرر أن الله سبحانه وتعالى، حكم على هؤلاء بالكفر؛ لأنهم كانوا جاحدين لحكم الله تبارك وتعالى، وقد علمنا يقيناً من حادثة التَّحْمِيم المشهورة المذكورة آنفا، أن هؤلاء القوم كانوا يعلمون حكم الله، إذاً المعرفة والعلم موجود في القلب، وهم مصدقون بذلك، وموقنون بأن هذا هو حكم الله تبارك وتعالى، ومع وجود هذا كله؛ حكم الله عليهم بالكفر، والكفر هنا بالاتفاق في حق هؤلاء اليهود والنصارى، هو الكفر الأكبر.

وعليه فابن جرير رحمه الله يبين أن الآيات تتكلم عن كفر هؤلاء بما فعلوه وما عملوا به في ظاهر حالهم.

معنى الجحود في الكتاب والسنة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والآن ننتقل إلى مسألة مهمة جداً متعلقة بهذه القضية، وهي قضية معنى الجحود في الكتاب والسنة واللغة، لكي نقرر المسألة في أصلها عموما.

فنقول: هذه الكلمة وردت بمشتقاتها ثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم، وأنت إذا تأملت فيها؛ وجدت أنها متعلقة بأعمال الظاهر، كقوله تعالى:{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِّ يَجْحَدُونَ} [الأنعام:٣٣]، ففي هذه الآية شهادة من الله على أن القلوب غير مكذبة إذاً في القلب تصديق، وأما الجحود فقد وقع بظاهر فعلهم.

وكقوله تعالى:{الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}[الأعراف:٥١]، فسمى اتخاذهم الدين لهوا ولعبا واغترارهم بالحياة الدنيا جحودا وهذا عمل ظاهري، وكذلك في قوله تعالى:{وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللهِّ يَجْحَدُونَ}[النحل:٧١]، فهؤلاء يعرفون أن هذه النعم من الله، ولكنهم ينسبونها إلى غير الله تعالى، ويشكرون غير الله تعالى، وهذا هو الجحود، وهو هنا أيضا معاملة ظاهرية؛ ولهذا قال تعالى بعد أن عد سبحانه وتعالى جملة من آياته ونعمه، قال سبحانه:{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِّ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}[النحل:٨٣].

ومن أظهر النصوص في هذا المقام قوله تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[النمل:١٤]، فلاحظ كيف أن القلب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستيقن، ولم يقل (وأيقنتها أنفسهم) بل زاد حرف السين فقال سبحانه:{وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}، وزيادة المبنى تفيد زيادة في المعنى، ومع ذلك سماهم جاحدين، وذلك لأن الجحود من متعلقات الظاهر، هذا هو الأصل.

فهذه الآيات وغيرها كثير كلها، دالة على أن هؤلاء يعرفون الحق، ويعرفون آيات الله، لكنهم ماذا يفعلون؟ يردونها ويعرضون عنها، ويستكبرون عن الانقياد لها، فمعرفة الحق حاصلة في القلب، ولكنهم يعمدون إلى جحوده في ظاهر حالهم، ومن هنا نعلم يقينا أن الجحود، الأصل فيه أنه عمل ظاهري، ولا يقال قلبي إلا بقرينة.

ولنذكر الآن حديثين للتمثيل لا للحصر، إشارة إلى غيرهما من الأحاديث المتعلقة بذلك، الدالة على أن الجحود الأصل فيه أعمال الظاهر لا الباطن: فمن ذلك حديث عبد الله بن مسعود في الصحيحين واللفظ للبخاري قال: قال رسول الله r :"من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان". قال فقال الأشعث في والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض **فجحدني** فقدمته إلى النبي r فقال لي رسول الله r :"ألك بينة". قلت لا قال فقال لليهودي:"احلف". قال قلت: يا رسول الله إذا يحلف ويذهب بمالي فأنزل الله تعالى {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا} إلى آخر الآية.

مثال آخر في صحيح مسلم من حديث عائشة قالت كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع **وتجحده** فأمر النبي r أن تقطع يدها.....الحديث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذان الخبران دالان وبكل جلاء ووضوح، على أن الجحود هنا، عمل وقع في الظاهر لا في الباطن؛ لأن كلا من اليهودي والمخزومية، كلاهما، يعلمان يقينا بقلوبهم، أن ما ادعوه لأنفسهم، ليس حقا لهم، لكنهما جحدوه في ظاهر حالهم، مع علمهم أن الأمر بخلاف ذلك حقيقة.

الجحود لغة: والآن فلنقرأ بعض ما قاله علماء اللغة في معنى الجحود:

جاء في كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي:[جحد :الجُحُود : ضدُّ الإقرار كالإنكار والمعرفة]. وقال أيضا:[والكُفْرُ أربعةُ أنحاء: كُفْرُ الجُحُود مع معرفة القلب كقوله عزّ وجل:{وجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهم} ، وكُفْرُ المعاندة : وهو أن يَعْرِفَ بقلبه ويأبَى بلسانه، وكُفْرُ النِّفاق : وهو أن يؤمَن بلسانه والقلبُ كافر، وكُفْرُ الإِنكار : وهو كُفْرُ القَلْبِ واللِّسان]ا.هـ.

وجاء في لسان العرب (جزء ٣ - صفحة ١٠٦):[الجَحْدُ والجُحُود نقيض الإِقرار كالإِنكار والمعرفة جَحَدَهُ يَجْحَدُه جَحْداً وجُحوداً الجوهري الجُحودُ الإِنكار مع العلم جَحَدَه حقَّه وبحقه]ا.هـ.

وفيه أيضا :(جزء ٥ - صفحة ١٤٤):[(كفر) الكُفْرُ نقيض الإِيمان آمنَّا بالله وكَفَرْنا بالطاغوت كَفَرَ يَكْفُر كُفْراً وكُفُوراً وكُفْراناً ويقال لأَهل دار الحرب قد كَفَرُوا أَي عَصَوْا وامتنعوا والكُفْرُ كُفْرُ النعمة وهو نقيض الشكر والكُفْرُ جُحود النعمة وهو ضِدُّ الشكر وقوله تعالى:{إِنا بكلٍّ كافرون} أَي جاحدون وكَفَرَ نَعْمَةَ الله يَكْفُرها كُفُوراً وكُفْراناً وكَفَر بها جَحَدَها وسَتَرها وكافَرَه حَقَّه جَحَدَه ورجل مُكَفَّر مجحود النعمة مع إِحسانه ورجل كافر جاحد لأَنْعُمِ الله مشتق من السَّتْر وقيل لأَنه مُغَطًّى على قلبه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وربما فسر الإنكار بالجحود، كما في لسان العرب (جزء ٥ - صفحة ٢٣٢):[والإِنْكارُ الجُحُودُ]ا.هـ.

وجاء في تاج العروس (جزء ١ - صفحة ٣٤٥٩):[قال بعض أهل العلم : الكُفْر على أَربعةِ أَنحاءٍ : كُفْرُ إنكارٍ بأَن لا يعرفَ اللهَ أَصلاً ولا يعترف به وكُفرُ جُحود وكُفر مُعانَدَة وكُفرُ نفاق من لقيَ ربَّهُ بشيءٍ من ذلك لم يَغْفِرْ له ويغفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ . فأَما كُفرُ الإنكار فهو أَنْ يكفُرَ بقلبه ولِسانِه ولا يعرف ما يُذْكَر له من التَّوحيد وأما كُفرُ الجُحود فأَن يعترفَ بقلبه ولا يُقِرّ بلسانه فهذا كافرٌ جاحدٌ ككُفْرِ إبليسَ وكُفْرِ أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلت. وأما كُفرُ المُعانَدَة فهو أن يعرفَ اللهَ بقلبه ويقرّ بلسانه ولا يدين به حَسداً وبَغياً ككُفر أبي جَهلٍ وأَضرابه. وفي التهذيب: يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أَنْ يَقْبَلَ كأَبي طالب حيث يقول:

ولَقَدْ عَلِمْتُ بأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خيرِ أَديان البَرِيَّة دِينا
لولا المَلامَةُ أَو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحاً بذاكَ مُبينا

وأما كُفْرُ النِّفاق فأن يُقرّ بلسانه ويكفر بقلبِه ولا يعتقد بقلبه]ا.هـ.

وفيه أيضا:[وقَوْلُهُ تَعالى:{وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وأَنتَ من الكافرين} أي تَحَرَّيْتَ كُفرانَ نِعمتي. ولما كان الكُفران جُحودَ النِّعْمَة صار يُستعمَلُ في الجُحود. {ولا تَكونُوا أَوَّلَ كافِرٍ به} أي جاحِد وساتِر]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في مختار الصحاح:[جحد:ج ح د: الجُحُودُ الإنكار مع العلم يقال جَحَدَهُ حقه وجحده بحقه وبابه قطع وخضع و الجَحْدُ قلة الخير]ا.هـ.

وجاء في كتاب التعاريف:[فصل الحاء:الجحد إنكار ما سبق له وجود وهو خلاف النفي إذ هو إنكار نفس وجود المدعي وقال الراغب الجحود نفي ما في القلب ثباته أو إثبات ما في القلب نفيه]ا.هـ.

فنلاحظ أن الأصل في إطلاق لفظ الجحود في اللغة، أنه على ما يظهره الإنسان مخالفا لما يبطنه، فجعل الجحود من أعمال القلوب، وإيهام الناس بأنه هو الأصل، هو منكر من القول وزور وبهتان، وهو قول مخالف للكتاب والسنة ولغة العرب.

من هذه المقدمة يتبين لنا، معنى كلام ابن جرير رحمه الله تعالى، فلنرجع لنقرأ كلام ابن جرير على هذا الفهم الصحيح، بأن الجحود الذي ظهر من هؤلاء، ليس عملاً قلبياً، كما يزعم هؤلاء، وإنما هو إطلاق حكم، وقع على ما ظهر منهم من عمل؛ فجاء الحكم بالكفر بناءً على هذا العمل، الذي في الظاهر، وهكذا جاء الحكم من الله عز وجل على هؤلاء.

إذاً ابن جرير رحمه الله تعالى، لم يربط أبداً كفر هؤلاء بالقلب مطلقا، فَزَعْمُ المرجئة ومن اغتر بهم من أهل السنة، أن ابن جرير كفّر هؤلاء بالجحود القلبي، هو باطل قطعا، وسوء فهم بَيِّن لكلام ابن جرير، ولتعامل السلف مع هذه الكلمة، وهذه المسألة.

المعنى الصحيح لكلام السمعاني:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك القول بالنسبة لكلام الإمام السمعاني كما سيأتي. وهذا حقيقة من العجب الذي وقعوا فيه، وأعجب منه فهمهم لكلام ابن جرير عندما قال:[يقول إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر كما قال ابن عباس قال لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه بأنه أنزله في كتابه نظير جحوده لنبوة نبيه بعد علمه أنه نبي]ا.هـ..

فانظر في هذه الفقرة الأخيرة التي لو تنبهوا لها لزال الإشكال!!، وذلك في قوله:(بعد علمه)، إذاً العلم القلبي موجود، واليقين بالحكم حاصل في القلب، وإنما وقعوا في الجحود، الذي هو ما فعلوه في ظاهر حالهم، المتمثل في رد حكم الله تعالى، وتبديله، والتواطؤ على الحكم بما اصطلحوا عليه، وحمل الناس عليه. وهذا عين ما يفعله طواغيت التشريعات الجاهلية، في كل زمان ومكان إلى زماننا هذا، بل هو اليوم أشد وضوحا وأظهر حالا.

فالذي يهمني من هذا التقرير هنا، أن يتراجع هؤلاء، عن نسبة هذا القول لابن جرير، وعن زعمهم أنه يكفر في هذا المقام بالجحد القلبي، إذ هو لم يزل من أول كلامه إلى آخره، يثبت أن هؤلاء بقلوبهم كانوا مؤمنين[1]، يعلمون

١ - كما قال تعالى:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [يوسف:١٠٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحق، وهم مستيقنون به، ولكن وقع الجحد منهم في الظاهر؛ فكفروا بهذا الظاهر.

فهو لم يعلق الحكم على القلب مطلقاً، لكن هؤلاء لما لم يفهموا من الجحود إلا أن يكون عملا قلبيا؛ جعلوه قولا لابن جرير، وبنوا عليه قولهم، وأسسوا عليه عقيدة فاسدة، وهذه إشكالية من يعتقد ثم يبحث ويستدل.

وأقول: ربما ورد الجحود في إطلاقات بعض أهل العلم، على أنه من عمل القلب، ولكن هذا المعنى ليس هو الأصل، ولا الغالب في استعمال الجحود، كما ذكرنا في النصوص المتقدمة، وهو كذلك لا محل له في كلام ابن جرير الطبري، ولا كلام السمعاني، وهذا هو الذي يهمنا في هذا المقام، كما سيأتي معنا بإذن الله جل وعلا.

الفهم الصحيح لكلام ابن جرير:

والآن ننتقل إلى كلام مهم وخطير، وهو الفهم الصحيح لما نقله ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، فالمؤلف نقل عنه قولين وليس منهما قول (كفر دون كفر)، إنه فلم ينقله عن ابن عباس أبدا في هذا الموضع، وإليك بيان ذلك:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القول الأول:[حدثنا هناد قال حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن معمر بن راشد عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال:هي به كفر وليس كفرا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

حدثني الحسن قال حدثنا أبو أسامة عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال:قال رجل لابن عباس في هذه الآيات:{ومن لم يحكم بما أنزل الله} فمن فعل هذا فقد كفر؟ قال ابن عباس:إذا فعل ذلك فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وبكذا وكذا.

حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال:سئل ابن عباس عن قوله:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال هي به كفر]ا.هـ.

وأما القول الثاني، فهو قوله:[حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أَقَرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق]ا.هـ.

قوله:[ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق]، معناه أن الشرع هو السائد، وله الهيمنة، وإليه الاحتكام عند التنازع، هذا هو معنى الإقرار، كما سيأتي مَعَنَا في بيان معنى الإقرار من كلام الأئمة، وعليه فالمراد هنا قضية الترك العارض، مع استقرار الشرع،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا ما بينته مرارا وتكرارا في كتابي (فتنة العصر التشريع)، ولهذا قلت كثيرا: إن ابن عباس t قوله لا يخالف قول غيره من الصحابة y، في مسألة الحكم عندما يكون تشريعا عاما، بل كلامهم متسق متناسق يصب في مصب واحد، إذ هو من مشكاة واحدة.

وأما طريق هشام بن حجير، التي نقل فيها هشام قول (كفر دون كفر)، فلم يذكرها ابن جرير، وهي على كل حال ضعيفة، لضعف هشام بن حجير عند الجمهور، كما تقدم؛ وعليه فاللفظ المحفوظ عن ابن عباس قوله:[هي به كفر.....] و [من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أَقَرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق].

وهذا القول الأخير هو الذي اعتمده ابن جرير، وهو الموافق لما كان عليه أهل الكتاب، من تبديلهم للشرع، والمعنى أن من بدل الشرع وجعله تشريعا عاما فقد وقع في الجحود، كما فعل أهل الكتاب، ومن أقر بالشرع أي أثبته والتزمه وعمله به، ثم لم يحكم بما أنزل الله - مع استقرار الشرع - لهوى فهذا ظالم فاسق.

وأما معنى (كفر دون الكفر)، الذي جاء عن بعض السلف، كطاووس وعطاء، فهو معنى كلام أبي مجلز الذي سيأتي بيانه، وأن المقصود من ذلك، أن يكون الشرع مستقرا معمولا به، وله الهيمنة والسلطان على الدولة، ثم تقع حيدة من الحاكم، اتباعا لهواه، وهذا هو الترك العارض، الذي بينه أبو مجلز كما سيأتي، فهذا الذي يقال فيه كفر دون كفر، وأما التشريع العام، فهو بالإجماع من الشرك والكفر الأكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد نقلت في كتابي (فتنة العصر التشريع) جمعا غفيرا هائلا من المنقولات، مفصلة ومبينة هذه المسألة، وتقرير الإجماع على كفر، صاحب التشريع العام، وأنه لا خلاف في ذلك البتة، فليراجع في الكتاب.

لا تعارض في كلام السلف في تفسير آية المائدة:

وبهذا نعلم أنه ليس هناك تعارض في كلام السلف، بين من فسر الآية بالكفر الأكبر، ومن قال إنها تكون في الكفر دون كفر، أي بحسب الحال والواقع.

فأعود لأقول:إذاً معنى الجحود في كلام ابن جرير، قد بات واضحا، أنه إنما يتكلم عما وقع من أهل الكتاب، من التبديل لشرع الله عز وجل، وما تواطئوا عليه من ذلك، وتأمل قوله:[{فأولئك هم الكافرون} يقول:هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه و{هم الكافرون} يقول:هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه].

فهم إذا ستروا الحق، الذي كانوا يعلمونه، وهم موقنون به، وأن الذي في التوراة، هو غير الذي يطبقونه، ويعملون به، فلم يُغْنِ عنهم ذلك العلم، ولا ذلك اليقين شيئا، لما بدلوا شرع الله، بل صاروا بذلك كفارا، مارقين عن الدين؛ ولهذا قال ابن جرير:[وأظهروا لهم غيره، وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه]، فالتبديل والحكم بغير شرع الله جل وعلا، كله من الفعل الظاهر، فوقع الحكم على ما ظهر، ولم يُغن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنهم ما في قلوبهم، وهذا كقوله تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

والسحت الذي ذكره ابن جرير هنا، يفسر لنا معنى ما جاء عن ابن مسعود t ، في معنى الرشوة في الحكم، وأنه ما يؤخذ في مقابلة تبديل الشرائع، وهناك تكون الرشوة في الحكم كفرا أكبر، وهذا الذي وقع فيه بنو إسرائيل، فصاروا بذلك كفارا مشركين، الكفر والشرك الأكبر، وهذا المعنى كنت قد بينته في الكتاب (فتنة العصر التشريع)، فأعرض عنه المخالفون؛ لشدة جَوْرِهم، واتباعهم للهوى، نعوذ بالله من الخذلان.

آية براءة في المبدلين للشرائع:

تنبيه: إن آية براءة في قوله تعالى:{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[التوبة:٣١]، نزلت في أهل الكتاب الذين كانوا يبدلون الشرائع، فهذه الربوبية، هي ربوبية تشريع وتقنين من دون الله رب العالمين، وهو معنى ما جاء في حديث عدي t ، وهو وإن كان فيه ضعف، إلا أن المفسرين من السلف، مجمعون على أن ما ورد فيه، هو معنى آية براءة.

وإليك أحد روايات هذا الخبر عن عدي بن حاتم t قال: أتيت النبي r وفي عنقي صليب من ذهب فقال:"يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك" فطرحته فانتهيت إليه، وهو يقرأ سورة براءة، فقرأ هذه الآية:{اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى فرغ منها، فقلت:إنا لسنا نعبدهم، فقال:"أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه"؟ قلت: بلى، قال:"فتلك عبادتهم".

وكذلك في ما أخرجه مسلم في صحيحه عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ e بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ e فَقَالَ:"هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِى فِى كِتَابِكُمْ:. قَالُوا نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلاً مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ:"أَنْشُدُكَ بِالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ". قَالَ: لاَ وَلَوْلاَ أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ نَجِدُهُ الرَّجْمَ وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ قُلْنَا تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله e :"اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ". فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}، إِلَى قَوْلِهِ:{إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ}، يَقُولُ ائْتُوا مُحَمَّدًا e فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، فِي الْكُفَّارِ كُلِّهَا.

ومثله قوله تعالى:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا هو التشريع الشركي، الذي يورث صاحبه لَظَى، خالدا فيها أبدا، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم

تنبيه مهم

فصل: في تفنيد شبهة واهية متهالكة، إذ زعموا أنه لا كفر إلا إذا نسبه إلى الله:

قال المبطلون: إن المبدل لا يكفر حتى ينسب حكمه إلى الشرع، واحتجوا بسبب نزول آية المائدة، الوارد في حديث البراء وغيره في مسلم.

والرد عليهم من وجوه:

١- أن نقول، إذن يلزم من هذا أن أهل الكتاب كانوا بتبديلهم شرع الله وتواطئهم عليه في قضية الرجم والتحميم لم يقعوا في الكفر بالله تعالى، وهذا قول باطل قطعا فإن الصحابة متفقون في تفسيرهم للآية أنها في حق أهل الكتاب هي من الكفر الأكبر، ولا يقيدون ذلك بنسبته لله تعالى، فسواء نسبوا أو لم ينسبوا، فإنهم بما فعلوه كفار.

٢- أن الله تعالى حكم عليهم بأنهم يسارعون في الكفر قبل أن يأتوا نبيه r :{يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا}. كما في حديث البراء t وقد تقدم قريبا.

٣- أن تعليقكم كفرهم على نسبة حكمهم لله تعالى، باطل قطعا؛ لأنهم قد رجعوا عن ذلك بين يدي النبي r ، أم أنكم ستحكمون بإيمانهم بهذا التَّرَاجع، وهذا نص تراجعهم:[فدعاهم r فقال:"هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم" قالوا:نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال:"أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزاني في كتابكم" قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك نجده الرجم]....الحديث، وقد تقدم قريبا.

٤- أنهم ومع هذا التراجع الواضح البين نزلت الآيات بتكفيرهم، فما هو الأمر إذاً الذي تبقى مما فعلوه وتعاطوه بعد تراجعهم، وأكفرهم الله تعالى به؟، قطعا وجزما لم يبق سوى تبديلهم لحكم الله تعالى، واجتماعهم عليه تشريعا عاما فيهم.

وتأمل بارك الله فيك، سياق هذه الآية من سورة المائدة، قال تعالى{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٤١].

فالمسارعون في الكفر هاهنا فريقان، أما الأول فهم الذين يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان، كما وصفه الله تعالى:{آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}، أما الفريق الثاني فهم الذين، يتلاعبون بشرع الله تعالى، تحليلا وتحريما، بأهوائهم، ويتواطئون على ذلك، وينزلونه تشريعا عاما، وكل واحدة من هذه الأمور كفر أكبر مستقل، وهذا تسارعهم في الكفر، وتَجَارِيهِم فيه، عياذا بالله من الخذلان.

وتذكر أن حكم الله تعالى محفوظ عندهم، مخطوط منصوص عليه في كتابهم، لم يزيلوه، ولم يمسحوه ويكشطوه، فحكم الله تعالى في كتابه موجود، ولكنهم لما تركوه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأماتوه، تعطيلا وتبديلا، نعتهم الله تعالى بأنهم، يسارعون في الكفر،:{قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا}.

وتذكر أن هذه الأمة أشبه الأمم بأهل الكتاب كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ t ، أَنَّ النَّبِيَّ e قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ".

وقد بَيَّنَ الصحابة رضي الله عنهم، أن هذه الأمة سيقع فيها عَيْنُ ما وقع فيه بنو إسرائيل، كما في تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم والثوري وعبد الرزاق الصنعاني واللفظ له من طريق الثَّوْرِيِّ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ حُذَيْفَةَ عَنْ هَؤُلاَءِ الْآيَاتِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، قَالَ: فَقِيلَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؟، قَالَ:(نِعْمَ الْإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ كُلُّ مُرَّةٍ ، وَلَكُمْ كُلُّ حُلْوَةٍ ، كَلاَّ وَاللهِ لَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَهُمْ قَدَّ الشِّرَاكِ). قلت: وسنده صحيح.

وفي:(السنة) للمروزي: حَدَّثَنا بُنْدَار حدَّثَنا عبد الرحمن حدَّثَنا سفيان عن أبي قيس عن الهزيل، قال عبد الله:(إن أشبه الناس سمتا وهيئة ببني إسرائيل أنتم تتبعون آثارهم حذو القُذَّةِ بالقُذَّة لا يكون فيهم شيء إلا كان فيكم مثله). قلت: إسناده لا بأس به، وأبو قيس هو عبد الرحمن بن ثروان، أبو قيس الأودي الكوفي، صدوق في حديثه لِينٌ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنه وافق الثقات، ولم يأت بما ينكر عليه هنا. والهزيل هنا هو: هزيل بن شرحبيل الأودي الكوفي الأعمى، ثقة ثبت.

وفي:(السنة) للمروزي أيضا: حَدَّثَنا إسحاق أنبأ جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحارث، قال: كنا عند حذيفة، فذكروا:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، فقال رجل من القوم: إنما هذا في بني إسرائيل، فقال حذيفة:(نِعْمَ الأخوة لكم بنو إسرائيل، إنْ كَانَ لَكُم الحُلْو ولهم المُرّ، كَلّا والذي نفسي بيده، حتى تحذي السُّنَّة بالسُّنَّة، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة). قلت:وسنده صحيح.

وهذا أحد كبار التابعين يبين ذلك وهو إبراهيم النخعي، كما جاء في تفسير ابن جرير وعبد الرزاق من طريق الثَّوْرِيِّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ:[نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرُضِيَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ بِهَا]. قلت: وسنده صحيح.

وكذلك عن الحسن البصري كما في تفسير الطبري:حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ عَنْ عَوْفٍ عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} قَالَ:[نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ].ا.هـ. قلت: وسنده صحيح.

فقد اتفق على ذلك الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وعَلِمْنَا يَقِيناً أن الكفر الذي وَقَعَ فيه بنوا إسرائيل هنا، هو من الكفر والشرك الأكبر، وأن مَنْ وَقَعَ في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِثْلِ ما وَقَعُوا فِيه؛ كَفَرَ كَكُفْرِهِم، فلا فَرْقَ، وقد قال تبارك وتعالى:{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر:٤٣].

فصل: لماذا أورد ابن جرير كلام أبي مجلز في قسم الكفر الأكبر؟.

فائدة:قد أشكل على البعض، سبب إيراد ابن جرير لكلام أبي مجلز في القسم الذي قال فيه:[فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك من أنه عني به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا حكمه، ذكر من قال ذلك .....]ا.هـ.

والجواب على ذلك، أن أبا مجلز، يُقِرُّ هؤلاء الإباضية، على أن مَن جعل الحكم لغير كتاب الله تعالى – دساتير، أو قوانين، أو سُلُوم قَبَلِيَّة أو عشائرية ونحو ذلك، عنها يصدر الناس، وإليها يفدون عند اختلافهم، وإليها يردون ما تنازعوا فيه -، أن هذا من الكفر والشرك الأكبر، ولكن أبا مجلز رحمه الله، أخذ يبين لهؤلاء، أن هذا لم يقع من هؤلاء الخلفاء، فليس عندهم تشريع عام، يسوسون به البلاد سوى كتاب الله وسنة رسوله e، وأن ما يقع من تجاوزات إنما هي تصرفات فردية لبعض الأمراء، لا حكما مستقرا، وتشريعا عاما ضربه هؤلاء على رقاب العباد والبلاد، وإنما هي قضايا أعيان تركوا فيها حكم الله واتبعوا أهوائهم، وهذا هو الترك العارض، الذي قال فيه الجمهور:إنه كفر دون كفر.

والآن فلنرجع إلى كلام ابن جرير، عندما قال في اختياره في تفسيره، مما جاء في تفسير الكفر في آية الحكم في سورة المائدة: قال ابن جرير:[إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به هو بالله كافر كما قال ابن عباس لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي]ا.هـ.

قوله:[على سبيل ما تركوه كافرون، وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به، هو بالله كافر]، والمعنى: من فعل مثل ما فعلوه؛ كفر ككفرهم، وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، هو بالله كافر ككفرهم، ولما كان كفرهم بالإجماع، هو من الكفر الأكبر؛ كان من فعل مثلهم كافرا الكفر الأكبر، وقد تبين أن كفرهم كان بما فعلوه من التبديل للشرع والاستعاضة والحكم بغير بما أنزل الله تشريعا عاما.

ثم تأمل أن ابن جرير بعد ما قال:كما قال ابن عباس، قال:[لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي]، فتأمل فيما نسبه ابن جرير إلى ابن عباس t ، لتعلم يقينا أن قول ابن عباس الذي اختاره ابن جرير، هو أنه في الكفر الأكبر، لا كما توهم كثير من الناس أنه (كفر دون كفر)، فابن جرير، يحكي كفر أهل الكتاب، والذي هو بالإجماع من الكفر والشرك الأكبر، ثم يقول:[كما قال ابن عباس]، ومما يؤكد ذلك قوله بعدها:[لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي] فتأمل كيف قابل بين جحود هؤلاء وجحود النبوة، وهذا يؤكد ما تقدم تقريره، من معنى الجحود في كلام ابن جرير، كما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه بين هنا أن المبدل للشرع، والمشرع من دون الله تعالى، فعله نظير من جحد نبوة نبيه e بعد علمه أنه نبي، وتأمل أنه رحمه الله تعالى، يثبت علم هؤلاء، فهم يعلمون حكم الله، وهم موقنون به، ولكنهم بدلوه، وشرعوا بأهوائهم؛ فصاروا إلى الكفر والشرك الأكبر.

والمعنى أن من ترك الحكم بالكتاب واستعاض عنه بالتشريعات الجاهلية؛ فما هو بمؤمن بالكتاب، بل هو جاحد له كافر بالله تعالى، كما أن من لم يتحاكم إلى الرسول r ، ويجعله r فاضا للنزاعات وما يشجر بين الناس، حاكما فيهم بشرع الله تعالى؛ هو جاحد لنبوة النبي r ورسالته.

إذ لا يغني عن العبد شيئا، أن يدعي الإيمان بالكتاب وبالرسول، وهو مبدل لكلام الله، واضع لشرع غير شرع رسول الله، محكما له.

أم أن هناك من سيأتي ليقول لنا: إن جحود نبوة نبينا e هو من قبيل الكفر دون كفر؟!!!. عياذا بالله من الكفر والتخبط والضلال والخذلان.

ابن بطة يبين معنى الجحود ويذم المرجئة:

وإليك هذا النقل النفيس في معنى الجحود، من كلام الإمام ابن بطة الكُعْبري في كتابه:(الإبانة الكبرى):[فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مَا فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَأَحْكَامِهِ وَفَرَائِضِهِ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ، **وَأَنَّ التَّارِكَ لَهَا وَالْمُتَاقِلَ عَنْهَا مُؤْمِنٌ، فَقَدَ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، وَخَالَفَ كِتَابَ الله، وَنَبَذَ الْإِسْلَامَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَنَقَضَ عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ،** قَالَ عَزَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَجَلَّ:{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]. ثُمَّ قَالَ:{فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:٨٢]، ثُمَّ قَالَ:{أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} [آل عمران:٨٣]، ثُمَّ قَالَ:{فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:٨٢]. فَجَمَعَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُقِرُّ بِالْفَرَائِضِ وَلَا يُؤَدِّيهَا وَيَعْلَمُهَا، وَبِتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَنْزَجِرُ عَنْهَا وَلَا يَتْرُكُهَا، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُؤْمِنٌ، فَقَدْ كَذَّبَ بِالْكِتَابِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ، وَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا:{آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ} [المائدة:٤١]. فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَسَمَّاهُمْ مُنَافِقِينَ، مَأْوَاهُمُ الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ. **عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُرْجِئَةِ، لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ جَحَدُوا الْعَمَلَ وَعَمِلُوهُ، وَالْمُرْجِئَةُ أَقَرُّوا بِالْعَمَلِ بِقَوْلِهِمْ وَجَحَدُوهُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ**، فَمَنْ جَحَدَ شَيْئًا، وَأَقَرَّ بِهِ بِلِسَانِهِ وَعَمَلَهُ بِبَدَنِهِ أَحْسَنُ حَالًا مِمَّنْ أَقَرَّ بِلِسَانِهِ وَأَبَى أَنْ يَعْمَلَهُ بِبَدَنِهِ، فَالْمُرْجِئَةُ جَاحِدُونَ لِمَا هُمْ بِهِ مُقِرُّونَ، وَمُكَذِّبُونَ بِمَا هُمْ بِهِ مُصَدِّقُونَ، فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَيْحٌ لِمَنْ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ دَلِيلَهُ، فَمَا أَضَلَّ سَبِيلَهُ، وَأَكْسَفَ بَالَهُ، وَأَسْوَأَ حَالَهُ]ا.هـ.

ومن نفيس ما نقل من كلام الشيخ حافظ الحكمي – رحمه الله – من كتابه: أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة:[س:ما هو كفر الجحود؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جـ: هو ما كان بكتمان الحق، وعدم الانقياد له ظاهرا، مع العلم به ومعرفته باطنا، ككفر فرعون وقومه بموسى، وكفر اليهود بمحمد r ، قال الله تعالى في كفر فرعون وقومه:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}، وقال تعالى في اليهود:{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}، وقال تعالى:{وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.ا.هـ.

فأصحاب الإرجاء ومن اغتر بقولهم، ما فهموا حقيقة قول ابن عباس t ، ولا فهموا كلام ابن جرير أصلاً، بل أخطئوا عليهما، وبنوا على هذا الخطأ عقيدة، وتوهموها حقا، ورموا مخالفيهم بالعظائم؛ فضلوا وأضلوا، واغتر بهم خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى كثرة، فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهؤلاء يقرؤون كلام ابن جرير، ثم يحملونه على الجحود القلبي، ثم يزعمون أن ابن جرير اختار قول (كفر دون كفر)، وأنه نسبه إلى ابن عباس!!. وهذا حقيقة مما لا ينتهي منه العجب!!.

فالإشكالية حقيقة في عدم التحقيق في المسائل، وعدم الرسوخ في العقيدة؛ ولهذا يضعون تصورا معينا للإيمان، ثم يريدون إثبات هذا التصور، بناءً على فهم خاطئ لكلام أهل العلم.

العودة إلى كلام السمعاني وإيضاحه:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والآن لننتقل إلى كلام السمعاني بعد أن فهمنا معنى الجحود على وجهه الصحيح:

جاء في تفسير السمعاني:[{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، قال البراء بن عازب، وهو قول الحسن: الآية في المشركين. قال ابن عباس:الآية في المسلمين، وأراد به كفر دون كفر، واعلم أن الخوارج يستدلون بهذه الآية، ويقولون:من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وأهل السنة قالوا:لا يكفر بترك الحكم.

وللآية تأويلان:أحدهما معناه:ومن لم يحكم بما أنزل الله ردا وجحدا فأولئك هم الكافرون. والثاني معناه: ومن لم يحكم بكل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والكافر هو الذي يترك الحكم بكل ما أنزل الله دون المسلم.

إذن السمعاني هنا يقرر أن الكافر، هو من اتصف بأحد أمرين:

الأول: من لم يحكم بما أنزل الله ردا وجحدا؛ فأولئك هم الكافرون. **والثاني**: الذي يترك الحكم بكل ما أنزل الله دون المسلم.

وبهذا يتفق كلام السمعاني مع ابن جرير، وهذا ما لا خلاف فيه بين السلف، كما نقلت ذلك في كتابي في مواضع، أن السلف مجمعون على أن التشريع العام، هو من الشرك والكفر الأكبر.

فهذا الإمام السمعاني – الذي يحتج به هؤلاء دون وإدراك ولا فهم لحقيقة قوله – يقرر أن من رد وجحد حكم الله، أنه كافر بالله العظيم، وهذا عين ما يقع من طواغيت التشريعات الجاهلية اليوم، حيث يضعون دساتير وقوانين، يحكمون بها العباد والبلاد،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل ويلزمون الناس بذلك، بل والويل كل الويل لمن سولت له نفسه، تجاوز تلك القوانين والدساتير الجاهلية.

وكذلك حَكَمَ السمعاني، على من ترك الشرع برمته، بالكفر كذلك، وهذا من تمام البيان، وإلا فالكل يعلم يقينا، أن اليهود والنصارى لم يتركوا كل ما في كتبهم، وإنما وقع منهم الرد والجحود لبعض ما فيها؛ فكانوا بذلك كفارا الكفر والشرك الأكبر، وكلام السمعاني هنا ورد أصالة، فيما وقع من أهل الكتاب، فيما ذكره الله تعالى عنهم هنا في آية المائدة.

ولاحِظ أن السمعاني وابن جرير الطبري، لم يذكر أحد منهما الاعتقاد أصلا، بل ذكرا الحكم على ما جرى من ظاهر حالهم، إذ هو مناط الحكم، وسبب التكفير أصالة.

وختاما أقول: والمتأمل في كلام ابن جرير رحمه الله تعالى؛ يعلم يقيناً أنه لا يتكلم عن القلب، وإنما يتكلم عن عمل هؤلاء الذي صدر منهم، أي عن الظاهر، وقد تقدم ذكر كلامه في أول تقريره وآخره رحمه الله تعالى في آية المائدة، وتبين من هذا أن الذين يتعلقون بكلام ابن جرير الطبري، لم يفهموا مراده رحمه الله تعالى؛ ولهذا وقعوا في هذا المزلق الوخيم، حيث اشترطوا عمل القلب، في إطلاق الحكم على الأعمال الكفرية، ولمزيد من البيان في ذلك، نُذكر بأن الأمة مجمعة على أن تحليل الحرام، وتحريم الحلال كفر أكبر بذاته، وهذا هو عين ما وقع فيه أهل الكتاب في قصة وسبب نزول آيات المائدة، فنزلت الآيات في بيان حكم الله تعالى على هذا الفعل الذي ظهر منهم، وبين ابن جرير رحمه الله تعالى أن هؤلاء الأقوام ما كانوا جاهلين بحكم الله عز وجل، بل هم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعلمون ذلك، بل وحكموا به زمناً، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الصريحة، ثم بعد ذلك اتفقوا على تبديل شرع الله تعالى، إذاً الشرع عندهم كان معلوما، وهو في غاية الوضوح، وإنما وقع الحكم على ظاهر حالهم. فالله المستعان.

الفرق بين الحكم العارض والتشريع العام، وقضية الترك العارض والتشريع العام:

فصل: في عدم تفريق المخالفين للحق بين الحكم العارض والتشريع العام، وقضية الترك العارض والتشريع العام.

ولبيان هذه المسألة سأنقل الكلام عليها من كتابي (فتنة العصر التشريع) حيث قلت:[فالاختلاف الوارد عن السلف في تفسير هذه الآية، هو من اختلاف التنوع لا التضاد، وذلك بحسب حال الحاكم، فمن كان الشرع مستقرا عنده، ولشرع الله تعالى السيادة، والهيمنة على العباد والبلاد، وهو المُحَكَّمُ فيهم في جميع المَحَاكم، وجميع الأحوال، في المعاملات، والسياسة، والاقتصاد، والحدود، والقضاء، وغير ذلك، ثم جَارَ هو في حكم ما؛ فترك تنزيل الحكم على شخص معين؛ كان بذلك عاصيا فاسقا عند الجمهور، وهذا هو الكفر الأصغر المذكور في كلام السلف، فيجب أن نفرق بين من يخالف الشرع لهوى مع استقرار الشرع في دولته، والعمل به في سلطانه، وبين من يشرع للناس أحكاما من عند نفسه، أو من غيره؛ **ولهذا لما ناظر أبو مجلز بعض الخوارج من الإباضية في زمانه، احتج عليهم بهذه الحقيقة، أن الحكام الذين يزعمون كفرهم، يحكمون بالشرع، ويدعون إليه، وإنما يخالفون هم في خاصة أنفسهم، مع علمهم بأنهم مذنبون، ولا يجعلون ذلك شرعا في الناس.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

** وإليك ما ذكره ابن جرير في تفسيره:(١٠/٣٤٧):[حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن حدير قال:أتى أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس فقالوا:يا أبا مجلز أرأيت قول الله:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} أحق هو؟، قال:نعم!، قالوا:{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}[المائدة:٤٥]، أحق هو؟، قال:نعم!، قال فقالوا:يا أبا مجلز فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟، قال:هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون وإليه يدعون فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا! فقالوا:لا والله ولكنك تَفْرَق!،قال: أنتم أولى بهذا مني!، لا أرى وإنكم أنتم ترون هذا ولا تحرجون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك أو نحوا من هذا]ا.هـ.

فأما إذا شَرَّعَ للعباد حكما عاما يخالف حكم الله تعالى، وجعله فيهم، هديا وسنة وطريقة، في مقابلة حكم الله تعالى، الذي شرعه لعباده، ولو في مسألة واحدة؛ كان بذلك كافرا، الكفر والشرك الأكبر، وكذلك إن رأى أن الحكم بالشرع المبدل الطاغوتي جائز سائغ، أو رآه أفضل من شرع الله تعالى، أو قَدَّمَهُ على شرع الله تعالى، فكل ذلك من الكفر الناقل عن الملة]ا.هـ.

فهذا أبو مجلز رحمه الله تعالى يعبر بنفس التعبير حيث يقول:[فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً] ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأبو مجلز هنا عبر بالترك العارض، مع استقرار الشريعة، وهذا الذي يقال فيه كفر دون كفر.

أثر ابن عباس (كفر دون كفر) لا علاقة له بواقعنا المعاصر:

واعلم بارك الله فيك، أن أثر ابن عباس (كفر دون كفر)، على فرض صحته، وما جاء في معناه عن السلف، ليس المراد به واقعنا، الذي فيه الرد عند التنازع إلى غير شرع الله، فعلى التَّنَزُّل في ثبوت أثر ابن عباس، فليس المراد به قطعا ما يجري في زماننا هذا، فإن الذي يجري في زماننا، هو من جنس ما جرى من جنكز خان، الذي أجمع العلماء على كفره، لما وضع يَاسَقَهُ على رقاب العباد والبلاد.

قال الشيخ المحدث أحمد شاكر رحمه الله تعالى في كتابه:عمدة التفسير (ص:٦٨٤-٦٨٥):[ومن البيِّن أنّ الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء، لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه. ولذلك قال لهم في الخبر الأول:"فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً"، وقال لهم في الخبر الثاني: "إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب".

وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه r . فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحانه وتعالى، **وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.**

والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انقضت، فسقطت الأحكام كلها بانضائها. فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس!!.

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أنْ سنّ حاكم حكما وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها. هذه واحدة. وأخرى: أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة. وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة. وإما أن يكون حكم به متأولا حكما خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله e .

وأما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقاء في أمر جاحدا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه. فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها، وصرفها إلى غير معناها، رغبة في نصرة سلطان، أو احتيالا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله]ا.هـ.

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في رسالته تحكيم القوانين:[الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاده أنه عاص، وأن حكم الله هو الحق، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها، وأما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضع فهو كفر، وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل].ا.هـ.

قلت: فقول ابن عباس **t** هنا على فرض صحته عنه **t** كان في واقع معين، فهو في معرض الرد على الخوارج، الذين يكفرون بالذنوب التي لا تبلغ حد الكفر، أو الشرك، أو النفاق الأكبر، فأخبرهم أن الآية هنا لا تُحمل على الكفر الأكبر؛ لأن من نزلتموها عليه لم يأت كفرا أكبر، لأنه لم يُشَرِّع، بل أتى معصية دون الكفر بالله تعالى، إذ لم يظهر في زمان ابن عباس، ولا أحد من الصحابة **y** مَن يُشرع للناس دينا من عنده، أو من عند غير الله تعالى عموما، ثم يضربه على رقاب العباد والبلاد.

فلما ظهر هذا الطاغوت فيما بعد، اتفق العلماء من أهل السنة والجماعة على كفره، الكفر الأكبر، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم. كما سيأتي في المنقولات

وأيضاً في التفريق بين التشريع والحكم قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (جزء٣٥-صفحة٣٧٦):[فالشرع الذي يجب على كل مسلم أن يتبعه ويجب على ولاة الأمر نصره والجهاد عليه هو الكتاب والسنة وأما حكم الحاكم فذاك يقال له قضاء القاضي ليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو الشرع الذي فرض الله على جميع الخلق طاعته بل القاضي العالم العادل يصيب تارة ويخطئ تارة]ا.هـ.

والآن فلنذكر أمثلة من هذا الترك العارض، أفادها أحد الإخوة الفضلاء، فمن ذلك ما ذكره ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق:[وقال أبو الطيب أخبرني أحمد بن عبيد أخبرني الأصمعي عن ابن أبي طرفة قال قدم إلي عبد الملك لص فأمر بقطعه فصاح الرجل قال وأخبرنيه محمد بن يزيد قال كان يقال له حمزة وقدم إلى مروان فقال (ح) قال وأخبرنيه أبو سعيد الأزدي عن أبي محكم الشاعر قال هو طهمان بن عمرو وقدم إلى الوليد بن عبد الملك فقال:

يدي يا أمير المـؤمنين أعيذها ... بحقويك من غار عليها يشينها

ولا خـير في الدنيا ولا في نعيمها ... إذا ما شمالي فارقـتها يمينها

فقال هذا حد من حدود الله ولا بد من إقامته، اقطع، فقامت إليه امرأة عجوز كبيرة، فقالت: يا أمير المؤمنين ولدي كَادِّي وكاسبي، قال: بئس الولد ولدك وبئس الكاد كادك وبئس الكاسب كاسبك، هذا حد من حدود الله لا بد من إقامته، قالت: يا أمير المؤمنين اجعله بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها، فعفا عنه وأمر بتخليته].ا.هـ.

وجاء في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي:[وفي كتاب الأوائل للعسكري: كان ابن هرمة شديد الرغبة في الخمر فدخل على المنصور فأنشده:

له لحظات من خفا في سريرة ... إذا كـرها فيهـا عـقـاب و نائل

فـأم الذي أمنت آمنة الردى ... و أم الذي حاولت بالثكل ثاكل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأعجب به المنصور، وقال: ما حاجتك؟، قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة أن لا يحدني إذا وجدني سكران، فقال: لا أعطل حدا من حدود الله، قال: تحتال لي، فكتب إلى عامله: من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة، واجلد ابن هرمة ثمانين.

فكان العون إذا مر به وهو سكران يقول:من يشتري مائة بثمانين؟، ويتركه ويمضي].ا.هـ.

وأنبه هنا على مسألة مهمة وهي أن قضية ترك الحكم هو نوع من الحكم، أوليس الترك عفوا؟ و أليس العفو حكما؟.

ولكنه لما لم يكن عاما مستقرا، إليه فض النزاعات، ومنه منطلق الأحكام، كان عند الجمهور من الكفر الأصغر، بخلاف التشريع العام، فإنه من الشرك والكفر الأكبر، بلا خلاف ولا نزاع بين السلف.

وأُذَكِر وأنبه على أن العلماء لو كانوا يرون أن الحكم والتشريع شيء واحد لأعادوا نفس التفصيل الوارد في آية المائدة في المواضع الأخرى المتعلقة بالتشريع العام، ولأعاد مثلا ابن جرير نفس هذه الأقوال عند الكلام على آيات التشريع. ولكنه ما ذكرها مطلقاً، بل ولا أحال عليها، بل ما نقل هذه الأقوال إلا في آية الحكم لأن الآية تحتمل كل هذه الأقوال؛ ولهذا أنا أقول للإخوة أنتم إذا أردتم أن تكونوا علميين وعمليين كذلك، هاتوا لنا تفصيلا لأهل العلم من السلف في آيات التشريع، يعني لو قلنا على أدنى المستويات مثلاً إن أية المائدة متشابهة مشكلة – مع أنها ليست كذلك ولكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنزلا-، فهاتوا لنا تفصيلا في التشريع العام؛ لنرد المشكل والمتشابه إلى المحكم؛ فيزول الإشكال، ولكن أنى لهم ذلك فدونه خرط القتاد.

فنحن الآن نتكلم عن التشريع العام، وهناك آيات في التشريع العام كقوله تعالى:{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً}، فهل هؤلاء الأرباب حكمهم أنهم كفار، كفر أكبر أم أصغر؟، الجواب هو أنهم كفار الكفر والشرك الأكبر بلا خلاف.

وكقوله تعالى:{وإن أطعتموهم إنكم لمشركون} فهؤلاء المطاعون، أي هؤلاء الذين وضعوا هذا التشريع، الذين قالوا كيف تأكلون من ذبيحة تذبحونها ولا تأكلون ذبيحة ذبحها الله – يعنون الميتة- فهؤلاء الذين بدلوا الشرع كفار مشركون الشرك والكفر الأكبر لا خلاف فيهم.

وكقوله تعالى:{أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}، فهؤلاء الذين شرعوا لهم ما لم يأذن به الله، هم كفار ومشركون، الكفر والشرك الأكبر، وهكذا في جميع ما ورد من الأدلة في التشريع العام.

فالتفصيل فقط في آية الحكم، أما آيات التشريع الصريحة، فلا تفصيل فيها، واعلم أن كل تشريع حكم، وليس كل حكم تشريع.

ومما يزيد الأمر وضوحا أن نقول: الفرق بين الحكم والتشريع، كالفرق بين القاضي والمشرع، وهنا سؤالان:هل القاضي يضع شرائع، أم يقضي بما عنده؟، وهذا الذي عنده من أين أتى به؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن كان أتي به من الشرع المطهر بنص منه؛ فهذا حاكم بشرع الله، وإن كان أتي به من الشرع المطهر، ولكن باجتهاد منه، فنزع بدليل منه، فهذا إن أصاب حكم الله فهو حاكم بشرع الله، وله أجران، وإن أخطأه مع الحرص وعدم التفريط؛ فله أجر واحد ، كما في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:أنه سمع رسول الله r يقول:"إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

وإن كان أتى به من الشرع الطاغوتي -القوانين الوضعية - فهذا حاكم بغير ما أنزل الله، وهو كافر بذلك الكفر والشرك الأكبر؛ لأنه يتعاطى الشرع المبدل - التشريع العام- وحكم به وقضى على الناس به، وجعل الرد إليه لفض النزاعات، وهؤلاء نفى الله تعالى عنهم الإيمان وأقسم على ذلك جل الله في علاه.

قال تعالى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

أما المشرع فهو الذي يضع الأحكام من حلال وحرام، وجائز وممنوع، وهذا حق محض لله تبارك وتعالى، فمن نصب نفسه من العباد كذلك، فهذا هو المشرع من دون الله تعالى، وهو كافر مشرك بالله تعالى، الكفر والشرك الأكبر، بلا تفصيل، ولا نظر إلى معتقده، أو استحلاله بقلبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في قوله r في حديث عبد الله بن بريدة :"وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ".

إذاً هنا الاحتمال قائم، أن يكون حكم بحكم الله، وقد يكون حكم بغير حكم الله، لكنه الآن يريد أن يقرر، ويحكم في مسألة، هو مضطر إليها، وليس عنده فيها علم مسبق، وليس متاحا له ذلك العلم.

فهل الذي يجري اليوم من هؤلاء الحكام، أنهم لا يعرفون أن هناك قرآنا؟!!، أم أنهم لا يعرفون أن هناك سنة، وأن هناك شريعة لله؟!!.

وسر المسألة أن أية المائدة حمالة وجوه من الحق، والمرجئة ومن اغتر بهم لم يفهموا ما هو سر المسألة فَشَغَّبُوا على الحق، عياذ بالله.

وإليك هذا البيان الشافي من الشيخ ابن عثيمين في كتابه (القول المفيد على كتاب التوحيد):[فائدة: يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظاما يمشي عليه، ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله؛ فهذا قد يكون كفرا أو فسقا أو ظلما. فيكون كفرا إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له. ويكون فسقا إذا كان لهوى في نفس الحاكم].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أراد المزيد من التأصيل والتفصيل، والوقوف على القواعد العامة في هذه المسألة، وقراءة المنقولات المستفيضة في ذلك؛ فليراجع كتابي (فتنة العصر التشريع).

فتنة الدخول على السلاطين، فإياكم والدخول عليهم:

فصل: في التذكير بخطورة الدخول على السلاطين، وذكر طرف مما جاء من التحذير والتنفير البليغ عن السلف الصالح في ذلك، وبيان خطورة ذلك على العالم والأمة جمعاء:

قال مهنا: سألت الإمام أحمد عن إبراهيم بن الهروي، فقال:إنه رجل وسخ، فقلت:ما قولك إنه وسخ؟، قال: من يتبع الولاة والسلاطين فهو وسخ. ا.هـ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من طريق يوسف بن أسباط يقول: قال لي سفيان الثوري: إذا رأيت القاريء يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لِصْ، وإذا رأيته يلوذ بالأغنياء؛ فاعلم أنه مراء، وإياك أن تُخدع فيقال لك: تَرُدُّ مَظلَمة، تَدْفَعُ عن مظلوم، فإن هذه خُدْعَةُ إبليس اتخذها القراء سُلَّمًا].ا.هـ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق يوسف بن أسباط قال:[أخبرني مخبر، أن بعض الأمراء أرسل إلى أبي حازم فأتاه، وعنده الأفريقي والزهري وغيرهما، فقال له تكلم يا أبا حازم، فقال أبو حازم: **إن خير الأمراء من أحب العلماء، وإن شر العلماء من أحب الأمراء،** وإنه كان فيما مضى إذا بعث الأمراء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى العلماء لم يأتوهم، وإذا أعطوهم لم يقبلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماء في بيوتهم فيسألونهم، فكان في ذلك صلاح للأمراء، وصلاح للعلماء، فلما رأى ذلك ناس من الناس؛ قالوا مالنا لا نطلب العلم حتى نكون مثل هؤلاء، فطلبوا العلم فأتوا الأمراء، فحدثوهم فرخصوا لهم، وأعطوهم فقبلوا منهم فَجَرِئَت الأمراء على العلماء، وجَرِئَت العلماء على الأمراء]ا.هـ.

وروي عن الإمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ أنه قال:[فِتْنَتِي بالْمُتَوَكِّلِ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَتِي بالْمُعْتَصِمِ]، يُشِيْرُ إلى الإكْرَامِ.

وفي ديوان الإمام الشافعي:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكن لك في أبوابهم ظِلُّ
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم مَلُّوا
فاستعن بالله عن أبوابهم كرما ... إن الوقوف على أبوابهم ذُلُّ

وجاء في الدرر السنية في الأجوبة النجدية :[وروى ابن أبي حاتم عن علي t أنه خطب فقال: يا أيّها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا أخذتهم العقوبات، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم الذي نزل بهم، واعلموا: أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يقطع رزقا، ولا يقرب أجلا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وروى الإمام أحمد، عن جرير مرفوعا: ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي، هم أعز منه وأمنع لم يغيروا عليه، إلا أصابهم الله بعذاب من عنده ١ وقال تعالى: {لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار}ُ [سورة المائدة آية : ٦٣].

قال ابن النحاس: دلت الآية على أن تارك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كمرتكبه، والآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قاله القرطبي: وتالله إنهم لأهل لكل توبيخ، فأنى يصلح الناس والعلماء فاسدون؟ أم كيف تعظمون المعصية في قلوب الجاهلين، والعلماء بأفعالهم وأقوالهم لم ينهوهم عنها؟ أم كيف يرغب في الطاعة، والعلماء لا يأتونها؟ أم كيف يتركون البدع والعلماء يرونها فلا ينكرونها؟ إلى أن قال: **وأما في زماننا هذا؛ فقد قيد الطمع ألسن العلماء فسكتوا، إذ لم تساعد أقوالهم أفعالهم، ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم، فإذا نظرنا إلى فساد الرعية، وجدنا سببه فساد الملوك؛ وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه فساد العلماء والصالحين؛ وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين، وجدنا سببه ما استولى عليهم من حب المال والجاه، وانتشار الصيت ونفاذ الكلمة، ومداهنة المخلوقين، وفساد النيات والأقوال والأفعال.** انتهى]ا.هـ.

وجاء في فتح الباري لابن حجر في حديثه عن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ **t** المتفق عليه، عَنِ النَّبِيِّ **r** قَالَ:"لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ":[وقال القرطبي معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غني النفس وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله ويكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما رزقه الله لا يحرص على الازدياد لغير حاجة ولا يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال بل يرضى بما قسم الله له فكأنه واجد أبدا والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أعطى بل هو أبدا في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف فكأنه فقير من المال لأنه لم يستغن بما أعطى فكأنه ليس بغني ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره علما بأن الذي عند الله خير وأبقى فهو معرض عن الحرض والطلب وما أحسن قول القائل:

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة ... فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا]ا.هـ.

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر : [فصل: المقارنة بين علماء الدنيا و علماء الآخرة: تأملت التحاسد بين العلماء فرأيت منشأه من حب الدنيا فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسبون كما قال عز و جل:{و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا}، وقال الله تعالى:{والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا}، وقد كان أبو الدرداء:يدعو كل ليلة من إخوانه، وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي:أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر، والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرياسة فيها ويحبون كثرة الجمع والثناء وعلماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك وقد كانوا يتخوفونه ويرحمون من بلي به، وكان النخعي لا يستند إلى سارية، وقال علقمة: أكره أن يوطأ عقبي ويقال علقمة، وكان بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام عنهم، وكانوا يتدافعون الفتوى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و يحبون الخمول، مَثَلُ القوم كمثل راكب البحر وقد خب فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة، وإنما كان بعضهم يدعوا لبعض، ويستفيد منه؛ لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة]ا.هـ.

قلت: ومثل هذا كثير متواتر عن السلف والخلف، هذا وهؤلاء السلاطين الذين حذر السلف من مخالطتهم ومداخلتهم، كانوا قائمين بفريضة الجهاد في سبيل الله، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاشيا، وكانت الشريعة مطبقة معمول بها، وإن كان ثَمَّة مظالم، وتجاوزات من السلاطين والأمراء، من فجور وجور وشهوات، ونحو ذلك، فكيف بالطواغيت المبدلين لشرع الله، حماة الشرك والكفر، القائلين بإحلال المواطنة والديمقراطية، مكان عقيدة الولاء والبراء، المحاربين للجهاد والمجاهدين، والذين يقولون بأن اليهود والنصارى، إخوانهم، وصدقوا فإنما هم إخوان المنافقين أبدا، كما في الذكر الحكيم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الحشر:١١]، لا شك أن الخطب أعظم، ومُصَابُ من يداخلهم من أهل العلم جَلَل، فإنما هو المُسَاوَمَةُ على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت. فتنبه ولا تغتر، عافانا الله وإياكم.

جاء في تفسير السعدي:[{يَا أَهْلَ يَثْرِبَ} يريدون "يا أهل المدينة" فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك، مجرد الخور الطبيعي]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخرج الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء) أبياتا عن يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ قال فيها:

المَالُ يَذْهَبُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْماً وَتَبْقَى فِي غَدٍ آثَامُهُ

لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لإِلَهِهِ ... حَتَّى يَطِيْبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُهُ

وَيَطِيْبَ مَا يَحوِي وَتَكْسِبُ كَفُّه ... وَيَكُوْنَ فِي حُسْنِ الحَدِيْثِ كَلاَمُهُ

نَطَقَ النَّبِيُّ لَنَا بِهِ عَنْ رَبِّهِ ... فَعَلَى النَّبِيِّ صَلاَتُهُ وَسَلاَمُهُ

قوله:(والدليل قوله تعالى:{لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم}): أي دليل أن الكفر بالطاغوت، فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأنه لا يتأتي التحقق بالإيمان إلا به، وأن من زعم إيمانا بلا كفر بالطاغوت؛ فما آمن وتلك هي العروة الوثقى التي تقدم الكلام عنها في أول الكتاب.

فاحتج المؤلف رحمه الله بهذه الآية، على أن الكفر بالطاغوت، فرض وشرط في صحة الإيمان، وأن من توقف أو تردد فلا إيمان له، هذا هو معنى هذه الآية العظيمة.

الرد على الزنادقة دعاة تعدد الأديان:

ولقد تكلم على هذه الآية بعض الزنادقة، واحتجوا بها على جواز تعدد الأديان، وقبولها وتقاربها، ويدعون إلى التسامح والتعايش السلمي، وترك الجهاد في سبيل الله، وأن الله تعالى أذن بذلك شرعا، في تقرير واضح لتصحيح اليهودية والنصرانية، وإلغاء حكم الردة وحَدِّهَا، والتلاعب بعقيدة الولاء والبراء التي لا يقوم الإيمان إلا بها، فالمهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند هؤلاء الزنادقة المُرْتَدين، أن تكون مؤمنا، سواء مسلما، أو يهوديا أو نصرانيا، فالكل مؤمنون، وإنما عداوتنا فقط مع الملاحدة والوثنيين اللادينيين.

وهذا لاشك أنه كفر صراح بواح، إذ أن من قال بجواز الخروج من دين الإسلام، والدخول في غيره، وقال إنه لا فرق بين دين الإسلام واليهودية والنصرانية، وكذلك من صحح دين أهل الكتاب، فهذا قد وقع في الكفر الأكبر بالإجماع، وكل هذه محاولة جادة لهدم عقيدة الولاء والبراء، وتعطيل الجهاد في سبيل الله، بل وفوق ذلك كله تعطيل الشريعة الإسلامية، التي جاءت بإثبات كفر أهل الكتاب، وضرورة إقامة شعيرة الولاء والبراء، والكفر بالطاغوت، وفضح أهله، وبغضهم، ولكن مع اعتبار الضوابط الشرعية في طريقة التعامل معهم، فنعتبر حال المعاهد والمستأمن، والذمي، ولكن بالحدود الشرعية، وعليه هو الالتزام بالضوابط الشرعية التي بها تصح تلك العقود.

والآيات في الرد على هؤلاء متكاثرة من الكتاب والسنة، وما كنا نظن في يوم من الأيام، أننا بحاجة إلى بيان كفر اليهود والنصارى لأحد من المسلمين، ولكنه آخر الزمان، الذي حدثنا عنه رسول الله r .

فمن الكتاب العزيز: مثلاً قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٢٩-٣١]، فبين الله تعالى في هذه الآيات، كفر أهل الكتاب وشركهم، وضرورة مقاتلتهم، حتى إما الإسلام وإما الجزية.

وقال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [البينة:١-٦]، فنعتهم الله تعالى بأنهم شر البرية، وأنهم أهل النار خالدين فيها.

وقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة:١٧]، وقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [المائدة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧٢ - ٧٦]، وقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة:٤]، وقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:١-٦].

ومن السُّنة الصحيحة: مثل قوله r :"جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم"، وقد تقدم، وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ رَسُولِ اللهِ r أَنَّهُ قَالَ:"والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"، وقد تقدم ذكر جملة من الأدلة فيما مضى، بل جميع الأحاديث الآمرة بقاتل الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، دالة على نقض كلام هؤلاء الزنادقة، وكذلك الأحاديث الدالة على أن النبي r كان يُسَيِّر الجيوش، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، دالة على هذا الأصل العظيم.

شبهة وَثيقَة المدينة:

وبعض هؤلاء يتشبثون بما هو أوهى من بيت العنكبوت، إذ يذكرون ما يعرف بـ (وثيقة المدينة)، التي يذكرون أن النبي r أبرمها، بينه وبين اليهود ومن معه بالمدينة، وهذه الوثيقة **أولا** ليس لها إسناد قائم، يصلح الاحتجاج بمثله، فقد ذكرها ابن هشام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقلا عن محمد بن إسحاق، ومحمد بن إسحاق صدوق ولا يقبل تفرده بالأصول والأحكام، وعلى كل حتى هو ذكرها مرسلة بلا إسناد، مما يزيد ضعفها.

ثانيا: أن هذه الوثيقة، هي عليهم لا لهم، فهي مليئة بتقرير عقيدة الولاء والبراء، فالولاء فيها للمؤمنين، والبراء من الكافرين، وقيودها واضحة المعالم في ذلك، كما أنها تقرر الجهاد في سبيل الله، ولكن هؤلاء لا يريدون ما كُتب في هذه الوثيقة، وإنما يريدون أخذ المسمى العام فقط، والانطلاق به؛ للتلبيس على الأمة بما يسمى بالتعايش السلمي، وإنما هو الخنوع والذل، والاستسلام للكفار، ومواثيقهم الكفرية الملحدة، وتضييع عقيدة الولاء والبراء، وتعطيل، بل وإلغاء الجهاد في سبيل الله، فأين هذا من هذا؟!!، وستأتيك بعد قليل الشروط العمرية؛ لتتضح لك حقيقة وكيفية التعامل مع أهل الكتاب في دار الإسلام.

واعلم أن قول هؤلاء المنافقين، ظاهر الفساد، فإن مقتضاه تعطيل الجهاد، والقضاء على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونقض أصل هذا الدين القائم على الولاء والبراء، وهذا وحده كافٍ في رد هذه المقولة الفاجرة الجائرة الكافرة، كيف وقد تضافرت دلالات الكتاب والسنة على إبطال ذلك وفضحه وكشف عواره، وحقائق الإسلام في التعامل مع الكفار، ثابتة واضحة، فإما أن يدخلوا في الإسلام؛ فهم إخواننا لهم ما لنا وعليهم وما علينا، فإن أبوا فلا إكراه في الدين، ولكن عليهم أن يدفعوا الجزية عن يد وهو صاغرون، فإن أبوا، ولم يكن هناك عهد مسبق من أمان أو عهد – بشرط ألا يكونوا قد نقضوه- أو لم يقع بيننا وبينهم شيء من ذلك حالا، فهؤلاء لنا أن نُمضي لهم ذلك ما رأينا ذلك، ونُقرهم عليه ما شئنا، بحسب المصلحة الراجعة إلى الإسلام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأهله، فإن قرر المسلمون إبطال ذلك، وجب عليهم أن ينبذوا إليهم على سواء، ثم ما هناك إلا السيف، وهذا الكلام في واقعنا المعاصر، مثل الخيال، ولكن هذه هي حقائق الإسلام، التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تقبل المساومات، ولا أنصاف الحلول.

الشُّرُوط العُمَرِيَّة:

قال الإمام ابن القيم في كتابه:(أحكام أهل الذمة):[ذكر الشروط العمرية وأحكامها وموجباتها: قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثني أبو شرحبيل الحمصي عيسى بن خالد قال حدثني عمي أبو اليمان وأبو المغيرة قالا أخبرنا إسماعيل بن عياش قال حدثنا غير واحد من أهل العلم، قالوا كتب أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنا شرطنا لك على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا فيما حولها دَيْراً ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خَرِبَ من كنائسنا ولا ما كان منها في خطط المسلمين وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل.

ولا نُؤْوِي فيها، ولا في منازلنا جَاسُوسَا، وألا نَكْتُم غِشّاً للمسلمين، وألا نَضْرِبَ بِنَوَاقِيسِنَا إلا ضَرْباً خَفِيّاً في جَوْفِ كنائسنا، ولا نُظْهِرَ عليها صَلِيباً، ولا تُرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نُخْرِجَ صَلِيباً، ولا كِتَاباً في سوق المسلمين، وألا نُخْرِجَ بَاعُوثَا، قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر، ولا شَعَانِين، ولا نَرْفَعُ أصواتنا مع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَوْتَانَا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نُجَاوِرَهُم بالخنازير ولا ببيع الخمور، ولا نُظْهِرَ شِرْكاً، ولا نُرَغِّبَ في دِينِنا، ولا نَدْعُو إليه أحدا.

ولا نتخذ شيئا من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، **وألا نمنع أحدا من أَقْرِبَائِنا أَرَادُوا الدُّخُول في الإسلام**، وأن نَلْزَمَ زِيَّنَا حيثما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فَرْقِ شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نَكْتَنِي بِكُنَاهُم، وأن نَجُزَّ مَقَادِمَ رؤوسنا، ولا نَفْرُقَ نَواصِينَا، ونَشُدَّ الزَّنَانِيرَ على أَوْسَاطِنا، ولا نَنْقُشَ خَوَاتِمَنَا بالعربية، ولا نَرْكَبَ السَّرُوجَ، **ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله، ولا نَتَقَلَّدُ السيوف، وأن نُوَقِّرَ المسلمين في مجالسهم.**

ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نَطَّلِعَ عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحد منا مسلما في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أَوْسَطِ ما نَجِد.

ضَمِنَّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومَسَاكِينِنا، **وإن نحن غَيَّرْنَا أو خَالَفْنَا عما شَرَطْنَا على أَنْفُسِنا وقَبِلْنَا الأمان عليه؛ فلا ذِمَّةَ لنا، وقَدْ حَلَّ لَكَ مِنَّا مَا يَحِلُّ لأهل المُعَانَدَةِ والشِّقَاق.** فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب t ، فكتب إليه عمر: أن أَمْضِ لهم ما سَأَلُوا، وأَلْحِق فِيهم حَرْفَين أَشْتَرِطُهُما عليهم مع ما شَرَطُوا على أنفسهم، **ألا يَشْتَرُوا مِن سَبَايَانَا شَيْئا، ومَنْ ضَرَبَ مُسْلِما عَمْداً فَقَدْ خَلَعَ عَهْدَه**، فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك، وأَقَرَّ من أَقَامَ من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الخلال في كتاب أحكام أهل الملل أخبرنا عبدالله بن أحمد فذكره، وذكر سفيان الثوري عن مسروق عن عبدالرحمن بن غنم قال كتبت لعمر بن الخطاب t حين صالح نصارى الشام ....إلى أن قال: **وَشُهْرَةُ هذه الشروط تُغْنِي عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقَبُول، وذَكَرُوهَا في كتبهم، واحْتَجُّوا بها، ولم يَزَلْ ذِكْرُ الشروط العُمَرِيَّة على أَلْسِنَتِهم وفي كتبهم.** وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها، فذكر أبو القاسم الطبري من حديث أحمد بن يحيى الحلواني حدثنا عبيد بن جناد حدثنا عطاء بن مسلم الحلبي عن صالح المرادي عن عَبْدِ خَير، قال: رأيت عَلِيّاً صلى العصر، فَصَفَّ له أهل نجران صَفين، فناوله رجل منهم كتابا، فلما رآه دَمَعَتْ عَينُه، ثم رَفَعَ رأسه إليهم، قال: يا أهل نجران هذا والله خطي بيدي وإملاء رسول الله.

فقالوا يا أمير المؤمنين أعطنا ما فيه، قال ودنوت منه، فقلت إن كان رَادّاً على عمر يوما فاليوم يَرُدُّ عليه.

فقال: **لَسْتُ بِرَادٍّ على عمر شيئا صنعه، إن عمر كان رَشِيدَ الأمر وإن عمر أخذ منكم خيرا مما أعطاكم، ولم يَجُرَّ عُمَرُ ما أخذ منكم إلى نفسه، إنما جَرَّهُ لجماعة المسلمين]**ا.هـ.

الرد على المنافقين في دعواهم الإذن بالتنصير وبناء الكنائس في بلاد المسلمين:

واعلم أرشدك الله، أن من أعظم ما وقعت به الفتنة في هذه الأزمنة المتأخرة في دين المسلمين، ما ادعاه المنافقون زورا وبهتانا، من أن الإسلام أذن بنشر التنصير، وبناء دور الكافرين من كنائس ومعابد ونحوها، وإليك هذا النقل الذي يفضح هؤلاء المنافقين، ويكشف لك حقيقة الموقف الشرعي:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقل الشيخ منصور البهوتي عن شيخ الإسلام كما في :(كشاف القناع عن متن الإقناع):[(وَقَالَ الشَّيْخُ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْكَنَائِسَ بُيُوتُ اللهِ وَأَنَّ اللهَ يُعْبَدُ فِيهَا وَأَنَّ مَا يَفْعَلُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عِبَادَةً لله وَطَاعَةً لَهُ وَلِرَسُولِهِ أَوْ أَنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ أَوْ يَرْضَاهُ) فَهُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ اعْتِقَادَ صِحَّةِ دِينِهِمْ وَذَلِكَ كُفْرٌ كَمَا تَقَدَّمَ (أَوْ أَعَانَهُمْ عَلَى فَتْحِهَا) أَيْ الْكَنَائِسِ (وَإِقَامَةِ دِينِهِمْ وَ) اعْتَقَدَ (أَنَّ ذَلِكَ قُرْبَةٌ أَوْ طَاعَةٌ فَهُوَ كَافِرٌ) لِتَضَمُّنِهِ اعْتِقَادَ صِحَّةِ دِينِهِمْ (وَقَالَ) الشَّيْخُ (فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: مَنْ اعْتَقَدَ أَنْ زِيَارَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي كَنَائِسِهِمْ قُرْبَةٌ إلَى الله فَهُوَ مُرْتَدٌّ وَإِنْ جَهِلَ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ عُرِّفَ ذَلِكَ فَإِنْ أَصَرَّ صَارَ مُرْتَدًّا) لِتَضَمُّنِهِ تَكْذِيبَ قَوْله تَعَالَى:{إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الْإِسْلَامُ}].ا.هـ.

وقال ابن القيم في كتابه (أحكام أهل الذمة):[ذكر حكم الأمصار التي وجدت فيها هذه الأماكن وما يجوز إبقاؤه وما تجب إزالته ومحو رسمه: البلاد التي تفرق فيها أهل الذمة والعهد ثلاثة أقسام:

أحدها: بلاد أنشأها المسلمون في الإسلام.

الثاني: بلاد أنشئت قبل الإسلام فافتتحها المسلمون عنوة وملكوا أرضها وساكنيها.

الثالث: بلاد أنشئت قبل الإسلام وفتحها المسلمون صلحا.

فأما القسم الأول فهو مثل البصرة والكوفة وواسط وبغداد. أما البصرة والكوفة فأنشئتا في خلافة عمر بن الخطاب t .

قال يزيد بن هارون: أخبرنا زياد بن أبي زياد حدثنا عبدالرحمن بن أبي بكرة عن نافع بن الحارث قال: كان أمير المؤمنين قد هم أن يتخذ للمسلمين مصرا وكان المسلمون قد غزوا من قبل البحر وفتحوا الأهواز وكابل وطبرستان فلما افتتحوها كتبوا إليه: "إنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجدنا بطبرستان مكانا لا بأس بت". فكتب إليهم: "إن بيني وبينكم دجلة ولا حاجة لي في شيء بيني وبينكم فيه دجلة أن نتخذه مصرا".

قال: فقدم عليه رجل من بني سدوس يقال: له ثابت فقال: له يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة به بادية يقال: لها الخريبة ويقال: للأرض البصرة وبينها وبين دجلة فرسخ به خليج يجري فيه الماء وأجم قصب فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه فدعا عتبة بن غزوان فبعثه في أربعين رجلا فيهم نافع بن الحارث وزياد أخوه لأمه.

قال: سيف بن عمر مصرت البصرة سنة ست عشرة واختطت قبل الكوفة بثمانية أشهر. وقال قتادة: أول من مصر البصرة رجل من بني شيبان يسمى المثنى ابن حارثة وإنه كتب إلى عمر t "إني نزلت أرضا بصرة" فكتب إليه: "إذا أتاك كتابي هذا فاثبت حتى يأتيك أمري" فبعث عتبة بن غزوان معلما وأميرا فغزا الأبلة وقال: حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن إن عمر بن الخطاب t مصر البصرة والكوفة ..... إلى أن قال:وقال الإمام أحمد حدثنا معتمر بن سليمان التيمي عن أبيه عن حنش عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن أمصار العرب أو دار العرب هل للعجم أن يحدثوا فيها شيئا فقال: أيما مصر مصرته العرب فليس للعجم أن يبنوا فيه بيعة ولا يضربوا فيه ناقوسا ولا يشربوا فيه خمرا ولا يتخذوا فيه خنزيرا.

وأيما مِصْرٍ مَصَّرَتْهُ العجم ففتحه الله عز وجل على العرب فنزلوا فيه فإن للعجم ما في عهدهم وعلى العرب أن يوفوا بعهدهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال عبد الله بن أحمد: وسمعت أبي يقول ليس لليهود والنصارى أن يحدثوا في مصر مصره المسلمون بيعة ولا كنيسة ولا يضربوا فيه بناقوس إلا في مكان لهم صالح وليس لهم أن يظهروا الخمر في أمصار المسلمين.

وقال المروذي: قال لي أبو عبد الله سألوني عن الديارات في المسائل التي وردت من قبل الخليفة فقلت أي شيء تذهب أنت؟ فقال: "ما كان من صلح يقر وما كان أحدث بعد يهدم".

وقال أبو طالب: سألت أبا عبد الله عن بيع النصارى ما كان في السواد وهل أقرها عمر فقال: السواد فتح بالسيف فلا يكون فيه بيعة ولا يضرب فيه ناقوس ولا يتخذ فيه الخنازير ولا يشرب الخمر ولا يرفعون أصواتهم في دورهم إلا الحيرة وبانقيا وديير صلوبا فهؤلاء أهل صلح صولحوا ولم يحاربوا فما كان منها لم يخرب وما كن غير ذلك فكله محدث يهدم وقد كان أمر بهدمها هارون.

وكل مصر مصرته العرب، فليس لهم أن يبنوا فيه بيعة، ولا يضربوا فيه ناقوسا، ولا يشربوا فيه خمرا، ولا يتخذوا فيه خنزيرا. وما كان من صلح صولحوا عليه فهو على صلحهم وعهدهم وكل شيء فتح عنوة فلا يحدثوا فيه شيئا من هذا. وما كان من صلح أقروا على صلحهم". واحتج فيه بحديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو الحارث: سئل أبو عبد الله عن البيع والكنائس التي بناها أهل الذمة وما أحدثوا فيها مما لم يكن قال: تهدم، وليس لهم أن يحدثوا شيئا من ذلك، فيما مصره المسلمون يمنعون من ذلك إلا مما صولحوا عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قيل لأبي عبد الله أيش الحجة في أن يمنع أهل الذمة أن يبنوا بيعة أو كنيسة إذا كانت الأرض ملكهم وهم يؤدون الجزية وقد منعنا من ظلمهم وأذاهم قال: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "أيما مصر مصرته العرب".

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرني عمي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة يعني ابن محمد أن يهدم الكنائس التي في أمصار المسلمين.

قال: وشهدت عروة بن محمد يهدمها بصنعاء.

قال عبد الرزاق: وأخبرنا معمر عمن سمع الحسن يقول: "إن من السنة أن تهدم الكنائس التي في الأمصار القديمة والحديثة" ذكره أحمد عن عبد الرزاق.

وهذا الذي جاءت به النصوص والآثار هو مقتضى أصول الشرع وقواعده: فإن إحداث هذه الأمور إحداث شعار الكفر وهو أغلظ من إحداث الخمارات والمواخير فإن تلك شعار الكفر وهذه شعار الفسق.

ولا يجوز للإمام أن يصالحهم في دار الإسلام على إحداث شعائر المعاصي والفسوق فكيف إحداث موضع الكفر والشرك؟!

فإن قيل: فما حكم هذه الكنائس التي في البلاد التي مصرها المسلمون؟

قيل: هي على نوعين:

أحدهما: أن تحدث الكنائس بعد تمصير المسلمين لمصر فهذه تزال اتفاقا.

الثاني: أن تكون موجودة بفلاة من الأرض ثم يمصر المسلمون حولها المصر فهذه لا تزال والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وورد على شيخنا استفتاء في أمر الكنائس صورته: ما يقول السادة العلماء وفقهم الله في إقليم توافق أهل الفتوى في هذا الزمان على أن المسلمين فتحوه عنوة من غير صلح ولا أمان فهل ملك المسلمون ذلك الإقليم المذكور بذلك وهل يكون الملك شاملا لما فيه من أموال الكفار من الأثاث والمزارع والحيوان والرقيق والأرض والدور والبيع والكنائس والقلايات والديورة ونحو ذلك أو يختص الملك بما عدا متعبدات أهل الشرك فإن ملك جميع ما فيه فهل يجوز للإمام أن يعقد لأهل الشرك من النصارى واليهود بذلك الإقليم أو غيره الذمة على أن يبقى ما بالإقليم المذكور من البيع والكنائس والديورة ونحوها متعبدا لهم وتكون الجزية المأخوذة منهم في كل سنة في مقابلة ذلك بمفرده أو مع غيره أم لا؟ فإن لم يجز لأجل ما فيه من تأخير ملك المسلمين عنه فهل يكون حكم الكنائس ونحوها حكم الغنيمة يتصرف فيه الإمام تصرفه في الغنائم أم لا وإن جاز للإمام أن يعقد الذمة بشرط بقاء الكنائس ونحوها فهل يملك من عقدت له الذمة بهذا العقد رقاب البيع والكنائس والديورة ونحوها ويزول ملك المسلمين عن ذلك بهذا العقد أم لا لأجل أن الجزية لا تكون عن ثمن مبيع وإذا لم يملكوا ذلك وبقوا على الانتفاع بذلك وانتقض عهدهم بسبب يقتضي انتقاضه إما بموت من وقع عقد الذمة معه ولم يعقبوا أو أعقبوا.

فإن قلنا: إن أولادهم يستأنف معهم عقد الذمة كما نص عليه الشافعي فيما حكاه ابن الصباغ وصححه العراقيون واختاره ابن أبي عصرون في المرشد فهل لإمام الوقت أن يقول لا أعقد لكم الذمة إلا بشرط ألا تدخلوا الكنائس والبيع والديورة في العقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتكون كالأموال التي جهل مستحقوها وأيس من معرفتها أم لا يجوز له الامتناع من إدخالها في عقد الذمة بل يجب عليه إدخالها في عقد الذمة.

فهل ذلك يختص بالبيع والكنائس والديورة التي تحقق أنها كانت موجودة عند فتح المسلمين ولا يجب عليه ذلك عند التردد في أن ذلك كان موجودا عند الفتح أو حدث بعد الفتح.

أو يجب عليه مطلقا فيما تحقق أنه كان موجودا قبل الفتح أو شك فيه؟.

وإذا لم يجب في حالة الشك فهل يكون ما وقع الشك في أنه كان قبل الفتح وجهل الحال فيمن أحدثه لمن هو؟ لبيت المال أم لا؟.

وإذا قلنا: إن من بلغ من أولاد من عقدت معهم الذمة وإن سلفوا ومن غيرهم لا يحتاجون أن تعقد لهم الذمة بل يجري عليهم حكم من سلف إذا تحقق أنه من أولادهم يكون حكم كنائسهم وبيعهم حكم أنفسهم أم يحتاج إلى تجديد عقد وذمة؟.

وإذا قلنا: إنهم يحتاجون إلى تجديد عقد عند البلوغ فهل تحتاج كنائسهم وبيعهم إليه أم لا؟.

فأجاب: "الحمد لله ما فتحه المسلمون كأرض خيبر التي فتحت على عهد النبي r وكعامة أرض الشام وبعض مدنها وكسواد العراق إلا مواضع قليلة فتحت صلحا وكأرض مصر فإن هذه الأقاليم فتحت عنوة على خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب t . وقد روي في أرض مصر أنها فتحت صلحا.

وروي أنها فتحت عنوة وكلا الأمرين صحيح على ما ذكره العلماء المتأهلون للروايات الصحيحة في هذا الباب فإنها فتحت أولا صلحا ثم نقض أهلها العهد فبعث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يستمده فأمده بجيش كثير فيهم الزبير بن العوام ففتحها المسلمون الفتح الثاني عنوة.

ولهذا روي من وجوه كثيرة أن الزبير سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن يقسمها بين الجيش كما سأله بلال قسم الشام فشاور الصحابة في ذلك فأشار عليه كبراؤهم كعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أن يحبسها فيئا للمسلمين ينتفع بفائدتها أول المسلمين وآخرهم ثم وافق عمر على ذلك بعض من كان خالفه ومات بعضهم فاستقر الأمر على ذلك.

فما فتحه المسلمون عنوة فقد ملكهم الله إياه كما ملكهم ما استولوا عليه من النفوس والأموال والمنقول والعقار.

ويدخل في العقار معابد الكفار ومساكنهم وأسواقهم ومزارعهم وسائر منافع الأرض كما يدخل في المنقول سائر أنواعه من الحيوان والمتاع والنقد.

وليس لمعابد الكفار خاصة تقتضي خروجها عن ملك المسلمين: فإن ما يقال فيها من الأقوال ويفعل فيها من العبادات إما أن يكون مبدلا أو محدثا لم يشرعه الله قط أو يكون الله قد نهى عنه بعدما شرعه.

وقد أوجب الله على أهل دينه جهاد أهل الكفر حتى يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا ويرجعوا عن دينهم الباطل إلى الهدى ودين الحق الذي بعث الله به خاتم المرسلين r ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا لما استولى رسول الله r على أرض من حاربه من أهل الكتاب وغيرهم كبني قينقاع والنضير وقريظة كانت معابدهم مما استولى عليه المسلمون ودخلت في قوله سبحانه: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}.

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}.

لكن وإن ملك المسلمون ذلك فحكم الملك متبوع كما يختلف حكم الملك في المكاتب والمدبر وأم الولد والعبد وكما يختلف حكمه في المقاتلين الذين يؤسرون وفي النساء والصبيان الذين يسبون كذلك يختلف حكمه في المملوك نفسه والعقار والأرض والمنقول.

وقد أجمع المسلمون على أن الغنائم لها أحكام مختصة بها لا تقاس بسائر الأموال المشتركة؛ ولهذا لما فتح النبي r خيبر أقر أهلها ذمة للمسلمين في مساكنهم وكانت المزارع ملكا للمسلمين عاملهم عليها رسول الله r بشرط ما يخرج منها من ثمر أو زرع ثم أجلاهم عمر t في خلافته واسترجع المسلمون ما كانوا أقروهم فيه من المساكن والمعابد.

فصل: هل يجوز للإمام عقد الذمة مع إبقاء المعابد بأيديهم؟.

وأما أنه هل يجوز للإمام عقد الذمة مع إبقاء المعابد بأيديهم فهذا فيه خلاف معروف في مذاهب الأئمة الأربعة منهم من يقول لا يجوز تركها لهم لأنه إخراج ملك المسلمين عنها وإقرار الكفر بلا عهد قديم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنهم من يقول بجواز إقرارهم فيها إذا اقتضت المصلحة ذلك كما أقر النبي r أهل خيبر فيها وكما أقر الخلفاء الراشدون الكفار على المساكن والمعابد التي كانت بأيديهم.

فمن قال بالأول قال: حكم الكنائس حكم غيرها من العقار.

منهم من يوجب إبقاءه كمالك في المشهور عنه وأحمد في رواية.

ومنهم من يخير الإمام فيه بين الأمرين بحسب المصلحة وهذا قول الأكثرين وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وعليه دلت سنة رسول الله r حيث قسم نصف خيبر وترك نصفها لمصالح المسلمين.

ومن قال: "يجوز إقرارها بأيديهم" فقوله أوجه وأظهر فإنهم لا يملكون بهذا الإقرار رقاب المعابد كما يملك الرجل ماله كما أنهم لا يملكون ما ترك لمنافعهم المشتركة كالأسواق والمراعي كما لم يملك أهل خيبر ما أقرهم فيه رسول الله r من المساكن والمعابد.

ومجرد إقرارهم ينتفعون بها ليس تمليكا كما لو أقطع المسلم بعض عقار بيت المال ينتفع بغلته أو سلم إليه مسجد أو رباط ينتفع به لم يكن ذلك تمليكا له بل ما أقروا فيه من كنائس العنوة يجوز للمسلمين انتزاعها منهم إذا اقتضت.

المصلحة ذلك كما انتزعها أصحاب النبي r من أهل خيبر بأمره بعد إقرارهم فيها.

وقد طلب المسلمون في خلافة الوليد بن عبد الملك أن يأخذوا من النصارى بعض كنائس العنوة التي خارج دمشق فصالحوهم على إعطائهم الكنيسة التي داخل البلد وأقر ذلك عمر بن عبد العزيز أحد الخلفاء الراشدين ومن معه في عصره من أهل العلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن المسلمين لما أرادوا أن يزيدوا جامع دمشق بالكنيسة التي إلى جانبه وكانت من كنائس الصلح لم يكن لهم أخذها قهرا فاصطلحوا على المعاوضة بإقرار كنائس العنوة التي أرادوا انتزاعها وكان ذلك الإقرار عوضا عن كنيسة الصلح التي لم يكن لهم أخذها عنوة.

فصل: تؤخذ كنائس الصلح إذا نقضوا عهدهم، ومتى انتقض عهدهم جاز أخذ كنائس العنوة. كما أخذ النبي r ما كان لقريظة والنضير لما نقضوا العهد فإن ناقض العهد أسوأ حالا من المحارب الأصلي كما أن ناقض الإيمان بالردة أسوأ حالا من الكافر الأصلي.

ولذلك لو انقرض أهل مصر من الأمصار ولم يبق من دخل في عهدهم فإنه يصير للمسلمين جميع عقارهم ومنقولهم من المعابد وغيرها فيئا.

فإذا عقدت الذمة لغيرهم كان كالعهد المبتدأ وكان لمن يعقد لهم الذمة أن يقرهم في المعابد. وله ألا يقرهم بمنزلة ما فتح ابتداء. فإنه لو أراد الإمام عند فتحه هدم ذلك جاز بإجماع المسلمين ولم يختلفوا في جواز هدمه وإنما اختلفوا في جواز بقائه وإذا لم تدخل في العهد كانت فيئا للمسلمين. أما على قول الجمهور الذين لا يوجبون قسم العقار فظاهر. وأما على قول من يوجب قسمه فلأن عين المستحق غير معروف كسائر الأموال التي لا يعرف لها مالك معين. وأما تقدير وجوب إبقائها فهذا تقدير لا حقيقة له فإن إيجاب إعطائهم معابد العنوة لا وجه له ولا أعلم به قائلا فلا يفرع عليه وإنما الخلاف في الجواز.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعم قد يقال: في الأبناء إذا لم نقل بدخولهم في عهد آبائهم لأن لهم شبهة الأمان والعهد بخلاف الناقضين فلو وجب لم يجب إلا ما تحقق أنه كان له فإن صاحب الحق لا يجب أن يعطى إلا ما عرف أنه حقه وما وقع الشك فيه على هذا التقدير فهو لبيت المال.

وأما الموجودون الآن إذا لم يصدر منهم نقض عهد فهم على الذمة فإن الصبي يتبع أباه في الذمة وأهل داره من أهل الذمة كما يتبع في الإسلام أباه وأهل داره من المسلمين لأن الصبي لما لم يكن مستقلا بنفسه جعل تابعا لغيره في الإيمان والأمان.

وعلى هذا جرت سنة رسول الله r وخلفائه والمسلمين في إقرارهم صبيان أهل الكتاب بالعهد القديم من غير تجديد عقد آخر.

وهذا الجواب حكمه فيما كان من معابدهم قديما قبل فتح المسلمين أما ما أحدث بعد ذلك فإنه يجب إزالته ولا يمكنون من إحداث البيع والكنائس كما شرط عليهم عمر بن الخطاب t في الشروط المشهورة عنه "ألا يجددوا في مدائن الإسلام ولا فيما حولها كنيسة ولا صومعة ولا ديرا لا قلاية امتثالا لقول رسول الله r : "لا تكون قبلتان ببلد واحد" رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد، ولما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لا كنيسة في الإسلام".

وهذا مذهب الأئمة الأربعة في الأمصار ومذهب جمهورهم في القرى وما زال من يوفقه الله من ولاة أمور المسلمين ينفذ ذلك ويعمل به مثل عمر بن عبد العزيز الذي اتفق المسلمون على أنه إمام هدى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فروى الإمام أحمد عنه أنه كتب إلى نائبه عن اليمن أن يهدم الكنائس التي في أمصار المسلمين فهدمها بصنعاء وغيرها. وروى الإمام أحمد عن الحسن البصري أنه قال: "من السنة أن تهدم الكنائس التي في الأمصار القديمة والحديثة".

وكذلك هارون الرشيد في خلافته أمر بهدم ما كان في سواد بغداد، وكذلك المتوكل لما ألزم أهل الكتاب بشروط عمر استفتى علماء وقته في هدم الكنائس والبيع فأجابوه فبعث بأجوبتهم إلى الإمام أحمد فأجابه بهدم كنائس سواد العراق وذكر الآثار عن الصحابة والتابعين.

فمما ذكره ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أيما مصر مصرته العرب يعني المسلمين فليس للعجم يعني أهل الذمة أن يبنوا فيه كنيسة ولا يضربوا فيه ناقوسا ولا يشربوا فيه خمرا أيما مصر مصرته العجم ففتحه الله على العرب فإن للعجم ما في عهدهم وعلى العرب أن يوفوا بعهدهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم".

وملخص الجواب: أن كل كنيسة في الأمصار التي مصرها المسلمون بأرض العنوة فإنه يجب إزالتها إما بالهدم أو غيره بحيث لا يبقى لهم معبد في مصر مصره المسلمون بأرض العنوة وسواء كانت تلك المعابد قديمة قبل الفتح أو محدثة لأن القديم منها يجوز أخذه ويجب عند المفسدة وقد نهى النبي r أن تجتمع قبلتان بأرض فلا يجوز للمسلمين أن يمكنوا أن يكون بمدائن الإسلام قبلتان إلا لضرورة كالعهد القديم لا سيما وهذه الكنائس التي بهذه الأمصار محدثة يظهر حدوثها بدلائل متعددة والمحدث يهدم باتفاق الأئمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة فما كان منها محدثا وجب هدمه وإذا اشتبه المحدث بالقديم وجب هدمهما جميعا لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وما كان منها قديما فإنه يجوز هدمه ويجوز إقراره بأيديهم. فينظر الإمام في المصلحة فإن كانوا قد قلوا والكنائس كثيرة أخذ منهم أكثرها وكذلك ما كان على المسلمين فيه مضرة فإنه يؤخذ أيضا وما احتاج المسلمون إلى أخذه أخذ أيضا وأما إذا كانوا كثيرين في قرية ولهم كنيسة قديمة لا حاجة إلى أخذها ولا مصلحة فيه فالذي ينبغي تركها كما ترك النبي r وخلفاؤه لهم من الكنائس ما كانوا محتاجين إليه ثم أخذ منهم.

وأما ما كان لهم بصلح قبل الفتح مثل ما في داخل مدينة دمشق ونحوها فلا يجوز أخذه ما داموا موفين بالعهد إلا بمعاوضة أو طيب أنفسهم كما فعل المسلمون بجامع دمشق لما بنوه.

فإذا عرف أن الكنائس ثلاثة أقسام: منها ما لا يجوز هدمه ومنها ما يجب هدمه كالتي في القاهرة مصر والمحدثات كلها ومنها ما يفعل المسلمون فيه الأصلح.

فما كان قديما على ما بيناه فالواجب على ولي الأمر فعل ما أمره الله به وما هو أصلح للمسلمين من إعزاز دين الله وقمع أعدائه وإتمام ما فعله الصحابة من إلزامهم بالشروط عليهم ومنعهم من الولايات في جميع أرض الإسلام.

لا يلتفت في ذلك إلى مُرْجِفٍ، أو مُخَذِّلٍ، يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسْرَى نَخَافُ عليهم فإن الله تعالى يقول: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا كان نوروز في مملكة التتار قد هدم عامة الكنائس على رغم أنف أعداء الله فحزب الله المنصور وجنده الموعود بالنصر إلى قيام الساعة أولى بذلك وأحق فإن النبي r أخبر أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ونحن نرجو أن يحقق الله وعد رسوله r حيث قال: "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"١ ويكون من أجرى الله ذلك على يديه وأعان عليه من أهل القرآن والحديث داخلين في هذا الحديث النبوي فإن الله بهم يقيم دينه كما قال: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

وكما لا يجوز إبقاء الأمكنة التي هي شعار الفسوق كالخمارات والمواخير ولأن أمكنة البيع والكنائس قد صارت ملكا للمسلمين فتمكين الكفار من إقامة شعار الكفر فيها كبيعهم وإجارتهم إياها لذلك ولأن الله تعالى أمر بالجهاد حتى يكون الدين كله له وتمكينهم من إظهار شعار الكفر في تلك المواطن جعل الدين له ولغيره وهذا القول هو الصحيح.

والقول الثاني: يجوز بناؤها لقول ابن عباس رضي الله عنهما: "أيما مصر مصرته العجم ففتحه الله على العرب فنزلوه فإن للعجم ما في عهدهم"؛ ولأن رسول الله r فتح خيبر عنوة وأقرهم على معابدهم فيها ولم يهدمها ولأن الصحابة رضي الله عنهم فتحوا كثيرا من البلاد عنوة فلم يهدموا شيئا من الكنائس التي بتا.

ويشهد لصحة هذا وجود الكنائس والبيع في البلاد التي فتحت عنوة ومعلوم قطعا أنها ما أحدثت بل كانت موجودة قبل الفتح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن "لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار".

ولا يناقض هذا ما حكاه الإمام أحمد أنه أمر بهدم الكنائس فإنها التي أحدثت في بلاد الإسلام ولأن الإجماع قد حصل على ذلك فإنها موجودة في بلاد المسلمين من غير نكير.

وفصل الخطاب أن يقال: إن الإمام يفعل في ذلك ما هو الأصلح للمسلمين فإن كان أخذها منهم أو إزالتها هو المصلحة لكثرة الكنائس أو حاجة المسلمين إلى بعضها وقلة أهل الذمة فله أخذها أو إزالتها بحسب المصلحة وإن كان تركها أصلح لكثرتهم وحاجتهم إليها وغنى المسلمين عنها تركها.

وهذا الترك تمكين لهم من الانتفاع بها لا تمليك لهم رقابها فإنها قد صارت ملكا للمسلمين.

فكيف يجوز أن يجعلها ملكا للكفار؟ وإنما هو امتناع بحسب المصلحة فللإمام انتزاعها متى رأى المصلحة في ذلك.

ويدل عليه أن عمر بن الخطاب والصحابة معه أجلوا أهل خيبر من دورهم ومعابدهم بعد أن أقرهم رسول الله r فيها ولو كان ذلك الإقرار تمليكا لم يجز إخراجهم عن ملكهم إلا برضى أو معاوضة. ولهذا لما أراد المسلمون أخذ كنائس العنوة التي خارج دمشق في زمن الوليد بن عبد الملك صالحهم النصارى على تركها وتعويضهم عنها بالكنيسة التي زيدت في الجامع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولو كانوا قد ملكوا تلك الكنائس بالإقرار لقالوا للمسلمين: كيف تأخذون أملاكنا قهرا وظلما؟ بل أذعنوا إلى المعاوضة لما علموا أن للمسلمين أخذ تلك الكنائس منهم وأنها غير ملكهم كالأرض التي هي بتا.

فبهذا التفصيل تجتمع الأدلة وهو اختيار شيخنا وعليه يدل فعل الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من أئمة الهدى وعمر بن عبد العزيز هدم منها ما رأى المصلحة في هدمه وأقر ما رأى المصلحة في إقراره. وقد أفتى الإمام أحمد المتوكل بهدم كنائس السواد وهي أرض العنوة.

فصل: الضرب الثالث: ما فتح صلحا:

وهذا نوعان: أحدهما: أن يصالحهم على أن الأرض لهم ولنا الخراج عليها أو يصالحهم على مال يبذلونه وهي الهدنة فلا يمنعون من إحداث ما يختارونه فيها لأن الدار لهم كما صالح رسول الله r أهل نجران ولم يشترط عيهم ألا يحدثوا كنيسة ولا ديرا.

النوع الثاني: أن يصالحهم على أن الدار للمسلمين ويؤدون الجزية إلينا.

فالحكم في البِيَع والكنائس على ما يقع عليه الصلح معهم من تَبْقِيَةٍ وإحداث وعمارة لأنه إذا جاز أن يقع الصلح معهم على أن الكل لهم جاز أن يصالحوا على أن يكون بعض البلد لهم.

والواجب عند القدرة أن يصالحوا على ما صالحهم عليه عمر t ويشترط عليهم الشروط المكتوبة في كتاب عبدالرحمن بن غنم: "ألا يحدثوا بيعة ولا صومعة راهب ولا قلاية".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلو وقع الصلح مطلقا من غير شرط حمل على ما وقع عليه صلح عمر وأخذوا بشروطه لأنها صارت كالشرع فيحمل مطلق صلح الأئمة بعده عليها.

ذكر نصوص الإمام أحمد وغيره من الأئمة في هذا الباب: قال الخلال في كتاب أحكام أهل الملل باب الحكم فيما أحدثته النصارى مما لم يصالحوا عليه. أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: كان المتوكل إذا حدث من أمر النصارى ما حدث كتب إلى القضاة ببغداد يسألهم أبي حسان الزيادي وغيره فكتبوا إليه واختلفوا فلما قرئ عليه قال: أكتب بما أجاب به هؤلاء إلى أحمد بن حنبل ليكتب إلي بما يرى في ذلك. قال عبد الله: ولم يكن في أولئك الذين كتبوا أحد يحتج بالحديث إلا أبا حسان الزيادي واحتج بأحاديث عن الواقدي فلما قرئ على أبي عرفه وقال: هذا جواب أبي حسان وقال: هذه أحاديث ضعاف. فأجابه أبي واحتج بحديث ابن عباس رضي الله عنهما فقال: ثنا معمر بن سليمان التيمي عن أبيه عن حنش عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن أمصار العرب أو دار العرب هل للعجم أن يحدثوا فيها شيئا فقال: "أيما مصر مصرته العرب..." فذكر الحديث.

قال: وسمعت أبي يقول: ليس لليهود والنصارى أن يحدثوا في مصر مصره المسلمون بيعة ولا كنيسة ولا يضربوا فيه بناقوس إلا فيما كان لهم صلحا وليس لهم أن يظهروا الخمر في أمصار المسلمين على حديث ابن عباس: "أيما مصر مصره المسلمون".

أخبرنا حمزة بن القاسم وعبد الله بن حنبل وعصمة قالوا حدثنا حنبل قال أبو عبد الله وإذا كانت الكنائس صلحا تركوا على ما صولحوا عليه فأما العنوة فلا وليس لهم أن يحدثوا بيعة ولا كنيسة لم تكن ولا يضربوا ناقوسا ولا يرفعوا صليبا ولا يظهروا خنزيرا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يرفعوا نارا ولا شيئا مما يجوز لهم فعله في دينهم يمنعون من ذلك ولا يتركون. قلت: للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك؟، قال: "نعم على الإمام منعهم من ذلك السلطان يمنعهم من الإحداث إذا كانت بلادهم فتحت عنوة وأما الصلح فلهم ما صولحوا عليه يوفي لهم" وقال: "الإسلام يعلو ولا يعلى ولا يظهرون خمرا".

قال الخلال: كتب إلي يوسف بن عبد الله الإسكافي ثنا الحسن بن علي بن الحسن أنه سأل أبا عبد الله عن البيعة والكنيسة تحدث قال: "يرفع أمرها إلى السلطان".

وقال محمد بن الحسن: "لا ينبغي أن يترك في أرض العرب كنيسة ولا بيعة ولا يباع فيها خمر وخنزير ومصرا كان أو قرية".

وقال الشافعي في المختصر: ولا يحدثوا في أمصار المسلمين كنيسة ولا مجتمعا لصلواتهم ولا يظهروا فيها حمل خمر ولا إدخال خنزير ولا يحدثوا بناء يطولون به على بناء المسلمين وأن يفرقوا بين هيئاتهم في المركب والملبس وبين هيئات المسلمين وأن يعقدوا الزنار على أوساطهم ولا يدخلوا مسجدا ولا يسقوا مسلما خمرا ولا يطعموه خنزيرا.

وإن كانوا في قرية يملكونها منفردين لم يعرض لهم في خمرهم وخنازيرهم ورفع بنيانهم.

وإن كان لهم بمصر المسلمين كنيسة أو بناء طويل كبناء المسلمين لم يكن للمسلمين هدم ذلك وترك على ما وجد ومنعوا من إحداث مثله.

وهذا إذا كان المصر للمسلمين أحيوه أو فتحوه عنوة وشرط هذا على أهل الذمة.

وإن كانوا فتحوا بلادهم على صلح منهم على تركهم وإياه خلوا وإياه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يجوز أن يصالحوا على أن ينزلوا بلاد الإسلام يحدثون فيها ذلك.

قال: صاحب النهاية في شرحه البلاد قسمان: بلدة ابتناها المسلمون فلا يمكن أهل الذمة من إحداث كنيسة فيها ولا بيت نار فإن فعلوا نقض عليهم. فإن كان البلد للكفار وجرى فيه حكم للمسلمين فهذا قسمان: فإن فتحه المسلمون عنوه وملكوا رقاب الأبنية والعراص تعين نقض ما فيها من البيع والكنائس وإذا كنا ننقض ما نصادف من الكنائس والبيع فلا يخفي أنا نمنعهم من استحداث مثلها.

ولو رأى الإمام أن يبقي كنيسة ويقر في البلد طائفة من أهل الكتاب فالذي قطع به الأصحاب منع ذلك. وذكر العراقيون وجهين: أحدهما: أنه يجوز للإمام أن يقرهم ويبقي الكنيسة عليهم. والثاني: لا يجوز ذلك وهو الأصح الذي قطع به المراوزة.

هذا إذا فتحنا البلد عنوة فإن فتحناها صلحا فهذا ينقسم قسمين:

أحدهما: أن يقع الفتح على أن رقاب الأراضي للمسلمين ويقرون فيها بمال يؤدونه لسكناها سوى الجزية فإن استثنوا في الصلح البيع والكنائس لم ينقض عليهم وإن أطلقوا وما استثنوا بيعهم وكنائسهم ففي المسألة وجهان:

أحدهما: أنها تنقض عليهم لأن المسلمين ملكوا رقاب الأبنية والبيع والكنائس تغنم كما تغنم الدور.

والثاني: لا نملكها لأنا شرطنا تقريرهم وقد لا يتمكنون من المقام إلا بتبقية مجتمع لهم فيما يرونه عبادة وحقيقة الخلاف ترجع إلى أن اللفظ في مطلق الصلح هل يتناول البيع والكنائس مع القرائن التي ذكرناها؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم الثاني: أن يفتحها المسلمون على أن تكون رقاب الأرض لهم فإذا وقع الصلح كذلك لم يتعرض للبيع والكنائس ولو أرادوا إحداث كنائس فالمذهب أنهم لا يمنعون فإنهم منصرفون في أملاكهم.

وأبعد بعض أصحابنا فمنعهم من استحداث ما لم يكن فإنه إحداث بيعة في بلد هي تحت حكم الإسلام.....]ا.هـ.

وهناك نقولات أخرى، عن السلف والخلف، ولكني اقتصرت على هذا القدر؛ لأنه دال على ما سواه، ومُغْنٍ وكاف لمن أراد الله هدايته.

الرد على الزنادقة دعاة تقارب الأديان:

جاء في تفسير ابن كثير:[{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، يقول تعالى:{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين}، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًّا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتًا فتجعل على نفسها إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيّ}.

وقد رواه أبو داود والنسائي جميعا عن بُنْدَار به ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه. وقد رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم: أنها نزلت في ذلك.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد الجرشي عن زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصيني كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلمًا فقال للنبي r: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

رواه ابن جرير وروى السدي نحو ذلك وزاد: وكانا قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتًا فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله r أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أُسَق قال: كنت في دينهم مملوكًا نصرانيًا لعمر بن الخطاب فكان يعرض علي الإسلام فآبى فيقول: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} ويقول: يا أُسَق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى: {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُون} [الفتح:١٦]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التحريم:٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:١٢٣]، وفي الصحيح: "عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل"، يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن حميد عن أنس: أن رسول الله r قال لرجل: "أسلم" قال: إني أجدني كارها. قال: "وإن كنت كارها" فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل فإنه لم يكرهه النبي r على الإسلام بل دعاه إليه فأخبر أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له: "أسلم وإن كنت كارهًا فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص"]ا.هـ.

فقوله تعالى: {لا إكراه في الدين}، هذه الآية لا تتكلم مطلقا، لا عن حكم المرتد عن الإسلام من المسلمين، ولا عن ماهية العلاقة بين المؤمنين والكفار، وإنما تتكلم عن أن الإسلام عزيز منيع، لا يُكْرَهُ عليه أحد، {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، أما من دخل فيه فلا حق له في التراجع؛ لأن الله تعالى حكم بذلك ابتداء، أصبح هذا العبد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مخاطبا، بالحكم الشرعي بمجرد دخوله في الإسلام؛ ولأنه عقد قد أُبْرِمَ، وأَخَذَ عليه حقوقا من المسلمين، معاملة وولاء، ونصرة وأمانا، وغير ذلك، وترتبت عليه واجبات؛ فليس له النكول أو التراجع عنه.

ولهذا جاء في صحيح البخاري من طريق عِكْرِمَةَ أَنَّ عَلِيًّا t حَرَّقَ قَوْمًا فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لأَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللهِ"، وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ r :"مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ".

حكم اسْتِرْقَاق المُرْتَد والمُرْتَدَّة:

اعلم أن المبدل لدين الإسلام، يستتاب فإن تاب إلا قتل، على الصحيح من القول؛ ولهذا قاتل الصحابة y من ارتد بعد موت النبي r ، والمرتد لا يُقَرُّ على ردته، بل إما أن يتوب أو يقتل؛ ولهذا كان **الراجح** من أقوال أهل العلم أن المرأة المرتدة لا تُسْبى؛ لأن في سبيها إقرارا لها على الكفر، بل إما أن تسلم أو تقتل، ولا يثبت عن الصحابة y استرقاقها مع ثبوتها على ردتها، وقد نقل ابن تيمية الإجماع على هذه الحالة، فقال عن المرتدين، كما في مجموع الفتاوى:[فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَجِبُ قَتْلُهُمْ حَتْمًا مَا لَمْ يَرْجِعُوا إلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَهُمْ ذِمَّةٌ وَلَا هُدْنَةٌ وَلَا أَمَانٌ وَلَا يُطْلَقُ أَسِيرُهُمْ وَلَا يُفَادَى بِمَالِ وَلَا رِجَالٍ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا يسترقون ؛ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى الرِّدَّةِ بِالِاتِّفَاقِ . وَيُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ ؛ كَالشَّيْخِ الْهَرِمِ وَالْأَعْمَى وَالزَّمِنِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . وَكَذَا نِسَاؤُهُمْ عِنْدَ الْجُمْهُورِ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما من تابت منهن فقد وقع في ذلك الخلاف بين أهل العلم، كما قال ابن قدامة في (المغني):[مَسْأَلَةٌ: قَالَ:(وَإِذَا ارْتَدَّ الزَّوْجَانِ، وَلَحِقَا بِدَارِ الْحَرْبِ، لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِمَا وَلَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِمَا مِمَّنْ كَانُوا قَبْلَ الرِّدَّةِ رِقٌّ) وَجُمْلَتُهُ أَنَّ الرِّقَّ لَا يَجْرِي عَلَى الْمُرْتَدِّ، سَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، وَسَوَاءٌ لَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ أَوْ أَقَامَ بِدَارِ الْإِسْلَامِ.

وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيِّ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: إذَا لَحِقَتْ الْمُرْتَدَّةُ بِدَارِ الْحَرْبِ، جَازَ اسْتِرْقَاقُهَا؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ سَبَى بَنِي حَنِيفَةَ، وَاسْتَرَقَّ نِسَاءَهُمْ، وَأُمُّ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ مِنْ سَبْيِهِمْ.

وَلَنَا، قَوْلُ النَّبِيِّ r :"مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"، وَلِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إقْرَارُهُ عَلَى كُفْرِهِ، فَلَمْ يَجُزْ اسْتِرْقَاقُهُ كَالرَّجُلِ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ الَّذِينَ سَبَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ كَانُوا أَسْلَمُوا، وَلَا ثَبَتَ لَهُمْ حُكْمُ الرِّدَّةِ. فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ الْمُرْتَدَّةَ تُسْبَى. قُلْنَا: هَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ، ضَعَّفَهُ أَحْمَدُ]ا.هـ.

كيفية التفريق بين الكافر الأصلي والمرتد:

واعلم رحمك الله، أن كل من انتسب إلى دين الإسلام ثم نقضه بناقض ما، فإنه يكون مرتدا، وليس كافرا أصليا، فالنطق بالشهادتين والانتساب لهذا الدين كاف في هذا الباب، وقد حكى شيخنا العلامة العلوان الاتفاق على ذلك.

ولا يقال إنه لم يحقق الإسلام ونحو ذلك، وأما ذريته فالأصل اعتبار انتسابهم كذلك لهذا الدين، فإن أفصحوا عن الناقض فهم مرتدون كذلك. مع استصحاب شرط إقامة الحجة للحكم بالردة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما طبيعة العلاقة، بين المؤمن والكافر، فهو ما جاء في تِمَامَةِ الآية، في قوله تبارك وتعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم}، والتي تفسرها الأدلة الأخرى من الشريعة، التي تبين حقائق ذلك، كما تقدم.

الرد على من زعم أن حد الردة سياسي عارض لا شرعي مستقر مضطرد:

وأما قول المبطلين: إن الأمر بقتل من بدل دينه، هو أمر سياسي لا شرعي، هكذا زعموا متلاعبين بعقول البسطاء والسذج، وممعنين في الغواية والضلال، نسال الله العافية والسلامة، وهؤلاء نرد عليهم من وجوه:

الوجه الأول: أنه لا فرق في أحكام الإسلام بين السياسة والشريعة، فالكل من عند الله تعالى، والكل من دين الله تبارك وتعالى، بعث الله به نبينا محمدا r .

الوجه الثاني: أن هذا الحكم لو كان سياسيا كما يزعم هؤلاء؛ لانتهى بنهاية الحاجة إليه، وهذا باطل قطعا، فقد استمر هذا الحكم بعد النبي r ، وعمل به الصحابة y ، من بعد النبي r ، وعملت به الأمة من بعد ذلك، ودونت أحكام فقهية، ونصوا على أبواب الردة ونواقض الإسلام في كتب العقيدة والفقه، ونصوا على حكم الاستتابة، وهذا مستفيض لا ينكره إلا جاهل، أو معاند مستكبر.

الوجه الثالث: أن الأدلة دلت على أن هذا الحكم باق إلى نزول عيسى بن مريم r ، الذي سيطبق ذلك كذلك بنفسه، وسيعمل به، كما في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ". **فها هو عيسى بن مريم عليه السلام يكسر الصليب، ولا يقبل الجزية؛ لأنه لن يقبل سوى الإسلام، أو القتل.**

عيسى بن مريم عليه السلام سيهدم الديمقراطية ويكسر الصليب:

وهذا الحديث العظيم، فيه دليل صريح على أن عيسى بن مريم r ستكون من أعظم مَهَامِّهِ الكِبَار r ، أنه سيهدم أرْكَان الديمقراطية الكافرة المأفونة، وأنه سيسعى في القضاء على كل دين إلا دين الإسلام، ويَكْسِرُ الصَّلِيبَ، ولا يَقْبَلُ إلا الإسلام.

ومعنى قوله:{قد تبين الرشد من الغي}: أي قد أتم الله النعمة، بإكمال هذه الدين؛ فاستبان سبيل المؤمنين من سبيل المجرمين، وعليه قال سبحانه وتعالى:{فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله واسع عليم}: أي من أراد الرشد وترك الغي، فلا سبيل إلى ذلك، إلا بالاستمساك بالعروة الوثقى، ولا سبيل إلى الاستمساك بالعروة الوثقى، إلا بتحقيق الكفر بالطاغوت، المستلزم بغضه، وبغض أهله،ودعوتهم، ثم مجاهدتهم،كما قال تعالى:{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}: أي حتى لا يكون في الأرض شرك، وقال:{لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{لا انفصام لها}: أي هذه العروة، إنما قامت على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، فلا إله إلا الله غير قابلة للتجزئة، والعروة الوثقى لا يمكن أن تقوم مُبَعَّضَة مُجَزَّئَة، قال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة}، وقال:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء:١٥٠-١٥١]، فلا بد من الإتيان بها غير مُنْفَصِمَة.

قال المؤلف:(وهذا معنى "لا إله إلا الله"): أي هذه هي حقيقة هذه الكلمة، فقد قامت على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وقد تقدم أن (لا إله إلا الله) منهج متكامل للحياة.

وقد بين المؤلف مراده من هذه العبارة، لما ذكر الشرط المُصَحِّحَ لَقَبُول هذه الكلمة من العبد.

فقال كما في كتاب التوحيد له معلقا على حديث طارق بن أشيم **t** في صحيح مسلم عن النبي **r** :"مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ. وَحِسَابُهُ عَلَى الله عز وجل، قال المؤلف رحمه الله:

[وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التَّلَفُظَ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا مَعْرِفَة معناها مع لَفْظِهَا، بل ولا الإقْرَارَ بذلك، بل ولا كَوْنَهُ لا يَدْعُو إلا الله وحده لا شريك له. بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شَكَّ أو تَرَدَّدَ لم يَحْرُم مَالُه ودَمُه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَا لَهَا من مسألة ما أَجَلَّهَا، ويَا لَـهُ مـن بَيَـانٍ مـا أَوْضَـحَه، وحُجَّـةٍ مـا أقطعهـا للمنازع] انتهى.

النصارى أقرب إلى الحق من اليهود والكل كفار:

فصل: في الرد على شبهة كون الله تعالى أثنى على النصارى، ووجوب رد المتشابه إلى المحكم ليزول الإشكال:

اعلم رحمك الله تعالى، أن هناك من يحاول جاهدا أن يلبس الحق بالباطـل، ربـما مـن حيث لا يدري، وكثيرا من حيث يدري، استجابة لضـغط الواقـع، تبريـر وتمريـر هـذا الواقع المر، وتجاوبا مع أجندة الكفار، القاضية بالتسـوية بـين المـؤمنين والكفـار؛ ومـن أخطر ذلك ما يكون متعلقا بعلم المعتقد، حيث يعمد الـبعض في محاولـة جـادة لإقنـاع الأمة، بأن النصارى ليسوا بكفار، مستدلين بقول الله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الَّـذِينَ قَـالُوا إِنَّـا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة:٨٢].

ولاشك أن هذه الشبهة من أظهر ما تكون بطلانا، ولولا أننا في زمـان القلـوب فيـه مستشرفة للفتنة، متشربة لها، لما التفتنا إليهـا، ولا عرجنـا عليهـا، ولكـن الله المسـتعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فأقول، للرد على ذلك وجوه:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولا: أن ما بعدها من الآيات توضح المقصود والمراد، حيث بين الله تبارك وتعالى صفات هؤلاء النصارى، فنعتهم بأنهم لا يستكبرون على الحق إذ عرفوه، وأنهم تحن قلوبهم إليه وتأوي حتى تفيض أعينهم من الدمع، وأنهم يسألون الله تعالى أن يكتبهم من الشاهدين على هذا الحق الذي علموه، فيشهدون بعلم على أنه الهدى والحق والنور المبين، ثم صرحت الآيات بإيمانهم، بل وإنكارهم على من ينتقدونهم إذ آمنوا بالله ورسوله ﷺ؛ فكانوا من أهل الجنة وشهد الله تعالى لهم بالإحسان.

قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٨٣ - ٨٥].

ثانيا: أن الآيات بعد أن ذكرت الذين آمنوا من أهل الكتاب، ذكرت الذين كفروا فقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [المائدة: ٨٦]، وهذا مما يؤكد المعنى المتقدم، ويوضح من هم الذين أثنى الله تعالى عليهم في هذه الآيات.

ثالثا: أن الله تعالى قرر في مواضع من نفس السورة كفر النصارى، فقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة:١٧]، وقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [المائدة:٧٢-٧٦]، وهذا من أوضح ما يكون.

رابعا: أن النبي **r** قال:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ". أخرجه مسلم. وفي هذا المعنى ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله **r** قَالُوا يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ الله **r** :"نَعَمْ". قَالَ:"هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ". قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. - قَالَ - فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ....الحديث".

خامسا: أن الأصل المتفق عليه عند أهل السنة والجماعة، أن الأمر المتشابه لابد أن يُرَدَّ إلى المُحْكَم؛ فيزول الإشكال، فإن لم نفعل؛ كان ذلك اتباعا للهوى وصدا عن الهدى، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قَالَتْ تَلاَ رَسُولُ الله r هَذِهِ الآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} إِلَى قَوْلِهِ {أُولُوا الأَلْبَابِ} قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله r :"فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ".

كيف والأمر هنا في غاية الإحكام والوضوح، ولكنه من باب التنزل؛ لدحض الشبهة، وإقامة الحجة.

الشك في كفر أهل الكتاب كفر بإجماع المسلمين:

ولنعلم علم اليقين، أن من توقف أو تردد في كفر اليهود والنصارى - الذين، عبدوا غير الله تعالى، أو الذين زعموا توحيد الله تعالى ورفضوا شريعة رسول الله r ، أو الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زعموا إفراد الله تعالى مع إنكارهم نبوة ورسالة رسول الله r -، فهو كافر خارج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين.

ولنعلم أنه لا يغني عن المفتونين قولهم: إنه ليس كل أهل الكتاب يعبدون غير الله، بل بعضهم ينكر ذلك، فنقول لهم: لم تصنعوا شيئا، فإن الإيمان بالله تعالى يتمثل في تحقيق (شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله) لا انفصام لها، قولا وعملا، بحقائقها ولوازمها ومقتضياتها، وإلا فلم يزل كافرا بالله تعالى، فلا يغني عن العبد شيئا أن ينكر التثليث، وعبادة غير الله تعالى، حتى يضيف إلى ذلك الدخول في طاعة الرسول r وشريعته.

المصالح والمفاسد والدين الجديد:

فصل: واعلم أن قضية تحديد المصالح والمفاسد أمرها إلى حكم الشارع الحكيم لا إلى أهواء الناس واجتهاداتهم الخاصة ، فما أمر به الشارع فلا شك أنه يتضمن المصلحة العليا، وإن رأى من رأى من أهل العلم خلاف ذلك، وما نهى عنه الشارع لا شك أنه يتضمن المفسدة، ويتعين اجتنابه وتركه، وإن توهم من توهم أن المصلحة في إتيانه وفعله، ولا يمكن أن تتحول المصلحة التي اعتبرها الشارع إلى مفسدة، والعكس، بدعوى يَدَّعِيها مَن يَدَّعِيها من الناس.

وإلا تحول الشرع إلى أهواء وأراء يتجاذبها العباد، فلا تبقى ثوابت في الدين، بل وسيصير الأمر إلى أنه إذا ثبتت المصلحة أو المفسدة عند هؤلاء أو أولئك بآرائهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واجتهاداتهم الخاصة؛ أخذوا بها مطوحين بالدين، مع أن هناك من ينازعهم في ما زعموه، من أهل العلم، ولكنهم بدعوى المصلحة والمفسدة ينازعون أمر الله ورسوله، والله تعالى يقول في محكم التنزيل: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥]، وقال سبحانه وتعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٧١].

ولهذه الأسباب قال بعض المحققين:

إن هذا دِيْنٌ جَدِيد، يُدَشَّنُ باسم المصالح والمفاسد، فهي: كلمة حق أريد بها باطل.

وبناء على هذا التطويح في ميزان المصالح المفاسد، جوزوا اعتماد الوطنيات عوضا عن الولاء والبراء، والديمقراطية بدلا عن الاستسلام لشرع الله، والشعب معبودا عوضا عن الله تعالى، فصاروا إلى تدشين الكفر، وهم يدعون أنهم يريدون نصر الإسلام، والإتيان بالشريعة عبر الديمقراطية، وصناديق الاقتراع، ومواثيق الأمم المتحدة الملحدة، خابوا وخسروا وشاهت الوجوه، فقد صرنا إلى زمان صار فيه بعض الخواص لا يميزون ملة إبراهيم، حتى كأنهم لم يسمعوا بها من قبل، بل وأصبح الذين كانوا يحاربون التشريعات الجاهلية، من خلال محاربة البرلمانات، والديمقراطية، والدساتير الجاهلية، صار ينافح عنها ويدافع، ويدعو إليها ويجادل عنها، حتى بلغ الحال ببعضهم،إلى أن صار يصرح بأنه، لا سبيل إلى نصر الدين إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بهذه السبيل، بل وقال بعضهم: إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة في ظل هذه الظروف فتنة، يجب أن تحارب ويُقضى عليها، والله تعالى يقول:{وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص:٥٧]؛ فشابهوا المشركين والمنافقين في أقوالهم، {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، ويقولون:{إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا}.

قال الشاطبي في كتابه :(الموافقات):[وأما الأسباب الممنوعة؛ فأمرها أسهل؛ **لأن معنى تحريمها أنها في الشرع ليست بأسباب**، وإذا لم تكن أسبابا لم تكن لها مسببات؛ فبقي المسبب عنها على أصلها من المنع، لا أن المنع تسبب عن وقوع أسباب ممنوعة، وهذا كله ظاهر؛ فالأصل مطرد والقاعدة مستتبة، وبالله التوفيق].ا.هـ.

وقال أيضا:[المسألة الحادية عشرة:**الأسباب الممنوعة أسباب للمفاسد لا للمصالح، كما أن الأسباب المشروعة أسباب للمصالح لا للمفاسد**]ا.هـ.

وقال أيضا:[**والمقصود أن الأسباب المشروعة لا تكون أسبابا للمفاسد، والأسباب الممنوعة لا تكون أسبابا للمصالح؛ إذ لا يصح ذلك بحال**]ا.هـ.

التوحيد أعظم المصالح والشرك أعظم المفاسد:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فلنعلم أن أعظم المصالح التي يجب تحقيها، هو إقامة التوحيد الـذي هـو حق الله على العبيد، وأن أعظم المفاسد التي يجب درؤها، هو الشـرك بـالله تعـالى، وتأمل في هذه الحادثة التي وقعت في زمان النبي r لتعلم حقيقة ذلك.

مثال نبوي عظيم دال على أن درأ مفسدة الشرك لا تعدلها مصلحة:

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[بعث المغيرة وأبي سفيان لهدم اللات: وقد كان فيما سألوا رسول الله r أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله r عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد قدومهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، **وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام فأبى رسول الله r إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها**، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله r أما كسر أوثانكم بأيديكم، فسنعفيكم منه وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله r كتابا، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله r معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطائف، أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك عليه أبو سفيان فقال ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بماله بذي الهدم فلما دخل المغيرة بن شعبة، علاها يضربها بالمعول وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس - "واها لك واها لك" فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها، أرسل إلى أبي سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع].ا.هـ.

فصل: في بيان أن القوم غلطوا على ابن تيمية في مسألة المصالح والمفاسد لتبرير وتمرير هذه الديمقراطية المأفونة، ومداخلة الطاغوت:

قال شيخ الإسلام ابن تيمة في مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٩):[وَجِمَاعُ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي "الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ":فِيمَا إذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ أَوْ تَزَاحَمَتْ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَرْجِيحُ الرَّاجِحِ مِنْهَا فِيمَا إذَا ازْدَحَمَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَتَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ.

فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ فَيُنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنْ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنْ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ؛ بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ؛ **لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَمَتَى قَدَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى اتِّبَاعِ النُّصُوصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا وَإِلَّا اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ وَقُلْ إِنْ تعوز النُّصُوصَ مَنْ يَكُونُ خَبِيرًا بِهَا وَبِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَحْكَامِ].ا.هـ.

اجتناب الطاغوت فريضة لازمة في الإيمان:

فصل: في معنى اجتناب الطاغوت والكفر به، وكيفية تنزيله في أرض الواقع:

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة، يجد وبكل جلاء ووضوح، أن أخص خصائص الإيمان ولوازمه، الكفر بالطاغوت واجتنابه، والبراءة منه ومن أهله.

وإن من العجائب العلمية، أن تجد أقواما من أهل العلم والإيمان، يقررون في دروسهم وكتاباتهم، ضرورة اجتناب الطاغوت واعتزاله، ثم هم يُفتُون بجواز مداخلته، وتولي المناصب له!!. ولا أقول إنهم لم يفهموا معنى اجتناب الطاغوت بهذا الاعتبار، ولكنهم تأثروا بأقوال لبعض أهل العلم من المتأخرين، لِمَا حباهم به الله تعالى من الفهم والتدقيق، والاستقراء والتحقيق، مما علا به كعبهم في العلم، وصار لهم بفضل الله تعالى وتوفيقه قدم صدق في هذه الأمة، إلا أنه يبقى هذا العالم أو ذلك، غير معصوم من الخطأ والذهول والنسيان.

ومن استصحب معه هذا الأصل الأصيل؛ سيدرك ولا محالة بإذن الله تعالى، مواضع الزلل والخطأ والنسيان والذهول في كلام أهل العلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن من الجناية الكبرى على الشريعة أن نُحَاكِم نصوص الكتاب والسنة إلى أقوال الخلف، مع وجود أقوال وأحوال للسلف، في بيان ذلك وتفصيله، بل ومع ظهور دلالات الكتاب والسنة في هذا الشأن أو ذاك، فكيف بهذه المسألة الأصولية الكبرى، المتعلقة بأخطر القضايا وأكبرها، ألا وهي مسألة: كيفية تحقيق الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والتي هي العروة الوثقى التي لا تقوم للإيمان قائمة بدونها، وإن كثرت صلاة المرء وعباداته.

وإن مما ينبغي أن يتنبه له أهل السنة والجماعة، أنهم يقررون دائما في دروسهم وكتاباتهم وخطبهم ومواعظهم، أنهم إنما يأخذون دينهم من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

وهذا من الأصول المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة؛ فعلى كل من انتسب إلى هذا الأصل، أن يكون عاملا به، مفتخرا بذلك، لا ينكل عنه ولا يتنصل منه، ولا يتنكر له باعتبارات وأعذار واهية، كمن يقول: كيف خفي ذلك على العالم الفلاني؟!، أو قولهم:وهل هذا العالم لم يحقق في هذه المسألة المتعلقة بأصل الدين والإيمان؟!، ونحو ذلك من الأقوال، فإن هذا من مواقع الزلل والجهل، والمخالفة الصريحة لما يدين الله تعالى به من الاعتداد بالأصل المتقدم تقريره.

وإن مما ينبغي أن نتذكره دائما أنه ليس من حقنا أبدا أن نتخذ من الخلف سلفا؛ لنعترض به، ونعارض أقوالا وأحوالا للسلف الصالح، أهل القرون الثلاثة المفضلة. فتأمل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمتأمل في الساحة الدعوية في هذا العصر؛ يجد أن أقواما انتحلوا ذلك؛ فاتخذوا من الخلف سلفا، وجعلوا أقوالهم قاضية وحاكمة على كل حال، وإن خالفت أقوال السلف، بل وإجماعهم، فالله المستعان، ونعوذ به من العمى والخذلان.

كما أن من المتقرر لدى أهل العلم، أن العالم لا يسعه التقليد، وهو قادر على البحث والتنقيب عن الحق لإصابته، فكيف بمسائل العقيدة، فإن الأمر أعلى وأجل.

وإن قضية اجتناب الطاغوت، هي من القضايا التي كثرت معالجتها في الكتاب والسنة، تارة بالتحذير الصريح، وتارة بالثناء على مجتنب الطاغوت، وتارة بالحث على اجتنابه، وتارة بذكر نجاة من اجتنب الطاغوت وهلاك وبوار من لم يفعل.

كما أن المتأمل يجد أن الألفاظ قد تنوعت، وتنوعت العبارات، والسياقات، في هذا الصدد كذلك، كل هذا إمعانا في بيان خطورة هذا الشأن العظيم، والخطب الجلل.

فهناك الأمر بالترك، وهناك الأمر بالاعتزال، وهناك النهي عن الركون، وهناك الأمر بالبراءة، وهناك الحث على المنابذة، بل وجاء التصريح بالأمر بالمقاتلة، مع وجود الشوكة؛ لإزالة الطاغوت، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وجميع هذه الألفاظ، قاضية وبكل صراحة ووضوح، أنه لا يحق لعبد مهما بلغ من العلم والديانة والتقى والورع، أن يكون مداخلا للطاغوت، فضلا عن أن يكون خادما له، إذ كيف يتصور ذلك مع تحقيق المنابذة، والسعي في المقاتلة والإعداد لذلك، والقيام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالاعتزال التام والبراءة المعلنة، بل كيف يتأتى ذلك مع تحقيق معنى الترك والاجتناب وعدم الركون؟!!.

لاشك أن هذا من أبطل الباطل، ومن أقبح أنواع السعي الحثيث في الجمع بين المتناقضات، فإن الإيمان لا يكون دائما إلا في حد في مقابلة الطاغوت على كل حال، فلا تقارب ولا ركون ولا مداخلة، بل هو الاعتزال والاجتناب، والحرب المعلنة، والتحدي إن أمكن ذلك، والبراءة من الطاغوت ومتعلقاته، فإنما هو الاجتناب للعابد والمعبود من دون الله تعالى، بكل ما تحمله هذه المعاني من الضرورات والإلزامات.

وقصص الأنبياء والصديقين واضحة المعالم في الكتاب والسنة، كلها دالة وقاضية بتقرير هذا المقام الكبير الخطير، فلا تجد نبيا، ولا رسولا، ولا صديقا، إلا وهو محقق لمعنى هذا الاجتناب، من خلال الاعتزال والترك، والبراءة والتحدي، والمحاربة إن أمكن ذلك، وغير ذلك من المعاني الكبار المتعلقة بهذا الأمر العظيم.

وإن أي مداخلة للطاغوت، أو محاولة لإيجاد قواسم مشتركة معه، وإن كانت بدعوى تقليل الباطل أو الظلم، يصب مباشرة في باب التلبيس في الدين، وعدم منابذة الطاغوت، فالحذر الحذر.

وإن من أعظم الأمور التي جرت إلى تثبيت الطاغوت وبقائه، مداخلته وتولي المناصب له، إذ أن الواجب على المسلمين السعي في إزالته، فلما داخلوه وركنوا إليه؛ مسهم العذاب، حيث رَقّت مسائل الشرع عندهم، بل تناسوا الطاغوت، بل وصاروا معذرين عنه؛ لأنهم والحالة هذه إنما يعذرون عن أنفسهم وواقعهم المر الذي يعيشونه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ترى ذلك على حالهم ومقالهم، فمن قائل: أتريدنا أن نعتزل المجتمع؟، وآخر يقول:نريد الإصلاح، ومن قائل :هذا ولي أمرنا وتجب طاعته!!.....الخ.

أما علم هؤلاء أن الطاغوت هو عبارة عن مؤسسات وكيانات يمرر من خلالها الطاغوت حكمه الجاهلي بدستوره الكفري؟!!. وهو بحاجة ماسة إلى من يُلَمِّعُ له حاله، ويروج له، وبدخول هؤلاء معه تم له ما يريد.

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه، أليس من القواعد المتفق عليها، عند هؤلاء الذين يزعمون مداخلة الطاغوت بدعوى الإصلاح وتقليل الشر، أخذهم بقاعدة:(أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأمرنا بتقديم خير الخيرين بتفويت أدناهما، وبدفع شر الشرين باحتمال أدناهما).

فنقول لهم ولغيرهم: أليس من المقطوع به، أن أعظم الشر على الإطلاق هو الكفر والشرك بالله تعالى، وهو الطاغوت المأمور باجتنابه والكفر به، والبراءة منه ومن أهله؟.

فنسألهم، ما هي المفسدة التي هي أعظم من الطاغوت، التي قادتكم إلى الركون إلى الطاغوت ومداخلته؛ لتدفعوا الأعلى بالأدنى. ولا شك أنه وبهذا الاعتبار والتصور، أن الأدنى هنا هو الطاغوت، والأعلى هو ذلك الشيء الذي لأجله داخلوا الطاغوت محتملين إياه؛ لدفع ذلك الأعلى!!.

فنعود ونقول:ما هو هذا الأمر الذي هو أعظم من الطاغوت؟!!. حتى دفعتم الأعلى باحتمال الأدنى (الذي هو اجتناب الطاغوت في هذه الحالة)؟!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن المتأمل في واقع هذه المداخلات، يجد أن الأمور التي يذكرونها، والتي بسببها داخلوا الطاغوت، كانت على كل حال أدنى بكثير كثير من الطاغوت، بل وفي كثير من الأحيان إن لم يكن دائما، تكون هذه المداخلة؛ لتقليل ضرر وقع على الناس في دنياهم، من مأكل ومشرب وملبس، ووظائف ونحو ذلك من أسباب المعاش.

ولا شك أن هذه الأشياء، لا يحل معها أبدا بحال من الأحوال مداخلة الطاغوت، المأمور باجتنابه ومحاربته، واعتزاله وتركه، والكفر به والبراءة منه ومن أهله، بل وعدم الركون إليه في قليل ولا كثير.

بل لا يحل أبدا مداخلته مهما كان الأمر؛ لأننا لم نؤمر بهذا فيما يتعلق بالطاغوت، كما هو بين من النصوص الصريحة، وتعامل الأنبياء والصديقين في محكم التنزيل.

ولكنها اللوثة التي أخذت بعض القوم، في ترقيق مسائل التوحيد، والتي تولى كبرها في هذا الزمان بعض الطوائف والأحزاب المنتسبة إلى العمل الإسلامي والدعوة إلى الله، حيث يكون المعظم عند هؤلاء غالبا دنيا الناس لا دينهم.

ومن المقطوع به أن هذا التصور مخالف، بل ومصادم تماما لدعوة الأنبياء والمرسلين، بل ومناهض على طول الخط لملة إبراهيم الخليل الحنيف e، الذي أمر الأنبياء من بعده أن يأخذوا بها، ويسيروا على منوالها، لا يرغبون عنها، ولا يلتفتون إلى غيرها أبدا.

جماعة الإخوان المسلمين في ميزان اجتناب الطاغوت:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أبرز هؤلاء، بَغْضٌ ليس بالقَلِيل، بـل كَثِيرٌ مـن المُنْتَمِين إلى **جماعـة الإخـوان المسلمين**، حيث يرى هؤلاء أن الشريعة ليست ملزمة على كل حال، ولكنها أمر مهـم، ولكن إن كان ذلك سيجر إلى فتن على الناس في دمائهم وأموالهم ونحو ذلك، فـيمكن تأخير الشـريعة، بل وإلغاؤها، إلا من بعض أحكامها مـن نكـاح وطـلاق ومواريـث ونحو ذلك. ولا إشكال عند هؤلاء من اعتماد الديمقراطية كحـل وسـط - زعمـوا - للخروج بالعباد والبلاد من الفتن!!.

ومن باب الإنصاف ليس كلهم كذلك؛ ولهذا قلت:(كثير من المنتمين) إذ فيهم مـن يطالب بتطبيق الشرع، ولكنهم وللأسف مخـدوعون بشـعارات أخـرى زائفـة خبيثـة، ينبغي أن يقوموا عليها ويتبرؤوا منهـا. كتجديـد الـدين بحسـب الوقـائع، والاعتـداد بالعقل وإن خالف النقل، والاحتجـاج بوجـود الخـلاف، وأنـه لا إنكـار مـع وجـود الخلاف، والكل يسعه أن يأخذ بما يوافق واقعه، وتقديم الأمور التنظيمية على الأحكام الربانية، وهذه من الطوام العظام، فإن جعل الولاء للتنظيم ولو عارض شرع الله تعالى هو داخل في عموم قوله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّـن دُونِ اللهِّ وَالْمَسِـيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِـداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ سُـبْحَانَهُ عَـمَّا يُشْرِكُـونَ} [التوبة:٣١].

تنبيه مهم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقول لنفسي ولإخواني: اعلم أن الإنصاف، والأدب مع المخالف، من أهل القبلة لا يتعارضان، ولا يعني أبدا السكوت عن موبقاته وتمريرها، فضلا عن تبريرها.

فإن العالم بالله، الراسخ في دين الله تعالى، لا يقيم بابا ليهدم آخر، فإن كان ذاك باب القسط والنصح بالتي هي أحسن، فإن الآخر هو باب النهي عن المنكر.

نصيحة إلى جماعة الإخوان المسلمون: اعلموا يقينا أن التلبيس في الدين، أخطر من الكفر الصراح.

وهنا سؤال: هل الإخوان المسلمون شر من العلمانيين من جهة التلبيس في الدين؟. سؤال طرحه البعض وانْتَقَدتُه.

وأرى أن صواب السؤال أن يقال:[رجل يُسَمِّي الكفرة باسم الإيمان، ويجعل من التلون في الدين (الزندقة) وجها من أوجه الإسلام؟].

وآخر يقول:[الإسلام للفرد، في خاصته، وأما الدولة وأحوالها ومؤسساتها، فلا توصف بالتدين؟].

فأيهما أخطر على الإسلام وأهله، عقيدة وفقها؟.

الحقيقة مُرَّة، ولكن لابد منها للتَّشَافي:(صديقك من صَدَقَكَ لا من صَدَّقَك)

واعلم أن الأمثلة المضروبة تاريخيا، والاستدلال الباهت المعالم، للتعذير والتبرير لهذا الفكر الخبيث، الذي لا يقيم لتوحيد الله تعالى ولا للولاء والبراء ولا للجهاد في سبيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله وزنا، إلا على استحياء سرعان من يزول مع تسارع الأحداث وتداعيات الواقع المُر، لا تسعف مع واقع الفكر الإخواني العَقَدي المبني على أن العدو إنما هو الإلحاد، وأن لكل أهل ملة تَدَيُّنُهَا وإيْمَانُها، فالكل مُؤْمِن، والكل مُتَدَيِّن، وإنما الكافر العدو هو الملحد فحسب، فالتدين على أي ملة كانت عند هؤلاء مطلب محمود؛ يجب تأييده وفسح المجال له، مع تقديم الدعم والتأييد لدعوته، كما أن رؤوسا من هذه الجماعة تنكر حد الردة، وتفتح باب حرية الاعتقاد على مِصْرَاعَيْه، فللمسلم عندهم أن يتحول نصرانيا أو يهوديا، أو ما شاء من ملل الكفر، والمهم عندهم أن لا يخرج على الناس بسلاحه، أو يحدث فتنة في المجتمع، إلى غير ذلك من أقوالهم الكفرية الشنيعة والقبيحة، كقولهم إن ثوابت الإسلام قليلة، وما عداها كله قابل للأخذ والرد، وهو مسرح للاجتهاد؛ ولهذا قال بعضهم: إن حد السرقة حكم فقهي، وليس من ثوابت الإسلام، عياذا بالله من الخذلان.

ويمكن أن يكون السؤال في واقع أفراد هذه الجماعة: المنافقون شر أم الكفار؟. قال تعالى: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:٤].

وإنما أقول هذا إشفاقا ودعوة، ومحبة للخير لي ولهم، لعلهم أن يعلموا أنه قد آن الأوان لأن يُرَاجِعُوا دينهم، ويَثُوبُوا إلى رشدهم، ويعلموا أنهم قد أبحروا بعيدا عن إسلام محمد r ، وأن الذي يقدمونه ويسعون في نصرته هو إسلام خاص بهم، لا علاقة له بسبيل المؤمنين الصحابة الكرام y ، وسلف هذه الأمة الأخيار الأطهار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأقول لهم: ألم يَأْنِ لكم أن تعلموا، أن هذه الأمة، لـن تنتصـر، إلا بتحقيـق سـبيل المؤمنين، وأن من شاق هدي سيد المرسلين r ، واتبع غير سبيل المؤمنين؛ فإنه إلى خبال ووبال وعذاب ونكال، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُـدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥].

فكفى ما جنيتم به على أمة الإسلام، من تضييع لحق الله تعالى، وتمييع لعقيدة الـولاء والبراء، وتدجين الأمة والتطبيع مع الأعداء، والإعراض عن الجهاد في سـبيل الله، بـل ومحاربة أهله، ورميهم بالتطرف والتشدد والإرهاب، وعدم فقه الواقع، عياذا بالله مـن الخذلان.

واعلم هداك الله، أن هناك فرقا كبيرا بين التعذير عن المخطىء وتبرير خطئه، فضـلا عن القول بصحته، فإن اجتمع التعذير والتبرير؛ فاعلم أنه يُـرَادُ إلبـاس الباطـل لبـاسَ الحق، وإقناع الجموع بمبدء العصمة.

ونحن في دعوتنا، كما نحذر من المرجئة، والخوارج، وناصر الجهاد وأهلـه، ونـدعوا إلى إقامة شرع الله، فكذلك ننصح للخلق، ونعظم الحق، وإن كره من كره.

فالويل لمن قدم دين الله بناء على تصوراته الخاصة، وأجندة الحزب، لا عـلى مـا كـان عليه النبي r وأصحابه y ، فالحق أعظم من الخلق.

<u>طريقة جماعة الإخوان المسلمين في التعامل مع الحق وإصابته:</u>

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فجماعة الإخوان المسلمين، من أصولهم الكبار إثبات الخلاف، ولو كان شاذا، بل منكرا، بل زندقة؛ لتسويغ العمل به، والتبرير لأصحابه، وعدم الإنكار عليهم؛ ليستع الماعون والجلباب، فيشمل كل صاحب هوى، بل تجاوزا ذلك حتى قال بعضهم إن اليهود والنصارى مؤمنون، وليس بيننا وبينهم اختلاف عقدي، وصرحوا بأنهم إخوة لهم،وليسوا بكفار؛ ومن هنا تعلم خطورة هذا الفكر الذي يؤول إلى اتخاذ الدين لهوا ولعبا، وإنا إن كنا نحارب الطواغيت، فإن هذا الفكر لا يقل عنهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٩ / ٢٥٣):[لَيْسَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ الْمُتَكَلِّمُونَ حَقًّا بَلْ كُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قَالَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ وَغَيْرُهُمْ مِمَّا يُوَافِقُ ذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قَالُوهُ مِمَّا يُخَالِفُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَقَدْ عُرِفَ ذَمُّ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لِأَهْلِ الْكَلَامِ الْمُحْدَثِ، قَالَ: وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ أَرَادُوا بِزَعْمِهِمْ نَصْرَ الشَّرْعِ بِعُقُولِهِمْ النَّاقِصَةِ وَأَقْيِسَتِهِمْ الْفَاسِدَةِ، فَكَانَ مَا فَعَلُوهُ مِمَّا جَرَّأَ الْمُلْحِدِينَ أَعْدَاءَ الدِّينِ عَلَيْهِ فَلَا الْإِسْلَامَ نَصَرُوا وَلَا الْأَعْدَاءَ كَسَرُوا، ثُمَّ مِنْ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ يَتْرُكُونَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ الْمَعْصُومِينَ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ إلَّا الْحَقَّ وَيُعْرِضُونَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَيُقَلِّدُونَ وَيُسَاكِنُونَ مُخَالِفَ مَا جَاءُوا بِهِ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومِ وَأَنَّهُ يُخْطِئُ تَارَةً وَيُصِيبُ أُخْرَى وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ].ا.هـ.

الاصطلاح على الدنيا بضياع الدين مؤذن بالدمار والهلاك:

واعلم رحمك الله، أن الحرص على دنيا الناس مع ضياع حق الله تعالى، هو من أعظم أنواع الخيانة وتضييع الأمانة، وهو سبب الانتكاسة، وفساد الأحوال، وتسلط العداء،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا جاءت الآيات والأحاديث واضحة المعالم في ضرورة أداء الأمانات إلى أهلها، وتأمل كيف قرن الله تعالى الأمانة وضياعها بإثبات حقه تبارك وتعالى في هذه الآيات الآتية، وكيف بين سبحانه أن من تضييع الأمانة عدم إعطاء كل ذي حق حقه، حتى يبلغ الحال بالعباد أن يعطوا المخلوق حق الخالق تبارك وتعالى عياذا بالله من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، وإليك هذه الآيات، قال تعالى: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [العنكبوت: ٢٥]، أي تصالحتم على أمر دنياكم مع الإبقاء على الطاغوت وحكمه، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَّ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَّ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهَّ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُّ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهَّ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٥٩-٦٥].

العقوبة بنزع الأمانة:

ولهذا كان من أسوء العقوبات الإلهية نزع الأمانة وقبضها من المجتمعات، كما قال البخاري في صحيحه:(باب رفع الأمانة) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا هِلاَلُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، t ، قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ الله قَالَ إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ". حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ قَالَ:حَدَّثَنَا رَسُولُ الله r حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا:"أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ فَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ"، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ الإِسْلاَمُ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا.

قَالَ الْفَرَبْرِيُّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ حَدَّثْتُ أَبَا عَبْدِ الله فَقَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَاصِمٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ يَقُولُ: قَالَ الأَصْمَعِيُّ، وَأَبُو عَمْرٍو وَغَيْرُهُمَا جَذْرُ قُلُوبِ الرِّجَالِ الْجَذْرُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَالْوَكْتُ أَثَرُ الشَّيْءِ الْيَسِيرُ مِنْهُ وَالْمُجْلُ أَثَرُ الْعَمَلِ فِي الْكَفِّ إِذَا غَلُظَ. حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةُ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً". وحديث حذيفة وابن عمر رضي الله عنهما أخرجهما مسلم في صحيحه كذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَقَبْضُ الْأَمَانَةِ وَالْإِيمَانِ لَيْسَ هُوَ قَبْضِ الْعِلْمِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُؤْتَى إيمَانًا مَعَ نَقْصِ عِلْمِهِ . فَمِثْلُ هَذَا الْإِيمَانِ قَدْ يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ كَإِيمَانِ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمَّا رَأَوْا الْعِجْلَ.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ مَعَ الْإِيمَانِ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ قَطُّ بِخِلَافِ مُجَرَّدِ الْقُرْآنِ أَوْ مُجَرَّدِ الْإِيمَانِ فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَرْتَفِعُ . فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ . لَكِنْ أَكْثَرُ مَا نَجِدُ الرِّدَّةَ فِيمَنْ عِنْدَهُ قُرْآنٌ بِلَا عِلْمٍ وَإِيمَانٍ أَوْ مَنْ عِنْدَهُ إيمَانٌ بِلَا عِلْمٍ وَقُرْآنٍ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ فَحَصَلَ فِيهِ الْعِلْمُ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ]ا.هـ.

فهذه عقوبات وغيرها كثير، تسلط على الأمة من جراء تلاعبهم بحق الله تعالى، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن أكثر من يكون سببا في ذلك هم الأمراء والسلاطين وملؤهم الظالمين، ثم من فسد من العلماء، ويأتي بعد ذلك المُسْتخفون من العامة والدهماء، ولكن العذاب إذا نزل عَمَّ علية القوم ومن اتبعهم على ذلك التلاعب بشرع لله تبارك وتعالى، كما قال تعالى:{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: ١٦-١٧]، وقال تعالى عن فرعون وملئه وأتباعه من قومه: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} [الزخرف: ٥٤ - ٥٦].

لا يجوز عرض الكفر على الأمة تحت أي دعوى أو شعار

فصل: في بيان أنه لا يجوز عرض الكفر على الأمة، وحثهم عليه، بدعوى نصرة الإسلام، وميزان المصالح والمفاسد، إذ أعظم المفاسد كما تقدم الشرك والكفر بالله جل وعلا، فلا مصلحة ترجى بعد ضياع التوحيد والتمكين للكفر.

واعلم أن كل ما يستدل به دعاة الديمقراطية منتقد مُطَّرَح، فهو إما دليل ضعيف الإسناد، أو صحيح غير صريح الدلالة؛ لِطُرُوءِ الاحتمال فيه وَوُرُودِه عليه، في مقابلة الأدلة الواضحة البينة الجلية الدالة على المنع من ذلك، ومما يزيد الأمر وضوحا أنك لا تجد في سبيل المؤمنين قط – النبي r وأصحابه y - أنهم قبلوا عرض الكفر على الأمة بدعوى الحفاظ على الإسلام أو نصرته، وأنى يكون هذا؟!!.

بل قد جاءت الأدلة الواضحة البينة الدالة على أنه لا يجوز عرض الكفر على الأمة مطلقا، وأن هذا ليس محلا للمساومات والأخذ والعطاء، والقبول وأنصاف الحلول، قال تعالى: {بسم الله الرحمن الرحيم: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:١-٦].

فالأمة مأمورة أبدا بعدم قبول الكفر، بل هي مأمورة بأن تأخذ دينها بجد وتستمسك به وتأخذ بأحسنه، وتأمل في قصة أصحاب الأخدود وما قاموا به من الثبات على الإسلام، وعدم الرضوخ للطاغوت، حتى قُتِلُوا جميعا، وسمى الله تعالى ذلك فوزا عظيما، وتأمل قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف:١٤٥].

وقال: {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء:٢١٣-٢١٦].

وقوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء:٧٣-٧٥]، وقوله: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:٨-٩]، وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت:١٠-١٣].

ومثل هذا كثير في الأدلة الشرعية، بل هذا هو الأصل، وأما الاحتجاج بما جاء في الصحيحين عن جابر t قال قَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ". فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ يَا رَسُولَ الله أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ قَالَ:"نَعَمْ". قَالَ ائْذَنْ لِي فَلأَقُلْ قَالَ:"قُلْ". فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا وَقَالَ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَرَادَ صَدَقَةً وَقَدْ عَنَّانَا. فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ وَأَيْضًا وَالله لَتَمَلُّنَّهُ. قَالَ إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ الآنَ وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ....الحديث.

الرد على شبهة قصة قتل كعب بن الأشرف:

فهذا الحديث لا يسعفهم أبدا، وإليك بيان ذلك من وجوه:

أولا: أن المخالف لا يستطيع فعل هذا اليوم بعين ما فُعِل من قبل، أي لا يستطيع أن يقول في حق النبي r لينصر الدين، فإن هذا منه ردة والعياذ بالله، فإن قال نعم؛ لأن النبي أذن وهذا لا نملكه فقد مات r ؛ قلنا إذن عاد الأمر إلى إذن الشارع، فمن أذن لكم أنتم؟!.

ثانيا: أنه إذا كنا لا نستطيع أن نأتي بالأصل الذي عليه اعتمدنا في الحكم دل ذلك على الخصوصية، فتعميم ذلك والحالة هذه ممتنع فاسد، فإن الأصل إذا انهدم فالفرع أولى وأحرى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا: أن هذه قضية خاصة تمَّت سرا، فأين هذا من الدعوة العامة للأمة إلى الكفر وقبول الدخول في خطة الكافرين؟!.

ولهذا لا يمكن أن تجد صورة عامة لمثل هذا المثال الذي يضربونه مجادلة بالباطل – وإن لم يتعمدوا ذلك -، فلا تجد كما تقدم أبدا مثالا يُعرض فيه الكفر على العباد، بل ويزين لهم، بل ويجعلونه السبيل الوحيدة، بل بعضهم يراها المثلى والأنفع والأنجع، عياذا بالله من الخذلان.

رابعا: أن هذا تم في وقت عزة الإسلام، بحيث لا يُخشى على الأمة من جراء ذلك، بخلاف الحال اليوم.

خامسا: أن القول لم يكن صريحا، وإنما هو القول المحتمل الموهم، وإنما الحرب خدعة، كما ثبت بذلك الخبر عن النبي **r**، كما في الصحيحين من حديث علي وأبي هريرة وجابر **y**، بخلاف الديمقراطية التي فيها عهود ومواثيق، يتم التوقيع عليها والإقرار بها، وتقدم الضمانات الكافية على الالتزام بها، والشعب يراقب ذلك، والمجتمع الدولي بالمرصاد.

سادسا: أن نصر الإسلام بذلك كان مقطوعا به، بخلاف الديمقراطية التي ما جيء بها إلا لهدم الإسلام، وضمان عدم قيامه في العالمين، إلا إسلاما مختزلا مُقَصْقَص الأطراف (الإسلام الأمريكي الذي يقدمه جماعة الإخوان المسلمين، كما في تركيا وتونس والسودان).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالبون شاسع بين الحالتين والهُوَّةُ سحيقة، ومما هو متقرر لدى أهل العلم أن الفارق إذا كان أكبر من الجامع بين الأصل المُقاس عليه والفرع المقيس؛ فسد القياس وطرح، وكان إمضاؤه والحالة هذه من أبطل الباطل، واتباعا صريحا للهوى وطرحا للهدى.

فإذا علمنا هذا، فلنعلم أن المتقرر المقطوع به عند أهل العلم، وجوب ترك المتشابه والأخذ بالمحكم، ووجوب طرح المحتمل والأخذ باليقين.

فقد جاء في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قَالَتْ تَلاَ رَسُولُ الله r هَذِهِ الآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} إِلَى قَوْلِهِ {أُولُوا الأَلْبَابِ} قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله r :"فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ".

الرد على شبهة الاحتجاج بحلف الفضول:

وأما الاحتجاج بحلف الفضول أو المطيبين - على خلاف في هل هما شيء واحد أم لا - فإن الاحتجاج به غير تام؛ لأن الأسانيد لا تخلو من مقال[١]، والراجح أن الخبر مرسل.

---

١ - جاء في موسوعة أقوال الإمام أحمد:[وقال المروذي: قلت لأبي عبد الله: فعبد الرحمان بن إسحاق، كيف هو؟، قال: أما ما كتبنا من حديثه، فقد حدث عن الزهري بأحاديث، كأنه أراد، تفرد بها. ثم ذكر حديث محمد بن جبير في الحِلْف، حِلف المطيبين، فأنكره أبو عبد الله. وقال: ما رواه غيره."سؤالاته"]ا.هـ. قلت: وهذا هو المعتمد من كلام الإمام أحمد في هذا الخبر أنه ينكره، فيحمل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى كل فالدخول في أحلاف مع الكفار ثابت شرعا، ولكن بالضوابط والأدلة الشرعية الصحيحة، والتي دلت على أن أي حلف، أو أي شرط لا يقوم على أصل تعظيم حق الله تعالى وتقديمه وصيانته فهو باطل، كما في الصحيحين في قصة بريرة مع عائشة رضي الله عنهما قال النبي r :"مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِئَةَ شَرْطٍ قَضَاءُ الله أَحَقُّ وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ وَإِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ".

المحتمل من كلامه على هذا، كالمدارسة التي جرت بينه وبين أحمد بن صالح وذكر فيها حلف المطيبين. والله أعلم.

وجاء في كتاب (التعديل والتجريح ، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح) للحافظ أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد ابن أيوب الباجي المالكي:[قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح فهات حتى نتذاكر ما روى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله r فجعلا يتذاكران إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح عندك عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي r قال ما يسرني أن لي حمر النعم وأن لي حلف المطيبين الحديث، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل أنت الأستاذ وتذكر مثل هذا فقال أحمد هذا رواه عن الزهري رجل مقبول، وهو عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي، وحدثناه عن ذلك الرجل شيخان ثقتان بشر بن مفضل وإسماعيل بن علية فقال أحمد بن صالح سألتك بالله ألا ما أمليته علي فقال من الكتاب فقام وأخرج الكتاب وأملاه عليه فأعجب به أحمد بن صالح وقال لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث لكان كثيرا ثم ودعه وخرج من عنده]ا.هـ. قلت: وهذه القصة كما ترى استغرب فيها أحمد بن صالح هذا الخبر، ونفى الغرابة الإمام أحمد بن حنبل، وكما هو معلوم أن نفي الغرابة لا يعني الصحة؛ ولهذا ومع أن أحمد بن حنبل نفى الغرابة إلا أنه قطع بالنكارة في رواية المروذي كما تقدم. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية قال النبي r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً، يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا".

فهذا هو الأصل الأصيل الذي تفتقده العملية الانتخابية والخطة الديمقراطية مطلقا، بل هي على النقيض من ذلك تماما، فإنما تقوم على تضييع حق الله تعالى والاستخفاف بالشريعة الربانية.

فَدَعُونَا من هذه المُماحكات والترقيعات، التي تفضي إلى التلاعب بحق المولى تبارك وتعالى، وأفيقوا فإن هذا الدين لا ينتصر إلا بالكتاب الهادي والسيف الناصر.

الرد على من شبهة ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أماكن الخبث:

وذلك أن البعض يُشَبِّهُ مسألة الدخول في البرلمانات، بِحَالَة الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في أماكن المنكرات، فهو يدخل وينكر، يقول: ونحن كذلك ندخل لِنُنْكِر، والجواب على هذه الشبهة المتهالكة من وجوه:

الوجه الأول: أن الإنكار مع الانتساب لمكان المنكر والدخول في خطته ومنظومته، يختلف تماما عن حال الذي لا ينتسب إليه، وليس له به أدنى صلة أو علاقة، بل هو دخول محض للإنكار، {فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها}، وهذا فارق عظيم كبير بين الأصل والفرع، يبطل به هذا القياس ويفسد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجه الثاني: أن الدخول في البرلمانات يسبقه الاعتراف بها، والقسم على احترامها والإخلاص في ذلك، بخلاف الذي يدخل دخولا محضا، لا إلزام معه بشيء، من هذه الضلالات والمنكرات، فأين هذا من احترام الكفر والاعتراف به مُوَقِّعاً على ذلك، وإن زعم أنه لا يُقِرُّه، وهذا فارق عظيم آخر بين الأصل والفرع، يبطل به هذا القياس ويفسد.

الوجه الثالث: أنه كما أن هناك فرقا بين من يعمل في خمارة ويتعاطى شيئا من الدعوة فيها، وبين من يدخل للإنكار المحض، فالفرق في البرلمانات أشد وأغلظ؛ لأن المنكر هناك هو الكفر بالله تعالى.

على أن الدَّاخِلَ إلى حَانَةِ الخمر للإنكار، إن خَشِيَ تلبيسا على الأمة؛ وجب عليه الترك، أو البيان الشافي قبل الدخول، فكيف بالبرلمانات الكفرية الطاغوتية، التي يكون المُنْكِرُ فيها عضوا من أعضائها.

الوجه الرابع: أن الرسل قاموا بهذا الدور الريادي أكمل قيام، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأين تجدون في دعوة النبي **r** ، هذا النوع من الدخول، حالة كونه موقعا العهود والمواثيق على احترام الكفر وتطبيق شروطه، والالتزام ببنوده المناهضة تماما للإسلام، وليس سرا بل في العلن والهواء الطلق؟!!.

بل جاءت دعوتهم عليهم الصلاة والسلام أصرح ما تكون في مفاصلة الطاغوت واجتنابه والتحذير منه كما تقدم، وتأمل دعوة إبراهيم الخليل كيف نابذ قومه من قبل ومن بعد، ثم دخل معبدهم وكسر أصنامهم، وهكذا تفعل الرسل عليهم السلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجه الخامس: أن التغاضي عن المنكر الأعظم تحت دعوى وغطاء وشعار تقليل المنكرات الأخرى، ضرب من التلاعب بالشريعة، فإن العملية الديمقراطية تقوم على تأليه الشعب للشعب، فالخلق فيها لله، ولكن الأمر للشعب، حيث تُطِيعُ الأَقَلِّيةُ الأغلبية.

فأين نحن من هذا الكفر والزندقة حتى تغاضينا عن ذلك، حتى وقَّعْنَا العهود والمواثيق على احترام هذا الكفر والشرك بالله تعالى، فلو كنا صادقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكان لزاما علينا أولا وقبل كل شيء، أن نتبرأ من هذه العملية الكفرية الشركية من أساسها، إذ هذا هو أول وأعظم منكر سنقابله، قبل الدخول لتخفيف منكرات أخرى.

الوجه السادس: أن الداخل للأمر بالمعروف والناهي عن المنكر دخولا محضا لا يَسَعُهُ إلا أن يُبَاشِر المنكر الأغلظ، ويبادر إليه –ألا وهو الكفر والشرك- لا يُدَارِي ولا يُمَارِي، كما كان الرسل يفعلون، بينما أصحاب البرلمانات لا يملكون ذلك؛ لأن الخطوط الحمراء التي وَقَّعُوا عليها تُلْزِمُهم بعدم رفع الشعارات الدينية في وجه الأحزاب الكفرية؛ لأن الكل على قدم المساواة في دستور الأحزاب الشركي الطاغوتي، وقوانينه الوضعية الكفرية.

الرد على شبهة من قال: ندخل ولا نستجيب لهم ولا نُقِرُّهُم:

وربما احتج هؤلاء بحديث عائشة المتقدم في الصحيحين من قول النبي r لها :"اشترطي لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق".

والجواب على هذه الشبهة المتهالكة من وجوه:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجه الأول: أن المسألة المَقِيس عليها في هذا الخبر، ليست مسألة كفرية، كما هو الحال في البرلمانات، إذ لا يجوز لأحد أن يتكلم بالكفر اختيارا، فدعوى الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هنا، غير مُتَأَتِّيَةٍ البَتَّة؛ لأنه يلزم من هذا أنهم لو اشترطوا قولا أو عملا كفريا؛ لَوَسِع عائشة رضي الله عنها أن تقوله أو تعمل به اختيارا، وهذا من أقبح وأفسد ما يكون. فتأمل.

الوجه الثاني: أن النبي r هو السلطان في هذه الحالة، والأمر بيده وإليه، ولا يُخْشَى من ضَيَاع الحق أو التلبيس فيه، بخلاف هؤلاء الذين يدخلون مَحْكُومٌ عليهم لا حَاكِمين، مُكَبَّلِين بسلاسل وأغلال قوانين الأحزاب، مَقْضِيٌّ عليهم لا قَاضِين، فأين هذا من ذاك؟!!.

الوجه الثالث: أن النبي r بَادَرَ مباشرة بالإنكار العَلَنِي، والمُبْرم، بأوضح بيان وأشد عبارة، وهذا ما لا يملكه البرلماني إذا دخل في خطة الكافرين، فهناك إنما يكون الإنكار - إن مُكِّنَ منه - على استحياء وتَرَقُّبٍ وتَوَجُّس، وأيُّ تجاوز للحدود الدستورية والقوانين الحزبية، فإن الرادع له بالمرصاد، فأي تلبيس وتضييع للمبادئ كهذا؟!!.

ولا تقل سأنكر في الخطب والمحاضرات، لأننا سنقول لك إن كنت فردا من أفراد الحزب، فإن قانون الحزب يحكمك، فما هو إلا صورة الإنكار الباهتة المتقدم ذكرها، هذا إن سُمِحَ له بذلك، وإن كنت لست فردا فيها فما أغنيت عن الأمة شيئا، فصوتك لا يمثل الحزب أصلا، وورقتك التي وَقَّعَ عليها أتباعك وسَرَت بها الركبان، قد ألبست على الناس دينهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في حين أنك لا تملك إصدار أي ورقة مماثلة باسم الحزب، تتبرأ فيها من هذه العملية الكفرية، ولا أن تشهد فيها بالكفر على الأحزاب العلمانية الأخرى، ولا أن تشهد ببطلان الدستور وقوانين الأحزاب وقانون البلاد، فانظر ما ذا جنيت على الأمة؟!!، وما جنيت لها؟!!.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ، قال لها ذلك؛ إهدارا لهذا الشرط، وإبطالا له، وإسقاطا لقيمته واعتباره، فأين هذا، ممن يذهب ويوقع على هذه الشروط الكفرية؟!!!، ويلتزم أجندة الدستور الجاهلي والقوانين الكفرية؟!!!.

الوجه الخامس: أن هؤلاء، أو بعضهم يَتَصَوَّرُون، أن اللعبة الشيطانية المسماة بالانتخابات الديمقراطية، يظنونها لعبة اشتروها، حتى إذا فرغوا منها ألقوها.

هيهات هيهات!!، إن الذي أَذِنَ لك بالدخول، يعلم أنك على خلاف معه في الأصول، ولهذا خَزَمَكَ وأَلْجَمَك، بهذه الشروط الكفرية؛ ليضمن عدم تَنَصُّلِكَ عنها، أو تَلَاعُبِك بها، وهو رَاصِدٌ لِقَوْلِك وعَمَلِك، وسَتُحَاسَبُ على أدنى تقصير في ذلك، فالشَّعب وقانون الأحزاب من الداخل، والمجتمع الدولي من الخارج، وأنت بينهما لا تملك إلا الانْصِياع والانقياد، لما وَقَّعْتَ عليه بنفسك، والْتَزَمْتَ به.

فهذه الشروط في حالة تمكن الطاغوت تقع مُلْزِمَة، بخلاف حال تمكن دولة الإسلام فإنها تقع فاسدة مُلْغَاة، فلا تخلطوا الأمور وتلفقوا الأدلة.

الوجه السادس: أن ما ستقوله عائشة رضي الله عنها لهم سيقع باطلا لا قيمة له، بينما الذي سَتُوَقِّعُون عليه؛ سَيَقَعُ مُلْزِماً لا مَحِيدَ عنه ولا مَنَاص، كما تقدم، وإلا فَالطَّرْدُ والإبعاد والإقصاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل أقوالكم التي تعتقدون أنها هي الحق، ولكنها تكون مخالفة لما وَقَّعْتُم عليه، هي التي ستذهب سرابا وهباء منثورا، فالدستور الجاهلي، والقانون الكفري فَوْقَكُم، وإليه مَرَدُّكُم عند التنازع في أي أمر، مِنْ مُتَعَلَّقَاتِ الحزب والعملية الانتخابية.

أما ما يتعلق بقصة يوسف عليه السلام، ودعوى أنه تولى الولاية للملك الكافر، فهذه دعوى باطلة، مخالفة لنصوص الكتاب والسنة، ومخالفة لما كان عليه السلف الصالح، فقد بين الإمام المفسر المحدث مجاهد بن جبر، وهو أحد أبرز تلاميذ الحبر البحر ابن عباس t ، أن الملك أسلم مع يوسف لله رب العالمين.

وكذلك شبهة النجاشي وأنه كان يحكم بالطاغوت، هي دعوى عريضة لا دليل عليها ولا سلف لقائلها، وإن كان من الأئمة المجتهدين، بل فد أثبت إمام السيرة ابن إسحاق أن النجاشي وجنده وعلماء مملكته كلهم أسلموا لله رب العالمين، مع الرسول r وانقادوا لشرعه، وللتوسع في معرفة بطلان هذا الاستدلال راجع كتابي (فتنة العصر التشريع)، فقد فَنَّدْتُ الحادثتين بأوجه كثيرة جدا، ولله الحمد والمنة.

وكذلك مؤمن آل فرعون لم يكن من عمال فرعون ولا جنوده، بل نُسِبَ إليه لكونه من قومه، ولا تجد أصلا لهذه الدعوى لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال التفسير من السلف ، فمن زعم أن مؤمن آل فرعون كان من جنده أو عماله فقد أبعد النَّجْعَة وأعظم الفرية، كيف والله تعالى يشهد له بالإيمان؟!، بينما شهد على فرعون وجنوده بالكفر والطغيان، كما قال تعالى:{إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [القصص:٨]، وقال سبحانه:{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ} [القصص:٣٩-٤٢].

بل جاء قول عن بعض السلف أن هذا المؤمن كان إسرائيليا، ورجحوا الوقف على قوله تعالى:{وقال رجل مؤمن}، ثم تستأنف:{من آل فرعون يكتم إيمانه}، فيكون المعنى أنه كان يكتم إيمانه من فرعون وقومه. ورجح ابن جرير وابن كثير القول الأول.

ولْنَتَذَكر أن الله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبا، وأن المتشابه واتباع الظن خبيث عند الله جل وعلا، وأن العاطفة الصادقة في نصرة هذا الدين لا تغني عن أصحابها شيئا ما لم تكن على هدي النبي r وسبيل المؤمنين y.

فائدة نفيسة عزيزة: قال ابن القيم في:(الفوائد)"[فَلَوْ سَلَكَ الدُّعَاةُ المَسْلَكَ الذِّي دَعَا الله ورَسُولَه به النَّاس إليه لَصَلُحَ العَالَمَ صَلَاحاً لا فَسَادَ مَعَه].اهـ.

واعلم أن كل عقد يفضي إلى الكفر لله تعالى، لا يجوز الدخول فيه، وكل شرط تحت مظلة الطاغوت لا يجوز التوقيع عليه، ولو صُوريا، وإن كان في عقود الشركات والأعمال والمؤسسات؛ لأنه كما تقدم سيقع ملزما؛ فيكون العبد قد جر على نفسه الدخول في حكم الطاغوت، الذي أمر أن يكفر به، واعلم أن من أنواع الالتزام الإقرار، فتنبه واحفظ دينك.

البرلمانات إرصادا لمن حارب الله ورسول:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن كل دائرة أو موقع يُدَارُ فيه الكفر والزندقة، فأنت مطالب باجتنابه تماما، وإياك أن تقربه أو تُدَاخِل أهله بدعوى المصالح والمفاسد، فالحذر الحذر، فإنه إذا كان الله تعالى قد نهى نبيه r عن القيام في مسجد ظاهر أنه بُني لله تعالى، ولكن حقيقته كان اتفاقا بين اليهود والمنافقين للمكر بالإسلام وأهله، قال الله تعالى لنبيه r :{لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة: ١٠٨].

مع أنه كان بالإمكان أن يُغير فيه، وأن يُنَصِّب إماما، ونحو ذلك، ولكنها الهداية الربانية:{لا تقم فيه أبدا}، ليعلم الجميع أن دور الباطل يجب اعتزالها جملة وتفصيلا، فأين مسجد الضرار من هذه البرلمانات الكفرية، التي فيها أرباب متشاكسون؟!!.

وكذلك فعل النبي r مع دار النَّدوة، والتي هي مَكْرُمَةُ قريش، وبرلمانها الكفري، حيث تدار الأمور وتنطلق التشريعات الجاهلية، فلم يدخل النبي r هذه الدار قط، بل أسس دار الحق منطلقا لدعوته وإرصادا لمن آمن بالله ورسوله، ألا وهي دار الأرقم ابن أبي الأرقم t ، هكذا هي دعوة الرسل، لا لبس فيها ولا غبش، بل هي المفاصلة التامة للكفر والكافرين وللشرك وأهله، وإعلان البراءة منهم ومن أربابهم وآلهتهم.

هكذا كانت دعوة النبي r وطريقته، فدعك عنك بنيات الطريق، والآراء الفاسدة، التي أفضت بأقوام إلى الدخول في خطة الكفر والكافرين، بل ودَعَوا الأمة إلى ذلك.

فلا تَغْتَر بكثرة القائلين بجواز ذلك، فإنما هو الحق تُعْرَفُ به الرِّجال وتُمَيَّزُ أَقْوَالُهم، ويُحْكَمُ عليها به، فَلَسْنَا نَعْرِفُ الحَقَّ بالرجال. فتنبه فإنه مقام خطير زلت في أقدام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيا أيها العلماء والدعاة، أما علمتم أن دخولكم في مثل هذا الخبث، يمثل جِنَايَةً عظمى على عقيدة الولاء والبراء.

فبدلا عن أن تكونوا أئمة يُهْتَدَى بكم، باتباعكم لإمام الحنفاء محمد r ، الذي اتبع الحنيف الخليل r ، ناشرين لها داعين إليها؛ تقومون مقام المُداخل للطاغوت، الملتزم بأجندته، والمُوَقِّعِ على دستوره وقانونه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال تعالى:{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الممتحنة:٤-٥].

وأخيرا أنظر أخي المُغْتَر بهذا السراب، ألا ترى أنك أصبحت بُوقاً يجادل عن العملية الكفرية، وأنك أوشكت، أن تصبح فردا في منظومتها، وأنك لا للباطل كسرت، ولا للحق أظهرت، وإنما هو التلبيس على الأمة والضياع.

ثم أُذَكِّرُكَ بحقيقة حَتْمِيَّةٍ، مَبْنِيَّةٍ على المُعطيات الواقعية، والممارسة العملية، التي وَقَّعْتَ عليها.

بل وَفَوْقَ ذلك هي مُسَطَّرَةٌ في كتاب الله تعالى، الذي حَذَّر من الركون إلى الكفار والمشركين، والمُذَكِّر بقول المنافقين:{يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النساء:٦٢]، والمُحَذِّرِ من خُطُواتِ الشَّياطِين، وشِدَّةِ حَسَدِ الكافرين، وحُبهم لموافقتهم، كخطوة تَجُرُّ ما بعدها إلى الوقوع في كفرهم.

أنك وإن تَسَلَّمْتَ الحكم في نهاية أمْرِك، فإنك لن تكون سوى أداة لتطبيق الدستور الجاهلي والقانون الوضعي، الذي التزمت باحترامه والعمل به مسبقا.

وهذا ما جرى ويجري في عالم الناس اليوم، فترى أسماء إسلامية، وربما أشْكَالا إسلامية كذلك، ولكنَّ المَقَالَ أصبح عِلمانيا، والنظر والحل والعقد صار من خلال الدستور الجاهلي، والقانون الوضعي الكافر الفاجر.

وأنا أعلم، بل والكل يعلم، أن الدول الديمقراطية، إنما هي دولة مؤسسات مدنية، كما يسمونها، وأنها محكومة بالدستور والقانون، بغض النظر عن تدين الحاكم من عدمه، وإنما هي فرقعات هنا أو هناك يسمونها مصالح، لا تساوي شيئا في جنب الكفر المقرر دستورا وقانونا، فصرنا كالذي يبني المساجد ويوالي أعداءها، ويوسع الحرمين ويشرك بالله تعالى تبديلا وتشريعا جاهليا، ونحو ذلك من ممارسات المنافقين.

فإنما هي علمانية جديدة في لباسٍ إخْواني أو سَلفي، وانظر إلى حالنا في بلاد شتى؛ لترى النتيجة قبل أن تدخل في هذا الكفر والضلال، فإن لك فيمن سبقك مُعتبر، والسعيد من وُعِظ بغيره.

فهاهي مصر والسودان، وتركيا والمغرب وتونس، وبالأمس الجزائر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ألا فلنتق الله في دين الله تعالى، وأمة محمد r ، فليس الإسلام ملكا لنا حتى نتلاعب به بهذه الصورة، ونطوح به في أُتُونِ ونجاسات العملية الانتخابية الكفرية الفاجرة.

فصل: **في بيان أن الذي قاد هؤلاء الدعاة إلى هذه السُّبُل الشركية الكفرية**، هو تحولهم من دعوة النبي r القائمة على الكتاب الهادي والسيف الناصر، إلى الدعوة السلمية – زعموا عبر الانتخابات الديمقراطية والبرلمانات وكلاهما شرك بالله تعالى- والتنكر للجهاد في سبيل الله، بل ورمي من ينادي بالرجوع إلى سبيل المصطفى r ، بإقامة الكتاب الهادي وسَلِّ السيف الناصر، يرمونه بالتطرف والغلو التشدد والإرهاب.

وهذا إضافة إلى أنه مصادمة صريحة للأدلة الشرعية، ودعوة الرسل قاطبة التي قامت على الصبر والمصابرة والمرابطة والمجاهدة، والاستعلان بالكفر بالطاغوت، والسعي في القضاء المبرم عليه، والدعوة إلى ذلك مقبلين غير مدبرين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، فهو كذلك جري وراء سراب، إذ أن الكفار لن يزالوا يقاتلوننا وإن لم نقاتلهم، كما قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة: ٢١٧]، ولن يزالوا ساعين في صدنا عن سبيل الله، كما قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة:١٢٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران:١١٩-١٢١].

فالدعوة السلمية الديمقراطية لم تكن أبدا سبيلا للرسل، إذ أن أول ما تتنصل منه هذه الدعوة، هو تحقيق عقيدة الولاء والبراءة، بل هي تدعو إلى احترام الكفر وأهله ومواثيقه المصادمة للإسلام، وتنشر، وتكفل الحريات الدينية والفكرية والسلوكية، وبمعنى مختصر فإنها تدعو إلى تأليه البشر لأنفسهم، والله تعالى يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون:١١٥-١١٧].

فعلى الأمة أن تعلم أن هذه الديمقراطيات لن تأتي أبدا بإسلام محمد r، مع استصحاب أنها سبيل كفرية غير مأذون فيها أصلا، ولكنها ستشوه الإسلام الحق، وتطبع مع العدو الذي يسعى في استئصالنا، وأن هذه الديمقراطية لن تفرز إلا نظاما محاربا لثوابت الإسلام من الولاء والبراء والتطبيق العام لشرع الله تعالى وإقامة الجهاد في سبيل الله، وبمعنى آخر، فهو طاغوت من نوع آخر، يتسربل باسم الإسلام؛ ليهدم الإسلام باسم الإسلام: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأقولها وبكل صراحة، ما أسعد الغرب الكافر، بهذه الأحزاب الإسلامية، التي تدخل وهي تعلم أنها لن تستطيع أن تطبق الشريعة، وإنما الدستور والقانون، وها هو الغرب يساوم المجاهدين على مبدء التنازل عن الشريعة. ولكن هيهات هيهات.

ولإزالة هذه الطواغيت الغربية، وتلك الأخرى المصنعة في بلاد الغرب فكرا ومضمونا، وهم من بين جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، لابد من إحياء شعيرة الولاء والبراء والجهاد في سبيل الله؛ لاجتثاث هذا الطاغوت الذي دأب على تقريب الأنجاس الأرجاس، ومحاربة أهل الإصلاح والإخلاص، وحتى يزول الذي يحول بين الناس وكتاب ربهم وهدي نبيهم r ؛ ليبصروا الحق ويعملوا به.

وإلا فسيبقى الطاغوت مزينا للباطل، إماماً فيه، مُبْغِضاً له، مُبَغِّضاً للحق محاربا له ولأهله، مستعملا خطة كبيرهم ومقدمهم فرعون الذي وصفه الله تعالى بقوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:٢٦]، وقال: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢): [وَقَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}، **فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَأَنَّهُ أَنْزَلَ الْحَدِيدَ لِأَجْلِ الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ؛**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ وَلِهَذَا كَانَ قِوَامُ الدِّينِ بِكِتَابٍ يَهْدِي وَسَيْفٍ يَنْصُرُ وَكَفَى بِرَبِّك هَادِيًا وَنَصِيرًا.

وَالْكِتَابُ وَالْحَدِيدُ وَإِنْ اشْتَرَكَا فِي الْإِنْزَالِ فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا نَزَلَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَنْزِلْ الْآخَرُ. حَيْثُ نَزَلَ الْكِتَابُ مِنْ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وَقَالَ تَعَالَى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}، وَالْحَدِيدُ أُنْزِلَ مِنْ الْجِبَالِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا. وَكَذَلِكَ وَصَفَ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَى الْبِرِّ الَّذِي هُوَ جِمَاعُ الدِّينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} إلَى قَوْلِهِ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَوَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالْكَذِبِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، قَوْلِهِ تَعَالَى: {إذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}.

قَوْله تَعَالَى: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وَنَحْوُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ]ا.هـ.

وما أحسن ما قِيل:

دعا المصطفى دهرا بمكة لم يُجَبْ... وقد لَانَ منه جَانِبٌ وخِطَابُ

فَلما دَعَا والسَّيفُ صَلْتٌ بِكَفِّهِ ... لَه أسْلَمُوا واسْتَسْلَمُوا وأَنَابُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: في بيان أحوال العمل مع الإيمان، وأنه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يكون العمل منافياً لأصل الإيمان، بحيث لا يُتَصور وجود الإيمان مع وجوده، فهذا العمل يُبطل الإيمان ويذهب به بالكلية؛ ويكون صاحبه كافرا بالله تعالى، وإن صلى وصام وحج كل عام، وإن كثرت سائر طاعاته، وهذا ما مثل له المؤلف بقوله:(والطواغيت كثيرون رؤوسهم خمسة): فإن هذه الأعمال تنافي أصل الإيمان، فإذا طرأت على الإيمان؛ أفسدته، كما أن الحدث إذا طرأ على الطهارة أفسدها. ومن أمثلة ما ينافي أصل الإيمان، حب انخفاض الدين، والفرح بذلك، والاستبشار بتمكن أعداء الإسلام، ومثله أيضاً مودة من حاد الله ورسوله، وقد تقدم ذكر جملة من نواقض الإسلام، وإنما سميت بذلك لأنها تنقض أصل الدين، وتخرج صاحبها عن كونه مسلماً، إلى الكفر الأكبر، والعياذ بالله؛ ولما كان الحكم بغير ما أنزل الله فيه التفصيل السابق، ولم يذكر المؤلف هذا التفصيل؛ علمنا يقينا أن المؤلف إنما يتكلم عن النوع الذي ينافي أصل الإيمان، ويصير به صاحبه، طاغوتا، كافرا مرتدا عن الإسلام، وهو التشريع والتقنين العام، كما تقدم بيانه والتفصيل فيه.

المرتبة الثانية: أن يكون العمل منافيا للإيمان الواجب، كارتكاب الكبائر ومُقَارَفَة المعاصي، التي لا تصل إلى حد الكفر والشرك الأكبر، كعقوق الوالدين والربا وشرب الخمر والزنا، وغير ذلك من الكبائر، فهذه لا يكفر صاحبها؛ لأنه يُتصور وجود الإيمان مع وجودها، بدلالات الكتاب والسنة، لكنه إيمان ناقص، ولهذا يقال عن هذا الصنف مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهؤلاء تحت المشيئة، وأمرهم إلى الله جل وعلا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المرتبة الثالثة: أن يكون العمل مما ينافي كمال الإيمان المستحب، كفعل المكروهات والتوسع فيها، والوقوع في الأمور المشتبهة، وكترك النوافل.

والمرتبة الثانية والثالثة هي التي تميز بين المقربين، والأبرار، والظالمين لأنفسهم، بينما أصحاب المرتبة الأولى، قد انعدم الإيمان وانتفى من قلوبهم، بارتكابهم لشيء من تلك النواقض.

تنبيه مهم:

حكم تقنين الشريعة:

اعلم رحمك الله أن تقنين الشريعة، أي جعل الشريعة في مواد، ودستور ونظام، هو من البدع المحدثة، بل ويفضي إلى طمس الحق، بل وفي بعض الأحيان، يفضي إلى التزام الباطل،؛ فيكون حكما بغير ما أنزل الله، وهو في هذه الحالة سيكون من التشريع العام؛ فيكون كفرا أكبر والعياذ بالله.

وإليك بيان ذلك، إن التقنين للشريعة، أولا لم يكن موجودا، لا في زمان النبي **r**، ولا أصحابه **y**، ولا في القرون المفضلة، بل إلى تقريبا الدولة العثمانية، ثم إن هذا التقنين لابد فيه من الالتزام بقول معين، لا يجوز المحيد عنه، فهو ملزم للجميع، ولابد من اختيار أحد المذاهب، أو الأقوال لبعض العلماء في ذلك، وهذا باطل قطعا؛ لأننا مطالبون بالاجتهاد في إصابة الحق، وعليه فلو جعلنا التقنين على مذهب مالك مثلا، ثم وجدنا الحق مع الشافعي، وتركناه؛ فقد أخذنا بالباطل وتركنا الحق، وهذه جريمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظيمة، تصل إلى حد الكفر إذا صارت تشريعا عاما، وألزمنا الناس بالباطل، بدعوى أنه قول فلان من الأئمة، أو بدعوى أنه يدرء الفتنة.

ولهذا كان الأمر في القرون المفضلة، أن القاضي والذي هو العالم الذي يُختار للقضاء، يجتهد في إصابة الحق، فإن أصابه؛ فله أجران، وإن أخطأه؛ فأجر واحد، كما دل عليه الخبر الصحيح، وهكذا.

وجاء في مجموع الفتاوى:[وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ اللَّازِمِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ "حُكْمُ الْحَاكِمِ" وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ؛ بَلْ حُكْمُ الْحَاكِمِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ يُلْزِمُ قَوْمًا مُعَيَّنِينَ تَحَاكَمُوا إلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ لَا يَلْزَمُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَلَا يَجِبُ عَلَى عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَلِّدَ حَاكِمًا لَا فِي قَلِيلٍ وَلَا فِي كَثِيرٍ إذَا كَانَ قَدْ عَرَفَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ بَلْ لَا يَجِبُ عَلَى آحَادِ الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ الْحَاكِمِ فِي شَيْءٍ؛ بَلْ لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ يَجُوزُ لَهُ اسْتِفْتَاؤُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا **وَمَتَى تَرَكَ الْعَالِمُ مَا عَلِمَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتَّبَعَ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْمُخَالِفِ لِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ كَانَ مُرْتَدًّا كَافِرًا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** قَالَ تَعَالَى:{المص *كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}. وَلَوْ ضُرِبَ وَحُبِسَ وَأُوذِيَ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى لِيَدَعَ مَا عَلِمَهُ مِنْ شَرْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَاتَّبَعَ حُكْمَ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِعَذَابِ اللهِ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَإِنْ أُوذِيَ فِي اللهِ فَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى:{الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وَقَالَ تَعَالَى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} وَقَالَ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}. وَهَذَا إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ قَدْ حَكَمَ فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ قَدْ تَنَازَعَ فِيهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فَحُكْمُ الْحَاكِمِ بِقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ سُنَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ e تُخَالِفُ مَا حَكَمَ بِهِ فَعَلَى هَذَا أَنْ يَتَّبِعَ مَا عَلِمَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ e وَيَأْمُرَ بِذَلِكَ وَيُفْتِيَ بِهِ وَيَدْعُوَ إِلَيْهِ وَلَا يُقَلِّدَ الْحَاكِمَ. هَذَا كُلُّهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. **وَإِنْ تَرَكَ الْمُسْلِمُ عَالِمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ عَالِمٍ مَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ e لِقَوْلِ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ** قَالَ تَعَالَى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَاكِمُ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ - مِثْلَ كَثِيرٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلَّمُوا فِي مَسَائِلَ بِاجْتِهَادِهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ e تُخَالِفُ اجْتِهَادَهُمْ - فَهُمْ مَعْذُورُونَ لِكَوْنِهِمْ اجْتَهَدُوا و{لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} **وَلَكِنْ مَنْ عَلِمَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ e لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ السُّنَّةِ إِلَى غَيْرِهَا** قَالَ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} وَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ كَانَ مَهْدِيًّا مَنْصُورًا بِنُصْرَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} وَإِذَا أَصَابَتْ الْعَبْدَ مُصِيبَةٌ كَانَتْ بِذَنْبِهِ لَا بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ e]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

** وجاء في الصارم المسلول لابن تيمية:[وقال سبحانه:{و يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * و إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم و رسوله بل أولئك هم الظالمون * إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا}[النور:٤٧ ـ ٥١]، فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن وأن المؤمن هو الذي يقول:سمعنا وأطعنا، **فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أن هذا ترك محض، وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالنقص والسب ونحوه؟**]ا.هـ.

وقال ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين):[ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وقد أمر أن يكفر به ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر]ا.هـ.

وقال أيضا الشيخ أبو بكر الجصاص الحنفي في كتابه:أحكام القرآن:[وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فَأَوْعَدَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ، وَجَعَلَ مُخَالِفَ أَمْرِ الرَّسُولِ وَالْمُمْتَنِعَ مِنْ تَسْلِيمِ مَا جَاءَ بِهِ وَالشَّاكَّ فِيهِ خَارِجًا مِنْ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْت وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} قِيلَ فِي الْحَرَجِ هَهُنَا إنَّهُ الشَّكُّ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَأَصْلُ الْحَرَجِ الضِّيقُ،وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ التَّسْلِيمَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ فِي وُجُوبِ تَسْلِيمِهِ وَلَا ضِيقِ صَدْرٍ بِهِ بَلْ بِانْشِرَاحِ صَدْرٍ وَبَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ e فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ e قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ]ا.هـ

وقال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن:[**فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع** قوله هنا:{وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله}، ثم قال مبيناً صفات من له الحكم {وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السماوات والأرض جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنعام أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الشورى:١٠-١٢]. **فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور**، ويتوكل عليه، وأنه فاطر السماوات والأرض أي خالقهما ومخترعهما، على غير مثال سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجاً، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة في قوله تعالى:{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين} [الأنعام:١٤٣] الآية، وأنه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنه {لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض}، وأنه هو الذي {يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْـدِر} أي يضيقه على من يشاء وهو {بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلـل ويحـرم، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل.

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسـول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ذلك خَـيْرٌ وَأَحْسَـنُ تَـأْوِيلاً} [النسـاء:٥٩] فقولـه فيها: {فَرُدُّوهُ إِلَى الله} كقوله في هذه {فَحُكْمُهُ إِلَى الله}.

وقد عجب نبيه e بعد قوله: {فَرُدُّوهُ إِلَى الله} مـن الـذين يـدعون الإيـمان مـع أنهـم يريدون المحاكمة، إلى مـن لم يتصـف بصـفات مـن لـه الحكـم، المعـبر عنـه في الآيـات بالطاغوت، وكل تحاكم إلى غير شرع الله فهـو تحـاكم إلى الطـاغوت، وذلـك في قولـه تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِـهِ وَيُرِيـدُ الشـيطان أَن يُضِـلَّهُمْ ضَـلاَلاً بَعِيداً} [النساء:٦٠].

فالكفر بالطاغوت، الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية، شرط في الإيـمان كـما بينه تعالى في قوله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيُؤْمِن بالله فَقَدِ استمسـك بـالعروة الـوثقى} [البقرة:٢٥٦]. فيفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى، ومـن لم يستمسك بها فهو مترد مع الهالكين]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١١ / ٩٥):[فهذا دليل على أنه يجب رد موارد النّزاع، في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله، أصوله وفروعه، إلى الله ورسوله، لا إلى غير الله ورسوله.فمن أحال في الرد على غيرهما، لقول فلان أو نص كتابه، أو عمل فلان وطريقة أصحابه، فقد ضاد الله في أمره؛ فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون، إلى الله ورسوله؛ ولهذا قال: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة النساء آية : ٥٩]، وهذا شرط ينتفي المشروط بانتفائه؛ فدل: على أن من حكّم غير الله ورسوله في موارد النّزاع، كان خارجا عن مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر]ا.هـ.

التشريع يدخل في جميع أنواع التوحيد أصالة:

واعلم رعاك الله، أن التشريع من متعلقات الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، بل هو والله أعلم الظلم الذي سيملأ الأرض في آخر الزمان، إذ من المقطوع به أن ثمة عدلاً سيبقى في الأرض، فالمقصود إذن بالحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما بمعان متقاربة أن النبي e قال:"لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني "أو من أهل بيتي" يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا". المقصود به ظلم التشريعات الجاهلية التي طبقت الأرض وملأتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا هو الظلم الأكبر الذي سينتشر في الأرض، وهذا ما نحن فيه اليوم، إذا ليس هناك دولة في الأرض اليوم تحكم بكتاب الله، وإنما إن وجد فهناك من يحكم ببعض ويترك الأكثر، على طريقة من يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

بل وكل من يحاول ذلك، أو حتى فقط يرفع شعاره؛ يرميه العالم بأسره عن قوس واحدة، ويجند الشيطان أجناده وسراياه؛ لإحباط ذلك، رغبة أو رهبة، ولو استدعى الأمر التدخل العسكري، فليكن، وهذا ما جرى في أفغانستان، والصومال، واليمن، وأخيرا في مالي.

ولكن هيهات هيهات، لأن رب العالمين، ومالك الملك قال: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف:٨-٩]، وقال جل جلاله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[الصافات:١٧١-١٧٣]، فالله تعالى، رب العالمين، ومالك الملك، قضى أنه مُتِمٌّ نُورَه ولو كره الكافرون، فلا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، فتربصوا إنا معكم متربصون.

فمتى يَعْقِلُ المسلمُون، ويُيْقِنُون يَقِيناً عَمَلياً، أن الله تعالى أصدق وأقدر من الإدارة الأمريكية، ومن جميع جَحَافِل الرُّوم، وأعْدَاءِ الملَّة؟!!.

قوله:(وفي الحديث: "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله"): هذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره وسنده جيد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا لفظه من مسند أحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ r فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ قَالَ:"لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ" ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ حَتَّى بَلَغَ ...{يَعْمَلُونَ}، ثُمَّ قَالَ:"أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ" فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ:"رَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ"، ثُمَّ قَالَ:"أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ"، فَقُلْتُ لَهُ بَلَى يَا نَبِيَّ الله فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ:"كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا"، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ:"ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[1].

فصل في بيان خطورة اللسان:

١ - أخرجه الإمام أحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجة والحاكم والطبراني في الكبير وغيرهم كلهم من حديث معاذ بن جبل t وفي إسناده مقال لبعض أهل العلم للانقطاع بين أبي وائل ومعاذ ولكن ليس كل منقطع ضعيفا؛ ولهذا قال أبو عيسى الترمذي عقب تخريجه لهذا الخبر من هذه الطريق :(هذا حديث حسن صحيح). وقد جاء من طريق أخرى لكن فيها شهر بن حوشب مضطرب الحديث، وفي طريق أخرى عن عروة بن النزال أو النزال بن عروة وفيه كلام عند أهل العلم، ومن طريق ميمون بن أبي شبيب وفيه مقال أيضا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦)إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨)وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [ق:١٦-٢٢].

وفي صحيح البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ".

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ".

قال ابن رجب في كتابه:(جامع العلوم والحكم):[وقوله:"ألا أُخبرك بملاك ذلك كُلِّه"، قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، فقال:"كُفَّ عليك هذا"، إلى آخر الحديث. هذا يدلُّ على أنَّ كفَّ اللسان وضبطه وحبسه هو أصلُ الخير كُلِّه، وأنَّ من ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه، وقد سبق الكلامُ على هذا المعنى في شرح حديث:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت". وفي شرح حديث:"قل: آمنتُ بالله، ثم استقم". وخرَّج البزار في "مسنده" من حديث أبي اليَسَر أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، دلَّني على عملٍ يُدخلني الجنَّة، قال:"أمسك هذا"، وأشار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى لسانه، فأعادها عليه، فقال:"ثكلتك أمُّك، هل يَكُبُّ النَّاسَ على مناخرهم في النَّار إلاَّ حصائدُ ألسنتهم"، وقال: إسناده حسن. والمرادُ بحصائد الألسنة:جزاءُ الكلام المحرَّم وعقوباته؛ فإنَّ الإنسانَ يزرع بقوله وعمله الحسنات والسَّيِّئات، ثم يَحصُدُ يومَ القيامة ما زرع، فمن زرع خيراً من قولٍ أو عملٍ حَصَد الكرامةَ، ومن زرع شرَّاً مِنْ قولٍ أو عملٍ حصد غداً النَّدامة. وظاهرُ حديثِ معاذ يدلُّ على أنَّ أكثر ما يدخل النَّاسُ به النار النُّطقُ بألسنتهم، فإنَّ معصية النُّطق يدخل فيها الشِّركُ وهو أعظمُ الذنوب عندَ الله - عز وجل -، ويدخل فيها القولُ على الله بغير علم، وهو قرينُ الشِّركِ، ويدخلُ فيه شهادةُ الزُّور التي عدَلت الإشراك بالله - عز وجل -، ويدخلُ فيها السِّحر والقذفُ وغيرُ ذلك مِنَ الكبائر والصَّغائر كالكذب والغيبةِ والنَّميمة، وسائرُ المعاصي الفعلية لا يخلو غالباً من قول يقترن بها يكون معيناً عليها.

وفي حديث أبي هُريرة، عن النَّبيِّ r ، قال:"أكثرُ ما يُدخِلُ النَّاسَ النارَ الأجوفان: الفمُ والفرجُ" خرَّجه الإمام أحمد والترمذي. وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ r ، قال:"إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمة ما يتبيَّنُ ما فيها، يَزِلُّ بها في النَّار أبعدَ ما بينَ المشرق والمغرب" وخرَّجه الترمذي، ولفظه:"إنَّ الرجلَ ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار".

وروى مالك، عن زيد بنِ أسلم، عن أبيه: أنَّ عمرَ دخل على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يَجْبِذُ لِسَانَه، فقال عمر: مَهْ، غَفَرَ الله لك! فقال أبو بكرٍ: هذا أوْرَدَنِي المَوَارِد.

وقال ابنُ بريدة: رأيتُ ابنَ عبَّاسٍ آخذاً بلسانه وهو يقول: ويحك، قُلْ خيراً تغنم، أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسكت عن سُوءٍ تسلم، وإلا فاعلم أنَّك ستندم، قال: فقيل له: يا ابن عبَّاس، لم تقولُ هذا؟ قال: إنّه بلغني أنَّ الإنسان -أراه قال- ليس على شيءٍ من جسده أشدُّ حنقاً أو غيظاً يَوْمَ القيامةِ منه على لسانه إلا من قال به خيراً، أو أملى به خيراً . وكان ابن مسعود يحلِفُ بالله الذي لا إله إلا هو : ما على الأرض شيءٌ أحوج إلى طولِ سجنٍ من لسان. وقال الحسن: اللسان أميرُ البدن، فإذا جنى على الأعضاء شيئاً جنت، وإذا عَفَّ عَفَّتْ. وقال يونس بنُ عبيد: ما رأيتُ أحداً لسانه منه على بالٍ إلا رأيتُ ذلك صلاحاً في سائر عمله. وقال يحيى بن أبي كثير: ما صلح منطقُ رجل إلاَّ عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقُ رجل قطُّ إلاَّ عرفت ذلك في سائر عمله. وقال المبارك بن فضالة، عن يونس بن عبيد: لا تجدُ شيئاً مِنَ البرِّ واحداً يتَّبعه البِرُّ كلّه غيرَ اللسان، فإنَّك تَجِدُ الرجل يصومُ النهار، ويُفطر على حرام، ويقومُ الليل ويشهد بالزور بالنهار - وذكرَ أشياءَ نحو هذا - ولكن لا تجده لا يتكلَّم إلا بحقٍّ فَيُخالف ذلك عمله أبداً]ا.هـ .

وما ذكره المؤلف هو جزء من الحديث، وقد ذكر محل الشاهد منه، وقد تقدم معنا جواز ذلك والعمل به عند السلف، وما جاء في هذا الشاهد، هو ما جاء في قوله تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج:٧٨]

قوله:(رأس الأمر الإسلام): قد تقدم بيان حقيقة المعنى الذي يصير به العبد مسلما عند الله تعالى، وأن الإسلام عند الإطلاق يفيد العموم، وهو العمل بالدين ظاهرا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وباطنا، وقد تقدم بيان مراتب العمل مع الإيمان.

الصلاة وأهميتها وحكم تاركها:

قوله:(وعموده الصلاة): بيان لمنزلة الصلاة من الإسلام، وقد تقدم، وإثبات النبي **r** أن الصلاة هي عمود الإسلام، دال على كفر تارك الصلاة، ولا فرق على الراجح بين المتهاون والمتكاسل والجاحد، إلا من جهة أن الكفر بعضه أغلظ من بعض، فهي عمود هذا الدين ولا يقوم إسلام المرء بدونه. وقد جاءت الآيات المتكاثرة والأحاديث المتظافرة في بيان أهميتها وعظيم منفعتها، وأنه لا قوام للعباد والبلاد بدونها؛ ولهذا أجمع الصحابة **y** على كفر تاركها وردته عن الإسلام، وقد نقل إجماعهم غير واحد من أهل العلم منهم عبد الله بن شقيق العقيلي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي،وابن بطة في الإبانة ، والإمام الحُميدي ، والآجري في الشريعة ، وابن حزم في المحلى ، وابن تيمية،وابن القيم، وقد نقل أقوال العلماء في ذلك مستوفاة في كتابه (الصلاة وحكم تاركها)، فليراجع.

ومصداق ذلك قوله تعالى:{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣١-٣٢]، وقد تقدم ذكر آيات أخرى من قبل، ومن السنة ما أخرجه مسلم في صحيحه من طريق ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ **r** يَقُولُ: "بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ". وما أخرجه أحمد وغيره و الترمذي وصححه من طريق الحسين بن واقد حدثنا عبد الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله r يقول:"العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر". وما أخرجه أحمد والدارمي بسند جيد عن عبد الله بن عمرو عن النبي r :"أنه ذكر الصلاة يوما فقال من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف"، وما أخرجه أحمد وغيره والترمذي وصححه من طريق عَاصِمِ بنِ أَبِي النّجُودِ عن أَبِي وَائِلٍ عن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النبيّ r فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً قَرِيباً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنّةَ وَيُبَاعِدُنِي عنِ النّارِ، قَالَ: "لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسّرَهُ الله عَلَيْهِ: تَعْبُدُ الله وَلاَ تُشْرِكْ بِهِ شَيْئَاً، وَتُقِيمُ الصّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجّ الْبَيْتَ، ثُمّ قَالَ: أَلاَ أَدُلّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصّوْمُ جُنّةٌ، وَالصّدَقَةُ تطفىء الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النّارَ، وَصَلاَةُ الرّجُلِ مِنْ جَوفِ اللّيْلِ، قَالَ: ثُمّ تَلاَ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبّهُمْ} حَتّى بَلَغَ {يَعْمَلُونَ} ثُمّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ: قلت: بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإسلام، وَعُمودُهُ الصّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ. ثمّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلّهِ، قلت: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقلت: يَا نَبِيّ الله وَإِنّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أمّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبّ النّاسَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ". قال أبوعيسى الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

ولهذا كان عمر الفاروق t يرسل إلى الأمصار يأمرهم بالصلاة ويبين لهم أنها من أهم أمور العبادة والعباد، كما أخرج ذلك مالك في موطئه من طريق نافع أن عمر بن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطاب كتب إلى عماله:"إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها و حافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ثم كتب: أن صلوا الظهر إذا كان الفيء ذراعا إلى أن يكون ظل أحدكم مثله، والعصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة قبل غروب الشمس. والمغرب إذا غربت الشمس، والعشاء إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، والصبح، والنجوم بادية مشتبكة"١.

نَعَم فإن الأمة التي تقيم صلاة ربها، وتعتني بها؛ ستقيم دينها، وستحافظ على حرماتها ومقدساتها، وستجاهد في الله حق جهاده، وستتنافس في إرضاء ربها تبارك وتعالى. ولعظمة هذه الصلاة وأهميتها أمرنا النبي r أن لا نؤديها كيفما اتفق، ولا كما يؤديها الأكثر من الناس، ولا كما يؤديها الآباء والأجداد، بل أمر أن تؤدى على الصورة التي أداها بها النبي r كما جاء ذلك مصرحا به في صحيح البخاري من طريق أيوب عن أبي قلابة عن مالك بن الحويرث t قال:قال رسول الله r :"صلوا كما رأيتموني أصلي" فأمر النبي r بالعناية التامة الفائقة بهذه الصلاة؛ لعلمه r بأهميتها وعظيم منزلتها عند الرب تبارك وتعالى. والآيات في بيان فضلها وأهميتها لا تكاد تحصى، فلا

١ - هذا الأثر فيه انقطاع لأن نافعا لم يدرك عمر t ولكن من المقطوع به أن نافعا هو من أجل تلاميذ عبد الله بن عمر مولاه ومثل هذا الانقطاع يمكن أن يحمل على أنه مما تلقاه نافع عن ابن عمر t . وليس كل منقطع ضعيف وقد تلقى الأئمة هذا الأثر بالقبول واحتج به مالك في موطئه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تكاد تمر سورة من سور القرآن غالبا إلا وفيها ذكر الصلاة أو منافعها أو مدلولاتها وأهميتها، والأحاديث في ذلك أيضا متكاثرة أيضا بحمد الله تعالى.

وقد جعلها الله تعالى من أعظم الأسباب المعينة على استتباب الأمن، وحصول الخيرات والبركات، ودفع الفحشاء والمنكرات١، كما قال تعالى:{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}، كما أنها من أعظم ما يعين على قضاء الحوائج، وجلب الأرزاق، ودفع الهموم والغموم، كما قال تعالى:{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}، وقوله تعالى:{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}، ولهذا بين النبي r أنها أعظم سبيل مَهْيَع يدخل به العبد الجنة كما أخرج مسلم في صحيحه من طريق الْوَلِيدُ بْنُ هِشَامٍ الْمُعَيْطِيّ: حَدّثَنِي مَعْدَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيّ قَالَ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهّ r . فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي الله بِهِ الْجَنّةَ. أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبّ الأَعْمَالِ إِلَى الله، فَسَكَتَ، ثُمّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ، ثُمّ سَأَلْتُهُ الثّالِثَةَ فَقَالَ:سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهّ r . فَقَالَ: "عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السّجُودِ لله، فَإِنّكَ لاَ تَسْجُدُ لله سَجْدَةً إِلاّ رَفَعَكَ الله بِهَا دَرَجَةً، وَحَطّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً". قَالَ مَعْدَانُ: ثُمّ لَقِيتُ أَبَا الدّرْدَاءِ فَسَأَلْتُهُ. فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ لِي ثَوْبَانُ.

---

١ - جاء في كتاب الدرر المنتثرة:[حديث:"من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا" الطبراني من حديث ابن عباس وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عمران بن حصين. وابن جرير في تفسيره من حديث ابن مسعود ومن مرسل الحسن وأحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفا].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن طريق يَحْيَىَ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: حَدّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ: حَدّثَنِي رَبِيعَةَ بْنُ كَعْبٍ الأَسْلَمِيّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهّ r ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ. فَقَالَ لِي: "سَلْ" فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنّةِ. قَالَ: "أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟" قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ:"فَأَعِنّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السّجُودِ".

وتأمل هذه الآيات: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهَّ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} [مريم: ٢٩ - ٣٤]، تأمل كيف أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله في المهد كان مما ذكر الوصية بالصلاة.

وهذا موسى وأخوه هارون عند الشدة والتضييق الفرعوني، يوصيهم الله تعالى بالصلاة، كما قال تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهَّ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللهَّ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٣ - ٨٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا شعيب عليه السلام، يَفْهَمُ قَوْمُه أن الصلاة مُؤَثِّرَةٌ على أهلها، ولها أحالوا عليها: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧].

وهذا سليمان عليه السلام يغضب، إذ انشغل بالخيل حتى غرب الشمس، كما قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: ٣٠ - ٣٣].

وها هي مريم يأتيها رزقها، وهي محراب ربها، حيث الصلاة والعبادة، وها هو زكريا يتلقى البشرة وهو قائم يصلي، كما قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران:٣٧-٣٩].

وها هي الوصية الربانية بالصلاة، تأتي من الجبار جل جلاله إلى موسى عليه السلام، وهو في ميقات ربه، كما قال تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه: ١٣ - ١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا لقمان وهو يعظ ابنه يوصيه بالصلاة، كما قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: ١٧].

والصلاة من أعظم الأسباب المعينة على تحقيق عقيدة الولاء والبراء، كما قال تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود:١١٣ - ١١٥].

وها هو نبينا يدعو على الكفار، إذ شَغَلُوهُ عن صلاة العصر، مع أنه كان في جهاد عظيم، كما في الصحيحين عَنْ عَلِيٍّ t ، عَنِ النَّبِيِّ e أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ:"مَلأَ اللهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلاَةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ".

ولما علم سلفنا الصالح هذه الأهمية العظمى، وتلك المنزلة الكبرى لهذه الصلاة؛ شمروا عن ساعد الجد، وسعوا سعيا حثيثا في إتقانها وأدائها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه؛ فعظمت منزلتهم عند الله تبارك وتعالى، وعَظُمَ حرصهم على دينهم، وحبهم لربهم، حتى إن الواحد منهم ليجد لذته العظمى ومتعته الكبرى في هذه الصلاة، ويجد فيها الراحة والطمأنينة التامة والمفزع عندما تنزل به نازلة أو يَحْزُبُه أمر عملا بقوله تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة} ومصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحمد وأبو داود من طريق مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي r قال:"يا بلال أرحنا بالصلاة"١.

وما أخرجه أحمد وأبو داود من طريق عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلي قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة:"كان رسول الله r إذا حزبه أمر صلى". حسنه الحافظ في الفتح ، وفيه ضعف لحال عكرمة ومحمد الدؤلي وجهالة في عبد العزيز. والله أعلم. لكن معناه صحيح وله شواهد من فعله r .

قال المناوي في فيض القدير:[قم فصل فإن في الصلاة شفاء من الأمراض القلبية والبدنية والهموم والغموم:{واستعينوا بالصبر والصلاة}؛ ولهذا كان النبي r إذا حزبه أمر فزع إليها، والصلاة مَجْلَبَةٌ للرزق حافظة للصحة دافعة للأذى مطردة للداء مقوية للقلب مفرحة للنفس مذهبة للكسل منشطة للجوارح ممدة للقوى شارحة للصدر مغذية للروح منورة للقلب مبيضة للوجه حافظة للنعمة دافعة للنقمة جالبة للبركة مبعدة للشيطان مقربة من الرحمن وبالجملة فلها تأثير عجيب في حفظ صحة القلب والبدن وقواهما ودفع المواد الرديئة عنهما سيما إذا وفيت حقها من التكميل فما

---

١ - لقد اخْتُلِفَ في هذا الخبر على سالم بن أبي الجعد اختلافا كثيرا، فتارة يجعله من مسند علي t ، وتارة من مسند بلال t ، وتارة عن رجل من الأنصار، ثم في هذه الطرق تختلف الواسطة بينه وبين الصحابي، وهذا يعد اضطرابا مؤثرا في الخبر؛ يمنع من قبوله، وقد أورد هذه الطرق الدارقطني في العلل وقال:(وقول عمرو بن مرة أصح). فليراجع فإنه نفيس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استدفعت أذى الدارين واستجلبت مصالحهما بمثلها وسرها أنها صلة بين العبد وربه وبقدر الوصلة يفتح الخير وتفاض النعم وتدفع النقم]ا.هـ.

بغض الشيطان للسجود:

واعلم أرشدك الله إلى حسن عبادته، أن السجود هو أشد ما يكون على الشيطان من صلاتك، لأنه يذكره بما كان سببا لطرده من رحمة الله تعالى، فهو لا يطيق منك أبدا إطالة هذا الركن العظيم، ولا يطيق ذكر الله فيه والدعاء؛ ولهذا تجد أكثر الناس لا يصبر على طول السجود، مع كثرة حوائج العباد، وعلمهم بأنهم لا غنى لهم عن الله تعالى وفضله جل الله في علاه، وعلمهم بشدة حاجتهم إلى الدعاء والتفنن فيه والتلذذ به، ولكن الشيطان قد قعد لهم يصدهم عن السبيل، وأكثر العباد قد أطاعه في ذلك، عياذا بالله من الخذلان.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا فمن مكره الشيطان بهذه الأمة؛ أنك تجد أن أكثر ما يتلاعب به الشيطان من صلاة العباد هو في هذا الركن العظيم، وتجد أن هذا الركن فيه من الأخطاء في أدائه شيئا كثيرا[1] والعياذ بالله.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ".

وفيه أيضا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَشَفَ رَسُولُ اللهِ r السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ:"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ أَلاَ وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ".

ليس لتارك الصلاة حَقٌّ في العيش الكريم:

واعلم رحمك الله، أن الأئمة المتقدمين الذين قالوا بعدم كفر تارك الصلاة؛ لعدم ارتقاء الأدلة عندهم لتكفيره، قد قرروا أنه ليس لتارك الصلاة حياة كريمة، يهنأ بها بين المؤمنين، بل هو بين قول بأنه يودع السجن حتى يتوب، وقول بأنه يقتل تعزيراً لا حَدّا، وإذا كان النبي r هم بتحريق بيوت الذين لا يشهدون الجماعة، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة، فكيف بتاركي الصلاة، وإذا هذا كذلك فأنى لتارك الصلاة الحياة

---

١ - لمعرفة كثيرا من ذلك راجع كتابي :(موسوعة الجامع الثمين لأخطاء المصلين والأئمة والمؤذنين).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكريمة في بلاد المسلمين، فتأمل؛ لتعلم البون الشاسع بين تعامل السلف والمعاصرين مع تارك الصلاة. والله المستعان.

تَارِكَةُ الصَّلَاة شَرٌّ من السَّارقَة والزَّانيَة، والتَّاركُ كَذلك:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في :(جامع المسائل لابن تيمية):[وإذا عَلِمَ الرجلُ أن المَخْطُوبَةَ لا تُصَلِّي كَانَ تزوُّجُه أشَرَّ مما إذا علِمَ أنها قَحْبةٌ أو سارقةٌ أو شاربةُ خمر، فإن تاركَ الصلاة شرٌّ من السارق والزاني باتفاق العلماء، إذْ تاركُ الصلاة سواءٌ كان رجلاً أو امرأةً يَجِبُ قتلُه عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد، والسارقُ لا يَجبُ قتله، ولا يَجبُ قتلُ الزانية التي لم تُحصن باتفاق العلماء، وإنَ كانت بكرًا بالغًا عند أبوَيها وهي لا تصلي كانت شرًّا من أن تكون قد زَنَتْ عندَهم أو سَرَقَتْ، وإذا كان الناسُ كلُّهم يُنكِرون أن يتزوَّجَ الرجلُ بسارقةٍ أو زانيةٍ أو شاربةِ خمر ونحو ذلك فيجبُ أن يكون إنكارُهم لِتزوُّجِ من لا تصلِّي أعظمَ وأعظمَ باتفاق الأئمة. فإنّ التي لا تصلي شرٌّ من الزانية والسارقة وشاربة الخمر.

وليس لقائل أن يقول: فالمسلمُ يَجوزُ له أن يتزوَّجَ اليهوديةَ والنصرانيةَ، فكيف بهذه؟ لأنَّ اليهودية والنصرانية تُقَرُّ على دينها، فلا تُقْتَل ولا تُضْرَب، وأما تاركُ الصلاة والسارق والشارب والزاني فلا يقر على ذلك، بل يُعاقَب إما بالقتلِ وإما بالقطع وإما بالجَلْد، وإن كان عقابُه في الآخرة أخف من عقاب الكافر، لكن لا يجوز لغيره أن يُقِرَّه على فسقِه، فمن أقرَّ فاسقًا على فسقِه ولم ينكر عليه كان عاصيًا آثمًا، ومن أقر ذميًا على دينه لم يكن آثمًا ولا عاصيًا، وقد قال تعالى: (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) (١) أي النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، والنساء الطيبات للرجال الطيبين، والخبيثة هي الفاجرة، فهي للرجل الخبيث الفاجر.

والخُبْثُ إنْ قيلَ المرادُ به الزنا دل على أن تزوجَ الزانيةِ لا يجوزُ حتى تتوب، وهو أصحُّ قولَي العلماء؛ لقوله تعالى: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}، ولأن النبي r نَهَى رجلاً أن يتزوَّج امرأة كان يزني بها اسمها عَنَاق[1] (٢)، وأنزَل الله هذه الآية في ذلك، ولهذا كان المتزوجُ بها مذمومًا عند عامةِ العقلاء، حتى يقال: شَتَمَهُ بالزين والقاف، أي قال له: يا زوجَ القَحْبَة. والحديثُ الذي يُروَى في الرجل الذي قال: إن امرأتي لا تَردُّ كف لامسٍ، قد ضعَّفُوه (٣)، ولا شكَّ أنَّ الزانيةَ يُخافُ منها إفسادُ الفراش، وهو من هذا الوجه شرٌّ من غيرها، بخلاف مَن كان فسقُها بغير ذلك، ولهذا يقال: ما بَغَتِ امرأةُ نبى قط، لكن عقوبةَ المرأة التي تَترك الصلاةَ أعظمُ من عقوبةِ بعض البغايا فالمتزوجُ بها يكون قد أقر في بيته من المنكرات أعظمَ من أن يُقِر عنده أختَه الزانية وبنتَه الزانية. وأما انفساخ النكاح بمجرد التركِ فلا يُحكَم بذلك، لكن إذا دُعِيَتْ إلى الصلاة وامتنعتْ

---

١ - رواه النسائي في الكبرى والمجتبى، وأبو داود في سننه واللفظ له كلاهما من طريق عُبَيْدِ اللهِ بْنِ الأَخْنَسِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الأَسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ e، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقَ؟، قَالَ:فَسَكَتَ عَنِّي، فَنَزَلَتْ:{وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ}، فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ:"لاَ تَنْكِحْهَا". قلت:وسكت عنه أبو داود، وهو صالح عنده بهذا الاعتبار، وأدخله النسائي في مُجْتَبَاهُ الذي أخرج فيه ما صَحَّ عنده؛ فالخبر صالح للاحْتِجَاج. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انفسخَ نكاحُها في أحد قولَي العلماء، وفي الآخر لا ينفسخ، لكن على الرجل أن يقومَ بما يَجبُ عليه. وليس كلُّ من وجبَ عليه أن يطلِّقَها ينفسخُ نكاحُها بلاَ فعله، بل يقال له: مرْها بالصلاة وإلاّ فَارِقْها، فإن كان عاجزًا عن ذلك لِثِقَلِ صَداقِها كان مُسِيْئًا بتزوجه مَن لا تُصلِّي على هذا الوجه، فيتوبُ إلى الله من ذلك، ويَنوِيَ أنه إذا قَدَرَ على أكثر من ذلك فَعَلَه، والله أعلم]ا.هـ.

قوله:(وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ)، تقدم معنا أن الإيمان لا يقوم ولا يُقبل حتى تقوم في القلوب عقيدة الولاء والبراء، من خلال تحقيق الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وهذه العروة الوثقى هي الفتيل الذي يُشعل، الجهاد في سبيل الله، وبه تسل سيوف الجهاد؛ حتى يفيء الناس إلى أمر الله، بعد تقديم الدعوة الناصحة لهم، فلابد من الكتاب الهادي والسيف الناصر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:["الدِّينُ النَّصِيحَةُ الدِّينُ النَّصِيحَةُ"، قَالُوا لِمَنْ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ". وَقَدْ قَالُوا لِعُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي أَهْلِ الشُّورَى: أَمِّرْ فُلَانًا وَفُلَانًا فَجَعَلَ يَذْكُرُ فِي حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ السِّتَّةِ - وَهُمْ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ - أَمْرًا جَعَلَهُ مَانِعًا لَهُ مِنْ تَعْيِينِهِ. وَإِذَا كَانَ النُّصْحُ وَاجِبًا فِي الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ : مِثْلَ نَقَلَةِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ يَغْلَطُونَ أَوْ يَكْذِبُونَ كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ : سَأَلْت مَالِكًا وَالثَّوْرِيَّ وَاللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ - أَظُنُّهُ - وَالْأَوْزَاعِي عَنْ الرَّجُلِ يُتَّهَمُ فِي الْحَدِيثِ أَوْ لَا يَحْفَظُ؟ فَقَالُوا: بَيِّنْ أَمْرَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: أَنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ فُلَانٌ كَذَا وَفُلَانٌ كَذَا. فَقَالَ: إذَا سَكَتّ أَنْتَ وَسَكَتّ أَنَا فَمَتَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُعْرَفُ الْجَاهِلُ الصَّحِيحُ مِنْ السَّقِيمِ. وَمِثْلُ أَئِمَّةِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْمَقَالَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ الْعِبَادَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ **فَإِنَّ بَيَانَ حَالِهِمْ وَتَحْذِيرَ الْأُمَّةِ مِنْهُمْ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ** حَتَّى قِيلَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَعْتَكِفُ أَحَبُّ إلَيْك أَوْ يَتَكَلَّمُ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ؟، فَقَالَ: إذَا قَامَ وَصَلَّى وَاعْتَكَفَ فَإِنَّمَا هُوَ لِنَفْسِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلْمُسْلِمِينَ هَذَا أَفْضَلُ. فَبَيَّنَ أَنَّ نَفْعَ هَذَا عَامٌّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إذْ تَطْهِيرُ سَبِيلِ اللهِ وَدِينِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَشِرْعَتِهِ وَدَفْعِ بَغْيِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْلَا مَنْ يُقِيمُهُ اللهُ لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ لَفَسَدَ الدِّينُ وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فَسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إذَا اسْتَوْلَوْا لَمْ يُفْسِدُوا الْقُلُوبَ وَمَا فِيهَا مِنْ الدِّينِ إلَّا تَبَعًا وَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ يُفْسِدُونَ الْقُلُوبَ ابْتِدَاءً. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ r :"إنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنَّهُ أَنْزَلَ الْحَدِيدَ كَمَا ذَكَرَهُ. **فَقِوَامُ الدِّينِ بِالْكِتَابِ الْهَادِي وَالسَّيْفِ النَّاصِرِ**، {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}.

وَالْكِتَابُ هُوَ الْأَصْلُ؛ وَلِهَذَا أَوَّلُ مَا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ؛ وَمَكَثَ بِمَكَّةَ لَمْ يَأْمُرْهُ بِالسَّيْفِ حَتَّى هَاجَرَ وَصَارَ لَهُ أَعْوَانٌ عَلَى الْجِهَادِ.

وَأَعْدَاءُ الدِّينِ نَوْعَانِ: الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِجِهَادِ الطَّائِفَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} فِي آيَتَيْنِ مِنْ الْقُرْآنِ. فَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُنَافِقُونَ يَبْتَدِعُونَ بِدَعًا تُخَالِفُ الْكِتَابَ وَيُلْبِسُونَهَا عَلَى النَّاسِ وَلَمْ تُبَيَّنْ لِلنَّاسِ: فَسَدَ أَمْرُ الْكِتَابِ وَبُدِّلَ الدِّينُ؛ كَمَا فَسَدَ دِينُ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ التَّبْدِيلِ الَّذِي لَمْ يُنْكَرْ عَلَى أَهْلِهِ وَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ لَكِنَّهُمْ سَمَّاعُونَ لِلْمُنَافِقِينَ: قَدْ الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ حَتَّى ظَنُّوا قَوْلَهُمْ حَقًّا؛ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَصَارُوا دُعَاةً إلَى بِدَعِ الْمُنَافِقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}.

فَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ بَيَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ ؛ بَلْ الْفِتْنَةُ بِحَالِ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ فَإِنَّ فِيهِمْ إيمَانًا يُوجِبُ مُوَالَاتَهُمْ وَقَدْ دَخَلُوا فِي بِدَعٍ مِنْ بِدَعِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي تُفْسِدُ الدِّينَ فَلَا بُدَّ مِنْ التَّحْذِيرِ مِنْ تِلْكَ الْبِدَعِ وَإِنْ اقْتَضَى ذَلِكَ ذِكْرَهُمْ وَتَعْيِينَهُمْ.

بَلْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَقَّوْا تِلْكَ الْبِدْعَةَ عَنْ مُنَافِقٍ؛ لَكِنْ قَالُوهَا ظَانِّينَ أَنَّهَا هُدًى وَأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا دِينٌ ؛ وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ لَوَجَبَ بَيَانُ حَالِهَا]ا.هـ.

الجهاد يردع الكفار ويقطعهم:

وقد تقدم الكلام عن أنواع الجهاد، وأهميته وأنه لا قوام للأمة، و لا عز ولا نصر لها إلا به، وأن هذا الجهاد من أعظم ما يخيف الكفار ويردعهم، ويرد كيدهم وبغيهم، كما قال تعالى: {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:١٣-١٥]، وقال:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } [النساء: ٨٤]، وقال:{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٥٧-٦٠].

خطورة ترك الجهاد والإنفاق عليه:

فمتى تركت الأمة ذلك؛ وقت في الهلكة والضياع، كما في صحيح البخاري قال:[باب قَوْلِهِ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. التَّهْلُكَةُ وَالْهَلاَكُ وَاحِدٌ. حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} قَالَ نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ]ا.هـ.

وفي سنن أبي داود والنسائي والترمذي من طريق أَسْلَم أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ قَالَ كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا سُبْحَانَ اللهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاَحَهَا وَتَرَكْنَا الْغَزْوَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ. قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

وفي صحيح مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:"سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ وَيَكْفِيكُمُ اللهُ فَلاَ يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ".

ويضربها الله تعالى بالذل والمهانة، كما جاء ذلك في مسند أحمد بسند لا بأس به من حديث ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ **r** قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ **r** :"يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ"، قَالَ قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ، قَالَ:"حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".

وفي الحديث الذي في مسند أحمد وسنن أبي داود وسكت عنه وفي سنده اختلاف عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ **r** يَقُولُ:"إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"؛ ولهذا حث النبي **r** على الجهاد في سبيل الله، وتكاثرت الآيات في كتاب الله بالأمر به، والثناء على أهله، حتى قال تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ١١١]، وحَرَّضَ على ذلك تبارك وتعالى، وأكد عليه، كما قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢١٦]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النساء:٧١-٧٨]، وقوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء:٨٤]، وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٦٤-٦٦]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف:١٠-١٤]، والآيات في هذه كثيرة جدا.

ومن السنة: ما جاء في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ وُهَيْبٍ الْمَكِّيِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ سُمَيٍّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ". قَالَ ابْنُ سَهْمٍ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ فَنُرَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا في سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سَبِيلِ الله إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو في سَبِيلِ الله فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ".

وعن سلمان t قال سمعت رسول الله r يقول:"رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه جري عليه عمله الذي كان يعمل وأجري عليه رزقه وأمن الفتان" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة t قال قال رسول الله r :"ما من مَكْلُومٍ يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكَلْمُه يَدْمَى اللَّونُ لَونُ دَم والرِّيحُ رِيحُ مِسْك" متفق عليه.

وعن أبي عبس عبد الرحمن بن جبر t قال قال رسول الله r :"ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار" رواه البخاري.

وعن البراء t قال: أتى النبي r رجل مقنع بالحديد فقال: يا رسول الله أقاتل أو أسلم؟ فقال:"أسلم ثم قاتل" فأسلم ثم قاتل فقتل فقال رسول الله r :"عمل قليلا وأجر كثيرا"متفق عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أنس t أن النبي r قال:"ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة" وفي رواية:"لما يرى من فضل الشهادة" متفق عليه.

وعن أبي قتادة t أن رسول الله r قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله r :"نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر" ثم قال رسول الله r :"كيف قلت" قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله r :"نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة t قال قال رسول الله r :"ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القَرْصَة"رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال سمعت أبي t وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله r :"إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف" فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله r يقول هذا؟ قال: نعم فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري t أن رسول الله r قال:"من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة" فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال:"وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما بين السماء والأرض" قال: وما هي يا رسول الله؟ قال:"الجهاد في سبيل الله الجهاد في سبيل الله" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:"إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض" رواه البخاري.

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:"من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هَيْعَة أو فَزْعَة طَارَ على مَتْنِه يَبْتَغِي القَتْل أو المَوتَ مَظَانَّه أو رجل في غُنَيْمَة أو شَعْفَة من هذه الشعف أو بطن وَادٍ من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة t قال قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال:"لا تستطيعونه" فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول:"لا تستطيعونه" ثم قال:"مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله" متفق عليه. وهذا لفظ مسلم. وفي رواية البخاري: أن رجلا قال: يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد. قال:"لا أجده" ثم قال:"هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر" فقال: ومن يستطيع ذلك.

وعن سهل بن سعد t أن رسول الله r قال:"رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" متفق عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أبي سعيد الخدري t قال: أتى رجل رسول الله r فقال: أي الناس أفضل؟ قال:"مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله" قال: ثم من؟ قال:"مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره" متفق عليه.

وعن أبي ذر t قال: قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال:"الإيمان بالله والجهاد في سبيله" متفق عليه.

وعن أنس t أن رسول الله r قال:"لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها" متفق عليه.

وعن أبي هريرة t قال: سئل رسول الله r أي العمل أفضل؟ قال:"إيمان بالله ورسوله] قيل: ثم ماذا ؟ قال:"الجهاد في سبيل الله" قيل: ثم ماذا؟، قال:"حج مبرور" متفق عليه.

وفي صحيح مسلم من طريق مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ الله عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:"أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِى وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا"، إلى غير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك من فضائل الشهداء نسأل الله أن يرزقنا الشهادة في سبيله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فلأجل هذه الأدلة المتكاثرة المتظافرة، قال النبي r :"وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله.

التواطؤ العالمي على إطفاء جذوة الجهاد، ويأبى الله:

واعلم رحمك الله أنه هذه الشعيرة، شعيرة الجهاد في سبيل الله، قد تواطأ العالم بأسره، من كفار ومشركين ومنافقين، على تعطيله، بل وإلغائه، خاصة على أمة الإسلام، بل ما أُبْرِمَت مواثيق الأمم المتحدة، المناهضة لما يسمى بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول، ولا نشرت الحريات، وعدم التفرقة بين بني الإنسان؛ إلا لإزهاق جذوة الجهاد في سبيل الله، وإلغاء عقيدة الولاء والبراء، والعجيب أن العالم كله يقاتل، وغالب الحروب دينية، ولكن ليس لدى المجتمع الدولي وأذنابه من طواغيت العرب ومنافقيهم، أدنى إشكال في ذلك، بشرط ألا يكون المقاتل هو المسلم، الذي يطالب بتطبيق الشريعة، وإقامة دولة الخلافة الراشدة، عجل الله بها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول: وعندهم كُلٌّ من حقه أن يقاتل، إلا نحن، فليس من حقنا أن نجاهد، ومتى ما رُفِعت راية للجهاد هنا أو هناك، انطلق العالَمُ بأسره، يردد وراء السَّادِن الأكبر، والزانية الكبرى أمريكا، (هذا إرهاب ولابد من الحرب ضد الإرهاب)، وكل هذه الدول متعلقة بحبل أمريكا، وكلهم يخشى الجهاد والشريعة الربانية، ومن وراء هؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شرذمة، لا تقل خبثا ومكرا، عن المرجفين في المدينة، سلطوا سهامهم الإعلامية، والفتاوى المُعَلَّبَة، الصادرة حسب الطلب، الصادر من البلاط الملكي، والقصر الجمهوري؛ ليندوا ويحذروا من الجهاديين، تحت شعارات وأعذار مختلفة، أكثرها مختلق ملفق مُدَّعَى، وبعض هؤلاء يهرف بما لا يعرف، ويركب الموجة؛ ليعزف على كل وتر، وإنْ وَتَراً صُنِعَ في أمريكا، وفُصِّلَ على أيدي طواغيت العرب؛ فَتَاهَت العقول، وأصبحت الأمة تحارب عِزَّها، ومَجْدَها، وتتنكر لجهادها، الذي سطره النبي r وأصحابه y بدمائهم، وضربوا في ذلك أروع أمثلة الصبر والمصابرة، والجهاد والمجاهدة، ولكن لعل هذا هو الزمان الذي قال فيه النبي r ، كما في سنن النسائي بسند جيد عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنت جالسا عند رسول الله r فقال رجل: يا رسول الله أذَالَ النَّاسُ الخيل، ووضعوا السلاح، وقالوا لا جهاد، قد وضعت الحرب أوْزَارَها، فَأقْبَل رسول الله r بِوَجْهِه، وقال:"كَذَبُوا الآن الآن جَاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويُزِيغُ الله لهم قلوب أقوام، ويَرْزُقُهم منهم، حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل مَعْقُودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحي إلي أني مقبوض غير مُلَبَّث، وأنتم تتبعوني أفْنَاداً يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام"[1].

---

١ - وأما حديث:(لا يزال الجهاد حلوا خضرا.الحديث) هو بهذا اللفظ لا يصح وجاء بقريب منه عن أنس ولا يصح. ومثله ما رواه أبو يعلى في مسنده أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود "رضي الله عنه" فقال: أسمعتَ رسول الله r يقول في الخيل شيئاً ؟ قال:نعم ؛ سمعت رسول الله r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام في (الاستقامة):[وسنام ذلك الجهاد في سبيل الله فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله واللائمون عليه كثير إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه وهم إما مُخَذِّلُون مُفَتِّرُون للهمة والإرادة فيه وإما مُرْجِفُون مُضْعِفُون للقوة والقدرة عليه وإن كان ذلك من النفاق، قال الله تعالى:{قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا}، وقال تعالى:{لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونكم فيها إلا قليلا}]ا.هـ.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانِ بِغيرِ ذَنْبٍ ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا

وليسَ الذنبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ ... ويأكلُ بَعْضُنَا بعضاً عيانا

يقول:(الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة اشتروا على الله واستقرضوا على الله). قيل: يا رسول الله كيف نشتري على الله ونستقرض على الله؟. قال:قولوا أقرضنا إلى مقاسمنا وبِعْنا إلى أن يفتح الله لنا، لا تزالون بخير ما دام جهادكم خضراً، وسيكون في آخر الزمان قوم يشكُّون في الجهاد، فجاهدوا في زمانهم ثم اغزوا فإن الغزو يومئذ أخضر) . وإسناده ضعيف ويغني عن ذلك ما ذكرناه في الشرح بسند جيد عن سلمة بن نفيل الكندي t ، ومن الموقوف الجيد ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني أبو هانيء حدثني شُفَيٌّ عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال:"يأتي على الناس زمان قلوبهم قلوب الأعاجم ، ما آتاهم الله من رزق جعلوه في الحيوان ، يعدون الصدقة مغرماً، والجهاد ضرارا". وروي مرفوعا ولا يصح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واليوم في مصر والشام، وفي ديار أخرى، حَرْبٌ ضَرُوس بين الإسلام والكفر، والشَّرِيعَةِ الرَّبَانِيَّة والشَّرْعِيَّةِ الدولية، وعلينا أن نعلم أنه لا مجال للتوقف، بل علينا أن نكون أبدا في خندق من رفع شعار الكتاب الهادي والسيف الناصر على سبيل المؤمنين، فتلك هي الطائفة المنصورة، التي لا يضرها من خذلها ولا من خالفها.{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٥].

ومن نفيس كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى وهو يتكلم عن فتنة التتار ووجوب قتالهم وأمثالهم من الطوائف المارقة، وكذلك المرتدة، والممتنعة عن إقامة شرائع الإسلام وشعائره، فقال في:[وطائفة كانت مسلمة فارتدت عن الإسلام وانقلبت على عقبيها من العرب والفرس والروم وغيرهم وهؤلاء أعظم جرما وعند رسوله والمؤمنين من الكافر الأصلي من وجوه كثيرة فإن هؤلاء يجب قتلهم حتما ما لم يرجعوا إلى ما خرجوا عنه لا يجوز إن يعقد لهم ذمة ولا هدنة ولا أمان ولا يطلق أسيرهم ولا يفادى بمال ولا رجال ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ولا يسترقون مع بقائهم على الردة بالاتفاق ويقتل من قاتل منهم ومن لم يقاتل كالشيخ الهرم والأعمى والزمن باتفاق العلماء وكذا نساؤهم عند الجمهور.

والكافر الأصلي يجوز أن يعقد له أمان وهدنة ويجوز المن عليه والمفاداة به أذا كان أسيرا عند الجمهور ويجوز إذا كان كتابيا أن يعقد له ذمة ويؤكل طعامهم وتنكح نساؤهم ولا تقتل نساؤهم إلا أن يقاتلن بقول أو عمل باتفاق العلماء وكذلك لا يقتل منهم إلا من كان من أهل القتال عند جمهور العلماء كما دلت عليه السنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالكافر المرتد أسوأ حالا في الدين والدنيا من الكافر المستمر على كفره وهؤلاء القوم منهم من المرتدة مالا يحصى عددهم إلا الله فهذان صنفان، وفيهم أيضا من كان كافرا فانتسب إلى الإسلام ولم يلتزم شرائعه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت والكف عن دماء المسلمين وأموالهم والتزام الجهاد في سبيل الله وضرب الجزية على اليهود والنصارى وغير ذلك، وهؤلاء يجب قتالهم بإجماع المسلمين كما قاتل الصديق مانعي الزكاة بل هؤلاء شر منهم من وجوه وكما قاتل الصحابة أيضا مع أمير المؤمنين علي t الخوارج بأمر رسول الله حيث قال r في وصفهم:"تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة"، وقال:"لو يعلم الذين يقاتلون ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل"، وقال:"هم شر الخلق والخليقة شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه"، فهؤلاء مع كثرة صيامهم وصلاتهم وقرائتهم أمر النبي بقتالهم وقاتلهم أمير المؤمنين علي وسائر الصحابة الذين معه ولم يختلف أحد في قتالهم كما اختلفوا في قتال أهل البصرة والشام لأنهم كانوا يقاتلون المسلمين فإن هؤلاء شر من أولئك من غير وجه وإن لم يكونوا مثلهم في الاعتقاد فإن معهم من يوافق رأيه في المسلمين رأي الخوارج فهذه ثلاثة أصناف، وفيهم صنف رابع شر من هؤلاء وهم قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه فهؤلاء الكفار المرتدون والداخلون فيه من غير التزام لشرائعه والمرتدون عن شرائعه لا عن سمته كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين حتى يلتزموا شرائع الإسلام وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وحتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تكون كلمة الله التي هي كتابه وما فيه من أمره ونهيه وخبره هي العليا هذا إذا كانوا قاطنين في أرضهم فكيف إذا استولوا على أراضي الإسلام من العراق وخراسان والجزيرة والروم فكيف إذا قصدوكم وصالوا عليكم بغيا وعدوانا :{ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم}.

واعلموا أصلحكم الله أن النبي قد ثبت عنه من وجوه كثيرة أنه قال:"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة"، وثبت أنهم بالشام، **فهذه الفتنة قد تفرق الناس فيها ثلاث فرق الطائفة المنصورة، وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين، والطائفة المخالفة، وهم هؤلاء القوم ومن تحيز إليهم من خبالة المنتسبين إلى الإسلام، والطائفة المُخَذِّلَة، وهم القاعدون عن جهادهم، وإن كانوا صحيحي الإسلام، فلينظر الرجل أيكون من الطائفة المنصورة، أم من الخاذلة، أم من المخالفة، فما بقى قسم رابع.**

واعلموا أن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة قال الله تعالى في كتابه:{قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين} يعنى إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة، فمن عاش من المجاهدين؛ كان كريما له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة،..... ثم ذكر أحاديث في فضل لجهاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدمت إلى أن قال:وكذلك اتفق العلماء فيما أعلم على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد[١]، فهو أفضل من الحج وأفضل من الصوم التطوع وأفضل من الصلاة التطوع.

والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة t :[لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود] فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالى عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي r وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة لمعان منها أنهم كانوا مرابطين بالمدينة فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط والأعمال بالنيات قال رسول الله:"رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم سواه فيما من المنازل" رواه أهل السنن وصححوه، وفي صحيح مسلم عن سلمان أن النبي قال:"رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا أجرى عليه عمله وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان"، يعنى: منكر ونكير، **فهذا في الرباط فكيف الجهاد.....** إلى أن قال محرضا أهل الشام ومثبتا لهم: **وَاعْلَمُوا - أَصْلَحَكُمْ اللهُ - أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا أَنْ أَحْيَاهُ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي يُجَدِّدُ اللهُ فِيهِ الدِّينَ وَيُحْيِي فِيهِ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ حَتَّى يَكُونَ شَبِيهًا بِالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.**

فَمَنْ قَامَ فِي هَذَا الْوَقْتِ بِذَلِكَ كَانَ مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

---

١ - وهذا فيه نظر فقد حكي عن الثوري وعن غير واحد من السلف وحُكِي اتفاقا أن أفضل التطوع طلب نَفْل العلم، فنفل العلم مقدم على غيره من النوافل. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعَظِيمُ. فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَّ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْمِحْنَةِ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مِنْحَةٌ كَرِيمَةٌ مِنْ اللهَّ وَهَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي فِي بَاطِنِهَا نِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ حَتَّى وَاَللهَّ لَوْ كَانَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ - حَاضِرِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ لَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِهِمْ جِهَادُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

وَلَا يَفُوتُ مِثْلُ هَذِهِ الْغُزَاةِ إلَّا مَنْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ وَسَفِهَ نَفْسَهُ وَحُرِمَ حَظًّا عَظِيمًا مِنْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ إلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ عَذَّرَ اللهَّ تَعَالَى كَالْمَرِيضِ وَالْفَقِيرِ وَالْأَعْمَى وَغَيْرِهِمْ وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَهُوَ عَاجِزٌ بِبَدَنِهِ فَلْيَغْزُ بِمَالِهِ)ا.هـ.

وقال شيخنا العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان في شريط (ألا إن نصر الله قريب):[أعظم عوامل النصر وأجل مقوماته هو:وجود المؤمنين الصادقين وقد نصر الله نبيه محمدا r يوم الغار بلا جيش ولا سلاح، ونصر الله رسوله r وأصحابه يوم بدر بالملائكة، ونصر الله رسوله r وحزبه المؤمنين يوم الأحزاب بالريح والجنود، وغير ذلك من نصر الله لجنده وحزبه بعوامل النصر الكثيرة، فالشأن كل الشأن في وجود فئة مؤمنة تفهم الإسلام فهما صحيحا، تعيش معه في كل مجالات الحياة وتقيم في ظله شعبا صادقا، يعرف الحق من الباطل والإسلام من الكفر، لا يتنازل عن عقيدته ومراميه، ولا يقبل المساومات والإغراءات للتنازل عن ذلك مهما أوذي وعذب وسجن. وما هي رزية ولا خسارة أن يؤذى أحد أو يقتل في سبيل دينه وعقيدته، والثبات على دعوته وأفكاره وأقواله، وقد توعد فرعون السحرة حين آمنوا بربهم وهددهم بالقتل فما استكانوا لفرعون وما وهنوا وما ضعفوا، ولم يكن من أمرهم إلا أن :{قالوا لن نؤثرك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض}، فالإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يلوي على الباطل ولا يتحول عن الحق مهما كان الابتلاء من الضرب والحبس أو القتل، أو الابتلاء بالسراء من الإغراءات بالمال والمنصب والجاه، فالفتن والمحن لا تزيد المؤمنين ولا سيما العلماء منهم إلا إيمانا بالله وتسليما، وقد قيل: كم من محنة انقلبت منحة، وهذا حق! فكم من عالم قتل بنوايا خبيثة ومرامي سياسية، فعاشت أفكاره وأقواله بين الناس، وأصبحت شجنة من بعده في أبناء المسلمين، والأمثلة والأدلة على ذلك كثيرة، المهم أن نقول الحق ولا نلبسه بالباطل، وأن نصدع بما نعلمه دينا وشريعة وعقيدة ومنهجا]ا.هـ.

الجهاد يوجه الطاقات ويفرغ الشحنات النفسية في الأعداء:

واعلم رحمك الله تعالى، أن في النفس البشرية من الإحَن والأضْغَان ما الله تعالى به عليم، وأن الأمة متى تركت الجهاد في سبيل الله تعالى؛ سُلِّط بعضهم على بعض؛ فعمدوا إلى تفريغ هذه الشحنات الشيطانية فيما بينهم، فوقع الاحتراب، وحصلت الشحناء والبغضاء، وصار بأسُنَا بيننا، ومتى ما قام الجهاد في سبيل الله تعالى، كان من أعظم الأسباب إلى ائتلاف المسلمين ووحدتهم وقوتهم، وتفرغت تلك الشحنات في أعدائهم؛ فصلحت الأحوال، وصدروا بخير وأمن وأمان، والله المستعان.

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في جامع المسائل لابن تيمية:[وكان النبي - r - يحضُّ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله، حتى إنه في غَزَاة تبوك حَضَّهُم، وكان المسلمون في حاجةٍ شديدة، فجاء عثمان بن عفان بألفِ راحلةٍ من ماله في سبيل الله بأَحْلاسِها وأَقْتابِها، وأعوزتْ خمسين راحلة فكمَّلها بخمسين فرسًا، فقال النبي - r - :"ما ضَرَّ عثمانَ ما فَعَلَ بعدَ اليوم".

وذمَّ الله المخلَّفين عن الغزو في سورة براءة بأقبح الذمّ حين قال:{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. وقال:{إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}.

فمن تَركَ الجهادَ عذَّبه الله عذابًا أليمًا بالذُّلّ وغيره، ونَزَعَ الأمرَ منه فأعطاه لغيره، فإن هذا الدين لمن ذَبَّ عنه.....إلى أن قال:ومتى جاهدت الأمَّةُ عدوَّها ألَّف الله بين قلوبها، وإن تركتِ الجهادَ شغَلَ بعضَها ببعض.

ومن نِعَمِ الله على الأمة أنها قد اجتمعت على ذلك في الشرق والغرب، حتى إن المؤمنين من أهل المشرق قد تحرَّكتْ قلوبُهم انتظارًا لجنود الله]ا.هـ.

وقال أيضا في (مجموع الفتاوى):[وقَوْله تَعَالَى:{إلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} قَدْ يَكُونُ الْعَذَابُ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ يَكُونُ بِأَيْدِي الْعِبَادِ فَإِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ يَبْتَلِيهِمْ بِأَنْ يُوقِعَ بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ حَتَّى تَقَعَ بَيْنَهُمْ الْفِتْنَةُ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ إذَا اشْتَغَلُوا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ جَمَعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ وَجَعَلَ بَأْسَهُمْ عَلَى عَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّهِمْ، وَإِذَا لَمْ يَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ عَذَّبَهُمْ اللَّهُ بِأَنْ يُلْبِسَهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} يَدْخُلُ فِي الْعَذَابِ الْأَدْنَى مَا يَكُونُ بِأَيْدِي الْعِبَادِ كَمَا قَدْ فُسِّرَ بِوَقْعَةِ بَدْرٍ بَعْضُ مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَذَابِ]ا.هـ.

وقال ابن حزم في كتابه:(المحلى):[وَلاَ إثْمَ بَعْدَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ إثْمِ مَنْ نَهَى، عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَأَمَرَ بِإِسْلاَمِ حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ إلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ فِسْقِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ لاَ يُحَاسَبُ غَيْرُهُ بِفِسْقِهِ]ا.هـ.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[(فصل في هديه r في الجهاد والمغازي والسرايا والبعوث): كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرة كان رسول الله r في الذروة العليا منه واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرا.

(كان الجهاد في أول الإسلام بتبليغ الحجة): وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: {ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا} فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعالى: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله قدرا. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم بـه عنـد من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل - صلوات الله عليهم وسـلامه - مـن ذلـك الحـظ الأوفر وكان لنبينا - صلوات الله وسلامه عليه - من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

(جهاد أعداء الله فرع على جهاد النفس): ولما كان جهاد أعداء الله في الخـارج فرعـا على جهاد العبد نفسه في ذات قال النبي r :"المجاهـد مـن جاهـد نفسـه في طاعـة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"؛ كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربهـا في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منـه وعـدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج .

(هناك جهاد ثالث هو جهاد الشيطان): فهذان عدوان قد امـتحن العبـد بجهادهمـا وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده وهـو واقـف بيـنهما يثـبط العبـد عـن جهادهما ويخذله ويرجف به ولا يزال يُخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظـوظ وفوت اللذات والمشتهيات ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان قال تعالى:{إن الشيطان لكم عدو فاتخـذوه عـدوا} والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يقصـر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

(جهاد هؤلاء الأعداء الثلاثة ليمتحن من يتـولاه): فهـذه ثلاثـة أعـداء أمـر العبـد بمحاربتها وجهادها وقد بلي بمحاربتها في هذه الدار وسلطت عليه امتحانا من الله لـه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابتلاء فأعطى الله العبد مددا وعدة وأعوانا وسلاحا لهذا الجهاد وأعطى أعداءه مددا وعدة وأعوانا وسلاحا وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا} وقال تعالى: {ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن لِيَبْلُوَ بعضكم ببعض} وقال تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم} فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم: {أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ثم لم يُؤَيِّسْهُم ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداووا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليه ويظفرهم بهم فأخبرهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم . وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره فإن قوي الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(معنى وجاهدوا في الله حق جهاده): وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه فإنه يعد الأماني ويمني الغرور ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا. واختلفت عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس : هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم. وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته. وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى. ولم يصب من قال إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق وحق تقاته وحق جهاده هو ما يطيقه كل عبد في نفسه وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز والعلم والجهل . فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله {هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج} والحرج الضيق بل جعله واسعا يسع كل أحد كما جعل رزقه يسع كل حي وكلف العبد بما يسعه العبد ورزق العبد ما يسع العبد فهو يسع تكليفه ويسعه رزقه وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما قال النبي r بعثت بالحنيفية السمحة أي بالملة فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل . وقد وسع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه ورزقه وعفوه ومغفرته وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة ماحية أو مصيبة مكفرة وجعل بكل ما حرم عليهم عوضا من الحلال أنفع لهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منه وأطيب وألذ فيقوم مقامه ليستغني العبد وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرا قبله ويسرا بعده فلن يغلب عسر يسرين فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلا عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه.

فصل (مراتب الجهاد): إذا عرف هذا فالجهاد أربع مراتب جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين. مراتب جهاد النفس فجهاد النفس أربع مراتب أيضا: إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين. الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها. الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله. الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مَشَاقِّ الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

فصل (مراتب جهاد الشيطان): الشيطان فمرتبتان إحداهما : جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان. الثانية جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات فالجهاد الأول يكون بعده اليقين والثاني يكون بعده الصبر.قال تعالى:{وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوقنون}، فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

فصل (مراتب جهاد الكفار والمنافقين): وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان.

فصل(جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات): وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب الأولى: باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقلبه فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق.

فصل:(شرط الجهاد): ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم}، وكما أن الإيمان فرض على كل أحد ففرض عليه هجرتان في كل وقت عز وجل بالتوحيد والإخلاص والإنابة والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والتوبة وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره والتصديق بخبره وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله وجهاد شيطانه فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل:(أكمل الخلق من كمل مراتب الجهاد وأكملهم محمد r): وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله فإنه كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل فإنه لما نزل عليه {يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر} شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهارا وسرا وجهارا ولما نزل عليه {فاصدع بما تؤمر} فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس . ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى وهذه سنة الله عز وجل في خلقه كما قال تعالى:{ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك}، وقال:{وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن}، وقال {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون}، فعزى سبحانه نبيه بذلك وأن له أسوة بمن تقدمه من المرسلين وعزى أتباعه بقوله:{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب}، وقوله {الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين}].ا.هـ.

وهكذا كان أصحاب محمد r رضي الله تعالى عنهم، ربح بيعهم لما اشترى الله منهم نفوسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فقاموا يكسرون السيوف في الجهاد في سبيل الله، كلما انكسر سيف سلوا آخر من غمده، وحالهم كما قال القائل:

ولا عَيْبَ فيهم غَير أن سُيُوفَهُم ... بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاع الكَتَائِب

ولهذا عزوا وذللنا، وسادوا وصرنا نحن إلى ما ترون، فالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال ابن القيم في (زاد المعاد في هدي خير العباد) في قصة دخول النبي r معتمرا عمرة القضية في العام الذي يلي عام الحديبية:

[وَعَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله r يَرْتَجِزُ مُتَوَشِّحًا بِالسّيْفِ يَقُولُ:

خَلّوا بَنِي الْكُفّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... قَدْ أَنْزَلَ الرّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ

فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ ... يَا رَبّ إنّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

إنّي رَأَيْتُ الْحَقّ فِي قَبُولِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَإِنَّ الرَّسُولَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَنْهَى عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ وَيَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ بِهِ، فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لله لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ فَيُصَدِّقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَ وَيَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ وَمَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدَ فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ؛ فَيُحِبُّهُ اللهُ ؛ **فَجَعَلَ اللهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ: اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ.** وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ الِاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ؛ وَمِنْ دَفْعِ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ} إلَى قَوْلِهِ : {حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ} فَتَوَعَّدَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ]ا.هـ.

الجهاد هو قَدَرُ هذه الأمة، وهي إليه صَائِرَة:

ولنعلم جميعا، أن الجهاد هو قدر هذه الأمة، وإن أرغى العَالَمُ وأزْبَد، رَضِيَ من رَضِي وسَخِطَ مَنْ سَخِط، ولو شاء الله تعالى لَنَصَرَ عباده المؤمنين بلا قتال، كما فعل مع كثير من الرسل وأتباعهم، ولكن لله في ذلك حكمة بالغة، كما قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُم} [محمد: ٤ - ١١].

ولكنه شرف ادخر الله تعالى أكثره لهذه الأمة، إذ لا يعرف في الأمم الماضية أمة مجاهدة كأمة محمد r . فاللهم لك الحمد كله، أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا.

بُشْرَيَات بِمُضِيِّ الجِهاد وبقائه:

وها هي بشريات ذلك بدأت تلوح في الأفق، بل وظهر ذلك في وضح النهار، فقد هَبَّ المجاهدون الأشاوس، يقارعون الكفر العالمي، غير عابئين بمن خذلهم، ولا من خالفهم، وهم داخلون أصالة في قول النبي r :"لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ". متفق عليه من حديث معاوية t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالجهاد ماض إلى قيام الساعة حتى يأتي أمر الله، بعز عزيز أو بذل ذليل، وإليك هـذه الأخبار التي تبين لك، أن الجهاد هو قدر هذه الأمة، وأن انتصارها سيكون به بـإذن الله تعالى، وأنه ماض باق:

ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْـزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقَ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْـلِ الأَرْضِ يَوْمَئِـذٍ فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَـاتِلْهُمْ. فَيَقُـولُ الْمُسْـلِمُونَ لاَ وَالله لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا. فَيُقَـاتِلُونَهُمْ فَيَنْهَـزِمُ ثُلُـثٌ لاَ يَتُـوبُ اللهُ عَلَـيْهِمْ أَبَـدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطُنْطِينِيَّةَ فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُـوا سُـيُوفَهُمْ بِـالزَّيْتُونِ إِذْ صَـاحَ فِـيهِمُ الشَّـيْطَانُ إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ. فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَـرْيَمَ فَـأَمَّهُمْ فَـإِذَا رَآهُ عَدُوُّ الله ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ وَلَكِـنْ يَقْتُلُـهُ اللهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ".

وفي صحيح مسلم من طريق يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ هَاجَتْ رِيحٌ حَمْـرَاءُ بِالْكُوفَـةِ فَجَـاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى إِلاَّ يَا عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتِ السَّاعَةُ. قَالَ فَقَعَدَ وَكَـانَ مُتَّكِئًـا فَقَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ. ثُمَّ قَالَ بِيَـدِهِ هَكَـذَا - وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ - فَقَالَ عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ. قُلْتُ الرُّومَ تَعْنِي قَالَ نَعَمْ وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَـالِ رَدَّةٌ شَـدِيدَةٌ فَيَشْـتَرِطُ الْمُسْـلِمُونَ شُرْطَـةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ كُـلٌّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ فَيَجْعَلُ اللهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً - إِمَّا قَالَ لاَ يُرَى مِثْلُهَا وَإِمَّا قَالَ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا - حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ كَانُوا مِائَةً فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَيُقْبِلُونَ فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً. قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله r فِي غَزْوَةٍ - قَالَ - فَأَتَى النَّبِيَّ r قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ، فَوَافَقُوهُ عِنْدَ أَكَمَةٍ، فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ الله r قَاعِدٌ - قَالَ - فَقَالَتْ لِي نَفْسِي ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ لاَ يَغْتَالُونَهُ - قَالَ - ثُمَّ قُلْتُ لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ - قَالَ - فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي قَالَ:"تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ". قَالَ فَقَالَ نَافِعٌ يَا جَابِرُ لاَ نَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وغير ذلك من الأحاديث، الواردة في هذا الباب، فالله الله بتحديث النفس بالجهـاد، والله الله بالاستعداد لذلك، فإنه أمر الله، وإنه آت لا محالة، فالثبات الثبات عباد الله.

ولنعلم أن هذا الدين منصور لا محالة، إن نصره العرب، وإلا نصره العجـم، أو من يشاء الله من عباده، إلا أن وعده سبحانه وتعالى نافذ، وكلمتـه تامـة متحققـة، والسعيد من استعمله الله تعالى، وإلا فإن الله تعالى يقول:{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨].

فاللهم أصلحنا، واستعملنا، ولا تستبدلنا.

يا أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: في ذكر أهداف الجهاد في سبيل الله:

اعلم رحمك الله تعالى، أن الله تعالى ما شرع للعباد الجهاد في سبيله، وكتبه عليهم، مع أنه كُرْهٌ لهم؛ إلا لما في ذلك من المصالح العظيمة، والخير الواسع، والنفع العميم، للعباد في معاشهم ومعادهم، ولنذكر جملة من ذلك على سبيل التذكير، لا على سبيل الاستيعاب والحصر، وإلا فإن الأمر أعظم من ذلك وأكبر:

١- إعلاء كلمة الله تعالى، حتى لا يبقى في الأرض سلطان أعلى من سلطان الله تعالى، وهذا هو المقصود الأعظم، إذ ليس المراد من الجهاد، محو الكفر وإزالته بالكلية، إذ أن هذا متعذر قطعا؛ لأن الله تعالى قضى في سنته القدرية الكونية، أن الكفر سيبقى إلى نهاية العالم الدنيوي، حيث لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، كما تقدم.

٢- التعبد لله تعالى بهذه الفريضة والشعيرة العظيمة من شعائر الإسلام.

٣- إقامة الدولة الإسلامية الممكنة في الأرض، والذود عنها، وحمايتها وأهلها ومقدراتها.

٤- تحقيق بعض معاني الابتلاء في الإيمان بالله تعالى، واتخاذ شهداء في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:١٤٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥- تقديم الآخرة على الحياة الدنيا، والتذكير بما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين، فإن الأمة متى ما برزت فيها هذه الشعيرة العظيمة؛ صارت الآخرة مقدمة عندها على الحياة الدنيا.

٦- إظهار عزة المؤمنين، ومنعتهم وقوتهم، وتربية الأمة على معاني العزة والكرامة، والأنفة عن الضيم، وتحقيق معاني الشجاعة والبسالة.

٧- تربية النفوس المؤمنة على المعاني السامية الرفيعة، ففي الجهاد في سبيل الله تظهر أسمى معاني الإيثار والتراحم، وحب الخير للعالم، وإقامة العدل في الأرض بتطبيق الإسلام، وتظهر معاني الصبر والمصابرة والمرابطة في أروع صورها العملية.

٨- إظهار ولاء المؤمنين لبعضهم، وبغضهم للكفار والبراءة منهم، وأنهم يد على من سواهم، وأن بلادهم واحدة، وأعراضهم ودمائهم وأموالهم متكافئة، فيغضبون لبعضهم، وينتصرون لإخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها، وتتربى الأمة على هذه العقيدة التي بدونها لا تقوم للإسلام قائمة في العبد، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٥٤-٥٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٩- نيل محبة الله تعالى، ببذل المُهج والنفوس رخيصة في سبيل الله تعالى، كما في الآية السابقة، وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١١١].

١٠- إزالة العوائق بين العباد وبين رؤية الحق وإبصاره؛ بالقضاء على الطاغوت الجاثم على رقاب العباد،الصَّادِّ عن سبيل الله تعالى، رغبة أو رهبة؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

١١- الغيرة على حق الله تعالى بإقامة شرعة والقضاء على ضده.

١٢- تخليص المستضعفين من أيدي الظالمين والباطشين، فكم من دم مسفوك بغير وجه حق، وكم من أسير مظلوم، وكم من عِرْضٍ مَهْتُوك، وكم من أرض سليبة، وكم من خوف ورعب عظيم مبثوث هنا أو هناك.

جاء في (أحكام القرآن) لابن العربي المالكي:[وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا}:فَإِنَّ ذَلِكَ عَامٌّ فِي النُّصْرَةِ وَالْمِيرَاثِ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ مُقِيمًا بِمَكَّةَ عَلَى إيمَانِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُعْتَدًّا لَهُ بِهِ، وَلَا مُثَابًا عَلَيْهِ حَتَّى يُهَاجِرَ.

ثُمَّ نَسَخَ اللهُ ذَلِكَ، بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَالْمِيرَاثِ بِالْقَرَابَةِ، سَوَاءٌ كَانَ الْوَارِثُ فِي دَارِ الْحَرْبِ، أَوْ فِي دَارِ السَّلَامِ؛ لِسُقُوطِ اعْتِبَارِ الْهِجْرَةِ بِالسَّنَةِ، **إلَّا أَنْ يَكُونُوا أُسَرَاءَ مُسْتَضْعَفِينَ؛ فَإِنَّ الْوِلَايَةَ مَعَهُمْ قَائِمَةٌ، وَالنُّصْرَةَ لَهُمْ وَاجِبَةٌ بِالْبَدَنِ بِأَلَّا يَبْقَى مِنَّا عَيْنٌ تَطْرِفُ حَتَّى نَخْرُجَ إلَى**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسْتِنْقَاذِهِمْ إِنْ كَانَ عَدَدُنَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ، أَوْ نَبْذُلَ جَمِيعَ أَمْوَالِنَا فِي اسْتِخْرَاجِهِمْ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ دِرْهَمٌ كَذَلِكَ.

قَالَ مَالِكٌ وَجَمِيعُ الْعُلَمَاءِ: فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى مَا حَلَّ بِالْخُلْقِ فِي تَرْكِهِمْ إِخْوَانَهُمْ فِي أَسْرِ الْعَدُوِّ، وَبِأَيْدِيهِمْ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ وَفُضُولُ الْأَحْوَالِ وَالْعُدَّةُ وَالْعَدَدُ، وَالْقُوَّةُ وَالْجَلَدُ]ا.هـ.

قلت: وهذا إذا كان ثمة قدرة على ذلك، وإلا فإن النبي r كان أصحابه بمكة يعذبون وربما قتل بعضهم، وهو لا يملك لهم سوى الدعاء والصبر والتثبيت، وكذلك لما قامت دولته r بالمدينة، وأُسِرَ بعض أصحابه، فلما لم يكن بمقدوره استنقاذهم، قَنَتَ يدعو لهم حتى فك الله أسرهم.

كما في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قال كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ حِينَ يَفْرُغُ مِنْ صَلاَةِ الْفَجْرِ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَيُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ:"سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ". ثُمَّ يَقُولُ وَهُوَ قَائِمٌ:"اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِى رَبِيعَةَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ كَسِنِي يُوسُفَ اللَّهُمَّ الْعَنْ لِحْيَانَ وَرِعْلاً وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ". ثُمَّ بَلَغَنَا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ:{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}.

قلت:ولكن لابد أن نفرق بين العَاجِزِ والمُتَعَاجِز.

١٣- إظهار قوة الإسلام وأهله، مما يكون سببا لانتشار الإسلام، فإن النفوس غالبا ما تنقاد للقوي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٤- ردع النفوس الخبيثة الفاجرة الجائرة عن غيها وضلالها، حيث لا تنفع معها المواعظ والذكرى، وكما قيل: يَزَعُ الله بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن، قال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء:٨٤].

١٥- قطع الألسنة الفاجرة المرجفة في المدينة من المنافقين وأذنابهم، فإن هؤلاء يضمحل أمرهم، ويضعف مكرهم، مع وجود الدولة الإسلامية المكنة في الأرض.

١٦- إرهاب الكفار، وتخويفهم، حتى لا يجترؤوا على ديار المسلمين، ولا أعراضهم وأموالهم ومقدراتهم، بل يحسبون لهم ألف حساب، وفي السيرة والتاريخ، أرسل خالد بن الوليد رسالة إلى كسرى قال فيها:[أسلم تسلم وإلا فقد جئتك برجال يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة]، فلما قرأها كسرى؛ خاف خوفا عظيما وارتعد، وأرسل يطلب النجدة والمدد من ملك الصين، فرد عليه ملك الصين قائلا:**(يا كسرى لا قبل لي برجال لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها)**.

وقد نُقِل أن في الدولة العثمانية كانت السفن الإسلامية إذا مرت بالموانىء الأوربية، كان الكفار في مدنهم المطلة على الشاطىء يوقفون دق أجراس الكنيسة ونواقيسها خشية استفزاز المسلمين فيغرونهم بفتح تلك المدينة. وأمثال هذه الصورة كثيرة جدا تحكي عزة المسلمين ومنعتهم.

١٧- وضع الأمور في نصابها، بأن تكون أمة الإسلام ودولته المكنة، هي الرائدة والقائدة للعالم كله، فيحصل بذلك الخير لأهل الأرض كلهم؛ لأنها الأمة التي تقضي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالحق وبه تعدل، وهي أمة الشهادة على الناس، وتأمل لما صارت قيادة العالم في أيدي الكافرين، كيف جَرَّ ذلك على العالم كله، الويلات والشرور، ما لا يمكن إحصاؤه ولا حكايته، إذ لا يعلم عظيم هذا الخطب المدلهم إلا الله تعالى، فكم من خَبَايا وخَفَايا، ورَزَايا وبَلايا، في زَوَايا الأرض وثُخُومِها، وقد أحسن أحد الكتاب لما سمى كتابه:(ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

١٨- إغاظة الكافرين والمنافقين، فإن الجهاد في سبيل الله من أغيظ ما يكون على أعداء الملة والدين، قال تعالى:{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة:١٢٠-١٢١].

١٩- تربية الأمة على روح الفداء لدين الله تعالى، وتقديم التضحيات؛ مما يدل على الصدق مع الله وتعالى، وأن الدين هو أغلى ما تملكه الأمة، وتنافح وتدافع عنه، وفيه التربية على اليقين من أن الموت أشرف ما يكون في ساحات الجهاد في سبيل الله، وأن الأمر كما قال تعالى:{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء:٧٨]، وكما قال الناظم وينسب إلى علي t :

من أي يَوْمَيَّ من الموت أَفِر ... من يوم لا يقدر أم يوم قدر

يوم لا قُدِّرَ لا أَرْهَبُه ... ومن المَقْدُورِ لا يَنْجُو الحَذِر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنت لو تأمَّلت في عدد الموتى في المستشفيات، مع ما يقع في ساحات الجهاد في سبيل الله؛ لوجدت أن الذين يموتون في المستشفيات وعلى فُرُشِهم أكثر بأضعاف مضاعفة ممن يموتون في سبيل الله، فالجهاد والنَّفِير لا يعني بالضرورة الموت، كما أن الإخلاد إلى الأرض والفِرَار لا يعني الخلود. فتأمل.

٢٠- تحصيل أحد أعظم أسباب الخيرات للعباد والبلاد، ومتى ما أعرضت الأمة عن الجهاد؛ ضربها الله تعالى بالتيه والضياع، الذي جرى على بني إسرائيل من قبل، وكما تقدم فإن هذه الأمة ستأخذ مأخذهم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة:٢٤-٢٦]، وقال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة:٤١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محبة صادقة:

إليك أخي المسلم هذا الحديث العجيب -ومثله كثير في أحوال الصحابة y -، الذي يعكس لك طرفا مما كان عليه ذلك الجيل العظيم، من المحبة الصادقة للنبي r ، والحرص الشديد الأكيد على الذب عنه والانتصار له r .

ففي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ قَالَ بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلاَمَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا. فَقَالَ يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ الله r وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لاَ يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا. قَالَ فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ فَغَمَزَنِي الآخَرُ فَقَالَ مِثْلَهَا - قَالَ - فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَزُولُ فِي النَّاسِ فَقُلْتُ أَلاَ تَرَيَانِ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلاَنِ عَنْهُ قَالَ فَابْتَدَرَاهُ فَضَرَبَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلاَهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ الله r فَأَخْبَرَاهُ. فَقَالَ:"أَيُّكُمَا قَتَلَهُ". فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَا قَتَلْتُ. فَقَالَ:"هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا". قَالاَ لاَ. فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ:"كِلاَكُمَا قَتَلَهُ". وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ، وَالرَّجُلاَنِ: مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَمُعَاذُ ابْنُ عَفْرَاءَ.

كما أن هذا الخبر يُرْشِدُك كذلك إلى طريقة التربية الإيمانية، التي كان الصحابة y يُرَبُّونَ عليها أبناءهم، فإذا كان هذا حال صغارهم فكيف بكبارهم؟!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل وكانوا يتنافسون على الجهاد في سبيل الله وهو صغر السِّنِّ، كما وفي الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ عَرَضَنِي رَسُولُ الله r يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْقِتَالِ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْنِي وَعَرَضَنِي يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي.

فالدِّينُ مُقَدَّم على كل شيء، والرِّفْعَةُ والسِّيَادَةُ أبدا لله تعالى ولرسوله r، هكذا كانوا y، فانظر إلى أحوالنا، والله المستعان.

قال الشوكاني في نيل الأوطار في معرض شرحه لحديث ابن عمر:"إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" وهو حديث فيه علة:[وقد روى الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عمر:(كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم فصاح المسلمون وقالوا سبحان الله يلقى بيده إلى التهلكة فقام أبو أيوب فقال يا أيها الناس إنكم لَتُأَوِّلُونَ هذا التأويل وإنما نزلت هذه الآية لما أعز الله الكلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرا أن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منا فأنزل الله على نبيه ما يرد علينا فقال:{ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}، فكانت التهلكة الأموال وإصلاحها وترك الغزو)، قوله:"ذلا" بضم الذال المعجمة وكسرها أي صغارا ومسكنة. ومن أنواع الذل الخراج الذي يسلمونه كل سنة لملاك الأرض وسبب هذا الذل والله أعلم أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عز الإسلام وإظهاره على كل دين عاملهم الله بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن القيم في :(طريق الهجرتين وباب السعادتين) :[الطبقة السادسة: **المجاهدون في سبيل الله**: وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله؛ ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ودفع أعدائه، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها، وإن باتوا في ديارهم، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم، فإنهم كانوا هم السبب فيه، والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر]ا.هـ.

وقال رحمه الله تعالى في كتابه:(حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) وهو يتكلم عن قول الله تعالى:{إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهَّ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١١١].

[وأَفْهَمَتِ الآية خطر النفس الإنسانية، وشرفها، وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها، فانظر إلى المشتري لها، من هو؟، وانظر إلى الثمن المبذول فيها، ما هو؟، وانظر إلى من جرى على يده عقد التَّبَايُع، فالسلعة النفس، والله سبحانه المشتري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لها، والثمن لها جنات النعيم، والسَّفِير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة، وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه:

قد هيؤك لأمر لو فَطِنت له ... فَارْبَأ بنفسك أن تَرعَى مع الهَمَل]ا.هـ.

ليس على النساء جهاد بالنفير إلى الأمصار:

إن المتأمل في هدي النبي r وأصحابه y؛ يعلم يقينا أنه ليس للمرأة أن تنفر للجهاد في سبيل الله، **مع وُجُودِ غَلَبَة الظَّن على أسْرِهَا، أو تعرضها للفتنة في عرضها، أو دينها**، وأنها ليست مخاطبة بذلك، بل ما كنت المرأة في زمانهم تخرج إلا مع محارمها إن كان الغزو مسافة سفر، ومعهم الجُنْد فَيُدَاوِينَ الجَرحى والكَلْمى، ويَسْقِينَ الجند، كما في صحيح البخاري عَنْ حَفْصَةَ قَالَتْ:كُنَّا نَمْنَعُ عَوَاتِقَنَا أَنْ يَخْرُجْنَ فِي الْعِيدَيْنِ، فَقَدِمَتِ امْرَأَةٌ، فَنَزَلَتْ قَصْرَ بَنِي خَلَفٍ، فَحَدَّثَتْ عَنْ أُخْتِهَا، وَكَانَ زَوْجُ أُخْتِهَا غَزَا مَعَ النَّبِيِّ e ثِنْتَيْ عَشَرَةَ، وَكَانَتْ أُخْتِي مَعَهُ فِي سِتٍّ، قَالَتْ كُنَّا نُدَاوِي الْكَلْمَى وَنَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى، فَسَأَلَتْ أُخْتِي النَّبِيَّ e أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ أَنْ لاَ تَخْرُجَ قَالَ:"لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا".

فتأمل في هذا الخبر كيف أنها كانت تغزوا مع زوجها، وكان ذلك في عز الإسلام ومَنَعَةِ أهله، وعليه فلا يجوز للمرأة المخاطرة بعرضها، ووقوعها في الأسر، فإن ذلك ثُلْمَةٌ في الإسلام ورَزِيَّةٌ على المسلمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا كان النبي r يأمر الرجال أن يرجعوا عن الجهاد، بعد أن اكتتبوا فيه؛ لِيَحُجُّوا مع نسائهم، حتى لا تخرج المرأة من غير محرم، كما في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ e يَقُولُ:"لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلاَ تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلاَّ وَمَعَهَا مَحْرَمٌ"، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجَتِ امْرَأَتِي حَاجَّةً قَالَ:"اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ".

قلت: فكيف بالنساء يَنْفِرْنَ، بلا محرم، مع التعرض للمخاطر؟!!، لا شك أن هذا مخالف تماما لهدي النبي r وأصحابه y.

وما كان النبي يندب النساء لذلك، بل كان يترك على النساء والصبيان والذرية أميرا بالمدينة ويخرج.

أما إذا دَهَمَ العَدُوُّ البَلْدَةَ شُرِعَ لِنِسَائِها كذلك المُدَافَعَة، أما ما نسمعه اليوم من الفتاوى من هنا أو هناك، تَحُثُّ النساء على الهجرة، والنفير العام إلى أرض الجهاد، مع ما نعلمهم من الخوف العظيم، وغلبة الظن على الأسر، وهتك العرض، فهؤلاء حَرِيٌّ بهم أن يسكتوا وأن يتقوا الله تعالى في أعراض المؤمنين والمؤمنات، بل وبعضهم من جُرْأَتِه يفتي بذلك ولو بدون محرم، عياذا بالله من الخذلان، ومن القول على الله بغير علم.

وكما تقدم معنا مرارا، ليس الشأن أن تستدل فحسب، بل القضية العظمى أن تستدل وأن تفهم الدليل على ما كان عليه النبي r وأصحابه y، فذاك هو سبيل المؤمنين الذي أُمِرْنَا به، أما تَلْفِيقُ الأدلة فُكُلٌّ يُحْسِنُه، وهذا كما تقدم سبب زيغ وضلال فئام من طوائف هذه الأمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليست القضية أن تَنْزِعَ بدليل، ثم تَطِير بـه كُـلَّ مَطَـار، وإنـما أنْ تَفْقَهَـهُ وَتُنَزِّلَـهُ في الواقع، على وِفْقِ سَبِيلِ المؤمِنِين، فَهُنَاكَ تَكُونُ النَّجَاةُ بإذن الله تعالى. والله والموفق.

وإليك بعض ما جاء في جهاد النساء، قال البخـاري رحمـه الله في صـحيحه:[(بـاب جهاد النساء). حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ إِسْـحَاقَ عَـنْ عَائِشَـةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتِ اسْـتَأْذَنْتُ النَّبِـيَّ e فِي الْجِهَـادِ فَقَالَ جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ. وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَـةَ بِهَـذَا. **حَـدَّثَنَا** قَبِيصَةُ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بِهَذَا وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ بِنْـتِ طَلْحَـةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ النَّبِيِّ e سَأَلَهُ نِسَاؤُهُ، عَنِ الْجِهَادِ فَقَالَ نِعْمَ الْجِهَادُ الْحَجُّ.

(باب غزو المرأة في البحر) حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْصَارِيِّ قَـالَ: سَـمِعْتُ أَنَسًـا t ، يَقُـولُ دَخَـلَ رَسُولُ الله e عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَتْ لِمَ تَضْحَكُ يَـا رَسُـولَ الله فَقَالَ:"نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُـونَ الْبَحْـرَ الأَخْضَرَ فِي سَـبِيلِ الله مَـثَلُهُمْ مَثَـلُ الْمُلُـوكِ عَـلَى الأَسِرَّةِ"، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ:"اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ"، ثُـمَّ عَادَ فَضَحِكَ، فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ، أَوْ مِمَّ ذَلِـكَ، فَقَـالَ لَهَـا مِثْـلَ ذَلِـكَ، فَقَالَـتِ: ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ:"أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَلَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ"، قَالَ: قَالَ أَنَـسٌ فَتَزَوَّجَـتْ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَرَكِبَتِ الْبَحْرَ مَعَ بِنْتِ قَرَظَةَ، فَلَمَّا قَفَلَتْ رَكِبَتْ دَابَّتَهَا فَوَقَصَتْ بِهَـا فَسَقَطَتْ عَنْهَا فَمَاتَتْ.

(باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه). حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ النُّمَيْرِيُّ حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ قَالَ: سَـمِعْتُ عُـرْوَةَ بْـنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ كُلٌّ، حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الْحَدِيثِ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ e إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيَّتُهُنَّ يَخْرُجُ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا النَّبِيُّ e فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ e بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ.

(باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال). حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ عَنْ أَنَسٍ t ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ، عَنِ النَّبِيِّ e قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ الْقِرَبَ - وَقَالَ غَيْرُهُ تَنْقُلاَنِ الْقِرَبَ - عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآَنِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ.

(باب حَمْلِ النِّسَاءِ الْقِرَبَ إِلَى النَّاسِ فِي الْغَزْوِ). حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ ثَعْلَبَةُ بْنُ أَبِي مَالِكٍ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ t ، قَسَمَ مُرُوطًا بَيْنَ نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ فَبَقِيَ مِرْطٌ جَيِّدٌ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطِ هَذَا ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ e الَّتِي عِنْدَكَ يُرِيدُونَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَلِيٍّ فَقَالَ عُمَرُ أُمُّ سَلِيطٍ أَحَقُّ وَأُمُّ سَلِيطٍ مِنْ نِسَاءِ الأَنْصَارِ مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللهِ e قَالَ : عُمَرُ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا الْقِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ تَزْفِرُ تَخِيطُ

(باب مداواة النساء الجرحى في الغزو). حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ e نَسْقِي وَنُدَاوِي الْجَرْحَى وَنَرُدُّ الْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(باب رد النساء الجرحى والقتلى). حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ عَنْ خَالِدِ بْنِ ذَكْوَانَ عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ e فَنَسْقِي الْقَوْمَ وَنَخْدُمُهُمْ وَنَرُدُّ الْجَرْحَى وَالْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ]ا.هـ.

المؤمن لا يرضى بالهَوَان وعِيشَة الأنْعَام:

ولنتذكر أن المسلم الحَق، الأصل فيه أنه لا يرضى إلا الحياة الكريمة، التي يحقق فيها عبادة الله تعالى على بصيرة، في الهواء الطلق، والجو الصَحْو، بعيدا عن انحرافات المبطلين، وضلالات الملبسين، وتزييف الطواغيت وتزيينهم.

ولسان حال الواحد منهم يقول:

فإمَّا حَياةٌ تُغِيظُ العِدَا...وإمَّا مَماتٌ إلى الجَنَّةِ

وهذا لا يتأتى لهذه الأمة أبدا، إلا إذا أقامت الكتاب الهادي، وحملت السيف الناصر، ولْنَحْذَر من حَيَاة عُبَّاد الدِّرهم والدينار، والذين يَرَوْنَ أن الحياة غَاية يتنازلون لأجها عن كل شيء وإن كان هو الدين، كما ضرب الله مثلا لذلك بأهل الكتاب، كما قال تعالى:{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة:٩٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا مُرَادُهم وتلك هي غَايَتُهم، الحِرْصَ، بل إنهم الأَحْرَص على حَيَاة، هكذا ذكر الله تعالى الحياة مُنَكَّرَةً، مما يدل على أنهم يريدونها مهما كان شكلها وحالهم معها، أو حالها معهم، وإن كانت عيشة دُونِيَّة.

المهم أن يكون في هذه الحياة، وإن كنت قلوبهم ميتة لا تَعْرِفُ الله تعالى، إلا معرفة على هامش الدين، يعبدون الله تعالى على حرف، مما قادهم إلى الذل والهوان بل إلى الزندقة والكفر والعياذ بالله.

وتلك هي سُنَّةُ الله تعالى في كل من تكون الدنيا غايته ومُبْتَغَاهُ، أن يضرب الله تعالى عليهم الذل والهوان، كما قال تعالى:{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران:١١٢].

وها أنت ترى أمة الإسلام قد جرى عليها شيء من هذه السُّنَّة الرَّبَانية، التي لا تُحَابِي أحدا، ولا تَقِفُ عند أحد، فَمَنْ تَنَكَّبَ صِرَاطَهَا؛ جَرَت عليه، فها هي الأمة تعيش الذُّل والهَوَان، لأنها صَارَت تَحِنُّ إلى الأرض، وتحرص على هذه الحياة، وإن تَنَازَلَت لأجلها عن شيء من دينها، حتى صار الحال إلى التحاكم إلى الطاغوت، وهكذا هي خطوات الشيطان، أنه لا يزال بالعبد حتى يقع في الكفر بالله تعالى، ثم يتبرأ منه، كما قال تعالى:{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر:١٦-١٧].

فائدة جليلة مهمة: قال شيخنا الحافظ، سليمان بن ناصر العلوان:[قولهم:لا يُفْتِي للمجاهدين قَاعِد، مقولة فاسدة، فالأئمة الأربعة، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وابن معين، وأصحاب الكتب الستة، لم يقاتلوا، وتكلموا في الجهاد]ا.هـ. قلت: على أننا كنا قد بينا آنفا في هذا الكتاب أنه لا يُسَمَّى النَّافِر بِعِلْمِه قَاعِدا أصْلا.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ). قال القاضي عياض في كتابه:(الشفا بتعريف حقوق المصطفى):[وقال بكر القشيري: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي r رحمة، وللنبي r تشريف وزيادة تكرمة، وقال أبو العالية: صلاة الله وثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء قال القاضي أبو الفضل: وقد فرق النبي r في حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة فدل أنهما بمعنيين، وأما التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر بن بكير نزلت هذه الآية على النبي r فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا على النبي r عند حضورهم قبره وعند ذكره، وفى معنى السلام عليه ثلاثة وجوه: أحدهما السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدرا كاللذاذ واللذاذة. الثاني: أي السلام على حفظك ورعايتك متول له وكفيل به ويكون هنا السلام اسم الله. الثالث أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد كما قال:{فلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}]ا.هـ.

قال ابن القيم في:(جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام):[أن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته، يصلون على رسوله فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير على قول الله تعالى: {إِنَّ اللهَّ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}:[والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا]ا.هـ.

ولا أعلم دليلا صحيحا على مشروعية الاختتام بالصلاة على النبي r ، في الكتب والمراسلات والخطب والمواعظ، والمقصود أن التعبد بذلك يفتقر إلى الدليل، فمن فعله عرضا لا بقصد السنة فلا حرج.

وأنا أقول: وآخر دَعْوَانَا، أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وجزى الله تعالى شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب عنا وعن أمة الإسلام، خير ما جزى داع عن دعوته، وإماما عن أمته، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، فكم اهتدى بعلمه من أمم، وكم فُنِّدَت من شُبْهةٍ، وكم أُزِيلَت من بِدَعٍ، فجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

وأخيراً، تأمَّل بارك الله فيك، كيف نفع الله تعالى الأمة بهذا الكتاب، القليل في كلماته الواسع في معانيه، وتأمل كم اهتدى بسببه إلى التوحيد الخالص؛ لتعلم أهمية العلم وأهله.

فيا من آتاك الله علما، اعلم أن الناس قد أعَدُّوك لِدِينِهم، وأَعَدُّوا غَيرَكَ لِدُنْيَاهُم؛ فاحمد الله تعالى أن اختارك مُؤتَمنا على دينه، فأنت أَشْرَفُ الرَّجُلَين، فَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ، واتَّقِ الله واصْبر ولا تَجْزَع، فَإن العّاقِبَةَ حَمِيدَةٌ.

واعلم أن العلم النَّافِع والخَيْرَ والوَافِرَ، هو ما كان في حِلَقِ العلم، التي تُدَار ابْتِغَاء وجه الله تعالى، لا رِيَاء ولا سُمْعَة، ولا لعرض الحياة الدنيا، فكن على حذر من المدارس والجامعات، والْزَم المساجد، حيث حِلَق العلم الداعية إلى هَدْيِ سَيِّد المرسلين وإمام المتقين ﷺ، وتأمل في هذه الآيات من سورة الطلاق:{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٢-٣]، وقوله:{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤]، وقوله:{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا } [الطلاق:٥].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال أحد الصالحين: [كُنَّا نَتَلَقَّى العلم في المساجد، فَبُنِيَت المدارس؛ فَزَالت البَرَكَةُ، ثُم وُضِعَت الكَرَاسِي؛ فَزَالَ التَّوَاضُع، ثُم وُضِعَت الشَّهَادَات؛ فَزَالَ الإِخْلَاص]، فنسأل الله العافية والسلامة.

وقد تَقَدَّمَ في أوَّلِ هذا الكتاب حَظٌّ وَافِرٌ من هذا البَيَان والتَّحْذِير، من مَدَارِس وجامعات الضِّرَار، التي أَضَرَّت بالمساجد؛ فَجَعَلَتْهَا يَبَاباً!، إلا مَا رَحِمَ رَبِّي، وأَضَرَّت بالعِلْمِ، وأَزْرَت بِه؛ فَصَارَ يُلَاحَقُ بِه النَّاس، والناس مُعْرِضُونَ عَنْهُ، إلا ما كان سَبَباً مُوْصِلاً لِشَيء من حُطَامِ هَذِه الفَانِيَةِ؛ فإنهم يُقْبِلُونَ عَلَيه، وإلا فَلا هِمَّةَ ولا نَهْمَةَ لهم فيه، فَلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واحذر من الابتداع في الدين، واعلم أنك أن تكون تابعا في الحق، خَيْرٌ لك مِنْ أنْ تَكُونَ رَأْساً في الضَّلَالَةِ، واعلم أن ما تُخَلِّفُه بَعْدَك سَيَرِثُهُ غُيْرُكَ، فَإن كَانَ خَيْراً جَرَت عَلَيكَ الحَسَناتُ مِنْهُ، وإن كان شَرّاً؛ جَرَت عليك السَّيِّئَاتُ مِنْهُ.

واعلم، أن هذا ليس خَاصَّاً بِالبِدَع، بل هو عام؛ فَرَاجِع ما كَتَبْت، وما اسْتَوْدَعْتَهُ في مَواقِع التَّواصُل الاجْتِمَاعِي على الشَّبَكَةِ العَنْكَبُوتِيَّةِ، بل وانْظُر في بَيْتِك ومَا فيه من مُخَالفات شرعية، من أغاني وأفلام وتِلْفَاز ودِجتَل، ورَاجِع جَوَّالَك كذلك، فكل هذه الشُّرُور تَرِكَةٌ سَتُخَلِّفُها بَعْدَك، نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن جميل ما نقله الشاطبي عن الغزالي في كتابه:(الموافقات) قوله:[ثم حكى عن بعضهم أن إنفاق درهم زائف أشد من سرقة مائة درهم؛ قال:(لأن السرقة معصية واحدة، وقد تمت وانقطعت، وإظهار الزائف بدعة أظهرها في الدين، وسن سنة سيئة يعمل عليها من بعده؛ فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة، ومائتي سنة، إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد ونقص من أموال الناس بسببه، وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يعذب بها في قبره، ويسأل عنها إلى انقراضها، وقال تعالى: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: ١٢]؛ أي: نكتب أيضا ما أَخَّرُوهُ مِن آثَارِ أعْمَالِهِم كما نَكْتُبُ ما قَدَّمُوهُ، ومثله قوله تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]، وإنما أَخَّرَ أثَرَ أعْمَالِه، من سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً عَمِلَ بِها غَيْرُه]ا.هـ.

فَاحْرِص على ما ينفعك، ولا أَنْفَعَ لك من طلب العلم وتَعْلِيمِه ونَشْرِه والاحْتِسَاب في ذلك، ولا تُضَيِّع وقتك في القِيلِ والقَال، والسَّفْسَطَة، ومُجَارَاةِ الأقْرَان في ثَلْبِ النَّاس وتَنَقُّصِهم، لاسِيما أهل العلم الرَّبَانِيين، الذين يَسْعَونَ في تحقيق الإيمان بالله والكفر بالطاغوت قولا وعملا، واحذر من أن تَنْشَغِلَ بما يسمى اليوم عند العَاطِلِين البَطَّالِين، بعلم الجَرْحِ والتعديل، والذي يقصدون به،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَنْصِيبَ أنفسهم طَاعِنِينَ في المجاهدين والعلماء الرَّبَّـانِيِّين، الـذين دَعَـوا إلى خَلْـعِ الطَّوَاغِيت، ووقَفُوا في خَنْدَقٍ واحد مع الجهاد وأهله.

واعلم أن انشغالك بهذا، هو من قِلَّةِ البَرَكَةِ، ومِـنَ الخُـذْلَان، كَـما أَنَّـهُ تَضْـيِيعٌ لِلْحَسَنَات، وَهَلَكَةٌ عَظِيمَةٌ والعِيَاذُ بالله.

جاء في كتاب :(سير أعلام النبلاء) للذهبي:[قَالَ اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ، وَغَيْرُهُ: كَتبَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ أَنِ اكتُبْ إِلَيَّ بالعِلمِ كُلِّهِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ العِلمَ كَثِيْرٌ، وَلَكِنْ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلقَى اللهَ خَفِيفَ الظَّهْـرِ مِـنْ دِمَاءِ النَّاسِ، خَمِيْصَ البَطنِ مِنْ أَمْوَالِهِم، كَافَّ اللِّسَانِ عَنْ أَعْرَاضِهِم، لاَزمـاً لأَمـرِ جَمَاعَتِهِم، فَافعَلْ]ا.هـ.

وقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَذُمُّونَ الكَلَامَ فِيمَا لَا يَنْفَعَ، ومَا كَان فَلْسَفَةً وتَكَلُّفاً، فَكَيْفَ بِما يَضُرُّ بِهِ العَبْدُ نَفْسَه في الدنيا والآخرة؟!.

جاء في كتاب معرفة الثقات للعجلي:[وقـال رجـل لعبـد الـرحمن –يعنـي ابـن مهدي- يا أبا سعيد لو قيل لك: ادخل الجنة بغير حساب ولا تكن لك رياسـة، أو قيل لك: تكن لك رئاسة الدنيا وأمرك إلى الله، أيهما أحب إليـك؟، قـال لـه: بـالله أسكت]ا.هـ.

والْزَم أيُّها المسلم سبيل المؤمنين وغَرْزَهُم، ولا تَتَعَدَّاهُم إلى غَيْرِهِم فَإنهم كـانوا على الحَقِّ المبين، والصِّرَاطِ القَوَيم المُسْـتَقِيم، واعلـم أن هـذا الـدين لا يَنْـتَصِرُ إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِإِقَامَتِهِ على سَبِيلِ الْمُؤْمِنِين، وأمَّا الابْتِدَاعُ فَلا يَزِيدُ الْمُسْلِمِينَ إلا ضَعْفاً وشَتَاتاً، وذُلاً وخُسْرَانا، فَلا تَتَوَهَّمَنَّ أَبَداً أنَّ البِدْعَةَ، يكون فيها نَصْرٌ لهذا الدِّين، فكن على حذر من سبيل الشياطين، وتَزْيِينِ أَهْلِ البَاطِلِ بأَهْوَائِهِم، أو من اغتر بهم، من المنتسبين إلى السنة.

قال ابن حزم في كتابه:(الفصل في الملل والأهواء والنحل):[واعلموا رحمكم الله، أن جميع فِرَقِ الضلالة، لم يُجْرِ اللهُ على أيديهم خَيرا، ولا فَتَحَ بهم مِن بِلاد الكُفْرِ قَرْيَةً، ولا رَفَع لِلإسلام رَايَةً، وما زَالُوا يَسْعَونَ في قلب نِظَامِ المسلمين، ويُفَرِّقُون كَلِمَةَ المؤمنين، ويَسِلُّونَ السَّيفَ على أهل الدِّين، ويَسْعَونَ في الأرض مُفْسِدِين، أما الخوارج والشيعة فأمرهم في هذا أشهر من أن يُتَكَلَّفَ ذِكْرُه، وما تَوَصَّلَت البَاطِنِيَّةُ إلى كَيْدِ الإسلام، وإخراج الضعفاء منه إلى الكُفْرِ إلا على الْسِنَةِ الشِّيعية، وأما المرجئة فكذلك إلا أن الحارس بن سريح خرج بن عمه منكرا للجور ثم لحق بالترك فقادهم إلى أرض الإسلام فَنَهَبَ الدِّيَار وهَتَكَ الأسْتَار، والمعتزلة في سبيل ذلك إلا أنه ابتلي بِتَقْلِيد بعضهم المعتصم والواثق، جَهْلا وظنا أنهم على شيء، وكانت للمعتصم فتوحات محمودة كبابل والمازيار وغيرهم، فالله الله أيها المسلمون، تَحَفَّظُوا بِدِينِكُم، ونحن نَجْمَعُ لَكُم بعون الله تعالى الكلام في ذلك، الْزَمُوا القرآن وسنن رسول الله r ، وما مضى عليه الصحابة y ، والتَّابِعون وأصْحَابُ الحديث، عَصْراً عَصْراً، الذين طَلَبُوا الأَثَرَ؛ فَلَزِمُوا الأَثَر، ودَعُوا كُلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبالله تعالى التوفيق]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(مجموع الفتاوى):[فَكَانَ الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ وَالْجِهَادُ عَنْ دِينِهِ سَبَبًا لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبِالْعَكْسِ الْبِدَعُ وَالْإِلْحَادُ وَمُخَالَفَةُ مَا جَاءَ بِهِ سَبَبٌ لِشَرِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]ا.هـ.

وقال الإمام ابن القيم في كتابه:(الفوائد):[قال بشر بن الحارث: أهل الآخرة ثلاثة: عَابِدٌ وزَاهِدٌ وصِدِّيق، فالعابد يعبد الله مع العَلَائِق، والزَّاهِد يعبده على تَرْكِ العَلَائِق، والصِّدِّيق يعبده على الرضا والمُوَافَقَة، إن أَرَاهُ أَخْذ الدنيا أَخَذَهَا، وإن أراه تركها تركها، إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر فإن ذلك يفضي إلى المُشَاقَّةِ والمُحَادَّةِ، وهذا أصلها، ومنه اشتقاقها، فإن المُشَاقَّة أن يكون في شِقٍّ، ومَنْ يُخَالِفُه في شِقٍّ، والمُحَادَّة أن يكون حَدّ وهو في حَدٍّ، ولا تَسْتَسْهِل هذا، فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثيره.

وكن في الجانب الذي يكون فيه الله ورسوله، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون من الجانب الآخر، ولاسيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحدا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يعده الناس ناقص العقل، سيء الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل، فأنهم نسبوهم إلى الجنون، لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر، ولكن من وَطَّنَ نفسه على ذلك، فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول، يكون يقينا له لا ريب عنده فيه، وإلى صبر تام، على مُعَادَاة من عَادَاه ولَوْمِه مَنْ لَامَه، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار والآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الدنيا، وآثَر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مَبَادِىء الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومُعَاشِريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربة، فإن صبر وثبت؛ جاءه العون من الله، وصار ذلك الصعب سهلا، وذلك الألم لذة، فإن الرَّبَّ شَكُورٌ، فلا بد أن يُذِيقَهُ لَذَّةَ تَحَيُّزِهِ إلى الله وإلى رسوله، ويُرِيهِ كَرَامَةَ ذلك، فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوته، وفرحه وسروره، ويبقى من كان محاربا له على ذلك بين هائب له، مسالم له، ومساعد، وتارك، ويقوى جنده، ويضعف جند العدو.

لا تَسْتَصْعِب مُخَالَفَة الناس والتَّحَيُّز إلى الله ورسوله، ولو كنت وَحْدَكَ فإن الله معك، وأنت بعينه وكَلَاءَتِه وحِفْظِه لك، وإنما امتحن يَقِينَكَ وَصَبْرَكَ. وأعظم الأعوان لك عليه بعد عون الله هذا بعون الله التجرد من الطمع والفزع فمتى تجردت منهما هان عليك التَّحَيُّز إلى الله ورسوله، وكنت دائما في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع، فلا تطمع في هذا الأمر، ولا تحدث نفسك به.

فإن قلت: فبأي شيء أستعين على التَّجَرُّد من الطمع، ومن الفَزَع، قلت: بالتوحيد والتوكل والثقة بالله، وعِلْمُك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيآت إلا هو، وأن الأمر كله لله ليس لأحد مع الله شيء.

نصيحة: هَلُمَّ إلى الدُّخُولِ على الله، ومُجَاوَرَتِه في دار السلام، بلا نصيب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عُمُرُكَ، وهو وَقْتُكَ الحاضر، بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه، ولا نصب ولا مُعَانَاةَ عَمَلٍ شَاق، إنما هو عمل قَلْب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك تَرْكٌ ورَاحَة، ليس هو عملا بالجوارح يَشُقُّ عليك مُعَانَاتَه، وإنما هو عَزْمٌ ونِيَّةٌ جَازِمَةٌ تُرِيحُ بَدَنَكَ وَقَلْبَكَ وسرك، فما مَضَى تُصْلِحُهُ بالتَّوبة، وما يَسْتَقْبلُ تُصْلِحُهُ بالامْتِنَاع، والعَزْم والنِّيَّة، وليس للجوارح في هَذَين نَصَبٌ ولا تَعَب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أَضَعْتَ سعادتك ونَجَاتَك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكرت؛ نَجَوْتَ وفُزْتَ بالراحة واللذة والنعيم.

وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وانفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها، وفى هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية، التي تجمع فيها الزاد لِمَعَادِك، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلا إلى ربك؛ بَلَغْتَ السعادة العظمى، والفوز الأكبر، في هذه المدة اليسيرة، التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والرَّاحَات واللهو واللعب؛ انقضت عنك بسرعة واعْقَبَتْكَ الأَلَمَ العظيم الدائم، الذي مُقَاسَاته ومُعَانَاته أَشَق وأُصْعَب وأَدْوَم من مُعَانَاة الصَّبْر عن مَحَارِم الله، والصبر على طاعته، ومخالفة الهوى لأجله]ا.هـ.

قال الإمام الدارمي في سننه أخبرنا يعلى ثنا الأعمش عن شقيق قال قال عبد الله t - يعني ابن مسعود -:(كيف أنتم إذا لَبِسَتْكُم فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِير ويَرْبُو فِيهَا الصَّغِير ويَتَّخِذُها النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَت قَالُوا غُيِّرَت السُّنَّة، قالوا: ومَتَى ذَلِكَ يا أبا عبد الرحمن؟، قَالَ: إِذَا كَثُرَت قُرَّاؤُكُم، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُم، وكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُم وقَلَّتْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُمَنَاؤُكُم والْتُمِسَتْ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخِرةِ).ا.هـ. قلت: وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه بنحوه. فاللهم احفظ علينا ديننا وأَعِنَّا ولا تَكِلْنَا إلى أَنْفُسِنَا طَرَفَة عَين.

إذَا انْقَطَعَت أَطْمَاعُ عَبْدٍ عَن الوَرَى ... تَعَلَّقَ بِالرَّبِّ الكَرِيْمِ رَجَاؤُهُ
فَأَصْبَحَ حُرّاً عِزَّةً وَكَرَامَةً ... عَلَى وَجْهِهِ أَنْوَارُهُ وَضِيَاؤُهُ
وإِنْ عَلُقَت بِالخَلْقِ أَطْمَاعُ نَفْسِهِ ... تَبَاعَدَ مَا يَرْجُو وطَالَ عَنَاؤُهُ
فَلَا تَرْجُ إلَّا اللهَ فِي الخَطْبِ وَحْدَهُ ... وَإِنْ صَحَّ فِي خِلِّ الصَّفَاءِ صَفَاؤُهُ

تم الفراغ منه بحمد الله تعالى، وتوفيقه ومَنِّهِ وكَرَمِه، في يوم الأربعاء، السادس من شهر، ربيع الأول، من عام ألف، وأربعمائة وخمسة وثلاثين (٦/١/١٤٣٥هـ)، للهجرة النبوية المباركة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فجزى الله خير الجزاء، كل من أعان على إخراج هذا الكتاب، إعانة بالفوائد، وعملا ومساهمة، وتنسيقا، ومن أعان بنصحه، أو ماله، أو إرشاده، أو بتهيئة الأجواء لكتابته وإخراجه.

والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com